سلسلة شرح متون الاعتقاد عند أئمة السلف

شرح
كتاب السنة

من مسائل حرب بن إسماعيل الكرماني ٢٨٠هـ

أ د. محمد بن خليفة التميمي



سلسلة شرح متون الاعتقاد عند أئمة السلف

شرح
كتاب السنة
من مسائل حرب بن إسماعيل الكرماني ٢٨٠هـ

أ د. محمد بن خليفة التميمي

مقدمة الشارح

الحمد لله نحمده، ونَستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، مَن يَهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحْده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: الآية: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: الآية: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: الآيتان: ٧٠ – ٧١].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وأحسنَ الهَدْي هدي محمدٍ، وشرَّ الأُمُور مُحدثاتها، وكلَّ مُحدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

فهذا شرح اعتقاد كتاب السنة من مسائل حرب بن إسماعيل الكرماني رحمه الله، وقمت– بفضل من الله وعون– في شرح عدد من متون الاعتقاد للمتقدمين من الأئمة والعلماء من أهل السنة وكان منها:

١. شرح اعتقاد سفيان الثوري (ت: ١٦١ هـ).
٢. شرح اعتقاد عبد الله بن المبارك (ت: ١٨١ هـ).
٣. شرح اعتقاد سفيان بن عيينة (ت:١٩٨ هـ)
٤. شرح وصية الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ).
٥. شرح اعتقاد الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)
٦. أصول السنة للحميدي (ت: ٢١٩ هـ).

٧. شرح اعتقاد بشر الحافي (ت: ٢٢٧ هـ).
٨. شرح اعتقاد سحنون المالكي (ت: ٢٤٠ هـ).
٩. شرح اعتقاد قتيبة بن سعيد (ت: ٢٤٠ هـ).
١٠. أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ).
١١. رسالة الإمام أحمد إلى مسدد بن مسرهد (ت: ٢٤١ هـ).
١٢. شرح اعتقاد الرازيين (أبو حاتم ت: ٢٧٧ هـ، وأبو زرعة ت: ٢٦٤ هـ).
١٣. شرح اعتقاد أهل السنة للإسماعيلي (ت: ٣٧١هـ)

وهذه السلسلة المباركة من الشروح الهدف منها تقريب تلك المؤلفات لطلاب العلم المتبعين لمنهج السلف الصالح.

ولما كانت العادة جارية عند المتقدمين من علماء السلف هي ذكر المسائل مجملة دون الدخول في التفاصيل لدواعي عدة اقتضاها المقام عندهم، ولعل من أهم هذه الأسباب كون غالبهم يدون معتقده بجمل وعبارات مختصرة يبين فيها أهم مسائل الاعتقاد وما تدعو إليه الحاجة من المسائل التي كثر فيها الخلاف مع خصوم أهل السنة مراعاة للاختصار والتركيز على ما تدعو الحاجة لبيانه دون دخول في التفاصيل التي لها مقامها الخاص بها.

ولما كانت نصوص هذا الاعتقاد الذي بين أيدينا تتكون من مسائل، وكل مسألة يمكن اعتبارها بابًا من أبواب الاعتقاد لكثرة ما تحتويه من مسائل وتفاصيل دقيقة ومهمة، فإن الشرح لها يتطلب البسط والتوسع في ذكر تفاصيل تلك المسائل بما تحتويه من تفاصيل، وهذا هو المسلك الذي سلكته في الشرح بغية الإفادة لطلاب العلم.

وأقر بتقصيري وضعفي إن كان في هذا الشرح خلل، أو قصور، أو نقص، أو خطأ، فهذا شأن طبيعة العمل البشري، فالكمال عزيز.

والله وحده أسأل أن ينفع بهذا الشرح، وأن يجعله عملًا صالحًا ولوجهه خالصًا وألا يجعل لأحد فيه شركًا.

ترجمة موجزة للإمام حرب الكرماني -رحمه الله-.

هو أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني[١] الحنظلي السيرجاني[٢] ولد في سنة ١٩٠هـ

شيوخه: سمع من أهل العلم في وقته، ومن أبرزهم: أبو داود الطيالسي، وأبو بكر الحميدي عبدالله بن الزبير، وسليمان بن حرب، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وسعيد بن منصور، وعلي بن المديني، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، وعباس بن عبدالعظيم العنبري، وأحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر النيسابوري، وأبو داود السجستاني، وأبو حاتم الرازي، وأبو زرعة الدمشقي، وغيرهم.

تلاميذه: الخلال أحمد بن محمد بن هارون صاحب كتاب "السنة" وأبو محمد بن أبي حاتم المروزي صاحب كتاب "الجرح والتعديل" والقاسم بن محمد الكرماني، وعيسى بن محمد بن سعيد، نزيل طرسوس، وعبدالله بن إسحاق النهاوندي، وعبدالله بن يعقوب الكرماني، وعمر بن الحسين بن عبدالله بن أحمد أبو القاسم الخرقي، وغيرهم.

آثاره العلمية:

١- كتاب "المسائل" ذكره ابن تيمية في "درء التعارض" ٢/ ٢٢ وابن القيم في "اجتماع الجيوش"ص ٣٥٢ وفي حادي الأرواح ٢/٨٢٧

٢- كتاب "السنة والجماعة" ذكره السجزي في رسالته إلى أهل زبيد في الحرف والصوت،ص٣٢١ والرامهرمزي في كتابه "المحدث الفاصل"ص٣٠٩ وياقوت الحموي في "معجم البلدان"٣/٢٩٦

ثناء أهل العلم عليه:

---

(١) نسبة إلى كرمان بالفتح ثم السكون وآخره نون وربما كُسِرت والفتح أشهر... وهي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدة واسعة، بين فارس ومكران، وسجستان، وخراسان اهـ "معجم البلدان٤/٤٥٤".

(٢) نسبة إلى سيرجان، وهي من أكبر أقاليم كرمان."معجم البلدان" ٣/٢٩٥



قال الخلال: كان رجلًا جليلًا، حثني المروذي على الخروج إليه.

وقال الذهبي في "العلو": كان حرب من أوعية العلم، حمل عن أحمد وإسحاق، وكان عالم كرمان في عصره، يذكر مع الأثرم والمروذي، ارتحل إليه الخلال وأكثر عنه. اهـ

وفاته: توفي سنة ٢٨٠هـ





محتويات الرسالة

- إثبات علو الله واستوائه على عرشه
- مسألة الحد
- القول في الأسماء والصفات
- إثبات صفة اليدين
- خلق آدم على صورته
- إثبات الكف لله تعالى
- إثبات القدم لله
- يخرج الله قوماً من النار بيده
- إثبات رؤية الله
- البعث والحساب
- القرآن كلام الله
- عدالة أصحاب رسول الله ﷺ والكف عما شجر بينهم
- من طعن في الصحابة فهو رافضي مبتدع
- المفاضلة بين الصحابة
- حكم من سب الصحابة
- فضل العرب
- حال حديث حب العرب إيمان
- رد ابن تيمية على الذين يبغضون العرب
- حكم البيع والتجارة
- كل أحد أحق بماله
- اتباع الكتاب والسُّنة
- ترك الرأي والقياس
- المراد بالتقليد الاتباع
- علامات أهل السُّنة
- فرقة المرجئة
- فرقة القدرية
- الجهمية
- الواقفة
- اللفظية
- الرافضة وفرقها
- الخوارج وفرقها
- الشعوبية
- أصحاب الرأي
- الولاء والبراء عند الرافضة
- الحث على التمسك بالسنة والتحذير من البدع
- علامات أهل البدع
- هجر أهل البدع





باب القول بالمذهب

[١]- قال أبو القاسم: حدثنا أبو محمد حرب بن إسماعيل، قال: هذا مذهب أئمة العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا. وأدركت من أدركتُ من علماء أهل العراق، والحجاز، والشام وغيرهم عليها. فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مخالف مبتدع خارج من الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق. وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد، وعبدالله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم ممن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم.

الشرح

من السنة لزوم الجماعة، وجاء المصنف إلى المحك لأن أهل البدع نوعان:

- نوع يزعم أن له متمسك في النصوص.
- ونوع لا يزعم بل هو لا يرضى بالنصوص.

فإذا جئت للخوارج أو جئت للتشيع أو جئت للقدرية أو جئت للمرجئة، كل واحد من هؤلاء يزعم أنه له متمسك بالنصوص لكن وفق فهمه وهواه، ووفق رأيه هو، فعلى هذا الأساس انطلق من هذا الفهم لما يراه من رأي في هذا الأمر.

فالناسُ يمكنُ تقسيمهم من حيث مرجعيتهم وأصول التلقي لديهم إلى ثلاثةِ أقسام:

· فهناك أهل الحق الذين تمسكوا بالكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة.

· هناك طوائف مالوا إلى ما يسمونه-زوراً وبهتاناً-مناهج عقلية، وهي في الحقيقةِ أوهامٌ وخيالات.

· وهناك طوائف مالوا إلى مناهجَ باطنية اعتمدت على ما يسمَّى بتقديس الأشخاص.

فالصراعُ والاختلافُ قائمٌ كما مرَّ معنا في ذكرِ النصوص الواردة في هذا والافتراقُ لابد منه، فلابد أن يتبَّصَّر الإنسان في هذا الأمر وأن يعرفَ أين يضع قدمه في هذا الباب؛ أي في باب

التأصيل لأنه من هذا المنطلق تتحدد معالمُ الاختلاف والافتراق الواقع في هذه الأمة.

وكان فهم أهل السنة في مقابل هؤلاء ففهمهم ينطلق من الجماعة، الذين هم أصحاب النبي ﷺ، ولذلك لما أخبر النبي ﷺ بافتراق هذه الأمة وقال:) افترقت اليهود، وافترقت النصارى، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فعندما سئل من؟ قال: الجماعة، وفي رواية أخرى قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي).(١)

فإذًا هذا المحك والفارق بين صاحب السنة وبين أهل هذا النوع من أهل البدع، فالمتمسك عند السني في الفهم هو الفهم الذي كان عليه أولئك، فإذا كان الخلفاء الراشدون، والمبشرون بالجنة، والذين رضي الله تعالى عنهم لم يكن فهمه الفهم الصحيح فمن سيكون فهمه صحيحًا؟!

وهذه التزكية إنما هي من قبل الله، وقبل رسوله ﷺ.

فالجماعة هم أصحاب النبي، والمصنف ينطلق في هذا الفهم وبهذا التعبير بلفظ "الجماعة" من نصوص الكتاب والسنة، فالله تعالى زكى الصحابة في كتابه فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾[التوبة:١٠٠] انظر هذا القيد، وهذا الشرط ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[التوبة:١٠٠] .فالله تعالى في هذه الآية أخبر بأنه رضي رضاء مطلقًا بدون قيد عن هؤلاء السابقين من أصحاب النبي ﷺ، ورضي عنا بقيد وهو إتباعهم، وكما قال في الآية الأخرى :﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

فإذا لم يكن أصحاب النبي ﷺ يصدق عليهم وصف الإيمان، فعلى من يصدق وصف الإيمان؟ فإذا لم يكن هؤلاء الذين قاموا بنصرة الإسلام، والقيام بشأنه ونشره شرقًا وغربًا هم أهل الإيمان، فمن يكون أهل الإيمان بعد ذلك؟!

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد باقي مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، حديث رقم (١٢٢٤٢)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح، كتاب السلسلة الصحيحة الصفحة أو الرقم ١٤٩٢ / ٤٩٠.

ولذلك خير هذه الأمة بعد نبيها أصحاب محمد ﷺ

قال ابن القيم: "قَالَ الشَّافِعِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ– فِي رِسَالَتِهِ الْبَغْدَادِيَّةِ الَّتِي رَوَاهَا عَنْهُ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ، وَهَذَا لَفْظُهُ: وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى أَصْحَابِ "رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ– فِي الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَسَبَقَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ– مِنْ الْفَضْلِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ بَعْدَهُمْ، فَرَحِمَهُمْ اللَّهُ وَهَنَّأَهُمْ بِمَا آتَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِبُلُوغِ أَعْلَى مَنَازِلِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، أَدَّوْا إلَيْنَا سُنَنَ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ–، وَشَاهَدُوهُ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فَعَلِمُوا مَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– عَامًّا وَخَاصًّا وَعَزْمًا وَإِرْشَادًا، وَعَرَفُوا مِنْ سُنَّتِهِ مَا عَرَفْنَا وَجَهِلْنَا، وَهُمْ فَوْقَنَا فِي كُلِّ عِلْمٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ وَعَقْلٍ وَأَمْرٍ اُسْتُدْرِكَ بِهِ عِلْمٌ وَاسْتُنْبِطَ بِهِ، وَآرَاؤُهُمْ لَنَا أَحْمَدُ، وَأَوْلَى بِنَا مِنْ رَأْيِنَا عِنْدَ أَنْفُسِنَا، وَمَنْ أَدْرَكْنَا مِمَّنْ يَرْضَى أَوْ حُكِيَ لَنَا عَنْهُ بِبَلَدِنَا صَارُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا لِرَسُولِ اللَّهِ –ﷺ– فِيهِ سُنَّةً إلَى قَوْلِهِمْ إنْ اجْتَمَعُوا، أَوْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ إنْ تَفَرَّقُوا، وَهَكَذَا نَقُولُ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَنْ أَقَاوِيلِهِمْ، وَإِنْ قَالَ أَحَدُهُمْ وَلَمْ يُخَالِفْهُ غَيْرُهُ أَخَذْنَا بِقَوْلِهِ "وَلَمَّا كَانَ رَأْيُ الصَّحَابَةِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ قَالَ فِي الْجَدِيدِ فِي كِتَابِ الْفَرَائِضِ فِي مِيرَاثِ الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ: وَهَذَا مَذْهَبٌ تَلَقَّيْنَاهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَعَنْهُ أَخَذْنَا أَكْثَرَ الْفَرَائِضِ وَقَالَ: وَالْقِيَاسُ عِنْدِي قَتْلُ الرَّاهِبِ لَوْلَا مَا جَاءَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، فَتَرْكُ صَرِيحِ الْقِيَاسِ لِقَوْلِ الصِّدِّيقِ، وَقَالَ فِي رِوَايَةِ الرَّبِيعِ عَنْهُ: وَالْبِدْعَةُ مَا خَالَفَ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً أَوْ أَثَرًا عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ–، فَجَعَلَ مَا خَالَفَ قَوْلَ الصَّحَابِيِّ بِدْعَةً، وَسَيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إشْبَاعُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَذِكْرُ نُصُوصِ الشَّافِعِيِّ عِنْدَ ذِكْرِ تَحْرِيمِ الْفَتْوَى بِخِلَافِ مَا أَفْتَى بِهِ الصَّحَابَةُ، وَوُجُوبُ اتِّبَاعِهِمْ فِي فَتَاوِيهِمْ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ جُمْلَةِ أَقْوَالِهِمْ، وَأَنَّ الْأَئِمَّةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَلِكَ.

[لَيْسَ مِثْلَ الصَّحَابَةِ أَحَدٌ]

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ لَا يُسَاوِيهِمْ فِي رَأْيِهِمْ، وَكَيْفَ يُسَاوِيهِمْ وَقَدْ كَانَ أَحَدُهُمْ يَرَى الرَّأْيَ فَيَنْزِلُ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ؟ كَمَا رَأَى عُمَرُ فِي أُسَارَى بَدْرٍ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، وَرَأَى أَنْ تُحَجَّبَ نِسَاءُ النَّبِيِّ –ﷺ– فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، وَرَأَى أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلَّى فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ؛ وَقَالَ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ –ﷺ– لَمَّا اجْتَمَعْنَ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ ﴿**عَسَى**

رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [التحريم: ٥] فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، (وَلَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ-لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ-فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: **﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾** [التوبة: ٨٤]).

(وَقَدْ قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لَمَّا حَكَّمَهُ النَّبِيُّ-ﷺ-فِي بَنِي قُرَيْظَةَ: إِنِّي أَرَى أَنْ تُقْتَلَ "مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذُرِّيَّاتُهُمْ، وَتُغْنَمَ أَمْوَالُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ-ﷺ-: لَقَدْ حَكَمْت فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ).

وَلَمَّا اخْتَلَفُوا إلَى ابْنِ مَسْعُودٍ شَهْرًا فِي الْمُفَوَّضَةِ قَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ، وَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيءٌ مِنْهُ، أَرَى أَنَّ لَهَا مَهْرَ نِسَائِهَا لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، فَقَامَ نَاسٌ مِنْ أَشْجَعَ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ-ﷺ-قَضَى فِي امْرَأَةٍ مِنَّا يُقَالُ لَهَا بِرْوَعَ بِنْتُ وَاشِقٍ مِثْلَ مَا قَضَيْت بِهِ، فَمَا فَرِحَ ابْنُ مَسْعُودٍ بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُ بِذَلِكَ.

وَحَقِيقٌ بِمَنْ كَانَتْ آرَاؤُهُمْ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ أَنْ يَكُونَ رَأْيُهُمْ لَنَا خَيْرًا مِنْ رَأْيِنَا لِأَنْفُسِنَا، وَكَيْفَ لَا وَهُوَ الرَّأْيُ الصَّادِرُ مِنْ قُلُوبٍ مُمْتَلِئَةٍ نُورًا وَإِيمَانًا وَحِكْمَةً وَعِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَفَهْمًا عَنْ اللَّهِ "وَرَسُولِهِ وَنَصِيحَةً لِلْأُمَّةِ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِمْ، وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَهُمْ يَنْقُلُونَ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ غَضًّا طَرِيًّا لَمْ يَشُبْهُ إشْكَالٌ، وَلَمْ يَشُبْهُ خِلَافٌ، وَلَمْ تُدَنِّسْهُ مُعَارَضَةٌ، فَقِيَاسُ رَأْيِ غَيْرِهِمْ بِآرَائِهِمْ مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ"(١)

قال ابن تيمية: كان الزُّهْرِيُّ يَقُولُ":كَانَ عُلَمَاؤُنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ هُوَ النَّجَاةُ"(٢)

وَقَالَ مَالِكٌ "السُّنَّةُ سَفِينَةُ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ"(٣).

---

(١) إعلام الموقعين ١ / ٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٧).

(٣) ذم الكلام للهروي (٥/ ٨١) وانظر مجموع الفتاوى (٤/ ٥٧).

وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالشَّرِيعَةَ وَالْمِنْهَاجَ: هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُوَصِّلُ الْعِبَادَ إِلَى اللَّهِ. وَالرَّسُولُ: هُوَ الدَّلِيلُ الْهَادِي الْخِرِّيتُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب ٤٥] .وَقَالَ تَعَالَى :﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى ٥٢،٥٣] وَقَالَ تَعَالَى :﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام ١٥٣]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: (هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ)، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: (هَذِهِ سُبُلٌ –قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ– عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ) .ثُمَّ قَرَأَ :﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام ١٥٣] [١]"[٢]

والجماعة هي من جمعت أربع خصال:

١–الإجماع.

٢–عدم الفرقة.

٣–المنهج المتبع.

٤–القدوة.

والطائفة الناجية قد توفرت فيها هذه الأمور، فهي مجتمعة على الحق المدلول عليه بنصوص الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، وهي غير متفرقة لاعتقادها لزوم الاجتماع على إمام، وهي ذات منهج واضح المعالم محدد الغاية، وقدوتهم هم أفضل وخيار هذه الأمة؛ وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان ممن رفع الله مقامهم وأعلى قدرهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٤١٤٢) (٧/ ٢٠٧) وقال الألباني صحيح انظر، السنة لابن أبي عاصم (ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم: محمد ناصر الدين الألباني) (١/ ١٣)

(٢) مجموع الفتاوى٤ / ٥٦–٥٧

الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[التوبة: ١٠٠].

وقال عنهم النبي ﷺ:)خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم(.[١]

وقال عنهم لما سئل من هي يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي([٢]

وكل هذا يؤول إلى قوله ﷺ:)من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي(. وفي رواية:)هي الجماعة[٣].(

فالأساس الذي تبنى عليه الجماعة هم أصحاب محمد ﷺ، رضي الله عنهم ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، والنبي ﷺ قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)[٤] فأمرنا بلزومها والتمسك بها.

وحذرنا (وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)[٥] و(كل) من ألفاظ العموم، كل بدعة ضلالة، فهل تريد لزوم الحق أو لزوم الضلال، فماذا بعد الهدى إلا الضلال! فهذا عمر كما جاء في الأثر عنه: "لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة" لأن الأمور قد بينت والنبي ﷺ أوضح لنا الطريق، وأقام علينا الحجة، فلا حجة لمحتج، الحق بين واضح وما على الإنسان إلا أن يسلكه، وأن يسير عليه.

وأهل البدع قد يكون سبب بدعهم كثيرة، فهناك الجهل، وهناك اتباع الهوى، وهناك أسباب أخرى من أسباب البدع لكن لا عذر لأولئك لأن هذا الدين في غاية من الوضوح، وفي غاية من البيان، فلذلك السنة والجماعة قد أحكما أمر الدين كله، فإذا لزمت الجماعة فأنت على

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: سـنن أبي داود أول كتاب السـنة، باب: في لزوم السُـنة، رقم (٤٦٠٧) وقال الشـيخ الألباني حديث صـحيح في كتاب السلسلة الصحيحة، الصفحة / الرقم: ٦١٠، ٩٣٧.

(٥) تقدم تخريجه.

السنة.

وفي هذه المقدمة بين المصنف أن مصدر التلقي واضح وهو كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وهذا لا يتأتى إلا وفق فهم السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين.

قول المصنف-رحمه الله-: " فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مخالف مبتدع خارج من الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق. وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد، وعبدالله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم ممن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم،

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى الجماعة.

أ-تعريف الجماعة لغة:

١-أصل الكلمة: من مادة (جمع)، قال ابن فارس: (الجيم والميم والعين أصل واحد يدل على تضامّ الشيء)[١].

٢-تصاريفها: الجماعة: مصدر جمع من باب منع. يقال: جمعت الشيء جمعا. وأجمعت على الأمر إجماعا وأجمعته وجماعة. خلاف التفريق.[٢]

٣-استعمالاتها ومعانيها: لهذه الكلمة استعمالات متعددة في لغة العرب منها:

الجماعة: يطلق من كل شيء على القليل والكثير وأجمعوا على الأمر: اتفقوا عليه.

جمع: مكة، سمي لاجتماع الناس به، وجمعت الشيء: إذا جئت به من هاهنا وهاهنا.

وإذا أردت جمع المتفرق قلت: جمعت القوم فهم مجتمعون، قال تعالى:﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود ١٠٣]

تَجمَّع القوم: اجتمعوا أيضا من هاهنا وهاهنا. والجميع: ضد المتفرق.

وأجمع أمره: أي جعله جميعا بعد ما كان متفرقا.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (جمع).

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (جمع).

اجتمع: اجتمع السيل من كل موضع. فلاة مجتمعة: يجتمع فيها الناس ولا يتفرقون خوف الضلال.

استجمع الفرس جريا.[(١)]

الخلاصة: هذه المعاني كلها متقاربة تنصب في معنى واحد كما قال ابن فارس (يدل على انضمام الشيء).

وتدل على من يجمعهم غرض واحد، وهو ضد التفرق والتشتت في الضلال.

ب. تعريف الجماعة في الاصطلاح الشرعي:

المسألة الأولى: ورود لفظ (الجماعة) في الشرع:

أولًا: السنة: ومنه

- قول النبي ﷺ:)تلزم جماعة المسلمين([(٢)] في حديث

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال :كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال:)نعم(.

قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟

قال:)نعم، وفيه دخن[(٣)]. (

قلت: وما دخنه؟

قال:)أقوام يهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر(

---

(١) يراجع معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ج١ / ٤٨٠. مادة (جمع). اللســان مادة (جمع) المصــباح المنير مادة (جمع). والغرب في ترتيب المعرب مادة (جمع).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ج١٣ / ٣٨ ح(٧٠٨٤) كتاب الفتن باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة.

(٣) دخن: بالمهملة ثم المعجمة المفتوحتين بعدها نون: هو الحقد، وقيل: فساد القلب –فتح الباري (١٢ / ٣٢).

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال:)نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها (.

قلت: يا رسول الله صفهم لنا.

قال:)هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا (.

- قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

قال:)تلزم جماعة المسلمين وإمامهم (.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال:)فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[(١)]. (

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:)نضر[(٢)] الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل[(٣)] عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم[(٤)] (

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح كتاب المناقب ح: ٣٦٠٦، كتاب الفتن، ح ٧٠٨٤، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، ح ١٨٤٧).

(٢) قال العراقي: روي مشـددا ومخففاً ومعناه: ألبسـه النضـرة، وخلوص اللون، يعني: جمله الله وزينه، انظر: فتح القدير، للمناوي (٦ / ٢٨٦)

(٣) قال ابن الأثير: هو من الأغلال: الخيانة في كل شـيء، يعني بضـم الياء-قال: ويروى بفتح الياء من الغل، وهو الحقد والشـحناء، أي لا يدخله حقد يزيله عن الحق، النهاية (٣ / ٣٨)

(٤) أخرجه الترمذي في ســـننه (كتاب العلم، ٢٦٥٨). قال: حدثنا ابن أبي عمر حدثنا ســـفيان عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، فذكره.

وأخرجه الشافعي في الرسالة (٤٠١)، عن سفيان به، وصحح سنده الألباني في تخريج المشكاة مع المشكاة (١ / ٧٨).

وأخرجه الحاكم معرفة علوم الحديث (٣٢٢) من طريق الشـافعي به. وأخرجه الترمذي في السـنن (كتاب العلم، ح ٢٦٥٧) وابن ماجة في السنن (المقدمة، ح٢٣٢) من طريق سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله به مختصراً، وليس فيه (ثلاث عليهن... الخ). وقال

=

- ومنه قوله ﷺ: (من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية.(

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي قال:)من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية(١).(

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية (٢)؛ يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية، ومن خرج من أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهد بعهده، فليس مني، ولست منه(٣)

الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال الدكتور حافظ بن محمد الحكمي في كتابه الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة ص١٤: الحديث صحيح لشواهده، ففي سنده شيخ الترمذي ابن أبي عمر العدني، قال ابن حجر في التهذيب: (وثقه ابن معين والدارقطني، وقال أبو حاتم: فيه غفلة، وكان صدوقاً).

وقال ابن حجر في التقريب: (صدوق).

وسفيان هو ابن عيينة الإمام المشهور. وعبد الله بن عمير ثقة من رجال الشيخين؛ قال ابن حجر: (تغير حفظه وربما دلس).

وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ثقة من رجال الشيخين، لكن للحديث شواهد كثيرة؛ فقد روى الحديث جمع من الصحابة، منهم: زيد بن ثابت.

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب الفتن، ح ٧٠٥٤، كتاب الأختام ح ٧١٤٣، صحيح مسلم (كتاب الإمارة ح ١٨٤٩. والحديث أخرجه البخاري ومسلم كلاهما من طريق حماد بن زيد، من الجعد، عن أبي رجاء العطاردي، عن ابن عباس. (فذكره). وهذا لفظ البخاري، وعند مسلم بنحوه.

وأخرجاه من طريق عبد الوارث عن الجعد، به بلفظ: (من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية)، وهذا لفظ البخاري، ومسلم بنحوه.

(٢) عمية: قال النووي: كذا ضبطناه عن أشياخنا في صحيح مسلم بكسر العين والميم وتشديد الياء وفتحها، وضبطته في كتب اللغة على أبي الحسين بن سراج بالوجهين. الضم والكسر في العمل، والمعنى: أنها كالأمر الأعمى لا يتبين وجهه، حكاه عن الإمام أحمد، وأشار إلى تفسيرها في الحديث نفسه. مشارق الأنوار (٢/ ٨٨)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة) ١٨٤٨) عن شيبان بن فروخ، حدثنا جرير، -يعني ابن حازم- حدثنا غيلان بن جرير، عن أبي قيس بن رباح، عن أبي هريرة (فذكره).

=

- عن عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإن الشـــيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة).(١)

- وأخرجه أحمد" عن يزيد بن هارون، عن جرير، به، مثله.
- وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة) ١٨٤٨) وابن أبي عاصم في السنة ١ / ٤٣، ح ٩٠، ٢ / ٥٠٦، ١٠٦٤ من طريق مهدي بن ميمون، عن غيلان،
- وأخرجه النسـائي في السـنن، كتاب الدم (باب التغليظ فيمن قتل تحت راية عميه) ٧ / ١٢٣)، وأحمد من طريق أيوب، عن غيلان، به.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١ / ٤٢ عن إسماعيل بن سالم

- والترمذي عن أحمد بن منيع كلاهما عن النضـر بن إسماعيل أبي المغيرة، حدثنا محمد بن سـوقة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر (فذكره).
- وهذا لفظه عند ابن أبي عاصم، وهو عند الترمذي في سياق حديث طويل.
- وقال الترمذي في سننه (كتاب الفتن، ٢١٩٠): هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر، عن النبي ﷺ.
- وقال الألباني: (حديث صحيح، رجال ثقات غير النضر بن إسماعيل أبي المغيرة، فإنه ليس بالقوي وقد توبع).
- قال الدكتور حافظ حكمي في كتابه الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة ص ١٩-٢٢: "النضـــر بن إسماعيل قد اختلف فيه، فقال أبو زرعة والنسائي: ليس بالقوي.
- وقال الإمام أحمد: ليس بقوي يعتبر بحديثه؛ ووثقه غيرهم فقال العجلي ثقة:
- وقال الدارقطني: صالح، وقال ابن عدي: أرجو أن لا بأس به. واختلف فيه؛ قول ابن معين فمرة قال: ليس بشيء، وعنه: قال صدوق. انظر: تهذيب التهذيب ١٠ / ٤٣٤.
- والذي يظهر أن أقل أحواله أن حديثه حسـن لغيره، فقد تابعه ابن المبارك كما أشـار الترمذي والألباني وهذه المتابعة عند الإمام أحمد في المسند (١ / ١٨) قال: حدثنا علي بن إسحاق أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا محمد بن سوقة به. بأطول من سياق ابن أبي عاصم.
- وهذا الإسناد صحيح شيخ الإمام أحمد علي بن إسحاق السلمي ثقة، وكذا بقية رجاله ثقات.
- وأخرجه الحاكم في المستدرك (١ / ١١٤) من طرق، عن عبد الله بن المبارك به، مطولا. وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين؛ فإني لا أعلم خلافا بين أصحاب ابن المبارك في إقامة هذا الإسناد، ولم يخرجاه." المصدر: الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة للدكتور حافظ حكمي. ص ١٩-٢٢.
- ووافقه الذهبي في تلخيص المستدرك على المستدرك (١ / ١١٤)، وقال الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم مع السنة (١ / ٤٣): وهو كما قال.

- عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: (الجماعة رحمة والفرقة عذاب)(١)
- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (إن الله لا يجمع أمة محمد على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار)(٢).

ثانياً: في الآثار:

- فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران ١٠٦]
- قال: "تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة"(٣).
- سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة، فقال :"عليك بالجماعة فإن الله لم يكن ليجمع

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١ / ٤٤)، قال: حدثنا ابو يحي محمد بن عبد الرحيم، ثنا يونس بن محمد، عن أبي، عن وكيع، عن القاسم بن الوليد الشعبي، عن النعمان بن بشير، فذكره.

- وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٤ / ٢٧٨)، عن منصور بن أبي مزاحم، عن يحي بن عبد الرحمن مولى بني هاشم كلاهما عن أبي وكيع، به في حديث.
- وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤ / ٣٧٥)" عن يحي بن عبد الرحمن مولى بني هاشم به، بلفظ الإمام أحمد.
- وفي سند الحديث أبو عبد الرحمن القاسم بن الوليد، وثقه ابن معين وابن سعد. وقال العجلي: ثقة، وهو في عداد الشيوخ (تهذيب التهذيب ٨ / ٣٤)، وذكره ابن حبان في الثقات (٧ / ٣٣٨)، وقال: يخطئ ويخالف. وقال ابن حجر في التقريب: صدوق يغرب.
- وقال الألباني في (الصحيحة ح ٤٤٧ وفي صحيح الترغيب ح٤٠٥): " فيه كلام لا ينزل عن رتبة الحسن وحسن سنده" انظر: (تخريج السنة لابن أبي عاصم ١ / ٤٥) المصدر في التخريج: (كتاب الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة للدكتور حافظ حكمي. ص ٢٢ - ٢٣)

(٢) أخرج الترمذي في سننه (كتاب الفتن ح ٢١٦٧): قال: حدثنا أبو بكر بن نافع البصري حدثني المعتمر بن سليمان، حدثنا سليمان المدني، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر (فذكره).

- وأخرجه الحاكم في المستدرك (١ / ١١٦) من طريق أبي بكر بن نافع به.
- وقال الترمذي: (هذا حديث غريب من هذا الوجه، وسليمان المدني هو سليمان بن سفيان، وقد روى عنه أبو داود الطيالسي وأبو عامر العقدي وغير واحد من أهل العلم.
- انظر: كتاب الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة للدكتور حافظ حكمي ص: ٢٤-٣٠.

(٣) تفسير ابن كثير ج١ / ٣٦٩.

أمة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر. وقال: إياك والفرقة فإن الفرقة هي الضلالة.

- وقال ابن مسعود "عليك بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أمر به. ثم قبض يده وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة"[(١)]

المسألة الثانية: معانيها.

ذكر العلماء لمعنى لفظ الجماعة عدة معان تدور جميعها على أحد أمرين:

الأمر الأول: الجماعة في أمر الدين (وهي الجماعة العلمية)، ومن ذلك قولهم:

الجماعة: هم الصحابة رضوان الله عليهم.

الجماعة: أهل العلم لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تبع لهم في أمر الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن تعريف الجماعة اعتبار أمر الدين: "جماعة المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة وبما كان عليه السلف الصالح ويؤثرون كلام الله على كلام كل أحد، ويقدمون هدي رسول الله على هدي كل أحد، ومتعاونين على البر والتقوى متحدين على الحق متراحمين فيه"[(٢)].

الأمر الثاني: الجماعة في أمر الإمامة العظمى، أو ما يسمى الجماعة السلطانية وهي أمور الخلافة والولاية.

ومن ذلك قولهم:

الجماعة: الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره.

---

(١) الاعتصام (٢ / ٧٧٠).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ج٣ /١٥٧.

وانظر:

- كتاب وجوب لزوم الجماعة وترك الفرقة لجمال أحمد بادي رسالة جامعية ماجستير ص ٨٨-٩٧.
- وكتاب المراد الشرعي بالجماعة للدكتور صالح بن عبد الله العبود ص ٣٢.
- وكتاب الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة دراسة حديثية فقهية للدكتور حافظ بن محمد الحكمي.

الجماعة: السواد الأعظم.

والسبب في هذا التنوع في تعريف الجماعة هو أن الناس تبع لأمرائهم وعلمائهم، فهم يتبعون أمراءهم فيما لهم سلطة فيه؛ وهم كذلك تبع لعلمائهم في أمر الدين.

فنجد أن هذه الأقوال كلها متقاربة وهي من باب اختلاف التنوع.

قال الشاطبي: " فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية، سواء خالفهم:

- في شيء من الشريعة.
- أو في إمامهم وسلطانهم .

فهو مخالف للحق. وممن قال بهذا أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود، فروى أنه لما قتل عثمان

- سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة، فقال: "عليك بالجماعة فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر. وقال: إياك والفرقة فإن الفرقة هي الضلالة".
- وقال ابن مسعود "عليك بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أمر به. ثم قبض يده وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة"[١].

المسألة الثالثة: معنى الافتراق

أولاً: معنى الافتراق

أولا ـ تعريف الفرقة لغة وشرعا

أ–تعريف الفرقة لغة

١–أصل الكلمة: من مادة (ف ر ق).

---

(١) الاعتصام (٢ / ٧٧٠)

• قال ابن فارس: الفاء والراء والقاف أُصَيل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين[١]

٢-تصاريفها: الفرقة بالضم: مصدر الافتراق. وهو اسم يوضع موضع المصدر الحقيقي من الافتراق، وفارق الشيء مفارقة: باينه، والاسم: الفرقة. خلاف الجمع.[٢]

وتفرق تفرقاً وتِفِرَّاقاً: ضد التجمع، كافترق[٣]

٣-معانيها: لهذه الكلمة استعمالات متنوعة في لغة العرب منها:

الفرْق: خلاف الجمع. فرقه يفْرقُه فَرقاً، وفرّقه، وقيل: فَرَقَ للصلاح فَرْقًا، وفرَّق للإفساد تفريقا.[٤]

التفرق والافتراق سواء.

ومنهم من يجعل التفرّق للأبدان. والافتراق في الكلام. ويقال: فرَقت بين الكلامين فافترقا. وفرّقت بين الرجلين. فتفرّقا[٥]

والتفرق: الانقسام والانشقاق والفَرْقُ: القِسْم، والجمع أفراق. ومنه قوله تعالى :﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾] البقرة: ٥٠ [معناه: شققناه .وقراءة (فرّقنا بكم البحر) بتشديد الراء، شاذة من ذلك، أي جعلناه فِرَقًا وأقساما[٦].

المفارقة: المباينة، وفارق الشيء مفارقة وفراقا: باينه[٧].

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٤ / ٤٩٣ مادة (فرق).

(٢) اللسان ج ١٠ / ٢٤٣ ومختار الصحاح ص ٥١٧ وتاج العروس مادة (فرق).

(٣) قاموس المحيط مادة (فرق).

(٤) اللسان ج ١٠ / ٢٤٣ مادة (فرق).

(٥) اللسان ج ١٠ / ٢٤٣ مادة (فرق). وتاج العروس مادة فرق. ومفردات ألفاظ القرآن للراغب مادة (فرق).

(٦) اللسان ج١٠ / ٢٤٣ مادة (فرق).

(٧) اللسان مادة (فرق).



والفرق: الفصل بين الشيئين[١]

الفرقة بالكسر: الطائفة من الناس جمع: فرق.[٢]

والفرق: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرقة للجماعة المتفردة من الناس.[٣]

وانفرق: انفصل[٤]

والفَرَق: تباعد ما بين الثنيتين[٥]

الفارق من الإبل: التي تفارق إلفها فتنتج وحدها.[٦]

والفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين[٧].

والتفريق: أصله: التكثير، ويقال ذلك في تشتيت الشمل والكلمة. نحو ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾] البقرة: ١٠٢ [وقوله: ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾] طه:٩٤ [﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾] الأنعام:١٥٩ [وقرئ (فارقوا)[٨]. وفرّقه: تفريقًا وتفْرِقة: بدَّده، وأخذ حقه بالتفاريق[٩].

والخلاصة: إذا جمعنا هذه المعاني نجد أنها متقاربة تدل على:

---

(١) اللسان ج ١٠ / ٢٤٣ مادة (فرق).

(٢) قاموس المحيط ص ٩١٨ مادة (فرق).

(٣) قاموس المحيط ص ٩١٨ مادة(فرق).

(٤) قاموس المحيط ص ٩١٨ مادة (فرق).

(٥) تاج العروس مادة (فرق).

(٦) تاج العروس مادة(فرق).

(٧) مفردات ألفاظ القرآن مادة (فرق).

(٨) مفردات ألفاظ القرآن ص٦٣٣ مادة (فرق).

(٩) قاموس المحيط ص ٩١٨ مادة (فرق).

التفرق، والانقسام، والانشقاق والانفراد، والمباينة، والمفاصلة، والمقاطعة، والمفارقة، والانقطاع، والتشتت، والتباعد، والتنافر والخروج عن الحق وعن الجماعة واختيار الشذوذ.

تعريف التفرق في الاصطلاح:

والتفرق في الشرع يطلق على أمور منها:

١-التفرق في الدين: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].وقوله:﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى ١٣] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فإن الذي شرع لنا هو الذي وصى به الرسل وهو الأمر بإقامة الدين والنهي عن التفرق فيه)[١] ومنه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)[٢] وهو التفرق في الأصول، والخروج عن السنة.

٢-التفرق عن جماعة المسلمين، وهم عموم أمة الإسلام في عهد الرسول ﷺ، والصحابة، وهم أهل السنة والجماعة ومن كان على هديهم بعد ظهور الافتراق فمن خالف سبيلهم في أمر يقتضي الخروج عن أصولهم في الاعتقاد أو الشذوذ عنهم في المناهج، أو الخروج على أئمتهم، أو استحلال السيف فيهم، فهو مفارق.

ومنه قوله ﷺ) من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه[٣].(

وقوله ﷺ: (من فارق الجماعة وخرج من الطاعة فمات فميتته جاهلية، ومن خرج على أمتي بسيفه يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى مؤمنا لإيمانه، ولا يفي لذي عهد بعهده فليس من أمتي، ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصبية، أو يدعو إلى عصبية فقتلته جاهلية([٤].

(١) مجموع الفتاوى ج١ / ١٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٢١ / ٢) وقال الألباني حسن صحيح انظر صحيح ابن ماجه (٤٩١ / ٨).

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم تخريجه.



وفي لفظ مسلم: (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة(.[١]

وقد ذكر أصنافا من المفارقين الخارجين منهم:

١-المفارقون البغاة الخارجين عن طاعة السلطان.

٢-المفارقون الخارجون عن جماعة المسلمين.

٣-المفارقون المقاتلون للعصبية العمياء لقومه أو قبيلته أو أهل بلده أو حزبه.

٤-المفارقون المقاتلون لعداوة أو الرئاسة أو غرض الدنيا، وإما من الخارجين عن السنة، الذين يستحلون دماء أهل القبلة مطلقا كالخوارج الحرورية ونحوهم.[٢]

فظهر أن التفرق الذي يشمل هذه الأصناف المذكورة كلها التفرق في أصول الدين، والفرق والخروج عن جماعة المسلمين وإمامهم بالسيف ونحوه، وعن السنة، وعما كان عليه سلف الأمة من المنهج والسلوك.

بيان أنواع الاختلاف

الاختلاف الجائز:

والمقصود بالاختلاف الجائز هنا هو الاختلاف الذي بين أهل الحق وأهل الباطل

فإن شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-بعد استقرائه نصوص الكتاب قرر أن الاختلاف في الدين حسب وروده في القرآن على نوعين، منها ما هو جائز أو منه محمود وهو الاختلاف بين أهل الحق وأهل الباطل، وأهل التوحيد الخالص، وأهل الشرك والوثنية والكفر والنفاق، فهذا الاختلاف في حكم القرآن ممدوح فيه أهل الحق ومذموم فيه أهل الباطل، وتبين هذا النصوص الآتية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ج٢٧ / ٤٨٧، واقتضاء الصراط المستقيم ج١ / ٢٤٩، ٢٥٠. وكتاب دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها للدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل ص٢١-٢٢. كتاب مهم في الباب.

(والاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان:

أحدهما: هو ما حمد فيه إحدى الطائفتين، وهم المؤمنون، وذم في الأخرى أي أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾] البقرة: (٢٥٣) [إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: (٢٥٣)]

فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ﴾[البقرة: (٢٥٣)] حمد لإحدى الطائفتين–وهم المؤمنون–وذم الأخرى.

فهذا قد بين أنه اختلاف بين أهل الحق والباطل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾] الحج: ١٩ [إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الحج: ٢٣]

وقد ثبت في الصحيحين أنه نزلت في المقتتلين يوم بدر في حمزة عم رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ابن عمه، وعبيدة بن الحارث ابن عمه، والمشركين الذين برّزهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة الذين بارزوهم من قريش[(١)] [(٢)].

وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج ١٧]

فقد تبين من هذا أن الاختلاف بين أهل الحق والباطل والمؤمنين والكافرين يحمد فيه المؤمنون الذين هم أهل الحق والصواب، ويذم فيه الكافرون الذين هم أهل الباطل والضلال المبين وهذا

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ج ٧٣٤٦ ح (٣٩٦٥) كتاب المغازي باب قتل أبي جهل.

(٢) منهاج السنة ج٥ / ٢٦٧، ٢٦٨، واقتضاء الصراط المستقيم ج١ / ١٥٤, ١٥٥، ١٥٦. ومجموع الفتاوى ١٦ / ٥١٤، ٥١٦.

أمر شرعي ضروري لابد منه، ولأن بعضهم على الحق والبعض الآخر على الباطل والكفر والضلال.

وأن الاختلاف المطلق كله مذموم بخلاف المقيد الذي قيل فيه:﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: (٢٥٣)]

وكما يظهر من هذا أيضا أن الحق والضلال متباينان ومتضادان، وكذلك الشرك والتوحيد، والسنة والبدعة، وكذلك أهلها، وأن الحق واحد لا يتعدد والصراط مستقيم لا اعوجاج فيه وهو ما جاء به الرسول ﷺ من سلكه لا يزيغ أبدا.

الاختلاف المذموم

وهذا القسم الثاني الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من أنواع الاختلاف وبين أن أهله كلهم مذمومون لما فيه من جحد الحق وإحقاق الباطل ونصرته والإعراض عن الحق وهجره.

فقال –رحمه الله–في هذا النوع من الاختلاف: (يذم فيه المختلفين كلهم والطائفتين جميعهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود: ١١٨ ـ ١١٩] فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف.

وكذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[البقرة:١٧٦]. وكذلك قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

وكذلك وصف اختلاف النصارى بقوله :﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤]

ووصف اختلاف اليهود بقوله:﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ ﴾ [المائدة:٦٤].

وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وكذلك النبي ﷺ لما وصف أن الأمة: ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة؛ قال: (كلها في

النار إلا واحدة، وهي الجماعة([1]، وفي الرواية الأخرى:)من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي([2].

فبين: أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين، إلا فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة.

وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه:

١-تارة فساد النية: لما في النفوس من البغي والحسد، وإرادة العلو في الأرض، ونحو ذلك. فيحب لذلك ذم قول غيرها، أو فعله، أو غلبته ليتميز عليه، أو يحب قول من يوافقه في نسب أو مذهب أو بلد أو صداقة، ونحو ذلك؛ لما في قيام قوله من حصول الشرف له والرئاسة، وما أكثر هذا من بني آدم. وهذا ظلم.

٢-ويكون سببه-تارة-جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم، أو في الدليل، وإن كان عالما بما مع نفسه من الحق حكما ودليلا.

والجهل والظلم، هما أصل كل شر، كما قال-سبحانه-: ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب ٧٢]"[3].

أما أنواعه: فهو في الأصل قسمان:

اختلاف تنوع، واختلاف تضاد.

القسم الأول: اختلاف التنوع أي غير متضاد في المعنى:

واختلاف التنوع على وجوه:

الوجه الأول منه: ما يكون كل واحد من القولين، أو الفعلين حقا مشروعا:

كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة، حتى زجرهم عن الاختلاف رسول الله ﷺ

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) اقتضاء الصراط ج٢ / ١٤٨

وقال: (كلاكما محسن)[١]. ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، والتشهدات، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، وتكبيرات الجنازة، إلى غير ذلك مما قد شرع جميعه. وإن كان قد يقال: إن بعض أنواعه أفضل.

ثم نجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها، ونحو ذلك. وهذا عين المحرم. ومن لم يبلغ هذا المبلغ؛ فتجد كثيرا منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع، والإعراض عن الآخر، أو النهي عنه–ما دخل به فيما نهى عنه النبي ﷺ.

الوجه الثاني: ما يكون كل من القولين هو في معنى القول آخر، لكن العبارتان مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود، وصيغ الأدلة، والتعبير عن المسميات، وتقسيم الأحكام، وغير ذلك.

ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى.

الوجه الثالث: ما يكون المعنيان غيرين، لكن يتنافيان: فهذا قول صحيح، وهذا قول صحيح، وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر، وهذا كثير في المنازعات جدا.

الوجه الرابع: ما يكون طريقتان مشروعتان، ورجل أو قوم قد سلكوا هذا الطريق، وآخرون قد سلكوا الأخرى وكلاهما حسن في الدين:

ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم إحداهما، أو تفضيلها بلا قصد صالح، أو بلا علم، أو بلا نية وعلم.

والاختلاف–التنوع–كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد. لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك–إذا لم يحصل بغي–كما في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾

---

[١] صحيح البخاري مع الفتح ج٥ / ٨٥ ح(٢٤١٠). كتاب الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة، والخصومة بين المسلم واليهودي.

[الحشر: ٥]

وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم وترك قوم آخرون، وكما في قوله:﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩] .

فخص سليمان بالفهم، وأثنى عليهما بالعلم والحكم.

وكما في إقرار النبي ﷺ، يوم بني قريظة لمن صلَّى العصر في وقتها، ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة.

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من هذا القسم، وكذلك آل إلى سفك الدماء، واستباحة الأموال، والعداوة والبغضاء؛ لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك)[(١)].

ولهذا فسروا الاختلاف في الموضع بأنه كله مذموم.

فإن المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل فيكفر بالحق الذي مع الآخر، ويصدِّق بالباطل الذي معه، وهو تبديل ما بدّل[(٢)].

القسم الثاني: اختلاف التضاد فهو: القولان المتنافيان: إما في الأصول، وإما في الفروع، عند الجمهور الذين يقولون: (المصيب واحد) وإلا فمن قال: (كل مجتهد مصيب) فعنده: هو من باب اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد، فهذا الخطب فيه أشد؛ لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقا ما، فيرد الحق في الأصل هذا كله، حتى يبقى هذا مبطلا في البعض، كما كان

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ج١ / ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، وانظر: منهاج السنة ج٥ / ٢٥٥ وما بعدها، ودرء تعارض العقل والنقل ج٥ / ٢٨٣ وما بعدها، ومجموع الفتاوى ج١٣ / ٥١٥.

(٢) منهاج السنة ج٥ / ٢٨٥.

الأول مبطلا في الأصل، كما رأيته لكثير من أهل السنة، في مسائل القدر والصفات والصحابة، وغيرهم.

وأما أهل البدعة: فالأمر فيهم ظاهر، وكما رأيته لكثير من الفقهاء، أو لأكثر المتأخرين في مسائل الفقه، وكذلك رأيت الاختلاف كثيرا بين بعض المتفقهة، وبعض المتصوفة، وبين فرق المتصوفة، ونظائره كثيرة(١).

اختلاف هذا الدين الإسلامي والأديان الأخرى هل هو اختلاف تنوع أم اختلاف تضاد؟

فهذا أيضا يحتاج إلى توضيح خاصة في هذا العصر الذي اختلط فيه الحق بالباطل من دعاة التقريب وتوحيد الأديان والفرق والمذاهب المتضادة القصد والغايات.

فإذا علم ما تقدم ذكره من اختلاف التضاد، فليعلم كذلك أن اختلاف الدين الإسلامي الذي جاء به النبي محمد ﷺ مع الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية المحرفة وغير ها اختلاف تضاد لا اختلاف تنوع، ولا يمكن الجمع بينه وبينها البتة، كما يظنه دعاة التقريب بين الأديان ووحدتها المعتمدين على الفكر والرأي.

وكذلك الحال في الاختلاف بين الشرك والتوحيد، وبين السنة والبدعة اختلاف تضاد وتباين وتغاير.

فعلى هذا يمكن القول بكل صراحة أنه لا يمكن التقريب بين الفرق المتعددة الاعتقادات ومتشتتة المشارب والمتفرقة إلا بإيثار الحق الذي جاء به النبي ﷺ على كل الآراء والأفكار والأهواء والكشوف والأذواق والمنامات المخالفة لهذا المصدر العظيم ولا يتضاد به غيره، بدعوى أن المقصود واحد وإن تعددت الطرق والمسالك والأصول، فإن الأمة واحدة وربهم واحد ونبيهم واحد ودينهم واحد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح هذه المسألة المهمة وبيان تضاد الحق الباطل:

(إنه إذا كان لا دين أحسن من هذا فالغير إما أن يكون مثله أو دونه، ولا يجوز أن يكون

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ج٢ / ١٥١.

مثله؛ لأن الدين إذا ماثل الدين وساواه في جميع الوجوه كان هو إياه، وإن تعدد الغير لكن النوع واحد فلا يجوز أن يقع التماثل والتساوي بين الدينين المختلفين، فإن اختلافهما يمنع تماثلهما؛ إذ الاختلاف ضد التماثل، فكيف يكونان مختلفين متماثلين؟ واختلافهما اختلاف تضاد لا تنوع؛ فإن أحد الدينين يعتقد فيه أمور على أنها حق واجب، والآخر يقول إنها باطل محرم.

فمن المحال استواء هذين الاعتقادين.

وكذلك القصدان، فإن هذا يقصد المعبود بأنواع من المقاصد والأعمال والآخر يقصده بما يضاد ذلك وينافيه، وليس كذلك تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم؛ فإن دينهم واحد، كل منهم يعتقد ما يعتقده الآخر، ويعبده بالدين الذي يعبده ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع فلم يختلفا؛ بل نقول أبلغ من هذا إن القدر الذي يتنازع فيه المسلمون من الفروع لابد أن يكون أحدهما أحسن عند الله فإن هذا مذهب جمهور الفقهاء الموافقين لسلف الأمة على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل، فذاك الصواب هو أحسن عند الله، وإن كان أحدهما يقر الآخر، فالإقرار عليه لا يمنع أن يكون مفضولاً مرجوحا، وإنما يمنع أن يكون محرمًا.

وإذا كان هذا في دق الفروع فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول؟ فإنه لا خلاف بين المسلمين ولا بين العقلاء أن المصيب في نفس الأمر واحد، وإنما تنازعوا في المخطئ هل يغفر له أولا يغفر، وهل يكون مصيبا بمعنى أداء الواجب؟ وسقوط اللوم لا بمعنى صحة الاعتقاد؟ فإن هذا لا يقوله عاقل أن الاعتقادين المتناقضين من كل وجه يكون كل منهما صوابا)[(١)].

إلى أن قال: (وإذا ثبت أن الدينين المختلفين لا يمكن تماثلهما لم يحتج إلى نفي هذا في اللفظ لانتفائه بالعقل)[(٢)]

إلى أن قال: (وأما تفضيل الأشخاص فقد لا يحتاج إليه في كل وقت، فالدين الواجب لابد

(١) بتصرف انظر مجموع الفتاوى (١٤ / ٤٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى ج١٤ / ٤٣٠، ٤٣١.

من تفضيله؛ إذا الفضل يدخل في الوجوب، وإذا وجب الدين به دون خلافه فلأن يجب اعتقاد فضله أولى.

وأما الدين المستحب: فقد لا يشرع اعتقاد فعله إلا في حق من شرع له فعل ذلك المستحب، وإلا فمن الناس من يضره إذا سلك سبيلاً من سبل السلام الإسلامية أن يرى غيره أفضل منها؛ لأنه يتشوف إلى الأفضل فلا يقدر عليه، والمفضول يعرض عنه)[١]

إلى أن قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

ولكن كتاب الله هو حاكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه ومبين وجه الحكم؛ فإنه بين بهذه الآية وجه التفضيل بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] وبقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[النساء: ١٢٥] فإن الأول بيان نيته وقصده، ومعبوده وإلهه، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فانتفى بالنص نفي ما هو أحسن منه، وبالعقل ما هو مثله، فثبت أنه أحسن الأديان.

أن النزاع كان بين الأمتين أي الدينين أفضل؟ فلم يقل لهما إن الدينين سواء، ولا نهوا عن تفضيل أحدهما؛ لكن حسمت مادة الفخر والخيلاء والغرور الذي يحصل من تفضيل أحد الدينين؛ فإن الإنسان إذا استشعر فضل نفسه أو فضل دينه يدعوه ذلك إلى الكبر والخيلاء والفخر؛ فقيل للجميع: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] سواء كان دينه فاضلا أو مفضولاً؛ فإن النهي عن السيئات والجزاء عليها واقع لا محالة قال تعالى:﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات:١] إلى قوله: ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات:٦]

فلما استشعر المؤمنون أنهم مجزيون على السيئات ولا يغني عنهم فضل دينهم وفسر لهم النبي ﷺ أن الجزاء قد يكون في الدنيا بالمصائب، بَيَّن بَعْدَ ذلك فساد دين الكفار من المشركين

(١) مجموع الفتاوى ج١٤ / ٤٣٢.

وأهل الكتاب بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤] الآية.

فبين أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الإيمان، وإن كان قد يجزى به صاحبه في الدنيا بلا إيمان، فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات، ومن جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة إلا مع الإيمان، ثم بين بعد هذا فضل الدين الإسلامي الحنفي بقوله:﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ [النساء: ١٢٥] فجاء الكلام في غاية الإحكام.[١]

ومن تدبر هذا يجد أنه كثيرا ما يقع الخلط بين الحق والباطل إما جهلا أو ظلما وعلوا خاصة عند دعاة المساواة أو التقريب أو التوحيد بين المتضادين كإقرار جميع الاعتقادات بمختلف مشاربها، فإن هذا الأمر محال عقلا وشرعاً.

(١) مجموع الفتاوى ج١٤ / ٤٣٥، ٤٣٦.



الإيمان قول عمل ونية

وفيه مسائلتان:

المسألة الأولى: تعريف الإيمان.

المسألة الثانية: دخول العمل في مسمى الإيمان.

[٢]-قال المصنف رحمه الله: فكان من قولهم: الإيمان قول وعمل ونية، وتمسك بالسُّنة.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الإيمان

هذه المسألة يوردها العلماء ضمن مسائل الأسماء، ويحسن تناول هذه المسألة من خلال الجوانب الآتية:

الجانب الأول: الجانب اللغوي.

أ-المعنى اللغوي لكلمة "آمن":

الإيمان مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن

أ-فيرى جمع من أهل اللغة أن الإيمان في اللغة معناه: التصديق وقد حكوا الإجماع على ذلك قال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق"[(١)].

واستدلوا لذلك بقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾ [يوسف: الآية: ١٧]، فقالوا: معناه ما أنت بمصدق لنا.[(٢)]

٢-أما علماء السلف[(٣)] فيقولون إن الإيمان يأتي في اللغة لمعنيين هما:

أ-بمعنى صدق به وذلك إذا عدي بالباء كما في قوله تعالى ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ**

(١) تهذيب اللغة (٥/ ٥١٣).

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة آمن (١٣/ ٢٣).

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ١٤٣).

مِن رَّبِّهِ...﴾ [البقرة: الآية: ٢٨٥]، أي صدق الرسول.(١)

ب-وبمعنى أقر له وذلك إذا عدي باللام كما في قوله تعالى **﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾** [يوسف: الآية: ١٧]، وقوله تعالى: **﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾** [العنكبوت: الآية: ٦].

وقد اعترض السلف على حصر بعض أهل اللغة لمعنى الإيمان بالتصديق فقط وقالوا: "إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار(٢) والطمأنينة أيضا"(٣) واستدل السلف لقولهم بالأمور التالية:

: إن الترادف التام ممتنع بين التصديق والإيمان من عدة وجوه،

١-إن كلمة آمن تتعدى بالباء وباللام وقد تقدم التمثيل لذلك.

-أما كلمة "صدق" فلا تتعدى باللام فلا يقال "صدق له" إنما يقال "صدق به" فهي تتعدى بالباء وبنفسها فيقال صدقه.

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٥).

(٢) الإقرار: متضمن لمعنيين هما: قول القلب الذي هو التصديق. وعمل القلب الذي هو الانقياد. مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨-٦٣٩).

(٣) الصارم المسلول لابن تيمية (ص: ٥١٩).

ومن الأقوال الواردة في تفسير الإيمان بمعنى الطمأنينة ما يلي:

يقول الفيروزآبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "آمَنَ بِهِ: صَدَّقَهُ، وبِهِ: وثِقَ بِهِ وأَمِنَ عليهِ"القاموس المحيط، (١/ ٧٨).

وقال الراغب الأصفهاني-رحمه الله-(ت: ٥٠٢ هـ): "الإيمان: هو التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان... وأصل الكلمة من الأمن الذي هو الطمأنينة"المفردات في غريب القرآن، (ص: ٢٤).

وقال الفيومي-رحمه الله-(ت: ٧٧٠ هـ): "آمن به: صدقه، وبه: وثق به واطمأن إليه"المصباح المنير، (١/ ٢٩).

وقال الجوهري-رحمه الله-(ت: ٣٩٣ هـ): "آمن به: صدقه، وأمن به: وثق به واطمأن إليه"الصحاح في اللغة، (١/ ٧٨).

وقال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "آمن يؤمن إيمانًا: صدق، والطمأنينة التي تصحب التصديق"تهذيب اللغة، (١/ ١٣٤).

وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "الإيمان في اللغة هو التصديق والاطمئنان"الكشاف، (١/ ٢٥).

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "الإيمان: التصديق... وهو مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة." تاج العروس، (١/ ٢٥).

قال نشوان الحميري-رحمه الله-(ت: ٥٧٣ هـ): "آمن به: صدقه، وأمن به: وثق به واطمأن إليه"شمس العلوم، (١/ ٧٨).

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ): "الإيمان: التصديق بالقلب، والاطمئنان"العين، (١/ ٢٥).

٢-إن كلمة آمن تتضمن ثلاثة معان هي: الأمن، والتصديق، والأمانة.

-أما كلمة صدق فلا تتضمن معنى الأمن والأمانة.

٣-إن لفظ الإيمان لا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب لأن فيه أصل معنى الأمن والائتمان وهذا إنما يكون في الخبر عن الغائب، فلا يقال لمن قال طلعت الشـــمس آمنا له وإنما يقال صدقناه ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في الخبر عن الغائب.

-أما لفظ التصـديق فيستعمل في كل مخبر عن مشاهد أو غيب، فمن قال السماء فوقنا، قيل له: صدقت.

٤-إن لفظ الإيمان ضـــده الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب فقط، بل هو أعم منه، إذ يمكن أن يكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب ومع ذلك يسـمى كفرا كما لو قال شـخص: أنا أعلم أنك صادق، ولكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، فهذا كفر أعظم.

-أما لفظ التصديق ضده التكذيب فقط.

وبهذا يتبين عدم الترادف التام بين اللفظين، وأن الإيمان ليس التصـــديق فقط[(١)] كما أن الكفر ليس التكذيب فقط.

ثانيًا: من المعلوم أن كلام الله وشرعه إنما هو خبر وأمر.

فالخبر: يستوجب تصديق الخبر.

والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب، جماعه: الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به.

فإذا قوبل الخبر بالتصـــديق، والأمر بالانقياد، فقد حصـــل أصـــل الإيمان في القلب وهو "الطمأنينة والإقرار" فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصـل إذا استقر في القلب التصـديق والانقياد. فلو فُسِّـر الإيمان بالتصـديق فقط، كما قال أهل اللغة، فإن التصديق إنما يعرض للجزء الأول من الشرع فقط الذي هو الخبر، ولا يعرض للجزء الثاني

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٨٠-٣٨١).

وهو الأمر، لأن الأمر ليس فيه تصديق من حيث هو أمر.

ومن المعلوم أن إبليس لم يكفر بسبب عدم تصديقه، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولا، ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له، واستكبر عن الطاعة فصار كافرا، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: الآية: ٣٤]، فسماه الله كافرا وسلب عنه وصف الإيمان لاستكباره وعدم انقياده لأمر الله له بالسجود لآدم.

لازم القول بأن الإيمان مجرد التصديق فقط.

وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق، ثم يرون مثل إبليس وفرعون مما لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون.

ومثل هؤلاء القوم لو أنهم هُدوا لما هُدي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان قول وعمل أعني في الأصل قولا في القلب، وعملا في القلب، فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته- وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره-فيصدق القلب أخباره تصديقا يوجب حالا في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين فمتى ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقا، لأن الكفر أعم من التكذيب، فالكفر يكون تكذيبا وجهلا، ويكون استكبارا وظلما، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب، ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس، وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالا وهو "الجهل" ألا ترى أن نفرا من اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ وسألوه عن أشياء، فأخبرهم، فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم يتبعوه، وكذلك هرقل وغيره، فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق.

ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمنت خبرا وأمرا، فإنه يحتاج إلى مقام ثان، وهو تصديق خبر الله وانقياده لأمر الله، فإذا قال: "أشهد أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره. "وأشهد أن محمدا رسول الله"

تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله.

فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلا الشهادتين-وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول-ظن من ظن أنه أصـــل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصـــل الآخر لا بد منه وهو الانقياد، وإلا فقد يصـــدق الرســـول، ظاهرا وباطنا ثم يمتنع من الانقياد للأمر، إذ غايته في تصـــديق الرســـول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه كإبليس"[١]

ثالثًا: ما استدل به أهل اللغة على أن معنى الإيمان في قوله تعالى ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾ [يوسف: الآية: ١٧]، هو التصديق غير مسلم.

إذ يرى علماء السلف أن تفسيرها بـ "أقررت" أقرب من تفسيرها بـ " صدقت " وذلك لأن لفظ "آمن" متى عُدّي باللام يكون بمعنى "أقر" وليس بمعنى "صـــــدق"، إذ لا يكون بمعنى صدق إلا إذا عُدّي بالباء أو بنفسه.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأصـل الإيمان في اللغة: التصـديق، والطمأنينة، كما يقول العرب: أمن الرجل أمانة وأمناً: إذا صار ذا أمن"[٢]

قال ابن تيميـة-رحمـه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فإن الإيمان في لغة العرب مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، كما قال أهل العلم باللغة"[٣]

وقال أيضًا: "وأصل الإيمان في اللغة: التصديق والطمأنينة"[٤]

الجانب الثاني: المعنى الشرعي للإيمان:

تتحدد دلالة اسم "الإيمان" في الشرع بحسب سياق الكلام الذي تستعمل فيه هذه اللفظة

---

(١) الصارم المسلول (ص: ٥١٩-٥٢٠) بتصرف.

(٢) كتاب الإيمان، (ص: ٢٢) بتصرف.

(٣) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٣٣). بتصرف.

(٤) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٤٢). بتصرف.



فلفظ "الإيمان" إما أن يستعمل:

أ-مطلقا: أي يذكر مطلقا عن لفظ "العمل" و"الإسلام".

٢-أو مقيدا: فتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام.

الحال الأول: فإذا استعمل مطلقا: "فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة-من الصحابة والتابعين وتابعيهم-الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويدخلون جميع الطاعات-فرضها ونفلها-في مسماه"[(١)]

ويلاحظ هنا أن لفظ "الإيمان" على هذا الاستعمال يكون مرادفا للفظ "العبادة" والعبادة كما هو معروف هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ومن استعمال الشارع للفظ الإيمان بهذا المعنى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان).[(٢)]

فالإيمان في هذا الحديث شمل جميع أمور الدين بما في ذلك أمور الإسلام. ومن هذا الاستعمال أيضًا ما جاء في حديث عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ): أن وفد عبد القيس لما أتوا النبي-ﷺ-أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: (أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الدين. انظر: فتح الباري (١/ ٥١) (ح: ٩)، وأخرجه مسلم-واللفظ له-كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١/ ٤٦).

خمس...). الحديث [١]

فلفظ الإيمان اســـتعمل في الحديث مطلقا فدخل فيه الأمور الظاهرة مع أنها من أمور الإسلام كما جاء في حديث جبريل المشهور.

قال الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ): "الإيمان والإسلام هما دين الله تعالى، وكل منهما إذا ذكر منفردًا دخل فيه الآخر"[٢]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فإن الإســـلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإســـلام؛ فإذا اجتمعا كان الإســـلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة"[٣]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الإســلام إذا أطلق شمل الدين كله، وإذا اجتمع مع الإيمان افترقا، فيكون الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة"[٤]

قال النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "الإســـلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام. فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه"[٥]

قال ابن حجر العسـقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "إذا ذكر الإسـلام وحده دخل فيه الإيمان، وإذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإســـلام. وإذا اجتمعا افترقا، فيكون الإيمان هو التصديق القلبي والإسلام هو الأعمال الظاهرة"[٦]

قال الشاطبي-رحمه الله-(ت: ٥٩٠ هـ): "إذا أطلق لفظ الإسلام شمل الدين كله، وإذا قرن

---

(١) أخرجه البخاري في صـحيحه واللفظ له: كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. انظر: فتح الباري (١/ ١٢٩) (ح: ٥٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١/ ٣٥-٣٦).

(٢) العقيدة الطحاوية (ص: ٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٢١).

(٤) مدارج السالكين، (١/ ٣٣٧).

(٥) شرح صحيح مسلم، (١/ ١٤٦).

(٦) فتح الباري، (١/ ٩٠).

بالإيمان تميز عنه، فكان الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة"[١]

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "الإسـلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان، وكذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام؛ فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه"[٢]

قال البيضـاوي-رحمه الله-(ت: ٦٨٥ أو ٦٩١ هـ): "إذا أطلق لفظ الإسـلام وحده شمل الدين كله من اعتقادات وأعمال، وإذا قرن بالإيمان تميز عنه"[٣]

قال السـعدي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٦ هـ): "إذا ذكر الإسـلام وحده شمل كل ما يتعلق بالدين من تصديق بالقلب وأعمال الجوارح، وإذا قرن بالإيمان تميز عنه"[٤]

الحال الثاني: وأما إذا اسـتعمل اسـم الإيمان مقيدا: كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ**﴾ [البقرة: الآية: ٧٧]، وقوله ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: الآية: ٦٣].

وقول النبي-ﷺ-في حديث جبريل المشـهور: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره).[٥]

فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿**وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُـلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾ [البقرة: الآية: ٩٨]، وقوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَـى وَعِيسَـى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ [الأحزاب: الآية: ٧].

---

(١) الموافقات، (١/ ١٠٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (١/ ١١٨).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (١/ ١١٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (١/ ٩٥).

(٥) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (١/ ٢٩). والحديث أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل بلفظ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث"انظر: فتح الباري (١/ ١١٤)، (ح: ٥٠).

وقد يقال إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين، فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر، وإذا جمع بينهما كانا صـــنفين: كما في آية الصـــدقة، ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين، وهي مع جميعه كالبعض مع الكل"[(١)]

قلت: إن القول بأن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام ينطبق على الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ﴾ [البقرة: الآية: ٧٧]، وقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآية: ٦٣]..

والقول بأن دلالة الاســم تنوعت بالإفراد والاقتران ينطبق على حديث جبريل حيث ذكر الإســـلام والإيمان فأصـــبح كل واحد منهما يختص بأمور معينة فالإســـلام اختص بالأمور الظاهرية، والإيمان اختص بالأمور الاعتقادية الباطنية.

"فلفظ الإسـلام والإيمان إذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسـمى الآخر إما تضـمنا وإما لزوما، ودخوله فيه تضـمنا أظهر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر، وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على كثير من الناس"[(٢)]

خلاصة القول:

إن اسم الإيمان إذا أفرد: تناول جميع أمور الدين الظاهرة والباطنة كما في حديث الشعب.

وإذا اقترن اسـم الإيمان مع الإسـلام دل الإيمان على الأمور الباطنة ودل الإسـلام على أمور الدين الظاهرة كما في حديث جبريل.

وإذا اقترن العمل مع الإيمان: فهو من باب عطف الخاص على العام[(٣)] كما في قوله تعالى:

---

(١) الفتاوى (٧/ ٦٤٧ . ٦٤٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٧ –٦٤٨).

(٣) قال شـارح الطحاوية: "اعلم أن عطف الشـيء على الشـيء يقتضـي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشـتراك في الحكم =



﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: الآية: ٧٧].

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. فالإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام، وكذلك الإسلام إذا أطلق دخل فيه الإيمان"(١)

٢. قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الإسلام هو الاستسلام والانقياد، والإيمان تصديق وإقرار، فإذا اجتمعا كان الإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة"(٢)

٣. قال النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "الإسلام هو الاستسلام والانقياد الظاهري، والإيمان هو التصديق القلبي، فإذا اجتمعا كان لكل واحد منهما معنى يخصه، وإذا افترقا دل أحدهما على الآخر"(٣)

٤. قال ابن حجر العسقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان، فإذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى، وإذا انفرد أحدهما في الذكر دخل فيه الآخر"(٤)

الذي ذكر لهما، والمغايرة على مراتب:

١-أعلاها: أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءا منه، ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: الآية: ٣]، وهذا هو الغالب.

٢-ويليه: أن يكون منهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: الآية: ٩٢].

٣-الثالث: عطف بعض الشيء عليه كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: الآية: ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: الآية: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ﴾ [الأحزاب: الآية: ٧]، وفي مثل هذا وجهان: أحدهما: أن يكون داخلا في الأول، فيكون مذكورا مرتين. والثاني: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلا فيه هنا وإن كان داخلا فيه منفردا كما قيل في لفظ "الفقراء والمساكين" ونحوهما، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

٤-الرابع: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: الآية: ٣]"شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٨٧-٣٨٨).

(١) مجموع الفتاوى، (٧/ ٦٢١).

(٢) مدارج السالكين، (١/ ٣٣٧).

(٣) شرح صحيح مسلم، (١/ ١٤٦).

(٤) فتح الباري، (١/ ٩٠).

٥. قال الشـــاطبي-رحمه الله-(ت: ٥٩٠ هـ): "الإســـلام في الظاهر هو الاســـتســـلام للأحكام، والإيمان في الباطن هو التصديق والإقرار"[(١)]

٦. قال الفيروزآبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "الإســـلام هو الانقياد الظاهر للأحكام الشرعية، والإيمان هو التصديق الباطني"[(٢)]

المسألة الثانية: دخول العمل في مسمى الإيمان

تنوعت عبارات السلف في تعريف الإيمان:

١-فتارة يقولون: الإيمان قول وعمل.

٢-وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية.

٣-وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية واتباع سنة.[(٣)]

٤- وتارة يقولون: "قول وعمل ومعرفة"

٥- وتارة يقولون: الإيمان: قول اللســـان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[(٤)].

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) -بعد أن أورد التعريفات الثلاثة الأول-: "وكل هذا صحيح"[(٥)] وعلل ذلك بقوله[(٦)]:

"فمن قال إن الإيمان قول وعمل فمرداه قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح".

وقول اللسان وعمل الجوارح معروفان.

---

(١) الموافقات، (١/ ١٠٦).

(٢) بصائر ذوي التمييز، (١/ ٣٤).

(٣) هذه التعريفات الثلاثة أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الإيمان. انظر (ص: ١٦٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٢).

(٥) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ١٦٢).

(٦) كلام شيخ الإسلام نقلته بتصرف من كتابه الإيمان (ص: ١٦٢-١٦٣).

وأما المقصود من قول القلب: فهو إقراره ومعرفته وتصديقه.

وأما عمله: فهو انقياده لما صدق به.

ومن عبر عن الإيمان بهذا التعريف ليس مراده كل قول أو عمل وإنما المراد ما كان مشروعا من الأقوال والأعمال.

كما أن تعبير بعض السلف بهذه العبارة في تعريف الإيمان إنما جاء في معرض الرد على المرجئة.(١) الذين جعلوه قولا فقط، فقال بعض السلف ردا عليهم: بل قول وعمل.(٢)

وأما من عرفه بقوله هو قول وعمل ونية، فمقصوده بزيادة لفظ "ونية": أن القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان.

وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك.(٣)

وأما من عرفه بأنه قول وعمل ونية واتباع سنة، فقد زاد لفظة "واتباع سنة" لأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة.(٤)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد سئل **سهل بن عبد الله التستري–رحمه الله–(ت: ٢٨٣ هـ)** عن الإيمان ما هو؟، فقال: قول وعمل ونية واتباع سنة.

لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر.

---

(١) المرجئة هم الذين أرجأوا العمل عن مسمى الإيمان وهم خمس طوائف سيأتي ذكرهم.

(٢) قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الناس لهم في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال:

١–فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعا.

٢–وقيل: بل مسماه اللفظ، والمعنى ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين الى السنة، وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ.

٣–وقيل: مسماه هو المعنى وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.

٤–وقيل: بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين"كتاب الإيمان (ص: ١٦٢).

(٣) كتاب الإيمان (ص: ١٦٣).

(٤) كتاب الإيمان (ص: ١٦٣).

وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق.

وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة"[١]

وأجمع التعاريف الواردة وأشملها هو: أن الإيمان قول اللســان واعتقاد بالجنان وعمل الجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وهذا التعريف هو الذي يميز قول السلف في مسمى الإيمان عن قول غيرهم من الفرق.[٢]

ولهذا كان هذا التعريف هو أجمع التعاريف الواردة عن السلف وأكثرها دقة في بيان قولهم.

فإن الناظر إلى هذا الإنسان باعتبار ما يجب عليه تجاه ما أخبر الله به وما أمر الله تعالى به؛ فنصــوص الشــرع لا تخرج عن أمرين: إما أخبارٌ وإما أوامر، فالأخبار حقها التصــديق بأن تُصــدق بها، والأوامر حقها أن تعمل بها، كما جاء في الحديث "إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن نهيٍ فانتهوا"[٣]

---

[١] كتاب الإيمان (ص: ١٦٣).

[٢] الذين خالفوا السلف في مسمى الإيمان هم:

أ-المرجئة بطوائفهم الخمس:

١-الجهمية: وقالوا الإيمان هو معرفة القلب فقط: أى المعرفة الفطرية التي هي المعرفة بربوبية الله.

٢-الأشاعرة: وقالوا الإيمان هو التصديق فقط أي التصديق بما جاء به النبي ﷺ من عند الله.

٣-الماتريدية: وقولهم في الإيمان مثل قول الأشاعرة.

٤-الكرامية: قالوا الإيمان قول باللسان فقط.

٥-مرجئة الأحناف (أو مرجئة الفقهاء) قالوا: الإيمان قول باللســان وتصــديق بالجنان. وهو قول الكلابية. وكل هذه الطوائف الخمســة أخرجت العمل عن الإيمان.

ب-الخوارج: قالوا الإيمان قول واعتقاد وعمل، ولكنهم يكفرون من أخل بشــيء من هذه الثلاثة ويقولون بأنه كافر في الدنيا وفي الآخرة خالد في النار.

ج-المعتزلة: وقالوا بقول الخوارج إلا أنهم يقولون إنه في الدنيا في منزلة بين منزلتين بمعنى أنه ليس بمؤمن ولا كافر، واتفقوا معهم في باقي الأمور.

انظر تفاصــيل هذه الأقوال: في كتاب الإيمان لابن تيمية، والجزء الســابع من مجموع الفتاوى، وشــرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٧٣-٣٩٢) وكتاب النبوات (ص: ١٩٩).

[٣] رواه البخاري (٤/ ٤٢٢) ومسلم (٧/ ٩١) وأحمد (٢/ ٢٥٨).



فأنت مأمور بأن تتبع، وأن تعمل بهذه الأوامر بحسب ما يأتي من حكمٍ عليها، فهذه الأمور أي الوحي تأتي لهذا الإنسان، وأول ما تأتي إليه في باطنه؛ لأنه لابد وأن يعلم أن الصلاة مثلاً ركنٌ من أركان الإسلام، ثم إذا جئت إلى الصلاة تجد أن منها فرائض ومنها نوافل، ثم أن هذه النوافل منها سنن رواتب ومنها غير ذلك، فهذا أول ما يقابله بالعلم.

فإذاً هذا الإيمان سيخاطب هذا الباطن في الإنسان، وأول ما يخاطب أن يصدق بما أخبر الله به.

والثاني: أن ينقاد لأمر الله، فلابد أن يحصل الانقياد والتسليم لأوامر الله، فليس لك حق الاعتراض أن تقول: لا بدل خمس صلوات نجعلها ثلاثة أو نجعلها ستة، فهي خمس صلوات في اليوم الليلة لابد من أدائها في أوقاتها، فأصبح عليه أن يصدق وعليه أن ينقاد.

ومعلوم أن هنا ثلاثة أحوال:

القلب، والقلب يشمل أمرين:

يشمل جانب العلم، ويشمل جانب الإرادة هذا القلب.

والجانب الثاني: جانب اللسان.

والجانب الثالث: جانب الجوارح.

فهناك قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل اللسان، وهناك عمل الجوارح فهذه خمسة، فإذا جئت إلى قول القلب فهذا هو العلم الذي هو التصديق فعليه أن يعلم هذه الأشياء ويصدق بها، هذا الواجب الأول على القلب، والقلب هو الباطن، والباطن مجموع الأمرين وهذه هي العقيدة.

لذلك قال المصنف: "الإيمان قولٌ وعمل"، فالقول هنا هو العلم والتصديق، تعلم وتصدق، هذا واجبٌ على الإنسان لكي يكون مؤمناً، وهذا وحده لا يكفي فلو قال قائل: أنا أعلم أن الصلوات خمس وهي كذا وكذا وهيئتها كذا لكن لن أصلي، فهو بهذا لا يكون مؤمناً إذ لابد من الجانب الثاني.

والجانب الثاني: هو انقياد القلب، فهذه الإرادة لابد أن تنقاد لهذه الأخبار وهذه الأوامر،

ولـذلـك يأتي عمـل القلـب، والقلـب أعمـالـه كثيرة، منهـا مثلاً الإخلاص، والمحبـة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والخشية، والتقوى، ولذلك النبي ﷺ لما ذكر التقوى قال: **(التقوى هاهنا التقوى هاهنا التقوى هاهنا وأشـــار بيده على صـــدره)**.[(١)]، فهذه أعمال القلوب، وهي التي تنطلق إلى سائر الجوارح

وأما قول اللســان وعمل اللســان، فقول اللســان جعله العلماء النطق بالشـهادتين لأن هذا هو الفيصـل بين الإســلام والكفر، **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشـهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله)**.[(٢)]، فأول ما يدخل الإنسـان في الإسـلام يُطالب بعد تطهره يطالب بالنطق بالشهادتين، فهذا يسميه العلماء: قول اللسان، فجعلوه في النطق بالشهادتين.

وأما عمل اللســان: فمنه قراءة القرآن وتلاوته، وذكر الله عز وجل، والتسـبيح، والتهليل هذا كله عمل اللسان.

وأما أعمال الجوارح، فمنها الركوع والســجود والصــوم والجهاد وغض البصــر وغيرها فهذه أعمال الجوارح، وهذا بكله هو الذي يُسمى إيماناً عند أهل السنة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٥)، وأحمد (٧٦٧٠).

(٢) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٥).

الإيمان يزيد وينقص

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: زيادة الإيمان ونقصانه.

المسألة الثانية: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

المسألة الثالثة: ثمرة الخلاف في مسألة زيادة الإيمان.

[٣]- قال المصنف رحمه الله: والإيمان يزيد وينقص.

الشرح

المسألة الأولى: زيادة الإيمان ونقصانه.

هل السنة يؤمنون أن الإيمان يزيد وينقص، ومن الأدلة على ذلك:

أولًا: أدلة زيادة الإيمان ونقصانه من القرآن.(١)

لقد جاء في كتاب الله عز وجل نصـــوص كثيرة تدل على زيادة الإيمان ونقصـــانه وأن أهله متفاضـــلون فيه بعضـــهم أكمل إيماناً من بعض، فمنهم الســـابق بالخيرات، ومنهم المقتصـــد، ومنهم الظالم لنفســـه، منهم المحســـن، ومنهم المؤمن، ومنهم المسـلم، ليسـوا في الدين سـواء في مرتبة واحدة، بل فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

وقبل الشـروع في ذكر هذه الأدلة القرآنية الدالة على زيادة الإيمان ونقصـانه أودّ التنبيه على نقطة هامة، وهي:

أن كل دليل دلّ على زيادة الإيمان فهو يدل على نقصـــانه، وكذا العكس، فما دل على نقصـــان الإيمان فهو يدل على زيادته، فالآيات التي أوردها هنا وظاهرها الدلالة على زيادة الإيمان فقط، فهي تدل على نقص الإيمان باللزوم، وذلك لأن الزيادة تستلزم النقص، ولأن ما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص، ولأن الزيادة لا تكون إلا عن نقص.

ولهذا فإنا نجد أهل العلم كثيراً ما يستشـهدون بأدلة زيادة الإيمان على نقصـانه وكذا العكس للأسـباب المتقدمة، وتأمل-مثالاً على ذلك-صـنيع البخاري في صـحيحه فقد أورد بعض الآيات المصـــرحة بزيادة الإيمان في باب زيادة الإيمان ونقصـــانه مســـتدلاً بها على الزيادة والنقصان معاً.

قال الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "إن كان قبل زيادته-أي الإيمان-تاماً فكما

---

(١) المصدر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه للدكتور عبد الرزاق البدر (ص: ٣٥)

يزيد كذا ينقص"(١)

فمن الأدلة:

- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: الآية: ١٧٣].
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: الآية: ٢].
- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: الآية: ١٢٤].
- وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢].
- وقوله تعالى :﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: الآية: ٤].
- وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [المدثر: الآية: ٣١].
- وقوله تعالى :﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: الآية: ١٧].

ثانياً: الأدلة من السنة على زيادة الإيمان ونقصانه:

- حديث **أبي هريرة**–رضي الله عنه–(**ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ**)، أن رسول الله ﷺ قال: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن)**.(٢)
- حديث **أبي هريرة**–رضي الله عنه–(**ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ**)، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه الخلال في السنة (٢/ ٦٨٨، ح: ١٠٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١١٩، ١٠/ ٣٠، ١٢/ ٥٨، ١٢/ ١٤ فتح)، ومسلم (٢/ ٤١ نووي).

(الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان).[١]

ففي هذا الحديث "بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء، له أعلى وأدنى، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق-بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبها وتستوفي جملة أجزائها، كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها"[٢]

وهذه الشعب متفاوتة ليست على درجة واحدة في الفضل، بل بعضها أفضل من بعض، كما هو ظاهر لفظ الحديث في قوله: "أعلاها "وقوله: "أدناها"، فشعب الإيمان منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعاً كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعاً كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يقرب من شعبة الشهادتين، ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى"[٣]

وقال ابن سعدي-رحمة الله-(ت: ١٣٧ هـ) -بعد ذكره لحديث أبي هريرة-: "وهذا صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتًا كثيرًا، فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشرع كما ترى"[٤]

- حديث **أنس بن مالك-رضي الله عنه-(ت: ٩٠ وقيل ٩٣ هـ)**، قال: قال رسول

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥١ فتح) ومسلم (٢/ ٦ نووي) وهذا لفظ مسلم.

(٢) معالم السنن للخطابي (٧/ ٤٤،٤٣).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٣٢٢).

(٤) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص: ١٤).

الله-ﷺ-: (**لا إيمان لمن لا أمانة له**).[١]

فهذا الحديث دليل على أن من لا أمانة له، فقد نقص فيه شيء من واجبات هذا الدين، فيذهب عنه كمال الإيمان الواجب وتمامه، ويكون بذلك مؤمناً ناقص الإيمان.[٢]

يوضح الاستدلال بهذا الحديث ويبينه ما جاء **عن عروة بن الزبير-رحمه الله-(ت: ٩٤ هـ)**، أنه قال: "ما نقصت أمانة عبد قط إلا نقص إيمانه"[٣]، فنقص الأمانة في العبد دليل على نقص الإيمان وضعفه فيه

● ولهذا لما سئل الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) مرة عن نقصان الإيمان احتج بهذا، قال الفضل بن زياد سمعت أبا عبد الله وسئل عن نقص الإيمان فقال: حدثنا وكيع عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه قال: "ما انتقصت أمانة رجل إلا نقص إيمانه"[٤].

● حديث **أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)**، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**).[٥]

فبين النبي-ﷺ-في هذا الحديث مراتب إنكار المنكر، وأنه حسب الاستطاعة فإما أن يغير باليد أو باللسان أو بالقلب، بمعنى يكرهه بقلبه، وهذه المراتب الثلاث للإنكار يقوم بها المكلف على قدر استطاعته، ولا شك أن المرتبة الأخيرة باستطاعة جميع المكلفين، فمن رأى

---

[١] أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ١١) وفي الإيمان (ص: ٥)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٠٨ الإحسان)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٧٥)؛ وقال البغوي: "هذا حديث حسن"؛ وصححه الألباني في تحقيقه للإيمان لابن أبي شيبة.

[٢] انظر الفتاوى (١١/ ٦٥٣).

[٣] رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٢)، وفي الإيمان (ص: ٦)، وعبد الله في السنة (١/ ٣٦٨) والخلال في السنة (ق: ١٥٩/ ب) والآجري في الشريعة (ص: ١١٨) والبيهقي في الشعب (١/ ١٩٧)، وابن بطة في الإبانة (برقم:١١٤١).

[٤] رواه الخلال في السنة (برقم: ٧٨٩)، والآجري في الشريعة (ص: ١١٨)، وابن بطة في الإبانة (برقم: ١١٤٨).

[٥] رواه مسلم (٢/ ٢٢ نووي).

المنكر ولم يكرهه بقلبه وهو يعلم أنه منكر فإن هذا يكون علامة على ضعف إيمانه.

وقد احتج بهذا الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل أهله فيه النسائيُ-رحمه الله- (٣٠٣ هـ)، في سننه فبوب له بـ"باب تفاضل أهل الإيمان"(١).

وابن منده-رحمه الله-(ت: ٣٩٦ هـ) في كتابه الإيمان فقال: "ذكر خبر يدل على أن الإيمان قول باللســـان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان يزيد وينقص"(٢) ثم ذكر حديث أبي سعيد-رضي الله عنه-.

وبوب له النووي في شـرحه لمسلم بـــ "باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص..."(٣).

ثانيًا: أقوال السلف الصالح في زيادة الإيمان ونقصانه(٤)

جاء عن السلف الصالح آثار كثيرة قرروا فيها ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله-ﷺ-من حجج ودلالات على زيادة الإيمان ونقصـــانه، فبينوا رحمهم الله أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وكثرة العبادة والمداومة عليها، وينقص باللهو والغفلة والمعصية والتقصير في فعل الطاعة، بل لقد حكى إجماعهم واتفاقهم على ذلك غير واحد من أهل العلم.

عن عمير بن حبيب الخطمي-رضـــي الله عنه-قال: "الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما زيادته ونقصـــانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه وســـبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا، فذلك نقصانه"(٥)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وأقدم من روي عنه زيادة الإيمان ونقصـــانه

(١) سنن النسائي (٨/ ١١).

(٢) الإيمان لابن منده (٢/ ٣٤١).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٢١) وانظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٣/ ٣٤٣).

(٤) المصدر: ت: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٥) رواه عبدا لله بن أحمد في الســـنة (١/ ٣٣٠) (٦٨٠)، والآجري في الشـــريعة (ص: ١٠٨)، والخطابي في الغنية (ص: ٤٥)، وأبو أحمد الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص: ٨).

من الصحابة عمير بن حبيب الخطمي"(١)

وعن أبي الدرداء عويمر الأنصـــاري–رضـــي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، أنه قال: "الإيمان يزداد وينقص"(٢)

وروي عنه رضـــي الله عنه أنه قال: "من فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أو منتقص، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه"(٣)

وعن علقمة بن قيس النخعي–رحمه الله–(ت: ٦٢ هـ)، أنه كان يقول لأصحابه: "امشوا بنا نزدد إيمانا"(٤)

١٢ – وكتب عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ)، إلى عدي بن عدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠ هـ)، –أحد عماله على الجزيرة–: "أما بعد: فإن للإيمان حدودًا وشـــرائع وفرائض، من استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان".

علقه البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ) في كتاب الإيمان من صـــحيحه (٥)، وقال ابن حجر مبينا ســـبب ذكر البخاري له: "والغرض من هذا الأثر أن عمر بن عبد العزيز كان ممن يقول بأن الإيمان يزيد وينقص، حيث قال: استكمل ولم يستكمل" (٦).

قال الإمام الأوزاعي–رحمه الله–(ت: ١٥٧ هـ): "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"(٧)

---

(١) تهذيب السنن (٧/ ٥٦).

(٢) رواه ابن ماجه بعد حديث رقم: (٧٢)، والبيهقي في الشعب (١/ ٧٦) (٥٤). وقال الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه: ضعيف.

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٤٩) (١١٤٠)، وذكره شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (ص: ٢١١). وإسناده ضعيف لإبهام شيخ حريز.

(٤) رواه ابن أبي شيبة (١١/ ٢٥) وفي الإيمان (ص: ٣٤) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٩٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٧) (٥٧). وحسن الألباني إسناده في الإيمان لابن أبي شيبة.

(٥) البخاري معلقا بصيغة الجزم قبل حديث (٨)، ووصله ابن أبي شيبة (١١/ ٤٨)، وفي (الإيمان) (ص: ٤٥) والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ١٩٧) والبغوي في (شرح السنة) (١/ ٤٠). قال ابن الملقن في شرح البخاري (٢/ ٤٤٠): إسناده صحيح.

(٦) فتح الباري (١/ ٤٧)..

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (٤/ ٧٥١).

قال الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"(١)

قال يحي بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ): "ما أدركت أحداً من أصحابنا، إلا على سنتنا في الإيمان، ويقولون: الإيمان يزيد وينقص(٢).

قال الإمام الشـــافعي (ت: ٢٠٤ هـ): "الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"(٣)

وقال الإمام عبد الرزاق الصـــنعاني–رحمه الله–(ت: ٢١١ هـ): "لقيت اثنين وســـتين شيخًا،... فذكر عددًا منهم ثم قال: كلهم يقولون: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"(٤)

وقال الإمام أبو عبيد القاسـم بن سـلام–رحمه الله–(ت: ٢٢٤ هـ): "هذه تسـمية من كان يقول الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص،... فسمى أكثر من مائة وثلاثين رجلًا من أهل العلم من الصـــحابة وغيرهم.. ثم قال: هؤلاء كلهم يقولون الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة، والمعمول به عندنا"(٥)

قال الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"(٦).

وقال إمام أهل الســـنة والجماعة أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "أجمع ســبعون رجلاً من التابعين وأئمة المسـلمين وفقهاء الأمصـار على أن السـنة التي توفي عليها

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، (٩/ ٢٣٨).

(٢) رواه ابن هاني في مسائل الإمام أحمد (٢/ ١٦٢) وذكر نحوه الذهبي في السير (٩/ ١٧٩) في ترجمة يحي بن سعيد.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (٤/ ٧٤٩).

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ٩٥٨ ح: ١٧٣٧).

(٥) رواه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨١٤ برقم: ١١١٧) وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان (ص: ٢٩٣–٢٩٥).

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (٤/ ٧٥٠).

رسول الله ﷺ. فذكر أموراً منها: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"(١)

وقال أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): "لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص"(٢)

وقال الإمام البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ) في صحيحه: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"(٣)

وقال عبد الله بن المبارك–رحمه الله–(ت: ١٨١ هـ): "الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل"(٤)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وبعضهم أي: السلف عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل. فقال أقول: الإيمان يتفاضل ويتفاوت، ويروى هذا عن ابن المبارك، وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته"(٥)

وعن **محمد بن أبان–رحمه الله–(ت: ٢٤٤ أو ٢٤٥ هـ)**، قال قلت **لعبد الرحمن بن مهدي–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)**: الإيمان قول وعمل؟ قال: نعم. قلت: يزيد وينقص؟ قال يتفاضل كلمة أحسن من كلمة"(٦)

المسألة الثانية: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان

(١) رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص: ٢٢٨) وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ١٣٠) بلفظ أجمع تسعون...إلخ.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦) وعزواه للالكائي في السنة، وصححا إسناده، قلت: وهو في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي "المطبوع" (٥/ ٨٨٩ رقم: ١٥٩٧) بنحوه، وليس فيه "ويزيد وينقص"، فلعل هذه اللفظة سقطت من المطبوع، أو أن الحافظ والزبيدي اطلعا على نسخة اشتملت على ما حكياه.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه.

(٤) رواه عبد الله في السنة (١/ ٣١٦) (٦٣١)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ٩٦١) (١٧٤٦).

(٥) الفتاوى (٧/ ٥٠٦).

(٦) السنة (٣/ ٥٨٠) (١٠٠٥).

ونقصانه.

أولًا: الأقوال في المسألة عمومًا

اختلف الناس في مسألة مسمى الإيمان:

فهناك من قال: "إن الإيمان قول واعتقاد وعمل يزيد وينقص"[١] .

وهناك من قال: "إن الإيمان قول واعتقاد وعمل لكن لا يزيد ولا ينقص"[٢] .

وهناك من قال: "إن الإيمان هو المعرفة"[٣] .

وهناك من قال: "إن الإيمان قول اللسان"[٤] .

وهناك من قال: "إن الإيمان هو التصديق"[٥] .

وهناك من قال: "إن الإيمان هو التصديق والقول"[٦].

هذه جملة أقوال، والمسألة تحتاج إلى شيءٍ من البيان والتوضيح والبسط.

ثانيًا: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

القول الأول: قول من قال الإيمان يزيد وتوقف في النقصان.

جاء عن **الإمام مالك**–رحمه الله–(**ت: ١٧٩ هـ**) في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه روايتان، قال في إحداهما: إن الإيمان يزيد أما النقصان فتوقف فيه وطلب من السائل أن يكف عن السؤال عنه، لأنه لم يجد عليه دليلاً من كتاب الله.

أما الرواية الأخرى: فقد جاءت عنه من طرق متعددة صحيحة، قال فيها: إن الإيمان يزيد

---

(١) انظر كتاب الإيمان للقاسم بن سلام صفحة (١٠) و (٤٤).

(٢) انظر كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع صفحة (٤٣)، وكتاب الملل والنحل، الجزء الأول، صفحة (١٤١).

(٣) انظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد الجزء الأول صفحة (٣٠٥).

(٤) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية صفحة (٣٠٣)، وكتاب الرَّوضُ البَاسِمْ في الذِّبِّ عَنْ سُنَّةِ أبي القَاسِمِ الجزء الأول، صفحة (٢٤٠).

(٥) انظر كتاب رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت صفحة (٢٧٣).

(٦) انظر كتاب الفقه الأكبر صفحة (٥٥)، وكتاب لوامع الأنوار البهية الجزء الأول، صفحة (٤١٦).

وينقص، كقول أهل السنة والجماعة سواء[١].

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصـــان عليه. لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القران، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذا إحدى الروايتين عن مالك"[٢]

القول الثاني: قول من قال الإيمان يزيد ولا ينقص.

وهذا قول طائفة من الأشـــــاعرة، رواية **عن أبي حنيفة-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ)**، والغسانية، النجارية، الإباضية.

أما قول الطائفة من الأشاعرة: فقد أشار إليه البغدادي في "أصول الدين" فقال: "وأما من قال: إنه التصـــديق [٣] بالقلب فقد منعوا من النقصـــان فيه، واختلفوا في زيادته فمنهم من منعها ومنهم من أجازها"[٤]

وأما الرواية عن أبي حنيفة-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ): أن الإيمان يزيد ولا ينقص، فقد ذكرها غير واحد ممن كتب في المقالات، من طريق غسان وغيره عن أبي حنيفة-رحمه الله-.

قال الأشعري-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ): "فأما غسان وأكثر أصحاب أبي حنيفة فإنهم يحكون عن أسلافهم أن الإيمان هو الإقرار والمحبة لله والتعظيم له والهيبة منه وترك الاستخفاف بحقه وأنه يزيد ولا ينقص"[٥].

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "وحكى غســان وجماعة من أصــحاب أبي

---

[١] انظر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: ٢٧٧-٢٩٠) وقد ناقش هذا القول بالتفصيل.

[٢] الفتاوى (٧/ ٥٠٦).

[٣] القول بأن الإيمان هو التصديق هو قول الأشاعرة.

[٤] أصول الدين (ص: ٢٥٢).

[٥] مقالات الإسلاميين (ص: ١٣٩).

حنيفة أنه يزيد ولا ينقص"(١)

وأما الغسـانية: فقد ذكر **البغدادي**–رحمه الله–(**ت: ٤٢٩ هـ**) عن الغسـانية، وهم أتباع غسـان المرجئ أن من أقوالهم إن الإيمان يزيد ولا ينقص، ثم قال: "وزعم غسـان هذا في كتابه أن قوله في هذا الكتاب كقول أبي حنيفة"(٢)

وأما النجارية: فلهم أصـــول باطلة جانبوا فيها الحق وفارقوه منها: قولهم إن الإيمان يزيد ولا ينقص، وقد حكى ذلك عنهم غير واحد ممن كتب في مقالات الفرق كالأشعري والإسفراييني والبغدادي وغيرهم.(٣)

وأما الأباضيه: فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي (ت: ١٣٣٢ هـ) من الأباضية في كتابه مشـارق أنوار العقول: "الإيمان بالمعنى الشـرعي الذي هو أداء الواجبات مطلقاً ليس ينقص نظراً إلى إيمان كل مؤمن، فإنه في ذاته غير متفاوت بالنسبة إلى إيمان غيره"(٤)

القول الثالث: قول من قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

لقد قال بهذا القول طوائف كثيرة من أهل الكلام والإرجاء، والتجهم، وممن نسـب له هذا القول:

أبو حنيفة وأصحابه:

لقد اشـتهر عن الإمام أبي حنيفة–رحمه الله تعالى وغفر له–أنه يقول بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، واسـتفاض هذا عنه، بحيث لا يدع مجالاً للشـك أو التردد في نسـبته إليه، ويمكن أن أبرز أهم الأسباب المؤكدة لصحة نسبة هذا القول إليه في النقاط التالية:

---

(١) إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦).

(٢) الفرق بين الفرق (ص: ٢٠٣). وانظر: انظر مقالات الإسـلاميين للأشـعري (ص: ١٣٩)، والتبصـير في الدين للإسـفراييني (ص: ٩٨)، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص: ٢٠٣).

(٣) انظر مقالات الإســلاميين (ص: ١٣٦) والتبصــير في الدين (ص: ١٠١)، والفرق بين الفرق (ص: ٢٠٨) والفتاوى لابن تيمية (٧/ ٥٤٦).

(٤) مشارق الأنوار (ص: ٣٥-٣٦).

١-إن عامة كتب الفرق والمقالات تنسب هذا القول إليه، كالمقالات لأبي الحسن الأشعري، والفَرْق بين الفِرَق للبغدادي، والمِلَلْ والنِحَلْ للشهرستاني، وغيرها.(١)

٢-إن الكتب المؤلفة في العقيدة والمنسوبة إلى أبي حنيفة رحمه الله تذكر هذا القول، كالفقه الأكبر، وكتاب العالم والمتعلم، والوسيطين الصغير والكبير والوصية ورسالته إلى البتي.(٢)

وهذه الكتب إن لم يصح نسبتها جميعاً إليه، فلا بد أن يصح نسبة بعضها أو واحد منها على أقل تقدير إليه، وعلى كل إن لم يصح لا هذا ولا ذاك فإن هذه الكتب مطبوعة متداولة، وقد احتفى بها الأحناف شرحاً ونشراً ونقلاً، فهي عند عامتهم مسلم بما فيها، وقد شرح بعضها شروح مطولة عديدة، ونقل منها نقولٌ متكاثرة، واعتمد على ما فيها من عقائد.(٣)

وممن قال بهذا القول: الجهمية.

ومن مقولاتهم الفاسدة وآرائهم المنحرفة زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل أهله فيه.

قال الأشعري-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ): "وزعمت الجهمية أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه"(٤)

وقال الشهرستاني-رحمه الله-(٥٤٨ هـ): "قال أي الجهم: والإيمان لا يتبعض أي لا ينقسم إلى عقد وقول وعمل، قال: ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد، إذ المعارف لا تتفاضل"(٥)

وجهم وأتباعه إنما قالوا بهذا القول لأن الإيمان عندهم مجرد التصديق، فمن صدق بقلبه فهو

(١) المقالات (ص: ١٣٩)، الفَرْق بين الفِرَق (ص: ٢٠٣)، ونقله عنه الزبيدي في الإتحاف (٢/ ٢٦٥)، الملل والنحل (١/ ١٤١).
(٢) انظر: فيض الباري للكشميري (١/ ٥٩).
(٣) انظر كتاب زيادة الإيمان ونقصانه (ص: ٣١٨-٣١٩).
(٤) المقالات (ص: ١٣٢).
(٥) الملل والنحل (١/ ٨٨).

عندهم مؤمن كامل الإيمان وإن تكلم بالكفر، وسب الله ورسوله ﷺ وسخر بالدين، وأحل المحرمات، وفعل غير ذلك من الأمور التي هي كفر بواح.

والتصديق عندهم يتساوى فيه العباد، ولا يقبل الزيادة والنقصان فهو إما أن يعدم وإما أن يوجد، ولا يقبل التبعض، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، ولا يتفاضل الناس فيه، فإيمان الملائكة والأنبياء والصديقين وإيمان فساق الأمة وأهل الخنا والفجور سواء"(١)

ومن قال بهذا القول: الخوارج والمعتزلة:

ذهبت الخوارج والمعتزلة مذهب أهل السنة والجماعة في تعريف الإيمان من حيث إنه شامل للأعمال والأقوال والاعتقادات، إلا أنهم فارقوا أهل السنة والجماعة بقولهم إن الإيمان كل واحد لا يتجزأ إذا ذهب بعضه ذهب كله، وأنه لا يقبل التبعض.

ومن هنا كان الإخلال بالأعمال وارتكاب الكبائر عندهم مخرجاً من الإيمان كلية، على خلاف بينهم في تسميته كافراً، فالخوارج قطعوا بكفره، ونازعهم المعتزلة في الاسم وقالوا نحن لا نسميه مؤمناً ولا كافراً، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين أي: بين منزلة الإيمان والكفر، وإن كانوا قد اتفقوا جميعاً أنه يوم القيامة خالد مخلد في نار جهنم.(٢)

قال ابن تيمية –رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "قالت الخوارج والمعتزلة قد علمنا يقينًا أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان، وإذا زال بعضه زال جميعه؛ لأن الإيمان لا يتبعض ولا يكون في العبد إيمان ونفاق، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين في النار إذ كان ليس معهم من الإيمان شيء"(٣)

وأصل غلط هؤلاء ومنشأ ضلالهم كما **قال ابن تيمية –رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مستحقًا للثواب والعقاب والوعد والوعيد والحمد والذم،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢).

(٢) انظر الفتاوى (٧/ ٢٢٣، ٢٥٧) وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية (ص: ١٣٧).

(٣) الفتاوى (١٣/ ٤٨).

بل إما لهذا وإما لهذا فأحبطوا جميع حســـناته بالكبيرة التي فعلها، وقالوا: "الإيمان هو الطاعة فيزول بزوال بعض الطاعة، ثم تنازعوا هل يخلفه الكفر على القولين ووافقتهم المرجئة والجهمية على أن الإيمان يزول كله بزوال شـــيء منه، وأنه لا يتبعض ولا يتفاضـــل فلا يزيد ولا ينقص وقالوا إن إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والمؤمنين"(١)

فهذه الشـبهة هي التي أفسـدت على هؤلاء قولهم، بل وعلى جميع المرجئة، كما قال شـيخ الإسـلام: "وإنما أوقع هؤلاء كلهم أي المرجئة بأقسـامهم–ما أوقع الخوارج والمعتزلة في ظنهم أن الإيمان لا يتبعض، بل إذا ذهب بعضـه ذهب كله، ومذهب أهل السـنة والجماعة أنه يتبعض وأنه ينقص ولا يزول جميعه"(٢)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وجماع شـــبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشـــرة فإنه إذا زال بعضـــها لم تبق عشـــرة، وكذلك الأجســـام كالســـكنجبين(٣) إذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه ســـكنجبين، قالوا فإذا كان الإيمان مركبًا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها"(٤)

ومن قال بهذا القول: الأشاعرة والماتريدية:

لقد ذهب جمهور الأشــاعرة وجميع الماتريدية إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لشــبه عقلية وأدلة نظرية، وذهب بعض الأشاعرة إلى أن الإيمان يزيد وينقص"(٥)

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٣٧، ١٣٨)، وانظر الفتاوى (٧/ ٤٠٤).

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٤٣، ١٤٤).

(٣) السكنجبين: شراب مركب من حامض وحلوا–معرب–فارسيته: سركا انكبين انظر المعجم الوسيط (١/ ٤٤٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٥١١).

(٥) انظر شـــرح مســـلم للنووي (١/ ١٤٨)، وفتح الباري لابن حجر (١/ ٤٦)، وعمدة القاري للعيني (١/ ١٣٦) وتحفة القاري "للكاندهلوي" (ص: ٤٤) مجموع "شـروح البخاري" (١/ ١١٢)، النبراس شـرح العقائد (ص: ٤٠٢)، المسـامرة شرح المسـايرة (ص: ٣٦٧)، أصول الدين للبغدادي (ص: ٢٥٢)، وأصول الدين للبزدوي (ص: ١٥٣)، والاقتصاد للغزالي (ص: ٢٠٨)، والمواقف للإيجي (ص: ٣٨٨)، والإنصاف للباقلاني (ص: ٨٦)، والإرشاد للجويني (ص: ٣٣٥) وغيرها.

قال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "وقال أبو حنيفة وأصـــحابه لا يزيد الإيمان ولا ينقص واختاره أبو منصور الماتريدي ومن الأشاعرة إمام الحرمين وجمع كثير"(١)

وقال ابن أبي شريف الحنفي-رحمه الله-(ت: ٩٠٦ هـ): "وهذا القول-أي أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص-اختاره من الأشـــاعرة أمام الحرمين وجمع كثير، وذهب عامتهم أي أكثر الأشاعرة إلى زيادته ونقصانه"(٢)

وقال الفرهاري-رحمه الله-(ت: ١٢٣٩ هـ): "مـذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله والمتكلمين من أهل السنة أنه لا يزيد ولا ينقص"(٣).

فالماتريدية لهم قول واحد في المســألة وهو أن الإيمان غير قابل للزيادة والنقصـــان، وأما الأشـــاعرة فلهم في المســألة قولان: فجمهورهم على أنه لا يقبل الزيادة والنقصــان، وذهب بعضهم إلى أنه يقبلهما، والأشاعرة يعرفون الإيمان بأنه التصديق وحده، فلا يدخل فيه القول والعمل، فبحثهم هنا هو في التصديق هل يقبل الزيادة والنقصان أو لا؟

فالذين قالوا لا يزيد ولا ينقص فبناء على أن الإيمان هو التصـــديق اليقيني الغير قابل للتفاوت، فإن نقص فنقصه شك وكفر، ولشبه أخرى.

ومن قال منهم يزيد وينقص فللقطع بأن تصـــديق آحاد الأمة ليس كتصـــديق النبي ﷺ، واختاره النووي وعزاه التفتازاني في شرح العقائد لبعض المحققين وقال في المواقف إنه الحق(٤)

المسألة الثالثة: ثمرة الخلاف في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

فمسائل الأسماء لها تناول معين لدى الفرق، ومسائل الأحكام لها تناول معين لدى الفرق، وهذه مسائل يطول شرحها لكن لعل ما أشرنا إليه يُبين ما مدى صفاء عقيدة أهل السنة

---

(١) إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦).

(٢) المسامرة (ص: ٣٦٧).

(٣) النبراس شرح العقائد (ص: ٤٠٢).

(٤) انظر شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٢) وشرح العقائد النسفية للتفتازاني (ص: ١٢٦) والمواقف للأيجي (ص: ٣٨٨) وانظر إرشاد الساري للقسطلاني (١/ ١١٢) ضمن مجموع شروح البخاري.

وأن والإيمان عندهم قولٌ واعتقادٌ وعمل يزيد وينقص، زيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصي.

وزيادة الإيمان ونقصانه أمر يراه الإنسان من نفسه، فقد يكون حاله اليوم من الإيمان أحسن من حاله في الأمس، أو قد يكون حاله في الأمس أحسن من حاله في هذا اليوم، فالإيمان فيه زيادة ونقص، فيزيد إلى ما شاء الله، وينقص أحياناً حتى يزول هذا الإيمان ولا يبقى منه شيء، ويُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافرا.

والقول إن الإيمان يزيد وينقص في اعتقاد أهل السنة والجماعة، يترتب عليه أمور كثيرة في مسائل الأحكام، فهذه المسألة مرتبطة بمسألتين:

الأولى: حكم مرتكب الكبيرة.

فالقول بزيادة الإيمان ونقصانه له تعلق بمسألة حكم مرتكب الكبيرة، فأهل السنة لا يرون تكفير مرتكب الكبيرة دون الشرك الأكبر، ويقولون إن صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته فلا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية.

والمسألة الثانية: مسألة مراتب الدين.

أي ما يتعلق بدخول الإنسان إلى هذا الدين متى ينتقل في مراتب الدين؛ لأن مراتب الدين ثلاثة: الإسلام، الإيمان، الإحسان، فهي عبارة عن ثلاث دوائر أول دائرة فيه هي الإسلام، ثم هناك دائرة أضيق منها هي الإيمان، ويعني هذا الضيق أن من هو مؤمن هو مسلم، ولكن ليس بالضرورة من كان مسلماً أن يكون مؤمنا، ثم تأتي الدائرة الأضيق هي دائرة الإحسان؛ لأن الإحسان فحواه ومعناه أن تُتقن الظاهر والباطن.

فعندما أقول أحسنت بمعنى أتقنت فالإحسان إتقان الظاهر والباطن، فإذا أُتقن الظاهر والباطن فهذه مرتبة عليا، فكل مسلم مؤمن مسلم، ولكن ليس كل مؤمن محسن، قد يكون محسن وقد لا يكون محسنا، فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة.

كما أنه مرتبط بتفاضل الناس في إيمانهم وتفاضل درجاتهم في الآخرة إلى غير ذلك من المسائل ذات الصلة.

الاستثناء في الإيمان

[٤]- قال المصنف رحمه الله: ويُستثنى في الإيمان [غير أن لا يكون الاستثناء شكّـًا، إنما هي] سُنَّة ماضية عن العلماء.

الشرح

أ-الاستثناء في اللغة:

بمعنى المنع والصرف، وأصل الاستثناء مأخوذ من الثني، وهو ردُّ الشيء بعضه على بعض. والثني العطف، وكل شيء عطفته فقد ثنيته؛ كما يطلق الثني على تكرير الشّيء مرّتين، أو جعلُه شيئين متواليَين أو متباينين، ومن ذلك عدد الاثنين. والاستثناء يشمل أمرين:

١ ـ الاستثناء الوضعي، وهو الذي يكون بأداة الاستثناء، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [العصر: الآيات: ٢-٣]

٢ ـ الاستثناء العرفي، وهو ما لم يكن بأداة الاستثناء، بل يكون الموجود كلمة الشرط، كما جاء في قوله تعالى: ﴿...**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ** *﴾ [القلم: الآيات: ١٧-١٨]؛ أي: لا يقولون: إن شاء الله.[١]. ومنه قول القائل: لأفعلن كذا إن شاء الله، أو: أنا مؤمن إن شاء الله"[٢].

ب-تعريف الشرعي للاستثناء في الإيمان:

الاستثناء في الإيمان هو: أن يُعَلِّق الشخص إيمانه على ما لا يدل على الجزم والقطع بكمال الإيمان؛ كأن يعلقه على مشـــيئة الله، فيقول: أنا مؤمن إن شـــاء الله، أو: مؤمن أرجو، ونحو ذلك، فلا يقطع بكمال الإيمان لنفسه.[٣]

---

(١) انظر: تفسير البغوي (١٩٥/٨) [دار طيبة، ط١، ١٤١٧هـ].

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٣٩١/١) [دار الجيل، ط٢]، ولسان العرب (١١٥/١٤ ـــ ١٢٥) [دار صادر، ط١]، والكليات للكفوي (٩١)، وبدائع الصنائع للكاساني (١٥٣/٣ ـ ١٥٤) [دار الكتاب العربي، ط٢].

(٣) انظر: بيان اللجنة الدائمة للإفتاء، فتوى رقم (٢١٤٣٦)، صادرة بتاريخ (٨/٤/١٤٢١هـ)..

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو مؤمن أرجو، أو آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله، أو إن كنت تريد الإيمان الذي يعصم دمي فنعم، وإن كنت تريد ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: الآية: ٢] فالله أعلم"(١).

وقال ابن أبي العز–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "الاستثناء في الإيمان،... هو: أن يقول أي: الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله" (٢).

ج–العلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي:

المعنى الشرعي للاستثناء في الإيمان مندرج تحت عموم المعنى اللغوي للثني، وهو الرجوع والتكرار، فبعد أن أقر القائل لنفسه بالإيمان بقوله: "أنا مؤمن"، انثنى ورجع ليعلق ذلك الإقرار بأمر آخر، وهو مشيئة الله، فيقول: "إن شاء الله".

وهذا مندرج تحت المعنى الثاني من المعاني اللغوية، وهو الاستثناء العرفي الذي يعلق فيه الأمر على مشيئة الله بغير أداة الاستثناء.

حكم الاستثناء في الإيمان عند أهل السُّنَّة(٣):

الاستثناء في الإيمان له حالتان:

الحالة الأولى: إذا أريد كمال الإيمان: يكون الاستثناء مشروعًا.

وذلك لما يلي:

١ ـ أن الإيمان الكامل يشمل فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه، ولا يدعي أحد أنه جاء بذلك كله على التمام والكمال.

٢ ـ أن الإيمان النافع هو المتقبل عند الله، والإنسان لا يدري؛ أتقبل الله منه أم لا، فلذلك

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٦٦٦).

(٢) شرح الطحاوية (٣٩٥)، وانظر: السُّنَّة لعبد الله بن أحمد (١/٣٤٧) [دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٦هـ].

(٣) هذا المبحث مستفاد من موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة مبحث (الاستثناء في الإيمان).

صح له أن يستثني.

٣ ـ البعد عن تزكية النفس.

٤ ـــ أن الإيمان الكامل يقتضي دخول الجنة، والإنسان لا يدري بما يختم له[١]، فيستثني لعدم العلم بالعاقبة.[٢]

الحالة الثانية: إن أريد أصل الإيمان، فلا يخلو ذلك من حالتين:

١ ـــ إن كان الاستثناء على جهة الشك: فإنه لا يجوز. سئل الإمام أحمد رحمه الله: يستثنى في الإيمان؟ قال: "نعم، أقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أستثني على اليقين لا على الشك"[٣]

٢ ـــ وأما إن كان الاستثناء من باب أنه يجوز في الأمور المتحققة المتيقنة ذكر مشيئة الرب، لا على جهة الشـــك في أصـــل الإيمان، بل لأن الأمور كلها إنما تكون بمشـــيئة الرب؛ فإن الاستثناء جائز.

قال ابن تيمية رحمه الله: "وأما جواز إطلاق القول بأني مؤمن، فيصح إذا عنى أصل الإيمان دون كماله، والدخول فيه دون تمامه"[٤]

وقال: "ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن، بلا استثناء، إذا أراد ذلك ـ يعني: أصــل الإيمان، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استـثناء يقدمه... فعلم أن أحمد وغيره من السـلف كانوا

---

(١) انظر حول التعليل بعدم العلم بالخاتمة: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٢/١٣).

(٢) انظر حول التعليل بعدم العلم بالعاقبة: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨٩/٣)، وحول هذا الوجه وبقية الوجوه انظر: الشرح والإبانة (المسمى بالإبانة الصغرى) لابن بطة (١٧٩ . ١٨١) [مكتبة العلوم والحكم، ط١، ١٤٢٣هـ]، والرسالة الواضحة في الرد على الأشاعرة لابن الحنبلي (٨١٤/٢ ـــ ٨١٥) [مجموعة التحف النفائس الدولية، ط١، ١٤٢٠هــ]، والانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٧٨١/٣ ـــــ ٧٩٢) [دار أضـواء السـلف، ط١]، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٩٦/٧)، وشـرح الطحاوية لابن أبي العز (٣٩٨) [المكتب الإسلامي، ط٤].

(٣) السُّنَّة للخلاّل (٥٩٦/٣) [دار الراية، ط١، ١٤١٠هـ]..

(٤) مجموع الفتاوى (٦٦٩/٧)..

يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلب من الإيمان في هذه الحال، ويجعلون الاستثناء عائدًا إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور، ويحتجون أيضًا بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه، وهذا مأخذ ثان وإن كنا لا نشك فيما في قلوبنا من الإيمان"(١)

الأدلة:

أ ـ جزم المرء بالإيمان الكامل لنفسه هو من تزكية النفس، ومما يدل على مشروعية البعد عن تزكية النفس ما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ***﴾ [النجم: الآية: ٣٢].

٢ ـ وقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: الآية: ٤٩].

وليس هناك تزكية للنفس أعظم من الشهادة لها بالإيمان الكامل.

٣ ـ ويشهد لهذا ما جاء **عن ابن مسعود**–**رضي الله عنه**–**(ت: ٣٢ هـ)** عندما قال رجل عنده: "أنا مؤمن"، فقال له ابن مسعود: "أفأنت من أهل الجنة؟" قال: "أرجو"، قال ابن مسعود: "أفلا وكلت الأولى كما وكلت الأخرى"(٢)

٤ ـ الإجماع، فإن الاستثناء في الإيمان ـ إذا أريد به كماله ـ هو مذهب جماهير السلف، بل هم مجمعون على مشروعيته في هذه الحال.(٣)

يقول **يحيى بن سعيد القطان**–**رحمه الله**–**(ت: ١٩٨ هـ)**: "ما أدركت أحدًا من أصحابنا إلا على الاستثناء"(٤)

(١) المصدر نفسه (٧/٤٤٩ ـ ٤٥٠)..

(٢) أخرجه أبو عبيد في الإيمان (٣٥) [مكتبة المعارف، ط١]، والآجري في الشريعة (٢/٦٦٥) [دار الوطن، ط٢].

(٣) انظر: السُّنَّة لعبد الله بن أحمد (١/٣٤٧)، والإبانة لابن بطة (٢/٨٧٣) [دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٦هـ]، وشعب الإيمان للبيهقي (١/٢١٢)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٤٣٨، ٤٣٩، ٥٠٥، ٦٦٦). وقد عدد اللالكائي أسماء من روي عنهم الاستثناء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، كما في: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٥/١٠٤٧).

(٤) رواه الخلال في السُّنَّة (٣/٥٩٥).

ب ـــ ومما يدل على أن الإيمان إذا أريد به أصله فإن الإنسان لا يستثني باعتبار الشك في الأصـــل مـا يلي: قولـه تعـالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية: ١٣٦].

فأمر المؤمنين بالإقرار بالإيمان، ولم يذكر الاستثناء؛ لأن ما ذكر في الآية هي أصول الإيمان، فهي مما يجب أن يجزم الإنسان به لنفسه من دون شك.

ج- ومما يدل على أن الاستثناء يجوز في الأمور المتحققة المتيقنة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: الآية: ٢٧]، فذكر الله الاستثناء، مع أن دخولهم للمسجد الحرام شيء مستيقن.[(١)]

أقوال العلماء

عن **عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)**، قال: "ومن لم يعلم من يؤمن بالله حقاً فلا يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون مؤمناً"[(٢)]

عن أبي الدرداء–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، قال: "اللهم اغفر لي ظلمي وكفري" فقال له قائل: يا أبا الدرداء، هذا كفر؟ قال: "نعم، كل من عصى الله فقد كفر"[(٣)]

عن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)، قالت: "لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن، ولكن ليقل: أرجو أن أكون من المؤمنين"[(٤)]

عن سعيد بن جبير–رحمه الله–(ت: ٩٥ هـ)، قال: "إن الإيمان يزيد وينقص، فليقل

(١) انظر: الإيمان لأبي عبيد (٣٨ ـ ٣٩)، والسُّنَّة للخلال (٣/٥٩٤)، مجموع الفتاوى (٣/٢٨٩) و(٧/٤٢٩ ـ ٤٦٠)، وشرح العقيدة الطحاوية (٢/٤٩٤ ـ ٤٩٦) [مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١١هـ].

(٢) "صحيح البخاري"، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ "بني الإسلام على خمس"

(٣) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج ٧، ص ٦٤.

(٤) "التمهيد" لابن عبد البر، ج ٩، ص ٢٣٩.

أحدكم: أنا مؤمن إن شاء الله"(١)

عن مجاهد-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً"(٢)

عن مكحول-رحمه الله-(ت: ١١٣ أو ١١٤ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ولا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون مؤمناً"(٣)

عن الحسن البصري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، قال: "لا أقول إنني مؤمن حقاً، ولا كافر حقاً، ولكني أرجو أن أكون من المؤمنين وأخاف أن أكون من الكافرين"(٤)

وسأل رجل الحسن البصري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، فقال: يا أبا سعيد، أمؤمن أنت؟ فقال له: "الإيمان إيمانان:

فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب: فأنا به مؤمن.

وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ***﴾ [الأنفال: الآيات ٢-٤] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا"(٥)

عن الإمام الأوزاعي-رحمه الله-(ت: ١٥٧ هـ)، قال: "من قال أنا مؤمن حقاً فهو من

(١) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج ٢، ص ٨٤٥.

(٢) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج ٦، ص ١٢٧.

(٣) "التمهيد" لابن عبد البر، ج ٩، ص ٢٤٢.

(٤) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج ٢، ص ٨٤٤.

(٥) تفسير القرطبي (٣٦٧/٧) [دار الشعب].

الكاذبين، ومن قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكافرين، ومن قال أنا مؤمن إن شـاء الله فقد وفق"(١)

عن سـفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، قال: "من قال أنا مؤمن حقاً فهو من الكاذبين، ومن قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكافرين، ومن قال أنا مؤمن إن شـاء الله فقد وفق"(٢)

عن الليث بن سـعد-رحمه الله-(ت: ١٧٥ هـ)، قال: "لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولكن ليقل: أرجو أن أكون من المؤمنين"(٣)

عن الإمام مالك بن أنس-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، قال: "الاسـتثناء في الإيمان ليس بشك، ولكنه من التواضع والورع"(٤)

عن الإمام الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)، قال: "من استثنى في إيمانه فقد أصاب، ومن لم يستثن لم يخطئ"(٥)

عن الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، قال: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا يقول أنا مؤمن حقاً، ولكن يقول: أرجو أن أكون مؤمناً"(٦)

وقال الآجري-رحمه الله-(ت: ٣٦٠ هـ): "من صفة أهل الحق، ممن ذكرنا من أهل العلم الاستثناء في الإيمان، لا على جهة الشك ـــ نعوذ بالله من الشك في الإيمان ـــ ولكن خوف التزكية لأنفسـهم من الاسـتكمال للإيمان، لا يدري أهو ممن يسـتحق حقيقة الإيمان أم لا؟

(١) "سير أعلام النبلاء" للذهبي، ج ٧، ص ١٢٠.

(٢) "الإبانة الكبرى" لابن بطة، ج ٢، ص ٨٤٨..

(٣) "مصنف ابن أبي شيبة"، ج ٦، ص ١٢٨.

(٤) "التمهيد" لابن عبد البر، ج ٩، ص ٢٣٨.

(٥) "السنن الكبرى" للبيهقي، ج ٦، ص ٣٧٠.

(٦) "السنة" للخلال، ج ١، ص ٢٨٨.

وذلك أن أهل العلم من أهل الحق إذا ســـئلوا: أمؤمن أنت؟ قال: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسـله، واليوم الآخر، والجنة والنار وأشـباه هذا، فالناطق بهذا والمصـدق بقلبه مؤمن، وإنما الاســـتثناء في الإيمان، لا يدرى أهو ممن يســـتوجب ما نعت الله به المؤمنين من حقيقة الإيمان أم لا؟ هذا طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان، عندهم أن الاستثناء في الأعمال لا يكون في القول والتصديق في القلب، وإنما الاستثناء في الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان"[(١)].

قال الإمام ابن تيمية-رحمه الله-: "من قال: أنا مؤمن إن شـــاء الله، يخرج به عن دعوى الإيمان المطلق، كما أن من قال: أنا عالم إن شـاء الله، كان أدباً مع الله؛ لأن العلم المطلق هو ما لا يدخله شك ولا نقص، وكذلك الإيمان المطلق"[(٢)].

قال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ): "الاســـتثناء في الإيمان ليس بشـــك، ولكنه من التواضع والورع"[(٣)]

---

(١) الشريعة للآجري (٢/٦٥٦ ـ ٦٥٧).

(٢) "مجموع الفتاوى"، ج ٧، ص ٣٥٢.

(٣) "سير أعلام النبلاء"، ج ٧، ص ١٢١.



إذا سئل الرجل: أمؤمن أنت؟

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: حكم قول الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟

المسألة الثانية: حكم من قال أنا مؤمن إن شاء الله على جهة الشك.

المسألة الثالثة: حكم أنا مؤمن كامل الإيمان ولم يستثن.

المسألة الرابعة: الاستثناء في الإسلام.

المسألة الخامسة: الاستثناء في الماضي المعلوم المتيقن.

المسألة السادسة: الاستثناء في الأعمال الصالحة.



[٥]- قال المصنف رحمه الله: وإذا سُئل الرجل: أمؤمن أنت؟ فإنه يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو مؤمن أرجو، أو يقول: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله.

الشرح

المسألة الأولى: حكم قول الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟

لقد أنكر السلف سؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت، بل عدُّوا ذلك السؤال من البدع والتعمق والتكلف، والإيمان القائم بالإنسان علمه عند الله، فمن شهد لنفسه بالإيمان لم تكن شهادته موجبة له أن يدخل الجنة، كما أن من لم يشهد لنفسه بالإيمان الكامل لم يكن تركه لتلك الشهادة موجبًا له أن لا يدخلها.[١]

قال إبراهيم النخعي-رحمه الله-(ت: ٩٦ هـ): "سؤال الرجلِ الرجلَ: أمؤمن أنت؟ بدعة"[٢]

وقيل للإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "إذا سألني الرجل: أمؤمن أنت؟ قال: سؤاله إياك بدعة، لا يشك في إيمانك، أو قال: لا نشك في إيماننا"[٣].

وقال سفيان بن عيينة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ): "إذا سئل أمؤمن أنت؟ إن شاء لم يجبه، ويقول: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني"[٤].

ووجه كراهة السلف لهذا السؤال: أنه قد جاء من قِبَل المرجئة؛ فقد سأل رجلٌ الإمامَ أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، فقال له: "قيل لي: أمؤمن أنت؟" قلت: نعم، هل عليَّ في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب الإمام أحمد، وقال: هذا كلام الإرجاء، وقال الله

---

(١) انظر: الشريعة للآجري (٦٧٣/٢ - ٦٧٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٨/١١) [مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩هـ]، وعبد الله بن أحمد في السُّنَّة (١٤١/١)، والآجري في الشريعة (٦٧١/٢).

(٣) انظر: السُّنَّة للخلال (٦٠١/٣)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٤٨/٧).

(٤) السُّنَّة للخلال (٥٩٧/٣)، وانظر: الشريعة للآجري (٦٧٣/٢ - ٦٧٤)، الإبانة لابن بطة (٨٨٣/٢).

عزّ وجل: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية: ١٠٦]، من هؤلاء؟ ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قال الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول؟ قال: نعم، قال: فجئنا بالعمل؟ قال: لا. قال: فكيف تعيب أن يقول: "إن شاء الله) ويستثني؟"[(١)].

المسألة الثانية: في حكم من قال: (أنا مؤمن إن شاء الله) على جهة الشك:

حسب ما تقدم من تفصيل، فإن من استثنى قاصدًا الشك ففيه تفصيل:

أ ـــ إن قصد الشك في أصل الإيمان، فهذا محرم، وقد يخرج به صاحبه عن الديانة.

ب ـــ وإن كان قاصدًا الشك في كمال الإيمان، فالاستثناء هنا مشروع، وتقدم تفصيل ذلك وبيان علته.[(٢)].

المسألة الثالثة: في حكم من قال: "أنا مؤمن كامل الإيمان" ولم يستثن:

من أثبت لنفسه كمال الإيمان بدون استثناء فقد وقع في المحظور، ويخشى عليه الإثم لوقوعه في تزكية النفس المنهي عنها في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: الآية: ٣٢]"[(٣)].

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "لا نجد بدًّا من الاستثناء؛ لأنه إذا قال: "أنا مؤمن" فقد جاء بالقول، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول"[(٤)].

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلّام–رحمه الله–(ت: ٢٢٤ هـ): "وكذلك نرى مذهب الفقهاء الذين كانوا يتسمون بهذا الاسم ـ يعني: الإيمان ـ بلا استثناء، فيقولون: نحن مؤمنون... إنما هو عندنا منهم على الدخول في الإيمان، لا على الاستكمال... فأما على

---

(١) السُّنَّة للخلال (٣/٥٩٧)، وانظر: الشريعة للآجري (٢/٦٧٣ ـ ٦٧٤)، الإبانة لابن بطة (٢/٨٨٣)

(٢) انظر: السُّنَّة للخلال (٣/٥٩٦) [دار الراية، ط١، ١٤١٠هـ]، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٦٦٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٦٦٩).

(٤) رواه الخلال في السُّنَّة (٣/٦٠١).

مذهب من قال: (كإيمان الملائكة والنبيين) فمعاذ الله، ليس هذا طريق العلماء"[(١)].

وقال الإمام ابن بطة العكبري-رحمه الله-(ت: ٣٨٧ هـ): "فهذه سبيل المؤمنين، وطريق العقلاء من العلماء، لزوم الاستثناء والخوف والرجاء، لا يدرون كيف أحوالهم عند الله، ولا كيف أعمالهم، أمقبولة هي أم مردودة... فهل يجوز لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجزم أن أعماله الصالحة من أفعال الخير وأعمال البر كلها مرضيَّة، وعنده زكيَّة، ولديه مقبولة؟! هذا لا يقدر على حتمه وجزمه إلا جاهل مغتر بالله، نعوذ بالله من الغرة بالله، والإصرار على معصية الله"[(٢)].

المسألة الرابعة: الاستثناء في الإسلام:

المشهور عند أهل السُّنَّة والجماعة؛ كالإمام أحمد بن حنبل وغيره هو عدم الاستثناء في الإسلام فيقول أحدهم: أنا مسلم ولا يستثني، هذا هو الأصل عندهم في هذه المسألة، بخلاف الإيمان، فالغالب عندهم فيه الاستثناء كما تقدم.[(٣)]

سئل الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) عن الاستثناء في الإيمان، فقال: "نحن نذهب إلى الاستثناء"، فقيل له: فأما إذا قال: أنا مسلم فلا يستثني؟ فقال: "لا يستثني إذا قال: أنا مسلم، قال الزهري: نرى الإسلام الكلمة، والإيمان العمل"[(٤)].. إلا أن الإمام أحمد قد تعددت عنه الروايات في ذلك:

فالرواية الأولى: منع الاستثناء في الإسلام، وهي الرواية المشهورة عنه.[(٥)]

---

(١) الإيمان لأبي عبيد (٤٠ ـ ٤١).

(٢) الإبانة لابن بطة (٢/٨٧٢ ـ ٨٧٣).

(٣) انظر: الفرقان بين الحق والباطل ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/٤٣) [مكتبة ابن تيمية، ط٢]، والتحبير شرح التحرير للمرداوي (٢/٥٣١) [مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢١هـ]، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/٤٣٨) [مؤسسة الخافقين، ط٢].

(٤) الشرح والإبانة (المسمى بالإبانة الصغرى) لابن بطة (٢/٨٧٦).

(٥) الإيمان لابن منده (١/٣١١) [مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ]، والسُّنَّة للخلال (٣/٦٠٤)، والإبانة الصغرى لابن بطة (٢/٨٧٦)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٤٣) و(١٣/٤٣).

ومما يستدل به على ذلك:

١ ـ أن نصوص الشريعة قد دلَّت على الشهادة للنفس بالإسلام بدون ذكر الاستثناء، ومن ذلك:

ـــــ قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: الآية: ١٤]، **قال ابن تيمية –رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "وهذه الآية ـ يعني: آية الحجرات السالفة ـــــ مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على أنه يُستثنى في الإيمان دون الإسلام... **قال الميموني–رحمه الله–(ت: ٢٧٤ هـ)**: سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في: أنا مؤمن إن شاء الله، فقال: أقول: مؤمن إن شاء الله، وأقول: مسلم ولا أستثني، قال: قلت لأحمد: تُفَرِّق بين الإسلام والايمان؟ فقال لي: نعم، فقلت له: بأيِّ شيء تحتج؟ قال لي: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: الآية: ١٤]"(١)

٢ ـــــ أن كل من نطق بالشهادتين صار مسلمًا، متميزًا عن سائر الكافرين، تجري عليه أحكام المسلمين، وهذا أمر لا شك في تحققه عند جميع المسلمين، فجُزم به بلا استثناء.(٢)

والرواية الثانية: تجويز الاستثناء في الإسلام.(٣)

وليس بين هاتين الروايتين تعارض، وبيان ذلك:

أن الإسلام له إطلاقان عند الإمام أحمد:

الإطلاق الأول: أن يراد بالإسلام: الكلمة. وهذا الإطلاق مشهور **عن ابن شهاب الزهري–رحمه الله–(ت: ١٢٣ أو ١٢٤ هـ)**. والمراد بالكلمة: الشهادتان.(٤)

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٢٥٣)..

(٢) انظر: الإيمان الكبير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٤١٥)، زيادة الإيمان ونقصانه لعبد الرزاق البدر (٤٩٥ ـــ ٤٩٦) [دار القلم والكتاب، ط١، ١٤١٦هـ].

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٤١٥).

(٤) انظر: عون المعبود للعظيم آبادي (١٢/٢٨٧) [دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٥م]، ومرقاة المفاتيح لعلي قاري (٧/٥٤٢) [دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ].

وعليه؛ فـ"يكون مراد الزهري أن المرء يُحكم بإسلامه ويسمى مسلمًا إذا تلفظ بالكلمة؛ أي: كلمة الشهادة، وأنه لا يسمى مؤمنًا إلا بالعمل، والعمل يشمل عمل القلب والجوارح... وأما الإسلام المذكور في حديث جبريل فهو الشرعي الكامل المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية: ٨٥]"(١)

وعلى هذا الإطلاق تحمل رواية المنع من الاستثناء في الإسلام عند الإمام أحمد؛ لأن النطق بالشهادتين هو مما يجزم به كل مسلم ولا يجوز الشك فيه.

الإطلاق الثاني: أن يراد بالإسلام فعل الواجبات الظاهرة كلها كما أمر به الله.

فعلى هذا الإطلاق تحمل رواية جواز الاستثناء، فيُستَثنى في الإسلام كما يُستثنى في الإيمان.(٢).

فالحاصل: أنه إن أريد أصل الإسلام، وهو النطق بالشهادتين: مُنِع الاستثناء.

وإن أريد كمال الإسلام، المتضمن لفعل الواجبات وترك المحرمات على ما أمر به الله جاز الاستثناء.

المسألة الخامسة: الاستثناء في الماضي المعلوم المتيقن:

الاستثناء في الماضي المعلوم المتيقن، مثل قولهم: هذه شجرة إن شاء الله، أو محمد رسول الله إن شاء الله، وأنه قد صلى بالأمس إن شاء الله، فهذا بدعة مخالفة للعقل والدين، ولم يكن عليه أحد من أهل الإسلام السابقين، وأئمة الدين، ولم يأت في الكتاب ولا السُّنَّة استثناء في الماضي، بل كل ما ورد فهو في المستقبل؛ كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي

(١) فتح الباري لابن حجر (١/٨١ ـ ٨٢) [دار المعرفة].

(٢) انظر حول هذا التفصيل: الإيمان الكبير ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٢٥٩، ٤١٥)، والتحبير شرح التحرير للمرداوي (٢/٥٣١ ـ ٥٣٢).

فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: الآيات: ٢٣-٢٤].[١]

المسألة السادسة: الاستثناء في الأعمال الصالحة:

الاستثناء في الأعمال الصالحة بحيث يقال: صليت إن شاء الله، وصمت إن شاء الله، وحججت إن شاء الله، القول فيها كالقول في الاستثناء في الإيمان؛ إذ هي أفراد الإيمان؛ فإن كان المقصد خوف التزكية، أو الخوف من عدم الإتيان بالعمل الصالح على وجه الكمال شرع له الاستثناء، وإن كان المقصد مجرد الإخبار عن العمل كأن يقول: صليت وصمت وحججت فلا يستثني.

قال ابن تيمية: "وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على الوجه المأمور، وهذا أظهر الوجوه في استثناء من استثنى منه في الإيمان، وفي أعمال الإيمان؛ كقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، وصليت إن شاء الله؛ لخوف أن لا يكون أتى بالواجب على الوجه المأمور به، لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق"[٢]

مذاهب المخالفين:

للمخالفين عدة أقوال في حكم الاستثناء في الإيمان:

القول الأول: القول بوجوب الاستثناء في الإيمان. وهو قول الكلابية [٣]وجمهور الأشاعرة[٤] وعلّلوا ذلك بأمرين:

١. أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان، وكذلك الكفر هو ما مات عليه الإنسان، فالإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا أو كافرًا باعتبار الموافاة، وما سبق في علم الله أنه يكون

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٢١/٨، ٤٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٩٦/٧)..

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨٩/٣) (٤٣٠/٧)، والاستقامة لابن تيمية (١٥٠/١) [طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٣هـ].

(٤) انظر: أصول الدين للبغدادي (٢٥٣) [دار زاهد القدسي]، وشرح المقاصد للتفتازاني (٢٥٣) [دار المعارف النعمانية، ط١، ١٤٠١هـ].

عليه، وما قبل ذلك فلا عبرة به.

٢ ـ البعد عن تزكية النفس بالشهادة لها بالإيمان.[(١)]

وهم قد وافقوا السلف في الاعتبار الثاني دون الاعتبار الأول، فإن الاعتبار الأول مبني على قولهم بنفي الصفات الاختيارية عن الله، وهو ما يسمونه بمنع حلول الحوادث، ومن ثم قالوا: إن الحب والبغض والسخط والغضب صفات أزليه قديمة، فلا يكون الله مبغضًا لشخص ـ حال كفره ـــ ثم يصير محبًّا له بعد إيمانه، بل لم يزل محبًّا له في الأزل إذا علم أنه يموت على الإيمان، ولم يزل مبغضًا له في الأزل إذا علم أنه يموت على الكفر.

ثم قرنوا مسألة الاستثناء في الإيمان بهذا القول، وأوجبوه، بناء على أن الإنسان لا يعلم على أي شيء يموت عليه، والإيمان هو ما يموت عليه المرء ويوافي به ربه.[(٢)]

وهذا تناقض منهم؛ لأنهم يقولون: إن الإيمان هو التصديق؛ لأنه في اللغة كذلك، ثم يقولون: الإيمان في الشرع هو ما يوافي به العبد ربه، وجعلوا الاستثناء واجبًا لأجل ذلك، فهذا عدول منهم عن معنى الإيمان في اللغة إلى معنى آخر، فأبطلوا استدلالهم اللغوي في بيان حد الإيمان.[(٣)]

القول الثاني: من يحرِّم الاستثناء في الإيمان. وهو قول المرجئة والجهمية [(٤)] والماتريدية [(٥)]، وبعض الأشاعرة [(٦)]، ونحوهم ممن يجعل الإيمان شيئًا واحدًا، وهو التصديق والإقرار.

---

(١) انظر: الإرشاد للجويني (٣٣٦) [مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٢٢هـ].

(٢) انظر: الإيمان لابن تيمية، ضمن مجموع الفتاوى (٤١٨/٧).

(٣) انظر: الإيمان لابن تيمية (١٣٧ ـ ١٣٨)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة (١٣٧١/٣) [مكتبة الرشد، ط١].

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٤٢٩/٧).

(٥) انظر: التوحيد للماتريدي (٣٨٨) [دار الجامعات المصرية]، وتأويلات أهل السُّنَّة (٢٦٥) [مطبعة الإرشاد، ١٤٠٤هـ]، وبحر الكلام لأبي المعين النسفي (٤٠) [مطبعة الكردي، ١٩١١م].

(٦) انظر: أصول الدين للبغدادي (٢٥٣).

قال عبد الرحمن بن مهدي-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ): "أول الإرجاء ترك الاستثناء"[١]

وعلّلوا التحريم بقولهم: إن الإيمان شيء واحد، والاستثناء يقتضي الشك، فإن من استثنى في إيمانه فهو شاك، ومن تردد في تحقيق الإيمان لم يكن مؤمنًا، بل ذهب بعضهم إلى تكفير من قال بالاستثناء.[٢]

وقولهم هذا في غاية البطلان، فإن الإيمان الشرعي يطلق على جميع الاعتقادات والأقوال والأعمال الشرعية، وليس شيئًا واحدًا (التصديق) كما زعمه هؤلاء، فالاستثناء راجع إلى تحقيق كمال الأقوال والأعمال، لا إلى أصل التصديق الذي لا شك فيه.

---

(١) السُّنَّة للخلال (٣/٥٩٨).

(٢) انظر: أصول الدين للبغدادي (٢٥٣)، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم المصري (٢/٤٦) [طبع سعيد كمبني، كراتشي]، وإتحاف السادة المتقين (٢/٢٧٨) [دار الفكر]، وكذلك: زيادة الإيمان ونقصانه لعبد الرزاق العباد (٥١٩)، وانظر في الرد على هذا القول: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/٤١).



الإيمان عند المرجئة

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الإرجاء وأنواعه.

المسألة الثانية: الإرجاء في الإيمان

[٦]- قال المصنف رحمه الله: ومن زعم أن الإيمان قول بلا عمل، فهو مرجئ.

الشرح

المسألة الأولى: تعريف الإرجاء.

أ-تعريف الإرجاء.

١ -المرجئة لغة:

اسم فاعل من "أرجأته" بالهمزة بمعنى أخرته، والرجاء من الأمل نقيض اليأس. ممدود، تقول رجاه يرجو رجوا ورجاء: أي أمل فيه.

والإرجاء: بمعنى التأخير. ومنه سميت المرجئة.

فأرجأ الشيء: أي أخره، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَرْجِهْ وَأَخَاهُ**﴾ [الأعراف: الآية: ١١١]، وفي حديث توبة كعب بن مالك: وأرجأ رسول الله أمرنا أي أخره.

والطائفة المعروفة: المرجئة. بهمز ولا بهمز وكلاهما بمعنى التأخير، والهمز أجود.

٢-المرجئة في الاصطلاح:

نظرا لتعدد أنواع الإرجاء فقد اختلف في تعريفهم. وإليك بعض التعاريف مع الإشارة للأشمل منها: قال بعضهم: المرجئة: هم الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل.

وقال آخرون: المرجئة: هم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أن الإيمان لا يضر معه ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

وقال الشهرستاني: الإرجاء على معنيين. أحدهما: بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ**﴾ [الأعراف: الآية: ١١١] أي أمهله وأخره.

والثاني: إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول..، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد. وأما بالمعنى الثاني.. فلأنهم كانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهذا أمثل الأقوال لأنه أشملها لأنواع الإرجاء.

المسألة الثانية: الإرجاء في الإيمان.

وهذا النوع بدأ بإخراج العمل من مســـمى الإيمان، وكان هذا زمن التابعين وهو على ثلاثة أنواع.

الأول: إرجاء العباد والفقهاء من أهل الكوفة.

وموضـــوعه: إخراج العمل من الإيمان. وهو امتداد للمرجئة الذين انفصـــلوا عن الخوارج؛ حيث إن مسالة تكفير المسلم هي السبب في ذلك وهي القضية التي كانت موضوع نقاش الناس وخاصـــة بين الخوارج ومن انفصـــل منهم من المرجئة أدى هذا النقاش فيما بعد إلى البحث في الإيمان عند هاتين الفرقتين. فرأت كل فرقة أن تجعل قولها في الإيمان مبنيًا على قولها في الكبيرة، فقالت الخوارج: إنه جميع الطاعات فمن ترك طاعة واحدة فقد كفر. فقولهم هذا بناء على تكفيرهم مرتكب الكبيرة.

فقابلتهم المرجئة بما يناقضهم؛ فقالوا: مرتكب الذنب مؤمن كامل الإيمان، لكن لا يسلم لهم هذا القول حتى يخرجوا العمل من الإيمان، لذا قالوا: الإيمان هو التصديق والإقرار فقط. وأول من عرف عنه هذا النوع ذر بن عبد الله الهمذاني، وحماد بن أبي ســـليمان من فقهاء الكوفة". [(١)]

وكان ظهور هذا النوع من الإرجاء بعد الثمانين من الهجرة لما ورد في صـحيح البخاري عن زبيد قال: "سألت أبا وائل عن المرجئة . . . ". [(٢)]. وكانت وفاة أبي وائل سنة ٨٢ هـ". [(٣)]

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "حدثت بدعة الإرجاء في أواخر عصـــر الصحابة في خلافة عبد الملك بن مروان". [(٤)]، وخلافته انتهت بوفاته سنة ٨٦ هـ.

وهؤلاء المرجئة الذين يخرجون العمل عن الإيمان لم يكونوا يقصرون في العمل، وإنما قالوا هذا

---

(١) انظر: الضعفاء الكبير للعقيلي (١/ ٣٠٤).

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله (١/ ١٧).

(٣) انظر: تذكرة الحافظ (١/ ٦٠).

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ١٨٤)، ودرء تعارض العقل بالنقل (٥/ ٢٤٤).

القول كرد فعل لتكفير الخوارج لصاحب الكبيرة".[(١)].

الثاني: إرجاء الغلاة من المتكلمين.

الذين جعلوا الإيمان في القلب فقط، كالجهمية والغيلانية وبعض المتكلمين.

وهؤلاء: جعلوا الإيمان شيئا واحدا في القلب فقط فزادوا على من سبقهم بأن أخرجوا القول من الإيمان. فصار الإيمان يتم - عندهم - بمجرد معرفة القلب. ومن أوائل من عرف عنهم هذا الغلو في الإرجاء غيلان بن مسلم الدمشقي أبو مروان، والجهم بن صفوان، ومقاتل بن سليمان المشبه.

وهؤلاء من مذهبهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم الطائفة الأولى من المرجئة الغلاة.

وهذا النوع من الإرجاء أثر من آثار الإرجاء السابق، وهو إرجاء الفقهاء حيث إن ذلك الخطأ اللفظي فتح الباب لهذا الخطأ العظيم.

الثالث: إرجاء الكرامية:

وهو نوع ثالث من أنواع الإرجاء في الإيمان حيث جعلوا الإيمان: قولا باللسان فقط، وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله ولي له، من أهل الجنة".[(٢)]، وأول من ابتدع هذا النوع **محمد بن كرام السجستاني المجسم (ت: ٢٥٥ هـ)**، عاش في أوائل القرن الثالث. حيث قال: إن الإيمان هو القول باللسان فقط دون تصديق القلب وعمل الجوارح. ولم يكن هذا النوع معروفا قبله، وهذا القول هو أفسد الأقوال وآخرها حدوثا.

يقول ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ): لم يكن حدث في زمن السلف من المرجئة من يقول: الإيمان بمجرد القول بلا تصديق ولا معرفة، فإن هذا: إنما أحدثه ابن كرام، وهذا

---

(١) انظر: الفتاوى (٧/ ٢٩٧، ٥١٠).

(٢) المقالات (١/ ٢٠٥). والفصل (٣/ ١٨٨)، (٤/ ٢٠٤).

هو الذي انفرد به ابن كرام".[١].. وهذه هي الطائفة الثانية من المرجئة الغلاة".[٢].

---

(١) الفتاوى (٧/ ٣٨٦-٣٨٧).

(٢) الفصل (٤/ ٢٠٤).

[٧]- قال المصنف رحمه الله: ومن زعم أن الإيمان هو القول، والأعمال شرائع؛ فهو مرجئ

الشرح

وحدثت المرجئة، وكان أكثرهم من أهل الكوفة، فصـــاروا نقيض الخوارج والمعتزلة فقالوا إن الأعمال ليست من الإيمان.[(١)]

وأول ما ظهرت بدعة الإرجاء بعد فتنة ابن الأشعث سنة (٨٣هـ) وقيل إن أول من قال به هو ذر بن عبد الله المرهبي الهمداني (توفي قبل المائة).

فقد أخرج عبد الله بن الإمام أحمد بسنده عن سلمة بن كهيل (قال: وصف "ذر" الإرجاء وهو أول من تكلم فيه، ثم قال إني أخاف أن يتخذ هذا ديناً، فلما أتته الكتب من الأفاق قال فسمعته يقول بعد وهل أمر غير هذا).

وقال أبو داود: كان مرجئاً وهجره إبراهيم النخعي وسعيد بن جبير بالإرجاء.[(٢)]

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: (أن حماد بن أبي سليمان (ت١٢٠هـــ) هو أول من قال بالإرجاء)[(٣)]

وكانت بدعة الإرجاء مقتصـــرة في بدايتها على إرجاء الفقهاء ولذلك كانت هذه البدعة أخف البدع، فإن كثيراً من النزاع فيها نزاع في الاســـم واللفظ دون الحكم،[(٤)] إذ كان الفقهاء الذين يضــاف إليهم هذا القول مثل حماد بن أبي سـليمان وأبي حنيفة وغيرهما مع سـائر أهل الســـنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشـــفاعة، وعلى أنه لابد في الإيمان أن يتكلم بلســـانه، وعلى أن الأعمال المفروضـــة واجبة وتاركها

(١) مجموع الفتاوى ١٣/٣٨.

(٢) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (١/٣٢٩ رقم ٦٧٧).

(٣) تهذيب التهذيب ٣/٢١٨.

(٤) مجموع الفتاوى ٧/٢٩٧، ٣١١ ٥/٥٠٧.

مستحق للذم والعقاب. فكان الخلاف معهم في الأعمال هل هي من الإيمان؟، وفي الاستثناء ونحو ذلك عامته نزاع لفظي.[١]

وصارت المرجئة بعد ذلك على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين قالوا: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان، وهؤلاء يسمون مرجئة الفقهاء. وهم علماؤهم وأئمتهم وأحسنهم قولاً.

وقد استقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس هي:

١-زعمهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان وأن الإيمان هو التصديق.

٢-زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

٣-زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان.

القسم الثاني: الذين قالوا: "هو تصديق القلب فقط وإن لم يتكلم به".

وهذا قول الجهمية، وهو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه. فالجهم كان يقول إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به. وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول. ولكن هذا هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه؟! ولكن قالوا مع ذلك إن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره واستدللنا على تكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة.

القسم الثالث: الذين يقولون: "الإيمان هو القول فقط".

فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة، وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً مؤمنًا من أهل النار، وهذا قول الكرامية.

وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، بل يقولون إنه مؤمن كامل الإيمان،

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/٣٨،٤٨.

وإنه من أهل النار.[١]

فالمرجئة ليسوا صنفًا واحدًا، وإنما هم أصناف خمسة وهي: الجهمية، والكرامية، والأشاعرة، والماتريدية، ومرجئة الفقهاء، فهم خمسة أصناف، ومقالة الإرجاء تشمل كل هؤلاء، وجل هؤلاء المرجئة كانوا في جهة المشرق في خراسان وما حولها.

(١) مجموع الفتاوى ١٣/٣٨،٤٨-٥٦،٥٥.

[٨]- قال المصنف رحمه الله: وإن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فهو مرجئ

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٣) في المسألة الثانية: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، في القول الثالث.

[٩]- قال المصنف رحمه الله: وإن قال: إن الإيمان يزيد ولا ينقص، فقد قال بقول المرجئة.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٣) في المسألة الثانية: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، في القول الثاني.

[١٠]- قال المصنف رحمه الله: ومن لم ير الاستثناء في الإيمان، فهو مرجئ.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٥) في المسألة الثالثة: في حكم من قال: "أنا مؤمن كامل الإيمان" ولم يستثن.

من زعم أن إيمانه كإيمان جبريل

[١١]- قال المصنف رحمه الله: ومن زعم أن إيمانه كإيمان جبريل أو الملائكة، فهو مرجئ وأخبث من المرجئ؛ فهو كاذب.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٣) في المسألة الثانية: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه. في القول الثالث: قول من قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

[١٢]- قال المصنف رحمه الله: ومن زعم أن الناس لا يتفاضلون في الإيمان فقد كذب.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٣) في المسألة الثانية: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه. في القول الثالث: قول من قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

تعريف الإيمان عند الجهمية

[١٣]- قال المصنف رحمه الله: ومن زعم أن المعرفة تنفع في القلب، وإن لم يتكلم بها، فهو جهمي.

الشرح

جهم وأتباعه يقولون: إن الإيمان عندهم مجرد التصديق، فمن صدق بقلبه فهو عندهم مؤمن كامل الإيمان وإن تكلم بالكفر، وسب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وسخر بالدين، وأحل المحرمات، وفعل غير ذلك من الأمور التي هي كفر بواح.

فالجهمية مرجئة[١]، وهم أشد فرق الإرجاء لأنهم قالوا يكفي في الإيمان المعرفة فقط. ففرعون عندهم مؤمن وإبليس عندهم مؤمن.

ولم يكفر فرعون عندهم بعدم الإيمان وإنما بمخالفة الأمر، وإبليس لم يكفر بعدم الإيمان؛ بل

---

(١) المرجئة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين قالوا: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان، وهؤلاء يسمون مرجئة الفقهاء. وهم علماؤهم وأئمتهم وأحسنهم قولاً.

وقد استقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس هي:

١-زعمهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان وأن الإيمان هو التصديق.

٢-زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

٣-زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان.

القسم الثاني: الذين قالوا: "هو تصديق القلب فقط وإن لم يتكلم به".

وهذا قول الجهمية، وهو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه. فالجهم كان يقول إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به. وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول. ولكن هذا هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه؟! ولكن قالوا مع ذلك إن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره واستدللنا على تكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة.

القسم الثالث: الذين يقولون: "الإيمان هو القول فقط".

فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة، وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً مؤمناً من أهل النار، وهذا قول الكرامية.

وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، بل يقولون إنه مؤمن كامل الإيمان، وإنه من أهل النار.

بمخالفة الأمر، وهكذا، وهذا القول مشهور عنهم في أنه يثبت الإيمان بالمعرفة.

والتصديق عندهم يتساوى فيه العباد، ولا يقبل الزيادة والنقصان فهو إما أن يعدم وإما أن يوجد، ولا يقبل التبعض، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، ولا يتفاضل الناس فيه، فإيمان الملائكة والأنبياء والصديقين وإيمان فساق الأمة وأهل الخنا والفجور سواء[١].

وفي هذا القول استهانة بالأعمال وإخراجها عن مسمى الإيمان، التي من أعظمها الفرائض وأعظم الفرائض هي الصلاة، وكذلك من أعظم الأعمال الجهاد الذي هو من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضـــل ما تقرب به المتقربون وتنافس فيه المتنافســـون بعد الفرائض.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢).

[١٤]- قال المصنف رحمه الله: ومن زعم أنه مؤمن عند الله، مستكمل الإيمان، فهذا من أشنع قول المرجئة وأقبحه.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٤) في حكم الاستثناء في الإيمان عند أهل السنة.

الإيمان بالقدر

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالقدر.

المسألة الثانية: أدلة الإيمان بالقدر.

المسألة الثالثة: أهمية الإيمان بالقدر وثمراته.

المسألة الرابعة: الخوض في القدر.

المسألة الخامسة: أركان الإيمان بالقدر.

المسألة السادسة: مواقف المخالفين من مراتب القدر

[١٥] - قال المصنف رحمه الله: والقدر خيره وشره وقليله وكثيره وظاهره وباطنه وحلوه ومرُّه ومحبوبه ومكروهه وحسنه وسيئه وأوله وآخره: من الله تبارك وتعالى، قضاءٌ قدَّره على عباده، وقدرٌ قدَّره عليهم، لا يعدو أحد منهم مشيئة الله عز وجل ولا يجاوز قضاءه: بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له، وواقعون فيما قدَّر عليهم لا محالة، وهو عدل منه عز ربُّنا وجلَّ.

والزنا والسرقة وشرب الخمر، وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والشرك بالله، والذنوب والمعاصي كلها بقضاء وقدر من الله، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حُجَّة، بل الحجة البالغة على خلقه ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ [الأنبياء:٢٣]

الشرح

وفي هذا النص مسائل:

المسألة الأولى: التعريف بالقدر:

القدر في اللغة:

القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها، ومنه ذكر (ليلة القدر) وهي الليلة التي تقدر فيها الأرزاق وتقضى. وأصل (قدر): يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته(١)

قال اللحياني–رحمه الله–(ت: ٢٢٠ هـ): "إن القدر بفتح الدال هو: الاسم، والقدر

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٦٢)، النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٢)، مختار الصحاح للرازي (ص٢٤٨)، تاج العروس للزبيدي (١٣/ ٣٧٠)..

بسكون الدال هو: المصدر"[(١)]

ويطلق القدر على معان؛ منها:

١-معنى الحكم والقضاء.

ومن ذلك حديث الاستخارة، وفيه: **(فاقدره لي ويسره لي)**[(٢)].[(٣)]

٢-معنى الطاقة. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: الآية: ٢٣٦]**، بفتح الدال، وقرئ بإسكانها.[(٤)]

٣- معنى التضييق.

ومنه قوله تعالى: **﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: الآية:١٦]**.[(٥)]

٤- معنى التقدير.

ومنه الحديث: **(فإن غم عليكم فاقدروا له)**.[(٦)]

أي: قدروا له عدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يومًا، وقيل: قدروا له منازل القمر، فإنه يدلكم على أن الشهر تسع وعشرون أو ثلاثون.[(٧)]

ويقال: قدره: إذا قاسه، وقدرت الشيء، أي: هيأت. والقدرة تأتي بمعنى اليسار، والغنى،

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٥٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١١٦٢) مطولا من حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-.

(٣) ينظر: النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٢)، مرقاة المفاتيح للقاري (٣/ ٩٨٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن جرير (٤/ ٢٩٤)، النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٨).

(٥) ينظر: تفسير ابن جرير (٢٤/ ٣٧٦).

(٦) رواه البخاري (١٩٠٠)، ومسلم (١٠٨٠) مطولا من حديث عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-.

(٧) ينظر: النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٣).

والقوة.[(١)]

تلك من أهم معاني (القدر) لغة. وهناك معان أخرى تعرضـــت لها كتب اللغة.[(٢)].

والقدر في الاصطلاح:

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): القدر: "وهو عند أهل السنة والجماعة: قدرة الله وعلمه ومشيئته وخلقه وكتابته، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته"[(٣)]

والقَدَرُ في الاصطلاحِ: هو تقديرُ اللهِ تعالى الأشياءَ منذُ القِدَمِ، وعِلْمُه سُبحانَه أنها ستقعُ في أوقاتٍ معلومةٍ عنده، وعلى صفاتٍ مخصوصةٍ، وكتابتُه سُبحانَه لذلك، ومشيئتُه له، ووقوعُها على حَسَبِ ما قدَّرها، وخَلْقُه لها"[(٤)]

قال السفاريني-رحمه الله-(ت: ١١٨٨ هـ): "هو ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه- عز وجل- قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها"[(٥)]

وقال ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): في تعريفه: "المراد أنّ الله- تعالى- علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثمّ أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر

(١) ينظر: الصحاح للجوهري (٢/ ٧٨٦)، مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٦٣)، لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٥٤٥) تاج العروس للزبيدي (١٣/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: الصحاح للجوهري (٢/٧٨٦)، أساس البلاغة للزمخشري (٢/ ٥٦)، لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٥٤٥) تاج العروس للزبيدي (١٣/ ٣٧٠).

(٣) انظر: شفاء العليل لابن القيم (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص: ١٠٥)، شفاء العليل لابن القيم (ص: ٨٣)، فتح الباري لابن حجر (١/ ١١٨)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٣٤٨)..

(٥) عقيدة السفاريني (١/ ٣٤٨).

عن علمه وقدرته وإرادته"[1]

المسألة الثانية: أدلة الإيمان بالقدر:

نصوص القرآن والسنة متواترة في وجوب الإيمان بالقدر، وصريحة في أن كل شيء خلقه الله بقدر.

فأما أدلة القرآن، فمنها ما يلي:

لم يرد في القران التنصـــيص على وجوب الإيمان بالقدر، وإنما وردت أدلة مجملة تدل على تقدير الله للأشياء.[2]

- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ **[الزمر: الآية: ٦٢]**.
- قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ **[القمر: الآية: ٤٩]**.
- وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ **[الأحزاب: الآية: ٣٨]**.
- وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ **[الأنفال: الآية: ٤٢]**.
- وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ **[الفرقان: الآية: ٢]**.
- وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ **[الأعلى: الآيات: ١-٣]**.
- وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ * مِن شَـــرِّ مَا خَلَقَ﴾ **[الفلق: الآيات: ١ - ٢]**.

وسيأتي ذكر مزيد من الأدلة من القرآن عند بيان مراتب القدر.

وأما أدلة السنة، فمنها ما يلي:

وقد ورد التنصيص على الإيمان بالقدر في السنة ومن ذلك

- **عن عمر بن الخطاب -رضـــي الله عنه- (ت: ٢٣ هـ)** في ســؤال جبريل عليه الســلام

---

[1] فتح الباري (١/ ١١٨).

[2] القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، (ص: ٨٦).

الرسـول-ﷺ-عن الإيمان قال: (**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالقدر خيره وشره**). قال (أي: جبريل عليه السلام): صدقت"[(١)].

- **عن جابر-رضي الله عنهما-(ت: مابين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)** قال: قال رسول الله-ﷺ-: (**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشـره من الله، وحتى يعلم أن ما أصـابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**)).[(٢)]

- **وعن طاووس بن كيســان-رحمه الله-(ت: ١٠٦ هـ)** أنه قال: أدركت ناسًـا من أصحاب رسول الله-ﷺ-، يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله-ﷺ-: (**كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس**)[(٣)]

- **وعن أبي هريرة-رضـي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)** قال: "جاء مشـركو قريش يخاصـمون رســول الله-ﷺ-في القدر، فنزلت: ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: الآيات: ٤٨: ٤٩]. [(٤)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي-ﷺ-قال: (لا يدخل الجنة عاق، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بالقدر) [(٥)].

أقوال السلف

إجمع سـلف الأمة على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشـره، وأنه من أصـول الإيمان السـتة، التي لا يتم إسلام العبد ولا إيمانه إلا بها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر، وعلامة الساعة (١/ ٣٦ رقم ٨).

(٢) رواه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، (ص: ٦/ ٣٥٦)-شرح تحفة الأحوذي)، رقم (٢٢٣١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم: (١٧٤٣)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (٢٤٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٥) رقم: (٢٦٥٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٦ رقم: (٢٦٥٦).

(٥) رواه الإمام أحمد، انظر الجامع الصحيح في القدر، تأليف مقبل الو ادعي، (ص: ١٤)، وهو في السلسلة الصحيحة رقم: (٦٧٥)،

ومن الآثار في هذا الباب ما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه أن سلمان الفارسي-رضي الله عنه-سئل عن الإيمان بالقدر فقال: "إذا علم الرجل من قبل نفسه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن يصيبه، فذلك الإيمان بالقدر"(١)

عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-(ت: ٤٠ هـ)، قال: "إذا قضي الأمر من السماء عمله أهل الأرض، وإن العبد لا يجد طعم الإيمان حتى يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه".(٢).

عن يحيى بن يعمر-رحمه الله-(ت: ٨٩ هـ)؛ قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني. فانطلقت أنا **وحميد بن عبد الرحمن الحميري (ت: ١٠٠ هـ)**. حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر. فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب-رضي الله عنهما-(ت: ٧٤ هـ) داخلا المسجد. فاكتنفته أنا وصاحبي. أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله. فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي. فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم. وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر. وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني(٣). والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر"(٤)

عن الحسن البصري (ت: ١١٠ هـ): "والله لولا الإيمان بالقدر لخربت الدنيا وما عمرتها،

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١١/ ١١٨)، وانظر: القضاء والقدر للبيهقي (ص: ٣٠٥).

(٢)أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٦٦)، وانظر: القضاء والقدر للبيهقي (ص: ٢٩٩).

(٣) قال الخطابي: في تبرى ابن عمر منهم دليل على أن الخلاف إذا وقع في أصول الدين وتعلق بالمعتقدات يوجب البراءة، بخلاف ما تعلق بأصول الأحكام وفروعها". معالم السنن (٧/ ٦٥).

(٤) (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في الأمر بالإيمان بالقدر (١/ ٨).

إن الله تعالى قدّر كل شيء بقدر معلوم"[١].

عن الحسن البصري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ): قال: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده"[٢]

عن مجاهد بن جبر-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ): قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد"[٣]

قال الأوزاعي (ت: ١٥٧ هـ): "علينا أن نؤمن بالقدر خيره وشره، فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وقد علم الله تعالى ما يكون وما سيكون"[٤].

قال الإمام سفيان الثوري (ت: ١٦١ هـ): "من كفر بالقدر فقد كفر بما أنزل على محمد-ﷺ-، فإن الله تعالى قدّر كل شيء في الأزل"[٥]

قال الإمام ابن المبارك (ت: ١٨١ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، من أصول الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا به"[٦]

وقال الإمام ابن المبارك (ت: ١٨١ هـ): "الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولا يكون العبد مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ"[٧]

قال الإمام أبو حنيفة في "الفقه الأكبر" (ت: ١٥٠ هـ): "والقدر خيره وشره من الله تعالى، نؤمن به ونعلم أن الله لم يكلفنا إلا ما نطيق، وأنه تعالى لم يجبر العباد على المعاصي، وأنه تعالى هو الخالق للأفعال".

---

(١) "كتاب التوكل" لابن أبي الدنيا (ص: ٢٩).

(٢) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٨٠).

(٣) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٩٦).

(٤) "البداية والنهاية" لابن كثير (١٠/ ٢٠٥).

(٥) "الجامع" لمصنف عبد الرزاق (١١/ ٤٤).

(٦) "الزهد" لابن المبارك (ص: ١٩٤).

(٧) "سير أعلام النبلاء" (٨/٤٠٢).

قال الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ): "الإيمان بالقدر واجب، من أنكر القدر فقد كفر، والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأن كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر فهو من الله تعالى"[(١)]

قال الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ): "لا يتم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر، ومن أنكر القدر فقد أبطل علم الله السابق، ونسب الله إلى الجهل"[(٢)]

قال الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها"[(٣)]

قال الإمام البخاري (ت: ٢٥٦ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره من أصول الإيمان"[(٤)]

قال الإمام مسلم (ت: ٢٦١ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره من أركان الإيمان"[(٥)]

قال الإمام ابن ماجه (ت: ٢٧٣ هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ"[(٦)]

قال الإمام ابن جرير الطبري (توفي ٣١٠ هـ): "الإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله تعالى قد علم كل شيء وكتبه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو من أركان الإيمان التي لا يتم إلا بها"[(٧)]

المسألة الثالثة: أهمية الإيمان بالقدر وثمراته:

---

(١) "التمهيد" لابن عبد البر (٧/ ١٤٣).

(٢) "الرسالة" (ص: ٣٥١).

(٣) "أصول السنة" (ص: ٢٨).

(٤) "صحيح البخاري" (٦٦١٤).

(٥) "صحيح مسلم" (٩٣).

(٦) "سنن ابن ماجه" (٧٧).

(٧) تفسير الطبري (١/ ١٤٧).

مما يدل على أهمية الإيمان:

أولًا: الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان لا يتم الإيمان إلا به.

قال الإمام الأوزاعي (ت: ١٥٧ هـ): "علينا أن نؤمن بالقدر خيره وشره، فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وقد علم الله تعالى ما يكون وما سيكون"[١]

قال الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ): "الإيمان بالقدر من **أصول الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن كل شيء بقدر الله، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن"[٢]

قال الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ): "الإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها"[٣]

قال الإمام ابن أبي عاصم (ت: ٢٨٧ هـ): "الإيمان بالقدر هو من **أصول الإيمان**، ولا يصح الإيمان إلا به، وقد أمرنا الله بالإيمان به في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (سورة القمر: ٤٩)"[٤]

قال الإمام الدارمي (توفي ٢٥٥ هـ): "والإيمان بالقدر خيره وشره هو من **أصول الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ"[٥]

ثانيًا: الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان

وهو الركن السادس من أركان الإيمان

قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي (ت: ١٩٨ هـ): "الإيمان بالقدر من **أركان الإيمان**،

---

(١) "البداية والنهاية" (١٠/ ٢٠٥).

(٢) "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر (٢/ ١٢٩٠).

(٣) "مسند أحمد" (٦/ ٢٣٣).

(٤) "السنة" لابن أبي عاصم (١/ ١٥٩).

(٥) "الرد على الجهمية" للدارمي (ص: ١٥٤).

ولا يتم الإيمان إلا به، ومن أنكره فقد كفر بما أنزل على محمد-ﷺ-"[(١)]

قال الإمام علي بن المديني (ت: ٢٣٤ هـــــ): "الإيمان بالقدر خيره وشـــره من **أركان الإيمان**، ولا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بأن الله قدّر كل شيء وكتبه في اللوح المحفوظ"[(٢)]

قال الإمام ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هــ): "الإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله تعالى قد علم كل شيء وكتبه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو من **أركان الإيمان** التي لا يتم إلا بها"[(٣)]

قال ابن أبي حاتم-رحمه الله-(ت: ٣٢٧ هـ): "وقد أجمع العلماء على أن الإيمان بالقدر خيره وشـــره، حلوه ومره، من **أركان الإيمان**، وأن الله تعالى قدّر كل شـــيء وكتبه في اللوح المحفوظ"[(٤)]

ثالثًا: الإيمان القدر نظام التوحيد.

جاء في السـنة الصـحيحة عن النبي-ﷺ-الربط بين القدر والتوحيد عن عائشـة-رضـي الله عنها-(ت: مابين ٥٧ و٥٩ هـ)، قالت فقدت رســول الله-ﷺ-ليلة من الفراش فالتمســته فوقعت يدي على بطن قدمه وهما منصـــوبتان وهو يقول: (**اللهم إني أعوذ برضـــاك من ســـخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصـــي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**).[(٥)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وهذا يتضمن كمال الإثبات للقدر والتوحيد بأوجز لفظ وأخصـره فإن الذي يسـتعاذ منه من الشـر وأسـبابه هو واقع بقضـاء الرب تعالى

---

(١) "الإبانة الكبرى" لابن بطة (٢/ ١٧٢).

(٢) "سير أعلام النبلاء" (١١/ ١٦٨).

(٣) تفسير الطبري (١/ ١٤٧).

(٤) "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" للالكائي (٤/ ٧١١).

(٥) رواه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة (٤٨٦) ونظر صحيح مسلم بشرح نووي ٢/ ٢١٢.

وقدره وهو المنفرد بخلقه وتقديره وتكوينه فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن"[١]

عن ابن عباس–رضـــي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ) أنه قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر كان تكذيبه بالقدر نقضاً لتوحيده"[٢]

عن الحسن البصري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ): قال: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده" [٣].

عن مجاهد بن جبر–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ): قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد"[٤].

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "اعلم أن أهل البدع من القدرية الجهمية والمجبرة والقدرية النافية لا يحمدون الله ولا يشـــكرونه، كما أنهم لا يعبدونه، وأما أهل الإلحاد من المتفلســـفة والباطنية فهم أبعد عن حمده وشـــكره، وذلك أن المجبرة حقيقة قولهم أنه ليس برحيم ولا منعم، بل ولا إله يســـتحق أن يعبد ويحب، بل صـــدور الإحســـان عنه كصـــدور الإســـاءة، وإنما هو يفعل بمحض مشـــيئة ترجح الشـــيء على مثله لا لمرجح، وكل الممكنات عندهم متماثلة، فلا فرق بين أن يريد رحمة الخلق ونفعهم والإحســـان إليهم، أو يريد فســـادهم وهلاكهم وإضرارهم، يقولون: هذا كله عندهم سواء"[٥].

---

(١) شفاء العليل (ص: ٤٥٠)، وانظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/ ٣٥٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤٢٢)، والفريابي في القدر تحت رقم (٢٠٥)، واللالكائي في السنة (٤/ ٦٢٣–٦٧٠)، والآجري في الشريعة (ص: ٢١٥)، وابن بطة في: الإبانة تحت رقم: (١٦١٨–١٦١٩)، ونسبه في مجمع الزوائد إلى الطبراني في الأوسط. المجمع الزوائد (٧/ ١٩٧). ويتقوى بتعدد الطرق إلى الحسن لغيره.

وقد روي عن ابن عباس–رضي الله عنه–، مرفوعًا، وفيه ضعف. انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة تحت رقم (٤٠٧٢).

وذكره ابن الجوزي عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، مرفوعا في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (١/ ١٤٩)، تحت رقم (٢٣٤)، وقال: "لا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ–ﷺ–"اهـ

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٨٠).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، رقم: (١٠٩٦).

(٥) جامع الرسائل (المجموعة الأولى) (١/ ١٠٣).

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ **[الأعراف: الآيات: ٢٩-٣٠]**.

"هذه الآية تضمنت قواعد الدين علمًا وعملًا واعتقادًا.

فقوله: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**﴾ أمر سبحانه فيها بالقسط هو الذي هو حقيقة شرعه ودينه، وهو يتضمن التوحيد فإنه أعدل العدل، والعدل في معاملة الخلق، والعدل في العبادة، وهو الاقتصاد في السنة.

وقوله ﴿**وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾، يتضمن الأمر بالإقبال على الله وإقامة عبوديته في ثبوته، ويتضمن الإخلاص له وهو عبوديته وحده لا شريك له فهذا ما فيها من العمل.

ثم أخبر بمبدأهم ومعادهم فتضمن ذلك حدوث الخلق وإعادته فذلك الإيمان بالمبدأ والمعاد فقال: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾.

ثم أخبر عن القدر الذي هو نظام التوحيد فقال فريقا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة. ﴿**فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ**﴾، فتضمنت الآية الإيمان بالقدر والشرع والمبدأ، والمعاد، والأمر بالعدل، والإخلاص.

ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر ولم يطع هذا الأمر بأنه قد أطاع الشيطان دون ربه وأنه على ضلال وهو يحسب أنه على هدى فقال: ﴿**إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾. والله أعلم"[١]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "النبي-ﷺ-أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة

(١) شفاء العليل (١/ ٢٩٢) بتصرف يسير.

١-الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد.

٢-والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع.

فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر

فأبى المنحرفون إلا

- القدح بإنكاره في أصل التوحيد
- أو القدح بإثباته في أصل الشرع

ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه وهو القدر والشرع والخلق والأمر

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والنبي-ﷺ-شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة وقد تقدم قوله: **(أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)**. وإن العاجز من لم يتسع للأمرين"[(١)].

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد قال ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ): "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد"[(٢)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "إن الإيمان بالقدر أصل الإيمان بالأمر وهو نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه إيمانه" [(٣)].

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "والذي دل عليه قول ابن مسعود وهو قول الصحابة كلهم وأئمة السنة من التابعين ومن بعدهم هو إثبات القدر الذي هو نظام التوحيد؛

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١/ ٢٦).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٦٥).

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٦١).

إثبات فعل العبد الأختياري، الذي هو نظام الأمر والنهي، وهو متعلق المدح والذم والثواب والعقاب والله أعلم"[(١)]

رابعًا: الإيمان بالقدر فيه تحقيق للشهادتين.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إذا ثبت هذا - يعني تحقيق شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله– فمعلوم أنه يجب الإيمان بخلق الله وأمره، وبقضائه وشرعه"[(٢)].

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): القدر قدرة الله، واستحسن ابن عقيل–رحمه الله–(ت: ٥١٣ هـ) هذا الكلام جدا، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصــول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء؛ فإن إنكار القدر: إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها"[(٣)]

فالإيمان بالقدر على الوجه الصـــحيح توحيد وخلاص من الشـــرك؛ لأن ارتباطه مباشـــرة بالإيمان بالله تعالى، فقد جاء في صفاته سبحانه صفة العلم، والإرادة، والقدرة، والخلق، وعلى هذه الأسس قامت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر.

كما عد العلماء الإيمان بالقضـــاء والقدر ثمرة من ثمرات الإيمان بالله، فالراضـــي بالقضـــاء والقدر راض بالله، والســـاخط من القدر ســـاخط على الله، وهذه النكتة في عطف الفعل "تؤمن" لما عد النبي - ﷺ -أركان الإيمان فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره). في حديث جبريل المشهور"[(٤)]

خامسًا: الإيمان بالقدر يعصم العبد من أمور كثيرة.

"فاعتصام المؤمن بعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر يعصمه من أمور كثيرة، على رأسها أمران:

---

(١) حاشيته على تهذيب السنن (٦/ ١٠٥).

(٢) التدمرية، شيخ الإسلام ابن تيمية، (ص: ١٣٠).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، (ص: ٢٨).

(٤) منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة (ص: ٦٤٨).

أحدهما: عصمته في باب توحيد الربوبية الذي هو أساس وعمدة توحيد الألوهية.

والثاني: عصـــمته في مســـيرته في الحياة، بألا يقع عنده تعارض بين القضـــاء والقدر والأمر والشرع"(١)

الإيمان بالقدر أساس لعمارة الدنيا.

قال الإمام الحسن البصري (توفي ١١٠ هـ): "والله لولا الإيمان بالقدر لخربت الدنيا وما عمرتها، إن الله تعالى قدّر كل شيء بقدر معلوم" (٢)

من ثمرات الإيمان بالقدر:

أولًا: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كليهما بقضاء الله وقدره.

عن أبي هريرة–رضـي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)، قال: قال رسـول الله ﷺ: **(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله عز وجل من المؤمن الضـعيف، واحرص على ما ينفعك واسـتعن بالله عز وجل ولا تعجز، فإن غلبك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل).**(٣)

قال الشـيخ محمد بن صـالح بن عثيمين–رحمه الله–(ت: ١٤٢١ هـ): "الإيمان بالقدر يوجب صـدق الاعتماد على الله عز وجل لأنك إذا علمت أن كل شـيء بقضـاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله"(٤)

ثانيًا: راحة النفس وطمأنينة القلب؛ لأنه متى علم أن ذلك بقضـــاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضـي بقضـاء الرب، فلا أحد أطيب عيشـا، وأروح نفسا، وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.

---

(١) تيسير لمعة الاعتقاد لعبد الرحمن بن صالح المحمود. (ص: ١٩٩).

(٢) "كتاب التوكل" لابن أبي الدنيا (ص: ٢٩).

(٣) صحيح مسلم (٢٦٦٤).

(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (ص: ٦٣٠).

قَالَ ابنُ عَونٍ–رحمه الله–(ت: ١٥١ هـ): "ارْضَ بِقَضَاءِ اللهِ مِن عُسْرٍ وَيُسْرٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَقَلُّ لِهَمِّكَ، وَأَبلَغُ فِيمَا تَطلُبُ مِن أَمرِ آخِرَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ العَبدَ لَن يُصِيبَ حَقِيقَةَ الرِّضَا، حَتَّى يَكُونَ رِضَاهُ عِندَ الفَقرِ وَالبَلَاءِ، كَرِضَاهُ عِندَ الغِنَى وَالرَّخَاءِ؛ كَيفَ تَستَقضِي اللهَ فِي أَمرِكَ، ثُمَّ تَسخَطُ إِنْ رَأَيتَ قَضَاءً مُخَالِفًا لِهَوَاكَ؟! وَلَعَلَّ مَا هَوَيْتَ مِن ذَلِكَ، لَو وُفِّقَ لَكَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُكَ، وَتَرضَى قَضَاءَهُ إِذَا وَافَقَ هَوَاكَ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عِلْمِكَ بِالغَيبِ؟! إِذَا كُنتَ كَذَلِكَ، مَا أَنْصَفْتَ مِن نَفسِكَ، وَلَا أَصَبْتَ بَابَ الرِّضَا. **قال ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ)**: وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ"(١)

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين–رحمه الله–(ت: ١٤٢١ هـ): "والإيمان بالقدر يوجب الطمأنينة يوجب للقلب الطمأنينة إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك اطمئن أنت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة"(٢)

ثالثًا: طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد؛ لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدره من أسباب الخير والنجاح؛ فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الإعجاب"(٣)

رابعًا: انشراح الصدر، وسعادة القلب، وطمأنينة النفس، وراحة البال، قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وَمَا لِيَ سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر، قَالَ تَعَالَى: **﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون﴾ [التوبة: الآية: ٥١]**.

خامسًا: ذهاب الهم والحزن، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بكتابة المقادير قبل إيجادها، فإذا وُجِدت تبين مدى الإيمان بذلك، فَقَوِيُّ الإيمان لا يفرح بما أُوتي، ولا يحزن على ما فات، وعكسه بعكسه بهذا المعنى، وردت الآية الكريمة: **﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا**

---

(١) "تيسير العزيز الحميد" (ص: ٥٢٢-٥٢٣).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (ص: ٦٣٠).

(٣) (مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين) (٣/ ٢٥٦-٢٦٠) بتصرف.

بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: الآية: ٢٣].

قال ابن رجب-رحمه الله-(ت: ٧٩٥ هـ): "الإيمان بالقدر يُذهب الهم والحزن"(١)

سادسًا: غنى النفس، روى الترمذي في سننه مِن حَدِيثِ **أَبِي هُرَيرَةَ-رضي اللهُ عنه-(ت: ٥٧ هـ)**: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **(وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ)**.(٢)

سابعًا: النجاة من النار، روى أبو داود في سننه مِن حَدِيثِ **أُبَيّ بن كَعْبٍ-رضي اللهُ عنه-(ت: ١٩ أو ٢٠ هـ)**: رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ"**(٣)

المسألة الرابعة: الخوض في القدر.

عن عمرو بن شعيب-رحمه الله-(ت: ١١٨ هـ) عن أبيه-رحمه الله-(ت: ٨١ أو ٨٠ هـ) عن جده-رضي الله عنه-(ت: ٦٥ هـ) قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: "وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: **(ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكما)**، وقال: "فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده"(٤)

وقد كان السلف من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يكرهون الجدال في القدر

---

(١) مجموع الرسائل (٣/ ١٤٤).

(٢) "سنن الترمذي" (برقم: ٢٣٠٥)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (برقم: ٩٣٠).

(٣) "سنن أبي داود" (برقم: ٤٦٩٩)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٣/ ٨٩٠) (برقم: ٣٩٣٢).

(٤)أخرجه أحمد (٢/ ١٧٨)، وقال أحمد شاكر، أسناده صحيح. المسند تحقيق أحمد شاكر (١٠/ ١٥٣)، حديث رقم (٦٦٦٨)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه: المقدمة، باب في القدر (١/ ٣٣)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

ويذمون من خاض فيه، بل حذروا من ذلك، فهذا الصحابي الجليل **عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)** يقول: "باب شرك فتح على أهل الصلاة: التكذيب بالقدر فلا تجادلوهم فيجري شركهم على أبديكم"[(١)] ويقول أيضًا رضي الله عنه: "ما غلا أحد في القدر إلا خرج من الإسلام"[(٢)]

فالسلف رحمهم الله تعالى كرهوا الكلام في القدر والخوض فيه، لكن لما خاضت المبتدعة في هذا الأمر وحادوا عن الصواب رأي السلف الصالح أنه يجب عليهم أن يبينوا للناس الحق والصواب فيما ضل فيه هؤلاء، ذلك لأنه لم يظهر القول في القدر إلا بعد مضي نصف القرن الأول تقريبا، حيث إن معبدًا الجهني[(٣)] هو أول من أثار القول في هذا الأمر.

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى يحيى بن يعمر، أنه قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله-ﷺ-فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن خطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم[(٤)] وذكر من شأنهم أنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر" [(٥)]

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (ص: ٢١٥)، واللالكائي في شرح أصول أهل السنة: (٤/ ٦٣٠).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (٤/ ٦٣٢).

(٣) معبد بن عبد الله الجهني نزيل البصرة، كان داعية إلى الضلال وهو أول من تكلم بالقدر في زمن الصحابة، قال ابن أبي حاتم: كان صدوقًا في الحديث وكان رأسًا في القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناسا، وقد قتله عبد الملك سنة ٨٠هـ. الجرح والتعديل (٨/٢٨٠)، وميزان الاعتدال (٤/١٤١)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).

(٤) ويتقفرون العلم: أي يطلبونه ويتتبعونه. النهاية لابن الأثير (٤/ ٩٠).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ٣٦).

وقد سلك هذا المسلك العلماء من بعدهم الذين ساروا على نهج الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كما ذكر الإمام البربهاري هنا.

ولا شك أن الخوض في أمور العقيدة بالعقل استقلالاً دون الرجوع إلى النصوص والتحاكم إليها والاستضاءة بالنصوص هذه مهلكة للإنسان، وكل من خاض من هؤلاء في هذا الأمر دون معرفة بالنص فإنه هالك، ولذلك وقع ما وقع من الفرق، ووقع ما وقع من قول القدرية وقول الجبرية ونحوهم لا لشيء إلا لأن هؤلاء تركوا النصوص تمامًا وخاضوا في الأمر من جهة عقولهم.

فوقع التحسين والتقبيح العقلي، ووقع الطعن في أفعال الله عز وجل وفي علم الله عز وجل كل ذلك من طريق هؤلاء.

وأما أصل القدر؟ فكما **قاله الطحاوي–رحمه الله–(ت: ٣٢١ هـ)**: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٢٣]، فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين" [(١)]

وعلم القدر **قال عنه علي رضي الله عنه–(ت: ٤٠ هـ)**: "القدر سر الله فلا تكشفه"[(٢)]

قال جعفر بن محمد–رحمه الله–(ت: ١٤٨ هـ): "الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس، كلما ازداد نظرا ازداد حيرة"[(٣)]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٧٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٧٧).

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١٩٦).

وسماه الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ) بالعلم المفقود، لأن الله طواه عن الخلق، [١] ونحن نؤمن بأن له تعالى في خلقه حكمًا عظيمة، وإذا كان هناك من الحكم ما هون خاف فلا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته تبارك وتعالى. [٢]

قال الإمام مالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ): "القدر سر الله في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة إلى الخذلان، وسُلَّمٌ إلى الحرمان، والحذر كل الحذر من النظر في القدر والتفكر فيه والوسوسة به"[٣]

قال البربهاري-رحمه الله-(ت: ٣٢٩ هـ): "الكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة، منهي عنه عند جميع الفرق؛ لأن القدر سر الله، ونهى الرب تبارك وتعالى الأنبياء عن الكلام في القدر، ونهى رسول الله ﷺ عن الخصومة في القدر، وكرهه العلماء وأهل الورع ونهوا عن الجدال في القدر، فعليك بالتسليم والإقرار والإيمان، واعتقاد ما قال رسول الله ﷺ في جملة الأشياء، وتسكت عما سوى ذلك"[٤].

قال الآجري-رحمه الله-(ت: ٣٦٠ هـ): "لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث عن القدر؛ لأن القدر سر من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق" [٥].

قال ابن بطة-رحمه الله-(ت: ٣٨٧ هـ): "وأما الوجه الآخر من علم القدر الذي لا يحل النظر فيه ولا الفكر به، وحرام على الخلق القول فيه: كيف؟ ولم؟ وما السبب؟ مما هو سر الله

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٢).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٢).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، (٤/ ٧٠٩).

(٤) شرح السنة (ص: ٨٠).

(٥) الشريعة (٢/ ٧٠٢).

المخزون وعلمه المكتوم الذي لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، وحجب العقول عن تخيل كنه علمه، والناظر فيه كالناظر في عين الشمس، كلما ازداد فيه نظرا ازداد فيه تحيرا، ومن العلم بكيفيتها بعدا- فهو التفكر في الرب عز وجل كيف فعل كذا وكذا، ثم يقيس فعل الله عز وجل بفعل عباده، فما رآه من فعل العباد جورا يظن أن ما كان من فعل مثله جور، فينفي ذلك الفعل عن الله، فيصير بين أمرين؛ إما أن يعترف لله عز وجل بقضائه وقدره، ويرى أنه جور من فعله، وإما أن يرى أنه ممن ينزه الله عن الجور، فينفي عنه قضاءه وقدره، فيجعل مع الله آلهة كثيرة يحولون بين الله وبين مشيئته، فبالفكر في هذا وشبهه والتفكر فيه والبحث والتنقير عنه هلكت القدرية حتى صاروا زنادقة وملحدة ومجوسا؛ حيث قاسوا فعل الرب بأفعال العباد وشبهوا الله بخلقه ولم يعوا عنه ما خاطبهم به؛ حيث يقول: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٢٣] .فمما لا يحل لأحد أن يتفكر فيه ولا يسأل عنه، ولا يقول فيه: لم لا ينبغي لأحد أن يتفكر لم خلق الله إبليس وهو قد علم قبل أن يخلقه أنه سيعصيه، وأن سيكون عدوا له ولأوليائه؟ ولو كان هذا من فعل المخلوقين إذا علم أحدهم أنه إذا اشترى عبدا يكون عدوا له ولأوليائه، ومضادا له في محابه، وعاصيا له في أمره، ولو فعل ذلك لقال أولياؤه وأحباؤه: إن هذا خطأ وضعف رأي وفساد نظام الحكمة، فمن تفكر في نفسه وظن أن الله لم يصب في فعله حيث خلق إبليس؛ فقد كفر، ومن قال: إن الله لم يعلم قبل أن يخلق إبليس أنه يخلق إبليس عدوا له ولأوليائه، فقد كفر، ومن قال: إن الله لم يخلق إبليس أصلا، فقد كفر. وهذا قول الزنادقة الملحدة، فالذي يلزم المسلمين من هذا أن يعلموا أن الله خلق إبليس وقد علم منه جميع أفعاله؛ ولذلك خلقه، ويعلموا أن فعل الله ذلك عدل صواب، وفي جميع أفعاله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون"(١)

قال أبو المظفر السمعاني-رحمه الله-(ت: ٤٨٩ هـ): "قد ذكرنا أن سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من قبل الكتاب والسنة، دون محض القياس، ومجرد المعقول، فمن عدل عن

(١) الإبانة الكبرى (٣/ ٢٤٨).

التوقيف في هذا الباب، ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا وصل إلى ما يطمئن به القلب؛ وذلك لأن القدر سر من سر الله وعلم من علمه ضربت دونه الأستار، وكفت عليه الأزرار، واختص الله به علام الغيوب. حجبه عن عقول البشر ومعارفهم؛ لما علم من الحكمة، وسبيلنا أن ننتهي إلى ما حد لنا فيه، وألا نتجاوز إلى ما وراءه، فالبحث عنه تكلف، والاقتحام فيه تعمق وتهور.

وجماع هذا الباب أن يعلم أن الله تعالى طوى عن العالم علم ما قضاه وقدره على عباده، فلم يطلع عليه نبيا مرسلا، ولا ملكا مقربا؛ لأنه خلقهم ليتعبدهم ويمتحنهم. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ **[الذاريات: الآية: ٥٦]** ... فلو كشف لهم عن سر ما قضى وقدر لهم وعليهم في عواقب أمورهم لافتتنوا، وفتروا عن العمل، واتكلوا على مصير الأمر في العاقبة، فيكون قصاراهم عند ذلك أمن أو قنوط. وفي ذلك بطلان العبادة وسقوط الخوف والرجاء؛ فلطف الله سبحانه بعباده وحجب عنهم علم القضاء والقدر، وعلقهم بين الخوف والرجاء، والطمع والوجل؛ ليبلو سعيهم واجتهادهم، وليميز الله الخبيث من الطيب، ولله الحجة البالغة"(١)

قال البغوي-رحمه الله-(ت: ٥١٠ هـ): "القدر سر من أسرار الله لم يطلع عليه ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، لا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلا، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلا"(٢)

قال ابن أبي العز-رحمه الله-(ت: ٧٩٢ هـ): "أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى. قال علي-رضي الله عنه-(ت: ٤٠

---

(١) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (٢/ ٣٠).

(٢) شرح السنة (١/ ١٤٤).

هـ): القدر سر الله فلا تكشفه"[١]

قال ابن رجب-رحمه الله-(ت: ٧٩٥ هـ): "قد ورد النهي عن الخوض في القدر، ...، والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه:

منها: ضـــرب كتاب الله بعضـــه ببعض، فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى. ويقع التجادل في ذلك... وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه، وقد نهي عن ذلك. [٢]

ومنها: الخوض في القدر إثباتا ونفيا بالأقيســـة العقلية: كقول القدرية: لو قدر وقضـــى ثم عذب كان ظالما. وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم، ونحو ذلك.

ومنها: الخوض في ســر القدر، وقد ورد النهي عنه عن علي وغيره من الســلف؛ فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك"[٣]

المسألة الخامسة: أركان الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر له أربعة أركان، ويسميها بعض العلماء أيضًا: (مراتب القدر)، وهذه الأركان الأربعة هي:

الركن الأول: العلم:

الركن الأول- أو المرتبة الأولى من مراتب الإيمان بالقدر- هو العلم، فيجب الإيمان بأن الله يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فالله يعلم القدر قبل وقوعه،

والأدلة على علم الله تعالى بالمقادير كثيرة، منها:

قال تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَـــبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـــيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عِلْمًا﴾. [الطلاق:**

---

(١) شرح الطحاوية (١/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه من طرق: أبو داود (٤٦٠٣)، وأحمد (٩٤٧٩) بلفظ: "المراء في القرآن كفر" صـحـحه ابن حبان في صـحيحه (١٤٦٤)، والحاكم على شرط مسلم في المستدرك (٢/ ٢٤٣)، والنووي في التبيان (٢٠٦).

(٣) بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٤١-٤٦).

الآية:١٢]

فالله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيءٍ علما، ولذلك لما ذكر الله تعالى الخلق استدل به على العلم والقدرة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: الآية:١٢]، ثم قال بعدها: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

فتأمل السياق في الحديث عن الخلق، الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن هذا حديث عن الخلق، لكنه دلالة على أمرين هم؟ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، فالخلق دليل على القدر، فكيف يخلق من لا يقدر، فهل الذي لا يقدر يستطيع أن يخلق؟ فبما أنه هو الخالق فهو قادر، وكيف يخلق ما لا يعلم؟ فبالتالي استشهد بخلقه على قدرته وعلى علمه، لذلك قال: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل خلقها، وهو سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون، بل ما لم يكن لو كان كيف يكون، فالله سبحانه وتعالى عندما ذكر أصحاب النار قال عنهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية: ٢٨]، فلو أُخرج أهل النار من النار وعادوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم.

فإذاً يعلم مالم يكن لو كان كيف يكون، فعلمه سبحانه وتعالى محيطٌ بكل شيء،

- قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: الآية: ٢٢].
- وقال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: الآية: ١٢].
- وقال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبأ: الآية: ٣].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ **[النحل: الآية: ١٢٥]**.

- وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ **[النجم: الآية: ٣٢]**.

وقال الله تعالى -مقررًا علمه بما لم يكن لو كان كيف سيكون-: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ **[الأنعام: الآية: ٢٨]**، فالله يعلم أن هؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعة إلى الدنيا أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبهم وضلالهم.

وقال في الكفار الذين لا يطيقون سماع الهدى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ **[الأنفال: الآية: ٢٣]**.

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن: علمه بما كان الأطفال الذين توفوا صغارًا عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم، وبيانه فيما يلي:

- **عن ابن عباس -رضي الله عنهما- (ت: ٦٨ هـ)**، قال: " سئل النبي -ﷺ- عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين "[(١)].

- **وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها -(ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)**، قالت: توفي صبيٌّ، فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة. فقال رسول الله -ﷺ-: " **أَوَلَا تدرين أن الله خلق الجنة والنار، فخلق لهذه أهلًا ولهذه أهلًا؟**"[(٢)].

وفي رواية عند مسلم- أيضًا- **عن عائشة -رضي الله عنها- (ت: ٥٧ أو ٥٨ هـ)** قالت: "دُعي رسول الله -ﷺ- إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبي لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. قال: **(أَوَغَير ذلك يا عائشة، إن الله خلق**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب القدر باب الله أعلم بما كانوا عاملين (٨/ ١٢٢) رقم: (٦٥٩٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤/٢٠٥٠) رقم: (٢٦٦٢).

للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصـــلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم"(١)

وكان أول من أنكره القدرية فأنكروا علم الله الســابق، فزعم القدرية الأوائل أن الله سـبحانه وتعالى لا يعلم الأشـياء قبل وقوعها، فهذا أول حال القدرية، ثم إن القدرية بعد ذلك تراجعوا عن إنكار العلم الســـابق وأثبتوا العلم الســـابق، ولكن أنكروا قدرة الله في فعل العبد، فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل كونها.

الركن الثاني: الكتابة

الركن الثاني- أو المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر- هو الكتابة، فيجب الإيمان بأن الله تعالى كتب كل المقادير في اللوح المحفوظ وسطر فيها كل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

واللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق سماه القرآن بالكتاب، وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين وبأم الكتاب، والكتاب المسطور.

- قال تعالى: **﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: الآيات: ٢١، ٢٢]**،

وقال تعالى: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّـــمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: الآية: ٧٠]**،

وقال تعالى: **﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: الآية: ١٢]**،

وقال تعالى: **﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: الآيات: ١- ٣]**،

وقال تعالى: **﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: الآية: ٤]**،

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- (ت: ٦٥ هـ)، عن النبي -ﷺ- أنه قال: **(إنَّ الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق الســموات والأرض بخمســين ألف ســنة**

---

(١) أخرجه مســـلم في صـــحيحه كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المســـلمين (٤/٢٠٥٠) رقم: (٢٦٦٢).

وكان عرشه على الماء).[(١)].

قال عبادة بن الصامت-رضي الله عنه-(ت: ٣٤ هـ) لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصـــابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصـــيبك، سمعت رســـول الله-ﷺ-، يقول: (**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شـيء حتى تقوم السـاعة**)، يا بني إني سمعت رسـول الله -ﷺ- يقول: (**من مات على غير هذا فليس مني**) [(٢)]

وعن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، قال: "كنت خلف رسول الله -ﷺ- يوما، فقال: (**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**).[(٣)]

أنواع التقدير:

ذكر ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ) أقســـام التقدير الخمســـة، وأوضـــحها بأدلتها، وهي باختصار:

التقدير الأول: تقدير المقادير قبل خلق الســـماوات والأرض، وهو التقدير العام الشـــامل لكل شيء في اللوح المحفوظ، وقد سبق ذكر بعض الأدلة عليه.

التقدير الثاني: تقدير الرب- تبارك وتعالى- شـــقاوة العباد وســـعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثان بعد التقدير الأول، فعن عمران بن حصين قال: "قيل: يا رســـول الله، علم أهــل الجنــة من أهــل النــار؟ فقــال (نعم). قيـل: ففيم يعمـل

---

(١) أخرجه مسلم كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى برقم: (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٤٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٩٣) (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢).

العاملون؟ قال: (كل ميسر لما خلق له).[(١)].

التقدير الثالث: المتعلق بالجنين وهو في بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله؛ فعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: حدثنا رسول الله - ﷺ- وهو الصادق المصدوق: (**إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات؛ بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**).[(٢)]

التقدير الرابع: التقدير في ليلة القدر؛ قال الله تعالى: ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**﴾ [الدخان: الآيات: ١ - ٥].

قال أبو عبد الرحمن السلمي-رحمه الله-(ت: ٧٤ هـ): "يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر"، وهذا هو الصحيح: أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرا، فهي ليلة الحكم والتقدير.

التقدير الخامس: التقدير اليومي؛ قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ **[الرحمن: الآية: ٢٩]**.

قال مجاهد-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ)، والكلبي-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ)، وعبيد بن عمير-رحمه الله-(ت: ٧٣ هـ)، وأبو ميسرة-رحمه الله-(ت: ٦٣ هـ)، وعطاء-رحمه الله-(ت:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥١) ومسلم (٢٦٤٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

١١٤ هـ)، ومقاتل-رحمه الله-(١٥٠ هـ): "من شأنه: أن يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر، ويعز ويذل، ويفك عانيا، ويشفي مريضا، ويجيب داعيا، ويعطي سائلا، ويتوب على قوم، ويكشف كربا، ويغفر ذنبا، ويضع أقواما، ويرفع آخرين. دخل كلام بعضهم في بعض ... ".

إلى أن **قال ابن القيم -رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)**: "فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه، وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك الدليل على علم الرب وقدرته وحكمته، وزيادة التعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه"(١)

الركن الثالث: المشيئة:

الركن الثالث- أو المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر- المشيئة، أي: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السماوات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوص المصرحة بهذا الركن المقررة له كثيرة، منها:

- قال تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَّشَاءَ اللهُ**﴾ **[التكوير: الآية: ٢٩]**.

- وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْموتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَّشَاءَ اللهُ**﴾ **[الأنعام: الآية: ١١١]**.

- وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**) **[الأنعام: الآية: ١١٢]**.

- **وقال تعالى**: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ **[يس: الآية: ٣٦]**.

- وقال تعالى: ﴿**مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ **[الأنعام: الآية: ٣٩]**.

---

(١) شفاء العليل (ص: ٣١-٤٩).

ومشــيئة الله النافذة وقدرته الشــاملة يجتمعان فيما كان وما ســيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن، فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه.

- قال تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ **[البقرة: الآية: ٢٥٣]**.

- **وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: الآية: ٤٨]**.

- وقال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: الآية: ٣٥]**.

- وقال تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٧]**.

- **وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ [يونس: الآية: ٩٩]**.

وجاء في حديث **حذيفة بن أســيد-رضــي الله عنه-(ت: ٤٢ هـ)** في شــأن الجنين: (**فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك**).[(١)].

وعن أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-(ت: ٤٤ هـ)، عن النبي-ﷺ-: (**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء**).[(٢)].

الركن الرابع: الخلق

الركن الرابع- أو المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر- الخلق، أي: خلق الله تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك لله في خلقه.

وقد قررت النصوص أن الله خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكوَّنهم وأوجدهم، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق.

ومن أدلة القرآن الكريم:

الله تعالى خالق كل شــيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شــيء إلا وهو خالقه...

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٢).

١-قال تعالى في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث كسر أصنامهم ثم جاء إليه قومه يناقشونه مسرعين فقال لهم كما حكى الله عنه: ﴿**أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ **[الصافات: الآيات: ٩٥-٩٦]**، أي خلقكم وعملكم فتكون (ما) مصدرية، وقيل: إنها بمعنى الذي، فيكون المعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيدكم وهو الأصنام[١] وقد ذكر ابن كثير القولين ثم قال: "وكلا القولين متلازم، والأول أظهر" [٢] وقد علل ذلك بما يؤيده من رواية البخاري في أفعال العباد **عن حذيفة-رضي الله عنه-(ت: ٣٦ هـ)** قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الله يصنع كل صانع وصنعته)**[٣]، وتلا بعضهم عند ذلك ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ **[الصافات: الآية: ٩٦]**، فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة فالله تعالى خالق الخلق وأفعالهم كما دلت على ذلك الآية والحديث.

٢-وقد وردت آيات كثيرة تدل دلالة واضحة على أن كل شيء مما في هذا الكون مخلوق لله سبحانه وتعالى, وقد وردت هذه الآيات بلفظ العموم فقال تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ **[الرعد: الآية: ١٦]**، وفي آية أخرى: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ **[غافر: الآية: ٦٢]**، وهذه نصوص واضحة في الدلالة على مرتبة الخلق، وقد جاءت الآية الأولى في معرض إنكار أن يكون للشركاء خلق كخلقه، سبحانه وتعالى فنفى ذلك سبحانه آمراً رسوله أن يقرر هذه الحقيقة التي تفصل في الأمر وتدل على وحدانية الله تعالى وانفراده بالخلق والرزق: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ **[الرعد: الآية: ١٦]**، وفي موضع آخر جاءت هذه الآية لبيان قدرة الله تعالى وكماله ودلائل وحدانيته: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ **[الزمر: الآية:٦٢]**، أما الآية الثانية فقد جاءت أيضاً لبيان

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٧/ ٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢).

(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (١٠٢). وصححه ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٥٠٧)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٣٦) وقال: على شرط مسلم.

قدرة الله التامة حيث جعل لعبادة الليل والنهار ثم بين سبحانه أنه خالق كل شيء.

٣-وقال تعالى ممتناً على الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن أمرهم بالتثبت في خبر الفاسق. **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. [الحجرات: الآية: ٧]**، والشاهد قوله: **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ﴾**.. **﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾**...، فهو سبحانه هو الذي جعل الإيمان محبوباً أو أحب الأشياء إليكم، وهو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروها عندكم، وذلك بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، فالفاعل في كل ذلك هو الله تعالى. [(١)]

وهناك آيات أخرى كثيرة تدل على أن الله تعالى هو المضل، والهادي, والمؤيد لعباده المؤمنين، والهازم لأعدائهم، وأنه المضحك, والمبكي، والمميت, والمحيي, وكل ذلك دليل على مرتبة الخلق، وقد أورد ابن كثير عند تفسيره لآية الحجرات السابقة، حديثاً يدل على هذه المرتبة عن ابن رفاعة الزرقي قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: (**استووا حتى أثني على ربي، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إني أسالك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسالك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا**

---

(١) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان (٩/ ٧٤)، وانظر: تفسير ابن السعدي (٧/ ١٣١)، وانظر: شفاء العليل لابن القيم (ص: ٥٧).

مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق).[(١)] فترى في هذا الحديث بأن الله تعالى هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا دليل على مرتبة الخلق.

الأدلة من السنة:

١-**عن زيد بن أرقم-رضـــي الله عنه-(ت: ٦٨ هـ)** قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسـول الله ﷺ يقول: كان يقول: (**اللهم أعوذ بك من العجز والكسـل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب، القبر اللهم آت نفســي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**...). الحديث[(٢)] والشاهد قوله: (**اللهم آت نفسي تقواها وزكها**...)، فالفاعل هو الله تعالى، فهو الذي يطلب منه ذلك ولفظ (**خير**) ليس للتفضـــيل، بل لا مزكي للنفس إلا الله، ولهذا قال بعد ذلك: (**أنت وليها ومولاها**).[(٣)] فهو سبحانه الملهم للنفس الخير والشر، قال تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ **[الشمس: الآية: ٨]**.

قال سـعيد بن جبير-رحمه الله-(ت: ٩٥ هـ) في تفسـير هذه الآية: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ **[الشـمس: الآية: ٨]**، أي: فالخلق والإنسـان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه.

وقال ابن زيد-(ت: ١٨٢ هـ)، في معنى الآية: "جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى"[(٤)]

٢- وعن **وراد مولى المغيرة بن شعبة (ت: غير معروف سنة وفاته)** قال: كتب معاوية إلى

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٢٤) (١٥٥٣١)، والبزار (٩/ ١٧٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٣٨). وقال: [فيه] عبد الواحد بن أيمن مشـهور ليس به بأس في الحديث، روى عنه أهل العلم، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٢٤): رجاله رجال الصـحيح، وصـححه ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ١٦٣) والألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٣٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/ ٤١).

(٤) الكشف والبيان للثعلبي (١٠/ ٢١٣)، وزاد المسير (٩/ ١٤٠)، و تفسير البغوي (٨/ ٤٣٨).

المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي-ﷺ-يقول خلف الصلاة، فأملى عليّ المغيرة قال: سمعت النبي-ﷺ-يقول: خلف الصلاة: (**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**).[(١)] والشاهد قوله: (**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**)، فالمعطي والمانع هو الله تعالى فهو الفاعل لهما، وهذا يدل على أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى وقوله: (**ولا ينفع ذا الجد منك الجد**)، أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك، بل ينفعه عمله الصالح.

٣-وقد قال-ﷺ-**لأبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-(ت: ٤٤ هـ)**: (**يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟**). فقلت بلى يا رسول الله، قال: (**قل: لا حول ولا قوة إلا بالله**).[(٢)]، والشاهد قوله: (**لا حول ولا قوة إلا بالله**)، ففيها الاعتراف بأنه لا صانع غير الله، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً، فمعناها: لا حركة, ولا استطاعة, ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى[(٣)] وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: (**لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته**)[(٤)]، وحكي هذا **عن ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، وكله متقارب، والكنز هنا: معناه ثواب مدخر في الجنة عند الله وهو ثواب نفيس[(٥)].

فهذه مراتب القدر وأركانه الأربعة التي يجب على العبد أن يؤمن بها حتى يكون مؤمنًا بالقدر.

---

(١) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) رواه البخاري (٤٠٢٥) بلفظ: (ألا أدلك على كلمة) بدلاً من (ألا أدلك على كنز)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (٥/ ٢٤٣)، لسان العرب (١١/ ١٨٤) مادة: (حول).

(٤) رواه البزار (٥/ ٣٧٤)، والبيهقي في (١/ ٤٤٦) (٦٦٤)، والديلمي (٥/ ٣٧٥) (٨٤٧٨). بلفظ: (إلا بعون الله) بدلاً من (إلا بمعونته). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٠٢): رواه البزار بإسنادين أحدهما: منقطع وفيه عبد الله بن خراش، والغالب عليه الضعف، والآخر: متصل حسن، وقال الحسيني في البيان والتعريف (٢/ ٢٨٩): سنده لا بأس به.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/ ٢٦-٢٧)، وانظر: عمدة القاري للعيني (٢٣/ ١٥٤).

وقد يقسم بعض العلماء مراتب القدر إلى درجتين:

فقد قسـم **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)**: "الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين" - بين فيه مراتب القدر الأربع التي هي:(العلم والكتابة والمشيئة والخلق).

فذكر هنا مراتب القدر، وجمع هنا بين مرتبتين؛ مرتبة العلم ومرتبة الكتابة؛ باعتبار أنهما متلازمتان، كما أنه بالدرجة الثانية جمع بين الخلق والمشـــيئة، فالقســـمة إما ثنائية وإما رباعية، فإذا قلت: رباعية، فتقول: (العلم، الكتابة، الخلق، المشيئة).

وإذا قلت ثنائية، فتقول: (العلم، الكتابة)، أي: علم ســبحانه وتعالى ذلك وكتبه، ثم خلقه وشاءه.

فقال: (الإيمان بالقدر على درجتين؛ كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بالعلم والكتابة)؛ فالله- تعالى علم الأشـــياء قبل كونها، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما أخبر- مثلا- عن شـــأن أهل النار فقال: ﴿**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾ [الأنعام: الآية: ٢٨]؛ فلو ردوا إلى الدنيا فسـيكون منهم عودة إلى ما نهاهم الله عنه، وهذا لا يكون، ولكنه لو كان فســيكون بهذه الحال، فالله سـبحانه وتعالى علم الأشـياء قبل كونها، وهو عليم بها أثناء كونها، وعليم بما سـيكون، وعليم بما لم يكن لو كان كيف يكون، فسبحان من وسع علمه كل شيء!

فهو عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصـــوف به أزلا وأبدا؛ ونحن نؤمن أن الله متصف بجميع الصفات أزلا وأبدا.

المسألة السادسة: مواقف المخالفين من مراتب القدر

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الناس قد تنازعوا في القدر، وخاضوا فيه بغير علم، وهذا باب عظمت فيه الفتنة، وكثر فيه النزاع، وما يصيب الإنسان من الحيرة والضلال، إلا من جهة الجهل بالقدر"[(١)].

(١) مجموع الفتاوى، (٨/ ٢٦٢).

قال ابن أبي العز–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): "وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع"(١)

وقد حدثت بدعة "القدرية" في آخر عصر الصحابة(٢). وكان القدر قد حدث أهله قبل أهل النفي للصفات، فمقالة القدر ظهرت في خلافة عبد الله الزبير–رضي الله عنه–(٦٤-٧٣هـ) بعد موت معاوية(٣)

ولهذا تكلم فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع(٤) –رضي الله عنهم–.

وابن عباس–رضي الله عنهما–مات (٦٨هـ) قبل ابن الزبير وابن عمر مات عقب موته (٧٤هـ). وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين، فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز، والشام، والعراق، وأكثره كان بالشام والعراق بالبصرة، وأقله كان بالحجاز(٥)

وأول من عرف بنفي القدر، رجل مجوسي يقال سيسويه من الأساورة، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهني(٦)

قال الهروي–رحمه الله–(ت: ٤٨١ هـ): "فأما القدر فأول من تكلم به معبد الجهني رجل من أهل البصرة، كان عنده حظ من العلم يقال له معبد بن خالد، ويقال معبد ابن عبد الله بن عويم، مات بعد الهزيمة وكان يومئذ مع ابن الأشعث، وأصابته جراحة، وهو أول من تكلم

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٤٠).
(٢) منهاج السنة (١/٣٠٨).
(٣) الحسنة والسيئة (ص: ١٠٣).
(٤) منهاج السنة (ص: ١٠٣).
(٥) الحسنة السيئة (ص: ١٠٣).
(٦) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).

بالقدر، وهو الذي تبرأ منه عبد الله بن عمر بن الخطاب.[(١)] مات قبل التســـعين [(٢)] قتله الحجاج بن يوسف وقيل صلبه عبد الملك بن مروان سنة ثمانين"[(٣)]

وأخذ غيلان الدمشقي عن معبد الجهني [(٤)]

قال الهروي–رحمه الله–(ت: ٤٨١ هـ): "فتكلم عليه عمرو بن عبيد، وجادل به غيلان بن مسـلم الدمشـقي (ت: ١٠٦ هـ) وغيلان هو ابن أبي غيلان أبو مروان من موالي عثمان، وكـان عنـده حظ من العلم، تكلم بـه أيام عبـد الملـك بن مروان–رحمـه الله–(ت: ٨٦ هـ)، واســتتابه عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ)، ثم ظهر منه تكذيب التوبة [(٥)] زمن يزيد بن عبد الملك–رحمه الله–(ت: ١٠٥ هـ)، ثم لما ولي هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦هـ)، أرسـل إلى غيلان وأحضـر له الأوزاعي لمناظرته، ثم قتله [(٦)] فصـلب على باب الشـام بأخزى حالة لقيها بشر"[(٧)]

"وأما عمرو بن عبيد فهو عمرو بن كيسـان أبو عثمان مولى بني تميم البصـري، مات سـنة ثلاث وأربعين ومائة في طريق مكة فإنه أول من بسـط أسـاسـه فأصبح رأسـه، ونظم له كلامًا ونصــبه إمامًا، ودعا إليه ودل عليه، فصـــار مذهبًا يســلك، وهو إمام الكلام وداعية الزندقة الأولى رأس المعتزلة، سموا به لاعتزاله حلقة الحســن البصــري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ)، وهو الذي لعنه إمام أهل الأثر مالك بن أنس الأصـــبحي–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)، وإمام أهل

---

(١) ذم الكلام (ص: ٣٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).

(٣) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٧).

(٥) ذم الكلام (ص: ٣٠٣).

(٦) الشريعة للآجري (ص: ٢٢٨)، التنبيه والرد للملطي (ص: ١٦٨).

(٧) ذم الكلام ص: ٣٠٣).

الرأي النعمان بن ثابت الكوفي أبو حنيفة-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ)، وحذر منه إمام أهل الشـــرق عبد الله بن المبارك الحنظلي-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، فسـلط الله عليه وعلى من استتبع واخترع، سيفاً من سيوف الإسلام وهو أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني-رحمه الله-(ت: ١٣١ هـ)، فهتك استاره، وأظهر عواره، ورسمه باللعنة وألحق به بلاء تلك الفتنة"[١]

فقد تلقَّف المعتزلة مقالة القدرية حتى بعد ذلك أصـــبح إذا قيل: القدرية، فإن الذي يعنى بذلك هم المعتزلة في ذلك الحين.

ونفاة القدر أرادوا منازعة الله في الربوبية فضاهوا بذلك المجوسية الأولى وهم الزنادقة. [٢]

وأصل بدعة القدرية كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه ووعده ووعيده، وظنوا أن ذلك ممتنع؛ وكانوا قد آمنوا بدين الله وآمره ونهيه ووعده ووعيده، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصـــي، لأنهم ظنوا أن من علم ما سـيكون لم يحسـن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصـيه، وظنوا أيضـاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يفسد.

فلما بلغ قولهم بإنكار القدر الصـحابة أنكروه إنكاراً عظيماً وتبرؤا منهم. ثم كثر الخوض في القدر فصـار مقتصـدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السـابق وبالكتاب المتقدم، وصـار النزاع في الإرادة وخلق أفعال العباد فصاروا في ذلك حزبين.

١- "النفاة": يقولون لا إرادة إلا بمعنى المشيئة، وهو لم يرد إلا ما أمر به، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد.

٢- "المجبرة" كالجهم بن صـفوان (ت: ١٢٨ هـ) وأمثاله، قابلوا الفريق الأول فقالوا ليسـت الإرادة إلا بمعنى المشيئة، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة، وقالوا العبد لا فعل له البتة ولا قدرة،

---

(١) ذم الكلام (ص: ٣٠٣).

(٢) ذم الكلام (ص: ٣٠٥).

بل الله هو الفاعل القادر فقط.[(١)]

أولًا: الموقف من مرتبة العلم والكتابة.

والقدرية [(٢)] ينقسمون إلى قسمين:

القدرية الأولى

وهؤلاء هم الغلاة الذين أنكروا القدر وأنكروا علم الله الســـابق بالأمور، "فيقولون إن الله لا يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها، ولا تعلقت بها مشـيئة الله، فلما شـنع عليهم المسـلمون، وكفروهم بذلك: تحولوا عن قولهم الأول فأثبتوا العلم، وأنكروا القدر.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا التقدير - أي: تقدير العلم والكتابة- قد كان ينكره غلاة القدرية قديما، ويقولون: إن الأمر أنف؛ أي: أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها"[(٣)].

فغلاة القدرية يقولون والعياذ بالله-: إن الله لا يعلم أن العبد ســـيعمل هذا العمل إلا عند وقوعه. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. والله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء أزلا

ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وغيره، يقولون: "ناظروا القدرية بالعلم فإن أنكروا العلم كفروا، وإن اعترفوا به خصموا"[(٤)]

قـال حـافظ حكمي-رحمـه الله-(ت: ١٣٧٧ هـ): "ثم منهم من نفى علم الله تعـالى كـأوليهم، ففيهم من نفى علمه بالكليات والجزئيات ومنهم من أثبت العلم بالكليات دون

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦،٣٧).

(٢) سموا بالقدرية لإنكارهم القدر، وكذلك تسـمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضًـا، والتسـمية على الطائفة الأولى أغلب. شـرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٧٩)، و (٢/ ٧٩٧)، معجم ألفاظ العقيدة (ص: ٣١٦).

(٣) شرح العقيدة الواسطية (ص: ٢١٩).

(٤) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص: ٢٠)، مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٠).

الجزئيات"[1]

قال النووي -رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: أن الله- تبارك وتعالى- قدر الأشياء في القدم، وعلم- سبحانه- أنها ستقع في أوقات معلومة عنده -سبحانه وتعالى-، وعلى صفات مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قدرها -سبحانه وتعالى-، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه -سبحانه وتعالى- لم يقدرها، ولم يتقدم علمه -سبحانه وتعالى- بها، وأنها مستأنفة العلم، أي: إنما يعلمها- سبحانه- بعد وقوعها، وكذبوا على الله سبحانه وتعالى وجل عن أقوالهم الباطلة علوًا كبيرًا.

وسميت هذه الفرقة قدرية؛ لإنكارهم القدر؛ قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، لكن يقولون: الخير من الله، والشر من غيره"[2]

والنصوص في العلم والكتابة- بحمد الله تعالى- كثيرة وواضحة في الدلالة على هاتين المرتبتين: العلم والكتابة، كما تقدم ذكرهما.

ثانيًا: الموقف من مرتبة الخلق والمشيئة.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما الدرجة الثانية فهي مشيئته النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه- سبحانه- على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات؛ فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي -ﷺ- مجوس هذه

---

(١) معارج القبول (٣/ ٩٤٥).

(٢) شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٤).

الأمة، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سـلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها"[١]

فالقدرية الثانية:

زعموا "أن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم، لم تدخل تحت قضـاء الله وقدره، فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات، وأوصـــافها، ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشـأها منهم، بل: هم الذين أرادوها وشـاءوها، وفعلوها، اسـتقلالاً بدون مشـيئة الله"[٢]

"فهؤلاء يقولون أن أفعال العباد ليســت مخلوقة لله، وإنما العباد هم الخالقون لها، وهذا هو مذهب المعتزلة ومن وافقهم، فهم ينكرون مرتبتي المشـــيئة والخلق، فينفونها عن الله تعالى، ويثبتونها للإنسان"[٣]

وافترقت القدريَّة إلى عشـرين فرقة، وهذه أسماؤها: الواصـلية، والعمرية، والهذلية، والنظامية، والمردارية، والمعمرية، والثمامية، والجاحظية، والخياطية، والشـحامية، وأصـحاب صـالح قبة، والمريسية، والكعبية، والجبائية، والبهشيمية المنسوبة إلى أبي هاشم بن الجبائي"[٤]

وابن تيمية-رحمه الله-يشير هنا إلى كل من القدرية والجبرية

وقد ضَـلَّ في هذا الباب (باب أفعال الله) الجبريةُ والقدريةُ، وما زال إلى يوم الناس هذا مَن يَخبط فيه بين قائل بأن العبد مجبر على أفعاله، وبين قائل بأن العبد لا فِعل له ولا اختيار، وإنما هو كالريشة في مَهَبِّ الرِّيح، وأهل السنة والجماعة وسطٌ بين هذا وذاك.

وقد أوضَـح **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)**: هذا في (مَجموع الفَتاوى) قول أهل

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص: ٢٢٠-٢٢١).

(٢) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص: ١٧).

(٣) القضاء والقدر لعبد الرحمن المحمود (ص: ٣٠٥).

(٤) الفرق بين الفرق لعبدالقاهر البغدادي (ص: ٤٤).

السـنة فقال: "وهم في باب خَلقِ الله وأمرِه وسـطٌ بين المكذِّبين بقُدرة الله الذين لا يُؤمنون بقُدرتِه الكاملة ومَشِيئته الشاملة وخَلقِه لكل شيء، وبين المفسدين لدِين الله الذين يَجعلون العبدَ ليس له مَشِيئةٌ ولا قُدرة ولا عمل، فيُعطِّلون الأمر والنهي والثوابَ والعقاب، فيَصِيرون بمَنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٤٨].

فيُؤمن أهل السُّنَّة بأنَّ الله على كل شيء قدير، فيَقدر أن يهدي العبادَ ويُقلِّب قلوبهم، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في مُلكِه ما لا يُريد، ولا يَعجَز عن إنفاذ مُرادِه، وأنه خالِق كلِّ شيء من الأعيان والصِّفات والحَرَكات. ويُؤمنون أن العبدَ له قُدرة ومشيئة وعملٌ، وأنه مُختار ولا يُسمُّونه مجْبورًا؛ إذ المجْبور مَن أُكْرِه على خلاف اختِياره، والله عز وجل جعَل العبدَ مُختارًا لِمَا يفعله، فهو مختارٌ مُريد، والله خالِقُه وخالِقُ اختياره، وهذا ليس له نَظِيرٌ؛ فإن الله ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاتِه ولا في صفاته ولا في أفعاله"[(١)]

وقال عبد الرحمن بن ناصر بن سِعْدي -رحمه الله- (ت: ١٣٧٦ هـ): "وهدَى الله أهلَ السُّنَّة والجَمَاعَة للتوسُّط بين طائفتين منحرفتينِ هم القدرية والجبرية، فآمَنوا بقضاء الله وقدَره وشُمولهما للأعيان والأوصاف والأفعال التي مِن جُملتِها أفعالُ المكلَّفين وغيرهم، وآمَنوا بأنه ما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكُن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالى جعَل للعِباد قُدرة وإرادة تقَعُ بها أقوالُهم وأفعالهم على حسب اختِيارهم وإرادتهم، فآمَنوا بكلِّ نصٍّ فيه تعميمُ قدرة ومشيئة، وبكلِّ نصٍّ فيه إثباتُ أنَّ العباد يعملون ويفعلون كلَّ الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقُدْرَتِهم، وعَلِموا أن الأمرينِ لا يَتنافيانِ"[(٢)].

وبهذا يتبين أن الملازمة الفاسدة إنما هي في أذهان وعقيدة القدرية إذ لا تنافي بين مشيئة الله ومشيئة العبد في معتقد أهل السنة والجماعة.

(١) مجموع الفَتاوى (٣/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٢) التنبيهات اللطيفة (ص: ٦١، ٦٢).

المسألة السابعة: ورود هذا النص في ألفاظ الشرع.

هذا اللفظ ورد في قوله-ﷺ-عندما سأله جبريل-عليه السلام-عن الإيمان: **(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)**.[(١)]

والحديثُ دَلَّ دلالةً ظاهرةً على مذهبِ أهلِ السـنَّةِ في إثباتِ القَدَرِ ووجوبِ الإيمانِ بجميعِ المقادير: خيرِها وشـرِّها، حُلْوِها ومُرِّها، نَفْعِها وضـرِّها، قليلِها وكثيرِها، وأنه واقعٌ مِن اللهِ-تعالى-على العباد في الوقت الذي أراد أَنْ يَقَعَ، لا يَتقدَّمُ الوقتَ ولا يَتأخَّرُ على ما سَـبَقَ بذلك في علمِ الله، تجري الواقعاتُ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وتحت تصرُّفه وإرادته؛ فما شاءَ كان وما لم يَشَـأْ لم يكن، وما أصـابَ العبدَ لم يكن لِيُخْطِئَه وما أَخطأَهُ لم يكن لِيُصـيبَه، وما تَقَدَّمَ لم يكن لِيتأخَّرَ وما تَأخَّرَ لم يكن لِيَتقدَّمَ؛ فلا مانِعَ لِمَا أعطى ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، ولا يكون في مُلْكِهِ إلَّا ما يُريدُ، وهو ـ سبحانه ـ غيرُ ظلَّامٍ للعبيد.

وجاء في لفظ: **أن تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره**. بزيادة حلوه ومره، قد جاءت في عدة أحاديث:

فمنها حديث عمر الطويل في قصة جبريل، وأصل الحديث في الصحيح، ولكن هذه الزيادة عند ابن حبان.[(٢)]

وحديث ابن عمر عند ابن أبي شـيبة [(٣)] والبيهقي والطبراني، والسـنة لابن أبي عاصـم.[(٤)] وكذلك في حديث جبريل الطويل، وحديث عبد الله بن عمرو عند الطبراني في الأوسـط[(٥)]،

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، (١/ ٣٩٠)، مِن حديثِ عبد الله بنِ عمر عن أبيه-رضي الله عنهما.-وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: (١٦٨)-صحيح.

(٣) الإيمان لابن أبي شيبة: (١١٩)، وقال الألباني صحيح ورجاله ثقات لكنه في صحيح مسلم من طرق أخرى.

(٤) تخريج كتاب السنة (١٧٢) وقال الألباني: إسناده ضعيف.

(٥) المعجم الأوسـط للطبراني (٣/ ١١٢)، وقال لم يرو هذا الحديث عن مقاتل إلا عمر تفرد به محمد بن يعلى، وأورده ابن الوزير اليماني في العواصم والقواصم: (٦/ ٢٩٠)، وقال: رجاله موثقون.

وحديث عدي بن حاتم عند ابن ماجه[(١)]، وحديث أنس عند ابن النجار[(٢)].

المسألة الثامنة: معنى عبارة "خيره وشره وقليله وكثيره وظاهره وباطنه وحلوه ومرُّه ومحبوبه ومكروهه وحسنه وسيئه وأوله وآخره

وقال ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "إنها من باب التقرير بالإبدال، يعني أنها وردت لتأكيد المعنى"[(٣)]

ويمكن أن يقال: إن لفظ خيره وشـــره أعم من حلوه ومره، فهو من باب ذكر الخاص بعد العام، وذلك لأن الخير قد يكون مراً، والشر قد يكون حلواً، قال تعالى: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**﴾ **[البقرة: الآية: ٢١٦]**.

وقال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الفرق بين كون القدر خيرا شـرا وكونه حلوا ومرا قيل الحلاوة والمرارة تعود إلى مباشرة الأسباب في العاجل، والخير والشر يرجع إلى حسن العاقبة وسـوئها فهو حلو ومر في مبدأه وأوله، وخير وشـر في منتهاه وعاقبته، وقد أجرى الله سبحانه سنته وعادته أن حلاوة الأسباب في العاجل تعقب المرارة في الآجل، ومرارتها تعقب الحلاوة فحلو الدنيا مر الآخرة ومر الدنيا حلو الآخرة، وقد اقتضـــت حكمته ســبحانه أن جعل اللذات تثمر الآلام والآلام تثمر اللذات، والقضـاء والقدر منتظم لذلك انتظاما لا يخرج عنه شيء البتة.

والشـر مرجعه إلى الآلام وأسـبابها، والخير مرجعه إلى اللذات وأسـبابها، والخير المطلوب هو اللذات الدائمة، والشر المرهوب هو الآلام الدائمة، فأسباب هذه الشرور وإن اشتملت على

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٨٧) والطبراني (١٧/ ٨١) (١٨٢)، انظر: مجمع الزوائد: (٩/ ٤٠٦)، والحديث فيه عبد الأعلى بن أبي المساور وهو متروك، وقال الألباني ضعيف جدًا (ضعيف ابن ماجة: ١٧) وقال أيضًا في تخريج كتاب السنة لابن أبي عاصم: (١٣٥) إسناده ضعيف جدًا.

(٢) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء: (٨/ ٢٨٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٠٨)، وأبو طاهر السلفي في الطيوريات (٢٩٧).

(٣) فتح الباري: (١/ ١١٨).

لذة ما وأسباب تلك الخيرات وإن اشتملت على ألم ما، فألم تعقبه اللذة الدائمة أولى بالإيثار والتحمل من لذة يعقبها الألم الدائم، فلذة ســاعة في جنب ألم طويل كلا لذة وألم ســاعة في جنب لذة طويلة كلا ألم[١]".

المسألة التاسعة: مسألة نسبة الشر إلى الله–عز وجل–.

ويجدرُ التنبيهُ والإشارةُ إلى أنَّ وَصْفَ القَدَرِ بالشرِّ واقعٌ في مفعولات الله –تعالى–ومقدوراتِهِ المنْفَصِــلةِ عنه التي لا يَتَّصِــفُ بها، دون أفعاله القائمةِ به؛ فأفعالُ الله –تعالى–كُلُّها خيرٌ وحكمةٌ؛ ولهذا قال ﷺ :(وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ).[٢]

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "معنى قول الســلف من أصــول الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشــره حلوه ومره...أن القدر لا شــر فيه بوجه من الوجوه فإنه علم الله وقدرته وكتابه ومشــيئته وذلك خير محض وكمال من كل وجه فالشــر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدر ويكون شرًا بالنسبة إلى محل وخيرًا بالنسبة إلى محل آخر وقد يكون خيرًا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه كما هو شر له من وجه، بل هذا هو الغالب.

وهذا كالقصاص وإقامة الحدود وقتل الكفار فإنه شر بالنسبة إليهم لا من كل وجه، بل من وجه دون وجه وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر والنكال ودفع الناس بعضهم ببعض وكذلك الآلام والأمراض وإن كانت شرورا من وجه فهي خيرات من وجوه عديدة...

فالخير والشر من جنس اللذة والألم والنفع والضرر وذلك في المقضي المقدر لا في نفس صفة الرب وفعله القائم به فإن قطع يد الســارق شــر مؤلم ضــار له وأما قضــاء الرب ذلك وتقديره عليه فعدل خير وحكمة ومصلحة...

---

(١) شفاء العليل لابن القيم (٢/ ٧٣٣).

(٢) جزءٌ مِن حديثٍ رواهُ مسلمٌ في "صلاة المسافرين وقَصْرِها" (٦/ ٥٧–٦٠) بابُ صلاةِ النبيّ ﷺ ودعائِه في الليل، مِن حديثِ عليّ بنِ أبي طالبٍ–رضي الله عنه–.

في امتناع إطلاق القول نفيا وإثباتا أن الرب تعالى مريد للشر وفاعل له هذا موضع خلاف اختلف فيه مثبتو القدر ونفاته:

فقال النفاة: لا يجوز أن يقال إن الله سبحانه مريد للشر أو فاعل له قالوا لا يريد الشر وفاعله شرير هذا هو المعروف لغة وعقلا وشرعا كما أن الظالم فاعل الظلم والفاجر فاعل الفجور ومريده والرب يتعالى ويتنزه عن ثبوت معاني أسماء السوء له فإن أسمائه كلها حسنى وأفعاله كلها خير فيستحيل أن يريد الشر فالشر ليس بإرادته ولا بفعله قالوا وقد قام الدليل على أن فعله سبحانه غير مفعوله والشر ليس بفعل له فلا يكون مفعولا له.

وقابلهم الجبرية فقالوا: بل الرب سبحانه يريد الشر ويفعله قالوا لأن الشر موجود فلا بد له من خالق ولا خالق إلا الله وهو سبحانه إنما يخلق بإرادته فكل مخلوق فهو مراد له وهو فعله ووافقوا إخوانهم على أن الفعل عين المفعول والخلق نفس المخلوق ثم قالوا والشر مخلوق له ومفعول فهو فعله وخلقه وواقع بإرادته قالوا وإنما لم يطلق القول إنه يريد الشر ويفعل الشر أدبا لفظيا فقط كما لا يطلق القول بأنه رب الكلاب والخنازير ويطلق القول بأنه رب كل شيء وخالقه قالوا وأما قولكم إن الشرير مريد الشر وفاعله فجوابه من وجهين:

أحدهما: إنما يمنع ذلك بأن الشرير من قام به الشر وفعل الشر لم يقم بذات الرب فإن أفعاله لا تقوم به إذ هي نفس مفعولاته وإنما هي قائمة بالخلق وكذلك اشتقت لهم منها الأسماء كالفاجر والفاسق والمصلي والحاج والصائم ونحوها.

الجواب الثاني: أن أسماء الله تعالى توقيفية ولم يسم نفسه إلا بأحسن الأسماء قالوا والرب تعالى أعظم من أن يكون في ملكه مالا يريده ولا يخلقه فإنه الغالب غير المغلوب.

وتحقيق القول في ذلك: أنه يمتنع اطلاق إرادة الشر عليه وفعله نفيا وإثباتا في إطلاق لفظ الإرادة والفعل من إبهام المعنى الباطل ونفي المعنى الصحيح فإن الإرادة تطلق بمعنى المشيئة وبمعنى المحبة والرضا فالأول كقوله إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ وقوله :وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ وقوله: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً**﴾ [الإسراء الآية: ١٦]، والثاني: كقوله: ﴿**وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ**

عَلَيْكُمْ﴾ [النســـاء: الآية: ٢٧]، وقوله:﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْـــرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْـــرَ﴾ [البقرة: الآية: ١٨٥]، فالإرادة بالمعنى الأول تستلزم وقوع المراد ولا تستلزم محبته والرضا به وبالمعنى الثاني لا تستلزم وقوع المراد وتستلزم محبته فإنها لا تنقسم بل كل ما أراده من أفعاله فهو محبوب مرضـــي له ففرق بين إرادة أفعاله وإرادة مفعولاته فإن أفعاله خير كلها وعدل ومصلحة وحكمة لا شـر فيها بوجه من الوجوه وأما مفعولاته فهي مورد الانقسام وهذا إنما يتحقق على قول أهل السنة أن الفعل غير المفعول والخلق غير المخلوق كما هو الموافق للعقول والفطر واللغة ودلالة القرآن والحديث وإجماع أهل السـنة كما حكاه البغوي في شـرح السـنة عنهم وعلى هذا فهاهنا إرادتان ومرادان إرادة أن يفعل ومرادها فعله القائم به وإرادة أن يفعل عبده ومرادها مفعوله المنفصـل عنه وليسـا بمتلازمين فقد يريد من عبده أن يفعل ولا يريد من نفسه إعانته على الفعل وتوفيقه له وصرف موانعه عنه كما أراد من إبليس أن يسجد لآدم ولم يرد من نفســه أن يعينه على السـجود ويوفقه له ويثبت قلبه عليه ويصـرفه إليه ولو أراد ذلك منه لســـجد له لا محالة وقوله فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ إخباره عن إرادته لفعله لا لأفعال عبيده وهذا الفعل والإرادة لا ينقسم إلى خير وشر كما تقدم وعلى هذا فإذا قيل هو مريد للشـر أوهم أنه محب له راض به وإذا قيل أنه لم يرده أوهم أنه لم يخلقه ولا كونه وكلاهما باطل ولذلك إذا قيل أن الشـر فعله أو أنه يفعل الشـر أوهم أن الشـر فعله القائم به وهذا محال وإذا قيل لم يفعله أو ليس بفعل له أوهم أنه لم يخلقه ولم يكونه وهذا محال فأنظر ما في إطلاق هذه الألفاظ في النفي والإثبات من الحق والباطل الذي يتبين بالاستفصال والتفصيل وأن الصـواب في هذا الباب ما دل عليه القرآن والسنة من أن الشر لا يضاف إلى الرب تعالى لا وصفا ولا فعلا ولا يتسمى باسمه بوجه من الوجوه وإنما يدخل في مفعولاته بطريق العموم كقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَـرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: الآيات: ١-٢] فما هاهنا موصـولة أو مصـدرية والمصـــدر بمعنى المفعول أي من شـــر الذي خلقه أو من شـــر مخلوقه وقد يحذف فاعله كقوله حكاية عن مؤمني الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَـرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَـدًا﴾

[الجن: الآية: ١٠]، وقد يسند إلى محله القائم به كقول إبراهيم الخليل ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ [الشعراء: الآيات: ٧٨-٨٠]، وقول الخضر ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ [الكهف: الآية: ٧٩]، وقال في بلوغ الغلامين ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا**﴾ [الكهف: الآية: ٨٢] وقد جمع الأنواع الثلاثة في الفاتحة في قوله ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة: الآيات: ٦-٧]، والله تعالى إنما نسب إلى نفسه الخير دون الشر فقال تعالى ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: الآية: ٢٦]، وأخطأ من قال المعنى بيدك الخير والشر لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ليس في اللفظ ما يدل على إرادة هذا المحذوف، بل ترك ذكره قصدا أو بيانا أنه ليس بمراد.

الثاني: أن الذي بيد الله تعالى نوعان فضل وعدل كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: (**يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع**) [(١)] فالفضل لإحدى اليدين والعدل للأخرى وكلاهما خير لا شر فيه بوجه.

الثالث: أن قول النبي ﷺ: (**لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك**). [(٢)] كالتفسير للآية ففرق بين الخير والشر وجعل أحدهما في يدي الرب سبحانه وقطع إضافة الآخر إليه مع إثبات عموم خلقه لكل شيء. [(٣)]

---

(١) رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

(٣) المصدر: شفاء العليل لابن القيم (٢/ ٧٣٣).

المسألة العاشرة: معنى قول المصنف: من الله تبارك وتعالى، قضاءٌ قدَّره على عباده، وقدرٌ قدَّره عليهم، لا يعدو أحد منهم مشيئة الله عز وجل ولا يجاوز قضاءه.... ".

وفيه أمور:

الأمر الأولى: الفرق بين القضاء والقدر.

تعددت الأقوال في الفرق بين القضاء والقدر:

القول الأول: ذهب بعض العلماء إلى أن القضاء والقدر مترادفان.

وهذا موافق لقول بعض أئمة اللغة الذين فسروا القدر بالقضاء.

قال الفيروزآبادي -رحمه الله- (ت: ٨١٧ هـ): "القدر: "القضاء والحكم"[(١)]

القول الثاني: وذهب آخرون من العلماء إلى التفريق بينهما.

ولكن اختلفوا في أيهما أعم وأسبق

فمنهم من ذهب إلى أن القضاء سابق على القدر.

فقال:

القضاء: هو ما علمه الله وحكم به في الأزل.

والقدر: هو وجود المخلوقات موافقة لهذا العلم والحكم.

قال ابن حجر -رحمه الله- (ت: ٨٥٢ هـ): "قال العلماء:

القضاء: هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل.

والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله"[(٢)]

وقال في موضع آخر: "

القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل.

---

(١) القاموس المحيط (ص: ٥٩١).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٧٧)

والقدر: الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل"[١]

وقال الجرجاني-رحمه الله-(ت: ٨١٦ هـ): "

القدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود، واحدًا بعد واحد، مطابقا للقضاء.

والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال.

والفرق بين القدر والقضاء: هو أن

القضاء: وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة.

والقدر: وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها"[٢]

ومن العلماء فريق آخر عكس هذا القول، فجعلوا القدر سابقًا على القضاء:

فالقدر: هو الحكم السابق الأزلي.

والقضاء: هو الخلق.

قال الراغب الأصفهاني-رحمه الله-(ت: ٥٠٢ هـ): "والقضاء من الله تعالى أخص من القدر؛ لأنه الفصل بين التقدير، **فالقدر** هو التقدير، **والقضاء** هو الفصل والقطع.

وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعَدِّ للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا**﴾ [مريم: الآية: ٢١]، وقوله: ﴿**كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**﴾ [مريم: الآية: ٧١]، وقوله: ﴿**وَقُضِيَ الْأَمْرُ**﴾ [هود: الآية: ٤٤]. أي فصل، تنبيهًا أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه "[٣]

القول الثالث: ومن العلماء من اختار أنهما بمعنى واحد إذا افترقا، فإذا اجتمعا في عبارة واحدة: صار لكل واحد منهما معنى.

قال ابن عثيمين-رحمه الله-(ت: ١٤٢١ هـ): "

---

(١) فتح الباري (١١/ ١٤٩).

(٢) التعريفات (ص: ١٧٤).

(٣) المفردات (ص: ٦٧٥).

القدر في اللغة؛ بمعنى: التقدير؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: الآية: الآية: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**﴾ [المرسلات: الآية: ٢٣].

وأما القضاء؛ فهو في اللغة: الحكم.

ولهذا نقول: إن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن تفرقا؛ على حد قول العلماء: هما كلمتان: إن اجتمعتا افترقتا، وإن افترقتا اجتمعتا.

فإذا قيل: هذا قدر الله؛ فهو شامل للقضاء، أما إذا ذكرا جميعًا؛ فلكل واحد منهما معنى.

فالتقدير: هو ما قدره الله تعالى في الأزل أن يكون في خلقه.

وأما القضاء؛ فهو ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وعلى هذا يكون التقدير سابقًا.

فإن قال قائل: متى قلنا: إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا؛ فإن هذا يعارض قوله تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان: الآية: ٢]؛ فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق؟

فالجواب على ذلك من أحد وجهين:

إما أن نقول: إن هذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي، وإنما قدم الخلق على التقدير لتتناسب رؤوس الآيات.

ألم تر إلى أن موسى أفضل من هارون، لكن قدم هارون عليه في سورة طه في قوله تعالى عن السحرة: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**﴾ [طه: الآية: ٧٠]؛ لتتناسب رؤوس الآيات.

وهذا لا يدل على أن المتأخر في اللفظ متأخر في الرتبة.

أو نقول: إن التقدير هنا بمعنى التسوية؛ أي: خلقه على قدر معين؛ كقوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾ [الأعلى: الآية: ٢]؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية.

وهذا المعنى أقرب من الأول؛ لأنه يطابق تمامًا لقوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾؛ فلا

إشكال"[(١)]

والخلاصة: أن الخطب في هذه المسألة يسير جدا، وليس وراءها كبير فائدة، ولا تتعلق بعمل ولا اعتقاد، وغاية ما فيها اختلاف في التعريف، ولا دليل من الكتاب والسنة يفصل فيها، والمهم هو الإيمان بهذا الركن العظيم من أركان الإيمان، والتصديق به.

قال الخطابي رحمه الله بعد أن ذكر أن القدر هو التقدير السابق وأن القضاء هو الخلق، قال: "جماع القول في هذا الباب -أي القضاء والقدر-أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه"[(٢)] انتهى.

وقال الشيخ عبد الرحمن المحمود: "لا فائدة من هذا الخلاف؛ لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهما يطلق على الآخر... فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل عليه الآخر". [(٣)]

وعلى المسلم أن يتيقن أن كل شيء بقضاء الله وقدره، فالآجال والأعمار والذوات والأشخاص والصفات والحركة والسكون والأفعال وكل شيء قد قضاه الله وقدره وكتبه في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ [الأنعام: الآية:٥٩].

فلا بد للمسلم أن يؤمن بقضاء الله وقدره في كل شيء، وأن الله قد علم الأشياء قبل كونها، وكتبها في اللوح المحفوظ، وأراد كل شيء في هذا الوجود قضاءً وقدراً، وخلق كل شيء في هذا الوجود.

الأمر الثاني: أن القدر حجة في المصائب لا في المعائب.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٨٩).

(٢) معالم السنن (٢/ ٣٢٣)

(٣) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٤٤).

والناس في الشرع والقدر على " أربعة أنواع "

الصـــنف الأول: فشـــر الخلق من يحتج بالقدر لنفســـه ولا يراه حجة لغيره يســـتند إليه في الذنوب والمعائب ولا يطمئن إليه في المصائب كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

الصـــنف الثاني: وبإزاء هؤلاء خير الخلق الذين يصـــبرون على المصـــائب ويســـتغفرون من المعائب كما قال تعالى: ﴿**فَاصْـــبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْـــتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾ [غافر: الآية: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَـــابَ مِن مُّصِـــيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِـــكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـــيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَـــوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: الآيات: ٢٢ - ٢٣]، وقال تعالى ﴿**مَا أَصَـــابَ مِن مُّصِـــيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [التغابن: الآية: ١١]، قال بعض السـلف: هو الرجل تصـيبه المصـيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضـى ويسـلم. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَـهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْـــتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِـــرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: الآية: ١٣٥]. وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه الســـلام أنه لما فعل مـا فعـل قـال ﴿**قَـالَا رَبَّنَـا ظَلَمْنَـا أَنفُسَـــنَـا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَـا وَتَرْحَمْنَـا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِـرِينَ**﴾ [الأعراف: الآية: ٢٣]، وعن إبليس أنه قال ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الحجر: الآية: ٣٩]، فمن تاب أشـــبه أباه آدم ومن أصـــر واحتج بالقدر أشبه إبليس.

والحديث الذي في الصـحيحين في احتجاج آدم وموسـى عليهما السـلام لما قال له موسـى. **(أنت آدم أبو البشـر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شـيء لماذا أخرجتنا ونفســـك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موســـى الذي اصـــطفاك الله برســـالته وبكلامه وخط لك التوراة بيده فبكم وجدت مكتوبا علي قبل أن أخلق ﴿وَعَصَـــىٰ آدَمُ**

رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: الآية: ١٢١]، قال: بكذا وكذا سنة قال فحج آدم موسى).

وهذا الحديث في الصحيحين من حديث **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)** وقد روي بإسناد جيد من حديث **عمر–رضي الله عنه–(ت: ٢٣ هـ)**. فآدم عليه السلام إنما حج موسى لأن موسى لامه على ما فعل لأجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب أكله من الشجرة لم يكن لومه له لأجل حق الله في الذنب. فإن آدم كان قد تاب من الذنب كما قال تعالى ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ [البقرة: الآية: ٣٧]، وقال تعالى ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ**﴾ [طه: الآية: ١٢٢]، وموسى–ومن هو دون موسى–عليه السلام يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب وآدم أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن يقبل هذه الحجة فإن هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لإبليس عدو آدم وحجة لفرعون عدو موسى وحجة لكل كافر وفاجر وبطل أمر الله ونهيه؛ بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى لأنه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه. وقد قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن: الآية: ١١].

وقال **أنس–رضي الله عنه–(ت: ٩٣ هـ)**: **(خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لم لا فعلته؟ وكان بعض أهله إذا عاتبني على شيء يقول دعوه فلو قضي شيء لكان)**.(١)

وفي الصحيحين **عن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)**، قالت **(ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

شيء حتى ينتقم لله).[(١)]

وقد قال ﷺ **(لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)**.[(٢)]

ففي أمر الله ونهيه يسارع إلى الطاعة ويقيم الحدود على من تعدى حدود الله ولا تأخذه في الله لومة لائم وإذا آذاه مؤذ أو قصر مقصر في حقه عفا عنه ولم يؤاخذه نظرا إلى القدر.

فهذا سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وهذا واجب فيما قدر من المصائب بغير فعل آدمي كالمصائب السماوية أو بفعل لا سبيل فيه إلى العقوبة كفعل آدم عليه السلام فإنه لا سبيل إلى لومه شرعا-لأجل التوبة-ولا قدرا؛ لأجل القضاء والقدر. وأما إذا ظلم رجل رجلا فله أن يستوفي مظلمته على وجه العدل وإن عفا عنه كان أفضل له كما قال تعالى ﴿**وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ**﴾ [المائدة: الآية: ٤٥].

وأما "الصنف الثالث": فهم الذين لا ينظرون إلى القدر لا في المعائب ولا في المصائب التي هي من أفعال العباد بل يضيفون ذلك كله إلى العبد وإذا أساءوا استغفروا وهذا حسن؛ لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا إلى القدر الذي مضى به عليهم ولا يقولون لمن قصر في حقهم دعوه فلو قضي شيء لكان لا سيما وقد تكون تلك المصيبة بسبب ذنوبهم فلا ينظرون إليها وقد قال تعالى ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: الآية: ١٦٥]، وقال تعالى ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى: الآية: ٣٠]، وقال تعالى ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ**﴾ [الشورى: الآية: ٤٨]. ومن هذا قوله تعالى ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن**

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥).

تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية: ٧٨]، ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: الآية: ٧٩]. فإن هذه الآية تنازع فيها كثير من مثبتي القدر ونفاته: هؤلاء يقولون الأفعال كلها من الله لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: الآية: ٧٨]. وهؤلاء يقولون: الحسنة من الله والسيئة من نفسك لقوله ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: الآية: ٧٩]. وقد يجيبهم الأولون بقراءة مكذوبة ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ بالفتح على معنى الاستفهام وربما قدر بعضهم تقديرا: أي أفمن نفسك؟ وربما قدر بعضهم القول في قوله تعالى ﴿مَّا أَصَابَكَ﴾ فيقولون: تقدير الآية ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية: ٧٨]، يقولون فيحرفون لفظ القرآن ومعناه ويجعلون ما هو من قول الله-قول الصدق-من قول المنافقين الذين أنكر الله قولهم ويضمرون في القرآن ما لا دليل على ثبوته، بل سياق الكلام ينفيه؛ فكل من هاتين الطائفتين جاهلة بمعنى القرآن وبحقيقة المذهب الذي تنصره.

وأما القرآن فالمراد منه هنا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب؛ ليس المراد الطاعات والمعاصي وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: الآية: ١٢٠]، وكقوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: الآية: ٥٠]، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: الآية: ٥١]، الآية.

ومنه قوله تعالى ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: الآية: ١٦٨]، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: الآية: ٣٥]، أي بالنعم والمصائب. وهذا بخلاف قوله ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن

جَاءَ بِالسَّـــيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: الآية: ١٦٠]، وأمثال ذلك فإن المراد بها الطاعة والمعصـــية وفي كل موضـــع ما يبين المراد باللفظ فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى إشـكال؛ بل هو مبين. وذلك أنه إذا قال: ﴿مَّا أَصَـابَكَ﴾ [النسـاء: الآية: ٧٩]، وما ﴿مسك﴾ ونحو ذلك كان من فعل غيرك بك كما قال: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: الآية: ٧٩]. وكما قال تعالى ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [التوبة: الآية: ٥٠]، وقال تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء: الآية: ٧٨].

وإذا قال ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ [الأنعام: الآية: ١٦٠]، كانت من فعله لأنه هو الجائي بها فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به. وسـياق الآية يبين ذلك فإنه ذكر هذا في سـياق الحض على الجهـاد وذم المتخلفين عنه فقـال تعـالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: الآية: ٧١] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: الآية: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَـابَكُمْ فَضْـلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النســـاء: الآية: ٧٣]. فأمر ســـبحانه بالجهاد وذم المثبطين وذكر ما يصيب المؤمنين تارة من المصيبة فيه وتارة من فضل الله فيه كما أصابهم يوم أحد مصيبة فقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: الآية: ١٦٥]. وأصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتأييده كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: الآية: ١٢٣].ثم إنه سـبحانه قال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَـوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النسـاء: الآية: ٧٤] ،﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النســاء: الآية: ٧٥]، -إلى قوله- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ

الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: الآية: ٧٩]، فهذا من كلام الكفار والمنافقين إذا أصابهم نصر وغيره من النعم قالوا هذا من عند الله وإن أصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا: هذا من عند محمد بسبب الدين الذي جاء به، فإن الكفار يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان.

وقد ذكر نظير ذلك في قصة موسى وفرعون قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾** [الأعراف الآية: ١٣٠]، **﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾** [الأعراف الآية: ١٣٠]. ونظيره قوله تعالى في سورة يس **﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾** [يس الآية: ١٦]، **﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** [يس الآية: ١٧] **﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [يس الآية: ١٨]، فأخبر الله تعالى أن الكفار كانوا يتطيرون بالمؤمنين فإذا أصابهم بلاء جعلوه بسبب أهل الإيمان وما أصابهم من الخير جعلوه لهم من الله عز وجل فقال تعالى **﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾** [النساء الآية: ٧٨]، والله تعالى نزل أحسن الحديث فلو فهموا القرآن لعلموا أن الله أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر أمر بالخير ونهى عن الشر فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سببا للشر بل الشر حصل بذنوب العباد فقال تعالى **﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾** [النساء الآية: ٧٩]، أي ما أصابك من نصر ورزق وعافية فمن الله نعمة أنعم بها عليك وإن كانت بسبب أعمالك الصالحة فهو الذي هداك وأعانك ويسرك لليسرى ومن عليك بالإيمان وزينه في قلبك وكره إليك الكفر والفسوق والعصيان. وفي آخر الحديث الصحيح الإلهي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى **(يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير**

ذلك فلا يلومن إلا نفسـه).[1] وفي الحديث الصـحيح (**سـيد الاسـتغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما اســـتطعت أعوذ بك من شـــر ما صـــنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من يومه ذلك دخل الجنة ومن قالها إذا أمســـى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة**).[2] ثم قال تعالى ﴿**وَمَا أَصَـــابَكَ مِن سَـــيِّئَةٍ**﴾ [النســـاء الآية: ٧٩]، من ذل وخوف وهزيمة كما أصـــابهم يوم أحد ﴿**فَمِن نَّفْسِـــكَ**﴾ أي بذنوبك وخطاياك وإن كان ذلك مكتوبا مقدرا عليك فإن القدر ليس حجة لأحد لا على الله ولا على خلقه، ولو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم ولم يقاتل مشـرك ولم يقم حد ولم يكف أحد عن ظلم أحد؛ وهذا من الفســاد في الدين والدنيا المعلوم ضرورة فساده للعالم بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول.

فالقدر يؤمن به ولا يحتج به،

فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس.

ومن احتج به ضارع المشركين.

ومن أقر بالأمر والقدر وطعن في عدل الله وحكمته كان شبيها بإبليس.

فإن الله ذكر عنه أنه طعن في حكمته وعارضـــه برأيه وهواه وأنه قال ﴿**بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الحجر: الآية: ٣٩]"[3]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٣) مجموع الفتاوى ٨/ ١٠٨ - ١١٥.

علم الله ماض في خلقه

[١٦] – قال المصنف رحمه الله: وعلم الله ماض في خلقه بمشيئة منه؛ قد علم من إبليس ومن غيره ممن عصاه – من لدن أن عُصي ربُّنا تبارك وتعالى إلى أن تقوم الساعة– المعصية، وخلقهم لها. وعلم الطاعة من أهل طاعته، وخلقهم لها. فكل يعمل لما خُلِق له، وصائر إلى ما قضي عليه، وعُلم منه، لا يعدو أحد منهم قدر الله ومشيئته، والله الفعَّال لما يريد.

الشرح

يذكر غير واحد من العلماء هذه المسألة بعينها في كتب الاعتقاد ومن هؤلاء الإمام الطحاوي حيث يقول: "وقد علم الله تَعَالَى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه"(١).

قَالَ ابن أبي العز شارح العقيدة الطحاوية–رحمه الله تعالى–:

"قال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية: ٧٥]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: الآية: ٤٠] فالله تَعَالَى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلا وأبداً، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ [مريم: الآية: ٦٤] وعن عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِب–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رَسُول الله–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ثُمَّ قَالَ: (ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنَّار وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة)، قَالَ: فَقَالَ رجل: يا رَسُول الله أفلا نمكث عَلَى كتابنا وندع العمل؟ فقَالَ: (من كَانَ من أهل السعادة فسيصير إِلَى عمل أهل السعادة، ومن كَانَ من أهل الشقاوة فسيصير إِلَى عمل أهل

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣١٧).

الشـــقاوة، ثُمَّ قَالَ: اعملوا فكل ميسَّـــر لما خلق له، أما أهل الســـعادة فييســـرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: الآيات: ٥-١٠]).[١]

وقد أنكر الفلاســـفة علم الله بالجزئيات قال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية-رحمه الله-: "وَقَدْ يَقُولُونَ: إنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْكُلِّيَّاتِ دُونَ الْجُزْئِيَّاتِ؛ فَإِنَّهُ إنَّمَا يَعْلَمُهَا عَلَى وَجْهٍ كُلِّيٍّ وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: إنَّهُ يَعْلَمُ نَفْسَهُ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ.

وَقَوْلُهُمْ يَعْلَمُ نَفْسَـــــهُ وَمَفْعُولَاتِهِ حَقٌّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ لَكِنْ قَوْلُهُمْ مَعَ ذَلِكَ: إنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْأَعْيَانَ الْمُعَيَّنَةَ جَهْلٌ وَتَنَاقُضٌ فَإِنَّ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ مُعَيَّنَةٌ وَالْأَفْلَاكُ مُعَيَّنَةٌ وَكُلُّ مَوْجُودٍ مُعَيَّنٌ.

فَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ الْمُعَيَّنَاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَـــيْئًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ إذْ الْكُلِّيَّاتُ إنَّمَا تَكُونُ كُلِّيَّاتٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ إلَّا الْكُلِّيَّاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ. تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا."[٢]

قال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية: "وهؤلاء المتفلســـفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شـــيئًا بمشـــيئته ولا يجيب دعاء الداعي بل ولا يعلم الجزئيات ولا يعرف هذا الداعي من هذا الداعي ولا يعرف إبراهيم من موســـى من محمد وغيرهم بأعيانهم من رســـله بل منهم من ينكر علمه مطلقا كأرسطو وأتباعه ومنهم من يقول إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله"[٣]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٩٥).

(٣) الجواب الصحيح (١/ ١١٤).

مشيئة العباد تابعة لمشيئة الله

[١٧]- قال المصنف رحمه الله: فمن زعم أن الله تبارك وتعالى شاء لعباده الذين عصوه الخيرَ والطاعةَ، وأن العباد شاءوا لأنفسهم الشرَّ والمعصية، فعملوا على مشيئتهم؛ فقد زعم أن مشيئة العباد أغلبُ من مشيئة الله تبارك وتعالى ذكره، فأي افتراء على الله أكثر من هذا؟!

الشرح

قال ابن القيم -رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر، وهي مرتبة المشيئة:

وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والبيان، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به.

والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد حتى وإن كان مخالفا لأمره الشرعي، فهو سبحانه وتعالى أراد أن يمتحن عباده، فجعل لهم إرادة وقدرة؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملا؛ فمن آمن واستقام فاز، ومن كفر وعاند فقد خسر خسرانا مبينا؛ فتجزى كل نفس بما عملت، فالعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ **[التكوير: الآيات: ٢٨، ٢٩]**، وقد يريد العبد الشر، ولكن الله لا يمكنه منه؛ فكل شيء داخل تحت إرادته ومشيئته، ولا يخرج العباد أبدا في كل أمورهم عن تلك الإرادة والمشيئة؛ قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ**

مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٣]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: الآية: ٤٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١١٢]"[١]

أنواع الإرادة: لله- جل وعلا- إرادتان: كونية قدرية، ودينية شرعية.

قال ابن القيم -رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وها هنا أمر يجب التنبيه عليه، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علما، وهو أن الله- سبحانه- له الخلق والأمر، وأمره- سبحانه- نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي.

فمشيئته- سبحانه- متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره، كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته- سبحانه- شاملة لذلك كله.

وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا فهو محبوب للرب، واقع بمشيئته؛ كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني، ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته، ولم تتعلق به محبته، ولا رضاه ولا أمره الديني، و ما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية؛ فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية؛ فتكون هي المحبة.

وإذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية: ٧]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: الآية: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: الآية: ١٨٥]، لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره؛ فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق، ونظير هذا: الأمر؛ فإنه

---

(١) انظر: (شفاء العليل) (ص ٩٣) بتصرف واختصار.

نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يعصى ويخالف بخلاف الأول".

إلى أن قال رحمه الله: "فسبحانه أن يكون في مملكته ما لا يشاء أو أن يشاء شيئا فلا يكون، وإن كان فيها ما لا يحبه ولا يرضاه، وإن كان يحب الشيء فلا يكون لعدم مشيئته له، ولو شاءه لوجد"[١].

(١) (شفاء العليل) (ص ١٠٥، ١٠٦).



الخلق صائرون إلى ما خلقوا له ولا خالق مع الله

قال المصنف رحمه الله:

[١٨]- ومن زعم أنَّ أحدًا من الخلق صائر إلى غير ما خُلِق له؛ فقد أنفى قدرة الله عن خلقه، وهذا إفك على الله، وكذب عليه.

[١٩] ومن زعم أن الزنا ليس بقدر، قيل له: أرأيت هذه المرأة التي حملت من الزنا، وجاءت بولد؛ هل شاء الله عز وجل أن يُخلق هذا الولد؟ وهل مضى هذا في سابق علمه؟ فإن قال: لا. فقد زعم أن مع الله خالقًا؛ وهذا قول يضارِع الشرك، بل هو الشرك.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (١٥) في أركان القدر.

[٢٠]- قال المصنف رحمه الله: ومن زعم أن السرقة، وشرب الخمر، وأكل المال الحرام ليس بقضاء وقدر من الله؛ فقد زعم أن هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره. وهذا القول يضارع قول المجوسية والنصرانية. بل أكل رزقه، وقضى الله له أن يأكله من الوجه الذي أكله.



لكل مخلوق أجل

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة على ذلك.

المسألة الثانية: النزاع في المسألة.



[٢١]- قال المصنف رحمه الله: ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عز وجل؛ فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله، فأيُّ كفر بالله أوضح من هذا؟! بل ذلك كله بقضاء من الله عز وجل وقدر، وكل ذلك بمشيئته في خلقه، وتدبيره فيهم، وما جرى في سابق علمه لهم، وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد.

الشرح

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الأدلة على ذلك.

الأجل: هو الوقت المضروب المحدود في المستقبل.(١)

فأجل الشـــيء هو نهاية عمره، وعمره مدة بقائه، فالعمر مدة البقاء، والأجل نهاية العمر بالانقضاء.(٢)

فالله سبحانه قدر آجال الخلائق بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدر وقضـى أن هذا يموت بسـبب القتل، وهذا بسـبب المرض، وهذا بسـبب الهدم، وهذا بسـبب الحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسـباب، والله سبحانه خلق الموت والحياة وخلق سبب الموت والحياة.(٣)

أولًا: الأدلة على ذلك من القرآن.

١-قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية: ٣٤].

٢-قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل

(١) لسان العرب (١١/ ١١).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٦).

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٠١).

عمران: الآية ١٥٤].

٣-قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: الآية: ٢٢] ،

٤-وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: الآية: ٧٨].

٥-وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: الآية: ١٤٥] ،

٦-وقال تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: الآية: ٥].

٧-وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: الآية: ٦٠].

ثانيًا: الأدلة على ذلك من السنة

١-عن أبي أمامة-رضي الله عنه-، أن النبي ﷺ قال: (نفث روح القدس في روعي أن نفسا لن تخرج من الدنيا حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته).[١]

٢-عن ابن مسعود عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه مَلَكًا، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد...) الحديث.[٢]

٣-عن ابن مسعود عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (فُرِغ إلى ابنِ آدَمَ مِن أربَعٍ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، رقم الحديث: (٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦)، حكم الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، رقم الحديث: (٢٠٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) باختلاف يسير.

مِن الخَلْقِ والخُلُقِ والرِّزْقِ والأجَلِ).[(١)]

ثالثًا: أقوال العلماء

قال أبو أحمد محمد بن علي بن محمد الفقيه الكرجي القصاب-رحمه الله-(عاش إلى حدود ٣٦٠ هـ): "رد على المعتزلة والقدرية فيما يزعمون أن المقتول ميت بغير أجله فقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: الآية: ٦٠] حجة عليهم فيما يرون المقتول ميتًا بغير أجله، وهو جهل بين"[(٢)]

وقال الإمام الحافظ أبو بكر الإسماعيلي-رحمه الله-(ت: ٣٧١ هـ): "ويقولون [يعني أهل السنة] إن الله-عز وجل-أجل لكل حي مخلوق أجلًا هو بالغه، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وإن مات أو قتل فهو عند انتهاء أجله المسمى له، كما قال الله-عز وجل-: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: الآية: ١٥٤]"[(٣)]

قال جمال الدين أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود السرمري-رحمه الله-(ت: ٧٧٦ هـ): "مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة: "وكل من مات بمرض أو غرق أو جرف أو هدم أو قتل أو في وباء أو بطاعون أو غير ذلك من أسباب الهلاك، فإنما يموت بأجله، لم يكن ليتأخر عن أجله ولا ليتقدم قبل أجله، والدليل عليه الكتاب والسنة"[(٤)]

المسألة الثانية: النزاع في المسألة

وقع النزاع بين أهل السنة وأهل البدع في هذه المسألة امتدادا للنزاع في أفعال المخلوقين،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٣٢٥)، وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان) (١/ ١٧٩)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (٦٠١)، والخطيب في (الموضح) (١/ ٤٧٨) مطولًا باختلاف يسير.

(٢) نُكَت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٤/ ٢١٣).

(٣) اعتقاد أئمة أهل الحديث للإسماعيلي (ص: ٧٧).

(٤) كتاب فيه ذكر الوباء والطاعون، (ص: ٧٩ – ٨٤).

واختلفوا بالجواب عن مسائلها، وهي: إذا كان الله قد قدر لعبد من عباده أجلًا ما فقتل قبل غاية أجله، فهل كانت حياته تمتد به حتى أجلها لو لم يقتل؟ بمعنى هل القاتل خرم على المقتول حياته ولولا القتل لعاش أجله؟ وهل صحيح لو صبر القاتل على المقتول لمات لوحده؟.

فقال بعض المعتزلة(١): إنه كان يعيش، وأن المقتول مقطوع عليه أجله، وقالوا: لو كان المقتول قتل بأجله فأين الظلم ممن قد استوفى كل أجله وفنيت حياته، وقال بعض نفاة الأسباب من الجبرية: إنه يموت وجزموا في ذلك (٢)، وكلاهما خطأ.

قال أبو الحسن الأشعري: "القول في الآجال: اختلفت المعتزلة في ذلك على قولين:

فقال أكثر المعتزلة: الأجل هو الوقت الذي في معلوم الله سبحانه أن الإنسان يموت فيه أو يقتل فإذا قتل قتل بأجله وإذا مات مات بأجله.

وشذ قوم من جهالهم: فزعموا أن الوقت الذي في معلوم الله سبحانه أن الإنسان لو لم يقتل لبقي إليه هو أجله دون الوقت الذي قتل فيه.

واختلف الذين زعموا أن الأجل هو الوقت الذي في معلوم الله سبحانه أن الإنسان يموت فيه أو يقتل في المقتول الذي لو لم يقتل هل كان يموت أم لا على ثلاثة أقاويل:

فقال بعضهم: إن الرجل لو لم يقتل مات في ذلك الوقت، وهذا قول أبي الهذيل.

وقال بعضهم: يجوز لو لم يقتله القاتل أن يموت ويجوز أن يعيش،

وأحال منهم محيلون هذا القول"(٣)

الإجابة على قولهم:

---

(١) قال الزركشي "وذهب الباقون من المعتزلة [فيما عدا الجبائي وابنه] إلى أن القاتل قطع أجله المضروب له، وأنه مات بغير أجله". انظر: تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي (٤/ ٧٧٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٧).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين (ص: ٢٥٦-٢٥٧).

فقد سـئل ابن تيمية -رحمه الله- عن المقتول: هل مات بأجله؟ أم قطع القاتل أجله؟ فأجاب: "المقتول كغيره من الموتى لا يموت أحد قبل أجله ولا يتأخر أحد عن أجله. بل سائر الحيوان والأشجار لها آجال لا تتقدم ولا تتأخر. فإن أجل الشيء هو نهاية عمره وعمره مدة بقائه فالعمر مدة البقاء والأجل نهاية العمر بالانقضاء. وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء) [1] وثبت في صحيح البخاري أن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: (كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض) - وفي لفظ - (ثم خلق السموات والأرض). [2] وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية: ٣٤].

والله يعلم ما كان قبل أن يكون؛ وقد كتب ذلك فهو يعلم أن هذا يموت بالبطن أو ذات الجنب أو الهدم أو الغرق أو غير ذلك من الأسباب وهذا يموت مقتولا: إما بالسم وإما بالسيف وإما بالحجر وإما بغير ذلك من أسباب القتل. وعلم الله بذلك وكتابته له بل مشيئته لكل شيء وخلقه لكل شيء لا يمنع المدح والذم والثواب والعقاب؛ بل القاتل: إن قتل قتيلا أمر الله به ورسوله كالمجاهد في سبيل الله أثابه الله على ذلك وإن قتل قتيلا حرمه الله ورسوله كقتل القطاع والمعتدين عاقبه الله على ذلك وإن قتل قتيلا مباحا - كقتيل المقتص - لم يثب ولم يعاقب إلا أن يكون له نية حسنة أو سيئة في أحدهما.

والأجل أجلان " أجل مطلق " يعلمه الله " وأجل مقيد " وبهذا يتبين معنى قوله صلى الله عليه وسلم (من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه). [3] فإن الله أمر

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٥٥٧).

الملك أن يكتب له أجلا وقال: " إن وصل رحمه زدته كذا وكذا " والملك لا يعلم أيزداد أم لا؛ لكن الله يعلم ما يســـتقر عليه الأمر فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر. ولو لم يقتل المقتول فقد قال بعض القدرية: إنه كان يعيش وقال بعض نفاة الأســـباب: إنه يموت وكلاهما خطأ؛ فإن الله علم أنه يموت بالقتل فإذا قدر خلاف معلومه كان تقديرا لما لا يكون لو كان كيف كان يكون وهذا قد يعلمه بعض الناس وقد لا يعلمه فلو فرضـــنا أن الله علم أنه لا يقتل أمكن أن يكون قدر موته في هذا الوقت وأمكن أن يكون قدر حياته إلى وقت آخر فالجزم بأحد هذين على التقدير الذي لا يكون جهل. وهذا كمن قال: لو لم يأكل هذا ما قدر له من الرزق كأن يموت أو يرزق شـيئا آخر وبمنزلة من قال: لو لم يحبل هذا الرجل هذه المرأة هل تكون عقيما أو يحبلها رجل آخر ولو لم تزدرع هذه الأرض هل كان يزدرعها غيره أم كانت تكون مواتا لا يزرع فيها وهذا الذي تعلم القرآن من هذا لو لم يعلمه: هل كان يتعلم من غيره؟ أم لم يكن يتعلم القرآن ألبتة ومثل هذا كثير"[١]

وأما القاتل إن كان قتل بغير حق فإنه ظالم لتعديه على الحكم الشرعي.

وأما قول نفاة الأســـباب من الجبرية: "لو صـــبر القاتل على المقتول لمات وحده" فغير صحيح، والصواب عدم القطع، والحكم بالإمكان والجواز.

---

[١] مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٦-٥١٨).

[٢٢]- قال المصنف رحمه الله: ومن أقرَّ بالعلم؛ لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة على الصغر والقماءة، والله الضارُّ النافعُ، المضلُّ الهادي، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (١٥) في أركان القدر.



الشهادة لمعين بجنة أو نار

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أقسام الشهادة.

المسألة الثانية: مسألة الشهادة لمعين بجنة أو نار

قال المصنف رحمه الله:

[٢٣]- ولا نشهد على أحدٍ/ من أهل القبلة أنه في النار لذنب عمله، ولكبيرة أتى بها، إلا أن يكون في ذلك حديث، فيروى الحديث كما جاء على ما روي، ويصدق به ويقبل، ويعلم أنه كما جاء، ولا ينصب الشهادة.

[٢٤]- ولا يشهد على أحد أنه من أهل الجنة لصلاح عمله، أو لخير أتى به، إلا أن يكون في ذلك حديث، يُصدَّقُ به، ويقبل ويعلم أنه كما جاء، ولا ينصب الشهادة.

الشرح

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أقسام الشهادة.

يقسم أهل السنة الشهادة إلى قسمين عامة وخاصة:

فالعامة: أَنَّهُمْ يَجْزِمُونَ بِالنَّجَاةِ لِكُلِّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ.

والخاصة: هي المعلقة بشخص، مثل أن نشهد لشخص معين بأنه في الجنة أو لشخص معين بأنه في النار، فلا نعيّن إلا ما عيّنه الله أو رسوله-ﷺ-.

قال شيخ الإسلام ابنن تيمية: "اعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ يَجْزِمُونَ بِالنَّجَاةِ لِكُلِّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ. وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُونَ فِي الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِدُخُولِهِ فِي الْمُتَّقِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَاتَ عَلَى التَّقْوَى عُلِمَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَلِهَذَا يَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ [صَلَّى للَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] وَلَهُمْ فِيمَنِ اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ حُسْنُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ قَوْلَانِ"(١).

(١) منهاج السنة (٣/ ٤٩٦-٤٩٧).

قال الشيخ ابن عثيمين: "الشهادة بالجنة أو بالنار ليس للعقل فيها مدخل فهي موقوفة على الشرع فمن شهد له الشارع بذلك؛ شهدنا له، ومن لا؛ فلا، لكننا نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء، وتنقسم الشهادة إلى قسمين عامة وخاصة:

فالعامة: هي المعلقة بالوصف، مثل أن نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة، أو لكل كافر بأنه في النار، أو نحو ذلك من الأوصاف التي جعلها الشارع سببًا لدخول الجنة.

والخاصة: هي المعلقة بشخص، مثل أن نشهد لشخص معين بأنه في الجنة أو لشخص معين بأنه في النار، فلا نعيّن إلا ما عيّنه الله أو رسوله. "اهـ(١)

المسألة الثانية: مسألة الشهادة لمعين بجنة أو نار.

فمن معتقد أهل السنة والجماعة أن من كان من أهل القبلة لا يشهد له بالجنة ولا يشهد له بالنار، لكن نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، إلا من شهد له الرسول-ﷺ-.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إِنَّمَا قَدْ نَقِفُ فِي الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ؛ فَلَا نَشْهَدُ لَهُ بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إلَّا عَنْ عِلْمٍ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ بَاطِنِهِ وَمَا مَاتَ عَلَيْهِ لَا نُحِيطُ بِهِ، لَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ وَنَخَافُ عَلَى الْمُسِيءِ.

وأهل السنة لَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ بِالْجَنَّةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

القول الأول: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِأَحَدٍ إلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ. وَهَذَا قَوْلُ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَالْأَوْزَاعِيِّ.

وَالقول الثَّانِي: أَنَّهُ يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ جَاءَ فِيهِ نَصٌّ. وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ"(٢)

وقد استدل لهذا القول:

-حديث الصحيحين أن رسول الله-ﷺ-قال: (إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو

(١) شرح اللمعة (ص: ١٤٤).

(٢) انظر المسألة في منهاج السنة: (٣ /٤٩٧-٥٠٠).

للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)، [١].

وهذا في حديث الذي قتل نفسه بعد أن أثنى عليه الناس.

-الحديث الآخر: "إن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة"[٢]. والشاهد من هذه الأحاديث أن خاتمة السوء لا تؤمن فكيف يقطع للرجل بالجنة؟

-حديث أبي هريرة في الصحيح قال خرجنا مع رسول الله-ﷺ-يوم خيبر فلم نغنم ذهبًا ولا فضة إلا الأموال والثياب والمتاع فأهدى رجل من بني الضبيب يقال له رفاعة بن زيد لرسول الله-ﷺ-غلاما يقال له مدعم فوجه رسول الله-ﷺ-إلى وادي القرى حتى إذا كان بوادي القرى بينما مدعم يحط رحلًا لرسول الله-ﷺ-إذا سهم عائر فقتله فقال الناس هنيئًا له الجنة فقال رسول الله-ﷺ- كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا"[٣]

فهذا مع شهادة الناس له بالجنة بين النبي-ﷺ-أن حقيقة حاله على خلاف ما شهد له به.

-حديث أم العلاء في البخاري قالت: "سكن عندنا عثمان بن مظعون فاشتكى فمرضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله-ﷺ-فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لي النبي ﷺ (وما يدريك أن الله أكرمه). فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال رسول الله-ﷺ-(أما عثمان فقد جاءه والله اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به). قالت فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (١١٢).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٢٠٨)، ومسلم:(٢٦٤٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٦٣٢٩).

وأحزنني ذلك قالت فنمت فأريت لعثمان عينا تجري فجئت إلى رسول الله-ﷺ-فأخبرته فقال: (ذاك عمله).[١]،

والشاهد من الحديث نص وإقرار، أما النص فالقصة وما وجه به النبي-ﷺ-فيها، وأما الإقرار فلقولها لا أزكي أحداً بعده.

وهذا كالصريح في النهي، قال ابن كثير: "وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة، وابن سلام، والعميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء-رضي الله عنهم-"[٢]. ومثله قال العيني في العمدة.

وقد بوب عليه البيهقي: "باب لا يشهد لأحد بجنة ولا نار إلاّ لمن شهد له رسول الله-ﷺ-بها"[٣]. ه.

هذا مع أن عثمان بن مظعون (أبو السائب)-رضي الله عنه-، بدري قال الله له اصنع ما شئت فقد غفرت لك، وهو أول من دفن بالبقيع ومع ذلك يقول: "وما يدريك؟! وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به".

وممن نقل عنه القول في هذه المسألة من العلماء:

ما روي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئًا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم.[٤]

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٥٤١).

(٢) تفسير ابن كثير:(٤/ ١٥٦).

(٣) السنن الكبرى (٤/ ٧٦).

(٤) رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)

ونقل عن الإمام أحمد فيمن خرج عليه اللصوص والخوارج قال: "وإن قتل هذا في تلك الحال وهو يدفع عن نفسه وماله رجوت له الشهادة كما جاء في الأحاديث"[١].

وقال الإمام أحمد: "ولا نشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار، نرجو للصالح ونخاف عليه ونخاف على المسيء المذنب، ونرجو له رحمة الله". اهـ[٢]

وهي عين كلمة علي بن المديني كما وروى عن سفيان الثوري قوله: "يا شعيب بن حرب لا ينفعك ما كتبت لك حتى لا تشهد لأحد بجنة ولا نار إلا للعشرة الذين شهد لهم رسول الله وكلهم من قريش". اهـ[٣]

وقال الإمام أبو عمرو الداني: "ومن قولهم: أن لا ينزل أحد من أهل القبلة جنة ولا نارا إلا من ورد التوقيف بتنزيله، وجاء الخبر من الله تبارك وتعالى، ورسوله عن عاقبة أمره"[٤].

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: "لا أحد يشهد لأحد بالجنة أو النار إلا من ثبت له ذلك. وأهل السنة والجماعة لا يشهدون لِمُعَيَّنٍ بالجنة إلا لمن شهد له رسول الله ﷺ بأنه من أهل الجنة، كالعشرة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، الذين ثبتت الأحاديث في تعيينهم أنهم من أهل الجنة. وأما مَنْ سواهم فلا يشهدون له بذلك، ولكنهم يرجون لجميع المؤمنين دخول الجنة، ويخافون على مَنْ أذنب من النار، ولا يقطعون لمعين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من ثبت له ذلك". اهـ[٥].

فهذا مذهب جمهور أهل السنة كما ترى.

وَالقول الثَّالِثُ: يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِهَؤُلَاءِ وَلِمَنْ شَهِدَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: (أَنْتُمْ

---

(١) اعتقاد الإمام أحمد (١/ ١٦١)

(٢) أصول السنة (ص: ٥٠)

(٣) اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٦٢).

(٤) الرسالة الوافية (ص: ٩٦)

(٥) جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية (٢٠٦).

شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ). وَقَالَ: " (يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ). قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ) "(١) فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ. وَكَانَ أَبُو ثَوْرٍ يَقُولُ: "أَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فِي الْجَنَّةِ " وَيَحْتَجُّ بِهَذَا"(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَالْقَوْلُ بِكَوْنِ الرَّجُلِ الْمُعَيَّنِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ: إِخْبَارَ الْمَعْصُومِ، فأَهْلَ السُّنَّةِ يَشْهَدُونَ أَنَّ الْعَشَرَةَ فِي الْجَنَّةِ(٣)، وَيَشْهَدُونَ (أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ: " (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)(٤)، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ " (لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ

---

(١) الحَدِيثُ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-

- فِي الْبُخَارِيِّ (٣/ ١٦٩) (كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ تَعْدِيلِ كَمْ يَجُوزُ)، ٢/ ٩٧ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ).
- مُسْلِمٍ (٢/ ٦٥٥ -٦٥٦) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِيمَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتَى).
- سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٢/ ٢٦١) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ وَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.
- سُنَنِ النَّسَائِيِّ (٤/ ٤١)، (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الثَّنَاءِ).
- سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (١/ ٤٧٨) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ).

وَجَاءَ حَدِيثٌ آخَرُ بِمَعْنَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-

- فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ
- وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ،
- وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٣/ ٢٩٦) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابٌ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)،
- الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (١٣/ ٢٧٧-٢٧٨) وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى

(٢) منهاج السنة (٥/ ٢٩٥).

(٣) وَرَدَ حَدِيثَانِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ الْعَشَرَةَ فِي الْجَنَّةِ: الْأَوَّلُ قَالَ فِي أَوَّلِهِ النَّبِيُّ-ﷺ-: اثْبُتْ حِرَاءُ، إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ. الْحَدِيثُ، وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٤/ ٢٩٤ -٢٩٥) (كِتَابُ السُّنَّةِ، بَابٌ فِي الْخُلَفَاءِ ٩، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٥/ ٣١٥ -٣١٦) (كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ مَنَاقِبِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ؛ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (١/ ٤٨) (الْمُقَدِّمَةُ، فَضَائِلُ الْعَشَرَةِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ)، (ج [٠-٩] الْأَرْقَامُ ١٦٢٩، ١٦٣٠، ١٦٣٨، ١٦٤٤، ١٦٤٥)، وَالْحَدِيثُ الثَّانِي أَوَّلُهُ: عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَفِي الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ج [٥-٩] الْأَرْقَامُ ١٦٣١، ١٦٣٧، وَصَحَّحَ الْأَلْبَانِيُّ الْحَدِيثَ فِي: صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (٤-٣٥).

(٤) هَذَا جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ عَنْ عَلِيٍّ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي: الْبُخَارِيِّ (٥/ ٧٧-٧٨) (كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ فَضْلِ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا)، (٦/ ١٤٩) (كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ)، مُسْلِمٍ (٤/ ١٩٤١-١٩٤٢) (كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابٌ: مِنْ فَضَائِلِ أَهْلِ

=

تَحْتَ الشَّجَرَةِ) "، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ-ﷺ-[(١)]. فَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ إِمَامٍ لِأَهْلِ السُّنَّةِ، يَشْهَدُونَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَهِيَ شَهَادَةٌ بِعِلْمٍ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ تَوَاطُؤَ شَهَادَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ. كَمَا فِي الصَّحِيحِ (عَنِ النَّبِيِّ-ﷺ-أَنَّهُ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ: (وَجَبَتْ وَجَبَتْ). وَمُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا: شَرًّا فَقَالَ: (وَجَبَتْ وَجَبَتْ). فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا قَوْلُكَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ؟ قَالَ: (هَذِهِ الْجِنَازَةُ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ. وَهَذِهِ الْجِنَازَةُ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ).[(٢)]

وَفِي الْمُسْنَدِ (عَنِ النَّبِيِّ-ﷺ-أَنَّهُ قَالَ: (يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ). قَالُوا:

بَدْرٍ)؛ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٣/ ٦٤-٦٥) (كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابٌ فِي حُكْمِ الْجَاسُوسِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا)، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٥/ ٨٢-٨٤) (كِتَابُ التَّفْسِيرِ، سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (٢/ ٣٦-٣٧). وَجَاءَ الْحَدِيثُ مُخْتَصَرًا بِمَعْنَاهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٤/ ٢٩٦) (كِتَابُ السُّنَّةِ، بَابٌ فِي الْخُلَفَاءِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (١٥/ ٨٣-٨٤).

(١) الْحَدِيثُ عَنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-فِي مُسْلِمٍ (٤/ ١٩٤٢) (كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابٌ: مِنْ فَضَائِلِ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ)، وَنَصُّهُ فِيهِ: أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ-ﷺ-يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: لَا يَدْخُلُ النَّارَ-إِنْ شَاءَ اللَّهُ-مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدُ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا " قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْتَهَرَهَا. فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٧١]، فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٧٢]، وَالْحَدِيثُ عَنْهَا أَيْضًا فِي الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) (٦/ ٣٦٢، ٤٢٠)، وَعَنْ حَفْصَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-فِي: سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٤٣١) (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ ذِكْرِ الْبَعْثِ).

(٢) الْحَدِيثُ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي الْبُخَارِيِّ (٣/١٦٩) (كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ تَعْدِيلِ كَمْ يَجُوزُ)، (٢/٩٧) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ)، مُسْلِمٍ (٢/٦٥٥-٦٥٦) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِيمَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتَى)، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٢/٢٦١) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ وَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، سُنَنِ النَّسَائِيِّ (٤/ ٤١)، (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الثَّنَاءِ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (١/ ٤٧٨) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَجَاءَ حَدِيثٌ آخَرُ بِمَعْنَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٣/ ٢٩٦) (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابٌ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (١٣/ ٢٧٧-٢٧٨) وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ).(١)

وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُ ذَلِكَ تَوَاطُؤُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ النَّبِيَّ-ﷺ-قَالَ: " (لَمْ يَبْقَ بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ).(٢)

(وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ [سُورَةُ يُونُسَ: ٦٤] قَالَ: (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ).(٣)

وَقَدْ فَسَّرَهَا أَيْضًا بِثَنَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، (فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يَعْمَلُ لْعَمَلَ لِنَفْسِهِ فَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ. فَقَالَ: (تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ).(٤)

وَالرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَوَاطَأَتْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمْرٍ كَانَ حَقًّا، كَمَا إِذَا تَوَاطَأَتْ رِوَايَاتُهُمْ أَوْ رَأْيُهُمْ فَإِنَّ الْوَاحِدَ قَدْ يَغْلَطُ أَوْ يَكْذِبُ، وَقَدْ يُخْطِئُ فِي الرَّأْيِ، أَوْ يَتَعَمَّدُ الْبَاطِلَ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ،

(١) الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَبِيهِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي: سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٤١١) (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ الثَّنَاءِ الْحَسَنِ)، وَقَالَ الْمُعَلِّقُ فِي الزَّوَائِدِ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَلَيْسَ لِأَبِي زُهَيْرٍ هَذَا عَنِ ابْنِ مَاجَهْ سِوَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ فِي بَقِيَّةِ الْكُتُبِ السِّتَّةِ، وَالْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) (٣/ ٤١٦)، (٦/ ٤٦٧).

(٢) الْحَدِيثُ-مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي: الْبُخَارِيِّ (٩/ ٣١) (كِتَابُ التَّعْبِيرِ، بَابُ الْمُبَشِّرَاتِ)، وَجَاءَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ آخَرَ بِنَفْسِ الْمَعْنَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-فِي مُسْلِمٍ ٣٤٨/١ (كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابٌ فِي الدُّعَاءِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (١/ ٣٢١) (كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابٌ فِي الدُّعَاءِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، سُنَنِ النَّسَائِيِّ (٨/ ١٤٨)، (كِتَابُ التَّطْبِيقِ، بَابُ تَعْظِيمِ الرَّبِّ فِي الرُّكُوعِ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٢٨٣) (كِتَابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَابُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (٣/ ٢٧٥).

(٣) الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٣/ ٣٦٤-٣٦٥) (كِتَابُ الرُّؤْيَا، بَابُ ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّـــرَاتُ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَـــنٌ. وَتَكَرَّرَ هَذَا الْحَدِيثُ: (٣٥٠/٤) (كِتَابُ التَّفْسِيرِ، وَمِنْ سُورَةِ يُونُسَ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٢٨٣) (كِتَابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَابُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ)

(٤) الْحَدِيثُ-مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ-عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ-رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي مُسْـــلِمٍ (٤/ ٢٠٣٤-٢٠٣٥) (كِتَابُ الْبِرِّ وَالصِّـــلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ إِذَا أُثْنِيَ عَلَى الصَّالِحِ فَهِيَ بُشْرَى وَلَا تَضُرُّ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ (٢/ ١٤١٢) (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ الثَّنَاءِ الْحَسَنِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) (٥/ ١٥٦، ١٥٧، ١٦٨).

وَإِذَا تَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ أَوْرَثَتِ الْعِلْمَ، وَكَذَلِكَ الرُّؤْيَ قَالَ: النَّبِيُّ-ﷺ-: " (أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ عَلَى أَنَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَحَرِّيهَا، فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ).[١] [٢]"

كما قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى[٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكذلك من أجمعت الأمة على الثناء عليه فإننا نشهد له بالجنة فمثلا الإمام أحمد-رحمه الله-الشافعي أبو حنيفة مالك سفيان الثوري سفيان بن عيينة وغيرهم من الأئمة أجمعت الأمة على الثناء عليهم فنشهد لهم بأنهم من أهل الجنة. شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-أجمع الناس بالثناء عليه إلا من شذ ومن شذ، شذ في النار يشهد له بالجنة على هذا الرأي." اهـ [٤]والله أعلم.

وقد أجيب على أدلة هذا القول بأن الحديث الأول يفيد أن شهادة المؤمنون لبعضهم بالخير والصلاح توجب نفعه وصلاحه في الآخرة، ولا يجزم بها على العموم، فإحسان الظن بالمسلمين هو الأصل ولكن هذا لا يبنى عليه يقين بمآله.

وهنا فائدة مهمة على قوله وجبت وجبت: وهي على الصحيح من التحقيق والجزم، فقيل أنها من خصائصه ﷺ، ولا يجزم بها لغيره لأنها غيب، ولعل نبينا اطلع على ذلك بطريق الوحي. واختار هذا القول ابن التين.

---

(١) الْحَدِيثُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، فِي الْبُخَارِيِّ (٣/ ٤٦) (كِتَابُ فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، بَابُ الْتِمَاسِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ)، مُسْلِمٍ (٢/ ٨٢٢) (كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، الْمُوَطَّأِ (١/ ٣٢١) (كِتَابُ الِاعْتِكَافِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) (٦/ ٢٣١).

(٢) منهاج السنة: (٣/ ٤٩٧ . . . ٥٠٠).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٣/ ١١٧).

(٤) لعل شيخنا العثيمين رحمه الله تعالى ذكره بالمعنى وهذا نصه قال ابن تيمية: "وَمَعَ هَذَا يُمكن الْعلم بذلك لِلْوَلِيّ نَفسه وَلغيره وَلكنه قَلِيل وَلَا يجوز لَهُم الْقطع على ذَلِك فَمن ثبتَتْ ولَايَته بِالنَّصِّ وَأَنه من أهل الْجنَّة كالعشرة وَغَيرهم فعامة أهل السّنة يشْهدُونَ لَهُ بِمَا شهد لَهُ بِهِ النَّص، وَأما من شاع لَهُ لِسَان صدق فِي الْأمة بِحَيْثُ اتّفقت الْأمة على الثَّنَاء عَلَيْهِ فَهَل يشْهد لَهُ بذلك هَذَا فِيهِ نزاع بَين أهل السّنة وَالْأَشْبَه أَن يشْهد لَهُ بذلك هَذَا فِي الْأَمر الْعَام؛. دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٢/ ٢٢١).

ويرده قول عمر لها أيضا لجنازة مرت عليه، كما في الصحيح.

وفي معناها أيضا قال الإمام الطحاوي: "وجه ذلك عندنا والله أعلم أن الشهادة بالخير لمن شهد له به ستر من الله عز وجل عليه في الدنيا ومن ستره الله عز وجل في الدنيا لم يرفع عنه ستره في الآخرة". اهـ [١]

ومما قيل في معناها أيضا: أن انطلاق الألسنة بالثناء الحسن علامة على وجوب الجنة للمثنى عليه به، وليست جزما على الغيب. والله أعلم.

أما الحديث الثاني: فهو أصرح في بيان المقصود لقوله: (يوشك) وقوله: (بالثناء الحسن والثناء السيئ) يعني ما هو إلا ثناء على الظاهر لا يجزم له على الحقيقة بالجنة أو النار، فيخلص من هذا أن الكلمة على الرجاء والتمني وليست على التحقيق والتألي.

ومن الخلاف: هل هذا خاص بزمن الصحابة أم أنه عام للمؤمنين في كل زمان؟

الصحيح المختار: أنه عام ولكن في غير زمن الصحابة يحتاج إلى الإجماع.

وعليه فرأي الجمهور هو الصواب، وهو أنه لا يشهد لأحد بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا إذا ورد نص أو إجماع.

وأعني بالإجماع هنا ما يراد به حكم الجماعة المسلمة في وقت ما على المعين بأنه من أهل الجنة، فهو من أهل الجنة إن شاء الله تعالى حسب الظاهر للمسلمين وقتئذ ولا يقطع به جزما لأنه ضرب من الغيب، لذلك نصوب من يقول: هو من أهل الجنة إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا: لا يصح الاستثناء للمعين بالشهادة فنقول هو شهيد إن شاء الله، للنهي الوارد فيما ذكرنا أعلاه، وإنما نقول نرجو له الشهادة أو نقول كما علمنا عمر: من فعل كذا فهو شهيد عن عُمَرَ أَنَّهُ خَطَبَ فَقَالَ تَقُولُونَ فِي مَغَازِيكُمْ فُلَانٌ شَهِيدٌ وَمَاتَ فَلَانٌ شَهِيدًا وَلَعَلَّهُ قَدْ يَكُونُ قَدْ أَوْقَرَ رَاحِلَتَهُ أَلَا لَا تَقُولُوا ذَلِكُمْ وَلَكِنْ قُولُوا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ مَاتَ فِي

(١) بيان مشكل الآثار (٨/ ١٠٨)

سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ"[١].

وخلاصة القول: هذه المسألة من مسائل الأسماء والأحكام، فليس لك أن تشهد لمعين أنه من أهل الجنة أو من أهل النار، لأنك لا تدري ماذا يُختم له، فقد يُصبح المرء مسلماً ويُمسي كافراً يمسي كافراً ويصبح مؤمناً، فلا يُدرى ما هي خاتمة كل أحدٍ منا، ولذلك كان من الدعاء: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

فقد ترى الرجل على معصية وعلى شر، وعلى حالٍ لا يرضي الله عز وجل لكن قد يُختم له بخاتمة حسنة، فقد يتوب فيتوب الله عليه، فلذلك لا نشهد لأحدٍ بعينه بجنة أو نار، لكن نرجو للمحسن الخير ونخاف على المسيء، فإنك لا تدري بما يُختم له عند الموت ترجو له رحمة الله وتخاف عليه ذنوبه، فترجو إذا كان على خير أن يُختم له بخير، وإن كان على شر أن يُختم له إن شاء الله تعالى بتوبة.

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر (٦/٩٠).

الخلافة في قريش

[٢٥]- قال المصنف رحمه الله: والخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان. ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها، ولا يخرج عليهم، ولا يُقرَّ لغيرهم بها إلى قيام الساعة.

الشرح

اشتراط القرشية في الخلافة هي مسألة خلافية بين العماء، فجمهور السلف يرون أن هذا شرط من شروط الإمامة -إذا أمكن- وذلك لورود النصوص عليه صريحة وانعقد إجماع الصحابة والتابعين عليه، وأطبق عليه جماهير علماء المسلمين، ولم يخالف في ذلك إلا النزر اليسير من أهل البدع كالخوارج وبعض المعتزلة وبعض الأشاعرة.

فجماهير علماء المسلمين قاطبة ذهبوا إلى اشتراط هذا الشرط وحكي الإجماع عليه من قبل الصحابة والتابعين، وبه قال الأئمة الأربعة(١) :

- فقال الإمام أحمد في رواية الإصطخري: (الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة)(٢) .
- (وقد نص الشافعي رضي الله عنه على هذا في بعض كتبه(٣) .)
- وكذلك رواه زرقان عن أبي حنيفة)(٤) .
- وقال الإمام مالك: ولا يكون-أي الإمام-إلا قرشياً. وغيره لا حكم له إلا أن يدعو

---

(١) المصدر: الإمامة العظمى للدميجي: ص ٢٦٥ . ٢٩٥.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٢٦، لابن أبي يعلى.

(٣) الأم ١/ ١٤٣.

(٤) أصول الدين ص ٢٧٥.

إلى الإمام القرشي)[١].

ولم يخالف في ذلك إلا النزر اليسير من الخوارج وبعض المعتزلة وبعض الأشاعرة[٢]

أدلة أهل السنة والجماعة على اشتراط القرشية

استدل المثبتون بعدة أدلة صريحة صحيحة من السنة والإجماع فمن السنة ما يلي:

(١) ما رواه البخاري في صحيحه عن معاوية رضي الله عنه تعالى عنه. حيث قال البخاري: (باب الأمراء من قريش، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية-وهم عنده في وفد من قريش-أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك من قحطان[٣] فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنه بلغني أن رجالا منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله لا يقول: (إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين)"[٤].

(٢) ومنها الحديث المتفق على صحته عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله: (لا يزال

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢١.

(٢) سيأتي ذكر أسمائهم وآرائهم قريبا.

(٣) قول عبد الله بن عمرو بن العاص-الذي أنكره عليه معاوية في الحديث المذكور-إنه سـيكون ملك من قحطان... الخ. إن أراد به القحطاني الذي صحت الرواية بملكه فلا وجه لإنكاره لثبوت أمره في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم السـاعة حتى يخرج رجل من قحطان يسـوق الناس بعصـاه، أخرجه البخاري في الفتن باب في تغير الزمان حتى يعبدوا الأوثان (١٣/ ٧٦ من الفتح) وذكره في المناقب في ذكر قحطان (٦/ ٥٤٥) وأخرجه مسـلم في كتاب الفتن وأشـراط السـاعة ب: لا تقوم السـاعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء. ح: ٢٩١٠ (٤/ ٢٢٣٢) وهذا القحطاني لم يعرف اسمه عند الأكثرين وقيل اسمه جهجاه وقيل شعيب بن صـالح، وقيل غير ذلك. والله أعلم. انظر فتح الباري ١٣/ ١١٥، وأضـواء البيان ١/ ٥٥.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأحكام باب الأمراء من قريش (١٣/ ١١٤ من الفتح).

هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان)[(١)]

قال الحافظ ابن حجر: (وليس المراد حقيقة العدد، وإنما المراد به انتفاء أن يكون الأمر في غير قريش)[(٢)].

(٣) ومنها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم)[(٣)].

(٤) وفي مسند الإمام أحمد أن أبا بكر وعمر لما ذهبا إلى سقيفة بني ساعدة حين اجتمع الأنصار لاختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تكلم أبو بكر ولم يترك شيئا أنزل في الأنصار وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنهم إلا ذكره، وقال: ولقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار واديا سلكت وادي الأنصار، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت. نحن الوزراء وأنتم الأمراء)[(٤)] وقد مر معنا في الرواية الواردة في الصحيح والتي أثبتناها في مبايعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه عند ذكره لهذا الحديث بمعناه لا بلفظه حيث قال: ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش)[(٥)]

(٥) ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخاري في ك: الأحكام باب الأمراء من قريش (١٣/ ١١٤ من الفتح) ومسلم في كتاب الامارة باب الخلافة في قريش ح: ١٨٢٠ (٣/ ١٤٥٢).

(٢) فتح الباري ١٣/ ١١٧.

(٣) رواه البخاري كتاب المناقب باب ٢/ ٦/ ٥٢٦ .ومسلم في ك: الامارة ب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ح: ١٨١٨ (٣/ ١٤٥١) ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٤٣.

(٤) رواه أحمد في مسنده بإسناد مرسل حسن (١/ ٥) وله شواهد تقويه انظر تخريجه في ص ١٤٥ من طرق الانعقاد من هذا البحث

(٥) انظر ص ١٤٥.

قام على باب البيت ونحن فيه فقال: (الأئمة من قريش، إن لهم عليكم حقا ولكم عليهم حقا مثل ذلك، ما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) [١] وقال ابن حزم وهذه رواية (الأئمة من قريش) جاءت مجيء التواتر رواها أنس بن مالك وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومعاوية وروى جابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وعبادة بن الصامت معناها[٢].

وقال الحافظ ابن حجر: (قد جمعت طرقه عن نحو أربعين صحابيا لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ذكر أنه لم يرد إلا عن أبي بكر الصديق)[٣] إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

ثانيا: الإجماع:

أما الإجماع: فقد حكاه غير واحد من العلماء منهم: النووي حيث قال في شرحه لحديث: الناس تبع لقريش... الخ الحديث: (هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها الأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة والتابعين فمن بعدهم بالأحاديث الصحيحة [٤]

ومنهم القاضي عياض فقد نقل عنه النووي قوله: (اشتراط كونه–أي الإمام–قرشيا هو مذهب العلماء كافة، قال: وقد احتج به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على الأنصار يوم السقيفة

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ١٨٣، وقال الهيثمي رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ١٩٢/٥ وروى ابن أبي عاصم في السنة الشطر الأول منه وصححه الألباني انظر ٢/ ٥٣١ من كتاب السنة، وقال ابن حجر: وأخرجه الطبراني والطيالسي والبزار. والمصنف في التاريخ –يعني البخاري–وأخرج النسائي وأبو يعلى نحوه وغيرهم. (١٣/ ١١٤ من فتح الباري) وسئل الإمام أحمد عن هذا الحديث فقال: لا أعرفه إلا ان ابن أبي ذئب قد حدث عنه معمر غير حديث (المسند من مسائل الإمام أحمد. ورقة ٨) وقد صحح أحمد شاكر هذا الإسناد في تخريجه للمسند: ح ٧٦٤٠ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ح: ٢٧٥٥ (٢/ ٤٠٦) وانظر زيادة تخريج في الروض النضير ٥/ ١٨.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٩٨.

(٣) فتح الباري ٧/ ٣٢.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٢٠٠.

فلم ينكره أحد، قال القاضي: وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع، ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا، وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار قال: ولا اعتداد بقول النظام ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع أنه يجوز كونه من غير قريش، ولا سخافة ضرار بن عمرو في قوله: إن غير القرشي من النبط وغيرهم يقدم على القرشي لهوان خلعه إن عرض منه أمر، وهذا الذي قاله من باطل القول وزخرفه مع ما هو عليه من مخالفة إجماع المسلمين والله أعلم)[١].

ومن حكى هذا الإجماع أيضا الماوردي [٢]والإيجي في المواقف[٣] وابن خلدون في المقدمة [٤]والغزالي في فضائح الباطنية [٥]وغيرهم.

ومن المتأخرين الشيخ محمد رشيد رضا حيث قال: (أما الإجماع على اشتراط القرشية فقد ثبت بالنقل والفعل، رواه ثقات المحدثين، واستدل به المتكلمون وفقهاء مذاهب السنة كلهم، وجرى عليه العمل بتسليم الأنصار وإذعانهم لبني قريش، ثم إذعان السواد الأعظم من الأمة عدة قرون...)[٦].

ولكن الحافظ ابن حجر يعترض على هذا الإجماع بقوله: (قلت: ويحتاج من نقل الإجماع إلى تأويل ما جاء عن عمر من ذلك، فقد أخرج أحمد عن عمر بسند رجاله ثقات أنه قال: (إن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل... الحديث"ومعاذ بن جبل أنصاري لا نسب له في قريش، فيحتمل أن يقال: لعل الإجماع انعقد بعد عمر على اشتراط أن يكون

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٢٠٠.
(٢) الأحكام السلطانية ص ٦.
(٣) ص ٣٩٨
(٤) ص ١٩٤.
(٥) ص ١٨٠.
(٦) الخلافة أو الإمامة العظمى لرشيد رضا ص ١٩.

الخليفة قرشيا، أو تغير اجتهاد عمر في ذلك والله أعلم[١].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: "فاشتراط كونه قرشيًا هو الحق، ولكن النصوص الشرعية دلت على أن ذلك التقديم الواجب لهم في الإمامة مشروط بإقامتهم الدين، وإطاعتهم لله ورسوله، فإن خالفوا أمر الله فغيرهم ممن يطيع الله تعالى وينفذ أوامره أولى منهم"[٢].

وقد دل على ذلك قول أبي بكر: "وإن هذا الأمر في قريش ما أطاعوا الله، واستقاموا على أمره"، وقوى هذا القول ابن حجر من ثلاثة أوجه، وبما أخرجه أحمد من حديث ذي مخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم وصيره في قريش، وسيعود إليهم"، قال ابن حجر: "وسنده جيد، وهو شاهد قوي"[٣].

القائلون بعدم اشتراط القرشية وأدلتهم:

أول من قال بعدم اشتراط القرشية الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه (إذ جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماما)[٤].

وزعم ضرار بن عمرو-من شيوخ المعتزلة-أيضا أن الإمامة تصلح في غير قريش (حتى إذا اجتمع قرشي ونبطي قدمنا النبطي إذ هو أقل عددا وأضعف وسيلة فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة)[٥].

قال الشهرستاني: والمعتزلة-أي جمهورهم-وإن جوزوا الإمامة في غير قرشي، إلا أنهم لا يجيزون

---

(١) فتح الباري ١٢/ ١١٩ والواقع أنه لا يرجع إلى التأويل إلا إذا صـح الخبر في مخالفة عمر للإجماع، ولكن هذا الأثر ضـعيف لانقطاعه وسيأتي الكلام عليه قريبا ص. ٢٧٧

(٢) أضواء البيان ١/ ٢٤.

(٣) فتح الباري ١٣/ ١١٦.

(٤) الملل والنحل ١/ ١١٦.

(٥) الملل والنحل للشهرستاني حـ١، ص ٩١.

تقديم النبطي على القرشي)[١]، وزعم الكعبي أن القرشي أولى بها من الذي يصلح لها من غير قريش، فإن خافوا الفتنة جاز عقدها لغيره)[٢].

ومن الأشاعرة إمام الحرمين الجويني حيث مال إلى عدم اشتراطه، وزعم أنه من أخبار الآحاد، وهو على مذهبه الباطل–في عدم الاحتجاج بخبر الآحاد–لا يحتج به في مثل هذه المسائل حيث قال: (وهذا مسلك لا أوثره، فإن نقلة هذا الحديث معدودون لا يبلغون مبلغ عدد التواتر. والذي يوضح الحق في ذلك: أنا لا نجد في أنفسنا ثلج الصدور واليقين المثبوت بصدد هذا من فلق[٣] في رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما لا نجد ذلك في سائر أخبار الآحاد، فإذا لا يقتضي هذا الحديث العلم باشتراط النسب في الإمامة[٤] وقال في كتابه (الإرشاد): (وهذا مما يخالف فيه بعض الناس، وللاحتمال فيه عندي جال، والله أعلم بالصواب[٥]. وقد اختلف قول أبي بكر الباقلاني، فاشترط القرشية في كتابه الإنصاف) فقال: (ويجب أن يعلم أن الإمامة لا تصلح إلا لمن تجتمع فيه شرائط منها: أن يكون قرشية لقوله ع الأئمة من قريش)[٦] ولم يشترطها في كتابه (التمهيد) حيث قال: (إن ظاهر الخبر لا يقضي بكونه قرشيا، ولا العقل يوجبه)[٧].

---

(١) الملل والنحل ١/ ٩١.

(٢) أصول الدين ص ٢٧٥.

(٣) الفلق: بيان الحق بعد إشكاله.

(٤) غياث الأمم للجويني ص ١٦٣.

(٥) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لابي المعالي الجويني. ص ٤٢٧ ط. ١٣٦٩هـ.ن: مكتبة الخانجي بمصر تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد.

(٦) الإنصاف للباقلاني ص ٦٩.

(٧) نقلا عن الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف في تعليقه على الصواعق المحرقة للهيثمي ص٩. ولم أقف على هذا الكلام في كتاب التمهيد لأن النسخة الموجودة المتداولة الآن من تحقيق جماعة من المستشرقين، وقد حذفوا كتاب الإمامة كاملا، وقد نسب هذا الكلام إلى الباقلاني ابن خلدون أيضا. انظر المقدمة ص ١٩٤.

وإلى نفي اشتراط القرشية ذهب أكثر الكتاب المحدثين منهم: الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (تاريخ المذاهب الإسلامية) وذهب إلى أن الأحاديث الواردة مجرد أخبار لا تفيد حكما[١]، ومنهم العقاد[٢]، ومنهم د. علي حسني الخربوطلي في كتابه (الإسلام والخلافة)[٣] وتجرأ على رمي الأحاديث المذكورة بالوضع، ومنهم د. صلاح الدين دبوس في كتابه (الخليفة توليته وعزله) وذهب إلى أن هذه الأحاديث مجرد أخبار[٤]، ومنهم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله-وعفا عنه- واعتبرها من باب السياسة الشرعية المتغيرة بتغير العوامل[٥].

واستدل من ذهب إلى نفي اشتراط القرشية بما يلي:

(١) بقول الأنصار يوم السقيفة (منا أمير ومنكم أمير)[٦] قالوا: فلو لم يكن الأنصار يعرفون أنه يجوز أن يتولى الإمامة غير قرشي لما قالوا ذلك.

(٢) ومن أدلتهم أيضا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة)[٧] فالحديث أوجب الطاعة الكل إمام وإن كان عبدا، فدل على عدم اشتراط القرشية.

(٣) واستدلوا أيضا بقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: "إن أدركني أجلي وأبو عبيدة

---

(١) ١/ ٩٠

(٢) الديموقراطية في الإسلام ص ٦٩ ط. رابعة ن: دار المعارف مصر.

(٣) ص ٤٢.

(٤) ص ٢٧٠.

(٥) نظام الإسلام في الحكم والدولة ص ٧١.

(٦) سبق تخريجه في مبايعة أبي بكر ص ١٤٥ من فصل طرق الانعقاد.

(٧) سبق تخريجه عند الحديث على اشتراط الحرية من هذا الفصل ص ٢٤١.

حي استخلفته... فإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة؛ استخلفت معاذ بن جبل"[(١)] والمعروف أن معاذ بن جبل أنصاري لا نسب له في قريش[(٢)]، فدل على الجواز. كما روى عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: (لو أدركني أحد رجلين، ثم جعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح)[(٣)] .

(٤) فاستنتجوا من قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه: (إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش...) أن هذا تعليل لطاعة العرب لهم فإذا تغير الحال تغير موضع الاختيار...

(٥) ومنهم من قال: إن هذه الأحاديث التي يستدل بها أهل السنة إنها هي على سبيل الإخبار، وليس فيها أمر يجب امتثاله، ذهب إلى ذلك بعض الكتاب المتأخرين كالشيخ محمد أبي زهرة[(٤)] ود. صلاح الدين دبوس[(٥)] وغيرهم.

(٦) واستدلوا على ذلك أيضا بقوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند أتقاكم﴾ [الحجرات آية ١٣]. فجعل الأفضلية والإكرام بالتقوى لا بالمعايير الأخرى كالنسب ونحوه، بل وردت أحاديث تحذر من التفاخر بالأنساب والأحساب، وتنهى عن العصبية الجاهلية منها:

أ–قوله: (أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم)[(٦)] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٨) وقال عنه الحافظ ابن حجر: رجاله ثقات (فتح الباري ١٣/ ١١٩) لكن في إسناده انقطاع لأن شريح بن عبيد تابعي متأخر لم يدرك عمر، وكذلك راشد بن سعد الحمصي لم يدرك عمر، فالحديث ضعيف لانقطاعه انظر المسند تحقيق أحمد شاكر ح: ١٠٨ (١/ ٢٠١).

(٢) انظر الإصابة لابن حجر ٩/ ٢١٩.

(٣) المسند (١/ ٢٠) وصحح الأستاذ أحمد شاكر إسناده ح: ١٢٩ (١/ ١١٢).

(٤) تاريخ المذاهب الإسلامية (١/ ٩٠).

(٥) الخليفة توليته وعزله ص ٢٧٠.

(٦) رواه البخاري في ك: مناقب الأنصار، ب: القمامة في الجاهلية (فتح الباري ١٥٦/١) ورواه مسلم واللفظ له في الجنائز ب: التشديد في النباحة ح/ ٩٣٤، (٢/ ٦٤٤).

ب-ومنها قوله: (إن الله أذهب عنكم عبية [١]الجاهلية وفخرها بالآباء: الناس رجلان، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن)[٢].

مناقشة هذه الأدلة

(١) أما استدلالهم بقول الأنصار (منا أمير ومنكم أمير) فواضح البطلان، وذلك لرجوعهم رضي الله عنهم عن هذا القول في تلك اللحظة بعد أن سمعوا النص الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو بكر رضي الله تعالى عنه

في قوله: ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، بر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت. نحن الوزراء وأنتم الأمراء)[٣]. فيحتمل أنهم قالوا هذا القول قبل أن يعرفوا النص الذي يثبت الخلافة في قريش ولهذا رجعوا إلى رشدهم لما عرفوا الحقيقة.

(٢) أما استدلالهم بأحاديث الأمر بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا، فقد سبق الجواب عليها مفصلا[٤]، وأن المراد إما إمامة المتغلب أو الإمارة الصغرى على بعض الولايات، أو لأجل المبالغة في الأمر بالطاعة وضربه مثلا.

(٣) أما استدلالهم بقول عمر في إرادته استخلاف معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله تعالى عنه فهذا لم يتم، وإنما رشح عمر ستة قرشيين اختارهم وقال: (ليختاروا أحدهم)، وأيضا لو

---

(١) عبية الجاهلية: بضم العين المهملة وكسر الموحدة المشددة وفتح المثناة التحتية المشددة: أي فخرها وتكبرها، قال الخطابي: العبية الكبر والنخوة، يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها، وأصله مهموز من العبء وهو الثقل وفيه لغة أخرى وهي العبية بالكسر انظر (غريب الحديث للخطابي ١/ ١٩٠ ط. مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ١٤٠٢ هـ).

(٢) رواه أبوداود في سننه ك: الأدب، ب: التفاخر بالأحساب (١٤/ ٢١ عون المعبود) وأخرج نحوه الترمذي في ك: المناقب، ب: فضل الشام واليمن (٥ / ٧٣٥) وقال: (حسن غريب). وسبق تخريجه ص ١١٨ من فصل مقاصد الإمامة.

(٣) رواه أحمد (١/ ٥) وسبق تخريجه في طرق الانعقاد ص ١٤٦.

(٤) انظر الجواب على هذا الحديث مفصلا ص ٢٤٢ من هذا الفصل عند الحديث على اشتراط القرشية ففيه ما يغني عن الإعادة.

ثبت ذلك فإن النص مقدم على قول الصحابي وإن بلغ من الفضل ما بلغ، ولعله اجتهاد من عمر رضي الله تعالى عنه ثم تراجع عنه إلى النص، وقد أجاب الحافظ في الفتح[(١)] على هذا الاعتراض باحتمالين هما:

أ-إما أن يكون الإجماع انعقد بعد عمر على اشتراط أن يكون الخليفة قرشيًا.

ب-وإما أن يكون قد تغير اجتهاد عمر في ذلك.

قلت: وإما أن يريد من قوله ذلك الولاية الصغرى، أي على أحد الأقاليم، وهذا لا يشترط فيه النسب اتفاقا، هذا على افتراض صحة الحديث وإلا فقد سبق أن بينا ضعفه لانقطاع سنده فلا يصلح للاحتجاج به أما الحديث الثاني والذي فيه ذكر سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة فيحتمل إرادة التولية الصغرى أيضا، أو أنه يعتبر قرشيًا، لأن أبا حذيفة القرشي[(٢)] قد تبناه وهو مولى له، ومولى القوم منهم، وقد أرضعته زوجه-وهو كبير-بعد تحريم التبني فأصبح ابنا له، وقصة إرضاعه مشهورة، وهي في صحيح مسلم وغيره، قال ابن عبد البر: (وهو يعد في قريش لما ذكرنا)[(٣)] ويقصد قوله: (لأنه لما اعتقته مولاته زوج أبي حذيفة تولى أبا حذيفة وتبناه أبو حذيفة ولذلك عد في المهاجرين)[(٤)]، أما أبو عبيدة فقرشي باتفاق[(٥)] .

(٤) أما استدلالهم بقول أبي بكر: (إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش...)[(٦)] وقولهم بأن هذا تعليل لطاعة العرب لهم، فإذا تغير الحال تغير موضع الاختيار، هكذا عللوه، وهو تعليل بعيد، لأنه ظاهر في أحقية قريش بالخلافة فهو بحق دليل على اشتراط القرشية لا على

(١) فتح الباري ١٣/ ١١٩.

(٢) الإصابة ٨١ / ١١.

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة لابن حجر ٤/ ١٠١

(٤) الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة لابن حجر ٤/ ١٠١

(٥) الإصابة ٥/ ٢٨٥.

(٦) أخرجه البيهقي وعند الطبراني مثله انظر فتح الباري ١٣/ ١١٨، ورواه ابن أبي عاصم في السنة ٢/ ٦٣٧ وصححه الألباني انظر (إرواء الغليل ح: ٥١٩ (٢/ ٢٩٥).

نفيها، والنصوص التي ذكرت استدلال أبي بكر مبينة لهذا الظاهر، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بدليل تسليمهم بالطاعة لأبي بكر رضي الله عنه حينها بين لهم هذا الدليل... والله أعلم.

(٥) وأما من قال بأنها على سبيل الإخبار وليس فيها أمر فمردود لأنها أمر في صيغة الخبر، وقد وردت بعض الأحاديث بالأمر الصريح كقوله صلى الله عليه وسلم: قدموا قريشا ولا تقدموها(هـ) فهذا أمر منه صلى الله عليه وسلم بذلك.

كما أنه لو كان إخبار من النبي صلى الله عليه وسلم لتحقق الخبر، وهو أنه لن يتولى الخلافة إلا قرشي، لأن خبر الصادق لابد أن يتحقق، لكن الواقع غير ذلك، فقد تولى الخلافة غيرهم، منهم من يدعي كذبًا أنه قرشي كالعبيدين الذي تسموا بالفاطميين[١]، ومنهم من لم يدع ذلك كسلاطين الدولة العثمانية، قال ابن حزم: (هذان الخبران-يقصد حديث ابن عمر ومعاوية السابق ذكرهما-وإن كانا بلفظ الخبر فهما أمر صحيح مؤكد، إذ لو جاز أن يوجد الأمر في غير قريش لكان تكذيبا لخبر النبي صلى الله عليه وسلم وهذا كفر ممن أجازه)[٢] .

(٦) وأما ما قالوه من أن الإسلام نهى عن العصبية، وأن تسود طائفة معينة على سائر المسلمين، وأنه جاء بالمساواة بين المسلمين جميعا لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى... الخ) نقول: إن الإسلام باشتراطه أن يكون الإمام قرشيا لم يكن بذلك داعيا إلى العصبية القبلية التي نهى عنها في أكثر من موضع، فإن الإمام في نظر الإسلام ليس له أي مزية على سائر أفراد الأمة ولا لأسرته أدنى حق زائد على غيرهم، فالإمام وغيره من أفراد المسلمين سواء في نظر الإسلام، بل هو متحمل من التبعات والمسؤوليات ما يجعله من أشد الناس حملا وأثقلهم حسابا يوم القيامة.

هذا وليس معنى أن الإسلام نهى عن العصبية أن الناس لا تفاضل بينهم، بل التفاضل بين

(١) انظر لكشف كذبهم وتبين أصلهم تاريخ السيوطي ص ٤.

(٢) المحلى لابن حزم ١٠/ ٥٠٣.

الخلق في الدنيا من صميم الفطرة، ووردت أدلة شرعية على ذلك. فجمهور العلماء[(١)] على أن جنس العرب خير من غيرهم، كما أن جنس قريش خير من غيرهم، وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الناس أكرم؟ فقال أتقاهم، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: فيوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال أفعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"وفي رواية: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ذهبت طائفة إلى عدم التفضيل بين الأجناس، وهذا قول طائفة من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر ابن الطيب وغيره... وهذا القول يقال له مذهب الشعوبية، وهو قول ضعيف من أقوال أهل البدع)[(٣)]. وقال: (لكن تفضيل الجملة على الجملة لا يستلزم أن يكون كل فرد أفضل من كل فرد، فإن في غير العرب خلق كثير خير من أكثر العرب، وفي غير قريش من المهاجرين والأنصار خير من أكثر قريش.... قال: (والمقصود أنه أرسل--إلى جميع الثقلين الإنس والجن فلم يخص العرب دون غيرهم من الأمم بأحكام شرعية، ولكن خص قريشا بأن الإمامة فيهم، وخص بني هاشم بتحريم الزكاة عليهم، وذلك لأن جنس قريش لما كانوا أفضل، وجب أن تكون الإمامة في أفضل الأجناس مع الإمكان، وليست الإمامة أمرا شاملا وانا يتولاها واحد من الناس)[(٤)]. وقال شيخ الإسلام: (وإذا فرضنا أثنين أحدهما أبوه نبي والآخر أبوه كافر وتساوياً في التقوى والطاعة من كل وجه كانت درجتهما في الجنة سواء، ولكن أحكام الدنيا بخلاف ذلك في الإمامة والزوجية والشرف وتحريم الصدقة ونحو

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١٩/ ٢٩.

(٢) متفق عليه رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) (٦/ ٣٨٧ من الفتح) ورواه مسلم في كتاب الفضائل ب: من فضائل يوسف عليه السلام حديث رقم ١٣٧٨ (٤/ ١٨٤٦).

(٣) منهاج السنة ٢/ ٢٦٠.

(٤) مجموع الفتاوى ١٩/ ٣٠ وانظر قريبا منه منهاج السنة ٢/ ٢٦٠.

ذلك...) قال: (والخير في الأشراف أكثر منه في الأطراف)[١] .

أما نفس ترتيب الثواب والعقاب على القرابة، ومدح الله عز وجل للشخص المعين وكرامته عند الله وفضله فهذا لا يؤثر فيه النسب، وإنما المؤثر الوحيد هو التقوى والعمل الصالح، كما قال عز وجل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[٢] .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في فضل قريش على سائر القبائل[٣] منها قوله: (إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم)[٤]. فالحاصل أن هناك من ألغى فضيلة الأنساب مطلقا، وهناك من يفضل الإنسان بنسبه على من هو أعظم منه في الإيمان والتقوى فضلا من هو مثله. قال ابن تيمية: (فكلا القولين خطأ، وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة وفضيلة الأجل المظنة والسبب، والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية، فالأول يفضل به لأنه سبب وعلامة، ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد، والثاني يفضل به لأنه الحقيقة والغاية، وأن كل من كان أتقى كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع على هذا، لأن الحقيقة قد وجدت فلم يعلق الحكم بالمظنة)[٥] فالمقصود أن اشتراط القرشية في الإمام ليس له علاقة بالعصبية القبلية التي نهى الإسلام عنها البتة. كما أن النسب في حد ذاته في أصل الشيعة لا قيمة له ذاتية، وإنما هي صفة كمال.

هذا وأهل السنة لم يقصروها على نوع بعينه من قريش وإنما كان من انتسب إلى قريش جازت له الإمامة إذا توفرت شروطها الأخرى، وهناك من المبتدعة من قصرها على فرع معين، فقصرها

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي ص ٣٥٠.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٣) من شاء الاستزادة فليرجع إلى كتاب السنة لابن أبي عاصم ٢/ ٦٣٢.

(٤) رواه مسلم والترمذي وأحمد وغيرهم وسبق تخريجه مس ٢٦٨ من هذا الفصل.

(٥) منهاج السنة ٢/ ٢١٦.

بعضهم على بني هاشم، وهؤلاء انقسموا إلى قسمين:

١-الراوندية[١]: وهؤلاء يرون أنها يجب أن تكون في العباس بن عبد المطلب وولده إلى أن ينتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور.

٢-الرافضة: وهؤلاء يرون أنها تكون في علي رضي الله عنه، ثم في ولده من بعده، ثم اختلفوا بعد ذلك إلى مذاهب شتى:

فزعمت الزيدية منهم أنها لا تكون إلا في ولد علي رضي الله عنه، ومن خرج من ولد الحسن أو الحسين شاهرًا سيفه وفيه علامات الإمامة فهو الإمام.

وزعمت الإمامية أنها في واحد مخصوص من أولاد علي رضي الله عنه وهو محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر الذي ينتظرونه حيث قالوا: إن الإمامة في علي ثم الحسن ثم الحسين ثم تسلسلت في أبنائهم إلى محمد بن الحسن العسكري (المنتظر"وقال بعض الغلاة من الروافض: إن الإمامة في الأصل في علي وولده ثم أخرجوها إلى جماعة من غير قريش، إما بدعواهم وصية بعض الأئمة إليه، وإما بدعواهم تناسخ الأرواح من الإمام إلى من يزعمون أن الإمامة انتقلت إليه كالبيانية في دعواها انتقال روح الإله من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى بيان، وكدعوى من ادعى أن الروح انتقلت إلى الخطاب الأسدي، وكدعوى المنصورية نبوة أبي منصور العجلي وإمامته[٢]، وكدعوى الإسماعيلية والنصيرية والدروز وغيرهم من الطوائف الباطنية التي تظهر الرفض والتشيع والانتساب إلى آل البيت، وباطنهم الكفر المحض.

---

(١) هم أتباع أبي هريرة الراوندي من فرقة الكيسانية انظر المقالات ١/ ٩٦ واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٩٥ ط. جديدة ١٣٩٨ هـ ن. مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) انظر أصول الدين ص ٢٧٥.

الجهاد ماض مع الأئمة

[٢٦]- قال المصنف رحمه الله: والجهاد ماض قائم مع الأئمة، برُّوا أو فجروا، ولا يُبطله جور جائر، ولا عدل عادل.

الشرح

قال محمد بن أبي زمنين-رحمه الله-: "ومن قول أهل السنة أن الحج والجهاد مع كل بر أو فاجر من السنة والحق، وقد فرض الله الحج فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: الآية: ٩٧]، وأعلمنا بفضل الجهاد في غير موضع من كتابه، وقد علم أحوال الولاة الذين لا يقوم الحج والجهاد إلا بهم، فلم يشترط ولم يبين وما كان ربك نسيا"[(١)].

وقال قوام السنة الأصفهاني: "والجهاد ماض منذ بعث الله نبيه إلى آخر عصابة تقاتل الدجال".[(٢)]

كما قرر ذلك علي بن المديني[(٣)]، والطحاوية[(٤)]، وابن بطة[(٥)]، والصابوني[(٦)]، وابن قدامة[(٧)]، وابن تيمية[(٨)]، وغيرهم.

وقد حكى محمد بن حبيب مفاسد ترك الغزو مع أئمة الجور فقال: "سمعت أهل العلم

---

(١) أصول الدين لابن أبي زمنين (ص: ٢٨٨).

(٢) الحجة (٢/ ٢٩١).

(٣) انظر: أصول السنة للالكائي (١/ ١٩٧).

(٤) انظر شرح الطحاوية (٢/ ٥٥٥).

(٥) انظر الإبانة الصغرى (ص: ٢٧٨).

(٦) انظر: عقيدة السلف الصابوني (ص: ٢٩٤).

(٧) انظر لمعة الاعتقاد (ص: ٣٧).

(٨) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٩٠)، (٣٠/ ٣٨).

يقولون: لا بأس بالجهاد مع الولاة، وإن لم يضعوا الخمس موضعه، وإن لم يوفوا بعهد إن عاهدوا، ولو عملوا ما عملوا، ولو جاز للناس ترك الغزو معهم بسوء حالهم لاستذل الإسلام، وتخيفت أطرافه، واستبيح حريمه، ولعلى الشرك وأهله".[١]

ويريد المصنف هنا أن يميز بين مذهب أهل السنة وبين قول الرافضة الذين عطلوا الجهاد، وعطلوا صلاة الجمعة بدعوى أنها لا تصح إلا بعد خروج المهدي المنتظر على حد زعمهم.

فشيوخ الشيعة يقولون: "إن صلاة الجمعة لا تجب عليهم حتى يخرج مهديهم المزعوم من سردابه لكي يصلي بهم".[٢]

وشيوخ الشيعة يقولون: "إن الجهاد قبل خروج المهدي المنتظر حرام كحرمة الميتة والدم ولحم الخنزير".[٣]

قال ابن تيمية رحمه الله: "ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات-لا يدعون الجمعة والجماعة كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم-فإن كان الإمام مستوراً لم يظهر منه بدعة ولا فجور صُلّي خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين".

قال ابن تيمية: "وَمَنْ أَنْكَرَ مَذْهَبَ الرَّوَافِضِ وَهُوَ لَا يُصَلِّي الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ بَلْ يُكَفِّرُ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ وَقَعَ فِي مِثْلِ مَذْهَبِ الرَّوَافِضِ فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَنْكَرَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُمْ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ وَتَكْفِيرَ الْجُمْهُورِ"[٤]

والرافضة كانوا يقولون لا جهاد حتى يخرج الرضا من آل محمد، فقد جاء في فروع الكافي عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال: "القتال مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل الميتة

(١) أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: ٢٨٩).

(٢) انظر مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة لمحمد جواد العاملي (٢/ ٦٩) كتاب الصلاة.

(٣) انظر كتاب فروع الكافي (٥/ ٧٨٧).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٣/ ٣٥٤).

والدم ولحم الخنزير"[١]

وقد أحدث الخميني تغييرًا في المذهب الرافضي، فقرر أن للولي الفقيه جميع ما للإمام من الوظائف والأعمال إلا البداءة بالجهاد فهو من وظائف المهدي، ثم تناقض الخميني فجعل الجهاد منوطًا بجيش جمهوريته.[٢]

أما الخوارج فيجمعون على وجوب الخروج على الإمام الجائر[٣] فكيف يجاهدون معه؟ بل كانوا يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان.[٤]

قال ابن حزم: "جميع فرق الضلالة لم يجر الله على أيديهم خيرًا، ولا فتح الله بهم من بلاد الكفر قرية، ولا رفعوا للإسلام راية، وما زالوا يسعون في قلب نظام المسلمين، ويفرقون كلمة المؤمنين، ويسلون السيف على أهل الدين، ويسعون في الأرض مفسدين، أما الخوارج والشيعة فأمرهم في هذا أشهر من أن يتكلف ذكره"[٥]

---

(١) الكافي (١/ ٣٣٤)، وانظر مختصر التحفة الاثنى عشرية (ص: ٢٢١).

(٢) انظر: أصول الشيعة للقفاري: (٣/ ١١٧٢)؛ المصدر: مسائل الفروع الواردة في مصنفات العقيدة: (ص: ٣٤).

(٣) الفرق بين الفرق، (ص: ٧٣).

(٤) مسائل الفروع الواردة في مصنفات العقيدة: (ص: ٣٤).

(٥) الفصل: (٥/ ٩٨).



الجمعة والعيدان والحج مع السلطان

[٢٧] – قال المصنف رحمه الله: والجمعة والعيدان، والحج مع السلطان، وإن لم يكونوا بررة عدولا ولا أتقياء.

الشرح

عند أهل السنة أنه يصلى خلف كل بر وفاجر، هذا هو الصواب، فأنت تصلي خلف الأمراء وتجاهد معهم وإن كانوا أهل معاصي، وتصلي خلف أئمة المساجد وإن كان فيهم معصية.

وفي صحيح البخاري: أن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج فاسقًا ظالما.

قال النووي: "وأما صلاة ابن عمر خلف الحجاج بن يوسف فثابتة في صحيح البخاري"(١)

روى البخاري في صحيحه قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمٍ قَالَ: كَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْحَجَّاجِ "أَنْ لَا يُخَالِفَ ابْنَ عُمَرَ فِي الْحَجِّ"، فَجَاءَ ابْنُ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَأَنَا مَعَهُ يَوْمَ عَرَفَةَ حِينَ زَالَتْ الشَّمْسُ فَصَاحَ عِنْدَ سُرَادِقِ الْحَجَّاجِ فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ مِلْحَفَةٌ مُعَصْفَرَةٌ، فَقَالَ: "مَا لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟"، فَقَالَ: "الرَّوَاحَ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ"، قَالَ: "هَذِهِ السَّاعَةَ؟!"، قَالَ: "نَعَمْ"، قَالَ: "فَأَنْظِرْنِي حَتَّى أُفِيضَ عَلَى رَأْسِي ثُمَّ أَخْرُجُ"، فَنَزَلَ حَتَّى خَرَجَ الْحَجَّاجُ فَسَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي، فَقُلْتُ: "إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ فَاقْصُرْ الْخُطْبَةَ وَعَجِّلْ الْوُقُوفَ"، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ: "صَدَقَ"(٢)

قال ابن حجر: "وَفِيهِ: صِحَّةُ الصَّلَاةِ خَلْفَ الْفَاسِقِ"(٣).

وروى ابن أبي شيبة في المصنف عن عُمَيْرِ بن هَانِئٍ قال: شَهدت ابن عمر والحجاج مُحَاصِرٌ

(١) المجموع (٤/ ٢٢٢)، وكذا ابن الملقن في البدر المنير (٤/ ٥٢٠)، والحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (٢/ ٤٣).

(٢) صحيح البخاري رقم (١٦٦٠)

(٣) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٥١٢).

ابن الزبير، فكان منزل ابن عمر بينهما، فكان ربما حضر الصلاة مع هؤلاء، وربما حضر الصلاة مع هؤلاء"[١].

وفي صحيح البخاري أيضًا، أن النبي-ﷺ-قال: (يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وأن أخطأوا فلكم وعليهم).[٢]

وقد كان الصحابة-رضوان الله عليهم-يصلون خلف من يعرفون فجوره كما صلى عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط[٣]، وكان قد يشرب الخمر وصلى مرة الصبح أربعاً وجلده عثمان بن عفان على ذلك[٤]، فمثل هذه الأمور أهل السنة وأصحاب النبي-ﷺ-لنا فيهم الأسوة والقدوة، فهم أسوتنا وقدوتنا.

---

(١) المصنف (٢/ ١٥٢) قال ابن حجر: "إسناده صحيح". المطالب العالية (٣/ ٧٠٢).

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري (٢/ ٣٢٩).

(٣) الحديث رواه أحمد (١/ ٤٥٠) (٤٢٩٨، والطبراني (٩/ ٢٩٩) (٩٥٢٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٢٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله ثقات، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٦/ ١٤٦).

(٤) رواه أحمد (١/ ١٤٤) (١٢٢٩)، والبيهقي (٨/ ٣١٨) (١٧٩٨٥). قال شعيب الأرناؤوط محقق (المسند): إسناده صحيح على شرط مسلم.

دفع الزكاة إلى الأمراء

[٢٨]- قال المصنف رحمه الله: ودفع الخراج والصدقات والأعشار والفيء والغنيمة إلى الأمراء، عدلوا فيها أم جاروا.

الشرح

قرر أهل السنة دفع الزكاة إلى الإمام الشرعي، إن كان يصرفها في مصارفها الشرعية[(١)].

وقد سئل ابن عمر وسعد بن أبي وقاص وأبو سعيد الخدري-رضي الله عنهم-عن الزكاة أينفذها على ما أمر الله تعالى، أو يدفعها إلى الولاة؟ قال: بل يدفعها إلى الولاة[(٢)].

وقال محمد بن سيرين: "كانت الزكاة من الفاجر وغيره تدفع إلى رسول الله وإلى من استعمل، وإلى أبي بكر وإلى من استعمل، وإلى عمر وإلى من استعمل، وإلى عثمان وإلى من استعمله، فلما كان معاوية ومن بعده اختلف الناس، فمنهم من دفعها، ومنهم من تصدق بها"[(٣)]

قال الإمام مالك: "إذا كان الإمام عدلا لم ينبغ للناس أن يتولوا تفرقة زكاتهم، ووجب عليهم دفعها إلى الإمام"[(٤)].

وقال الإمام أحمد: "ودفع الصدقات إليهم جائزة ونافذة، من دفعها إليهم أجزأت عنه برًا أو فاجرًا""[(٥)]

وقال أبو زرعة الرازي في اعتقاده: "ودفع الصدقات من السوائم إلى أولى الأمر من أئمة

---

(١) استدلوا بحديث معاذ لما أرسله إلى اليمن وفيه: (فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم). أخرجه البخاري ومسلم. فدل على أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها. انظر فتح الباري ٣/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة ص ٢٨٦.

(٣) أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة ص ٢٨٦.

(٤) أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة ص ٢٨٧.

(٥) أخرجه اللالكائي ١/ ١٦٠.

المسلمين"[١]

كما قرر ذلك علي بن المديني[٢]، وأبو حاتم[٣]، وابن بطة[٤]، وابن الحنبلي[٥]، وغيرهم.

وخالف الخوارج ذلك، فزعموا عدم إجزاء الزكاة التي تدفع إلى الأمراء بدعوى أن الأمراء لا يضعونها في مواضعها، وطالبوا بأداء الزكاة إليهم[٦].

كما خالف في ذلك الروافض، حيث أشار ابن الحنبلي إلى ذلك بقوله: "وإخراج الصدقات واجبة في جميع ما يقع عليه الزكاة، وينبغي أن يسلمها إلى الإمام، أو يفرقها على المستحقين، وإن بعض الرافضة لا يرون ذلك، وليس من شرائطهم"[٧]

وما تقدم ذكره هو في تقرير المسألة من جانبها العقدي، حيث قرر علماء السنة مشروعية صرف الزكاة بإعطائها لولي الأمر، أو أن يصرفها الإنسان بنفسه.

وأما تقرير المسألة في جانبها الفقهي فقد ورد في إعطاء الزكاة للإمام أدلة ومن ذلك ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة قال: "بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة"[٨].

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-لمعاذ حين أرسله إلى اليمن: (إنك تأتي قومًا أهل كتابٍ فادعُهم إلى شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ وأني رسولُ اللهِ فإن هم أطاعوك لذلك فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم

---

(١) أخرجه اللالكائي ١/١٧٨.

(٢) انظر أصول السنة للالكائي ١/ ١٦٨.

(٣) انظر أصول السنة للالكائي ١/ ١٨٠.

(٤) انظر شرح السنة: ص٢٧٨.

(٥) انظر الواضحة لابن الحنبلي: ص: ١٠٧١.

(٦) انظر: مناظرة وهب بن منبه لبعض المتأثرين برأي الخوارج في سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٤-٤٥٥). المصدر: مسائل الفروع الواردة في مصنفات العقيدة؛ ص ٣٦.

(٧) الواضحة: ص: ١٠٧١.

(٨) صحيح مسلم (٩٨٣).

خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ فإن هم أطاعوك لذلك فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم صدقةً في أموالهم تُؤخذُ من أغنيائِهم وتردُّ على فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائمَ أموالِهم واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فإنها ليس بينها وبين اللهِ حجابٌ)(١).

وفيهما دلالة على مشروعية بعث ولي الأمر العمال لأخذ الصدقة وجبايتها من الناس، وإذا بعث ولي الأمر السعاة لأخذ الزكاة يتم دفعها إليهم وبذلك برأت ذمة الإنسان بدفعها للسعاة الذين يبعثهم ولي الأمر.

ولو كان بإمكانه دفعها إلى الإمام وتفريقها بنفسه فقد اختلف الفقهاء في ذلك:

فذهب مالك وأبو حنيفة وأبو عبيد، وهو القديم من قولي الشافعي، إلى التفريق بين الأموال الظاهرة، وهي الزروع، والمواشي، والمعادن، ونحوها، وبين الأموال الباطنة وهي الذهب والفضة والتجارات.

فأما الظاهرة فيجب دفعها إلى الإمام، لأن أبا بكر طالبهم بالزكاة وقاتلهم عليها، ووافقه الصحابة على هذا، فليس للمزكي إخراجها بنفسه، حتى لقد صرح الشافعية بأنه لو أخرجها كذلك لم تجزئه. ولأن ما للإمام قبضه بحكم الولاية لا يجوز دفعه إلى المولى عليه، كولي اليتيم.

وأما زكاة الأموال الباطنة

فقال الحنفية: للإمام طلبها، وحقه ثابت في أخذ الزكاة من كل مال تجب فيه الزكاة، للآية. وما فعله عثمان رضي الله عنه أنه فوض إلى الملاك زكاة المال الباطن، فهم نوابه في ذلك، وهذا لا يسقط طلب الإمام أصلا، ولهذا لو علم أن أهل بلدة لا يؤدون زكاتهم طالبهم بها. فأما إذا لم يطلبها لم يجب الدفع إليه(٢).

وقال المالكية والشافعية: زكاة الأموال الباطنة مفوضة لأربابها، فلرب المال أن يوصلها إلى

---

(١) صحيح البخاري (٧٣٧٢)، وصحيح مسلم (١٩).

(٢) المغني: ٢/ ٦٤١-٦٤٣، فتح القدير والعناية: ١/ ٤٨٧-٤٨٨، والدسوقي: ١/ ٥٠٣.

الفقراء وسائر المستحقين بنفسه[١].

وذهب الحنابلة، وهو الجديد المعتمد من قولي الشافعي: إلى أن الدفع إلى الإمام غير واجب في الأموال الظاهرة والباطنة على السواء، فيجوز للمالك صرفها إلى المستحقين مباشرة، قياسا للظاهرة على الباطنة، ولأن في ذلك إيصال الحق إلى مستحقه الجائز تصرفه، فيجزئه، كما لو دفع الدين إلى غريمه مباشرة، وأخذ الإمام لها إنما هو بحكم النيابة عن مستحقها، فإذا دفعها إليهم جاز؛ لأنهم أهل رشد.

ثم قال الشافعية في الأظهر: الصرف إلى الإمام أفضل من تفريقها بنفسه؛ لأنه أعرف بالمستحقين، وأقدر على التفريق بينهم، وبه يبرأ ظاهرا وباطنا[٢].

ثم قال الحنابلة: تفرقتها بنفسه، أولى وأفضل من دفعها إلى الإمام، لأنه إيصال للحق إلى مستحقه، فيسلم عن خطر الخيانة من الإمام أو عماله؛ ولأن فيه مباشرة تفريج كربة من يستحقها، وفيه توفير لأجر العمالة، مع تمكنه من إعطاء محاويج أقربائه، وذوي رحمه، وصلتهم بها، إلا أنه إن لم يثق بأمانة نفسه فالأفضل له دفعها إلى الساعي، لئلا يمنعه الشح من إخراجها.

أما لو طلب الإمام العادل الزكاة فإنه يجب الدفع إليه اتفاقًا، وسواء كان المال ظاهرا أو باطنا، والخلاف في استحقاقه جمع زكاة المال الباطن لا يبيح معصيته في ذلك إن طلبه، لأن الموضع موضع اجتهاد، وأمر الإمام يرفع الخلاف كحكم القاضي، كما هو معلوم من قواعد الشريعة. وصرح المالكية بأن الإمام العدل إن طلبها فادعى المالك إخراجها لم يصدق[٣]"[٤].

وأما دفع الزكاة إلى الأئمة الجائرين، وإلى البغاة، فإن أخذ الإمام الجائر الزكاة قهرا أجزأت

---

(١) الدسوقي: ١/٤٣٢، الأحكام السلطانية للماوردي: ص ١١٣

(٢) المغني: ٢/ ٦٤٤، وشرح المنهاج: ٢/ ٤٢، وتحفة المحتاج: ٣/ ٣٤٤.

(٣) الدسوقي: ١/ ٥٠٣.

(٤) المصدر: الموسوعة الكويتية (٢٤/ ٣٦٨-٣٦٩).

عن صاحبها. وكذا إن أكره الإمام المزكي فخاف الضرر إن لم يدفعها إليه.

واختلف الفقهاء فيمن كان قادرا على الامتناع عن دفعها إلى الإمام الجائر، أو على إخفاء ماله، أو إنكار وجوبها عليه، أو نحو ذلك:

فذهب الجمهور من الحنفية والمالكية إلى عدم جواز دفعها إلى الإمام حينئذ، وأنها لا تجزئ عن دافعها على التفصيل التالي: فقال الحنفية: إذا أخذ الخوارج والسلاطين الجائرون زكاة الأموال الظاهرة كزكاة السوائم والزروع وما يأخذه العاشر، فإن صرفوه في مصارفه المشروعة فلا إعادة على المزكي، وإلا فعلى المزكي فيما بينه وبين الله تعالى إعادة إخراجها.

وفي حالة كون الآخذ لها البغاة ليس للإمام أن يطالب أصحاب الأموال بها؛ لأنه لم يحمهم من البغاة، والجباية بالحماية، ويفتى البغاة بأن يعيدوا ما أخذوه من الزكاة.

وأما الأموال الباطنة فلا يصح دفعها إلى السلطان الجائر[١].

وقال المالكية: إن دفعها إلى السلطان الجائر اختيارا، فدفعها السلطان لمستحقها أجزأت عنه، وإلا لم تجزئه. فإن طلبها الجائر فعلى ربها جحدها والهرب بها ما أمكن، فإن أكرهه جاز. وهذا إن كان جائرا في أخذها أو صرفها، وسواء كانت من الأموال الظاهرة أو الباطنة. أما إن كان عادلا فيها وجائرا في غيرها، فيجوز الدفع إليه مع الكراهة[٢].

أما الشافعية فذهبوا إلى أنه إن طلب الإمام الجائر زكاة المال الباطن، فصرفها إليه أفضل، وكذا زكاة المال الظاهر سواء لم يطلبها أو طلبها، وفي التحفة إن طلبها وجب الدفع إليه[٣].

وذهب الحنابلة إلى أن دفع الزكاة إلى الإمام الجائر والبغاة والخوارج إذا غلبوا على البلد جائز سواء كانت من الأموال الظاهرة أو الباطنة. ويبرأ المزكي بدفعها إليهم، سواء صرفها الإمام في مصارفها أو لا. واحتجوا بما ورد في ذلك عن بعض الصحابة، منهم سعد بن أبي وقاص

---

(١) فتح القدير ١/ ٥١٢، وحاشية ابن عابدين: ٢/ ٢٤، والفتاوى الهندية: ١/ ١٩٠.

(٢) الشرح الكبير وحاشية الدسوقي: ١/ ٥٠٢-٥٠٤.

(٣) القليوبي:٢/ ٤٢-٤٣، وتحفة المحتاج: ٣/ ٣٤٤، ومغني المحتاج: ١/ ٤١٤.

وجابر وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم[(١)]"[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن كان الإمام ظالماً لا يصرفه في مصارفه الشرعية، فينبغي لصاحبه ألا يدفع الزكاة إليه، بل يصرفها هو إلى مستحقها"[(٣)]

---

(١) شرح منتهى الإرادات: ١/ ٤١٩، والمغني: ٢/ ٦٤٤.

(٢) المصدر: الموسوعة الكويتية (٢٤/ ٣٧٠).

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٨١.

السمع والطاعة لولاة الأمور

[٢٩]–قال المصنف رحمه الله: والانقياد لمن ولّاه الله أمرك، لا تنزع يدك من طاعته، ولا تخرج عليه بسيفك حتى يجعل الله لك فرجًا ومخرجًا.

الشرح

مسألة الإمامة الكبرى يذكرها علماء أهل السنة والجماعة في ضمن مسائل الاعتقاد وذلك تحت عنوان الخلافة والإمامة، ومعلوم أن الإمامة على نوعين: صغرى وكبرى، فالصغرى إمامة الصلاة، والعظمى أو الكبرى إمامة المسلمين.

فدونوا هذه القواعد في هذه المسائل في كتب عقائدهم لكي يعرف الإنسان ماذا يجب عليه تجاه ولي أمره، لما في ذلك من المصالح الكبرى والصغرى المتحققة من جراء ذلك

فهذه من الأصول والقواعد المهمة، فالسمع والطاعة للأئمة تكون بالمعروف، ويمكن تناول هذه المسألة من جانبين:

الجانب الأول: وجوب السمع والطاعة لولي الأمر.

فمن عقيدة أهل السنة والجماعة السمع والطاعة للأئمة فيما يُحب الله ويرضى، فالسمع والطاعة إنما يكون في المعروف إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

فلابد من السمع والطاعة في المنشط وفي المكره، وفيما تُحب وفيما لا تُحب، بشرط أن يكون ذلك المأمور به ليس فيه معصيةٌ لله عز وجل، فلابد من السمع والطاعة لولاة الأمر من المسلمين ومن الأدلة على ذلك:

- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].
- وقال عليه الصلاة والسلام: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني)[١].

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٣٥).

فمأمورٌ أن تسمع وتطيع حتى وإن كان ذلك الشخص على فجور، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أدوا الذي عليكم واسألوا الله الذي لكم)(١)، ومعلومٌ أن ولاية أمر المسلمين واستتبابها فيه من المصالح العظمى للدين والدنيا ما يعلمه كل عاقل، فمن أول المصالح استتباب الأمن، واستتباب الأمن معنى ذلك أن الشعائر ستُقام، ومعنى ذلك أن الأعراض والأموال والأنفس ستُحفظ، وإذا ضاع أمن الناس فإن الواحد منهم لن يستطيع حتى أن يقيم صلاة الجماعة، ولن يستطيع أن يأمن على نفسه ولا على ماله، ولا على عرضه.

فنعمة الأمن من أعظم النعم، ومن أسباب تحقيقها استقرار الحكم لولي الأمر، ونحن نرى بعض البلدان التي انعدم أمنها بسبب عدم استقرار الحكم فيها، أما البلد الذي استقر فيه الحكم لولي الأمر في ذلك البلد الغالب عليه الأمن والاستقرار.

فكل بلدٍ متى ما كان لها ولي أمر استقر حالها، واستتب أمنها.

وهذا بخلاف أهل البدع، فإنهم لا يسمعون ولا يطيعون لولاة الأمور، كالخوارج، فهم يرون أن ولي الأمر إذا عصى كفر ووجب قتله وخلعه وإزالته من الإمامة، وكذلك المعتزلة فإنهم يرون أنه إذا عصى ولي الأمر وفعل الكبيرة خرج من الإمامة فلا يطيعونه، بل إن من أصول الدين عندهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه الخروج على ولاة الأمور إذا جاروا وظلموا، والروافض كذلك يرون أنه ليس هناك طاعة إلا للإمام المعصوم، وأما ولاة الأمور الموجودين في كل وقت فهم كفرة فسقة يجب قتلهم وخلعهم وإزالتهم من الإمامة، ولا طاعة إلا للإمام المعصوم، وهم الأئمة الاثنا عشر الذي نص عليهم بزعمهم.

الجانب الثاني: أن السمع والطاعة يكون بالمعروف.

ومن الأدلة على ذلك:

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: (عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب الفتن، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا) برقم (٧٠٥٢)، ومسلم كتاب الإمارة، بَابُ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ، الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، برقم (١٨٤٣)، والترمذي (٢١٩٠)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٣٦٤١).

وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ)[(١)] .

- عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: (إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ)[(٢)] .

- وحديث عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ)، قَالُوا: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: (لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)[(٣)]
ولا يجوز الخروج على ولاة الأمور للمعاصي بل يجب الصبر وعدم الخروج.

- وحديث: (لا طاعة لمخلوق في معصية اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)[(٤)]).

- قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: (إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المعْرُوفِ)[(٥)].

أقوال العلماء[(٦)]:

قال أبو الحسنِ الأشعريُّ-رحمه الله-وهو يُعدِّدُ ما أَجْمَعَ عليه السلفُ مِنَ الأصول :. (وأجمعوا على السَّمْعِ والطَّاعةِ لأئمَّةِ المسلمين، وعلى أنَّ كُلَّ مَنْ وَلِيَ شيئًا مِنْ أمورهم عن رِضًى أو غَلَبةٍ

---

(١) رواه مسلم (٣/١٤٦٩) (١٨٣٩)

(٢) رواه مسلم (١/٤٤٨) (٦٤٨)

(٣) رواه مسلم (٣/١٤٨٢) (١٨٥٥)

(٤) أخرجه أحمد في (مسنده) (١٠٩٥) مِنْ حديثِ عليّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه. وصحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه لـ: (مسند أحمد) (٢/ ٢٤٨)، والألبانيُّ في (صحيح الجامع) (٧٥٢٠).

(٥) أخرجه البخاريُّ في (الأحكام) بابُ السمعِ والطاعة للإمام ما لم تكن معصيةً (٧١٤٥)، ومسلمٌ في (الإمارة) (١٨٤٠)، مِنْ حديثِ عليّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

(٦) وللمَزيدِ يمكن مُراجَعةُ المصادرِ التالية: (مقالات الإسلاميّين) (١/ ٣٤٨) و(الإبانة) (٦١) كلاهما للأشعري، (الشريعة) للآجُرّي (٣٨ ـ ٤١)، (اعتقاد أئمَّة الحديث) للإسماعيلي (٧٥ ـ ٧٦)، (الشرح والإبانة) لابن بطَّة (٢٧٦ ـ ٢٧٨)، (الاعتقاد) للبيهقي (٢٤٢ ـ ٢٤٦)، (العقيدة الواسطية) مع شرحها للهرَّاس (٢٥٧ ـ ٢٥٩)، (شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العزّ (٢/ ٥٤٠ ـ ٥٤٤).

وامتدَّتْ طاعتُه مِنْ بَرٍّ وفاجرٍ لا يَلْزَمُ الخروجُ عليهم بالسيف، جارَ أو عَدَلَ)[(١)].

وقال الصابونيُّ -رحمه الله-: (ويرى أصحابُ الحديثِ: الجمعةَ والعيدين وغيرَهما مِنَ الصلوات خَلْفَ كُلِّ إمامٍ مسلمٍ بَرًّا كان أو فاجرًا، ويَرَوْنَ جهادَ الكَفَرَةِ معهم وإنْ كانوا جَوَرَةً فَجَرَةً، ويَرَوْنَ الدعاءَ لهم بالإصلاح والتوفيق والصلاح وبَسْطِ العدل في الرعيَّة، ولا يَرَوْنَ الخروجَ عليهم وإنْ رَأَوْا منهم العدولَ عن العدل إلى الجَوْرِ والحيف، ويَرَوْنَ قتالَ الفِئَةِ الباغية حتَّى ترجع إلى طاعةِ الإمام العَدْل)[(٢)].

وقال ابنُ تيميَّة -رحمه الله-: (فأهلُ السنَّةِ لا يُطيعون وُلَاةَ الأمورِ مطلقًا، إنما يُطيعونهم في ضِمْنِ طاعةِ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، كما قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمرِ مِنكُم﴾[النساء: ٥٩])[(٣)]، وقال ـ رحمه الله ـ. أيضًا ـ: (ولهذا كان مذهبُ أهلِ الحديث: تَرْكَ الخروجِ بالقتال على الملوك البُغَاة، والصبرَ على ظُلْمِهم إلى أَنْ يَسْتريحَ بَرٌّ أو يُسْتَراحَ مِنْ فاجرٍ)[(٤)].

وقال النوويُّ -رحمه الله-: (لا تُنازِعوا وُلَاةَ الأمورِ في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلَّا أَنْ تَرَوْا منهم مُنْكَرًا مُحَقَّقًا تعلمونه مِنْ قواعدِ الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأَنْكِروه عليهم وقولوا بالحقّ حيث ما كنتم، وأمَّا الخروجُ عليهم وقتالُهم فحرامٌ بإجماعِ المسلمين وإنْ كانوا فَسَقَةً ظالمين، وقد تَظاهَرَتِ الأحاديثُ بمَعْنَى ما ذَكَرْتُه، وأَجْمَعَ أهلُ السنَّة أنه لا يَنْعَزِلُ السلطانُ بالفسق)[(٥)].

فالسمع والطاعة تكون لولاة الأمور في طاعة الله، أما المعاصي فلا يطاع فيها، فإذا أمر الأمير شخصاً بشرب الخمر فلا يطيعه، أو أمره أن يقتل أحداً بغير حق لا يطيعه، وإذا أمر الوالد

(١) (رسالةٌ إلى أهل الثغر) للأشعري (٢٩٦).
(٢) (عقيدة السلف) للصابوني (٩٢).
(٣) (منهاج السنَّة) لابن تيمية (٢/ ٧٦).
(٤) (مجموع الفتاوى) لابن تيمية (٤/ ٤٤٤).
(٥) (شرح النووي على مسلم) (١٢/ ٢٢٩).

ولده بالمعصية فلا يطيعه، وإذا أمر الزوج زوجته بالمعصية فلا تطيعه، وإذا أمر السيد عبده بالمعصية فلا يطيعه، لكن لا يتمرد عليه، فليس للرعية أن يتمردوا على الأمير أو ولي الأمر، بل لا يطيعونه في المعصية وما عدا ذلك فيطيعونه، في الأمور المباحة ويطيعونه في طاعة الله ورسوله.

حكم الخروج على السلطان

[٣٠]- قال المصنف رحمه الله: وأن لا تخرج على السلطان، وتسمع وتطيع، ولا تنكث بيعة؛ فمن فعل ذلك فهو مبتدع مخارق مفارق للجماعة.

الشرح

فتنة الخوارج من أعظم الفتن التي أصابت المسلمين، وأشغلتهم بل وتسببت في قتل اثنين من الخلفاء الراشدين، هما عثمان وعلي رضي الله عنهما.

فسفكت الدماء، واستحلت الأموال والأعراض وذلك بسبب فتنة هؤلاء، وهؤلاء ما قامت فتنتهم إلا على أمرين:

الأمر الأول: الخروج على ولي الأمر.

الأمر الثاني: الطعن في العلماء.

فخرجوا على ولي الأمر، وطعنوا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم علماء الأمة، ولذلك هؤلاء الخوارج في صفاتهم المتقدمة هي عين صفاتهم هذا اليوم، وفي كل زمان، هذا ديدنهم ومعلوم أن استقامة أحوال الناس لا تكون إلا بطاعة لولي الأمر ولزوم العلماء، ولذلك لما ذكر العلماء قول الله–عز وجل–: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: الآية: ٥٩]، فسروا ولاة الأمر بأنهم الولاة والعلماء.

ففتنة الخوارج دائماً في كل زمان تقوم على الخروج على ولي الأمر، وعلى انتقاص العلماء، وحفظ أحوال الناس لا يكون إلا بحفظ حقوق هذين الأمرين.

ولذلك لما سئل أبو حنيفة –رحمه الله تعالى–عن قومٍ خرجوا على ولي الأمر وخرجوا على خليفة المسلمين، وخرجوا بدعوى أنهم يريدون إصلاح الأمر وما حصل من الظلم والفساد من جهة ذلك الخليفة قال مجيباً عن حال هؤلاء أنهم يفسدون أكثر مما يصلحون، فعلينا أن نعرف نعمة الله علينا باستقرار أمرنا من خلال وجود ولياً لأمرنا، فعند أهل السنة قواعد وضوابط في التعامل مع الحكام تحكمها النصوص لا تحكمها الأهواء ولا تحكمها نزعات

الناس ورغباتهم، إنما يحكمها شرعٌ بحمد الله تعالى أوجب عليك السمع والطاعة في السراء والضراء، وعلى المنشط والمكره، فيما تُحب وفيما لا تُحب، وليس لك أن تشق عصا الطاعة، وليس لك أن تبيت ليلة واحدة وليس في عنقك بيعة لولي الأمر.

ومن هنا يجب على العقلاء من الناس أن لا يتتبعوا زلات الولاة، أو زلات العلماء، وعليهم أن يعرفوا أن حفظ حقوق هؤلاء فيه استقامة لأحوال الناس، واستقامة لمعايشهم ومصالحهم، وأن من يؤلب الناس على ولي الأمر ويتتبع تلك المسالك ونحو ذلك فإنما قصده القضاء على هذه المصالح، وهو بهذا الفعل مصادم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا به حيث قال: (عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد). [(١)]، وفي رواية: (عبد حبشي كأن رأسه زبيبة). [(٢)]، فأمرنا بالسمع والطاعة، وأمرنا بأن نصبر على ولاة أمورنا مهما لقينا، وها هو يوصي الأنصار بأنهم عليهم أن يصبروا حتى يلقوه على الحوض، (اصبروا حتى تلقوني على الحوض). [(٣)]

فأمر النبي-صلى الله عليه وسلم-بالصبر والطاعة ولزوم الأمر ولزوم الجماعة، ولزوم ولي الأمر، وهذا معروفٌ ومقررٌ عند أهل السنة، فبتالي نجد أي مجتمعٍ بحمد الله تعالى السنة فيه قائمة هذه الأمور مستقرة في بلدانهم وأوطانهم، ونرى بحمد الله تعالى الدروس والعبر من حولنا، فكم من بلادٍ لم تستقر بسبب الخروج على ولي أمرها، وحالها أسوأ من الحال الذي كانت عليه عندما كان فيها دولة وحكومة وفي هذا عبرة لمن يعتبر.

---

(١) انظر صحيح مسلم كتاب الإمارة، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، برقم (١٨٣٨)، وأبو داود (١٨٣٤)، والترمذي (١٧٠٦)، وابن ماجه (٢٨٦١)، والنسائي (٤١٩٢)، والإمام أحمد في المسند مسند المدنيين (١٦٦٤٦).

(٢) انظر صحيح البخاري كِتَابُ الأَذَانِ، بَابُ إِمَامَةِ المَفْتُونِ وَالمُبْتَدِعِ، برقم (٦٩٦)، وابن ماجه (٢٨٦٠)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٢٧٥٢).

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب الجزية، باب مَا أَقْطَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ البَحْرَيْنِ، وَمَا وَعَدَ مِنْ مَالِ البَحْرَيْنِ وَالجِزْيَةِ، وَلِمَنْ يُقْسَمُ الفَيْءُ وَالجِزْيَةُ، برقم (٣١٦٣)، ومسلم كتاب الزكاة، بَابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ برقم (١٠٥٩)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٣٣٤٧).

وتذكر قول الإمام أبي حنيفة: أن هؤلاء الذين يؤلبون ويخرجون: "إنما يفســـدون أكثر مما يصـلحون"[(١)] فقد تكون المصـلحة محتملة، لكن الفســاد واقعٌ لا محالة، فما قرره العلماء في هذا الجانب إنما هو من منطلق ما جاءت به النصوص الشرعية.

وما نســـمعه في كثيرٍ من الأزمان وفي كثيرٍ من البلدان من خروجٍ على ولي الأمر فإنما هو مفســـدة متحققة ومتعينة، وما يدعون إليه في كثيرٍ منه ليس بمتحقق ولا يتحقق ولا يمكن تحقيقه، فمن خرج على إمامٍ من أئمة المســلمين فهو خارجي يســتحق ما جاء في الوعيد في شـأن الخوارج، فأي إنســان خرج على ولي الأمر الذي ارتضـاه الناس وبايعوه بأن يكون ولياً عليهم فهذا الذي خرج عليه يُلقب ويقال إنه من الخوارج.

والخوارج لهم أحكام عند أهل السـنة، ومعلومٌ أن أوائلهم خرجوا على علي-رضـي الله عنه- وانحازوا إلى حروراء، وقاتلوا جيش علي رضـي الله عنه، ولما سئل عنهم علي-رضـي الله عنه- أكفـارٌ هم؟ قـال: "من الكفر فروا" قـال: مـاذا تقول يا أمير المؤمنين؟ قـال: "إخواننـا بغوا علينا"[(٢)] فعدوا من البغاة، وهم على بدعة، وعلى ضلالة، ولكن لم يُحكم بكفرهم.

وإذا كان لهم منعة وقوة وشـــوكة وانحياز في مكانٍ معين فهؤلاء لا يُقاتلون حتى يُقاتلوا فإذا قاتلوا فيُقاتلون، أما إذا كان منهم أُناس خرجوا على هيئة جماعات ونحو ذلك وكان شـــأنهم كقطاع الطرق فإنهم يُتتبعون ويُقضى عليهم وتستأصل شوكتهم ويُكف عن الناس شرهم.

ومعلوم أن هؤلاء تتطور عقائدهم حتى إنهم كفروا عامة المسلمين، واستباحوا دماء المسلمين، واستباحوا أعراضهم، ولا يتورعون عن دم مسلم، فإن أوائلهم بقروا بطن الجارية وأخرجوا منها جنينها وذبحوه، هذا الذي فعلوه في زمن علي رضـــي الله عنها، وهكذا من هم على طريقهم وعلى دربهم وعلى منهجهم، القتل عندهم مبرر بأي وســـيلة ومع كائنٍ من كان، فهو مبرر ويعدونه من عقائدهم.

---

(١) انظر الفقه الأكبر صفحة (١٠٨).

(٢) انظر مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٩٤٢).

فلا يتورعون عن دم مسلم، مع أن دم المسلم عند الله سبحانه وتعالى أعظم من حرمة الكعبة، لكن هؤلاء بفكرهم المنحرف حكموا بكفر عامة المسلمين وكذلك انطلقوا يعيثون في الأرض فسادا، فمن خرج على إمامٍ من أئمة المسلمين فهو عندنا خارجي قد شق عصا المسلمين وخالف الآثار وميتته ميتة جاهلية، ولا يحل قتال السلطان، والخروج عليه وإن جار.

حتى وإن جار السلطان ليس لك الخروج إلا أن يُرى كفرًا بواحا عندك من الله فيه سلطان، وحجة بينة واضحة لا تخفى، ويُجمع أئمة علماء المسلمين على ذلك، إما لشبهة أو لجور أو لظلم أو لوقوعٌ في ذنب فهذا يُعد من الخروج الذي لا يحل لإنسان أن يسلك سبيله، وليست السنة قتال السلطان، فهذا شأن أهل السنة، إنما هم عونٌ للسلطان على ما فيه طاعة لله عز وجل.

ويحل قتال الخوارج إذا عرضوا المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأهليهم فإذا هم أعرضوا وابتعدوا ولم يواجهوا ويحملوا السلاح فعند ذلك لا يُقاتلون، لكن إذا بدأوا في القتال يحل قتلهم.

فليس له إذا فارقوه أن يطلبهم، ليس للإمام أن يطلبهم ولا يُجهز على جريحهم، ولا يأخذ فيأهم ولا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم لأنهم بغاة حكمهم حكم البغاة، ليس حكمهم حكم الكفار، فهذا منهج أهل السنة فيهم، وبحمد الله تعالى من سار على السنة بحمد الله تعالى استقرت بلدانه واستقرت أوطانه، ومن خرج عن السنة نرى ما يكون من حالهم في بلدانهم، وما يكون من فتنهم وشرهم نسأل الله عز وجل العافية والسلامة.

لا طاعة للسلطان في معصية الله

[٣١]- قال المصنف رحمه الله: وإن أمرك السلطان بأمر هو لله معصية؛ فليس لك أن تطيعه البتة، وليس لك أن تخرج عليه، ولا تمنعه حقه.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٢٩) في الكلام على الجانب الثاني: أن السمع والطاعة يكون بالمعروف.

الإمساك في الفتنة

[٣٢]- قال المصنف رحمه الله: والإمساك في الفتنة سنة ماضية، واجب لزومها. فإن ابتليت: فقدِّم نفسك، ومالك دون دينك. ولا تُعن على الفتنة بيد ولا لسان؛ ولكن اكفف يدك، ولسانك وهواك، والله المُفتِن.

الشرح

الأصل في هذه المسألة ما ورد في السنة من النصوص التي تدل على ذلك ومنها:

عن أبي إدريس الخولاني رضي الله عنه أنه سمع حذيفة يقول: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد الخير شر؟ قال: (نعم). فقلت: فهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: (نعم وفيه دخَنٌ)، قال قلت: وما دخَنُهُ؟ قال: (قومٌ يستَنُّونَ بغيرِ سُنتي ويَهْدونَ بغير هدْيِي تعرفُ منهُمْ وتُنكرُ)، فقلت هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال) نعم، فتنةٌ عمياءُ، دُعاةٌ على أبوابِ جهنم، مَنْ أجابَهُمْ إليها قذفوهُ فيها). فقلت: يا رسول الله! صِفْهُمْ لنا، قال: (نعم، قوم من جَلدتِنا ويتكلمونَ بألسنتِنا)، فقلت: يا رسول الله، وما تأمرني إن أدركت ذلك، قال: (تلزَمُ جماعةَ المسلمين وإمامِهِمْ)، قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فاعتزلْ تلك الفرقُ كلِّها، ولوْ أنْ تعَضَّ على أصلِ الشجرةِ حتى يُدركُكَ الموتُ وأنتَ على ذلك)[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال :(ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به) [(٢)].أي: من وجد عاصمًا وموضعًا يلتجئ إليه

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) رواه البخاري (٧٠٨٢).

ويعتزل فيه فليعتزل.[(١)]

وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن)[(٢)].

وعن عديسة بنت إهبان بن صيفي الغفاري قالت: (جاء علي بن أبي طالب إلى أبي فدعاه للخروج معه، فقال له أبي: إن خليلي وابن عمك عهد إلي إذا اختلف الناس أن اتخذ سيفًا من خشب فقد اتخذته فإن شئت خرجت به معك... قالت: فتركه) [(٣)]

وعن أبي موسى أن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال في الفتن :(كسروا فيها سيوفكم وقطعوا أوتاركم واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دخل على أحدكم فليكن كخير ابني آدم). [(٤)]

قال الحافظ ابن حجر: (والمراد بالفتنة في هذا الباب: هو ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك حيث لا يعلم المحق من المبطل). [(٥)]

فهذا حالُ أهل السنَّة في الفتن؛ كانوا أبعدُ الناس عنها، وهذا المذهب منسوب إلى الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وهم: سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة[(٦)]، وأبو بكرة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

---

(١) انظر: (فتح الباري) (٣٠/١٣) بتصرف يسير.

(٢) رواه البخاري (١٩).

(٣) رواه الترمذي (٢٢٠١)، وابن ماجه (٣٢١٤)، وأحمد (٣٩٣/٦) (٢٧٢٤٤). قال الترمذي: حسن غريب، وقال الألباني في (صحيح سنن ابن ماجه): حسن صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٤٢٥٩)، وابن ماجه (٣٩٦١)، وأحمد (٤١٦/٤) (١٩٧٤٥)، والحاكم (٤٨٧/٤). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحح إسناده عبد الحق الإشبيلي في (الأحكام الصغرى) (٩٠٩)كما أشار إلى ذلك في المقدمة، وصححه ابن دقيق في (الاقتراح) (١٠١).

(٥) (فتح الباري) (٣١/١٣).

(٦) (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم (١٧١/٤).

وهو: مذهب الحسن البصري[(١)] والمشهور عن الإمام أحمد بن حنبل وعامة أهل الحديث.

قال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية رحمه الله: (... ولهذا كان مذهب أهل الحديث ترك الخروج بالقتال على الملوك البغاة والصبر على ظلمهم إلى أن يستريح بر، أو يستراح من فاجر)[(٢)].

ولذلك إذا رأى المسلم فتنةً من الفتن التي تقع لا يسارع فيها، وعليه أن يرجعَ أولَّ ما يرجع إلى أهل العلم فيسألهم عن تلكَ الأحوال وتلك الأمور؛ فكما قال الحسن البصري رحمه الله: "العالِم يرى الفتنة وهي مقبلة، والناس لا يرونها إلا وهي مدبرة."[(٣)]

وهذا عروة بن الزبير من كبار التابعين، وأئمتهم، ذُكر في ترجمته أنه رجل -كما قال أحمد بن عبد الله العجلي- صالح لم يدخل في شيء من الفتن[(٤)]، هذه منقبة ومزية.

وإن كان غالبُ الفتن إنما يقع لأمرٍ من أمورِ الدنيا؛ لمصلحةٍ من مصالحِ الدنيا، فيقع القتال بين الناس في طلبِ الرئاسة أو طلبِ حكم، أو تنافس على أمرٍ من أمورِ الدنيا ونحوها فلا يكون الإنسان ممن تهزُّه أو تدعوه العصبية، أو يكون مسارعاً لأي فوضى أو أي فتنة.

فيجب على الإنسانِ إذا رأى الفتن أن يلزمَ قعرَ بيته، وأن يبتعد عنها، وأن يعتزلها،

وقيل ليزيد بن الشـــخير: "ما كان مطرف بن عبد الله يصـــنع إذا هاج الناس؟، إذا حصـــلت فتنة؟، قال: يلزم قعر بيته ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي"، وكان مطرف يقول: "لأنْ آخذ بالثقة في القعود أحبُّ إليّ من أن ألتمس فضل الجهاد بالتغرير. "[(٥)]

فكذلك حتى إذا صانكَ الله عز وجل من أن تكونَ يدك ممتدة بالفتنة أيضاً صُن لسانك، فأحياناً قد يزّلَ الإنسان بلسانه ويقول مثلاً: ما نراه من فتنة في البلد الفلاني أو المكان الفلاني

---

(١) (البداية والنهاية) لابن كثير (١٣٥/٩).

(٢) (مجموع الفتاوى) (٤٤٤/٤).

(٣) منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٠٩).

(٤) انظر: الثقات للعجلي (ص: ٣٣١)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٩/ ١٠١)، وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٤٣٦).

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٠٧).

أحسن أنهم فعلوا كذا وهذا هو كذا وكذا؛ فأصبح مشايعاً لهؤلاء ولو بلسانه.

وعن عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-لما سئل عما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم؟ فقال: "تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر ألسنتنا." (١)

فعليك إن منَّ الله عز وجل عليك بأن يدكَ لم تشارك في هذه الفتنة، فكذلك كُفَّ لسانك، فلا تُشايِع ولا تُمايل، لا تَمِل لفئة دون فئة، فقد يكون الإنسان يُشايع بقوله ويشارك في هذا بقوله وإن كان الله عز وجل قد عافاه من أن تمتدَ إلى ذلك يده وهو لا يدري ما عليه الحال عند هؤلاء أو أين الحق وأين الباطل فيما هم عليه.

فلن تسلمَ من الإثم إذا كان هذا الفعل أمراً محرماً، فاحذر حتى المشايعة والميل حتى بعباراتِ اللسان فالبعض لا يتورَّع من هذا القول فبالتالي يعدُّ مشاركاً في الإثم الذي وقعَ فيه أولئك، فإن كان أولئك وقعت أيديهم في تلك الفتن فأنت أصبحتَ واقعاً فيه بلسانك.

فحالُ لأهل السنَّة كما ذكر المصنف: **"ولا تُعن على الفتنة بيد ولا لسان ولكن اكفف يدك، ولسانك وهواك"** هذه كلها معالم للسنَّة فلماذا لا يلتزمها صاحب السنَّة في كل نواحيها، فهذا الذي كان عليه علماء السنَّة.

والحوادث والفتن تتجدد في كل زمانٍ وفي كل مكان، فاحذر المشايعة والميل حتى ولو بقلبك ولو بلسانك، ففتنةٌ عافاك الله منها فلا تدخل فيها، لا تسارع فيها حتى ولو بالكلام.

---

(١) انظر: التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٣٣٥)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (١/ ٣٠٦).



لا يكفر أهل القبلة بذنب إلا أن يكون في ذلك حديث

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أقسام الذنوب.

المسألة الثانية: الفرق بين الصغائر والكبائر.

المسألة الثالثة: الأقوال في حكم مرتكب الكبيرة.



٣٣- قال المصنف رحمه الله: والكف عن أهل القبلة؛ ولا تُكفِّر أحدًا منهم بذنب، ولا تُخرجه من الإسلام بعمل؛ إلا أن يكون في ذلك حديث، فيروى الحديث كما جاء، وكما روي وتُصدِّق به، وتقبله، وتعلم أنه كما روي، نحو: ترك الصلاة، وشرب الخمر، وما أشبه ذلك، أو يبتدع بدعة يُنسب صاحبها إلى الكفر والخروج من الإسلام، واتبع الأثر في ذلك ولا تجاوزه.

الشرح

المسألة الأولى: أقسام الذنوب. [(١)]

القول الأول أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر وأدلته:

ذهب جمهور العلماء إلى تقسيم المعاصي إلى صغائر وكبائر، بل إن الصغائر والكبائر تتفاوت مراتبها في ذاتها، فهناك كبائر، وهناك أكبر الكبائر، وهناك صغيرة أدنى من صغيرة أخرى وهكذا بحسب تفاوت مفاسدها، **قال ابن حجر -رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ)**: "ثُمَّ إِنَّ مَرَاتِبَ كُلٍّ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ مُخْتَلِفٌ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ مَفَاسِدِهَا"[(٢)]

وحكى الإمام **ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)** الإجماع على ذلك حيث قال: "والذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة وإجماع السلف وبالاعتبار"[(٣)]

وقال الإمام النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "... وذهب الجماهير من السلف، والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر، وهو مروي عن ابن عباس-رضي الله عنهما-، وقد تظاهر على ذلك دلائل من الكتاب والسنة واستعمال سلف

---

(١) المصدر: إيقاظ الضمائر للتفريق بين الصغائر والكبائر، تأليف: علي ونيس.

(٢) فتح الباري (٥/ ٢٦٣)؛ لابن حجر.

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٤٢)، وانظر: الجواب الكافي (ص: ١٨٦).

الأمة وخلفها"[١]

أولًا: أدلة الكتاب.

١ -قال تعالى: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ٣١]،

وجه الدلالة: تدل هذه الآية بمقتضى المقابلة أن من الذنوب صغائر وكبائر، وأن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر التي سميت في الآية سيئات، ولا شك في أن تسميتها بذلك يعطيها وصف الذنب

وحقيقته، فتكفر السيئات المشروط باجتناب كبائر ما نُهُو عنه يقتضي أنها ليست من الكبائر، وقد سماها الله تعالى سيئات، فهي ذنوب وليست بكبائر قطعاً.

قال صاحب تهذيب الفروق عقب هذه الآية: "فيها صراحة في انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر "[٢]

وقد ورد هذا التفسير عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما ذكره **السيوطي-رحمه الله- (ت: ٩١١ هـ)** إذ يقول: "**أخرج النسائي-رحمه الله-(ت: ٣٠٣ هـ)، وابن ماجه-رحمه الله-(ت: ٢٧٣ هـ)، وابن جرير-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ)، وابن خزيمة-رحمه الله- (ت: ٣١١ هـ)، وابن حبان-رحمه الله-(ت: ٣٥٤ هـ)، والحاكم-رحمه الله-(ت: ٤٠٥ هـ) وصححه، والبيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ) في سننه عن أبي هريرة (ت: ٥٧ هـ) وأبي سعيد (ت: ٧٤ هـ)-رضي الله عنهما**-أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جلس على المنبر ثم قال: (**والذي نفسي بيده ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويؤدي الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يوم القيامة**

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٨٥).

(٢) تهذيب الفروق (١/ ١٣٤)؛ لمحمد علي بن حسين المكي المالكي.

حتى أنها لتصطفق) [١]، **ثم تلا: ﴿إِن تجتنبوا كَبَائِرِ مَا تنهون عَنهُ﴾.** [٢]

فهذا تفسـير منه -صـلى الله عليه وسـلم- للآية الكريمة وتبيين للمراد منها من أن من الذنوب صغائر يكفرها الله تعالى باجتناب الكبائر وليس بعد تفسير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تفسير، ولا بعد قوله قول لقائل".

وقال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "لما نهى تعالى في هذه السورة عن آثام هي كبائر وعد على اجتنابها التخفيف من الصغائر، دل هذا على أن في الذنوب كبائر وصغائر وعلى هذا جماعة أهل التأويل وجماعة الفقهاء"[٣]

وقال ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نُهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة"[٤]

وقال الإمام الشوكاني-رحمه الله-(ت: ١٢٥٠ هـ) في الآية: "أي إن تجتبوا كبائر الذنوب التي نهاكم الله عنها نكفر عنكم سيئاتكم أي ذنوبكم التي هي صغائر، وحمل السيئات على الصغائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها وجعل اجتنابها شرطاً لتكفير السيئات"[٥]

٢-قال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ**

---

(١) أي: تتحرك وتضطرب، كناية عن شدة التزاحم عليها. وصفق الْبَاب مصراعه وَهُوَ الْآن (الدرفة) يُقَال بَابه صفقٌ وَاحِد أَو صفقان مصراعان يضم أَحدهمَا إِلَى الآخر ليغلق. ينظر: المعجم الوسيط، مادة: صفق.

(٢) الدر المنثور (٢/ ٤٩٨)؛ للسيوطي، وقال الأعظمي في تحقيقه لصحيح ابن خزيمة في الحديث رقم: (٣١٥): "إسناده ضعيف صهيب تفرد نعيم المجمر بالرواية عنه مقبول من الرابعة"، وضعفه الألباني في "صحيح ابن خزيمة" برقم: (١٧٤٨)، وصححه الحاكم في الحديث رقم (٧١٩)، (٢٩٤٣)، ووافقه الذهبي.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ١٥٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧١).

(٥) فتح القدير (١/ ٤٥٧، ٤٥٨).

رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)﴾ [النجم: ٣١ - ٣٢].

وجه الدلالة: تدل هذه الآية بمقتضى بيان قوله: ﴿**وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾ في الآية قبلها على أن المحسنين بأعمالهم من المكلفين هم ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ**﴾ فاستثناء اللمم من كبائر الإثم والفواحش يدل بمقتضى قاعدة الاستثناء -وهي أنه يخرج من سابقه ما لولاه لدخل فيه- على أن اللمم ليس من كبائر الإثم والفواحش، فهو من الصغائر، وقد جاء تفسيره بذلك عن ابن عباس فيما رواه البخاري.

وقد نبه الله تعالى في هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ على أن إخراج اللمم واستثناءه من حكم المؤاخذة ليس لخلوه من الذنب في نفسه، بل لسعة المغفرة الربانية وفي عطف الفواحش هنا على كبائر الإثم ما في نظيره في آية الشورى.

على أن العلماء اختلفوا في المقصود باللمم على قولين مشهورين، قال الإمام ابن القيم-رحمه الله-: "فأما اللمم فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه، وإن كان كبيرًا: قال البغوي-رحمه الله-(ت: ٣١٧ هـ) [(١)]: هذا قول **أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، ومجاهد-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ)، والحسن-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، ورواية عطاء-رحمه الله-(ت: ١١٤ هـ) عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**. والجمهور على أن اللمم ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين **عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، كما في (صحيح البخاري). [(٢)]، من حديث **طاووس-رحمه الله-(ت: ١٠٦ هـ)** عنه قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قاله **أبو هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)** عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى**

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٣١١).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣).

وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) "إلى أن قال رحمه الله: "والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)، **وعبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، وابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)، ومسروق–رحمه الله–(ت: ٦٢ أو ٦٣ هـ)، والشعبي–رحمه الله–(ت: ١٠٣ هـ)**، ولا ينافي هذا قول **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)، وابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)** في الرواية الأخرى: **(إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها)** فإن (اللمم) إما أنه يتناول هذا وهذا ويكون على وجهين، كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة–ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره–باللمم، ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة، وهذا من فقه الصحابة – رضي الله عنهم – وغور [(١)] علومهم، ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث، وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنوب عادته، وتكرر منه مراراً عديدة "[(٢)]

٣ ـــ قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: الآية: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: الآية: ٥٣]. [(٣)]

٤ ـ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: الآية: ٧].

وجه الدلالة: "جَعَلَ الْفُسُوقَ وَهُوَ الْكَبَائِرُ تَلِي رُتْبَةَ الْكُفْرِ، وَجَعَلَ الصَّغَائِرَ (العصيان) تَلِي

---

(١) أي: عمق علمهم، فغور كل شيء: قعره. يقال: فلانٌ بعيد الغَوْرِ. ينظر "الصحاح" للجوهري مادة: غور. وهو كناية عن الفهم الذي يبعد عن أكثر الناس، ولا يصل إليه إلا من اجتهد فصار بينه وبين غيره من الكسالى بون شاسع في العلم، فكأن ما علمه المجتهد في العلم في عمق لا يمكن الوصول إليه بسهولة كالماء في قعر البئر العميق.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣–٣٤٥)، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٣) ذكر ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٩) هذه الآية والتي قبلها مستدلًا بهما على هذا التقسيم للذنوب.

رُتْبَةَ الْكَبِيرَةِ"[١]

قال الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ): "وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْمَنْهِيَّاتِ أَقْسَامٌ ثَلَاثَةٌ: أَوَّلُهَا: الْكُفْرُ، وَثَانِيهَا: الْفُسُوقُ. وَثَالِثُهَا: الْعِصْيَانُ، فَلَا بُدَّ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ الْفُسُوقِ وَبَيْنَ الْعِصْيَانِ لِيَصِحَّ العطف، وما ذلك إِلَّا لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّغَائِرِ وَبَيْنَ الْكَبَائِرِ، فَالْكَبَائِرُ هِيَ الْفُسُوقُ، وَالصَّغَائِرُ هِيَ الْعِصْيَانُ"[٢]

ثانيا: الأدلة من السنة.

١ ـــــ ما جاء عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من أن بعض أعمال البر والصلاة تكفر الذنوب ما اجتنبت الكبائر، ومنها قوله–صلى الله عليه وسلم–: **(الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)**.[٣]

قال النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "وتنقسم –أي المعاصي– باعتبار ذلك إلى ما تكفره الصلوات الخمس، أو صوم رمضان، أو الحج، أو العمرة، أو الوضوء، أو صوم عرفة، أو صوم عاشوراء، أو فعل الحسنة، أو غير ذلك مما جاءت به الأحاديث الصحيحة، وإلى ما لا يكفره ذلك كما ثبت في الصحيح ما لم يغش كبيرة فسمى الشرع ما تكفره الصلاة ونحوها صغائر ومالا تكفره كبائر"[٤]

ومما جاء عن النبي–صلى الله عليه وسلم–في معنى هذا الحديث قوله–صلى الله عليه وسلم–: **(ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا**

---

[١] البحر المحيط (٦/ ١٥٢، ١٥٣)؛ للزركشي.

[٢] مفاتيح الغيب للفخر الرازي (١٠/ ٦٠).

[٣] رواه مسلم برقم (٢٣٣). من حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–.

[٤] شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٨٥).

كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله). [(١)]

وعن أبي هريرة–رضـــي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)، قال: قال رســـول الله–صـــلى الله عليه وســـلم–: **(الصـــلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضـــان إلى رمضـــان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر)**. [(٢)]

٢ ــ الأحاديث التي خص فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكبائر وأكبر الكبائر بالذكر. [(٣)]

ومنها: قوله–صلى الله عليه وسلم–: **(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ...)**.

وعن أنس بن مالك–رضـــــي الله عنه–(ت: قيل ٩٠ أو ٩١ أو ٩٣ هـ)، قال: "ذكر رسول الله–صلى الله عليه وسلم–الكبائر–أو سئل عن الكبائر–فقال: **(الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين)**، فقال: **(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)**، قال: **(قول الزور –أو قال: شهادة الزور)**، **قال شعبة–رحمه الله–(ت: ١٦٠ هـ)**: وأكثر ظني أنه قال: **(شهادة الزور)**. [(٤)]

وعن عبد الله بن عمرو–رضي الله عنهما–(ت: ٦٥ هـ)، قال قال رسول الله–صلى الله عليه وســـلم–: **(إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل: يا رســـول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه)**. [(٥)]

وغير ذلك من الأحاديث.

قال ابن حجر الهيتمي–رحمه الله–(ت: ٩٧٤ هـ) بعد سرد مجموعة من هذه الأحاديث:

---

(١) رواه مسلم (٢٢٨). من حديث عثمان–رضي الله عنه–.

(٢) رواه مسلم: (٢٣٣).

(٣) إرشاد الفحول (١/ ١٤٥)؛ للشوكاني.

(٤) صحيح البخاري (٥٩٧٧).

(٥) صحيح البخاري (٥٩٧٣).

"فخص الكبائر ببعض الذنوب، ولو كانت الذنوب كلها كبائر لم يسغ ذلك"[١]

٣ ـــ أن بعض الأحاديث ذكر فيها عدد من الذنوب سماها النبي -صلى الله عليه وسلم- كبائر جوابًا عن سؤال سائل من أصحابه الكرام-رضي الله عنهم-.

ومنها ما رواه البخاري ومسلم -واللفظ للبخاري- عن **أنس بن مالك-رضي الله عنه- (ت: قيل ٩٠ أو ٩١ أو ٩٣ هـ)**، قال: "سئل النبي-صلى الله عليه وسلم-عن الكبائر فقال: (**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس وشهادة الزور**).

ثالثًا: ما ورد في الآثار.

ورد عن الصحابة والتابعين آثار كثيرة تفوق الحصر، ومن أمثلة ما ورد عنهم في ذلك:

عن أنس بن مالك-رضي الله عنه-(ت: قيل ٩٠ أو ٩١ أو ٩٣ هـ): "لم أر مثل الّذي بلغنا عن ربّنا لم نخرج له، عن كلّ أهلٍ ومالٍ أن تجاوز لنا عمّا دون الكبائر فما لنا ولها، قول الله: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا**﴾"[٢]

وعن علي-رضي الله عنه-(ت: ٤٠ هـ)، قال: "الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، والسحر، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، وفراق الجماعة، ونكث الصفقة"

وعن ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: "الكبائر الإشراك بالله، والقنوط من رحمة الله، والإياس من روح الله، والأمن من مكر الله"[٣]

وعن ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: "أكبر الكبائر الإشراك بالله

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (ص: ٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٩/ ٢٣٦). كشف الأستار عن زوائد البزار: (٣/ ٤٤).

(٣) تفسير الطبري (تفسير سورة النساء: الآية: ٣١).

والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله"[(١)]

عن عبد الله بن طاوس-رحمه الله-(ت: ١٣٢ هـ) عن أبيه-رحمه الله-(ت: ١٠٦ هـ)، قال: قيل لابن عباس الكبائر سبع قال: "هي إلى السبعين أقرب"[(٢)].

عَبْدُ اللهِ بنُ وَهْبٍ المَصْرِيُّ-رحمه الله-(ت: ١٩٧ هـ): "وقال عبد الله بن عياش-رحمه الله-(ت: ١٧٠ هـ): وقال زيد بن أسلم-رحمه الله-(ت: ١٣٦ هـ)، في قول الله: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾**، فمن الكبائر: الشرك، والكفر بآيات الله ورسله، والسحر، وقتل الأولاد، ومن دعا لله ولدا أو صاحبة، ومثل ذلك من الأعمال، والقول الذي لا يصلح معه عملٌ"[(٣)]

عن الحسن-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ) في قوله تعالى **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾**: "الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وأكل الربا وقذف المحصنة وأكل مال اليتيم واليمين الفاجرة والفرار من الزحف"[(٤)]

والذنوب تتفاوت مفاسدها، وإذا تفاوتت مفاسدها تفاوتت مراتبها؛ فيكون منها صغائر وكبائر، قال الطوفي: "وَإِنَّمَا انْقَسَمَتِ الْأَفْعَالُ إِلَى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ بِاعْتِبَارِ اشْتِمَالِهَا عَلَى مَفَاسِدَ صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ"[(٥)]

القول الثاني: إنكار تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر.

أولًا: القائلين به:

ذهب بعض الأشاعرة إلى إنكار تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر، وقالوا: إن سائر

---

(١) تفسير عبد الرزاق: (١/ ١٥٥).

(٢) تفسير عبد الرزاق: (١/ ١٥٥).

(٣) الجامع في علوم القرآن: (١/ ٥٨).

(٤) تفسير عبد الرزاق: (١/ ١٥٤).

(٥) شرح مختصر الروضة، للطوفي (٣/ ٤٧٦)؛.

المعاصي كبائر، ومنهم **أبو إسحاق الإسفرائيني**-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ)، **والباقلاني**-رحمه الله-(ت: ٤٠٣ هـ)، **وإمام الحرمين**-رحمه الله-(ت: ٤١٩ هـ)، **وأبي نصر عبد الرحيم القشيري**-رحمه الله-(ت: ٥١٤ هـ)، **والتقي السبكي**-رحمه الله-(ت: ٧٥٦ هـ)، بل حكاه **ابن فورك**-رحمه الله-(ت: ٤٠٦ هـ) عن الأشاعرة واختاره في (تفسيره) [(١)]، ونسبه **ابن بطال**-رحمه الله-(ت: ٤٤٩ هـ) إلى الأشعرية، وحكاه **القاضي عياض**-رحمه الله-(ت: ٥٤٤ هـ) عن المحققين [(٢)] ونسب هذا القول إلى الخوارج **القاضي عبد الجبار** (ت: ٤١٥ هـ) [(٣)].

قال ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "ذهب الجمهور إلى أن من الذنوب كبائر ومنها صغائر، وشذت طائفة منهم الأستاذ **أبو إسحاق الإسفرائيني**-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ) فقال ليس في الذنوب صغيرة، بل على ما نهى الله عنه كبيرة.

ونقل ذلك عن **ابن عباس**-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، وحكاه **القاضي عياض**-رحمه الله-(ت: ٥٤٤ هـ)، عن المحققين واحتجوا بأن كل مخالفة لله فهي بالنسبة إلى جلاله كبيرة. ونسبه **ابن بطال**-رحمه الله-(ت: ٤٤٩ هـ) إلى الأشعرية فقال: انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر هو قول عامة الفقهاء وخالفهم من الأشعرية **أبو بكر بن الطيب**-رحمه الله-(ت: ٤٠٣ هـ) وأصحابه فقالوا: المعاصي كلها كبائر وإنما يقال لبعضها صغيرة، بالإضافة إلى ما هو أكبر منها كما يقال القلة المحرمة صغيرة بإضافتها إلى الزنا وكلها كبائر. قالوا: ولا ذنب عندنا يغفر واجبا باجتناب ذنب آخر، بل كل ذلك كبيرة. ومرتكبه في المشيئة غير الكفر لقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء: الآية: ٤٨]، وأجابوا عن الأية التي احتج أهل القول الأول بها-وهي قوله تعالى

---

(١) ينظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (ص: ٥).

(٢) انظر: فتح الباري (١٠/ ٤٠٩)، وشرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٨٥).

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص: ٦٣٢).

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النســاء: الآية: ٣١]، أن المراد الشــرك، ثم قال: وقالوا وجواز العقاب على الصـــغيرة كجوازه على الكبيرة. قال النووي وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والســـنة إلى القول الأول، **وقال الغزالي–رحمه الله–(ت: ٥٠٥ هـ)** في البســـيط" إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه. ثم قال **ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ)**: قد حقق **إمام الحرمين–رحمه الله–(ت: ٤١٩ هـ)** المنقول عن الأشــاعرة واختاره وبين أنه لا يخالف ما قاله الجمهور فقال في "الإرشاد": المرتضى عندنا أن كل ذنب يعصى الله به كبيرة، فرب شيء يعد صغيرة بالإضافة إلى الأقران، ولو كان في حق الملك لكان كبيرة والرب أعظم من عصــي، فكل ذنب بالإضــافة إلى مخالفته عظيم، ولكن الذنوب وإن عظمت فهي متفاوتة في رتبها، وظن بعض الناس أن الخلاف لفظي فقال: التحقيق أن للكبيرة اعتبارين: فبالنســبة إلى مقايســة بعضــها لبعض فهي تختلف قطعًا، وبالنســبة إلى الأمر الناهي فكلها كبائر. والتحقيق أن الخلاف معنوي"[(١)]

أدلة هذا الرأي

ممن بين أدلة أصــــحاب هذا القول بأخصـــر ما يمكن وأوفاه **ابن بطال–رحمه الله–(ت: ٤٤٩ هـ)** حيث قال: "انقسام الذنوب إلى صـغائر وكبائر هو قول عامة الفقهاء، وخالفهم من الأشـعرية أبو بكر بن الطيب وأصـحابه فقالوا: المعاصـي كلها كبائر، وإنما يقال لبعضـها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال القبلة المحرمة صغيرة بإضافتها إلى الزنا وكلها كبائر."

قالوا: ولا ذنب عندنا يغفر واجباً باجتناب ذنب آخر بل كل ذلك كبيرة، ومرتكبه في المشــيئة، غير الكفر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْـرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَــاء﴾ [النســـاء: الآية: ٤٨] وأجابوا عن الآية التي احتج أهل القول الأول بها وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَــيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٠٩، ٤١٠).

[النســـاء: الآية: ٣١]، أن المراد الشـــرك وقد قال الفراء: من قرأ كبائر فالمراد بها كبير، وكبير الإثم هو الشـــرك، وقد يأتي لفظ الجمع والمراد به الواحد كقوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَـلِينَ**﴾ [الشـعراء: الآية: ١٠٥]، ولم يرسـل إليهم غير نوح، قالوا: وجواز العقاب على الصـــغيرة لجوازه على الكبيرة.[١] واســـتدلوا أيضـــاً بقول ابن عباس: "كل ما نهى الله عنه كبيرة"[٢]

وقد نظر أصحاب هذا القول إلى جلال الله وعظمته سبحانه فمنعهم ذلك من تسمية أي معصية لله تعالى باسم "صغيرة" فهي كلها بالنسبة إلى عظم المخالف كبيرة من الكبائر، وإن اتفقوا على أن منها ما يوجب العقوبة والذم أكثر من غيره، فالخلاف لفظي في جواز التسمية لا في المعنى، والجمهور على إطلاق الصـــغيرة والكبيرة اصـــطلاحياً كما ســـبق أن نقلنا عن العلماء.

يقول القرافي صاحب "تهذيب الفروق"–رحمه الله–(ت: ٦٨٤ هـ): "اختلفوا أولاً في أن إطلاق لفظ صـــغيرة على معصـــية الله تعالى هل يمنع إجلالا له وتعظيماً لحدوده إلا في محل تبيين تفاوت الذم والعقاب إن نفذ الوعيد، أو يجوز مطلقا"[٣]

وقال الزركشـــي–رحمه الله–(ت: ٧٩٤ هـ): "وَلَعَلَّ أَصْـحَابَ هَذَا الْوَجْهِ كَرِهُوا تَسْـمِيَةَ مَعْصِـيَةِ اللَّهِ صَـغِيرَةً؛ إجْلَالًا لِلَّهِ وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهِ، مَعَ أَنَّهُمْ وَافَقُوا فِي الْجَرْحِ أَنَّهُ لَا يَكُونُ بِمُطْلَقِ الْمَعْصِيَةِ"[٤]

وحجتهم في هذا ما روي عن **ابن عباس–رضـي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)**، من أن جميع

---

(١) نقلاً عن فتح الباري (١٠/ ٤٠٩)، وانظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٥٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٢١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان) (١/ ٢٧٣)، قال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٤١٠) أخرجه إسماعيل القاضي والطبري بسند صحيح على شرط الشيخين إلى ابن عباس.

(٣) تهذيب الفروق هامش "الفروق" للقرافي (١/ ١٣٤).

(٤) البحر المحيط للزركشي (٦/ ١٥٢–١٥٣)؛.

المعاصي كبائر بالنسبة إلى أنها معصية لله لوجهين: أَحَدُهُمَا: كَثْرَةُ نِعَمِ مَنْ عَصَى. وَالثَّانِي: إِجْلَالُ مَنْ عَصَى، فَإِنِ اعْتَبَرْنَا الْأَوَّلَ فَنِعَمُ اللَّهِ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ، كَمَا قَالَ: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾ [النحل: الآية: ١٨] وَإِنِ اعْتَبَرْنَا الثَّانِي فَهُوَ أَجَلُّ الْمَوْجُودَاتِ وَأَعْظَمُهَا، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ عِصْيَانُهُ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ، فَثَبَتَ أَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ فَهُوَ كَبِيرَةٌ. [١]

جواب الجمهور على هذه الاستدلالات.

١ - من قال: إنها سميت كبائر بالنسبة لما دونها، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة يقتضي أن الذنوب في نفسها لا تنقسم إلى صغائر وكبائر، وهذا فاسد، لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر. [٢] وقد دلت النصوص الصريحة على التقسيم السابق.

وعورض ما روي عن **ابن عباس –رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)**، في ذلك: بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ أرحم الراحمين وأغنى الأغنياء عن طاعات المطيعين، وكل ذلك يوجب خفة الذنب وإن سلم أن الذنوب كلها كبائر من حيث إنها ذنوب، ولكن بعضها أكبر من بعض وذلك يوجب التفاوت. [٣]

٢ - أما قولهم: لا ذنب عندنا يغفر واجباً باجتناب ذنب آخر، بل كل ذلك كبير، غير الشرك، وتأويلهم قوله تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ٣١] أن المراد الشرك لقراءة (كبير) فيقال لهم: وماذا عن قوله–صلى الله عليه وسلم–: **(ما اجتنبت الكبائر)**، [٤] **(ما لم تغش الكبائر)**. [٥]

---

[١] تفسير النيسابوري (٢/ ٤٠٣–٤٠٤)؛ للحسن بن محمد النيسابوري. وينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (١٠/ ٦٠).

[٢] شرح الطحاوية (ص: ٤١٩)، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٧)، مفاتيح الغيب للفخر الرازي (١٠/ ٦٠).

[٣] تفسير النيسابوري (٢/ ٤٠٣–٤٠٤)؛ للحسن بن محمد النيسابوري. وينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (١٠/ ٦٠).

[٤] رواه مسلم (٢٣٣).

[٥] رواه مسلم (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–.

وماذا يجاب عن النصوص الصريحة في التفريق بين الصغائر والكبائر مثل قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: الآية: ٤٩].

٣ - أما استدلالهم بقول **ابن عباس -رضي الله عنهما- (ت: ٦٨ هـ)**: "كل ما نهى الله عنه كبيرة"، فيجاب عنه بأنه قد ورد أيضًا عن **ابن عباس -رضي الله عنهما- (ت: ٦٨ هـ)** أنه قال: "كل ما توعد الله عليه بالنار كبيرة" [(١)]، فالأولى أن يكون المراد بقوله: "نهى الله عنه" محمولاً على نهي خاص وهو الذي قرن به وعيد، فيحمل مطلق كلامه ـ رضي الله عنه ـ على مقيده جمعاً بين قوليه. [(٢)]

وقال البيهقي -رحمه الله- (ت: ٤٥٨ هـ) في تعليقه على رواية **ابن عباس -رضي الله عنهما- (ت: ٦٨ هـ)**: "كل ما نهى الله عنه كبيرة": "فيحتمل أن يكون هذا في تعظيم حرمات الله والترهيب عن ارتكابها، فأما الفرق بين الصغائر والكبائر فلابد منه في أحكام الدنيا والآخرة"[(٣)]

وطعن القرطبي في الرواية من جهة المتن. فقال: "ما أظنه يصح عن **ابن عباس -رضي الله عنهما- (ت: ٦٨ هـ)**: "أن كل ما نهى الله عز وجل عنه كبيرة"؛ لأنه مخالف لظاهر القرآن في الفرق بين الصغائر والكبائر" ثم ذكر الآيات الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر، إلى أن قال: "فكيف يخفى ذلك على حبر القرآن؟"[(٤)]

الراجح:

وبعد ذكر هذا الخلاف المشهور في تقسيم الذنوب والمعاصي، وذكر أدلة كل من الفريقين

---

(١) ذكر هذا الأثر ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٤١٠) وقال: وأخرج -ابن أبي حاتم- من وجه آخر متصل لا بأس برجاله.

(٢) انظر: فتح الباري (١٠/ ٤١٠).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٩٤).

(٤) ينظر: فتح الباري (١٠/ ٤١٠).

تبين لنا أن تقسـيم الذنوب إلى صـغائر وكبائر هو الموافق لأدلة الكتاب والسـنة، التي ذكرنا طرفا منها آنفا، كما أنه الأوفق لقواعد الشريعة وأصولها العقدية والفقهية العامة التي دلتنا على تفاوت أهل الجنة في الدرجات، وأهل النار في الدركات، كما أن المعاصـي التي في حق الله وحق العباد عقوباتها الدنيوية متفاوته في شـدتها وخفتها وانعدامها أحيانا، إذ ليس كل ذنب يترتب عليه حد أو تعزير، وليس كل ذنب يترتب عليه حد يساويه الذنب الآخر الذي يترتب عليه حد أيضا، فحد الزنى والسرقة وشرب الخمر والقذف وغيرها تختلف في قدرها ونوعها.

وهذا كله يدل على التفريق بين الذنوب من حيث كونها كبائر وصـغائر، هذا فضـلا عن النصـوص المصـرحة بسـرد بعض الكبائر بأسمائها مما يدل على هذا التفريق، وقد مضـى ذكر هذه النصوص.

فلا يمكننا العدول عن هذه النصـوص الصـريحة من القرآن الكريم والسـنة المطهرة، وأقوال السلف في التفرقة بين الذنوب بجعل بعضـها صغائر وبعضـها كبائر وتأويلها بالتعسف إلى ما يفيد أنه لا صـغيرة من الذنوب؛ إذ الأخذ بصـريح الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة وآثار جمهور الصحابة والتابعين الدالة على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر خير من تأويلها بما ينبو عنه ظاهرها وأسلم من ثنيها عن دلالتها.[(١)]

بل اعتبر **ابن حجر**-رحمه الله-(**ت: ٨٥٢ هـ**) القول الذي لم يفرق بين الصغائر والكبائر شاذًا حيث قال: "وقد اختلف السلف، فذهب الجمهور إلى أن من الذنوب كبائر وصغائر، وشـذت طائفة منهم الأسـتاذ **أبو إسـحاق الإسـفرائيني**-رحمه الله-(**ت: ٤١٨ هـ**) فقال: ليس في الذنوب صغيرة، بل كل ما نهى الله عنه كبيرة"[(٢)].

قال البيهقي: "فأما الفرق بين الصغائر والكبائر فلابد منه في أحكام الدنيا والآخرة على ما

(١) "آيات عتاب المصطفى-صلى الله عليه وسلم-في ضوء العصمة والاجتهاد" (ص: ٦٢)؛ تأليف: د. عويد بن عيَّاد بن عايد المطرَفي.

(٢) فتح الباري (١/ ٤٠٩).

جاء به الكتاب والسنة"[١]

وقال الإمام الغزالي–رحمه الله–(ت: ٥٠٥ هـ): "إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه"[٢]

ـ خطر القول بأن جميع الذنوب كبائر:

مهما بلغ المرء منا من التقى والذل لله تعالى والخشوع له والانقطاع لعبادته تعالى، فلن يستطع التنزه من لمم الذنوب، وهناتها فلو أجزنا القول بأن جميع معاصي الله تعالى كبائر لحكمنا على جميع المؤمنين باقتراف الكبائر، واستباحة حمى الله تعالى، وانتهاك محارمه فضلاً عن تركنا صريح النصوص سيراً مع تأويلات لا يعضدها دليل.[٣]

القول الثالث: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر وفواحش.

ذَهَبَ **الْحليمي–رحمه الله–(ت: ٤٠٣ هـ)** من الشافعية إلى أنَّ الْمَعَاصِي تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

صَغِيرَةٌ، وَكَبِيرَةٌ، وَفَاحِشَةٌ؛ فَقَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ كَبِيرَةٌ، فَإِنْ قَتَلَ ذَا رَحِمٍ لَهُ فَفَاحِشَةٌ، فَأَمَّا الْخَدْشَةُ وَالضَّرْبَةُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فَصَغِيرَةٌ وَجَعَلَ سَائِرَ الذُّنُوبِ هَكَذَا.[٤]

ويرى الحليمي أيضا أن الصغيرة قد تنقلب كبيرة أو فاحشة بحسب ما يقترن بها من حال، **قال ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ)**: "وَقَالَ **الْحَلِيمِيُّ–رحمه الله–(ت: ٤٠٣ هـ)** فِي الْمِنْهَاجِ: مَا مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَفِيهِ صَغِيرَةٌ وَكَبِيرَةٌ وَقَدْ تَنْقَلِبُ الصَّغِيرَةُ كَبِيرَةً بِقَرِينَةٍ تُضَمُّ إِلَيْهَا وَتَنْقَلِبُ الْكَبِيرَةُ فَاحِشَةً كَذَلِكَ إِلَّا الْكُفْرَ بِاللَّهِ فَإِنَّهُ أَفْحَشُ الْكَبَائِرِ، وَلَيْسَ مِنْ نَوْعِهِ صَغِيرَةٌ،

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٤٦٤).

(٢) شرح مسلم للنووي (٢/ ٨٥)؛ وفتح الباري (١٠/ ٤٠٩)؛ عن كتاب البسيط للغزالي.

(٣) آيات عتاب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في ضوء العصمة والاجتهاد، (ص: ٦٣).

(٤) إرشاد الفحول" للشوكاني (١/ ١٤٥).

قُلْتُ: وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى فَاحِشٍ وَأَفْحَشَ"[١]

ثُمَّ ذَكَرَ الْحَلِيمِيُّ أَمْثِلَةً لِمَا قَالَ: فَالثَّانِي كَقَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَإِنَّهُ كَبِيرَةٌ فَإِنْ قَتَلَ أَصْلًا أَوْ فَرْعًا أَوْ ذَا رَحِمٍ أَوْ بِالْحَرَمِ أَوْ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ فَهُوَ فَاحِشَةٌ، وَالزِّنَا كَبِيرَةٌ فَإِنْ كَانَ بِحَلِيلَةِ الْجَارِ أَوْ بِذَاتِ رَحِمٍ أَوْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَوْ فِي الْحَرَمِ فَهُوَ فَاحِشَةٌ، وَشُرْبُ الْخَمْرِ كَبِيرَةٌ فَإِنْ كَانَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ نَهَارًا أَوْ فِي الْحَرَمِ أَوْ جَاهَرَ بِهِ فَهُوَ فَاحِشَةٌ، وَالْأَوَّلُ كَالْمُفَاخَذَةِ مَعَ الْأَجْنَبِيَّةِ صَغِيرَةٌ فَإِنْ كَانَ مَعَ امْرَأَةِ الْأَبِ أَوْ حَلِيلَةِ الِابْنِ أَوْ ذَاتِ رَحِمٍ فَكَبِيرَةٌ، وَسَرِقَةُ مَا دُونَ النِّصَابِ صَغِيرَةٌ فَإِنْ كَانَ الْمَسْرُوقُ مِنْهُ لَا يَمْلِكُ غَيْرَهُ وَأَفْضَى بِهِ عَدَمُهُ إِلَى الضَّعْفِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ.

وَأَطَالَ فِي أَمْثِلَةِ ذَلِكَ وَفِي الْكَثِيرِ مِنْهُ مَا يُتَعَقَّبُ لَكِنَّ هَذَا عُنْوَانُهُ وَهُوَ مَنْهَجٌ حَسَنٌ لَا بَأْسَ بِاعْتِبَارِهِ وَمَدَارُهُ عَلَى شِدَّةِ الْمَفْسَدَةِ وَخِفَّتِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ ".

وهذا الذي نقله ابن حجر عن الحليمي يوافق النصوص والقواعد والأصول؛ وذلك أن الذنوب الكبيرة تتفاوت في كبرها، كما أن الصغيرة تتفاوت فيما بينها، وقد ذكرنا النصوص التي تدل على وجود كبائر وأكبر الكبائر، وغير ذلك.

المسألة الثانية: الفرق بين الصغائر والكبائر.

أولًا: تعريف الصغائر

الذّنوب هي ترك ما أمر الله -تعالى- به من أوامر، وفعل ما حذّر منه -سبحانه- ممّا جاء الأمر بفعله أو النّهي عن تركه في الأحكام الشرعيّة، سواءً كان قولاً أو فعلاً، ظاهراً كان أو باطناً.[٢]

وتُقسَم الذّنوب في الإسلام إلى قسمين؛ صغائر وكبائر، ولكلٍّ منهما مفهوم خاصّ كالآتي:

أ-التعريف اللغوي:

الصغيرة لغة: جمع صغيرة، من صغر الشيء فهو صغير وجمعه صغار، والصغيرة صفة وجمعها

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٨٤).

(٢) مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع لمحمد زينو، (٢/ ٢٦٣)، بتصرّف.

صغار أيضا، ولا تجمع على صغائر إلا في الذنوب والآثام. [(١)].

ب-التعريف الشرعي:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الصغيرة وإن اتفق الأكثر على مضمونها، فقال بعضهم: الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة. [(٢)]. بمقابلة تعريف البعض للكبيرة.

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "أقل الأقوال [(٣)]، في هذه المسـألة القول المأثور **عن ابن عباس-رضـي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، وذكره **أبو عبيد-رحمه الله-(ت: ٢٢٤ هـ)**، **وأحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)**، وغيرهما وهو: أن الصغيرة ما دون الحدين حد الدنيا وحد الآخرة، وهو معنى قول من قال: ما ليس فيها حد في الدنيا وهو معنى قول القائل: كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار فهو من الكبائر، ومعنى قول القائل: وليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة"[(٤)]

وقال ابن النجار-رحمه الله-(ت: ٦٤٣ هـ): "والصـغائر هي: كل قول أو فعل محرم لا حد فيه في الدنيا ولا وعيد في الآخرة"[(٥)]

صـغائِرِ الذّنوب: كلّ ذنب عدا الكبائر؛ بمعنى أنّه لم يقترن بوعيد شـديد، أو عذاب، أو دخول النار، وتُعرَّف صغائر الذنوب أيضاً بأنّها ما دون الحدّين: حدّ الدنيا، وحدّ الآخرة.

ثانيًا: تعريف الكبيرة

---

(١) لسان العرب، المصباح المنير، المعجم الوسيط مادة (صغر).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٥٢٦).

(٣) هذه المسألة تسمى عند العلماء بمسألة "أقل ما قيل" ويذكرها العلماء غالبا في كتاب الإجماع؛ لأن موضع استعمالها هو إثبات أن أقل ما قيل يعتبر إجماعا، وأحيانا تدرج في باب الأدلة المختلف فيها؛ لأنها من مسائل الإجماع المختلف فيها، وهذا صنيع كثير من المصنفين. ينظر: "البحر المحيط" (٨/ ٢٦، وما بعدها)؛ للزركشي، "المهذب في أصول الفقه" (٢/ ٩٤١، وما بعدها)؛ للدكتور/ عبد الكريم النملة.

(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠).

(٥) شرح الكوكب المنير (٢/ ٣٨٨).

أ-التعريف اللغوي:

الكبائر: جمع كبيرة، والكبيرة في اللغة تعني: الشـــيء العظيم، وتقول: أَكْبَرْتَ الشـــيءَ أي اســـتعظمته، والتكبير: التعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوســـف: الآية: ٣١]، أي: أعظمنه، على قول أكثر المفسرين[(١)].

قال الفيروزآبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "الكبيرة في اللغة: مفرد كبيرات وكبائر، مؤنث الكبير، وهو: الإثم الكبير"[(٢)].

قال ابن منظور-رحمه الله-(ت: ٧١١ هـ): "الكبيرة هي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعا لعظيم أمرها كالقتل والزنا والفرار من الزحف"[(٣)].

فالمقصود بالكبائر إذًا: الذنوب العظام.

هل للكبائر عدد يحصرها أم لا.

وقد اتفق جمهور الناس على انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر، ثم اختلفوا في الكبائر بعد ذلك: هل لها عدد يحصرها أم لا، على قولين: [(٤)]

الأول: قول الذين ذهبوا إلى القول بحصرها في عدد محدد، وهؤلاء اختلفوا في عددها:

فقيل: هي أربعة. [(٥)]

وقيل: سبعة، وقيل: تسعة.

وقيل: هي إحدى عشرة.

وروي **عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، أنه قال: "هي إلى السبعين أقرب

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ١٣)، وتفسير الطبري (١٢/ ٢٠٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٧).

(٢) انظر: القاموس المحيط (٢/ ١٢٤)، ولسان العرب (٣/ ٢١٢).

(٣) انظر: لسان العرب (٣/ ٢١٢٩، وانظر القاموس المحيط (٢/ ١٢٤).

(٤) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (ص: ١٠٣٣-١٠٤٣)، والجواب الكافي لابن القيم (ص: ٨٧).

(٥) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص: ١٩٢٢).

منها إلى السبع.[١]

وقيل: هي سبعمائة.[٢]

وقيل غير ذلك، والصحيح أنه لا دليل من الكتاب والسنة يفيد الحصر.

الثاني: قول الذين لم يحصروها بعدد معين،

ب-التعريف الشرعي:

اختلفوا في حدِّها، وفي الضابط الذي يفرقون به بين الكبيرة والصغيرة على أقوال منها:

أولاً: أن الكبائر هي كل ما اتفقت جميعُ الشرائع على تحريمه، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة[٣]، وهذا يَرِد عليه أن التزوج ببعض المحارم، أو المحرمات بالرضاعة ليس من الكبائر، إذ لم تتفق على تحريمه كل الشرائع، كما أن "الفرق بين ما اتفقت عليه الشرائع واختلفت لا يُعلم إن لم يمكن وجودُ عالم بتلك الشرائع على وجهها، وهذا غير معلوم لنا"[٤]

ثانيًا: أن كل ما عصي الله به فهو من الكبائر، وهذا القول مروي **عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**.[٥]

قال البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ): "يحتمل أن يكون هذا في تعظيم حرمات الله، والترهيب عن ارتكابها، فأما الفرقُ بين الصغائر والكبائر فلا بد منه في أحكام الدنيا والآخرة على ما جاء به الكتاب والسنة"[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٥/ ٤١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص: ١٩١٧، ١٩١٨).

(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص: ١٩١٩).

(٣) انظر: الجواب الكافي (ص: ٨٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٥).

(٥) شعب الإيمان للبيهقي (٢٩٢)، وانظر: مدارج السالكين (١/ ٣٢١).

(٦) شعب الإيمان (١/ ٢٧٣).

ثالثًا: أن الذنوب كلها بالنسبة إلى الجراءة على الله والتوثّب على حقه والاستهانة به تعدّ من الكبائر. [(١)]. وهذا يقتضي أن الذنوب لا تنقسم في نفسها إلى صغائر وكبائر، وهو فاسد؛ لأنه خلاف النصوص، كما أن هذا الحدّ لا يمكن من خلاله التفريقُ بين الكبائر والصغائر.

رابعًا: أن الكبائر ذنوب العَمْد، والصغائر هي: الخطأ، والنسيان، وما أكره عليه، وحديث النفس؛

قال ابن القيم–رحمه اله–(ت: ٧٥١ هـ): "هذا من أضعف الأقوال طردًا وعكسًا؛ فإن الخطأ والنسيان والإكراه لا يدخل تحت جنس المعاصي حتى يكون أحد قسميها، والعمد نوعان: نوع كبائر، ونوع صغائر. [(٢)]."

خامسًا: الكبائر ذنوب المستحلين مثل ذنب إبليس، والصغائر ذنوب المستغفرين مثل ذنب آدم، وهذا القول ضعيف أيضًا؛ لأن المستحل ذنبُه دائر بين الكفر والتأويل، فإنه إن كان عالمِا بالتحريم فكافر، وإن لم يكن عالمِا به فمتأول أو مقلد، وأما المستغفر فإن استغفاره الكامل يمحو كبائره وصغائره، فلا كبيرة مع استغفار"[(٣)]

سادسًا: أن الكبائر الشرك وما يؤدي إليه، والصغائر ما عدا الشرك من ذنوب أهل التوحيد، واحتج أصحاب هذه المقالة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٤٨]، وبقوله –صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن ربه – عز وجل –: **(ومن لَقِيَني بقُراب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئًا، لَقِيتُه بمثلها مغفرةً)** [(٤)]، ولا حجة لهم في الآية؛ لأن غايتها التفريق بين

(١) انظر: الجواب الكافي (ص: ٨٩).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٢٣).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٢٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر الغفاري–رضي الله عنه.–

الشــــرك وغيره، إذ إن الشــــرك لا يغفر إلا بالتوبة منه، وأما ما دون الشــــرك فهو موكول إلى المشيئة، ولكنها لا تدل على أن كل ما دون الشرك فهو صغيرة في نفسه.

ومن أوعبها وأبعدها عن الاعتراض ما عرفها به **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)**؛ فقال: "الكبائر: هي ما فيها حد في الدنيا أو في الآخرة: كالزنا، والسرقة، والقذف، التي فيها حدود في الدنيا.

وكالذنوب التي فيها حدود في الآخرة وهو الوعيد الخاص: مثل الذنب الذي فيه غضـــب الله، ولعنته، أو جهنم، ومنع الجنة: كالســـحر، واليمين الغموس، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشرب الخمر ونحو ذلك.

هكذا روي **عن ابن عباس-رضـــي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، وسـفيان بن عيينة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)، وأحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)**، وغيرهم من العلماء"[١]

ما روي **عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، أنه قال: الكبيرة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب"[٢]

وقال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "الكبيرة: هي كل ذنب عظم الشــارع التوعد عليه بالعقاب وشدده أو عظم ضرره في الوجود"[٣].

وقال ابن أبي العز-رحمه الله-(ت: ٧٩٢ هـ) -في شرحه للطحاوية-: "واختلف العلماء في الكبائر على أقوال:

فقيل: سبع.

وقيل: سبع عشرة.

وقيل: ما اتفقت الشرائع على تحريمه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٨).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٧)، وتفسير القرطبي (٥/ ١٥٩)، شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٥٨).

(٣) تفسير القرطبي (٣/ ١٦٠ – ١٦١).

وقيل: ما يسد باب المعرفة بالله.

وقيل: ذهاب الأموال والأبدان.

وقيل: سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها.

وقيل: لا تعلم أصلا. أو: أنها أخفيت كليلة القدر.

وقيل: إنها إلى السبعين أقرب.

وقيل: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة.

وقيل: إنها ما يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار، أو اللعنة، أو الغضـــب، وهذا أمثل الأقوال.

واختلفت عبارة قائليه:

منهم من قال: الصغيرة ما دون الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة.

ومنهم من قال: كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار.

ومنهم من قـال: الصـــغيرة مـا ليس فيهـا حـد في الـدنيـا ولا وعيـد في الآخرة، والمراد بالوعيد: الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضـــب، فإن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا، أعني المقدرة، فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب.

وهذا الضـابط يسـلم من القوادح الواردة على غيره، فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة، كالشـرك، والقتل، والزنا، والسـحر، وقذف المحصـنات الغافلات المؤمنات، ونحو ذلك، كـالفرار من الزحف، وأكـل مـال اليتيم، وأكـل الربا، وعقوق الوالـدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، وأمثال ذلك.

وترجيح هذا القول من وجوه:

أحدها: أنه هو المأثور عن السلف، **كابن عباس** -رضي الله عنهما- **(ت: ٦٨ هـ)**، **وابن عيينة (ت: ١٩٨ هـ)**، **وابن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)** -رضي الله عنهم-، وغيرهم.

الثاني: أن الله تعـالى قـال: ﴿**إن تجتنبوا كبـائر مـا تنهون عنـه نكفر عنكم ســيئـاتكم**

وندخلكم مدخلا كريما﴾ [النساء: ٣١]. فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر.

الثالث: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب، فهو حد متلقى من خطاب الشارع.

الرابع: أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر،

بخلاف تلك الأقوال، فإن من قال: سبع، أو سبع عشرة، أو إلى السبعين أقرب -: مجرد دعوى.

ومن قال: ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه -: يقتضي أن شرب الخمر، والفرار من الزحف، والتزوج ببعض المحارم، والمحرم بالرضاعة والصهرية، ونحو ذلك - ليس من الكبائر! وأن الحبة من مال اليتيم، والسرقة لها، والكذبة الواحدة الخفيفة، ونحو ذلك -: من الكبائر! وهذا فاسد.

ومن قال: ما سد باب المعرفة بالله، أو ذهاب الأموال والأبدان -: يقتضي أن شرب الخمر، وأكل الخنزير والميتة والدم، وقذف المحصنات - ليس من الكبائر! وهذا فاسد.

ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة -: يقتضي أن الذنوب في نفسها لا تنقسم إلى صغائر وكبائر! وهذا فاسد، لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ومن قال: إنها لا تعلم أصلا، أو إنها مبهمة -: فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها، فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره. والله أعلم"[١]

المسألة الثالثة: الأقوال في حكم مرتكب الكبيرة.

أولًا: ملخص الأقوال في مسألة مرتكب الكبيرة.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٥٢٥-٥٢٨).

وقد تعددت مذاهب الناس في مرتكب الكبيرة، وأشهرها ثلاثة–طرفان ووسط:

أحدها: قول الخوارج والمعتزلة.

ذهبت الخوارج والمعتزلة إلى أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، واختلفوا في تسميته في الدنيا؛ فالخوارج تسميه كافرًا، والمعتزلة تجعله في منزلة بين المنزلتين وتسميه فاسقًا، والخلاف بينهما لفظي فقط.[(١)]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا قول باطل باتفاق الصحابة رضي الله عنه أجمعين وسائر أهل السنة"[(٢)]

الثاني: قول المرجئة.

ذهبت المرجئة من الشيعة والأشعرية إلى عدم الجزم بتعذيب أحد من أهل التوحيد، وإن ارتكب كبيرة.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا أيضًا باطل، بل تواترت السنن بدخول أهل الكبائر النار، وخروجهم منها بشفاعة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على ما جاءت به السنن"[(٣)]

الثالث: قول أهل السنة والجماعة.

وهو المذهب الحق الوسط، وبه قال أهل السنة والجماعة قاطبة، حتى صار شعارًا لهم، فقالوا: إن صاحب الكبيرة يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب، كما وردت بذلك النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وهو بذلك [يعني: صاحب الكبيرة] لا يخرج من الإسلام، ولا يحكم عليه بالخلود في النار، ويقولون: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وهو في مشيئة الله تعالى، إن شاء الله تعالى عذبهم بقدر معصيتهم، وإن شاء سبحانه عفا عنهم وغفر

---

(١) شرح ابن أبي العز الحنفي على الطحاوية (ص: ٣٠٣).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (ص: ٥٧٦).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (ص: ٥٧٦).

لهم، فكانوا بهذا أسعد الخلق؛ حيث أعملوا النصوص في مواضعها"[(١)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول، وما تواتر عنه: أنهم من أهل الوعيد، وأنه يدخل الجنة منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله إليها، ولا يخلد منهم فيها أحد، ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء"[(٢)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما أهل السنة والجماعة، والصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وسائر طوائف المسلمين، من أهل الحديث، والفقهاء، وأهل الكلام، من مرجئة الفقهاء، والكرامية، والكلابية، والأشعرية، والشيعة مرجئهم وغير مرجئهم، فيقولون: إن الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار ثم يدخله الجنة، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة.

وهذا الشخص الذي له سيئات عذب بها، وله حسنات دخل بها الجنة، وله معصية وطاعة، باتفاق هؤلاء الطوائف، لم يتنازعوا في حكمه، لكن تنازعوا في اسمه: فقالت المرجئة-جهميتهم، وغير جهميتهم-هو: مؤمن كامل الإيمان.

وأهل السنة والجماعة على: أنه ناقص الإيمان؛ ولولا ذلك لما عذب، كما أنه ناقص البر والتقوى باتفاق المسلمين"[(٣)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "والمرجئة تقول: هو-أي مرتكب الكبيرة-: مؤمن تام الإيمان، لا نقص في إيمانه، بل إيمانه كإيمان الأنبياء والأولياء، وهذا نزاع في الاسم.

ثم تقول فقهاؤهم ما تقوله الجماعة في أهل الكبائر: فيهم من يدخل النار، وفيهم من لا

---

(١) ينظر: شرح ابن أبي العز الحنفي على الطحاوية (ص: ٣٠٣)، ولوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية (٢/ ٢٧٥).

(٢) الإيمان (ص:٢٨١-٢٨٢) الفتاوى (٧/ ٢٩٨)؛ وانظر منه، (ص: ٢٤٤), الفتاوى (٧/ ٢٥٨).

(٣) الإيمان (ص: ٣٣٧-٣٣٨)، الفتاوى (٧/ ٣٥٣-٣٥٤)؛ وانظر: شرح الأصبهانية (٢/ ٥٨٧) (١٣٨) ت مخلوف"؛ والفتاوى (١٦/ ٤٧٤-٤٧٥)؛ و(منهاج السنة) (٤/ ٥٧٠-٥٧١).

يدخل، كما دلت على ذلك الأحاديث الصـــحيحة، واتفق عليه الصـــحابة، والتابعون لهم بإحسان.

فهؤلاء لا ينازعون أهل السنة والحديث في حكمه في الآخرة، وإنما ينازعونهم في الاسم"[(١)]

فمذهب أهل الســـنة والجماعة هو الوســـط بين غلو الخوارج والمعتزلة، وجفاء المرجئة وتفريطهم، حيث قال أهل الســـنة: إن مرتكب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاســـق بكبيرته؛ لأن ارتكابه للكبيرة انتقص من كمال إيمانه الواجب، وإن لم يقدح في أصل إيمانه.

وقالوا: إن مرتكب الكبيرة إن مات غير تائب عن كبيرته فهو في مشـيئة الله، إن شـاء عفا عنه وأدخله الجنة بغير عذاب، وإن شـاء عذّبه إلى حين ثم أخرجه من النار وأدخله الجنة، [(٢)] واتفقوا على أن النبي صـلى الله عليه وسـلم يشـفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد. [(٣)]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المســلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقالُ ذرة من إيمان، واتفقوا أيضًـا على أن نبينا يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته"[(٤)]

فأما قولهم: إن مرتكب الكبيرة يسـمى مؤمنًا لما عنده من أصـل الإيمان، فيدل عليه قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْـلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]، فســمى الله هؤلاء مؤمنين مع ما وقع بينهم من القتال الذي يعد من أكبر الكبائر، وبين أنهم لم يخرجوا من الإيمان بالكلية [(٥)]؛

---

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٨٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ١٧٥).

(٣) انظر: الرد على البكري (ص: ٤١٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٢).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٥).

ولذلك كان الإمام مالك يقول: "أهل الذنوب -أي الكبائر- مؤمنون مذنبون"[(١)]

وأما أنه ليس مؤمنًا بإطلاق، فيدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن).[(٢)]

قال محمد بن علي: "قول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ..."قال: يخرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرج من الإسلام البتة، فإن تاب تاب الله عليه، ورجع إليه الإيمان)**"[(٣)]

وسئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ولا أسميه مؤمنًا، ومن أتى دون ذلك -يريد دون الكبائر-أسميه مؤمنًا ناقص الإيمان"[(٤)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فأحمد بن حنبل لم يرد قط أنه سلب جميع الإيمان، فلم يبق معه منه شيء كما تقوله الخوارج والمعتزلة، فإنه قد صرح في غير موضع بأن أهل الكبائر معهم إيمان يخرجون به من النار، واحتج بقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: "أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان"[(٥)] وليس هذا قوله، ولا قول أحد من أئمة أهل السنة؛ بل كلهم متفقون على أن الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شيء من الإيمان يخرجون به من النار، هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين، لكن إذا كان معه بعضُ الإيمان لم يلزم أن يدخل في الاسم المطلق الممدوح"[(٦)]

(١) الجامع لأبي زيد القيرواني (ص: ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-.

(٣) السنة للخلال (١٠٨٣)، والسنة لعبد الله بن أحمد (٧٥٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه-.

(٦) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٧).

ولكن ألا يجوز أن يقال مطلقًا: إن مرتكب الكبيرة مؤمن؟

"الصـــحيح التفصـــيل: فإذا ســـئل عن أحكام الدنيا كعتقه في الكفارة، قيل: هو مؤمن، وكذلك إذا سئل عن دخوله في خطاب المؤمنين، وأما إذا سئل عن حكمه في الآخرة، قيل: ليس هذا النوع من المؤمنين الموعودين بالجنة؛ بل معه إيمان يمنعه الخلود في النار، ويدخل به الجنة بعد أن يعذب في النار إن لم يغفر الله له ذنوبه؛ ولهذا قال من قال: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو مؤمن ناقص الإيمان"[(١)].

وأما قولهم: إنه في الآخرة في مشـيئة الله، فيدل عليه قوله–صـلى الله عليه وسـلم–: (ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه) [(٢)]

وأما قولهم: إن النبي–صلى الله عليه وسلم–يشفع في أهل الكبائر، فيدل عليه قوله–صلى الله عليه وســـلم–: (شـــفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[(٣)]، وغيره من الأحاديث، وهي كثيرة مستفيضة في هذا المعنى.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "قد ثبت بالسـنة المسـتفيضـة المتواترة باتفاق الأمة أن النبي–صلى الله عليه وسلم–الشافع المشفع، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة، وأن الناس يستشفعون به، ويطلبون منه أن يشفع لهم، ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد"[(٤)]

قال الشـيخ حافظ الحكمي–رحمه الله–(ت: ١٣٧٧ هـ): عندما سـئل عن الجمع بين قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: **(فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه)**

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥٤/٧،٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت–رضي الله عنه,– وقد تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٨١٠)، وأبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، من حديث أنس بن مالك–رضي الله عنه–، وقال العجلوني في كشف الخفا (١٤/٢): صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال البيهقي: إسناده صحيح. اه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧١٤).

(٤) الرد على البكري (ص: ٤١٢).

متفق عليه، وبين ما تقدم من أن من رجحت سيئاته بحسناته دخل النار؟

فأجاب: لا منافاة بينهما، فإن من يشأ الله أن يعفو عنه، يحاسبه الحساب اليسير الذي فسره النبي صلى الله عليه وسلم بالعرض، وقال في صفته: (**يدنو أحدكم من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم. فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**). [(١)]

وأما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يناقش الحساب، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (**من نوقش الحساب عذب**). [(٢)] [(٣)]

ثانيًا: تفصيل الأقوال في المسألة.

القول الأول: قول أهل السنة في مسألة مرتكب الكبيرة:

يتمثل موقف السلف من مرتكب الكبيرة في تنزيل آيات الكتاب منازلها، وإعمال سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- في مواضعها؛ وجماع ذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ٤٨].

والمراد من الآية: في قوله: ﴿**لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾، أي أن الله تعالى لا يغفر لمشرك مات على شركه.

وفي قوله تعالى: ﴿**لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ نعمة عظيمة من وجهين:

أحدهما: أنها تقتضي أن كل ميّت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب، وإن مات مُصرًّا.

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٤)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) أعلام السنة المنشورة (ص: ١٧١).

(٣) المصدر: الكبائر وحكم مرتكبها، موقع الألوكة، وموقف السلف من مرتكب الكبيرة على موقع سلف للبحوث والدراسات على الشبكة العنكبوتية.

والثاني: أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع"[(١)]

فمن لقي الله بالكبائر دون توبة: فهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له؛ لقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: الآية: ٤٨].

قال ابن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): "وقد أبانت هذه الآية أنّ كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرته شركًا بالله"[(٢)]

وظواهر الأدلة الشرعية تقرر أن الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب هم السابقون بالخيرات، وليسوا المقتصدين، فضلا عن الظالمين لأنفسهم.

ومن ذلك: ما روى **أحمد-رحمه الله-(تك ٢٤١ هـ) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ-رضي الله عنه-(ت: مابين ٣١ إلى ٣٩ هـ)** قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يَقُولُ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ**﴾ [فاطر: الآية:٣٢]، **فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا بِالْخَيْرَاتِ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا فَأُولَئِكَ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاسَبُونَ فِي طُولِ الْمَحْشَرِ، ثُمَّ هُمُ الَّذِينَ تَلَافَاهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿فاطر: الآية: ٣٤]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لُغُوبٌ﴾** [فاطر: الآية:٣٥].

وعن **علي بن أبي طلحة-رحمه الله-(ت: ١٤٣ هـ) عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)** قال في تفسير الآية: "هم أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ورثهم الله كل كتاب أنزله؛ فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير

(١) زاد المسير (١/ ٤١٨).

(٢) "تفسير الطبري" (٨/ ٤٥٠).

حساب"(١)

وعن أَبِي وائل-رحمه الله-**(ت: ٨٢ هـ)** عن **عبد الله بن مسعود**-رضي الله عنه-**(ت: ٣٢ هـ)** قال: "هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة؛ ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بك، فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا عبد الله هذه الآية: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [فاطر: الآية:٣٢]"(٢)

وفي الحديث عن **عبادة بن الصامت**-رضي الله تعالى عنه-**(ت: ٣٤ هـ)** أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال وحوله عصابة من أصحابه: (**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفي منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه قال فبايعناه على ذلك**). (٣)

وفي الصحيحين من حديث **أبي ذر**-رضي الله عنه-**(ت: ٣١أو ٣٢ هـ)**، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، أنه قال: (**ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**). **قلت وإن زنى وإن سرق قال**: (**وإن زنى وإن سرق**). **قلت وإن زنى وإن سرق قال**: (**وإن زنى وإن سرق**). **قلت وإن زنى وإن سرق قال**: (**وإن زنى وإن سرق على**

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٠/ ٤٦٥).

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٠/ ٤٦٥).

(٣) صحيح البخاري المناقب (٣٦٧٩)، صحيح مسلم الحدود (١٧٠٩)، سنن الترمذي الحدود (١٤٣٩)، سنن النسائي البيعة (٤١٦١)، سنن الدارمي السير (٢٤٥٣).

رغم أنف أبي ذر). وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال وإن رغم أنف أبي ذر. [١]

فدلت هذه الأحاديث على أن مرتكب الكبيرة تحت المشيئة إن شاء الله عز وجل عفا عنه، وإن شـــاء عذبه، لكن آخر أمره إلى الجنة، ولو كان يكفر بكبيرته لكان من أهل النار خالداً فيها مخلداً.

فصاحب الكبيرة إذا لقي الله بها من غير توبة، فهو ظالم لنفسه، وهذا يحاسب، ويوازن بين حسناته وسيئاته، فإن رجحت سيئاته، كان من أهل النار، إلا أن يعفو الله عنه.

وقد يحاسب حسابا يسيرا، فيقرره الله بذنوبه، ثم يعفو عنه.

أولًا: حكم مرتكب الكبيرة–عند أهل السنة–في الدنيا.

ثانيًا: حكم مرتكب الكبيرة–عند أهل السنة–في الآخرة.

أولا: حكم مرتكب الكبيرة–عند أهل السنة–في الدنيا:

لبيان رأيهم نشير إلى شيء من أقوالهم:

يقول الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "ولا نشـــهد على أحد من أهل القبلة أنه في النار لذنب عمله ولا لكبيرة أتاها"[٢]

ويقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد صـــرح أحمد في غير موضـــع أن أهل الكبائر معهم إيمان"[٣]

ويقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): ومن أصـــول أهل الســـنة أن الدين والإيمان قول وعمل.. إلى أن قال: وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر.. ولا يســـلبون الفاســـق الملي اســـم الإيمان بالكلية.. ويقولون: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن

(١) صحيح البخاري (٥٤٨٩)، ومسلم (٩٤).

(٢) السنة للإمام أحمد (ص: ٧٠-٧١).

(٣) الفتاوى (٧/ ٢٥٧).

بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم"[(١)]

وسئل -**ابن تيمية**-رحمه الله-(ت: **٧٢٨ هـ**)، عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا؟ فأجاب بقوله: "لا يكفر بمجرد الذنب؛ فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزاني غير المحصن يجلد ولا يقتل، والشارب يجلد، والقاذف يجلد، والسارق يقطع، ولو كانوا كفارا: لكانوا مرتدين، ووجب قتلهم، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف"[(٢)]

وقال الطحاوي-رحمه الله-(ت: **٣٢١ هـ**): "ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله"[(٣)]

وقال **ابن أبي العز**-رحمه الله-(ت: **٧٩٢ هـ**)-في شرحه هذه العبارة -: "أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج . . ."[(٤)]

وقال أبو الحسن الأشعري-رحمه الله-(ت: **٣٢٤ هـ**): وأجمعوا-يعني السلف-على أن المؤمن بالله وسائر ما دعاه النبي-صلى الله عليه وسلم-إلى الإيمان به لا يخرجه عنه شيء من المعاصي ولا يحبط إيمانه إلا الكفر، وأن العصاة من أهل القبلة مأمورون بسائر الشرائع غير خارجين عن الإيمان بمعاصيهم"[(٥)]

من هذه النصوص يتضح أن أهل السنة يرون أن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة مؤمن ناقص الإيمان – مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته – وهو المذهب الوسط، فلم يعطوه الاسم المطلق كما قالت المرجئة، ولم يسلبوه مطلق الاسم كما قالت الخوارج.

---

(١) الفتاوى (٣/ ١٥١).

(٢) الفتاوى (٤/ ٣٠٧).

(٣) شرح الطحاوية (ص: ٣٥٥) (المتن)..

(٤) شرح الطحاوية (ص:٣٦٠-٣٦١).

(٥) انظر: رسالة أهل الثغر لأبي الحسن الأشعري (ص: ٣٧٤).

أدلتهم: وقد أيدوا قولهم بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

فمن الكتاب

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ [البقرة: الآية: ١٧٨].

قال ابن سعدي–رحمه الله–(ت: ١٣٧٦ هـ): "في قوله ﴿أَخِيهِ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا: أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه"(١)

ومن الكتاب–أيضا–قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات: الآية: ٩].

يقول ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "يقول تعالى آمرا بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: الآية: ٩]، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال؛ وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم"(٢)

ومن السنة ما يلي:

١ – **عن عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–(ت: ٣٤ هـ)** أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال–وحوله عصابة من أصحابه–: (**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب**

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي (ص: ٢١٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١١).

في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه)، فبايعناه على ذلك"[١]

وجه الدلالة: هو أن النبي–صلى الله عليه وسلم–لم يحكم على مرتكبي هذه الكبائر بالكفر. وهذا يتناول جميع الكبائر–عدا الشرك–للأدلة التي جاء فيها أن الله لا يغفر أن يشرك به أبدًا.

ويقول النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): وقوله–صلى الله عليه وسلم–: **(ومن أصاب شيئًا من ذلك)** إلى آخره. "[٢]، المراد به ما سوى الشرك، وإلا فالمشرك لا يغفر له.. إلى أن قال: وفي هذا الحديث فوائد منها: تحريم هذه المذكورات. ومنها: الدلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصي غير الكفر لا يقطع لصاحبها بالنار إذا مات ولم يتب منها، بل هو في مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه، خلافًا للخوارج والمعتزلة؛ فإن الخوارج يكفرون بالمعاصي"[٣]

٢ – كذلك من السنة ما روى البخاري عن **عمر بن الخطاب–رضي الله عنه–(ت: ٢٣ هـ)**: أن رجلا كان على عهد رسول الله–صلى الله عليه وسلم–كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا، وكان يضحك رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد جلده في الشراب، فأتي به يوما فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به. فقال–صلى الله عليه وسلم–: **(لا تلعنوه فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله)**، يقول ابن حجر–في شرحه–: ". . . وفيه الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر، لثبوت النهي عن لعنه، والأمر بالدعاء له، وفيه أنه لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب؛ لأنه–صلى الله عليه وسلم–أخبر بأن المذكور يحب الله ورسوله، ويؤخذ منه تأكيد ما تقدم: أن نفي الإيمان عن شارب الخمر لا يراد به زوآله

---

[١] رواه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

[٢] رواه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

[٣] انظر: شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١١/ ٢٢٣-٢٢٤).

بالكلية، بل نفي كماله - كما تقدم"[١]. وغيرها من الأدلة الكثيرة.

ثانيًا: حكم مرتكب الكبيرة-عند أهل السنة-في الآخرة:

بعد أن بينا رأى أهل السنة في مرتكب الكبيرة في الدنيا نشير إلى رأيهم فيه في الآخرة - والمراد بيان حكمهم في مرتكب الكبيرة الذي مات من غير توبة؛ إذ من المعلوم أن التوبة تجب ما قبلها، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ولمعرفة رأيهم نذكر شيئا من أقواله م في ذلك.

يقول الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "والشفاعة يوم القيامة حق، يشفع قوم في قوم فلا يصيرون إلى النار، ويخرج قوم من النار بشفاعة الشافعين، ويخرج قوم من النار بعدما دخلوها ولبثوا فيها ما شاء الله ثم يخرجهم من النار، وقوم يخلدون فيها أبدا، وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود والكفر بالله عز وجل"[٢]

ويقول ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): وهم - أي أهل السنة - في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية، ويكذبون بشفاعة النبي-صلى الله عليه وسلم-. وبين المرجئة الذين يقولون: إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء.. ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية، فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة، وأنهم لا يخلدون في النار، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته"[٣]

ويقول الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ): "وأهل الكبائر من أمة محمد-صلى الله

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٢/ ٧٨).

(٢) السنة للإمام أحمد (ص: ٧٢ -٧٣).

(٣) الفتاوى (٣/ ٣٧٤).

عليه وسلم-في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: الآية: ٤٨]. وإن شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته، وبشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته"(١)

ومن هذه النصوص يتضح: أن أهل السنة وسط في حكم مرتكب الكبيرة الذي مات من غير توبة: فلم يقولوا: بعدم دخوله النار كما قالت المرجئة.

ولم يقولوا بتخليده فيها-كما قالت الخوارج-وإنما قالوا: هو تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ثم أخرجه من النار وأدخله الجنة، فلا يخلد في النار.

أدلتهم: وقد أيدوا قولهم بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة، وإيثارا للإيجاز نذكر شيئا منها.

(أ) أدلتهم من الكتاب:

١ - قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء: الآية: ٤٨].

يقول ابن جرير-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): ". . . وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله"(٢).

وقال ابن الجوزي-رحمه الله-(ت: ٥٩٧ هـ): والمراد من الآية أن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه، وفي قوله: سورة النساء الآية ٤٨ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ نعمة عظيمة من وجهين، أحدهما: أنها تقتضي أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب وإن مات مصرا. الثاني: أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين وهو أن يكونوا على خوف وطمع"(٣)

---

(١) الطحاوية (مع الشرح) (ص: ٤١٦-٤١٧).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٨٠).

(٣) تفسير ابن الجوزي (٢/ ١٠٣-١٠٤).

٢ – ومن الكتاب أيضـــا: قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية: ١٠٢].

يقول ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ)–في تفسـير هذه الآية–: "لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها.. شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق. فقال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآية: ١٠٢]. أي أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ولهم أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه"[١]

وقال ابن سـعدي–رحمه الله–(ت: ١٣٧٦ هـ): ".. فهذه الآية دالة على أن المخلط المعترف النادم الذي لم يتب نصوحا أنه تحت الخوف والرجاء وهو إلى السلامة أقرب"[٢].

وقال أبو بكر الجزائري–رحمة الله–(ت: ١٤٣٩ هـ): "إن من هداية هذه الآية: الرجاء لأهل التوحيد الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا بأن يغفر الله لهم ويرحمهم"[٣]

(ب): أدلتهم من السنة: وهي كثيرة منها:

١ – **حديث عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–(ت: ٣٤ هـ)** السابق ذكره آنفا. فإن فيه: **(ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه)**.[٤]

يقول النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): وفي هذا الحديث فوائد منها: ". . . الدلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصي غير الكفر لا يقطع لصاحبها بالنار إذا مات ولم يتب منها،

[١] تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٤-١٤٥).

[٢] تفسير ابن سعدي (٣/ ١٣٨).

[٣] تفسير الجزائري (٣/ ٢٣٤).

[٤] صحيح البخاري الإيمان (١٨)، صحيح مسلم الحدود (١٧٠٩)، سنن الترمذي الحدود (١٤٣٩)، سنن النسائي البيعة (٤١٦٢)، سنن الدارمي السير (٢٤٥٣).

بل هو في مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه.."[(١)]

٢ - **حديث أبي ذر**–رضي الله عنه–(**ت: ٣١ أو ٣٢ هـ**)، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (**أتاني آت من ربي فأخبرني أو قال: بشرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. فقلت: وإن زنى وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق**). [(٢)]. الحديث.

يقول النووي–رحمه الله–(**ت: ٦٧٦ هـ**): "وأما حكمه–صلى الله عليه وسلم –على من مات مشركا بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة: فقد أجمع عليه المسلمون، فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرا عليها دخل الجنة أولا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة، فإن عفي عنه دخل أولا، وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة، والله أعلم.

وأما قوله–صلى الله عليه وسلم–: (وإن زنى وإن سرق) فهو حجة لمذهب أهل السنة أن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار، وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها وختم لهم بالخلود في الجنة"[(٣)]

٣ - ما رواه **عبادة**–رضي الله عنه–(**ت: ٣٤ هـ**)، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١١/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٢) صحيح البخاري الجنائز (١١٨٠)، صحيح مسلم الزكاة (٩٤)، سنن الترمذي الإيمان (٢٦٤٤)، مسند أحمد بن حنبل (٥/ ١٥٩).

(٣) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم جـ ٢ صـ ٩٧.

من العمل). [١]

قال النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "قوله: **(أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)**، هذا محمول على إدخاله الجنة في الجملة، فإن كانت له معاص من الكبائر فهو في المشيئة، فإن عذب ختم له بالجنة"[٢]

٤ - كذلك من أدلتهم تحقق الشـــفاعة الثابتة بالقرآن والســـنة التي تدل على أن مرتكبي الكبائر لا يخلدون في النار إن دخلوها.

قال تعالى: ﴿**مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾ [يونس: الآية: ٣].

وقال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّـفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِـيَ لَهُ قَوْلًا**﴾ ﴿طه: الآية: ١٠٩].

فهاتان الآيتان وأمثالهما: فيها إثبات للشـفاعة بالشـروط التي أشـارت إليها الآيتان. وهي: الإذن من الله للشـافع ورضـا الله عن المشـفوع له، والإذن من الله للشـافع يعطيه الصـلاحية للشفاعة، ورضاه سبحانه عن المشفوع له يقتضي أن يكون مسلما موحدا.

وصاحب الكبيرة مسلم موحد"[٣]

وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، قال: قال-صلى الله عليه وسلم-: **(لكل نبي دعوة مســـتجابة، فتجعل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شـــفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة-إن شاء الله-من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا)**. [٤]

يقول النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "وأما قوله-صلى الله عليه وسلم-: **(فهي نائلة**

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ (٤٧) (٤/ ١٣٩)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا: (١/ ٢٢٦). أورده ابن القيم في كتاب الصلاة (ص: ٣٠).

(٢) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١/ ٢١٧).

(٣) انظر: براءة أهل السنة من تكفير عصاة الأمة (ص: ٢٦).

(٤) صحيح البخاري الدعوات (٥٩٤٥)، صحيح مسلم الإيمان (١٩٩)، سنن الترمذي الدعوات (٣٦٠٢)، سنن ابن ماجه الزهد (٤٣٠٧)، مسند أحمد بن حنبل (٢/٤٢٦)، موطأ مالك كتاب النداء للصلاة (٤٩٢)، سنن الدارمي الرقاق (٢٨٠٥).

- **إن شاء الله تعالى - من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا).** [(١)]. ففيه دلالة لمذهب أهل الحق أن كل من مات غير مشرك بالله تعالى لم يخلد في النار وإن كان مصرا على الكبائر"[(٢)]

وعن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: **(يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان).** [(٣)]. الحديث.

وعن أنس بن مالك-رضي الله عنه-(ت: ٩١ أو ٩٢ أو ٩٣ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: **(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي).**

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر، وأنه يخرج بها من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ومرتكب الكبيرة معه إيمان فهي نائلته - إن شاء الله - وإذا كان كذلك فإنه لا يخلد في النار.

وعليه فإن مرتكب الكبيرة يدخل النار إذا لم يشأ الله المغفرة له خلافا للمرجئة لكنه لا يخلد فيها خلافا للخوارج.

القول الثاني: رأي الخوارج والمعتزلة.

أولًا: رأي الخوارج في حكم مرتكب الكبيرة مع المناقشة

(أ) رأي الخوارج في حكم مرتكب الكبيرة.

اختلف في قول الخوارج والمعتزلة في هذه المسألة -

١-فقال بعض كتاب الفرق إن الخوارج يجمعون على تكفير مرتكب الكبيرة، وأنه مخلد في

(١) صحيح البخاري الجنائز (١١٨٠)، سنن الترمذي الإيمان (٢٦٤٤)، مسند أحمد بن حنبل (٥/ ١٥٩).

(٢) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (٣/ ٧٥).

(٣) صحيح البخاري الإيمان (٢٢).

النار.[١]

٢-وقال بعضـهم: كالأشـعري-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ)،[٢]، والبغدادي-رحمه الله-(ت: ٤٢٩ هـ)،[٣]: إن هذه المسألة لم يجمعوا عليها وهو الأظهر.[٤]

- فقد قالت الإباضـــية: إن مرتكبي الكبائر موحدون لا مؤمنون لذا مناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، لأنهم إنما كفروا كفر نعمة لا كفر ملة.[٥]

كذلك النجدات أتباع **نجدة بن عامر الحنفي (ت: ٧٢ هـ)**، فرقة من فرق الخوارج[٦] قالوا: الفاسق من موافقيهم كافر كفر نعمة.[٧]

أما المحكمة أول فرقة من فرق الخوارج[٨] الأولى، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق (ت: ٦٥ هـ).[٩]، والعجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد.[١٠]، ومن وافقهم، فقد قرروا: أن مرتكب الكبيرة من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - كافر مخلد في النار.[١١]

وقد وافقهم المعتزلة في الحكم الأخروي حيث قالوا: إن مرتكب الكبيرة في الآخرة مخلد في

---

(١) كالكعبي انظر: الفرق بين الفرق (ص: ٧٢)، والشهرستاني الملل والنحل (١/ ٥٦)، والرازي اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (ص: ٤٦).

(٢) المقالات للأشعري (ص: ١٥٦).

(٣) الفرق بين الفرق (ص: ٧٢).

(٤) انظر: الفرق بين الفرق (ص: ٧٢).

(٥) الفرق بين الفرق (ص: ٩٥)، ودراسات في الفرق (ص: ١٠٠).

(٦) . انظر: الفرق بين الفرق (ص: ٨١-٨٤).

(٧) الفرق بين الفرق (ص: ٧٢-٧٣).

(٨) انظر: الفرق بين الفرق (ص: ٧٣-٧٨).

(٩) انظر: الملل والنحل (١/ ١٦٣)، والفرق بين الفرق (ص: ٧٨-٨١).

(١٠) انظر: الملل والنحل (١/ ١٧٢)، والفرق بين الفرق (ص: ٨٧).

(١١) انظر الفرق بين الفرق صـ ٧٧، ودراسات في الفرق (ص: ١٠٠).

النار. إلا أنهم قالوا بأن عذابه أخف من عذاب الكافر.[(١)]

(ب) شبهاتهم والجواب عليها:

لقد تمسك الخوارج ومن وافقهم في قولهم بهذه البدعة بشبهات منها ما يلي:

الشبهة الأولى:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: الآية: ٢٧].

وجه الدلالة:

يقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد احتجت الخوارج والمعتزلة بهذه الآية وقالوا: صاحب الكبيرة ليس من المتقين فلا يتقبل الله منه عملا، فلا يكون له حسنة، وأعظم الحسنات الإيمان، فلا يكون معه إيمان فيستحق الخلود في النار"[(٢)].

الجواب: قال **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**، بعد أن أورد بعض الأجوبة على هذه الشبهة قال: "والجواب الصحيح أن المراد من اتقى الله في ذلك العمل كما قال **الفضيل بن عياض–رحمه الله–(ت: ١٨٦ هـ)** في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية: ٢] قال: أخلصه وأصوبه. قيل يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة فمن عمل لغير الله – كأهل الرياء – لم يقبل منه ذلك كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل: **(أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)**، وقال–صلى الله عليه وسلم–في الحديث الصحيح: **(من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)**.[(٣)] أي فهو مردود غير مقبول. فمن اتقى الكفر وعمل عملا ليس عليه أمر النبي–صلى الله عليه وسلم–

(١) انظر: التبصير في الدين للإسفراييني (ص: ٤٢)، والملل والنحل (١/ ٤٨).

(٢) الفتاوى (٧/ ٤٩٤–٤٩٥).

(٣) صحيح مسلم الأقضية (١٧١٨)، مسند أحمد بن حنبل (٦/ ١٨٠).

لم يقبل منه كمن صلى بغير وضوء لم يقبل منه؛ لأنه ليس متقيا في ذلك العمل وإن كان متقيا للشـــرك.. إلى أن قال: لا يجوز أن يراد بالآية إن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها؛ لأن الكافر والفاسـق حين يريد أن يتوب ليس متقيا، فلو كان قبول العمل مشـروطا بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له امتنع قبول التوبة. بخلاف ما إذا اشـترط التقوى في العمل، فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة، وهو حين شـروعه في التوبة منتقل من الشر إلى الخير لم يخلص من الذنب، بل هو متق في حال تخلصه منه.

وأيضا فلو أتى الإنسان بأعمال البر-وهو مصر على كبيرة ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات-وهو حين أتى بها كان فاسقا وأيضا: الكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم.. وكذلك الذمي إذا أسـلم - قبل إسـلامه مع بقاء مظالم العباد عليه؛ فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصـح إسـلام الذمي حتى يتوب من الفواحش.. بل يكون مع إسلامه مخلدا.

وقد كان الناس مسلمين في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولهم ذنوب وعليهم تبعات فيقبل إسـلامهم.. ولا نعرف أحدا من المسـلمين جاءه ذمي يسـلم فقال له لا يصـح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب وكذلك سائر أعمال البر من الصلاة والزكاة وغيرهما"[(١)]

فإذا كـان المراد بالمتقين في ذلـك العمـل الـذي وعـد بقبوله لم يلزم عـدم قبول العمـل من صـاحب الكبيرة وبذلك يبطل الاسـتدلال بالآية على تخليد صـاحب الكبيرة في النار. والله أعلم.

الشبهة الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: الآية: ٤٩].

وجه الدلالة: قالوا: والفاسق تحيط به جهنم فوجب أن يكون كافرا. [(٢)]

---

(١) انظر: الفتاوى (٧/ ٤٩٥-٤٩٨).

(٢) شرح نهج البلاغة (٨/ ١٥).

الجواب: نقول: إن الآية تؤكد بأن جهنم محيطة بالكافرين وهو من أنواع عذاب الله لهم لكنها لم تقصر الإحاطة بهم؛ إذ أنه سبحانه لم يقل: وإن جهنم لا تحيط إلا بالكافرين وليس يلزم من كونها محيطة بقوم إلا تحيط بقوم سواهم، أي لا يلزم من كونها محيطة بالكافرين إلا تحيط بالفاسقين وعليه فلا دلالة في الآية على ما يزعمونه. [١]

الشبهة الثالثة:

قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ**﴾ [التغابن: الآية: ٢].

وجه الدلالة: قالوا: إن هذا يقتضي أن من لا يكون مؤمنًا فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن فوجب أن يكون كافرًا . [٢]

الجواب: يقال لهم: أولا: أما قولكم الفاسق ليس بمؤمن، إن أردتم ليس بمؤمن كامل الإيمان فنحن نوافقكم على ذلك، وإن أردتم نفي الإيمان المطلق فهذا مردود، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، وكونه مؤمنا ناقص الإيمان لا ينافي نسبته إلى الفئة المؤمنة بدليل أن الله نسبه إلى المؤمنين في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**﴾ الآية [الحجرات: الآية: ٩]، وإذا كان كذلك فلا دلالة في الآية على ما ترعمونه.

ثانيا: على التسليم بأن الفاسق لا ينسب إلى الفئة المؤمنة فإن (من) هاهنا للتبعيض، وليس في ذكر التبعيض نفي الثالث، وهو الفاسق: المؤمن بإيمانه الفاسق بكبيرته، أو المؤمن ناقص الإيمان.

كما أن قوله: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ**﴾ الآية [النور: الآية: ٤٥]، لا ينبغي وجود دابة تمشي على أكثر من أربع كبعض الحشرات. [٣]. وبذلك يبطل استدلالكم بالآية على تكفير الفاسق. والله أعلم

---

(١) انظر: نهج البلاغة (٨/ ١٥).

(٢) انظر: نهج البلاغة (٨/ ١١٨).

(٣) انظر: نهج البلاغة (٨/ ١١٨).

الشبهة الرابعة:

استدلوا بعموم النصوص التي فيها الوعيد بالتخليد لأصحاب الكبائر

كقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا**﴾ [النساء: الآية: ١٤]، وقال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ٩٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**﴾ [الفرقان: الآية: ٦٨]. وغيرها كثير. [(١)]

وجه الاستدلال: قالوا هذه النصوص فيها الوعيد بالتخليد لأصحاب الكبائر في النار ولا يخلد في النار إلا الكفار. [(٢)].

الجواب: في الإجابة عن هذه النصوص أقوال منها.

الأول: أن المراد بالخلود لمستحل هذه الكبائر، والمستحل كافر إجماعا، والكافر مخلد. [(٣)].. لما روي عن ابن عباس في معنى قوله ﴿**مُتَعَمِّدًا**﴾ أنه قال متعمدا: أي مستحلا لقتله فهذا يئول إلى الكفر إجماعا والكافر مخلد. [(٤)].

وقال أبو السعود–رحمه الله–(ت: ٩٨٢ هـ): "ولا دليل في الآية على القول بخلود عصاة المؤمنين في النار لما قيل إنها في حق المستحل، كما هو رأي عكرمة وأحزابه، بدليل أنها نزلت في مقيس بن ضبابة الكناني المرتد"[(٥)]

وقال الطبري–رحمه الله–(ت: ٣١٠ هـ) في قوله: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ**

---

(١) انظر: الفصل (٤/ ٤٦)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٣٧٠).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٦٨)، والفصل (٤/ ٤٦).

(٣) لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٧٠).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٣٤).

(٥) تفسير أبي السعود (٢/ ٢١٧).

حُدُودَهُ﴾ [النساء: الآية: ١٤]، قال: فإن قال قائل: أو مخلد في النار من عصى الله ورسوله في قسمة الميراث؟ قيل: نعم. إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكا في أن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحاد الله ورسوله في أمرهما. [١]

وقال الشوكاني-رحمه الله-(ت: ١٢٥٠ هـ) في قوله: ﴿**وَلَا يَزْنُونَ**﴾ [الفرقان: الآية: ٦٨]، "أي فيستحلون الزوجة المحرمة بغير نكاح"[٢]

وعلى هذا فالآيات لا تتناول صاحب الكبيرة؛ لأنها في الكافر.

الثاني: أن الجزاء في الآيات ليس المقصود وقوعه وإنما الإخبار به. [٣]

يقول الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): وقوله تعالى: ﴿**فَجَزَاؤُهُ**﴾ [النساء: الآية: ٩٣]، أي يستحق ما ذكره الله من العقاب إن شاء أن يجازيه. [٤].. **وقال أبو السعود-رحمه الله-(ت: ٩٨٢ هـ)** بمثل ذلك. [٥]، وإذا كان كذلك فلا دلالة في الآيات على تخليد أهل الكبائر في النار.

الثالث: وهو الأظهر: أن هذه النصوص مخصوصة بالنصوص الدالة على العفو بمشيئة الله، والتوبة، وأحاديث الشفاعة الدالة على إخراج الموحدين من النار.

يقول القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ) بعد ذكر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ [النساء: الآية: ٩٣]، "الآية مخصوصة بآيات وأحاديث، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: الآية: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الشورى: الآية: ٢٥]، وقوله

(١) تفسير الطبري (٨/ ٧٢).

(٢) انظر: تفسير الشوكاني (٤/ ٨٨).

(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٧٠).

(٤) مختصر تفسير الطبري (ص: ٧٤).

(٥) تفسير أبي السعود (٢/ ٢١٧).

تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: الآية: ٤٨].

وتوضيح ذلك أنه ليس الأخذ بظاهر هذه النصوص أولى من الأخذ بظاهر تلك النصوص، والأخذ بالظاهرين متناقض فلا بد من التخصيص.

وأما الأخبار المخصصة لعموم الآية فكثيرة، منها: حديث عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–(ت: ٣٤ هـ) أنه –صلى الله عليه وسلم– قال: (**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا . . . إلى أن قال: فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه**).[(١)]

وحديث **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)** في الرجل الذي قتل مائة نفس.[(٢)].

ثم إنهم ــ الخوارج ومن وافقهم ــ قد أجمعوا معنا في الرجل يشهد عليه بالقتل أو الزنا ويقر بأنه قتل أو زنى ويأتي السلطان فيقيم عليه الحد، فهذا غير نافذ عليه الوعيد في الآخرة إجماعا على مقتضى حديث عبادة. فقد انكسر عليهم ما تعلقوا به من عموم هذه النصوص ودخلها التخصيص بما ذكر"[(٣)]

من كلام **القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ)**: يظهر أن هذه النصوص مخصصة بالنصوص الدالة على العفو والتوبة. وعلية فيبطل الاستدلال بعمومها على تخليد أصحاب الكبائر في النار، والله أعلم.

الشبهة الخامسة:

استدلوا بما روى **أبو هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)**، أن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو**

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٩)، ومسلم الحدود (١٧٠٩).

(٢) رواه مسلم (٤٦).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٣٤).

مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن). [١]. الحديث.

وجه الاستدلال: أن ظاهر الحديث يدل على نفي الإيمان عمن أتى شيئا من هذه الكبائر ومن نفى عنه الإيمان فهو كافر.

يقول السـمائلي–أحد علمائهم–(ت: ١٤١٤ هـ): "الإيمان في قلوب أهله أثبت من الجبال الرواسي على قرارها، فلا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن: أي لا يبقى إيمان مع الزنا، فإنه إذا أقدم على الزنا خلع ربقة الإيمان من عنقه، فيزني وهو خارج من حيطة الإيمان الصحيح، إذ صار منتهكا لحرم ربه–عز وجل–فهو لا يقف على حدود طاعة الله تعالى، ومن كان كذلك فلا فرق بينه وبين الحيوان كما لا فرق بينه وبين الكافر"[٢]

الجواب: **يقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "الجمهور من السلف والخلف يقولون الإسلام أوسع من الإيمان، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا، ويقولون في قول النبي–صلى الله عليه وسلم–: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)**. [٣]. الحديث، أنه يخرج من الإيمان إلى الإسلام، ودوروا للإسلام دارة ودوروا للإيمان دارة أصغر منها في جوفها وقالوا: إذا زنى خرج من الإيمان إلى الإسلام ولا يخرجه من الإسلام إلى الكفر، ودليل ذلك أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا**﴾ [الحجرات: الآية: ١٤]، فقد قال تعالى: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: الآية: ١٤]، وهذا الحرف–أي لما–ينفي به ما قرب وجوده وانتظر وجوده ولم يوجد بعد. . . فلما قالوا: ﴿**آمَنَّا**﴾ قيل ﴿**لَمْ تُؤْمِنُوا**﴾ بعد، بل الإيمان مرجو منتظر منكم. فالخطاب لهؤلاء المخاطبين قد أخبر عنهم أنهم لما يدخل الإيمان في قلوبهم ومع ذلك قيل لهم:

---

(١) رواه البخاري (٥٢٥٦)، ومسلم (٥٧).

(٢) أصدق المناهج للسمائلي (ص: ٣٤–٣٥).

(٣) رواه البخاري الأشربة (٥٢٥٦)، ومسلم الإيمان (٥٧).

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: الآية: ١٤].

فلو لم يكونوا في هذه الحال مثابين على طاعة الله ورســـوله لكان خلاف مدلول الخطاب. والإثابة على الطاعة تدل على وجود إيمان تصـح به الطاعة ثم بين سـبحانه وصـف المؤمنين الذين أخرج هؤلاء منهم فقال ســـبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـــولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: الآية: ١٥]، وهذا نعت محقق الإيمان لا نعت من معه مثقال ذرة من إيمان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية: ٢] ، ومنه قوله–صلى الله عليه وسلم–: (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**)، وأمثال ذلك ، فدل البيان على أن الإيمان المنفي عن هؤلاء الأعراب: هو هذا الإيمان الذي نفي عن فســـاق أهل القبلة الذين لا يخلدون في النار، بل قد يكون مع أحدهم مثقال ذرة من إيمان، ونفي هذا الإيمان لا يقتضي ثبوت الكفر الذي يخلد صاحبه في النار"[١]

وعلى ذلك فالإيمان المنفي عن الزاني إنما هو الإيمان الكامل.[٢] . ونفي هذا الإيمان لا يقتضي ثبوت الكفر الذي يخلد في النار.

ومما يؤكد ذلك ما ورد في الصـــحيحين عن **أبي ذر–رضـــي الله عنه–(ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)**أنه قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (أتاني جبريل – عليه السلام – فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق). الحديث.[٣]

فدل هذا على أن من مات لا يشـرك بالله شـيئا دخل الجنة بمشـيئة الله، وإن ارتكب بعض الكبائر كالزنا والســـرقة مما يدل على أن ارتكاب هذه الكبائر لا يخرج من الإيمان إلى الكفر وإنما ينقص الإيمان، وإذ كان كذلك فلا دلالة في الحديث على ما يزعمونه، والله أعلم.

---

(١) الفتاوى (٧/ ٤٧٦، ٤٧٨). بتصرف.

(٢) انظر: قواعد العقائد للغزالي (ص: ٢٥٩). وشرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٤١).

(٣) صحيح البخاري الرقاق (٦٠٧٨)، صحيح مسلم الإيمان (٩٤)، سنن الترمذي الإيمان (٢٦٤٤)، مسند أحمد بن حنبل (٥/١٥٢).

الشبهة السادسة:

قوله-صلى الله عليه وسلم-: **(سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)**.[(١)]

يقول ابن حزم-رحمه الله-(ت: ٤٥٦ هـ): "واحتج أيضًا من كفر من ذكرنا بأحاديث منها قوله-صلى الله عليه وسلم-: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر).

ويقول ابن حجر-رحمه الله-(: ٨٥٢ هـ)، -بعد سياقه هذا الحديث-: إن ظاهره يقوي مذهب الخوارج الذين يكفرون بالمعاصي"[(٢)]

الجواب: **يقول ابن حجر-رحمه الله-(: ٨٥٢ هـ)**، -بعد أن أورد هذا الحديث-: "ولا مستمسك للخوارج فيه لأن ظاهره غير مراد، لكن لما كان القتال أشد من السباب؛ لأنه مفض إلى إزهاق الروح، عبر عنه بلفظ أشد من لفظ الفسق وهو الكفر، ولم يرد حقيقة الكفر المخرج من الملة، بل أطلق عليه الكفر مبالغة في التحذير معتمدا على ما تقرر من القواعد أن مثل ذلك لا يخرج عن الملة، مثل حديث الشفاعة، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: الآية: ١١٦].

أو أطلق عليه الكفر لشبهه به؛ لأن قتال المؤمن من شأن الكافر"[(٣)]

وقال ابن حزم-رحمه الله-(ت: ٤٥٦ هـ): إن قوله - عليه الصلاة والسلام - **(المسلم)** هاهنا عموم للجنس ولا خلاف في أن من نابذ جميع المسلمين وقاتلهم لإسلامهم فهو كافر. برهان هذا هو ما ذكرنا قبل من نص القرآن في أن القاتل عمدا والمقاتل مؤمنان، وكلامه-صلى الله عليه وسلم-لا يتعارض ولا يختلف"[(٤)]

من كلام ابن حجر وابن حزم يتضح أنه لا يراد بالحديث الحكم بالكفر المخرج من الملة

(١) أخرجه النسائي (٤١١٢)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٧/ ٥٧) والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (١٠٩٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ١١٢).

(٣) فتح الباري (١/ ١١٢).

(٤) الفصل لابن حزم (٣/ ٢٣٧).

على مرتكب كبيرة القتل، وإذا كان كذلك لم يبق للخوارج مســـتمســـك في الحديث، والله أعلم.

الشبهة السابعة:

يقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)، –بعد أن ذكر رأيهم في مرتكب الكبيرة–: "وجماع شـبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشـرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة، وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين إذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه ســـكنجبينا. قالوا: فإذا كان الإيمان مركبا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة، لزم زوآله بزوال بعضها. وهذا قول الخوارج والمعتزلة"[(١)]

الجواب: يقال لهم لا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، سواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك، لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال ســـائرها. وما مثلوا به من العشـــرة والسكنجبين مطابق لذلك، فإن الواحد من العشـرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة، بل قد تبقى التســـعة، فإذا زوال أحد جزئي المركب لا يلزم منه زوال الجزء الآخر، لكن أكثر ما يقولون زالت الهيئة الاجتماعية وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب كما يزول اسم العشرة والسكنجبين.

فيقال: أما كون ذلك المجتمع المركب ما بقي على تركيبه فهذا لا ينازع فيه عاقل، ولا يدعي عاقل أن الإيمان، أو الصـــلاة، أو الحج، أو غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور، إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه، ولكن لا يلزم زوال بقية الأجزاء.

وأما زوال الاسـم فيقال لهم هذا (أولًا) بحث لفظي، إذا قدر أن الإيمان له أبعاض وشـعب، كما قال – صـلى الله عليه وسـلم–في الحديث المتفق عليه: (الإيمان بضـع وسـبعون شـعبة، أفضـلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان). [(٢)]،

---

(١) "الفتاوى (٧/ ٥١١). وانظر: الفصل (٤/ ٤٧).

(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

كما أن الصلاة والحج له أجزاء وشعب، ولا يلزم من زوال شعبة من شعبه زوال سائر الأجزاء والشعب، كما لا يلزم من زوال بعض أجزاء الحج والصلاة زوال سائر الأجزاء، فدعواهم أنه إذا زال بعض المركب زال البعض الآخر ليس بصواب، ونحن نسلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله وأن الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كانت. بقي النزاع هل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الأجزاء، فيقال لهم: المركبات في ذلك على وجهين، منها: ما يكون التركيب شرطا في إطلاق الاسم، ومنها: ما لا يكون كذلك، فالأول كاسم العشرة . . . ومنها ما يبقى الاسم بعد زوال بعض الأجزاء وجميع المركبات المتشابهة الأجزاء من هذا الباب وكذلك كثير من المختلفة الأجزاء، فإن المكيلات والموزونات كالحنطة تسمى حنطة وهي بعد النقص حنطة، وكذلك التراب والماء ونحو ذلك. وكذلك لفظ العبادة والطاعة ونحو ذلك مما يدخل فيه أمور كثيرة، يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها. وكذلك لفظ القرآن يقال على جميعه وعلى بعضه. وإذا كانت المركبات على نوعين، بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولهم إنه إذا زال جزؤه لزم أن يزول الاسم إذا أمكن أن يبقى الاسم مع بقاء الجزء الباقي.

ومعلوم أن اسم (الإيمان) من هذا الباب فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**) ثم من المعلوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان. وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان**). [(١)] . فأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه وأن ذلك من الإيمان، فعلم أن بعض الإيمان يزول ويبقى بعضه، وهذا ينقض مآخذهم الفاسدة ويبين أن اسم الإيمان مثل اسم القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه، وعليه فالإيمان يزول بعضه ولا يلزم زوال الباقي كما لا يلزم زوال اسمه وبذلك تبطل هذه الشبهة، والله أعلم. [(٢)] .

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٩٨).

(٢) الفتاوى (٧/ ٥١٤-٥١٧). (بتصرف).

(ج): في ذكر بعض اللوازم والأدلة التي تؤكد بطلان هذه البدعة:

بعد عرض أمثلة من شبهاتهم والجواب عنها نشير إلى بعض اللوازم والأدلة التي تؤكد بطلان هذه البدعة. مما يؤكد بطلان هذه البدعة ما يلي:

أولًا: أنه يلزم من القول بأن مرتكب الكبيرة كافر أن يكون حكمه حكم غيره ممن كفر بعد إيمانه، وهو أن يكون مرتدا يجب قتله؛ لقوله–صـــلى الله عليه وســـلم–: من بدل دينه فاقتلوه ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة والخمر. وهذا معلوم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام، إذ أن نصـــوص الكتاب والســـنة والإجماع تدل على أن الزاني ــ البكر ــ والســـارق والقاذف لا يقتلون، بل يقام عليهم الحد.

كما قال تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾ [النور: الآية: ٢]، وقال تعالى في حكم السـارق: ﴿**وَالسَّـارِقُ وَالسَّـارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [المائدة: الآية: ٣٨]، وفي شراب الخمر روي **عن عمر بن الخطاب–رضي الله عنه–(ت: ٢٣ هـ)**، أن رجلا كان على عهد رسول الله–صلى الله عليه وسلم–كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك النبي–صلى الله عليه وسلم–وكان–صـــلى الله عليه وســـلم–قد جلده في الشـــراب، فأتي به يوما فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ، فقال–صـــلى الله عليه وســـلم–: (**لا تلعنوه فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله**)، فقد أمر–صـلى الله عليه وسـلم–بجلد شـارب الخمر ولم يقتله بل نهى عن لعنه بعينه، وشـهد لهذا الرجل بحب الله ورسـوله مع أنه تكرر منه شـرب الخمر ، ولم يحكم عليه ولا على غيره من أصـحاب الكبائر كالسـارق والزاني بالكفر، بل كان يسـتغفر لهم"[١]

كما أجمعت الأمة من الصـحابة والتابعين ومن بعدهم على ذلك. فدل ذلك على أنه ليس بمرتد.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨٣، ٦٧١).

كما يلزم أيضـــا من كونه كافرا التفريق بينه وبين أهله، وأن لا يرث ولا يورث إلى غير ذلك مما يشترط فيه الإسلام؛ لقوله عز وجل: ﴿**وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْـــرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْـــرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا**﴾ [البقرة: الآية: ٢٢١]. ولقوله–صلى الله عليه وسلم–: (**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**).

لكن النبي–صلى الله عليه وسلم–لم يفرق بين من فعل الكبيرة مما دون الشرك وبين أهله ولم يحرمه من ميراث من له الإرث منه، وكذلك صـحابته والتابعون لهم بإحسـان مما يدل على أنه غير كافر.

ثانيًا: أن الله سمى أهل الكبائر مؤمنين مع ارتكابهم لها؛ كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ [الحجرات: الآية: ٩]. [(١)].

قال ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "فســماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا اسـتدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصــية وإن عظمت لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم"[(٢)]. ومثل هذه الآية أيضا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**﴾ [البقرة: الآية: ١٧٨].

قال ابن حزم–رحمه الله–(ت: ٤٥٦ هـ): فابتدأ الله عز وجل بخطاب أهل الإيمان من كان فيهم من قاتل أو مقتول، ونص تعالى على أن القاتل عمدا وولي المقتول أخوان. وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: الآية: ١٠]. فصـــح أن القاتل عمدا مؤمن بنص القران، وحكمه له بأخوة الإيمان، ولا تكون للكافر مع المؤمن تلك الأخوة"[(٣)]

وإذا صـــح أن مرتكب الكبيرة لم يخرج من الإيمان بطل ما تزعمه الخوارج من القول بكفره

(١) انظر: الفتاوى (٧/ ٤٨٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢١).

(٣) الفصل (٣/ ٢٣٥-٢٣٦).

وأنه مخلد في النار.

ثالثًا: ما ورد من الأدلة على الموازنة بين الحسنات والسيئات وأن الله لا يضيع عمل عامل، قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: الآية: ٧]، ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: الآية: ٨]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا**﴾ [النساء: الآية: ٤٠].

وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ) أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم– قال: (**أتدرون من المفلس؟**)، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**). [(١)]

فصح بما ذكر أن للعصاة حسنات مقبولة وإذا كانوا كذلك لم يكونوا كافرين"[(٢)]

رابعًا: ما ورد من الأدلة التي تدل على عفو الله عن عباده وسعة مغفرته لهم وأنه لا يضيع إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: الآية: ٤٨].

فقد دلت هذه الآية على أن مغفرته سبحانه قد تنال كل صاحب معصية بمشيئة غير الشرك، ومرتكب الكبيرة ليس بمشرك، وعليه فهو داخل تحت مشيئة الله.

وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [البقرة: الآية: ١٤٣]، ومرتكب الكبيرة معه إيمان فالله لا يضيع إيمانه، وعليه فهو ليس بكافر.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) انظر: الفصل (٣/ ٢٣٢–٢٣٣)، (٤/ ٤٨–٤٩).

وعن عبادة بن الصامت-رضي الله عنه-(**ت: ٣٤ هـ**)، قال: قال-صلى الله عليه وسلم-: (**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**). [(١)]. ومرتكب الكبيرة قد شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله - فهو موعود بدخول الجنة ومن وعد بدخولها فليس بكافر.

وإذا ثبت أن مرتكب الكبيرة مما دون الشرك تحت مشيئة الله. [(٢)]، وأن الله لا يضيع إيمانه، بل إن الله وعده بالجنة، إذا ثبت ذلك بطل القول بكفره وأنه مخلد في النار.

خامسًا: ما ورد من الأدلة الدالة على الشفاعة بأنواعها المختلفة التي أعظمها شفاعة نبينا-صلى الله عليه وسلم-لأهل الموقف وهي المقام المحمود الذي قال الله تعالى فيه : ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ [الإسراء: الآية: ٧٩]، فهذا نوع من أنواع شفاعته-صلى الله عليه وسلم-ومن أنواعها ما روى البخاري **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: (**لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**). ومرتكب الكبيرة ليس بمشرك فهي نائلته إن شاء الله.

وورد من أنواع الشفاعة شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض؛ لما روى **أبو سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)**، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: (**يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، قلنا : يا رسول الله وما الجسر؟، قال : مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان، المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق ، وكالريح، وكأجاود الخيل والركاب، فناج مسلم، وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحبا فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق**

---

(١) صحيح البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٥٢)، سنن الترمذي الإيمان (٢٦٣٨).

(٢) انظر: الفتاوى جـ ٧ صـ ٤٨٤. ٤٨٧. وتأملات في التراث العقدي صـ ٢٤٢ . ٢٤٣.

قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار ، وإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون ربنا إخواننا الذين كانوا يصـلون معنا ويصـومون معنا ويعملون معنا، فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرم الله صـــورهم على النار فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه وإلى إنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوهم ، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا). الحديث. [(١)]

"وبعض أنواع الشفاعة إنما تكون للعصاة الذين استحقوا العذاب بسبب ارتكاب المعاصي أو التقصير في الطاعات، وإذا ثبتت الشفاعة للعصاة انتفى القول بخلودهم في النار"[(٢)].

وقد أنكرت الخوارج هذا النوع من الشفاعة محتجين بأن الشفاعة للعاصي رضا بعصيانه"[(٣)]

ويرد عليهم: بأن الشفاعة للعاصي ليست رضا بعصيانه؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لما احتاج إلى الشفاعة، ولكن عفو الله ومغفرته، وقبول الأعمال الصالحة جعلت لبعض العصاة حقا في الشفاعة"[(٤)]. [(٥)].

ثانيًا: رأي المعتزلة في حكم مرتكب الكبيرة في الدنيا مع المناقشة. [(٦)].

ذكرنا–آنفا–عند بيان رأي الخوارج في حكم مرتكب الكبيرة – أن المعتزلة يوافقونهم في حكمه في الآخرة، إلا أنهم يخالفونهم في حكمه في الدنيا.

---

(١) رواه البخاري (٧٠٠٢)، ومسلم (١٨٢).

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي (ص: ١٩١، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٣).

(٣) انظر: أصدق المناهج للسمائلي (ص: ٢٧).

(٤) انظر: تأملات في التراث العقدي للفرق الكلامية (فرق الخوارج) (ص: ٢٤٥).

(٥) المصدر: وسطية أهل السنة في حكم مرتكب الكبيرة بين الخوارج والمرجئة.

(٦) المصدر: الموسوعة العقدية بموقع الدرر السنية.

فيرى المعتزلة: أن مرتكب الكبيرة – في الدنيا – ليس مؤمنًا ولا كافرًا لا في الاسـم ولا في الحكم؛ بل هو في منزلة بين المنزلتين، فلا يسمى مؤمنا ولا كافرا وإنما يسمى فاسقا.

وحكمه كذلك بين الحكمين، فلا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن وإنما له حكم بينهما.

والمعتزلة اختلفوا في حكم كل من الصغائر والكبائر عندهم.

أما الصغائر فقد ذكر أبو الحسن الأشعري أنهم لم يتفقوا على قول واحد بشأنها، بل دار بينهم الخلاف في ذلك على أقوال ثلاثة:

١–أن الله سبحانه يغفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر تفضلا.

٢–أن الله يغفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر باستحقاق.

٣–أن الله لا يغفر الصغائر إلا بالتوبة .

فهذه أقوال ثلاثة عند المعتزلة، اثنان منها قالت بالغفران، والخلاف بينهما في الاستحقاق والتفضل، والاستحقاق كما هو واضح فيه تحكم على الله سبحانه، وذلك غير لائق بحال.

ولكن من مبادئ المعتزلة المشهورة عنهم قولهم بوجوب الصلاح والأصلح، ولا يخفى ما في هذا المبدأ من جسارة وعدم تأدب مع الله سبحانه وتعالى، أما القول الثالث فإنه يجعل الصغيرة بمنزلة الكبيرة في عدم الغفران إلا بالتوبة، وهذا لم يقل به أحد، ومخالف أيضا لما عليه المعتزلة أنفسهم من الفرق بين الصغيرة والكبيرة من حيث المعنى والاعتبار.

قال القاضي عبد الجبار (ت: ٤١٥ هـ): "الأصل في ذلك أن هذه العبارة إنما تستعمل في شيء بين شيئين ينجذب إلى كل واحد منهما بشبه، هذا في أصل اللغة، وأما في اصطلاح المتكلمين فهو العلم بأن لصاحب الكبيرة اسما بين الاسمين، وحكما بين الحكمين"[(١)].

وشرح القاضي هذا التعريف، فقال: "إن صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، فلا يكون

---

(١) شرح الأصول الخمسة (ص: ١٣٧).

اسمه اسم الكافر، ولا اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقا، وكذلك صاحب الكبيرة له حكم بين الحكمين، فلا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سـبب تلقيب المسـألة بالمنزلة بين المنزلتين؛ فإن صـاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليسـت منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما"[١]

وقال ابن المرتضى (ت: ٤٨٠ هـ): "أما ما أجمعت عليه المعتزلة فقد أجمعت على المنزلة بين المنزلتين، وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمنا ولا كافرا"[٢]

وقال الإسـفراييني (ت: ٤١٨ هـ): "مما اتفقت عليه المعتزلة من فضـائحهم قولهم: إن حال الفاسـق الملي يكون في منزلة بين المنزلتين؛ لا هو مؤمن، ولا كافر، وإن هو خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون مخلدًا في النار، ولا يجوز لله تعالى أن يغفر له أو يرحمه، أي: إن مرتكب الكبيرة بكونه يشبه المؤمن في عقده، ولا يشبهه في عمله، ويشبه الكافر في عمله، ولا يشـبهه في عقده؛ أصـبح وسـطا بين الاثنين، وتبعا لهذا يكون عذابه أقل من عذاب الكافر"[٣]

شبههم:

١-الشبه السمعية التي استدل بها المعتزلة على خلود مرتكب الكبيرة في النار

الشبهة الأولى:

استدلوا بعموم الآيات الواردة في الوعيد، ومن هذه الآيات التي هي مناط استدلالهم:

١- قول الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا**﴾ [النساء: الآية: ١٤] .

---

(١) شرح الأصول الخمسة (ص: ٦٩٧).

(٢) المنية والأمل (ص: ٦).

(٣) التبصير في الدين (ص: ٤٢).

وجه الدلالة: أن الله تبارك وتعالى أخبر أن العصاة يعذبون بالنار ويخلدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعا، فيجب حمله عليهما؛ لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبينه دل على ما ذكرناه"(١)

٢- قول الله سبحانه: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ٩٣].

وجه الدلالة: أن الله تعالى بين أن من يقتل مؤمنا عمدا جازاه وعاقبه، وغضب عليه ولعنه، وفي ذلك ما يؤكد كونه على سبيل الدوام، كما هو مصرح بذكر الخلود في الآية"(٢)

٣- قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ [الزخرف: الآية: ٧٤].

وجه الدلالة: أن المجرم اسم يتناول الكافر والفاسق جميعا، فيجب أن يكونا مرادين بالآية، معنيين بالنار؛ لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبينه دل على أنه أرادهما جميعا.(٣)

هذه بعض أدلة المعتزلة من القرآن الكريم على قولهم بتخليد مرتكب الكبيرة في النار. وذكر القاضي عبد الجبار طريقة أخرى للاستدلال على هذا المعتقد، فقال: "هنا طريقة أخرى مركبة من السمع، وتحريرها: هو أن العاصي لا يخلو حاله من أحد أمرين: إما أن يعفى عنه، أو لا يعفى عنه؛ فإن لم يعف عنه فقد بقي في النار خالدا، وهو الذي نقوله، وإن عفي عنه فلا يخلو إما أن يدخل الجنة أو لا؛ فإن لم يدخل الجنة لم يصح؛ لأنه لا دار بين الجنة والنار، فإذا لم يكن في النار وجب أن يكون في الجنة لا محالة، وإذا دخل الجنة فلا يخلو إما أن يدخلها مثابا أو متفضلا عليه، ولا يجوز أن يدخل الجنة متفضلا عليه؛ لأن الأمة اتفقت

---

(١) يُنظر: شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار (ص: ٦٦٠).

على أن المكلف إذا دخل الجنة فلا بد أن يكون حاله متميزا عن حال الولدان المخلدين، وعن حال الأطفال والمجانين، ولا يجوز أن يدخل الجنة مثابا؛ لأنه غير مستحق، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيح، والله تعالى لا يفعل القبيح"[(١)]

وغرضه من هذا الكلام هو القول بأن الفاسق لا يجوز على الله تعالى أن يعفو عنه ويدخله الجنة؛ لأن دخوله الجنة لا يكون إلا عن ثواب لا عن تفضل من الله سبحانه؛ فالجنة عوض لازم للإنسان عن أعمال الخير إذا لم يشبها كبائر، والفاسق لا ثواب له، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيح على الله تعالى، والحسن والقبح -كما هو معروف- أحد أصول المعتزلة التي يسيرون عليها في معتقداتهم، وإذا ثبت هذا فلا بد من دخول الفاسق النار خالدا، ولا يجوز على الله تعالى أن يعفو عنه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. [(٢)]

الشبهة الثانية:

ذكر واصِلُ بنُ عطاءٍ (ت: ١٣١ هـ) أنه وجد أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة في القرآن كلها زائلة عن صاحب الكبيرة؛ فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه؛ لأن الحكم يتبع الاسم، كما أن الاسم يتبع الفعل.

وأحكام الكفر المجمع عليها على ضربين:

الأول: حكم أهل الكتاب: قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: الآية: ٢٩]؛ فهذا حكم الله في أهل الكتاب، وهو زائل عن صاحب الكبيرة.

الثاني: حكم الله في مشركي العرب؛ قال تعالى: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ**

(١) شرح الأصول الخمسة (ص: ٦٦٦).

(٢) الروضة الندية شرح الواسطية (ص: ٣٩٢). بتصرف.

حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: الآية: ٤]؛ فهذا حكم الله في مشركي العرب، وفي كل كافر سوى أهل الكتاب، وهو زائل عن صاحب الكبيرة، ثم قد جاء في السنة المجمع عليها أن أهل الكفر لا يتوارثون، ولا يدفنون في مقابر أهل القبلة، وليس يفعل ذلك بصاحب الكبيرة. وحكم الله في المنافق: أنه إن ستر نفاقه وكان ظاهره الإسلام، فهو مسلم، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن ظهر كفره استتيب؛ فإن تاب وإلا قتل، وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة، وحكم الله في المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة؛ قال تعالى: **﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** [البقرة: الآية: ٢٥٧] ، وقال تعالى: **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾** [الأحزاب: الآية: ٤٧] ، وقال تعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** [التوبة: الآية: ٧٢] ، وحكم الله في صاحب الكبيرة أن لعنه وأعد له عذابا أليما؛ قال تعالى: **﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾** [هود: الآية: ١٨] ، وقال تعالى: **﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾** [الانفطار: الآية: ١٤]، وما أشبه ذلك من القرآن؛ فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن؛ لزوال أحكام المؤمن عنه في كتاب الله، ووجب أنه ليس بكافر؛ لزوال أحكام الكفار عنه، ووجب أنه ليس بمنافق؛ لزوال أحكام المنافقين عنه في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجب أنه فاسق فاجر؛ لتسمية الله له بذلك؛ لذا فهو فاسق مخلد في النار؛ لتوعد الله له بذلك، ولكنه في عذاب أخف من عذاب الكافر. [(١)]

وقال واصِلُ بنُ عطاءٍ (ت: ١٣١ هـ) أيضًا: "إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنًا وهو اسم مدح، والفاسق لم يستكمل خصال الخير، ولا استحق اسم المدح؛ فلا يسمى مؤمنًا، وليس هو بكافر أيضًا؛ لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل

---

(١) ينظر: الانتصار للخياط (ص: ١١٨)، شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار (ص: ٧١٣-٧١٤)، (طبقات المعتزلة) لابن المرتضى (ص: ٨).

النار خالدًا فيها؛ إذ ليس في الآخرة إلا فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السـعير، ولكنه تخفف عنه النار"(١)

المناقشة:

يقال لهم: أما قولكم: إنه ليس بكافر، فهذا نوافقكم عليه، وأما قولكم: إنه ليس بمنافق، فكذلك هو ليس بمنافق؛ لأن كبيرته لا توجب استتابته، فإن تاب وإلا قتل، كما يفعل مع المنافق إذا ظهر نفاقه، أما إذا لم يظهر فلم يعلم: هل هو منافق أم لا، فإنه يعامل معاملة المسلمين.

وأما قولكم: إنه ليس بمؤمن، فهذا على إطلاقه لا نوافقكم عليه، بل نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، قد نقص إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية؛ فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته؛ فلا يكون له الاسم مطلقًا، ولا يسلب منه مطلق الإيمان.

ومما يدل على أن الفاسق لم تخرجه كبيرته من الإيمان ما يلي:

الآيات والأحاديث الناطقة بإطلاق لفظ الإيمان على العاصي، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ [البقرة: الآية: ١٧٨] ؛ فقد سمى الله القاتل أخا للمقتول، وهي الأخوة الإيمانية؛ مما يدل على أن كبيرة القتل لم تخرجه من الإيمان، وقبل ذلك فقد خاطبهم جميعا بلفظ الإيمان مع أن فيهم قتلة؛ مما يدل على أن الكبيرة لا تخرج من الإيمان.

وكقوله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات: الآية: ٩]؛ فقد أطلق اسم الإيمان على الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين؛ مما يدل على أن كبيرة القتل لم تخرجهما من الإيمان،

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٨).

وكذلك كبيرة البغي.[١]

ومن الأحاديث الدالة على أن الفاسق معه إيمان: ما رواه أبو ذر-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-؛ حيث قال: (**ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر**).[٢]

ففي هذا الحديث دلالة على أن من قال لا إله إلا الله، وإن ارتكب شيئا من الكبائر؛ فإنه يدخل الجنة؛ مما يدل على أن كبيرته لم تخرجه من الإيمان.

٢- إجماع الأمة من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا على الصلاة على من مات من أهل القبلة من غير توبة، والدعاء والاستغفار لهم، مع العلم بارتكابهم للكبائر، بعد الاتفاق على أن ذلك لا يجوز لغير المؤمن؛[٣] مما يدل على أنهم لم يخرجوا من الإيمان.

٣- قولكم: إن الفاسق قد أخرجه فسقه من الإيمان، ينبني على أن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله؛ لأنهم يقولون: إن من عمل كبيرة لم يبق معه من الإيمان شيء، وهو باطل.

قال ابن تيمية في معرض الرد على من قال بهذا القول: "وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله؛ فهذا ممنوع، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان؛ فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله، ولم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموع ما أمر الله به ورسوله، وهو الإيمان المطلق، كما قاله أهل الحديث، قالوا: فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء، فيخلد في النار. وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم: لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئا من الإيمان؛ إذ لو ذهب شيء منه لم

---

(١) ينظر: الروضة الندية شرح الواسطية للفياض (ص: ٣٩٢) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٢٧) واللفظ له، ومسلم (٩٤).

(٣) شرح العقائد (ص: ١١٩) بتصرف.

يبق منه شيء، فيكون شيئا واحدا يستوي فيه البر والفاجر، ونصوص الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه، كقوله صلى الله عليه وسلم: **(أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان)** [(١)]؛ ولهذا كان أهل السـنة والحديث على أنه يتفاضـــل، وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصـــان منه عن الصحابة، ولم يعرف فيهم مخالف؛ فمن ذلك ما روي من وجوه كثيرة عن حماد بن سلمة، عن أبي جعفر، عن جده عمير بن حبيب الخطمي، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه" [(٢)]...، وأيضا: فإن الزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات، كقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** [الأنفال: الآية: ٢].

وهذه الزيادة وقت تلاوة الآية، وليس هو تصديقهم بها عند النزول، وكقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** [آل عمران: الآية: ١٧٣]؛ فهذه الزيادة عند تخويفهم العدو لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينا وتوكلا على الله، وثباتا على الجهاد" [(٣)]

ومثل هذه الآيات كثير؛ فإذا ثبت أن الإيمان يذهب بعضـــه، ويبقى بعضـــه، وأنه يزيد وينقص، بطل قولهم: إن الفسق يخرج من الإيمان، وعلى ذلك فالفاسق مؤمن ناقص الإيمان، وليس في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان كما تدعون.

ونقول أيضا: ما دام مرتكب الكبيرة معه من الإيمان شيء ولو إيمانا ناقصا، فإنه لا يخلد في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٩٦٣)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٦٢٤)، والخلال في السنة (١٥٨٢) باختلاف يسير. قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٤): روي من وجوه كثيرة، مشهور. وقال السفاريني الحنبلي في (لوائح الأنوار السنية (٢/ ٣٠٧): روي من وجوه كثيرة شهيرة.

(٣) الإيمان لابن تيمية (ص: ١٩٠-١٩٢) بتصرف، وينظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٢٧٦-٢٧٨).

النار، بل يعذب على قدر ذنبه، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: الآية: ٤٨]، ولقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: الآية: ٧]، ولقوله صلى الله عليه وسلم: (**يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**). [(١)]

الشبهة الثالثة:

قال الخياط: "إن **واصِلُ بنُ عطاءٍ (ت: ١٣١ هـ)** لم يحدث قولا لم تكن الأمة تقول به؛ إذ إنه وجد الأمة مجمعة على تسمية أهل الكبائر بالفسق والفجور، مختلفة فيما سوى ذلك من أسمائهم؛ فأخذ بما أجمعوا عليه، وتفسير ذلك: أن الخوارج وأصحاب الحسن كلهم مجمعون والمرجئة على أن صاحب الكبيرة فاسق فاجر، ثم تفردت الخوارج، فقالت: هو مع فسقه وفجوره كافر، وقالت المرجئة هو مع فسقه وفجوره مؤمن، وقال الحسن ومن تابعه: هو مع فسقه وفجوره منافق.

فقال لهم **واصِلُ بنُ عطاءٍ (ت: ١٣١ هـ)**: "قد أجمعتم على أن سميتم صاحب الكبيرة بالفسق والفجور؛ فهو اسم له صحيح بإجماعكم، وقد نطق القرآن به في آية القاذف وغيرها من القرآن؛ فوجب تسميته بذلك، وما تفرد به كل فريق منكم من الأسماء فدعوى لا تقبل منه إلا ببينة من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"[(٢)]

المناقشة:

١- إن مرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الإيمان؛ فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، كما تبين عند الرد على الشبهة الأولى، ثم إن إيمانه متفق عليه بين السلف؛ فإذا قولهم: إن إيمانه مختلف فيه،

(١) أخرجه البخاري (٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) الانتصار للخياط (ص: ١١٨).

باطل.[(١)].

٢- إن في قولهم بالمنزلة بين المنزلتين تركا للمتفق عليه بين السـلف، ومنهم الحسـن؛ لأن النفاق كفر إن أظهره صاحبه، وإن لم يظهره فيعامل معاملة المسلمين، إضافة إلى ذلك فقد نقل عنه الرجوع عن هذا القول إلى المذهب الحق والمتفق عليه، وهو أن المكلف إما مؤمن أو كافر، ولا واسطة بينهما، وأخذ بما لم يقل به أحد فضلا عن الاتفاق؛ فإذا قولهم بالمنزلة بين المنزلتين إحداث للقول المخالف لما أجمع عليه السلف[(٢)]؛ فيكون باطلًا، وبذلك تبطل هذه الشبهة. والله أعلم.

٢-الشبه العقلية التي استدل بها المعتزلة على خلود مرتكب الكبيرة في النار.

من الأدلة العقلية التي استدل بها المعتزلة على خلود مرتكب الكبيرة في النار: ما ذكره القاسم الرسـي أن أحدًا لا يقدر أن يؤدي كل ما اسـتحق الله تبارك وتعالى من عباده؛ من شـكر نعمته وإحسانه بالكمال والتمام، حتى لا يبقى مما يحق لله جل ثناؤه شيئا إلا أداه، هيهات! فكيف وهو يقول تبارك وتعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: الآية: ١٨]؟ فكيف يؤدي شـكر ما لا يحصـى؟! ولم يفترض على خلقه ذلك، ولا سـأل كل ما له عليهم مما يسـتحق لديهم؛ لعلمه بضـعفهم، وأن في بعض ذلك استفراغ جهدهم، وما تعجز عنه أنفسهم، وأنهم لا يقدرون على ذلك، ويقصرون عن بلوغ ذلك، وغفر لهم صـغير ذنوبهم كله إذا اجتنبوا كبيرة؛ رحمة بهم ونظرا لهم، فأما من رجا الرحمة وهو مقيم على الكبيرة فقد وضع الرجاء في غير موضعه، واغتر بربه، واستهزأ بنفسه، وخدعه وغره من لا دين له، إلا أن يتوب فيغفر له بالتوبة، فأما الإقامة على الكبائر فلا.

---

(١) ينظر: المواقف في علم الكلام للإيجي (٨/ ٣٣٩) بتصرف.

(٢) ينظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ٣٣٤).

وذلك أن للجنة والنار طريقين؛ فطريق الجنة طاعته المجردة عن الكبائر من معاصي الله، وطريق النار معصية الله، وإن لم تكن مجردة من بعض طاعات الله؛ لأننا قد نجد العبد يؤمن بكتاب الله كله، ويكفر ببعضه؛ فلا يكون مؤمنا، ولا بما آمن به من النار ناجيا، يصدق ذلك قول الله عز وجل: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: الآية: ٨٥] ، فلم يسموا بما آمنوا به مؤمنين، بل سموا بما كفروا به منه -لا كله- كافرين، وعلى هذه الطريق فيمن لم يكفر من الفاسقين أهل الكبائر العاصين؛ فمن كان على المعصية الكبيرة مقيما فهو على طريق النار، فكيف يرجو البلوغ إلى الجنة وهو يسلك ذلك الطريق؛ كرجل توجه إلى طريق خراسان، فسلكه وهو يقول: أنا أرجو أن أبلغ الشام! فهذا من وضع الرجاء في غير موضعه.[(١)]

وملخص الدليل العقلي السابق أن الله تبارك وتعالى له نعم على عباده لا تحصى، ومهما عمل الإنسان لا يستطيع الوفاء بشكرها؛ إذ إن ذلك يتطلب منه استيفاء كل حق لله عليه، وقد علم الله من عباده عجزهم وضعفهم عن الوفاء بجميع ذلك؛ لذلك اكتفى منهم بالقليل بعد أن أعطاهم الكثير، بل وعفا عن صغائر ذنوبهم، وهذه منة عظيمة أخرى منه تبارك وتعالى؛ فعلى الإنسان إذا الإتيان بهذا القليل الذي كلف به دون تفريط، وإذا قصر فيه بارتكاب الكبائر فعلا لمحرم، أو تركا لواجب؛ فهو من أهل النار لا محالة؛ لأن الله تجاوز له عن الكثير لم يكلفه به، فإذا قصر في ذلك القليل المطلوب منه فهو ممن سلك طريق النار، والطريق إلى الشيء المعين توصل إليه لا إلى ما يوجد في جهة معاكسة، وطريق النار المعصية، وهذه لا يمكن أن يصل عن طريقها إلى الجنة، كما أن طريق الجنة الطاعة، وهذه أيضا لا يمكن أن توصل بصاحبها إلى النار، وضرب مثلا بسالك طريق خراسان، وهو يقصد الوصول إلى الشام.

---

(١) ينظر: رسائل العدل والتوحيد لمجموعة مؤلفين (١/ ١٢٣).

فهذا دليل عقلي على أن الفاسق مصيره إلى النار، وأنه يفعل به ما يستحقه، وهناك دليل عقلي آخر ذكره القاضي عبد الجبار، وهذا الدليل هو أن الله أمر ونهى، أي: كلف الإنسان، ووعده وتوعده، وكل خلف بالوعد أو الوعيد نوع من الكذب لا يجوز على الله، ولو ثبت أنه يخلف وعيده ولا يعاقب الفاسقين لكان في ذلك إغراء له على فعل القبيح؛ إذ إن للمكلف أن يعصي ويتجاوز حدود الله وهو مطمئن إلى أنه سيغفر له.[(١)] [(٢)]

المناقشة:

نقول لهم:

أولا: إن قولكم – مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين يتضمن نفي الإيمان بالكلية عن مرتكب الكبيرة. وهذا باطل. بل هو مؤمن ناقص الإيمان قد نقص إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته. فلا يكون له الاسم مطلقا، ولا يسلب منه مطلق الإيمان. ومما يدل على أن الفاسق لم تخرجه كبيرته من الإيمان ما يلي:

١-الآيات والأحاديث الناطقة بإطلاق لفظ الإيمان على العاصي كقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات: الآية: ٩].

فقد أطلق اسم الإيمان على الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين؛ مما يدل على أن كبيرة القتل لم تخرجهما من الإيمان، وكذلك كبيرة البغي"[(٣)]

ومن الأحاديث قوله–صلى الله عليه وسلم–في الحديث الذي أخرجه مسلم من رواية **أبي ذر–رضي الله عنه–(ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)** أنه – صلى الله عليه وسلم – قال: **(ما من عبد**

(١) ينظر: شرح الأصول الخمسة (ص: ٦٥٠).

(٢) المصدر: الموسوعة العقدية.

(٣) الروضة الندية شرح الواسطية (ص: ٣٩٢). (بتصرف).

قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة)، قلت: وإن زنى وإن سرق؟، فقال-صلى الله عليه وسلم-: (**وإن زنى وإن سرق**). [(١)].

ففي هذا الحديث دلالة على أن من قال لا إله إلا الله وإن ارتكب شيئًا من الكبائر فإنه يدخل الجنة، مما يدل على أن كبيرته لم تخرجه من الإيمان.

٢-إجماع الأمة من عصر الرسول-صلى الله عليه وسلم-إلى يومنا هذا على الصلاة على من مات من أهل القبلة من غير توبة، والدعاء والاستغفار لهم مع العلم بارتكابهم للكبائر بعد الاتفاق على أن ذلك لا يجوز لغير المؤمن"[(٢)]؛ مما يدل على أنهم لم يخرجوا من الإيمان.

ثانيا: أن في قولكم-بالمنزلة بين المنزلتين-إحداث للقول المخالف لما أجمع عليه السلف من عدم المنزلة بين المنزلتين، فيكون باطلا"[(٣)]. والله أعلم.

القول الثالث: رأي المرجئة في حكم مرتكب الكبيرة.

اختلف المرجئة في حكم مرتكب الكبيرة، فمنهم من وافق أهل السنة كمرجئة الفقهاء حيث كان إرجاؤهم في تأخير العمل عن الإيمان فقط. يقول ابن تيمية – وهو يتكلم عن العمل هل هو داخل في الإيمان أم لا؟ –: ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان وهو أول من قال ذلك، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم، متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد، وإن قالوا إن إيمانهم كامل كإيمان جبريل، فهم يقولون: إن الإيمان بدون العمل المفروض، ومع فعل المحرمات، يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب كما تقول الجماعة، ويقولون أيضا بأن من أهل الكبائر من يدخل

(١) رواه البخاري (٦٠٧٨)، ومسلم (٩٤).
(٢) شرح العقائد المنفية (ص: ١١٨).
(٣) شرح العقائد المنفية (ص: ١١٨).

النار كما تقوله الجماعة"[١].

ومنهم من خالف أهل السنة، كالمرجئة الغلاة حيث قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة. فمن قال لا إله إلا الله محمد رســـول الله، وحرم ما حرم الله، وأحل ما أحل الله دخل الجنة ابتداء ولو مات من غير توبة، وإن زنى وسرق وقتل وشرب الخمر وقذف المحصـــنات وترك الصـــلاة. إذا كان مقرا بها لا يضـــر وقوعه في الكبائر وركوبه الفواحش وتركه الفرائض، وإن فعل ذلك مستحلا كان كافرا بالله وخرج من إيمانه فصار من أهل النار"[٢].

قال الإمام أبو حنيفة–رحمه الله–(ت: ١٥٠ هـ): "ولا نقول إن المؤمن لا تضره الذنوب ولا نقول إنه لا يدخل النار. كما قالت المرجئة"[٣].

وقال الماتريدي–رحمه الله–(ت: ٣٣٣ هـ): "قالت المرجئة لا يضـر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة"[٤].

ويقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)–وهو يتكلم عن أصـــحاب الذنوب–: ". . . ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليـدهم في النـار..، وقول غلاة المرجئـة الـذين يقولون: مـا نعلم أحـدا منهم يـدخـل النـار، بـل نقف في هـذا كلـه. وحكي عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفي . . . "[٥].

وهذا مبني على أصلهم الفاسد، وهو أنه لا يتصور أن الشخص يدخل الجنة والنار معا، بل إذا دخل أحدهما فلا يدخل الأخرى، وبناء على هذا قالوا: "إن أهل الذنوب يدخلون الجنة

(١) الفتاوى (١/ ٢٩٧).
(٢) انظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطي (ص: ٤٣).
(٣) شرح الفقه الأكبر للماتريدي (ص: ١٤١) (المتن).
(٤) شرح الفقه الأكبر للماتريدي (ص: ٦).
(٥) الفتاوى (٧/ ٢٩٧). وانظر (٧/ ٥٠١).

ولا يدخلون النار أبدا"[١].

شبهاتهم والجواب عليها.

لقد تمسك المرجئة في قولهم بهذه البدعة بشبهات منها: ما ورد في الكتاب والسنة من نصوص فيها الوعد لعباده المؤمنين، وإليك البعض منها مع الجواب.

الشبهة الأولى:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: الآية: ٤٨].

وجه الاستدلال: قالوا: إن الآية تدل على أن الشرك وحده لا يغفر وما دون ذلك فهو مغفور، ومرتكب الكبيرة ليس بمشرك فهو مغفور له"[٢].

الجواب: يقال لهم: استدلالكم باطل لما يلي:

(أ) أن المغفرة معلقة بالمشيئة ففيها دليل على التقسيم"[٣]، وهو أن من العصاة من يعذب، ومنهم من لا يعذب، وعليه فالآية حجة عليكم لا لكم.

(ب) لو كانت المغفرة لكل أحد -كما تزعمون- لبطل قوله تعالى: ﴿**لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: الآية: ٤٨]، فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك، وأن المغفرة هي لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة لما دون الشرك لكنها لبعض الناس.[٤]، وبذلك يتضح بطلان استدلالكم بالآية على ما تزعمونه، والله أعلم.

الشبهة الثانية:

قوله تعالى: ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ**

---

(١) الإيمان لابن تيمية (ص: ٣٣٧-٣٣٨). الفصل (٣/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٢) انظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (ص: ٤٣).

(٣) انظر: قواعد العقائد للغزالي (ص: ٢٥٥).

(٤) الفتاوى (١٦/ ١٩).

الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: الآية: ٥٣].

وجه الاستدلال: أن الله تعالى حكم بغفران الذنوب جميعا، ولم يشترط التوبة، وذلك يدل على أنه تعالى يغفر الذنوب قبل التوبة وبعدها. (١)، وإذا غفرت ذنوب مرتكب الكبيرة لم يدخل النار.

الجواب: نقول لهم المراد بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا مع التوبة.

وحمل الآية على هذا المعنى أولى لوجهين. الأول: أنا إذا حملناها على هذا الوجه فقد حملناها على جميع الذنوب-على ما هو ظاهر الآية-وإن حملناها على ما ذكرتم، لم يمكن حمله على ظاهر الآية؛ لأنه تعالى لا يغفر جميع الذنوب من غير توبة؛ إذ الكفر ذنب والله لا يغفره إلا مع التوبة.

الثاني: أنه تعالى ذكر عقيب هذه الآية قوله تعالى: **﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾** [الزمر: الآية: ٥٤]، والإنابة هي التوبة. (٢).

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه الآية في حق التائبين". . . ثم قال: "الآية فيها نهي عن القنوط من رحمة الله، وإن عظمت الذنوب فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله".. "ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، والقنوط: يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له؛ إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنبه، وإما أن يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة".. "فهو ييأس من توبة نفسه"(٣).. وإذا كانت الآية في حق التائب لم يبق فيها دلالة على ما تزعمه المرجئة، والله أعلم.

الشبهة الثالثة:

قوله تعالى: **﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾** [الليل: الآية: ١٥]، **﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾**

(١) الأربعين للرازي (ص: ٢٠٩).

(٢) انظر: الأربعين للرازي (ص: ٢٣٦).

(٣) الفتاوى (١٦/ ١٨-٢٠).

[الليل: الآية: ١٦].

وجه الاستدلال: قالوا: قد أخبرنا الله-عز وجل-في هذه الآية-أن النار لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى، فصح أن من لم يكذب ولا تولى لا يصلاها، قالوا: ووجدنا أن مرتكبي الكبائر-مما دون الشرك-كلهم لم يكذبوا ولا تولوا، بل هم مصدقون معترفون بالإيمان، فصح أنهم لا يصلونها، وأن المراد بالوعيد المذكور في هذه الآية وأمثالها إنما هو فعل تلك الأفاعيل من الكفار خاصة"[١].

الجواب: من وجوه منها.

الأول: قيل إن المراد بهذه النار: نار مخصوصة-كما قاله الزجاج-وعدم دخوله هذه النار لا يمنع من دخوله غيرها.

وقيل: لا يصلاها صلي خلود، وهذا أقرب، وعليه فمن دخل النار وخرج منها فإنه نوع من الصلي، لكنه ليس الصلي المطلق وهو صلي الخلود، لا سيما إذا كان قد لبث فيها والنار لم تأكله؛ فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود"[٢]

الثاني: على التسليم بأن الآية تدل على أن الكفار هم المخصوصون بالعذاب، فإن هذا لا يمنع ما يحصل لبعض المؤمنين من تمحيص في النار بسبب ذنوبهم - كما دلت عليه بعض النصوص، من مثل قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية: ١٤١].

وكما ورد في الحديث الصحيح: أن فيه من يدخل النار بذنوبه ثم يخرج منها وعليه فإنه لا دلالة في الآية على ما تزعمه المرجئة، والله أعلم.

الشبهة الرابعة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية: ٥٦].

---

[١] الفصل لابن حزم (٣/ ٢٣٠).

[٢] الفتاوى (١٦/ ١٩٧). وانظر: الفصل (٤/ ٥٠).

وجه الاستدلال: قالوا الآية تدل على أن كل محسن رحمة الله قريبة منه، ومرتكب الكبيرة قد قال لا إله إلا الله فهو محســـن، وإذا كان محســـنا فرحمة الله قريبة منه، ومن رحمه الله فلا يعذب"[١]

الجواب: نقول استدلالكم باطل لما يلي:

(أ) أن الآية تدل على أن رحمة الله قريب من عباده المحسنين، لكنها لا تفسر بمنع العذاب في النار لمن أخطأ منهم؛ لأن عذاب الله للمخطئ عدل، والعدل لا يضاد الرحمة.

(ب) أنه لولا رحمة الله لهؤلاء المخطئين لطال عذابهم، ولكن رحمته كانت الســـبب في التجاوز عن كثير من خطاياهم وإدخالهم الجنة؛ لما روى أنس عن النبي–صلى الله عليه وسلم– قال: (**ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم الجهنميون**).[٢]. وبذلك اتضح أن الله عذب الفساق بعدله، وتجاوز عن كثير من خطاياهم برحمته. ولم يســـتلزم العدل انتفاء الرحمة، ولا الرحمة انتفاء العذاب بعدله سبحانه.

(ج) على التسـليم بما تزعمونه فإن رحمة الله مقيدة بالمشـيئة؛ لما روى أبو هريرة–رضـي الله عنه–أن النبي– صـلى الله عليه وسـلم–قال: (**تحاجت الجنة والنار . . . إلى أن قال: فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشـــاء**). الحديث.[٣].[٤]، وإذا كانت الرحمة مقيدة بالمشيئة لم يبق في الآية دلالة على ما تزعمونه، والله أعلم.

الشبهة الخامسة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى**﴾ [طه: الآية: ٤٨].

---

(١) انظر: الفصل (٤/ ٤٧).

(٢) صحيح البخاري التوحيد (٧٠١٢)، مسند أحمد بن حنبل (٣/ ١٤٧).

(٣) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٧).

(٤) انظر: جامع الأصول (١٠/ ٨١٠٩).

وجه الاستدلال: قالوا: هذه الآية صريحة في أن ماهية العذاب مختصة بمن كذب بالله تعالى وكان موليا عن دينه. ومن لم يكن مكذبا بالله تعالى ولا متوليا عن دينه لم يكن للعذاب به تعلق"[(١)]. ومرتكب الكبيرة ليس مكذبًا ولا متوليًا عن دين الله؛ إذا ليس للعذاب به تعلق.

الجواب: نقول: الآية تؤكد بأن الكافر المكذب المتولي هو المخصص بالعذاب الأبدي، وهذا لا يمنع من حصول بعض العذاب لمن ارتكب كبيرة أو ذنبا"[(٢)]، ثم إن عذاب الله لمرتكب الكبيرة إنما هو تطهير ولبعض مرتكبي الكبائر حسب إرادة الله ومشيئته.

وعليه فكلمة العذاب بمعناها الحقيقي لا تشمل ما يحصل لبعض مرتكبي الكبائر من تطهير، وإذا لم تشمله لم يبق في هذه الآية دلالة على عدم دخول مرتكبي الكبائر في النار، والله أعلم.

الشبهة السادسة:

استدلوا بعموم النصوص التي فيها الوعد لمن ارتكب الكبيرة بأن لا يخلد في النار، كقوله تعالى: ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ**﴾ [سبأ: الآية: ١٧].

وجه الاستدلال: أن لفظ الكفور للمبالغة، فوجب أن يختص هذا الحكم بالكافر الأصلي"[(٣)]، وكقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [النحل: الآية: ٢٧].

وجه الاستدلال: قالوا: إن هذه الآية دلت على اختصاص الخزي بالكافرين، ثم إن كل من دخل النار فقد حصل له الخزي لقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ**﴾ [آل عمران: الآية: ١٩٢]، فلما لم يحصل الخزي إلا للكفار وجب ألا يحصل دخول النار إلا

---

(١) الأربعين للرازي (ص: ٢٠٨).

(٢) انظر: فتح القدير (٣/ ٣٦٨)، والتفسير الكبير (٢٢/ ٦٢). وتفسير القرطبي (١١/ ٢٠٤).

(٣) الأربعين للرازي (ص: ٢٠٩).

لهم"[١]. وغيرهما من نصوص الوعيد.

الجواب: يقال لهم: أولًا: هذه الآيات إنما تدل على أن الكافر هو المخصـــص بالعذاب الأبدي.

يقول القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ): "إن الكافر يجازى بكل سوء عمله، أما المؤمن فإنه يجزى ولا يجازى؛ لأنه يثاب. فقوله: ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ [ســـبأ: الآية: ١٧]، أي نكافئ السيئة بمثلها. وقال طاوس: هو المناقشة في الحساب أما الموحد فلا يناقش الحساب"[٢]

وعن قتادة–رحمه الله–(ت: ١١٨ هـ) عن أنس–رضـــي الله عنه–(ت: ٩٣ هـ): في قوله: **﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾** [آل عمران: الآية: ١٩٢].

قال: من تخلد.

وعن ابن جريج قال: "هو من يخلد فيها"[٣].

وإذا كانت هذه الآيات إنما تدل على اختصـــاص الكافر بالعذاب الأبدي فإنها لا تعتبر حجة في انتفاء العذاب عمن ارتكب كبيرة من الكبائر مما دون الشرك.

ثانيا: لو سلمنا بقولكم واستدلالكم بهذه الآيات وأمثالها، فما ترون أن نصنع بالآيات التي استدل بها الوعيدية على عذاب الله للعصاة (نصوص الوعيد)!

مثل قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾** [الأنفال: الآية: ١٥]، **﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** [الأنفال: الآية: ١٦]. وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾** [النســـاء: الآيـة: ٢٩]. إلى قوله: **﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾**

---

(١) الأربعين للرازي (ص: ٢٠٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٨٩).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٤٧٧-٤٧٨).

[النساء: الآية: ٣٠].

ماذا نصنع بهذه الآيات؟ هل نضرب عنها صفحا؟، هذا لا يمكن؛ لأنه إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه، هل نخصصها بأدلتكم؟، فإن قالوا: نعم، قلنا: ولماذا لا تخصصون أنتم؟ وذلك بالموازنة؛ ليتم الإيمان بالجميع"[١].

الشبهة السابعة:

حديث معاذ-رضي الله عنه-(ت: ١٧ أو ١٨ هـ) قال: كنت رديف رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فقال: **(هل تدري ما حق الله على العباد؟)**، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **(حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.. ثم قال: (هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟)**، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **(حق العباد على الله أن لا يعذبهم)**.
[٢] [٣].

وجه الاستدلال: الحديث يدل على أن الله وعد من عبده ولم يشرك به شيئا بعدم العذاب، ومرتكب الكبيرة قد عبد الله ولم يشرك به شيئا إذا سيشمله الوعد بعدم العذاب.

الجواب: من وجوه منها:

(أ) أن المراد بالعبادة فعل الطاعات واجتناب المعاصي.[٤] والموحد الفاعل للطاعات المجتنب للمعاصي لا يعتبر من أهل الكبائر، وعليه فلا دلالة في الحديث.

(ب) المراد بقوله: أن لا يعذبهم قيل: المراد ترك دخول نار الشرك، وقيل: ترك تعذيب جميع بدن الموحدين، لأن النار لا تحرق مواضع السجود. وقيل: ليس ذلك لكل من وحد وعبد، بل يختص بمن أخلص، والإخلاص يقتضي تحقيق القلب بمعناه، ولا يتصور حصول التحقيق

---

[١] انظر: قواعد العقائد (ص: ٢٥٥).

[٢] صحيح البخاري اللباس (٥٦٢٢)، صحيح مسلم الإيمان (٣٠)، سنن الترمذي الإيمان (٢٦٤٣)، سنن ابن ماجه الزهد (٤٢٩٦)، مسند أحمد بن حنبل (٥/ ٢٣٨).

[٣] انظر: حجج القرآن (ص: ٤٢-٤٣).

[٤] انظر: فتح الباري (١١/ ٣٣٩).

مع الإصرار على المعصية؛ لامتلاء القلب بمحبة الله تعالى وخشيته فتنبعث الجوارح إلى الطاعة وتنكف عن المعصية"[١]. وعلى ذلك فإنه لا دلالة في الحديث.

(ج) على التســـليم بما تزعمونه، فإن تطهير أهل الكبائر من خطاياهم لا يعتبر عذابا على حقيقته، ولذا فإنه لا منافاة بين تطهيرهم من الخطايا وبين قوله: أن لا يعذبهم، وبذلك يتضح خطأ استدلالكم بالحديث على عدم دخول أهل الكبائر النار، والله أعلم.

الشبهة الثامنة:

ما روي عن جابر بن عبد الله – رضـــي الله عنه – أنه قال: مســـند أحمد بن حنبل (٣/ ٣٩٢). أتى النبي – صـلى الله عليه وسـلم – رجل فقال: يا رسـول الله، ما الموجبتان؟، قال: **(من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار)**. [٢].

وجه الاســتدلال: في الحديث وعد لمن مات لا يشــرك بالله شــيئا بدخول الجنة، ومرتكب الكبيرة لا يشرك بالله شيئًا، فلو مات على ذلك فإن الوعد سيشمله بدخول الجنة.

الجواب: يقال لهم: المراد بقوله: دخل الجنة أن مصيره الجنة، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصــرا عليها دخل الجنة أولا، وإن كان صـــاحب كبيرة مات مصـــرا عليها فهو تحت المشــيئة، فإن عفي عنه دخل الجنة أولا، وإلا عذب ثم أخرج من النار وأدخل الجنة"[٣]. والله أعلم.

ما روي عن **أبي ذر–رضــي الله عنه–(ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)**، قال: أتيت النبي–صــلى الله عليه وســلم–وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيته وقد اســتيقظ فقال: **(ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة)**، قلت: وإن زنى وإن ســرق؟، قال: **(وإن زنى وإن ســرق)**، قلت: وإن زنى وإن ســرق؟ قال: **(وإن زنى وإن ســرق)**، قلت: وإن زنى وإن

---

(١) انظر فتح الباري (١١/ ٣٤٠).

(٢) انظر: حجج القرآن (ص: ٤٣).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ٢١٩)، (٢/ ٩٧).

سرق؟، قال: **(وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر)**. [١]. [٢].

وجه الاستدلال: في الحديث وعد لمن قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك بدخول الجنة. وإن ارتكب بعض الكبائر كالزنا والسرقة. إذا مرتكب الكبيرة الذي قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك يشمله هذا الوعد بدخول الجنة.

الجواب – قال الإمام البخاري – بعد روايته هذا الحديث: هذا عند الموت أو قبله إذا تاب وندم وقال لا إله إلا الله غفر له"[٣]

وقيل: إن الحديث محمول على من وحد ربه ومات على ذلك تائبا من الذنوب التي أشير إليها في الحديث، فإنه موعود بهذا الحديث بدخول الجنة ابتداء. وأما من تلبس بالذنوب المذكورة أو غيرها مما دون الشرك ومات من غير توبة فهو تحت المشيئة، إن شاء الله عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه على قدر ذنبه ثم أخرجه من النار وأدخله الجنة. ويدل على ذلك حديث عبادة بن الصامت في كتاب الإيمان، فإن فيه: **(ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله تعالى، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)**. [٤]. إذا المراد بالحديث: من قال لا إله إلا الله تائبا نادما على ما حصل منه من الذنوب ثم مات على ذلك فإنه يدخل الجنة؛ لأن التوبة تجب ما قبلها. أو المراد: أن مصيره الجنة ابتداء إن قالها تائبا ومات على ذلك أو النار ثم الجنة؛ إذ أنه لا يخلد في النار"[٥]. وبذلك يتضح خطأ استدلالهم بالحديث، والله أعلم.

(ج): في ذكر بعض اللوازم التي تؤكد بطلان هذه البدعة (بدعة المرجئة في مرتكب

---

(١) صحيح البخاري اللباس (٥٤٨٩)، صحيح مسلم الإيمان (٩٤)، سنن الترمذي الإيمان (٢٦٤٤)، مسند أحمد بن حنبل (٥/ ١٥٢).

(٢) انظر: حجج القرآن (ص: ٤٣)، والفصل (٤/ ٤٧).

(٣) انظر: البخاري (بشرح ابن حجر) (١٠/ ٢٨٣).

(٤) راوه البخاري (١٨)، ومسلم الحدود (١٧٠٩).

(٥) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٨٣). وشرح مسلم (للنووي) (١/ ٢١٩)، (٢/ ٩٧).

الكبيرة).

بعد عرض أمثلة من شـبهاتهم والجواب عنها، نشـير إلى بعض اللوازم التي تؤكد بطلان هذه البدعة، فنقول وبالله التوفيق.

إن قول المرجئة: مرتكب الكبيرة لا يدخل النار–قول باطل لما تظافر من الأدلة التي تؤكد بطلانه ولما يستلزمه من اللوازم الباطلة والتي منها:

أولًا: إنكار عدل الله؛ لأنهم جعلوا الظالمين والمجرمين المنتهكين للحرمات سـواء مع البررة الأتقياء الذين التزموا شـرع الله وأقروا عدله في الأرض. فخالفوا بذلك النصـوص الصـريحة من كتاب الله، والتي تؤكد بأن الله تعالى لم يجعل الفساق كالمؤمنين. حيث يقول سبحانه:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: الآية: ٢١]، ويقول سـبحانه: **﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** [ص: الآية: ٢٨].

بل إن الله لم يسو بين الطائفتين من المؤمنين حيث فضل بعضهم على بعض بحسب الإيمان والعمل الذي قدموه، حيث يقول سـبحانه: **﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾** [الحديد: الآية: ١٠].

ويقول–سـبحانه–: **﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾** [النساء: الآية: ٩٥].

فإذا كان سـبحانه لم يسـو بين المؤمنين، بل فضـل بعضـهم على بعض بحسـب العمل الذي قدموه فكيف يسوي بين المؤمنين والفساق"[١].

---

(١) انظر: الشريعة للآجري (ص: ١٤٧).

وقد ناقشهم **الملطي**-رحمه الله-(ت: ٣٧٧ هـ)، وألزمهم الحجة حيث قال:

أخبرونا عن قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [الجاثية: الآية: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [العنكبوت: الآية: ٤]. أهذا شيء قاله على حقيقة القول أم على المجاز؟ فإن قالوا: على المجاز، جعلوا إخبار الله عن وعده على المجاز وهذا كفر ممن قاله؛ لأن أحدا لا يتيقن حينئذ بخبره إذا لم يكن له حقيقة وصحة، وإن قالوا على الحقيقة، قيل لهم: أخبر الله عز وجل أنه لا يستوي عنده الولي والعدو. ويقال لهم: أخبرونا عمن زنى وأتى شيئا من الكبائر، أترون عليه توبة أم لا؟ فإن قالوا: لا، بان جهلهم، وإن قالوا: نعم، قيل لهم: لأي شيء يتوب؟ فإن قالوا: يقبل الله توبته ويغفر ذنبه، تركوا قولهم وجعلوا لأهل المعاصي توبة وغفرانا مما اجترموا، وإن قالوا: لا يحتاجون إلى غفران ولا توبة عليهم: خرجوا من دين الإسلام وخالفوا الجماعة"[(١)].

ثانيا: كما يلزم من قولهم فتح الباب للمجرمين والفساق للتمادي في فسقهم وضلالهم؛ لأن المجرم أو الفاسق إذا علم بأن جريمته أو فسقه لن يضره فلن يتركه.

ثالثا: كما يلزم أيضا بطلان التكليف بالفروع جملة، وضياع آيات الوعيد هباء، وصيرورتها كذبا وخداعا، تعالى الله عن ذلك"[(٢)]

ولا شك أن هذا كله باطل. وإذا كان كذلك فما يستلزمه مثله. وعليه فالقول بأن مرتكب الكبيرة لا يدخل النار مطلقا باطل. والله أعلم. [(٣)]

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطي (ص: ٤٥).

(٢) انظر: المختار من كنوز السنة لعبد الله دراز (ص: ٦٢-٦٣).

(٣) المصدر: وسطية أهل السنة في حكم مرتكب الكبيرة بين الخوارج والمرجئة.

الصلاة خلف المبتدع

[٣٤]- قال المصنف رحمه الله: ولا أحبُّ الصلاة خلف أهل البدع، ولا الصلاة على من مات منهم.

الشرح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد وكان متهماً بالإلحاد وداعياً إلى الضلال.[١]

وسار التابعون ومن تبعهم بإحسان من أئمة السلف على هذا، فقرروه قولاً وفعلاً، فمن ذلك:

ما جاء عن الأعمش رحمه الله أنه قال: "كان كبار أصحاب عبد الله -يعني ابن مسعود- يصلون الجمعة مع المختار ويحتسبون بها"[٢]

وقد كان أبو وائل -رحمه الله- يصلي الجمعة مع المختار بن أبي عبيد[٣].

وعن الحسن -رحمه الله- أنه سئل عن الصلاة خلف صاحب البدعة، فقال الحسن: "صل خلفه، وعليه بدعته"[٤]

وعن الحكم بن عطية -رحمه الله- أنه قال: سألت الحسن وقلت: رجل من الخوارج يؤمنا، أنصلي خلفه؟ قال: "نعم، قد أم الناس من هو شر منه"[٥]

وعن ابن وضاح -رحمه الله-: قال: سألت الحارث بن مسكين: هل ندع الصلاة خلف أهل

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨١).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في (المصنف (١/ ٤٧٥) برقم (٥٤٩٧)، وابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: ٢٨٤) برقم: (٢١٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف) (١/ ٤٧٥) برقم: (٥٤٩٧)، وَعَبد الرزاق في المصنف (٢/ ٣٨٦) برقم: (٣٧٩٨).

(٤) صحيح البخاري كتاب الأذان (٥٦) وقال: باب إمامة المفتون والمبتدع. وَعَلَّقَ قَوْلَ الحسن: (صلِّ وعليه بدْعَتُهُ).

(٥) رواه ابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: ٢٨٤) برقم: (٢١١).

البدع؟ فقال: "أما الجمعة خاصة فلا، وأما غيرها من الصلاة فنعم"[١]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "وأما الصلاة خلف أهل الأهواء والبدع، وخلف أهل الفجور، ففيه نزاع مشهور وتفصيل ليس هذا موضع بسطه.

ولكن أوسط الأقوال في هؤلاء أن تقديم الواحد من هؤلاء في الإمامة، لا يجوز مع القدرة على غيره، فإن من كان مظهرًا للفجور أو البدع يجب الإنكار عليه ونهيه عن ذلك، وأقل مراتب الإنكار هجره لينتهي عن فجوره وبدعته، ولهذا فرق جمهور الأئمة بين الداعية وغير الداعية، فإن الداعية أظهر المنكر فاستحق الإنكار عليه، بخلاف الساكت فإنه بمنزلة من أسر بالذنب، فهذا لا ينكر عليه في الظاهر، فإن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا أعلن فلم تنكر ضرت العامة، ولهذا كان المنافقون تقبل منهم علانيتهم، وتوكل سرائرهم إلى الله تعالى بخلاف من أظهر الكفر"[٢]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "وَلَوْ عَلِمَ الْمَأْمُومُ أَنَّ الإِمَامَ مُبْتَدِعٌ يَدْعُو إلَى بِدْعَتِهِ، أَوْ فَاسِقٌ ظَاهِرُ الْفِسْقِ، وَهُوَ الإِمَامُ الرَّاتِبُ الَّذِي لا تُمْكِنُ الصَّلاةُ إلا خَلْفَهُ، كَإِمَامِ الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ، وَالإِمَامِ فِي صَلاةِ الْحَجِّ بِعَرَفَةَ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَأْمُومَ يُصَلِّي خَلْفَهُ عِنْدَ عَامَّةِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَحْمَد وَالشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمْ.

وَلِهَذَا قَالُوا فِي الْعَقَائِدِ: إنَّهُ يُصَلِّي الْجُمُعَةَ وَالْعِيدَ خَلْفَ كُلِّ إمَامٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا.

وَكَذَلِكَ إذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَرْيَةِ إلا إمَامٌ وَاحِدٌ، فَإِنَّهَا تُصَلَّى خَلْفَهُ الْجَمَاعَاتُ؛ فَإِنَّ الصَّلاةَ فِي جَمَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ، وَإِنْ كَانَ الإِمَامُ فَاسِقًا. هَذَا مَذْهَبُ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ: أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمَا، بَلْ الْجَمَاعَةُ وَاجِبَةٌ عَلَى الأَعْيَانِ فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِ أَحْمَد.

وَمَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ خَلْفَ الإِمَامِ الْفَاجِرِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ..

---

(١) رواه ابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: ٢٨٤) برقم: (٢١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٢)

وَالصَّــحِيحُ أَنَّهُ يُصَــلِّيهَا وَلا يُعِيدُهَا؛ فَإِنَّ الصَّــحَابَةَ كَانُوا يُصَــلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ خَلْفَ الأَئِمَّةِ الْفُجَّارِ وَلا يُعِيدُونَ، كَمَا كَانَ ابْنُ عُمَرَ يُصَــلِّي خَلْفَ الْحَجَّاجِ، وَابْنُ مَسْــعُودٍ وَغَيْرُهُ يُصَلُّونَ خَلْفَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ وَكَانَ يَشْـرَبُ الْخَمْرَ؛ حَتَّى إنَّهُ صَلَّى بِهِمْ مَرَّةً الصُّبْحَ أَرْبَعًا، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْــعُودٍ: مَا زِلْنَا مَعَك مُنْذُ الْيَوْمَ فِي زِيَادَةٍ !! وَلِهَذَا رَفَعُوهُ إلَى عُثْمَان...

وَالْفَاسِقُ وَالْمُبْتَدِعُ صَلاتُهُ فِي نَفْسِهِ صَحِيحَةٌ؛ فَإِذَا صَلَّى الْمَأْمُومُ خَلْفَهُ لَمْ تَبْطُلْ صَلاتُهُ، لَكِنْ إنَّمَا كَرِهَ مَنْ كَرِهَ الصَّــلاةَ خَلْفَهُ لأَنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ، وَمِنْ ذَلِكَ [يعني: ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ بِدْعَةً أَوْ فُجُورًا لا يُرَتَّبُ إمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ التَّعْزِيرَ حَتَّى يَتُوبَ فَإِذَا أَمْكَنَ هَجْرُهُ حَتَّى يَتُوبَ كَانَ حَسَنًا وَإِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ إذَا تَرَكَ الصَّلاةَ خَلْفَهُ وَصَلَّى خَلْفَ غَيْرِهِ أَثَّرَ ذَلِكَ حَتَّى يَتُوبَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يَنْتَهِيَ النَّاسُ عَنْ مِثْلِ ذَنْبِهِ. فَمِثْلُ هَذَا إذَا تَرَكَ الصَّــلاةَ خَلْفَهُ كَانَ فِيهِ مَصْــلَحَةٌ وَلَمْ يَفُتْ الْمَأْمُومَ جُمُعَةٌ وَلا جَمَاعَةٌ. وَأَمَّا إذَا كَانَ تَرَكَ الصَّــلاةَ يَفُوتُ الْمَأْمُومَ الْجُمُعَةُ وَالْجَمَاعَةُ فَهُنَا لا يَتْرُكُ الصَّلاةَ خَلْفَهُمْ إلا مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ لِلصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.

وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ الإِمَامُ قَدْ رَتَّبَهُ وُلاةُ الأُمُورِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي تَرْكِ الصَّلاةِ خَلْفَهُ مَصْلَحَةٌ، فَهُنَا لَيْسَ عَلَيْهِ تَرْكُ الصَّلاةِ خَلْفَهُ، بَلْ الصَّلاةُ خَلْفَ الإِمَامِ الأَفْضَلِ أَفْضَلُ"(١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–: "فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين، ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وإذا كان قادراً على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه، وإن قدر أن يمنع من أظهر البدع والفجور منعه.

وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه والأسبق إلى طاعة الله

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٢٣/ ٣٥٢ . ٣٥٤).

ورسوله أفضل، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا سواء فأقدمهم هجره، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً). [١]

وإن كان في هجره لمظهر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره، كما هجر النبي -صلى الله عليه وسلم- الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى تاب الله عليهم، وأما إذا وُلِّي غيره بغير إذنه، وليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلًا وضلالًا، وكان قد رَدَّ بدعة ببدعة"[٢]

وخلاصة القول: أن أكثر العلماء يرون جواز الصلاة خلف المبتدع على التفصيل الذي قدمناه، ومنهم من منعها وأبطلها وقال بوجوب إعادتها، وممن رجح صحة الصلاة: الإمام البخاري وابن حجر وابن تيمية، ومن المعاصرين الشيخ ابن باز -رحمه الله- وهو يفصل بين من كانت بدعته شركية كفرية وبين من ليس كذلك فيقول: "تصح الصلاة خلف المبتدع وخلف المسبل إزاره وغيرهما من العصاة في أصح قولي العلماء، ما لم تكن البدعة مكفرة لصاحبها، فإن كانت مكفرة له كالجهمي ونحوه ممن بدعتهم تخرجهم عن دائرة الإسلام، فلا تصح الصلاة خلفهم، ولكن يجب على المسئولين أن يختاروا للإمامة من هو سليم من البدعة والفسق، مرضي السيرة؛ لأن الإمامة أمانة عظيمة، القائم بها قدوة للمسلمين، فلا يجوز أن يتولاها أهل البدع والفسق مع القدرة على تولية غيرهم".

والعلماء ذكروا تفاصيل كثيرة تتعلق بالتفريق بين الصلوات العادية وبين صلاة الجمعة والعيدين ويوم عرفة، والتفريق بين من كان مستور الحال ومن هو مجاهر بفسقه أو بدعته، وبين من بدعته مكفرة وبين من هو دون ذلك، وبين من كان هذا المسجد هو الوحيد في ذلك المكان وبين من بإمكانه أن يصلي في مسجد غيره إلى غير ذلك من التفاصيل التي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٦).

يصعب إيرادها في مثل هذا الشرح.



الإيمان بخروج الدجال

[٣٥]- قال المصنف رحمه الله: والأعور [الدجال] خارج لا شك في ذلك، ولا ارتياب، وهو أكذب الكاذبين.

الشرح.

معنى المسيح[(١)]:

ذكر العلماء ما يزيد عن خمسين قولاً في معنى" المسيح "[(٢)]. وقالوا إن هذا اللفظ يطلق على الصدّيق وعلى الضلّيل الكذاب، فالمسيح عيسى ابن مريم الصدّيق، مسيح الهدى، يبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى بإذن الله.

والمسيح الدجال هو الضلّيل الكذاب، مسيح الضلالة يفتن الناس بما يعطاه من الآيات كإنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات وغيرهما من الخوارق.

فخلق الله المسيحين أحدهما ضد الآخر.

وقال العلماء في سبب تسمية الدجال بالمسيح: أن إحدى عينيه ممسوحة، وقيل: لأنه يمسح الأرض في أربعين يوماً.

والقول الأول هو الراجح، لما جاء في الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ.."[(٣)].

معنى الدجال[(٤)]:

الدَّجل: هو الخلط والتلبيس، يقال دَجَلَ إذا لبّس ومَوَّهَ، والدجال: المموِّه الكذاب، الذي

---

(١) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص ٢٧٥

(٢) ذكر أبو عبد الله القرطبي ثلاثة وعشرين قولاً في اشتقاق هذا اللفظ انظر: التذكرة (**ص ٦٧٩**)، وأوصلها صاحب القاموس، إلى خمسين قولاً انظر: (ترتيب القاموس) (**٤/ ٢٣٩**)، وذكر صاحب القاموس، أنه أورد هذه الأقوال في كتابه (شرح مشارق الأنوار، وغيره.

(٣) رواه مسلم برقم ٥٢٢١.

(٤) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص ٢٧٥-٢٧٧.

يُكثِر من الكذب والتلبيس.

ولفظة" الدجال" أصبحت عَلَمَاً على المسيح الأعور الكذاب، وسمي الدجال دجالاً: لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم[١].

صفة الدجال والأحاديث الواردة في ذلك[٢]:

الدجال رجل من بني آدم، له صفات كثيرة جاءت بها الأحاديث لتعريف الناس به، وتحذيرهم من شره، حتى إذا خرج عرفه المؤمنون فلا يفتنون به، بل يكونون على علم بصفاته التي أخبر بها الصادق صلى الله عليه وسلم وهذه الصفات تميزه عن غيره من الناس، فلا يغتر به إلا الجاهل الذي سبقت عليه الشقوة. نسأل الله العافية.

ومن هذه الصفات:[٣]

أنه رجل شاب أحمر، قصير، أفحج جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة-منتفخة وبارزة-ولا جحراء-غائرة-كأنها عنبة طافئة.

وعينه اليسرى عليها ظفرة-لحمة تنبت عند المآقي-غليظة. ومكتوب بين عينيه" ك ف ر" بالحروف المقطعة، أو" كافر" بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم، كاتب وغير كاتب.

ومن صفاته أنه عقيم لا يولد له.

وهذه بعض الأحاديث الصحيحة التي جاء فيها ذكر صفاته السابقة وهي من الأدلة على ظهور الدجال:

١-عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ سَبْطُ الشَّعَرِ بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطُفُ رَأْسُهُ مَاءً فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا ابْنُ مَرْيَمَ. فَذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ جَعْدُ الرَّأْسِ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى

---

(١) لسان العرب، (١١/ ٢٣٦ -٢٣٧)، و (ترتيب القاموس، (٢ / ١٥٢).

(٢) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص ٢٧٧ ـ٢٨٣.

(٣) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص ٢٧٧.

كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا الدَّجَّالُ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنٍ"[(١)] وَابْنُ قَطَنٍ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ.

٢-وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال:" إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ."[(٢)].

٣-وفي الحديث الطويل الذي رواه النواس بن سمعان رضي الله عنه قال:" ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ." فقال في وصف الدجال: "إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ-شديد جعودة الشعر-عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ"[(٣)]

٤-وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنْ الدَّجَّالِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لا تَعْقِلُوا، إِنَّ مَسِيحَ الدَّجَّالِ رَجُلٌ قَصِيرٌ أَفْحَجُ جَعْدٌ أَعْوَرُ مَطْمُوسُ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَاتِئَةٍ وَلا حَجْرَاءَ فَإِنْ أُلْبِسَ عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ"[(٤)]

٥-وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَأَمَّا مَسِيحُ الضَّلالَةِ فَإِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ أَجْلَى الْجَبْهَةِ عَرِيضُ النَّحْرِ فِيهِ دَفَأٌ-إنحناء-".[(٥)]

---

(١) (**صـــحيح البخاري**)، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (**١٣/ ٩٠- مع الفتح**)، وصـــحيح مســـلم كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام والمسيح الدجال، (**٢/ ٢٣٧-مع شرح النووي**).

(٢) (**صحيح البخاري**)، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (**١٣/ ٩٠-مع شرح الفتح**)، و(**صحيح مسلم**) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (**١٨/ ٥٩-مع شرح النووي**).

(٣) (**صحيح مسلم**) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (**١٨/ ٦٥ - مع شرح النووي**).

(٤) (**سـنن أبي داود**) (**١١/ ٤٤٣ -عون المعبود**) والحديث صـحيح، انظر: (**صـحيح ا لجامع الصـغير**) (**٢/ ٣١٧-٣١٨ (ح٢٤٥٥)**).

(٥) (**مسند الإمام أحمد**) (**١٥/ ٢٨ - ٣٠**) تحقيق وشرح أحمد شاكر، وقال: (**إسناده صحيح**)، وحسنه ابن كثير، انظر النهاية / الفتن والملاحم) (**١/ ١٣٠**)، تحقيق د. طه زيني.

٦-وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ-كَثِيرُهُ-مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ"[(١)]

٧-وفي حديث أنس رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ أَلا إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ كَافِرٌ"[(٢)]، وفي رواية:" وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر"[(٣)]، وفي رواية عن حذيفة:" يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ"[(٤)]

وهذه الكتابة حقيقية على ظاهرها، ولا يشكل رؤية بعض الناس لهذه الكتابة دون بعض، وقراءة الأمي لها " وذلك أن الإدراك في البصر يخلقه الله للعبد كيف شاء ومتى شاء، فهذا يراه المؤمن بعين بصره، وإن كان لا يعرف الكتابة، ولا يراه الكافر ولو كان يعرف الكتابة، كما يرى المؤمن الأدلة بعين بصيرته ولا يراه الكافر فيخلق الله للمؤمن الإدراك دون تعلّم، لأن ذلك الزمن تنخرق فيه العادات"[(٥)]

ومختصر الجواب عن الإشكال أنّ الله على كلّ شيء قدير فهو قادر على أن يري هذه الكتابة بعض الناس دون بعض وقادر على أن يجعل الأمّي يقرؤها.

قال النووي: "الصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله يظهرها الله لكل مسلم

---

(١) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، **(١٨/ ٦٠ – ٦١ مع شرح النووي)**.

(٢)**(صحيح البخاري)**، كتاب الفتن باب ذكر الدجال، **(١٣/ ٩١ – مع الفتح)** و**(صحيح مسلم)** كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، **(١٨/ ٥٩ – مع شرح النووي)**.

(٣) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن باب ذكر الدجال، **(١٨/ ٥٩ – مع شرح النووي)**.

(٤) صحيح مسلم، **(١٨/ ٦١–مع شرح النووي)**.

(٥) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٣/ ١٠٠).

كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك"[(١)]

٨-ومن صفاته أيضاً ما جاء في حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها في قصة الجسّاسة، وفيه قال تميم الداري رضي الله عنه:" فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا"[(٢)]

٩-وفتنته عظيمة جدا لدرجة أنه ليس بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أكبر من فتنة المسيح الدجال كما جاء وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنْ الدَّجَّالِ"[(٣)]. وفي رواية أحمد عَنْ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ"[(٤)].

١٠-وأمّا أن الدجال لا يُولَدُ له فلما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصته مع ابن صياد، فقد قال لأبي سعيد: "أَلَسْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّهُ لا يُولَدُ لَهُ؟ قَالَ قُلْتُ: بَلَى."[(٥)].

والملاحظ في الروايات السابقة أن في بعضها وصف عينه اليمنى بالعور وفي بعضها وصف عينه اليسرى بالعور، وكل الروايات صحيحة، وقد جمع بعض أهل العلم بين هذه الروايات، فقال القاضي عياض: "أن عيني الدجال كلتيهما معيبة، لأن الروايات كلها صحيحة، وتكون العين اليمنى هي العين المطموسة والممسوحة، العوراء الطافئة-بالهمز-التي ذهب نورها كما في حديث ابن عمر. وتكون العين اليسرى: التي عليها ظفرة غليظة وطافية-بلا همز-معيبة أيضاً

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (١٨/ ٦٠).

(٢) **(صحيح مسلم)**، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، **(١٨/ ٨١ -مع شرح النووي)**.

(٣) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال، **(١٨/ ٨٦ – ٨٧ مع شرح النووي)**.

(٤) مسند الإمام أحمد ١٥٨٣١.

(٥) **(صحيح مسلم)**، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، **(١٨/ ٥٠ – شرح النووي)**.

". فهو أعور العين اليمنى واليسرى معاً، فكل واحدة منها عوراء أي معيبة، فإن الأعور من كل شيء المعيب، لا سيما ما يختص بالعين، فكلتا عيني الدجال معيبة عوراء، إحداهما بذهابهما والأخرى بعيبها.

ووافق القاضي عياض على هذا الجمع النووي، ورجحه القرطبي.

مكان خروج الدجال(١):

يخرج الدجال من جهة المشرق من خراسان، من يهودية أصبهان، ثم يسير في الأرض فلا يترك بلداً إلا دخله، إلا مكة والمدينة، فلا يستطيع دخولهما لأن الملائكة تحرسهما.

- ففي حديث فاطمة بنت قيس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الدجال:" أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ لا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ"(٢) .
- وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" الدَّجَّالُ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا خُرَاسَانُ"(٣) .
- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ التِّيجَانُ"(٤) .

الأماكن التي لا يدخلها الدجال(٥):

حرم على الدجال دخول مكة والمدينة حين يخرج في آخر الزمان، لورود الأحاديث الصحيحة

---

(١) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٢) (صحيح مسلم) (١٨/ ٨٣-مع شرح النووي).

(٣) (جامع الترمذي) باب ما جاء من أين يخرج الدجال؟ (٦/ ٤٩٥ – مع تحفة الأحوذي). قال الألباني (صحيح)، (صحيح الجامع الصغير) (٣/ ١٥٠) (ح٣٣٩٨).

(٤) (الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد) (٢٤/ ٧٣)، قال ابن حجر: (صحيح): (فتح الباري) (١٣/ ٣٢٨).

(٥) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣٠٩.

بذلك، وأما ما سوى ذلك من البلدان فإن الدجال سيدخلها واحداً بعد الآخر.

- جاء في حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أن الدجّال قال: "وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلا أَدَعَ قَرْيَةً إِلا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلائِكَةً يَحْرُسُونَهَا"[(١)].

وثبت أيضاً أن الدجال لا يدخل مسجد الطور، والمسجد الأقصى.

- لما روي من حديث جنادة بن أبي أمية الأزدي قال: أتيت رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له: حَدِّثْنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّجَّالِ، فذكر الحديث وقال:" وَإِنَّهُ يَلْبَثُ فِيكُمْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا يَرِدُ فِيهَا كُلَّ مَنْهَلٍ إِلا أَرْبَعَ مَسَاجِدَ مَسْجِدَ الْحَرَامِ وَمَسْجِدَ الْمَدِينَةِ وَالطُّورِ وَمَسْجِدَ الأَقْصَى "[(٢)].

أتْباع الدجال[(٣)]:

أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والترك، وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنساء.

- فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمْ الطَّيَالِسَةُ"[(٤)].

والطيالسة: كساء غليظ مخطط.

- وفي رواية للإمام أحمد: "سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ الْيَهُودِ عَلَيْهِمِ التِّيجَانُ"[(٥)].

---

(١) **(صحيح مسلم)**، كتاب الفتن، وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، **(١٨/ ٨٣ – مع شرح النووي)**.

(٢)**(الفتح الرباني)** **(٢٤/ ٧٦)** ترتيب الساعاتي)، قال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، **(مجمع الزوائد)** **(٧/ ٣٤٣)**، وقال ابن حجر: **(رجاله ثقات٩، (فتح الباري)** **(١٣/ ١٠٥)**.

(٣) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣١١.

(٤) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال، **(١٨/ ٨٥-٨٦ – مع شرح النووي)**.

(٥) **(الفتح الرباني ترتيب المسند)** **(٢٤/ ٧٣)** والحديث صحيح، انظر: **(فتح الباري)** **(١٣/ ٢٣٨)**.

- وجاء في حديث أبي بكر السابق:" يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ"(١) .

وأما كون الأعراب يتبعون الدجال، فلأن الجهل غالب عليهم، أما النساء لسرعة تأثرهن وغلبة الجهل عليهن.

- جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" يَنْزِلُ الدَّجَّالُ فِي هَذِهِ السَّبَخَةِ بِمَرِّ قَنَاةَ-وادٍ بالمدينة-فَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ إِلَى حَمِيمِهِ وَإِلَى أُمِّهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ وَعَمَّتِهِ فَيُوثِقُهَا رِبَاطًا مَخَافَةَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ"(٢).

فتنة الدجال(٣):

فتنة الدجال أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة، وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول وتحير الألباب.

فقد ورد أن معه جنة وناراً، جنته ناره وناره جنته، وأن معه أنهار الماء وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث استدبرته الريح، إلى غير ذلك من الخوارق. وكل ذلك جاءت به الأحاديث الصحيحة.

- فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ-كَثِيرُهُ-مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ"(٤) .

- وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لأنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ: مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ مَاءٌ أَبْيَضُ وَالآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ نَارٌ تَأَجَّجُ،

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢١٣٦.

(٢) **(مسند أحمد)** (٧/ ١٩٠) **(ح٥٣٥٣)** تحقيق أحمد شاكر، وقال: **(إسناده صحيح)**.

(٣) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص ٣١٣.

(٤) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، **(١٨/ ٦٠-٦١- مع شرح النووي)**.

فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ"[(١)] .

● وجاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في ذكر الدجال: أن الصحابة قالوا:" يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؛ يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ" ". قالوا: وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ. فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ–الماشية–أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا–الأعالي والأسنمة–وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ–كناية عن الامتلاء وكثرة الأكل–. ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ. ثُمَّ يَدْعُو رَجُلا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ"[(٢)] .

● وجاء في رواية البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن هذا الرجل الذي يقتله الدجال من خيار الناس أو خير الناس، يخرج إلى الدجال من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول للدجال:" أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَهُ. فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ هَلْ تَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ لا. فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ، فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ"[(٣)] .

● وفي حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال:" وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لأَعْرَابِيٍّ أَرَأَيْت إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟

---

(١) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، **(١٨/ ٦٠–٦١– مع شرح النووي)**..

(٢) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، **(١٨/ ٦٥–٦٦– مع شرح النووي.**

(٣) **(صحيح البخاري)**، كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة، **(١٣/ ١٠١ – مع الفتح)**.

فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَقُولانِ يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ"[(١)].

الوقاية من فتنة الدجال[(٢)]:

أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى ما يعصمها من فتنة المسيح الدجال، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. فلم يدع خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه، ومن جملة ما حذّر منه: فتنة المسيح الدجال لأنها أعظم فتنة تواجهها الأمة إلى قيام الساعة، وكان كل نبي ينذر أمته الأعور الدجال، واختص محمد صلى الله عليه وسلم بزيادة التحذير والإنذار، وقد بين الله له كثيراً من صفات الدجال ليُحذِّرَ أمته فإنه خارج في هذه الأمة لا محالة، لأنها آخر الأمم ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين. وهذه بعض الإرشادات النبوية التي أرشد إليها المصطفى صلى الله عليه وسلم أمته لتنجو من هذه الفتنة العظيمة:

التمسك بالإسلام، والتسلح بسلاح الإيمان ومعرفة أسماء الله وصفاته الحسنى التي لا يشاركه فيها أحد، فيعلم أن الدجال بشر يأكل ويشرب، وأن الله تعالى منزه عن ذلك، وأن الدجال أعور والله ليس بأعور، وأنه لا أحد يرى ربه حتى يموت والدجال يراه الناس عند خروجه مؤمنهم وكافرهم.

التعوذ من فتنة الدجال، وخاصة في الصلاة، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، منها:

- ما روي عن أم المؤمنين عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصلاة: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ

---

(١) رواه ابن ماجه برقم ٤٠٦٧. وصححه الألباني (**صحيح الجامع الصغير / حديث رقم ٧٧٥٢**).

(٢) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣٢٥.

وَالْمَغْرَمِ"[(١)].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ"[(٢)].

حفظ آيات من سورة الكهف، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقراءة فواتح سورة الكهف على الدجال، وفي بعض الروايات خواتيمها، وذلك بقراءة عشر آيات من أولها أو آخرها. ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

- حديث النواس بن سمعان الطويل، وفيه قوله:" فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ"[(٣)] .

- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ الدَّجَّالِ" أي: من فتنته، قال مسلم: قال شعبة:" مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ وقَالَ هَمَّامٌ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ"[(٤)].

قال النووي: "سَبَب ذَلِكَ مَا فِي أَوَّلهَا مِنْ الْعَجَائِب وَالآيَات، فَمَنْ تَدَبَّرَهَا لَمْ يُفْتَتَن بِالدَّجَّالِ، وَكَذَا فِي آخِرهَا قَوْله تَعَالَى: (**أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا**.)"[(٥)] .

وهذا من خصوصيات سورة الكهف فقد جاءت الأحاديث بالحث على قراءتها وخاصة في يوم الجمعة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إِنَّ مَنْ

---

(١) (**صحيح البخاري**) كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، (**٢/ ٣١٧ – مع الفتح**) و(**صحيح مسلم**) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم، (**٥/ ٨٧ – مع شرح النووي**).

(٢) (**صحيح البخاري**)، كتاب الدعوات، باب التعوذ من عذاب القبر، (**١١/ ١٧٤ – مع الفتح**).

(٣) (**صحيح مسلم**) كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (**١٨/ ٦٥ – مع شرح النووي**).

(٤) (**صحيح مسلم**) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف، وآية الكرسي (**٦/ ٩٢ – ٩٣ – مع شرح النووي**).

(٥) (**شرح النووي لمسلم**) (**٦/ ٩٣**).

قَرَأَ سُوْرَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّوْرِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ"[(١)].

ولا شك أن سورة الكهف لها شأن عظيم، ففيها من الآيات الباهرات كقصة أصحاب الكهف وقصة موسى مع الخضر وقصة ذي القرنين وبناءه للسد العظيم حائلاً دون يأجوج ومأجوج، وإثبات البعث والنشور والنفخ في الصور، وبيان الأخسرين أعمالاً وهم الذين يحسبون أنهم على الهدى وهم على الضلالة والعمى.

فينبغي لكل مسلم أن يحرص على قراءة هذه السورة وحفظها وترديدها وخاصة في خير يوم طلعت عليه الشمس، وهو يوم الجمعة.

الفرار من الدجال والابتعاد منه[(٢)].

والأفضل سكنى مكة والمدينة، والأماكن التي لا يدخلها الدجال، فينبغي للمسلم إذا خرج الدجال أن يبتعد منه وذلك لما معه من الشبهات والخوارق العظيمة التي يجريها الله على يديه فتنة للناس، فإنه يأتيه الرجل وهو يظن في نفسه الإيمان والثبات فيتبع الدجال، نسأل الله أن يعيذنا من فتنته وجميع المسلمين.

- فعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ-يبتعد-مِنْهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ يَتَّبِعُهُ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ بِمَا يُبْعَثُ بِهِ مِنْ الشُّبُهَاتِ "[(٣)].

هلاك الدجال[(٤)]:

(١) رواه الحاكم في المستدرك (**٢ / ٣٦٨**) وقال: (**هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه**)، وصححه الألباني (**صحيح الجامع الصغير / حديث رقم ٦٣٤٦**).

(٢) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣٢٩.

(٣) (**الفتح الرباني**) (**٢٤/ ٧٤**) و(**سنن أبي داود**) (**١١/ ٢٤٢**) مع عونا المعبود، و(**مستدرك الحاكم**) (**٤/ ٥٣١**).

(٤) المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣٣٣.

يكون هلاك الدجال على يدي المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وذلك الدجال يظهر على الأرض ويكثر أتباعه وتعم فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين. وعند ذلك ينزل عيسى بن مريم عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عباد الله المؤمنين، فيسير بهم قاصداً المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى عليه السلام متوجهاً نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب" لُد"- بلدة في فلسطين قرب بيت المقدس-، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، فيقول له عيسى عليه السلام:" إن لي فيك ربة لن تفوتني" فيتداركه عيسى فيقتله بحربته، وينهزم اتباعه فيتبعهم المؤمنون فيقتلونهم حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود.

وإليك بعض الأحاديث الواردة في هلاك الدجال وأتباعه:

- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ." فذكر الحديث، وفيه:" فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ "(١).
- وعن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يَقْتُلُ ابْنُ مَرْيَمَ الدَّجَّالَ بِبَابِ لُدٍّ "(٢).
- وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه حديثاً طويلاً عن الدجال، وفيه قصة نزول عيسى وقتله للدجال، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: "فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ"(٣).
- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال:" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، **(١٨/ ٧٥-٧٦- مع شرح النووي)**.

(٢) **(الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد) (٢٤/ ٨٣)** والترمذي **(٦/ ٥١٣-٥١٤-مع تحفة الأحوذي)**.

(٣) **(صحيح مسلم)** كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، **(١٨/ ٦٧-٦٨مع شرح النووي)**.

"يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي خَفْقَةٍ مِنْ الدِّينِ وَإِدْبَارٍ مِنْ الْعِلْمِ" فذكر الحديث وفيه:" ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيُنَادِي مِنْ السَّحَرِ فَيَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْكَذَّابِ الْخَبِيثِ فَيَقُولُونَ هَذَا رَجُلٌ جِنِّيٌّ فَيَنْطَلِقُونَ فَإِذَا هُمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتُقَامُ الصَّلَاةُ فَيُقَالُ لَهُ تَقَدَّمْ يَا رُوحَ اللَّهِ فَيَقُولُ لِيَتَقَدَّمْ إِمَامُكُمْ فَلْيُصَلِّ بِكُمْ فَإِذَا صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ خَرَجُوا إِلَيْهِ قَالَ فَحِينَ يَرَى الْكَذَّابُ يَنْمَاثُ كَمَا يَنْمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ فَيَمْشِي إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ وَالْحَجَرَ يُنَادِي يَا رُوحَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ فَلا يَتْرُكُ مِمَّنْ كَانَ يَتْبَعُهُ أَحَدًا إِلا قَتَلَهُ"(١) .

وبقتله –لعنه الله– تنتهي فتنته العظيمة، وينجي الله الذين آمنوا من شره وشر أتباعه على يدي روح الله وكلمته عيسى بن مريم عليه السلام وأتباعه المؤمنين ولله الحمد والمنة.

الرد على من أنكر حقيقة المسيح الدجال

قال الشيخ حمود التويجري: "وأما خروج الدجال فقد جاء فيه أكثر من مائة وتسعين حديثا من الصحاح والحسان، وقد تواترت الأحاديث في خروج الدجال من وجوه متعددة، ولو لم يكن منها سوى الأمر بالاستعاذة من فتنة الدجال في كل صلاة لكان ذلك كافيا في إثبات خروجه، والرد على من أنكر ذلك.

وقد أنكرت طوائف كثيرة من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة خروج الدجال بالكلية، وردوا الأحاديث الواردة فيه، ذكر ذلك ابن كثير في النهاية قال: وخرجوا بذلك عن حيز العلماء لردهم ما تواترت به الأخبار الصحيحة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وذكر النووي في شرح مسلم: "أن مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار إثبات خروج الدجال خلافا لمن أنكره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة"(٢).

وقد تبع الخوارج والجهمية والمعتزلة على إنكار خروج الدجال كثير من المنتسبين إلى العلم في

---

(١) (الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد)، (٢٤/ ٨٥–٨٦) قال الهيثمي: (رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح)، انظر: (مجمع الزوائد) (٧/ ٣٤٤).

(٢) انظر شرح النووي لمسلم ١٨/ ٥٨ . ٥٩، وفتح الباري ١٣/ ١٠٥.

زماننا وقبله بزمان، وأنكر بعضهم كثيرا من أشراط الساعة مما هو ثابت عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يتأولها على ما يوافق عقليته الفاسدة، ولو كان الذين أشرنا إليهم أهل علم على الحقيقة لما ردوا شيئاً من الأحاديث الثابتة عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولكانوا يقابلونها بالرضا والقبول والتسليم."(١)

قال الدكتور يوسف الوابل: "ما تقدم من الأحاديث يدل على تواتر خروج الدجال في آخر الزمان، وأنه شخص حقيقة، يعطيه الله ما شاء من الخوارق العظيمة.

وقد ذهب الشيخ محمد عبده إلى أن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح (٢)، وتبعه الشيخ أبو عبية، فذهب إلى أن الدجال رمز لاستشراء الباطل، وليس رجلا من بني آدم، وهذا التأويل صرف للأحاديث عن ظاهرها بدون قرينة !!

وإليك ما قاله الشيخ أبو عبية في تعليقه على أحاديث الدجال؛ قال: "اختلاف ما روي من الأحاديث في مكان ظهور الأجال، وزمان ظهوره، وهل هو ابن صياد أم غيره؟ يشير إلى أن المقصود بالدجال الرمز إلى الشر، واستعلائه، وصولته جبروته، واستشراء خطرة، واستفحال ضرره في بعض الأزمنة، وتطاير أذاه في كثير من الأمكنة، بما يتيسر له من وسائل التمكن والانتشار والفتنة بعض الوقت، إلى أن تنطفئ جذوته، وتموت جمرته سلطان الحق، وكلمة الله: **(إن الباطل كان زهوقا)** [الإسراء: ٨١]"(٣).

ويقول أيضا: أليس الأولى أن يفهم من الدجال أنه رمز الشر والبهتان والإفك.. إلخ(٤)

ويرد على هذه الأقوال بأن الأحاديث صريحة في أن الدجال رجل بعينه، وليس هناك ما يدل على أنه رمز للخرافات والدجل والباطل، وليس في الروايات اختلاف ولا تعارض، وقد سبق

---

(١) إقامة البرهان ص ٦-٧

(٢) انظر: تفسير المنار) (**٣١٧٣**).

(٣) (النهاية المس والملاحم (**١/ ١١٨ -١١٩**)، تحقيق الشيخ محمد فهيم أبو عبية.

(٤) النهاية الفتن والملاحم (**١/ ١٥٢**).

الجمع بينها، وأن أول ما يخرج الدجال من أصبهان من جهة خراسان. وكلها في جهة المشرق، وما قيل عن ابن صياد هل هو الدجال أم غيره؟ وذكر العلماء الأقوال في ذلك.

وإذا تبين هذا، وأن الروايات ليس فيها اضطراب ولا من حيث مكان خروجه، ولا من حيث زمان ظهوره؛ لم يكن هناك ما يدعو إلى ما ذهبا إليه، لا سيما مع ما جاء من صفاته التي نبهت عليها الأحاديث، والتي تدل دون ارتكاب تجوز لا داعي له على أنه شخص حقيقة.

وأيضا؛ فأبو عبية متناقض في تعليقاته على الأحاديث الواردة في الدجال في كتاب الفتن والملاحم، لابن كثير؛ فإنه يعلق على قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه مكتوب بين عينيه (**كافر**)؛ يقرؤه من كره عمله، أو يقرؤه كل مؤمن). وقوله: (تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت).

يقول أبو عبية: "وهذا يقرر كذب الدجال في دعواه الربوبية قبحه الله، وأتم عليه غضبه ولعنه"[(١)]

فهو هنا يرى أن الدجال إنسان حقيقة، يدعي الربوبية، ويدعو عليه بالغضب واللعنة، وفي موضع آخر ينفي أن يكون هناك دجال على الحقيقة، وإنما هو رمز للشر والفتنة!!

ولا شك أن هذا تناقض واضح منه.

وأرجو أن لا ينطبق على هؤلاء المنكرين لظهور الدجال قوله صلى الله عليه وسلم: "إنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم، وبالدجال، وبالشفاعة، وبعذاب القبر، وبقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا"[(٢)]".[(٣)]

---

(١) النهاية الفتن والملاحم (١/ ٨٩).

(٢) مسند أحمد (**١/ ٢٢٣**)، تحقيق أحمد شاكر، وقال إسناده صحيح.

(٣) أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص ٣١٥.. ٣١٧.

عذاب القبر حق

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فتنة القبر.

المسألة الثانية: الأدلة على إثبات عذاب القبر ونعيمه.

المسألة الثالثة: عذاب القبر ونعيمه يقع على الجسد والروح معًا.

المسألة الرابعة: المنكرون لعذاب القبر.



[٣٦]- قال المصنف رحمه الله: وعذاب القبر حقٌّ؛ يسأل العبد عن ربه، وعن نبيه، وعن دينه، ويُرى مقعده من الجنة أو النار.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فتنة القبر.

الإنسانُ بمجرد موتِه يدخل في اليومِ الآخرِ بالنِّسبة له، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَن مَاتَ قَامَت قِيامَتُهُ.

وقد ذكر شيخُ الإسلامِ رحمه الله تعالى هُنَا مَسألَتَينِ عَظيمَتَينِ:

الأولى: فِتنَةُ القَبرِ،

والثانية: مَا يَكُونُ بَعدَ تِلكَ الفِتنَةِ مِن نَعِيمٍ أَو عَذَابٍ.

المسأَلَةُ الأُولى: فِتنَةُ القَبرِ:

قَالَ شَيخُ الإسلامِ ابن تيمِيَّة-رحمه الله تعالى-: "وَأَمَّا الفِتْنَةُ فِي القُبُورِ فَهِيَ الِامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ لِلمَيِّتِ حِينَ يَسْأَلُهُ المَلَكَانِ"[١]

وقَد رَوَت أَسماءُ بِنت أَبِي بَكر رضي الله عنهما أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْل فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ).[٢]

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- كان يدعو في الصلاة: (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم).[٣]

وعن عثمانَ بن عفَّان-رضي الله عنه-، قالَ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا فَرغَ مِن دَفنِ الميتِ وَقفَ

---

(١) (مجموع الفتاوى) (٤/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٤) ومسلم (٩٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٨٣٢) ومسلم (٥٨٩).

عليهِ، فَقَالَ: (اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ). [(١)]

وَعَن أَبِي هُرِيرَةَ-رضي الله عنه-، قَالَ: كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يدعُو: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ). [(٢)]

وعن البراءِ بنِ عَازب-رضي الله عنه-، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: (إِنَّ العَبدَ المؤمِنَ فِي قَبْرِهِ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ؛ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِث فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ؛ فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ به...).

إِلَى أَن قَالَ فِي العَبدِ الكَافِرِ: (فتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاهْ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي). [(٣)]

وَغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحَادِيثِ التي بَلَغَت مَبلَغَ التَّوَاتُرِ.

قال أحمد بن حنبل: "أصول السنة عندنا... الإيمان بعذاب القبر"[(٤)]

قال ابن قتيبة: "إن أصحاب الحديث كلهم مجمعون على... الإيمان بعذاب القبر، لا يختلفون في هذه الأصول"[(٥)]

قال أبو الحسن الأشعري: "أجمعوا على أن عذاب القبر حق"[(٦)]

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٥٢٦) (١٣٧٢)، وصححه الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) (٣٥١١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨).

(٣) أخرجه أحمد في (المسند) (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في (المشكاة) (١٦٣٠).

(٤) أصول السنة (ص: ١٤، ٣٠).

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص: ٦٤).

(٦) رسالة إلى أهل الثغر (ص: ١٥٩).

قال ابن بطة: "نحن الآن ذاكرون شرح السنة... مما أجمع على شرحنا له أهل الإسلام وسائر الأمة مذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا... ثم الإيمان بعذاب القبر"[(١)]

٦- قال ابن بطال: (قال أبو بكر بن مجاهد: أجمع أهل السنة أن عذاب القبر حق، وأن الناس يفتنون في قبورهم بعد أن يحيوا فيها، ويسألوا فيها، ويثبت الله من أحب تثبيته منهم. وقال أبو عثمان بن الحداد: وإنما أنكر عذاب القبر بشر المريسي والأصم وضرار... قال القاضي أبو بكر بن الطيب وغيره: قد ورد القرآن بتصديق الأخبار الواردة في عذاب القبر، قال تعالى: النار يعرضون عليها غدوا وعشيا [غافر: ٤٦] "[(٢)]

قال ابن عبد البر: "أهل السنة والجماعة مصدقون بفتنة القبر وعذاب القبر؛ لتوافر الأخبار بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم"[(٣)]

قال ابن بطال: "هذه الآثار تشهد للآثار التي في الباب قبل هذا، أن عذاب القبر حق على ما ذهب إليه أهل السنة، ألا ترى الرسول استعاذ بالله منه، وقد عصمه الله وطهره، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فينبغي لكل من علم أنه غير معصوم ولا مطهر أن يكثر التعوذ مما استعاذ منه نبيه؛ ففي أكرم الأكرمين أسوة. فإن قيل: فإذا أخبر الله نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما وجه استعاذته صلى الله عليه وسلم من شيء قد علم أنه قد أعيذ منه؟ فالجواب: أن في استعاذته صلى الله عليه وسلم من كل ما استعاذ منه إظهارا للافتقار إلى الله، وإقرارا بالنعم، واعترافا بما يتجدد من شكره عليها ما يكون كفا لها ألا ترى أنه كان يصلي حتى تتفطر قدماه، فيقال له: يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيقول: (أفلا أكون عبدا شكورًا) [(٤)] . فمن عظمت عليه نعم الله وجب عليه أن يتلقاها

---

(١) الإبانة الصغرى (ص: ١٩١، ٢١٧).

(٢) شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٥٨).

(٣) الاستذكار (٢/ ٤٢١).

(٤) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

بعظيم الشكر، لا سيما أنبيائه وصفوته من خلقه الذين اختارهم، وخشية العباد لله على قدر علمهم به. وفي استعاذته مما أعيذ منه تعليم لأمته، وتنبيه لهم على الاقتداء به واتباع سنته وامتثال طريقته، والله أعلم"[١]

قَالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّة رحمه الله تعالى: "وَقَدْ تَوَاتَرَت الأَحَادِيثُ عَن النَّبِي صلى الله عليه وسلم فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ مِنْ حَدِيثِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ رضي الله عنهم"[٢]

وَقوله: (مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَنْ نَبِيُّك؟) هَذِهِ الأسئلة الثلاثة الَتِي تُوَجَّهُ للمَيّتِ فِي قَبرِهِ؛ قال العلّامةُ ابنُ عُثَيمين–رحمه الله تعالى–: "يَعنِي: مَن رَبُّكَ الذِي خَلَقَكَ وَتعبدُهُ وَتَخصُّهُ بِالعِبَادَةِ؟ لِأَجلِ أَن تَنتَظِمَ هَذِهِ الكَلمةُ توحيد الربوبيَّةِ، وَتوحيد الألوهيَّةِ.

و(المرتاب): الشَّاكُّ والمنافقُ وشبههمَا، (فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ)، يعني: لم يَلجِ الإيمانُ قلبَهُ، وإنَّمَا كانَ يقولُ كما يقولُ النَّاسُ مِن غيرِ أن يَصِلَ الإيمانُ إلى قلبِهِ.

وَتَأَمَّل قولَهُ: (هاه هاه) كأنَّ شيئًا غَابَ عنهُ يريدُ أن يَتذكرَه، وَهَذا أشدُّ في التَّحَسُّرِ أن يتخيَّلَ أنَّهُ يَعْرِفُ الجوابَ، ولكن يُحالُ بينهُ وبينهُ، ويقولُ: (هاه هاه)، ثمَّ يقولُ: (سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُهُ)، وَلَا يقولُ: رَبِّيَ الله، وَلَا ديني الإسلام، وَلَا نَبِيّ محمَّد؛ لأَنَّهُ فِي الدُّنيا مُرتابٌ شاكٌّ.

هذا إِذَا سُئِلَ فِي قَبرِهِ وَصَارَ أحوج مَا يكونُ إِلَى الجَوَابِ الصَّوَابِ يَعجزُ، وَيَقولُ: (لَا أدري سَمِعتُ النَّاسَ يقولونَ شَيئًا فقلتُهُ).

إِذًا؛ إيمانُه قولٌ فَقَط".[٣]

---

[١] شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٦٤).

[٢] (مجموع الفتاوى) (٤/ ٢٥٧).

[٣] انظر: (شرح الواسطِيَّة) (ص٤٨٠-٤٨٢).

وقولُ شيخِ الإسلامِ-رحمه الله تعالى-: (فَيُضربُ بِمرزَبَّةٍ مِن حديدٍ؛ فيصيحَ صحيةً يسمعهَا كُلُّ شيءٍ إِلَّا الإنسان، وَلَو سَمِعَها لصعقَ)-يُشير إلى حديث أنس عليه السلام وفيه: (وأمَّا المنافق والكافر فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنتُ أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضرب بمطارقَ من حديد ضربةً؛ فَيَصِيحُ صَيحةً يَسْمَعُهَا مَن يَلِيهِ غيرَ الثَّقَلينِ)[(١)]، والثَّقلان: هُم الإنسُ والجنُّ.

قالَ ابنُ عُثَيمين-رحمه الله تعالى-: (فيُضرب): يَعني الذِي لم يُجِب، سواء كانَ الكافرَ أو المنافقَ، والضارب لَهُ الملَكَانِ اللذانِ يَسألانِه.

والمرزبَّةُ: هِيَ مِطرقةٌ مِن حَدِيدٍ، وَقَد وَرَدَ فِي بعضِ الرواياتِ: أَنَّهُ لَوِ اجتَمَعَ عَلَيهَا أَهلُ مِنى مَا أَقَلُّوها، فَإِذَا ضُرِب يَصيح صيحةً يَسمعها كلُّ شيء إلا الإنسان، أي: صِياحًا مَسموعًا يَسمعه كلُّ شيء يكون حوله مِمَّا يسمع صوته، وليس كلُّ شيء في أقطار الدُّنيا يَسمعه، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه كما مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بِأَقْبُرٍ للمُشركين على بَغْلَتِه، فَحَادت به حتى كادت تُلقيه؛ لأنَّها سَمِعت أصواتَهم يُعَذَّبون.

قوله: (إلا الإنسان)، وقد سبق أنَّ في الحديث إلا الثَّقلين. يعني: أنه لا يَسمع هذا الصِّياح، وذلك لحكمٍ عظيمة منها:

أولًا: ما أشار إليه النبي-صلى الله عليه وسلم-بقوله: (لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ القَبْرِ).[(٢)]

ثانيًا: أنَّ في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثًا: أنَّ فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأنَّ أهلَه إذا سَمِعوا مَيّتَهم يُعَذَّب ويَصيح لم يَسْتَقِرَّ لهم قَرَارٌ.

رابعًا: عدم تَخْجِيل أهله؛ لأنَّ النَّاس يقولون: هذا ولدُكم، هذا أبوكم، هذا أخوكم، وما أشبه ذلك.

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٨) من حديث أنس.

خامسًا: أننا قد نَهْلِك؛ لأنَّها صيحة ليست هينة، بل صيحة قد تُوجب أن تسقط القلوب من مَعاليقها، فيموت الإنسان، أو يُغشى عليه.

سادسًا: لو سَمِع النَّاسُ صُرَاخ هؤلاء المعَذَّبين لكان الإيمانُ بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تَفُوت مصلحة الامتحان؛ لأنَّ النَّاس سوف يُؤمنون بما شاهدوه قطعًا، لكن إذا كان غائبًا عنهم ولم يعلموا به إلَّا عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغيب"[١]

المسألة الثانية: الأدلة على إثبات عذاب القبر ونعيمه.

وقد دلَّ على سؤال القبر وما يكون فيه من نَعيم أو عذاب–بعض الآيات والسُّنَّة المتواترة وكذلك إجماع أهل السُّنَّة والجَمَاعَة.

أمَّا دلالة القرآن: فمنها:

- قوله تعالى في قصة آل فرعون: [غافر: الآية: ٤٦].

قال الحافظ ابن كثير: "وهذه الآية أصلٌ كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور"[٢]

وقال العلامة الفوزان: "هذا في البرزخ قبل الآخرة؛ يُعرضون على النَّار صباحًا ومساء إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليلٌ على عذاب القبر، والعياذ بالله، [غافر: الآية: ٤٦] هذه ثلاثة عقوبات:

الأولى: أنَّ الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثاني: أنَّهم يُعَذَّبون في البرزخ إلى أن تقوم الساعة.

الثَّالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب، والعياذ بالله"[٣]

---

(١) (شرح الواسِطيَّة) (ص٤٨٢، ٤٨٣).

(٢) (تفسير ابن كثير) (٧/ ١٤٦).

(٣) (شرح الأصول الثلاثة) (ص: ٥١)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ –٢٠٠٦م.

- ومنها: قوله تعالى: [التوبة: الآية:١٠١].

قال ابنُ تيميَّة: "قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِن العُلَمَاءِ: المَرَّةُ الأُولَى فِي الدُّنْيَا، وَالثَّانِيَةُ فِي البَرْزَخِ، فِي الآخِرَةِ"[(١)]

- ومنها: وقوله: [الأنعام: الآية: ٩٣].

وهذا خطابٌ لهم عند المَوت، وقد أخبر الملائكة -وهم الصادقون- أنَّهم حينئذ يُجزون عذاب الهون، ولو تأخَّر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صَحَّ أن يقال لهم: ؛ فدل على أنَّ المراد به عذاب القبر[(٢)].

وأمَّا السُّنَّة: فإنها متواترةٌ في ذلك، كما قال الحافظُ ابنُ رَجَب رحمه الله تعالى: "وقد تَوَاتَرَت الأحاديثُ في عذاب القبر"[(٣)]

وقال ابنُ أبي العِزِّ -رحمه الله تعالى-: "وقد تواترت الأخبارُ عن رسول الله ﷺ في ثُبُوت عذاب القبر ونعيمه لِمَن كان أهلًا"[(٤)]

وأمَّا الإجماعُ:

- فقد قال ابن تيمِيَّة -رحمه الله تعالى-: "فَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ سَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: أَنَّ المَيِّتَ إِذَا مَاتَ يَكُونُ فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ"[(٥)]
- وقال أيضًا: "العَذَابُ وَالنَّعِيمُ عَلَى النَّفْسِ وَالبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ"[(٦)]
- وقال ابن القيِّم -رحمه الله تعالى-: "وَهَذَا كَمَا أنه مُقْتَضى السُّنَّة الصَّحِيحَة فَهُوَ مُتَّفَقٌ

---

(١) (مجموع الفتاوى) (٤/ ٢٦٦).

(٢) انظر: (الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد) صالح الفوزان (ص ٢٧٥)، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

(٣) (أهوال القبور) (ص ٤٣).

(٤) (شرح الطَّحاوية) (ص ٣٩٩).

(٥) (مجموع الفتاوى) (٤/ ٢٨٤).

(٦) (مجموع الفتاوى) (٤/ ٢٨٢).

عَلَيْهِ بَين أهل السُّنَّة.

قَالَ المروزي: قَالَ أَبُو عبد الله: "عَذَاب القَبْر حقٌّ، لَا يُنكره إِلَّا ضالٌّ أَو مُضِلٌّ"[١]

المسألة الثالثة: عذاب القبر ونعيمه يقع على الجسد والروح معًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن العذاب أو النعيم يحصل لروح الميت وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأيضا تتصل بالبدن أحيانا فيحصل له معها النعيم أو العذاب"[٢]

وقال ابن القيم–رحمه الله–: وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال:

"بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تُنعَّم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن.

مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى"[٣]

ويضرب العلماء مثالا لذلك الحلم في المنام فقد يرى الإنسان أنه ذهب وسافر وقد يشعر بسعادة وهو نائم وقد يشعر بحزن وأسى وهو في مكانه وهو في الدنيا فمن باب أولى أن تختلف في الحياة البرزخية وهي حياة تختلف كلية عن الحياة الدنيا أو الحياة في الآخرة.

قال النووي–رحمه الله–: "فإن قيل: فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره فكيف يُسأل

---

(١) (الروح) (ص ٥٧).

(٢) الاختيارات الفقهية (ص: ٩٤).

(٣) "الروح" (ص: ٥١-٥٢).

ويُقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر، فالجواب: أن ذلك غير ممتنع بل له نظر في العادة وهو النائم، فإنه يجد لذة وآلاما لا نحس نحن شيئًا منها، وكذا يجد اليقظان لذة وآلما لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يشاهد ذلك جليسه منه، وكذا كان جبرئيل يأتي النبي–صلى الله عليه وسلم–فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرون، وكل هذا ظاهر جلي"[(١)]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–: "والنائم يحصل له في منامه لذة وألم وذلك يحصل للروح والبدن حتى إنه يحصل له في منامه من يضربه فيصبح والوجع في بدنه، ويرى في منامه أنّه أُطْعِم شيئًا طيبًا فيصبح وطعمه في فمه، وهذا موجود، فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من النعيم والعذاب ما يحس به والذي إلى جنبه لا يحس به حتى قد يصيح النائم من شدة الألم أو الفزع الذي يحصل له ويسمع اليقظان صياحه وقد يتكلم إما بقرآن وإما بذكر وإما بجواب واليقظان يسمع ذلك وهو نائم عينه مغمضة ولو خوطب لم يسمع: فكيف ينكر حال المقبور الذي أخبر الرسول أنه (يسمع قرع نعالهم)، وقال: (ما أنتم أسمع لما أقول منهم؟)،

والقلب يشبه القبر، ولهذا قال لما فاتته صلاة العصر يوم الخندق: (ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا)، وفي لفظ: (قلوبهم وقبورهم نارًا)، وَفرَّق بينهما في قوله: [العاديات: الآيتان: ٩–١٠]، وهذا تقريب وتقرير لإمكان ذلك.

ولا يجوز أن يقال ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب مثلما يجده النائم في منامه، بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك، إذا قال السائل: الميت لا يتحرك في قبره والتراب لا يتغير ونحو ذلك مع أن هذه المسألة لها بسط يطول وشرح لا تحتمله هذه الورقة والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم"[(٢)]

المسألة الرابعة: المنكرون لعذاب القبر.

(١) "شرح مسلم" (١٧/٢٠١).

(٢) "مجموع الفتاوى" (٤/ ٢٧٥–٢٧٦).

قال ابن تيمية-رحمه الله-: "مذهب سائر المسلمين إثبات الثواب والعقاب في البرزخ - ما بين الموت إلى يوم القيامة - هذا قول السلف قاطبة وأهل السنة والجماعة؛ وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل البدع"(١)

وقال أبو الحسن الأشعري وهو يذكر ما خالف فيه المعتزلة وأهل القدر نهج أهل السنة: وجحدوا عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذبون، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين. (٢)

وقد خالف في ذلك الخوارج وضرار بن عمرو وبشر المريسي وجماعة من متأخرى المعتزلة، فقالوا بنفى عذاب القبر؛ وذلك بناء على قولهم أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب"(٣)

قال ابن حزم: "ذهب ضرار بن عمرو الغطفاني أحد شيوخ المعتزلة إلى إنكار عذاب القبر، وهو قول من لقينا من الخوارج، وذهب أهل السنة وبشر بن المعتمر والجبائي وسائر المعتزلة إلى القول به، وبه نقول لصحة الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك" . (٤)

وقد نسب أبو الحسن الأشعري نفي عذاب القبر إلى المعتزلة والخوارج،(٥)

كما نسبه البغدادي إلى الجهمية والضرارية،(٦)

ونسب الملطي إلى جهم بن صفوان إنكار عذاب القبر ومنكر ونكير. (٧)

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٤/ ٢٦٢).

(٢) الإبانة عن أصول الديانة (ص: ١٤).

(٣) مقالات الإسلاميين (٢/ ١١٦)، ودراسات فى الفرق الإسلامية (ص: ١٧٣).

(٤) الفصل في الملل والنحل والأهواء (٤/ ٦٦).

(٥) المقالات (٢/ ١١٦).

(٦) أصول الدين (ص: ٢٤٥).

(٧) التنبيه والرد على أهل الأهواء (ص: ١٢٤).

والأرجح بالنسبة للمعتزلة أن جمهورهم على القول بعذاب القبر، كما حكى ذلك عنهم القاضي عبد الجبار، فقد ذكر: "فصل فى عذاب القب" وقال: "بأنه لاخلاف في ذلك بين الأمة، كما أنه قد بين أن ابن الراوندي هو الذي يشنع علي المعتزلة، ويدعى أنهم ينكرون عذاب القبر، ثم أورد الأدلة على إثباته من القرآن والسنة. (١)

وقال أيضًا ما نصه: "إنما أنكر ذلك أولًا: ضرار بن عمرو، لما كان من أصحاب واصل ظن ذلك مما أنكرته المعتزلة وليس الأمر كذلك، بل أكثر شيوخنا يقطعون بعذاب القبر، وإنما ينكرون قول جماعة سنن الجهلة إنهم يعذبون وهم موتى، ودليل العقل يمنع من ذلك. ا. هـ (٢)

كذلك فقد قال الزمخشرى عن سورة الملك: "وتسمى: الواقية، والمنجية، لأنها تقى وتنجي قارئها من عذاب القبر "(٣)

شبهتهم

والمخالفون الذين خالفوا أهل السنة في هذا الأصل فنفوا القول بإثبات عذاب القبر قد جاء فساد تأصيلهم في أنهم قد حكموا العقل وردوا عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فقاسوا الأمور الغيبية على الأمور المشاهدة، وحكموا العقل فيما جاءت به النصوص في أن هذا يعقل، وأن هذا لا يعقل.

فتراهم لا يؤمنون بما يحدث في القبر؛ لأنهم عقلانيون، فيسمون أدلة الشرع ظنية، فأما أدلة العقل عندهم فهي يقينية، وهم فى ذلك قد نسوا أو قل تناسوا أن عذاب القبر وفتنة القبر أمر غيبي، والأمور الغيبية مجالها الاعتقاد؛ لأنها لا تدرك بالنظائر ولا تدركها العقول؛ بل تحار فيها العقول، فيجب الإيمان بها والتسليم على نحو ما جاء في الخبر الصادق في الوحي.

ومن شبهاتهم النفاة قالوا: إنا نرى شخص الميت مشاهدة وهو غير معذب، وكذلك فإن

---

(١) "شرح الأصول الخمسة " (ص: ٧٣٠).

(٢) "الاعتزال وطبقات المعتزلة " (ص: ١٦٧).

(٣) الكشاف (٤/ ٥٧٤) والانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٣/ ٧١٢) تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف.

الميت ربما تفترسه السباع وتأكله!!

وجوابه:

أن هذا هوس؛ أما مشاهدة الشخص فهو مشاهدة لظواهر الجسم، والمدرك للعقاب جزء من القلب أو من الباطن كيف كان، وليس من ضرورة العذاب ظهور حركة في ظاهر البدن، بل الناظر إلى ظاهر النائم لا يشاهد ما يدركه النائم من اللذة عند الاحتلام ومن الألم عند تخيل الضرب وغيره، ولو انتبه النائم وأخبر عن مشاهداته وآلامه ولذاته من لم يجر له عهد بالنوم لبادر إلى الإنكار اغترارا بسكون ظاهر جسمه.

فتعسا لمن ضاقت حوصلته عن تقدير اتساع القدرة لهذه الأمور المستحقرة بالاضافة إلى خلق السموات والأرض وما بينهما، مع ما فيهما من العجائب. [(١)]

ثم يقال لمن يشكل بعدم تحقق رؤية عذاب القبر بالبصر: أن الله – عزوجل – يبتلى عباده بالتكاليف الشرعية اختبارا وامتحانا لهم، وهذه التكاليف شاملة لباب العلم والعمل:

أ) ففي باب العمل:

يكلفهم بجملة من العبادات الشرعية، والتي منها ما يكون غير معلوم الحكمة، فيجمع لهم بين التكليف بالاستسلام وتكليف القيام بالعمل.

ب) وفي باب العلم:

فقد يختبر الله –تعالى –عباده بالإيمان بالغيبيات التي تتالت النصوص بإثباتها، فيظهر هنا من يؤمن بالغيب ممن هو منه في شك، إذ لو عاين العباد الغيبيات لزالت حكمه التكليف والإيمان بالغيب، ومن هذا الباب فقدا اقتضت الحكمة أن يكون عذاب القبر خفيًا؛ لأنه لو كان أمرًا ظاهرًا لما كان الإيمان به إيمان بالغيب، والإيمان النافع المنجي إنما هو الإيمان بالغيب.

لذا فقد كان أول ما مدح الله–تعالى–به أهل الإيمان فى كتابه أنهم يؤمنون بالغيب، فقد قال تعالى [البقرة: الآيات: ١ – ٣].

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (١١٨).

وأضف الي ذلك أنه قد اقتضت حكمة الله -تعالى-أن لا يكون عذاب القبر ظاهرا، إذ لو كان ظاهرا لما تدافن الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه). (١)

وأما قولهم بعدم حدوث عذاب القبر لمن أكله سبع أو حرق!!

فجوابه:

فذكر العذاب والحاقه بالقبر إنما خرج على الغالب فلا مفهوم له؛ فالمصلوب والمحروق والغريق ومن أكلته السباع لهم من عذاب البرزخ ونعيمه بحسب ما تقتضيه أعمالهم، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما.

وإلا فسيقال من باب الإلزام بعدم بعث من أكلته السباع أو حرق، ومثل هذا مما لم يقل به نفاة القول بعذاب القبر، فكما قيل فى قوله تعالى [يس: الآية: ٥٢] أنه خرج على الغالب، مع إثبات البعث لمن لم يكن له مرقد، كالمحروق ومن أكلته السباع، فكذا يقال بإثبات عذاب القبر ونعيمه لمن لم يقبر.

وقد ورد في حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له). (٢)

قال ابن القيم: "ومما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى

(١) أخرجه مسلم (٧١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).

المقبور"[١]

ويلخص ما سبق كلام بديع للسمعانى، لما ذكر أمور الغيب من عذاب القبر وسؤال الملكين والحوض والميزان والصراط، قال-رحمه الله-: "وهذه أمور لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئًا من أمور الدين وعقلناه وفهمناه فلله الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق، وما لم يمكنا إدراكه وفهمه ولم تبلغه عقولنا آمنا به وصدقنا واعتقدنا أن هذا من قبل ربوبيته وقدرته، واكتفينا في ذلك بعلمه ومشيئته، وقال تعالى في مثل هذا .[الإسراء: الآية: ٨٥]"[٢]

* تنبيه وتصحيح:

قد ذهب بعض المعتزلة إلى أن الله – سبحانه –يعذب الموتى في قبورهم، ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها، وقالوا بأن سبيل المعذبين من الموتى كسبيل السكران والمغشى عليه لو ضربوا لم يجدوا الآلام، فإذا عاد عليهم العقل أحسوا بألم الضرب.[٣]

*وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك، وبين أن الأمر على خلاف ذلك، فقال رحمه الله: "ولا يجوز أن يقال ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب مثلما يجده النائم في منامه؛ بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم. وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك إذا قال السائل: الميت لا يتحرك في قبره والتراب لا يتغير، ونحو ذلك.

---

(١) الروح (ص: ٥٨).

(٢) الانتصار لأصحاب الحديث (ص: ٨٢).

(٣) الروح (ص: ٥٨).

مع أن هذه المسألة لها بسط يطول وشرح لا تحتمله هذه الورقة والله أعلم"[(١)] [(٢)].

مصير الروح بعد الموت:

الحياة البرزخية فيها أمور كثيرة ثابتة، ومنها كون الإنسان يأتيه عمله، فإن كان صالحاً أتاه على أحسن صورة، وإن كان غير صالح أتاه على أقبح صورة.

وإذا كان الميت من أهل الجنة فتح له باب إلى الجنة ورأى مقعده فيها، وإذا كان من أهل النار فتح له باب من النار فيرى مقعده فيها.

وقد ثبت عودة الروح للإنسان في قبره على نحو الله أعلم به، فإن الإنسان إذا دفن في قبره تأتيه روحه فيحس ويتنعم ويتألم ويشعر بمن حوله بعد الدفن مباشرة ويسمع وقع نعال الذين يدفنونه كما ورد عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم) [(٣)].

هذا أمر معروف، فالمؤمن يفتح له باب إلى الجنة، والكافر يفتح له باب إلى النار، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، وأما المؤمن فيفسح له في قبره مد البصر.

ثم تسل روح المؤمن بلا ألم كما تسل الشعرة من العجين، وأما الكافر فإنها تنزع روحه نزعاً كما ينزع السفّود من الصوف المبلول.

ومعلوم أن الروح لها ثلاث تعلقات:

التعلق الأول: في الحياة الدنيا: فالبدن هو الأصل في الحياة الدنيا؛ لذلك الأحكام معلقة بالبدن في الحياة الدنيا، والروح تبع.

التعلق الثاني: وفي البرزخ: الأصل هو الروح والبدن تبع

التعلق الثالث: ويوم القيامة: فالتعلق بالروح والبدن معاً.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٦).

(٢) المصدر: الأربعين العقدية لأيمن إسماعيل (٢/ ٨٨٥-٨٩٢).

(٣) رواه البخاري (**١٢٧٣**).

فلذلك الأحكام تكون على هذه الأحوال، ففي أمور البرزخ الأصل يكون فيه للروح، فنحن نعلم أن الروح تفارق البدن عند الموت فإذا كانت روح مؤمنة أودعت في كفنٍ من أكفان الجنة ثم صُعد بها إلى السماء حتى تُفتح لها أبواب السماء، ثم يكون هناك موطنها من الجنة، إما في أجواف طيرٍ خضر أو في قناديل معلقة تحت العرش، أما إذا كانت روح خبيثة فإنها تُغلق عنها أبواب السماء.

ثم إذا وضع الإنسان في قبره عند تلك اللحظة تعود إليه روحه، فيُسأل ثم بعد ذلك يكون للبدن نعيمه أو عذابه، ويكون للروح نعيمها أو عذابها، حتى إذا كان يوم القيامة وقع الأمر على الروح والبدن معاً إما نعيمٌ وإما عذاب.

وأرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها، وقد استقرأنا النصوص الواردة في ذلك فأفادتنا التقسيم التالي:

أولاً: **أرواح الأنبياء**، وهذه تكون في خير المنازل في أعلى عليين، في الرفيق الأعلى، وقد سمعت السيدة عائشة الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر لحظات حياته يقول: (**اللهمَّ الرفيق الأعلى**).(١)

الثاني: **أرواح الشهداء**، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦] ، وقد سأل مسروق عبد الله بن مسعود عن هذه الآية، فقال: (إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: "أرواحهم في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل) رواه مسلم في صحيحه(٢) وهذه أرواح بعض الشهداء لا كل الشهداء، لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في المسند عن عبد الله بن جحش)أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، مالي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما

---

(١) رواه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) رواه مسلم (١٨٨٧).

ولّي، قال: إلا الدين، سارني به جبريل آنفاً)[١].

الثالث: أرواح المؤمنين الصالحين: تكون طيوراً تعلق في شجر الجنة، ففي الحديث الذي يرويه عبد الرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة)** رواه أحمد[٢].

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء:

أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش.

أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها. وكون أرواح المؤمنين في أجواف طير يعلق شجر الجنة لا يشكل عليه الحديث الآخر الذي يرويه أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه **(أن الملائكة تقبض روح العبد المؤمن، وترقى به إلى السماء، فتقول الملائكة: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشدُّ فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه، فإنه كان في غم الدنيا، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية)**[٣]، فإن روح المؤمن تلتقي بأرواح المؤمنين في الجنة.

الرابع: أرواح العصاة: ... أن الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب بكلوب من حديد يدخل في شدقه حتى يبلغ قفاه، والذي نام عن الصلاة المكتوبة يشدخ رأسه بصخرة، والزناة

---

(١) رواه أحمد (٤/٣٥٠) (١٩١٠٠). قال الهيثمي في **(مجمع الزوائد)** (٤/١٣٠): فيه أبو كثير وهو مستور وبقية رجاله ثقات. وقال الألباني في **(إرواء الغليل)** (٥/١٩): إسناده جيد.

(٢) رواه أحمد (٣/٤٥٥) (١٥٨١٤). قال الألباني في **(سلسلة الأحاديث الصحيحة)** (٢/٦٩٤)، وشعيب الأرناؤوط محقق **(المسند)**: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) رواه النسائي (٤/٨)، وابن حبان (٧/٢٨٤) (٣٠١٤)، والحاكم (١/٥٠٤). وقال: سنده صحيح، وقال العراقي في **(تخريج الإحياء)** (٥/٢١٢): إسناده صحيح، وصححه الألباني في **(صحيح سنن النسائي)**.

والزواني يعذبون في ثقب مثل التنور، ضيق أعلاه، وأسفله واسع، توقد النار من تحته، والمرابي يسبح في بحر من دم، وعلى الشط من يلقمه حجارة[(١)] وقد ورد في الأحاديث التي تتحدث عن عذاب الذي لم يكن يستنزه من بوله، والذي يمشي بالنميمة بين الناس، والذي غلَّ من الغنيمة ونحو ذلك.

الخامس: أرواح الكفار: في حديث أبي هريرة عند النسائي بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره في الجنة، ذكر حال الكافر، وما يلاقيه عند النزع، وبعد أن تقبض روحه **(تخرج منه كأنتن ريح، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح، حتى يأتون به أرواح الكفار)**[(٢)].

إشكال وجوابُه:

قد يقال: سقت من النصوص ما يدل على أن الأرواح تعاد إلى الأبدان، ثم تُسأل، وبعد ذلك ينعم المؤمن، ويعذب الكافر، فكيف تقول بعد ذلك: إن نسم المؤمنين في الجنة، ونسم الكفار في النار؟

حاول ابن حزم أن يضعف الأحاديث التي تذكر إعادة الروح إلى البدن في القبر، ولكن ليس الأمر كذلك، فإن ما ضعفه ابن حزم وهو حديث زاذان عن البراء حديث صحيح، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة متواترة تدل على عود الروح إلى البدن كما يقول ابن تيمية[(٣)]

وفي التوفيق بين النصوص يقول ابن تيمية: "وأرواح المؤمنين في الجنة، وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن، كما أنها قد تكون في البدن، ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم، أما كونها في الجنة ففيه أحاديث عامة، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء، واحتجوا

---

(١) الحديث رواه البخاري (٧٠٧٤). من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) رواه النسائي (٨/٤)، وابن حبان (٢٨٤/٧) (٣٠١٤)، والحاكم (٥٠٤/١). وقال: سنده صحيح، وقال العراقي في **(تخريج الإحياء)** **(٢١٢/٥)**: إسناده صحيح، وصححه الألباني في **(صحيح سنن النسائي)**.

(٣) **(مجموع الفتاوى)** **(٤٤٦/٥)**.

بالأحاديث المأثورة العامة وأحاديث خاصة في النوم وغيره". [١]

ثم ذكر بعض هذه الأحاديث التي سقناها من قبل، وأورد حديث أبي هريرة الذي رواه ابن حبان وغيره، والذي يذكر فيه أن المؤمن يرى بعد السؤال مقعده من الجنة، ومقعده من النار لو كان كافراً، قال: (**ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ويعاد جسده كما بدئ، وتجعل نسمته في نسم طيب، وهي طير تعلق في شجر الجنة**)[٢]، وفي لفظ)وهو طير يعلق في شجر الجنة)[٣]، وفي لفظ: (**ثم يعاد جسده إلى ما بدئ منه**) [٤]

فالروح كما يدل عليه الحديث تعاد إلى الجسد بعد الرحلة إلى السماء، ثم تسأل، ثم تكون طيراً يعلق بشجر الجنة إلى أن يبعث العباد، ومع كونها في الجنة فإنه يبقى لها تعلق بالجسد، كحال الإنسان في النوم، فإنها تجول في ملكوت السماوات والأرض، مع أن لها تعلق بالجسد، وفقه هذا مبني على معرفة أن الروح مخالفة للأجساد وللمعهود من حال المخلوقات الدنيوية، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن مستقر أرواح المؤمنين الجنة: (**ومع ذلك تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى، وهي في تلك بمنزلة نزول الملك، وظهور الشعاع في الأرض، وانتباه النائم**) [٥]. [٦]

وقد اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة:

---

[١])مجموع الفتاوى) (٥/٤٤٧).

[٢] رواه الترمذي (١٠٧١)، وابن حبان (٧/٣٨٠) (٣١١٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال: حسن غريب، وقال محمد المناوي في (**تخريج أحاديث المصابيح**) (١/١١٩) رجاله رجال مسلم، وحسنه ابن حجر في (**تخريج مشكاة المصابيح**) (١/١١٥) كما قال ذلك في المقدمة.

[٣] رواه الترمذي (١٠٧١)، وابن حبان (٧/٣٨٠) (٣١١٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال: حسن غريب، وقال محمد المناوي في (**تخريج أحاديث المصابيح**) (١/١١٩) رجاله رجال مسلم، وحسنه ابن حجر في (**تخريج مشكاة المصابيح**) (١/١١٥) كما قال ذلك في المقدمة.

[٤] رواه الطبري في تفسيره (١٦/٥٩٦-٥٩٧).

[٥])مجموع فتاوى ابن تيمية) (٢٤/٣٦٥).المصدر: القيامة الصغرى لعمر بن سليمان الأشقر، ص ١٠٢-١٠٦.

[٦] المصدر: القيامة الصغرى لعمر بن سليمان الأشقر، ص ١٠٢-١٠٦.

فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

وقيل: على أفنية قبورهم.

وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة، تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله عز وجل، ولم يزيدوا على ذلك.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت!

وقال كعب: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكافرين في سجين في الأرض السابعة تحت خد إبليس!

وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت.

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن شماله.

قال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش، تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتي ربها كل يوم تسلم عليه.

وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض. وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن، كحياته وإدراكه! وقولهم مخالف للكتاب والسنة.

وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح! وهذا قول التناسخية منكري المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم.

...ويتلخص من أدلتها: أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت،

فمنها: أرواح في أعلى عليين، في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون في منازلهم.

ومنها أرواح في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه. كما في (**المسند**) عن عبدالله بن جحش: (**أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: مالي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولى، قال: إلا الدين، سارني به جبرائيل آنفا**) [(١)]

ومن الأرواح من يكون محبوساً على باب الجنة، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة**)[(٢)]

ومنهم من يكون محبوساً في قبره.

ومنهم من يكون في الأرض. ومنها أرواح في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة، كل ذلك تشهد له السنة، والله أعلم.

وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره، في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] فهي: أن الله تعالى: جعل أرواحهم في أجواف طير خضر. كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لما أصيب إخوانكم، يعني يوم أحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها،**

---

(١) رواه أحمد (**١٣٩/٤**) (**١٧٢٩٢**)، والنسائي في (**السنن الكبرى**) (**٢٣/٣**) والطبراني (**٢٤٧/١٩**). وقال الهيثمي في (**مجمع الزوائد**) (**١٢٧/٤**): رواه أحمد وفيه أبو كثير وهو مستور وبقية رجاله موثقون. وقال الألباني في (**شرح العقيدة الطحاوية**) (**٤٥٣**): صحيح.

(٢) رواه بنحوه أحمد (**١١/٥**) (**٢٠١٣٦**)، والطبراني في (**الأوسط**) (**٢٤٤/٣**). قال الهيثمي في (**مجمع الزوائد**) (**١٢٩/٤**): رواه الطبراني في (**الأوسط**) وفيه أسلم بن سهل الواسطي قال الذهبي: لينه الدارقطني، وهذه عبارة سهلة في التضعيف وبقية رجاله ثقات. وقال الألباني في (**شرح العقيدة الطحاوية**) (**٤٥٥**): صحيح.

وتأوي إلى قناديل من ذهب مظلة في ظل العرش) الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود[(١)]، وبمعناه في حديث ابن مسعود رواه مسلم.[(٢)] فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان، أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها. ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير، أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير. وتأمل لفظ الحديثين، ففي **(الموطأ)** أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **(إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)** [(٣)].فقوله نسمة المؤمن تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: هي في جوف طير خضر، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت أعلى درجة من كثير منهم، فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم.

وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روي في **(السنن)**[(٤)].

وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو لم يتغير، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة، والله أعلم.

---

(١) رواه أبو داود (**٢٥٢٠**)، وأحمد (**١/٢٦٥**) (**٢٣٨٨**)، والحاكم (**٢/٩٧**). والحديث سـكت عنه أبو داود. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في **(صحيح سنن أبي داود)**: حسن.

(٢) انظر: صحيح مسلم (**١٨٨٧**).

(٣) رواه مالك في **(الموطأ)** (**٢/٣٣٧**) بلفظ: **(طير)** بدلاً من **(طائر)**. والحديث رواه النسـائي (**٤/١٠٨**)، وابن ماجه (**٤٢٧١**)، وأحمد (**٣/٤٥٥**) (**١٥٨١٦**). قال ابن عبد البر في **(الاسـتذكار)** (**٢/٦١٤**)، وابن العربي في **(عارضـة الأحوذي)** (**٤/١٢٥**)، وابن حجر في **(توالي التأسيس)** (**١/٢٠٣**)، والألباني في **(صحيح سنن ابن ماجه)**: صحيح.

(٤) الحديث روي في **(الســنن)** بلفظ: **(إن الله عزو جل حرم على الأرض أجســاد الأنبياء)**. رواه أبو داود (**١٠٤٧**)، والنسـائي (**٣/٩١**)، وابن ماجه (**١٦٣٦**). قال الحاكم (**١/٤١٣**): هذا حديث صـحيح على شـرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني في **(صحيح سنن ابن ماجه)**: صحيح.

وكأنه-والله أعلم-كلما كانت الشهادة أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول.[(١)]

(١) المصدر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي-بتصرف-٢/٥٨٢.



منكر ونكير حق

[٣٧]- قال المصنف رحمه الله: ومنكر ونكير حقٌّ، وهما فتَّانا القبور، نسأل الله الثبات.

الشرح

أولًا: إثبات الحياة البرزخية

وذلك لما ورد عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رؤوسنا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا... - ثُمَّ ذكر صفة قبض روح المؤمن ونعيمه في القبر ثم قال -: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ قَالَ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إلا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ فَيَقُولُونَ فُلانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيَقُولانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيَقُولانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ

أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا قَالَ فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا قَالَ ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ)[(١)].

والحياة البرزخية فيها أمور كثيرة ثابتة، ومنها كون الإنسان يأتيه عمله، فإن كان صالحاً أتاه على أحسن صورة، وإن كان غير صالح أتاه على أقبح صورة.

وإذا كان الميت من أهل الجنة فتح له باب إلى الجنة ورأى مقعده فيها، وإذا كان من أهل النار فتح له باب من النار فيرى مقعده فيها.

وقد ثبت عودة الروح للإنسان في قبره على نحو الله أعلم به، فإن الإنسان إذا دفن في قبره تأتيه روحه فيحس ويتنعم ويتألم ويشعر بمن حوله بعد الدفن مباشرة ويسمع وقع نعال الذين يدفنونه كما ورد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم [(٢)]).

هذا أمر معروف، فالمؤمن يفتح له باب إلى الجنة، والكافر يفتح له باب إلى النار، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، وأما المؤمن فيفسح له في قبره مد البصر.

ثم تسل روح المؤمن بلا ألم كما تسل الشعرة من العجين، وأما الكافر فإنها تنزع روحه نزعاً كما ينزع السفّود من الصوف المبلول.

عالم البرزخ من عالم الغيب الذي لا سبيل إلى العلم بتفاصيله إلا من جهة الخبر الصادق: الكتاب والسنة الصحيحة، وقد جاء فيهما كثير من التفاصيل التي تتحدث عما يواجهه الإنسان بعد الموت.

ومن التفاصيل التي وردت في ذلك: أن الميت يتعرف إلى من يزوره من الأحياء إذا كان

---

(١) رواه أحمد (١٧٨٠٣) وأبو داود (٤٧٥٣)، والحديث: صححه الشيخ الألباني في " أحكام الجنائز " (ص ١٥٦).

(٢) رواه البخاري (١٢٧٣).

يعرفهم في الدنيا، روى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: (ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا، فسلم عليه، إلا عرفه ورد عليه السلام [(١)])

ومما يقوي هذا الحديث أيضا الآثار المتكاثرة الواردة عن السلف في هذا الباب، حتى قال ابن القيم رحمه الله: "والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به "[(٢)]، ومثله يقول ابن كثير[(٣)] وقد جمع هذه الآثار الحافظ ابن أبي الدنيا في كتاب "القبور"، تحت باب "معرفة الموتى بزيارة الأحياء "، والقرطبي في "التذكرة"، كما جمعها الحافظ السيوطي في "شرح الصدور في أحوال الموتى وزيارة القبور"

وأما العلماء المتأخرون، فأكثرهم على تقرير هذا الوارد في كتب الأثر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الروح تشرف على القبر، وتعاد إلى اللحد أحيانا، كما قال النبي ﷺ: (ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام)[(٤)]، والميت قد يعرف من يزوره، ولهذا كانت السنة أن يقال:

---

(١) رواه ابن عبد البر في "الاستذكار" (١/١٨٥). ونقل ابن تيمية عن عبد الله بن المبارك ثبوت هذا الحديث، فقال: " قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي ﷺ " انتهى. "مجموع الفتاوى" (٢٤/٣٣١)، وكذلك صحح الحديث من المتأخرين: الحافظ عبد الحق الإشبيلي، والقرطبي في "المفهم" (١/٥٠٠)، وابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٢٤/١٧٣)، والعراقي في تخريج "إحياء علوم الدين" (٤/٤٩١)، والزبيدي في "شرح الإحياء" (١٠/٣٦٥)، والسيوطي في "الحاوي" (٢/٣٠٢)، والعظيم أبادي في "عون المعبود" (٣/٢٦١)، والشوكاني في "نيل الأوطار" (٣/٣٠٤) وغيرهم وللحديث شاهدان آخران عن أبي هريرة، وعن عائشة رضي الله عنهما، لكن في أسانيدهما ضعف لا يصلحان معه للاعتبار. انظر "السلسلة الضعيفة" للشيخ الألباني (رقم/٤٤٩٣).

(٢) "الروح"(ص: ٥).

(٣) "تفسير القرآن العظيم" (٦/٣٢٥).

(٤) أفاد الحافظ العراقي في تخريجه "إحياء علوم الدين" (٤/٥٢٢) أن ابن عبد البر خرجه في "التمهيد " و"الاستذكار" (١/ ١٨٥) بإسناد صحيح من حديث ابن عباس، وممن صححه–أيضا–الحافظ عبد الحق الاشبيلي في أحكامه (١/ ٨٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله– (الفتاوى ٢٤/٣٣١) "قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي ﷺ، وصححه عبد الحق صاحب "الأحكام".

وممن ضعفه: ابن حبان في (المجروحين ٢/٢٣) من حديث أبو هريرة، قال–فيه–عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقلب الأخبار وهو لا يعلم

=

(السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين)"[١]

ثانيًا: الأدلة على إثبات منكر ونكير

ومن الأحاديث الواردة في هذا: ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (إذا قبر الميت–أو قال: أحدكم–أتاه ملكان أســـودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير. فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا...)[٢] [٣].

وفي حديث أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ الْعَبْدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ: ما كُنْتَ تَقُولُ في هذا الرَّجُلِ؟ لِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فيقول: أَشْهَدُ أَنَّهُ عبد اللَّهِ وَرَسُولُهُ...)[٤].

وهذه الأحاديث متلقاة عند أهل العلم بالقبول، قال ابن أبي عاصــم: وفي المســاءلة أخبار

فاستحق الترك.

وابن–القيسراني (معرفة التذكرة ١٩٣) بضعف، فيه عبد الرحمن بن زيد.

وابن عساكر (تاريخ دمشق١٠/٣٨).

ومحمد ابن عبد الهادي (الصارم المنكي ٣٦٦) ضعيف، والمحفوظ موقوف.

والإمام الذهبي (العلل المتناهية١٣٥٠) و (ميزان الاعتدال ٢/٥٦٥) فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.

وقال في (سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٠) غريب، ومع ضعفه، ففيه انقطاع.

والألباني في (ضعيف الجامع ٥٢٠٨).

قال الشيخ ابن باز عليه رحمة الله (مجموع الفتاوي ١٣/ ٣٣٦) في إسناده نظر.

(١) مجموع الفتاوى" (٢٤/٣٠٣-٣٠٤).

(٢) رواه الترمذي (١٠٧١)، وابن أبي عاصـم في (السـنة) (٨٦٤). قال الترمذي: حسـن غريب. وحسـنه ابن حجر في (هداية الرواة) (١/١١٥) –كما أشار إلى ذلك في المقدمة –. وكذلك الألباني في (صحيح سنن الترمذي).

(٣) المصدر: تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، ص٢٨٩.

(٤) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

ثابتة، والأخبار التي في المساءلة في القبر منكر ونكير أخبار ثابتة توجب العلم، فنرغب إلى الله أن يثبتنا في قبورنا عند مسألة منكر ونكير بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. انتهى[(١)].

ومنكر ونكير هما ملكان جاء وصفهما في السنة بأنهما أسودان أزرقان، يأتيان العبد في قبره فيقعدانه ويسألانه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فأما المؤمن فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ، فينعم في قبره. وأما الكافر فلا يحار جوابا، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح منها صيحة يسمعها كل من يليه إلا الثقلين.

وورد تسمية الملكين في حديث أبي هريرة الذي عند الترمذي وغيره، وذكرهما يتقوى كما لا يخفى بالطريق التي عند الطبراني في المعجم الأوسط (٤٦٢٩)، وفيها ابن لهيعة وموسى ابن جبير الحذاء، وهذا الأخير وثقه ابن حبان وقال: يخطئ ويخالف، وفي ابن لهيعة كلام معروف، وباقي رجاله ثقات، فتسمية الملكين حسن بمجموع الطريقين، هذا بالإضافة أن تسميتهما وردت في أخبار أخرى مرسلة وموقوفة، وهي:

١-مرسل عطاء بن أبي رباح: أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (زوائده رقم٢٨١)، والآجري في الشريعة (رقم٨٦١-دار الوطن) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم١٠٣) من طريق إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله -ﷺ- لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "يا عمر كيف بك إذا أنت مت، فانطلق أهلك فقاسوا لك ثلاثة أذرع وشبر في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليه التراب، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما مثل البرق الخاطف، فتلتلاك وترثراك وهوّلاك، فكيف بك عند ذلك يا عمر ؟"، قال: يا رسول الله ومعي عقلي؟، قال: "نعم"، قال: "إذا أكفيكهما."

٢-مرسل عمرو بن دينار المكي: عند عبد الرزاق في المصنف (٣/٥٨٢-٥٨٣) بسند

(١) السنة: (ص٤١٩-٤٢٠).

صحيح عنه، ولفظه نحو الذي قبله، وذكر تسمية الملكين عن عبيد بن عمير.

فلا شك أن مجموع هذه الطرق يعطي قوة لتسمية الملكين، والله أعلم.

وأما قول منكر ونكير فقد ورد ذكرهما عن الصـــحابة وأئمة الســـلف رضـــوان الله عليهم أجمعين. ومن ذلك:

ما أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي من طريق غندر عن شعبة عن يعلى بن عطاء عن تميم بن غيلان بن سلمة قال: (جاء رجل إلى أبي الدرداء وهو مريض)... إلى أن قال أبو الدرداء: (ثم جاءك ملكان أسودان أزرقان جعدان أسماؤهما منكر ونكير...)[١]

ثالثًا: أقوال العلماء في إثبات منكر ونكير.

وقد ذكر جملة من أئمة السلف عبارة (منكر ونكير) وممن ذكره هذه العبارة:

قال الإمام أحمد بن حنبل: ".. وأن هذه الأمة تفتن في قبورها، وتســـأل عن الإيمان والإسلام، ومن ربه ومن نبيه، ويأتيه منكر ونكير، كيف شاء وكيف أراد.."[٢].

وورد أن أبا عبيد القاســم بن ســلام ســأل الإمام أحمد عنهما فقال: "هذه اللفظة (منكر ونكير) تقول هذا أو تقول ملكين؟، قال: نقول منكر ونكير وهما ملكان"[٣]

وقال أبوبكر الاسماعيلي: "ويؤمنون بمسألة منكر ونكير على ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ"[٤].

وقال أبي بكر بن أبي عاصم: "وفي المساءلة أخبار ثابتة والأخبار التي في المساءلة في القبر

---

(١) المصنف (٥٣/٣) (١١٤/٧)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١٣٣/١)، وهذا اسناد رجاله ثقات، وتميم بن غيلان بن سلمة ترجمه البخاري في التاريخ الكبير (١٥٣/٢)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٤٤١/٢)، وابن حبان في الثقات (٨٦/٤)، وهو ثقفي وروى عنه غير يعلى بن عطاء: ابن جريج وعبد العزيز بن أبي رواد، وما أحسبه سمع أبا الدرداء، والله أعلم.

(٢) أصول السنة (٣١).

(٣) طبقات ابي يعلى ٥٥/١.

(٤) اعتقاد أئمة الحديث (٧٠).

منكر ونكير أخبار ثابتة توجب العلم."[١]

وقال شيخ الاسلام: "إذا ثبتت الرسالة ثبت ما أخبر به الرسول مما ينكره بعض أهل البدع كعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وكالصراط والشفاعة" [٢].

وقال الإمام الطحاوي: (وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه ..) [٣] [٤].

وأما ما ورد في تفصـــيل صـــفة الملكين، وأن أعينهما مثل قدور النحاس، وأنيابهما مثل صياصي البقر، وأصواتهما مثل الرعد، ونحو ذلك أحاديث لا تصح.[٥]

وللناس في ســـؤال منكر ونكير: هل هو خاص بهذه الأمة أم لا ثلاثة أقوال: الثالث: التوقف، وهو قول جماعة، منهم: أبو عمر بن عبد البر، فقال: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ، قال :(إن هذه الأمة تبتلى في قبورها)[٦]، منهم من يرويه: تُســـأل[٧]، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خصـــت بذلك، وهذا أمر لا يقطع به، ويظهر عدم

---

[١] كتاب السنة (ص٤١٩-٤٢٠).

[٢] الأصفهانية (٢/٢١٤).

[٣] العقيدة الطحاوية (٥٠).

[٤] وانظر في ذلك كلام البربهاري في السنة (٣٧)، وصديق حسن خان في قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (١٣٣)، وابن قدامة في لمعة الاعتقاد (٢٦)، ومرعي الكرمي في أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصـــفات والآيات المحكمات (٢١٣)، والكلاباذي في التعرف لمذهب أهل التصوف (٥٧)، وابن عساكر في تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (٣٠٥).

[٥] انظر السلسلة الضعيفة (٣٥٨٥).

[٦] رواه مسلم (٢٨٦٧).

[٧] رواه الطبري في (تفسيره) (١٦/٦٠٠-٦٠١) عن الربيع، وأبي قتادة، وغيرهما. وعزاه ابن عبد البر في (التمهيد) (٢٢/٢٥٤) لابن أبي شيبة، وقال: وقال ابن أبي شيبة: تُسأل في قبورها. ولم أجده في (مصنفه) إنما روى الحديث (٣/٥٠) كما في (صحيح مسلم) -حيث رواه مسلم من طريق ابن أبي شيبة أصلاً-(إن هذه الأمة تبتلى في قبورها.(...

الاختصاص، والله أعلم"[(١)] [(٢)].

(١) انظر: (التمهيد) (٢٢/٢٥٣).

(٢) المصدر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ٢/٥٨١



الإيمان الحوض

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة الشرعية على إثبات الحوض.

المسألة الثانية: أقوال العلماء في إثبات الحوض.

المسألة الثالثة: هل الحوض هو الكوثر؟

المسألة الرابعة: الذين أنكروا الحوض.

المسألة الخامسة: الذين يذادون عن حوضه يوم القيامة.

المسألة السادسة: ما جاء في الأخبار أن لكل نبي حوضًا.

[٣٨]- قال المصنف رحمه الله: وحوض محمد ﷺ حقٌّ، [حوض] ترد عليه أمته، وله آنية يشربون بها منه.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة الشرعية على إثبات الحوض.

هذا الحوضُ المورود الذي أَعطاه الله لنبيه محمد ﷺ، كما قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

قال الإمامُ القرطبيُّ: "والصَّحيح: أنَّ للنبي ﷺ حَوْضَيْن:

أحدهما: في الموقف قبل الصِّراط.

والثَّاني: في الجَنَّة.

وكلاهما يُسَمَّى كوثرًا". (١)

وقد جاءت أحاديث كثيرة في وصفه؛ منها:

عن أبي عُبيدة أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: الآية: ١]، فقالت: "نَهرٌ أُعطيه نَبِيُّكم-صلى الله عليه وسلم-؛ شاطئاه عليه دُرٌّ مُجَوَّف، آنيته كَعَدد النُّجوم". (٢)

وعن أنس-رضي الله عنه-، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: (**بينما أنا أسيرُ في الجَنَّة إذ أنا بنهرٍ حافتاه قِباب الدُّرِّ المُجَوَّف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاك رَبُّك، فإذا طِينُه-أو طِيبُه-مِسك أذفر**). (٣)

(١) التذكرة (ص: ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٨١).

ومن الأحاديث التي ورد فيها ذكر الحوض:

- عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي"(١).
- وقوله-صلى الله عليه وسلم-للأنصار: **(اصبروا حتى تلقوني على الحوض)**. (٢)

المسألة الثانية: أقوال العلماء في إثبات الحوض.

روي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: "السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم". (٣)

وقال شيخُ الإسلامِ-رحمه الله تعالى-: "خَصَّ اللهُ نَبيَّه صلى الله عليه وسلم أنَّه أعطاه الكوثر، وهو من الخير الكثير الذي آتاه اللهُ في الدُّنيا والآخرة؛ فمما أعطاه في الدُّنيا الهُدى والنَّصر والتأييد وقُرَّة العَين والنَّفس وشرح الصدر، ونَعَّم قلبَه بذكرِه وحُبِّه بحيث لا يُشبه نعيمُه نعيمَ الدُّنيا البتة، وأعطاه في الآخِرَة الوسيلةَ والمقامَ المحمودَ، وجعلَه أَوَّلَ مَن يُفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه في الآخِرَة لواءَ الحمد والحوض العظيم في موقف القيامة، إلى غير ذلك". (٤)

وقد حكم جمعٌ من أهل العلم بتواتر السُّنَّة في ذلك، قال ابن أبي العِزّ: "الأحاديث الواردة في ذِكر الحوض تَبلغُ حَدَّ التواتر؛ رَوَاها من الصَّحابة بضعٌ وثلاثون صحابياً، ولقد استقصى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب ١٢. انظر: فتح الباري (٤/ ٩٩) ح ١٨٨٨، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة (٤/ ١٢٣).

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب الجزية، باب مَا أَقْطَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ البَحْرَيْنِ، وَمَا وَعَدَ مِنْ مَالِ البَحْرَيْنِ وَالجِزْيَةِ، وَلِمَنْ يُقْسَمُ الفَيْءُ وَالجِزْيَةُ، برقم (٣١٦٣)، ومسلم كتاب الزكاة، بَابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ برقم (١٠٥٩)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٣٣٤٧).

(٣) رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢٧-٥٢٨)، بتصرف يسير.

طرقَها شيخُنا عمادُ الدِّين ابنُ كثير-تَغَمَّدَه اللهُ برحمتِه في آخر تاريخه الكبير". [(١)]

المسألة الثالثة: هل الحوض هو الكوثر؟

قيل في ذلك أن المراد بالكوثر هو الحوض، وقيل المراد بالكوثر هو الخير الكثير،

تفسير الكوثر بالحوض والخير الكثير أو النهر الذي فيه الجنة لا تنافي بينها فقد جاءت كلها مبينة مفصلة عن النبي-صلى الله عليه وسلم-في حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه-، قال: "قال: بينا رسول اللَّه-صلى الله عليه وسلم-بين أظهرنا في المسجد إذ أغْفَى إغفاءةً ثم رفع رأسه متبسمًا قلنا ما أضحكك يا رسول اللَّه؟ قال: **(لقد أنزلت علي آنفًا سورة فقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. [الكوثر: الآيات: ١-٣]**)، ثم قال: **(أتدرون ما الكوثر؟)**. قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: **(فإنه نهر وعدنيه ربي-عز وجل-عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك)**. [(٢)]

وقد ورد تفسير الكوثر: بالخير الكثير عن ابن عباس-رضي اللَّه عنهما-، وقيل لسعيد بن جبير رحمه اللَّه -الراوي عن ابن عباس-إن ناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللَّه إياه.

وقال ابن كثير-رحمه اللَّه-: "وتفسيره بالخير الكثير يعم النهر وغيره لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير ومن ذلك النهر ثم قال: وقد صح عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه فسره بالنهر أيضًا". [(٣)]

... والراجح -والله أعلم- هو التفريق بينهما، فإن الكوثر:

---

(١) شرح الطحاوية **(ص: ٢٢٧)**.

(٢) رواه مسلم **(٤٠٠)**.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير رحمه الله **(٩/ ٣١٢-٣١٥)** في تفسير سورة الكوثر.

هو نهر في الجنة، أعطاه الله -تعالى- للنبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: الآية: ١].

وعن أنس -رضي الله عنه-، قال: لما عرج بالنبي -صلى الله عليه وسلم- إلى السماء، قال: **(أتيت على نهر، حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر)**. (١)

وعن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما-، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج)**. (٢)

وأما الحوض: فإنه في العرصات خارج الجنة، يرده المسلمون قبل دخولهم الجنة، ويستمد الحوض مائه من نهرين من داخل الجنة، كما ورد عن أبي ذر -رضى الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال عن الحوض، **(يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل)**. (٣)

فإن قيل: قد روى أنس -رضى الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: الآيات: ١-٣] ثم قال: **(أتدرون ما الكوثر؟)**. فقلنا: "الله ورسوله أعلم"، قال: **(فإنه نهر وعدنيه ربي -عز وجل-، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم)**. (٤)

فظاهر ذلك أن الكوثر هو نفسه حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٦١) وقال: "حسن صحيح".

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٠٠) .

(٤) أخرجه مسلم (٤٠٠).

فجوابه من وجهين:

١ - الأول: الكوثر نهر داخل الجنة، ويأتي وماؤه يصب في الحوض ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه. (١)

٢ - الثاني: أن حديث أنس-رضى الله عنه-، هذا قد ورد فيه تفسير الحوض بالكوثر على المعنى اللغوي الذي هو الخير الكثير، وليس المعنى الاصطلاحي الذي هو الكوثر الذي هو نهر في الجنة، وهو المراد في حديث ابن عمر -رضى الله عنهما- السابق. (٢)

المسألة الرابعة: الذين أنكروا الحوض.

الذين أنكروا الحوض: هم طائفة قليلة من أهل البدع والضلال، وبعض فرق الخوارج، وبعض المعتزلة وتأولوه وَقَالُوا: لا يثبت للنبي-صلى الله عليه وسلم-حوض، وإنما هذا كناية عن الكرم والعطاء.

ونقل إنكار الحوض في أواخر عصر الصحابة، وكان عبيد الله بن زياد الأمير الأموي المعروف ينكر وجود الحوض ويرده، فكان الصحابة-رضي الله عنهم وأرضاهم-، يخبرونه بما سمعوا من النبي-صلى الله عليه وسلم-أن لنبي الله عليه السلام حوضًا، حتى إنه سأل أبا برزة الأسلمي-رضي الله عنه-: هل سمعت النبي-صلى الله عليه وسلم-يذكر الحوض؟ فقال أبو برزة-رضي الله عنه وأرضاه-: ما سمعته مرة، ولا مرتين، ولا ثلاثًا، ولا أربعًا، ولا خمسًا، بل سمعته أكثر من ذلك، لا سقى الله من كذب به. يريد أن يخوف عبيد الله بن زياد. (٣)

وروى حميد عن أنس قال: "دخلنا على عبيد الله بن زياد وهم يتذاكرون الحوض فقلت: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت خلفي عجائز ما تصلي

---

(١) انظر فتح الباري (١١/ ٦٥٠)، وخصائص المصطفى بين الغلو والجفاء (ص: ٥٢).

(٢) المصدر: كتاب الأربعون العقدية (٢/ ٢٠٠٣-٢٠٠٥).

(٣) أخرجه أبو دارد رقم (٤٧٤٩) في السنة باب في الحوض.

امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض محمد".[١]

ثم أخبره ابن عمر وبعض الصحابة في هذا، وورد أنه قال: أشهد أن الحوض حق.

قال ابن كثير ردًا على من ينكر الحوض، قال رحمه الله: "ذكر ما ورد في الحوض النبوي المحمدي - سقانا الله منه يوم القيامة - من الأحاديث المتواترة المتعددة من الطرق الكثيرة المتضافرة؛ و إن رغمت أنوف كثيرة من المبتدعة المعاندة المكابرة، القائلين بجحوده، المنكرين لوجوده، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده، كما قال بعض السلف: "من كذب بكرامة لم ينلها".[٢]

المسألة الخامسة: الذين يذاذون عن حوضه يوم القيامة.

قال العلماء-رضي اللَّه عنهم-: "إن ممن يذاد عن حوض النبي-صلى اللَّه عليه وسلم-جنس المفترين على اللَّه وعلى رسوله-صلى اللَّه عليه وسلم-الكذب، المحدثين في الدين ما ليس منه من الخوارج والروافض والجهمية وسائر أصحاب الأهواء المخلة، والبدع المضلة، وكذا المسرفون من الظلمة المفرطون في الظلم والجور وطمس الحق، وكذا المتهتكون [٣] في ارتكاب المناهي، والمعلنون في اقتراف المعاصي. . . ".[٤]

ففي صحيح مسلم من حديث أنس-رضي اللَّه عنه-: **(هل تدرون ما الكوثر؟ هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج**[٥] العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي **(فيقول)** إنك لا تدري ما أحدث بعدك).[٦]

---

(١) الكشف والبيان للثعالبي (**سورة الكوثر: الآية: ١**).

(٢) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (**ص: ٣١٣**).

(٣) المتهتكون: قال في القاموس: "ورجل منهتك، ومتهتك، ومستهتك: لا يبالي أن يهتك ستره. . . " والمعنى أنهم لا يبالون بالفضيحة (**القاموس: هتك**).

(٤) لوامع الأنوار (**٢/ ١٩٧**)، والتذكرة للقرطبي (**ص: ٣٦٧**).

(٥) يختلج: أي يجتذب ويقتطع. النهاية (**٢/ ٥٩**).

(٦) رواه مسلم رقم (**٤٠٠**) في الصلاة باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة.

وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **(ليردن على الحوض أقوام فيختلجون دوني فأقول ربي أصحابي رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)**. [(١)]

وأخرج الإمام أحمد والطبراني والبزار عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-يقول: "أنا فرطكم على الحوض فمن ورد أفلح ويجاء بأقوام فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب يا رب فيقال ما زالوا بعدك مرتدين على أعقابهم". [(٢)]

وأخرج الحكيم [(٣)] في نوادر الأصول عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "يا عثمان لا ترغب عن سنتي فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة". [(٤)]

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **(يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي -أو قال من أمتي- فَيُحَلأون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي (فيقول إنه)** لا علم لك ما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى). [(٥)]

وفي رواية: "فيجلون".

---

(١) مسلم في الفضائل باب إثبات حوض نبينا -صلى الله عليه وسلم- وصفاته (٤/ ١٧٩٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٥٧)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٣، ١٢/ ٧١)، وفي الأوسط (٣/ ٤١٦-٤١٧)، والبزار كما في كشف الأستار (٢/ ٢١٠) رقم (١٥٣٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٤)، وفي إسناده عندهم ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجالهم ثقات.

(٣) نوادر الأصول للحكيم الترمذي (٢/ ١٤٨).

(٤) ذكره القرطبي في التذكرة، وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث عثمان بن مظعون عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أنه قال في آخره: "يا عثمان لا ترغب عن سنتي. . . " الحديث. قال: "وقد ذكرناه بكماله في آخر كتاب: قمع الحرص بالزهد والقناعة" انتهى. التذكرة (ص: ٣٦٨)، ولوامع الأنوار (٢/ ١٩٩).

(٥) رواه البخاري (١١/ ٤٨٣) في الرقاق باب في الحوض، ومسلم رقم (٢٤٧) في الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء.

قال في جامع الأصول: "اختلجوا": استلبوا وأخذوا بسرعة."

وقوله: فيحلأون: يعني مبنيًا للمفعول: أي يدفعون عن الماء ويطردون عن وروده، إذا كان بالحاء المهملة ومن رواه بالجيم فهو من الجلاء وهو النفي عن الوطن وهو راجع إلى الطرد".[(١)]

وفي رواية عند البخاري أن رسول اللَّه –صلى اللَّه عليه وسلم– قال: (**بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم. قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار واللَّه. قلت: ما شأنهم؟. قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقهرى. ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم: هلم. قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار واللَّه. قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل**[(٢)] النعم).[(٣)]

وفي الصحيحين من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق–رضي اللَّه عنهما–، قالت، قال رسول اللَّه–صلى اللَّه عليه وسلم–: (**إني على الحوض انتظر من يرد عليّ منكم وسيؤخذ أُناس دوني فأقول يارب مني ومن أمتي فيقال هل شعرت ما عملوا بعدك واللَّه ما برحوا يرجعون على أعقابهم**).[(٤)]

ورواه الشيخان–أيضًا–من حديث أبي سعيد الخدري–رضي اللَّه عنه–، وزاد: (**فأقول سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي**).[(٥)]

قال القرطبي–رحمه اللَّه–: "قال علماؤنا: كل من ارتد عن دين اللَّه أو أحدث فيه ما لا يرضاه اللَّه ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين

---

(١) جامع الأصول (١٠/ ٤٧١).

(٢) همل النعم: النعم الهمل: الإبل الضالة والمعنى أن الناجي منها قليل كهمل النعم. جامع الأصول (١٠/ ٤٧١).

(٣) رواه البخاري (٦٥٨٧).

(٤) رواه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم رقم (٢٢٩٣).

(٥) رواه البخاري رقم (٦٥٨٤) ومسلم رقم (٢٢٩٠).

كالخوارج والروافض والمعتزلة على اختلاف فرقهم فهؤلاء كلهم مبدلون، ثم الطرد قد يكون في حال ويقربون بمد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد قال: وقد يقال إن أهل الكبائر يردون ويشربون وإذا دخلوا النار بعد ذلك لم يعذبوا بالعطش".انتهى.(١)

فأهل البدع مطرودون عن حوض النبي-صلى الله عليه وسلم-، ومردودون عن الشرب منه والله أعلم.(٢)

المسألة السادسة: ما جاء في الأخبار أن لكل نبي حوضًا.

فأخرج الترمذي من حديث سمرة بن جندب-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (**إن لكل نبي حوضًا ترده أمته وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة**(٣) وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة).(٤)

وورد في بعض الأخبار "أن لكل نبي حوضًا إلا صالحًا عليه السلام فإن حوضه ضرع ناقته".(٥)

---

(١) التذكرة للقرطبي (**ص: ٣٦٧**) باختصار، ولوامع الأنوار (**٢/ ٢٠٠**).

(٢) لوائح الأنوار السنية للسفاريني (**٢/ ١٧٤-١٧٨**).

(٣) واردة: الجماعة ترد الماء. جامع الأصول (**١٠/ ٤٦٧**).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه رقم (**٢٤٤٣**) كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في صفة الحوض. وقال الترمذي: "هذا حديث غريب وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرسلًا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح"..

(٥) نسبه القرطبي في التذكرة: (**٣٦٨**) إلى البكرى المعروف بابن الواسطي. ومثل هذا الخبر لايثبت إلا بدليل صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-. والله أعلم، وانظر: لوائح الأنوار السنية للسفاريني (**٢/ ١٧٨**)

الصراط حق

[٣٩] – قال المصنف رحمه الله: والصراط حقٌّ، يوضع في سواء جهنم، فيمرُّ الناس عليه، والجنةُ من وراء ذلك. نسأل الله السلامة والجواز.

الشرح

الصِّراط: جِسر منصوب على مَتن جهنم بين الجَنَّة والنَّار، يَمُرُّ النَّاسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم.

قال السفاريني رحمه الله: "والصراط شرعًا: جِسر ممدود على مَتن جهنم يَرِده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخُلِق مِن حين خُلِقت جهنم".[(١)]

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: الآيتان: ٧١، ٧٢].

قال الشيخ السعدي: "هذا خطابٌ لسائر الخلائق؛ بَرِّهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم: أنَّه ما منهم مِن أحدٍ إلا سيرد النار حكمًا حَتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد مِن نفوذه، ولا محيد عن وقوعه".[(٢)].

فالناس سيردون جهنم؛ لأنَّ الصراط مَنصوب على مَتْنِها.

وتختلف أحوال الناس في المرور عليه، كما جاء عن ابن مسعود-رضي الله عنه-: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**يَرِدُ الناس النَّارَ، ثم يَصدرون عنها بأعمالهم؛ فأولهم كلمح البَرق، ثم كالرِّيح، ثم كحُضْر الفرس**[(٣)]، ثم كالرَّاكب في رَحْلِه، ثم كَشَدِّ الرَّجل ثم كمَشيه).[(٤)]

وقد جاء في وصفه أنه: صراطٌ دقيق جدًّا، فعن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-، أنه قال: "بَلغني أنَّ الجسر أدق من الشعرة، وأحَدُّ من السيف".[(٥)]

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ١٨٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٨٠).

(٣) أي: جريه، وهو العَدْوُ الشَّديد.

(٤) أخرجه الترمذي (**٣١٥٩**)، والدارمي (**٢٨٥٢**)، وقال: "حديث حسن"، وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" (**٢٥٢٦**).

(٥) أخرجه مسلم (**١٨٣**).

والصِّراط مِن عرصات وأهوال يوم القيامة، وأول مَن يجوز عليه: النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- وأمته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: (... **ويُضْرَبُ الصِّراط بين ظَهْري جَهَنَّم فأكونُ أنا وأُمَّتي أَوَّل مَن يُجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلَّا الرُّسل، ودَعوى الرُّسل يَومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مِثل شَوْك السَّعدان؛ هل رأيتم السَّعدان؟**)، قالوا: نَعم يا رسول الله. قال: (**فإنَّها مِثل شَوك السَّعدان غَير أنَّه لا يَعلم قَدْرَ عِظَمِها إلَّا الله عز وجل، تَخطف النَّاسَ بأعمالهم، فمَنهم المُوبق بعملِه، والمُوثق بعمله، ومنهم المُخَرْدَل والمُجَازَى**). [(١)]

قال الإمامُ القرطبيُّ -رحمه الله تعالى-: "فَتَفَكَّر الآن فيما يَحِلُّ بك من الفَزع بفؤادك إذا رأيتَ الصِّراط ودِقَّتَه، ثُمَّ وَقَعَ بصرُك على سَوَادِ جَهنم من تحته، ثم قَرَعَ سَمْعَك شَهيقُ النارِ وتَغَيُّظُها، وقد كُلِّفْت أن تَمشي على الصِّراط مع ضَعف حالك، واضطراب قلبك، وتَزَلْزُلِ قَدَمِك، وثِقَل ظَهْرك بالأوزار المانعة لك مِن المِشي على بساط الأرض فضلًا عن حِدَّة الصِّراط، فكيف بك إذا وَضَعْتَ عليه إحدى رِجليك فَأَحْسَسْتَ بِحِدَّتِه، واضطررت إلى أن تَرفع القَدَم الثاني، والخلائق بين يديك يَزِلُّون ويَعثرون، وتتناولهم زبانيةُ النَّار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فَتَسْفُل إلى جهة النار رُءوسهم، وتَعْلُو أَرْجُلُهم؛ فَيَا له مِن مَنظر ما أَفْظَعَه! ومُرْتَقًى ما أَصْعَبَه! ومَجاز ما أَضْيَقَه!". [(٢)]

ومع كل هذا فالمؤمن يمر عليه مرورًا سريعًا جدًّا.

ولذلك لا بد أن يعلم الإنسان أنه إذا أراد اجتياز الصراط إلى الجنة: أنه مطالب بمجاهدة نفسه في هذه الحياة؛ للثبات على منهج الله، وعليه النظر فيما هو مُقدم عليه من هذه الأهوال؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: الآية: ١٨]؛ وإذا كان الإنسان يحتاط جدًّا في سفر الدنيا وخاصة إذا سَمِع أن فيه مشقة، وأنه قد يُصيبه العنت فيه-فماذا قَدَّم ليوم القيامة وما فيه من كربات

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٢) التذكرة للقرطبي (ص ٢٨٩).

وأهوال؟

وليحاسب نفسه هنا: لماذا هذه الغشاوة التي على عينيه، ولماذا هذه الغفلة التي في قلبه عن هذا المصير المحتوم؟! ولماذا الركون إلى الدنيا وعدم استثمار الأنفاس فيما ينفع وينجي في هذا اليوم؟!

فكيف يوقن العبد بهذه الحقائق ومع ذلك يفرط في جنب الله؟!

ولماذا لا يجتهد في تحصيل مرضاة الله؟!

وليعلم كل امرئ أن نفسه إن لم يشغلها بالحق شغلته بالباطل، وأن الله قد أعطاه قوة كامنة في نفسه؛ إمَّا أن يُوجهها للخير، وإما أن يوجهها للشر، ولا ينفعه يوم القيامة إلا ما قَدَّمه من أعمال صالحة في هذه الحياة صار قلبه بها سليمًا؛ كما قال الله سبحانه وتعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: الآيات: ٨٧-٨٩].

فعلى حسب حال المؤمن هنا من التنافس في فعل الخيرات، والمسارعة إلى مغفرة الله-سيكون حاله في الآخرة على الصراط؛ فمن استقام على صراط الله **(منهجه)** في الدنيا-ثَبَّته الله على الصراط المنصوب على ظهر جهنم؛ فاللهم ثَبِّتنا وسَلِّمنا دنيا وآخرة.





الإيمان بالميزان

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى الميزان في اللغة.

المسألة الثانية: الأدلة على ثبوت الميزان.

المسألة الثالثة: معنى الميزان في الشرع

المسألة الرابعة: صفات الميزان.

المسألة الخامسة: خلاف العلماء في الميزان هل هو واحد أم متعدد؟



[٤٠]- قال المصنف رحمه الله: والميزان حقٌّ، توزن به الحسنات والسيئات، كما شاء الله أن توزن به.

الشرح

في هذا النص مسائل:

المسألة الأولى: معنى الميزان في اللغة:(١)

- **أصل الكلمة:**

أصله من مِوْزان؛ انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، وجمعه موازين.

قال الجوهري-رحمه الله تعالى-: "...وأصله مِوْزانٌ، انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها...ووزنتُ الشيء وزنًا وزِنَة، ويقال: وَزَنْتُ فلانًا ووَزَنْتُ لفلان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٣]، وهذا يزن درهمًا"(٢)

- **وزنها وتصاريفها**: الميزان مأخوذ من **(وَزَنَ)**، **(يَزِن)**، **(وزنًا)**، و**(زِنَةً)**، وأصله **(مِوزَان)** انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها فصار **(ميزان)**، ويتعدَّى باللام وبدونها.

قال ابن فارس-رحمه الله تعالى-: "الْوَاوُ وَالزَّاءُ وَالنُّونُ: بِنَاءٌ يَدُلُّ عَلَى تَعْدِيلٍ وَاسْتِقَامَةٍ: وَوَزَنْتُ الشَّيْءَ وَزْنًا، وَالزِّنَةُ قَدْرُ وَزْنِ الشَّيْءِ، وَالْأَصْلُ وَزْنَةٌ...وَهَذَا يُوَازِنُ ذَلِكَ، أَيْ: هُوَ مُحَاذِيهِ، وَوَزِينُ الرَّأْيِ: مُعْتَدِلُهُ، وَهُوَ رَاجِحُ الْوَزْنِ: إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ"(٣)

- **معانيها:**

قال الليث: **(الوزن ثقل شيء بشيء مثله)**(٤).

---

(١) المصدر: الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي ٢/ ١٠٨٣.

(٢) "الصحاح للجوهري، مادة: وزن، ٦/ ٢٢١٣.

(٣) "معجم مقاييس اللغة"؛ لأحمد بن فارس مادة: و-ز-ن، ٦/ ١٠٧.

(٤) لسان العرب ١٥/ ٢٠٦.

والميزان: اسم للآلة التي يوزن بها الأشياء، أو هو ما تُقَدَّرُ به الأشياء خفةً وثقلًا.

وقد أطلقت لفظة الوزن والميزان على عدة معان:

المعنى الأول: فهو يطلق ويراد به بيان قدر الشيء وقيمته، أو خسة الشيء وسقوطه، كما قال تعالى: ﴿فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: الآية: ١٠٥].

قال ابن الأعرابي: العرب تقول: "ما لفلان عندنا وزن أي قدر؛ لخسته، ويقال: وزن الشيء إذا قدره، وزن ثمر النخيل إذا خرصه"[(١)]

المعنى الثاني: أن الميزان يأتي في باب اللغة مرادًا به الميزان ذي الكفات.

المعنى الثالث: ويأتي مرادًا به العدل أيضًا.

المعنى الرابع: كما يأتي ويراد به الكتاب الذي فيه أعمال الخلق.

ثم قال: وهذا كله في باب اللغة والاحتجاج سائغ[(٢)].

وقال الراغب: الوزن معرفة قدر الشيء...والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسط والقبان.[(٣)]

ثم ذكر بعض الآيات التي تدل على أنه يأتي مراداً به المعادلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال، مثل قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: الآية: ١٨٢]، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: الآية: ٩].

وأنه يأتي بمعنى العدل في محاسبة الناس، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧].

- **استعمالاتها:**

(١) "تهذيب اللغة"؛ للأزهري، مادة: و-ز-ن، ١٣/ ١٧٥.

(٢)"تهذيب اللغة"؛ للأزهري، مادة: و ز ن، ١٣/ ١٧٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن"؛ للراغب الأصفهاني، ص: ٨٦٨.

أما الميزان؛ فهو: "الآلة التي يوزن بها الأشياء" ويجمع على: موازين.

"وجائز أن يقال للميزان الواحد–بأوزانه وجميع آلته–الموازين، قال الله–عز وجل–: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧] يريد نضع الميزان ذا القسط.وسيأتي تفصيل هذا.

وجاء إطلاق الموازين على الأعمال:

كما قال تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الأعراف: الآية: ٨]

قال الأزهري: "أراد والله أعلم–: فمن ثقلت أعماله التي هي حسناته"

وذكر الراغب: "أن مجيء الميزان على صيغة الجمع تارة، ومجيئه تارة أخرى بالإفراد فإنما هو باعتبار المحاسب والمحاسبين، فمجيئه بلفظ الواحد اعتباراً بالمحاسب، ومجيئه بالجمع اعتباراً بالمحاسبين"[(١)]

المسألة الثانية: الأدلة على ثبوت الميزان.

أولاً: الأدلة من القرآن:

ومن أدلة الكتاب العزيز:

- وقوله: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾**[الأعراف: الآيتان: ٨–٩]**.
- وقال–جل وعلا–: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧].
- وقال عز وجل: ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾ [القارعة: الآيات: ٦–٩]، وغير ذلك.

---

(١) الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي ٢/ ١٠٨٣.

ثانياً: الأدلة من السنة:

- عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، أنَّ رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-قال: (كَلِمَتان خَفِيفتان على اللِّسان، ثَقِيلتان في المِيزان، حَبِيبتان إلى الرَّحمن: سُبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم).[(١)]

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّه لَيُؤتى بالرَّجل العَظيم السَّمين يوم القيامة لا يَزن عند الله جناح بَعُوضة، وقال: اقْرءوا إن شئتم: ﴿**فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾ [الكهف: الآية: ١٠٥]).[(٢)]

- وعن عبد الله بن عُمر-رضي الله عنهما-، أنَّ رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-قال: (إنَّ الله سَيُخَلِّصُ رجلًا من أُمَّتي على رُءوس الخَلائق يوم القيامة، فَيَنْشُر عليه تِسعة وتِسعين سِجلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصر، ثُمَّ يقول له: أَتُنْكِر مِن هذا شيئًا؟ أَظَلَمَتك كَتَبَتي الحَافظون؟ قال: لا يا رب.فيقول: أَلَكَ عُذْرٌ أو حَسَنة؟ فيهيب الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة واحدة، لا ظُلم عليك؛ فَتُخرج له بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدًا رسولُ الله.فيقول: أَحْضِروه.فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات؟ فيُقال: إنَّك لا تُظلم.قال: فَتُوضع السِّجلات في كِفَّة والبطاقة في كِفَّة، قال: فَطاشت السِّجلات، وثَقُلت البِطاقة، ولا يَثْقُل شيءٌ بِسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم).[(٣)]

- وعن ابن مسعود-رضي الله عنه-: أنَّه كان يَجْني سِوَاكًا من الأَرَاك، وكان دقيقَ السَّاقين، فَجَعَلت الرِّيح تَكفؤه، فَضَحِك القومُ مِنه، فقال رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم-:)مِمَّ تَضْحَكُون؟(.قالوا: يا نَبِيَّ الله مِن دِقَّة سَاقيه.فقال:)والَّذي نَفْسِي بيدِه لَهُما أثقلُ في

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤٠٦ ومسلم ٢٦٩٤

(٢) أخرجه البخاري ٤٧٢٩، ومسلم ٢٧٨٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٢١٣ ٦٩٩٤، والترمذي ٢٦٣٩، وصححه الألباني في "الصحيحة" ١٣٥.

الميزان مِن أُحُدٍ).[(١)]

- وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ-رضي الله عنه-، قال: قال رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم: (الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ للهِ تَمْلَأُ الميزانَ).[(٢)]

ثالثاً: دليل الإجماع:

فقد أجمع السلف على ثبوت ذلك.

قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة؛ لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال؛ ليرى العباد أعمالهم ممثلةً ليكونوا على أنفسهم شهداء.

قال القرطبي: "قد بلغت أحاديثه-أي: الميزان-مبلغ التواتر، وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه"[(٣)]

- وقال في موضع آخر: "أَجْمَع أكابرُ مُحَقِّقي هذه الأمة من أهل السُّنَّة بأنَّ الإيمان بثبوت الوزن والميزان حقٌّ واجبٌ وفَرْضٌ لازبٌ لِثُبوته، وعدم استحالة ذلك عقلًا"[(٤)]

- قال السفاريني رحمه الله تعالى: "فَقَدْ دَلَّتِ الْآثَارُ عَلَى أَنَّهُ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ ذُو كِفَّتَيْنِ وَلِسَانٍ...وَقَدْ بَلَغَتْ أَحَادِيثُهُ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ، وَانْعَقَدَ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ"[(٥)]

المسألة الثالثة: معنى الميزان في الشرع.

الميزان في الشرع: هو ما يضعُه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ١١٤ ٩٢٠، وابن حبان في صحيحه ٧٠٦٩، وصححه الألباني في (الصحيحة) ٢٧٥٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٣.

(٣) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٨٤، ١٨٥.

(٤) لوائح الأنوار السنية ٢/ ١٧٩.

(٥) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٨٥.

والميزان الذي تُوزن بِهِ الأعمال هو: ميزان حسيٌّ حقيقي، له كفتان، وفي بعض الروايات: "ولسان"، والميزان عند أهل السنة ميزانٌ حقيقي توزن به أعمال العباد، وخالف في هذا القول المعتزلة وقلة قليلةٌ من أهل السنة.

أقوال علماء الأمة:

- قال السَّفارينيُّ: "قال علماؤنا كغيرهم: نُؤمن بأن الميزان الذي تُوزن به الحسنات والسيئات حقٌّ، قالوا: وله لسان وكفتان تُوزن به صحائف الأعمال؛ قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: تُوزن الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة.
- قال العلامة الشيخ مرعي في "بهجته": الصحيح: أنَّ المراد بالميزان: الميزان الحقيقي لا مجرد العدل، خلافًا لبعضهم.
- وقال القرطبي في "تذكرته": "قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها"[(١)]

الذين خالفوا قول الجمهور في الميزان:

قال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها؛ إذ لا تُقَوَّم بأنفسها.قال: وروى بعض المتكلمين عن ابن عباس: "أن الله تعالى يقلب الأعراض أجسامًا، فيزنها"، وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء، وعَزَا الطبري القول بذلك إلى مجاهد، والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو أن الميزان ميزان حقيقي توزنُ بِهِ أعمالُ العباد.[(٢)]

المسألة الرابعة: صفات الميزان.

الواقع أن العلماء لم يتفقوا على إثبات أوصاف الميزان-وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الجوانب

---

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/ ١٨٤، ١٨٥.

(٢) انظر: التذكرة ص: ٣٠٩.

في وجوب الإيمان بالميزان، ومواقف الناس في ذلك–وأما خلافهم في ثبوت صفاته فقد انقسموا إلى فريقين:

١–أما الفريق الأول: فهم المثبتون لصفات الميزان الحسية، من أن له كفتين...إلى آخر أوصافه، وهؤلاء وإن أثبتوا هذا لكنهم يرجعون صفة تلك الكفات واللسان إلى علم الله تعالى.

٢–أما الفريق الآخر: فهم النافون لتلك الصفات.

وسنذكر رأي الفريقين فيما يلي: –

(١) المثبتون لصفات الميزان:

يثبت هؤلاء–وهم جمهور العلماء–أن الميزان له كفتان حسيتان مشاهدتان، وله لسان كذلك.

يقررون هذه الحقيقة غير ملتفتين إلى من تشمئز قلوبهم من سماعها، لعدم قبول عقولهم لها، وعدم تفهم ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك.ذلك أن الحق ضالة المؤمن، وما ورد به الشرع هو الذي ينبغي أن يقدم على هوى النفس وحكم العقل.

وسنذكر فيما يلي بعض أقوال هؤلاء كأمثلة على ثبوت ما ذكرنا.

قال القرطبي–ردًّا على من ينكر الميزان، ويؤول الوزن بأنه من ضرب المثل، وأن الوزن يراد به العدل والقضاء—قال: "وهذا مجاز.وليس بشيء، وإن كان شائعاً في اللغة — للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي، ووصفه بكفتين ولسان، وأن كل كفة منها طباق السموات والأرض"(١)

ويعزو القرطبي إلى ابن عباس أنه قال: "توزن الحسنات والسيئات في ميزان له كفتان ولسان"(٢)

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أنه قال: "الميزان له لسان وكفتان، يوزن فيه الحسنات والسيئات، فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان، فتثقل على السيئات؛ فتؤخذ فتوضع في الجنة...ويؤتى بالسيئات في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان

(١) التذكرة، ص: ٣٧٨.

(٢) التذكرة، ص: ٣٧٨.

فتخف..."[1]

ويقول ابن قدامة: "والميزان له كفتان ولسان، توزن به الأعمال، ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: الآيتان: ١٠٢-١٠٣]"[2]

ويقول أبو الحسن الأشعري في معرض بيانه لاختلاف الناس في الميزان ومبينًا رأي أهل السنة: فقال أهل الحق: "له لسان وكفتان، توزن في إحدى كفتيه الحسنات وفي الأخرى السيئات، فمن رجحت حسناته؛ دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته دخل النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته، تفضل الله عليه فأدخله الجنة"[3]

ويثبت ابن كثير أن للميزان كفتين حسيتين، ويستدل على هذا من السنة بحديث صاحب البطاقة المشهور وغيره من الأحاديث.[4].

وأخرج الطبري عن ابن جريج قال: قال لي عمرو بن دينار: "قوله: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**﴾ [الأعراف: الآية: ٨] قال: إنا نرى ميزاناً وكفتين، سمعت عبيد بن عمير يقول: يجعل الرجل العظيم الطويل في الميزان، ثم لا يقوم بجناح ذباب"[5] وهو القول الذي رجحه الطبري أيضًا.

ويقول ابن أبي العز: "والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان"[6]

وقال أبو إسحاق الزجاج –كما نقل عنه الحافظ ابن حجر: "أجمع أهل السنة على الإيمان

---

(١) الدر المنثور، ٣/ ٧٠

(٢) ابن قدامة في لمعة الاعتقاد، ص: ٣٣.

(٣) المقالات، ٢/ ١٦٤

(٤) النهاية، ٢/ ٢٤.

(٥) جامع البيان، ٨/ ١٢٣.

(٦) الطحاوية، ص: ٤٧٢.

بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان، ويميل بالأعمال"[(١)]

ويقول السفاريني: "فقد دلت الآثار على أنه ميزان حقيقي ذو كفتين ولسان، كما قال ابن عباس، والحسن البصري، وصرح بذلك علماؤنا، والأشعرية وغيرهم، وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر، وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه"[(٢)]

ويقول البرديسي: "وانعقد الإجماع على أنه ميزان حسي له كفتان ولسان يوضع فيه صحف أعمال العباد ليظهر الرابح والخاسر"[(٣)]

ويروى من طريق عبد الملك بن أبي سليمان أنه قال: "ذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان"[(٤)]

وعن سليمان قال: "يوضع الميزان وله كفتان، لو وضع في إحداهما السموات والأرض ومن فيهن لوسعته"[(٥)]

ويقول الهراس: "وهناك تنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد، وهي موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان، ويقلب الله أعمال العباد-وهي أعراض-أجساماً لها ثقل، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة"[(٦)]

ونقتصر في إثبات أن الميزان له لسان وكفتان على ما قدمناه من ذكر أقوال العلماء.

وبهذا يتبين أن أهل الحق-أهل السنة والجماعة-يثبتون حقيقة الميزان على ضوء ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، لا يتأولون معناه، ولا يردون ما جاء في

---

(١) نقله عنه الحافظ ابن حجر في، فتح الباري، ١٣/ ٥٣٨.

(٢) لوامع الأنوار، ٢/ ١٥٢.

(٣) تكملة شرح الصدور، ص: ١٤.

(٤) تفسير المنار، ٨/ ٣٢٢.

(٥) فتح الباري، ١٣/ ٥٣٩.

(٦) شرح العقيدة الواسطية، ص: ١٢٣.

وصفه، ويقولون: الله وحده هو الذي يعلم قدرهما وكيفيتهما.

إذ لو لم يكن له لسان وكفتان؛ بل هو بمعنى العدل والقضاء كما ذهب إليه بعض العلماء، لو لم يكن كذلك لما وصف في السنة النبوية بأن له لسانا وكفتين، وأنه يخف ويثقل؛ إذ العدل لا يقال فيه تلك الصفات، فصح أنه ميزان حقيقي يزن الله فيه أعمال العباد، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار، على ما علم من مذهب السلف.

وإذ كنا نثبت صفات الميزان على ضوء ما جاء به الشرع فإنه لا ينبغي أن نتكلف فنثبت له أوصافًا تحتاج إلى إثبات من الشارع، أو نستند إلى أخبار لم تثبت، فإن الغلو في هذا مذموم.

وكمثال على هذا: ما يذهب إليه بعض الناس من أن كفتي الميزان من ذهب.(١)

أو القول بأن كفة الحسنات من نور، وكفة السيئات من ظلام.(٢)

أو أن كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار"(٣)

أو ما يقال إن صاحب الميزان يوم القيامة هو جبريل عليه السلام.(٤)

فتلك المسائل كلها تحتاج لإثباتها-فضلاً عن اعتقادها-إلى نص صحيح، فإن بعض العلماء يتساهل فيما يقرره من هذه المسائل، مثل ما يرويه السفاريني بصيغة التضعيف-يروى-"أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه، فلما أفاق قال: إلهي من ذا

---

(١) الفصل لابن حزم، ٤/ ٦٥.

(٢) التذكرة، ص: ٣١٣.

(٣) التذكرة، ص: ٣١٤، وعزاه إلى الترمذي الحكيم.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ٨/ ١٢٣ عن الحارث، قال: ثنا عبد العزيز قال: ثنا يوسف بن صهيب، عن موسى بن بلال ابن يحيى، عن حذيفة.

الذي يقدر يملأ كفة حسناته؟ فقال: إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة"[(١)]

أو ما يذكره عن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- غير معزو إلى أحد -أنه قال: "ميزان رب العالمين ينصب للجن والإنس، يستقبل به العرش، إحدى كفتيه على الجنة، والأخرى على جهنم، لو وضعت السموات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبريل آخذ بعمود ينظر إلى لسانه"[(٢)]

وكذا ما يروى عن عمر مرفوعاً: (من كبر تكبيرة في سبيل الله، كانت صخرة في ميزانه أثقل من السموات السبع وما فيهن وما تحتهن، وأعطاه الله بها رضوانه الأكبر، وجمع بينه وبين محمد وإبراهيم والمرسلين في دار الجلال: ينظر إلى الله بكرة وعشياً).[(٣)]

وفي رواية أخرى عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كبر تكبيرة على ساحل البحر، كان في ميزانه صخرة، قيل: يا رسول الله، وما قدرها؟ قال: تملأ ما بين السموات والأرض).[(٤)]

ويقول السفاريني: "ظواهر الآثار وأقوال العلماء: أن كيفية الوزن في الآخرة -خفة وثقلاً- مثل كيفيته في الدنيا، ما ثقل نزل إلى أسفل ثم يرفع إلى عليين، وما خف طاش إلى أعلى ثم نزل إلى سجين، وبه صرح جموع، منهم القرطبي".

وقال بعض المتأخرين بل الصفة مختلفة، وأن عمل المؤمن إذا رجح صعد وسفلت سيئته، والكافر تسفل كفته لخلو الأخرى عن الحسنات، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: الآية: ١٠].

---

(١) ذكره السفاريني في لوامع الأنوار ٢/ ١٨٤ وعزاه إلى الرازي والثعلبي

(٢) لوامع الأنوار، ٢/ ١٨٤ ولم يعزه إلى أحد.

(٣) قال السيوطي في اللآلئ المصنوعة: "قال ابن حبان لا أصل له، وإسحاق يأتي بالموضوعات عن الثقات، قلت -وكذا قال الدارقطني في غرائب مالك إنه موضوع ٢/ ١٣٧.

(٤) قال ابن عدي: "هذا ما وضعه النخعي، وزيد ليس بشيء" اللآلئ المصنوعة ٢/ ١٣٧.

وذكر بعضهم في صفة الوزن: أن تجعل جميع أعمال العباد في الميزان في مرة واحدة، كل الحسنات في كفة النور، وهي يمين العرش جهة الجنة، والسيئات في كفة الظلمة، وهي عن يسار جهة النار، ويخلق الله لكل إنسان علمًا ضروريًا يدرك به خفة أعماله وثقلها.

وقيل: بل علامة الرجحان عمود نور يقوم في كفة الحسنات حتى يكسو كفة السيئات، وعلامة الخفة عمود ظلمة يقوم من كفة السيئات حتى يكسو كفة الحسنات، لكل أحد.(١)

والظاهر أن هذه الكيفيات كلها تحتاج إلى إثبات، فهي مسألة غيبية، والله تعالى له القدرة على ما يشاء.

٢ – النافون لصفات الميزان:

وهؤلاء قالوا بعكس ما قاله الفريق الأول، حيث أحجموا عن وصف الميزان بالأوصاف التي تقدمت، واكتفوا بإثبات أن هناك ميزانًا فقط.

١–يقول محمد رشيد رضا في نفي تلك الصفات وفي رده على الزجاج: "وإذا لم يكن في الصحيحين ولا في كتب السنة المعتمدة حديث صحيح مرفوع في صفة الميزان، ولا في أن له كفتين ولساناً، فلا تغتر بقول الزجاج أن هذا مما أجمع عليه أهل السنة، فإن كثيراً من المصنفين يتساهلون بإطلاق كلمة الإجماع ولاسيما غير الحفاظ المتقنين، والزجاج ليس منهم، ويتساهلون في عزو كل ما يوجد في كتب أهل السنة إلى جماعتهم، وإن لم يعرف له أصل من السلف، ولا اتفق عليه الخلف منهم، وهذه المسألة مما اختلف فيه السلف والخلف كما علمت"(٢)

وقال أيضًا: "والأصل الذي عليه سلف الأمة في الإيمان بعالم الغيب: أن كل ما ثبت من أخباره في الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه، نؤمن به، ولا نحكم رأينا في صفته وكيفيته، فنؤمن إذا بأن في الأخرة وزناً للأعمال قطعاً، ونرجع أنه بميزان يليق بذلك العالم، ويوزن به الإيمان، والأخلاق، والأعمال، ولا نبحث عن صورته وكيفيته، ولا عن كفتيه – إن صح

(١) لوامع الأنوار ٢/ ١٨٨-١٨٩.

(٢) تفسير، المنار، ٨/ ٣٢٢.

الحديث فيهما –كما صوره الشعراني في ميزانه"[(١)].

والواقع أن ما قاله محمد رشيد رضا–من إنكار أن يكون هناك أي إشارة إلى أن الميزان له كفتان من السنة–غير مسلم فقد جاء في السنة بعض الأحاديث التي تدل على وزن العمل ووزن العامل وكما أخرج البخاري: (يؤتى بالرجل فيوضع في كفة)[(٢)] وكقوله أيضاً: (فطاشت السجلات وثقلت البطاقة)[(٣)].وغيرها من الأحاديث التي قدمنا ذكرها، وفيها إشارة إلى إثبات أن ميزان الأعمال له كفتان.

ثم إن إثبات أن الميزان له كفتان لم يقل به الزجاج وحده، بل هو ما عليه الأئمة الذين قدمنا ذكر أقوالهم.

٢–ما علقه الدكتور طه محمد الزيني على ترجمة ابن كثير في إثبات أن للميزان كفتين حسيتين بقوله: "لا يوجد دليل قاطع في القرآن ولا في الحديث على أن كفتي ميزان الحساب يوم القيامة حسيتان – أي يدركان بإحدى الحواس الخمس، وأقرب الحواس إلى إدراك الكفتين اللمس باليد – بل كل ما في القرآن والحديث يحتمل أن يكون الوزن معنوياً، بل هو الأرجح؛ لأن الأعمال يوم القيامة أكثرها معنوي يقرب إلى الأذهان بتشبيهه بالحسيات"[(٤)]

وهذا القول من الدكتور طه الزيني يعتبر بعيدًا عما قرره العلماء، ومخالفًا لما جاءت به السنة في وزن الأعمال، وليس ما يذكره من أعمال يوم القيامة من الأشياء المتخيلة التي يشبه فيها المعنوي بالحسي.فإن القول بهذا يفتح بابًا خطيرًا من التشكيك في أمور الآخرة، وينبغي على

---

(١) تفسير المنار، ٨/ ٣٢٣.

(٢) الحديث رواه أحمد ٢/ ٢٢١ ٧٠٦٦ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٨٢ رواه الترمذي باختصار، رواه أحمد وفيه بن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر في مسند أحمد ١٢/ ٢٤: إسناده صحيح.

(٣) الحديث رواه الترمذي ٢٦٣٩، وابن ماجه ٣٤٨٨ وأحمد ٢/ ٢١٣ ٦٩٩٤، والحاكم ١/ ٤٦ من حديث ابن عمرو–رضي الله عنهما–، قال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال البغوي في شرح السنة ٧/ ٤٩٠ حسن غريب.

(٤) النهاية، ٢/ ٩١.

من يقول بهذا أن يعيد النظر فيه

المسألة الخامسة: خلاف العلماء في الميزان هل هو واحد أم متعدد:

وقد اختلف العلماء في وحدة الميزان وتعدُّده على مذهبين:

المذهب الأول: القائلون بتعدد الميزان:

قال الحسن البصري –رحمه الله تعالى–: "بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزانًا على حدة"(١).

وقال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد؛ لقوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧]، وقوله: ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**﴾ [الأعراف: ٨].

وقالوا: وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان.

المذهب الثاني: القائلون بوحدة الميزان:

فذهب هؤلاء إلى أن لكل فرد ميزانًا خاصًّا به أو لكل عمل ميزان خاص به؛ لقوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأنبياء: الآية: ٤٧].

وأجابوا عن جمع كلمة (**الموازين**) في الآية: إلى أن الميزان واحد، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدُّد الأعمال أو الأشخاص.

وقد رجَّح ابن حجر العسقلاني –رحمه الله تعالى– بعد حكايته الخلاف أن الميزان واحد، وقال: "والذي يترجح أنه ميزان واحد، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله؛ لأن أحوال القيامة لا تكيَّف بأحوال الدنيا"(٢)

وحَسَّنَ السفاريني رحمه الله تعالى القول بوحدة الميزان بعد ذكر الإجابة عن جمع كلمة (**الموازين**) في الآية بقوله: "وَهُوَ حَسَنٌ"(٣).

---

(١) أورده ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٢/ ٣٧٦، ونسبه إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى.

(٢) "فتح الباري شرح صحيح البخاري"؛ لابن حجر العسقلاني، ١٣/ ٥٣٨.

(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني، ٢/ ١٨٦.

ومن المعاصرين الذين يرون هذا القول الشيخ العثيمين-رحمه الله تعالى-في الجواب عن سؤال عن وحدة الميزان وتعدده، فقال-بعد ذكر الخلاف بين أهل العلم-: "الذي يظهر-والله أعلم-أن الميزان واحد، لكنه متعدد باعتبار الموزون"[(١)]

المسألة السادسة: الأقوال في الموزون:

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال:

القول الأول: أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها، وأنها تجسم فتوضع في الميزان.

أدلته: ويدل لذلك:

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه في (**الصحيح**) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم).[(٢)]
- وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورةٍ الله أعلم بها، فمن ذلك: مجيء القرآن شافعاً لأصحابه في يوم القيامة، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما.ففي (**صحيح مسلم**) عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه.اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما)[(٣)].وروى مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، كأنهما

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين. ٢/ ٤٤، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان.

(٢) رواه البخاري ٦٤٠٦، ومسلم ٢٦٩٤.

(٣) رواه مسلم ٨٠٤.

غمامتان، أو ظلتان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما).[(١)]

القائلين به: هذا القول رجَّحه ابن حجر العسقلاني ونصره، فقال: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق) [(٢)].

القول الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه.

أدلته: فقد دلَّت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم، لا بضخامة أجسامهم، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن، ففي (**صحيح البخاري**) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا: ﴿**فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزن**﴾[الكهف: ١٠٥].[(٣)] ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال، روى أحمد في (**مسنده**)، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، (أنه كان رقيق الساقين، فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه.قال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد).[(٤)]

القول الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال.

أدلته: فقد روى الترمذي في (**سننه**) عن عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-، أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: (إن الله سيخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من

---

(١) رواه مسلم ٨٠٥.

(٢) رواه أبو داود ٤٧٩٩، والترمذي ٢٠٠٣، وابن حبان ٢/ ٢٣٠ والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود: صحيح.

(٣) رواه البخاري ٤٧٢٩، ومسلم ٢٧٨٥.

(٤) رواه أحمد ١/ ٤٢٠ ٣٩٩١، وقال أحمد شاكر في مسند أحمد ٦/ ٣٩: إسناده صحيح، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٧٥٠: إسناده حسن وهو صحيح بطرقه الكثيرة.

هذا شيئاَ؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب.فيقول الله تعالى: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء).[(١)]

القائلين به: وقد مال القرطبي إلى هذا القول، فقال: والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف، قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام، فيجعل الله تعالى: رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار.وقال السفاريني: والحق أن الموزون صحائف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي في (**بهجته**)، وذهب إليه جمهور من المفسرين، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي.

القول الرابع: أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله.

أدلته: فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها.وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال: "والذي استظهر من النصوص–والله أعلم–أن العامل وعمله وصحيفة عمله — كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل كذلك ما رواه أحمد–رحمه الله تعالى–: عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله: (توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصي عليه، فيمايل به الميزان.قال: فيبعث به إلى النار.قال: فإذا أدبر، إذ صائح من عند الرحمن–عز وجل–يقول: لا

(١) رواه الترمذي ٢٦٣٩، والحديث رواه ابن ماجه ٤٣٠٠، وأحمد ٢/ ٢١٣ والحاكم ١/ ٤٦ قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين وهو صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ١٣٥: وهو كما قالا.

تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان)[(١)] فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة.

المسألة السابعة: كيفية وزن الأعمال

قال الإمام القرطبي-رحمه الله-: (قال علماؤنا-رحمهم الله-: الناس في الآخرة ثلاث طبقات:

- متقون لا كبائر لهم.
- ومخلطون وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر.
- والثالث: الكفار.

فأمَّا المتقون: فإن حسناتهم تُوضع في الكفة النيرة، وصغائرهم-إن كانت لهم الكفة الأخرى- فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنًا، وتثقل الكفة النيرة حتى لا تَبرح، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي.

وأمَّا المخلطون: فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون لكبائرهم ثقل، فإن كانت الحسنات أثقل ولو بصؤابة دخل الجنة، وإن كانت السيئات أثقل ولو بصؤابة دخل النار إلا أن يغفر الله، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف على ما يأتي، هذا إن كانت للكبائر فيما بينه وبين الله، وأما إن كانت عليه تبعات وكانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات؛ لكثرة ما عليه من التبعات؛ فيُحمل عليه مِن أوزار مَن ظلمه، ثم يُعَذَّب على الجميع.هذا ما تقتضيه الأخبارُ"[(٢)]

وأمَّا الكفار: فلا تُوزن أعمالهم؛ إذ لا حسنات لهم، وما قَدَّموه مِن عمل نافع في الدنيا فإنَّهم

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٢١ ٧٠٦٦، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٨٢: رواه الترمذي باختصار، رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر في مسند أحمد ١٢/ ٢٤: إسناده صحيح.

(٢) التذكرة للقرطبي ص: ٣٦٠.

يجازون به في الدنيا كذلك؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: الآيتان: ١٥، ١٦]، فيُوفون جزاء أعمالهم النافعة في الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم فيها نصيب من الحسنات والأجر، وإنما يجازون بكفرهم.

فما يقدِّمه الكافر من أعمال صالحة، كالصدقة، والعتق، وصلة الأرحام، والإنفاق، ونحوها من سبل الخير لا تُغني عنه شيئا، فالله تعالى:

شبهها بالسراب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: الآية: ٣٩].

وشبهها بالرماد، فقال: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: الآية: ١٨].

وسيجعلها هباءً منثوراً، فقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: الآية: ٢٣].

وبيَّن أنهم بأعمالهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهم في خسارة لا يقام لهم وزن يوم القيامة، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: الآيات: ١٠٣ – ١٠٥].

عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر –رضي الله عنهما–: كيف سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: (يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه –عز وجل–، حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب

أعرف.قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم.فيعطى صحيفة حسناته.وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله).(١)

عن عائشة–رضي الله عنها–، أنها ذَكَرَتِ النار، فبَكَت، فقال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (ما يبكيكِ؟ قالت: ذكرتُ النار فبكَيتُ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: أما في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحدٌ أحدًا: عند الميزان حتى يعلم أيخِفُّ ميزانه أو يثقُل، وعند الكتاب حين يُقال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: الآية: ١٩]، حتى يعلم أين يقع كتابه؛ أفي يمينه، أم في شماله، أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وُضِع بين ظَهْرَي جهنم).(٢)

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤١، ومسلم ٢٧٦٨ واللَّفظُ له.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ١١٠، وأبو داود في السنن ٢/ ٤٢٥، والحاكم النيسابوري في المستدرك ٤/ ٥٧٨، إسحاق بن راهويه في مسنده ٣/ ٧٤٠، والآجري في الشريعة ٢/ ٤٩٥، وعبد الرزاق الصنعاني في تفسيره ٣/ ٤٨، ٣١٤، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ٣٧٢، وأورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والآجرى في الشريعة والحاكم وصححه والبيهقي في البعث أبو الشيخ وابن مردويه، وأورده الهيثمى في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٨ للحديث ثلاثة طرق عن عائشة الأول: من طريق الشعبي عن عائشة، اسناده منقطع عامر الشعبي لم يسمع من عائشة ورجاله موثقون
وله طريق متصل في الوسيط في تفسير القرآن المجيد ومعاني القرءان للنحاس، عن عامر الشعبي عن مسروق عن عائشة، واسناده ضعيف فيه عصام بن طليق. الثاني: من طريق قتادة مرسلا –تفسير الصنعاني ١٩٤٠–[١٩٨٨]، اسناده ضعيف مرسل والراجح أن قتادة سمعه من الحسن. الثالث: من طريق خالد بن أبي عمران عن القاسم عن عائشة كما جاء في مسند الامام أحمد، اسناده ضعيف ورجاله موثقون غير عبد الله بن لهيعة ضعفوه. بالإضافة الى طريق الحسن، فقد أخرجه أبو داود ٤٧٥٥، وأحمد مختصرا ٢٤٦٩٦، والحاكم بنحوه في "مستدركه" ٨٧٢٢ من طريق الحسن عن عائشة. قال الحاكم: "هذا حديثٌ صحيحٌ إسنادُه على شرط الشيخين لولا إرسالٌ فيه بين الحسن وعائشة، على أنه قد صحَّت الروايات أنَّ الحسن كان يدخل وهو صبيٌّ منزل عائشة–رضي الله عنها– وأمِّ سلمة"، وقال الذهبي: "على شرط البخاري ومسلم لولا إرسالٌ فيه بين الحسن وعائشة". ولعل الحديث يرتقي إلى الحسن لغيره والله أعلم.

الإيمان بالصور

[٤١]- قال المصنف رحمه الله: والصور حقٌّ؛ ينفخ فيه إسرافيل، فيموت الخلق، ثم ينفخ فيه [الأخرى]؛ فيقومون لرب العالمين للحساب والقضاء، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

الشرح

النَّفخ في الصُّور من مسائل اليوم الآخِر التي يجِب اعتقادها والإيمان بها دون أدنى شكٍّ أو ريب، وقد ذَكَر الله جلَّ في علاه هذا النَّفخ في أكثر من مَوضع؛ في سورة الكهف والزمر والنمل وغيرها.

- قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].
- ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].
- ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

والكلام في هذا الأمر الجلَل - أي النَّفخ في الصور - يتضمَّن عدَّةَ مسائل، منها:

١ - مَن النَّافخ في الصور؟

وَكَّل اللهُ تعالى للنَّفخ في الصور ملَكًا عظيمًا من حمَلَة العَرش، إسرافيل عليه السلام، وهو منذ أن وكَّلَه الله بذلك ملتقِمٌ الصُّور يَنتظر متى يُؤمر لينفخ فيه.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (**كيف أَنْعَم وقد التقَمَ صاحِبُ القرن القَرْنَ وحَنى جبهتَه وأصغى سمعَه؛ يَنتظِر أن يُؤمر أن يَنفخ، فيَنفخ**)، قال المسلمون: فكيف نقول يا رسولَ الله؟ قال: (**قولوا: حَسبنا الله ونِعم الوكيل، توكَّلنا على الله ربِّنا**)، وربَّما قال سفيان: (**على الله توكَّلنا**)؛ [السلسلة الصحيحة، رقم: (**١٠٧٩**)]، وقد روى هذا الحديثَ جمْعٌ من الصحابة

الكرام عليهم أفضل الرضوان، منهم: أبو سعيد الخدري، وابن عباس، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، وجابر بن عبدالله، والبراء بن عازب.

وفي لفظٍ آخر: (**كيف أنتم وصاحِب القرن قد التَقَم القَرْنَ وحنا الجبهةَ وأصغى السَّمعَ؛ يَنتظر متى يُؤمر بالنَّفخ فينفخ**)، قالوا: كيف نَصنع؟ قال: (**قولوا: حَسبنا الله ونِعْم الوكيل، على الله توكَّلْنا**)؛ أخرجه الإمام أحمد والترمذي والحاكم، وغيرهم، وصحَّحه العلَّامة الألباني في الصحيحة، رقم: (١٠٧٩).

وفي حديثٍ آخَر: (**إنَّ طَرْف صاحب الصور منذ وكل به مستعدٌّ يَنظر نَحو العرش مَخافة أن يُؤمر قبل أن يرتدَّ إليه طَرْفُه؛ كأنَّ عينيه كوكبان درِّيَّان**)؛ أخرجه الحاكم، وصحَّحه الألباني في الصحيحة، رقم: (١٠٧٨).

ولهذا الحديث شاهِد من حديث أنَس مرفوعًا بلفظ: (**كيف أَنْعَم وصاحِب الصُّور قد التَقَم القَرْنَ وحنى ظهرَه، يَنظر تجاهَ العرش؛ كأنَّ عينيه كوكبان دريَّان، لم يَطرف قطُّ مخافةَ أن يُؤمر قبل ذلك**)؛ أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، وغيرُه.

ومن فوائد هذه الأحاديث:

- ثبوت النَّفخ في الصور.
- عظَمَة المَلَك الموكَّل به؛ ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في وَصْف عينيه: (**كأنَّ عينيه كوكبان درِّيَّان**).

يقول الإمام الفخر الرَّازي رحمه الله تعالى: "فصاحِب الصُّور يَبلغ في القوَّة إلى حيث إنَّه بنَفخَةٍ واحدة منه يَصعَق مَن في السموات والأرض، وبالنَّفخة الثانية منه يَعودون أحياء، فاعرِف منه عِظَمَ هذه القوَّة"؛ مفاتيح الغيب.

- خوف الملائكة الشديد من الله تعالى؛ فإسرافيل عليه السلام على عظَمَته لم يَطرف قطُّ خشية أن يُؤمر بالنَّفخ؛ بل عيناه شاخِصتان تجاه العرش، يَنتظر الأمرَ الربَّاني ليَأتمر به.

وقد أثبَت الله خوفَ الملائكة منه سبحانه والمسارعة في طاعته في عدَّة آيات، من ذلك قوله

تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨].

• إشفاق الصَّحابة الكِرام من النَّفخ؛ حيث بادَروا بسؤال النبيِّ صلى الله عليه وسلم عمَّا يقولونه أو يَفعلونه، فأرشَدَهم إلى ما يثبِت توكُّلَهم على مَن بيده الأمر كله وإليه يُرجَع الأمر كلُّه جلَّ جلاله.

وفي بعض ألفاظ أحاديث الصُّور: "... فكأنَّ ذلك ثقل على أصحابه فقالوا: فكيف نَفعل يا رسولَ الله أو نقول؟ قال: (**قولوا: حَسبنا الله ونِعْم الوكيل، على الله توكَّلنا**)، وربَّما قال: (**توكَّلنا على الله**)"؛ رواه الترمذي وغيره، وصحَّحه الألباني.

• عظم شَأن التوكُّل؛ حيث إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أرشد الصَّحابةَ رضي الله عنهم للتلفُّظ بذلك الكَلِم المبارَك: (**حَسْبُنا الله ونِعْم الوكيل**) عند سماعِهم لهذا الخبر الجَلَل.

وهو نفس ما قاله إبراهيمُ عليه السلام لما أُلقي في النَّار؛ فقد روى الإمامُ البخاري رحمه الله تعالى: "كان آخِر قول إبراهيم حين أُلقِي في النَّار: حَسبي الله ونِعْم الوكيل"، وقاله النبيُّ صلى الله عليه وسلم لما خوَّفوه بالمشركين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

• أنَّ الملائكة أجسامٌ لا أرواح؛ خلافًا لِما يَزعمه العقلانيُّون والفلاسفة.

٢ – صفة الصور:

يقول العلَّامة السعدي رحمه الله تعالى: "وهو قَرْنٌ عَظيم، لا يَعلم عظمَتَه إلَّا خالقه، ومَن أطلَعَه اللهُ على عِلمه من خلقه، فيَنفخ فيه إسرافيلُ عليه السلام، أحَد الملائكة المقرَّبين، وأحَدُ حمَلَة عرش الرحمن"؛ تيسير الكريم الرحمن.

وقد ورد حديثٌ طويل يسمَّى بحديث الصُّور، ذُكرَت فيه أوصاف كثيرة للصُّور، أخرجه

الإمام الطَّبري والحافظ ابن كثير والثعلبي؛ لكنْ في سَنَده ضَعف؛ فقد حكَمَ عليه الحافظُ ابن كثير رحمه الله تعالى بالضعف، وبيَّن أنَّ بعض ألفاظه فيها نَكارة، كما ضعَّفه العلَّامةُ الألباني رحِمه الله تعالى وغيرُه.

٣ – عدد النفخات في الصور:

اختلف العلماءُ رحمهم الله في عدَد النَّفخات في الصُّور؛ فمنهم من قال: إنَّ النَّفخ يكون ثلاث مرَّاتٍ، ومنهم مَن قال: إنَّه ليس ثمَّة إلَّا نفختان: نفخة الصَّعق ونفخة البَعث.

والثلاث عند مَن أثبتها؛ كالحافظ ابن كثير وغيرِه هي: نفخة الفزَع، ونفخة الصَّعق، ونفخة البعث.

والصَّحيح – والله أعلم – أنَّ عدد النَّفخات اثنتان؛ لظاهر القرآن الكريم والسنَّة المطهَّرة.

أ – الدليل من الكتاب الحكيم:

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فذَكَر الله تعالى نفختَين:

- نفخة الصَّعق، وهو الموت؛ حيث يصعق ويموت كلُّ مَن في السَّموات والأرض إلَّا مَن شاء سبحانه.
- نفخة البعث: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

ب – الدليل من السنَّة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **(ما بين النَّفختين أربعون)**؛ متفق عليه، فلم يُثبِت النبيُّ الكريم عليه من ربِّه أفضل الصلاة والتسليم إلَّا نفختين.

وأمَّا الفزَع الذي ثبَت في سورة النمل فيَقَع مع الصَّعق أو قبيله؛ كما قال الإمامُ القرطبي رحمه الله تعالى: "والصَّحيح أنَّهما نفختان فقط؛ لثبوت الاستِثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

في كلٍّ من الآيتين، ولا يلزم من مُغايرة الصَّعق للفزع ألّا يَحصلا معًا من النَّفخة الأولى".

فعند النَّفخة الأولى تَفزَع الخلائق ويَبلغ الخوفُ منها كلَّ مَبلغ؛ لهول الأمر وشدَّتِه، ثمَّ يصعق الكلُّ إلَّا مَن استثنى اللهُ تعالى، فإذا نُفِخ ثانية قاموا من الأجداث والقبورِ ليَقفوا للحِساب بين يدَي العزيز الغفور.

٤ – المدة بين النفختين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **(ما بين النَّفختين أربعون)**، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أَبَيْتُ، قالوا: أربعون سنةً؟ قال: أَبَيْتُ، **(ثمَّ يُنزِل الله من السَّماء ماءً فيَنبتون كما يَنبت البقلُ)**، قال: **(وليس من الإنسان شيءٌ لا يَبلى إلَّا عظمًا واحدًا؛ وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يُركَّب الخَلْق يوم القيامة)**؛ متفق عليه.

وفي روايةٍ لمسلم قال: **(كلُّ ابنِ آدم يأكله الترابُ إلَّا عَجْب الذَّنَب؛ منه خُلِق وفيه يُركَّب)**.

وقول أبي هريرة رضي الله عنه: "أَبَيْتُ"؛ أي: أبيْتُ أن أستفسِرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الأربعين، وهناك أقوال أُخر؛ منها ما ذَكَره الحافِظُ ابنُ حجَر رحمه الله تعالى: "امتَنَعْتُ من تبيينه؛ لأنِّي لا أَعلمه، فلا أخوض فيه بالرَّأي، وقال القرطبيُّ في التذكرة: يحتمل قوله: امتنعتُ أن يكون عنده علمٌ منه، ولكنَّه لم يفسِّره لأنَّه لم تَدْعُ الحاجة إلى بيانه، ويحتمل أن يريد امتنعتُ أن أسأل عن تفسيره"؛ [فتح الباري: (١١ / ٣٧٠)].

٥ – المستثنى من الصَّعق:

• قيل: هم الشُّهداء، وفيه حديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: **(سألتُ جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ مَن الذين لم يشأ اللهُ أن يَصعقهم؟ قال: هم الشُّهداء،**

مقلّدون أسيافَهم حول عرشه، تتلقَّاهم ملائكة يوم القيامة إلى المَحشر بنجائب من ياقوتٍ، نمارها ألْيَن من الحَرير، مَدُّ خُطاها مد أبصار الرِّجال، يَسيرون في الجنَّة يقولون عند طول النُّزهة: انطلِقوا بنا إلى ربّنا عزَّ وجلَّ، لننظر كيف يَقضي بين خلقه، يَضحك الله إليهم، وإذا ضحِك إلى عبدٍ في مَوطن فلا حِساب عليه)؛ رواه الحاكم وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذَّهبي، وذكره الحافظُ ابن كثير في تفسيره، لكن حَكَم عليه العلَّامة الألباني رحمه الله تعالى بالضَّعف الشديد؛ لأنَّ في سنده عمر بن محمد؛ وهو ابن صهبان الأسلمي أبو جعفر المدني: مَتروك.

وعن سعيد بن جُبَير، في قوله: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، قال: "الشُّهداء ثَنيَّةُ الله حولَ العَرش، متقلِّدين السيوف"؛ ذكره الإمام الطَّبري في تفسيره.

- وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت.
- وقيل: حمَلَة العَرش.
- وقيل: الحور العين وخَزَنة النَّار.
- ومِن أهل العلم مَن توقَّف؛ كالإمام قتادة، قال: قد استثنى الله، والله أعلمُ إلى ما صارت ثنيته؛ ذكره الإمام الطَّبري في تفسيره[(١)].

---

(١)(النفخ في الصور – ناصر عبدالغفور (شبكة الألوكة)



الإيمان باللوح المحفوظ

قال المصنف رحمه الله:

[٤٢]- واللوح المحفوظ حقٌّ، تستنسخ منه أعمال العباد، لما سبقت فيه من المقادير والقضاء.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (١٥) في المسألة الخامسة: أركان القدر، في الكلام على الركن الثاني: الكتابة.

الإيمان بالقلم

[٤٣]- والقلمُ حقٌّ، كتب الله به مقادير كل شيء، وأحصاه في الذكر، فتبارك ربنا وتعالى.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (١٥) في المسألة الخامسة: أركان القدر، في الكلام على الركن الثاني: الكتابة.

الإيمان بالشفاعة

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: شفاعة النبي –صلى الله عليه وسلم–..

المسألة الثانية: شفاعة الأنبياء –عليهم السلام–.

المسألة الثالثة: شفاعة الصديقين والشهداء والصالحين.

المسألة الرابعة: تفضل الله بعد ذلك على كثير فيمن يشاء ممن لم يشفع فيهم.



[٤٤]- قال المصنف رحمه الله: والشفاعة يوم القيامة حقٌّ، يشفع قوم في قوم فلا يصيرون إلى النار. ويخرج قوم من النار بعدما دخلوها بشفاعة الشافعين. ويخرج قوم من النار برحمة الله بعدما يلبثهم فيها ما شاء الله.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-:

من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد جاء في إثبات الشفاعة أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بلغت حد التواتر، وصرحت هذه الأحاديث بأنه يدخل النار جملة من أهل الكبائر، من أهل التوحيد، مؤمنون موحدون، لكن دخلوا النار بذنوب ومعاص ارتكبوها ولم يتوبوا منها،

أنواع شفاعات النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

لقد اختلف أهل العلم في عدد شفاعات النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة[١]، فبعضهم أوصلها إلى عشر شفاعات وهو الراجح إن شاء الله لما تدل عليه الأحاديث الصحيحة وتقوم عليه الأدلة وهي كما يلي:

الأولى: الشفاعة العظمى: وهي في فصل الموقف بعد دلالة الرسل عليه واعتذارهم عنها[٢]

الثانية: الشفاعة لمن يصبر على لأواء المدينة. [٣].

---

(١) غاية البيان شرح زبد ابن رسلان لمحمد الرملي الأنصاري (١٣).

(٢) أخرجه البخاري رقم: (٣١٦٢)، ورقم: (٤٤٣٥)، ومسلم رقم: (١٩٤)، واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم رقم: (١٣٧٧)، ومالك في الموطأ رقم: (١٥٦٩)، وأحمد رقم: (٦٠٠١).

الثالثة: الشفاعة لمن يموت بالمدينة[١].

الرابعة: الشفاعة في دخول الجنة بغير حساب ولا عقاب،[٢]

الخامسة: الشفاعة فيمن قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه[٣].

السادسة: الشفاعة في أهل الكبائر من الأمة[٤].

السابعة: الشفاعة في رفع الدرجات[٥].

الثامنة: الشفاعة في الخروج من النار[٦]

التاسعة: الشفاعة التي يجتمع فيها الله والنبيون والملائكة والمؤمنون[٧].

العاشرة: الشفاعة في عمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه[٨].

المسألة الثانية: شفاعة الأنبياء-عليهم السلام-.

وما من نبي إلا له شفاعة كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد-رضي الله عنه-، قال: (فيقول

---

(١) أخرجه الترمذي رقم: (٣٩١٧) وحسنه، وابن ماجه رقم: (٣١١٢) ولفظه "فإني أشهد لمن مات بها "، وأحمد رقم: (٥٨١٨) ، وابن أبي شيبة رقم: (٣٢٤٢١)، وابن حبان رقم: (٣٧٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم: (٤١٨٥-٤١٨٦)، والهيثمي في موارد الظمآن رقم: (١٠٣١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٦٠١٥)، وفي صحيح الترمذي رقم: (٣٩١٧)، وفي صحيح الترغيب رقم: (١١٩٣ – ١١٩٧)، وفي السلسلة الصحيحة رقم: (٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم: (٦١٠٧)، ورقم: (٥٣٧٨)، ورقم: (٥٤٢٠) ، ورقم: (٦١٧٥) ، ومسلم رقم: (٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري رقم: (٩٩)، ورقم: (٦٢٠١) ، وأحمد رقم: (٨٨٤٥).

(٤) أخرجه أبو داود رقم: (٤٧٣٩)، والترمذي رقم: (٢٤٣٥-٢٤٣٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم: (٤٧٣٩)، وفي صحيح سنن الترمذي رقم: (٢٤٣٥-٢٤٣٦)، وفي صحيح الجامع رقم: (٣٧١٤)، وفي صحيح الترغيب والترهيب رقم: (٣٦٤٩)، وفي ظلال الجنة رقم: (٨٣١).

(٥) أخرجه مسلم رقم: (٩٢٠)، وأبو داود رقم: (٣١١٨)، والنسائي في السنن الكبرى رقم: (٨٢٨).

(٦) أخرجه البخاري رقم: (٦١٩٠)، ومسلم رقم: (١٩١-١٩٢).

(٧) أخرجه البخاري رقم: (٧٠٠١)، ومسلم رقم: (١٨٣)،

(٨) أخرجه البخاري (٣٦٧٠)، ورقم (٥٨٥٥)، ومسلم رقم (٢٠٩).

الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين).[١]

وفي المسند من حديث أبي سعيد مرفوعًا: "ثم يشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا، فيخرجونهم منها، قال: ثم يتحنن الله برحمته على من فيها فما يترك فيها عبدًا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا أخرجه منها).[٢]

المسألة الثالث: شفاعة الصديقين والشهداء والصالحين.

كذلك الصديقون يشفعون، الصديق: على وزن فِعِّيل، وهو من قوي تصديقه وإيمانه بالله، فأحرق بقوة تصديقه الشبهات والشهوات، وفي مقدمتهم الصديق الأكبر أبو بكر-رضي الله عنه-.

ودرجة الصديق أعلى من الشهداء، كما في حديث: (أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان)[٣]، فالترتيب مقصود.

ثم درجة الشهداء:

الشهيد: هو الذي بذل نفسه رخيصة في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، فإنه بذل أغلى ما يملك وهي نفسه التي بين جنبيه، فقاتل أعداء الله، لإعلاء كلمة الله.

ثم درجة الصالحين:

الصالحون: على تفاوتهم فيما بينهم،

١-منهم السابقون، وهي أعلى الدرجات، وهم الذين داوموا على الفرائض والنوافل، وتركوا المحرمات والمكروهات،

٢-ومنهم المقتصدون، وهم الذين اقتصروا على أداء الفرائض وترك المحرمات، ولم يفعلوا النوافل وقد يفعلون بعض المكروهات.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣).

(٢) رواه أحمد في مسنده: (١١٠٩٦) قال الشيخ مقبل: "الحديث بهذا السند حسن" انظر الشفاعة للوادعي: (١/ ١١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٥).

٣-ومنهم الظالمون لأنفسهم، والظالمون لأنفسهم موحدون مؤمنون، لكنهم قصروا في بعض الواجبات، أو فعلوا بعض المحرمات، فهؤلاء عندهم أصل الصلاح وأصل التقوى، فينفعهم هذا الصلاح والتقوى في عدم الخلود في النار، ولكنهم قد يدخلون النار ويعذبون، لكن في النهاية مآلهم إلى الجنة والسلامة.

المسألة الرابعة: تفضل الله بعد ذلك على كثير فيمن يشاء ممن لم يشفع فيهم.

أي أن الله تعالى يتفضل بعد ذلك على من يشاء، فيخرج برحمته بقية أهل التوحيد الذين لم يشفع فيهم، كما جاء ذلك صريحا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ-أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ-فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ[١] ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ).[٢]

والله-عز وجل-قد خَصَّ هذه الأمة بفضائل كثيرة، ومنها مُضاعفة الأجر؛ فعن ابن عمر-رضي الله عنهما-، عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال: (إنَّما أجلُكم في أجلِ مَن خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنَّما مَثَلُكم ومَثَل اليهود والنصارى، كرجل استعمل عُمَّالًا، فقال: مَن يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، فعملت النَّصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا، فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس، على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين،

---

(١) قال محمد فؤاد عبد الباقي: "منصوب على الحال وهو جمع ضبارة بفتح الضاد وكسرها أشهرها الكسر ويقال فيها أيضا إضبارة قال أهل اللغة الضبائر جماعات في تفرقة (فبثوا) معناه فرقوا". انظر مسلم في صحيحه (١/ ١٧٢)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٧٢)

فغَضِبَت اليهودُ والنصارى، فقالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاء! قال الله: هل ظلمتُكم مِن حَقِّكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: فإنَّه فَضلي أُعطيه مَن شِئْتُ).[١]

فَمن نعمة الله علينا أن جعلنا من أمة محمد-صلى الله عليه وسلم-، فعن أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال: (نَحن الآخِرون السَّابقون يوم القيامة، بَيْدَ كلِّ أُمَّةٍ أُوتوا الكتاب مِن قبلنا، وأُوتينا مِن بعدهم، فهذا اليوم[٢] الذي اختلفوا فيه، فغدًا لليهود، وبعدَ غدٍ للنَّصارى).[٣]

وأمة محمد-صلى الله عليه وسلم-هم أكثر أهل الجنة، فعن بريدة-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (أهلُ الجنة عشرون ومائة صف؛ ثمانون منها مِن هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم).[٤]

وذلك لأن النبي-صلى الله عليه وسلم-أكثر الأنبياء أتباعًا؛ فعن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: (خرج علينا النبي-صلى الله عليه وسلم-يومًا فقال: (عُرِضت عليَّ الأمم، فجعل يمُرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فرجوت أن تكون أُمَّتي، فقيل: هذا موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل: هؤلاء أُمَّتك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب).[٥] وهذا الفضل الذي أعطاه الله لنبيه الكريم-صلى الله عليه وسلم-في الدنيا والآخرة-هو خير عظيم وعميم على هذه الأمة المرحومة؛ فصارت مَهْدِيَّة في الدنيا، مَرحومة وأكثر أهل الجنة في الآخرة، وذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٩).

(٢) أي: يوم الجمعة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٦) ومسلم (٨٥٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، والدارمي (٢٨٧٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٦٢).

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠).

فضل الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء.



أحكام الكفار يوم القيامة

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أقسام الكفار

المسألة الثانية: أوصاف أحوال الكفار يوم القيامة.

المسألة الثالثة: حساب الكفار يوم القيامة

قال المصنف رحمه الله:

[٤٥]- وقوم يخلدون في النار أبدا، وهم أهل الشرك، والتكذيب، والجحود، والكفر بالله.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أقسام الكفار.

الكافر إما أن يكون:

القسم الأول: الكافر الأصلي.

القسم الثاني: المرتد عن دين الإسلام.

القسم الأول: الكافر الأصلي: هو من ثبَتَ كُفرُه في أصلِ الدِّينِ مثل اليَهودِ والنَّصارى والوَثنيّين والملحِدين، لذلك سُمُّوا بالكُفَّارِ الأَصليِّين. وقد دلت النصوص على الحُكْمَ بكُفرِ أمثالِ هؤلاء.

فقد حصر الله الحق والنجاة في الآخرة في (الإسلام) فقط.

- يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].
- ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].
- قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].
- وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

ومن أصول العقائد الإيمانيّة الضرورية في دين الإسلام اعتقاد كفر من لم يدخل في هذا

الإسلام[١]، من اليهود والنصارى وغيرهم، وتسميته كافرا وأنه عدو لنا، وأنه من أهل النار[٢]

ومن نواقض الإيمان القطعية تكفير من لم يكفر الكافر الأصـلي، كاليهود والنصـارى وأهل الأديان؛ لأن عدم تكفيرهم تكذيب لخبر الله وخبر رســوله في كفرهم، ومعاندة لحكمه فيهم، ولا مجال للحديث التفصيلي عن أوجه كفر أهل الكتاب وغيرهم.

القسم: الثاني: المرتد.

والمرتد أي: الراجع، وهو الذي رجع عن دينه، وكفر بعد إسلامه.[٣]

الردة في الاصــطلاح: هي الكفر بعد الإســلام طوعا؛ إما باعتقاد، أو بفعل، أو بقول، أو شـك. و(هي قطع الإسـلام بنية كفر، أو قول كفر، أو فعل مكفر؛ سـواء قاله: اسـتهزاء، أو عناداً، أو اعتقادًا)[٤].

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:(من بدل دينه فاقتلوه) [٥].

واتفق أهل السـنة والجماعة؛ بأن الردة لا تصـح إلا من عاقل؛ فأما من لا عقل له؛ كالطفل، والمجنون، ومن زال عقله؛ بإغماء، أو نوم، أو مرض، أو شـرب دواء يباح شـربه؛ فلا تصـح ردته،

(١) أي الإسلام الذي جاء به محمد-صلى الله عليه وسلم-في العقائد والشرائع وهو عبادة الله وحده لا شريك له بشريعة محمد-صلى الله عليه وسلم-.

(٢) الإبطال لنظرية الخلط (ص: ٩٣)، وفتوى اللجنة الدائمة في (وحدة الأديان) برقم (١٩٤٢) وتاريخ ٢٥ / ١/ ١٤١٨هـ.

(٣) انظر: معاجم اللغة: لســـان العرب: (٣/ ١٧٢) والمفردات في غريب القرآن (ص: ١٩١). و(النهاية في غريب الحديث) (٢/ ٢١٤)

(٤) انظر: قليوبي وعميرة (كتاب الردة) (٤/ ١٧٤) وهو حاشـيتا الشـيخين قليوبي وعميرة على شـرح جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين للنووي في فقه الشافعي.

(٥) رواه البخاري (٣٠١٧). من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-.



ولا حكم لكلامه بغير خلاف[١].

الردَّة لها صــــور متعددة إذا وقعُ الإنســـان المســلم في شـــيء منها فإنه يكون مرتدًا هذا إذا اجتمعت فيه شروط المرتد وانتفت موانعه؛ من تلك الصور:

أولًا: إنكاره لشيءٍ من أمورِ الدين، فمتى ما أنكرَ أو جحدَ شيئاً من أمورِ الدين، فمن جحدَ شيئاً مما أنزله الله عز وجل، أو أنكرَ آيةً واحدة أو كلمةً واحدة من كلامِ الله عز وجل أو جحدَ سنَّةً من السنن.

ثانيًا: الاستهزاء بأمرٍ من أمورِ الدين كما لو أن إنساناً استهزأ بسنَّةٍ من السنن.

ثالثًا: أو زادَ في كلامِ الله أو نقصَ منه.

رابعًا: أو سب الله، أو سب الرسول صلى الله عليه وسلم، أو سب الدين.

خامساً: أو أهان الدين أو رمى بالمصحف أو ألقاه في القاذورات.

وغير ذلك من الصور.

فالردَّة قد تكون في اعتقاد وقد تكون في قول ينطقه الإنســــان، أو قد تكون في فعل فيكونُ مرتدا.

فعن أبي هريرة أن رســول الله صــلى الله عليه وســلم قال: (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا).[٢]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رضـي الله عنه -، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ-صـلى الله عليه وسـلم-يَقُولُ: (إِنَّ الْعَبْد لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ مَا يَتَبيَّنُ فيهَا يَزِلُّ بهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بيْنَ المشْرِقِ والمغْرِبِ).[٣]

يقول ابن حجر في شــرح الحديث: (لا يلقي لها بالًا): "أي: لا يتأمل بخاطره، ولا يتفكر في

---

(١) المصدر: الإيمان حقيقته خوارمه نواقضه عند أهل السنة عبد الله بن عبد الحميد الأثري (ص: ٢٣٣)

(٢) رواه مسلم (١١٨).

(٣) صحيح البخاري: (٦٤٧٨)

عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثر شيئًا"[(١)]

المسألة الثانية: أوصاف أحوال الكفار يوم القيامة.

وقد أخبر الله عن الكفار وأوصـــاف أحوالهم يوم القيامة ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: يُخرجون وهم يدعون على أنفسهم بالويل، والثبور.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِـلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١].

ثانيًا: هوانهم، وذلهم، وحسرتهم، وخزيهم في ذلك اليوم.

والنصوص في بيان هذا كثيرة.

قال الله تعالى في ذلِّهم: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِـمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِـيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس:٢٧].

وفي حســرتهم: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَـــنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْـــعُرُونَ* أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْـــرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِـــنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْـــتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾]الزمر: ٥٥-٥٩].

وفي خزيهم: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُـــرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـــاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: الآية: ٢٧].

وكل ذلك من هوانهم على الله تعالى في ذلك اليوم، ومن شـدة حسـرتهم يتمنون أن يكونوا ترابا: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ

(١) (فتح الباري) (١١/ ٣١١).

تُرَابًا﴾ [النبأ: الآية: ٤٠].

بل من حسرتهم يتمنوا أن يروا الذين أضلوهم؛ ليطؤوهم بأقدامهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: الآية: ٢٩].

ومن شِدَّة هولهم لذلك اليوم، وما فيه من العذاب، يتمنون لو قدَّموا أبنائهم، وأزواجهم، وإخوانهم، وعشيرتهم فداء لهذا اليوم؛ من أجل أن ينجوا، بل يتمنون أن يقدموا كل ما في الأرض جميعا من أجل أن ينجوا من العذاب، ولكنَّ هذا محال: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: الآية: ١١-١٤].

ثالثًا: اسوداد الوجوه، وتغيرها.

قال الله تعالى في **وصف وجوههم**: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: الآية: ٢٧].

وقال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: الآية: ٦٠].

وقال في تغيرها: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: الآية: ٢٤]، أي: كالحة، كاسفة، عابسة، وقيل: أي: تغير لونها، والمعنى متقارب.

وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: الآيات: ٤٠-٤٢]، والغبرة: الغبار، والدخان، والقترة :السواد.

وحينما تدنو الشمس من الخلائق مقدار ميل، يختلف الناس في جريان العرق منهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يبلغ العرق إلى كعبيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى حقويه-أي: إلى جنبه-، ومنهم من يلجمهم العرق إلجاما، كما جاء في حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه عند مسلم، ولا شك أن الكافر له من هذا أوفر الحظ، والنصيب.

رابعًا: حبوط أعمالهم.

فما يقدّمه الكافر من أعمال صالحة، كالصدقة، والعتق، وصلة الأرحام، والإنفاق، ونحوها من سبل الخير لا تُغني عنه شيئا، فالله تعالى:

شبهها بالسراب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: الآية: ٣٩].

وشبهها بالرماد، فقال: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: الآية: ١٨].

وسيجعلها هباءً منثوراً، فقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: الآية: ٢٣].

وبيّن أنهم بأعمالهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهم في خسارة لا يقام لهم وزن يوم القيامة، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: الآيات: ١٠٣-١٠٥].

خامسًا: فضيحتهم؛ وذلك بلعنهم على رؤوس الأشهاد، فلا يُستر عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: الآية: ١٨].

سادسًا: تخاصم الكفار فيما بينهم في الموقف.

وهذا التخاصم جاء على عِدَّة أنواع، منها:

أ- تخاصم الأتباع مع قادتهم، وسادتهم الضُّلَال.

قال الله تعالى في بيان ذلك: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: الآيات:

٢٧: ٣٢].

ثم يتبرأ المتَّبَعُون من أتباعهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: الآية: ١٦٦]، فإذا رأى الأتباع هذا ندموا، وتحسَّروا، وتمنَّوا أنهم لم يتبعوهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: الآية: ١٦٧].

وقال في بيان ذلك أيضًا: ﴿وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: الآية: ٢١].

وقال أيضا: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: الآيتان: ٤٧-٤٨].

ب- تخاصم الكافر مع قرينه الشيطان الموكَّل به.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: الآيتان: ٢٧-٢٨].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومجاهد، وقتادة وغيرهم رحمهم الله ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ هو: الشيطان الذي وُكِّل به"[(١)]

ج- بل يتخاصم الكافر حتى مع أعضائه أشد المخاصمة، وذروتها.

وتأمَّل هذه الخصومة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصّلت: الآيات: ١٩-٢١].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير على هذه الآية.

وهذه المعنى فسَّره النَّبيُّ-صلَّى الله عليه وسلَّم-ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَـوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَـخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟) فَيَقُولُ: بَلَى. (قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟) فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: (فَإِنِّي أَنْسَـاكَ كَمَا نَسِـيتَنِي). ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي، (فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَـوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ، وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟) فَيَقُولُ: بَلَى. أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: (أَفَظَنَنْتَ أَنَّـكَ مُلاَقِيَّ؟) فَيَقُولُ: لاَ. فَيَقُولُ: (فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي). ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذلِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ. فَيَقُولُ: (هَهُنَا إِذًا)، قَالَ: " ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: (الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ. وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ. وَذلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ). [(١)]

وهذا الحوار بين هذا العبد وجوارحه عجيب، أضـحك النَّبيَّ-صـلى الله عليه وسـلم-ففي صـحيح مسـلم أيضـا، من حديث أنس بن مالك-رضـي الله عنه-قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُـولِ اللهِ فَضَحِكَ، فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟) قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،

قَالَ: (مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ. يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟) قَالَ: (يَقُولُ: بَلَى) قَالَ: "فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي" قَالَ: (فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَـهِيدًا. وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُـهُودًا). قَالَ: "فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي". قَالَ: "فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ". قَالَ: "ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ" قَالَ: "فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُـحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ"[(٢)].

سابعًا: يمقتون أنفسهم.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٦٨). "أي فل": أي فلان.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٩٦٩).

والمقت هو: أشـــد البغض، فتبلغ كراهيتهم لأنفســـهم في ذلك اليوم مبلغًا عظيما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَـــكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: الآية: ١٠].

بل ويمقتون أنصارهم في الدنيا، ويدعون عليهم بمضاعفة العذاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: الآيات: ٦٦-٦٨]، بل لشـــدة مقتهم لهم، يتمنون أن يتولوا ذلك، فيطؤوهم تحت أقدامهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَـــلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْـــفَلِينَ﴾ [فصلت: الآية: ٢٩].

فلا يزال حنقهم، ومقتهم حتى يدخلوا النار، وترتفع أصواتهم، فيلعن بعضهم بعضا، ويتمنَّى بعضهم لبعض مزيدًا من العذاب: ﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية: ٣٨]"(١).

المسألة الثالثة: حساب الكفار يوم القيامة

وسُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "عَنْ الْكُفّار: هل يحاسبون يوم القيامة أم لا؟

فَأَجَابَ: هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم.

فممن قال: إنهم لا يحاسبون: أبو بكر عبد العزيز، وأبو الحسن التميمي، والقاضي أبو يعلى، وغيرهم.

وممن قال: إنهم يحاسبون: أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو طالب المكي.

(١) المصدر: "فقه الانتقال من دار الفرار إلى دار القرار" (ص: ٥٩-٦٠).

وفصل الخطاب: أن الحساب يراد به:

- ✓ عرض أعمالهم عليهم وتوبيخهم عليها.
- ✓ ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات.

فإن أريد بالحساب المعنى الأول، فلا ريب أنهم يحاسبون بهذا الاعتبار.

وإن أريد المعنى الثاني، فإن قصد بذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة، فهذا خطأ ظاهر.

وإن أريد أنهم يتفاوتون في العقاب، فعقاب من كثرت سـيئاته أعظم من عقاب من قَلَّتْ سـيئاته، ومن كان له حسـنات خفف عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخف عذابًا من أبي لَهَب.

وقال تعالى :﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾، وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، والنار دَرَكَات، فإذا كان بعض الكفار عذابه أشد عذابًا من بعض؛ لكثرة سيئاته، وقلة حسناته كان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة. "[1]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٠٥).

أبدية الجنة والنار

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأقوال في المسألة.

المسألة الثانية: مكان الجنة والنار.

المسألة الثالثة: أن الله قد علم عدد أهل الجنة ومن يدخلها وعدد أهل النار ومن يدخلها.

المسألة الرابعة: أن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان.

المسألة الخامسة: خلود أهل الجنة وخلود أهل النار.

[٤٦]- ويُذبح الموتُ يوم القيامة بين النار.

[٤٧]- وقد خلقت الجنة وما فيها، وخُلقت النار وما فيها، خلقهما الله عز وجل، ثم خلق الخلق لهما، لا يفنيان، ولا يفنى ما فيهما أبدا.

الشرح

وفي هذا النص مسائل:

المسألة الأولى: الأقوال في المسألة:

القول الأول: قول أهل السنة والجماعة.

أن الجنة والنار الآن مخلوقتان دائمتان لا تفنيان.

قال الإمام ابن القيم: "يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان ويذكر من صنف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون.

فيها قال أبو الحسن الأشعري في كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: "جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردّون من ذلك شيئا"...."ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان" قال ابن القيم بعد أن ساق كلام الأشعري "والمقصود حكايته عن جميع أهل السنة والحديث أن الجنة والنار مخلوقتان"[(١)].

أدلتهم:

أ-أدلة وجود الجنة في الحياة الدنيا:

وقد دل على ذلك من القرآن:

- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: الآية: ١٣] ـــ وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء وفي آخره: "ثم أنطلق بي جبريل

---

(١) حادي الأرواح: (ص: ١١-١٥).

حتى انتهى إلى ســـدرة المنتهى فغشـــيها ألوان لا أدرى ما هي قال ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك"[(١)].

- وفي الصـحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قال: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشـــي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة"[(٢)].

- وفي المســـند وصـــحيح الحاكم وابن حبان وغيرهم من حديث البراء ابن عازب قال خرجنا مع رسـول الله -صـلى الله عليه وسـلم-، في جنازة رجل من الأنصـار فذكر الحديث بطوله وفيه (**فينادي مناد من السـماء أن صـدق عبدي فأفرشـوه من الجنة وألبسـوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها**)[(٣)] وذكر الحديث.

- وفي الصحيحين من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ-صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ-قَالَ: (**إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِـعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْـحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْـمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَأَمَّا المُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (**٣١٦٤**) ومسلم في صحيحه (**١٦٣**) واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه أحمد في مســنده (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٧) وأبو داود (**٣٢١٢، ٤٧٥٣، ٤٧٥٤**) والنســائي (٤/ ٧٨) وابن ماجه (**١٥٤٨**) و(**١٥٤٩**) والحاكم (١/ ٩٣) رقم (**١٠٧**) وأبو عوانة كما في (**إتحاف المهرة**) (٢/ ٤٥٩) وابن منده في الإيمان (**١٠٦٤**) والبيهقي في إثبات عذاب القبر رقم (**٢١**) و (**٤٣**) وغيرهم.

من طريق زاذان عن البراء بن عازب فذكره.

والحديث صححه: أبو عوانة وابن منده والحاكم والبيهقي وابن القيم وغيرهم.

قال ابن القيم في الروح، (**ص: ٩١**): "هذا حديث ثابت مشـــهور مســـتفيض، صـــححه جماعة من الحفاظ، ولا نعلم أحدا من أئمة الحديث طعن فيه، بل رووه في كتبهم وتلقوه بالقبول، وجعلوه أصـلا من أصـول الدين في عذاب القبر ونعيمه، ومسـألة منكر ونكير، وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدي الله، ثم رجوعها إلى القبر".

(٣) أخرجه البخاري (**١٣٠٨**)، ومسلم (**٢٨٧٠**) واللفظ لمسلم.

لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا)[(١)]

- وفي صحيح أبي عوانة الاسفرايني وسنن أبي داود من حديث البراء بن عازب الطويل في قبض الروح **(ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال هذا كان منزلك لو عصيت الله تعالى أبدلك الله به هذا فإذا رأى ما في الجنة قال رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي ومالي فيقال أسكن)**[(٢)]

- وفي مسند البزار وغيره من حديث أبي سعيد قال شهدنا مع النبي-صلى الله عليه وسلم-جنازة فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **(أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا دفن الإنسان وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك في يده مطراق فأقعده فقال ما تقول في هذا الرجل يعني محمدًا-صلى الله عليه وسلم-فإن كان مؤمنا قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده رسوله فيقولون له صدقت ثم يفتح له باب إلى النار فيقولون هذا كان منزلك لو كفرت بربك فأما إذا آمنت به فهذا منزلك فيفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض إلى الجنة فيقولون له اسكن)**[(٣)]. وذكر الحديث.

- وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت خسفت الشمس في حياة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فذكرت الحديث إلى أن قالت ثم قام فخطب الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: **(أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا**

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠) واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه أبو عوانة في صحيحه كما في إتحاف المهرة لابن حجر (٢/ ٤٥٩)، وأبو داود برقم: (٤٧٥٣).

(٣) أخرجه أحمد النسخ (٣/ ٣-٤) والبزار كما في (**كشف الأستار**) رقم: (٨٧٢) وابن أبي عاصم في (**السنة**) رقم (٨٦٥)، والطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٤)، والبيهقي في (**إثبات عذاب القبر**) رقم: (٣١)، من طريق عباد بن راشد البصري عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري فذكره. وقد تفرد به عباد وهو صدوق له أوهام، عن خاله داود بن أبي هند مرفوعًا. وقال البزار: "لا نعلمه عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد، وهذا من أغرب ما كان يسأل عنه الحسين وابن معمر". وقد خولف عباد، خالفه مسلمة بن علقمة فأوقفه. فرواه عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: فذكر نحوا من حديث عباد بن راشد ولم يرفعه.

رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة)[١]

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **(رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم حتى لقد رأيتني آخذ قطفا من الجنة حين رأيتموني أقدم ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت)**[٢]

- وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله فذكر الحديث وفيه قال: **(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله ". فقالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيناك تناولت شيئا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت فقال: "إني رأيت الجنة وتناولت عنقودا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء. قالوا بم يا رسول قال: " بكفرهن" قيل: أيكفرن بالله قال: "يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط)**[٣]

- وفي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاة الخسوف قال: **(قد دنت مني الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها ودنت مني النار حتى قلت أي رب وأنا معهم فإذا امرأة حسبت أنه قال تخدشها هرة قلت ما شأن هذه قالوا حبستها حتى ماتت جوعا لا أطعمتها ولا أرسلتها تأكل)**[٤]

ب-أدلة وجود النار في الحياة الدنيا:

وجود النار في الحياة الدنيا.

---

(١) رقم: (٩٠١)، وهو عند البخاري أيضا رقم: (٩٩٧، ١١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٨)، ومسلم (٩٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٩٠٤) -(٩).

ويدل على ذلك:

من القرآن:

قد ذكر الله تعالى في كتابه في مواضع كثيرة يتعسر حدها ويفوت عدها ووصفها. وأخبر بها على لسان نبيه، ونعتها فقال عز من قائل(١) :

- ﴿**فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾ [البقرة: الآية: ٢٤].
- وقال: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾ [آل عمران: الآية: ١٣١].
- وقال: ﴿**إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها**﴾ [الكهف: الآية: ٢٩].
- وقال: ﴿**إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا**﴾ [الكهف: الآية: ١٠٢].
- وقال: ﴿**وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً**﴾ [الفرقان: الآية: ١١].
- وقال تعالى: ﴿**أغرقوا فأدخلوا ناراً**﴾ [نوح: الآية: ٢٠].

ومن السنة:

عن ابن عمر–رضي الله عنهما–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، قال: (**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**)(٢)

وفيهما أيضا: (**أن النبي–صلى الله عليه وسلم–رأى في صلاة الكسوف النار فلم ير منظراً أفظع من ذلك**)(٣)

وعن عمران بن حصين–رضي الله عنه–، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–، قال: (**اطلعت**

(١) المصدر: يقظة أولي الاعتبار: (ص: ٥١).

(٢) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٣) رواه البخاري (١٠٥٢) (٤٣١)، ومسلم (٩٠٧) عن ابن عباس.

في النار فرأيت أكثر أهلها النســـاء)، وفيه دلالة على وجودها حال اطلاعه[(١)]، ورواه الترمذي والنسائي أيضا[(٢)].

وعن أبي ذر-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، قال: (**أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم**)[(٣)]

وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (**اشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضي بعض فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير**)[(٤)] أي: من ذلك التنفس.

وعن ابن عباس وابن عمر-رضي الله عنهم-، قال قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (**الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء**)[(٥)]، وفي رواية (**من فور جهنم**) رواه عن رافع بن خديج[(٦)].

وكل ذلك يفيد وجود النار الآن[(٧)]،

وعن ابن عمر-رضي الله عنه-: (**ولقد أدنيت النار مني حتى جعلت أتقيها خشية أن تغشاكم**)، الحديث[(٨)]

---

(١) يقظة أولي الاعتبار (ص: **٥٢**).

(٢) هو ضمن الحديث السابق. ورواه البخاري (**٣٢٤١، ٥١٩٨، ٦٤٤٩، ٦٥٤٦ رواه الترمذي (٢٦٠٣)**)، والنسائي في الكبرى (**٩٢٥٩**)

(٣) رواه البخاري (**٥٣٩**) (**٦٢٩**) عن أبي ذر.

(٤) ورواه البخاري (**٥٣٦، ٥٣٣، ٥٣٤**) عن أبي هريرة.

(٥) رواه (**٣٢٦٤، ٥٧٢٣**) عن ابن عمر.

(٦) رواه (**٥٧٢٦, ٣٢٦٢**) عن رافع.

(٧) يقظة أولي الاعتبار (ص: **٥٣**).

(٨) رواه الإمام أحمد (**٢/ ١٥٩**)، والنسائي في الكبرى (**٣/ ١٣٧ــــ١٣٨**)، وابن خزيمة (**٩٠١**)، وابن حبان(**٢٨٣٨**) بسند صحيح عن ابن عمر.

وعن أنس -رضـــي الله عنه-، قال: (**لو رأيتم ما رأيت لضـــحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار**)(١)

القول الثاني: المعتزلة.

أنكروا خلقهما الآن، فقالوا: الجنة والنار لم تخلقا بعد، ولكن ســوف يخلقهما الله تعالى يوم القيامة، أما الآن فلا توجد جنة ولا نار.

شــبهتهم: ســبب هذا القول إن المعتزلة يعملون عقولهم في مقابلة النصــوص، فيعارضــون النصـــوص بعقولهم، وهذا من جهلهم ومن ضـــلالهم، فهم يقولون: لو قلنا إن الجنة والنار مخلوقتان الآن لصار خلقهما عبثاً؛ لأنهما مخلوقتان وليس فيهما أحد، والعبث محال على الله، فتنزيهاً لله نقول: لا توجد جنة ولا نار الآن؛ لكن يخلقهما الله يوم القيامة حين ينتفع المؤمنون بالجنة ويكون الكفرة في النار.

ويجاب عليهم:

أولاً: قولكم هذا من أبطل الباطل؛ لأن الله تعالى أثبتهما، ونحن نصـــدق الله ونؤمن بالله، فقد أخبر تعالى أنهما موجودتان، قال عن الجنة: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: الآية: ١٣٣]، وقال عن النار: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٤]، فهي مرصـــدة معدة مهيأة.

ثانياً: أن خلق الجنة وخلق النار الآن وإعدادهما أبلغ في الزجر وأبلغ في التشـــديد، فإذا علم العاصي أن النار معدة الآن صار أبلغ في الزجر، وإذا علم المطيع أن الجنة معدة صار أبلغ في الشوق.

ثالثاً: نقول: من قال إن خلقهما الآن عبث؟ فالجنة فيها الولدان، وفيها الحور، وأرواح المؤمنين تتنعم في الجنة، وأرواح الشهداء تنعم فيها، كما جاء في الحديث: (**أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة وترد أنهارها، وتأكل من ثمارها، حتى يرجعها الله إلى**

(١) أخرجه مسلم (٤٢٦).

أجسادها)، والمؤمن إذا مات نقلت روحه إلى الجنة على هيئة نسمة طائر يعلق في الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثون.

ونعلم أن المؤمن يفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من نعيمها، والكافر يفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها.

إذاً هناك حكمة وفائدة من خلقهما الآن، فهذا من جهل المعتزلة وضـــلالهم، حيث إنهم عارضوا النصوص بأفهامهم وآرائهم الفاسدة.

المسألة الثانية: مكان الجنة والنار

أولًا: مكان الجنة.

الجنة في الســماء الســابعة وســقفها العرش، والعرشُ كما جاءَ في النصــوصِ والأخبار هو ســقف الجنة، كما جاء في الحديث: **(إذا ســألتم الله فاســألوه الفردوس فإنه وســطُ الجنةِ وأعلاها وفوقه عرش الرحمن)**[١]

فقد دلت الأحاديث على أن العرش مقبب الشـــكل، وأنه على هذا العالم المكون من السموات والأرض وما فيهما كهيئة القبة، فكون العرش سقفاً للفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها يدل على أنه مقبب لأن هذه الصفة لا تكون إلا في المستدير.

ويؤيد وصــف هيئة العرش بهذه الصــفة ما جاء في حديث الأعرابي الذي جاء فيه أن النبي صــلى الله عليه وســلم قال: "إن عرشــه على سمواته وأراضــيه هكذا" وأشــار بأصــابعه مثل القبة.[٢]

---

(١) انظر صــحيح البخاري كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّــيَرِ، بَابُ دَرَجَاتِ المجَاهِدِينَ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ، يُقَالُ: هَذِهِ سَــبِيلِي وَهَذَا سَــبِيلِي، برقم (٢٧٩٠)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٨٤١٩).

(٢) سنن أبي داود (٥/ ٩٤-٩٦، ح ٤٧٢٦)، وأخرجه الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص٤٤٧). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٢). وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٩-٢٤٠، ح: ١٤٧). والطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٣٢، **برقم** ١٥٤٧). وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٤-٥٥٦، ح: ١٩٨). والدارقطني في الصفات (ص: ٥١، ح: ٣٨). وابن منده في التوحيد (١/ ١٨٨، =

ثانيًا: مكان النار

وقد اختلف في هذه المسألة على عدة أقوال[(١)]:

القول الأول: أن مكانها في الأرض تحت الأرض السابعة.

القول الثاني: أن جهنم على الأرض والله أعلم بموضعها على الأرض.

القول الثالث: أن مكان النار حالياً تحت الأرض الســـابعة الســـفلى، ويوم القيامة تبرز وتظهر، قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: الآية:٣٦]، أي في الســـماء السابعة التي تظهر للناس.

القول الرابع: أن مكانها في السماء.

القول الخامس: التوقف في المسألة وأنه لم يرد نص صريح في مكانها

وقد استدل من قال إن مكانها في الأرض:

ما جاء في الحديث: **(يُجاء يوم القيامة بجهنم لها ســبعون ألف زمام مع كل زمام ســبعون ألف ملك يجرونها)**[(٢)]، وتسجر البحار وتكون جزءاً من جهنم، نسأل الله السلامة والعافية.

وقد روى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، قال: إن أكرم خليقة الله عليه أبو القاســم -صــلى الله عليه وســلم-، وإن الجنة في الســماء والنار في

برقم: ٦٤٣). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (**٣/ ٣٩٤**). والبيهقي في الأسماء والصفات (**٢/ ٣١٧-٣١٨**، ح: **٨٨٣**). وقد تكلم بعض الأئمة على هذا الحديث: فقال الذهبي في العلو (**ص: ٣٩**): "هذا الحديث غريب جداً فرد، وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أم لا؟ وأما الله فليس كمثله شيء جل جلاله، وتقدست أسماؤه ولا إله غيره" انتهى كلامه. واستغربه الحافظ ابن كثير في تفسير آية الكرسي من تفسيره (**١/ ٣١٠**). ثم إن في إسناده اختلافاً. هذا وقد تكلم ابن القيم في تهذيب السنن (**٧/ ٩٥-١١٧**) بكلام طويل نصر فيه تصحيح الحديث، ورد المطاعن التي طعن بها هذا الحديث، وبخاصة عن ابن إسحاق. والصواب أن هذا الحديث بهذا الإسناد ضعيف، ولا سيما أن جبير بن محمد قال فيه الحافظ ابن حجر: "مقبول" يعني إذا توبع ولم يتابع هنا.

(١) ذكر هذه الأقوال صاحب كتاب يقظة أولي الاعتبار (**ص: ٦٢-٦٧**).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (**٢٨٤٢**).

الأرض[(١)].

وروى أبو الشيخ في كتابه العظمة: عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-، قال: "الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض السابعة السفلى".[(٢)]

وقال ابن رجب في التخويف من النار: الباب الخامس في ذكر مكان جهنم: روى عطية عن ابن عباس-رضي الله عنهما-، قال: "الجنة في السماء السابعة ويجعلها الله حيث يشاء يوم القيامة وجهنم في الأرض السابعة". أخرجه أبو نعيم.[(٣)]

وخرج ابن منده من حديث أبي يحيي القتات عن مجاهد قال: قلت لابن عباس: أين الجنة؟ قال: فوق سبع سموات. قلت: فأين النار؟ قال: تحت سبع أبحر مطبقة[(٤)].

وروى البيهقي بإسناد فيه ضعف عن أبي الذعراء عن ابن مسعود قال: الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض السابعة السفلى، ثم قرأ: إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿**المطففين: ١٨**﴾ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿**المطففين: ٧**﴾. وخرجه ابن مندة، وعنده: فإذا كان يوم القيامة جعلها الله حيث شاء،

وقال محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن سلام قال: إن الجنة في السماء وإن النار في الأرض. خرجه ابن خزيمة وابن أبي الدنيا، وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن قتادة قال: كانوا يقولون إن الجنة في السموات السبع، وإن جهنم لفي الأرضين السبع.

وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [الذاريات:

(١) رواه الحاكم (٤/ ٦١٢)، والحارث (٩٣٠ -**بغية**) والبيهقي في الشعب (٣٦٦)

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٠٠).

(٣) التخويف من النار (**ص**: ٦٢).

(٤) عزاه في الفيض (٣/ ٣٦٠) لابن عباس، وعزاه لابن منده ابن رجب في التخويف من النار (**ص**: ٧٢).

الآية: ٢٢﴾. قال: الجنة في السماء،

وقد استدل بعضهم لهذا بأن الله تعالى أخبر أن الكفار يعرضون على النار غدواً وعشياً يعني في مدة البرزخ وأخبر أنه لا تفتح لهم أبواب السماء، فدل على أن النار في الأرض، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾ ﴿**المطففين: الآية: ٧**﴾. اهـ

قال ابن الجوزي في المنتظم: ومما يدل على أن النار في الأرض حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-، قال: كنا عند رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يوماً فسمعنا وجبة فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: (**أتدرون ما هذا؟**) قلنا: الله أعلم. قال: (**هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهى إلى قعرها**). انفرد بإخراجه مسلم.

فإن قيل كيف تكون جهنم في الأرض، وقد رآها رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ليلة المعراج فجوابه من وجهين:

أحدهما: أنه رآها في الأرض في طريقه إلى بيت المقدس، وقد روينا عن ابن الصامت أنه رؤي على سور بيت المقدس الشرقي يبكي، فقيل له في ذلك، فقال ههنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أنه رأى جهنم.

والثاني: أنه لا يمتنع في القدرة أن يرى جهنم في الأرض وهو في السماء، وقد بدى له المقدس وهو بمكة فوصفه للقوم.

المسألة الثالثة: أن الله قد علم عدد أهل الجنة ومن يدخلها، وعدد أهل النار ومن يدخلها"

يذكر غير واحد من العلماء هذه المسألة بعينها في كتب الاعتقاد ومن هؤلاء الإمام الطحاوي حيث يقول: "وقد علم الله تَعَالَى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه"[(١)] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣١٧).

قَالَ ابن أبي العز شارح العقيدة الطحاوية-رحمه الله تعالى-:

"قال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية: ٧٥]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: الآية: ٤٠] فالله تَعَالَى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلا وأبداً، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ [مريم: الآية: ٦٤] وعن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رَسُول الله-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ثُمَّ قَالَ: **(ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنَّار وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة)**، قَالَ: فَقَالَ رجل: يا رَسُول الله أفلا نمكث عَلَى كتابنا وندع العمل؟ فقَالَ: **(من كَانَ من أهل السعادة فسيصير إِلَى عمل أهل السعادة، ومن كَانَ من أهل الشقاوة فسيصير إِلَى عمل أهل الشقاوة، ثُمَّ قَالَ: اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: الآيات: ٥-١٠])**"[(١)]

وقد أنكر الفلاسفة علم الله بالجزئيات قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "وَقَدْ يَقُولُونَ: إنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْكُلِّيَّاتِ دُونَ الْجُزْئِيَّاتِ؛ فَإِنَّهُ إنَّمَا يَعْلَمُهَا عَلَى وَجْهٍ كُلِّيٍّ وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: إنَّهُ يَعْلَمُ نَفْسَهُ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ.

وَقَوْلُهُمْ يَعْلَمُ نَفْسَهُ وَمَفْعُولَاتِهِ حَقٌّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ لَكِنْ قَوْلُهُمْ مَعَ ذَلِكَ: إنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْأَعْيَانَ الْمُعَيَّنَةَ جَهْلٌ وَتَنَاقُضٌ فَإِنَّ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ مُعَيَّنَةٌ وَالْأَفْلَاكُ مُعَيَّنَةٌ وَكُلُّ مَوْجُودٍ مُعَيَّنٌ.

فَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ الْمُعَيَّنَاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ إذْ الْكُلِّيَّاتُ إنَّمَا تَكُونُ كُلِّيَّاتٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ إلَّا الْكُلِّيَّاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ. تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣١٧).

يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا."[(١)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئًا بمشيئته ولا يجيب دعاء الداعي بل ولا يعلم الجزئيات ولا يعرف هذا الداعي من هذا الداعي ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمد وغيرهم بأعيانهم من رسله بل منهم من ينكر علمه مطلقا كأرسطو وأتباعه ومنهم من يقول إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله".[(٢)]

المسألة الرابعة: أن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان أبدًا

قال ابن أبي العز في شـــرح العقيدة الطحاوية: "وَقَوْلُهُ: "لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ "–هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْأَئِمَّةِ مِنَ السَّـــلَفِ وَالْخَلَفِ. وَقَالَ بِبَقَاءِ الْجَنَّةِ وَبِفَنَاءِ النَّارِ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّـــلَفِ وَالْخَلَفِ، وَالْقَوْلَانِ مَذْكُورَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهَا.

وَقَالَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ الْجَهْمُ بْنُ صَـــفْوَانَ إِمَامُ الْمُعَطِّلَةِ، وَلَيْسَ لَهُ سَـــلَفٌ قَطُّ، لَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ. وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَفَّرُوهُ بِهِ، وَصَاحُوا بِهِ وَبِأَتْبَاعِهِ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ. وَهَذَا قَالَهُ لِأَصْلِهِ الْفَاسِدِ الَّذِي اعْتَقَدَهُ، وَهُوَ امْتِنَاعُ وُجُودِ مَا لَا يَتَنَاهَى مِنَ الْحَوَادِثِ! وَهُوَ عُمْدَةُ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ، وَحُدُوثِ مَا لَمْ يَخْلُ مِنَ الْحَوَادِثِ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ عُمْدَتَهُمْ فِي حُدُوثِ الْعَالَمِ. فَرَأَى الْجَهْمُ أَنَّ مَا يَمْنَعُ مِنْ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا فِي الْمَاضِـــي، يَمْنَعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ! ! فَدَوَامُ الْفِعْلِ عِنْدَهُ عَلَى الرَّبِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مُمْتَنِعٌ، كَمَا هُوَ مُمْتَنِعٌ عِنْدَهُ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي! ! وَأَبُو الْهُذَيْلِ الْعَلَّافُ شَيْخُ الْمُعْتَزِلَةِ، وَافَقَهُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، لَكِنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا يَقْتَضِي فَنَاءَ الْحَرَكَاتِ، فَقَالَ بِفَنَاءِ حَرَكَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى يَصِيرُوا فِي سُكُونٍ دَائِمٍ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى حَرَكَةٍ! ! وَقَدْ تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي تَسَلْسُلِ الْحَوَادِثِ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ دَوَامِ فَاعِلِيَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ رَبًّا قَادِرًا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٩٥).

(٢) الجواب الصحيح (١/ ١١٤).

فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ حَيًّا عَلِيمًا قَدِيرًا. وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ لِذَاتِهِ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ فَيَصِيرُ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ، مِنْ غَيْرِ تَجَدُّدِ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لِلْأَوَّلِ حَدٌّ مَحْدُودٌ حَتَّى يَصِيرَ الْفِعْلُ مُمْكِنًا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ، وَيَكُونُ قَبْلَهُ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ. فَهَذَا الْقَوْلُ تَصَوُّرُهُ كَافٍ فِي الْجَزْمِ بِفَسَادِهِ. فَأَمَّا أَبَدِيَّةُ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَبِيدُ، فَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هُودٍ: ١٠٨] أَيْ غَيْرَ مَقْطُوعٍ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] "[١]

المسألة الخامسة: خلود أهل الجنة وخلود أهل النار

عن أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم–: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة﴾، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وهم لا يؤمنون﴾ [مريم: الآية: ٣٩]).[٢]

وعن ابن عمر–رضي الله عنهما، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: (يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم، فيقول: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار، لا موت. كلّ خالد فيما هو فيه).[٣]

وعنه قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وصار

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٦٢٠ ـ ٦٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٤)، ومسلم (٢٨٥٠).

أهل النار إلى النار، أتى بالموت، حتى يجعل بين النار والجنة. ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، لا موت. ويا أهل النار لا موت. فيزداد أهل الجنة فرحا. ويزداد أهل النار حزنا).[(١)]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أتى بالموت ملبّبا، فيوقف على الســور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة، فيطّلعون خائفين. ثم يقال: يا أهل النار، فيطلعون مستبشـرين يرجون الشـــفاعة. فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه، هو الموت الذي وكّل بنا، فيضــجع فيذبح ذبحا على الســور، قم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت).[(٢)]

قال ابن أبي العز في شـــرح العقيدة الطحاوية: "وَأَمَّا أَبَدِيَّةُ النَّارِ وَدَوَامُهَا، فَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدَ الْآبَادِ، وَهَذَا قَوْلُ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا، ثُمَّ تَنْقَلِبُ طَبِيعَتُهُمْ وَتَبْقَى طَبِيعَةً نَارِيَّةً يَتَلَذَّذُونَ بِهَا لِمُوَافَقَتِهَا لِطَبْعِهِمْ! وَهَذَا قَوْلُ إِمَامِ الِاتِّحَادِيَّةِ ابْنِ عَرَبِيٍّ الطَّائِيِّ! !

الثَّالِثُ: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا إِلَى وَقْتٍ مَحْدُودٍ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَيَخْلُفُهُمْ فِيهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَكَاهُ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَكْذَبَهُمْ فِيهِ، وَقَدْ أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: " ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ–بَلَى مَنْ كَسَــبَ سَــيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠–٨١].

الرَّابِعُ: يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَتَبْقَى عَلَى حَالِهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ.

الْخَامِسُ: أَنَّهَا تَفْنَى بِنَفْسِــهَا، لِأَنَّهَا حَادِثَةٌ وَمَا ثَبَتَ حُدُوثُهُ اسْــتَحَالَ بَقَاؤُهُ! ! وَهَذَا قَوْلُ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٥) مختصراً، والترمذي (٢٥٥٧) مطولاً بنحوه، وابن ماجه (٤٣٢٧) بنحوه، وأحمد (٩٤٤٩).

الْجَهْمِ وَشِيعَتِهِ، وَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

السَّادِسُ: تَفْنَى حَرَكَاتُ أَهْلِهَا وَيَصِيرُونَ جَمَادًا، لَا يُحِسُّونَ بِأَلَمٍ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ.

السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ يُبْقِيهَا شَيْئًا، ثُمَّ يُفْنِيهَا، فَإِنَّهُ جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ شَاءَ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ، وَيَبْقَى فِيهَا الْكُفَّارُ، بَقَاءً لَا انْقِضَاءَ لَهُ"[(١)]

وهذا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، ومن ذلك:

قوله تعالى عن أهل النار: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً *إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً﴾ [النساء: الآيات: ١٦٨-١٦٩]

وقوله: ﴿إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً* خالدين فيها أبداً﴾ [الأحزاب: الآيات: ٦٣-٦٥].

وقوله: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا﴾ [الجن: الآية: ٢٣]

وقوله: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون* لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ [الزخرف: الآيتان: ٧٤-٧٥]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٦٢٤ ..٦٢٥).



الأمور المستثناة من الفناء

[٤٨]- قال المصنف رحمه الله: فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص:٨٨] وبنحو هذا من متشابه القرآن. فقل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا. والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة، ولا أبدا، لأن الله تبارك وتعالى خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت؛ فمن قال بخلاف ذلك: فهو مبتدع مخالف، وقد ضل عن سواء السبيل.

الشرح

قال الله عز وجل :﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن ٢٦:٢٧]، فالله سبحانه وتعالى كتب الفناء لكن هذا الفناء لا يقع على كل الخلق، وإنما هناك من الخلق ما لم يكتب الله عز وجل عليه الفناء، من ذلك: الجنة، والنار، والعرش، والكرسي، واللوح، والقلم، والصور، فهذه لا تفنى، هذه مستثناة من الفناء، وبقية المخلوقات تفنى ويتم تبديل السماوات والأرض كما هو وارد في النصوص.

فقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى كالجنة والنار والعرش[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما العرش فلم يكن داخلا فيما خلقه في الأيام الستة ولا يشقه ويفطره، بل الأحاديث المشهورة دلت على ما دل عليه القرآن من بقاء العرش، فقد ثبت في الصحيح أن جنة عدن سقفها عرش الرحمن قال صلى الله عليه وسلم: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن"[٢].

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في المراد بالمستثنى في قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

---

(١) الفتاوى (٣٠٧/١٨).

(٢) نقض التأسيس (١٥٥/١).

فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ) [الزمر: ٦٨] إلى أقوال كثيرة، وقد ذكرها الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه (فتح الباري) بقوله:

"وحاصل ما جاء في ذلك عشرة أقوال:

الأول: أنهم الموتى كلهم لكونهم لا إحساس لهم فلا يصعقون، وإلى هذا جنح القرطبي في (المفهم) وفيه ما فيه، ومستنده أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، وتعقبه صاحبه القرطبي في (التذكرة) فقال: قد صح فيه حديث أبي هريرة.

الثاني: وفي الزهد لهناد بن السري عن سعيد بن جبير موقوفاً: (هم الشهداء)، وسنده إلى سعيد صحيح وهذا هو القول الثاني.

الثالث: الأنبياء، وإلى ذلك جنح البيهقي في تأويل الحديث في تجويزه أن يكون موسى ممن استثنى الله، قال: ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا ثم لا يكون ذلك موتاً في جميع معانيه إلا في ذهاب الاستشعار، وقد جوز النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون موسى ممن استثنى الله، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع له في صعقة الطور.

ثم ذكر أثر سعيد بن جبير في الشهداء وحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه سأل جبريل عن هذه الآية من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: هم شهداء الله عز وجل [١].(صححه الحاكم ورواته ثقات ورجحه الطبري.

الرابع: قال يحي بن سلام في تفسيره: "بلغني أن آخر من يبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يموت الثلاثة ثم يقول الله لملك الموت مت فيموت". قلت: وجاء نحو هذا مسنداً في حديث أنس أخرجه البيهقي وابن مردويه بلفظ: "فكان ممن استثنى الله ثلاثة جبريل

---

(١) رواه الحاكم في (المستدرك) (٢/٢٧٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في (التلخيص): صحيح على شرط البخاري ومسلم. وقال ابن الملقن في (شرح البخاري) (٢٩/٦١٧): إسناده صحيح. وقال ابن حجر في (فتح الباري) (١١/٣٧٨): رواته ثقات.



وميكائيل وملك الموت" الحديث، وسنده ضعيف.

وأخرج الطبري بسند صحيح عن إسماعيل ووصله إسماعيل بن أبي زياد الشامي في تفسيره عن ابن عباس مثل يحي بن سلام ونحوه عن سعيد بن المسيب أخرجه الطبري وزاد "ليس فيهم حملة العرش لأنهم فوق السماوات".

الخامس: يمكن أن يؤخذ مما في الرابع.

السادس: الأربعة المذكورون وحملة العرش، وقع ذلك في حديث أبي هريرة الطويل المعروف بحديث الصور وقد تقدمت الإشارة إليه وأن سنده ضعيف مضطرب، وعن كعب الأحبار نحوه وقال: هم اثنا عشر، أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه البيهقي من طريق زيد بن أسلم مقطوعاً ورجاله ثقات.

وجمع في حديث الصور بين هذا القول وبين القول إنهم الشهداء، ففيه فقال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله فمن استثنى حين الفزع؟ قال: (الشهداء) ثم ذكر نفخة الصعق على ما تقدم.

السابع: موسى عليه السلام وحده، أخرجه الطبري بسند ضعيف عن أنس وعن قتادة وذكره الثعلبي عن جابر.

الثامن: الولدان الذين في الجنة والحور العين.

التاسع: هم وخزان الجنة والنار وما فيها من الحيات والعقارب، حكاهما الثعلبي عن الضحاك بن مزاحم.

العاشر: الملائكة كلهم، جزم به أبو محمد بن حزم في الملل والنحل فقال: الملائكة أرواح لا أرواح فيها، فلا يموتون أصلاً.

وأما ما وقع عند الطبري بسند صحيح عن قتادة قال: قال الحسن: يستثني الله وما يدع أحدا إلا أذاقه الموت فيمكن أن يعد قولاً آخر.

قال البيهقي: "استضعف بعض أهل النظر أكثر هذه الأقوال لأن الاستثناء وقع من سكان

السماوات والأرض وهؤلاء ليسوا من سكانها؛ لأن العرش فوق السماوات فحملته ليسوا من سكانها، وجبريل وميكائيل من الصافين حول العرش، ولأن الجنة فوق السماوات والجنة والنار عالمان بانفرادهما خلقتا للبقاء".

ويدل على أن المستثنى غير الملائكة ما أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وصححه الحاكم من حديث لقيط بن عامر مطولاً وفيه: (يلبثون ما لبثتم ثم تبعث الصائحة، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من أحد إلا مات حتى الملائكة الذين مع ربك) [(١)]

ولعل الذي تطمئن إليه النفس من هذه الأقوال هو ما ذكره الحسن رحمه الله: من أن الله سبحانه وتعالى يستثني، وهو أعلم بما استثناه. فقد يتناول الاستثناء هذه الأقوال جميعاً، وقد يتناول غيرها، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله جل جلاله، فإنه عز وجل قد ذكر ذلك على سبيل الإطلاق"[(٢)]. "ولا يصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع"[(٣)]، فلا سبيل إلى العلم بذلك إلا عن طريق الخبر، إما من كتاب الله عز وجل، وإما عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وبكل حال: النبي صلى الله عليه وسلم قد توقف في موسى عليه السلام، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه أم لا؟

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبر بكل من استثنى الله؛ لم يمكنا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم" [(٤)].

وعلى هذا فالذي يظهر والله أعلم أن الملائكة عليهم السلام يموتون كما يموت غيرهم من

---

(١) رواه أحد في (المسند) (١٢/٤) (١٦٢٥١). قال ابن كثير في (البداية والنهاية) (٧٢/٥): غريب جدا وألفاظه في بعضها نكارة. وضعف إسناده الألباني في (تخريج كتاب السنة) (٦٣٦).

(٢) انظر: (مجموع الفتاوى) (٢٦١/٤).

(٣) (تفسير القاسمي) سورة الزمر ٦٨.

(٤))مجموع الفتاوى) (٢٦١/٤) .

الجن والإنس، أما المستثنى فعلمه عند الله[١].

[١] المصدر: المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع لمجموعة مؤلفين – بتصرف – ص: ٦٩٣

خلق السماوات والأرض

[٤٩] – قال المصنف رحمه الله: وخلق الله سبع سماوات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا: مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام.

الشرح

ذَكَر اللهُ تَعالى في القُرآنِ الكَريمِ أنَّه خَلَقَ سَبعَ سَمَواتٍ، فقال سُبحانَه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [الطلاق: ١٢] ، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ، وبيَّن في آيةٍ أخرى أنَّه أوحى في كلِّ سماءٍ أمرَها فقال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] ، وقد جاءَ عنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه ما يُبَيِّنُ حَجمَ ومَسافةَ ما بَين كُلِّ سَماءٍ، فقال: بَينَ السَّماءِ الدُّنيا، وهيَ الأولى، والَّتي تَليها: خَمسُمائةِ عامٍ، وبَينَ كُلِّ سَماءٍ وسَماءٍ خَمسُمائةِ عامٍ، وبَينَ السَّماءِ السَّابعةِ والكُرسيِّ، وهو مَوضِعُ قدَمَيِ الرَّبِّ عَزَّ وجَلَّ: خَمسُمائةِ عامٍ، وبَينَ الكُرسيِّ والماءِ خَمسُمائةِ عامٍ، والعَرشُ، أي: عَرشُ الرَّحمَنِ سُبحانَه، فوقَ الماءِ، واللهُ فوقَ العَرشِ جَلَّ جَلالُه، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكُم، أي: مِن أعمالِ خَلقِه.

وفي الحَديثِ بَيانُ ما بَينَ كُلِّ سَماءٍ وسَماءٍ.

وفيه بَيانُ عَظيمِ خَلقِ اللهِ للسَّمَواتِ.

وفيه بَيانُ عَظَمةِ اللهِ تَعالى.

وفيه إثباتُ الكُرسيِّ.

وفيه إثباتُ العَرشِ.

وفيه أنَّ العَرشَ فوقَ الماءِ.

وفيه إثباتُ عُلُوِّ اللَّهِ تَعالى على خَلقِه.

وفيه أنَّ اللَّهَ تعالى فوقَ العَرشِ.



وفيه الجَمعُ بَينَ الإيمانِ بعُلُوِّ اللَّهِ على عَرشِه، وبإحاطةِ عِلمِه بالموجوداتِ كُلِّها.

وفيه سَعةُ عِلمِ اللهِ تَعالى[(١)].

(١) الدرر السنية- الموسوعة الحديثية.



إثبات علو الله واستوائه على عرشه

المسألة الأولى: إثبات علو الله عزوجل.

أوّلا: قول أهل السنة والجماعة ومن وافقهم.

ثانيًا: أقوال المخالفين في صفة العلو.

المسألة الثانية: صفة الاستواء والأقوال فيها:

أوّلا: مذهب السلف في صفة الاستواء:

ثانيًا: أقوال المخالفين في صفة الاستواء.

المسألة الثالثة: التعريف بالعرش والأقوال فيه.

أوّلا: التعريف بالعرش لغة.

ثانيًا: تعريف العرش شرعًا:

ثالثا: الأدلة إثبات العرش.

رابعًا: صفة العرش وخصائصه.



قال المصنف رحمه الله:

[٥٠]- والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن عز وجل فوق الماء، والله تبارك وتعالى على العرش.

[٥١] - والكرسي موضع قدميه.

[٥٢] وهو يعلم ما في السماوات السبع، وما في الأرضين السبع، وما بينهن، وما تحتهن، وما تحت الثرى، وما في قعر البحار، ومنبت كُلِّ شعرة، وكل شجرة، وكل زرع، وكل نبت، ومسقط كل ورقة، وعدد ذلك كله، وعدد الحصى، والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وقطر الأمطار، وأعمال العباد، وآثارهم، وكلامهم، وأنفاسهم، وتمتمتهم، وما توسوس به صدورهم، ويعلم كل شيء، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

[٥٣] - وهو على العرش فوق السماء السابعة، ودونه حجب: من نار ونور، وظلمة، وما هو أعلم بها.

[٥٤] - فإن احتجَّ مبتدع، أو مخالف، أو زنديق، بقول الله تبارك وتعالى اسمه: ﴿ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد﴾ [ق:١٦] وبقوله: ﴿وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ [الحديد:٤] وبقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ [المجادلة ٧] إلى قوله: ﴿هو معهم أين ما كانوا﴾ [المجادلة٧]

[٥٥]- ولله عز وجل عرش، وللعرش حملة يحملونه.

الشرح

وفيه مسائل

المسألة الأولى: صفة العلو والأقوال فيها.

أولًا: قول أهل السنة والجماعة ومن وافقهم.

يؤمن أهل السنة بعلو الله على خلقه واستوائه على عرشه، وأنه بائن من خلقه وهم بائنون منه.

وقد وافقهم على قولهم في إثبات العلو عامة الصــفاتية، كأبي محمد عبد الله بن ســعيد بن كلاب–رحمه الله–(**ت: ٢٤١ هـ**) وأتباعه، وأبي العباس القلانسي–رحمه الله–(**ت: في العشر الثاني من القرن الرابع هـ**)، [(١)] وأبي الحسن الأشعري–رحمه الله–(**ت: ٣٢٤ هـ**) والمتقدمين من أصحابه.

وهو قول الكرامية ومتقدمي الشيعة الإمامية.[(٢)]

وقد اســتدل أهل الســنة والجماعة على إثبات صــفة العلو بالقرآن، والســنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

أ–الأدلة من القرآن.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "قَدْ وَصَـفَ اللَّهُ نَفْسَـهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَـانِ رَسُــولِهِ بِالْعُلُوِّ وَالِاسْـــتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَالْفَوْقِيَّةِ فِي كِتَابِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ حَتَّى قَالَ بَعْضُ كِبَارِ أَصْـحَابِ الشَّـافِعِيِّ: فِي الْقُرْآنِ أَلْفُ دَلِيلٍ أَوْ أَزْيَدُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَالٍ عَلَى الْخَلْقِ وَأَنَّهُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: فِيهِ ثَلَاثُمِائَةِ دَلِيلٍ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ"[(٣)]

وقال رحمه الله: "دَلَالَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَأَنَّهُ نَفْسُهُ فَوْقَ الْعَرْشِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [فاطر: الآية:١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**﴾ [النســـاء: الآية:١٥٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ [المعارج: الآية:٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ**﴾ [الأعراف: الآية: ٢٠٦]. وَقَدْ قِيلَ: إنَّ ذَلِكَ

---

(١) قال عنه ابن عســاكر في تبيين كذب المفتري (ص: ٢٩٨): (**أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القلانســي الرازي، من معاصري أبي الحسن الأشعري رحمه الله لا من تلاميذه، كما قال الأهوازي، وهو من جلة العلماء الكبار الأثبات، واعتقاده موافق لاعتقاده في الإثبات (أي موافق لاعتقاد الأشعري)**).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧)، ونقض تأسيس الجهمية (١/ ١٢٧، (٢/ ١٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٦).

يَبْلُغُ ثَلَاثَمِائَةِ آيَةٍ وَهِيَ دَلَائِلُ جَلِيَّةٌ بَيِّنَةٌ مَفْهُومَةٌ: مِنْ الْقُرْآنِ مَعْقُولَةٌ: مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى"[١]

وقد تنوعت عبارات القرآن في إثبات صفة العلو.

فالقرآن الكريم من أوله إلى آخره مليء بما هو إما نص ظاهر في أن الله فوق كل شيء، وأنه عال على خلقه ومستو على عرشه، وقد تنوعت تلك الدلالات، فوردت بأصناف من العبارات، فقد أشار العلماء إلى ذلك التنوع في العبارة على إثبات هذه الصفة، ومن ذلك:

١-التصريح بالفوقية مقرونة بأداة (**من**) المعينة لفوقية الذات نحو: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل: الآية:٥٠].

٢-ذكرها مجردة عن الأداة، كقوله: ﴿**وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٨].

٣-التصريح بالعروج إليه، نحو ﴿**تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ [المعارج: الآية:٤].

٤-التصريح بالصعود إليه، كقوله: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [فاطر: الآية:١٠].

٥-التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله: ﴿**بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ [النساء: الآية:١٥٨]، وقوله: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ [آل عمران: الآية:٥٥].

٦-التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو، ذاتاً، وقدراً، وشرفاً، كقوله: ﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥]، ﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿**إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الشورى: الآية: ٥١].

٧-التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [الزمر: الآية: ١]، ﴿**تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: الآية:٤٢]، ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [النحل: الآية: ١٠٢]. وهذا يدل على شيئين:

الأول: على أنَّ القرآنَ ظَهَر منه لا من غيره، وأنَّهُ الذي تكلم به، لا غيره.

الثاني: على عُلُوِّهِ على خَلْقِهِ، وأنَّ كلامَه نزل به الرُّوح الأمين من عنده من أعلى مكان إلى

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٢٤).

رسوله.

٨-التصـــريح باختصـــاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضـــها أقرب إليه من بعض، كقوله: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: الآية:٣٨]، وقوله ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْـتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْـتَحْسِـرُونَ﴾ [الأنبياء: الآية:١٩]، ففرَّق بين من له عمومًا، ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصًا.

٩-التَّصريح بأنه سبحانه في السَّماء، وهذا عند أَهْل السُّنَّة على أحد وجهين:

إما أن تكون (في) بمعنى (على).

وإما أن يراد بالسَّماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حملُ النَّصِّ على غيره.

١٠ــــ التَّصريح بالاستواء مقرونًا بأداة (على) مختصًّا بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصـاحبًا في الأكثر لأداة (ثُمَّ) الدَّالَّة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السِّياق صـريحٌ في معناه الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العُلُوِّ والارتفاع، ولا يحتمل غيره البتَّة.

١١-إخباره سبحانه عن فرعون أنه رَامَ الصُّعُودَ إلى السماء؛ لِيَطَّلِعَ إلى إله موسى، فيُكذبه فيما أخبر به من أنه فوق الســـماوات؛ فقال ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَـرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْـبَابَ أَسْـبَابَ السَّـــمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَـــىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: الآيات: ٣٦ -٣٧]، فكذَّب فرعونُ موسى في إخباره إيَّاه بأن ربَّه فوق السماء.[(١)]

وفي قوله ســبحانه وتعالى: ﴿لَن يَسْـتَنكِفَ الْمَسِـيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: الآية: ١٧٢]، فبيَّن أن الملائكة أقرب إليه من غيرهم من خلقه.

وكذلك قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: الآية: ١]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْــتَوَى﴾ [طه: الآية: ٥]، إلى غير ذلك من ألفاظ متنوعة ومتعددة تدل دلالة واضــحة على أن الله عال على خلقه مُســتو على عرشه.

(١) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٣١٤-٣١٧).

ب–الأدلة من السنة على إثبات صفة العلو.

السنة مليئة بالأحاديث الدالة على علو الله–سبحانه وتعالى–واستوائه على عرشه، فالسُّنَّةُ قد دلَّت على عُلُوِّ الله بدلالاتها الثلاث: **(القولية، والفعلية، والتقريرية)**.

أولاً: أما السُّنَّة القولية فمنها:

١ ـــ حديث الخوارج: **(ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً)**. متفق عليه[(١)]

٢ ـــ وعن **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)** أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها، فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها، حتى يرضى عنها)**. رواه مسلم[(٢)]

٣ ـ وعن **ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)** حدثني رجال من أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: **(ما كنتم تقولون إذ رمي مثله؟)**. قالوا: كنا نقول: ولد الليلة عظيم، أو مات عظيم. فقال: **(إنها لم ترم لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبحت حملة العرش، حتى يسبحوا أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيستخبر أهل السموات بعضهم بعضاً، حتى يبلغ الخبر أهل الدنيا، فيخطف الجن السمع فيلقونه إلى أوليائهم، فما جاءوا به على وجهه، فهو الحق، ولكنهم يفرقون ويزيدون)**. رواه مسلم[(٣)]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي (٥/ ٣٢٦). وأخرجه مسلم في صحيحه (٢ /٧٤٢) كتاب الزكاة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٤٣٦) كتاب النكاح.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان. انظر شرح النووي (١٤/ ٢٢٥). والإمام أحمد في المسند (١/ ٢١٨). والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة سبأ. (٥/ ٣٦٢، **برقم ٣٢٢٤**). والدارمي في الرد على الجهمية (ص: ٧٨). والطحاوي في المشكل (٣/ ١١٣). والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥١٢–٥١٣، ح ٤٣٦). وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٤٣).

٤ ـــــ حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره: (**ربنا الله الذي في السـماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض**). رواه أبو داود وغيره[١]

ثانياً: وأما أدلة السُّنَّة الفِعلية فمنها:

١–ما رواه مسلم من حديث جابر–رضي الله عنه–(**ت: ما بين ٧٣ و٧٧ هـ**) في حديث حَجَّةِ الوَدَاعِ، وفيه: أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم خَطَبَ النَّاسَ، فقال: (**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَـــهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**...)، إلى أن قال جابر–رضي الله عنه–: (**فقال بإصبعه السَّبَّابَة يَرْفَعُهَا إلى السَّماء وَيَنْكُتُهَا إلى الناس: اللهم اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ**).[٢]

قال ابن القَيِّم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ) مُعَلِّقًا على هذا الحديث: "ليشـــهد الجميعُ أن الرَّبَّ الذي أرسله ودعا إليه واستشهده هو الذي فوق سماواته على عرشه"[٣]

٢–ما في الصَّـــحيحين في رفعه صـــلى الله عليه وســـلم يديه إلى الســـماء قائلًا: (**اللهم اسقنا**).[٤]. وهكذا رفعه يديه في الاستسقاء وغير ذلك.

ثالثاً: ومن أدلة السُّنَّة التقريريَّة وأشهرها:

ما رواه معاوية بن الحَكَم السُّـلَمِي–رضـي الله عنه–، (**ت: غير معروف**)، قال: "كانت لي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢١). وأبو داود في سننه، كتاب الطب (٤/ ٢١٨). والدارمي في الرد على الجهمية (ص: ١٨). والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٣٨). وابن حبان في الضعفاء (١/ ١٠٨). وابن عدي في الكامل (٣/ ١٠٥٤). والحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٣–٣٤٤)، وصححه. واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٨٩). وأبو يعلى في إبطال التأويلات (ق١٥٣/ب). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٢٧، ح٨٩٢). وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص: ٤٨، برقم ١٨). وأخرجه قوام السنة الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٠٥، برقم ٥٩)، و(٢/ ١١١–١١٢، برقم ٦٥). وأورده الذهبي في العلو (ص: ٢٧)، وقال: "وزيادة لين الحديث". ورد الذهبي تصحيح الحاكم له بقوله: "زيادة، قال البخاري وغيره منكر الحديث"، وذكر في ترجمته في الميزان (٢/ ٩٨) أنه انفرد بهذا الحديث فالإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) (إعلام الموقعين) (٢/ ٣١٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٠١٣) ومسلم (٨٩٥).

جاريةٌ تَرْعَى غَنَمًا قِبَلَ أُحُدٍ والجوَّانيَّة، فاطَّلَعْتُ ذات يومٍ فإذا بالذئب قد ذهب بشاةٍ مِن غَنَمِهَا، وأنا رجلٌ من بني آدم، آسَفُ كما يَأْسَفُونَ لكني صَكَكْتُهَا، فأتيتُ رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فعظَّم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: **(ائتني بها)**، فأتيتُه بها، فقال لها: **(أين الله؟)**.[1] قالت: في السماء، قال: **(ومَن أنا؟)**. قالت: رسول الله، قال: **(أَعْتِقها؛ فإنَّها مؤمنة)**. هذا حديث صحيح؛ رواه مسلم[2]، وأبو داود[3]، والنسائي[4]،

(١) "من المعلوم أن مذهب عامة أهل السنة، وسلف الأمة، وأئمتها أنهم يرون إثبات السؤال عن الله تعالى **(بأين)**، ولا ينفون ذلك عنه مطلقاً، وذلك لثبوت النصوص الصريحة الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك سؤالاً وجواباً. والسلف يقولون: إن من نفى السؤال بأين، لا بد له من دليل يستدل به على انتفاء ذلك، ولا دليل لهم، ذلك لأنها مسألة إثبات الشرع، فمن أنكرها فإنما ينكر المصطفى".وقد خالف السلف في قولهم هذا الجهمية، والمعتزلة، ومتأخرو الأشاعرة، الذين يزعمون أنه لا يجوز السؤال عن الله تعالى بأين؛ لأن في ذلك سؤالاً عن المكان، وهم يزعمون أن الله ليس في مكان، لأن المكان لا يكون إلا للجسم، والله ليس بجسم، لأن الجسم لا يكون إلا محدثاً ممكناً ويظهر توضيح هذا الرأي في قول ابن الأثير في النهاية **(٣/ ٣٠٤)** "ولا بد في قوله "أين كان ربنا؟ " من تقدير مضاف محذوف، كما حدث في قوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ ونحوه فيكون التقدير: أين كان عرش ربنا؟ يدل عليه قوله ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ ".فقول ابن الأثير "أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف" الذي دفعه إليه هو اعتقاده بأنه لا يجوز السؤال عن الله تعالى بأين، لأنه يترتب على ذلك إثبات الجهة والمكان لله تعالى، وهي منفية عنه كما هو مذهب الأشاعرة المتأخرين الذين يعد ابن الأثير واحدًا منهم. ومما يجدر ذكره أن ما هرب إليه ابن الأثير من تقدير المضاف لا ينجيه مما هرب منه، لأنه إذا أثبت الجهة لعرشه سبحانه وتعالى ثبتت له أيضًا لكونه مستويًا عليه". انظر الاستقامة لابن تيمية **(١/ ١٢٦–١٢٧)**. وقال الذهبي في العلو **(ص: ٢٦)** بعد ذكر حديث الجارية: "وهكذا رأينا في كل من يُسأل أين الله، يبادر بفطرته ويقول في السماء. في الخبر مسألتان إحداهما: شرعية قول المسلم **(أين الله)**؟ وثانيهما: قول المسؤول **(في السماء)** فمن أنكر هاتين المسألتين فإنما ينكر على المصطفى صلى الله عليه وسلم" ا. هـ." وقال القاضي أبو يعلى الفراء في كتاب "إبطال التأويل": قال بعد أن ذكر حديث الجارية: "اعلم أن الكلام في هذا الخبر في فصلين: أحدهما: في جواز السؤال عنه سبحانه بأين هو؟، وجواز الإخبار عنه بأنه في السماء". وذكر أشياء، إلى أن قال: "وقد أطلق أحمد بذلك فيما أخرجه في "الرد على الجهمية" فقال: فقد أخبرنا بأنه في السماء فقال ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾، وقال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، وقال ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فقد أخبر الله عز وجل أنه في السماء وهو على عرشه". وذكر كلاماً طويلاً ليس هذا موضعه" انظر إبطال التأويلات **(١/ ٢٣٣)**".

(٢) أخرجه في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة **(١/ ٣٨٢)**.

(٣) سنن أبي داود **(١/ ٥٧٢)** كتاب الصلاة، "باب ١٧١ تشميت العاطس في الصلاة" رقم **(٩٣٠)**.

(٤) سنن النسائي **(٣/ ١٤–١٨)**.

ومالك في الموطأ.[(١)]

وقد تقدم ذكر موقف المعطلة عموماً من نصوص السنة ورفضهم الاحتجاج بها بزعم أنها أخبار آحاد، وأخبار الآحاد لا يحتج بها في باب الاعتقاد، مع وصفهم لها بأنها أحاديث التشبيه كقول الغزالي: "وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة"[(٢)]. وأحاديث التشبيه يقصد بها أحاديث الصفات، والحديث كلام المصطفى –صلى الله عليه وسلم– كيف يُنبز بهذا الوصف الذي ينفر السامع؟ ثم كيف تحكم عليها هكذا أنها غير صحيحة؟ ولا يتوهم السامع أن معنى أكثرها غير صحيحة أنها ضعيفة أو موضوعة، بل يقصدون بها أنها أخبار آحاد وعنده أن أخبار الآحاد لا صحة لها.

فشتان بين من يعظم السنة ويوقرها يحتج بها ويصدرها ويستدل بها، وبين من لا يقيم لها وزناً أو اعتباراً، بل ويتهكم بنصوصها وينفر منها بألقاب وأسماء تجعل السامع ينفر منها، بل ويقدم عليها زبالة الأفكار وأقوال من لم يعرف الله عز وجل حق المعرفة.

ج–دليل الإجماع:

إجماع السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم منعقد على إثبات علو الله، واستوائه على عرشه، وقد نقل غير واحد من السلف هذا الإجماع عنهم، ومن ذلك ما رواه **البيهقي–رحمه الله–(ت: ٤٥٨ هـ)** بإسناد صحيح عن **الأوزاعي–رحمه الله–(ت: ١٥٧ هـ)** أنه قال: "كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله–تعالى–ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت فيه السنة من صفاته".[(٣)]

وقال **أبو نصر السجزي–رحمه الله–(ت: ٤٤٤هـ)**: "فأئمتنا كسفيان الثوري–رحمه الله–

---

(١) كتاب العتق، باب ما يجوز من العتق في الرقاب الواجبة (ص: ٥٥٢–٥٥٣)، (ح: ١٤٦٤). وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤٤٧). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٥). وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٧٨–٢٨٠، ح: ١٧٨). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٢). والذهبي في العلو (ص: ١٦)، وانظر مختصر العلو للذهبي (ص: ٨١).

(١) انظر كتاب الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، (ص: ١١٦).

(٣) "الأسماء والصفات": (ص: ٥١٥).

(ت: ١٦١ هـ)، ومالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، وسفيان ابن عيينة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)، وحماد بن سلمة-رحمه الله-(ت: ١٦٧ هـ)، وحماد بن زيد-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، وعبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، وفضيل بن عياض-رحمه الله-(ت: ١٨٧ هـ)، وأحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ): متفقون على أن الله-سبحانه-بذاته فوق العرش، وأن علمه بكل مكان، وأنه يرى يوم القيامة بالأبصار فوق العرش".(١)

وقال أبو نعيم الأصبهاني-رحمه الله-(ت: ٤٣٠ هـ) في عقيدته المشهورة: "وطريقتنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فما اعتقدوه اعتقدناه، فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في العرش والاستواء عليه يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم، ولا يمتزج بهم، وهو مستو على عرشه في سمواته من دون أرضه"(٢)

وكلام السلف من الصحابة والتابعين، من تبعهم في إثبات العلو كثير جدًا ولا يتسع المقام ههنا لذكره، وقد نقل ابن قدامة-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ) في كتاب "إثبات صفة العلو"، وكذلك نقل ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) في الفتوى الحموية وغيرها الكثير من تلك النصوص الواردة عنهم، وبين إجماعهم على إثبات ذلك،(٣) وكذلك فعل تلميذه **ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)** في كتابه "اجتماع الجيوش الإسلامية"، وكذلك **الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ)** في كتابيه "العلو" و"العرش"،

د-الأدلة من العقل.

أما الأدلة العقلية فهي كثيرة وسأورد ههنا ثلاثة منها:

---

(١) "درء تعارض العقل والنقل": (٦/ ٢٥٠).

(٢) "درء تعارض العقل والنقل": (٦/ ٢٥٠).

(٣) انظر: "مجموع الفتاوى": (٥/ ٦).

الدليل الأول: قول **الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)**: "إذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله تعالى حين زعم أنه في كل مكان ولا يكون في مكان دون مكان

فقل له: أليس كان الله ولا شيء؟

فسيقول: نعم.

فقل له: حين خلق الشيء هل خلقه في نفسه؟ أم خارجاً عن نفسه؟

فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال:

واحد منها: إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه، كفر حين زعم أنه خلق الجن والشياطين وإبليس في نفسه.

وإن قال: خلقهم خارجا عن نفسه ثم دخل فيهم، كان هذا أيضًا كفر حين زعم أنه في كل مكان وحش قذر رديء.

وإن قال: خلقهم خارجاً عن نفسه ثم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله كله أجمع"[(١)]

الدليل الثاني: قول **ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)**: "إن كل من أقر بوجود رب للعالم مدبر له، لزمه الإقرار بمباينته لخلقه وعلوه عليهم.

فمن أقر بالرب، فإما أن يقر بأن له ذاتاً وماهية مخصوصة أو لا؟

فإن لم يقر بذلك، لم يقر بالرب، فإن رباً لا ذات له ولا ماهية له هو والعدم سواء، وإن أقر بأن له ذاتاً مخصوصة وماهية، فإما أن يقر بتعينها أو يقول إنها غير معينة؟

فإن قيل إنها غير معينة كانت خيالاً في الذهن لا في الخارج، فإنه لا يوجد في الخارج إلا معيناً، لا سيما وتلك الذات أولى من تعيين كل معين فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها، وأن يوجد لها نظير، فتعيين ذاته سبحانه واجب.

وإذا أقر بأنها معينة لا كلية، والعالم مشهود معين لا كلي، لزم قطعاً مباينة أحد المتعينين للآخر، فإنه إذا لم يباينه لم يعقل تميزه عنه وتعينه.

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية (ص٩٥-٩٦).

فإن قيل: هو يتعين بكونه لا داخلاً فيه ولا خارجاً عنه.

قيل: هذا -والله أعلم- حقيقة قولكم، وهو عين المحال، وهو تصـــريح منكم بأنه لا ذات له ولا ماهية تخصه، فإنه لو كان له ماهية يختص بها لكان تعينها لماهيته وذاته المخصوصة، وأنتم إنما جعلتم تعيينه أمراً عدمياً محضاً ونفياً صرفاً وهو كونه لا داخل العالم ولا خارجا عنه، وهذا التعيين لا يقتضي وجوده مما به يصح على العدم المحض.

وأيضاً فالعدم المحض لا يعين المتعين، فإنه لا شيء وإنما يعينه ذاته المخصوصة وصفاته، فلزم قطعاً من إثبات ذاته تعيين تلك الذات، ومن تعيينها مباينتها للمخلوقات، ومن المباينة العلو عليها لما تقدم من تقريره"(١)

الدليل الثالث: أنه قد ثبت بصـــريح المعقول أن الأمرين المتقابلين إذا كان أحدهما صـــفة كمال والآخر صـفة نقص، فإن الله يوصـف بالكمال منهما دون النقص، فلما تقابل الموت والحياة، وصـف بالحياة دون الموت، ولما تقابل العلم والجهل، وصـف بالعلم دون الجهل، ولما تقابل القدرة والعجز، وصـــف بالقدرة دون العجز، ولما تقابل المباينة للعالم والمداخلة له، وصـــف بالمباينة دون المداخلة، وإذا كان مع المباينة لا يخلو إما أن يكون عالياً على العالم أو مسامتا له، وجب أن يوصف بالعلو دون المسامتة، فضلاً عن السفول.

والمنازع يسـلم أنه موصـوف بعلو المكانة وعلو القهر، وعلو القهر، وعلو المكانة معناه أنه أكمل من العالم، وعلو القهر مضمونة أنه قادر على العالم، فإذا كان مبايناً للعالم كان من تمام علوه أن يكون فوق العالم، ولا محاذياً له ولا سافلا عنه.

ولما كان العلو صـــفة كمال، وكان ذلك من لوازم ذاته، فلا يكون مع وجود غيره إلا عالياً عليه، ولا يكون قط غير عالٍ عليه"(٢)

وبهذه النماذج التي أوردناها عن الأدلة العقلية يتضـح لنا مدى دلالة المعقول الصـريح على

---

(١) مختصر الصواعق (١/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٥-٦).

إثبات علو الله ومباينته لخلقه وكذلك مدى مخالفة أقوال المعطلة والحلولية لصـــريح المعقول وصحيح المنقول.

هـ–أما دليل الفطرة:

فمن المعلوم أن الفطرة السـليمة قد جبلت على الاعتراف بعلو الله سـبحانه وتعالى، ويظهر هذا الأمر عندما يجد الإنسـان نفســه مضـطراً إلى أن يقصـد جهة العلو ولو بالقلب حين الدعاء، وهذا الأمر لا يستطيع الإنسـان دفعه عن نفسـه فضلاً عن أن يرد على قائله وينكر هذا الأمر عليه.

ومن أجل ذلك لم يجد الجويني –إمام الحرمين–جواباً حين ســـأله الهمداني محتجاً عليه بها، فقد ذكر محمد بن طاهر المقدسي–رحمه الله–(**ت: ٥٠٧ هـ**) أن الشيخ أبا جعفر الهمداني–رحمه الله–(**ت: ٥٣١ هـ**) حضــر مجلس الاســتاذ أبا المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين–رحمه الله–(**ت: ٤٧٨ هـ**)، وهو يتكلم في نفي صـفة العلو ويقول: "كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان"، فقال الشيخ أبو جعفر: "يا أستاذ دعنا من ذكر العرش –يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع–أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا ألله، إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنه ولا يسره، فكيف تدفع هذه الضرورة على قلوبنا؟

قال: فطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني"[(١)]

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "علو الخالق على المخلوق وأنه فوق العالم، أمر مســـتقر في فطر العباد، معلوم لهم بالضـــرورة، كما اتفق عليه جميع الأمم، إقراراً بذلك، وتصــديقاً من غير أن يتواطؤوا على ذلك ويتشــاعروا، وهم يخبرون عن أنفســهم أنهم يجدون التصديق بذلك في فطرهم.

وكذلك هم عندما يضــطرون إلى قصــد الله وإرادته، مثل قصــده عند الدعاء والمســألة،

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤، ٦١)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٢٥–٣٢٦).

يضطرون إلى توجه قلوبهم إلى العلو، فكما أنهم مضطرون إلى أن يوجهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يجدون في قلوبهم توجهاً إلى جهة أخرى، ولا استواء الجهات كلها عندها وخلو القلب عن قصد جهة من الجهات، بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات.

فهذا يتضمن بيان اضطرارهم إلى قصده في العلو وتوجههم عند دعائه إلى العلو، كما يتضمن فطرتهم على الإقرار بأنه في العلو والتصديق بذلك"[(١)]

ثانيًا: أقوال المخالفين في صفة العلو.

القول الأول: قول المعطلة من الفلاسفة [(٢)]، والجهمية [(٣)]، والمعتزلة [(٤)]، ومتأخري الأشاعرة [(٥)]، والقرامطة الباطنية [(٦)].

وهؤلاء جميعًا ينفون علو الله وارتفاعه فوق خلقه، وكل ذلك تحت دعوى التوحيد والتنزيه ونفي التشبيه، فهم يزعمون أن إثبات العلو لله تعالى فيه إثبات للجهة، والمحايثة، والحد، والحركة، والانتقال، وهذه الأمور على زعمهم تستلزم، الجسمية، والأجسام، حادثة، والله منزه عن الحوادث فمن أجل ذلك نفوا العلو، وأولوا النصوص الثابتة فيه بأن المراد بها علو القهر والغلبة.

وقد انقسم الجهمية المعطلة النافون لعلو الله إلى فريقين في هذه المسألة:

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٥) بتصرف.

(٢) النجاة لابن سينا (ص٣٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، (٥/ ١٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، (٥/ ١٢٢).

(٥) تأويل مشكل الحديث لابن فورك (ص٦٣)، الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٢٩، ٣٤).

(٦) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ١٧٨)، والقرامطة من الباطنية وهم ينتسبون إلى حمدان بن الأشعث الذي كان يلقب بقرمط لقرمطة في خطه أو خَطْوِه، انظر الفرق بين الفرق (ص: ٢٨١، ٢٩٣)، المنتظم لابن الجوزي (٥/ ١١٠، ١١١).

الفريق الأول:

وهم الذين يقولون إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا هو مباين له ولا محايث له.

وهذا القول هو ما يذهب إليه النظار والمتكلمون من هؤلاء المعطلة، [(١)] وهم بقولهم هذا قد نفوا الوصــفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود منهما، وذلك خشــية منهم أن يشــبهوا، فهم قالوا بهذه المقالة هرباً منهم –على حد زعمهم–من إثبات الجهة والمكان والحيز، لأن فيها كما يدعون تجسيماً وهو تشبيه، فقالوا: يلزمنا في الوجود ما يلزم مثبتي الصفات فنحن نسد الباب بالكلية.

وقد اســتند أصــحاب هذا القول في قولهم هذا على حجج زعموا أنها عقلية أســســوها وابتدعوها وجعلوها مقدمة كل نص، وليس لهؤلاء أي دليل من القرآن أو الســنة على صــحة قولهم هذا، وفي ذلك يقول **ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "وجميع أهل البدع قد يتمسكون بنصوص، كالخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة وغيرهم إلا الجهمية، فإنهم ليس معهم عن الأنبياء كلمة واحدة توافق ما يقولونه في النفي"[(٢)]. وسنأتي بعد ذكر القول الثاني إلى ذكر بعض تلك الحجج التي زعمها هؤلاء.

الفريق الثاني: وهم الذين يقولون بأن الله بذاته في كل مكان.

وهذا القول هو ما يذهب إليه النجارية [(٣)]، وكثير من الجهمية وبخاصــة عبادهم وصــوفيتهم

---

(١) الرسالة الأضحوية (**نقلا عن مختصر الصواعق ١/ ٢٣٧**)، والاقتصاد في الاعتقاد (**ص: ٣٤**)، تأويل مشكل الحديث (**ص: ٦٣–٦٤**)، مجموع الفتاوى (**٢/ ٢٩٧–٢٩٨، ٥/ ١٢٢–١٢٤**)، نقض التأسيس (**١/ ٦–٧**).

(٢) مجموع الفتاوى (**٥/١٢٢**).

(٣) هم أتباع حســين بن محمد بن عبد الله بن النجار، وقد كان أكثر معتزلة الري ومن حولها على مذهبه، وقد نقل الشــهرســتاني في الملل والنحل (**١/ ١١٣–١١٤**) عن الكعبي قوله: (**إن النجار كان يقول: إن الباري بكل مكان وجودا لا معنى العلم والقدرة**).

=

وعوامهم وأهل المعرفة والتحقيق منهم.(١)

ويحتج هؤلاء ببعض الحجج العقلية المزعومة بالإضافة إلى بعض الآيات القرآنية الدالة على المعية والقرب.

وقد يجمع كثير من هؤلاء المعطلة بين القولين، فهو في حالة نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين كليهما، فيقول لا هو داخل العالم ولا خارجه.

وفي حالة تعبده و تألهه يقول بأنه في كل مكان ولا يخلو منه شيء.(٢)

شبهة المعطلة العقلية:

إن جل ما اعتمد عليه هؤلاء المعطلة من أدلة على نفي صفة العلو وغيرها من الصفات إنما هو عبارة عن حجج عقلية مزعومة ومبتدعة بناها هؤلاء المعطلة على أصول فلسفية كانوا قد تأثروا بها وليس لهؤلاء المعطلة في نفيهم هذا أساس من كتاب الله أو سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقد جعل هؤلاء المعطلة لتلك الحجج حكم الأمر المحكم الذي يجب اتباعه واعتقاد موجبه والتسليم به، وقد بلغ من تقديسهم لها أنهم جعلوها مقدمة على الكتاب والسنة فإذا ورد النص من الكتاب أو السنة عرضوه على تلك الأسس العقلية، فإن وافقها احتجوا به اعتضادا لا اعتمادا، وإن خالفها فهم يحرفون الكلم عن مواضعه فيؤولون نصوص القرآن ويطعنون في نصوص السنة، وكل ذلك تحت دعوى التنزيه والتوحيد ونفي التشبيه.

وقد أفرط هؤلاء المعطلة في هذا الجانب -أي جانب نفي التشبيه- فجعلوا من قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية: ١١] جنة يتترسون بها لنفي علو الله سبحانه فوق عرشه وتكليمه لرسله وإثبات صفات كماله، وغير ذلك مما أخبر الله به عن نفسه، أو أخبر

وانظر مقالات الإسلاميين (١/ ١٣٥-١٣٧، ٢٨٣-٢٨٥)، والفرق بين الفرق (ص: ١٢٦-١٢٧)، وأصول الدين للبغدادي (ص: ٣٣٤)، والتبصير في الدين (ص: ١٠١، ١٠٢، ١٠٣).

(١) انظر نقض التأسيس (١/ ٧).

(٢) انظر نقض التأسيس (١/ ٧).

به رسوله-صلى الله عليه وسلم-، حتى إنه قد آل ببعض هؤلاء المعطلة إلى نفي ذاته خشية التشبيه فقالوا: هو وجود محض لا ماهية له، ونفى آخرون وجوده بالكلية خشية التشبيه -على حد زعمهم-حيث قالوا: يلزمنا في الوجود ما يلزم مثبتي الصفات والكلام والعلو فنحن نسد الباب بالكلية.(١)

وسوف نتعرض لبعض أسس تلك الشبه العقلية المزعومة التي جعلها هؤلاء المعطلة مستندا لهم في نفي صفة العلو وغيرها من الصفات، ونبين ما فيها من مخالفة لكتاب الله وسنة نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-مع بيان ما في تلك الأسس من تناقض وبخاصة من الناحية العقلية.

ونظراً لتعدد مذاهب المعطلة واختلاف بعضها عن بعض في القول والرأي، فسوف نعرض شبهة كل فرقة من الفرق السابقة الذكر على حدة فنبدأ أولاً بـ:

١. شبهة الفلاسفة(٢):

الفلاسفة ينفون صفة العلو وباقي صفات الباري عز وجل -كما سبق وأن ذكرنا-تحت دعوى التوحيد والتنزيه عن مشابهة المخلوقين، فابن سينا (**ت: ٤٢٧ هـ**) يقول: "إن واجب الوجود بذاته واحد بسيط لا تكثر فيه بوجه من الوجوه فهو ليس بجسم ولا صورة جسم ولا مادة معقولة لصورة معقولة، ولا صورة معقولة في مادة معقولة، ولا له قسمة في الكلم ولا في المبادئ المقومة له، ولا في قول الشارح ولا غير ذلك مما ينافي وحدة واجب الوجود وبساطته المطلقة"(٣)

والمتأمل لهذه العبارات التي أوردها ابن سينا يعرف أنها إنما هي مجرد اصطلاحات اصطلحها هو وأمثاله من الفلاسفة الذين تأثروا بفلسفة اليونان، فجعلوا من تلك العبارات المبتدعة ما

---

(١) مختصر الصواعق (١/ ٢٨٥).

(٢) أقصد بهم الفلاسفة المنتسبين للمسلمين كابن سينا والفارابي.

(٣) النجاة لابن سينا (ص: ٣٧).

أسموه بالتوحيد، وادعوا أن ما تضـــمنته هو التنزيه، مع أنها في الحقيقة متضـــمنة لنفي جميع الصـفات بما فيها العلو والاسـتواء، فقوله: "إن واجب الوجود بذاته واحد بسـيط لا تكثر فيه بوجه من الوجوه"، يعني به أنه ليس لله تعالى صـــفة ولا قدر، لأن ذلك على رأيه يســـتلزم التجســـيم والتجزئة والتركيب فيلزم نفيه، لأنه يلزم من ذلك الحدوث والافتقار وذلك ينافي واجب الوجود.

فابن سـينا وأمثاله من الفلاسـفة يعتمدون في نفي الصـفات على حجة التركيب والتي هي: "أنه لو كان له صـــفة لكان مركباً والمركب يفتقر إلى جزئيه وجزءاه غيره والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه"، وهم بهذا الكلام تجدهم قد نفوا صفات الباري جميعها.

ولو توفقنا عند العبارة السـابقة وهي قوله: "أن واجب الوجود بذاته واحد بسيط ..."، من أجل بيان ما فيها من مخالفة لكتاب الله وسـنة رسـوله-صـلى الله عليه وسـلم-وحتى مخالفتها للعقل الذي يقدمه هؤلاء على كل شيء.

لوجدنا هذه العبارة هي تفسـير للواحد بما لا أصـل له في الكتاب أو السـنة، بل هو تفسير باطل شرعاً وعقلاً ولغة.

أما في اللغة:

فإن أهل اللغة مطبقون على أن هذا القول ليس هو معنى الواحد في اللغة، إذ القرآن ونحوه من الكلام العربي متطابق على ما هو معلوم بالاضـــطرار في لغة العرب وســـائر اللغات أنهم يصـفون كثيراً من المخلوقات بأنه واحد ويكون ذلك جسـماً، إذ المخلوقات إما أجسـام وإما أعراض عند من يجعلها غيرها أو زائدة عليها.

وإذا كان أهل اللغة متفقين على تسمية الجسم الواحد واحداً، امتنع أن يكون في اللغة معنى الواحد الذي لا ينقسم إذا أريد بذلك أنه ليس بجسم وأنه لا يشار إلى شيء منه دون شيء، ولا يوجد في اللغة اســـم الواحد الاعلى ذي صـــفة ومقدار لقوله تعالى ﴿**الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [النســـاء: الآية: ١]، ومعلوم أن النفس الواحدة المراد بها هنا آدم عليه السلام، وحواء خلقت من ضلع آدم، فمن جسده خلقت لا من روحه حتى لا يقول القائل:

الوحدة هي باعتبار النفس الناطقة التي لا تركيب فيها، وإذا كانت حواء خلقت من جسد آدم، وجسد آدم جسم من الأجسام التي سماها الله نفساً واحدة علم أن الجسم قد يوصف بالوحدة، وأبلغ من ذلك ما ذكره الإمام أحمد وغيره من قوله تعالى: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا**﴾ [المدثر: الآية: ١١]، فإن الوحيد مبالغة في الواحد فإذا وصف البشر الواحد بأنه وحيد في صفة فإنه واحد من باب أولى، ومع هذا فهو جسم من الأجسام.

وأما في العقل:

فإن الواحد الذي وصفوه يقول لهم فيه أكثر العقلاء وأهل الفطر السليمة إنه أمر لا يعقل، ولا له وجود في الخارج، وإنما هو أمر مقدر في الذهن، فليس في الخارج شيء موجود لا يكون له صفات ولا قدر ولا يتميز من شيء عن شيء بحيث يمكن أن يرى ولا يدرك ولا يحاط به وإن سماه المسمى جسماً.

وأما في الشرع:

فنقول إن مقصود المسلمين أن الأسماء المذكورة في القرآن والسنة وكلام المؤمنين المتفق عليه بمدح أو ذم، تعرف مسميات تلك الأسماء حتى يعطوها حقها، ومن المعلوم بالاضطرار أن اسم (**الواحد**) في كلام الله لم يقصد به سلب الصفات وسلب إدراكه بالحواس ولا نفي الحد والقدر ونحو ذلك من المعاني التي ابتدعها هؤلاء.(١)

وأما حجة التركيب التي اعتمد عليها هؤلاء الفلاسفة في نفي الصفات وهي قولهم: "إنه لو كان صفة لكان مركبا والمركب يفتقر إلى جزئية وجزءاه غيره، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه" فهي تتكون من ألفاظ مجملة بمعنى أن كل لفظة منها تحتمل عدة معان فلا بد من توضيح المراد من كل لفظ أولاً حتى يتكلم فيه.

فلفظ "المركب" مثلًا: قد يراد به ما ركبه غيره، أو ما كان مفترقًا فاجتمع، أو ما يقبل التفريق، والله منزه عن هذه المعاني باتفاق.

---

(١) انظر: نقض التأسيس (١/ ٤٨٢، ٤٨٤، ٤٨٨).

وأما الذات الموصوفة بصفاتها اللازمة لها فإذا سميتم هذا تركيباً كان ذلك اصطلاحًا لكم، وليس هو المفهوم من لفظ المركب ولن تستطيعوا أيها الفلاسفة إقامة الدليل على نفيه.

وأما قولهم: "لكان مركبًا" فإن أرادوا لكان غيره ركبه، أو لكان مجتمعًا بعد افتراقه، أو لكان قابلًا للتفريق. فاللازم باطل فإن الكلام إنما هو في الصفات اللازمة للموصوف الذي يمتنع وجوده بدونها.

وإن أراد بالمركب الموصوف أو ما يشبه ذلك فلِما قالوا إن ذلك يمتنع.

وأما قولهم "والمركب مفتقر إلى غيره" فالجواب عنه: أما المركب بالتفسير الأول فهو مفتقر إلى ما يباينه وهذا ممتنع على الله تعالى.

وأما الموصوف بصفات الكمال اللازمة لذاته الذي سميتموه أنتم مركباً فليس في اتصافه هذا ما يوجب كونه مفتقراً إلى مباين له.

وإن قالوا: هي غيره وهو لا يوجد إلا بها وهذا افتقار إليها، قيل لهم: إن أرادوا بقولهم هي غيره أنها مباينة له فذلك باطل.

وإن أرادوا أنها ليست إياه، قيل لهم: إذا لم تكن الصفة هي الموصوف فأي محذور في هذا.

وإذا قالوا: هو مفتقر إليها، قيل: أتريدون بالافتقار أنه مفتقر إلى فاعل يفعله أو محل يقبله، أم تريدون أنه مستلزم لها فلا يكون موجوداً إلا وهو متصف بها.

أما الثاني فأي محذور فيه، وأما الأول فباطل إذ الصفة اللازمة للموصوف لا يكون فاعلاً لها.(١)

أما قولهم: "أنه لو كان صفة لكان مركباً والمركب مفتقر إلى جزئية"، فهذا القول لا يتم إلا عند من يثبت الجوهر الفرد، أما نفاته فعندهم أن الجسم في نفسه واحد بسيط ليس مركباً من الجواهر المنفردة، وهذه المسألة خلافية قد توقف فيها أذكى المتأخرين من الأشعرية وإمامهم أبو المعالي الجويني وكذلك أذكى متأخري المعتزلة أبو الحسين البصري وكذلك الرازي فهي

---

(١) انظر منهاج السنة (١/ ١٨٨-١٩٠)، بتصرف.

مقدمة ممنوعة لا تصلح دليلًا لوجود النزاع فيها حتى بين الفلاسفة أنفسهم.(١)

٢. شبهة المعتزلة:

وأما شبهة المعتزلة التي اعتمدوا عليها في نفي صفات الباري-عز وجل-بما فيها صفة العلو فهي ما تسمى بطريقة الأعراض، ذلك أنهم يزعمون أن الصفات إنما هي أعراض، والأعراض لا تقوم إلا بجســـم، والأجســـام حادثة، والله منزه عن الحوادث، ومن أجل ذلك كان قول المعتزلة في الله: إنه قديم واحد ليس معه في القدم غيره، فلو قامت به الصـــفات لكان معه غيره.(٢) ولكان جسمًا إذ أن ثبوت الصفات يقتضي كثرة وتعددًا في ذاته ويقتضي أنه جسم وذلك خلاف التوحيد.

فهم يزعمون أن توحيد الله وتنزيهه متوقف على أنه ليس بجسم، وكونه ليس بجسم موقوف على عدم قيام الأعراض والحوادث به التي هي الصفات والأفعال، ونفي ذلك عندهم موقوف على ما يدل عليه حدوث الأجســـام، والذي دلهم على حدوث الاجســـام أنها لا تخلو من الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث لا يسبقها، وما لا يسبق الحوادث فهو حادث.

ويزعمون أيضـاً أن الأجسـام لا تخلو من الأعراض، والأعراض لا تبقى زمانين فهي حادثة، فإذا لم تخل الأجسام منها لزم حدوثها.

ويزعمون أيضـــاً أن الاجســـام مركبة من الجواهر المفردة، والمركب مفتقر إلى جزئية وجزءاه غيره، وما افتقر إلى غيره لم يكن إلا حادثًا مخلوقًا، فالأجســـام متماثلة فكل ما صـــح على بعضـــها صـــح على جميعها، وقد صـــح على بعضـــها التحليل والتركيب والاجتماع والافتراق فيجب أن يصح على جميعها.(٣)

---

(١) نقض التأسيس (١/٤٩٥-٤٩٦).

(٢) بالإضافة إلى زعم المعتزلة أن الصفات لا تقوم إلا بأجسام، فهم أيضًا يزعمون أن في إثبات الصفات قول بكثرة وتعدد ذات الله، لأنهم يقولون: "إن من أثبت لله صفة أزلية قديمة فقد أثبت إلهين"، كما اعتقدوا أن الصفات لو شاركته في القدم لشاركته في الألوهية. انظر الملل للشهرستاني (١/ ٤٤-٤٦)، مقالات الإسلاميين (١/ ٢٤٥)، منهاج السنة (٢/ ١٦٩).

(٣) انظر مختصر الصواعق (١/ ٢٥٤).

والمعتزلة يقولون إننا بهذا الطريق أثبتنا حدوث العالم ونفي كون الصانع جسمًا وإمكان المعاد.

الرد عليهم:

مما تقدم نعلم أن المعتزلة إنما بنوا دليلهم في نفي الصفات على أن القديم لا يكون محلا للصفات والحركات فلا يكون جسمًا ولا محيزًا لأن الصفات أعراض وهم يستدلون على حدوث الجسم بحدوث الأعراض والحركات، وأن الجسم لا يخلو منها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

فهم بهذا القول نفوا صفات الباري وجعلوا نفيها يتوقف عليه ثبوت الصانع وحدوث العالم، فإذا جاء في القرآن والسنة ما يدل على إثبات الصفات لم يمكن القول بموجبه.

والمتدبر لحجج المعتزلة يرى فيها الأمور التالية:

أولاً: أنهم يستدلون لأقوالهم بعبارات مبتدعة وفيها الكثير من الاشتباه والاجمال، وذلك كلفظ العرش والجسم والحيز والمركب وغير ذلك، فهم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ليخدعوا به جهال الناس بما يشبهون عليهم، وهذه الألفاظ المجملة تتضمن معاني باطلة ومعاني أخرى صحيحة فهم بهذا ينفون كلا المعنيين الحق والباطل.

وقد بين **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)** ما في هذه الألفاظ من معانٍ، وما تدل عليه من عبارات [(١)]، وكيف استعملها هؤلاء المعطلة في نفي صفات الباري-عز وجل-حيث ادعوا أن هذه الأمور من مستلزمات الجسمية، والله منزه من ذلك، وقد بين **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)** أن استعمال هذه الألفاظ نفيًا وإثباتًا لم يرد عن السلف ولا جاء به أثر صحيح ولم يستعملها الأقدمون بالمعنى الاصطلاحي الذي اتفق عليه هؤلاء، بل جميعهم معترفون بأن العلو صفة كمال كما أن السفل صفة نقص، وما ثبت لله من العلو فهو العلو المناسب لكمال ذاته المنزهة عن اعتبارات المحدثين ومماثلتهم.

---

(١) انظر شرح ابن تيمية لهذه العبارات في نقض التأسيس الجهمية (**١/ ٥٠٤، ٥١١**)، وفي مجموع الفتاوى (**٥/ ٤١٨-٤٣٠**).

ومعلوم أن القول بأن العلو يســـتلزم هذه المعاني المبهمة إنما هو مأخوذ من قياس الغائب على الشـاهد، ومحاولة تطبيق الاعتبارات الإنسـانية على الصـفات الإلهية، وهذا قياس خاطئ إذ ليس معنى كونه في السماء أن السماء تحويه وتحيط به وتحصره، أو هي محل وظرف له، بل هو سـبحانه محيط بكل شـيء وسع كرسيه السـموات والأرض، وهو فوق كل شـيء، وعالٍ على كل شيء.[١]

ثانيا: أن ما اسـتدل به المعتزلة لا أصـل له من الكتاب أو السـنة، بل هو مأخوذ من كلام الفلاسفة الذين يزعمون أن للعالم صانعاً ليس بعالم ولا قادر ولا حي.[٢]

كما أن مذهب المعتزلة في الذات قريب من مذهب اليونان القائلين بأن ذات الله واحدة لا كثرة فيها بوجه من الوجوه.[٣]

ثالثاً: أن أصل هذه القاعدة التي اعتمد عليها المعتزلة في نفي الصفات إنما هي مأخوذة من قولهم في دليل حدوث العالم[٤] الذي أثبتوا فيه حدوث العالم بحدوث الأجسـام، وهذا الدليل قد بين الأشـعري في رسـالته إلى أهل الثغر: أنه دليل محرم في شـرائع الأنبياء، ولم يسـتدل به أحد من الرسل ولا أتباعهم[٥]، فهي بهذا طريق يحرم سلوكها لما فيها من الخطر والتطويل وما يلزم عليها من لوازم باطلة لأنها مسـتلزمة لنفي الصـانع بالكلية، وهي مسـتلزمة لنفي صـفاته ونفي أفعاله ونفي المبدأ والمعاد، فهذه الطريق لا تتم إلا بنفي سمع الرب وبصـره وقدرته وحياته وإرادته وكلامه فضــلًا عن نفي علوه على خلقه ونفي الصــفات الخبرية من أولها إلى آخرها،

---

(١) انظر كتاب موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من قضية التأويل (ص: ٣٨١-٣٨٥).

(٢) مقالات الإسلاميين (٢/ ١٧٧)، وموقف المعتزلة من السنة النبوية (ص: ٥٣).

(٣) موقف المعتزلة من السنة النبوية (ص: ٥٣).

(٤) انظر الكلام على دليل حدوث العالم في مجموع الفتاوى (١٣/ ١٥٣).

(٥) انظر كتاب رسالة إلى أهل الثغر (ص: ١٦٤-١٧٢) تحقيق عبد الله شاكر الجنيدي، رسالة ماجستير من قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية.

فلو صحت هذه الطريقة لنفت الصانع وأفعاله وصفاته وكلامه وخلقه للعالم وتدبيره له، وما يثبته أصحاب هذه الطريقة من ذلك لا حقيقة له بل هو لفظ لا معنى له، وأن الله بذاته في كل مكان، وقال إخوانهم إنه ليس داخل العالم ولا خارج العالم، وقالوا بخلق القرآن إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة.[(١)]

٣. شبه متأخري الأشاعرة:

وهم أيضًا ينفون صفة العلو لأنها من الصفات الخبرية [(٢)]، ومعلوم أن مذهب متأخري الأشاعرة في الصفات أنهم يثبتون سبع صفات فقط وهي ما يسمونها بصفات المعاني وهي العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام، وهم يثبتون لهذه الصفات أربعة أحكام هي:

١ـــ أن هذه الصفات ليست هي الذات، بل زائدة عليها فصانع العالم عندهم عالم بعلم وحي بحياة وقادر وهكذا.

٢ـ أن هذه الصفات كلها قائمة بذات الله تعالى ولا يجوز أن يقوم شيء منها بغير ذاته لأن الدليل دل على أنه متصف بها ولا معنى لاتصافه بها إلا قيامها بذاته، حتى لو قلنا، إنه عالم كان هو بعينه مفهوم قولنا قام بذاته علم فلا تكون الصفة لشيء إلا إذا قامت به لا بغيره.

٣ـــ أن هذه الصفات كلها قديمة لأنها إن كانت حادثة كان القديم محلاً للحوادث وهذا محال، أو متصف بصفة لا تقوم به وذلك أظهر استحالة.

٤ـــ أن الأسماء المشتقة لله تعالى من هذه الصفات السبع صادقة عليه أزلًا وأبدًا فهو في القدم كان حيًا قادرًا عليمًا سميعًا بصيرًا متكلمًا.[(٣)]

---

(١) مختصر الصواعق (١/ ٢٥٦،٢٥٧)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٨-٤٠).

(٢) الصفات الخبرية وتسمى الصفات السمعية وهي: ما كان الدليل عليها مجرد خبر الرسول دون استناد إلى نظر عقلي كالاستواء والنزول والمجيء وغير ذلك.

(٣) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٨٤-١٠١)، بتصرف.

فهم على قولهم هذا لا يثبتون سوى هذه الصفات السبع فقط لأنها قديمة.

أما باقي الصفات التي يسمونها الصفات الخبرية فهم ينفونها جميعها، بدعوى تنزيه ذات الله عن الحوادث.

ومتأخرو الأشـــاعرة هؤلاء وإن كانوا يخالفون المعتزلة في جعلهم الصـــفة غير الذات كما في الحكم الأول فيثبتون الصــــفات القديمة من هذا الباب، إلا أنهم قد وافقوا المعتزلة في دليلهم المســمى بدليل نفي الحوادث فنفوا باقي الصـفات الأخرى، ذلك لأن قولهم في الحكم الثالث من الأحكام الأربعة التي أوردناها إنها لو كانت حادثة لكان القديم محلا للحوادث، هو بعينه ما استدل به المعتزلة على نفي الصفات.[١]

ويقول متأخرو الأشــاعرة في دليلهم العقلي على نفي العلو إن إثبات العلو يقتضــي إثبات الجهة وإثبات الجهة، يقتضـي كونه جسـمًا، وكونه جسـمًا يقتضـي كونه مركبًا، والمركب مفتقر إلى جزئيه، والمفتقر إلى جزئيه لا يكون إلا حادثًا والله سبحانه منزه عن الحوادث.[٢]

فعلى قولهم هذا يكونون هم والمعتزلة على دليل واحد، وقد سبق وأن ذكرنا الرد على المعتزلة فيكون الرد على هؤلاء من جنس الرد على أولئك، ويضـاف إلى ذلك أن القول في الصـفات التي نفاها هؤلاء هو كالقول في الصـفات التي أثبتوها فإن كان هذا تجسـيماً وقولا باطلاً فهذا كذلك.

وإن قالوا: إن إثباتها على الوجه الذي يليق بالرب.

قيل لهم: وكذلك هذا.

فإن قالوا: نحن نثبت تلك الصفات وننفي التجسيم.

قيل لهم: وهذا كذلك، فليس لكم أن تفرقوا بين المتماثلين.[٣]

---

(١) مختصر الصواعق (١/ ٢٥٥).

(٢) نقض التأسيس (١/ ٥٠٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٦٥).

٤. شبه النفاة السمعية في نفي صفة العلو:

لقد سبق وأن ذكرنا أن المعطلة قد انقسموا في هذه المسألة إلى فريقين:

فأما الفريق الأول: وهم القائلون بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته وهؤلاء كما سبق وأن ذكرنا ليس لهم دليل واحد من الكتاب أو السنة.

وأما الفريق الثاني: وهم القائلون بأن الله بذاته في كل مكان فقد احتجوا لقولهم هذا بنصوص "المعية" و"القرب" الواردة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [المجادلة: الآية: ٧]، وقوله تعالى: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ**﴾ [النساء: الآية: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد: الآية: ٤]، وقوله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: الآية: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: الآية: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ**﴾ [الزخرف: الآية: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ**﴾ [الأنعام: الآية: ٣].

وقد زعم حلولية الجهمية أن المراد بهذه النصوص معية الذات وقرب الذات، فلذلك قالوا: إن الله بذاته في كل مكان.

الرد عليهم:

قد أبطل علماء السلف زعم هؤلاء الجهمية واستدلالهم بهذه الآيات وبينوا أن كل نص يحتجون به هو في الحقيقة حجة عليهم، فنصوص المعية التي استدلوا بها لا تدل بأي حال من

الأحوال على ما زعمه هؤلاء، وذلك لأن كلمة **(مع)** في لغة العرب لا تقتضي أن يكون أحد الشـــيئين مختلطًا بالآخر، وهي إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماســة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى.

ولفظ المعية قد اســتعمل في الكتاب والسـنة في مواضـع واقتضـت في كل موضـع أموراً لم تقتضيها في الموضع الآخر، وذلك بحسب اختلاف دلالتها في كل موضع وهي قد وردت في القرآن بمعنين هما:

المعنى الأول: المعية العامة

والمراد بها أن الله معنا بعلمه، فهو مطلع على خلقه شهيد عليهم، ومهيمن وعالم بهم، وهذه المعية هي المرادة بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّـــمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَـةٍ إِلَّا هُوَ سَـادِسُـهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [المجادلة: الآية: ٧].

فالله ســبحانه وتعالى قد افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم ولذلك أجمع علماء الصـــحابة والتابعين الذين حمل عنهم تفسـير القرآن على أن تفسـير الآية هو أنه معهم بعلمه، وقد نقل هذا الإجماع **ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)** [(١)]، **وأبو عمرو الطلمنكي–رحمه الله–(ت: ٤٢٩ هـ)، وابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)** [(٢)]، **وابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)**.[(٣)]

قال أبو عمر بن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "إن علماء الصـــحابة والتابعين

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٣)، و(٥/ ٥١٩)، و(١١/ ٢٤٩–٢٥٠).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٤٤).

الذين حملت عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية: هو على العرش وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله"(١)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) بعد أن نقل كلام ابن عبد البر هذا وأقره-: "فهذا ما تلقاه الخلف عن السلف إذ لم ينقل عنهم غير ذلك، إذ هو الحق الظاهر الذي دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية"اهـ (٢)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا: هو معهم بعلمه. وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(**ت: ٦٨ هـ**)، والضحاك-رحمه الله-(**ت: ٦٤ هـ**)، ومقاتل بن حيان-رحمه الله-(**ت: ١٥٠ هـ**)، وسفيان الثوري-رحمه الله-(**ت: ١٦١ هـ**)، وأحمد بن حنبل-رحمه الله-(**ت: ٢٤١ هـ**)، وغيرهم.

ثم ذكر الشيخ ما رواه ابن أبي حاتم-رحمه الله-(**ت: ٣٢٧ هـ**) في تفسيره عن ابن عباس-رضي الله عنهما-في قوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾، قال: هو على العرش، وعلمه معهم. وروى-أيضا-عن سفيان الثوري أنه قال: علمه معهم. وروى-أيضا-عن الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ إلى قوله: ﴿**أَيْنَ مَا كَانُوا**﴾ قال: هو على العرش، وعلمه معهم.

وقال أبو عمرو الطلمنكي-رحمه الله-(ت: ٤٢٩ هـ): وأجمعوا-يعني أهل السنة والجماعة-على أن لله عرشًا، وعلى أنه مستو على عرشه، وعلمه وقدرته وتدبيره بكل ما خلقه قال: فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾ ونحو ذلك في القرآن أن ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء"(٣)

---

(١) كتاب "التمهيد" (٧/ ١٣٨).

(٢) "مجموع الفتاوى" (٥/ ١٩٣).

(٣) انظر: "مجموع الفتاوى": (٥/ ٥١٩).

وعلى هذا فلا حجة للمخالفين في ظاهر هذه الآية.

وكذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْــتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّـــمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد: الآية: ٤].

فظاهر الآية دال على أن المراد بهذه المعية هو علم الله تبارك وتعالى واطلاعه على خلقه، فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، فجمع تعالى في هذه الآية بين العلو والمعية، فليس بين الاثنين تناقض البتة، وهو كقوله -صـــلى الله عليه وسلم- في حديث الأوعال: (**والله فوق العرش يعلم ما أنتم عليه**).

المعنى الثاني: المعية الخاصة

وهي معية الاطلاع والنصرة والتأييد، وسميت خاصة لأنها تخص أنبياء الله وأولياءه مثل قوله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَـــاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: الآية: ٤٠]، وقوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل: الآية: ١٢٨].

فهذه المعية على ظاهرها وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

ولفظ المعية على كلا الاســـتعمالين ليس مقتضـــاه أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق، ولو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان لتناقض الخبر العام والخبر الخاص، ولكن المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك.[١]

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَـانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْـوِسُ بِهِ نَفْسُـهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: الآية: ١٦]، فقد أجاب عنه **ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ)** بقوله: "إن هذه الآية لا تخلوا من أن يراد بها قربه ســـبحانه أو قرب ملائكته كما قد اختلف الناس في ذلك

فإن أريد بها قرب الملائكة: فدليل ذلك من الآية قوله: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٠)، و(٥/ ١٠٤).

* ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: الآيات: ١٦-١٧]، ففسر ذلك القرب الذي هو حين يتلقى المتلقيان، فيكون الله سبحانه قد أخبر بعلمه هو سبحانه بما في نفس الإنسان، ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ وأخبر بقرب الملائكة الكرام الكاتبين منه، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وعلى هذا التفسير تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: الآية: ٨٠].

أما إذا كان المراد بالقرب في الآية قربه سبحانه، فإن ظاهر السياق في الآية دل على أن المراد بقربه هنا قربه بعلمه، وذلك لورود لفظ العلم في سياق الآية ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾"(١)

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: الآية: ٨٤]، فمعنى الآية: أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض، **قال ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)**: "فوجب حمل هذه الآية على المعنى الصحيح المجتمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذلك قال أهل العلم بالتفسير"(٢)

وقال الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ): "وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: الآية: ٨٤]، فمعناه: أنه جل ذكره إله من في السموات وإله من في الأرض، وهو الإله يعبد في السموات، وهو الإله يعبد في الأرض، هكذا فسره العلماء"(٣)

وروى **الآجري–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ)** بسنده في تفسيره هذه الآية عن **قتادة–رحمه**

(١) الفتاوى (٦/ ١٩-٢٠).
(٢) التمهيد (٧/ ١٣٤).
(٣) الشريعة (٣/ ١١٠٤).

الله-(ت: ١١٨ هـ)، قوله: "هو إله يعبد في السماء، وإله يعبد في الأرض"[(١)]

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: الآية: ٣]، فقد فسرها أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره أنه المعبود في السموات والأرض.[(٢)]

وقال الآجري-رحمه الله-(ت: ٣٦٠ هـ): "وعند أهل العلم من أهل الحق ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية: ٣]، هو كما قال الحق ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ فما جاءت به السنن أن الله عز وجل على عرشه، وعلمه محيط بجميع خلقه، يعلم ما تسرون وما تعلنون، ويعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون"[(٣)]

القول الثاني:

وهو قول من يقول إن الله بذاته فوق العرش وهو بذاته في كل مكان.

هذا قول جماعة من أهل الكلام والتصوف كأبي معاذ التومني[(٤)]، وزهير الأثري[(٥)]، وأصحابهما[(٦)]، وهو موجود في كلام السالمية[(٧)] كأبي طالب المكي[(٨)] وأتباعه كأبي الحكم

---

(١) الشريعة (٣/ ١١٠٤-١١٠٥).

(٢) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص: ٩٢-٩٣)، ومجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٠).

(٣) الشريعة (٣/ ١١٠٤).

(٤) أبو معاذ التومني من أئمة المرجئة ورأس فرقة التومنية منها.
انظر ترجمته ومذهبه في مقالات الأشعري (١/ ٢٠٤، ٣٢٦)، (٢/ ٢٣٢)، والملل والنحل (١/ ١٢٨).

(٥) زهير الأثري، لم أقف على ترجمته، وقد تكلم الأشعري عن آرائه بالتفصيل في المقالات (١/ ٣٢٦).

(٦) انظر نقض تأسيس الجهمية (١/ ٦)، والفتاوى (٢/ ٢٩٩)، ومقالات الإسلاميين (١/ ٣٢٦).

(٧) هم أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم المتوفى سنة (٢٩٧هـ) وابنه أبي الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى سنة (٣٥٠ هـ)، وقد تتلمذ أحمد بن محمد بن سالم على سهل بن عبد الله التستري، ويجمع السالمية بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية، انظر شذرات الذهب (٣/ ٣٦)، وطبقات الصوفية (ص: ٤١٤-٤١٦)، والفرق بين الفرق (ص: ١٥٧-٢٠٢).

(٨) أبو طالب، محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، صوفي نشأ واشتهر بمكة، وهو صاحب كتاب "قوت القلوب" في التصوف =

برجان [(١)] وأمثاله ما يشير إلى نحو هذا، كما يوجد في كلامهم ما يناقض هذا [(٢)] فهم يقولون بأن الله في كل مكان، وأنه مع ذلك مستو على عرشه وأنه يرى بالأبصار بلا كيف، وأنه موجود الذات بكل مكان، وأنه ليس بجسم ولا محدود ولا يجوز عليه الحلول ولا المماسة، ويزعمون أنه يجيء يوم القيامة كما قال تعالى ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر: الآية: ٢٢]، وقولهم هذا يشبه قول بعض مثبتة الجسم الذين يقولون إنه لا نهاية له [(٣)].

والفرق بين هذا القول وقول الجهمية: بأن الله في كل مكان هو أن هؤلاء يثبتون العلو ونوعا من الحلول، أما الجهمية فلا يثبتون العلو على مقصود هؤلاء من الاستواء على العرش والمباينة.

ويزعم أصحاب هذا القول إنهم بقولهم هذا قد اتبعوا النصوص كلها سواء كانت نصوص علو أو معية أو قرب.

الرد عليهم:

إنهم بقولهم هذا جمعوا بين كلام أهل السنة وكلام الجهمية، ولذلك كان قولهم ظاهر الخطأ وغاية في التناقض.

أما بيان خطئه فيكمن في أن كل من قال بأن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الامة وأئمتها مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة، فالقرآن الكريم مملوء بالآيات التي تنص على علو الله بذاته فوق خلقه واستوائه على عرشه وبينونته من خلقه، كما أن السنة قد تحدثت عن هذا المعنى في كثير من

وهو من أكبر رجال السالمية، قال عنه الخطيب البغدادي: (**ذكر فيه أشياء مستشنعة في الصفات**)، توفي سنة (**٣٨٦هـ**).
انظر ترجمته في تاريخ بغداد (**٣/ ٨٩**)، وميزان الاعتدال (**٣/ ٦٥٥**)، ولسان الميزان (**٥/ ٣٠٠**).

(١) أبو الحكم، عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الإشبيلي، متصوف، توفي سنة (**٥٣٦ هـ**) بمراكش.
انظر ترجمته في لسان الميزان (**٤/ ١٣-١٤**)، فوات الوفيات (**١/ ٥٦٩**)، الاعلام (**٤/ ١٢٩**).

(٢) مجموع الفتاوى (**٢/ ٢٩٩**).

(٣) نقض تأسيس الجهمية (**٢/ ٦**).

الأحاديث، كقصة المعراج وصعود الملائكة ونزولها من عند الله وعروج الروح إليه واستوائه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، فكل هذه الأدلة تبين بطلان هذا القول ومخالفته.

وأما استدلال هؤلاء بنصوص المعية والقرب، فقد بينا خطأ هذا الاستدلال وبطلانه عند الرد على الأدلة السمعية لمذهب الجهمية، وقد بينا أنه ليس للمخالفين أي متمسك في جعلها لمعية الذات أو قرب الذات.

أما بيان تناقض هذا القول: فهو واضح من أقوالهم، فهم يجمعون بين أقوال متناقضة، فهم تارة يقولون إنه بذاته فوق العرش، وتارة يقولون إنه فوق العرش ونصيب العرش فيه كنصيب قلب العارف -كما يذكر ذلك أبو طالب المكي وغيره-، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان وما يتبع ذلك، فإن قالوا: إن العرش كذلك فقد نقضوا قولهم بأنه بنفسه فوق العرش.

وإن قالوا بحلول ذاته في قلوب العارفين، كان ذلك قولا بالحلول الخاص، وهذا ما وقع فيه طائفة من الصوفية ومنهم صاحب منازل السائرين.(١)

المسألة الثانية: صفة الاستواء والأقوال فيها

أولًا: مذهب السلف في صفة الاستواء

أ-معتقد السلف في صفة الاستواء.

والمقصود بالسلف هم الصحابة والتابعون ومن سار على نهجهم.

ولقد كان قولهم في الاستواء كقولهم في سائر صفات الله فهم وسط بين طائفتين هم المعطلة والمشبهة.

فهم لا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، ولا ذاته بذوات خلقه كما يفعل المشبهة.

وكذلك لا ينفون عن الله ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله-صلى الله عليه وسلم-، فيعطلون أسماءه وصفاته، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسمائه وآياته كما فعل

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٢-١٣١).

المعطلة.

بل كان مذهبهم في سائر الصفات -بما في ذلك الاستواء-أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-نفياً وإثباتاً.

وطريقتهم في الإثبات أنهم يثبتون ما أثبته الله من الصفات من غير تكييف لها، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تعطيل.

وطريقتهم في النفي أنهم ينفون عن الله ما نفاه عن نفسه مع إثبات كمال ضد ذلك المنفي.

فطريقة السلف هي إثبات أسماء الله وصفاته مع نفي مماثلة المخلوقين، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: الآية: ١١]، ففي قوله تعالى ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ رد للإلحاد والتعطيل.(١)

ولقد كانت هذه طريقة السلف في جميع الصفات دون تفريق بين صفة وصفة، وفي ذلك يقول **الإمام أحمد**-رحمه الله-(**ت: ٢٤١ هـ**): "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله-صلى الله عليه وسلم-لا نتجاوز القرآن والسنة"(٢)

وبناءً على هذه القاعدة كان مذهب السلف في صفة الاستواء أنهم يثبتون استواء الله على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته ويناسب كبريائه وهو بائن من خلقه وخلقه بائنون منه.

فأهل السنة والجماعة أثبتوا تلك الأسماء والصفات التي جاء ذكرها في كلام الله عز وجل وكلام رسوله-صلى الله عليه وسلم-، فإذا قال الله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: الآية: ٥]، فإن هذا النص خبر، أخبر الله فيه أنه استوى على عرشه، فأهل السنة والجماعة يعتقدون: إن الله استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله، لا يماثله فيه أحدٌ من خلقه والله أعلم بكيفيته.

---

(١) انظر الرسالة التدمرية (ص: ٤-٧)، الفتوى الحموية الكبرى (ص: ١٦-١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦).

وذلك الإيمان يتضمن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إثبات صفة الاستواء لله عز وجل.

الأمر الثاني: نفي مماثلة صفات الله عز وجل لصفات المخلوقين.

الأمر الثالث: عدم الخوض في كيفية صفات الله عز وجل.

فما أخبر الله به في هذه الآية يجب أن يُثبت لله تعالى، فإذا قال تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: الآية: ٥]، فإن هذا يوجب على المؤمن أن يصدق به، لأن نصوص القرآن والسنة تدور حول حالين:

إما إخبارٌ أو أمر، إما أن يُخبر الله تعالى بشيء، وإما أن يأمر بشيء، فقوله: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: الآية: ٥]، هذا إخبارٌ، والأمر مثل قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [البقرة: الآية: ٤٣]، فهنا أمر من الله لعباده بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

فالخبر يجب على المؤمن تجاهه التصديق، فإذا أخبرك الله تعالى بأنه استوى على عرشه، فإن عليك أن تصدق بأن الله تعالى استوى على عرشه، وإذا جاءك الأمر مثل: وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة، فيجب عليك الامتثال والانقياد، فإن كان أمر إيجاب يجب عليك أن تقوم به، وإن كان أمر نهيٍ فيجب عليك أن تنتهي.

فالواجب على الموحد إذا أخبر الله تعالى باستوائه على عرشه أن يعتقد ثلاثة أمور:

أولاً: يجب عليه أن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه استواءً حقيقة كما أخبر في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: أن يثبت لله اســـتواءً يليق بجلاله وكماله تعالى؛ لِأن الله تعالى قد قال في آية أخرى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: الآية: ١١]، فمعنى هذا أن الله في استوائه على عرشه لا يماثله في ذلك أحدٌ من خلقه، نعني بذلك أن الله تعالى لا يحتاج إلى العرش ولا يفتقر إليه.

ثالثاً: يجب علينا ألا نخوض في كيفية اســـتوائه، هذا أمرٌ لا ينبغي ولا يجوز للمســـلم أن

يخوض فيه.

فإذاً تُثبتُ ما أثبته الله لنفســـه؛ لأن الله أخبر بذلك، ومع إثبات ذلك يجب أن تعتقد أن الله تعالى لا يماثله ولا يساويه في ذلك أحدٌ من خلقه، مع عدم الخوض في كيفية الاستواء.

فالمقصـــود والمراد من نفي المماثلة أن لله خصـــائص، أي أمورٌ يختص بها لا يماثله في ذلك أحدٌ من خلقه، ثم بعد ذلك فالله تعالى ما أطلعك ولا أخبرك ولا تعبدك بمعرفة كيفية استوائه، وكلنا يعلم جواب **الإمام مالك**–رحمه الله–(**ت: ١٧٩ هـ**) إذ سأله السائل: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: الآية: ٥]، كيف استوى؟ فغضب الإمام مالك من سؤال السائل وقال: "**الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة**"(١)

فإذاً الكيف مجهول، كيف استوى؟ كيف ينزل؟ كيف يداه؟ كيف قدماه؟ إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى لا نعلم كيفيتها وهذا سيأتي جوابه إن شاء الله تعالى.

والسلف يقولون إن معنى هذا الاستواء الوارد في الكتاب والسنة معلوم في اللغة العربية، كما **قال ربيعة بن عبد الرحمن**–رحمه الله–(**ت: ١٣٦ وقيل: ١٤٢ هـ**)، **والإمام مالك**–رحمه الله–(**ت: ١٧٩ هـ**): "الاســتواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والســؤال عنه بدعة"فقولهم: (**الاستواء معلوم**): أي أن معنى الاستواء معلوم في اللغة وهو ههنا بمعنى العلو والارتفاع.

قال ابن القيم–رحمه الله–(**ت: ٧٥١ هـ**): "إن لفظ الاســـتواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله بلغتهم وأنزل به كلامه نوعان: مطلق، ومقيد.

فالمطلق مالم يوصل معناه بحرف مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ**﴾ [القصص: الآية: ١٤]، وهذا معناه: كمل وتم، ويقال: استوى النبات، واستوى الطعام.

وأما المقيد فثلاثة أضرب:

أحدها: مقيد "بإلى" كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ**﴾ [فصلت: الآية: ١١]،

(١) انظر الموطأ للإمام مالك (١/ ٢٥٣).

واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى المعدى بإلى في موضعين من كتابه، الأول في ســــورة البقرة في قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٩]، والثاني في سورة فصلت ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصلت: الآية: ١١]، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف.

الثاني: المقيد "بعلى" كقوله تعالى: ﴿**لِتَسْــتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ**﴾ [الزخرف: الآية: ١٣]، وقوله: ﴿**وَاسْـتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**﴾ [هود: الآية: ٤٤]، وقوله: ﴿**فَاسْـتَوَىٰ عَلَىٰ سُــوقِهِ**﴾ [الفتح: الآية: ٢٩]، وهذا أيضاً معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون "بواو مع" التي تعدى الفعل إلى المفعول معه نحو اســـتوى الماء والخشـــبة، بمعنى ساواها وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم.(١)

ومما يؤكد أيضـــاً أن الســـلف يعلمون معنى الاســـتواء **قول ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)**: "والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم وهو العلو والارتفاع على الشـيء والاستقرار والتمكن فيه".

قال أبو عبيدة–رحمه الله–(ت: ٢٠٩ هـ) في قوله ﴿اســـتوى﴾ قال: علا، قال: وتقول العرب: اسـتويت فوق الدابة واسـتويت فوق البيت، وقال غيره: اسـتوى أي انتهى شـبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد، والاستواء والاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله عز وجل فقال: ﴿**لِتَسْـتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْـتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**﴾ [الزخرف: الآية: ١٣]، وقال: ﴿**وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**﴾ [هود: الآية: ٤٤]، وقال: ﴿**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ**﴾ [المؤمنون: الآية: ٢٨].

وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بضبضاء قفرة ... وقـد حلق النـجم اليمـاني فاستوى

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٢٦–١٢٧).

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد: استولى لأن النجم لا يستولى.

وقد ذكر **النضـــــر بن شميل**–رحمه الله–(ت: ٢٠٣ هـ)–وكان ثقة مأموناً جليلاً في علم الديانة واللغة–قال: "حدثني **الخليل**–رحمه الله–(ت: ١٧٤ هـ)–وحســـبك بالخليل–قال: أتيت **أبا ربيعة الأعرابي**–رحمه الله–(ت: ١٧٠ هـ تقريبًا) وكان من أعلم من رأيت فغذا هو على سطح، فسلمنا فرد علينا السلام وقال لنا: استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال؟ فقال لنا أعرابي إلى جنبه: إنه أمركم أن ترتفعوا، **قال الخليل**–رحمه الله–(ت: ١٧٤ هـ): هو من قول الله عز وجل ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصلت: الآية: ١١]، فصعدنا إليه"[١]

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن ظاهر الاســـتواء وحقيقته هو العلو والارتفاع كما نص عليه جميع أهل اللغة والتفسير المقبول"[٢]

ولما كان هذا هو معنى الاستواء في لغة العرب فقد تكلم السلف والمفسرون بهذا المعنى عند تفسير هذه الآية فقد روى عن **مجاهد**–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ) في تفسير قوله تعالى ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، قال: علا على العرش.[٣]

وقد روى **ابن ابي حاتم**–رحمه الله–(ت: ٣٢٧ هـ) في تفســـيره بســـنده **عن أبي العالية**–رحمه الله–(ت: ٩٠ أو٩٣ هـ) في تفسير الآية السابقة الذكر قال: ارتفع.[٤]

وقد روى عن الحسن البصري–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ)، والربيع بن أنس–رحمه الله–(**ت**:

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣١–١٣٢).

(٢) انظر: مختصر الصواعق (٢/ ١٤٥).

(٣) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٠٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٩).

١٣٩ هـ) مثله [(١)].

وقد روى **اللالكائي**–رحمه الله–(ت: **٤١٨ هـ**) بسـنده عن بشـر بن عمر–رحمه الله– (**ت: ٢٠٧ هـ**) قال: "سمعت غير واحد من المفســرين يقولون: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: الآية: ٥]، قال: على العرش استوى: ارتفع"[(٢)]

وفي هذا التفسـير لمعنى الاستواء من قبل السـلف رد على من زعم أن مذهب السـلف هو التقيد باللفظ مع تفويض المعنى المراد وأنهم كانوا لا يفسـرون الاستواء ولا يتكلمون فيه، فمن خلال ما تقدم من الأقوال التي نقلت عن السلف يتضح كذب هؤلاء وزيف ادعائهم.

ومما ينبغي معرفته أن السلف مع إثباتهم لمعنى الاستواء واعتقادهم بأن الله مستو على عرشه ومرتفع عليه، إلا أنهم يكلون علم كيفية ذلك الاســتواء إلى الله عز وجل لأن أمره هو مما اســتأثر الله بعلمه وفي ذلك يقول القرطبي–رحمه الله–(**ت: ٦٧١ هـ**): "ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته كما قال الإمام مالك: "الاســتواء معلوم –يعني في اللغة–والكيف مجهول، والســؤال عنه بدعة"[(٣)]

وقال ابن القيم–رحمه الله–(**ت: ٧٥١ هـ**): "إن العقل قد يئس من تعرف كنه صـفات الله وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول الســلف (**بلا كيف**) أي بلا كيف يعقله البشــر، فإنه من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف كيفية نعوته وصــفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر، ولا نعرف كيفيتها مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق،

---

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (**٣/ ٣٩٧**).

(٣) تفسير القرطبي.

فعجزنا من معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم"[(١)]

واستواءه-سبحانه وتعالى-على العرش بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام إنما هذا الاستواء هو-علو خاص-، ذلك لأن من المعلوم أن كل مستو على شيء هو عال عليه، وليس كل عال على شيء مستويا عليه، ولهذا لا يقال لكل ما كان عاليا على غيره أنه مستو عليه، ولكن كل ما قيل فيه: إنه استوى على غيره، فإنه عال عليه.

والذي أخبر الله أنه كان بعد خلق السموات والأرض "الاستواء" لا مطلق العلو، مع أنه يجوز أنه كان مستويا على العرش قبل خلق السموات والأرض لما كان عرشه على الماء، ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا عليه ولم يكن مستويا عليه، وبعد الانتهاء من خلق هذا العالم استوى على العرش.

فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له، كما أن عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته، ولهذا قال فيها ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى**﴾ ومن أجل ذلك كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر، وأما علوه على المخلوقات فهو عند أئمة أهل الإثبات من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع"[(٢)]

فالاستواء صفة ثابتة في القرآن والسنة وقد أجمع سلف الأمة على إثباتها.

ب-: الأدلة من القرآن على إثبات صفة الاستواء.

جاء ذكر الاستواء في سبع آيات، وهذه الآيات السبع التي جاء فيه ذكر الاستواء على العرش قد جاءت مصحوبة بما يبهر العقول من صفات الله وجلاله وكماله، [(٣)]

وسنذكر تلك الآيات وما اقترن بها.

١-**الموضع الأول**: فأول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة

---

(١) مدارج السالكين (**٣/ ٣٥٩**).

(٢) انظر: "الفتاوى": (**٥/ ٥٢١-٥٢٣**) بتصرف.

(٣) "منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات": (**ص: ١٥**).

الأعراف: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأمره أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال[(١)]

٢-والموضع الثاني: في سورة يونس قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِما كَانُوا يَكْفُرُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: الآيات: ٣-٦].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الكمال والجلال.

٣-الموضع الثالث: في سورة الرعد في قوله جل وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِماءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: الآيات: ٢-٤].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

---

(١) "منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات": (ص: **١٥**).

٤-الموضع الرابع: في سوره طه قال تعالى: ﴿**طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّماوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ ما فِي السَّماوَاتِ وَما فِي الأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنَى**﴾ [طه: الآيات: ١-٨].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

٥-الموضع الخامس: في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً * الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً**﴾ [الفرقان: الآيات: ٥٨-٥٩].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الكمال والجلال.

وقال **محمد الأمين الشنقيطي**-رحمه الله-(**ت: ١٣٩٣ هـ**): "إنه ينبغي للمؤولين أن يتأملوا هذه الآية من سورة الفرقان وهي قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً**﴾ [الفرقان: الآية: ٥٨]، ويتأملوا معها قوله تعالى: ﴿**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ [فاطر: الآية: ١٤]، فإن قوله في الفرقان: ﴿**فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً**﴾ بعد قوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ**﴾ يدل دلالة واضحة أن الله الذي وصف نفسه بالاستواء خبير بما يصف به نفسه، ولا تخفى عليه الصفة اللائقة من غيرها ويفهم منه أن الذي ينفي عنه صفة الاستواء ليس بخبير، نعم هو والله ليس بخبير"(١)

٦- الموضع السادس: في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْما ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ**

(١) "منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات": (ص: **٢٦**).

وَلِيٍّ وَلا شَــفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّـــماءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَــنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـــهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَـيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَـانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُـلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَــوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـــمْعَ وَالأَبْصَـــارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة، الآيات: ٣-٩].

فهل لأحد أن ينفي شيئًا من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال.

٧-الموضـــع الســـابع: في ســـورة الحديد في قوله تعالى: **﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَــيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـــماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِـــتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْـــتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْهَا وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّـــماءِ وَما يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [الحديد، الآيتان: ٣-٤].

فالله سبحانه وتعالى مع استوائه على عرشه لا يخفى عنه شيء من أمور مخلوقاته، فهو يعلم جميع ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وجميع ما ينزل من الســماء وما يعرج فيها، فســبحان من لا يعزب عن علمه مثقال حبة من خردل لا في الســـماء ولا في الأرض عـالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم.

فالشــــاهد من ذكر آيات الاســـتواء على العرش وذكر ما اقترن بها من صــــفات العظمة والجلال بيان أن هذه الصـــــفة التي ظن الجاهلون أنها صـــفة نقص، ويتهجمون على رب السـموات والأرض بأنه وصـف نفسه بصفة نقص، ثم يسببون عن هذا أن ينفوها ويؤولوها، مع أن الله-جل وعلا-تمدح بها، وجعلها من صـفات الجلال والكمال مقرونة بما يبهر العقول من صـفات الجلال والكمال، وهذا يدل على جهل وهوس من ينفي بعض صـفات الله جل وعلا بالتأويل.(١)

(١) "كتاب منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات": (ص: ١٧).

ج-الأدلة من السنة على إثبات صفة الاستواء.

كما أن السنة مليئة بالأحاديث الثابتة الصحيحة الدالة على استواء الله على عرشه.

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: **(إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه، إن رحمتي سبقت غضبي)**. متفق عليه. [١]

وعن أبي رزين العقيلي-رضي الله عنه- قال: "قلت يا رسول الله: أين كان ربنا قبل أن يخلق السماء والأرض؟" قال: **(كان في عما[٢] ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق العرش، ثم استوى عليه)**. وفي لفظ آخر: **(ثم كان على العرش فارتفع على عرشه)**. [٣]

---

(١) أخرجه البخاري (ح: ٧٤٠٤). وانظر (ح: ٣١٩٤، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤). وأخرجه مسلم في صحيحه، التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٨/٩٥).

(٢) العما: السحاب الأبيض، كذا فسره الأصمعي. انظر كتاب العظمة لأبي الشيخ (١/ ٣٦٥-٣٦٦)، والعرش لابن أبي شيبة(**رقم**: ٨)، والحد للدشتي (ق١٥/ب).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة هود (٥/ ٢٨٨، **رقم**: ٣١٠٩). والإمام أحمد في مسنده (٤/ ١١-١٢). وابن أبي شيبة في العرش (ح: ٧). وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٤). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧١). وابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ١٢)، وفي تاريخه (١/ ١٩). والحكيم الترمذي في الرد على المعطلة (ق١٠٦/ أ). وأبو الشيخ في كتاب العظمة (١/ ٣٦٣-٣٦٤، ح٨٣). وابن بطة في الإبانة (**تتمة الرد على الجهمية**، (٣/ ١٦٨، ح١٢٥). وابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: ٨٩)، (ح: ٣١). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٣٥-٢٣٦، ح: ٨٠١ و٢/٣٠٣، ح: ٨٦٤). قال الترمذي: حديث حسن. وقال الذهبي في العلو (ص١٩) إسناده حسن. وقال في كتاب العرش حديث رقم (١٥) "وهذا حديث حسن رواه الترمذي وغيره"؛ وقال الألباني: "في تصحيحه نظر، فإن مداره على وكيع بن عدس ويقال حدس، وهو مجهول، لم يرو عنه غير يعلى بن عطاء، ولا وثقه غير ابن حبان".

التعليق: اختلف في لفظة "عما" من حيث الشكل ومن حيث المعنى المراد بها.

فالأصمعي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، والأزهري وغيرهم يرون أن لفظة "عما" هي من حيث الشكل بالمد، وليست بالقصر، وأن معناها المراد في الحديث السحاب الأبيض، لأنه هذا هو معنى الكلمة في كلام العرب المنقول عنهم. ومما يشهد لذلك قول الحارث بن حلزة اليشكري:

=

وعن جبير بن مطعم-**رضـــي الله عنه**-**(ت: ٥٩ هـ)**، أن رســـول الله-صـــلى الله عليه وسـلم-قال للأعرابي في حديث الاستسقاء: (**ويحك أتدري ما الله؟ إن شـأنه أعظم من أن يستشفع به على أحد، إنه لفوق عرشه على سمواته**).

رواه أبو داود، وغيره، في الرد على الجهمية. [١] بإسـناد حسـن عنده من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

وعن العباس بن عبد المطلب-**رحمه الله**-**(ت: ٣٢ هـ)** قـال: كنـا بالبطحـاء فمرت سحابة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**هل تدرون بعد ما بين السماء والأرض؟**)، قالوا: لا، قال: (**إما واحدة، وإما اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة**)، ثم عد سبع سموات، ثم قال: (**فوق السابعة بحر بين أسفله، وأعلاه كما بين السماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية**

وكأن المنون تردي بنا.... أعصم ينجاب عنه العما

ومعنى البيت: أن الشاعر يقول هو في ارتفاعه، قد بلغ السحاب ينشق عنه، ويقول نحن في عزنا مثل الأعصم، فالمنون إذا أرادتنا فكأنما تريد أعصم (**أي الجبل الشاهق**).

وقال الأزهري: "ولا يدرى كيف ذلك العما بصفة تحصره ولا نعت يحده، ويقوي هذا القول قول الله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ الآية ٢١٠ من سورة البقرة، فالغمام معروف في كلام العرب، إلا أنا لا ندري كيف الغمام الذي يأتي الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة في ظلل منه، فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته، وكذلك سائر صفات الله عز وجل". تهذيب اللغة (**٣/ ٢٤٦**).

وهذا القول ليس فيه دليل، على قول الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم، وأن مادة السموات والأرض ليست مبتدعة، وذلك أن الله سبحانه أخبرنا في كتابه بابتداء الخلق الذي يعيده، وأخبر بخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام في غير موضع، وجاءت بذلك الأحاديث الكثيرة، وأخبر أيضاً أنه يغير هذه المخلوقات.

ويرى يزيد بن هارون، وأقره على ذلك الترمذي أن لفظة "عما" هي من حيث الشكل بالمد، ولكن معناها في هذه الحديث هو: "أي ليس مع الله شيء" وعلى هذا يكون معنى الحديث أن الله كان ولم يكن شيء معه، ويشهد لهذا المعنى ما جاء في حديث عمران بن حصين من قوله صلى الله عليه وسلم: "كان الله ولم يكن شيء معه".

وهناك رأي ثالث في المسألة، يخالف القولين الأولين من حيث الشكل والمعنى: فمن حيث اللفظ يرى أنه بالقصر، وليس بالمد.

وعلى هذا يكون المعنى: أنه كان حيث لا تدركه عقول بني آدم، ولا يبلغ كنهه وصف، وذلك لأن كل أمر لا يدركه القلوب بالعقول فهو عمى.

انظر: غريب الحديث لأبي عبيد (**٢/ ٨-٩**)، تهذيب اللغة (**٣/ ٢٤٦**)، نقص تأسيس الجهمية (**١/ ٥٩١**).

[١] سنن أبي داود (٥/ ٩٤-٩٦، ح: ٤٧٢٦).

أوعال [(١)] **بين أظلافهم، وركبهم كما بين سماء، إلى سماء ثم على ظهورهم العرش، ثم الله فوق ذلك، وهو يعلم ما أنتم عليه)**. رواه أبو داود بإسناد حسن وفوق الحسن. [(٢)]

وعن زينب بنت جحش-رضـــي الله عنها-(ت: ٢٠ أو ٢١ هـ) أنها كانت تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: "زوجنيك الرحمن من فوق عرشه"[(٣)]

وفي لفظ للبخاري كانت تقول: "إن الله أنكحني من فوق سبع سموات"[(٤)]

د-دليل الإجماع على إثبات صفة الاستواء.

---

(١) الأوعال جمع وعل بكسر العين، وهو تيس الجبل. النهاية (٥/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٠٧). وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية (٥/ ٩٣، **برقم ٤٧٢٣**). وأخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٩). وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة الحاقة (٥/ ٤٢٤-٤٢٥، **برقم**: ٣٣٢٠). والدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: ٤٤٨). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٣). وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٣٤-٢٣٥، ح: ١٤٤). والآجري في الشريعة (٣/ ١٠٨٩-١٠٩٠، ح: ٦٦٥). وابن منده في التوحيد (١/ ١١٧). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/٣٩٠). والذهبي في العلو (ص: ٤٩). ومدار الحديث من جميع طرقه على "عبد الله بن عميرة" وعبد الله فيه جهالة، ولذلك قال الألباني في تخريج السنة (١/ ٢٥٤): "إسناده ضعيف، وعبد الله بن عميرة، قال الذهبي: فيه جهالة، وقال البخاري: لا نعلم له سماعاً من الأحنف بن قيس". انتهى كلامه. ولكن الجوزقاني صرح في الأباطيل (١/ ٧٩) بصحة الحديث. وكذلك ابن تيمية في الفتاوى (٣/ ١٩٢) حيث قال: "إن هذا الحديث قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولاً إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-، والإثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف، ولم ينف معرفة الناس بهذا، فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد، كانت معرفته وإثباته مقدماً على نفي غيره وعدم معرفته". انتهى كلامه. وكذلك مال تلميذه ابن القيم إلى تصحيحه. انظر تهذيب السنن (٧/ ٩٢-٩٣).

(٣) رواه الطبري بلفظ مقارب في التفسير (٢٢/ ١٤). وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥). وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص:٦١، **برقم**: ٣١). وابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٩٢). والذهبي في العلو(ص: ٤٠) و(ص: ٢٠)، وفي كتاب العرش برقم: (٢٦). وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (١/ ١٢٥). وابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١٢) وقال: "وفي مرسل الشعبي قالت زينب... فذكره، ثم قال: أخرجه الطبري وأبو القاسم الطحاوي في كتاب الحجة والتبيان له". وقال الذهبي: "وهذا مرسل" أي أنه منقطع بين الشعبي وزينب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (٢٢) ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ (ح: ٧٤٢١، ص: ١٥٥٥) ولفظه "إن الله أنكحني في السماء".

إجماع السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم منعقد على إثبات علو الله، واستوائه على عرشه وقد نقل غير واحد من السلف هذا الإجماع عنهم، ومن ذلك ما رواه **البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)، بإسناد صحيح عن الأوزاعي-رحمه الله-(ت: ١٥٧ هـ)** أنه قال: "كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله-تعالى-ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت فيه السنة من صفاته"[(١)]

وقال أبو نصر السجزي-رحمه الله-(ت: ٤٤٤ هـ): " فأئمتنا كسفيان الثوري-رحمه الله-**(ت: ١٦١ هـ)**، ومالك-رحمه الله-**(ت: ١٧٩ هـ)**، وسفيان ابن عيينة-رحمه الله-**(ت: ١٩٨ هـ)**، وحماد بن سلمة-رحمه الله-**(ت: ١٦٧ هـ)**، وحماد بن زيد-رحمه الله-**(ت: ١٧٩ هـ)**، وعبد الله بن المبارك-رحمه الله-**(ت: ١٨١ هـ)**، وفضيل بن عياض-رحمه الله-**(ت: ١٨٧ هـ)**، وأحمد بن حنبل-رحمه الله-**(ت: ٢٤١ هـ)**، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي-رحمه الله-**(ت: ٢٣٨ هـ)**: متفقون على أن الله-سبحانه-بذاته فوق العرش، وأن علمه بكل مكان، وأنه يرى يوم القيامة بالأبصار فوق العرش"[(٢)]

وقال أبو نعيم الأصبهاني-رحمه الله-(ت: ٤٣٠ هـ) في عقيدته المشهورة: "وطريقتنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فما اعتقدوه اعتقدناه، فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في العرش والاستواء عليه يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم، ولا يمتزج بهم، وهو مستو على عرشه في سماواته من دون أرضه"[(٣)]

ثانيًا: أقوال المخالفين في صفة الاستواء.

أ-الفريق الأول: نفاة الاستواء.

---

(١) الأسماء والصفات": (ص: ٥١٥).

(٢) درء تعارض العقل والنقل": (٦/ ٢٥٠).

(٣) درء تعارض العقل والنقل": (٦/ ٢٥٠).

سبق أن ذكرنا أن المعطلة من الفلاسفة، والجهمية، والأشاعرة، والماتريدية، على الرغم من أن لكل واحد منهم منهجًا مستقلًا في مسألة الصفات إلا أنهم يتفقون جميعًا على إنكار الصفات الاختبارية بما فيها صفة الاستواء، ويذهبون إلى تأويل الآيات القرآنية الواردة في إثباتها إلى ما أدت إليه عقولهم من المعاني الفاسدة التي يزعمون أن في ذلك تنزيهاً لله عن مشابهة المخلوقين.

وإن سبب ذلك التأويل الباطل هو اعتقاد هؤلاء المعطلة أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها النصوص، وذلك بسبب الشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الفلاسفة، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر -وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى- بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى، وهي التي يسميها هؤلاء المعطلة طريقة السلف، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكلف، وهي التي يسمونها طريقة الخلف. وبهذا يتبين لنا أن هذا الباطل الذي ذهب إليه هؤلاء المعطلة إنما هو مركب من فساد العقل والكفر بالسمع، وذلك لأنهم إنما اعتمدوا في نفي تلك الصفات على شبه عقلية ظنوها بينات وهي في الحقيقة شبهات.

وبناء على المسلك الثاني الذي سلكه هؤلاء المعطلة من تأويل تلك النصوص، فقد تعددت أقوالهم واختلفت في المعنى الذي يجب أن يؤول إليه لفظ الاستواء الوارد في الآيات إلى عدة أقوال منها:

القول الأول:

من هؤلاء المعطلة من يؤول معنى الاستواء في قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: الآية: ٥]، على الاستيلاء والقهر والغلبة.

وهذا القول يذهب إليه كثير من الجهمية [(١)]، والمعتزلة [(٢)]، والحرورية [(٣)]، وكثير من متأخري الأشـــاعرة [(٤)]، كســـيف الدين الآمدي (**ت: ٦٣١ هـ**) [(٥)]، والغزالي (**ت: ٥٠٥ هـ**) [(٦)]، والبغدادي (**ت: ٤٢٩ هـ**) [(٧)]، وغيرهم.

وقد استدل هؤلاء المعطلة على صحة زعمهم هذا بأن هذا التأويل الذي هو تأويل الاستواء بالاستيلاء هو أمر مشهور في لغة العرب من ذلك:

قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير ســـيف ولا دم مهراق

وقال الآخر:

هما استويا بفضلهما جميعًا   على عرش الملوك بغير زور

وقال الآخر:

فلما علونا واستوينا عليهم   تركناهم صرعى لنسر كاسر

وقد ذكر **أبو عمر بن عبد البر**-رحمه الله-(**ت: ٤٦٣ هـ**) أن بعضـهم قد احتج بما رواه عبد الله بن داود الواســطي عن إبراهيم بن عبد الصــمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس-رضــي الله عنهما-، في تفســير قوله تعالى ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْـتَوَى**﴾

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٩٦)، ومختصر الصواعق (٢/ ١٤٤).

(٢) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار (١/ ٧٣، ٣٥١).

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٦٦)، ومختصر الصواعق (٢/ ١٤٤).

(٤) انظر تحفة المريد على شرح جوهرة التوحيد (ص: ٥٤).

(٥) انظر غاية المرام (ص: ١٤١).

(٦) انظر الاقتصاد في الاعتقاد (ص: ١٠٤).

(٧) شرح الأصول الخمسة (ص: ٢٢٦).

[طه: الآية: ٥]، قال: "استولى على جميع بريته فلا يخلو منه مكان"[(١)]

ومن هؤلاء المعطلة من يبقي كلمة العرش الواردة في الآية على معناها الحقيقي الثابت، ويقول إنما خصص العرش بالذكر من بين جميع المخلوقات لكونه أعظم المخلوقات وأرفعها وأوسطها فخصص بالذكر تنبيهاً على ما دونه.

ومنهم من يؤول العرش الوارد في الآية بمعنى الملك [(٢)]، ويزعم أن معنى الآية استولى واستعلى على الملك، ويقول أصحاب هذا القول إن الله قد عبر بالعرش كناية على الملك، لأنه يخاطب الناس على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم، واستقر في قلوبهم، ذلك أن العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملوك، فجعل العرش كناية عن نفس الملك، ويستدل هؤلاء بأن هذا الأمر مشهور في اللغة، وكذلك بقوله تعالى في سورة يونس: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ**﴾ [يونس: الآية: ٣]، فقالوا: إن قوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [(٣)].

الرد عليهم:

لقد أجمع السلف على أن هذا التأويل الذي ذهب إليه هؤلاء الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، ومتأخرو الأشاعرة، هو تأويل باطل ترده نصوص القرآن والسنة وإجماع الأمة، وهو قول لا أصل له في لغة العرب، بل هو تفسير لكلام الله بالرأي المجرد، لم يذهب إليه صاحب ولا تابع، ولا قاله إمام من أئمة المسلمين، ولا أحد من أهل التفسير الذين يحكون قول السلف.

ولبيان فساد هذا القول على وجه التفصيل نقول:

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣٢).

وقد أجاب ابن عبد البر على استدلالهم هذا بقوله: "إن هذا الحديث منكر على ابن عباس –رضي الله عنهما–، ونقلته مجهولون وضعفاء، فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان، وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف، وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول، فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث لو عقلوا وأنصفوا". اهـ.

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة (ص: ٢٢٦)، تفسير الرازي (١٤/ ١٥)، وأصول الدين للبغدادي (ص: ١١٢).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ١١٥).

أولاً: أنه من المعلوم أن لفظ الاســتواء قد ورد في القرآن الكريم في ســبعة مواضــع، وهذه المواضع جميعها قد اطرد فيها لفظ الاستواء دون الاستيلاء، وكذلك الأمر بالنسبة لما ورد في السنة، فلو كان معناه استولى -كما يزعم هؤلاء-لكان استعماله في أكثر موارده كذلك، فإذا جاء في موضع أو موضعين بلفظ استوى حمل على معنى استولى لأنه المألوف المعهود.

أما أن يُأتى إلى لفظ قد اطرد اسـتعماله في جميع موارده على معنى واحد فيدعى صـرفه في الجميع إلى معنى لم يعهد استعماله فيه، فهذا أمر في غاية الفساد ولم يقصده ويفعله من قصد البيان، هذا لو لم يكن في الســياق ما يأبى حمله على غير معناه الذي اطرد اســتعماله فيه، فكيف وفي السياق ما يأبى ذلك.[(١)]

ثانياً: ومما يرد هذا التأويل الباطل أن كلمة اســتوى قد جاءت بعد "ثم" التي حقها الترتيب والمهلة، فلو كان المعنى القدرة على العرش والاســتيلاء عليه لم يتأخر ذلك إلى ما بعد خلق السـموات والأرض، فإن العرش كان موجوداً قبل خلق السـموات والأرض بخمسـين الف عام كما ثبت في صحيح مسلم عنه-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: (**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**).[(٢)]

وقال تعالى ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾.

وفي صـحيح البخاري **عن عمران بن حصـين-رضـي الله عنه-(ت: ٥٢ هـ)** عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض**).[(٣)]

فالآيات والحديثان يدلان دلالة واضـحة على أن العرش كان موجوداً قبل خلق الســموات والأرض فكيف يجوز أن يكون غير قادر ولا مســـتولٍ على العرش إلى أن خلق الســـموات

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٢٨-١٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر (٨/ ٥١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحة، كتاب التوحيد، ﴿وكان عرشه على الماء﴾ (ح: ٧٤١٨).

والأرض.(١)

ثالثاً: أن الاستيلاء سواء كان بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك عام في المخلوقات كالربوبية.، والعرش وإن كان أعظم المخلوقات ونسبة الربوبية إليه لا تنفي نسبتها إلى غيره كما في قوله تعالى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية: ٨٦]، فلو كان استوى بمعنى استولى كما هو عام في المخلوقات كلها لجاز مع إضافته للعرش أن يقال: استوى على السماء وعلى الهواء وعلى البحار والأرض، وعليها ودونها ونحوها إذ هو مستو على العرش، فلما اتفق المسلمون على أن يقال: استوى على العرش، ولا يقال استوى على هذه الأشياء مع أنه يقال: استولى على العرش والأشياء، علم أن معنى استوى خاص بالعرش وليس عاما كعموم الأشياء (٢).

رابعاً: أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر عاد معنى الآيات كلها إلى أن الله تعالى أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض ثم غلب على العرش بعد ذلك وقهره وحكم عليه! أفلا يستحي من الله من في قلبه أدنى وقار لله ولكلامه أن ينسب ذلك إليه وأنه أراد بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: الآية: ٥]: أي اعلموا يا عبادي أني بعد فراغي من خلق السموات والأرض غلبت عرشي وقهرته واستوليت عليه.(٣)

خامساً: أن ما يستند إليه هؤلاء المعطلة في زعمهم هذا من قولهم إن تفسير استوى باستولى أمر مشهور في اللغة، هو قول باطل مردود لأنه لم يثبت عند أحد من أهل اللغة أن لفظة استوى يصح استعمالها بمعنى استولى، بل إن هذا القول منكر عند اللغويين.

فهذا **ابن الأعرابي**-رحمه الله-(**ت: ٢٣١ هـ**) أحد علماء اللغة أتاه رجل فقال له: ما معنى قول الله عز وجل ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: الآية: ٥]؟ فقال: (**هو كما**

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٤٤).

(٣) مختصر الصواعق (٢/ ١٤٠-١٤١).

أخبر عز وجل)، فقال: يا أبا عبد الله ليس هذا معناه، إنما معناه استولى، قال: (اسكت ما أنت وهذا، لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاداً فإذا غلب أحدهما قيل استولى، أما سمعت النابغة:

ألا لمثلك أو من أنت سابقة   سبق الجواد إذا استولى على الأمد [(١)]

"وقد سئل **الخليل بن أحمد**–رحمه الله–(**ت: ١٧٤ هـ**): هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟

فقال: "هذا ما لا تعرفه العرب ولا هو جائز في لغتها"والخليل إمام في اللغة على ما عرف من حاله، فحينئذ حمله على ما لا نعرف في اللغة هو قول باطل"[(٢)].

وكذلك فإنه قد روي عن جماعة من أهل اللغة قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزاً ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى.

وقد روي عن أبي العباس ثعلب–رحمه الله–(**ت: ٢٩١ هـ**) أنه قال: "استوى: أقبل عليه وإن لم يكن معوجاً، ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ [البقرة ٢٩]، و﴿**استوى على العرش**﴾: علا، واستوى الوجه: اتصل، واستوى القمر: امتلأ، واستوى زيد وعمرو: تشابها واستوى فعلاهما وإن لم تتشابه شخوصهما، هذا الذي نعرفه من كلام العرب"[(٣)]

فبما تقدم من أقوال علماء اللغة يتضح لنا فساد زعم هؤلاء المعطلة وكذب ادعائهم بأن هذا القول مشهور في اللغة.

وأما ما استدل به هؤلاء من أبيات، كقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ولادم مهراق

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٣٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٤٤، ١٤٩)

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٣٩٩–٤٠٠).

وقول آخر:

هما استويا بفضلهما جميعًا		على عرش الملوك بغير زور

فهذان البيتان لم يثبت نقل صــحيح على أنهما شــعر عربي وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروهما.

قال ابن فارس-رحمه الله- ٣٩٥ هـ): "هذان البيتان لا يعرف قائلهما"(١)

فهما على هذا بيتان مصــنوعان، ومعلوم أنه لو احتج بحديث رســول الله-صــلى الله عليه وســلم-لا حتاج إلى صــحته، فكيف ببيت من الشــعر لا يعرف إســناده وقد طعن فيه أئمة اللغة.

قال أبو عمر بن عبد البر-رحمه الله-(**ت: ٤٦٣ هـ**): "وأما ادعائهم المجاز في الاســـتواء وقولهم في تأويل اســتوى: اســتولى، فلا معنى له لأنه غير ظاهر في اللغة، ومعنى الاســتيلاء في اللغة المغالبة، والله لا يغالبه أحد ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصـــمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا ســـبيل إلى إتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله إلى الأشـــهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التســليم، ولو ســاغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شــيء من العبارات، وجل الله عز وجل أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطبتها، مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه، قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿**استوى**﴾ قال: وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى: أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد"(٢)

وأما ما اســتدل به المعطلة من قول ابن عباس-رضــي الله عنهما-(**ت: ٦٨ هـ**) فقد بين ابن عبد البر أنه مكذوب على ابن عباس ورواته مجهولون وضعفاء كما تقدم ذكره.

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ١٢٨).

(٢) التمهيد (٧/ ١٣١).

القول الثاني:

أن معنى اســـتوى: أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه كقوله تعالى ﴿**ثُمَّ اسْـــتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصلت: الآية: ١١]، أي عمد إلى خلق السماء.

وهذا هو قول بعض الجهمية [(١)]، وإليه ذهب **الفراء (ت: ٢٠٧ هـ)**، **والأشـــعري (ت: ٣٢٤ هـ)**، **وابن الضرير (ت: ٢٠٩ هـ)**، **واختاره الثعلبي (ت: ٤٢٧ هـ)** [(٢)].

الرد عليهم:

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا الوجه من أضـــعف الوجوه، فإنه قد أخبر أن العرش على الماء قبل خلق السموات والأرض.

وكذلك ثبت في صحيح البخاري عن **عمران–رضي الله عنهما–(ت: ٥٢ هـ)** عن النبي–صلى الله عليه وسلم–أنه قال: (**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ...**)، فإذا كان العرش مخلوقاً قبل خلق الســموات والأرض، فكيف يكون اســتواؤه عمده إلى خلقه له؟!

هذا لو كان يعرف في اللغة أن اســتوى على كذا، بمعنى أنه عمد إلى فعله، فكيف إذا كان لا يعرف قط في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً ولا في نظم ولا في نثر.

ومن قال اســـتوى بمعنى عمد ذكره في قوله ﴿**ثُمَّ اسْـــتَوَىٰ إِلَى السَّـــمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصـــلت: الآية: ١١] لأنه عدى بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا وقصـــدت إلى كذا، ولا يقال عمدت على كذا ولا قصدت عليه، مع أن ما ذكر في تلك الآية لا يعرف في اللغة أيضاً ولا هو قول أحد من مفسري السلف، بل المفسرون من السلف بخلاف ذلك" [(٣)]

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن قولهم هذا يتضـمن أن يكون خلقه بعد

---

(١) مختصر الصواعق (٢/ ١٢٦).

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٨–٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٠–٥٢١).

خلق السموات والأرض، وهذ بخلاف إجماع الأمة، وخلاف ما دل عليه القرآن والسنة، وإن ادعى بعض الجهمية المتأخرين أنه خلق بعد خلق الســـموات والأرض وادعى الإجماع على ذلك، وليس العجيب من جهله، بل من إقدامه على حكاية الإجماع على ما لم يقله مسلم"[(١)]

القول الثالث:

أن استوى بمعنى علا في هذه الآية، ولكن ليس المراد علو المسافة والمكان، وإنما المراد علو المكانة والقهر، وقد ذهب إلى هذا القول جماعة من الأشاعرة منهم **أبو بكر بن فورك (ت: ٤٠٦ هـ)** [(٢)]، وهم بهذا القول جعلوا الاستواء صفة ذات وليست صفة فعل.

الرد عليهم:

أن الآيات والأحاديث قد أثبتت استواء الله على العرش حقيقة، ولو كان معنى الاستواء ههنا المراد به علو المكانة فإن الله لم يزل متعالياً على الأشياء قبل خلق العرش، فلما أضاف الاستواء على العرش فيجب على ذلك أن يكون لهذا التخصيص فائدة.[(٣)]

القول الرابع:

وهو قول من يثبت الاستواء على أنه صفة للعرش وليس صفة لله تعالى.

وأصحاب هذا القول يقولون: أن الاستواء فعل يفعله الرب في العرش بمعنى أنه يحدث في العرش قرباً فيصير مستوياً عليه من غير أن يقوم به –أي بالله–فعل اختياري.

وهذا القول هو ما يقول به **ابن كلاب (ت: بعد ٢٤٠ هـ)**، **والأشعري (ت: ٣٢٤ هـ)** [(٤)]، وأئمة أصحابه المتقدمين **كالباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ)** وغيره، وهو أيضاً قول **القلانسي**

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٤٣).

(٢) كتاب مشكل الحديث لابن فورك (ص: ١٩٣)، والأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٥١٨).

(٣) المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى (ص: ٥٤).

(٤) هذا القول لأبي الحسن الأشعري قاله عندما كان على قول ابن كلاب من نفي الأفعال الاختيارية عن الله تعالى.

(ت: ٥٥٥ هـ)، ومن وافق هؤلاء من أتباع الأئمة وغيرهم من أصـــحاب الإمام أحمد **كالقاضـــي أبي يعلى (ت: ٤٥٨ هـ) وابن الزاغوني (٥٢٧ هـ) وابن عقيل (ت: ٥١٣ هـ)** في كثير من أقواله [(١)].

والسبب الذي جعل هؤلاء القوم يمنعون جعل الاستواء صفة لله تعالى هو قولهم بنفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته ســـبحانه وتعالى ولذلك يجعلون أفعاله اللازمة لذاته –كالنزول والاســتواء– كأفعاله المتعدية –كالخلق والإحســان–، وقولهم في نفي الأفعال الاختيارية راجع إلى قولهم في صفات الله.

وهم يقولون: "إن الله هو الموصوف بالصفات، لكن ليست الصفات أعراضاً، إذ هي قديمة أزلية"[(٢)]

وحجتهم في منع قيام الحوادث بذات الله تعالى أنهم يقولون: "إن كل ما صح قيامه بالباري تعالى فإما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فإن كان صفة كمال استحال أن يكون حادثاً، وإلا كانت ذاته قبل اتصافه بتلك الصفة خالية من صفة الكمال، والخالي من الكمال الذي هو ممكن الاتصاف به ناقص، والنقص على الله محال بإجماع الأمة.

وإن لم يكن صــفة كمال اســتحال اتصــاف الباري بها لأن إجماع الأمة على أن صــفات الباري بأسـرها صـفات كمال، فإثبات صـفة لا من صـفات الكمال خرق للإجماع وهو أمر غير جائز"[(٣)]

الرد عليهم:

لقد اعتمد أصحاب هذا القول في منعهم كون الاستواء صفة لله تعالى على حجة منع قيام

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦٦،٤٣٧،٣٨٦)، (١٦/ ٣٩٣).

الأسماء والصفات (ص: ٥١٧).

اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٦٥،٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٦).

(٣) انظر كتاب ابن تيمية السلفي (ص: ١٣٠).

الحوادث بذاته تعالى، وهي حجة واهية وقد رد عليها ابن تيمية بقوله: "إن المقدمة التي اعتمد عليها هؤلاء وهي قولهم: إن الخالي من الكمال الذي يمكن الاتصــاف به ناقص. فيقال لهم: معلوم أن الحوادث المتعاقبة لا يمكن الاتصــاف بها في الأزل، كما لا يمكن وجودها في الأزل، وعلى هذا فالخلو عنه في الأزل لا يكون خلواً عما يمكن الاتصاف به في الأزل.

ثم إنه لم يثبت امتناع ما ذكر من النقص بدليل عقلي ولا بنص من كتاب ولا ســنة، بل بما ادعوه من إجماع، وإذاً فمعلوم أن المنازعين في اتصافه بذلك هم من أهل الإجماع فكيف يحتج بالإجماع في مسألة النزاع.

وقولهم بإجماع الأمة على أن صفاته صفات كمال، فإن قصد بذلك صفاته اللازمة لم يكن في هذا حجة لهم، وإن قصـــد بذلك ما يحدث بمشـــيئته وقدرته لم يكن هذا إجماعاً فإن أهل الكلام يقولون إن صفة الفعل ليست صفة كمال ولا نقص والله موصوف بها بعد أن لم يكن موصوفاً.

ثم إن هذ الإجماع الذي ادعوه حجة عليهم فإنا إذا عرضـنا على العقول موجودين: أحدهما يمكنه أن يتكلم ويفعل بمشـــيئته كلاماً وفعلاً، والآخر لا يمكنه ذلك، بل لا يكون كلامه إلا غير مقدور ولا مراد أو يكون بائناً عنه، لكانت العقول تقضي بأن الأول أكمل من الثاني.

وكذلك إذا عرضـــنا على العقول موجودين من المخلوقين أو مطلقاً أحدهما يقدر على الذهاب والمجيء والتصــرف بنفســه والآخر لا يمكنه ذلك لكانت العقول تقصــي بأن الأول أكمل

فنفس ما به يعلم أن اتصــافه بالحياة والقدرة صــفات كمال، به يعلم أن اتصــافه بالأفعال والأقوال الاختيارية التي تقوم به والتي يفعل بها المفعولات المباينة له صفات كمال"[(١)]

وكذلك مما يرد به على هذا القول ما قاله ابن القيم: (**إنه لو كان الاســـتواء عائداً على العرش لكانت القراءة برفع العرش، ولم تكن بخفضــه، فلما كانت بخفض العرش دل على**

(١) الموافقة بين صريح العقل وصحيح النقل (٢/ ٧٣-١٧٥)، ط: دار الكتب.

أن الاستواء عائد إلى الله تعالى"[١]

ب-الفريق الثاني: القول بالتفويض.

ويذهب أصحاب هذا القول إلى إثبات لفظ الاستواء فقط مع التوقف في المعنى المراد، فهم يقولون: إن الاستواء ثابت في القرآن حيث إنه قد ورد في سبع آيات، وكذلك قد وردت به الأخبار الصحيحة وقبوله من جهة التوقف واجب، والبحث عنه وطلب الكيفية غير جائز وهو استواء لا نعلمه.[٢]

وقد ذهب إلى هذا القول **البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)** في كتابه الاعتقاد.[٣] وهو أحد قولي **الرازي-رحمه الله-(ت: ٦٠٦ هـ)**.[٤]

وهؤلاء في الحقيقة ينفون صفة الاستواء، ولكن يتوقفون في المعنى الذي على زعمهم يجب تأويل اللفظ إليه.

وقد زعم كثير من الأشاعرة أن القول بالتفويض هو قول السلف.[٥]

ويستدلون على نسبة هذا القول إلى السلف بعبارات نقلت عن السلف ظنوا أنها ترمي إلى القول بالتفويض كقول الأوزاعي-رحمه الله-(**ت: ١٥٧ هـ**): "كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته جل وعلا".

وقول ربيعة بن عبد الرحمن-رحمه الله-(**ت: ١٣٦ هـ**)، **والإمام مالك-رحمه الله-(ت:**

---

(١) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: **٦٤-٦٥**).

(٢) الاعتقاد للبيهقي (ص: **١١٥**).

(٣) المصدر السابق.

(٤) تلخيص المحصل (ص: **١١٤**).

(٥) الاعتقاد للبيهقي (ص: **١١٧**)، الإتقان في علوم القرآن (**٢/ ٦**)، مناهل العرفان (**٢/ ١٨٣-١٨٣**)، تحفة المريد (ص: **٩١-٩٢**)، شرح الخريدة البهية (ص: **٧٥**)، الأسماء والصفات (ص: **٥١٧**).

١٧٩ هـ): "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب".

والقول بالتفويض هو مقصود هؤلاء القوم في قولهم: (**إن طريقة السلف أسلم**)، حيث إنهم ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ**﴾ [البقرة: الآية: ٧٨].

الرد عليهم:

معلوم أن نسبة هذا القول إلى السلف إنما هي محض كذب وافتراء ومن نسب هذا القول إلى السلف فإنما هو جاهل بطريقة السلف الذين لم يقولوا بهذا القول، ولم يرد عن واحد منهم أنه فوض معنى الاستواء، بل أن الوارد عنهم جميعاً أنهم يفسرون الاستواء بالمعنى المراد وهو العلو والارتفاع على العرش ويؤمنون بأن الله مستو على العرش حقيقة.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف، أما في كثير من الصفات فقطعاً مثل أن الله فوق العرش فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما قصدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك"[(١)]

وقال في موضع آخر: "وقد فسر الإمام أحمد النصوص التي نسميها متشابهات فبين معانيها آية آية، وحديثاً حديثاً ولم يتوقف فيها هو والأئمة قبله مما يدل على أن التوقف عن بيان معاني آيات الصفات وصرف الألفاظ عن ظواهرها لم يكن مذهباً لأهل السنة وهم أعرف بمذهب السلف، وإنما مذهب السلف إجراء معاني آيات الصفات على ظاهرها بإثبات الصفات له حقيقة وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعاني لا تحرف ولا يلحد فيها"[(٢)]

---

(١) الفتوى الحموية (ص: ٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤١٤).

ويقول ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنة والكيفية"[(١)]

وأما بالنسبة إلى ما استدل به أصحاب هذا القول على أن القول بالتفويض هو مذهب السلف وذكرهم **لقول الإمام مالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)**: "الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"، فليس المراد ههنا تفويض معنى الاستواء ولا نفي حقيقة الصفة، ولو كان المراد الإيمان بمجرد اللفظ من غير فهم على ما يليق بالله لما قال **(الكيف مجهول)**، لأنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى.[(٢)]

والاستواء على هذا المعنى لا يكون معلومًا، بل هو مجهول بمنزلة حروف المعجم، لكن الأمر على عكس ذلك، فنفي علم الكيفية لأنه أثبت الصفة وأراد بقوله الاستواء معلوم معناه في اللغة التي نزل بها القرآن فعلى هذا يكون معلوماً في القرآن.

ومعلوم أن ادعاء هؤلاء أن مذهب السلف إنما هو القول بالتفويض سببه اعتقاد هؤلاء أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر -كان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى-فبقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكلف، وهذا التردد هو الذي وقع فيه من قال بالتفويض من هؤلاء كالبيهقي والرازي، فهم لم يلتزموا بهذا القول مطلقاً، بل غالباً ما يخالفونه كما فعل الرازي في تأسيسه حيث جنح إلى التأويل وترك القول بالتفويض.

ج-الفريق الثالث: قول المشبهة.

---

(١) مختصر الصواعق (١/ ١٥).

(٢) الفتوى الحموية (ص: ٢٥).

والمقصود بهم الهشامية [(١)] من الروافض، والكرامية [(٢)]، وغيرهم.

وهؤلاء يثبتون استواء الله وارتفاعه فوق عرشه، إلا أنهم تعمقوا في الكلام على كيفية ذلك الاستواء.

فالهشامية مثلاً يقولون إن الله تعالى مماس لعرشه لا يفضل منه شيء في العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه.[(٣)]

وأما الكرامية فقد تعددت أقوالهم في كيفية استوائه:

فمنهم من يقول: إنه على بعض أجزاء العرش.

ومنهم من يقول: إن العرش مكان له وأن العرش امتلأ به.

ومنهم من يقول: إنه لو خلق بإزاء العرش عروشاً موازية لعرشه لصارت العروش كلها مكاناً له لأنه أكبر منها كلها.

ومنهم من يقول: أن بينه وبين العرش من البعد والمسافة ما لو قدر مشغولا بالجواهر لاتصلت به.[(٤)]

وقول هؤلاء المشبهة إنما هو نتيجة لازمة لأقوالهم في صفات الله وكلامهم في ذاته.

فالهشامية يقولون: "إن الله جسم ذو أبعاض له قدر من الأقدار، ولكن لا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء".

ونقل عنهم أنهم قالوا إنه سبعة أشبار بشبر نفسه، وأن له مكاناً مخصوصاً ووجهة مخصوصة وأنه يتحرك وحركته فعله، وليست من مكان إلى مكان وهو متناه بالذات غير متناه بالقدرة،

---

(١) هم أصحاب هشام بن عبد الحكم الرافضي من الإمامية، وتنسب إليه وإلى هشام بن سالم الجواليقي أحيانًا، من الإمامية المشبهة. انظر المقالات (١/ ٣١-٣٤)، الملل والنحل (١/ ١٤٤-١٤٧).

(٢) هم أصحاب محمد بن كرام وهم طوائف يبلغ عددهم اثنتي عشرة فرقة وأصولها ستة هي: العابدية، والنونية، والزرينية، والإسحاقية، والواحدية، وأقربهم الهيصمية. انظر الملل والنحل (١/ ١٤٤-١٤٧).

(٣) الملل والنحل (٢/ ٢٢).

(٤) الملل والنحل (١/ ١٤٤-١٤٧).

وأنه مماس لعرشه ولا يفضل منه شيء من العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه"(١)

وأما الكرامية **فيقول ابن كرام (ت: ٢٥٥ هـ)**: "إن معبوده مستقر على العرش استقراراً وأنه بجهة فوقَ ذاتاً وأنه أُحدي الذات أُحدي الجوهر وأنه مماس للعرش من الصفحة العليا".

ولهم في معنى العظم خلاف فقال بعضهم: "إنه مع وحدته على جميع أجزاء العرش والعرش تحته وهو فوقه كله على الوجه الذي هو فوق جزء منه.

وقال بعضهم: أنه يلاقى مع وحدته من جهة واحدة أكثر من واحد، وهو يلاقى جميع أجزاء العرش وهو العلي العظيم.

وقالت المهاجرية منهم: إنه لا يزيد على عرشه في جهة المماسة ولا يفضل منه شيء على العرش، وهذا يقتضي أن يكون عرضه كعرض العرش.

وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق وأنه محاذ للعرش"(٢)

الرد عليهم:

هذا القول للمشبهة يتضمن حقًا وباطلًا.

فالحق فيه هو: اعترافهم بعلو الله واستوائه على عرشه وأنه بائن من خلقه والخلق بائنون عنه.

وأما الباطل فهو: كلامهم في ذات الله والتعرض لكيفية استوائه، وهو كلام باطل وفاسد ليس لهم به دليل من القرآن أو السنة، بل هو قول على الله بغير علم فالله سبحانه وتعالى لم يطلعنا على كيفية ذاته فأنّى لنا أن نعلم كيفية صفاته، وأمر الكيفية هو مما استئثر الله بعلمه قال تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥].

ومما يدلنا على فساد هذا القول وعدم وجود دليل لأصحابه على ما يقولون هو اختلاف أرائهم وأقوالهم عند الحديث عن ذات الله وكيفية استواءه، فمن خلال عرض أقوالهم يتضح

(١) الملل والنحل (٢/ ٢٢).

(٢) انظر كتاب التجسيم عند المسلمين (ص: ٢٠٥).

اختلافهم وتناقضـــهم، وما ذاك إلا أنهم يفترون على الله الكذب قال تعالى ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: الآية: ٨٢].

والسؤال الذي ينبغي أن يوجه إلى هؤلاء المشبهة في هذا المقام هو: أين الدليل من الكتاب أو السنة على ما تزعمون؟

والجواب معروف وهو أنه لا دليل لهم على ذلك لا من القرآن ولا من السنة.

ومما ينبغي معرفته أن الكلام على كيفية ذات الله أو كيفية اســتوائه أو غيرها من الصــفات هو أمر غير جائز عند السـلف ويحرم الخوض فيه، بل يبدعون السـائل عن ذلك ولذلك بدع الإمام مالك السائل الذي سأله عن كيفية استواء الباري عز وجل، حيث قال له: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والســؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وما أراك إلا رجل ســوء، وأمر بإخراجه"، وما قاله الإمام مالك هو الذي جاءت به النصــوص وهو الذي ســار عليه السلف جميعاً.

المسألة الثالثة: التعريف بالعرش والأقوال فيه.

أولًا: التعريف بالعرش.

المعنى اللغوي لكلمة العرش، **قال ابن فارس-رحمه الله-(ت:٣٩٥ هـ)** ""عرش" العين، والراء، والشــين أصــل صــحيح واحد، يدل على ارتفاع في شــيء مبني، ثم يســتعار في غير ذلك).[(١)]

والعرش في كلام العرب يطلق على عدة معاني:

١-سرير الملك:

قال الخليل-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ): "العرش: السرير للملك".[(٢)]

وقال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "والعرش في كلام العرب: سرير الملك، يدلك

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٦٤).

(٢) كتاب العين (١/ ٢٩١).

على ذلك سرير ملكة سبأ، سماه الله جل وعز عرشاً فقال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: الآية ٢٣]"(١)

٢-سقف البيت:

قال الخليل-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ)، والجوهري-رحمه الله-(ت: ٣٩٣ هـ): "عرش البيت: سقفه"(٢)

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "والعرش من البيت سقفه ومنه الحديث **(أو كالقنديل المعلق بالعرش)** يعني: السقف، وفي حديث آخر: **(كنت أسمع قراءة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-على عرشي)**.(٣) أي: سقف بيتي، وبه فسر قوله تعالى ﴿**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٩]، أي: صارت على سقوفها كما قال عز من قائل: ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا**﴾ [الحجر: الآية: ٧٤]، أراد أن حيطانها قائمة وقد تهدمت سقوفها فصارت في قرارها وانقعرت الحيطان من قواعدها فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها، ومعنى الخاوية والمنقعرة واحد وهي المنقلعة من أصولها"(٤)

٣-ركن الشيء:

وقال الزبيدي-رحمه الله-(ت: ١٢٠٥ هـ): "والعرش ركن الشيء، قاله الزجاج والكسائي، وبه فسر قوله تعالى ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، أي وخرت على أركانها"(٥)

٤-الملك:

وقال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "قال: والعرش الملك، يقال: ثل عرشه، أي

---

(١) تهذيب اللغة (١/ ٤١٣).

(٢) كتاب العين (١/ ٢٩١)، الصحاح (ص: ٧٢٢).

(٣) أخرجه النسائي (١٠١٣) باختلاف يسير، وابن ماجه (١٣٤٩)، وأحمد (٢٦٩٠٥) واللفظ لهما.

(٤) تاج العروس (٤/ ٣٢١).

(٥) تاج العروس (٤/ ٣٢١).

زال ملكه وعزه.

قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل"[(١)]

وقال الزبيدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠٥ هـ): "قال ابن الأعرابي–رحمه الله–(ت: ٢٣١ هـ): العرش الملك، بضم الميم، وهو كناية..."[(٢)]

٥–قوام أمر الرجل:

قال ابن فارس–رحمه الله–(ت:٣٩٥ هـ): "استعيرت كلمة عرش هنا، فقيل لأمر الرجل وقوامه: عرش، وإذا زال عنه ذلك، قيل: ثل عرشه.

قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل"[(٣)].

وقال الزبيدي–رحمه الله–(ت: ١٢٠٥ هـ): "قولهم: ثل عرشه أي: عدم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل: وهي أمره، وقيل: ذهب عزه، ومنه حديث عمر رضي الله عنه أنه رُئي في المنام، فقيل له: ما فعل بك ربك؟ قال: لولا أن تداركني لثل عرشي"[(٤)]

٦–عرش السماك:

قال ابن فارس–رحمه الله–(ت:٣٩٥ هـ): "ويقال: أن عرش السماك، أربعة كواكب، أسفل من العواء على صورة النعش، ويقال: هي عجز الأسد، قال ابن أحمر:

باتت عليه ليلة عرشية شربت وبات إلى نقا متهدم."[(٥)]

---

(١) تهذيب اللغة (١/ ٤١٤).

(٢) تاج العروس (٤/ ٣٢١).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٦٤) –بتصرف–.

(٤) تاج العروس (٤/ ٣٢١).

(٥) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٦٧)

٧-عرش البئر:

وقال الأزهري-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "وقال أبو عبيد: قال أبو زيد: بئر معروشـة، وهي التي تطوى قدر قامة من أسفلها بالحجارة ثم يطوى سائرها بالخشب وحده، فذلك الخشب هو العرش، يقال منه: عرشت البئر، أعرشها، فإذا كانت كلها بالحجارة فهي مطوية وليست بمعروشة.

وقال غيره: المثاب: مقام الساقي فوق العروش، ومنه قول الشاعر:

وما لم ثابات العروش بقية إذا استل من تحت العروش الدعائم

وقال ابن الأعرابي-رحمه الله-(ت: ٢٣١ هـ): العرش بناء فوق البئر يقوم عليه الساقي، وأنشد -أكل يوم عرشها مقيل-"[١]

٨-عرش القدم:

قال الخليل-رحمه الله-(ت: ١٧٤ هـ): "العرش في القدم، ما بين الحمار والأصابع من ظهر القدم، والحمار: المرتفع من ظهر القدم، وجمعه: عرشه وأعراش"[٢]

وقال ابن الأعرابي-رحمه الله-(ت: ٢٣١ هـ): (ظهر القدم: العرش، وباطنه: الأخمص"[٣]

قلت: ومن المعلوم أن معرفة كل معنى من تلك المعاني إنما يتحدد بحسب ما أضيف إلى الكلمة، والمعنى المقصود في عرش الرحمن من تلك المعاني السابقة، هو سرير الملك، ذلك لأن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة قد جاءت معينة لهذا المعنى وحده دون غيره من المعاني، وهذا ما سيأتي بيانه.

أما زعم الجهمية بأن معنى العرش في قوله تعالى ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه:

---

(١) تهذيب اللغة (١/ ٤١٦).

(٢) كتاب العين (١/ ٢٩٣).

(٣) لسان العرب (٤/ ٢٨٨٢).

الآية: ٥]، يحتمل عدة معاني، فلا يعرف أي هذه المعاني هو المراد؟

فقد أجاب عنه **ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)** بقوله: "هذا تلبيس منك على الجهال، وكذب ظاهر، فإنه ليس لعرش الرحمن الذي استوى عليه إلا معنى واحد، وإن كان للعرش من حيث الجملة عدة معانٍ، فاللام للعهد وقد صار بها العرش معيناً، وهو عرش الرب تعالى الذي هو سرير ملكه، التي اتفقت عليه الرسل، وأقرت به الأمم، إلا من نابذ الرسل..."[(١)]

ثانيًا: تعريف العرش شرعًا:

وأما تعريف العرش شرعًا فقد اختلف فيه إلى مذاهب

أولاً: مذهب السلف:

قال الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ) عند قوله تعالى: ﴿**وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ**﴾ [الزمر: الآية: ٧٥] **(يعني بالعرش: السرير)**، ثم ذكر بسنده عن السدي في تفسير هذه الآية قوله: "محدقين حول العرش قال: العرش: السرير"[(٢)]

قال الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ) في موضع آخر ﴿**ذُو الْعَرْشِ**﴾ [غافر ١٥] يقول: "ذو السرير المحيط بما دونه"[(٣)]

وقال البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ): "وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة، وفي الآيات والأحاديث والآثار دلالة واضحة على ما ذهبوا إليه"[(٤)]

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ١٧-١٨).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٣٧-٣٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٩).

(٤) الأسماء والصفات (٢/ ٢٧٢).

وقال أيضاً: (**العرش هو السرير المشهور فيما بين العقلاء**)[(١)].

وقال ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات"[(٢)]

وقال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ)، -بعد أن ذكر سرر أهل الجنة-: "فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته، وقوائمه وماهيته وحملته، والكروبيين الحافين من حوله، وحسنه ورونقه وقيمته، فقد ورد أنه من ياقوتة حمراء"[(٣)]

قلت: وهذا الذي ذكره الطبري والبيهقي وابن كثير والذهبي في تعريف العرش، هو الذي جاءت به الآيات والأحاديث والآثار، وهو ما ذهب إليه سلف الأمة وأئمتها في عرش الله، فهم يعتقدون أن عرش الرحمن هو:

❋ سرير:

قال ابن قتيبة-رحمه الله-٢٧٦ هـ): "وطلبوا للعرش معنى غير السرير، والعلماء في اللغة لا يعرفون للعرش معنى إلا السرير، وما عرش من السقوف وأشباهها، قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله وهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذي سبق النـ ... ـاس وسوى فوق السماء سريرا
شرجعاً لا يناله بصر العيـ ... ـن ترى دونه الملائك صورا"[(٤)]

قال ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: الآية: ٢٣]. وليس هو فلكًا ولا تفهم

---

(١) الاعتقاد (ص: ١١٢).

(٢) البداية (١/ ١٢).

(٣) العلو (ص: ٥٧).

(٤) الاختلاف في اللفظ (ص: ٢٤٠).

منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو سرير ذو قوائم..."[(١)]

❋ وأنه ذو قوائم:

قال شـــارح الطحاوية (ت: ٧٩٢ هـ): "قد ثبت في الشـــرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال-صـلى الله عليه وسـلم-: (**فإن الناس يصـعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور**)[(٢)(٣)].

❋ وأنه مخلوق:

قال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "قوله: ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [التوبة: الآية: ١٢٩]، إشارة إلى أن العرش مربوب، وكل مربوب مخلوق... وفي إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق"[(٤)].

❋ وأن الله سبحانه قد أمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه:

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾ [غافر: الآية: ٧]، وقال تعالى: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾ [الحاقة: الآية: ١٧].

وعن جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-(ت: مابين ٧٣ و٧٧ هـ) عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: (**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**)[(٥)].

❋ وهو أعلى المخلوقات، وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة على العالم وما تحته بالنسبة إليه

---

(١) البداية (١/ ١١-١٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي. انظر فتح الباري (٥/ ٧٠). ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل (٤/ ١٠١-١٠٢).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣١٠-٣١١).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٤٠٥).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية (٥/ ٩٦، ح: ٤٧٢٧). أورده ابن كثير في تفسير (٤/ ٤١٤) وعزاه لابن أبي حاتم وقال: (**إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات**).

كحلقة في فلاة:

وقال ابن أبي زمنين–رحمه الله–(ت: ٣٩٩ هـ) في كتابه "أصول السنة": "ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق..."[(١)]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): (واما العرش فإنه مقبب، لما روي في السنن لأبي داود عن جبير بن مطعم قال: (أتى رسول الله–صلى الله عليه وسلم–أعرابي فقال: يا رسول جهدت الأنفس، وجاع العيال –وذكر الحديث إلى أن قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: إن الله على عرشه وإن عرشه على سمواته وأرضه كهكذا).[(٢)] وقال بأصابعه مثل القبة... وفي علوه قوله–صلى الله عليه وسلم–: **(إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلاها وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)**.[(٣)]

فقد تبين بهذه الأحاديث أنه أعلى المخلوقات، وسقفها، وأنه مقبب..."[(٤)]

وفي حديث **أبي ذر–رضي الله عنه–(ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)** المشهور قال: قلت يا رسول

(١) أصول السنة (ص: ٨٨).

(٢) الحديث أخرجه كذلك الدارمي في الرد على بشر المريسي **(ص: ٤٤٧)**. وابن أبي عاصم في السنة **(١/ ٢٥٢)**. وابن خزيمة في التوحيد **(١/ ٢٣٩–٢٤٠، ح: ١٤٧)**. والطبراني في المعجم الكبير **(٢/ ١٣٢، برقم ١٥٤٧)**. وأبو الشيخ في العظمة **(٢/ ٥٥٤–٥٥٦، ح: ١٩٨)**. والدارقطني في الصفات **(ص: ٥١، ح: ٣٨)**. وابن منده في التوحيد **(١/ ١٨٨، برقم: ٦٤٣)**. واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة **(٣/ ٣٩٤)**. والبيهقي في الأسماء والصفات **(٢/ ٣١٧–٣١٨، ح: ٨٨٣)**. وقد تكلم بعض الأئمة على هذا الحديث: فقال الذهبي في العلو **(ص: ٣٩)**: "هذا الحديث غريب جداً فرد، وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أم لا؟ وأما الله فليس كمثله شيء جل جلاله، وتقدست أسماؤه ولا إله غيره" انتهى كلامه. واستغربه الحافظ ابن كثير في تفسير آية الكرسي من تفسيره **(١/ ٣١٠)**. ثم إن في إسناده اختلافاً. هذا وقد تكلم ابن القيم في تهذيب السنن **(٧/ ٩٥–١١٧)** بكلام طويل نصر فيه تصحيح الحديث، ورد المطاعن التي طعن بها هذا الحديث، وبخاصة عن ابن إسحاق. والصواب أن هذا الحديث بهذا الإسناد ضعيف، ولا سيما أن جبير بن محمد قال فيه الحافظ ابن حجر: "مقبول" يعني إذا توبع ولم يتابع هنا. **التعليق**: منهج السلف في إيراد مثل هذه الأحاديث التي في إسنادها مقال إنما هو من باب التأكيد لا من باب التأييد، وهذا الحديث إنما ساقه الكثير من السلف لما فيه من تواتر علو الله تعالى فوق عرشه مما يوافق آيات القرآن والأحاديث الصحيحة".

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿وكان عرشه على الماء﴾. انظر فتح الباري **(١٣/ ٤٠٤)**.

(٤) الفتاوى **(٥/ ١٥١)**.

الله أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: (آية الكرسي، **ثم قال: يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة)**.[(١)]

وهذا القول للسلف في عرش الله هو ما جاءت به الآيات والأحاديث الصحيحة، وقد كان سلف الأمة وأئمتها دائماً يصرحون بذلك في كتبهم عند الحديث عن هذه المسألة.

وقد وافقهم في هذا القول في عرش الله الكلابية، والكرامية، ومتقدمو الأشاعرة، وبعض الجهمية، والمعتزلة.[(٢)]

ثانياً: أقوال المخالفين

القول الأول:

ما زعمه طائفة من الجهمية، والمعتزلة، والماتريدية[(٣)]، وعامة متأخري الأشاعرة[(٤)]، من أن معنى العرش في قوله تعالى ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: الآية: ٥]، هو الملك.

قال الدارمي-رحمه الله-(ت: ٢٨٠ هـ) في كتابه "الرد على الجهمية": **(باب الإيمان بالعرش وهو أحد ما أنكرته المعطلة. فادعت هذه العصابة أنهم يؤمنون بالعرش ويقرون**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (٥٨). وابن حبان في صحيحه (١/ ٧٦-٧٩). وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٤٨-٦٤٩، ح: ٢٥٩). وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٠-٣٠١، ح: ٨٦٢). وللحديث أيضاً طرق أخرى ذكرها الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (١٠٩)، وقال: "وجملة القول إن الحديث بهذه الطرق صحيح"، وصححه أيضاً في تعليقه على شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣١٢)، وتخريجه لأحاديث كتاب "ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان" للألوسي (ص: ١٤٠). وقد نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٤١١) عن ابن حبان تصحيح الحديث وقال: "وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره بسند صحيح عنه".

(٢) شرح أصول الخمسة (ص: ٢٢٦)، أصول الدين للبغدادي (ص: ١١٢)، الفرق بين الفرق (ص: ٢١٥-٢١٦)، شرح جوهرة التوحيد (ص: ١٨١)، نقض التأسيس (١/ ٣٩٦، ٢/ ١٤-١٥).

(٣) هم أتباع أبو منصور، محمد بن محمد الماتريدي، السمرقندي. انظر قولهم في هذه المسألة في "تأويلات أهل السنة" للماتريدي (١/ ٨٥).

(٤) التبصير في الدين للإسفراييني (١٥٨).

به، فقلت لبعضهم: ما إيمانكم به إلا كإيمان ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: الآية: ٤١]، وكالذين ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: الآية: ١٤]، أتقرون أن لله عرشاً معلوماً، موصوفاً فوق السماء السابعة، تحمله الملائكة، والله فوقه كما وصف نفسه، بائن من خلقه! فأبى أن يقر به كذلك، وتردد في الجواب وخلط ولم يصرح.

قال أبو سعيد: فقال لي زعيم منهم كبير: لا، ولكن لما خلق الله الخلق يعني السموات والأرض وما فيهن سمى ذلك كله عرشاً له، واستوى على جميع ذلك كله"[(١)].

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)، -في سياق كلامه على حملة العرش-: "ثم إن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: الآية: ٧]، وقوله ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: الآية: ١٧]، يوجب أن لله عرشاً يحمل، يوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك، كما تقوله طائفة من الجهمية"[(٢)]

وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "إنه لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه كناية عن الملك، فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملك، وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضاً في شهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه، وإن كان أشرح، وأبسط، وأدل، على صورة الأمر"[(٣)]

وقال البغدادي، (ت: ٤٢٩ هـ): "والصحيح عندنا تأويل العرش في هذه الآية على معنى الملك، كأنه أراد أن الملك ما استوى لأحد غيره، وهذا التأويل مأخوذ من قول العرب: ثُلَّ عرش فلان، إذا ذهب ملكه، قال متمم بن نويرة في هذا المعنى:

عروشٌ تفانوا بعد عز وأمة ... هووا بعد ما نالوا السلامة والبقا

---

(١) الرد على الجهمية (ص: ١٢-١٣).

(٢) نقض تأسيس الجهمية (٣/ ٢٧٨).

(٣) الكشاف (٢/ ٥٣٠).

وأراد بالعروش، ملوكاً انقرضوا.

وقال سعيد بن زائدة الخزاعي في النعمان بن المنذر:

قد نال عرشاً لم ينله حائل ... جن ولا إنس ولا ديار

وأراد بالعرش، الملك والسلطان.

وقال النابغة:

بعد ابن جفنة وابن هاتك عرشه ... والحارثين يؤمنون فلاحا

وأراد بهاتك عرش ابن جفنة سالب ملكه، فصح بهذا تأويل العرش على الملك في آية الاستواء على ما بيناه"(١)

الرد عليهم:

ما ذهب إليه هؤلاء المخالفون من تفسير معنى العرش الوارد في الآيات بمعنى الملك، إنما هو تأويل باطلٌ، وصرف للفظ عن معناه إلى معنى آخر لا يحتمله.

والمتأمل لهذا القول يرى ما فيه من التلبيس والمخالفة.

فقد سبق أن ذكرنا في المبحث اللغوي لكلمة (**عرش**)، أن لهذه الكلمة عدة معاني في اللغة العربية، ومن المعلوم أن معرفة المعنى المراد من تلك المعاني لهذه الكلمة أو غيرها، إنما يتحدد بحسب سياق الكلمة وبحسب ما أضيفت إليه، وليس في سياق الآيات ما يثبت صحة ما ذهبوا إليه، كما أن ما استدل به هؤلاء المخالفون من الأبيات الشعرية ليس إلا دليلا على أن الملك هو من المعاني اللغوية لكلمة (**عرش**)، وهذا أمر لا خلاف فيه، وهذا الاستدلال يماثل ما لو استدللنا على أن من معاني كلمة العرش: السقف، بقوله تعالى ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٩]، فليس في هذه الأبيات أي إشارة لا من قريب ولا من بعيد على أن الملك هو المعنى المراد في الآيات الواردة في العرش، بل إن المتأمل للآيات والأحاديث الواردة في هذه المسألة يرى أنها تدل دلالة واضحة وصريحة على أن المراد بالعرش هو ذلك

(١) أصول الدين (ص: ١١٢). وانظر أيضاً التفسير الكبير للرازي (١٤/ ١١٥)، وروح المعاني (١١/ ٦٥).

المخلوق العظيم الذي خلقه الله تعالى فوق العالم كله، ثم استوى عليه بعد أن خلق السموات والأرض، وكذلك ترد على هؤلاء المخالفين زعمهم الباطل الذي هو في الحقيقة تحريف لكلام الله.

فيا ترى ماذا يصنع ذلك المخالف الذي يزعم أن العرش إنما هو كناية عن الملك والسلطان بقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [هود: الآية: ٧]، هل يزعم أن الملك كان على الماء؟

وكذلك ماذا يصنع بقوله تعالى: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾ [الحاقة: الآية: ١٧]، أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟

وقوله–صلى الله عليه وسلم–: (**فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش**"[١] أيقول آخذ بقائمة من قوائم الملك؟ وكذا قوله–صلى الله عليه وسلم–: (**اهتز عرش الرحمن**)[٢]، أيقول: اهتز ملكه وسلطانه؟

القول الثاني:

زعم طائفة من الفلاسفة أن العرش فلك مستدير من جميع الجوانب محيط بالعالم من كل جهة، وهو محدود الجهات، وربما سموه الفلك الأطلس، أو الفلك التاسع، أو الأثير، أو الفلك الأعلى[٣]

وفي ذلك يقول **ابن سينا (ت: ٤٢٧ هـ)** في رسالته " إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم": "ومن السهل عليك أن تفهم كيف أن العرش بنص القرآن يحمله ثمانية، فهذه

---

(١) تقدم تخريجه في (ص: ٧).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢/ ٣٧١). وأحمد في المسند (٣/ ٣١٦)، وفي فضائل الصحابة (٢/ ٨١٨). والبخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه، مثله. فتح الباري (٧/ ١٢٢–١٢٣). ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة (٧/ ١٥٠). وابن ماجة في سننه، المقدمة (١/ ٥٦).

(٣) البداية (١/ ١١)، الرسالة العرشية (ص: ٢)، مفردات (ص: ٣٢٩)، روح المعاني (٢٤/ ٤٥).

الثمانية هي: الثمانية أفلاك التي تحت هذا الفلك المحيط"(١)

الرد عليهم:

إن المتأمل لكلام هؤلاء الفلاسفة كابن سينا وأمثاله يرى مدى انحرافهم، حتى أنهم وصلوا إلى درجة اعتقادهم أنه لا موجود إلا ما علموه.

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا إخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار، صاروا حائرين ومتأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه وعلى ما تعلموه، وإن كان هذا التأويل لا دليل لهم عليه سوى ظنهم الفاسد بأنه لا موجود إلا ما عرفوه، فقالوا العرش هو: الفلك التاسع، والكرسي هو: الفلك الثامن، فنفوا ما ليس لهم به علم (٢) فانطبق عليهم قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: الآية: ٣٩].

وقد ثبت أنه ليس لهؤلاء دليل يتمسكون به لا من الشرع ولا من العقل، وأن الذي دفعهم إلى هذا القول هو أنهم نظروا في علم الهيئة وعلوم الفلسفة فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع وهو الأطلس محيط بها ومستدير كاستدارتها وهو الذي يحركها الحركة الشوقية، وأن لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ذكر عرش الله، وذكر السموات السبع، فقالوا بطريق الظن أن العرش هو الفلك التاسع، لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق.(٣)

وهم معترفون بأنه لم يقم لديهم دليل عقلي على صحة قولهم هذا، وفي ذلك **يقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)**: "إن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه، ومالم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا

(١) نقلاً عن كتاب "ابن سينا بين الدين والفلسفة" (ص: ١٣٧–١٣٩).

(٢) الفتاوى (١٧/ ٣٣٥–٣٣٦).

(٣) الرسالة العرشية (ص: ٢–٣).

يعلمون ثبوته ولا انتفاءه.

مثال ذلك: أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بأن السـفلي يكسـف العلوي من غير عكس، فاسـتدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه، كما اسـتدلوا بالحركات المختلفة على أن الأفلاك مختلفة حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك، كفلك التدوير وغيره، فأما ما كان موجوداً فوق هذا ولم يكن لهم ما يسـتدلون به على ثبوته، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم... وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء أخر فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرسل من أن العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب وقولاً بلا علم"[(١)]

ومع عدم وجود الدليل العقلي عند هؤلاء على صـحة زعمهم فكذلك الأدلة الشـرعية ترد زعمهم هذا وتبطله.

وقد ذكر ابن تيمية في معرض رده على هؤلاء الفلاسـفة المتكلمين في رسـالته العرشـية أن الآيات والأحاديث قد دلت على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات وأن الله قد اختصـه وميزه بأمور كثيرة منها، أن له حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، وأن الله قد أخبر بوجوده قبل خلق السـموات والأرض وقبل وجود الأفلاك وأن الله سـبحانه تمدح نفسـه بأنه ذو العرش، ووصف العرش بأنه مجيد، وعظيم، وكريم، فكل هذه الميزات والخصائص تبطل قول المنازع لأنه يقول بأن نسـبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسـبة الآخر إلى ما دونه، ذلك لأنه لو كان العرش من جنس الأفلاك لكان إلى ما دونه كنسـبة الآخر إلى ما دونه، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر؛.[(٢)]

كما أن مما يدل على فساد قولهم ما ثبت في الشـرع من أن للعرش قوائم وأنه يهتز، ومعلوم أن الأفلاك مستديرة وليس لها قوائم، كما أنها متحركة دائماً بحركة متشابهة لا تتغير، كما ثبت

---

(١) الرسالة العرشية (ص: ٢).

(٢) المصدر السابق (ص: ٣-٧).

أيضاً أن العرش أثقل الأوزان، وهم يقولون إن الفلك لا ثقيل ولا خفيف.(١)

فعلم مما تقدم انتفاء الدليل العقلي عند هؤلاء كما علم مخالفتهم للأدلة الشـــرعية وإبطالها لأقوالهم، ويضــاف إلى هذا مخالفتهم للغة العرب، فالعرب لا تفهم من كلمة العرش هذا المعنى ولا هو مستعمل في لغتها، والقرآن إنما نزل بما يفهمون.

وبعد هذا كله لا تبقى أدنى شبهة في فساد هذا القول وبطلانه والله أعلم.

ثالثًا: الأدلة إثبات العرش

أ-الأدلة القرآنية على إثبات العرش.

لقد جاء ذكر عرش الرحمن في القرآن الكريم في واحد وعشرين موضعاً:

١-قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]

٢-وقال تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [التوبة: الآية: ١٢٩].

٣-وقال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [يونس: الآية: ٣].

٤-وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ [هود: الآية: ٧].

٥-وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ**

(١) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص: ٣٦٣).

رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: الآية: ٢].

٦-وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية: ٤٢].

٧-وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية: ٥].

٨-وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية: ٢٢].

٩-وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية: ٨٦].

١٠-وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية: ١١٦].

١١-وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: الآية: ٥٩].

١٢-وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: الآية: ٢٦].

١٣-وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: الآية: ٤].

١٤-وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: الآية: ٧٥].

١٥-وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: الآية: ٧].

١٦-وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ

﴿عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: الآية: ١٦].

١٧-وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: الآية: ٨٢].

١٨-وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: الآية: ٤].

١٩-وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: الآية: ١٧].

٢٠-وقال تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: الآية: ٢٠].

٢١-وقال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: الآية: ١٥].

ب-الأدلة من السنة على إثبات العرش

أورد **الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ)**، في كتابه "العرش" جملة طيبة من الأحاديث والآثار الواردة في العرش وصفته، وفي هذا المبحث لن نذكر تلك الأحاديث والآثار التي أوردها لأنها ستأتي، وإنما سنورد ههنا بعض الأحاديث الصحيحة في العرش وصفته والتي لم يذكرها الذهبي في كتابه، وهذه الأحاديث كثيراً ما يوردها السلف في كتبهم ويستدلون بها لما فيها من الصحة والقوة ولما فيها من الصفات الدالة على عرش الخالق سبحانه وتعالى.

١-فقد جاء في الصحيحين **عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)** قال: **(بينا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-جالس، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: من؟ قال: رجل من الأنصار، قال: ادعوه، فقال: أضربته؟ فقال: سمعته بالسوق يحلف والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث على محمد-صلى الله عليه وسلم-، فأخذتني غضبة فضربت وجهه، فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: (لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون**

أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان صعق أم حوسب بصعقته الأولى).[(١)]

والشـــاهد لنا من هذا الحديث قوله: **(فإذا أنا بموســـى آخذ بقائمة من قوائم العرش)**، حيث إن للعرش قوائم، ولم يرد في الشـــرع تحديد عدد لها، وهذا الحديث هو من أقوى الأدلة على أن العرش ليس المراد به الملك أو الفلك التاسع.

٢-وفي صـحيح مسـلم عن **عبد الله بن عمرو بن العاص-رضـي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)** قال: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: **(كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)**.[(٢)]

وفي الحديث دلالة واضحة على أن العرش كان مخلوقاً على الماء قبل خلق السموات.

٣-وفي الصـــحيحين **عن ابن عباس-رضـــي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)** قال: كان النبي-صـــلى الله عليه وســـلم-يقول عن الكرب: **(لا إله إلا الله العليم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم)**.[(٣)]

٤-وعن **ابن عباس-رضـــي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، عن جويرية-رضـــي الله عنها-(ت: ٥٠ هـ)** أن النبي-صلى الله عليه وسلم-خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: **(ما زلت على الحال التي فارقتك عليها)**، قالت: نعم، قال النبي-صـــلى الله عليه وســـلم-: **(لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سـبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضـا**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (**٥/ ٧٠ مع الفتح**) كتاب الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي. ومسلم في صحيحه (**٤/ ١٠١-١٠٢**) كتاب الفضائل.

(٢) أخرجه مسلم في القدر (**٨/ ٥١**).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، واللفظ له. فتح الباري (**١٣/ ٤٠٥**)، ومسلم في الذكر والدعاء (**٨/ ٨٥**).

نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته).[(١)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان"[(٢)]

٥-وعن **جابر بن عبد الله-رضي الله عنه-(ت: مابين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)** عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: **(أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)**.[(٣)]

٦-**وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٩ هـ)**، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: **(من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، قالوا: يا رسول الله أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة)**.[(٤)]

٧-**وعن عائشة-رضي الله عنها-(ت: ٥٧ هـ)**، قالت: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **(الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله)**.[(٥)]

٨-**وعن أبي ذر-رضي الله عنه-(ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)**، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-لأبي ذر حين غربت الشمس: **(أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم،**

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر (٨/ ٨٣) واللفظ له، وأخرجه أبو داود في تخريج أبواب الوتر، باب التسبيح بالحصى (٢/ ١٧١)، وأخرجه الترمذي في الدعوات، وقال: **(حديث حسن صحيح)**. **(٥/ ٥٥٦)**.

(٢) الرسالة العرشية **(ص: ٨)**.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية **(٥/ ٩٦، ح: ٤٧٢٧)**، أورده ابن كثير في تفسير **(٤/ ٤١٤)** وعزاه لابن أبي حاتم وقال: **(إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات)**.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء. فتح الباري **(١٣/ ٤٠٤)**.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة **(٨/ ٧)**.

قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئتي فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: الآية: ٣٨]).[(١)]

٩-وفي الصحيحين **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٩ هـ)** قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي**).[(٢)]

١٠-**وعن معاذ بن جبل-رضي الله عنه-(ت: ١٧ أو ١٨ هـ)**، قال: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: (**المتحابون في الله يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله**).[(٣)]

رابعًا: صفة العرش وخصائصه

أولاً: خلق العرش وهيئته

إن أول صفة نذكرها لعرش البارئ سبحانه وتعالى كونه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى، ذلك لأن كل ما على الوجود هو مخلوق خلقه الله تعالى وأوجده، قال الله تعالى: ﴿**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٢]، فكل شيء في هذا الكون مخلوق والعرش من ضمن هذا الكون فهو مخلوق أيضاً.

وسلف الأمة وأئمتها يقولون إن القرآن والسنة قد دلا على أن العرش مخلوق من مخلوقات

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب صفة الشمس والقمر. فتح الباري (٦/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في بدء خلق، باب ما جاء في قوله تعالى ﴿وهو يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾. فتح الباري (٦/ ٢٨٧). وأخرجه مسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله أنها سبقت غضبه. (٨/ ٩٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٧). وابن حبان (٢٥١٠). والحاكم (٤/ ١٦٩-١٧٠). وابن المبارك في الزهد (ص: ٧١٥) من طريقين صحيحين عنه.

الله تعالى خلقه وأوجده، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [التوبة: الآية: ١٢٩]، فالعرش موصوف بأنه مربوب وكل مربوب مخلوق، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله.

وقد دلت الآيات والأحاديث على أن خلق العرش متقدم على خلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [هود: الآية: ٧]، فالآية تدل على أن العرش كان موجوداً على الماء قبل خلق السموات والأرض ويؤيد تفسير الآية بهذا المعنى حديث **عمران بن حصين-رضي الله عنه-(ت: ٥٢ هـ)**، الذي جاء فيه أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض**).[(١)]

وأما مسألة خلق العرش فقد جاء ذكرها في حديث **أبي رزين العقيلي-رضي الله عنه-** قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: (**كان في عما ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**).[(٢)]

هذه الأدلة التي استدل بها السلف على إثبات خلق العرش، فيها أبلغ الرد على من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع، أو أنه لم يزل مع الله تعالى.

ولقد خالف السلف في قولهم هذا بعض أهل الكلام الذين زعموا أن السموات والأرض كانتا مخلوقتين قبل العرش، وهم بزعمهم هذا الذي لا دليل لهم عليه إنما يحاولون به إخراج

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. فتح الباري (٦/ ٢٨٦، رقم: **٣١٩٠**).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة هود (**٥/ ٢٨٨، رقم: ٣١٠٩**). والإمام أحمد في مسنده (٤/ ١١-١٢). وابن أبي شيبة في العرش (ح: ٧). وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/٦٤). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧١). وابن جرير الطبري في تفسيره (١٢/ ٤) وفي تاريخه (١/ ١٩). والحكيم الترمذي في الرد على المعطلة (ق: ١٠٦/ أ). وأبو الشيخ في كتاب العظمة (١/ ٣٦٣-٣٦٤، ح: ٨٣). وابن بطة في الإبانة (**تتمة الرد على الجهمية، ٣/ ١٦٨، ح: ١٢٥**). وابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: ٨٩، ح: ٣١). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٣٥-٢٣٦، ح: ٨٠١ و٢/٣٠٣، ح: ٨٦٤). قال الترمذي: حديث حسن. وقال الذهبي في العلو (ص: ١٩) إسناده حسن. وقال الألباني: "في تصحيحه نظر، فإن مداره على وكيع بن عدس ويقال حدس، وهو مجهول، لم يرو عنه غير يعلى بن عطاء، ولا وثقه غير ابن حبان".

الاستواء عن حقيقته في قوله تعالى ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، ليكون معنى الاستواء في الآية على زعمهم بمعنى القدرة على العرش والاستيلاء عليه، ذلك لأنهم لو سلموا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض لقيل لهم إنكم تزعمون أن (**استوى**) بمعنى استولى، فلماذا تأخر الاستيلاء إلى ما بعد خلق السموات مع أنه كان موجوداً قبل ذلك، فهم فراراً من هذا الأمر ادعوا أن العرش مخلوق بعد السموات والأرض.

وقد رد **ابن القيم**–رحمه الله–(ت: **٧٥١ هـ**) على زعمهم هذا بقوله: (**إن هذا لم يقله أحد من أهل العلم أصلاً، وهو مناقض لما دل عليه القرآن والسنة وإجماع المسلمين أظهر مناقضة، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وعرشه حينئذ على الماء، وهذه واو الحال، أي خلقها في هذه الحال، فدل على سبق العرش والماء للسموات والأراضين وفي الصحيح عنه–صلى الله عليه وسلم–: (قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء).**"[١][٢]

وكذلك فيما ذكرناه من أدلة على سبق خلق العرش للسموات والأرض فيه رد على زعم هؤلاء ومدى مخالفة قولهم للكتاب والسنة.

وبعد أن علمنا أسبقية خلق العرش على خلق السموات والأرض وإجماع سلف الأمة على ذلك، نود أن نتطرق في هذا البحث أيضاً إلى ترتيب خلق العرش مع غيره من المخلوقات من حيث الأولوية في الخلق.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على عدة أقوال:

القول الأول:

---

(١) أخرجه مسلم (**٢٦٥٣**)..

(٢) مختصر الصواعق (٢/ ١٣١).

إن القلم أول المخلوقات، وأنه أسبق في الخلق من العرش، وهذا القول هو اختيار ابن جرير الطبري [(١)] وابن الجوزي [(٢)] وهو ما يفهم في الظاهر من قول من صنف في الأوائل كابن أبي عروبة الحراني، وأبو القاسم الطبراني.[(٣)]

والدليل على هذا القول حديث **عبادة بن الصامت-رضي الله عنه-(ت: ٣٤ هـ)**، قال: سمعت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-يقول: (**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**...). الحديث [(٤)]

قال ابن جرير-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ) عند تخريج هذا القول: "وقول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-الذي رويناه عنه أولى قول في ذلك بالصواب لأنه كان أعلم قائل في ذلك قولاً بحقيقته وصحته من غير استثناء منه شيئاً من الأشياء أنه تقدم خلق الله إياه خلق القلم، بل عم بقوله-صلى الله عليه وسلم-: (**إن أول شيء خلقه الله القلم**)، كل شيء وأن القلم مخلوق قبله من غير استثنائه من ذلك عرشاً ولا ماء ولا شيئاً غير ذلك"[(٥)]

القول الثاني:

إن الماء أول المخلوقات، وأنه مخلوق قبل العرش.

وهذا القول ذكره **ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ)** [(٦)]، وذكره أيضاً **ابن حجر-رحمه**

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٦).

(٢) البداية والنهاية (١/ ٨).

(٣) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد (١/ ٣٧٥).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣١٧). وأبو داود في سننه (٥/ ٧٦، رقم: ٤٧٠٠). والترمذي في سننه (٥/ ٤٢٤، رقم: ٣٣١٩).

(٥) تاريخ الطبري (١/ ٣٦،٣٥).

(٦) البداية والنهاية (١/ ٩).

الله-(ت: ٨٥٢ هـ) [(١)]، واستدل له بما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً **(أن الماء خلق قبل العرش)**.

وقال **ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ)**: "وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة **(أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء)**.".

القول الثالث:

أن أول شيء خلقه الله عز وجل من خلقه النور والظلمة.

وهذا القول **ذكره ابن جرير-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ)، وعزاه إلى ابن إسحاق-رحمه الله-(ت: ١٥١ هـ)**.[(٢)]

القول الرابع:

أن العرش هو أول المخلوقات.

وهذا القول هو اختيار **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)** [(٣)]، **وابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)** [(٤)]، **وابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ)** [(٥)]، **وشارح العقيدة الطحاوية-رحمه الله-(ت: ٧٩٢ هـ)** [(٦)]، **ونسبه ابن كثير وابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ) -نقلاً عن أبي العلاء الهمداني-رحمه الله-(ت: ٥٦٩ هـ)**-إلى الجمهور، ومال إليه ابن حجر أيضاً.[(٧)]

---

(١) فتح الباري (٦/ ٢٨٩).

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٣٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢١٣).

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٢٥٣-٢٥٤). وانظر مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٢٣).

(٥) البداية والنهاية (١/ ٩).

(٦) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٥).

(٧) فتح الباري (٦/ ٢٨٩).

واستدلوا على قولهم هذا بما رواه مسلم في صحيحه بسنده عن **عبد الله ابن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)** مرفوعاً قال: **(كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء).**(١)

ففي هذا الحديث تصريح بأن التقدير وقع بعد خلق العرش وحديث عبادة صريح بأن التقدير وقع عند أول خلق القلم، فدل ذلك على أن العرش سابق على القلم.

ومما يؤيد هذا القول أيضاً حديث **عمران بن حصين-رضي الله عنه-(ت: ٥٢ هـ)**: **(كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض)**.(٢)

فالحديث يدل على أن العرش كان موجوداً قبل كتابة المقادير.

وهذا هو الراجح من الأقوال.

وأما القول الثاني **(أن الماء أول المخلوقات)** واستدلال ابن حجر بحديث أبي رزين **(أن الماء خلق قبل العرش)** فغير صحيح، لأنه لم يرد في حديث أبي رزين هذا اللفظ، وإنما ورد فيه **(ثم خلق عرشه على الماء)** وليس في هذا ما يدل على أولية الماء.

وأما ما رواه **السدي-رحمه الله-(ت: ١٢٨ هـ)** فهو أيضاً لا يصلح للاحتجاج لكونه أثرًا ولم يثبت عن النبي-صلى الله عليه وسلم-ما يدل على ذلك

وأما القول الثالث: وهو قول **ابن إسحاق-رحمه الله-(ت: ١٥١ هـ)**، فهو أيضًا غير صحيح، ولعله أخذه من الإسرائيليات كما أخذ غيره من الأمور، وقد قال **ابن جرير-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ)** في هذا القول: "وأما ابن إسحاق فإنه لم يسند قوله الذي قاله في ذلك إلى أحد، وذلك من الأمور التي لا يدرك علمها إلا بخبر من الله-عز وجل-أو من خبر رسول

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٨/ ٥١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. فتح الباري (٦/ ٢٨٦، رقم: ٣١٩٠).

الله-صلى الله عليه وسلم-"[١]

أما القول الأول فقد أجاب الجمهور على استدلالهم بحديث **عبادة بن الصامت-رضي الله عنه-(ت: ٣٤ هـ)** بقولهم لا يخلو قوله **(أول ما خلق الله القلم... الخ)** من أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة -وهو الصحيح-كان معناه أنه عند أول خلقه قال له **(اكتب)** كما في اللفظ، **(أول ما خلق الله القلم قال له اكتب)** بنصب **(أول)** و**(القلم)** فعلى هذا تكون الأولية راجعة إلى الكتابة لا إلى الخلق.

وإن كانت جملتين وهو مروي برفع **(أول)** و**(القلم)** فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق بهذا الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم.[٢]

أما هيئة العرش: فقد دلت الأحاديث على أنه مقبب الشكل وأنه على هذا العالم المكون من السموات والأرض وما فيهما كهيئة القبة وهذا ما يدل عليه حديث الأعرابي الذي جاء فيه أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: **(إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا)** وأشار بأصابعه مثل القبة، ويؤيد وصف هيئة العرش بهذه الصفة ما جاء في الحديث الآخر **(إذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلاها وفوقه عرش الرحمن)**، فالحديث يبين أن الفردوس أوسط الجنة وأعلاها كما جاء في الحديث الآخر: **(مائة درجة وما بين كل درجة ودرجة كما بين السموات والأرض)** فكون العرش سقفاً للفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها يدل على أنه مقبب لأن هذه الصفة لا تكون إلا في المستدير.

والعرش له قوائم كما جاء في الحديث الصحيح **(لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش)** الحديث.

وفي إثبات كون العرش مقبباً وأن له قوائم تحمله، رد على من زعم من الفلاسفة أن العرش

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٣).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٥-٢٩٦). اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٢٥٣-٢٥٤).

فلك من الأفلاك أو أنه الفلك التاسـع، وقد تقدم الرد على زعم هؤلاء، وكذلك فيه رد على من زعم أن العرش بمعنى الملك لأنه لا يعقل أن يكون ماسـكاً بقائمة من قوائم الملك، وقد ذكر ابن كثير والذهبي أن العرش من ياقوتة حمراء[(١)] وقد اسـتدلوا لهذا القول بما رواه **إسماعيل بن أبي خالد**-رحمه الله-(ت: ١٤٦ هـ) قال: سمعت **سـعداً الطائي**-رحمه الله-(ت: بين ١٢١ هـ إلى ١٣٠ هـ) يقول: "العرش ياقوتة حمراء"[(٢)]

ثانياً: مكان العرش.

إن الآيات والأحاديث التي جاء فيها ذكر عرش الرحمن تبارك وتعالى لتدل دلالة واضـحة على أن لعرش الرحمن مكاناً قبل وجود السـموات والأرض وبعد خلقهما، فأما مكانه قبل خلق السموات والأرض فالآيات والأحاديث تبين لنا أن مكانه على الماء، فالله سبحانه يقول في كتابه الكريم ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [هود: الآية: ٧].

قال **الطبري**-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ) في تفسير هذه الآية: "وقوله ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [هود: الآية: ٧]، يقول وكان عرشـه على الماء قبل أن يخلق السـموات والأرض وما فيهن، وعن **أبي نجيح**-رحمه الله-(ت: ١٣١هـ، أو ١٣٢هـ)، عن **مجاهد**-رحمه الله-(ت: ١٠٤ هـ) في قول الله ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾ [هود: الآية: ٧]، قبل أن يخلق شيئًا"[(٣)]

وأما الأدلة من السـنة على ذلك فكثيرة منها حديث **عمران بن حصـين**-**رضي الله عنه**-(ت: ٥٢ هـ) الذي جاء فيه: (**كان الله ولم يكن شـيء قبله، وكان عرشـه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض**).

وكذلك ما جاء في حديث **عبد الله بن عمرو بن العاص**-**رضـي الله عنهما**-(ت: ٦٥

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٤). العلو للذهبي (ص: ٥٧)

(٢) انظر العلو للذهبي (ص: ٥٧).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٤).

هـ): (**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**).

وكذلك حديث **أبي رزين العقيلي-رضي الله عنه-**، قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: (**كان في عما ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء**).

فكل من الآية والأحاديث تدل دلالة قاطعة على أن مكان العرش منذ خلقه على الماء، وليس مراد بالماء هنا ماء البحر لأن ماء البحر إنما وجد بعد خلق السموات والأرض، وإنما الماء المذكور هنا ماء آخر تحت العرش على ما شاء الله تعالى.[(١)]

وقد سئل **حبر الأمة عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)** عن قوله تعالى ﴿**وكان عرشه على الماء**﴾ [هود: الآية: ٧]، على أي شيء كان الماء؟ قال: "كان على متن الريح"[(٢)]

وعن **سليمان التيمي-رحمه الله-(ت: ١٤٣ هـ)** أنه قال: "ولو سئلت أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل الماء؟ لقلت: لا أعلم، قال أبو عبد الله: وذلك لقوله تعالى ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥]"[(٣)].

هذا مكان العرش قبل خلق هذا الكون الذي هو عبارة عن السموات والأرض، أما مكانه بعد خلق السموات والأرض فالحديث عنه من جانبين:

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٤١١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (**١٥/ ٢٤٩**). والدارمي في الرد على بشر المريسي (**ص: ٤٤٥**). وابن أبي عاصم في السنة (**١/ ٢٥٨**).

والحاكم في المستدرك (**٢/ ٣٤١**). والبيهقي في الأسماء والصفات (**٢/ ٢٣٧، رقم: ٨٠٢**). كلهم بإسنادهم عن سفيان عن الأعمش بنحوه. قال الحاكم: (**هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه**) ووافقه الذهبي. وإسناده جيد موقوف.

(٣) خلق أفعال العباد (**١٢٧**).

الجانب الأول: مكانه بالنسبة إلى الله تعالى مع غيره من المخلوقات.

والجانب الثاني: مكانه بالنسبة إلى السموات والأرض بعد خلقهما.

أما مكان العرش بالنسبة إلى الله تعالى مع غيره من المخلوقات فهو أقربها إليه سبحانه، وذلك لأن الله سبحانه قد أخبر أنه مستو على عرشه في أكثر في موضع في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: الآية: ٥]، ففي إثبات الاستواء على العرش دليل على قربه إليه لأنه سبحانه مستو على أعلى مخلوقاته وأقربها إليه، وهذه ميزة امتاز بها العرش على ما سواه، ومما يؤيد كون العرش أقرب المخلوقات إلى الله ما جاء في حديث **ابن عباس رضي الله عنهما**-(**ت: ٦٨ هـ**) أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (**ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال**).[(١)]

فالحديث يدل على أن حملة العرش هم أول من يتلقى أمر الله، ثم يبلغونه للذين يلونهم من أهل السموات، فكونهم أقرب الخلق إلى الله دليل على أن العرش أقرب منهم إليه سبحانه لأنهم إنما يحملونه.

أما مكان العرش بالنسبة للسموات والأرض بعد خلقهما، وهل مازال على الماء؟

فالجواب ما يلي: إن العرش ما يزال على الماء المذكور في الآية والأحاديث بدليل ما جاء في أحاديث الأوعال، لقوله-صلى الله عليه وسلم-: (**ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه أسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك كله ثمانية أملاك أوعال ما بين أظلافهم إلى**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، (**١٤/ ٢٢٥**). والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة سبأ، (**٥/ ٣٦٢ رقم: ٢٣٢٤**). والإمام أحمد في مسنده (**١/ ٢١٨**). والدارمي في الرد على الجهمية (**ص: ٧٨**). وابن منده في التوحيد (**ق: ١٦/ب**). والبيهقي في الأسماء والصفات (**١/ ٥١٢-٥١٣، رقم٤٣٦**). والطحاوي في المشكل (**٣/ ١١٣**). وأبو نعيم في الحلية (**٣/ ١٤٣**). كلهم بإسنادهم عن الزهري عن علي بن الحسين به، وبألفاظ متقاربة. وقال الترمذي: (**هذا حديث حسن صحيح**).

ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش).

فالحديث يشير كما أسلفنا إلى وجود ذلك الماء الذي تحت العرش، وإلى أنه ما زال موجوداً إلى ما بعد خلق السموات والأرض.

أما مكان العرش بالنسبة إلى السموات والأرض فهو أعلى منها وفوقها، وهو كالقبة عليها كما جاء في الحديث: **(إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا" وأشار بأصابعه مثل القبة)**، وكذلك ما جاء في حديث **العباس بن عبد المطلب –رضـــي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)** الذي يسمى بحديث الأوعال، فكلا الحديثين يدلان على أن العرش فوق السموات والأرض وأعلى منهما وهو كالسقف عليهما، بل هو سقف للجنة كما في حديث: **(إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سـبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السـماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن)**.(١)

فمكان العرش فوق السـموات والأرض وفوق الجنة وهو أعلى المخلوقات وأرفعها، وجميع المخلوقات دونه في العلو والارتفاع. والله أعلم.

ثالثاً: خصائص العرش.

خص الخالق سبحانه وتعالى عرشه الكريم بخصائص عديدة ميزته على كثير من المخلوقات الأخرى، وذلك لما للعرش من المكانة الرفيعة عند البارئ عز وجل، وقد ذكر عرش الرحمن في واحد وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، ومجيء ذكر العرش بهذا العدد يدل على ما له من مكانة ومنزلة عالية عند الخالق سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى قد مدح نفسه في أكثر من موضع من كتابه الكريم بأنه صاحب العرش العظيم والكريم والمجيد، قال تعالى ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال تعالى ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون: الآية: ١١٦]، وقال تعالى ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**﴾ [البروج: الآية: ١٥].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء. فتح الباري (١٣/ ٤٠٤).

فالله سبحانه يصف لنا في هذه الآيات وغيرها العرش بأنه عظيم، وكريم، ومجيد، فهو عظيم لكونه أكبر المخلوقات وأعظمها وأعلاها، وذلك لما خص الله به هذا العرش من الاستواء عليه، ومجيد وكريم لما له من منزلة تميز بها عما سواه من المخلوقات، فهو إنما اتصف بهذه الصفات لجلالته وعظيم قدره، كما أن في قوله تعالى ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: الآية: ١٥]، إخبار منه تعالى عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع خلقه، ومما يدل أيضاً على عظمة هذا العرش اقترانه باسم **(الرحمن)** كثيراً في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: الآية: ٥]، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: الآية: ٥٩]، ففي هذا الاقتران بين اسم الرحمن والعرش حكمة وهي إخباره عز وجل بأنه قد استوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، ذلك لأن العرش محيط بالمخلوقات وقد وسعها، والرحمة بالخلق واسعة لهم(١)، كما قال تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية: ١٥٦].

وسنذكر بعض الخصائص التي اختص بها العرش وكرم بها، والتي جعلته يوصف بهذا الوصف في القرآن الكريم ويجعل له تلك المنزلة الرفيعة.

أولاً: الاستواء عليه:

يعتبر استواء الله سبحانه وتعالى على العرش أعظم الخصائص التي اختص بها العرش، بل إن ما سواها من الخصائص الأخرى التي تميز بها العرش إنما جعلت له لأجل استواء الله عز وجل عليه، وذلك أن الله تعالى لما اختصه بهذا الأمر جعل له من الخصائص والصفات كارتفاعه وعظم خلقه وكبره وثقل وزنه لكي يتناسب مع ما ميز وشرف به من الاستواء عليه.

ومسألة الاستواء على العرش ثابتة في الكتاب والسنة، فقد جاء ذكر الاستواء في القرآن الكريم في سبعة مواضع، ومجيء ذكر الاستواء في القرآن بهذا العدد إنما هو ليؤكد عظم هذا الأمر وأهميته، وأما السنة فهي مليئة بالأحاديث والآثار التي تثبت الاستواء وتؤكده.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣-٣٤)

وإن مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم رضوان الله عليهم أجمعين أنهم يقولون إن الله استوى على عرشه بلا تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، فهو سبحانه مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته، واستواؤه حقيقة لا مجاز كما يزعم الجهمية وأتباعهم الذين ينكرون العرش وأن يكون الله فوقه، وأما كيفية ذلك الاستواء فهي مجهولة لدينا والسؤال عن كيفية ذلك الاستواء بدعة، لأن الله سبحانه لم يطلعنا على كيفية ذاته فكيف يكون لنا أن نعرف كيفية استوائه، وهو سبحانه وتعالى يقول ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥].

ثانياً: العرش أعلى المخلوقات أرفعها وسقفها.

إن مما اختص به الخالق سبحانه وتعالى العرش مع استوائه عليه كونه أعلى المخلوقات وأرفعها وأقربها إلى الله تعالى، فقد ثبت أن العرش أعلى من السموات والأرض والجنة وأنه كالسقف عليها، والأدلة على هذا الأمر كثيرة وقد سبق أن أوردنا جزءاً منها خلال حديثنا عن مكان العرش.

والقول بأن العرش أعلى المخلوقات هو قول السلف الذي قالوا به وذهبوا إليه، وقال **ابن أبي زمنين–رحمه الله–(ت: ٣٩٩ هـ)** في كتابه " أصول السنة ": "ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه كيف شاء"(١)

وكون العرش أعلى المخلوقات يدل على أنه أقرب إلى الله تعالى وهذه ميزة أخرى تضاف إلى الخصائص التي انفرد بها العرش، ويدل على هذا الأمر ما جاء في حديث الأوعال: (**ثم فوق ظهورهم العرش بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء والله تعالى فوق**

(١) أصول السنة (ص: ٨٨).

ذلك)[١].

وكذلك ما جاء عن **ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**: **(بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي إلى الماء خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه)**.[٢]

ثالثاً: العرش أكبر المخلوقات وأعظمها وأثقلها.

إن عرش الرحمن تبارك وتعالى يعتبر أكبر مخلوقات الله وأوسعها وأعظمها على الإطلاق، فقد خص الله عز وجل العرش بهذه الميزة العظيمة وشرفه بها مع غيرها من الميزات لكي يتناسب مع ذلك الشرف العظيم ألا وهو استواء البارئ عز وجل عليه.

وعظم العرش وسعة خلقه قد دل عليهما القرآن والسنة، فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [التوبة: الآية: ١٢٩]، فالله سبحانه وصف العرش في هذه الآية وغيرها بكونه عظيماً في خلقه وسعته، قال **ابن كثير-رحمه الله-(ت:**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٠٧). وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية (٥/ ٩٣، **برقم ٤٧٢٣**). وأخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٩). وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة الحاقة (٥/ ٤٢٤-٤٢٥، **برقم: ٣٣٢٠**). والدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: ٤٤٨). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٣). وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٣٤-٢٣٥، ح: ١٤٤). والآجري في الشريعة (٣/ ١٠٨٩-١٠٩٠، ح: ٦٦٥). وابن منده في التوحيد (١/ ١١٧). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣ /٣٩٠). والذهبي في العلو (ص: ٤٩). ومدار الحديث من جميع طرقه على "عبد الله بن عميرة" وعبد الله فيه جهالة، ولذلك قال الألباني في تخريج السنة (١/ ٢٥٤): "إسناده ضعيف، وعبد الله بن عميرة، قال الذهبي: فيه جهالة، وقال البخاري: لا نعلم له سماعاً من الأحنف بن قيس". انتهى كلامه. ولكن الجوزقاني صرح في الأباطيل (١/ ٧٩) بصحة الحديث. وكذلك ابن تيمية في الفتاوى (٣/ ١٩٢) حيث قال: "إن هذا الحديث قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والإثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف، ولم ينف معرفة الناس بهذا، فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد، كانت معرفته وإثباته مقدماً على نفي غيره وعدم معرفته". انتهى كلامه. وكذلك مال تلميذه ابن القيم إلى تصحيحه. انظر تهذيب السنن (٧/ ٩٢-٩٣).

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص: ٢٦، ٢٧). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٦). وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ١٠٠) وقال: **(رواه سنيد بن داود بإسناد صحيح)**.

٧٧٤ هـ) في تفسـير هذه الآية: "أي هو مالك كل شـيء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى"[(١)]

ومما يشـهد لعظم العرش وسـعة خلقه الأحاديث والآثار التي تتحدث عن كبر حجمه وسعته، فقد جاء في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **(إن عرشه على سمواته وأرضه هكذا)** وأشار بأصابعه مثل القبة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يشبه العرش أنه كالقبة على هذا العالم المكون من السموات والأرض وما فيهما وكالسقف عليهما، وفي هذا بيان واضح على عظم العرش وكبر مساحته، وفي حديث أخر يبين لنا مدى عظم العرش وكبر مساحته، فليس العرش أكبر من السموات والأرض فقط، بل هو من الكبر وسعة الحجم بحيث لا تعدل السموات والأرض على سعة حجمهما بجانبه شيئاً يذكر، فعن **أبي ذر -رضي الله عنه- (ت: ٣١ أو ٣٢ هـ)** أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **(يا أبا ذر ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة)**، وفي رواية **(ما السموات السبع والأراضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة)**.

فالحديث كما أسلفنا دليل واضح على سعة العرش وعظم خلقه، وأما مقدار ذلك الحجم وتلك السعة فلا يعلمها إلا الله تعالى.

قال **عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- (ت: ٦٨ هـ)**: "الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى"[(٢)]

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: ٧١، ٧٣، ٧٤). وعبد الله بن أحمد في السنة (ص: ٧٠، ١٤٢) وابن جرير في =

والعرش يمتاز مع كبر حجمه وسعته، بكونه أثقل المخلوقات وزنته أثقل الأوزان، فقد جاء في الحديث أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال **لجويرية-رضي الله عنها-(ت: ٥٦ هـ):** **(لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته).**

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان"(١)

رابعاً: العرش ليس داخلا فيما يقبض ويطوى.

لقد خص الله سبحانه وتعالى العرش بخصائص منها ما انفرد بها العرش عن غيره من المخلوقات، ومنها ما اشترك بها العرش مع بعض المخلوقات الأخرى، ولقد سبق الحديث عن بعض الخصائص التي انفرد بها العرش، وأود هاهنا أن أبين بعض ما اشترك به العرش مع غيره من المخلوقات من الخصائص.

فقد سبق أن علمنا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض فهو بهذا ليس داخلا فيما خلق في الأيام الستة، ومعلوم أن الله سبحانه قد أخبر في كتابه وعلى لسان نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-أنه يقبض يوم القيامة السموات والأرض ويطويها ويبدلها، قال تعالى ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ [الزمر: الآية: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾ [إبراهيم: الآية: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: الآية: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ**

التفسير (٣/ ١٠). والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٣٩، برقم: ١٢٤٠٤) والدارقطني في الصفات (ص: ٣٠). والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٣). والخطيب البغدادي في تاريخه (٩/ ٢٥١-٢٥٢) من أوجه. والهروي في الأربعين (ص: ١٢٥). كلهم من طريق سفيان الثوري عن عمار الذهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً. قال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه". ووافقه الذهبي. وذكره الذهبي في العلو (ص٦١) وقال: **(رواته ثقات)**. وقال الألباني: "هذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات، وتابعه يوسف بن أبي إسحاق عن عمار الذهني" انظر مختصر العلو (ص: ١٠٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٣): **(رجاله رجال الصحيح)**.

(١) الرسالة العرشية (ص: ٨).

انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق ١-٢]، وقال تعالى: **﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾** [الانفطار: الآية: ١]، وفي الصحيحين **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، قال: قال رسـول الله-صـلى الله عليه وسـلم-: **(يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السـماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض).**(١)

وفي صـحيح مسـلم عن **عبد الله بن عمر-رضـي الله عنهما-(ت: ٧٣ هـ)**، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: **(يطوي الله السموات والأرض ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون).**(٢)

فالآيات والأحاديث السـابقة تدل على أن السـموات والأرض وما فيهما تقبض وتطوى وتبدل.

وقد اتفق سـلف الأمة وأئمتها وسـائر أهل السـنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى كالجنة والنار والعرش.(٣)

فعلى هذا يكون العرش ليس داخلا فيما يقبض ويطوى ويبدل، والأدلة على بقاء العرش كثيرة في الكتاب والسنة، فالله سبحانه وتعالى يقول مخبرا عن بقاء عرشه يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: الآيات: ١٤-١٧]، وكذلك ما جاء في سورة الزمر من إخباره تعالى بقبضه للأرض وطيه للسموات بيمينه وذكر نفخ الصور وصعق من في السموات والأرض إلا ما شاء الله، ثم ذكر النفخة الثانية التي يقومون بها، وأن الأرض تشرق بنور ربها وأن الكتاب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، انظر فتح الباري (١٣/ ٣٦٧).ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، (٨/ ١٢٦).

(٢) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة (٨/ ١٢٦).

(٣) الفتاوى (١٨/ ٣٠٧).

يوضع، ويجاء بالنبيين والشهداء، وأنه توفى كل نفس ما عملت، وذكر سوق الكفار إلى النار وسوق المؤمنين إلى الجنة إلى أن قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الزمر: الآيات: ٧٤-٧٥].

فالآيات فيها إخبار عن الموقف يوم القيامة وفيها شاهد على أن العرش باق حتى بعد انتهاء الحساب. **يقول ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)**: "وأما العرش فلم يكن داخلا فيما خلقه في الأيام الستة ولا يشقه ويفطره، بل الأحاديث المشهورة دلت على ما دل عليه القرآن من بقاء العرش، فقد ثبت في الصحيح أن جنة عدن سقفها عرش الرحمن قال-صلى الله عليه وسلم-: **(إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن)**."[١]

---

(١) نقض التأسيس (١/ ١٥٥).

مسألة الحد

[٥٦]- قال المصنف رحمه الله: وله حَدٌّ، الله أعلم بحدِّه.

الشرح

(الحد في اللغة: الحاجز بين الشيئين، الذي يُمَيِّزُ بينهما، لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر، وهو مأخوذ من حد الشيء عن غيره يَحُدُهُ حَدًّا إذا ميزه)[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الحد ما يتميز به الشيء عن غيره من صفته وقدره)[٢].

استعمالات السلف للحد:

الاستعمال الأول: في حال الإثبات.

ومن الآثار الواردة في ذلك ما رواه الخلال بسنده عن محمد بن إبراهيم القيسي، قال: (قلت لأحمد بن حنبل: يحكى عن ابن المبارك، وقيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: في السماء السابعة على عرشه بحد. فقال أحمد: هكذا هو عندنا)[٣].

وعن حرب بن إسماعيل قال: (قلت لإسحاق -يعني ابن راهويه-: هو على العرش بحد؟ قال: نعم بحد).

وذكر عن ابن المبارك قال: (هو على عرشه بائن من خلقه بحد)[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن كثيراً من أئمة السنة والحديث[٥] أو أكثرهم يقولون إنه

---

(١) انظر الصحاح للجوهري (٢/٤٦٢)، ولسان العرب (٣/١٤٠).

(٢) نقض تأسيس الجهمية (١/٤٤٣).

(٣) أخرجه القاضي أبو يعلى في إبطال التأويلات (ق١٥١/ب)، وفي الروايتين والوجهين (ص٤٩). وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١/٢٦٧).

وأورده شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (١/٤٢٨).

(٤) نقض تأسيس الجهمية (٢/٣٤).

(٥) كعثمان بن سعيد الدارمي، وعبد الله بن المبارك، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل، والخلال، وحرب الكرماني، وإسحاق بن راهويه، =

فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه بحد)[(١)].

الاستعمال الثاني: في حال النفي.

قال حنبل: (قلت لأبي عبد الله: ما معنى قوله ﴿وهو معكم﴾، و﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾؟ قال: علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة) [(٢)].

وفي رسالة الإصطخري قال الإمام أحمد: (والله عز وجل على عرشه ليس له حد، والله أعلم بحده) [(٣)].

"توضيح المسألة "

أما الاستعمال الأول: فهو استعماله في حال الإثبات فقد استعمل في مسألة إثبات علو الله على خلقه وتميزه وانفصاله عنهم وعدم اختلاطه بهم أو حلوله فيهم، فلما زعم الجهمية أن الخالق في كل مكان وأنه غير مباين لخلقه ولا متميز عنهم، قال بعض أئمة السلف: إن الله سبحانه عالٍ على خلقه، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، وذكروا الحد، لأن الجهمية زعموا أنه ليس له حد وما لا حد له لا يباين المخلوقات ولا يكون فوق العالم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولما كان الجهمية يقولون ما مضمونه إن الخالق لا يتميز عن الخلق فيجحدون صفاته التي تميز بها، ويجحدون قَدْرَهُ؛ حتى يقول المعتزلة إذا عرفوا أنه

وابن بطة، وأبي إسماعيل الأنصاري الهروي، وأبي القاسم ابن منده، وقوام السنة الأصبهاني، وإسماعيل بن الفضل التيمي، والقاضي أبي يعلى، وأبي الحسن بن الزاغوني، والحافظ أبي العلاء الهمداني، وغير هؤلاء. انظر الرد على بشر المريسي (ص٢٣-٢٤)، والرد على الجهمية له (ص٥)، والتمهيد لابن عبد البر (١٤٢/٧)، وإثبات الحد لله تعالى لمحمود بن أبي القاسم الدشتي (ق٣-٦)، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٣/٢-٣٤، ٥٦-٦٠)، ونقض تأسيس الجهمية (٤٢٦/١، ٣٩٧-٤٣٣) و(١٨٠/٢، ١٦٠).

(١) نقض تأسيس الجهمية (٣٩٧/١).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٠٢/٣، برقم ٦٧٥). وأورده ابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١١٦، برقم ٩٥). وأورده الذهبي في العلو (ص١٣٠)، وفي الأربعين في صفات رب العالمين (ص٦٥، برقم ٥٠). وأورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤٩٦/٥). وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٠٠) وعزاه للالكائي. وانظر في مسألة الحد نقض تأسيس الجهمية (١٦٢/٢).

(٣) طبقات الحنابلة (٢٩/١).

حي، عالم، قدير، قد عرفنا حقيقته وماهيته، ويقولون إنه لا يباين غيره. بل إما أن يصفوه بصفة المعدوم؛ فيقولوا: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا كذا ولا كذا. أو يجعلوه حالاً في المخلوقات أو وجوده وجود المخلوقات.

فبين ابن المبارك أن الرب سبحانه وتعالى على عرشه مباين لخلقه منفصل عنه، وذكر الحد. لأن الجهمية كانوا يقولون ليس له حد، وما لا حد له لا يباين المخلوقات ولا يكون فوق العالم لأن ذلك مستلزم للحد)[١].

وبناءً على ما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أثبت السلف الحد لما في إثبات هذا اللفظ من رد على الجهمية فيما زعموا، ولما في معنى (الحد) من إثبات مباينة الله لخلقه، وعلوه عليهم، واستوائه على عرشه.

وإن كان السلف يقولون إنه حد لا يعلمه إلا الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن نقل الآثار الواردة عن السلف في إثبات الحد: (فهذا وأمثاله مما نقل عن الأئمة، كما قد بسط في غير هذا الموضع، وبينوا أن ما أثبتوه له من الحد لا يعلمه غيره، كما قال مالك وربيعة وغيرهما: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، فبين أن كيفية استوائه مجهولة للعباد، فلم ينفوا ثبوت ذلك في نفس الأمر، ولكن نفوا علم الخلق به، وكذلك مثل هذا في كلام عبد العزيز بن عبد الله بن الماجشون وغير واحد من السلف، والأئمة ينفون علم الخلق بقدره وكيفيته)[٢].

الاستعمال الثاني: استعماله في حال النفي

وذلك في مسألة نفي الإحاطة بالله علماً وإدراكاً، فلا منازعة بين أهل السنة بأن الله تعالى غير مدرك الإحاطة والخلق عاجزون عن الإحاطة به، فهم لا يستطيعون أن يحدوا الخالق جل وعلا، أو يُقَدِرُوه، أو يبلغوا صفته، فمن نفى الحد على هذا المعنى فهو مصيب.

---

(١) نقض تأسيس الجهمية (١/٤٤٢-٤٤٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/٣٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (المحفوظ عن السلف والأئمة إثبات حد لله في نفسه، وقد بينوا مع ذلك أن العباد لا يحدونه ولا يدركونه، ولهذا لم يتناف كلامهم في ذلك كما يظنه بعض الناس، فإنهم نفو أن يَحُد أحدٌ الله)[١].

وقال أيضاً: (وقوله بلا حد ولا صفة) نَفَى به إحاطة علم الخلق به، وأن يحدوه أو يصفوه على ما هو عليه، إلا بما أخبر عن نفسه، ليبين أن عقول الخلق لا تحيط بصفاته، كما قال الشافعي في خطبة "الرسالة": (الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه)[٢] ولهذا قال أحمد: (لا تدركه الأبصار بحد ولا غاية) فنفى أن يدرك له حد أو غاية)[٣].

وهذا المحفوظ عن السلف والأئمة من إثبات حد لله في نفسه قد بينوا مع ذلك أن العباد لا يحدونه ولا يدركونه؛ ولهذا لم يتناف كلامهم في ذلك كما يظنه بعض الناس، فإنهم نفوا أن يحد أحد الله كما ذكره حنبل عنه في كتاب السنة والمحنة، وقد رواه الخلال في "كتاب السنة" أخبرني عبد الله بن حنبل حدثني حنبل بن إسحاق، قال: قال عمي: (نحن نؤمن بالله عز وجل على عرشه كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد، فصفات الله عز وجل منه وله، وهو كما وصف نفسه، لا تدركه الأبصار بحد ولا غاية، وهو يدرك الأبصار، وهو عالم الغيب والشهادة، علام الغيوب، ولا يدركه وصف واصف، وهو كما وصف نفسه، وليس من الله شيء محدود، ولا يبلغ علمه وقدرته أحد، غلب الأشياء كلها بعلمه وقدرته وسلطانه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وكان الله قبل أن يكون شيء، والله الأول، وهو الآخر، ولا يبلغ أحد حد صفاته، فالتسليم لأمر الله والرضا بقضائه، نسأل الله التوفيق والسداد، إنه على كل شيء قدير.

(١) نقض تأسيس الجهمية (٢/١٦٢).

(٢) الرسالة للشافعي (ص٨).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢/٣٣)

وذلك أن لفظ (الحد) عند كل من تكلم به يراد به شيئان:

يراد به حقيقة الشيء في نفسه

ويراد به الوجود العيني أو الوجود الذهني

فأخبر أبو عبد الله أنه على العرش بلا حد يحده أحد أو صـفة يبلغها واصـف، وأتبع ذلك بقوله ﴿لا تدركه الأبصــار﴾ بحد ولا غاية، وهذا التفســير الصــحيح للإدراك: أي لا تحيط الأبصــار بحده ولا غايته؛ ثم قال: ﴿وهو يدرك الأبصـار﴾ وهو عالم الغيب والشـهادة، علام الغيوب، ليتبين أنه عالم بنفسه وبكل شيء.

وقال الخلال: (وأخبرني علي بن عيســى أن حنبلا حدثهم، قال: ســألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تروى (أن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا) و (أن الله يضع قدمه) وما أشبه هذه الأحاديث، فقال أبو عبد الله: نؤمن بها، ونصدق بها ولا كيف، ولا معنى، ولا نرد منها شـيئاً، ونعلم أن ما جاء به الرسـول حق إذا كانت بأسـانيد صـحاح، ولا نرد على الله قوله، ولا يوصف بأكثر مما وصف به نفسه ولا حد ولا غاية، ليس كمثله شيء، قال: وقال حنبل في موضع آخر قال: ليس كمثله شيء في ذاته، كما وصف به نفسه، فقد أجمل تبارك وتعالى بالصفة لنفسه فحد لنفسه صفة، ليس يشبهه شيء، فيعبد الله بصفاته غير محدودة ولا معلومة إلا بما وصف نفسه، قال تعالى ﴿وهو السميع البصير﴾.

قال: وقال حنبل في موضـــع آخر: قال: فهو سميع بصـــير بلا حد ولا تقدير، ولا يبلغ الواصفون صفته، وصفاته منه وله، ولا يتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه كما وصـــف نفســـه، ولا يتعدى ذلك، ولا تبلغه صـــفة الواصـــفين، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت، وما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوه بعبده يوم القيامة ووضـــعه كنفه عليه، هذا كله يدل على أن الله يرى في الآخرة، والتحديد في هذا بدعة، والتسليم لله بأمره بغير صفة ولا حد إلا ما وصف به نفسه، سميع بصير، لم يزل متكلماً، عالماً غفوراً، عالم الغيب والشهادة، علام الغيوب، فهذه صفات وصف بها نفســـه لا تدفع ولا ترد، وهو على العرش بلا حد، كما قال ﴿ثم اســـتوى على العرش﴾

كيف شاء، المشيئة إليه عز وجل، والاستطاعة له ﴿ليس كمثله شيء﴾ وهو خالق كل شيء، وهو كما وصف نفسه، سميع بصير بلا حد ولا تقدير، قول إبراهيم لأبيه ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر﴾ فثبت أن الله سميع بصير صفاته منه، لا تعدى القرآن والحديث والخبر، يضحك الله ولا نعلم كيف ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ وتثبيت القرآن، ولا يصفه الواصفون، ولا يحده أحد، تعالى الله عما يقول الجهمية والمشبهة) [(١)].

قال ابن القيم: (أراد أحمد بنفي الصفة نفي الكيفية والتشبيه، وبنفي الحد حد يدركه العباد ويحدونه)[(٢)].

وقال ابن عثيمين في شرح السفارينية: وهذا الحد من الألفاظ التي لم ترد في الكتاب ولا في السُّنة، ليس في الكتاب أن الله يحد ولا أنه لا يحد ولا في السُّنة أن الله يحد ولا أنه لا يحد.

وإذا كان كذلك فالواجب السكوت عنه؛ لا تقل إنه يحد ولا إنه لا يحد ما الذي حدك على أن تقول إنه يحد أو لا يحد؟ ليس هناك ضرورة، لو كان من الضروري أن نعتقد أن الله يحد أو لا يحد لكان الله يبينه أو السُّنة تبينه لأن الله تعالى يقول ﴿نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ ولذلك اختلف كلام من تكلم به من السلف هل نقول إن الله يحد أو نقول أن الله لا يحد فمنهم من أنكر الحد وقال إنه لا يجوز أن نقول إن الله محدود ومنهم من قال يجب أن نقول إن الله محدود وإن له حدًّا.

ولكن يجب أن نعلم أن الخلاف يكاد يكون لفظيا لأنه يختلف باختلاف معنى الحد المثبت والمنفي فمن قال إن الله محدود أراد أنه بائن من الخلق ومحاد لهم ليس داخلا فيهم ولا هم داخلون كما نقول هذه أرض فلان وهذه أرض فلان كل واحدة منهما محدودة عن الأخرى بينهما حد.

فمن أثبت الحد أراد به هذا المعنى أي أن الله تعالى منفصل بائن عن الخلق ليس حالا فيهم

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (٢/٣٠-٣٢)

(٢) انظر مختصر الصواعق (٢/٢١٣).

ولا الخلق حالون فيه وهذا المعنى الصحيح.

ومن قال إنه غير محدود أراد أن الله تعالى أكبر من أن يحد ولا يحده شيء من مخلوقاته ولا يحصره شيء من مخلوقاته فقد وسع كرسيه السماوات والارض ولا يمكن أن يحده شيء من المخلوقات وهذا المعنى صحيح والسلف متفقون على هذا.

وعليه فيكون الخلاف بينهم لفظيا بحسب هذا التفصيل[١].

(١) شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين رحمه الله: معنى قوله: تعالى أن يُحَدَّ، وهل لله حد؟ -

[٥٧] - قال المصنف رحمه الله: والله على عرشه عزَّ ذكره، وتعالى جده، ولا إله غيره.

الشرح

تقدم الكلام عليه في إثبات علو الله واستوائه على عرشه.



[القول في الأسماء والصفات]

المسألة الأولى: أهمية توحيد الأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة.

المسألة الثانية: بيان مجمل الأسس التي قام عليها معتقد أهل السنة في باب أسماء الله وصفاته.

المسألة الثالثة: الأبواب الثلاثة التي يشتمل عليها توحيد الأسماء والصفات.

المسألة الرابعة: الألفاظ المجملة وحكم دخولها في باب الصفات وموقف أهل السنة من استعمالها.

[٥٨] – قال المصنف رحمه الله: والله تبارك سميع لا يشك، بصير لا يرتاب، عليم لا يجهل، جواد لا يبخل، حليم لا يعجل، حفيظ لا ينسى، يقظان[١] لا يسهو، رقيب لا يغفل، يتكلم ويتحرك[٢]، ويسمع، ويبصر، وينظر، ويقبض ويبسط، ويضحك، ويفرح، ويحب، ويكره، ويبغض، ويرضى، ويسخط، ويغضب، ويرحم، ويعفو، ويغفر، ويعطي ويمنع، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، كيف شاء وكما شاء ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى ١١].

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أهمية توحيد الأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة.

تتجلى أهمية توحيد الأسماء الحُسنى والصِّفات العُلى في الأمور الآتية:

الأمر الأول: هذا التوحيد شَطر باب الإيمان بالله تعالىٰ:

لا يخفى على المسلم أهمية الإيمان بالله، فهو أول أركان الإيمان، بل هو أعظمها، فما بقية الأركان إلا تَبَع له وفرع عنه، وهو أهم ما خُلق لها الخلق، وأُرسلت به الرسل، وأُنزلت به الكتب، وأُسِّست عليه الملة؛ فالإيمان بالله هو أساس كل خير، ومصدر كل هداية، وسبب كل فلاح، ذلك لأنَّ الإنسان لما كان مخلوقًا مَربوبًا عاد في علمه وعمله إلى خالقه وبارئه؛ فبه يهتدي، وله يعمل، وإليه يصير، فلا غِنى له عنه، وانصرافه إلى غيره هو عين هلاكه وفساده، والإنسان له بالله عن كل شيء عِوض، وليس لكل شيء عن الله عوض؛ فليس للعبد صلاح ولا فلاح إلا بمعرفة ربِّه وعبادته، فإذا حصل له ذلك فهو الغاية المرادة له والتي خُلق من أجلها، فما سوى ذلك إما فضل نافع، أو فُضول غير نافعة، أو فضول ضارة، ولهذا صارت دعوة

---

(١) هذا الإطلاق من باب الإخبار عن الله تعالى لا التسمية، لأن باب الإخبار أوسع من باب التسمية والوصف.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله في مختصر الصواعق ٢/ ٢٥٨: وحركة الحي من لوازم ذاته، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالحركة والشعور، فكل حي متحرك بالإرادة وله شعور فنفي الحركة عنه كنفي الشعور، وذلك يستلزم نفي الحياة".

الرسل لأممهم إلى الإيمان بالله وعبادته؛ فكل رسول يبدأ دعوته بذلك كما يُعلم من تَتبع دعوات الرسل في القرآن.

وملاك السعادة والنجاة والفوز يكون بتحقيق التوحيدين اللذين عليهما يقوم الإيمان بالله تعالى، وبتحقيقهما بَعث الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، وإليه دَعت الرسل–صلوات الله وسلامه عليهم–من أولهم إلى آخرهم.

وأحدهما: التوحيد العِلمي الخبري الاعتقادي المتضمن إثبات صفات الكمال لله تعالى، وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل، وتنزيهه عن صفات النقص.

قال الإمامُ ابنُ القَيِّم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "ولا ريبَ أنَّ العِلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أَجَلُّ العلوم وأَفضلها، ونِسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أنَّ العلمَ به أَجَلُّ العلوم وأشرفُها، فهو أصلها كلها، كما أنَّ كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين ومفتقر اليه في تحقق ذاته وأينيته، وكل علم فهو تابع للعلم به مُفتقر في تحقق ذاته إليه، فالعلم به أصل كل علم، كما أنَّه–سبحانه–ربُّ كل شيء ومليكه ومُوجده..."، إلى أن قال: "فالعِلم بذاته–سبحانه–وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو–في ذاته–ربُّ كل شيء ومليكه، والعلم به أصل كل علم ومَنشؤه؛ فمَن عَرف الله عرف ما سواه، ومَن جهل ربَّه فهو لما سواه أجهل".[1]

والتوحيد الثاني: عبادته وحده لا شريك له، وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه، والرضا به ربًّا وإلهًا ووليًّا، وأن لا يَجعل له عدلًا في شيء من الأشياء.

وقد جمع سبحانه وتعالى هذين النوعين في سورتي الإخلاص، وهما سورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: الآية: ١]، المتضمنة للتوحيد العملي الإرادي.

وسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية: ١]، المتضمنة للتوحيد العلمي الخبري.

فسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية: ١]، فيها بيانُ ما يجب لله تعالى من صفات

---

(١) (مفتاح دار السعادة) (١/ ٨٦)، دار الكتب العلمية –بيروت.

الكمال، وبيان ما يجب تنزيهه عنه من النقائص والأمثال.

وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: الآية: ١]، فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له، والتبري من عبادة كل ما سواه.

ولا يتمُّ أحدُ التوحيدين إلا بالآخر، ولهذا كان النبي-صلى الله عليه وسلم-يقرأ بهاتين السورتين في سُنَّة الفجر والوتر والمغرب، وقد ورد كذلك في سُنَّة المغرب القراءة بهاتين السورتين؛ [(١)] ليكون فاتحة العمل وخاتمته توحيدًا؛ إذ مبدأ النهار توحيدًا وخاتمته توحيدًا". [(٢)]

فالتوحيد المطلوب من العبد شَطره هو توحيد الأسماء والصفات.

الأمر الثاني: توحيد الأسماء والصِّفات أشرف العلوم وأهمها علىٰ الإطلاق:

إنَّ شرف العلم تابع لشرف معلومه؛ لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه، ولشدة الحاجة إلى معرفته وعِظم النفع بها.

ولا ريب أن أَجَلَّ مَعلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذي لا إله إلا هو ربُّ العالمين، وقَيُّوم السموات والأرضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تشبيه وتمثيل في كماله.

فلا ريب أن العلمَ به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أَجَلُّ العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات. [(٣)]

---

(١) قد ثبت في (صـــحيح مســـلم) (٧٢٦) عن أبي هريرة-رضـــي الله عنه-: (أنَّ رســـول الله ﷺ قَرَأَ فِي رَكعَتَي الفَجرِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾). وأخرج الترمذي (٤٦٢) عن ابن عباس-رضــــي الله عنهما-، قال: (كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر: بـــ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعة ركعة)، وأخرجه الدارمي بنحوه (١٦٣٠)، وصححه الألباني في (صلاة التراويح) (ص ١٠٨). وأخرج النسائي (٩٩٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (رَمَقتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِشـــرين مَرَّةً يقرأ في الرَّكعَتَينِ بعد المغرب، وفي الرَّكعَتَين قبل الفجرِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾)، وقال النووي في (المجموع) (٣/ ٣٨٥): (إسناده جيد)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في (تحقيق المسند) (٨/ ٨٩)، والألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣٣٢٨).

(٢) انظر (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة الجهمية) لابن القيم (ص: ٣٥، ٣٦).

(٣) (مفتاح دار السعادة) (١/ ٨٦).

قال أبو عبد الله الحسن بن الحسين الحليمي -رحمه الله- (ت: ٤٠٤هـ): "الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته، والدلالة على عظمته وقدسه أفضل أو خير، بمعنى أن يتعين أنها أسنى وأجل قدرا".[١]

قال العز بن عبد السلام -رحمه الله- (ت: ٦٣٩ هـ): "تعليم ما يجب تعليمه، وتفهيم ما يجب تفهيمه، يختلف باختلاف رتبه وهذان قسمان: أحدهما: وسيلة إلى ما هو مقصود في نفسه، كتعريف التوحيد وصفات الإله؛ فإن معرفة ذلك من أفضل المقاصد والتوسل إليه من أفضل الوسائل.

القسم الثاني: ما هو وسيلة إلى وسيلة كتعليم أحكام الشرع، فإنه وسيلة إلى العلم بالأحكام التي هي وسيلة إلى إقامه الطاعات، التي هي وسائل إلى المثوبة والرضوان، وكلاهما من أفضل المقاصد".[٢]

قال ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨هـ): "وإنما العلم الأعلى هو العلم بالله، والله هو الأعلى على كل شيء من كل وجه، كما قال -سبحانه-: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: الآية: ١]، فالعلم به أعلى العلوم، وإرادة وجهه أفضل الإرادات، ومحبته أفضل المحبات".[٣]

قال ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ): "ولهذا ورد في فضل هذه الكلمة شهادة أن لا إله إلا الله من الدلائل ما يضيق هذا الموضع عن ذكره وهي أفضل الكلام وما فيها من العلم والمحبة أفضل العلوم والمحبات كالحديث الذي في السنن (أفضل الذكر لا إله ألا الله)[٤] .[٥]

قال ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ): "معرفة رب العالمين غاية المعارف، وعبادته أشرف

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٢/ ٢٤٤.

(٢) تفسير الرازي ٧/ ٢٢١.

(٣) الرد على الشاذلي بن حزبية ١/ ٢٤٢.

(٤) قاعدة في المحبة صـ ١٣.

(٥) سنن الترمذي (٣٣٨٣) وحسنه، وابن ماجة (٣٨٠٠)، وابن حبان (٨٤٦)، والحاكم (١٨٣٤)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١٠٥٩٩)،وحسنه الألباني في "صحيح الترمذي".

المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية". [١]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "لما كان العلم للعمل قرينا وشافعًا، وشرفه لشرف معلومه تابعًا، كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد". [٢]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "إن شرف العلم تابع لشرف معلومه، لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها.

ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره هو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تشبيه وتمثيل في كماله.

فلا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات". [٣]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "والعلمُ الأعلى، هو العلمُ بالأعلى". [٤]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا بخلاف العلم الأعلى عند المسلمين فإنه العلم بالله، الذي هو في نفسه أعلى من غيره من كل وجه، والعلم به أعلى العلوم من كل وجه، والعلم به أصل لكل علم". [٥]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وإنما العلم الأعلى هو العلم بالله، والله هو الأعلى على كل شيء من كل وجه، كما قال-سبحانه-: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: الآية:

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ١٣.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ٤.

(٣) مفتاح دار. السعادة ١/ ٨٦.

(٤) جامع الرسائل (٢/ ٦٨٥).

(٥) الرد على المنطقيين صـ ١١١.

١]، فالعلم به أعلى العلوم، وإرادة وجهه أفضل الإرادات، ومحبته أفضل المحبات".(١)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فإن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلى العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تفضل الوسائل على غاياتها؟

قيل: كل من العلم والعمل ينقسم إلى قسمين، منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية، فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته، قال الله-تعالى-: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: الآية: ١٢] فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شي عليم، وعلى كل شي قدير فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: الآية: ١٩] فالعلم بوحدانيته-تعالى-، وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته وإن كان لا يكتفى به وحده، بل لابد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما.

الأمر الأول: أن يعرف الرب تعالى بأسمائه، وصفاته وأفعاله وأحكامه.

والأمر الثاني: أن يعبد بموجبها ومقتضاها.

فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته أيضا، فإن العلم من أفضل العبادات".(٢)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "مراتب العلمُ به سبحانه خمس مراتب:

١-العلم بذاته، ٢-وصفاته، ٣-وأفعاله، ٤-وأسمائه، ٥-وتنزيهه عما لا يليق به".(٣)

---

(١) الرد على الشاذلي بن حزبية وما صنفه في آداب الطريق ١/ ٢٤٢.

(٢) مفتاح دار. السعادة ١/ ١٧٨.

(٣) مدارج السالكين ١/ ١٢٨.

قال ابن رجب-رحمه الله-(ت: ٧٩٥ هـ): "فأفضل العلم العلم بالله وهو العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته والتبتل إليه والتوكل عليه والصبر والرضا عنه والاشتغال به دون خلقه.

وتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن جمع هذه العلوم فهو من العلماء الربانيين، العلماء بالله العلماء بأمره وهم أكمل ممن قصر علمه على العلم بالله دون العلم بأمره، وبالعكس".(١)

قال محمد بن يعقوب الفيروز أبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "فإن لكل علم حدا لا يتجاوزه، ولكل عالم ناموسا لا يخل به؛ فمن الوجوه المغلطة أن يظن في العلم فوق غايته؛ كما يظن بالطب أنه يبرئ جميع الأمراض؛ وليس كذلك، فإن كثيرًا من الأمراض لا يبرأ بالمعالجة.

ومنها أن يظن بالعلم فوق مرتبته في الشرف؛ كما يظن بالفقه أنه أشرف العلوم على الإطلاق؛ وليس كذلك؛ فإن التوحيد والعلم الإلهى أشرف منه قطعا".(٢)

قال الملا علي القاري-رحمه الله-(ت: ١٠١٤ هـ): "علم التوحيد أفضل العلوم وأكملها، وعالم هذا العلم. أفضل العلماء، وبهذا السبب خصهم الله بالذكر في أجل المراتب فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: الآية: ١٨]".(٣)

الأمر الثالث: توحيد الأسماء والصفات هو أصل العلوم الدينية:

كما أن العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأشرفها وأعظمها فهو أصلها كلها، فكل علم هو تابع للعلم به، مفتقر في تحقق ذاته إليه، فالعلم به أصل كل علم ومَنشؤه؛ فمَن

(١) شرح حديث أبي الدرداء لابن رجب (ص: ٤١).

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٤٥.

(٣) شرح الفقه الأكبر ص: ٣٨.

عرف الله عَرف ما سواه، ومَن جهل ربَّه فهو لما سواه أجهل؛ قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: الآية: ١٩]، فتأمل هذه الآية: تجد تحتها معنى شريفًا عظيمًا، وهو: أنَّ مَن نسي ربَّه أنساه ذاته ونفسه، فلم يَعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نَسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده؛ لأنَّه خرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسي ربَّه فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها؛ قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: الآية: ٢٨]، فغفل عن ذكر ربه؛ فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مُشتت القلب مُضيعه، مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلًا.

فالعِلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مُستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته".[١]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فإن النفس خلقت بفطرتها تقتضي معرفة الله ومحبته. وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك. وهذا كله من فضل الله وإحسانه".[٢]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "معرفة الله والشهادة له بالتوحيد، وإثبات أسمائه وصفاته، ورسالة رسله، والبعث للجزاء مسطورة مثبتة في الفطرة".

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "مراتب العلمُ به سبحانه خمس مراتب:

١–العلم بذاته، ٢–وصفاته، ٣–وأفعاله، ٤–وأسمائه، ٥–وتنزيهه عما لا يليق به".[٣]

قال ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ): "فأفضل العلم العلم بالله وهو العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته والتبتل إليه

---

(١) (مفتاح دار السعادة) (١/ ٨٦).

(٢) (مفتاح دار السعادة) (١/ ٨٦).

(٣) مدارج السالكين ١/ ١٢٨.

والتوكل عليه والصبر والرضا عنه والاشتغال به دون خلقه.

وتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن جمع هذه العلوم فهو من العلماء الربانيين، العلماء بالله العلماء بأمره وهم أكمل ممن قصر علمه على العلم بالله دون العلم بأمره، وبالعكس".(١)

قال محمد بن يعقوب الفيروز أبادي-رحمه الله-(ت: ٨١٧ هـ): "فإن لكل علم حدا لا يتجاوزه، ولكل عالم ناموسا لا يخل به؛ فمن الوجوه المغلطة أن يظن في العلم فوق غايته؛ كما يظن بالطب أنه يبرئ جميع الأمراض؛ وليس كذلك، فإن كثيرًا من الأمراض لا يبرأ بالمعالجة.

ومنها أن يظن بالعلم فوق مرتبته في الشرف؛ كما يظن بالفقه أنه أشرف العلوم على الإطلاق؛ وليس كذلك؛ فإن التوحيد والعلم الإلهي أشرف منه قطعا".(٢)

قال الملا علي القاري-رحمه الله-(ت: ١٠١٤ هـ): "علم التوحيد أفضل العلوم وأكملها، وعالم هذا العلم. أفضل العلماء، وبهذا السبب خصهم الله بالذكر في أجل المراتب فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: الآية: ١٨]".(٣)

قال عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٦ هـ): "هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا

---

(١) شرح حديث أبي الدرداء لابن رجب (ص: ٤١).

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٤٥.

(٣) شرح الفقه الأكبر ص: ٣٨.

الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم". [(١)]

قال عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي -رحمه الله- (ت: ١٣٧٦ هـ) ، عند تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: الآية: ١٨]: "وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم". [(٢)]

قال عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي (ت: ١٣٧٦ هـ) -رحمه الله-: "علم العقائد وأصول التوحيد؛ هو أشرف العلوم على الإطلاق، وأفضلها وأكملها، وبه تستقيم القلوب على العقائد الصحيحة، وبه تزكو الأخلاق وتنمو، وبه تصح الأعمال وتكمل". [(٣)]

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- (ت: ١٣٧٦ هـ): "وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [النحل: الآية: ٢]. أي: على معرفة الله -تعالى- وتوحده، في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل بها كتبه، وأرسل بها رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها، وقام بضدها". [(٤)]

الأمر الرابع: معرفة أسماء الله وصفاته أصل عظيم في منهج السلف:

معرفة أسماء الله وصفاته هي الأساس الذي يَنبني عليه عمل العبد، ومن خلالها تتحدد العلاقة التي تربط العبد بربه، وعلى ضوئها يَعبد المسلم ربَّه، ويتقرب إليه.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ): "وأصلُ الإيمان: قولُ القلب الذي

---

(١) تفسير تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لابن سعدي، (تفسير سورة الذاريات الآية: ٥٦).

(٢) تفسير ابن سعدي (سورة آل عمران الآية: ١٨).

(٣) فتح الرحيم الملك العلام ص ٢١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٤٣٥.

هو التَّصديق. وعمل القلب الذي هو المحبة على سبيل الخضوع؛ إذ لا مُلائمة لأرواح العباد أتم من ملاءمة إلهها؛ الذي هو الله الذي لا إله إلا هو".

ولذلك كان منهج السلف يقوم على أمرين؛ هما:

١-العلم بالله.

٢-والعمل لله.

فجمعوا بذلك بين التصديق العِلمي والعَمل الحُبّي، وبذلك تميز منهج أهل السنة والجماعة (السلف) عن المناهج الأخرى.

وحققوا كِلا الأمرين؛ من القول التصديقي المعتمد على معرفة أسماء الله وصفاته وأفعاله الواردة في الكتاب والسنة. والعمل الإرادي، وذلك باتباع الأوامر واجتناب النواهي وفق ما شرعه الله في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولذلك كان كلامهم وعملهم باطنًا وظاهرًا بعلم، وكان كل واحد من قولهم وعملهم مقرونًا بالآخر، وهؤلاء هم المسلمون حقًّا؛ الذين سَلِموا من آفات منحرفة المتكلمة والمتصوفة.

فوقعت كل طائفة من هاتين الطائفتين المنحرفتين في مفسدتين:

إحداهما: القول بلا علم إن كان متكلمًا، والعمل بلا علم إن كان متصوفًا.

والمفسدة الثانية: فوت المتكلم العمل، وفوت المتصوف القول والكلام". [(١)]

وهو ما وقع من البدع الكلامية والعملية المخالفة للكتاب والسنة.

فالكلاميون: غالب نظرهم وقولهم في الثبوت والانتفاء، والوجود والعدم، والقضايا التصديقية؛ فغايتهم مجرد التصديق والعلم والخبر؛ فاعتنوا بجانب علمي لم يَنْبَنِ على الكتاب والسنة؛ لذلك عَطَّلوا أسماء الله-تعالى-، وعَطَّلوا صفاتِه عز وجل.

وعندما عَرَّفوا التوحيد؛ قالوا: "واحد في ذاته، وواحد في صفاته، وواحد في أفعاله". وأهملوا جانب توحيد العبادة: "واحد في ذاته" قالوا: "لا شريكَ له". و"واحد في صفاته": "لا نظير

---

(١) (مجموع الفتاوى) (٢/ ٤١) بتصرف.

له". و"واحد في أفعاله": "لا نِدَّ له". فهذا تقسيمهم للتوحيد.(١)

ويُلاحظ أنه قد خلا في هذه الثلاثة من الجانب العملي، فلا يوجد عمل، ثم إذا تحدثوا عن ذات الله تعالى تحدثوا بالتعطيل؛ فقالوا بما قالوا: "ليس في جهة، ولا في عُلو، ولا في مكان، ولا في حيز" ولا إلى غير ذلك؛ فجعلوه والعدم سواء، وإذا تحدثوا عن صفات الله تعالى تحدثوا عن سبع صفات فقط، وإذا تحدثوا عن أفعال الله تعالى هذا هو الذي سَلِم لهم: "توحيد الربوبية"؛ فلم يَسلم لهم إلا توحيد الربوبية، ونحن نعلم أن كفار قريش كانوا مُقِرِّين بتوحيد الربوبية: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: الآية: ٣٨]؛ فهذا حاصل توحيد هؤلاء.

وأمَّا الصُّوفيون: فغالب طلبهم وعملهم في المحبة والبغضة، والإرادة والكراهة، والحركات العملية؛ فاعتنوا بجانب العمل، وأهملوا جانب العلم، وكذلك عملهم لم ينبنِ على السنة، وإنَّما انبنى على البدعة؛ إذ غايتهم المحبة والانقياد والعمل والإرادة.

وهكذا إذا جئنا إلى أهل التصوف لم نجد عندهم من حقيقة التوحيد شيء.

أمَّا توحيدُ أهل السُّنَّة فيقوم على هذين الأصلين العظيمين: أن تَعرف اللهَ، وذاك بمعرفة أسمائه وصفاته التي وردت في الكتاب والسُّنَّة. وأن تعبد الله، وهذا باتِّباع شرع الله ۵ على لسان رسوله ﷺ.

فالسلف وأتباعهم جعلوا من توحيد الأسماء والصفات إحدى الرَّكيزتين التي قام عليها منهجهم المعتمد على نصوص الكتاب والسنة، وذلك لما لهذا التوحيد من أهمية ومنزلة، وهذا ما تشهد له كثرة النصوص الشرعية الواردة في هذا الشأن.

فلذلك لا بد لصاحب السُّنَّة أن يدرس هذا الباب، وأن يَبني هذه الدراسة على الكتاب والسنة؛ ليعرف الله عز وجل، فلن تكون من أصحاب السنة ولن تكون من أتباع السلف حتى

(١) انظر: (المِلل والنِّحَل) للشهرستاني (١/ ٤٢)، مؤسسة الحلبي.

تُعنى بهذا الباب، وطبعًا العلم بهذا الباب-كما ذكر العلماء مطلوب لذاته، ليس وسيلة للعمل كما يزعم البعض؛ فكلٌّ من العِلم بالله والعمل لله مطلوب لذاته؛ فقد يكون منه ما هو وسيلة، ومنه ما هو غاية؛ فيجب أن نعلم أنه لا بد من معرفة هذا الباب وتعلمه؛ باعتبار أنه أمر مطلوب لذاته، وإن كان لا يُكتفى به وحده، بل لا بد وأن يجتمع معه عبادة الله عز وجل، وإلا فإن العبد لا يكون مؤمنًا، وبهذا نعلم أن من أهمية هذا الباب أنه أصلٌ عظيمٌ في منهج أهل السنة والجماعة؛ فبالتالي لا بد من الاعتناء به، ولا بد من الاهتمام به، ولا بد من تعلُّمِه، وكذلك لوقوع الاختلاف والافتراق في هذا الباب بين الفِرَق والطوائف لا بد من مزيد جهد وعناية بفهمه وتوضيحه ودراسته وتعلمه وتطبيقه.

والله تعالى ليس له مَثيل حتى يُقاس عليه، وعقول البشر لا يمكن أن تستقلَّ بمعرفة الله تعالى استقلالًا؛ لأنها قاصرة عاجزة، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية: ٨٥]؛ فالله-تعالى-تَعَرَّف إليك! فضلًا منه ومِنَّة عليك عَرَّفك بأسمائه وصفاته، عَرَّفك بأنه العليم، وأنه السميع، وأنه البصير، وأنه القدير، وأنه الغفور، وأنه الرحيم، وأنه الجبَّار، وأنه المتكبر. إلى غير ذلك مِن أسماء الله-تعالى-وصفاتِه الواردة في الكتاب والسُّنَّة؛ فمِنَّةٌ عُظمى فتحها الله عليك! بالله عليك كيف تُغلقها على نفسِك؟! بل إن الله رَغَّبك في هذه المعرفة فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: الآية:١٨٠]، وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: الآية: ٢٤]، وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: الآية: ٨].. إلى غير ذلك من المواطن التي ذُكرت فيها أسماء الله عز وجل؛ إمَّا جملة وإما تفصيلًا.

فافتح بابَ معرفة الله تعالى! لا تُغلقه على نفسك! لا تحرم هذا القلب من أن يَعرف ربَّه، ويَعرف معبودَه!

قال الإمام الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "لا يدرك خيرٌ إلا بعونه. فإن مَن أدرك علم أحكام الله في كتابه نصاً واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه؛ فاز بالفضيلة في دينه

ودنياه، وانتفت عنه الريَب، ونُوِّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة".[١]

قال أبو الفرج ابن الجوزي–رحمه الله–(ت: ٥٩٧ هـ): "إبليس إنما يتمكن من الإنسان على قدر قلة العلم فكلما قل علم الإنسان كثر تمكن إبليس منه وكلما كثر العلم قل تمكنه منه" [٢].

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فإذا كان القلب مشغولاً بالله، عاقلاً للحق، متفكراً في العلم، فقد وُضِع في موضعه" [٣].

الأمر الخامس: العلم بأسماء الله وصفاته يَفتح للعبد باب معرفة الله:

إنَّ محبة الشيء فرع عن الشعور به، وأعرف الخلق بالله أشدهم حُبًّا له، فكل من عرف الله أحبه، والعلم يَفتح هذا الباب العظيم الذي هو سِرُّ الخَلق والأمر؛ [٤] فمن أعظم أصول الدين: المحبة، بل هي قاعدة العبادة، فكيف يكون حبٌّ في قلب العبد المؤمن وهو لم يعرف الله–تعالى–؛ فالله تعالى فتح لنا باب معرفته من هذا الطريق، فإن شأت فادخل وتعَرَّف على أسماء الله وصفاته وأفعاله، وإلا فإنك محروم مِن ضِمن مَن حُرم مِن هذا الخير العظيم؛ فطمأنينة القلب وحياته هي في هذا الأمر العظيم: في معرفة الله عز وجل، ولا سبيل للحصول على هذه المعرفة إلا من باب العلم بأسماء الله وصفاته، فلا تَستقر للعبد قَدَم في معرفة الله إلا بالتعرف على أسمائه وصفاته الواردة في القرآن والسنة؛ فالعلم بأسماء الله وصفاته يَفتح للعبد هذا البابَ العظيمَ، فالله عز وجل لم يجعل السبيل إلى معرفته من طريق الاطلاع على ذاته، فهذا الباب موصود إلى قيام الساعة، كما أخبرنا بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال: (تَعَلَّمُوا أنَّه لن يَرى أحدٌ مِنكم ربَّه عز وجل حتى يَموت". [٥]

---

(١) الرسالة ص١٩، وأحكام القرآن جمع البيهقي ١/ ٢١.

(٢) تلبيس إبليس ١/ ٣٣٤.

(٣) مجموع الفتاوى ٩/٣١٢.

(٤) (مفتاح دار السعادة) (١/ ٨٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٣١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وكذلك فإنَّ من المحال أن تَستقل العقول البشرية بمعرفة ذلك وإدراكه على وجه التفصيل، فهي عاجزة عن ذلك لكونه من المغيبات التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من طريق الوحي، والله-عز وجل-يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: الآية: ٥]، فهذه الآية: تُبين محدودية علم الإنسان.

وقد اقتضت رحمة العزيز الحكيم أن بَعث الرسل به مُعَرِّفين وإليه داعين، وجعل معرفته سبحانه بأسمائه وصفاته، أفعاله هي مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم، فأساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والأصل الأول فيها: معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله. ثم يتبع هذا الأصل أصلان عظيمان هما:

١-تعريف الناس الطريق الموصلة إلى الله، وهي: (شريعته المتضمنة لأمره ونهيه).

٢-تعريفهم مآلهم في الآخرة.

وهذان الأصلان تابعان للأصل الأول مَبنيان عليه، فأعرف الناس بالله أتبعهم للطريق الموصلة إليه، وأعرفهم بحال الناس عند القدوم عليه.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو؛ فتَخلو القلوب عن محبة ما سواه بِمَحَبَّته، وعن رجاء ما سواه برجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به".[١]

قال العز بن عبد السلام-رحمه الله-(ت: ٦٣٩ هـ): "التوحيد وصفات الإله؛ فإن معرفة ذلك من أفضل المقاصد والتوسل إليه من أفضل الوسائل".[٢]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فالعلوم بعضها أفضل من بعض فالعلم بالله أفضل من العلم بخلقه، ولهذا كانت آية الكرسي أفضل آية في القرآن؛ لأنها صفة الله تعالى. وكانت: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: الآية: ١]، تعدل ثلث القرآن؛ لأن القرآن " ثلاثة

(١) (مجموع الفتاوى) (١١/ ٥٢٣، ٥٢٤).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/ ١٢٤.

أثلاث ": ثلث توحيد، وثلث قصص، وثلث أمر ونهي. وثلث التوحيد أفضل من غيره".[١]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض أو جلس مجلسا يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهاً؛ فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله".[٢]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس".[٣]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "والإخلاص والتوحيد شجرة في القلب، فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ فثمرة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك".[٤]

قال الإمام ابن رجب-رحمه الله-(ت: ٧٩٥ هـ): "ومن الأنس بالله-عز وجل-، الأنس بكلامه وذكره، والأنس بالعلم النافع، الَّذِي بلغه رسوله ﷺ عنه".[٥]

الأمر السادس: أساس العلم الصحيح هو الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته:

على أساس العلم الصحيح بالله وبأسمائه وصفاته يقوم الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص، وتنبني مطالب الرسالة جميعها؛ فهذا التوحيد هو أساس الهداية والإيمان، وهو أصل الدين الذي يقوم عليه، ولذلك فإنه لا يتصور إيمان صحيح ممن لا يعرف ربه، فهذه المعرفة لازمة لانعقاد أصل الإيمان، وهي مهمة جدًّا للمؤمن لشدة حاجته إليها؛ لسلامة قلبه، وصلاح معتقده،

---

(١) مجموع الفتاوى ٩/ ٣٠٦.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٦١.

(٣) التفسير القيم ص: ٣٤١.

(٤) الفوائد ص١٦٤.

(٥) مجموع الرسائل ٣/٣٣٩.

واستقامة عمله، فهذه المعرفة لأسماء الله وصفاته وأفعاله تُوجب للعبد التمييز بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والإقرار والتعطيل، وتنزيه الرب عما لا يَليق به، ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام.

وذلك يتم بتدبر كلام الله تعالى، وما تعَرَّف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نَزَّه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه.

والجدير ذِكره أن معرفة الله نوعان:

النوع الأول: المعرفة الإجمالية:

وهي التي تَلزم العبد المؤمن؛ لينعقد بها أصلُ الإيمان، وهي تتحقق بالقدر الذي يميز العبد به بين ربه وبين سائر الآلهة الباطلة، ويتحقق بها الإيمان المجمل، وتجعله في سلامة من الكفر والشرك المخرجين من الإيمان، وتُخرجه من حدِّ الجهل بربه وما يجب له.

وهذه المعرفة يتحصل عليها من قراءة سورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرها من الآيات، ومعرفة معانيها.

ولكن هذه المعرفة لا تُوجب قوة الإيمان والرسوخ فيه.

النوع الثاني: المعرفة التفصيلية:

وهذه تكون بمعرفة الأدلة التفصيلية الواردة في هذا الباب، وتعلمها واعتقاد اتصاف الله بها، ومعرفة معانيها، والعمل بمقتضياتها وأحكامها.

وهذه المعرفة هي التي يحصل بها زيادة الإيمان ورسوخه، فكلما ازداد العبد علمًا بالله زاد إيمانه وخشيته ومحبته لربِّه وتَعلقه به؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية: ٢٨]، كما تجلب للعبد النور والبصيرة التي تُحَصِّنه من الشبهات المضللة والشهوات المحرمة.

"والعلم بالله يُراد به في الأصل نوعان:

أحدهما: العلم به نفسه، أي: بما هو متصف به مِن نُعوت الجلال والإكرام، وما دَلَّت عليه أسماؤه الحسنى.

وهذا العلم إذا رَسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فإنه لابد أن يعلم أن الله يُثيب

على طاعته، ويعاقب على معصيته.

والنوع الثاني: يُراد بالعلم بالله: العلم بالأحكام الشرعية من الأوامر والنواهي والحلال والحرام.

ولهذا قال بعض السلف: العلماء ثلاثة:

١-عالم بالله ليس عالما بأمر الله.

٢-عالم بأمر الله ليس عالما بالله.

٣-عالم بالله و بأمر الله.

فالعالم بالله: الذي يخشى الله. والعالم بأمر الله: الذي يعرف الحلال والحرام".[(١)]

قال أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني-رحمه الله-(ت: ٣٢٢ هـ): "العلم بالله أعلى وأولى من العبادة له".[(٢)]

قال ابن شاهين-رحمه الله-(ت: ٣٨٥ هـ): "فمن لزم الحق لم يضره قلة العمل، ومن لم يعرف الحق لم ينفعه كثرة العمل؛ لأن العمل بلا علم لا يضر ولا ينفع".[(٣)]

قال علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطال-رحمه الله-(ت: ٤٤٩ هـ): "تمام الإيمان وتمام العلم إنما هو المعرفة بالله ورسله، ومعرفة الدلالة على ذلك".[(٤)]

قال أبو عبد الله الحسن بن الحسين الحليمي-رحمه الله-(ت: ٤٠٤ هـ): "الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى وبيان صفاته، والدلالة على عظمته وقدسه أفضل أو خير، بمعنى أن يتعين أنها أسنى وأجل قدرا".[(٥)]

قال فخر الدين الرازي-رحمه الله-(ت: ٦٠٦ هـ): "الآيات المشتملة على دلائل علم الأصول

---

(١) (مجموع الفتاوى) (٣/ ٣٣٣) بتصرف يسير.

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٨.

(٣) كتاب شرح مذاهب أهل السنة ومعرفة شرائع الدين والتمسك بالسنن ص: ٣٥.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٣/ ٤٤-٤٥.

(٥) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٢/ ٢٤٤.

أشرف من الآيات المشتملة على دلائل علم الفروع، بدليل أنه قد جاء في فضيلة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية: ١]. و ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: الآية: ٢٨٥]، وآية الكرسي، و ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية: ١٨]، ما لم يجيء في فضيلة قوله–تعالى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: الآية: ٢٢٢]، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: الآية: ٢٧٥]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: الآية: ٢٨٢] الآية. ولذلك فإن الزهاد والعباد يواظبون في شرائف الأوقات على قراءة هذه الآيات المشتملة على الإلهيات، دون الآيات المشتملة على الأحكام.

والآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية، وأما اللواتي في بيان التوحيد والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين، وفي إثبات النبوات والمعاد، ومسألة القضاء والقدر فكثيرة." (١)

قال أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المالكي–رحمه الله–(ت: ٥٤٣ هـ): "القرآن توحيد وأحكام ووعظ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: الآية: ١]، فيها التوحيد كله. وبهذه المعاني وقع البيان في قوله – صلى الله عليه وسلم – لأبي بن كعب: (أي آية في القرآن أعظم؟) قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥]. قال: (ليهنك العلم يا أبا المنذر). (٢) وإنما كانت أعظم؟ لأنها توحيد كلها، كما صار قوله: (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله) الحديث. (٣) أفضل الذكر؛ لأنها كلمة حوت علوم جميع التوحيد، والفاتحة تضمنت التوحيد كله والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يستبعد ذلك في قدرة الله، فإن الله جمع التوحيد كله في آية الكرسي، ثم جمعه في أقل حروفا منها التوحيد، وهو: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٥٧٢) رواية يحيى، وأحمد: ٢/ ٢١٠، والترمذي (٣٥٨٥) من حديث عمرو بن شـــعيب، عن أبيه، عن جده. قال الترمذي: "هذا حديث غريب من هذا الوجه". وصححه من المعاصرين الألباني في سلسلته الصحيحة (١٥٠).

(٣) كتاب المسالك في شرح موطأ مالك لابن العربي المالكي ٢/ ٣٧٠.

الآية: ١]. ثم جمعه لرسوله في كلمات يوم عرفة المتقدمة. ثم جمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: الآية: ٣]. وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: الآية: ١١٥]" (١)

قال سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي (ت: ٧١٦)-رحمه الله-: "قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: الآية: ١٩] يحتج به على تقديم أصول الدين كالتوحيد على فروعه كالاستغفار وغيره؛ لتقديمه التوحيد ها هنا، ولأن رتبة الأصل قبل رتبة الفرع، وعلى أن المعتبر في الأصول العلم لا غيره". (٢)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ولهذا كانت سورة "الأنعام" أفضل من غيرها، وكذلك سورة "يس" ونحوها من السور التي فيها أصول الدين التي اتفق عليها الرسل كلهم صلوات الله عليهم. ولهذا كانت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية: ١]، مع قلة حروفها تعدل ثلث القرآن؛ لأن فيها التوحيد فعلم أن آيات التوحيد أفضل من غيرها﴾" (٣)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "كلمة التوحيد أفضل الكلام، وأعظمه فأعظم آية في القرآن آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥]. وقال-صلى الله عليه وسلم-: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة). (٤) . (٥)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "النبي-صلى الله عليه وسلم-، سأل أبيًا (أي آية

(١) عجائب القرآن ص ١٧-١٨.
(٢) كتاب الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية ص: ٥٨٤.
(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٩٠).
(٤) رواه أحمد (٢١٥٢٩) وأبو داود (٣١١٦) وحسنه الألباني في "إرواء الغليل" (٦٨٧) .
(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٠٠).

في كتاب الله أعظم؟) فأجابه أبيّ بأنها آية الكرسي، فضرب بيده في صدره وقال (ليهنك العلم)، ولم يستشكل أبيّ ولا غيره السؤال عن كون بعض القرآن أعظم من بعض، بل شهد النبي بالعلم لمن عرف فضل بعضه على بعض؛ وعرف أفضل الآيات".(١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨هـ): "والقرآن فيه من ذِكْر أسماء الله وصفاته وأفعاله أكثر مما فيه من ذِكر الأكل والشُّرب والنكاح في الجنة، والآياتُ المتضمنة لذكر أسماء الله وصفاته أعظمُ قدرًا من آيات المعاد؛ فأعظمُ آيةٍ في القرآن آيةُ الكرسي المتضمنة لذلك...، وأعظم سورةٍ سورةُ أمِّ القرآن..".(٢)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "من أَرَادَ علو بُنْيَانه فَعَلَيهِ بتوثيق أساسه وإحكامه وَشدَّة الاعتناء بِهِ، فَإِن علو الْبُنيان على قدر تَوْثِيق الأساس وإحكامه، فالأعمال والدرجات بُنيان وأساسها الْإِيمَان وَمَتى كَانَ الأساس وثيقا حمل الْبُنيان واعتلى عَلَيْهِ".(٣)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "العلم به-تعالى-أصل للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم".(٤)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "والإيمان به أصل الإيمان بما عداه".(٥)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها. وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى؛ ولهذا لا تجد فيها خللا ولا تفاوتا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر في العبد أو

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، (٣/٦١).

(٣) الفوائد ص ١٥٥.

(٤) بدائع الفوائد ١/ ٢٨٧.

(٥) الصواعق المرسلة ١/ ٣٦٥.

يفعله؛ إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض".(١)

قال ابن القيم -رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "من كمال رحمته أن يعرف عباده نفسه وصفاته، ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه، ويثيبهم على طاعته، ويجزيهم بالحسنى، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة، فكانت رحمته مقتضية لها".(٢)

قال برهان الدين البقاعي -رحمه الله- (ت: ٨٨٥هـ): "التوحيد هو الأساس الذي ينبني عليه كل خير، والمنتهى الذي هو غاية السير، والعالي على كل غير".(٣)

قال برهان الدين البقاعي -رحمه الله-(ت: ٨٨٥ هـ): "التوحيد هو الأمر الذي لا يقوم بناء إلا عليه".(٤)

قال أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى -رحمه الله-(ت: ٨٩٨ هـ): " قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: الآية: ٣٠]،

أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين التي هي منتهى العمل؛ وثم للدلالة على تراخي رتبة العمل وتوقف الاعتداد به على التوحيد".(٥)

قال أبو حيان الأندلسي -رحمه الله-(ت: ٧٤٥ هـ): "وقال تعالى وتقدس: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: الآية: ١٤]. فذكر العبادة عقيب التوحيد، لأن التوحيد هو الأصل، والعبادة فرعه".(٦)

---

(١) كتاب فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى لابن القيم ص: ٢٨-٢٩.

(٢) بدائع التفسير: ١/ ١٧١.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/ ٥٧.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/ ١٩٦.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (سورة الأحقاف: الآية: ١٣)، ٨/ ٨٢.

(٦) البحر المحيط في التفسير ١/ ٤٤.

قال برهان الدين البقاعي-رحمه الله-(ت: ٨٨٥هـ): "والتوحيد هو الأساس الذي لا تصح عبادة إلا به، وتحقيقه هو العلم الذي لا علم يعدله". (١)

قال عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٦ هـ): "فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم". (٢)

قال حافظ بن أحمد حكمي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٧ هـ): "وهي أصل الدين وأساسه ورأس أمره وساق شجرته وعمود فسطاطه, وبقية أركان الدين وفرائضه متفرعة عنها, ومتشعبة منها مكملات لها مقيدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها". (٣)

قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين-رحمه الله-(ت: ١٢٨٢ هـ): "أفرض العلوم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته؛ ومعرفة حقه على عباده الذي خلق الجن والإنس لأجله؛ وهو توحيد الألوهية". (٤)

قال عبد الرحمن بن قاسم-رحمه الله-(ت: ١٣٩٢ هـ): "التوحيد أوجب الواجبات، ومعرفته أفرض الفرائض". (٥)

الأمر السابع: العلم بأسماء الله وصفاته هو حياة القلوب:

يجب أن نعلم أنَّ معرفة الله تعالى هي حياة قلوبنا؛ فلا حياة للقلوب ولا نعيم ولا سرور ولا أمان ولا طمأنينة إلا بأن تَعرف ربها ومعبودها وفاطرها، ويكون أحب إليها مما سواه، ولا يمكن أن تنجو وأن تَسعد في الآخرة إلَّا بهذه المعرفة والمحبة.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/ ١٩٦.

(٢) تفسير تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لابن سعدي، (تفسير سورة الذاريات الآية: ٥٦).

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد لحافظ الحكمي. ص: ٢٢١.

(٤) الرد على البردة ص: ٣٧٥.

(٥) حاشية الأصول الثلاثة ص: ١٣٧.

والإنسان بدون الإيمان بالله لا يمكنه أن ينال معرفة ولا هداية، وبدون اهتدائه إلى ربِّه لا يكون إلا شقيًّا مُعذَّبًا كما هو حال الكافرين.

فالله–تبارك وتعالى–خلق هذا الإنسان وركَّبه من الجسد والروح، وشاء أن يكون قَوَام هذا الجسد من هذه الأرض؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: الآية: ٥]، وجعل حياة هذا الجسد من التراب؛ فهو يأكل ويشرب ويكتسي من الأرض وما فيها.

وجعل في هذا الجسد الروح؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: الآية:٢٩].

أمَّا أصل هذه الروح ومادتها فهذا لا علم لنا به: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية: ٨٥]؛ فأمرٌ استأثر الله تعالى به في علم الغيب عنده.

لكن الله عز وجل شاء أن يكون قِوام هذه الروح وحياتها في معرفة الله وعبادته؛ قال–عز وجل–: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: الآية: ٢٨]؛ فلا شيء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبَّة فاطره وبارئه، ودوام ذِكره، والسعي في مرضاته، لذلك فإنَّ مَن في قلبه أدنى حياة أو محبة لربه وإرادة لوجهه وشوق إلى لقائه، فطلبه لهذا الباب وحرصه على معرفته وازدياده من التَّبَصُّر فيه وسؤاله واستكشافه عنه هو أكبر مقاصده وأعظم مطالبه وأجل غاياته، فهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه، وله خُلق الخلق، ولأجله نزل الوحي، وأُرسلت الرسل، وقامت السموات والأرض، ووُجدت الجنة والنار، ولأجله شُرعت الشرائع، وأُسِّست الملة، ونُصبت القِبلة، وهو قطب رحى الخلق والأمر الذي مدارهما عليه.

وهو بحقٍّ أفضل ما اكتسبته القلوب، وحصَّلته النفوس، وأدركته العقول، وليست القلوب الصحيحة والنفوس المطمئنة إلى شيء من الأشياء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر، ولا فرحها

بشيء أعظم من فرحها بالظفر بمعرفة الحق فيه.[١]

قال الحافظ عبيد الله بن أبي جعفر-رحمه الله-(ت: ١٣٤ هـ): "ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله".[٢]

قال محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي-رحمه الله-(ت: ٣٢٠ هـ): "فمن نور الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بنور اليقين، فاستقام به قلبه، واطمأنت به نفسه، وسكنت ووثقت وأيقنت، وأتمنته على نفسها، فرضيت لها به وكيلا، وتركت التدبير عليه".[٣]

سئل محمد بن عبد الله الفرغاني-رحمه الله-(ت: ٣٦٢ هـ) عن الافتقار إلى الله تعالى والاستغناء به أيهما أكمل؟ فقال: "إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الاستغناء به، واذا صح الاستغناء به صح الافتقار إليه، فلا يقال أيهما أكمل لأنه لا يتم أحدهما إلا بالآخر".[٤]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الجمال الذي للخُلُق، من العلم والإيمان والتقوى أعظم من الجمال الذي للخَلْق، وهو الصورة الظاهرة".[٥]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وما أحسن ما قال أبو الفرج ابن الجوزي-رحمه الله-(ت: ٥٩٧ هـ)، في بعض وعظه: "قبيح بالعبد أن يقول بلسانه الله أكبر وقد امتلأ قلبه بغير الله".[٦]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الشوق إلى الله ولقائه نسيمٌ يهب على القلب؛

---

(١) انظر: (الفتوى الحموية الكبرى) (ص٢٨، ٢٩).

(٢) سير أعلام النبلاء، (٦/٩).

(٣) كتاب آداب النفس للحكيم الترمذي ص: ١٦.

(٤) طريق الهجرتين ١/ ٩٧.

(٥) الاستقامة، لابن تيمية ١ /٤٤١.

(٦) بدائع الفوائد ٢ / ٦٩٦.

يروح عنه وهج الدنيا".[(١)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): عند تفسير قوله-تعالى-: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: الآية: ١١]، "جمع لهم بين النضرة والسرور وهذا جمال ظواهرهم وهذا حال بواطنهم كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام وبواطنهم بحقائق الإيمان".[(٢)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فالغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بني آدم وسعادتهم ونجاحهم هي معرفة الله ومحبته وعبادته وحده لا شريك له وهي حقيقة قول العبد لا اله إلا الله وبها بعث الرسل ونزلت جميع الكتب ولا تصلح النفس ولا تزكو ولا تكمل إلا بذلك".[(٣)].

وإذا تأملت أعمال القلوب وجدت-مثلًا-أن كل حبٍّ هو تَبَعٌ لحبِّ الله عز وجل؛ وكذلك الخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والإخلاص، والرغبة، والرهبة.. إلى غير ذلك.

فلا يمكن أن تتحرك أعمال القلوب في القلب ولا أن تقوم بواجبها ما لم تكن على معرفة بالله عز وجل!

إذًا، كيف تتحقق في القلب أعمال القلوب؟

فمثلًا إذا علمت أن الله هو الخالق، وهو الرازق، وهو المحيي، وهو المميت، وهو النَّافع، وهو الضَّار، وهو القابض، وهو الباسط. إذا علمت هذا أَثْمَرَ في قلبك توكلًا على الله عز وجل. هذه المعرفة تُوَلِّدُ التوكل. ممن تخاف ومَن ترجو والرزق بيد الواحد الأحد عز وجل؟! يرزق من يشاء بغير حساب. وكيف ترجو ما في يد الناس؟ أو حتى كيف تحسد فلانًا من الناس: أن أعطاه الله تعالى من فضله؛ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٩٨.

(٢) حادي الأرواح ص: ١٨٥.

(٣) مفتاح دار السعادة ٢/ ١٢٠.

الآية:٢٦]؛ فالخير بيد الله-عز وجل-، والله يختص برحمته مَن يشاء؛ فكيف لقلبٍ أن يحسد لو كان على إيمان؟! ويحسد مَن؟! كأنما يعترض على حكم الله عز وجل: أن أعطى فلانًا ومنع فلانًا!

فصلاح قلوبنا وحمايتها من تلك الأمراض التي تضرها، وتفسد على الإنسان حياته مِن غِلٍّ وحسد وحقد وغِيبة ونميمة. إلى غير ذلك من أمراض-سببها هو: أن الإنسان ما عرف الله تعالى حقَّ المعرفة، ومثلًا الله-عز وجل-أخبرك بأنه عليم، وأنَّه سميع، وأنه بصير؛ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ومُطَّلِع على عملك وعلى فعلك؛ أفَلَا يحملُك هذا على الحياء منه؟!

فيجب أن يحمل هذا العبدَ على خوف الله-تعالى-، على مراقبته، على خشيته؛ فلو أن النفوس استحضرت هذه المعاني لَمَا أَقْدَمَت على فِعل معصية، ولذلك يقول النبي ﷺ: (لا يَزني الزَّاني حين يَزني وهو مؤمن، ولا يَشرب الخمرَ حين يَشرب وهو مُؤمنٌ، ولا يَسرق السارق حين يَسرق وهو مؤمن...)، الحديث.[١] لأنه لو قام الإيمان كما يجب-وكما ينبغي-في نفسِه في تلك اللحظات لَمَا أقدم على فَعلته.

أنت لو لَمَحت أحدًا من الناس وأنت على معصية لربما استحييت منه، ولربما خِفت أن يُفشي سِرَّك! فكيف وأنت أمام عالم الغيب والشَّهادة، المطَّلِع على جميع أحوالك وعلى جميع أمورك وعلى جميع سكناتك وعلى جميع حركاتك؛ ألا تستحي مِن الله عز وجل؟! وكما يذكرون أنَّ رجلًا لقي أعرابية فأرادها على نفسها فأَبَت وقالت: أي ثكلتك أمك، أَمَا لك زاجر من كرم؟ أما لك ناهٍ مِن دين؟ قال: قلت: واللهِ إنَّه لا يَرانا إلا الكواكب، قالت: ها بأبي أنت، وأين مُكوكبها".[٢] فأراد أن يُطمأنها أنَّه لا يراهم أحد إلا هذه الكواكب! فقالت له: "وأين مُكوكبُها؟!"؛ فذكَّرَته بالله-عز وجل-في تلك اللحظة؛ فقام عنها، وكان ذلك سببًا في هدايته.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٦٥) عن العتبي.

فنحن لو استحضرنا معاني أسماء الله وصفاته لكان هذا سببًا في حياة قلوبنا، ولكنَّ قلوبَنا مُلئت بالغفلة عن الله عز وجل والإعراض عن معرفة أسمائه وصفاته؛ فأصابها ما أصابها من أمراض أثقلت كواهلنا، وأفسدت علينا أمر ديننا، وأفسدت علينا أمر دنيانا، بل إن الواحد منا يقف في الصلاة ويسمع آيات الله سبحانه تُتلى عليه، ومع ذلك قلبه قاسٍ، وأصبح قلبًا متحجرًا مهما ذُكِّر بآية عذاب أو وعيد لا يهتز لها، ولا يتحرك لها شعور في قلبه من ذِكر شيء من آيات الله عز وجل؛ فأصابنا ما أصابنا من أمراض في قلوبنا وفي نفوسنا بسبب أننا غفلنا عن معرفة الله-عز وجل-.

فليتنا نعودُ إلى أسماء الله وصفاته! ليتنا نتدبر ما جاء فيها من معانٍ، وما تُثمره من ثمرات! أنت إذا أثمرت هذه المعرفة في قلبك التوكل حصلت عِزَّة للمؤمن، وحصلت طمأنينة للنفس، وكذلك إذا حصل حياء وإذا حصل خوف وإذا حصلت خشية-منعك هذا مِن أن تقترف معصية؛ لا في السر ولا في العلن. إذا حصلت هذه المعرفة قامت بك محبةٌ لله تعالى وتعظيم وإجلال.

هذه المعرفة وهذه المحبة وهذا التعظيم وهذا الإجلال يحملك على أن تُراقب الله-عز وجل- في جميع أحوالك، وأن يكون اللهُ تعالى أحبَّ إليك مِن كل شيء وأعظم وأكبر وأجَل من كل شيء، لكن للأسف حَرمنا قلوبنا من ذلك، فلربما استحقت وعيدَ الله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: الآية: ٢٢]؛ فقست القلوب، والقلوب تقسو، بل وتمرض وتموت، والله تعالى قد قال: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: الآية: ١٤]؛ فالران: هو الصدأ؛ يعلو على هذه القلوب حتى تصبح هذه القلوب صَدِأَة، هذه القلوب قاسية مُبتعدة عن ذكر الله عز وجل.

فأين النفس المطمئنة التي ستنادى كما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي *﴾ [الفجر: الآيات: ٢٧-٢٨]

فمعرفةُ الله-عز وجل-حياةٌ لقلوبنا، وستثمر لنا من أنواع الإيمان وأنواع العمل ما يكون-

بإذن الله تعالى -سببًا في صلاحنا وصلاح أحوالنا وصلاح مَعاشنا وصلاح معادنا؛ لو أننا عرفنا ذلك وعملنا به!

قال ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ): "وأحق الناس برحمته: هم أهل التوحيد والإخلاص له، فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص "لا إله إلا الله" علما وعقيدة وعملا وبراءة وموالاة ومعاداة: كان أحق بالرحمة".(١)

قال ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ): "ومن أعظم البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب".(٢)

قال ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ):"فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه ولا يرجون أحدا سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم التوكل عليه والإنابة إليه".(٣)

قال ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ): "وأما التوحيد أن يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، فلا يحب شيئا مثل ما يحب الله، ولا يخافه كما يخاف الله، ولا يرجوه كما يرجوه، ولا يجله ويكرمه مثل ما يجل الله ويكرمه".(٤)

الأمر الثامن: ثمرة معرفة أسماء الله وصفاته:

مما يدلل ويؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تُثمره معرفة أسماء الله وصفاته في قلب المؤمن من زيادة في الإيمان ورسوخ في اليقين، وما تَجلبه له من النور والبصيرة التي تحصنه من الشبهات المضللة والشهوات المحرمة.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤/ ٤١٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٨٧.

(٣) مجموع الفتاوى ٥/ ١٩٣.

(٤) جامع المسائل ٢/ ٢٧٩.

فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشيةَ الله لا محالة؛ فلكلِّ اسم من أسماء الله تأثير معين في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك-تجاوب مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه.

ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها؛ فالأسماء الحسنى والصفات العُلى مقتضية لآثارها من العبودية، وهذا مُطَّرِد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح؛ فمثلًا: علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يُثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنَّه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يُرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه؛ فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبِرِّه وإحسانه ورحمته تُوجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه. وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعِزِّه تُثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العُلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية.

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها". (١)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه.

ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه". (٢)

---

(١) (مفتاح دار السعادة) (٢/ ٩٠).

(٢) منهاج السنة النبوية ٥/ ٤٣٠.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، ....مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب؛ ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه، وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه فى ذلك أبدا. قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية: ٦٥]".[١]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "من وطَّن قلبه عند ربه سكن واستراح، ومن أرسله في الناس اضطرب، واشتد به القلق".[٢]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقهَا بهَا. فالقلوب آنية الله فِي أرضه فأحبها إِلَيه أرقها وأصلبها وأصفاها".[٣]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فما كبر النفوس وشرفها، ورفعها، وأعزها مثل طاعة الله، وما صغر النفوس وأذلها، وحقرها مثل معصية الله-عز وجل-".[٤]

قال ابن مسعود-ضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ): "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا".[٥]

قال ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): عند تعليقه على هذا الأثر: "المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن العقوبة بسببها وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيء، قوله" "وإن الفاجر يرى ذنوبه

---

(١) قاعدة جامعة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة ص: ٣٦-٣٧.

(٢) الفوائد لابن القيم ص: ٩٨.

(٣) الفوائد، ١/ ٢٦٢.

(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص: ١٤٩.

(٥) فتح الباري لابن حجر ١١/ ١٠٥.

كذباب" في رواية أبي الربيع الزهراني عن أبي شهاب عند الإسماعيلي "يرى ذنوبه كأنها ذباب مر على أنفه" أي ذنبه سهل عنده لا يعتقد أنه يحصل له بسببه كبير ضرر كما أن ضرر الذباب عنده سهل وكذا دفعه عنه، والذباب بضم المعجمة وموحدتين الأولى خفيفة بينهما ألف جمع ذبابة وهي الطير المعروف قوله: "فقال به هكذا" أي نحاه بيده أو دفعه هو من إطلاق القول على الفعل قالوا وهو أبلغ قوله قال أبو شهاب هو موصول بالسند المذكور قوله: "بيده على أنفه" هو تفسير منه لقوله: "فقال به" قال المحب الطبري–رحمه الله–(ت: ٦٩٤ هـ): إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته لأنه على يقين من الذنب وليس على يقين من المغفرة، والفاجر قليل المعرفة بالله فلذلك قل خوفه واستهان بالمعصية وقال ابن أبي جمرة السبب في ذلك أن قلب الفاجر مظلم فوقوع الذنب خفيف عنده ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وعظ يقول هذا سهل قال ويستفاد من الحديث أن قلة خوف المؤمن ذنوبه وخفته عليه يدل على فجوره".[١]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "من خاف من الله خاف منه كل شيء، ومن خاف من غير الله خاف من كل شيء"[٢]

وبهذا يتبين أنَّ معرفة العبد لأسماء الله وصفاته على الوجه الذي أخبر الله عز وجل به في كتابه وسنة رسوله–صلى الله عليه وسلم–تُوجب على العبد القيام بعبودية الله على الوجه الأكمل، فكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان الحب والإخلاص والتعبد أقوى، وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر؛ إذ كل اسم من أسمائه–عز وجل–له تَعَبُّد مُختص به؛ علمًا ومعرفة وحالًا.

(علمًا ومعرفة): أي: إنَّ مَن عَلِم أنَّ الله مسمى بهذا الاسم، وعرف ما يتضمنه من الصفة، ثم اعتقد ذلك–فهذه عبادة.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص: ١٤٩.

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/ ٢٧٤.

و(حالًا) أي: إن لكل اسم من أسماء الله مدلولًا خاصًّا وتأثيرًا معينًا في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك-تجاوب مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه.

وهذه الطريقة مُشتقة من قلب القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية: ١٨٠].

والدعاء بها يتناول: دعاء المسألة. ودعاء الثناء. ودعاء التعبد.

وهو-سبحانه-يدعو عباده إلى أن يَعرفوه بأسمائه وصفاته، ويُثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظِّهم من عبوديتها.[١]

قال الفضيل بن عياض-رحمه الله-(ت: ١٨٧ هـ): "أحق الناس بالرضا عن الله، أهل المعرفة بالله".[٢]

قال الحكيم الترمذي-رحمه الله-(ت: ٣٢٠ هـ): "إذا استقر في قلب المؤمن توحيد رب كريم ودود ظهر له وداده وكرمه وبره فقد وجد حلاوة التوحيد ونزاهته؛ فإذا جاءت شهوات النفس سبيلا إلى القلب فخالطته وكدرته ومازجت حلاوته فدنست وكدرت فأي خسران أعظم من هذا".[٣]

قال علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطال-رحمه الله-(ت: ٤٤٩ هـ): "وقد سئل بعض الصالحين عن المحبة ما هي؟

فقال: مواطأة القلب لمراد الرب، أن توافق الله-عز وجل-، فتحب ما أحب وتكره ما كره".[٤]

---

(١) (مدارج السالكين) (١/ ٤٢٠).

(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٠٤.

(٣) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ٣/ ٥١.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١/ ٦٧.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه؛ إلا الله-سبحانه-؛ ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة أكل الطعام المسموم".[(١)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "ومن أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال وهي معرفة خواص الخلق وكلهم عرفه بصفة من صفاته وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته".[(٢)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "المحب الصادق: إن نطق نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله، فهو لله وبالله ومع الله".[(٣)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "إذا كان العبد ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله".[(٤)]

قال ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ)-رحمه الله-: "فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد يقتضي تعظيم حرماته وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حق قدره".[(٥)]

قال عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٦ هـ): عند تفسير قوله تعالى: ﴿واللَّه يَرزُق من يَشَاء بغَير حِسَاب﴾ [النور: الآية: ٣٨]، "فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٢٣.

(٢) الفوائد ١٨١.

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٤٥٣.

(٤) الجواب الكافي ص ٢١٣.

(٥) الجواب الكافي، لابن القيم، ص ١٣٤.

إلا من يحب". [١]

الأمر التاسع: ومن ثمرات هذا العلم حسن الأدب مع الله:

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "لا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علمًا وعملًا وحالًا". [٢]

قال الخطابي–رحمه الله–(ت: ٣٨٨ هـ): "وقد روينا عن عون بن عبد الله، أنه كان يقول: "ليعظم أحدكم ربه، أن يذكر اسمه في كل شيء، حتى يقول: أخزى الله الكلب، وفعل الله به كذا". وكان بعض من أدركناه من مشايخنا قل ما يذكر اسم الله–جل وعز–إلا فيما يتصل بطاعة، أو قربة، وكان يقول للرجل إذا جزاه خيرا: جزيت خيرا، وقل ما يقول: جزاك الله خيرا، إعظاما للاسم أن يمتهن في غير قربة، أو عبادة". [٣]

الأمر العاشر: أسماء الله وصفاته تورث محبة الله عز وجل.

قال ابن تيمية–رحمه الله–: (ت: ٧٢٨ هـ): "كلما قويت محبة العبد لمولاه صغرت عنده المحبوبات وقلت، وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت. وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئا سواه قال الله–تعالى–: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: الآية: ٣٩]، وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف". [٤]

الأمر الحادي عشر: أسماء الله وصفاته هي مادة ذكر الله–عز وجل–.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٩٥.

(٢) (مدارج السالكين) (٢/ ٣٦٥).

(٣) شأن الدعاء ص: ١٨–١٩.

(٤) مجموع الفتاوى ١/ ٩٤.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) في بيان فضل ذكر الله تعالى: "...وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض؛ فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد.

لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائما هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة: (سبق المفردون قالوا يا رسول الله ومن المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) [(١)] وعن أبي الدرداء-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: ذكر الله). [(٢)]

والدلائل القرآنية والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة، وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين-صلى الله عليه وسلم-، كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع وعند الاستيقاظ من المنام وأدبار الصلوات والأذكار المقيدة مثل ما يقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك وعند المطر والرعد إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة.

ثم ملازمة الذكر مطلقا، وأفضله لا إله إلا الله. وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: (سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) أفضل منه.

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله، ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسا يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقها فهذا أيضا من

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧) واللفظ له، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (٦/ ٤٤٧). وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٢٢٠٩) إسناده صحيح

أفضل ذكر الله، وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف".[١]

قال ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ) -رحمه الله-: "إن التوسل إليه سبحانه بأسمائه وصفاته أحب إليه، وأنفع للعبد من التوسل إليه بمخلوقاته، وكذلك سائر الأحاديث، كما في حديث الاسم الأعظم: (اللهم إني أسألك بأن: الحمد لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي ياقيوم).[٢]

وفي الحديث الآخر: (أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد).[٣]

وفي الحديث الآخر: (اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق).[٤]

وكلها أحاديث صحاح رواها ابن حبان والإمام أحمد والحاكم. وهذا تحقيق لقوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية: ١٨٠]".[٥]

الأمر الثاني عشـــر: معرفة الله تنتج للعبـد فقراً هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته.

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الفقر فقران:

فقر اضطراري، وهو فقر عام لاخروج لبرّ ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضى مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٠-٦٦١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٩٩٠)، والترمذي (٣٥٤٤) وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه (٣٨٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢٠، ١٠٨، ٢٦٥، ٢٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٩٣)، والترمذي (٣٤٧٣)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه (٣٨٠٧)، وأحمد (٥/ ٣٤٩، ٣٦٠).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والحاكم (١/ ٥٢٤)، وابن حبان (٣/ ٢١٣).

(٥) أسماء الله الحسنى : (٥٠).

والفقر الثاني فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفين:

أَحدهما : معرفة العبد بربه ، والثاني : معرفته بنفسه .

فمتى حصلت له هاتان المعرفتان، أَنتجتا له فقراً هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته".[١]

الأمر الثالث عشـــر: ضـــرورة تجنُّب الباطل، وعدم مخالفة طريق الحق في هذا الباب.

قد وقع الخلاف في هذا الباب، وكَثُر كلام أهل الباطل فيه؛ لما عرفوا من أهميته، فبالتالي ازداد تسلطهم عليه، وأرادوا أن يَحجبوا الناس عن معرفة الله-تعالى-؛ لأنهم بهذا سيوصدون الباب، وإذا أُوصد الباب لم يمكن الدخول! فَكَثُرُ الخلاف والافتراق، فكان لا بد مِن مَعرفة تَنبني على الكتاب والسنة، وكان لا بد من فهم للحقِّ حتى يُتَّبع، ولا بد من معرفة للباطل حتى يُجتنب.

فباب الأسماء والصفات من أكثر الأبواب خطورة ومَزلة؛ من جهة كونه محل خلافات شديدة ومعقدة دارت رحاها بين علماء السلف من جهة والفلاسفة وأهل الكلام والمشبهة من جهة أخرى.

فمن واجب طالب العلم: أن يَتعمق في فهم الحق المبني على الكتاب والسنة؛ قال-تعالى-: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: الآية: ٥٩]، فالرد إلى الله يكون بالرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد وفاته يكون بالرد إلى سنته صلى الله عليه وسلم، وقد قال-تعالى-: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية: ١٤٠]، فالله أعلم بنفسه، وهو الذي أخبر بأسمائه وصفاته في كتابه وعلى لسان رسوله-صلى الله عليه وسلم-، وكذلك فإن النبي-صلى الله عليه وسلم-أعلم الناس بربّه وأصدقهم خبرًا، وقد قال الله في حقه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: الآيات: ٣-٤].

فمن الواجب على المسلم: أن يدرس هذا الباب وأن يتعمق في فهمه وفق ما ورد في الكتاب والسنة، وأن يحذر من التيارات الفلسفية التي أضَرَّت أصحابها، وأدخلتهم في دوامة الانحراف

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٩).

والضياع، فحالت بين قلوبهم وبين معرفة ربهم، فأصبحت قلوبهم مظلمة جاهلة بحقائق الإيمان، فترتب على ذلك إعراضهم عن الله وعن ذكره ومحبته والثناء عليه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فانصرفت قُوى حُبِّهم وشوقهم وأنسهم إلى سواه.

ومعلوم: أنه لا يستقر للعبد قَدَمٌ في المعرفة-بل ولا في الإيمان-حتى يؤمن بأسماء وصفات الربِّ جل جلاله، ويَعرفها معرفة تُخرجه عن حدِّ الجهل بربه، فالإيمان بالأسماء والصفات وتَعَرُّفها هو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإحسان؛ فمَن جَحدها فقد هدم أساس الإسلام والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان.

فينبغي للمؤمن أن يَبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وأن تكون معرفته سالمة من داء التعطيل وداء التمثيل اللذين ابتُلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فالمعرفة الصحيحة هي المتلقاة من الكتاب والسنة، وما رُوي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه هي المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة أحواله.

مجمل معتقد أهل السنة في أسماء الله وصفاته.

معتقد أهل السنة في أسماء الله وصفاته هو: أنهم يؤمنون بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة إثباتًا ونفيًا، فهم بذلك:

١-يسمون الله بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله-صلى الله عليه وسلم-، لا يزيدون على ذلك ولا ينقصون منه.

٢-ويثبتون لله عز وجل ويصفونه بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله-صلى الله عليه وسلم-، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

٣-وينفون عن الله ما نفاه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله محمد-صلى الله عليه وسلم-، مع اعتقاد أن الله موصوف بكمال ضد ذلك الأمر المنفي.

فأهل السنة سلكوا في هذا الباب منهج القرآن والسنة الصحيحة فكل اسم أو صفة لله

سبحانه وردت في الكتاب والسنة الصحيحة فهي من قبيل الإثبات فيجب بذلك إثباتها.

وأما النفي فهو أن ينفى عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص، مع وجوب اعتقاد ثبوت كمال ضد ذلك المنفي.

قال الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "لا يوصف الله تعالى بأكثر مما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله بلا حد ولا غاية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]. ولا يبلغ الواصفون صفته، وصفاته منه، ولا نتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه كما وصف نفسه، ولا نتعدى ذلك، نؤمن بالقرآن كله؛ محكمه ومتشابهه".(١)

وقال عبد الرحمن بن القاسم-رحمه الله-(ت: ١٩١ هـ): "لا ينبغي لأحد أن يصف الله إلا بما وصف به نفسه في القرآن، ولا يشبه يديه بشيء، ولا وجهه بشيء، ولكن يقول: له يدان كما وصف نفسه في القرآن، وله وجه كما وصف نفسه، يقف عند ما وصف به نفسه في الكتاب؛ فإنه-تبارك وتعالى-لا مثل له ولا شبيه، ولكن هو الله لا إله إلا الله كما وصف نفسه، ويداه مبسوطتان كما وصفها: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: الآية: ٦٧] ، كما وصف نفسه".(٢)

وقال ابن خزيمة-رحمه الله-(ت: ٣١١ هـ): "إن الأخبار في صفات الله موافقة لكتاب الله تعالى، نقلها الخلف عن السلف قرنا بعد قرن من لدن الصحابة والتابعين إلى عصرنا هذا، على سبيل الصفات لله تعالى، والمعرفة والإيمان به، والتسليم لما أخبر الله-تعالى-في تنزيله، ونبيه الرسول-صلى الله عليه وسلم-عن كتابه، مع اجتناب التأويل والجحود، وترك التمثيل والتكييف".(٣)

وقال الكلاباذي-رحمه الله-(ت: ٣٨٤ هـ): "أجمعوا على أن لله صفات على الحقيقة هو

---

(١) يُنظر: (ذم التأويل) لابن قدامة (ص: ٢٢).

(٢) ينظر: (أصول السنة) لابن أبي زمنين (ص: ٧٥).

(٣) ينظر: (ذم التأويل) لابن قدامة (ص: ١٨).

بها موصوف؛ من العلم، والقدرة، والقوة، والعز، والحلم، والحكمة، والكبرياء، والجبروت، والقدم، والحياة، والإرادة، والمشيئة، والكلام... وأن له سمعا وبصرا ووجها ويدا على الحقيقة، ليس كالأسماع والأبصار والأيدي والوجوه".(١)

وقال ابن عبد البر-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ): "أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج، فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله، وهم أئمة الجماعة، والحمد لله".(٢)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عنه ما أثبته لنفسه من الصفات، ولا يمثلون صفاته بصفات المخلوقين؛ فالنافي معطل، والمعطل يعبد عدما، والمشبه ممثل، والممثل يعبد صنما، ومذهب السلف إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، وهذا رد على الممثلة. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، رد على المعطلة).(٣)

وقال أيضًا-رحمه الله-: "جماع القول في إثبات الصفات هو القول بما كان عليه سلف الأمة وأئمتها، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، ويصان ذلك عن التحريف والتمثيل، والتكييف والتعطيل؛ فإن الله ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. فمن نفى صفاته كان معطلا، ومن مثل صفاته بصفات مخلوقاته كان ممثلا،

---

(١) ينظر: (التعرف لمذهب أهل التصوف) (ص: ٣٥).

(٢) ينظر: (التمهيد) (٧/ ١٤٥).

(٣) ينظر: (مجموع الفتاوى) (٨/ ٤٣٢).

والواجب إثبات الصفات، ونفي مماثلتها لصفات المخلوقات؛ إثباتا بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، فهذا رد على الممثلة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، رد على المعطلة، فالممثل يعبد صنما، والمعطل يعبد عدما".[١]

فقولهم في الصفات مبني على أصلين:

أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص مطلقًا كالسنة والنوم والعجز والجهل وغير ذلك.

والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات".[٢]

ومن النصوص التي توضح ذلك ما يلي:

أ-قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١].

ففي مقام النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وفي مقام ا لإثبات: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ب-قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: الآية: ٥٨].

ففي مقام الإثبات: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ﴾.

وفي مقام النفي: ﴿الَّذِي لا يَمُوتُ﴾.

ج-قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥].

ففي مقام الإثبات: ﴿اللَّهُ﴾، و ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

وفي مقام النفي: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، و﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾.

---

(١) ينظر: (مجموع الفتاوى) (٦/ ٥١٥).

(٢) منهاج السنة (٢/٥٢٣).

وأما من السنة، ففي مقام الإثبات قوله–صلى الله عليه وسلم–: (ينزل ربنا–عز وجل–حين يبقى ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا). متفق عليه.[(١)]

وقوله–صلى الله عليه وسلم–: (لما قضى الله عز وجل الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي غلبت غضبي). متفق عليه.[(٢)]

وفي مقام النفي قوله–صلى الله عليه وسلم–: (أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً).[(٣)]

وقوله–صلى الله عليه وسلم–: (إن الله تعالى ليس بأعور).[(٤)]

وقوله–صلى الله عليه وسلم–: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام).[(٥)]

المسألة الثانية: بيان مجمل الأسس التي قام عليها معتقد أهل السنة في باب أسماء الله وصفاته.

ارتكز معتقد أهل السنة في باب أسماء الله وصفاته على ثلاثة أسس رئيسية، هي:[(٦)]

الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتًا ونفيًا.

الأساس الثاني: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين.

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بتلك الصفات.

وهذه الأسس الثلاثة هي التي تفضل وتميز عقيدة أهل السنة في هذا الباب عن عقيدة أهل

(١) البخاري (٣/٢٢٩)، ومسلم (١/٥٢١ ح ١٦٨).

(٢) البخاري (٦/٢٨٧، ح ١٩٤)، ومسلم (٤/٢١٠٧ ح ١٤).

(٣) البخاري (١٣/٣٧٢ ح ٧٣٨٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (١٣/٩٠)، ومسلم (١٨/٥٩).

(٥) مسلم في صحيحه (١/١١١).

(٦) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص: ٢٥

التعطيل (من الفلاسفة وأهل الكلام) من جهة.

وعن عقيدة أهل التمثيل (من الكرامية والهشامية وغيرهم) من جهة أخرى.

فالأساس الأول: فيه تمييز لعقيدة أهل، السنة عن عقيدة المعطلة، فأهل السنة يجعلون الأصل في إثبات الأسماء والصفات أو نفيها عن الله تعالى هو كتاب الله وسنة نبيه-صلى الله عليه وسلم-، ولا يتجاوزونها، فما ورد إثباته من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة فيجب إثباته، وما ورد نفيه فيهما فيجب نفيه.

"وأما ما لم يرد إثباته ونفيه فلا يصح استعماله في باب الأسماء وباب الصفات إطلاقًا، وأما في باب الأخبار فمن السلف من يمنع ذلك، ومنهم من يجيزه بشرط أن يستفصل عن مراد المتكلم فيه، فإن أراد به حقًّا يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أراد به معنى لا يليق بالله عز وجل وجب رده".(١)

ومجمل القول إن في الأمر ثلاثة أبواب:

١-باب الأسماء: وهذا يجب الاعتماد فيه على الكتاب والسنة فقط.

٢-باب الصفات: وهذا كذلك يجب الاعتماد فيه على الكتاب والسنة فقط.

٣-باب الأخبار: وهذا لا يشترط فيه ورود النص الشرعي، ولكن يشترط أن يكون معنى اللفظ المستعمل ليس بسيء.

أما أهل التعطيل: فقد جعلوا "العقل" وحده هو أصل علمهم، فالشبه العقلية هي الأصول الكلية الأولية عندهم، وهي التي تثبت وتنفي، ثم يعرضون الكتاب والسنة على تلك الشبه العقلية، فإن وافقتها قبلت اعتضادًا لا اعتمادًا، وإن عارضتها ردت تلك النصوص الشرعية وطرحت، وفي هذا يقول قائلهم: "كل ما ورد السمع به ينظر فإن كان العقل مجوزا له وجب التصديق به.

وأما ما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل

(١) رسالة في العقل والروح ٢/ ٤٦-٤٧ لابن تيمية (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية)

السمع على قاطع مخالف للمعقول.

وظواهر أحاديث التشبيه-يعني بها أحاديث الصفات-أكثرها غير صحيحة، والصحيح منها ليس بقاطع، بل هو قابل للتأويل". (١)

فهذا النقل يبين لك مدى تقديم هؤلاء لشبههم العقلية وتعصبهم لها، وكيف أنهم يجعلونها هي الأصول والسمع معروضا عليها، فما أجازته عقولهم قبلوه، وما لم تجزه عقولهم شككوا فيه وانتقصوه، ومن ثم سعوا في تأويله وتحريفه، ومن يلقي نظرةً على كتب الأشاعرة مثلاً يجد أن القوم يقسمون أبواب العقيدة إلى إلهيات-ونبوّات-وسمعيات، وهم في باب الإلهيات والنبوات لا يقبلون نصوص الكتاب والسنة، ولذلك لن تجد في هذين البابين إلا الشبه العقلية المركبة وفق القواعد المنطقية، ويا عجبا أنأخذ ديننا من كلام الله ورسوله، أم من ملاحدة اليونان وتلاميذهم!

وأما باب السمعيات-أي البعث والحشر والجنة والنار والوعد والوعيد-فهم يقبلون فيه النصوص الشرعية، وبالتالي سموا هذا الباب بالسمعيات. في مقابل باب الإلهيات والنبوات، إذ إنهم يعتمدون فيهما على العقليات، وهؤلاء شابهوا حال من قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: الآية: ٨٥]

وأما الأساس الثاني: وهو تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، ففيه تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المعطلة من جهة، وعن عقيدة المشبهة من جهة أخرى.

فأهل السنة: يعتقدون أن ما اتصف الله به من الصفات لا يماثله فيها أحد من خلقه، فالله عز وجل قد أخبرنا بذلك بنص كتابه العزيز حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، فإذا ورد النص بصفة من صفات الله تعالى في الكتاب أو

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي ص: ١٣٢-١٣٣. وقال في كتابه المستصفى ٢/ ١٣٧-١٣٨: "كل ما دل العقل فيه على أحد الجانبين فليس للتعارض فيه مجال، إذ الأدلة العقلية يستعجل نسخها وتكاذبها، فإن ورد دليل سمعي على خلاف العقل، فإما أن لا يكون متواترًا فيعلم أنه غير صحيح، وإما أن يكون متواترًا فيكون مؤولاً ولا يكون متعارضًا".

السنة فيجبب الإيمان به والاعتقاد الجازم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والشرف والعلو مما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فالشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فعلى القلب المؤمن المصدق بصفات الله التي تمدح بها أو أثنى عليه بها نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يكون معظمًا لله جل وعلا غير متنجس بأقذار التشبيه، لتكون أرض قلبه طيبة طاهرة قابلة للإيمان بالصفات على أساس التنزيه، أخذا بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]

أما أهل التعطيل: فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات التي لا وجود لها إلا في أفهامهم الفاسدة، فعقيدة هؤلاء المعطلة جمعت بين التمثيل والتعطيل، وهذا الشر إنما جاء من تنجس قلوبهم وتدنسها بأقذار التشبيه، فإذا سمعوا صفة من صفات الكمال التي أثنى الله بها على نفسه كاستوائه على عرشه ومجيئه يوم القيامة وغير ذلك من صفات الجلال والكمال، فإن أول ما يخطر في أذهانهم أن هذه الصفة تشبه صفات الخلق، فيتلطخ القلب بأقذار التشبيه لم يقدر الله حق قدره ولم يعظم الله حق عظمته حيث سبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيكون أولاً نجس القلب بأقذار التشبيه ثم دعاه ذلك إلى أن ينفي صفة الخالق جلَّ وعلا عنه بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق، فيكون فيها أولاً مشبهًا، وثانيًا معطلاً ضالاًّ ابتداءً وانتهاءً متهجمًا على رب العالمين ينفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق.(١)

وأما عقيدة أهل التمثيل: فهي تقوم على دعواهم أن الله عز وجل لا يخاطبنا إلا بما نعقل، فإذا أخبرنا عن اليد فنحن لا نعقل إلا هذه اليد الجارحة، فشبهوا صفات الخالق بصفات المخلوقين، فقالوا: له يد كيدي، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وأمَّا العارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكماله فهم يثبتون لله جميع صفاته، وينفون عنه

---

(١) انظر: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص: ١٩-٢٠

مشابهة المخلوقات، فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل، فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدًى بين ضلالتين.

وأما الأساس الثالث: ففيه تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المشبهة، فأهل السنة يفوضون علم كيفية اتصاف الباري عز وجل بتلك الصفات إلى الله عز وجل، فلا علم للبشر بكيفية ذات الله–تبارك وتعالى "ولا تفسير كنه شيء من صفات ربنا تعالى كأن يقال استوى على هيئة كذا، وكل من تجرأ على شيء من ذلك فقوله من الغلو في الدين والافتراء على الله عز وجل، واعتقاد ما لم يأذن به الله ولا يليق بجلاله وعظمته ولم ينطق به كتاب ولا سنة، ولو كان ذلك مطلوبًا من العباد في الشريعة لبينه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهو لم يدع ما بالمسلمين إليه حاجة إلا بينه ووضحه، والعباد لا يعلمون عن الله تعالى إلا ما علمهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥]، فليؤمن العبد بما علمه الله تعالى وليقف معه، وليمسك عما جهله وليكل معناه إلى عالمه".[١]

وأما المشبهة فقد تعمقوا في شأن كيفيات صفات الله وتقولوا على الله بغير علم، فقالوا: له بصر كبصري، ويد كيدي، وقدم كقدمي، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، وسيأتي توضيح الأسس الثلاثة في المطالب الآتية.

بيان الأســاس الأول من الأســس الثلاثة التي قام عليها معتقد الســلف في باب الأسماء والصفات

وهو: الإيمان بما وردت به نصـوص القرآن والسـنة الصـحيحة من أسماء الله وصـفاته إثباتا ونفيا .

وهذا الأساس لابد فيه من مراعاة ما يلي:

(١) انظر: معارج القبول ١/ ٣٢٦-٣٢٧

أولاً: إن طلب العلم في المطالب الإلهية إنما يكون عن طريق الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة.

فالذي يجب اعتقاده هو أن معرفة هذا النوع من أنواع التوحيد تتوقف على دراسة الكتاب والسنة، لأن هذا التوحيد يتطلب، أسماء وصفات معينة، وهذه لا سبيل إلى معرفتها والحصول عليها إلا من طريق الكتاب والسنة (فنحن نؤمن بالله تعالى وبما أخبر به عن نفسه سبحانه على ألسنة رسله من أسمائه الحسنى وصفاته العلى بلا تكييف ولا تمثيل، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه مما لا يليق بجلاله وعظمته، فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأبين دليلاً من غيره).[1] ولذلك كان معتقد أهل السنة هو الإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه إثباتًا ونفيًا، لأنه لا يسمي الله أعلم بالله من الله، قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: الآية: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: الآية:١٤]، وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: الآية: ٥٩]، فالله–عز وجل–، هو الذي سمى ووصف نفسه بما جاء في نص كلامه الذي هو القرآن.

ولا يسمي ويصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، الذي قال الله في حقه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: الآيات: ٣–٤]، ولقد جاءت رسالة النبي–صلى الله عليه وسلم–بإثبات الصفات إثباتًا مفصلاً على وجه ثلجت به الصدور واطمأنت به القلوب، واستقر الإيمان في نصابه، وفصلت ذلك أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررته أكمل تقرير في أبلغ لفظ، ولذلك كان لزامًا على كل مسلم أن يؤمن بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان.

قال ابن خزيمة–رحمه الله–(ت:٣١١ هـ): "نحن نثبت لخالقنا جل وعلا صفاته التي وصف الله عز وجل بها نفسه في محكم تنزيله، أو على لسان نبيه المصطفى، مما ثبت بنقل العدل عن

---

(١) معارج القبول ١/٣٣٠–٣٣١

العدل موصولا إليه".[(١)]

وقال أيضًا: "لا نصف معبودنا إلا بما وصف به نفسه إما في كتاب الله أو على لسان نبيه بنقل العدل عن العدل موصولا إليه لا نحتج بالمراسيل ولا بالأخبار الواهية ولا نحتج أيضا في صفات معبودنا بالآراء والمقاييس شيء منها أبدا مخالفا لكتاب الله، أو الشيء منه، فمن ادعى من الجهلة أن شيئا من سنن النبي إذا ثبت من جهة النقل مخالف لشيء من كتاب الله فأنا الضامن بتثبيت صحة مذهبنا على ما أبوح به منذ أكثر من أربعين سنة".[(٢)]

قال الحافظ أبو نصر الوائلي البكري السجزي -رحمه الله-(ت: ٤٤٤ هـ): "وقبل كل شيء ينبغي أن يعلم أن اعتمادنا في المعتقدات أجمع على السمع فإذا ورد السمع بشيء قلنا به، ولم نلتفت إلى شبهة يدعيها مخالف".[(٣)]

ثانيًا: تقديم الشرع على العقل، فالأصل في الدين الاتباع والمعقول تبع. فمعتقد أهل السنة في هذا الباب وفي غيره من أبواب العقائد والأحكام أن العقل المجرد ليس له إثبات شيء من العقائد والأحكام، وإنما المرجع في ذلك إلى القرآن والسنة.

فالعقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله تعالى من الأسماء والصفات فوجب الوقوف في ذلك على النص، لأن العقل يقصر عن إدراك حقيقة المغيبات حتى وإن كانت تلك المغيبات أقرب شيء إليه، فهو قاصر عن أن يحيط علمًا بحقيقة روحه التي بين جنبيه لما أخفى الله أمرها عنه، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: الآية: ٨٥]، فإذا كان الإنسان يجهل أمر روحه فكيف يحيط علمًا بذات الله وما يصلح وما لا يصلح لذاته من الأسماء والصفات، والله قد أخفى عن الخلق كيفية ذاته؟!.

"ونحن إذا تدبرنا عامة ما جاء في أمر الدين من ذكر صفات الله، وما تعبد الناس باعتقاده

---

(١) التوحيد (١/ ٥٧) وينظر (١/ ٥١، ٦٥).

(٢) التوحيد (١/٣٧).

(٣) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص: ١٥٣.

من ذكر عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، والحوض، والميزان، والصراط، وصفة الجنة وصفة النار، وجدناها أمورًا لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئا من أمور الذين، وعقلناه، وفهمناه، فلله الحمد في ذلك، والشكر ومنه التوفيق، وما لم يمكنَّا إدراكه ولم تبلغه عقولنا آمنا به، وصدقناه، واعتقدنا أن هذا من قبل ربوبيته وقدرته، واكتفينا في ذلك بعلمه، ومشيئته، قال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥]".[١]

"واعلم أن فصل ما بيننا وبين المعطلة هو "مسألة العقل"، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعًا للمعقول.

وأما أهل السنة فقالوا: الأصل في الدين الإتباع، والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء".[٢]

فالتقرير بأن النقل مقدم على العقل لا ينبغي أن يفهم منه أن أهل السنة ينكرون العقل والتوصل به إلى المعارف والتفكير به في خلق السموات والأرض، وفي الآيات الكونية الكثيرة، فأهل السنة لا ينكرون استعمال العقل، ولكنهم توسطوا في شأن "العقل" بين طائفتين ضلتا في هذا الباب، هما:

أهل الكلام: الذين يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له، والمعقولات عندهم هي الأصول الكلية الأولية، المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن.

فهؤلاء جعلوا عقولهم هي التي تثبت وتنفي والسمع معروضا عليها، فإن وافقها قيل اعتضادًا لا اعتمادًا، وإن عارضها رُدَّ وطُرِحَ، وهذا من أعظم أسباب الضلال التي دخلت على هذه الأمة.

---

(١) الحجة في بيان المحجة ٣٢١/١ بتصرف

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٢٠

وأهل التصوف: الذين يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية، والمقامات الرفيعة، لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب صريح العقل.

ويمدحون السكر والجنون والوله، وأمورًا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها.

وكلا الطرفين مذموم.

وأما أهل السنة: فيرون أن العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك.

فالعقل غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين.

فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس أو النار.

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها.

وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية.

فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه.[١]

رابعًا: رفض التحريف والتعطيل لنصوص الأسماء والصفات.

فالسلف يعتقدون أن الواجب في نصوص القرآن والسنة بما في ذلك نصوص الأسماء والصفات هو إجراؤها على ظاهرها، وذلك بأن تُفهتم وفق ما يقتضيه اللسان العربي، وأن لا يتعرض لها بتحريف أو تعطيل كما فعل المعطلة، الذين تلاعبوا بظواهر النصوص! لمجرد أنها خالفت باطلهم ومناهجهم الفاسدة.[٢]

فنصوص الصفات ألفاظ شرعية يجب أن تحفظ لها حرمتها، وذلك بأن نفهمها وفق مراد الشارع، فلا نتلاعب بمعانيها لنصرفها عن مراد الشارع.

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/٣٣٨-٣٣٩ بتصرف

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٢/٣٠١

فمن الأصول الكلية عند السلف أن الألفاظ الشرعية لها حرمتها، ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد الله ورسوله بها ليثبت ما أثبته الله ورسوله من المعاني، وينفى ما نفاه الله ورسوله من المعاني.[١]

وبحمد الله وفضله نجد أن نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة هي من الوضوح والكثرة بمكان، بحيث يستحيل تأويلها والتلاعب بنصوصها، فلقد جاءت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بإثبات الصفات إثباتًا مفصَّلاً على وجه أزال الشبهة وكشف الغطاء، وحصل به العلم اليقيني، ورفع الشك والريب، فثلجت به الصدور، واطمأنت به القلوب، واستقر الإيمان في نصابه، فلقد فصلت رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الأسماء والصفات والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ.

فالمطلع على نصوص القرآن والسنة الخبير بهما، لا يزيده تحريف المعطلة لتلك النصوص إلا احتقارًا لهم، ويقينًا بفساد معتقدهم وبطلانه.

ولا تروج تحريفات المعطلة إلا على الجاهل بمعرفة تلك النصوص قليل البضاعة فيها، فهذا الصنف! أتي من جهة جهله لا من قلة النصوص الواردة في هذا الباب، والله أعلم.

قال المقريزي–رحمه الله–(ت: ٨٤٥ هـ) في كلامه على افتراق الناس في نصوص الصفات: "فصار للمسلمين في ذلك خمسة أقوال:

أحدها: اعتقاد ما يفهم مثله من اللغة.

وثانيها: السكوت عنها مطلقا،

وثالثها: السكوت عنها بعد نفي إرادة الظاهر،

ورابعها: حملها على المجاز،

وخامسها: حملها على الاشتراك".[٢]

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/١١٣-١١٤ بتصرف

(٢) الخطط المقريزية ٣/ ٣١٩.

وقال الشيخ أحمد بن إبراهيم الواسطي الشافعي (ت: ٦٩٤ هـ) [١]: "وكنت متحيراً في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك: من تأويل الصفات وتحريفها، أو إمرارها، أو الوقوف فيها، أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل". [٢]

ومن أقوال العلماء في تقرير هذا الأساس:

قول عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون-رحمه الله-(ت: ١٦٤ هـ)- وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة الذين هم مالك بن أنس، وابن الماجشون، وابن أبي ذئب-. "وقد سئل فيما جحدت به الجهمية:

أما بعد: فقد فهمت ما سألت عنه فيما تتابعت الجهمية ومن خالفها في صفة الرب [العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتقدير وكَلَّت الألسن عن] تفسير صفته، وانحسرت العقول دون معرفة قدره ردت عظمته العقول فلم تجد مساغًا فرجعت خاسئة وهي حسيرة، وإنما أُمروا بالنظر والتفكر فيما خلق بالتقدير، وإنما يقال (كيف)؟ لمن لم يكن ثم كان، فأما الذي لا يحول ولا يزول، ولم يَزَلْ، وليس له مثل، فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو، وكيف يعرف قدر من لم يبد ومن لم يمت، ولا يبلى، وكيف [يكون] لصفة شيء منه حد أو منتهى؟ يعرفه عارف أو يحد قدره واصف على أنه الحق المبين، لا حق أحق منه، ولا شيء، أبين منه. الدليل على عجز العقول في تحقيق صفته، عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه، لا تكاد تراه صغرًا يحول ويزول، ولا يرى له سمع ولا بصر، لما يتقلب به ويحتال من عقله، أعضل بك وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين، وخالقهم وسيد السادات، وربهم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١].

اعرف ـ رحمك الله ـ غناك عن تَكلُّف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن عماد الدين الواسطي، البغدادي، فقيه كان شافعا، قدم دمشق فتتلمذ على ابن تيمية وانتقل إلى المذهب الحنبلي ورد على المبتدعة الذين خالطهم. من كتبه اختصار دلائل النبوة)، و (شرح منازل السائرين وغيرها. الأعلام ١/ ٨٩، الدرر الكامنة ١/ ١١، الشذرات ٩/ ٢٩.

(٢) النصيحة في صفات الرب جل وعلا ص ٩.

قدر ما وصف منها، إذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم ما لم يصف، هل تستدل بذلك على شيء من طاعته، أو تنزجر به عن شيء من معصيته؟

فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقًا وتكلفًا، فقد ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: الآية: ٧١] فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن [قال]: لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا فعمي عن البَيِّن بالخفي، وجحد ما سمى الرب من نفسه بصمت الرب عما لم يسم منها، فلم يزل يملي له الشيطان حتى جحد قول الرب ـ عز وجل ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣] فقال: لا يراه أحد يوم القيامة، فجحد والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه، ونضرته إياهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: الآية: ٥٥] ، "وقد قضى أنهم لا يموتون، فهم بالنظر إليه ينظرون.

إلى أن قال: وإنما جحد رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة؛ لأنه قد عرف إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين، وكان له جاحدًا.

وقال المسلمون: يا رسول الله، هل نرى ربنا؟

فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (هل تُضَارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟) قالوا: لا. قال: (فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟) قالوا: لا. قال: (فإنكم ترون ربكم كذلك).

وقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه، فتقول: قط قط، وينزوي بعضها إلى بعض).

وقال لثابت بن قيس-رضي الله عنه-: (لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة).

وقال فيما بلغنا: (إن الله ليضحك من أزلِكم وقنوطكم وسرعة إجابتكم)، فقال له رجل من العرب: إن ربنا ليضحك؟ [قال: (نعم). قال: لا نعدم من رب يضحك خيرًا" في أشباه لهذا مما لم نحصه.

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ

بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: الآية: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: الآية: ٣٩]، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: الآية: ٦٧]. فوالله ما دلَّهم على عِظَم ما وصفه من نفسه، وما تحيط به قبضته إلا صغر [نظيرها منهم عندهم، إن ذلك الذي] ألقى في روعهم، وخلق على معرفة [قلوبهم]، فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم– سميناه كما أسماه، ولم نتكلف منه صفة ما سواه ـ لا هذا ولا هذا ـ لا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف.

اعلم –رحمك الله– أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهي بك ولا تجاوز ما حد لك، فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر، فما بسطت عليه المعرفة وسكنت إليه الأفئدة وذكر أصله في الكتاب والسنة وتوارث علمه الأمة، فلا تخافنّ في ذكره وصفته من ربك ما وصفه من نفسه عيبًا، ولا تتكلفنّ لما وصف لك من ذلك قدرًا.

وما أنكرته نفسك، ولم تجد ذكره في كتاب ربك ولا في الحديث عن نبيك ـ من ذكر ربك ـ فلا تتكلفن علمه بعقلك، ولا تصفه بلسانك، واصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه، فإن تكلفك [معرفة] ما لم يصف من نفسه كإنكارك ما وصف منها، فكما أعظمت ما جحده الجاحدون مما وصف من نفسه، فكذلك أعظم [تكلف] ما وصف الواصفون مما لم يصف منها.

فقد ـ والله عَزّ المسلمون الذين يعرفون المعروف وبمعرفتهم يُعرف، وينكرون المنكر وبإنكارهم يُنكر، يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا في كتابه، وما بلغهم مثله من نبيه، فما مرض من ذكر هذا وتسميته قلبُ مسلم، ولا تكلَّف صفة قدرة ولا تسمية غيره من الرب مؤمن.

وما ذكر عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أنه سماه من صفة ربه، فهو بمنزلة ما سمى وما وصف الرب من نفسه.

والراسخون في العلم ـ الواقفون حيث انتهى علمهم، الواصفون لربهم بما وصف من نفسه، التاركون لما ترك من ذكرها ـ لا ينكرون صفة ما سمى منها جحدًا، ولا يتكلَّفون وصفه بما لم

يُسم تعمُّقًا، لأن الحقَّ تركُ ما ترك وتسميةُ ما سمَّى ومن يتبع ﴿غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: الآية: ١١٥]، وَهَبَ اللهُ لنا ولكم حُكْمًا، وألحَقَنا بالصالحين اهـ.

وقد تضمن كلامه رحمه الله عدداً من المسائل منها:

أن هناك أربعة أمور لابد من مراعاتها في باب الصفات:

أولًا: الإثبات في قوله: "فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم سميناه كما أسماه" أي إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: عدم الزيادة في قوله: "ولم نتكلف منه صفة ما سواه ـ لا هذا ولا هذا". أي: لا نزيد على ما أثبته الله لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: التوقف فيما لم يرد إثباته أو نفيه في قوله: "ولا نتكلف معرفة ما لم يصف" أي لا نخوض ونتكلف في معرفة ما لم يرد به النص.

رابعاً: عدم النقص في قوله: "لا نجحد ما وصف" أي: لا ننقص مما أثبته الله لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله–صلى الله عليه وسلم–.

وقوله: "اعلم ـ رحمك الله ـ أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهي بك ولا تجاوز ما حد لك"، هذه قاعدة لو التزمها العبد لسلِم ونجا، قف عند ما أخبرك الله من الغيب ولا تتجاوز ذلك الحد، "فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر ": أي: من إقامة الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر.

"فما بسطت عليه المعرفة وسكنت إليه الأفئدة وذكر أصله في الكتاب والسنة وتوارث علمه الأمة، فلا تخافنّ في ذكره" يعني: اصدع به، وقل ربنا يضحك، وربنا يغضب، وربنا يرضى، لماذا تجبن في هذه المواقف؟ مع أن عندك كلام الله تعالى وكلام رسوله صلَّى الله عَلَيه وَسَلَّم؟

"وصفته من ربك ما وصفه من نفسه عيبًا"، يعني: لا تخف عيب أن يُعاب عليك فيُقال لك مشبِّه، أو يُقال لك مجسِّم، أو يُقال لك حشوي، أو يُقال وهَّابي، وغير ذلك من العبارات

التي تسمعها، ومعك من ذلك دليلٌ من كلام الله–تعالى–وكلام رسوله–صلَّى الله عَلَيه وَسَلَّم–؟

فلا بُدَّ من إقامة المعروف ولا بُدَّ من إنكار المنكر، أمة تعطِّل وتجحد، وأنت على الحق تعرف الحق وعندك دليله، لماذا لا تصدع بالحق؟ ولماذا لا تنكر المنكر الذي هو في هذا الباب هو التعطيل؟ "ولا تتكلفنّ لما وصف لك من ذلك قدرًا" يعني: لا تخض في الكيفية كما وقع المشبه في هذا.

"وما أنكرته نفسك، ولم تجد ذكره في كتاب ربك ولا في الحديث عن نبيك من ذكر صفة ربك، فلا تكلفن علمه بعقلك"، هذا الباب ليس فيه رأي وليس فيه اجتهاد، فيه نص فقط، فإن جاء النص فبها، وإلا فاسكت ولا تخض فيما لا علم لك بك.

ليس الأمر كمسائل الفروع مثلًا، أو مسائل ما يتعلق بأمور الفقه، فأمور الفقه تخضع لاجتهاد في حال عدم النص، لكن أمور الاعتقاد لا بُدَّ فيها من نص.

"ولا تصفه بلسانك" يعني: هذا في حق ما لم يرد، نصيحة غالية من أحد أئمة السلف: لا تتجاوز الحدَّ الذي يُحدُّ لك، فما جاء به النص فآمن وسلم، وما لم يأت به النص فعندنا هنا في هذا الباب ثلاثة أمور:

- أمورٌ أثبتها الله لنفسه فنثبت ما أثبته لنفسه.
- أمورٌ نفاها عن نفسه فننفي ما نفاه عن نفسه.
- وأمورٌ لم يرِد بها نفيٌ ولا إثبات فنتوقف فيها ولا نخوض فيها.

هذه ثلاثة أمور: نثبت ما أثبته لنفسه، وننفي ما نفاه عن نفسه، وما لم يرد إثباته أو نفيه نسكت عنه ولا نخوض فيه.

"فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه كإنكارك ما وصف منها" يعني: يستوي، فهذا محظور وهذا محظور، التعطيل محظور وكذلك التقول على الله بغير علمٍ محظور، "فكما أعظمت ما جحد الجاحدون مما وصف من نفسه، فكذلك أعظِم تكلف ما وصف الواصفون مما لم يصف منها".

إذًا كما أنت تكبر وتعظم ما فعله المعطِّلة من جحد الصفات، فكذلك أكبر وأعظم التقول على الله بغير علم، وقلنا إن هذا من سبيل الشيطان؛ لأن الله تعالى عندما ذكر الشيطان ذكره بذلك، ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية:١٦٩] فهذا من سبيل الشيطان.

فإذًا من القول على الله-عزَّ وجلَّ-بغير علم: أن تصفه بما لم يصف به نفسه، فهل هناك أسلم من هذا المنهج؟! منهجٌ يقف مع النص ولا يتجاوز النص، فبالتالي ما أثبته الله لنفسه يُثبت، وما نفاه عن نفسه يُنفى، وما لم يثبته أو ينفه فنقف فيه فلا نخوض فيه لا نفيًا ولا إثباتًا.

"فقد-والله-عز المسلمون" يعني: قل الذين على المعتقد الصحيح، "الذين يعرفون المعروف وبمعرفتهم يُعرف، وينكرون المنكر وبإنكارهم يُنكر، يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا في كتابه، وما بلغهم مثله عن نبيه، فما مرض من ذكر هذا وتسميته قلب مسلم، ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن" فهذا حال المؤمن.

فهذه نصوص واضحة لو أن الإنسان نظر لها النظرة السليمة، ولكن كما قال الشاعر:

وكمْ من عائِبٍ قوْلًا صَحيحًا وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السّقيمِ

فالسبب في هذا: أفهام سقيمة، وإن النصوص واضحة وثابتة، فالخلل هنا إما أن يكون في النصوص، أو يكون في عقول هؤلاء، وحاشا أن يكون في النصوص، فالنصوص ثابتة والله تعالى أخبر عن استوائه ونبيه -صلَّى الله عَلَيه وَسَلَّم-أخبر عن نزوله، وهكذا في سائر صفاته بين الكتاب والسُنَّة نصوص ثابتة صريحة صحيحة.

لكن الخلل من أفهامٍ تنظر إلى هذه الأمور بنظرةٍ غير صحيحة وغير سليمة، فهذه النصوص فلذلك عزَّ والله من يعرف المعروف وينكر المنكر، وهذه النصوص واضحة وصريحة وامتلأت بها الكتب التي حوت هذا الأمر.

"وما ذُكر عن رسول الله-صلَّى الله عَلَيه وَسَلَّم-أنه سماه من صفة ربه فهو بمنزلة ما سمى وما وصف الرب تعالى من نفسه" يعني: ما جاء في السُنَّة مثل ما جاء في القرآن لا نفرق بين هذا وبين هذا، فهذا وحيٌ متلو، وهذا وحيٌ غير متلو، وكلٌ نحن متعبدون به، الإيمان به والتصديق

به والإقرار به كما أخبر الله تعالى، والله تعالى قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر: الآية: ٧].

"والراسخون في العلم الواقفون حيث انتهى علمهم، الواصفون لربهم بما وصف من نفسه، التاركون لما ترك من ذكرها، لا ينكرون صفة ما سمى منها جحدها، ولا يتكلفون وصفه بما لم يسم تعمقًا" فانظر المنهج الصحيح: يثبتون ما أثبته لنفسه ولا يجحدون، وكذلك ما أثبتوه لا يخوضون في كيفيات، "لأن الحق ترك ما ترك، وتسمية ما سمى".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ)-رحمه الله-: "وهذا كله كلام ابن الماجشون (ت: ١٦٤ هـ) الإمام فتدبره، وانظر كيف أثبت الصفات ونفى علم الكيفية موافقة لغيره من الأئمة، وكيف أنكر على من نفى الصفات بأنه يلزم من إثباتها كذا وكذا كما تقوله الجهمية: أنه يلزم أن يكون جسمًا أو [عَرَضًا فيكون]."

قول عبد الرحمن بن قاسم العُتَقي من كبار فقهاء المالكية، صحب مالكاً -رحمه الله-(ت: ١٩١ هـ): "لا ينبغي لأحد أن يصف الله إلا بما وصف به نفسه في القرآن".[(١)]

وقال الإمام الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "حرامٌ على العقول أن تُمَثِّل الله تعالى، وعلى الأوهام أن تحدَّه، وعلى الظنون أن تقطع، وعلى النفوس أن تفكِّر، وعلى الضمائر أن تعمَّق، وعلى الخواطر أن تحيط، وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم".[(٢)]

قال الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "هذه المعاني التي وصف الله-عز وجل-بها نفسه، ووصفه بها رسوله-صلى الله عليه وسلم-، لاُ يدرك حقيقة ذلك بالفكر والرؤية".[(٣)]

---

(١) انظر: رياض الجنة بتخريج أصول السنة ص (٧٥) برقم (٢٥)، والصفات أيضاً تؤخذ من السنة الصحيحة، ولعل قول عبد الرحمن بن القاسم جاء على الغالب، والله أعلم.

(٢) انظر: ذم التأويل لابن قدامة ص: (٢٣٤-٢٣٥) برقم (٣٤).

(٣) اعتقاد الإمام الشافعي، رواية أبي طالب العشاري (١٨).

قال الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "نثبت هذه الصفات، وننفي التشبيه، كما نفى ذلك عن نفسه-تعالى-ذكره، فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]".[١]

وقال الإمام أحمد (ت: ٢٤١ هـ)-رحمه الله-: "ولا يوصف الله تعالى بأكثر مما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله بلا حد ولا غاية، ... ولا نتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه كما وصف نفسه ولا نتعدى ذلك، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شُنِّعت".[٢]

وقال سحنون (ت: ٢٥٦ هـ)-رحمه الله-: "من العلم بالله السكوت عن غير ما وصف به نفسه".[٣]

وقال ابن قتيبة-رحمه الله-(ت: ٢٧٦ هـ) عن نصوص الصفات: "نؤمن بما صح منها بنقل الثقات لها ... من غير أن نقول في ذلك بكيفية، أو بحد، أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت، فنرجوا أن نكون في ذلك القول والعقد على سبيل النجاة غدا، إن شاء الله تعالى".[٤]

وقال الدارمي-رحمه الله-(ت: ٢٨٠ هـ): "لا نكيف مجيئه وإتيانه أكثر مما وصف الناطق من كتابه ثم ما وصف رسوله".[٥]

وقال الدارمي (ت: ٢٨٠ هـ) -رحمه الله-:"ليس كمثله شيء من خلقه فنشبه منه فعًلا، أو صفة، بفعالهم، وصفتهم".[٦]

---

(١) اعتقاد الإمام الشافعي، رواية أبي طالب العشاري (١٨).

(٢) انظر: ذم التأويل لابن قدامة ص (٢٣٤) برقم (٣٣).

(٣) انظر: التمهيد (٧/١٤٦)، ذم التأويل لابن قدامة ص (٢٣٦) برقم (٣٨).

(٤) الاختلاف في اللفظ (٢٤٣) مطبوع ضمن كتاب عقائد السلف للنشار.

(٥) نقض الدارمي (٢/ ٦٨٠).

(٦) الرد على الجهمية (٩٣).

وقال الطبري-رحمه الله- (ت: ٣١٠ هـ) عن الصفات: "الصواب من هذا القول عندنا: أن نثبت حقائقها على ما نعرف من جهة الإثبات، ونفي التشبيه، كما نفى ذلك عن نفسه جل ثناؤه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]".(١)

وقال ابن خزيمة-رحمه الله-(ت: ٣١١ هـ)، عن أحاديث نزول الرب-جَّل وعلا-: "رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي-صلى الله عليه وسلم-في نزول الرب-جل وعلا-إلى السماء الدنيا كل ليلة نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب، من غير أن نصف الكيفية، لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله-جل وعلا-لم يترك ولا نبيه-عليه السلام-بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية، إذ النبي لم يصف لنا كيفية النزول".(٢)

وقال ابن خزيمة (ت: ٣١١ هـ)-رحمه الله-: "نحن نثبت لخالقنا-جل وعلا-صفاته التي وصف الله-عز وجل-بها نفسه في محكم تنزيله، أو على لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، مما ثبت بنقل العدل عن العدل موصولا إليه".(٣)

وقال البربهاري-رحمه الله-(ت: ٣٢٩ هـ) "ولا يقول في صفات الرب-تعالى-: كيف؟ ولِمَ؟ إلا شاك في الله".(٤)

وقال أبو بكر الإسماعيلي-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "اعلموا-رحمنا الله وإياكم-أن مذهب أهل الحديث-أهل السنة والجماعة-: الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقبول ما نطق به كتاب الله-تعالى-، وما صحت به الرواية عن رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-، لا معدل

---

(١) التبصير في معالم الدين (١٤٠) وينظر: (١٤٢،١٤٤).

(٢) التوحيد (١/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) التوحيد (١/ ٥٧).

(٤) شرح السنة (٤١).

عما وردا به، ولا سبيل إلى رده... ويعتقدون أن الله تعالى مدعو بأسمائه الحسنى، موصوف بصفاته التي سمى ووصف بها نفسه، ووصفه بها نبيه صلى الله عليه وسلم". [(١)]

وقال الإمام الخطابي-رحمه الله-(ت: ٣٨٨ هـ): "إن صفات الله-تعالى-لا تؤخذ إلا من كتاب أو من قول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-دون قول أحد من الناس كائناً من كان علت درجته أو نزلت تقدم زمانه أو تأخر لأنها لا تدرك من طريق القياس والاجتهاد فيكون فيها لقائل مقال ولناظر مجال". [(٢)]

وقال أيضاً: "ومن علم هذا الباب -أعني الأسماء والصفات-ومما يدخل في أحكامه، ويتعلق به من شرائط، أنه لا يتجاوز فيها التوقيف، ولا يستعمل فيها القياس، فيلحق بالشيء نظيره في ظاهر وضع اللغة ومتعارض الكلام". [(٣)]

قال ابن عقيل-رحمه الله-(ت: ٥١٣ هـ) في الكفاية [(٤)] (فصل عجيب يخفى على كثير من الأصوليين: وذلك أنه لا يجوز الإغراق في الإثبات مجاوزة لما أثبته الشرع ودلَّ عليه، كذلك لا يجوز الإغراق في النفي ولا الإقدام على نفي شيء عن الله إلا بدليل؛ لأن النفي أيضا لا يؤمن معه إزالة ما وجب له سبحانه، فالنفي يحتاج إلى دليل كما أن الإثبات يحتاج إلى دليل، كما أن إثبات ما لا يجب له كفر، فنفي ما جُوِّزَ عليه خطأ وفسق، ومثال ذلك: أن يغرق هؤلاء الخطباء والقصاص في نفي النقائص، ثم يدرجون فيها ما وردت به السنن ويقولون ليس بفوق ولا تحت ولا يدرك ولا يعلم ولا يعرف ولا ولا، فربما ساقوا في نفيهم نفي صفة وردت بها

---

(١) اعتقاد أهل السنة (٣٢-٣١) وأورده الذهبي بإسناده في العلو (٢٢٩) وفي السير (١٦/ ٢٩٥) وانظر: مختصر العلو للألباني (٢٤٨).

(٢) نقلاً عن بيان تلبيس الجهمية (١/٤٤٢).

(٣) شأن الدعاء ص (١١١).

(٤) "كفاية المفتي" في عشر مجلدات، ويسمى أيضاً: "الفصول"، معظمه مفقود، وتوجد منه قطعتان مخطوطتان، إحداهما: بدار الكتب المصرية، والأخرى بالمكتبة الظاهرية بدمشق، انظر: مقدمة تحقيق كتاب "الواضح في أصول الفقه" (١/١٩).

السنن).[١]

وعلق عليه شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): (وهذا هو الصواب عند السلف والأئمة وجماهير المسلمين أنه لا يجوز النفي إلا بدليل كالإثبات، فكيف ينفى بلا دليل ما دل عليه دليل إما قطعي وإما ظاهري، بل كيف يقال: ما لم يقم دليل قطعي على ثبوته من الصفات يجب نفيه أو يجب القطع بنفيه، ثم يقال في القطعي إنه ليس بقطعي، فهذه المقدمات الفاسدة هي وسائل الجهل والتعطيل وتكذيب المرسلين).[٢]

وقال الإمام السجزي-رحمه الله-(ت: ٤٤٤ هـ): "وقد اتفقت الأئمة على أن الصفات لا تؤخذ إلا توقيفًا، وكذلك شرحها لا يجوز إلا بتوقيف ... ولا يجوز أن يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله-صلى الله عليه وسلم-".[٣]

وقال الإمام ابن عبد البر-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ): (... ما غاب عن العيون فلا يصفه ذوو العقول إلا بخبر، ولا خبر في صفات الله-تعالى-إلا ما وصف نفسه به في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم) [٤]

وقال قوام السنة الأصبهاني-رحمه الله-(ت: ٥٣٢ هـ): "قال علماء السلف: جاءت الأخبار عن النبي-صلى الله عليه وسلم-متواترة في صفات الله تعالى، موافقة لكتاب الله-تعالى-، نقلها السلف على سبيل الإثبات والمعرفة، والإيمان به والتسليم، وترك التمثيل والتكييف، وأنه-عز وجل-أزلي بصفاته وأسمائه، التي وصف بها نفسه، أو وصفه الرسول-صلى الله عليه وسلم-بها، فمن جحد صفة من صفاته بعد الثبوت كان بذلك جاحدا، ومن زعم أنها محدثة لم تكن ثم كانت دخل في حكم التشبيه في الصفات التي هي محدثة في المخلوق، زائلة بفنائه غير باقية،

---

(١) نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في بيان تلبيس الجهمية (١/٧٩).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/٧٩).

(٣) الردّ على من أنكر الحرف والصوت ص (١٢١).

(٤) التمهيد (٧/١٤٥).

وذلك أن الله–تعالى–امتدح نفسه بصفاته، ودعا عباده إلى مدحه بذلك، وصدق به المصطفى–صلى الله عليه وسلم–، وبين مراد الله فيما أظهر الله لعباده من ذكر نفسه وأسمائه وصفاته، وكان ذلك مفهومًا عند العرب غير محتاج إلى تأويله".[١]

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي–رحمه الله–(ت: ٦٢٠ هـ): "فإن صفات الله تعالى لا تُثبت ولا تُنفى إلا بالتوقيف".[٢]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله– (ت: ٧٢٨ هـ): "وباب الأسماء والصفات يُتَّبَع فيها الألفاظ الشرعية، فلا نطلق إلا ما يرد به الأثر".[٣]

وقال أيضاً: "ومن الوجوه الصحيحة أن معرفة الله بأسمائه وصفاته على وجه التفصيل لا تعلم إلا من جهة الرسول–عليه الصلاة والسلام–، إما بخبره وإما بتنبيهه ودلالته على الأدلة العقلية، ولهذا يقولون لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله–صلى الله عليه وسلم–قال الله–تعالى–: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: الآيات: ١٨١–١٨٢]".[٤]

وقال–رحمه الله–: "ومعلوم أن الوصف بالنفي كالوصف بالإثبات".[٥] أي يحتاج فيهما إلى دليل من الكتاب والسنة.

وقال أيضاً: "فالأصل في هذا الباب–أي باب توحيد الأسماء واصفات–، أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله: نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفى عنه ما

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٨٣) و (٢/ ٥٤٩).

(٢) ذم التأويل لابن قدامة ص: (١٢١).

(٣) قاعدة في المحبة، ضمن جامع الرسائل (٢/ ٢٣٩).

(٤) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٤٨).

(٥) بيان تلبيس الجهمية (١/٤٤٤).

نفاه عن نفسه".[١]

وقال شيخ الإسلام أيضاً: "فنثبت ما علمنا ثبوته، وننفي ما علمنا نفيه، ونسكت عما لا نعلم نفيه ولا إثباته".[٢]

وقال أيضاً: "بل النافي عليه الدليل على نفي ما نفاه، كما على المثبت الدليل على ثبوت ما أثبته، ومن ليس عنده دليل على النفي والإثبات، فعليه أن لا ينفى ولا يثبت فغاية ما عنده التوقف في نفي ذلك وإثباته".[٣]

وقال أيضاً: "وأصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه وبما وصفته به رسله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه، ويتبعون في ذلك أقوال رسله، ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات: الآية: ١٨٠]، أي: عما يصفه الكفار المخالفون للرسل، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: الآية: ١٨١]، لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: الآية: ١٨٢]، فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال ونزهوه عن النقائص المناقضة للكمال، ونزهوه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل، فأتوا بإثبات مفصَّل ونفي مجمل، فمن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات كان معطلاً، ومن جعلها مثل صفات المخلوقين كان ممثلاً، والمعطِّل يعبد عدماً والممثل يعبد صنماً، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، وهو ردٌّ على الممثلة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، وهو ردٌّ على المعطِّلة".[٤]

---

(١) التدمرية ص (٦-٧).

(٢) التدمرية ص (١٤٦).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٥/٤٤).

(٤) الجواب الصحيح (٤/ ٤٠٥).

وقال أيضاً: "فالواجب أن ينظر في هذا الباب فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبتته النصوص من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته النصوص من الألفاظ والمعاني".[١]

وقال الإمام ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "إن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي".[٢]

وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي-رحمه الله-(ت: ٧٩٢ هـ): "فالواجب أن ينظر في هذا الباب، أعني باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يُعتصم بها في الإثبات والنفي، فنُثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني".[٣]

وقال ابن الوزير اليمني-رحمه الله-(ت: ٨٤٠ هـ): "وأيضا فأسماء الله وصفاته توقيفية شرعية وهو أعز من أن يطلق عليه عبيده الجهلة ما رأوا من ذلك".[٤]

وقال الملا علي القاري-رحمه الله-(ت: ١٠١٤ هـ): "حيث إن أوصاف الله تعالى توقيفية"[٥]

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين-رحمه الله-(ت: ١٤٢١ هـ): "إذا قال قائل: هل الصفات توقيفية كالأسماء، أو هي اجتهادية؛ بمعنى أنه يصح لنا أن نصف الله-تعالى-بشيء لم يصف به نفسه؟

فالجواب أن نقول: إن الصفات توقيفية على المشهور عند أهل العلم، كالأسماء، فلا نصف

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٥٤).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٤٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص: (٢٦١).

(٤) إيثار الحق على الخلق ص: (٣٠٨).

(٥) الردّ على القائلين بوحدة الوجود ص: (١١٣).

الله إلا بما وصف به نفسه".[(١)]

هذه بعض النقول من بعض الأئمة فيها بيان أن توحيد الأسماء والصفات عموماً وباب الصفات منه، توقيفيٌ لا يؤخذ إلا من الكتاب والسنة، وهذا شاملٌ للنفي والإثبات، فكما أننا لا نثبت لله–عز وجل–شيئاً إلا إذا ورد في الكتاب والسنة، فكذلك لا ننفي عن الله–عز وجل–شيئاً إلا إذا ورد نفيه في الكتاب والسنة.

فكلام هؤلاء الأئمة صريح في أن هذا الباب توقيفي؛ لأنه من باب الغيب الذي لا يُعْلَم إلا بخبر من الله–عز وجل– على لسان رسوله–صلى الله عليه وسلم–، في كتابه–عز وجل–أو سنة نبيه–صلى الله عليه وسلم–الصحيحة، والكلام فيه دون توقيف من أعظم الافتراء على الله–عز وجل–، وهو من الأبواب التي لا يصلح معها النظر العقلي الصِّرف؛ لأن الله–عز وجل–قرر بأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، وإذا كان كذلك، كان لابد من اعتماد على النصوص الشرعية.

بيان الأســاس الثاني من الأســس الثلاثة التي قام عليها معتقد الســلف في باب الأسماء والصفات

وهو: تنزيه الله جل وعلا أن يماثل شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين.

فتوضيحه يكون وفق ما يلي:

أولاً: ا لأدلة الشرعية الواردة في تنزيه، الله عن مشابهة المخلوقين:

١–قال–تعالى–: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. [الشورى: الآية: ١١]

٢–وقال–تعالى–: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾. [النحل: الآية: ٧٤]

٣–وقال–تعالى–: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾. [النحل: الآية: ٦٠]

(١) شرح العقيدة الواسطية (١/١٤٢).

٤-وقال-تعالى-: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾. [الروم: الآية: ٢٧]

٥-وقال-تعالى-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾. [مريم: الآية: ٦٥]

٦-وقال-تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. [الإخلاص: الآية: ١]

٧-وقال-تعالى-: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾. [الإخلاص: الآية: ٤]

وجه دلالة الآيات:

١-قوله-عز وجل-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. [الشورى: الآية: ١١]: دليل على أن الله منزه عن أن يكون له مثل في شيء مما يوصف به من صفات كماله.(١)

والآية: في تفسيرها وجهان:

الأول: أن يكون معناه: ليس هو كشيء، وأدخل "المثل" في الكلام توكيدًا للكلام.

والثاني: أن يكون معناها: ليس مثله شيء، فتكون "الكاف" هي المدخلة في الكلام توكيدًا(٢) وهذا وجه قوي حسن وهو الأظهر.(٣)

وقد اتفق أهل السنة على أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.(٤)

٢-وقوله-تعالى-: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾. [النحل: الآية: ٧٤]:

قال ابن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ) في تفسيرها: "فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه، فإنه لا مثل ولا شبه".(٥)

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٩٨

(٢) تفسير الطبري ٢٥/١٢-١٣

(٣) شرح الطحاوية ص: ١٤٦

(٤) شرح الطحاوية ص: ٩٩

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ١٤٨.

وقال ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "أي لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالاً".[١]

٣-وقوله-تعالى-: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾. [النحل: الآية: ٦٠].

٤-وقوله-تعالى-: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. [الروم: الآية: ٢٧]

"فالله تعالى وصف نفسه بأن له المثل الأعلى، وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كلَّما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره.

ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل، كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان، لأنهما إن تكافآ من كل وجه، لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ، فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة".[٢]

٥-وقوله-تعالى-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾. [مريم: الآية: ٦٥]: روي عن ابن عباس-رضي الله عنهما-في تفسيرها قوله: "هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً".[٣]

وكذلك قال مجاهد (ت: ١٠٤ هـ) وسعيد بن جبير (ت: ٩٥ هـ) وقتادة (ت: ١١٨ هـ) وابن جريج (ت: ١٥٠ هـ)، وغيرهم.[٤]

٦-وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية: ١]، فالأحد يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٨.

(٢) الصواعق المنزلة ٣/ ١٠٣٢، وشرح الطحاوية ص: ١٤٤.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ١٠٦.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ١٠٦، وتفسير ابن كثير ٣/ ١٣١.

٧-وكذا قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية: ٤]، فالوحدانية تقتضي الكمال، والشركة تقتضي النقص.(١)

ثانيًا: دلالة العقل على بطلان شبيه صفات الخالق بصفات المخلوقين:

١-القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله شي لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات.(٢)

فقد علم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تباينًا في الذات، وهذا يستلزم أن يكون بينهما تباين في الصفات، لأن صفة كل موصوف تليق به كما هو ظاهر من صفات المخلوقين المتباينة في الذوات، فقوة البعير مثلاً غير قوة الذرة، فإذا ظهر التباين بين المخلوقات مع اشتراكهما في الإمكان والحدوث، فظهور التباين بينهما وبين الخالق أجلى وأقوى.(٣)

وبهذا نعلم أن الله لا مثل له، ولا تضرب له الأمثال، التي فيها مماثلة لخلقه، بل له المثل الأعلى.

٢-أن يقال: كيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجوه مشابهًا في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلى من يكمله، وهل اعتقاد ذلك إلا تنقص لحق الخالق، فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.(٤)

٣- "إذا كان المخلوق منزهًا عن مماثلة المخلوق، مع الموافقة في الاسم، فالخالق أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق وإن حصلت موافقة في الاسم".(٥)

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ٩٩.

(٢) الرسالة التدمرية ص: ٤٣

(٣) القواعد المثلى ص: ٢٦

(٤) القواعد المثلى ص: ٢٦

(٥) الرسالة التدمرية ص ٥٠

"فإن الله سبحانه وتعالى أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات، من أصناف المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، فأخبرنا أن فيها لبنًا وعسلاً وخمرًا وماءً ولحمًا وفاكهةً وحريرًا وذهبًا وفضةً وحورًا وقصورًا.

وقد قال ابن عباس–رضي الله عنهما–: "ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء".(١)

فإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها، هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا، وليست مماثلة لها بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق سبحانه وتعالى أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا، إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلى المخلوق، وهذا بين واضح.(٢)

ثالثًا: فصل ما بين معتقد أهل السنة في هذا الأساس ومعتقد أهل التعطيل وأهل التمثيل:

قال شارح الطحاوية: " اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ولكن لفظ "التشبيه" قد صار في كلام الناس لفظًا مجملاً يراد به:

١–المعنى الصحيح: من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته، وهذا ما دل عليه القرآن، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى الآية: ١١]، فهذا رد على الممثلة المشبهة.

فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوقين فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم.

٢–المعنى المردود: أن يراد به أنه لا يثبت لله شيء من الصفات فلا يقال: له قدرة، ولا علم،

---

(١) أخرجه مسدد في مسنده كما عند ابن حجر في المطالب العالية (١٨/ ٦٩٦) من طريق يحي بن سعيد القطان، والطبري في تفسيره ت شاكر (١/ ٣٩١–٣٩٢) أخرجه هناد بن السري في الزهد (١/ ٤٩) ومن طريقه أبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة (١/ ١٤٧) وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (ص: ٢١٠) وابن عساكر في معجمه (٢/ ٩٣٨).

(٢) المصدر السابق ص ٤٧

ولا حياة، لأن العبد موصوف بهذه الصفات ولازم هذا القول إنه لا يقال له: حي، عليم، قدير، لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وإرادته وغير ذلك.[١]

وأصل الخطأ والغلط توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المعين وهذا المعين، وليس كذلك، فإن ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقًا كليًّا، بل لا يوجد إلا معينًا مختصًّا.

وهذه الأسماء إذا سُمي الله بها كان مسمَّاها معينا مختصا به.

فإذا سُمي بها العبد كان مسماها مختصًّا به.

فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه فيه غيره، فكيف بوجود الخالق؟

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى فزادوا فيه على الحق فضلوا.

وأن المعطلة أخذوا نفى المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا.

وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه.[٢]

ومن أقوال العلماء في تقرير هذا الأساس:

قال أبو عبد الله بن أبي زَمِنين–رحمه الله–(ت: ٣٩٩ هـ): "فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها نبيه–صلى الله عليه وسلم–ليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير، فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لم تره العيون فتَحُدُّه كيف هو كينونته، لكن رأته القلوب في حقائق الإيمان به".[٣]

وقال الإمام ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "الذي عليه أهل السنة، وأئمة الفقه

---

(١) شرح الطحاوية ص: ٩٩ بتصرف

(٢) شرح الطحاوية ص ١٠٤ بتصرف

(٣) رياض الجنة بتخريج أصول السنة (ص: ٧٤).

والأثر، في هذه المسألة-أي مسألة الصفات-وما أشبهها، الإيمان بما جاء عن النبي-صلى الله عليه وسلم-فيها، والتصديق بذلك، وترك التحديد والكيفية في شيء منه".[(١)]

بيان الأســاس الثالث من الأســس الثلاثة التي قام عليها معتقد السـلف في باب الأسماء والصفات:

وهو: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بصفاته:

وتوضيح هذا الأساس يتم بما يلي:

أولاً: إن الله لم يطلع الخلق على ذاته ولم يكلفهم معرفة ذاته.

لم يشأ الله-عز وجل-أن يجعل للعباد من سبيل إلى معرفة كيفية وكنه صفاته، فقد سد سبحانه الطرق الموصلة إلى ذلك، فهو من جهة لم يطلع الخلق على ذاته، فهذا باب موصود إلى قيام الساعة كما جاء في الحديث: "اعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا".[(٢)]

ومن جهة ثانية لم يخبرنا الله-عز وجل-بكيفية وكنه صفاته في كتابه، أو على لسان رسوله-صلى الله عليه وسلم-، فما وردت به النصوص إنما هو إثبات وجود لتلك الصفات لا إثبات كيفية.

ومن جهة ثالثة فإن الله لم يكلف العباد معرفة كيفية صفاته، ولم يتعبدهم بذلك ولا أراده منهم، بل قصرهم على الإيمان بما أخبرهم به، فالواجب عليهم أن يؤمنوا الإيمان الصحيح بما كلفوا به، وأن لا يتجاوزوا حدود ذلك.

وقد ورد النص في وجوب قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله، فإدراك ذلك مستحيل، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: الآية: ١١٠]

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٧/ ١٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٢٠)، والنسائي في (السنن الكبرى) (٧٧٦٤)، وأحمد (٢٢٧٦٤) باختلاف يسير.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- (ت: ١٣٩٣ هـ): "إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا ما نص عليه في هذه الآية: من سورة طه، فقوله: ﴿يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: الآية: ١١٠]، فعل مضارع منفي، والفعل الصناعي الذي يسمى (بالفعل المضارع، وفعل الأمر، والفعل الماضي) ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعًا، فيحيطون في مفهومها (الإحاطة) فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري برب السموات والأرض، فينفى جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة منفية (للخلق) عن رب العالمين". [1]

ثانيًا: قصور العقل عن معرفة كيفية صفات الله.

إن على العقل أن ييأس من تعرف كنه الصفات وكيفياتها لعجزه عن معرفة ذلك، لأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته، أو العلم بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصادق، وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله، فوجب بطلان تكييفها.

وعلم الإنسان محدود كما أخبر الله بذلك، حيث قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: الآية: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥].

وإذا كانت نفس الإنسان التي هي أقرب الأشياء إليه بل هي هويته، لا يعرف الإنسان كيفيتها ولا يحيط علمًا بحقيقتها، فالخالق جل جلاله أولى أن لا يعلم العبد كيفيته ولا يحيط علمًا بحقيقته. [2]

وقد أدب الله عباده المؤمنين ووجههم بأن لا يخوضوا في أمور لا علم لهم بها، فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: الآية: ٣٦].

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ٢٤

(٢) رسالة في الحقل والروح لابن تيمية ٢/ ٤٤ "مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية"

وقال–تعالى–: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية: ٣٣].

ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفاته عز وجل، لأنه تعالى أخبرنا عنها، ولم يخبرنا عن كيفيتها، فيكون تعمقنا، في أمر الكيفية قفوًا لما ليس لنا به علم، وقولاً بما لا يمكننا الإحاطة به، ومخالفة لما نهانا الله وحذرنا منه، وحرمه علينا.

فيجب الكف عن التكييف تقديرًا بالجنان أو تقريرًا باللسان، أو تحريرًا بالبنان، لأن أية كيفية تقدرها الأذهان فالله أعظم وأجل من ذلك، ثم هي في الوقت ذاته ستكون كذبًا، لأنه لا علم لقائلها بذلك [(١)]. ولهذا نقل أصحاب المقالات عن بعض المشبهة–الذين خاضوا في كيفية صفات الله–أنه قال في ربه في عام واحد خمسة أقاويل [(٢)]، وصدق الله إذ قال في كتابه العزيز: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: الآية: ٨٢].

فعلى المسلم أن يحذر من التكييف أو محاولته، فإن من فعل ذلك فقد وقع في مفاوز لا يستطيع الخلاص منها، فالخوض في ذلك هو مما يلقيه الشيطان في القلوب، وهو نزغة من نزغاته، فلذلك يجب على المؤمن أن يلجأ إلى ربه ويستعيذ به من نزغات الشيطان، قال–تعالى–: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. [الأعراف: الآية: ٢٠٠].

قال الطحاوي–رحمه الله–(ت: ٣٢١ هـ): "ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهرالتسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائهًا زائغًا شاكًا، لا مؤمنا مصدقًا، ولا جاحدًا

(١) القواعد المثلى ص ٢٧-٢٨

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٣٣

مكذبا". [١]

ثالثاً: معنى قول السلف: "بلا كيف".

إن معنى قول السلف "بلا كيف" أي بلا كيف يعقله البشر، فليس المراد من قولهم "بلا كيف" هو نفي الكيف مطلقًا، فإن كل شيء لابد أن يكون على كيفية ما، ولكن المراد هو نفي العلم بالكيف، إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه [٢]، فهذا مما استأثر الله بعلمه فلا سبيل إلى الوصول إليه، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها، فكذلك صفاته سبحانه لا نعلم كيفيتها. ولهذا لما سئل الإمام مالك-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ)، فقيل له: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: الآية: ٥]، كيف استوى؟

قال-رحمه الله-: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم قال للسائل: وما أراك إلا رجل سوء، وأمر بإخراجه من مجلسه". [٣]

وقد روى عن شيخه ربيعة بن عبد الرحمن-رحمه الله-(ت: ١٣٦ هـ) قوله: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول". [٤] أي لا تعقله العقول ولا تحيط به.

---

(١) العقيدة الطحاوية ص: ٩-١٠

(٢) شرح العقيدة الواسطية للهراس.

(٣) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (٦٦) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٤٤١) والصابوني-من ثلاثة طرق-في عقيدة السلف (١٨٠-١٨٥) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/٣٠٥) ح (٨٦٧) وفي الاعتقاد (٥٦). وقال الذهبي في العلو (١٣٩): "هذا ثابت عن مالك "

(٤) أخرجه اللالكائي في شرح أ صول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٤٤٢) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/٣٠٦) ح (٨٦٨) وساقه الذهبي في العلو (١٢٩) بإسناده إلى ربيعة، وصححه الألباني في مختصر العلو (١٣٢).

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٤٠): "وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة، قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن..." فذكره. وقال أيضًا في مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥): "ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك". - وروي نحوه عن أم سلمة-رضي الله عنها-، [أخرجه اللالكائي في شرح أصببول اعتقاد أهل السببنة والجماعة (٣/ ٤٤٠) والصابوني في عقيدة السلف (١٧٨-١٧٩)] لكنه غير ثابت عنها من طريق صحيح.

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥): "وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة-رضي الله عنها-، موقوفًا ومرفوعا، ولكن ليس

=

وهذا يقال في سائر الصفات، وقد مشى أهل العلم على هذا الميزان واعتبروا ذلك قاعدة من قواعد الصفات.

فقول الإمام مالك (الاستواء معلوم): أي معلوم المعنى في لغة العرب، فاستوى هنا عديت بعلى فهي هنا بمعنى علا وارتفع، وهكذا الأمر في سائر نصوص الصفات، فإن معانيها معروفة في لغة العرب، وليست مجهولة.

(والكيف مجهول): أي مع إثباتهم لمعنى الاستواء واعتقادهم بأن الله مستوٍ على عرشه ومرتفع عليه، إلا أنهم يكلون علم كيفية ذلك الاستواء إلى الله عز وجل، لأنه مما استأثر الله بعلمه.

(والإيمان به واجب): أي الإيمان باستواء الله على عرشه حقيقة واجب لوروده في النصوص الشرعية.

(والسؤال عنه بدعة): أي السؤال عن كيفية الاستواء، لأن السائل قال: كيف استوى؟

قال الوليد بن مسلم-رحمه الله-(ت: ١٩٥ هـ): "سألت الأوزاعي (ت: ١٥٧ هـ)، والثوري (ت: ١٦١ هـ)، ومالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ)، والليث بن سعد (ت: ١٧٥ هـ)، عن الأحاديث التي فيها الصفات، فكلهم قال: أمروها كما جاءت بلا تفسير[(١)] ".[(٢)]

وسئل عبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)، عن أحاديث الصفات فقال: "تمر كما جاءت بلا كيف".[(٣)]

إسناده مما يعتمد عليه".

وقال الذهبي في العلو (٨١): "هذا القول محفوظ عن جماعة، كربيعة الرأي، ومالك الإمام، وأبي جعفر الترمذي، فأما عن أم سلمة فلا يصح". وللدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر كتاب بعنوان: الأثر المشهور عن الإمام مالك-رحمه الله-في صفة الاستواء، دراسة تحليلية

(١) أي: تفسير الكيفية، كما في الرواية الأخرى عن الوليد أنهم قالوا: "امضها بلا كيف".

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (٣/ ١١٤٦)، والدارقطني في الصفات (٧٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السببنة والجماعة (٣/ ٥٥٨)، وأورده أبو يعلى في إبطال التأويلات (١/ ٤٧)، وابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩) وعزاه إلى الخلال في السنة، وأورده الذهبي في العلو (١٤٠-١٣٩).

(٣) إبطال التأويلات (١/ ٥٣).

وجاء عن وكيع بن الجراح-رحمه الله-(ت: ١٩٧ هـ)، أنه قال عن أحاديث الصفات: "نسلم هذه الأحاديث كما جاءت، ولا نقول: كيف هذا، ولِمَ جاء هذا".[١]

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام-رحمه الله- (ت: ٢٢٤ هـ)، -وقد ذكر بعض أحاديث الصفات-: "هذه الأحاديث صحاح، حملها أصحاب الحدبث والفقهاء، بعضهم عن بعض، وهي عندنا حق لا نشك فيها، ولكن إذا قيل: كيف وضع قدمه ؟ وكيف ضحك ؟ قلنا: لا يفسر هذا، ولا سمعنا أحدًا يفسره".[٢]

وقال أبو زرعة الرازي-رحمه الله-(ت: ٢٦٤ هـ)، عن أحاديث الصفات: "هذه أحاديث متواترة عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أمروها كما جاءت بلا كيف".[٣]

قال أبو يعلى-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ): "روي عن شيخنا وإمامنا أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) وغيره من أئمة أصحاب الحديث أنهم قالوا: أمروها كما جاءت، فحملوها على ظاهرها في أنها صفات لله تعالى لا تشبه سائر الموصوفين".[٤]

قال قوام السنة الأصبهاني-رحمه الله-(ت: ٥٣٥ هـ): "الكلام في صفات الله عز وجل، ما جاء منها في كتاب الله، أو روي بالأسانيد الصحيحة عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم، فمذهب السلف-رحمة الله عليهم أجمعين-: إثباتها وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها".[٥]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ومثل هذا يوجد كثيرًا في كلام السلف والأئمة،

---

(١) أخرجه الدارقطني في الصفات (٧١).

(٢) أخرجه الدارقطني في الصفات (٦٨-٦٩) وانظر: إبطال التأويلات (١/ ٤٨).

(٣) إبطال التأويلات (١/ ٥٣).

(٤) إبطال التأويلات (١/ ٤٣-٤٤).

(٥) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٨٨) وبنحوه قال الخطيب البغدادي، كما في السببير للذهبي (١٨/ ٢٨٤).

ينفون علم العباد بكيفية صفات الله، وأنه لا يعلم كيف الله إلا الله، فلا يعلم ما هو إلا هو".[(١)]

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "العقل قد يئس من تعرف كنه الصفة وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول السلف: (بلا كيف) أي: بلا كيف يعقله البشر، فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك، كما أنا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر، ولا نعرف حقيقة كيفيته، مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق، فعجزنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم.

فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود في معرفة كيفية من له الكمال كله، والجمال كله، والعلم كله، والقدرة كلها، والعظمة كلها، والكبرياء كلها ؟...".[(٢)]

رابعًا: عدم معرفة الكيفية لا يقدح في الإيمان بالصفات ومعرفة معانيها.

إن عدم العلم بكيفية صفات الله لا يقدح في الإيمان بتلك الصفات ومعرفة معانيها، لأن الكيفية وراء ذلك، فالسلف يثبتون لله ما أثبته لنفسه من صفات الكمال ويفهمون معاني تلك الصفات، ويفسرونها، فإذا أثبتوا لله السمع والبصر أثبتوهما حقيقة وفهموا معناهما، وهكذا سائر الصفات يجب أن تجري هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فإن الله سبحانه لم يكلف العباد ذلك ولا أراده منهم ولم يجعل لهم إليه سبيلاً.

وكثير من المخلوقات لم يجعل الله للعباد سبيلاً إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فهذه أرواح الخلائق التي هي أدنى إليهم من كل دان قد حجب عنهم معرفة كنهها وكيفيتها، وقد أخبرنا الله عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم ولم يعرفوا كيفيته وكنهه، فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهارًا من خمر وأنهارًا من عسل، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته كما قال ابن عباس: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٥٨).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٧٦)

الأسماء".

فكذا الأسماء والصفات لا يمنع انتفاء نظيرها في الدنيا من فهم معانيها وحقائقها والإيمان بذلك واعتقاد اتصاف الله بها.[١]

فإيماننا صحيح بحق ما كلفنا به، وإن لم نعرف حقيقة ماهيته وكيفيته، والله أعلم.

وهذه الأسس الثلاثة يجب الأخذ بها جميعًا، ولا يجوز الإخلال بشيء منها، فهذا ما كان عليه معتقد السلف من هذه الأمة ومن سار على نهجهم.

وهم بهذا توسطوا في هذا الباب بين طائفتين ضلتا في هذا الباب هما:

١-المعطلة.

٢-المشبهة.

فمعتقد السلف هو الإثبات بلا تشبيه، والتنزيه بلا تعطيل، فهم لا ينفون عن الله ما سمى أو وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسمائه وآياته كما فعل المعطلة.

كما أنهم لا يشبهون صفات الله بصفات خلقه كما فعل المشبهة.

المسألة الثالثة: الأبواب الثلاثة التي يشتمل عليها توحيد الأسماء والصفات.

يجب أن يُعْلَم أن توحيد الأسماء والصفات يشتمل على ثلاثة أبواب:

الباب الأول: باب الأسماء

الباب الثاني: باب الصفات

الباب الثالث: باب الإخبار

فنحن إذا وقفنا وقفةَ تأمل عند نصوص الكتاب والسنة الواردة في هذا الشأن نجد الحقائق التالية: أن الله أطلق على نفسه أسماء كـ (السَّميع) و(البصير)، وأوصافاً كـ (السمع) و(البصر)، وهكذا أخبر عن نفسه بأفعالها فقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣٥٨

الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: الآية: ١٥]. فاستعملها في تصاريفها المتنوعة، مما يدل على أن مثل ذلك يجوز إطلاقه عليه في أي صورة ورد.

وأطلق على نفسه أفعالاً كـ (الصُّنع) و(الصِّبغة) و(الفعل) ونحوها. قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: الآية: ١٣٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: الآية: ١٠٧]، لكنه لم يَتَسَمَّ ولم يصف نفسه بها ولكن أخبر بها عن نفسه، ممَّا يدل على أنَّها تخالف الأوَّل في الحكم فوجب الوقوف فيها على ما ورد

ووصف نفسه بأفعال في سياق المدح كـ (يريد) و(يشاء) فقال جلَّ شأنه:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: الآية: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: الآية: ٢٩] إلا أنه لم يشتق له منها أسماء فدل على أن هذا النوع مخالف للقسمين الأولين، فوجب رده إلى الكتاب والسنة وذلك بالوقوف حيث أوقفنا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

ووصف نفسه بأفعال أخرى على سبيل المقابلة بالعقاب والجزاء فقال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُم﴾ [النساء: الآية: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية: ٣٠]. ولم يشتق منها أسماء له تعالى فدل ذلك على أن مثل هذه الأفعال لها حكمٌ خاصٌ فوجب الوقوف على ما ورد

فهذه الحقائق السابقة قررت عند العلماء النتائج التالية:

١. أن النصوص جاءت بثلاثة أبواب هي (باب الأسماء) و(باب الصفات) و(باب الإخبار)

٢. أن باب الأسماء هو أخص تلك الأبواب، فما صح اسماً صحَّ صفة وصحَّ خبراً وليس العكس

٣. باب الصفات أوسع من باب الأسماء، فما صحَّ صفة فليس شرطاً أن يصحَّ اسماً، فقد يصحُّ وقد لا يصح، مع أن الأسماء جميعها مشتقة من صفاته

٤. أن ما يدخل في باب الإخبار عنه –تعالى– أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، فالله

يُخْبَرُ عنه بالاسم وبالصفة وبما ليس باسم ولا صفة كألفاظ (الشييء) و(الموجود) و(القائم بنفسه) و(المعلوم)، فإنه يخبر بهذه الألفاظ عنه ولا تدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا

إن باب الأسماء والصفات توقيفيان.

فالأصل في إثبات الأسماء والصفات أو نفيهما عن الله تعالى هو كتاب الله وسنة نبيه-صلى الله عليه وسلم-، فما ورد إثباته من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة فيجب إثباته، وما ورد نفيه فيهما فيجب نفيه

وأما ما لم يرد إثباته ونفيه فلا يصح استعماله في باب الأسماء والصفات إطلاقاً.[(١)]

قال الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لا نتجاوز القرآن والسنة".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله-صلى الله عليه وسلم-".[(٢)]

أما باب الإخبار فالسلف لهم فيه قولان:

القول الأول: أن باب الإخبار توقيفي، فإن الله لا يُخْبَرُ عنه إلا بما ورد به النص، وهذا يشمل الأسماء والصفات، وما ليس باسم ولا صفة مما ورد به النص كـ (الشيء) و(الصنع) ونحوها

وأما مالم يرد به النص فإنهم يمنعون استعماله.[(٣)]

القول الثاني: إن باب الإخبار لا يشترط فيه التوقيف، فما يدخل في الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كـ (الشيء) و(الموجود) و(القائم بنفسه)، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فالإخبار عنه قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيِّئ، أي باسم لا ينافي الحسن، ولا يجب أن يكون حسناً، ولا يجوز أن يخبر عن الله باسم

(١) رسالة في العقل والروح لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (٢/ ٤٦-٤٧).

(٢) منهاج السنة (٢/ ٥٢٣).

(٣) انظر رسالة في العقل والروح (٢/ ٤٦-٤٧).

سيِّئ فيخبر عن الله بما لم يرد إثباته ونفيه بشرط أن يستفصل عن مراد المتكلم فيه، فإن أراد به حَقًّا يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أراد به معنى لا يليق بالله عز وجل وجب رده.[(١)]

المسألة الرابعة: الألفاظ المجملة وحكم دخولها في باب الصفات وموقف أهل السنة من استعمالها.

يمكن تقسيم الألفاظ المجملة–أي التي لم يرد استعمالها في النصوص–على النحو التالي:

أولاً: ألفاظ ورد استعمالها ابتداءً في بعض كلام السلف.

ومن أمثلة ذلك لفظ (الذات) و(بائن)

وهذه الألفاظ تحمل معاني صحيحة دلت عليها النصوص

وهذا النوع من الألفاظ يجيز جمهور أهل السنة استعمالها

وهناك من يمنع ذلك بحجة أن باب الإخبار توقيفي كسائر الأبواب

والصواب أنه ما دام المعنى المقصود من ذلك اللفظ يوافق ما دلت عليه النصوص، واستعمل اللفظ لتأكيد ذلك فلا مانع

كقول أهل السنة: "إن الله استوى على العرش بذاته"

فلفظة (بذاته) مراد بها أن الله مستو على العرش حقيقة وأن الاستواء صفة له.

وكقولهم: "إن الله عالٍ على خلقه بائن منهم"

فلفظة (بائن) يراد بها إثبات العلو حقيقة، والرد على زعم من قال إن الله في كل مكان بذاته

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "والمقصود هنا أن الأئمة الكبار كانوا يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة، لما فيها من لبس الحق بالباطل، مع ما تُوقعه من الاشتباه والاختلاف والفتنة، بخلاف الألفاظ المأثورة، والألفاظ التي بينت معانيها، فإن ما كان مأثوراً حصلت به الألفة، وما كان معروفاً حصلت به المعرفة".[(٢)]

---

(١) رسالة في العقل والروح (٢/٤٦–٤٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/٢٧١).

وقال أيضاً: "فطريقة السلف والأئمة أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل

ويراعون أيضاً الألفاظ الشرعية، فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا

ومن تكلم بما فيه معنى باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه

ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقاً وباطلاً نسبوه إلى البدعة، وقالوا إنما قابل البدعة ببدعة ورد باطلاً بباطل".[١]

فيستفاد من كلام شيخ الإسلام المتقدم أن الألفاظ على أربعة أقسام:

القسم الأول: الألفاظ المأثورة وهي التي وردت بها النصوص

القسم الثاني: الألفاظ المعروفة وهي التي بُيِّنَت معانيها

القسم الثالث: الألفاظ المبتدعة التي تدل على معنى باطل

القسم الرابع: الألفاظ المبتدعة التي تحتمل الحق والباطل

فلفظ (الذات) و(بائن) هي من القسم الثاني

وهذه الألفاظ كما أسلفنا إنما تستعمل في باب الإخبار ولا تستعمل في باب الأسماء والصفات، ولذلك لما اعترض الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ) على استعمالها بقوله: "وزعم بعضهم أنه جائز أن يقال له تعالى حد لا كالحدود كما نقول يد لا كالأيدي فيقال له: إنما أُحْوِجْنَا إلى أن نقول يد لا كالأيدي لأن اليد قد جاء ذكرها في القرآن وفي السنة فلزم قبولها ولم يجز رَدُّها. فأين ذكر الحد في الكتاب والسنة حتى نقول حد لا كالحدود، كما نقول يد لا كالأيدي؟!".[٢]

فرد شيخ الإسلام ابن تيمية على قول الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ) من وجوه منها: "أن هذا الكلام الذي ذكره إنما يتوجه لو قالوا: إن له صفة هي الحد، كما توهمه هذا الراد عليهم. وهذا لم يقله أحد، ولا يقوله عاقل؛ فإن هذا الكلام لا حقيقة له إذ ليس في الصفات التي يوصف

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٥٤).

(٢) نقض تأسيس الجهمية (١/٤٤٢).

بها شيء من الموصوفات-كما وصف باليد والعلم-صفة معينة يقال لها الحد، وإنما الحد ما يتميز به الشيء عن غيره من صفته وقدره".[(١)]

فأهل السنة لم يثبتوا بهذه الألفاظ صفة زائدة على ما في الكتاب والسنة، بل بينوا بها ما عطله المبطلون من وجود الرب تعالى ومباينته من خلقه وثبوت حقيقته".[(٢)]

ثانياً: ألفاظ ورد استعمالها في كلام بعض السلف تارة لإثباتها وتارة لنفيها.

ومن أمثلة ذلك: لفظ (الحد) ولفظ (المماسة)، فإطلاق السلف لها ليس من باب الصفات وإنما هو من باب الإخبار، ولهم في حال الإثبات والنفي توجيه ليس هذا محل بسطه

ثالثاً: ألفاظ ورد استعمالها في كلام بعض السلف وفي كلام خصومهم.

ومن أمثلة ذلك: لفظة (الجهة)

رابعاً: ألفاظ ورد استعمالها في كلام الخصوم ولم يرد استعمالها في كلام السلف.

ومن أمثلة ذلك: لفظ (الجسم) و(الحيز) و(واجب الوجود) و(الجوهر) و(العرض)

وأما النوعان الثالث والرابع فالجواب عن ذلك أن نقول الأصل في هذا الباب أن الألفاظ نوعان:

النوع الأول: نوع مذكور في كتاب الله وسنة رسوله وكلام أهل الإجماع.

فهذا يجب اعتبار معناه، وتعليق الحكم به، فإن كان المذكور به مدحاً استحق صاحبه المدح، وإن كان ذماً استحق الذم، وإن أثبت شيئا وجب إثباته، وإن نفى شيئا وجب نفيه، لأن كلام الله حق، وكلام رسوله حق، وكلام أهل الإجماع حق

وهذا كقوله-تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآيات: ١-٤]، وقوله-تعالى-: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِن﴾ [الحشر ٢٢-٢٣]، ونحو ذلك من أسماء الله وصفاته

---

(١) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٤٤٢-٤٤٣).

(٢) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٤٤٥).

وكذلك قوله-تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، وقوله-تعالى-: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَار﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣]، وقوله-تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣]، وأمثال ذلك مما ذكره الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا كله حق.

النوع الثاني: الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع

فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها، إلا أن يبين أنه يوافق الشرع، والألفاظ التي تعارض بها النصوص هي من هذا الضرب، كلفظ (الجسم) و(الحيز) و(الجهة) و(الجوهر) و(العرض) [١] فإن هذه الألفاظ يدخلون في مسماها الذي ينفونه أموراً مما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، فيدخلون فيها نفي علمه وقدرته وكلامه، ويقولون إن القرآن مخلوق، ولم يتكلم الله به، وينفون رؤيته لأن رؤيته على اصطلاحهم لا تكون إلا لمتحيز في جهة وهو جسم، ثم يقولون: والله منزه عن ذلك فلا تجوز رؤيته. وكذلك يقولون إن المتكلم لا يكون إلا جسماً متحيزاً، والله ليس بجسم متحيز فلا يكون متكلماً، ويقولون: لو كان فوق العرش لكان جسماً متحيزاً، والله ليس بجسم متحيز، فلا يكون متكلماً فوق العرش وأمثال ذلك.[٢]

الموقف من هذا النوع: "إذا كانت هذه الألفاظ مجملة-كما ذُكر-فالمخاطب لهم إما:

١-أن يفصل لهم ويقول: ما تريدون بهذه الألفاظ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن قُبلت. وإن فسروها بخلاف ذلك رُدَّت

٢-وأما أن يمتنع عن موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفياً وإثباتاً. ولكن يلاحظ

أن الإنسان إذا امتنع عن التكلم بها معهم فقد ينسبونه إلى الجهل والانقطاع

وأن الإنسان إذا تكلم بها معهم نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً،

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤١-٢٤١)

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٨).

وأوهموا الجهال باصطلاحهم أن إطلاق تلك الألفاظ يتناول المعاني الباطلة التي ينزه الله عنها". [(١)]

ولعل الراجح في المسألة أن الأمر يختلف باختلاف المِصْلَحَةِ

١-فإن كان الخصم في مقام دعوة الناس إلى قوله وإلزام الناس بها أمكن أن يقال له: لا يجب على أحد أن يجيب داعياً إلا إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا له دعوة الناس إلى ذلك، ولو قدر أن ذلك المعنى حق

وهذه الطريق تكون أصلح إذا لَبَّسَ مُلَبِّسٌ منهم على ولاة الأمور، وأدخلوه في بدعتهم، كما فعلت الجهمية بمن لبسوا عليه من الخلفاء حتى أدخلوه في بدعتهم من القول بخلق القرآن وغير ذلك، فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال: إئتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة

وهذا لأن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل، وهؤلاء المختلفون يدعي أحدهم أن العقل أدَّاه إلى علم ضروري ينازعه فيه الآخر، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلا الكتاب والسنة

وبهذا ناظر الإمام أحمد الجهمية لما دعوه إلى المحنة، وصار يطالبهم بدلالة الكتاب والسنة على قولهم

فلما ذكروا حججهم كقوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٢]، وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: الآية: ٢]، وقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: (تجيء البقرة وآل عمران)، وأمثال ذلك من الأحاديث.

أجابهم عن هذه الحجج بما بين به أنها لا تدل على مطلوبهم

ولما قالوا: ما تقول في القرآن أهو الله أو غير الله؟ عارضهم بالعلم فقال: ما تقولون في العلم أهو الله أو غير الله؟ ولما ناظره أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث-وكان من أحذقهم بالكلام-

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٨).

ألزمه التجسيم، وأنه إذا أثبت لله كلاماً غير مخلوق لزم أن يكون جسماً

فأجابه الإمام أحمد: بأن هذا اللفظ لا يُدرى مقصود المتكلم به، وليس له أصل في الكتاب والسنة والإجماع، فليس لأحد أن يلزم الناس أن ينطقوا به ولا بمدلوله

وأخبره أني أقول: هو أحد، صمد، لم يلد ولم يلد، ولم يكن له كفواً أحد، فبين أني لا أقول هو جسم ولا ليس بجسم، لأن كلا الأمرين بدعة محدثة في الإسلام، فليست هذه من الحجج الشرعية التي يجب على الناس إجابة من دعا إلى موجبها، فإن الناس إنما عليهم إجابة الرسول فيما دعاهم إليه وإجابة من دعاهم إليه رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، لا إجابة من دعاهم إلى قول مبتدع، ومقصود المتكلم بها مجمل لا يُعرف إلا بعد الاستفصال والاستفسار، فلا هي معروفة في الشرع، ولا معروفة بالعقل إن لم يستفسر المتكلم بها

فهذه المناظرة ونحوها هي التي تصلح إذا كان المناظر داعياً

٢–وأما إذا كان المناظر معارضاً للشرع بما يذكره، أو ممن لا يمكن أن يرد إلى الشريعة مثل من لا يلتزم الإسلام ويدعو الناس إلى ما يزعمه من العقليات أو ممن يدَّعي أن الشرع خاطب الجمهور، وأن المعقول الصريح يدل على باطن يخالف الشرع، ونحو ذلك.

أو كان الرجل ممن عرضت له شبهة من كلام هؤلاء

فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من الكلام على المعاني التي يدعونها إما:

١–بألفاظهم

٢–وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم، وحينئذ يقال لهم الكلام إما:

أ–أن يكون في الألفاظ.

ب–وإما أن يكون في المعاني.

جـ–وإما أن يكون فيهما.

فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع بل يسميه علة وعاشقاً ومعشوقاً ونحو ذلك

فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسناً

وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم، فبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ. كما لو جاء جيش كفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم، فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفاً من التشبه بهم في الثياب

وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشريعة

فإنه يقال له: إطلاق هذه الألفاظ نفياً وإثباتاً بدعة، وفي كل منها تلبيس وإيهام، فلابد من الاستفسار والاستفصال؛ أو الامتناع عن إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات.

وقد ظن طائفة من الناس أن ذم السلف والأئمة للكلام إنما لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المحدثة كلفظ (الجوهر) و(الجسم) و(العرض)، وقالوا: إن مثل هذا لا يقتضي الذم، كما لو أحدث الناس آنية يحتاجون إليها، أو سلاحاً يحتاجون إليه لمقاتلة العدو، وقد ذكر هذا صاحب الإحياء وغيره

وليس الأمر كذلك: بل ذمهم للكلام لفساد معناه أعظم من ذمهم لحدوث الألفاظ، فذموه لاشتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسنة، ومخالفته للعقل الصريح، ولكن علامة بطلانها مخالفتها للكتاب والسنة، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل قطعاً. ثم من الناس من يعلم بطلانه بعقله، ومنهم من لا يعلم ذلك

وأيضاً: فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئاً، وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وفي ذلك من فساد العقل والدين ما لا يعلمه إلا الله

فإذا رد الناس ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة فالمعاني الصحيحة ثابتة فيهما، والمحق يمكنه بيان ما يقوله من الحق بالكتاب والسنة.(١)

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/٢٢٨-٢٣٣).

[إثبات صفة اليدين]

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قول أهل السنة والجماعة في إثبات صفة اليد لله تعالى.

أ-معتقد أهل السنة والجماعة في صفة اليد.

ب-الأدلة على إثبات صفة اليد لله عز وجل.

ج-الأدلة من السنة على إثبات صفة اليدين لله عز وجل.

د-الأدلة النقلية على إثبات الكف والأصابع والأنامل لله عز وجل.

هـ-أقوال السلف في إثبات صفة اليدين لله-عزو جل-.

المسألة الثانية: أقوال المخالفين في صفة اليد لله-عز وجل-.



[٥٩]- قال المصنف رحمه الله: وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ويوعيها ما أراد.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قول أهل السنة والجماعة في إثبات صفة اليد لله تعالى.

أ-معتقد أهل السنة والجماعة في صفة اليد.

اليدان صفة ثبوتية ذاتية خبرية لله عز وجل، نثبتها كما نثبت باقي صفاته؛ على وجه الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهي ثابتة بالكتاب والسنة

والمقصود هنا بعبارة (صفة اليدين من الصفات:

١-الثبوتية.

٢-الذاتية.

٣-الخبرية).

١-(الثبوتية): فهي من الصفات ثبوتية الصفات الثبوتية، وتعريفها: هي ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.[١]

٢-(الذاتية): وهي صفة ذاتية باعتبار أنها لاتنفك عن الذات، والصفات الذاتية ضابطها: هي التي لا تنفك عن الذات.[٢]، أو: التي لم يزل ولا يزال الله متصفا بها. أو: الملازمة لذات الله تعالى.[٣]، ومنها: الوجه - اليدين - العينين [٤]

---

(١) الصفات الإلهية تعريفها وأقسامها ص: ٥٧.

(٢) الكواشف الجلية ص ٤٢٩.

(٣) التعريفات للجرجاني ص١٣٣.

(٤) مجموع الفتاوى ٦/٦٨.

قال ابن تيمية –رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "لله تعالى يدين مختصتان به، ذاتيتان له، كما يليق بجلاله" [(١)]

٣–(الخبرية): باعتبار أدلتها حيث تنقسم الصفات الثبوتية باعتبار أدلتها إلى قسمين:

القسم الأول: صفات شرعية عقلية، وهي ما اشترك في إثباتها الدليل العقلي مع الدليل الشرعي.

القسم الثاني: الصفات الخبرية وهي ما اقتصر في إثباتها على الدليل الشرعي فقط". [(٢)]

فصفة اليدين من القسم الثاني، وهي ما اقتصر في إثباتها على الدليل الشرعي فقط.

قال ابن القيم رحمه الله: "وَرَدَ لفظ اليد في القرآن، والسنة، وكلام الصحابة والتابعين، في أكثر من مائة موضع ورودًا متنوِّعًا، متصرفًا فيه، مقرونًا بما يدل على أنها يدٌ حقيقية، من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط، والمصافحة، والحثيات، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده، وغَرس جنة عدن بيده، وتخمير طينة آدم بيده، ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه، فقال: (اخترتُ يمينَ ربي)، وأخذ الصدقة بيمينه يربّيها لصاحبها، وكتابته بيده على نفسه أن رحمته تغلب غضبه، وأنه مَسَحَ ظهرَ آدم بيده، ثم قال له – ويداه مقبوضتان –: "اختر"، فقال: (اخترتُ يمين ربي)، وكلتا يديه يمين مباركة، وأن يمينه ملأى، لا يغيضها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار، وبيده الأخرى القسط، يرفع ويخفض، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهنَّ بيده اليُمْنَى، ثم يطوي الأرض باليد الأخرى، وأنه خَطَّ الألواحَ التي كتبها لموسى بيده". [(٣)].

ب–الأدلة على إثبات صفة اليد لله عز وجل.

---

(١) الرسالة المدنية ص: ٩.

(٢) الصفات الإلهية تعريفها وأقسامها ص: ٨٩.

(٣) انظر: (مختصر الصواعق المرسلة)، ص (٣٤٨).

أولًا: الأدلة من القرآن الكريم.

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفردًا ومثنى ومجموعًا،

١-فالمفرد كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: الآية: ١].

٢-والمثنى كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية: ٧٥].

٣-والمجموع ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: الآية: ٧١].

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليها فقال ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: الآية: ٧٥]، وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء".[١]

١-قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: الآية: ٦٤].

٢-قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: الآية: ٧٥].

قال ابن جرير-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): "﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، يقول لخلق يديّ؛ يخبر تعالى ذكره بذلك أنه خلق آدم بيديه".[٢]

٤-قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: الآية: ٢٦].

٥-قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: الآية: ٦٧].

٦-قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: الآية: ١٠].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص: ٤٠.

(٢) تفسير الطبري (تفسير سورة ص: الآية: ٧٥).

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "ووجه الدلالة أن الله أضاف اليد إلى نفسه، فنثبتها صفة كمال بجلاله وعظمته.

ولا يلزم من ظاهر اللفظ حصول المماسة بين يد الله تعالى وأيديهم، بل إن من المتقرر شرعًا وعقلًا علو الله تعالى على خلقه، فيد الله تعالى حقيقة فوق أيديهم، فجاء ذكر اليد تأكيداً للمبايعة وتشديداً عليها، فلما كانوا يبايعون رسول الله بأيديهم، ويضرب بيده على أيديهم، وكان رسول الله هو السفير بينه وبينهم، كانت مبايعتهم له مبايعة الله تعالى، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه، وفوق الخلائق كلهم، كانت يده فوق أيديهم، كما أنه سبحانه فوقهم". [(١)]

فالسياق وإن كان دالاً على تأكيد المبايعة، إلا أنه لما أضاف اليد إلى نفسه دل على اتصافه بها، فلو كانت نقصاً لم يضفها - تعالى - إلى نفسه.

٧-قال تعالى: ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: الآية: ٨٨].

٨-قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: الآية: ٨٣].

٩-قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: الآية: ٧١].

١٠-قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: الآية: ٦٧].

١١-قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: الآية: ١].

ج-الأدلة من السنة على إثبات صفة اليدين لله عز وجل.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد تواتر في السنة مجيء اليد في حديث النبي

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص: ٣٣٤.

صلى الله عليه وسلم".[(١)]

عن أبي هُرَيْرَة رضِيَ اللهُ عنه–(ت: ٥٩ هـ) أنَّ النَّبيَّ–صلى الله عليه وسلم–قال: (يمينُ الرحمن ملأى سحَّاءُ لا يغيضُها اللَّيلَ والنَّهارَ)، قالَ: (أرأيتُم ما أنفقَ منذُ خلقَ السَّماواتِ، فإنَّهُ لم يغِضْ ما في يمينِهِ، وعرشُهُ على الماءِ، وبيدِهِ الأخرى الميزانُ يخفِضُ ويرفعُ).[(٢)]

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ–رضِيَ اللهُ عنه–(ت: ٧٤ هـ) قَالَ النَّبِيُّ–صلى الله عليه وسلم–: (تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ).[(٣)]

عن أبي هُرَيْرَةَ–رضِيَ اللهُ عنه–(ت: ٥٩ هـ) قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) :مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً).[(٤)]

عن أبي هُرَيْرَةَ–رضِيَ اللهُ عنه–(ت: ٥٩ هـ) أنَّ النَّبيَّ–صلى الله عليه وسلم–قال: (احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنتَ أبونا، خيَّبْتَنا وأخرجْتَنا منَ الجنَّةِ، فقالَ لَهُ آدمُ: أنتَ موسَى، اصطفاكَ اللهُ بِكَلامِهِ، وخطَّ لَكَ بيدِه).[(٥)]

عن أَبِي مُوسَى–رضِيَ اللهُ عنه–(ت: ٤٤ هـ): قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ–صلى الله عليه وسلم:– (إن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).[(٦)]

---

(١) الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله ص: ٩.

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥) واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢).

(٤) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.

(٥) رواه مسلم (٢٦٥٢).

(٦) رواه مسلم (٢٧٥٩).

عن أبي هُرَيْرَةَ-رضِيَ اللهُ عنه-(ت: ٥٩ هـ)، أنَّ النَّبيَّ-صلى الله عليه وسلم-في حديث الشفاعة: قال: (فيأتونَ آدمَ فيقولونَ: أنتَ أبو البشرِ، خلقَكَ اللَّهُ بيدِهِ ونفخَ فيكَ من روحِهِ، وأمرَ الملائِكةَ فسجدوا لَكَ، اشفع لنا إلى ربِّكَ).(١)

عن عَبْدِاللَّهِ بن مسعود-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-(ت: ٣٢ هـ) قال: جاء حَبرٌ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا محمدُ، إنَّ اللهَ يَضَعُ السماءَ على إصبَعٍ، والأرضَ على إصبَعٍ، والجبالَ على إصبَعٍ، والشجرَ والأنهارَ على إصبَعٍ، وسائرَ الخلقِ على إصبَعٍ، ثم يقولُ بيدِه: أنا الملِكُ، فضحِك رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وقال: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ).(٢)

عن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه-(ت: ٥٩ هـ)، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال) :يقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويَطوي السَّماواتِ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا الملِكُ، أين مُلوكُ الأرضِ؟).(٣)

عن عمر-رضِيَ اللهُ عنه-(ت: ٢٣ هـ)، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ اللهَ عز وجل خلق آدمَ، ثم مسح ظهرَه بيمينه، فاستخرج منه ذريةً).(٤)

عن عبد الله بن عمرو-رضِيَ اللهُ عنهما-(ت: ٦٥ هـ): قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا).(٥)

عن ابْنِ عباس-رضِيَ اللهُ عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-قَالَ:

(١) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).
(٢) رواه البخاري (٧٤٥١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٦).
(٣) رواه البخاري (٤٨١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧).
(٤) رواه أبوداود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وصححه الألباني في (صحيح الترمذي) (٣٠٧٦).
(٥) رواه مسلم (١٨٢٧).

(إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقَلَمُ، وَأَخَذَهُ بِيَمِينِهِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ).[(١)]

عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)، قال: قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك).[(٢)]

عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)، قال: رأيت رسول الله-صلى الله عليه وسلم-على المنبر وهو يقول: (يأخذ الجبار عز وجل، سماوته وأرضيه بيديه).[(٣)]

د-الأدلة النقلية على إثبات الكف والأصابع والأنامل لله عز وجل:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ-رضِيَ اللهُ عنه-(ت: ٥٩ هـ): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-: (مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ).[(٤)]

عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)، قال: جاء حَبرٌ إلى رسولِ اللهِ-صلى الله عليه وسلم-فقال: (يا محمدُ، إنَّ اللهَ يَضَعُ السماءَ على إصبَعٍ، والأرضَ على إصبَعٍ، والجبالَ على إصبَعٍ، والشجرَ والأنهارَ على إصبَعٍ، وسائرَ الخلقِ على إصبَعٍ، ثم يقولُ بيدِه: أنا الملِكُ، فضحِك رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وقال: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ).[(٥)]

عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-يَقُولُ: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-: (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا

---

(١) رواه الآجري في (الشريعة) (٥٤٢) (٢/٩٤٧) بهذا السياق، قال الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣١٣٦): إسناده صحيح، وله شواهد متفرقة.

(٢) رواه البخاري (٧٥١٨)، ورواه مسلم (٢، ٤/ ٢١٧٦ رقم: ٩).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢١٤٩ رقم: ٢٦).

(٤) رواه مسلم (١٦٩٠).

(٥) رواه البخاري (٧٤٥١)، ومسلم (٢٧٨٦).

عَلَى طَاعَتِكَ).[١]

عَنْ مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ-رضِيَ اللهُ عنه-(ت: ١٨ هـ)، قَالَ: احْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى قَرْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَرِيعًا، فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ، وَصَلَّى وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ، قَالَ: (كَمَا أَنْتُمْ عَلَى مَصَافِّكُمْ كما أنتم)، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: (إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ، فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ، قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ، وَجُلُوسٌ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكَرِيهَاتِ، قَالَ: وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، قَالَ: سَلْ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا).[٢]

هـ-أقوال السلف في إثبات صفة اليدين لله-عزو جل-.

لفظ اليد ورد متواترًا في القرآن، والسنة، وفي كلام الصحابة والتابعين:

قال الإمام الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمَّته...، وأن له يدين بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: الآية: ٦٤]، وأن له يمينًا بقوله: ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: الآية:

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٢) رواه أحمد (٥ /٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥)، وصححه والألباني.

٦٧]".[1]

قال أبو الحسَن الأشعَري-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ): "وأجمعوا على أنه عزَّ وجلَّ يَسْمَعُ ويَرَى، وأن له تعالى يدين مبسوطتَيْن".[2]

قال أبو عيسى الترمذي-رحمه الله-(ت: ٢٧٩ هـ): "قال أهل العلم في أحاديث الصفات مثل حديث النزول، وذكر الرجل، والقدم، واليدين: نؤمن بهذا كله ولا يقال: كيف، ولا لم، مع اعتقاد التمجيد ونفي التشبيه والتمثيل، وينسبون من أنكرها إلى الجهمية، والصحيح إمرارها كما جاءت، وبه قال مالك والشافعي، والثوري، وابن عيينة، وابن المبارك وجميع المحدثين وأهل العلم من السنة والجماعة، وأما الجهمية فقالوا: هذا تشبيه ثم تأولوه".[3]

قال ابن خزيمة-رحمه الله-(ت: ٣١١ هـ): "باب ذكر إثبات اليد للخالق البارئ جل وعلا والبيان أنَّ الله -تعالى- له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله ...".

ثم قال: باب ذكر البيان من سنة النبي صلى الله عليه وسلم: على إثبات يد الله-جل وعلا-، موافقاً لما تلونا من تنزيل ربنا لا مخالفاً"، ثم ذكر عدداً من النصوص الدالة على ذلك.[4]

وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع، والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقدرة، والعزة، والعظمة، والإرادة، والمشيئة، والقول والكلام، والرضا والسخط، والحياة، واليقظة، والفرح، والضحك، وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله-تعالى-، وقاله رسوله-صلى الله عليه وآله وسلم-من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه، ولا تكييف له ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما

---

(١) (طبقات الحنابلة) لابن أبي يعلى (١ /٢٨٢).

(٢) انظر: (رسالته إلى أهل الثغر)، ص (٢٢٥).

(٣) انظر الجامع للترمذي ٣/ ٥٠-٥١، مستخرج الطوسي ٣/ ٣٦٧، وراجع العلو رقم (٤٧٧).

(٤) كتاب التوحيد ١/ ١١٨-١٢٥.

تعرفه العرب، وتضعه عليه بتأويل منكر، ويجرونه على الظاهر، ويكلون علمه إلى الله تعالى، ويقرون بأن تأويله لا يعلمه إلا الله، كما أخبر الله عن الراسخين في العلم أنهم يقولونه في قوله-تعالى-: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: الآية: ٧].

وقال أبو الحسن الأشعري-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ): "وأجمعوا على أنه عزَّ وجلَّ يسمع ويرى، وأنَّ له تعالى يدين مبسوطتين".[١]

وقال أبو بكر الإسماعيلي-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ)، -فيما ذكره عن اعتقاد أئمة الحديث-: "ويعتقدون أنَّ الله -تعالى-مدعو بأسمائه الحسنى، وموصوف بصفاته التي سمى ووصف بها نفسه، ووصفه بها نبيه-صلى الله عليه وسلم-، خلق آدم بيده، ويداه مبسوطتان ينفق، كيف يشاء، بلا اعتقاد كيف يداه إذ لم ينطق كتاب الله- تعالى-فيه بكيف".[٢]

وقال أبو بكر الإسماعيلي-رحمه الله-(ت: ٣٧٠ هـ): "وخلق آدم عليه السلام بيده، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، بلا اعتقاد كيف يداه، إذ لم ينطق كتاب الله تعالى فيه بكيف".[٣]

وقال السمعاني-رحمه الله-(ت: ٤٨٩ هـ): "وأما اليد: صفة الله-تعالى-بلا كيف، وله يدان ...".[٤]

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي-رحمه الله-(ت: ٣٩٢ هـ): "وأما الكلام في الصفات؛ فما روي في السنن الصحاح؛ فمذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها، والأصل في هذا أن الكلام في صفات فرع على الكلام في الذات، وإذا كان معلوما أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فكذلك

---

(١) (رسالة إلى أهل الثغر) (ص ٢٢٥).

(٢) اعتقاد أئمة الحديث ٤٩-٥١.

(٣) (اعتقاد أئمة الحديث) (ص ٥١).

(٤) تفسير القرآن ٢/ ٥١.

إثبات صفاته فإنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: يد وسمع وبصر؛ فإنما هو إثبات صفات أثبتها الله لنفسه، ولا نقول: إن معنى اليد: القدرة، ولا نقول: إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح وأدوات الفعل".[١]

وقال البغوي–رحمه الله–(ت: ٥١٦ هـ): "... وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب والسنة كاليد، والإصبع ... فالإيمان بها فرض، والامتناع عن الخوض فيها واجب، فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكر معطل، والمكيف مُشبه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ...".[٢]

وقال الأصبهاني–رحمه الله–(ت: ٥٣٥ هـ): "والإيمان بما ورد في القرآن من صفات الله–تعالى–، كاليد وإمرارها على ما جاءت لا تكيّف، ولا تتأول".[٣]

وقرر ابن قدامة المقدسي–رحمه الله–(ت: ٦٠٠ هـ) ثبوت صفة اليد لله، فقال: "ومن صفاته– سبحانه– الواردة في كتابه العزيز، الثابتة عن رسوله المصطفى الأمين اليدان فلا نقول يد كيد ولا نكيف ولا نشبه".[٤]

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "إنَّ لله تعالى يدين مختصتين به، ذاتيتين له، كما يليق بجلاله".[٥]

وقال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "فإن قيل: لا تكون اليد حقيقة إلا جارحة وجسما.

قيل: فما تقولون في يدي الله تعالى؟ فإن قالوا: نقول: بمعنى القدرة.

قيل: فالقدرة لا تكون [إلا] عرضا، ولا تُعقل إلا عرضًا.

---

(١) انظر رسالته في الصفات ص ٦٤–٦٥، ونقله عنه ابن قدامه في ذم التاويل ص: ١٥.

(٢) شرح السنة ١٥/ ٢٥٧–٢٥٨.

(٣) الحجة في بيان المحجة ٢/ ٣١١.

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد ص: ١١٢–١١٧.

(٥) (مجموع الفتاوى) (٦/ ٢٦٣).

فإن قالوا: إنما تكون عرضًا فينا.

قلنا: إنما تكون جارحة فينا ...

ولِمَ قلتم أيضًا: إن اليد إنما تكون حقيقة هذه الجارحة، بل إنما اليد لفظ مشترك، وهي بحسب ما تضاف إليه ومن جنس ما توصف بها، فإن كان الموصوف بها حيواناً كانت جارحة، وإن كان تمثالاً من صفراء وحجر كانت صفراء وحجر، وإن كان تمثالاً عرضاً في حائط كانت عرضاً في حائط، وإن كان ليس كمثله شيء وليس بجسم كانت ليس كمثلها شيء وليست بجسم ...

فنقول: لله تعالى يد حقيقة تليق به، ولا يلزم من ذلك محذور من تشبيه أو تجسيم".[(١)]

وصف إحدى يدي الله جل وعلا بالشمال على قولَيْن لأهل العلم:

١-القائلون بأنَّ كلتا يدي الله يَمِين لا شمال ولا يسار فيهما، ومنهم: الإمام ابن خزيمة-رحمه الله-(ت: ٣١١ هـ) في (كتاب التوحيد)، والإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، والبيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ).

واستدلوا بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)، مرفوعًا: (إنَّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يَمِين الرحمن عزَّ وجلَّ، وكلتا يديه يَمِين...).[(٢)]

وأهل السنة والجماعة يُثبتون صفة الأصابع لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل:

قال الإمام الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيُّه صلى الله عليه وسلم أمته ... وأن له إصبعًا بقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: (ما من قلبٍ إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عزَّ وجلّ).[(٣)]

---

(١) رسالة في إثبات صفة اليد (ص: ٤٢، ٤٦) [ضمن مجموع رسائل بتحقيق: عبد الله البراك].

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٣) (طبقات الحنابلة) لابن أبي يعلى (١ /٢٨٢).

قال إمام الأئمة ابن خزيمة-رحمه الله-(ت: ٣١١ هـ) في كتاب (التوحيد): (باب إثبات الأصابع لله عَزَّ وجَلَّ)، وذكر بأسانيده ما يثبت ذلك.

وقال أبو بكر الآجري-رحمه الله-(ت: ٣٦٠ هـ) في كتاب (الشريعة): (باب الإيمان بأن قلوب الخلائق بين إصبعين من أصابع الرب-عَزَّ وجَلَّ-، بلا كيف).

وقال البغوي-رحمه الله-(ت: ٥١٦ هـ): "والإصْبع المذكورة في الحديث صفةٌ من صفات الله عَزَّ وجَلَّ، وكذلك كلُّ ما جاء به الكتاب أو السنَّة من هذا القبيل من صفات الله تعالى؛ كالنَّفس، والوجه، والعين، واليد، والرِّجل، والإتيان، والمجيء، والنُّزُول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح".[1]

وأهل السنة والجماعة يُثْبِتُون صفة الكف لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غَيْر تكْييف ولا تمثيل:

قال قَوَّام السُّنَّة الأصبهاني-رحمه الله-(ت: ٥٣٥ هـ) بعد سرده لجملة من أحاديث الصفات: "وقوله: (إنَّ أحدكم يأتي بصدقته فيضعها في كف الرحمن)، وقوله: (يضع السماوات على إصبع والأرضين على إصبع).. وأمثال هذه الأحاديث، فإذا تدبَّره متدبر، ولم يتعصب بانَ له صحة ذلك، وأنَّ الإيمان به واجب، وأنَّ البحث عن كيفية ذلك باطل".[2]

وقال رحمه الله: "وللكف معانٍ، وليس يحتمل الحديث شيئًا من ذلك، إلا ما هو معروف في كلام العرب، فهو معلوم بالحديث، مجهول الكيفية".[3]

وقال صديق حسن خان-رحمه الله-(ت: ١٣٠٧ هـ): "ومن صفاته سبحانه: اليد والإصبع والكف".[4]

---

(١) (شرح السنة) (١/ ١٦٨).

(٢) (الحجة) (٢/ ٢٥٩).

(٣) (الحجة) (٢/ ٢٦٢).

(٤) (قطف الثمر) (٦٦).

وأهل السنة والجماعة يُثبتون صفة الأنامل لله تعالى كما يَليق بجلاله، من غَيْر تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل:

ويدل على هذه الصفة حديث معاذ بن جبل-حديث اختصام الملأ الأعلى-وفيه: (أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ، فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي).[(١)]

واستدل رحمه الله بهذا الحديث على إثبات صفة الأنامل لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلاله وعظيم سلطانه.[(٢)]

المسألة الثانية: أقوال المخالفين في صفة اليد لله-عز وجل-.

انقسم المبتدعة المخالفون لمنهج السلف في إثبات صفة اليد الله وعمل إلى طائفتين [(٣)]

الطائفة الأولى: المعطلة النفاة:

أنكر المعطلة ثبوت صفة اليد الله-عز وجل-حقيقة واحتجوا بأنَّ وصفه بذلك يعني وصفه-عز وجل-بالجوارح، والأعضاء، والأدوات والأبعاض، وهذا يقتضي كونه جسماً مركباً متبعضاً متجزئاً محدوداً، وهذا يستلزم تشبيه الخالق-عز وجل-بالمخلوق، والله-تعالى-منزه عن ذلك، ولا يشبه المخلوق.[(٤)]

وما ذهب إليه هؤلاء المعطلة غير صحيح والجواب عنه من وجوه:

الأول: أنَّ ظاهر هذا اللفظ ونحوه إذا أطلق على المخلوق كان عرضاً وجسماً؛ لأنَّ ذات المخلوق كذلك، لكن إذا أطلق على الله-عز وجل-فلا يكون ظاهره إلا ما يليق بجلاله-عز

---

(١) رواه أحمد (٥ /٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥)، وصحَّحه والألباني.

(٢) انظر: (نقض أساس التقديس) (٥٢٤-٥٢٦).

(٣) المصدر: بحث صفة اليد لله تعالى والرد على المخالفين، نوره بنت محمد الجاسر، مجلة الدراسات الإسلامية والبحوث الأكاديمية العدد (٨٣) من ص: ٢٤٠-٢٤٧.

(٤) ينظر: متشابه القرآن: عبد الجبار الهمذاني، ١/ ٢٣٠- ٢٣١، أصول الدين: البغدادي، ص: ١١١، الأسماء والصفات: البيهقي، ٢/ ١٧٢، العقيدة النظامية: الجويني، ص: ١٠٥، التفسير الكبير: الرازي، ٢٦/ ٢٠١.

وجل-ويناسب نفسه.[١]

الثاني: أنَّ إثبات هذه الصفة الله-عز وجل-وإنما يمتنع لو كانت اليد التي وصف الله بها أيدي المخلوقين، أما إذا كانت يداً تناسب ذاته عز وجل، وتليق بعظمته، فإنَّ هذا لا يمتنع[٢]، والسلف-رحمهم الله-يثبتون اليد الله وعلى وجه يليق بجلاله وعظمته دون تشبيه بيد المخلوق.

الثالث: أنَّ هؤلاء المعطلة قد فروا من إثبات تلك الصفة الله-عز وجل-حقيقة، خشية التشبيه والتمثيل، والتجسيم، والتركيب، وهذا المحذور لازم لهم فيما أثبتوه من صفات، فيلزمهم لذلك أن ينفوا ما أثبتوه من الصفات، خشية الوقوع في المحذور.[٣]

الرابع: أن لفظ التجسيم، والتركيب، والتحديد ... إلخ من الألفاظ المجملة، التي تحتمل معنى حقًّا ومعنى باطلاً، ومنهج السلف فيها، التفصيل في معناها، فإن أريد بها معنى حق قبلت، وإن أريد بها معنى باطل ردت.[٤]

فإن كان المراد بالجسم المنفي الجسد أو البدن الكثيف، الذي لا يسمى في اللغة جسم سواه، فقولهم حق.

وإن كان المراد به الجسم المركب من الجواهر المفردة، أو من المادة والصورة، فهذا أيضاً حق.

أما إذا كان المراد به ما يقوم به-عز وجل-من الصفات، فقولهم باطل، فإنَّ هذه المعاني ثابتة الله-عز وجل-وهو موصوف بها.[٥]

ومثل لفظ الجسم بقية الألفاظ يستفصل في معناها، فإن أريد بها معنى حق قبلت، وإن أريد بها معنى باطل ردت.

---

(١) ينظر الفتاوى الكبرى ابن تيمية، ٦/ ٤٧٢.

(٢) ينظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري: الغنيمان، ١/ ٣٢٩.

(٣) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ٢/ ٤٠٩.

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى شيخ الإسلام، ١/ ١١٠، ١٢/ ١١٤.

(٥) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ١/ ١٣٢، ٢/ ٤٠٩.

ولما رأى المعطلة استحالة وصف الله-عز وجل-باليد حقيقة، قاموا بتأويل هذه الصفة لله-عز وجل-بجملة من التأويلات، من أشهرها ما يلي:

التأويل الأول: قيل المراد باليد النعمة؛ لأنَّ اليد تطلق في اللغة بمعنى النعمة، يقال: لفلان علي يد، أي: نعمة ومنة.[١]

وأجابوا عن معنى التثنية الوارد في بعض النصوص بما يأتي:

الأول: أنّ الله إنما ثنى اليد مبالغة في الرد على اليهود ونفي البخل عنه، وإثباتاً لغاية الجود والسخاء، فإنَّ غاية ما يبذل السخي من ماله أن يعطيه بيديه جميعاً.[٢]

الثاني: أنَّهَا تثنية جنس لا تثنية واحد مفرد، فيدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع لا نهاية لها.[٣]

فقد يكون المراد بالتثنية باعتبار نعمة الدنيا ونعمة الآخرة[٤]، أو نعمة النفع ونعمة الدفع[٥]، أو نعمة الشدة ونعمة الرخاء[٦]، أو نعمة المطر والنبات[٧]، أو نعمة الظاهر ونعمة الباطن.[٨]

الثالث: أنَّ من عادة العرب أن تضع المثنى مكان المفرد.[٩]

التأويل الثاني: قيل المراد باليد القوة والقدرة؛ لأنَّ اليد يعبر بها في اللغة عن القوة والقدرة،

---

(١) ينظر: متشابه القرآن عبد الجبار الهمذاني، ١/ ٢٣٢، البحر المحيط: أبو حيان، ٣/ ٥٢٤، التفسير الكبير: الرازي، ١٢/ ٣٧.

(٢) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ١/ ١٣٢، ٢/ ٤٠٩.

(٣) ينظر: التفسير الكبير: الرازي، ١٢/ ٣٧، الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٦/ ٢٢٦.

(٤) ينظر: متشابه القرآن عبد الجبار المعتزلي ١/ ٢٣، التفسير الكبير: الرازي، ١٢/ ٣٧، ٢٦/ ٢٠١.

(٥) ينظر: التفسير الكبير: الرازي ١٢/ ٣٧.

(٦) ينظر: التفسير الكبير: الرازي ١٢/ ٣٧.

(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن القرطبي؛ ٦/ ٢٢٦، البحر المحيط: أبو حيان، ٣/ ٥٢٤.

(٨) ينظر متشابه القرآن عبد الجبار الهمذاني، ١/ ٢٣١، التفسير الكبير: الرازي، ١٢/ ٣٧، ٢٦/ ٢٠١.

(٩) ينظر: شرح الأصول الخمسة: عبد الجبار الهمذاني، ص: ٢٢٨، إكمال المعلم: القاضي عياض، ١/ ٥٦٨.

يقال: هذا الشيء في يد فلان وتحت يد فلان، أي: تحت قدرته وقوته [(١)]، واحتج على ذلك بقوله–تعالى–: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات: الآية: ٤٧]، أي بقوة.[(٢)]

وأجابوا عن معنى التثنية الوارد في بعض النصوص بما يأتي:

– الأول: أنَّ الله–عز وجل–وإنما ثنى اليد باعتبار قوة الثواب وقوة العقاب.[(٣)]

– الثاني: أنَّ من عادة العرب أن تأتي بالمثنى بمعنى الواحد.[(٤)]

وما ذهب إليه هؤلاء المعطلة من تأويل اليد بمعنى النعمة أو القدرة والقوة يعد تأويلاً باطلاً، والجواب عنه من وجوه:

الأول: أنَّ الأصل في الكلام الحقيقة، ولا ينصرف عنها إلى المجاز إلا بقرينة، ولا قرينة هنا، فدعوى المجاز مخالفة للأصل.[(٥)]، وقد تكرر التصريح بذكر اليد لله–عز وجل–في العديد من النصوص، وهي لا تحتمل التأويل بحال، ولا يمكن حمل اليد فيها إلا على الحقيقة، ومن لم يحملها على الحقيقة فهو معطل لها.[(٦)]

الثاني: أنّ هذا التأويل مخالف لإجماع السلف وطريقتهم–رحمهم الله–؛ حيث إنّهم مجمعون على إثبات اليد لله–عز وجل–حقيقة على الوجه اللائق به دون تعطيل وتأويل.[(٧)]

الثالث: أنَّ هذه المعاني اللغوية لليد إذا جازت في حق المخلوق، فإنَّها لا تجوز في حق الخالق–عز وجل–؛ لأن هذا لا يليق بصفاته–عز وجل–.

---

(١) ينظر: التمهيد الباقلاني، ص: ٢٩٦–٢٩٧، مشكل الحديث ابن فورك ص: ١٨٩،١٨٨،١٨٤، ٢٢٤.

(٢) ينظر: الإبانة: الأشعري: ص: ٥٥، دفع شبه التشبيه: ابن الجوزي، ص: ٣٣.

(٣) ينظر النكت والعيون الماوردي، ١/٥١، الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٦/ ٢٢٦.

(٤) ينظر: إكمال المعلم: القاضي عياض، ١/ ٥٦٨.

(٥) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ٢/٤٠١.

(٦) ينظر: شرح لمعة الاعتقاد: ابن عثيمين، ص: ٥٠.

(٧) ينظر: شرح لمعة الاعتقاد: ابن عثيمين، ص: ٥٠، شرح العقيدة الواسطية: ابن عثيمين، ١/ ٢٤٣، ٣٠٦

الرابع: أنَّ هذه الصفة الله-عز وجل-قد تصرفت تصرفاً يمنع هذا التأويل.[(١)] الخامس: أنَّ هذا التأويل مخالف للغة العرب التي نزل بها القرآن، إذ لا يوجد في كلام العرب، ولا العجم أيضاً، أنَّ فصيحاً يقول: فعلت هذا بيدي إلا يكون قد فعله بيديه حقيقة، ولا يصح أن يكون لا يد له أو أن يكون له يد، والفعل يقع بغيرها.[(٢)]

السادس: أنَّ مثل هذا التأويل لا يستعمل إلا مفرداً أو مجموعاً، كقولك: له عندي يد يجزيه الله بها، وله عندي آياد، أما إذا جاء بلفظ التثنية، لم يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية.[(٣)]

السابع: أنَّ لفظ (اليدين) بصيغة التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة؛ لأنَّ من لغة القوم استعمال الواحد في الجمع، كقوله – تعالى -: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: الآية: ٢]، ولفظ الجمع في الواحد، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاس﴾ [آل عمران: الآية: ١٧٣]، ولفظ الجمع في الاثنين، كقوله تعالى: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾ [التحريم: الآية: ٤]، أمَّا استعمال لفظ الواحد في الاثنين، أو الاثنين في الواحد فلا أصل له؛ لأن هذه الألفاظ عدد، وهي نصوص في معناها لا يتجوز بها.[(٤)]

الثامن: أنَّ هؤلاء المعطلة لما رأوا أنَّ اليد قد تطلق في بعض المواضع على النعمة والقدرة، ظنوا أنَّ كل سياق وتركيب صالح لذلك، فوهموا وأوهموا.[(٥)]

التاسع: أنَّ هذا التركيب المذكور في قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَى﴾ [ص: الآنة: ٧٥] يأبى حمل الكلام على القدرة؛ لأنه نسب الخلق إلى نفسه سبحانه، ثم عدى الفعل إلى اليد، ثم

---

(١) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ٢/ ٤١٥.

(٢) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ٦/ ٣٦٦.

(٣) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ٢/ ٤٠٣.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ٦/ ٣٦٥.

(٥) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ٢/ ٤٠٢- ٤٠٣.

ثناها، ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قولك: كتبت بالقلم، ومثل هذا النص صريح لا يحتمل المجاز.(١).

العاشر: أنه لو صح تأويل اليد بالنّعمة لاستلزم ذلك أن تكون النعمة من الله ول نعمتين فقط، وهذا باطل؛ لأنَّ نعم الله وعمل أكثر من أن تحصى، قال - تعالى-: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: الآية: ٣٤].(٢)

الحادي عشر: أنَّ نعم الله وحادثة مخلوقة؛ لذلك لايصح تأويل اليد بالنعمة، لاستحالة خلق المخلوق بمخلوق مثله.(٣)

الثاني عشر: لو كان المراد باليد القوة أو القدرة لاستلزم ذلك أن تكون القوة قوتان، والقدرة قدرتان، والقدرة والقوة عند السلف-رحمهم الله-صفة واحدة لا تتعدد، والنفاة لا يثبتون قدرة واحدة فكيف يثبتون قدرتين.(٤)

الثالث عشر: الاستدلال بقوله-تعالى-: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: الآية: ٤٧]، أي: بقوة، لا حجة فيه؛ لأنَّ لفظ (أييد) هنا ليس جمع يد، وإنما مصدر أدَّ الرجل يئيد أيداً، أي قوي وعلى هذا فإنَّ الآية ليست صفة الله-عز وجل-.(٥)

التأويل الثالث: قيل المراد باليد: الرزق.(٦)

وقد أبطل الدارمي-رحمه الله-(ت: ٢٨٠ هـ) هذا التأويل، وبيَّن أنَّه يُعَدُّ كذباً محالاً، فضلاً عن أن يكون كفراً، وذكر أنَّ القائلين بذلك قد خرجوا بهذا التأويل من لغات العرب والعجم،

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ٢/ ٤٠٤.

(٢) ينظر: كتاب التوحيد ابن خزيمة، ١/ ١٩٨-١٩٧، الاقتصاد في الاعتقاد المقدسي، ص: ١١٨، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ٦/ ٣٦٥..

(٣) ينظر: شرح صحيح البخاري: ابن بطال، ١٠/ ٤٣٧، فتح الباري: ابن حجر، ١٣/ ٣٩٤.

(٤) ينظر: الإبانة: الأشعري، ص: ٥٥ شرح صحيح البخاري: ابن بطال ١٠/ ٤٣٦، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ٦/ ٣٦٥.

(٥) ينظر: كتاب التوحيد: لابن خزيمة ١/ ١٩٩، الكليات: الكفوي ص: ٩٨٤.

(٦) ينظر: نقض الدارمي على المريسي، ١/ ٢٤١-٢٩٩، الرد على الجهمية: الدارمي، ص: ٢٠١.

ثم استدل-رحمه الله-بعدد من النصوص التي ورد فيها ذكر اليد لله-عز وجل-، وبين أنها تدل دلالة واضحة على ثبوت اليد لله-عز وجل-حقيقة، وأنها لا تصح أن تفسر بالرزق.[(١)]

التأويل الرابع: قيل المراد باليد: الملك، بكسر الميم.[(٢)]

وهذا التأويل باطل أيضاً، ولا يجوز؛ لتثنية اليد والله-عز وجل-ليس له ملكان.[(٣)]. التأويل الخامس: قيل: قد يكون المراد باليد في قوله-تعالى-: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: الآية: ٧٥] التأكيد والصلة، والمعنى: أنَّه خلق آدم فحسب.[(٤)]

وهذا التأويل أيضاً باطل؛ لأنَّ اليد لو كانت بمعنى الصلة، لكان لإبليس أن يقول: إن كنت قد خلقته فقد خلقتني"، [(٥)] فتبين مما سبق بطلان قول المعطلة النفاة، وبطلان التأويلات التي ذكروها.

الطائفة الثانية المشبهة والممثلة أثبت المشبهة صفة اليد لله-عز وجل-حقيقة، لكن على وجه يماثل يد المخلوق؛ حيث قالوا: يد الله -عز وجل-كيد المخلوق.[(٦)] وهؤلاء لم يوفقوا للصواب في قولهم؛ حيث إنهم غلوا في إثبات هذه الصفة لله، فجعلوا يد الله-عز وجل-كيد المخلوق، والله-عز وجل-يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]، فنفى الله-عز وجل-في هذه الآية مشابهته لخلقه.

وبناءً على ما سبق يتبيّن بطلان قول كلتا الطائفتين ومدى مخالفتهم لإجماع السلف وطريقتهم-رحمهم الله-الذين نصوا على إثبات هذه الصفة لله-عز وجل-، حقيقة، من غير

---

(١) ينظر: النقض على المريسي، ١/ ٢٤٢-٢٥٥، ٢٩٩، الرد على الجهمية، ص: ٢٠١.

(٢) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن الشريف الرضي، ص: ٢٨١، ٢٩٦ - إكمال المعلم: القاضي عياض، ١/ ٥٦٧، التفسير الكبير: الرازي، ١٢/ ٣٧.

(٣) ينظر الحجة في بيان المحجة: الأصبهاني، ٢/ ٢٧٦.

(٤) ينظر: أصول الدين: البغدادي، ص: ١١١، الأسماء والصفات: البيهقي، ٢/ ١٢٧.

(٥) ينظر: الإتقان السيوطي، ٢/ ٧-٨.

(٦) ينظر: مجموع الفتاوى ٤/ ٣٦٦.

تمثيل ولا تشبيه بيد المخلوق، ومن غير تعرض لتأويلها بما يخالف الظاهر والحقيقة.

خلق آدم على صورته

وفيه مسائل:

المسألة الأولى:الأدلة على إثبات صفة الصورة لله عز وجل

المسألة الثانية: الأقوال في مسألة عود الضمير في حديث (إن الله خلق آدم على صورته).

المسألة الثالثة: حجج الأقوال المخالفة للمشهور من قول أهل السنة في المسألة والرد عليها.



[٦٠]- قال المصنف رحمه الله: وخلق آدمَ بيدهِ على صورته.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى:الأدلة على إثبات صفة الصورة لله عز وجل

لا ريب في أنَّ الصُّورة صفةٌ ثابتةٌ لله-تعالى-، قد دلَّ على ثبوت الصُّورة صفةً لله دليلُ السُّنَّة والإجماع، وأنَّ المراد بالصُّورة في أحاديث الصُّورة: الصُّورةُ التي يدخل فيها الوجه. [(١)]، ولا خلاف بين علماء السَّلَف في ذلك، كما دلَّت على ذلك الأحاديثُ الصَّحيحة، وحديثُ الصُّورة هو من جملة النُّصوص التي أثبتَ الله -تعالى- لنفسه فيها، على لسان رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ما هو -سبحانه- أعلمُ بكيفيَّته وكُنْهِه، وما على المؤمن الحقِّ إلاَّ التَّسليم له -تعالى- فيما أخبر، وإثباتُ ما أثبت، ولا ينبغي لطالبِ علمٍ متَّبعٍ لمنهج السَّلف الصالح أن يُشكِّك في ثبوت هذه الصِّفة، وعليه أن يعلم أنَّ الخلاف عند أهل السُّنَّة محْصورٌ في بضع مسائل، منها: عودُ الضمير في قوله: "على صورته"، وهل يصلح حديثُ صورة الرَّحمن مفسِّرًا له أو لا، وفي تأويل بعض أهل الحديث إتيانُ الله في صورةٍ بعد صورةٍ.

لقد وردت نصوصٌ كثيرةٌ في إثبات الصُّورة لله-عزَّ وجلَّ-، وهي نصوصٌ كثيرةٌ متوافرة، كما أنَّها نقولٌ صحيحةٌ متظافرة، وعقد الأئمَّة -رحمهم الله- لها الأبوابَ في كتب العقائد المفردة أو المضمَّنة في كتب الحديث، وترجموا لها بإثبات صفة الصُّورة لله -عزَّ وجلَّ-، كما صنع ذلك غيرُ واحدٍ من أهل العلم.

قال ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨هـ): "ثبوت الوجه والصورة لله قد جاء في نصوصٍ كثيرةٍ من الكتاب والسُّنَّة المتواترة، واتفق على ذلك سلفُ الأمَّة..."[(٢)]

---

(١) وإن كان في العموم أن الصورة قد يراد بها الوجه كحديث: (ويحرم الله صورهم على النار) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (٣٠٢).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٦/٥٢٦) .

وبما أنَّ صفةَ الصُّورة ثبتت بالسُّنَّة الصَّحيحة، ولم ترد في الكتاب، فقد حصلت الوحشةُ منها عند المعطِّلة، ونفرت منها قلوبُهم التي امتلأت بالتعطيل فلم تألفها؛ ولذلك قال الرازي – وهو من مؤوِّلي صفة الصُّورة –: "اعلم أنَّ هذه اللفظة –يعني: الصُّورة– ما وردت في القرآن، لكنها واردةٌ في الأخبار"(١)

قال ابن قتيبة –رحمه الله–(ت: ٢٧٦ هـ) وكأنه يقرأ ما في صدور هؤلاء المعطلة: "الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن ، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع ، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد"(٢)

وورودُ هذه الصِّفة في السُّنَّة وحدها دون القرآن لا يضرُّ، ما دام أنَّ الحديث ثابتٌ وصحيحٌ؛ فكم انفردت السُّنَّة بصفاتٍ كثيرةٍ من صفات الله –عزَّ وجلَّ–، ولا ضير في ذلك، وعليه فإنَّ صفةَ الصُّورة ثابتةٌ لله بالسُّنَّة، أثبتها له أعلمُ الخلق بالله.

قال ابن عثيمين –رحمه الله– (ت: ١٤٢١هـ): "فهل أحدٌ أعلم بالله –تعالى– وما يجب له، أو يمتنع في حقِّه، أو يجوز، من رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم–؟! وهل أحدٌ من الخلق أنصحُ من رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– لعباد الله؟ وهل أحدٌ من الخلق أفصحُ لسانًا وأبلغُ بيانًا من رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم–؟ وهل أحدٌ من قرون هذه الأمَّة أحفظُ أمانةً من أصحاب رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– الذين اختارهم الله –تعالى– لصحبة نبيِّه ونقل شريعته؟ وقد أثبت رسولُ الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– فيما أخبر به عن ربِّه، وهو الصادق المصدوق، أنَّ لله –تعالى– صورةً، لكننا نعلم علمَ اليقين أنَّ هذه الصُّورة ليست مماثلةً لصورة أحدٍ من المخلوقين، وأنَّها أعظمُ وأجلُّ ممَّا يتخيَّله المفكِّرون، وأنَّه لا يحلُّ لأحدٍ أن يتخيَّل اليوم هذه الصُّورة في ذهنه، أو يعبِّر عن كيفيَّتها بلسانه... فتنزيهُ الله –تعالى– عن الصُّورة اللائقة بجلاله وعظمته ردٌّ لما أثبته له رسولُ الله –صلَّى الله عليه وسلَّم–، والسَّلف

---

(١) أساس التقديس (ص:١١٠)

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص: ٢٢١) .

رضوان الله -تعالى- عليهم بريئون من هذا التَّنزيه"[١]

تنقسم الأحاديث الواردة في الصورة إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الأحاديث الواردة في خلق آدم على صورته.

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: (**خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا** ...) [٢] .

وعنه-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته). [٣]

وعنه-أيضًا-عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك؛ فإن الله خلق آدم على صورته). [٤]

وجاء من حديث ابن عمر بلفظ (لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن)[٥]

وقد ورد هذا الحديثُ على رواياتٍ عدَّةٍ وألفاظٍ متنوِّعةٍ، سيأتي ذكرُها في أبوابها[٦] .

النوع الثاني: الأحاديث التي وردت في رؤية المؤمنين لله-تعالى-يوم القيامة.

وهذه الأحاديثُ رُويت بطرقٍ وألفاظٍ متعدِّدةٍ، ومن هذه الأحاديث:

- حديثُ أبي هريرة -رضي الله عنه-: قال أناسٌ: يا رسولَ الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١/٢٦٦-٢٦٧) .

(٢) صحيح البخاري/ ك: الاستئذان، ب:بدء السلام، ح: ٦٢٢٧ . صحيح مسلم/ ك: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، ح: ٢٨٤١ .

(٣) صحيح مسلم/ ك: البر والصلة والآداب، ب: النهي عن ضرب الوجه، ح: ٢٦١٢.

(٤) صحيح ابن حبان (ح: ٥٧١٠). وحسّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيقه له (١٣/١٨) والمسند (١٢/٣٨٢)، والألباني في الصحيحة (٢/٥١٩)، والتعليقات الحسان (٨/٢٢٠) .

(٥) السنة لعبدالله بن أحمد (ح: ٤٩٨). السنة لابن أبي عاصم (ح: ٥٢٩). والشريعة للآجري (٧٢)، وقد صححه جمع من أهل العلم كأحمد بن حنبل، وإسحاق ابن راهويه، انظر إبطال التأويلات (١/٩٠،٨٨،٨١)، وطبقات الحنابلة (٢/ ١٣٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨)، وابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية (٦/ ٤٤١-٤٥٢)، والذهبي في السير (٥/ ٤٥٠)، وابن حجر في الفتح (٥/ ٢٢٦) .

(٦) انظر : شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣٣-٣٦)، وحديث الصورة د. بندر العبدلي مجلة الحكمة العدد (٢٧).

فقال: (هل تُضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟) قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: (هل تُضارُّون في القمر ليلةَ البدر وليس دونه سحاب؟) قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: (فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمعُ الله الناسَ فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبعُ من كان يعبد الشمس، ويتبعُ من كان يعبد القمر، ويتبعُ من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكانُنا حتى يأتينا ربُّنا، فإذا أتانا ربُّنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربُّنا، فيتبعونه...).(١)

والشاهد في الحديث (فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون).

ومهما أُوتي المرءُ من العلم والبيان فلن يأتي بمثل هذا الإيضاح والبيان في إثبات الصِّفة لله تعالى، وأهلُ العلم والدِّين يتلقَّون أقوالَ الرسول إذا صحَّت نسبتها إليه بالقبول، ويقابلونها بالتَّسليم دون تعطيلٍ أو تمثيلٍ، ومن وجد في نفسه حرجًا من ذلك فليس بمؤمن، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: الآية: ٦٥].

● عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– أن ناسًا في زمن رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم–: (نعم). الحديث، وفيه: (حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من برٍّ وفاجر أتاهم ربُّ العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها).(٢)

وفي هذه الأحاديث: أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة أربع مرات:

المرة الأولى: رؤيةُ تعريفٍ رأوه فعرفوه، وهذه الرؤية تكون قبل أن ينادي المنادي: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد؛ فإن هذا هو محاسبة العباد، فإذا حوسبوا أُمروا بأن يتبعوا آلهتهم، ويتجلى

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري ( )، ومسلم ( ).

الربُّ لعباده المؤمنين فيتبعونه، وينصب الجسر على ظهر جهنم فيعبر عليه المتقون ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: الآية: ٧٢]، فالمرة الأولى لقوه وخاطبهم قبل المناداة، وذلك كان عامًا للعباد، كما يدل عليه سائر الأحاديث، ثم حُجِب الكفار.

المرة الثانية: التي امتحنهم فيها فأنكروه، وهي أدنى من التي رأوه فيها أول مرة، وهذا تفسير ما في إثبات الصفة لله تعالى من حديث أبي هريرة مع أبي سعيد لنا، حيث قال: (فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون).[(١)]

المرة الثالثة: يكشفُ لهم عن ساقه فيسجدون له، فهذه هي التي يعرفون فيها.

المرة الرابعة: حين يرفعون رؤوسهم-أي من السجود-كما في صحيح مسلم: (ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا).[(٢)]، فإن هذا هو محاسبةُ العباد، فإذا حوسبوا أُمروا بأن يتبعوا آلهتهم، ويتجلَّى الربُّ لعباده المؤمنين فيتبعونه، وينصب الجسر على ظهر جهنم فيعبر عليه المتقون، كما في صحيح البخاري وصحيح مسلم: (الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ).[(٣)]

النوع الثالث: الأحاديث التي وردت في رؤية النبي-صلى الله عليه وسلم-لربه في المنام في صورة.

والحديث له طرق متعددة لكن هذه الطرق ترجع إلى أربع طرق وهي:

١-حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-.

٢-حديث معاذ بن جبل-رضي الله عنه-.

٣-حديث أم الطفيل امرأة أبي بن كعب-رضي الله عنهما-.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٨)، ومسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم واللفظ له (١٨٢).

٤-حديث ثوبان-رضي الله عنه-.

وأصح الطرق، أكملها وأتمها: حديث معاذ بن جبل-رضي الله عنه. [(١)]

● عن ابن عباس-رضي الله عنهما-، قال: قال رسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-: (أتاني الليلة ربّي تبارك وتعالى في أحسن صورة-قال: أحسبه في المنام-فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا. قال: فوضع يده بين كتفي حتى وجدتُ بردها بين ثدييَّ-أو قال: في نحري-فعلمتُ ما في السماوات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم في الكفارات...). [(٢)]

● عن معاذ بن جبل-رضي الله عنه-، قال: احتبس عنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعًا فثوّب بالصلاة فصلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وتجوّز في صلاته فلما سلم دعا بصوته قال لنا: (على مصافكم كما أنتم) ثم انفتل إلينا ثم قال: (أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل فتوضأت وصليت ما قدِّر لي فنعسْتُ في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمد، قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟) [(٣)]

● عن أم الطفيل أنها سمعت رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-(يذكر أنه رأى ربه في المنام

---

(١) لمزيد تفصيل عن طرق هذا النوع الثالث: انظر: إثبات الصورة لله تعالى، ملخص من بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية، تلخيص عبد العزيز بن عبد الله الراجحي. (ص: ٢٩-٥٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (١/ ٣٦٨) (٣٤٨٤)، والترمذي في جامعه (٥/ ٣٤٢) (٣٢٣٣)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥٤٠)، والبزار في مسنده (٤٧٢٧)، وأبو يعلى (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٢٣٣)، وقال أحمد شاكر في (مسند أحمد) (٥/ ١٦٢): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (٥/ ٢٤٣) ، والترمذي (٥/ ٣٤٣) ، والدارقطني رحمه الله في كتاب الرؤية (ص: ٣١٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥٤٠ - ٥٤١ - ٥٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٢٣٥).

في صورة شابٍّ مُوَقَّر، رجلاه في خضر، وعليه نعلان من ذهب، على وجهه فراش من ذهب)[(١)]

• عن ثوبان -رضي الله عنه- مولى رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أخر صلاة الصبح حتى أسفر، فقال: (إنما تأخرتُ عنكم أن ربي قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب، وردده مرتين أو ثلاثًا، ثم حسستُ بالكف بين كتفي حتى وجدتُ بردها بين ثديي، ثم تجلى لي كل شيء وعرفتُ، قال: قلت: نعم يا رب، يختصمون في الكفارات والدرجات؛ والكفارات: المشي على الأقدام إلى الجمعات، وإسباغ الوضوء في الكريهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ والدرجات: إطعام الطعام، وبذل السلام، والقيام بالليل والناس نيام، ثم قال: يا محمد اشفع تُشفَّع وسل تُعطَ، قال: فقلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردتَ في قوم فتنة فتوفَّني وأنا غير مفتون، اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب ما يبلغني حبك).[(٢)]

• **دليل الإجماع:**

قد حُكي الإجماع على ثبوت الصورة صفة لله، ومن أكثر من قرر هذا الإجماع ابن تيمية -رحمه الله- في غير ما موضع، وهو -رحمه الله- يحكي الإجماع تارة على ثبوت الصفة، وتارة يحكي الإجماع على ثبوت أحاديث صفة الصورة والأخذ بها وإمرارها كما جاءت، أو رواية من

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٥/ ١٤٣) برقم: (٣٤٦)، وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ١٣٠)، والحديث ورد بألفاظ منها: (رَأَيْتُ رَبِّي فِي المنام في صورة شاب مُوَقَّرٍ فِي خَضِرٍ، عليه نَعْلانِ من ذهب، وَعَلَى وجهه فراش مِنْ ذهب). ومنها: (أنه رأى ربه عز وجل في النوم في صورة شاب ذي وفرة، قدماه في الخضرة، عليه نعلان من ذهب ، على وجهه فراش من ذهب). ومنها: (رأيت ربي في صورة شاب أمرد جعد عليه حلة خضراء). وممن صحح الحديث من الأئمة: أحمد بن حنبل، وأبو يعلى الحنبلي، وأبو زرعة الرازي. وممن ضعفه: يحيى بن معين، والنسائي، وابن حبان، وابن حجر، والسيوطي. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "بيان تلبيس الجهمية": (٧/ ٢٢٩): "وكلها [يعني روايات الحديث] فيها ما يبين أن ذلك كان في المنام وأنه كان بالمدينة إلا حديث عكرمة عن ابن عباس وقد جعل أحمد أصلهما واحدًا وكذلك قال العلماء".وقال أيضًا (٧/ ١٩٤): "وهذا الحديث الذي أمر أحمد بتحديثه قد صرح فيه بأنه رأى ذلك في المنام " انتهى . وقال الذهبي في "ميزان الاعتدال" (١/ ٥٩٤) : "وهذه الرؤية رؤيا منام إن صحت".

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (٤٧٠) .

الروايات فيها، وتارة يحكي الإجماع على معنى بعض أحاديث الصورة.

- قال ابن تيمية –رحمه الله– (ت: ٧٢٨ هـ): "ثبوت الوجه والصورة لله قد جاء في نصوص كثيرة، ... واتفق على ذلك سلف الأمة"[١]

- وقال–رحمه الله–: "... علماء الأمة لم ينكروا إطلاق القول بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن، بل كانوا متفقين على إطلاق مثل هذا... فإن الله قد وصف هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس، وأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فمن الممتنع أن يكون في عصر التابعين يتكلم أئمة ذلك العصر بما هو كفر وضلال، ولا ينكر عليهم أحد. فلو كان قوله: خلق آدم على صورة الرحمن باطلًا لكانوا كذلك"[٢]

- وقال –رحمه الله– عن حديث من أحاديث صفة الصورة:

- "ولهذا اتفقت الأمة على تبليغه وتصديقه، وإنما دخلت الشبهة في الحديث لتفريق ألفاظه، فإن من ألفاظه المشهورة: (إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته)، (ولا يقل أحدكم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته)، وهذا فيه حكم عملي يحتاج إليه الفقهاء، وفيه الجملة الثانية الخبرية المتعلقة بـ(لا)، وكثير من الفقهاء روى الجملة الأولى فقط، وهي قوله: (فإذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه)، ولم يذكر الثانية، وعامة أهل الأصول والكلام إنما يروون الجملة الثانية، وهي قوله: (خلق الله آدم على صورته)، ولا يذكرون الجملة الطلبية، فصار الحديث متواترًا بين الطائفتين، وصاروا متفقين على تصديقه، لكن مع تفريق بعضه عن بعض، وإن كان محفوظًا عند آخرين من علماء الحديث وغيرهم، وقد ذكره النبي –صلى الله عليه وسلم– ابتداءً في إخباره بخلق آدم في ضمن حديث طويل، إذا ذُكر على وجهه زال كثير من الأمور المحتملة"[٣]

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٥٢٦/٦) .

(٢) المصدر السابق (٤٤٨/٦) .

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٣٧٤/٦-٣٧٦) .

ويستأنس على تقرير ما ورد عن غير واحد من أئمة أهل السنة، الذين قرروا مسائل الاعتقاد، ذكروا إقرار وإمرار السلف والخلف من أهل السنة لأحاديث الصورة، على ثبوت الإجماع على هذه الصفة"[(١)]

● قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى- في رده على الرازي، لما ذكر الحديث ورواياته:

"هذا الحديث لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير عائد إلى الله، فإنه مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك، وهو أيضًا مذكور عند أهل الكتابين من الكتب كالتوراة وغيرها. ولكن كان من العلماء في القرن الثالث من يكره روايته، ويروي بعضه، كما يكره رواية بعض الأحاديث لمن يخاف أن يلم بنفسه ويفسد عقله أو دينه، كما قال عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-: ما من رجل يحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كانت فتنة لبعضهم. وفي البخاري عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أنه قال: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟

وإن كانوا مع ذلك لا يرون كتمان ما جاء به الرسول مطلقًا، بل لابد أن يبلغوه حيث يصلح ذلك، ولهذا اتفقت الأمة على تبليغه وتصديقه، وإنما دخلت الشبهة في الحديث لتفريق ألفاظه، فإن من ألفاظه المشهورة: (إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته، ولا يقل أحدكم: قبح الله وجهك ووجه من يشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته). وهذا فيه حكم عملي يحتاج إليه الفقهاء، وفيه الجملة الثانية الخبرية المتعلقة بـ(لا)، فكثير من الفقهاء روى الجملة الأولى فقط، وهي قوله: (فإذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه)، ولم يذكر الثانية.

وعامة أهل الأصول والكلام إنما يروون الجملة الثانية، وهي قوله: (خلق الله آدم على صورته)،

---

(١) انظر : اجتماع الجيوش (١٥٨ - ١٦٢) ، الشريعة (١١٤٧/٣-١١٥٢) ، الحجة على بيان المحجة (٣١٠/١ - ٣١١)، (٤٦٦/٢)، جامع بيان العلم وأهله (٩٤٣/٢) .

ولا يذكرون الجملة الطلبية، فصار الحديث متواترًا بين الطائفتين، وصاروا متفقين على تصديقه، لكن مع تفريق بعضه عن بعض، وإن كان محفوظًا عند آخرين من علماء الحديث وغيرهم. وقد ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتداءً في إخباره بخلق آدم في ضمن حديث طويل، إذا ذُكر على وجهه زال كثير من الأمور المحتملة.

ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة، جعل طائفة الضمير فيه عائدًا إلى غير الله تعالى، حتى نُقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم، كأبي ثور (ت: ٢٤٦ هـ) وابن خزيمة (ت: ٣١١ هـ) وأبي الشيخ الأصبهاني (ت: ٣٦٩ هـ) وغيرهم، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة"[١]

وقد تلقى علماء السـلف أحاديث الصـورة بالقبول، وخرجوها في كتبهم؛ فهذا الإمام البخاري-رحمه الله-قد خرج حديث أبي هريرة في الصورة[٢]، وكذلك حديث أبي سعيد.

وكذلك الإمام مسلم-رحمه الله-قد خرج حديثي أبي هريرة وأبي سعيد في إثبات الصورة لله تعالى.

---

(١) انظر: التوحيد لابن خزيمة (١/ ٨٤)، طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٩)، إبطال التأويلات (١/ ٩٠)، نقض التأسيس- مخطوط- (٣/ ق ٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١١)، ومسلم (١٧/ ١٧٧-النووي).

أقوال علماء أهل السنة في صفة الصورة:

وخرج أيضًا أحاديث الصورة الإمام الترمذي [(١)]، وأحمد بن حنبل [(٢)]، وابنه عبد الله [(٣)]، والآجري [(٤)]، وابن منده [(٥)]، وابن أبي عاصم [(٦)]، والطبراني [(٧)]، والدارقطني [(٨)]، وابن عدي [(٩)]، والهروي [(١٠)]، وابن خزيمة[(١١)]، وأبو القاسم الأصبهاني [(١٢)]، وغيرهم كثير، وقابلوا الأحاديث بالتسليم ولم يتألوها بالتأويلات المستكرهة الموروثة عن الجعد بن درهم والجهم بن صفوان وبشر المريسي وأضرابهم من أهل الإلحاد.

فعقيدة أهل السنة والجماعة في صفة الصورة كعقيدتهم في سائر الصفات كما تقدم في غير موضع، وهي الإيمان بها واعتقاد ثبوتها لله عز وجل، مع إثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله ﷺ على الوجه اللائق بجلاله، دون تكييف أو تمثيل. وأما كيفيتها فلا تُعلم، وإنما يُفوَّض علمها إلى الله جل جلاله، وعلى هذا جرى الأئمة رحمهم الله سلفًا وخلفًا، وهو متقرر في كتب الاعتقاد والحديث والشروح وغيرها.

---

(١) كتاب "الجامع" (٥/ ٣٤٢).

(٢) كتاب "المسند" (١/ ٣٦٨).

(٣) كتاب "الشريعة" (ص: ٣١٤).

(٤) كتاب "الشريعة" (ص: ٣١٥).

(٥) كتاب "الرد على الجهمية" (ص: ٩١).

(٦) كتاب "السنة" (١/ ٢٨٨).

(٧) كتاب "المعجم الكبير" (١٢/ ٤٣٠).

(٨) كتاب "الصفات" (ص: ٦٤).

(٩) كتاب "الكامل" (٦/ ٢٣٤٤).

(١٠) كتاب "الأربعين" (باب إثبات الصورة له عز وجل).

(١١) كتاب "التوحيد" (ص: ٨٥).

(١٢) كتاب "الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة" (١/ ٢٨٥).

وإليك جملة من أقوال أهل السنة في إثبات هذه الصفة:

فقد قال بهذا غير واحد من أئمة السلف.

قول إسحاق بن راهوية (ت: ٢٣٨ هـ).

قال إسـحاق بن راهويه-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ): "قد صـح عن رسـول الله-صـلى الله عليه وسلم-أنه قال: (إن آدم خلق على صورة الرحمن)، وإنما علينا أن ننطق به"[١]

وفي المنتخب من علل الخلال: "قال إسحاق: وإنما عليه أن ينطق بما صح عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أنه نطق به"[٢]

قول الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ)

---

[١] إبطال التأويلات (١/٨٠)، وانظر : فتح الباري (٥/ ١٨٣) .

[٢] المنتخب من علل الخلال (١/ ٢٦٥).

وأما أحمد بن حنبل -رحمه الله- (ت: ٢٤١ هــ)، فهو من أكثر الأئمة تفصيلاً في تقرير هذه المسألة، فقد ورد عنه في حديث: (لا تقبّحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورته): أنه قال: "وإذا ثبت صحته فغير ممتنع الأخذ بظاهره من غير تفسير ولا تأويل" .

قال أبو يعلى معقبًا: "وقد نص عليه أحمد في رواية يعقوب بن بختان في حديث: (خلق آدم على صورته): "لا نفسره كما جاء الحديث"، فقد صرح بالقول بالأخذ بظاهره"[١]

ذكر إسحاق بن منصور الكوسج في مسائله المشهورة، عن يعقوب ابن بختان، أن أبا عبد الله أحمد بن حنبل سُــئل عن حديث النبي-صــلى الله عليه وســلم-: (خلق الله آدم على صورته) فقال لا تفسره، ما لنا أن نفسره كما جاء الحديث"[٢]

قال الإمام أحمد في رواية أبي القاســم الجيلي عن حنبل: "والذي جاء به الشــرع في هذا النص من قوله: (خلق آدم على صــورته) ونحوه، أخصُّ مما يُعلم بمجرد العقل من ثبوت القدر المشــترك بينه وبين كل موجود وكل حي؛ فإن هذا المدلول عليه بالنص لا يُعلم بالعقل والقياس، وإنما يُعلم أصل ذلك مجملًا"[٣]

قول ابن قتيبة-رحمه الله-(ت: ٢٧٦ هـ)

---

(١) إبطال التأويلات (١/٧٩- ٨٠)، انظر : الرسائل والمسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة (١/٣٥٦-٣٦٣) .

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية في العقيدة (ص: ٣٥٦)، برقم: (٣٣٠)، إبطال التأويلات (ص: ٨٩).

(٣) نقلًا عن فوائد فى إثبات الصورة لله تعالى للشيخ عبد العزيز الراجحى (ص: ١٢).

قال ابن قتيبة -رحمه الله- (ت: ٢٧٦ هــ) -بعد ذكره لحديث الصورة-: "وهذا لا يجوز أن يُتأوَّل فيه هذا التأويل، ولا يُدفع بمثل هذه الأحاديث، ونحن نعوذ بالله أن نتعسف فنتأول فيما جعله الله فضيلةً لمحمد ﷺ، ولكنا نُسلِّم للحديث... والذي عندي -والله تعالى أعلم- أن الصورة ليست بأعجب من اليدين، والأصابع، والعين... ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيءٍ منه بكيفيةٍ ولا حدّ"(١)

قول عثمان بن سعيد الدارمي-رحمه الله-(ت: ٢٨٠ هـ)

قال عثمان بن سعيد -رحمه الله- (ت: ٢٨٠ هـ) في رده على الجهمي العنيد الذي زعم أن إثبات الصورة لله تشبيهٌ له بخلقه: "والعجب من رجلٍ يدّعي على قوم زورًا وكذبًا أنهم يُشبّهون الله بآدم في صورته"(٢)

قول ابن سريج-رحمه الله-(ت: ٣٠٦ هـ)

---

(١) تأويل مختلف الحديث (ص: ٣١٤- ٣٢٢) .

(٢) نقض عثمان بن سعيد (٢/٧٩٩)، انظر : (١/٣٨٤- ٣٩٣) .

قال ابن سريج -رحمه الله- (ت: ٣٠٦ هـ): "وحديث خلق آدم على صورته، وقوله: (لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صـــورة الرحمن)... وغير هذا مما صـــح عنه ﷺ من الأخبار المتشابهة الواردة في صفات الله سبحانه، ما بلغنا وما لم يبلغنا مما صح عنه، اعتقادنا فيه، وفي الآي المتشـــابهة في القرآن، أن نقبلها ولا نردها، ولا نتأولها بتأويل المخالفين، ولا نحملها على تشـبيه المشـبهين، ولا نزيد عليها ولا ننقص منها، ولا نفسـرها ولا نكيفها، ولا نترجم عن صـــفاته بلغة غير العربية، ولا نشـــير إليها بخواطر القلوب ولا بحركات الجوارح، بل نطلق ما أطلقه الله عز وجل، ونفسر ما فسره النبي ﷺ وأصحابه والتابعون والأئمة المرضيون من السلف المعروفين بالدين والأمانة، ونجمع على ما أجمعوا عليه، ونمسك عما أمسكوا عنه، ونســـلم الخبر الظاهر والآية الظاهرة تنزيلها، لا نقول بتأويل المعتزلة والأشـــعرية والجهمية والملحدة والمجســـمة والمشـــبهة والكرامية والمكيفة، بل نقبلها بلا تأويل، ونؤمن بها بلا تمثيل، ونقول: الإيمان بها واجب، والقول بها سنة، وابتغاء تأويلها بدعة"(١)

قول الآجري-رحمه الله-(ت: ٣٦٠ هـ)

قال الآجري -رحمه الله- (ت: ٣٦٠ هـ): "باب الإيمان بأن الله عز وجل خلق آدم على صورته بلا كيف".

ثم قال بعد أن ذكر أحاديث صـفة الصـورة: "هذه من السـنن التي يجب على المسـلمين الإيمان بها، ولا يقال: كيف؟ ولم؟ بل تُسـتقبل بالتسـليم والتصـديق وترك النظر، كما قال من تقدم من أئمة المسلمين"(٢)

قول ابن بطة العكبري-رحمه الله-(ت: ٣٨٧ هـ)

قال ابن بطة العكبري-رحمه الله-(ت: ٣٨٧ هـ): "باب الإيمان بأن الله-عز وجل-خلق آدم على

---

(١) اجتماع الجيوش (١٥٨ - ١٦٢) .

(٢) الشريعة (٣/١١٤٧-١١٥٢) .

صورته بلا كيف"[(١)] .

قول القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف المعروف بـ ابن الفراء (ت: ٤٥٨ هـ)

قال أبو يعلى–رحمه الله–(ت: ٤٥٨ هـ): "ونقر بأن الرحمن خلق آدم على صورته"[(٢)]

قال أبو يعلى–رحمه الله–معلقًا على حديث : (رأيت ربي في أحســن صــورة): "اعلم أن الكلام في هذا الخبر يتعلق به فصول: أحدها: جواز إطلاق الصورة عليه"[(٣)]

قال القاضي أبو يعلى "قال أحمد في رواية ابن منصور (لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورته) وإذا ثبت صحته فغير ممتنع الأخذ بظاهره من غير تفسير ولا تأويل.

وقد نص عليه أحمد في رواية يعقوب بن بختان (خلق آدم على صورته)، لا نفسره كما جاء الحديث"[(٤)]

قول ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)

قال ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ): "وقد روينا عن مالك بن أنس، والأوزاعي، وسفيان بن سعيد الثوري، وسفيان بن عيينة، ومعمر بن راشد في الأحاديث في الصفات، أنهم كلهم قالوا :" أمروها كما جاءت".

قال أبو عمر: نحو حديث التنزل، وحديث : (إن الله عز وجل خلق آدم على صورته) ....."[(٥)]

قول ابن البنا الحنبلي–رحمه الله–(ت: ٤٧١ هـ)

قال ابن البنا الحنبلي–رحمه الله–(ت: ٤٧١ هـ): "ونحن لا نطلق على الصورة تشبيهاً، بل مخالفة

---

(١) الإبانة الكبرى (٣/٢٤٤) .

(٢) الاعتقاد (ص: ٢٧-٢٩) .

(٣) إبطال التأويلات (١/٨٠)، (١/١٢٦)، (١/١٥١)، (١/١٥٤) . انظر : الاعتقاد له (ص: ٢٩).

(٤) إبطال التأويلات (ص: ٨٨-٨٩).

(٥) جامع بيان العلم وأهله (٢/٩٤٣) .

لغيرها كما خالفت ذاته غيرها من الذوات"[١]

قول أبو القاسم إسماعيل بن محمد التيمي. الأصبهاني–رحمه الله–(ت: ٥٣٥ هـ)

قال الإمام الثبت الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني –رحمه الله– (ت: ٥٣٥ هـ) في معرض حديثه عن اعتقاد أهل السنة: "وليس روايتهم حديث النبي ﷺ: (خلق الله آدم على صورته) بموجبه نسبة التشبيه إليهم، بل كل ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبر به رسول الله ﷺ فهو حق، قول الله حق، وقول رسوله حق، والله أعلم بما يقول، ورسوله ﷺ أعلم بما قال، وإنما علينا الإيمان والتسليم، وحسبنا الله ونعم الوكيل".

وقال –رحمه الله–: "فجميع ما ورد من الأحاديث في الصفات مثل: (أن الله عز وجل خلق آدم على صورته) وسائر أحاديث الصفات، فما صح من أحاديث الصفات عن رسول الله ﷺ اجتمع الأئمة على أن تفسيرها قراءتها، قالوا: أمروها كما جاءت... كل ذلك بلا كيف ولا تأويل، نؤمن بها إيمان أهل السلامة والتسليم..."[٢]

قول الهروي–رحمه الله–(ت: ٤٨١ هـ)

قال الهروي–رحمه الله–(ت: ٤٨١ هـ): "باب إثبات الصورة له عز وجل" وأورد حديث الصورة"[٣]

قول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)

قال ابن تيمية–رحمه الله —(ت: ٧٢٨ هـ): "ثبوت الوجه والصورة لله قد جاء في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة المتواترة، واتفق على ذلك سلف الأمة"[٤]

قال ابن تيمية–رحمه الله–: "لفظ الصورة في الحديث كسائر ما ورد من الأسماء والصفات، التي قد يسمى المخلوق بها، على وجه التقييد، وإذا أطلقت على الله اختصت به، مثل العليم،

---

(١) المختار في أصول السنة (ص: ١٥٨) .

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/٢٥٩-٢٦٠) .

(٣) دلائل التوحيد (ص :٦٣) .

(٤) بيان تلبيس الجهمية (٦/٥٢٦) .

والقدير، والرحيم، والسميع، والبصير، ومثل خلقه بيديه، واستواءه على العرش، ونحو ذلك"[(١)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-: "هذا الخبر في الجملة فهو متواتر عند أهل العلم بالحديث، ورواته من التابعين وأتباعهم من أجل الأمة قدرا في العلم والدين، وهو معروف عن عدد من الصحابة، فهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد مجتمعين، ومن حديث أبي سعيد مفردًا، وهو أيضًا في صحيح مسلم من حديث جابر، وهو في المسانيد من إثبات الصورة الله تعالى"[(٢)]

قول الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ)

قال الذهبي: "أما معنى حديث الصورة فنرد علمه إلى الله ورسوله، ونسكت كما سكت السلف، مع الجزم بأن الله ليس كمثله شيء"[(٣)]

وقال الذهبي: "أنكر الإمام ذلك؛ لأنه لم يثبت عنده، ولا اتصل به، فهو معذور، كما أن صاحبي (الصحيحين) معذوران في إخراج ذلك-أعني: الحديث الأول والثاني-لثبوت سندهما. وأما الحديث الثالث، فلا أعرفه بهذا اللفظ، فقولنا في ذلك وبابه: الإقرار، والإمرار، وتفويض معناه إلى قائله الصادق المعصوم"[(٤)]

قول ابن رجب-رحمه الله-(ت: ٧٩٥ هـ)

قال ابن رجب-رحمه الله-(ت: ٧٩٥ هـ) في شرحه لحديث: (رأيت ربي في أحسن صورة) في وصف الصورة: "وأما وصف النبي لربه-عز وجل-بما وصفه به فكل ما وصف النبي به ربه عز وجل فهو حق وصدق، يجب الإيمان والتصديق به كما وصف الله عز وجل به نفسه، مع نفي التمثيل

---

(١) نقض التأسيس (٣/ ٣٩٦).

(٢) كتاب بيان تلبيس الجهمية (٧/ ٦-٧).

(٣) ميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ٤٢٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٣-١٠٥).

عنه...."[١]

قول عبد الرزا ق عفيفي –رحمه الله–(١٤١٥ هـ)

قال عبد الرزاق عفيفي –رحمه الله —(ت: ١٤١٥ هـ): "والصورة ثابتة لله تعالى في الصحيحين أنه تعالى يأتي على صورته وعلى غير صورته"[٢]

قول ابن عثيمين –رحمه الله–(ت: ١٤٢١ هـ)

قال ابن عثيمين –رحمه الله–(ت: ١٤٢١ هـ) في الكلام على حديث الصورة والجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١]: "هذا كلام الله، وهذا كلام رسوله، والكل حق، ولا يمكن أن يكذب بعضه بعضا؛ لأنه كله خبر وليس حكما كي ينسخ؛ فأقول: هذا نفي للمماثلة، وهذا إثبات للصورة"[٣] .[٤]

المسألة الثانية: الأقوال في مسألة عود الضمير في حديث (إن الله خلق آدم على صورته).

القول الأول: قول عامة أهل السـنة في جعل الضـمير في قوله (على صـورته) يعود إلى الله–عز وجل–:

وهذا القول هو مذهب أهل السنة والجماعة، الذي عليه عامة الأئمة، وإليك أقوالهم مرتبة حسب تاريخ وفاتهم:

قول الإمام سفيان بن عيينة (ت: ١٩٨ هـ)

---

(١) اختيار الأولى (ص :٤٠–٤١) .

(٢) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي (ص : ٣٥٣) ،

(٣) شرح العقيدة الواسطية (ص : ٨٧)، انظر: مجموع الرسائل والفتاوى له (١/٢٦٦ – ٢٦٧) .

(٤) المصدر: المباحث العقدية المتعلقة بصفة الوجه لله تعالى، رسالة ماجستير للباحث عبد الرحيم بن سعيد عجة، (ص: ٤٧٢–٤٧٥).

قال عبد الله بن الإمام أحمد بعد أن ذكر حديث (إذا ضـرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صـــورته)، حدثني أبي، سمعت الحميدي، وحدثنا ســـفيان بهذا الحديث ويقول: هذا حق ويتكلم وابن عيينة ساكت قال أبي-رحمه الله-: ما ينكر ابن عيينة قوله" [١]

أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الأسدي الحميدي المكي -رحمه الله- (ت: ٢١٩ هـ)

قال عبد الله بن الإمام أحمد بعد أن ذكر حديث (إذا ضـرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صـــورته)، حدثني أبي، سمعت الحميدي، وحدثنا ســـفيان بهذا الحديث ويقول: هذا حق ويتكلم وابن عيينة ساكت قال أبي-رحمه الله-: ما ينكر ابن عيينة قوله" [٢]

قال وسمعت أبا عبد الله يقول لقد سمعت الحميدي يحضـــره ســـفيان بن عيينة فذكر هذا الحديث (خلق الله آدم على صـورته) فقال: من لا يقول بهذا فهو كذا وكذا يعني من الشـتم، وسفيان ساكت لا يرد عليه شيئًا. [٣]

قول الإمام إسحاق بن راهويه-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ).

قال ابن قدامة-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ): "أخبرني حرب، قَالَ: سَمِعْتُ إِسْـــحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ يَقُولُ: قَدْ صَـحَّ عَنِ النَّبِيِّ-صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ-أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ آدَمَ خُلِقَ عَلَى صُـورَةِ الرَّحْمَنِ".

وَحَدَّثَنَا إِسْحَاقُ: ثنا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عن عطاء، عن ابن أبي عُمَرَ، عَنْ رَسُولَ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ: (لا تُقبِحوا الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ). [٤]

---

(١) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٢٦٧) برقم: (٤٩٧).

(٢) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٢٦٧) برقم: (٤٩٧).

(٣) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ٦/٤١٦

(٤) كتاب المنتخب من علل الخلال (١/ ٢٦٥).

قَالَ إِسْحَاقُ(ت: ٢٣٨ هـ): "وَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَنْطِقَ بِمَا صحَّ عَنْ رسول الله أَنَّهُ نَطَقَ بِهِ" [١]

وقال الإمام إسحاق بن راهويه (ت: ٢٣٨ هـ) عن حديث (إن الله خلق آدم على صورته): "صحيح، ولا يدعه إلا مبتدع، أو ضعيف الرأي"[٢]

وهذا تبديع من الإمام إسحاق لمن ترك الأخذ بظاهر الحديث، وأرجع الضمير إلى غير الله.

قول الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ).

وقد ذكر الإمام أحمد هذا القول فيما أملاه على بعض أصحابه من أقوال أهل السنة والجماعة. قال القاضي أبو الحسين في "طبقات الحنابلة"–في ترجمة أبي جعفر محمد بن عوف بن سفيان الطائي الحمصي–: "نقلت من خط أحمد الشنجي بإسناده قال: سمعت محمد بن عوف يقول: أملى عليَّ أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)–فذكر جملة من المسائل التي أملاها عليه مما يعتقده أهل السنة والجماعة، ومنها–وأن آدم–عليه السلام–خلق على صورة الرحمن كما جاء الخبر عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–"[٣]

قال الإمام أحمد–رَحمه اللهُ–(ت: ٢٤١ هـ): "من قال: إن الله تعالى خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه؟!"[٤]

فقد جهَّم الإمام أحمد من أرجع الضمير إلى آدم، ثم ذكر تعليلًا دقيقًا، وهو: أنه يلزم من إرجاع الضمير إلى آدم أن يكون آدم على صورة قبل خلقه وإيجاده، وهذا معلوم بطلانه ضرورة، ولا يقوله عاقل.

وعن إسحاق بن منصور (ت: ٢٥١ هـ) قال: قلت لأحمد: (لا تقبحوا الوجوه؛ فإن الله

---

(١) كتاب المنتخب من علل الخلال (١/ ٢٦٥).

(٢) (الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية) (٣/ ٢٦٦).

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٣١٣).

(٤) (الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية) (٣/ ٢٦٦).

خلق آدم على صورته). أليس تقول بهذه الأحاديث ؟ قال أحمد: صحيح"[١]

قال إسحاق بن منصور: قُلْتُ لأحمد -رضي اللَّه عنه-: (ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى اسمه كل ليلةٍ حين يبقى ثلث الليل الآخر إلى السماءِ الدُّنيا).

أليس تقولُ بهذِه الأحاديث؟

ويرون -أهل الجنة- ربَّهم عَزَّ وَجَلَّ

(ولا تقبحوا الوجه فإنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خلقَ آدمَ على صورته)-يعني: صورة رب العالمين-

(واشتكتِ النارُ إلى ربِّها عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يضعَ اللَّه فيها قدمه)، (وأن موسى عليه السلام لطم ملك الموت عليه السلام).

قَالَ الإمام أحمد: كلُّ هذا صحيح.

قَالَ إسحاق: كل هذا صحيح، ولا ينكره إلا مبتدعٌ أو ضعيف الرأي"[٢]

قول الإمام الآجري-رحمه الله-(ت: ٣٦٠ هـ).

قال الآجري: "باب: الإيمان بأن الله عز وجل خلق آدم على صورته بلا كيف، ثم ساق رحمه الله الأحاديث في ذلك ثم قال: "هذه من السنن التي يجب على المسلمين الإيمان بها ولا يقال فيها كيف؟ ولِمَ؟ بل تستقبل بالتسليم والتصديق وترك النظر كما قال من تقدّم من أئمة المسلمين" .

وعلماء الأمة من أهل القرون المفضلة لا نزاع بينهم على أن الضمير في قوله-صلى الله عليه وسلم-: (خلق الله آدم على صورته) يعود على الله-جل وعلا-، واستدل بهذا الحديث أئمة الهدى ومصابيح الدجى على أثبات الصورة لله تعالى وخرجوه في كتبهم وقرروه وردوا به على الجهمية النفاة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه وأدحضوا به أباطيلهم وفندوا شبههم.

ومن زعم أن الضمير في قوله-صلى الله عليه وسلم-: "خلق الله آدم على صورته" يعود على

---

[١] (الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية) (٣/ ٢٦٦).

[٢] مسائل الإمام أحمد وإسحاق ابن راهوية لإسحاق بن منصور الكوسج، (٩/ ٤٦٧٦)، والإبانة لابن بطة (٧/ ٣٣٠).

آدم فقد أخطأ في زعمه وأحدث قولاً مبتدعاً"[(١)]

قول ابن قتيبة–رحمه الله–(ت: ٢٧٦ هـ)

وقال ابنُ قتيبة: "والذي عِندي–والله تعالى أعلم–أنَّ الصورة ليستْ بأعجبَ مِن اليَدين، والأصابع والعين، وإنما وقَع الإلْف لتلك لمجيئها في القُرآن، ووقعتِ الوحشة مِن هذه؛ لأنَّها لم تأتِ في القُرآن، ونحن نؤمِن بالجميع، ولا نقول في شيءٍ منه بكيفيةٍ ولا حدٍّ"[(٢)]

قول الإمام أبو القاسم إسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني (ت: ٥٣٥ هـ"

قال إسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني: "فصل في الرد على الجهمية الذين أنكروا صفات الله عز وجل وسمّوا أهل السنة مشبهة. وليس قول أهل السنة أن لله وجهاً ويدين وسائر ما أخبر الله تعالى به عن نفسه موجباً تشبيهه بخلقه.

وليس روايتهم حديث النبي، صلى الله عليه وسلم: "خلق الله آدم على صورته" . بموجبة نسبة التشبيه إليهم. بل كل ما أخبر الله به عن نفسه وأخبر به رسوله، صلى الله عليه وسلم، فهو حق. قول الله حق وقول رسوله حق، والله أعلم بما يقول، ورسوله، صلى الله عليه وسلم، أعلم بما قال، وإنما علينا الإيمان والتسليم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. [(٣)]

واعلم أن كل من ألف في السنة ثم أورد هذا الحديث ولم يتأوله فهو قائل به ومنهم:

أبو بكر بن أبي عاصم–رحمه الله–(ت: ٢٨٧ هـ)

فقد أورده في كتاب السنة:

قال: ثنا محمد بن ثعلبة بن سواء، حدثني عمي محمد بن سواء، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (إذا قاتل

---

(١) الشريعة للآجري (ص: ٣١٤).

(٢) "تأويل مختلف الحديث" (ص: ٢٦١).

(٣) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة" (١/ ٢٨٥) .

أحدكم فليتجنب الوجه، فإن الله تعالى خلق آدم على صورة وجهه).[(١)]

وقال: "ثنا يوسف بن موسى، ثنا جرير، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (لا تقبحوا الوجوه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن).[(٢)]

وقال: ثنا أبو الربيع، ثنا جرير، عن الأعمش، عن حبيب، عن عطاء، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقبحوا الوجوه، فإن الله–عز وجل–خلق آدم على صورته).[(٣)]

وقال: ثنا محمد بن مصفى، ثنا عثمان بن سعيد، ثنا الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك، ولا وجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته).[(٤)]

وقال: ثنا أبو بكر بن خلاد الباهلي، ثنا يحي بن سعيد، عن ابن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: (إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه، ولا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته).[(٥)]

وقال: ثنا عمر بن الخطاب، ثنا ابن أبي مريم، ثنا ابن لهيعة، عن أبي يونس سليم بن جبير، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (من قاتل فليجتنب الوجه، فإن

---

(١) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٧) برقم: (٥١٦).

(٢) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٨) برقم: (٥١٧).

(٣) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٩) برقم: (٥١٨).

(٤) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٩) برقم: (٥١٩).

(٥) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٩) برقم: (٥٢٠).

صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن).[١]

وكذلك عبد الله بن الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٩٠ هـ)

قال: حدثني أبي–رحمه الله–، نا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي–صلى الله عليه وسلم–: (إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته).[٢]

وقال: حدثني أبي، سمعت الحميدي، وحدثنا سفيان بهذا الحديث ويقول: هذا حق ويتكلم وابن عيينة ساكت قال أبي–رحمه الله–: ما ينكر ابن عيينة قوله"[٣]

وقال: حدثني أبو معمر، نا جرير، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر–رضي الله عنهما–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن).[٤]

أبو العباس بن سريج (أحمد بن عمر بن سريج البغدادي) (ت: ٣٠٦ هـ)

نقل ابن قيم الجوزية في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية عن أبي العباس بن سريج الذي وصفه بأنه إمام الشافعية في وقته أنه قال أثناء ذكره عقائد السنة: وحديث (خلق الله آدم على صورته)، وقوله: (لا تقبحوا الوجه، فإنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن)، وإثبات الكلام بالحرف والصوت وباللغات، وبالكلمات، وبالسور ..."[٥]

قول الآجُريِّ–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ)

وقال الآجُريُّ–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ) بعدَ رِوايته لحديثِ الصورة: "هذه مِن السُّنن التي

---

(١) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٣٠) برقم: (٥٢١).

(٢) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٢٦٧) برقم: (٤٩٦).

(٣) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٢٦٧) برقم: (٤٩٧).

(٤) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٢٦٨) برقم: (٤٩٨).

(٥) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (ص: ١٢٨ ، ١٢٩)..

يجِب على المسلمين الإيمانُ بها، ولا يُقال: كيف؟ ولِمَ؟ بل تُستقبل بالتسليمِ والتَّصديق،وترْك النظر، كما قال مَن تَقدَّم مِن أئمَّة المسلمين"[(١)]

وقال الإمام الآجري (ت: ٣٦٠ هـ): "باب الإيمان بأن الله–عز وجل–خلق آدم على صورته بلا كيف"[(٢)]

أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد بن معروف البغدادي، المشهور بغلام الخلال (ت: ٣٦٣ هـ).

وقد ورد في جزء غلام الخلال عدد من الآثار في إثبات حديث الصورة.

وجاء فيه: "وَقَوْلِهِ: (خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)

حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ سُلَيْمٍ، حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بنُ شَبِيبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ المقْرِئُ، حَدَّثَنَا ابنُ لَهِيعَةَ، عَنْ أَبِي يُونُسَ مَوْلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ–صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّ صُورَةَ الإِنْسَانِ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى).

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ، حَدَّثَنا عَلِيُّ بنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا زَيدُ بنُ أَبِي الزَّرْقَاءِ، عَنِ ابْنِ لَهِيعةَ، عَنْ أَبِي يُونُسَ وَالأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: (إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ صُورَةَ الإِنْسَانِ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلّ).

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بنُ الطَّيَالِسِيّ وَحَدَّثَنَا الطَّيَالِسِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بنُ مَنْصُورٍ، قَالَ:

قُلْتُ لِأَحْمَدَ: (لَا تُقَبِّحُوا الْوَجْهَ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ) ،

أَلَيْسَ تَقُولُ بِهَذِهِ الأَحَادِيثِ؟

قَالَ أَحْمَدُ: (صَحِيحٌ) .

قَالَ ابنُ رَاهَوَيْهِ: "صَحِيحٌ، وَلَا يَدَعُهُ إِلَّا مُبْتَدِعٌ أَوْ ضَعِيفُ الرَّأْيِ".

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ أَبُو عِيسَى الخِرَقِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَى، حَدَّثَنَا أَبُو طَالِبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ

---

(١) الشريعة للآجُرِيّ" (٢/ ١٠٦).

(٢) الشريعة (٣/ ١١٤٧).

أَبَا عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: "مَنْ قَالَ: إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَهُوَ جَهْمِيٌّ، وَأَيُّ صُورَةٍ كَانَتْ لِآدَمَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ ؟".[١]

قول القاضي أبو يعلى-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ):

قال أبو يعلى"اعلم أن هَذَا الخبر يدل عَلَى إثبات الصورة وعلى الإتيان، وقد تقدم ذَلِكَ فِي الأخبار التي قبله، وبينا أنه غير ممتنع جواز إطلاق الصورة لا كالصور، كإطلاق نفس وذات لا كالنفوس والذوات"[٢]

أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني-رحمه الله-(ت: ٣٨٥ هـ)

أورد في كتابه الصفات عددًا من الأحاديث ومنها:

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه، ولا يقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك؛ فإن الله-عز وجل-خلق آدم على صورته). [٣]

عن ابن عمر-رضي الله عنهما-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (لا تقبحوا الوجه؛ فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته). [٤]

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه، ولا يقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك؛ فإن الله خلق آدم على صورته). [٥]

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (خلق الله عز وجل

---

(١) جزء في السنة لغلام الخلال مطبوع ضمن كتاب "عقيدة الراسخين في العلم من الصحابة والتابعين والأئمة المرضيين في صفات رب العالمين ويليه جزأن صفة النزول وحديث الصورة". تأليف: سعود العثمان، (ص: ٨٣٣-٨٣٥).

(٢)"إبطال التأويلات" (ص: ١٥١).

(٣) الصفات للدارقطني (ص: ٣٥)، برقم: (٤٤).

(٤) الصفات للدارقطني (ص: ٣٥)، برقم: (٤٥).

(٥) الصفات للدارقطني (ص: ٣٦)، برقم: (٤٦).

آدم على صورته وطوله ستون ذراعا).[١]

عن ابن عمر–رضي الله عنهما–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (لا تقبحوا الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن–عز وجل–).[٢]

عن أبي هريرة–رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه؛ فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن عز وجل).[٣]

قول أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بَطَّة العكبري الحنبلي (ت ٣٨٧ هـ)

قال الإمام ابن بطة (ت: ٣٨٧ هـ) : "باب الإيمان بأن الله له خلق آدم على صورته بلا كيف.

وكل ما جاء من هذه الأحاديث، وصحت عن رسول الله ففرض على المسلمين قبولها، والتصديق بها، التسليم لها، وترك الاعتراض عليها، وواجب على من قبلها، وصدق بها ألا يضرب لها المقاييس، ولا يتحمل لها المعاني والتفاسير، لكن تمر على ما جاءت، ولا يقال يها: لِمَ ؟ ولا كيف؟؛ إيمانًا بها وتصديقًا، ونقف من لفظها، وروايتها حيث وقف أئمتنا وشيوخنا، وننتهي منها حيث انتهى بنا، كما قال المصطفى نبينا–صلى الله عليه وسلم–بلا معارضة ولا تكذيب، ولا تنقير ولا تفتيش"[٤]

قول البربهاري–رحمه الله–(ت: ٣٢٩ هـ)

قال البربهاري–رحمه الله–(ت: ٣٢٩ هـ) "وكل ما سمعت من الآثار شيئا مما لم يبلغه عقلك، نحو قول رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن)[٥]،

---

(١) الصفات للدارقطني (ص: ٣٦)، برقم: (٤٧).

(٢) الصفات للدارقطني (ص: ٣٦)، برقم: (٤٨).

(٣) الصفات للدارقطني (ص: ٣٧)، برقم: (٤٩).

(٤) (الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية) (٣/ ٢٤٤).

(٥) انظر صحيح مسلم كتاب القدر، بَابُ تَصْرِيفِ اللهِ تَعَالَى الْقُلُوبَ كَيْفَ شَاءَ، برقم (٢٦٥٤)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٦٦١٠).

وقوله: (إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا) [(١)]، (وينزل يوم عرفة) (ويوم القيامة).

(وأن جهنم لا تزال يُطرح فيها حتى يضع عليها قدمه جل ثناؤه)، وقول الله تعالى للعبد: (إن مشيت إليّ هرولت إليك) [(٢)]، وقوله: (إن الله تبارك وتعالى ينزل يوم القيامة) [(٣)]، وقوله: (إن الله خلق آدم على صورته) [(٤)]، وقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: (إني رأيت ربي في أحسن صورة) [(٥)]. وأشباه هذه الأحاديث، فعليك بالتسليم والتصديق والتفويض والرضى، ولا تفسر شيئا من هذه بهواك، فإن الإيمان بهذا واجب، فمن فسر شيئًا من هذا بهواه أو رده فهو جهمي"[(٦)]

قول أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (ت ٤١٨ ه)

حيث ذكر في كتابه "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" تحت "باب جماع توحيد الله-عز وجل-وصفاته وأسمائه، وأنه حي، قادر، عالم، سميع، بصير، متكلم، مريد، باق؛ سياق ما دل من كتاب الله-عز وجل-وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-على أن من صفات الله-عز وجل-"

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب التهجد، بَابُ الدُّعَاءِ فِي الصَّلاَةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، برقم (١١٤٥)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَالْإِجَابَةِ فِيهِ، رقم (٧٥٨)، وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٤٤٦)، وابن ماجه (١٣٦٦)، ومالك (٣٠)، والدارمي (١٥١٩)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٧٥٩٢)

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، برقم (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، برقم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢)، وأحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٩٣٥١).

(٣) انظر جامع الترمذي (٢٣٨٢)، قال الشيخ الالباني في صحيح الترغيب والترهيب الجزء الثاني، صفحة (١١٧): صحيح.

(٤)) انظر صحيح مسلم كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ ضَرْبِ الْوَجْهِ، برقم (٢٦١٢)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٧٣٢٣).

(٥) انظر جامع الترمذي رقم (٣٢٣٣)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدِ بَنِي هَاشِمٍ (٢٦٣٤)، قال الشيخ الالباني في مشكاة المصابيح الجزء الأول، صفحة (٢٢٥): صحيح.

(٦) شرح السنة للبربهاري (١/ ٦٥-٦٨).

وساق تحت هذا العنوان جملة من نصوص الصفات ومنها: "حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قاتل أحدكم أخاه، فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته) أخرجه مسلم"[(١)]

قول أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي (ت: ٥٣٢ هـ)

فقد ذكر في كتابه "الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاما لذوي البدع والفضول"–والكتاب مفقود[(٢)]–وقد نقل ابن تيمية بعض ما في هذا الكتاب وفيما نقله عنه قوله: "وذكر الشافعي المعتقد بالدلائل..... وقال بعدها "وسوى مانقله الشافعي أحاديث جاءت في الصحاح والمسانيد، تلقتها الأمة بالقبول والتصديق" وعد منها: "ونحو قوله: (خلق آدم على صورته)"[(٣)]

قول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ)

وحكاه شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) عن جمهور السلف فقال: "هذا الحديثُ لم يكُنْ بين السلف في القُرون الثلاثة نِزاعٌ في أنَّ الضمير عائدٌ إلى الله، فإنَّه مستفيض من طُرق متعدِّدة عن عِدة مِن الصحابة، وسِياق الأحاديث كلها يدلُّ على ذلك"[(٤)]

قال أبو العباس ابن تيمية في حديث الصورة: "هذا الحديث لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير عائد إلىٰ الله"[(٥)]

وقال في تأويل الصورة: "ولكن ظهر لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة، جعل طائفة الضمير

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣/ ٤٦٩-٤٧٠) برقم: (٧١٤)، (٧١٥)، (٧١٦) .

(٢) ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية) (١٦/ ٣١٧) و (طبقات الشافعية) (٢/ ٥٧٢)، ونقل عنه ابن تيمية في (جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية) (١٦٩)، و (مجموع الفتاوى) (٤/ ١٨١)، (١٢/ ١٦٠، ٣٠٦).

(٣) الانتصار لأهل الأثر المطبوع باسم نقض المنطق لابن تيمية، (ص: ٢٥٧-٢٥٨)، وانظر: القطوف المجموعة من كتاب الفصول في الأصول (ص: ٣٣).

(٤) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية"، تحقيق: د. عبدالرحمن اليحي (٢/ ٣٥٦).

(٥) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية"، (٦/ ٣٧٣).

فيه عائدًا إلى غير الله تعالى؛ حتى نقل ذلك طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم، كأبي ثور (ت: ٢٤٦ هـ)، وابن خزيمة (ت: ٣١١ هـ)، وأبي الشيخ الأصبهاني (ت: ٣٦٩ هـ)، وغيرهم، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة"[١]

وهذا يدل على أنه لا يسوغ لأحد أن يرجع الضمير إلىٰ غير الله-عز وجل-.

وقد تضمن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله أمورًا:

الأول: أن تأويل الصورة لم يظهر إلا في المائة الثالثة من جهة الجهمية.

الثاني: حكاية إجماع القرون الثلاثة على أن الضمير عائد إلىٰ الله .

الثالث: إنكار أئمة الدين والسنة على من أرجع الضمير إلى غير الله.

وهذه الأمور الثلاثة مفردةً تدل علىٰ اشتهار المسألة ووضوحها، وأنه لا يسوغ الخلاف فيها، فكيف بمجموعها؟!

فهذه المسألة من المسائل التي تُعَدُّ أصولًا؛ لدلالة الإجماع؛ إذ إن الإجماع لا يسوغ مخالفته، فهو من حجج الله علىٰ خلقه.

ولا يصح أن يقال: هي جزئية، والجزئيات لا تعد أصولًا، بل الجزئية متى ما وقع عليها الإجماع صارت أصلًا من أصول أهل السنة. [٢]

قول ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)

قال ابن القيم: "ومن هذا حديث الصورة وقوله: (خلق آدم على صورة الرحمن) لم يرد به تشبيه الرب وتمثيله بالمخلوق، وإنما أراد به تحقيق الوجه، وإثبات السمع والبصر، والكلام صفة ومحلًا، والله أعلم"[٣]

القول الثاني: قول الإمام مالك في المسألة:

---

(١) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية"، (٦/ ٣٧٦).

(٢) ينظر: رسالة (تبصير الخلف بضابط الأصول التي من خالفها خرج عن منهج السلف).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص ٥٣٩).

وللحديث عن كلام الإمام مالك في المسألة يحسن تناوله من **ثلاثة جوانب**:

الجانب الأول: ذكر من نقل كلام الإمام مالك في المسألة:

نقل هذا القول عن الإمام مالك كل من:

١- أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي-رحمه الله-(ت: ٣٢٢ هـ):

قال العقيلي: "حدثنا عبد الله بن ذكوان أبو الزناد حدثنا محمد بن عيسى قال: حدثنا صالح قال: قال علي: سمعت سفيان قال: جلست إلى إسماعيل بن محمد بن سعد فقلت: حدثنا أبو الزناد فأخذ كفا من حصى فحصبني به، وكان مالك بن أنس لا يرضى أبا الزناد. حدثنا مقدام بن داود قال: حدثنا أبو زيد أحمد بن أبي الغمر، والحارث بن مسكين قالا: حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال: سألت مالكًا عمن يحدث بالحديث الذي قالوا: (إن الله خلق آدم على صورته)، فأنكر ذلك مالك إنكارًا شديدًا، ونهى أن يتحدث به أحد، فقيل له: إن ناسًا من أهل العلم يتحدثون به؟ فقال: من هم، فقيل: محمد بن عجلان، عن أبي الزناد، فقال: لم يكن يعرف ابن عجلان هذه الأشياء، ولم يكن عالمِا، وذكر أبو الزناد فقال: إنه لم يزل عاملًا لهؤلاء-يعني بني أمية-حتى مات، وكان صاحب عمال يتبعهم"[١]

٢- أبو أحمد عبد الله ابن عدي (ت: ٣٦٥ هـ).

---

(١) الضعفاء الكبير للعقيلي (٢/ ٢٥١).

قال الذهبي: "أبو أحمد بن عدي: حدثنا أحمد بن علي المدائني، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن جابر، حدثنا أبو زيد بن أبي الغمر، قال: قال ابن القاسم: سألت مالكًا عمن حدث بالحديث: الذين قالوا: (إن الله خلق آدم على صورته)(١)، والحديث الذي جاء: (إن الله يكشف عن ساقه)(٢)، (وأنه يدخل يده في جهنم حتى يخرج من أراد).(٣)

فأنكر مالك ذلك إنكارًا شديدًا، ونهى أن يحدث بها أحد.

فقيل له: إن ناسا من أهل العلم يتحدثون به.

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١١/ ٢) في أول الاستئذان، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة: باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، وأحمد (٢/ ٣١٥)، وابن خزيمة في "التوحيد" (٣٩، ٤٠) من طريق معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب، فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: "ورحمة الله" فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن)، وأخرجه مسلم (٢٦١٢) (١١٥) ، وأحمد (٢/ ٤٦٣ و٥١٩)، وابن خزيمة (ص: ٣٧) من طريق قتادة، عن أبي أيوب المراغي، عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته)، وأخرجه أحمد (٢/ ٢٤٤)، والآجري في "الشريعة": (ص: ٣٤١)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (ص: ٢٩٠)، من طريق سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. وأخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣) من طريق المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، عن موسى بن أبي عثمان، عن أبيه، عن أبي هريرة.وأخرجه أحمد (٢/ ٢٥١، و٤٣٤)، وابن خزيمة: (ص: ٣٦) من طريق يحي، عن ابن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٥٠٨) في التفسير من طريق سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد-رضي الله عنه-، قال: سمعت النبي-صلى الله عليه وسلم-يقول: (يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقا واحدًا) وهو قطعة من حديث أبي سعيد المطول في رؤية الله في الآخرة والشفاعة، أخرجه البخاري في التوحيد (١٣/ ٣٥٨، ٣٦٠).وأخرجه مسلم (١٨٣) في الايمان: باب معرفة طريق الرؤية، من طريق سويد بن سعيد، عن حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، ولفظه عنده: (فيكشف عن ساقه) وهذه الرواية أصح لموافقتها لفظ القرآن كما قال الإسماعيلي، ونقله عنه الحافظ في "الفتح" (٨/ ٥٠٨)، وأقره.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وقد أخرج الآجري في " الشريعة " (ص: ٣٤٦)، من طريق هناد بن السري، عن أبي معاوية، عن أبي إسحاق بن عبد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن ابن عمر-رضي الله عنهما-، قال: لقد بلغت الشفاعة يوم القيامة حتى إن الله-عز وجل-ليقول للملائكة: أخرجوا برحمتي من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، قال: ثم يخرجهم حفنات بيده بعد ذلك. وأخرج أحمد (٣/ ٩٤)، ومسلم (١٨٣) ، والآجري في الشريعة (ص: ٣٤٦) من حديث أبي سعيد الخدري المطول وفيه: (فيقول الله-عز وجل-: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط..) وقد ورد ذكر اليد في غير ما حديث صحيح، أوردها البيهقي في " الأسماء والصفات" (٣١٤، ٣٢٣).

فقال: من هو؟

قيل: ابن عجلان، عن أبي الزناد.

قال: لم يكن ابن عجلان يعرف هذه الأشياء، ولم يكن عالمِا.

وذكر أبا الزناد، فقال: لم يزل عاملا لهؤلاء حتى مات.

رواها: مقدام الرعيني، عن ابن أبي الغمر، والحارث بن مسكين، قالا: حدثنا ابن القاسم"[(١)]

٣- ابن أبي زمنين-رحمه الله-(ت: ٣٩٩ هـ):

قال ابن أبي زمنين: "عن عبد الرحمن بن القاسم أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يصف الله إلا بما وصف به نفسه في القرآن، ولا يشبه يديه بشيء، ولا وجهه بشيء، ولكن يقول: له يدان كما وصف نفسه في القرآن، وله وجه كما وصف نفسه، يقف عندما وصف به نفسه في الكتاب، فإنه تبارك وتعالى لا مثل له ولا شبيه ولكن هو الله لا إله إلا هو كما وصف نفسه، ويداه مبسوطتان كما وصفها: ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: الآية: ٦٧]، كما وصف نفسه قال: وكان مالك يعظم أن يحدث أحد بهذه الأحاديث التي فيها: أن الله خلق آدم على صورته وضعفها"[(٢)]

٤-ابن عبد البر-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ):

قال ابن عبد البر: "وقد كان مالك ينكر على من حدث بمثل هذه الأحاديث. ذكره أصبغ وعيسى، عن ابن القاسم، قال: سألت مالكا عمن يحدث الحديث: (إن الله خلق آدم على صورته)، والحديث: (إن الله يكشف عن ساقه يوم القيامة) [(٣)] ، وأنه (يدخل في النار يده حتى يخرج من أراد). [(٤)]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٣-١٠٥).

(٢) أصول السنة لابن أبي زمنين (ص: ٧٥) برقم: (٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٩) و (٧٤٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري، لكن بلفظ: "فيقبض قبضة من النار".

فأنكر ذلك إنكارًا شديدًا، ونهى أن يحدث به أحد، وإنما كره ذلك مالك خشية الخوض في التشبيه بكيف هاهنا"[١]

والملاحظ في هذه الرويات جميعها أنها نصت على رواية الحديث الذي جاء في الصحيحين وهي: (خلق الله آدم على صورته)، ولم تتعرض للرواية الأخرى المتنازع عليها، وهي: (خلق الله آدم على صورة الرحمن)، فيأخذ هذا بعين الاعتبار.

الجانب الثاني: الكلام على صحة هذا النقل

١-طعن الألباني-رحمه الله-(ت: ١٤٢١ هـ) في صحة هذه الرواية عن الإمام مالك-رحمه الله-، لضعف مقدام بن داود شيخ العقيلي، والذي ساق العقيلي هذه القصة من طريقه، فقال-رحمه الله-: "مقدام هذا ... متكلم فيه، بل قال النسائي فيه: (ليس بثقة)، فلا يجوز أن ينسب بروايته إلى الإمام مالك أنه أنكر حديثًا صحيحًا"[٢]

٢- وطعن في صحتها أيضًا الشيخ حمود بن عبدالله التويجري-رحمه الله- (ت: ١٤١٣ هـ): فقال: "وقد روي بإسناد ضعيف عن الإمام مالك أنه أنكر هذا الحديث مع اشتهاره وكثرة من رواه من التابعين عن أبي هريرة-رضي الله عنه-، ومن رواه من أتباع التابعين ومن بعدهم من الأئمة"[٣]

والجواب على ذلك:

أن هذه القصة لم ينفرد بها مقدام، فقد ساقها ابن عدي-رحمه الله-من طريق آخر عن أبي زيد بن أبي الغمر، عن ابن القاسم، عن الإمام مالك-رحمه الله-[٤]، فهذه المتابعة من ابن عدي يعتضد بها طريق العقيلي.

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٥/ ١٦٢-١٦٣)، وسير الأعلام النبلاء (٨/ ١٠٤).

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة (٣/ ٣٢٠).

(٣) كتاب عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن (ص: ٩).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٣).

وذكرها-أيضا-حافظ المغرب ابن عبد البر عن أصبغ بن الفرج، وعيسى بن مثرود، عن ابن القاسم [(١)]، ولم يتعقبها بتضعيف، بل اعتذر له بأنه كره ذلك خشية الخوض بالتشبيه-كما تقدم- مع أن ابن عبد البر يعتبر من محققي المذهب المالكي، ولذا فهو يتحرى الدقة فيما ينقل عن إمام المذهب، فهذا الصنيع منه يشعر بإقراره لهذه القصة، والله أعلم.

كما ذكر هذه القصة-أيضا-الذهبي من طريق ابن عدي مقرًا لها، وعلق عليها بقوله: "قلت: أنكر الإمام ذلك، لأنه لم يثبت عنده، ولا اتصل به، فهو معذور"[(٢)]

فهذه القصة رواها أربعة عن عبد الرحمن بن القاسم-رحمه الله-وهم:

١ - أبو زيد بن أبي الغمر، كما عند العقيلي وابن عدي.

٢ - الحارث بن مسكين، كما عند العقيلي.

٣ - أصبغ بن الفرج، كما ذكر ذلك ابن عبد البر في التمهيد.

٤ - عيسى بن مثرود، كما ذكر ذلك ابن عبد البر في التمهيد.

فالطعن فيها غير متوجه، وإنكار الإمام مالك محمول على ما ذكره الذهبي من أن هذا الحديث لم يثبت عنده، والله أعلم"[(٣)]

الجانب الثالث: توجيه كلام الإمام مالك في المسألة:

التوجيه الأول: من حيث صحة الحديث وروايته:

ذكر أن سبب نهي الإمام مالك عن التحديث بحديث (إن الله خلق آدم علي صورته) هو أنه لم يصح عنده كما جاء مصرحًا بذلك في رواية قال ابن ابي زمنين في أصول السنة فقال: "وكان مالك يعظم أن يحدث أحد بهذه الأحاديث التي فيها: (أن الله خلق آدم على صورته)،

---

(١) انظر: التمهيد (٧/ ١٥٠).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٤).

(٣) المصدر: أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين دراسة وترجيح لسليمان الدبيخي(ص: ١٥٩-١٦٤).

وضعفها"[١]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) تعقيبًا على عبارة الإمام مالك: "قلت هذان الحديثان كان الليث بن سعد يحدث بهما فالأول حديث الصورة حدث به عن ابن عجلان، والثاني هو في حديث أبي سعيد الخدري الطويل وهذا الحديث قد أخرجاه في الصحيحين من حديث الليث والأول قد أخرجاه في الصحيحين من حديث غيره، وابن القاسم إنما سأل مالكا لأجل تحديث الليث بذلك فيقال إما أن يكون ما قاله مالك مخالفًا لما فعله الليث ونحوه أو ليس بمخالف بل يكره أن يتحدث بذلك لمن يفتنه ذلك ولايحمله عقله كما قال ابن مسعود: "ما من رجل يحدث قوما حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم"[٢]

وقال ابن تيمية: "وقد كان مالك يترك رواية أحاديث كثيرة لكونه لا يأخذ بها ولم يتركها غيره فله في ذلك مذهب فغاية ما يعتذر لمالك أن يقال كره أن يتحدث بذلك حديث يفتن المستمع الذي لا يحمل عقله ذلك.

وأما إن قيل أنه كره التحدث بذلك مطلقًا فهذا مردود على من قاله فقد حدث بهذه الأحاديث من هم أجل من مالك عند نفسه وعند المسلمين كعبد الله بن عمر وأبي هريرة وابن عباس وعطاء بن أبي رباح وقد حدث بها نظراؤه كسفيان الثوري والليث بن سعد وابن عيينة والثوري أعلم من مالك بالحديث وأحفظه له وهو أقل غلطًا فيه من مالك وإن كان مالك ينقي من يحدث عنه، وأما الليث فقد قال فيه الشافعي كان أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه ففي الجملة هذا كلام في حديث مخصوص أما أن يقال أن الأئمة أعرضوا عن هذه الأحاديث مطلقًا فهذا بهتان عظيم"[٣]

قال ابن تيمية-رحمه الله-: "كان في السلف من يترك روايته؛ فإن مالكًا-رحمة الله عليه-روي

---

(١) أصول السنة لابن أبي زمنين (ص: ٧٥) برقم: (٢٥).

(٢) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (١٤).

(٣) دقائق التفسير لابن تيمية"، (٢/ ١٧١-١٧٢).

عنه أنه لما بلغه أن محمد بن عجلان حدث به كره ذلك، وقال: إنما هو صاحب أمراء. والمقتصدون يقولون: إنما كره مالك ذلك لأن العلم الذي قد يكون فتنة للمستمع لا ينبغي للعالم أن يحدثه به؛ ... وقول مالك–رحمه الله–في ابن عجلان: هو صاحب أمراء؛ كأنه–والله أعلم–يريد بذلك أن جلساء الملوك لا يضعون العلم مواضعه، وإنما يقولون ما عنده مطلقًا؛ لطلب التقرب إلى الملوك أو لغير ذلك، من غير تمييز بين ما ينتفع به الملوك وما لا ينتفعون به، وهذا الحديث فيه ما يجب تبليغه للملوك من نهي النبي–صلى الله عليه وسلم–عن ضرب الوجه، ولذلك روى مالك هذا المعنى عن ابن عجلان نفسه، ... لئلا يعاب عليه صورة التناقض في كونه يكره له روايته ثم يرويه هو عنه. وأنكر بعض الناس على مالك إنكاره لروايته، وقال: كيف ينكر تبليغ حديث صحيح لرسول الله–صلى الله عليه وسلم–ولا ينكر الكلام بالرأي المخالف لحديث رسول الله–صلى الله عليه وسلم–؟ وذكروا أشياء لا أحب ذكرها؛ لأن المتكلم بها عظيم، والمتكلم به عظيم، وهم أئمة مجتهدون، فالكلام في ذلك يشبه الكلام فيما وقع بين الصحابة؛ إذ المعنى المقتضي لذلك يعم الصحابة وسائر طبقات الأمة؛ إذ كل طبقة متأخرة ينبغي أن تستعمل من الطبقة المتقدمة معنى هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: الآية: ١٠]"[(١)]

وقال الذهبي–رحمه الله–بعد ما ساق الرواية عن الإمام مالك في إنكاره الحديث: "قلت: الحديث في أن الله خلق آدم على صورته، لم ينفرد به ابن عجلان، فقد رواه همام عن قتادة، عن أبي موسى أيوب، عن أبي هريرة.[(٢)]

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية (ص: ١٥٥–١٦١) .

(٢) هو حديث: (إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته) أخرجه مسلم (١٦/ ٤٠٤) ح (٢٦١٢)، ولكن ليس فيه ذكر (لأبي موسى أيوب) كما ذكره الذهبي، وإنما فيه: أبو أيوب، وهو كذلك عند مسلم أيضًا، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٦٢) من طريق المثنى بن سعيد عن قتادة عن أبي أيوب عن أبي هريرة.

- ورواه شعيب وابن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة.[(١)]

- ورواه معمر عن همام، عن أبي هريرة.[(٢)]

- ورواه جماعة كالليث بن سعد وغيره عن ابن عجلان، عن المقبري، عن أبي هريرة.[(٣)]

- ورواه شعيب-أيضا-وغيره عن أبي الزناد، عن موسى بن أبي عثمان، عن أبي هريرة.[(٤)]

ورواه جماعة عن ابن لهيعة، عن الأعرج وأبي يونس، عن أبي هريرة .[(٥)]

- ورواه جرير عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عمر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.[(٦)]

وله طرق أخر ... وهو مخرج في الصحاح.

وأبو الزناد[(٧)] فعمدة في الدين، وابن عجلان[(٨)] صدوق من علماء المدينة وأجلائهم

---

(١) هو حديث: (إذا قاتل أحدكم. ..) المتقدم، ولكن هذا الإسناد عند الإمام أحمد (١٢/ ٢٧٥) ح (٧٣٢٣)، وفيه بدل (قاتل): (ضرب).

(٢) هو حديث: (خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا ...) متفق عليه.

(٣) هو حديث: (إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا يقل قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته).

(٤) هو حديث: (إن الله عز وجل خلق آدم على صورته، وطوله ستون ذراعا) هكذا مختصرا، أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٤/ ٤٥) ح (٨٢٩١)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٩٢) ح (٤٣)، وفيهما: "عن موسى بن أبي عثمان عن أبيه عن أبي هريرة". فأبو عثمان هو الراوي عن أبي هريرة، وقد سقط من الإسناد الذي ذكره الذهبي. وأخرج هذا الحديث-أيضا-عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤٧٩) ح (١١٠٠) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

(٥) هو حديث: (من قاتل فليجتنب الوجه، فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن).

(٦) هو حديث: (لا تقبحوا الوجه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن(.

(٧) هو عبد الله بن ذكوان، قال فيه يحيى بن معين: ثقة حجة، وقال أبو حاتم: ثقة فقيه حجة صاحب. سنة، وقال البخاري: أصح أحاديث أبي هريرة: أبو الزناد عن الأعرج عنه، وقال الذهبي: انعقد الإجماع على أن أبا الزناد ثقة رضي. [انظر: ميزان الاعتدال (٤/ ٩٤ - ٩٦)، والسير (٥/ ٤٤٥ - ٤٤٩)]، وقال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٤٩٠) عن أبي الزناد: "ثقة فقيه".

(٨) هو محمد بن عجلان القرشي، قال الذهبي في السير (٦/ ٣٢٠): "وثق ابن عجلان: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وحدث عنه

=

ومفتيهم، وغيره أحفظ منه"[١]

وقال الذهبي: "أنكر الإمام ذلك، لأنه لم يثبت عنده، ولا اتصل به، فهو معذور، كما أن صاحبي (الصحيحين) معذوران في إخراج ذلك-أعني: الحديث الأول والثاني-لثبوت سندهما، وأما الحديث الثالث، فلا أعرفه بهذا اللفظ، فقولنا في ذلك وبابه: الإقرار، والإمرار، وتفويض معناه إلى قائله الصادق المعصوم"[٢]

وليس هذا الصنيع من الامام مالك-رحمه الله-خاص بنصوص الصفات بل قد ذكر ابن عساكر في كشف المغطا ، وابن شاكر في كتاب مناقب الشافعي عن يونس بن عبد الأعلى قال ذكر الشافعي الموطأ فقال: ما علمنا أن أحدًا من المتقدمين ألف كتابًا أحسن من موطأ مالك، وما ذكر فيه من الأخبار ولم يذكر مرغوبًا عنه الرواية كما ذكره غيره في كتبه وما علمته ذكر حديثًا فيه ذكر أحد من الصحابة إلا ما في حديث (ليذادن رجال عن حوضي) فلقد أخبرني من سمع مالكًا ذكر هذا الحديث وأنه ود أنه لم يخرجه في الموطأ. [٣]

التوجيه الثاني: من حيث مقصود الإمام مالك بهذه العبارة:

وقد اعتذر للإمام مالك-رحمه الله-بأنه نهى عن التحديث بهذا الحديث: خشية أن يقع بعض الجهال بتشبيه الله تعالى بخلقه، فنهيه عن التحديث به من باب سد الذريعة، وقد روى مسلم في مقدمة صحيحه عن عبد الله بن مسعود أنه قال: "ما أنت بمحدث قومًا حديثا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة". [٤]

شعبة ومالك، وهو حسن الحديث"، وقال أيضا في (٦/ ٣٢٢): "فحديثه إن لم يبلغ رتبة الصحيح، فلا ينحط عن رتبة الحسن، والله أعلم". وقال الحافظ ابن حجر في التقريب (٢/ ١١٢): "صدوق، إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة".

(١) ميزان الاعتدال (٤/ ٩٥ - ٩٦)، وانظر: السير (٥/ ٤٥٠) (٦/ ٣٢٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٣-١٠٥).

(٣) كشف المغطا (ص: ٤٠).

(٤) رواه مسلم (١/ ١٩١).

قال الإمام ابن عبد البر–رحمه الله-: "وإنما كره ذلك مالك، خشية الخوض في التشبيه بكيف ها هنا"[(١)]

قال ابن تيمية: "ولكن كان من العلماء في القرن الثالث من يكره روايته ويروي بعضه كما يكره رواية بعض الأحاديث لمن يخاف على نفسه أن يفسد عقله أو دينه كما قال عبد الله بن مسعود: "ما من رجل يحدث قوما حديثا لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم" وفي البخاري عن علي بن أبي طالب–رضي الله عنه-، أنه قال: "حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله"[(٢)] وإن كان مع ذلك لا يرون كتمان ما جاء به الرسول مطلقًا بل لابد أن يبلغوه حيث يصلح ذلك ولهذا اتفقت الأمة على تبليغه وتصديقه"[(٣)]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ... على أن علماء الأمة لم تنكر إطلاق القول: بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن، بل كانوا متفقين على إطلاق مثل هذا.

وكراهة بعضهم لرواية ذلك في بعض الأوقات له نظائر، فإن الشيء قد يمنع سماعه لبعض الجهال، وإن كان متفقًا عليه بين علماء المسلمين"[(٤)]

ومما يؤيد ذلك ما ذكره الحافظان ابن عبد البر وابن حجر عليهما–رحمة الله–من أن الإمام مالكًا كان يكره التحديث بأحاديث الصفات [(٥)]، والله تعالى أعلم.

وهذا الاعتذار متوجه في نهيه عن التحديث بهذا الحديث، وأما إنكاره له فغير متوجه فيه، لأنه لا يليق بإمام دار الهجرة أن ينكر حديثًا صحيحًا من أجل سد الذريعة، فإن هذا لا يجوز.

فالنهي عن التحديث بالحديث–في بعض الأوقات أو الأماكن–شيء، وإنكاره شيء آخر،

---

(١) التمهيد (٧/ ١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧) بلفظ: "حدثوا النس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله"؛ والأثر أخرجه البيهقي في (المدخل إلى السنن) (٦١٠)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) (١٩١١)، والخطيب البغدادي في (الجامع لأخلاق الراوي) (١٣١٨) بنحوه..

(٣) كتاب بيان تلبيس الجهمية، (٦/ ٣٧٤-٣٧٥).

(٤) عقيدة أهل الإيمان (٧٤).

(٥) انظر: التمهيد (٧/ ١٥٠)، والفتح (١/ ٢٢٥)، وعقيدة أهل الإيمان (١٠).

ولذلك جزم الذهبي -رحمه الله تعالى- بأن إنكار مالك لهذا الحديث لأنه لم يثبت عنده"[١]، ويؤيد ذلك أنه قدح في بعض رواته، والله أعلم.

القول الثالث: قول من قال إن الضمير يعود على المضروب.

وعن زمن ظهور هذا القول،

قال ابن تيمية ولكن ظهر لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفة الضمير فيه عائدا إلى غير الله تعالى حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم كأبي ثور وابن خزيمة وأبي الشيخ الأصبهاني وغيرهم ولذلك لأنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة وذلك مثل ما ذكره أبو بكر بن خزيمة في كتاب التوحيد فإنه ذكر الاحتمالات الثلاثة:

١- ذكر عود الضمير إلى المضروب

٢- وذكر عوده إلى آدم.

٣- وتأول عوده إلى الله على إضافة الخلق"[٢]

وممن قال بهذا من علماء السنة

ابن خزيمة (ت: ٣١١ هـ)

وإلى هذا ذهب ابن خزيمة -رحمه الله- (ت: ٣١١ هـ) في كتاب (التوحيد)، حيث قال: "توهم بعض من لم يتحرَّ العلم أن قوله (على صورته) يريد صورة الرحمن -عزَّ ربنا وجلَّ- عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله (خلق آدم على صورته) الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد -صلى الله عليه وسلم- أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب، الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب، والذي قبح وجهه، فزجر -صلى الله عليه وسلم- أن يقول: ووجه من أشبه وجهك، لأن وجه آدم شبيه وجوه بنيه، فإذا قال الشاتم لبعض بني

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٤) .

(٢) كتاب بيان تلبيس الجهمية (٦/ ٣٧٦-٣٧٨).

آدم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، كان مقبحًا وجه آدم -صلوات الله عليه وسلامه- الذي وجوه بنيه شبيهة بوجه أبيهم، فتفهموا -رحمكم الله- معنى الخبر، لا تغلطوا ولا تغالطوا فتضلّوا عن سواء السبيل، وتحملوا على القول بالتشبيه الذي هو ضلال"[(١)]

ورأي ابن خزيمة يتمثل في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تضعيف رواية (خلق الله آدم على صورة الرحمن). [(٢)]

الأمر الثاني: قوله بأن الضمير يعود إلى المضروب. [(٣)]

الأمر الثالث: تأويله للحديث بأن إضافة الصورة إلى الرحمن في هذا الخبر إنما هو من إضافة الخلق إليه

حيث قال: فإن صح هذا الخبر مسندًا بأن يكون الأعمش قد سمعه من حبيب بن أبي ثابت، وحبيب قد سمعه من عطاء بن أبي رباح، وصح أنه عن ابن عمر على ما رواه الأعمش

فمعنى هذا الخبر عندنا أن إضافة الصورة إلى الرحمن في هذا الخبر إنما هو من إضافة الخلق إليه لأن الخلق يضاف إلى الرحمن، إذ الله خلقه، وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن، لأن الله صورها، ألم تسمع قوله عز وجل: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ [لقمان: الآية: ١١] ، فأضاف الله الخلق إلى نفسه، إذ الله تولى خلقه، وكذلك قول الله عز وجل: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ [الأعراف: الآية: ٧٣] ، فأضاف الله الناقة إلى نفسه، وقال: ﴿تأكل في أرض الله﴾ [الأعراف: الآية: ٧٣] وقال: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء: الآية: ٩٧] ؟ قال: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ [الأعراف: الآية: ١٢٨]، فأضاف الله الأرض إلى نفسه، إذ الله تولى خلقها فبسطها، وقال: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم: الآية: ٣٠] ، فأضاف الله الفطرة إلى نفسه إذ الله فطر الناس

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٨٤-٨٥).

(٢) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٨٧).

(٣) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٨٤-٨٥).

عليها، فما أضاف الله إلى نفسه على معنيين: أحدهما: إضافة الذات، والآخر: إضافة الخلق فتفهموا هذين المعنيين، لا تغالطوا فمعنى الخبر إن صح من طريق النقل مسندا، فإن ابن آدم خلق على الصورة التي خلقها الرحمن، حين صور آدم، ثم نفخ فيه الروح، قال الله جل وعلا: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ [الأعراف: الآية: ١١]"[١]

الجواب عن قول ابن خزيمة ومن وافقه:

أولًا: أن تأويل ابن خزيمة ليس من جنس تأويل الأشاعرة.

أن تأويل من أول الحديث كابن خزيمة إنما أوّله لأنه ضعَّفَه، ولأنه ظن أنه معارض لغيره من الأحاديث التي ثبتت صحتها، فجمع بينها على وجهٍ ظن أنه يعمل فيه بالحديثين معاً.

أما تأويل الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم لنصوص الصافات فهو يأتي على قواعد المتكلمين وذلك أنهم:

١- رأو أن نصوص الصفات مخالفة للعقل، فيقدمون الدليل العقل القطعي على النص الظني كما يقول أئمة الأشاعرة.

٢- يؤولون نصوص الآحاديث الواردة في باب الصفات لأنها هذا خبر آحاد لا تفيد العلم، كما يرى جمهور الأشاعرة.

ثانيًا: أن المعروف عن ابن خزيمة شدته على من قال بتأويل الصفات.

قال الذهبي: "قال الحاكم: سمعت محمد بن صالح بن هانئ، سمعت ابن خزيمة يقول:من لم يقر بأن الله على عرشه قد استوى فوق سبع سماواته، فهو كافر حلال الدم، وكان ماله فيئاً.

قلت (أي الذهبي): من أقر بذلك تصديقاً لكتاب الله، ولأحاديث رسول الله ﷺ وآمن به مفوضاً معناه إلى الله ورسوله، ولم يخض في التأويل ولا عمّق، فهو المسلم المتبع، ومن أنكر ذلك فلم يدر بثبوت ذلك في الكتاب والسنة، فهو مقصر والله يعفو عنه، إذ لم يوجب الله على كل مسلمٍ حفظ ما ورد في ذلك، ومن أنكر ذلك بعد العلم، وقَفَا غير سبيل السلف الصالح،

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٩١-٩٢).

وتمعْقَل على النص، فأمره إلى الله، نعوذ بالله من الضلال والهوى.

وكلام ابن خزيمة هذا -وإن كان حقاً- فهو فج، لا تحتمله نفوس كثير من متأخري العلماء.

قال أبو الوليد حسان بن محمد الفقيه: سمعت ابن خزيمة يقول:

القرآن كلام الله تعالى ومن قال: إنه مخلوق، فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

ولابن خزيمة عظمة في النفوس، وجلالة في القلوب؛ لعلمه ودينه واتباعه السنة.

وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأوَّل في ذلك حديث الصورة، فليعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفوا، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده -مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق- أهدرناه وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه"[(١)]

ويفهم من هذا النقل أن الذهبي انتقد كلام ابن خزيمة لتكفيره لمن أنكر أن الله على العرش استوى لأنه ينكر لفظ القرآن، ويكفر أيضاً من يقول إن القرآن مخلوق.

والذهبي يرى أن المخالف في مسألة الاستواء ومن يقول بخلق القرآن لا يكفر بسبب التأويل.

ويرى الذهبي أنه ما من عالم إلا وله زلة، فلا ينبغي أن يُسقط جُمْلَةً بسبب زلته هذه، فابن خزيمة نفسه -على جلالته وعظمته وتأليفه في بيان التوحيد- حصل منه تأويلٌ لنصٍ من النصوص وهو حديث الصورة.

فإذا كان ابن خزيمة معذوراً في تأويله هذا، فكذلك غيره من العلماء معذورون إذا قالوا ببعض هذه المقالات لتأويلات عندهم.[(٢)]

ثالثًا: أن تأويل ابن خزيمة ومن وافقه لم يتابعه عليه الأئمة فهو غير مقبول.

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشيخ محمد الكرجي الشافعي (ت: ٥٣٢ هـ) أنه قال في

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٧٣-٣٧٦).

(٢) المصدر: بحث بعنوان الأشاعرة وكتاب التوحيد لابن خزيمة، بحث منشور على موقع مركز سلف للبحوث والدراسات. "بتصرف".

كتابه "الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزامًا لذوي البدع والفضول" ما نصه: "فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة فغير مقبول، وإن صدر ذلك عن إمام معروف غير مجهول، نحو ما ينسب إلى أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في تأويل الحديث (خلق آدم على صورته) فإنه بفسر ذلك بذلك التأويل، ولم يتابعه عليه من قبله من أئمة الحديث، لما رويناه عن أحمد- رحمه الله-، ولم يتابعه أيضًا من بعده، حتى رأيت في "كتاب الفقهاء" للعبادي الفقيه (ت: ٤٥٨ هـ)، أنه ذكر الفقهاء، وذكر عن كل واحد منهم مسألة تفرد بها فذكر الإمام ابن خزيمة وأنه تفرد بتأويل هذا الحديث...، فهذا وأمثال ذلك من التأويل لا نقبله ولا نلتفت إليه بل نوافق ونتابع ما اتفق الجمهور عليه... اهـ"(١)

ونقل شيخ الإسلام عن أبي موسى المديني (ت: ٥٨١ هـ) فيما نقله عن قوام السنة (ت: ٥٣٥ هـ) قوله: "أخطأ محمد بن إسحاق بن خزيمة في حديث الصورة، ولا يطعن عليه بذلك، بل لا يؤخذ عنه هذا فحسب. قال أبو موسى: أشار بذلك إلى أنه قل من إمام إلا وله زلة فإذا ترك ذلك الإمام لأجل زلته، ترك كثير من الأئمة، وهذا لا ينبغي أن يفعل. اهـ" (٢)

قال ابن تيمية: "فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة فغير مقبول وإن صدر ذلك التأويل عن إمام معروف غير مجهول نحو ما ينسب إلى أبي بكر محمد بن خزيمة تأويل الحديث خلق الله آدم على صورته فإنه يفسر ذلك بذلك التأويل ولم يتابعه عليه من قبله من أهل الحديث لما روينا عن أحمد رحمه الله تعالى ولم يتابعه أيضًا من بعده حتى رأيت في كتاب الفقهاء للعبادي الفقيه أنه ذكر الفقهاء وذكر عن كل واحد منهم مسألة تفرد بها فذكر الإمام ابن خزيمة وأنه تفرد بتأويل هذا الحديث خلق الله آدم على صورته على أني سمعت عدة من المشايخ رووا أن ذلك التأويل مزور مربوط على ابن خزيمة وإفك افترى عليه فهذا وأمثال ذلك من التأويل لا

---

(١) نقض التأسيس-مخطوط-، (٣/ق ٢١٧-٢١٨)..

(٢) نقض التأسيس، -مخطوط-، (٣/ق ٢٢٠).

نقيله ولا يُلتفت إليه بل نوافق ونتابع ما اتفق الجمهور عليه"[١]

وقال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ) في (السير)-في ترجمة محمد بن إسحاق بن خزيمة-(ت: ٣١١ هـ): "وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة، فليعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف فما خاضوا في التأويل بل آمنوا وكفوا، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده – مع صحة إيمانه وتوخّيه لاتباع الحق – أهدرناه، وبدَّعناه، لقلّ من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنّه وكرمه"[٢]

القول الرابع: قول من قال إن الضمير يود إلى آدم:

نسب هذا القول إلى الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله-، وقد رد نسبة هذا القول إلى الإمام أحمد الذهبي عند ترجمته لحمدان بن الهيثم حيث قال: "حمدان بن الهيثم، عن أبي مسعود أحمد بن الفرات، وعنه أبو الشيخ، ووثقه، لكنه أتى بشيء منكر عن أحمد بن حنبل في معنى قوله-عليه السلام-: (إن الله خلق آدم على صورته)، زعم أنه قال صور الله صورة آدم قبل خلقه، ثم خلقه على تلك الصورة، فأما أن يكون خلق الله آدم على صورته فلا، فقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية: ١١]

قال يحيى بن مندة في مناقب أحمد: قال المظفر بن أحمد الخياط في كتاب السنة: وحمدان بن الهيثم يزعم أن أحمد قال: صور الله صورة آدم قبل خلقه، وأبو الشيخ فوثقه في كتاب الطبقات.[٣]

ويدل على بطلان روايته ما رواه حمدان بن علي الوراق الذي هو أشهر من حمدان بن الهيثم، وأقدم.

أنه سمع أحمد بن حنبل، وسأله رجل عن حديث خلق آدم على صورته على صورة آدم، فقال

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٦/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٧٦).

(٣) انظر: طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها، لأبي الشيخ الأصبهاني (٣/ ٥٠٥).

أحمد: فأين الذي يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم على صورة الرحمن.

ثم قال أحمد: وأى صورة لآدم قبل أن يخلق.

الطبراني، سمعت عبد الله بن أحمد يقول: قال رجل لأبي: إن فلانًا يقول في حديث رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: (إن الله خلق آدم على صورته).

فقال: على صورة الرجل.

فقال أبي: كذب، هذا قول الجهمية.

وأي فائدة في هذا.

وقيل: إن أبا عمر بن عبد الوهاب هجر أبا الشيخ لمكان حكاية حمدان، وقال: إن أردت أن أسلم عليك فأخرج من كتابك حكاية حمدان بن الهيثم"[(١)]

أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت: ٢٤٠ هـ).

وهو مروي عن أبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت: ٢٤٦ هـ)، ذكره القاضي أبو الحسين في (طبقات الحنابلة) كما في ترجمة عبد الوهاب الوراق (ت: ٢٥١ هـ) [(٢)]، وفي ترجمة محمد بن علي الجرجاني، المعروف بحمدان (ت: ٢٧١ هـ) أنه قال: "سألت أبا ثور عن قول النبي–صلى الله عليه وسلم–: (إن الله خلق آدم على صورته) فقال: على صورة آدم"[(٣)]

بعض محدثي البصرة.

ونقله الإمام أحمد عن بعض محدثي البصرة، كما في (نقض التأسيس) لشيخ الإسلام ابن تيمية. [(٤)]

---

(١) ميزان الإعتدال (١/ ٦٠٢-٦٠٣).

(٢) طبقات الحنابلة (٢/ ٩٠).

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٩).

(٤) نقض التأسيس (٢/ ١١٤٥).

محمد بن حبان البستي (ت: ٣٥٤ هـ).

قال: "والهاء راجعة إلى آدم"[١]

شنع الإمام أحمد والعلماء على أبي ثور -رحمه الله-؛ على الرغم مما عرف به من العلم والسنة، وقد وردت بعض الآثار في النهي عن مجالسته مطلقًا دون تحديد سبب لذلك ومنها:

قال زياد بْن أيوب سألت أَحْمَد بن حنبل عَنْ أبي ثور فقال: لا يجالس"[٢]

وقال حمدويه بن شداد-رحمه الله-: "سمعت أحمد بن حنبل-وذكروا عنده أبا ثور-فقال: لا تؤذوني بمجالسته"[٣]

قال الفضل بْن نوح: قلت: لأحمد أريد الخروج إلى الثغر وإني أسأل عَنْ هذين الرجلين عَنِ الكرابيسي وأبي ثور فقال: احذرهما"[٤]

ويمكن تقسيم الأسباب التي شنع بها على أبي ثور إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يتعلق بحديث (إن الله خلق آدم على صورته)

ومما ورد في ذلك:

قوله في حديث (خلق الله آدم على صورته)، وهذا القول مروي عن أبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت: ٢٤٠ هـ)، ذكره القاضي أبو الحسين في (طبقات الحنابلة) في ترجمة محمد بن علي الجرجاني، المعروف بحمدان أنه قال: "سألت أبا ثور عن قول النبي-صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق آدم على صورته) فقال: على صورة آدم"[٥]

---

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٤) إحسان.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ١٥٨

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٤٠٣).

(٤) طبقات الحنابلة ١/ ٢٥٥

(٥) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٩).

وبسبب هذا القول تم التشنيع عليه، ومما ذكر في ذلك:

١-قال ابراهيم بن أبان الموصلي: سمعت أبا عبد الله وجاءه رجل فقال: إني سمعت أبا ثور يقول: إن الله خلق آدم على صورة نفسة فأطرق طويلًا ثم ضرب بيده على وجهه، ثم قال: هذا كلام سوء هذا كلام جهم هذا جهمي لا تقربوه"[(١)]

٢-قال زكريا بن الفرج-رحمه الله-: "سألت عبد الوهاب الوراق غير مرة عن أبي ثور؛ فأخبرني أن أبا ثور جهمي، وذلك أنه قطع بقول أبي يعقوب الشعراني؛ حكى أنه سأل أبا ثور عن خلق آدم على صورته؛ فقال: إنما هو على صورة آدم؛ ليس هو على صورة الرحمن.

قال زكريا: فقلت بعد ذلك لعبد الوهاب: ما تقول في أبي ثور؟ فقال: ما أدين فيه إلا بقول أحمد بن حنبل؛ يهجر أبو ثور، ومن قال بقوله

قال زكريا وقلت: لعبد الوهاب مرة أخرى، وقد تكلم قوم في هذه المسألة-خلق الله آدم على صورته-فقال: من لم يقل: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن؛ فهو جهمي"[(٢)]

٣-قال حمدان سألت أبا ثور عَنْ قول النَّبِيّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (إن اللَّه خلق آدم عَلَى صورته) فقال: عَلَى صورة آدم وكان هذا بعد ضرب أَحْمَد بن حنبل والمحنة فقلت: لأبي طالب قل لأبي عَبْداللَّهِ فقال: أبو طالب قال لي أحمد بن حنبل صح الأمر عَلَى أبي ثور من قَالَ: إن اللَّه خلق آدم عَلَى صورة آدم فهو جهمي وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه؟"[(٣)]

القسم الثاني: ميله لمدرسة أهل الرأي

١-مُحَمَّد بْن جَعْفَرٍ سألت عبد الوهاب عَنْ أبي ثور فقال: أتدين فيه بما حَدَّثَنِي به أَبُو طالب عَنْ أبي عَبْد الله أنه سأله عنه فقال يجفي ويجفى من أفتى برأيه"[(٤)]

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٩٣).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٨٣).

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٩)

(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٢١١).

٢-وقال يعقوب الدورقي-رحمه الله-: "سألت أحمد عن أبي ثور، وحسين الكرابيسي؛ فقال: متى كان هؤلاء من أهل العلم، ومتى كان هؤلاء من أهل الحديث؛ متى كان هؤلاء يضعون للناس الكتب"[(١)]

٣-وقال أَبُو بَكْرٍ الخلال فقال: أَخْبَرَنِي مُوسَى بْن عبيد اللَّه بْن يَحْيَى بْن خاقان أَبُو مزاحم أنه سأل أَحْمَد بْنِ حنبل عَنِ المعروف بأبي ثور فقال: ما بلغني عنه إلا خير إلا أنه لا يعجبني الكلام الذي صيروه فِي كتبهم قَالَ: أَبُو بَكْرٍ الخلال قَالَ: أَحْمَد هذا القول قبل أن يبلغه عنه ما بلغه ثم ذمه"[(٢)]

٤-قال الخلال: أخبرني الحسين بن عبد الله قال سألت أبا بكر المروذي عن قصة ابن الثلاج....، ومما ذكر: وأي شيء قام به أحمد بن حنبل، ثم قال علموكم الكلام وأومأ إلى ناحية الكرخ يريد أبا ثور وغيره، فقمنا من عنده فما كلمناه حتى مات"[(٣)]

٥-قال ابن هانئ: سألت أبا عبد اللَّه عن كتب أبي ثور؟ فقال: كل كتاب ابتدع فهو بدعة"[(٤)]

٦- قال الذهبي: "وقال أبو حاتم: يتكلَّم بالرأي، فيخطىء ويصيب، ليس محله محل المسْمِعين في الحديث. قلت: بل هو حجة بلا تردد"[(٥)]

ومن المأخذ التي أخذها عليه الإمام أحمد رحمه الله، أن أبا ثور-رحمه الله-كان يدون مسائل الفقه، والإمام أحمد كان يكره ذلك، ويحض على كتابة الأثر.

القسم الثالث: قوله بجواز نكاح المجوس.

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ٥٥٣)، بحر الدم (١٢١٢).

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٣

(٣) التسعينية لابن تيمية (٢/ ٣٧٨- ٣٨٨).

(٤) مسائل ابن هانئ ١٩١٢

(٥) (سير أعلام النبلاء) (١٢/٥٧-٧٦).

وذكر ابن عبد الهادي وابن القيم وابن كثير وغيرهم–وهي مروية مسندة في أحد كتب الخلال أحكام أهل الملل–:" " قد حكي له– يعني الإمام أحمد–أن أبا ثور يجيز نكاح المجوس، فقال: أبو ثور كاسمه، ودعا عليه، وقال: لا فرج الله عمن يقول بهذا القول"[١]

أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن مندة (ت: ٣٩٥ هـ).

"اختلف أهل التأويل في معنى هذا الحديث: وتكلموا على ضروب شتى، والأحسن منها: أن الله تعالى خلق آدم–عليه السلام–، على صورته. معناه: لم يخلقه طفلًا ثم صبيًا ثم شابًا ثم كهلًا ثم شيخا، هو الأصح منها ما جاء عن النبي–صلى الله عليه وسلم–بالإسناد الثابت"[٢]

وقال أيضًا: "ومعناه صحيح ، وإنما أراد النبي–صلى الله عليه وسلم–بهذا الكلام أن الله، عز وجل، خلق بني آدم على صورة آدم، عليه السلام، فإذا شتم أحد من ولده ومن يشبه وجهه فقد شتم آدم–عليه السلام–، فنهى عن ذلك"[٣]

المسألة الثالثة: حجج الأقوال المخالفة للمشهور من معتقد أهل السنة في المسألة والرد عليها.

أولًا: حجج القائلين إن الضمير يعود على المضروب والرد عليها.

أ: الأقوال في توجيه هذا القول:

قال الرازي: "الطريق الأول أن يكون هذا الضمير عائدا إلى غير آدم وإلى غير الله تعالى وعلى هذا التقدير ففي تأويل الخبر وجهان:

الأول: هو أن من قال للإنسان قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فهذا يكون شتمًا لآدم عليه السلام فإنه لما كان صورة هذا الإنسان مشابهة لصورة آدم كان قوله قبح الله وجهك

---

(١) قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم لابن تيمية (١/ ١٧٣)، أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٢/ ٨١٧) ، الرد على السبكي في مسألة تعليق الطلاق لابن تيمية (١/ ١٤)، طبقات الشافعيين لابن كثير (١/ ٩٩)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦).ر

(٢) التوحيد لابن مندة (١/ ٢٢٢).

(٣) التوحيد لابن منده حيث قال (١/ ١٠٤): (باب) ذكر خلق آدم ، عليه السلام ، وطوله ووقت خروجه من الجنة.

ووجه من أشبه وجهك شتما لآدم عليه السلام ولجميع الأنبياء عليهم السلام وذلك غير جائز فلا جرم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وإنما خص آدم بالذكر لأنه عليه السلام هو الذي ابتدأت خلقة وجهه على هذه الصورة

الثاني: أن المراد منه إبطال قول من يقول إن آدم كان على صورة أخرى مثل ما يقال إنه كان عظيم الجثة طويل القامة بحيث يكون رأسه قريبًا من السماء فالنبي–صلى الله عليه وسلم–أشار إلى إنسان معين وقال (إن الله خلق آدم على صورته) أي كان شكل آدم مثل شكل هذا الإنسان من غير تفاوت ألبتة فأبطل هذا البيان وهم من توهم أن آدم عليه السلام كان على صورة أخرى غير هذه الصورة"[١]

ب: القائلين به وحججهم:

ابن خزيمة (ت: ٣١١ هـ)

وإلى هذا ذهب ابن خزيمة–رحمه الله–(ت: ٣١١ هـ) في كتاب (التوحيد)، حيث قال: "توهم بعض من لم يتحرَّ العلم أن قوله (على صورته) يريد صورة الرحمن–عزَّ ربنا وجلَّ–عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله (خلق آدم على صورته) الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد–صلى الله عليه وسلم–أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب، الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب، والذي قبح وجهه، فزجر–صلى الله عليه وسلم–أن يقول: ووجه من أشبه وجهك، لأن وجه آدم شبيه وجوه بنيه، فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، كان مقبحًا وجه آدم–صلوات الله عليه وسلامه–الذي وجوه بنيه شبيهة بوجه أبيهم، فتفهموا–رحمكم الله–معنى الخبر، لا تغلطوا ولا تغالطوا فتضلّوا عن سواء السبيل، وتحملوا على القول بالتشبيه الذي هو ضلال"[٢]

---

(١) أساس التقديس للرازي (١/ ٧٠).

(٢) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٨٤–٨٥).

ابن حبان (ت: ٣٥٤ هـ)

ومثله قال أبو حاتم ابن حبان(ت: ٣٥٤ هـ) حيث قال-بعد تخريج الحديث-: "يريد به صورة المضروب، لأن الضارب إذا ضرب وجه أخيه المسلم ضرب وجهاً خلق الله آدم على صورته"(١)

وقال أيضًا: "يريد به على صورة الذي قيل له: قبح الله وجهك من ولده، والدليل على أن الخطاب لبني آدم دون غيرهم قوله-صلى الله عليه وسلم-: "ووجه من أشبه وجهك، لأن وجه آدم في الصورة تشبه صورة ولده"(٢)

أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ)

قال البيهقي: "وإنما أراد والله أعلم: فإن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب"(٣)

أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت: ٥٦٥ هـ).

قال القرطبي: عند شرحه لقوله-صلى الله عليه وسلم-: (فإن الله خلق آدم على صورته) قال: "أي على صورة وجه المضروب ... وهذا هو ظاهر الحديث، ولا يكون في الحديث إشكال يوهم في حق الله تعالى تشبيهًا، وإنما أشكل ذلك على من أعاد الضمير في صورته على الله تعالى، وذلك ينبغي ألا يصار إليه شرعًا ولا عقلًا، أما العقل فيحيل الصورة الجسمية على الله تعالى، وأما الشرع فلم ينص على ذلك نصًا قاطعًا، ومحال أن يكون ذلك، فإن النص القاطع صادق، والصادق لا يقول المحال، فيتعين عود الضمير على المضروب؛ لأنه هو الذي سبق الكلام لبيان حكمه"(٤)

بدر الدين ابن جماعة (ت: ٧٣٣ هـ)

---

(١) صحيح ابن حبان، (٣/ ٨٠).

(٢) صحيح ابن حبان، (٣/ ٢٤٩).

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٦٣).

(٤) المفهم (٦/ ٥٩٧).

قال بدر الدين ابن جماعة (٧٣٣ هـ) "واختلف العلماء فيمن يعود الضمير في صورته إليه فقيل هو عائد إلى المضروب أو المشتوم وهو الأقرب وأصله أن النبي مر برجل يضرب آخر على وجهه فقال ذلك حثا على احترام الوجه لما فيه من المنافع والحواس وخص آدم عليه السلام بالذكر لأنه أول من خلق على هذه الصورة".(١)

سراج الدين أبو حفص عمر بن علي ابن الملقن (ت: ٨٠٤ هـ)

قال ابن الملقن: "وأولى ما قيل فيه أن الحديث خرج على سبب وهو أنه-عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -مر برجل يضرب ابنه أو عبده في وجهه لطمًا ويقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فقال-عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- ذلك"(٢)

أبو زرعة العراقي (ت: ٨٠٦ هـ)

قال أبو زرعة العراقي (ت: ٨٠٦ هـ): "قوله (فإن الله خلق آدم على صورته) أي على صورة وجه المضروب، فكأن اللاطم في وجه أحد ولد آدم لطم وجه أبيه آدم وعلى هذا فيحرم لطم الوجه من المسلم والكافر ولو أراد الأخوة الدينية لما كان للتعليل بخلق آدم على صورته معنى لا يقال فالكافر مأمور بقتله وضربه في أي عضو كان إذ المقصود إتلافه والمبالغة في الانتقام منه ولا شك في أن ضرب الوجه أبلغ في الانتقام والعقوبة فلا يمنع وإنما مقصود الحديث إكرام وجه المؤمن لحرمته؛ لأنا نقول: مسلم أنا مأمورون بقتل الكافر والمبالغة في الانتقام منه لكن إذا تمكنا من اجتناب وجهه اجتنبناه لشرف هذا العضو؛ ولأن الشرع قد نزل هذا الوجه منزلة وجه أبينا، ويقبح لطم الرجل وجهًا شبه وجه أبي اللاطم وليس كذلك كسائر الأعضاء؛ لأنها كلها تابعة للوجه" انتهى.(٣)

محمد بن عبد الدائم بن موسى النعيمي العسقلاني المصري الشافعي (ت ٨٣١ هـ)

---

(١) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لبدر الدين بن جماعة (١/ ١٥٣).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٦/ ٢٣٦).

(٣) طرح التثريب لأبي زرعة العراقي (٨ / ١٧٧).

قال: "وتمام هذا الحديث: (فإنَّ اللهَ خلقَ آدمَ على صُورتِهِ)، وأمر بالاجتناب إكرامًا لآدم لمشابهته لصُورة المضروب، ومراعاةً لحقِّ الأُبوَّة، والضَّمير راجع للمَضروب"[١]

ابن حجر (ت: ٨٥٢ هـ)

قال ابن حجر (ت: ٨٥٢ هـ): "واختلف في الضمير على من يعود؟ فالأكثر على أنه يعود على المضروب لما تقدم من الأمر بإكرام وجهه، ولولا أن المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها"[٢]

ج: الرد عليهم

وقد ردَّ الأئمة هذا القول وأبطلوه:

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: "قال رجل لأبي: إن فلانا يقول في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق آدم على صورته)، فقال: على صورة الرجل! قال أبي: كذب هذا، هذا قول الجهمية، وأي فائدة في هذا؟"[٣]

قال الذهبي: "ويدل على بطلان روايته ما رواه حمدان بن علي الوراق الذي هو أشهر من حمدان بن الهيثم وأقدم أنه سمع أحمد بن حنبل وسأله رجل عن حديث خلق آدم على صورته، على صورة آدم؟ فقال أحمد: فأين الذي يروى عن النبي صلى الله عليه (وآله) وسلم-: (أنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن)، ثم قال أحمد: وأي صورة لآدم قبل أنْ يخلق.

قال الذهبي: الطبراني: سمعت عبد الله بن أحمد يقول: قال رجل لأبي: إنّ فلاناً يقول في حديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (إنّ الله خلق آدم على صورته). فقال : على صورة الرجل، فقال أبي: كذب، هذا قول الجهمية، وأي فائدة في هذا"[٤] .

---

(١) اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح (٨/ ٥٦).

(٢) فتح الباري (٥/ ١٨٣).

(٣) إبطال التأويلات (١/ ٨٨).

(٤) ميزان الاعتدال (١/٦٠٢ ، ٦٠٣) رقم: (٢٢٨٧).

وهذه الزيادة التي ذكرها ابن قتيبة في حديث الصورة وهي أن النبي-صلى الله عليه وسلم-مرَّ برجل يضرب وجه رجل آخر، فقال: (لا تضربه). لم أقف عليها، وقد قال شيخ الإسلام-رحمه اللهُ-: "هذا شيء لا أصل له، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث"[(١)]

وقال الطبراني في كتاب (السنة): حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: "قال رجل لأبي: إن رجلًا قال: (خلق الله آدم على صورته)، أي صورة الرجل، فقال: كذب، هذا قول الجهمية، وأي فائدة في هذا"[(٢)]

وقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية في (نقض التأسيس) ثلاثة عشر وجهًا لإبطال هذا القول:

قال ابن تيمية رحمه الله إذا عرف ذلك فيقال أما عود الضمير إلى غير الله فهذا باطل من وجوه

أحدها: أن في الصحيحين ابتداء (إن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعًا)، وفي أحاديث أخر (إن الله خلق آدم على صورته) ولم يتقدم ذكر أحد يعود الضمير إليه وما ذكر بعضهم من أن النبي-صلى الله عليه وسلم-رأى رجلًا يضرب رجلًا ويقول قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فقال: (خلق الله آدم على صورته) أي على صورة هذا المضروب فهذا شيء لا أصل له ولا يعرف في شيء من كتب الحديث

الثاني: أن الحديث الآخر لفظه (إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته) وليس في هذا ذكر أحد يعود الضمير إليه

الثالث: أن اللفظ الذي ذكره ابن خزيمة وتأويله وهو قوله: (لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ووجهًا أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته) ليس فيه ذكر أحد يصلح عود الضمير إليه وقوله في التأويل أراد-صلى الله عليه وسلم-أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب والذي قبح وجهه فزجر-صلى الله عليه وسلم-

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٦/ ٤٢٤).

(٢) ميزان الاعتدال (١/ ٦٠٣).

أن يقول ووجه من أشبه وجهك؛ يقال له لم يتقدم ذكر مضروب فيما رويته عن النبي –صلى الله عليه وسلم– ولا في لفظه ذكر ذلك بل قال: (إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته) ولم يقل إذا قاتل أحدكم أحدًا وإذا ضرب أحدًا والحديث الآخر ذكرته من رواية الليث بن سعد ولفظه (ولا يقل أحدكم قبح الله وجهك ووجهًا أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته) وليس في هذا ذكر مر حتى يصلح عود الضمير إليه فإن قيل قد يعود الضمير إلى ما دل عليه الكلام وإن لم يكن مذكورًا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية: ١٨٠] أي البخل لأن لفظ يبخلون يدل على المصدر الذي هو البخل ومنه قول الشاعر:

إذا نهي السفيه جرى إليه // وخالف والسفيه إلى خلاف

أي إلى السفه قيل هذا إنما يكون فيما لا لبس فيه حيث لم يتقدم ما يصلح لعود الضمير إليه إلاَّ ما دل عليه الخطاب فيكون العلم بأنه لابد للظاهر من مضمر يدل على ذلك أما إذا تقدم اسم صريح قريب إلى الضمير فلا يصلح أن يترك عوده إليه ويعود إلى شيء متقدم لا ذكر له في الخطاب وهذا مما يعلم بالضرورة فساده في اللغات

الرابع: أنه في مثل هذا لا يصلح إفراد الضمير فإن الله خلق آدم على صورة بنيه كلهم فتخصيص واحد لم يتقدم له ذكر بأن الله خلق آدم على صورته في غاية البعد لاسيما وقوله وإذا قاتل أحدكم وإذا ضرب أحدكم عام في كل مضروب والله خلق آدم على صورهم جميعهم فلا معنى لإفراد الضمير وكذلك قوله لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك عام في كل مخاطب والله قد خلقهم كلهم على صورة آدم

الخامس: أن ذرية آدم خلقوا على صورة آدم لم يخلق آدم على صورهم فإن مثل هذا الخطاب إنما يقال فيه خلق الثاني المتأخر في الوجود على صورة الأول المتقدم وجوده لا يقال إنه خلق الأول على صورة الثاني المتأخر في الوجود كما يقال خلق الخلق على غير مثال أو نسج هذا على مثال هذا ونحو ذلك فإنه في جميع هذا إنما يكون المصنوع المقيس متأخرًا في الذكر عن المقيس عليه وإذا قيل خلق الولد على صورة أبيه أو على خلق أبيه كان كلامًا سديدًا وإذا قيل

خلق الوالد على صورة ولده أو على خلقه كان كلامًا فاسدًا بخلاف ما إذا ذكر التشبيه بغير لفظ الخلق وما يقوم مقامه مثل أن يقال الوالد يشبه ولده فإن هذا سائغ لأن قوله خلق إخبار عن تكوينه وإبداعه على مثال غيره ومن الممتنع أن الأول كون على مثال ما لم يكن بعد وإنما يكون على مثال ما قد كان

السادس: أنه إذا كان المقصود أن هذا المضروب والمشتوم يشبه آدم فمن المعلوم أن هذا من الأمور الظاهرة المعلومة للخاص والعام فلو أريد التعليل بذلك لقيل فإن هذا يدخل فيه الأنبياء أو فإن هذا يدخل فيه آدم ونحو ذلك من العبارات التي تبين قبح كلامه وهو اشتمال لفظه على ما يعلم هو وجوده أما مجرد إخباره بما يعلم وجوده كل أحد فلا يستعمل في مثل هذا الخطاب

السابع: أنه إذا أريد جرد المشابهة لآدم وذريته لم يحتج إلى لفظ خلق على كذا فإن هذه العبارة إنما تستعمل فيما فعل على مثال غيره بل يقال فإن وجهه يشبه وجه آدم أو فإن صورته تشبه صورة آدم.

الثامن: أن يقال هب أن هذه العلة تصلح لقوله لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فكيف يصلح لقوله إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه ومعلوم أن كون صورته تشبه صورة آدم لا توجب سقوط العقوبة عنه فإن الإنسان لو كان يشبه نبيًّا من الأنبياء أعظم من مشابهة الذرية لأبيهم في مطلق الصورة والوجه ثم وجبت على ذلك الشبيه بالنبي عقوبة لم تسقط عقوبته بهذا الشبه باتفاق المسلمين فكيف يجوز تعليل تحريم العقوبة بمجرد المشابهة المطلقة لآدم

التاسع: أن في ذرية آدم من هو أفضل من آدم وتناول الفظ لجميعهم واحد فلو كان المقصود بالخطاب ليس ما يختص به آدم من ابتداء خلقه على صورة بل المفصود مجرد مشابهة المضروب المشتوم له لكان ذكر سائر الأنبياء والمرسلين بالعموم هو الوجه وكان تخصيص غير آدم بالذكر أولى كإبراهيم وموسى وعيسى وإن كان آدم أبوهم فليس هذا المقام مقاماً له به اختصاص على زعم هؤلاء.

العاشر: وهو قاطع أيضًا أن يقال كون الوجه يشبه وجه آدم هو مثل كون سائر الأعضاء تشبه أعضاء آدم فإن رأس الإنسان يشبه رأس آدم ويده تشبه يده ورجله تشبه رجله وبطنه وظهره وفخذه وساقه يشبه بطن آدم وظهره وفخذه وساقه فليس للوجه بمشابهة آدم اختصاص بل جميع أعضاء البدن بمنزلته في ذلك فلو صلح أن يكون هذا علة لمنع الضرب لوجب أن لا يجوز ضرب شيء من أعضاء بني آدم لأن ذلك جميعه على صورة أبيهم آدم وفي إجماع المسلمين على وجوب ضرب هذه الأعضاء في الجهاد للكفار والمنافقين وإقامة الحدود مع كونها مشابهة لأعضاء آدم وسائر النبيين دليلٌ على أنه لا يجوز المنع من ضرب الوجه ولا غيره لأجل هذه المشابهة

الوجه الحادي عشر: أنه لو كان علة النهي عن شتم الوجه وتقبيحه أنه يشبه وجه آدم لنهي أيضلً عن الشتم والتقبيح لسائر الأعضاء لا يقولن أحدكم قطع الله يدك ويد من أشبه يدك

الوجه الثاني عشر: أن ما ذكره من تأويل ذلك فإنه إبطال لقول من يقول إن آدم كان على صورة أخرى مثل ما يقال إنه كان عظيم الجثة طويل القامة وأن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى إنسان معين وقال إن الله خلق آدم على صورته أي كان شكل آدم مثل شكل هذا الإنسان من غير تفاوت البتة يقال لهم الحديث المتفق عليه في الصحيحين مناقض لهذا التأويل مصرح فيه بأن خلق آدم أعظم من صور بنيه بشيء كثير و، هـ لم يكن على شكل أحد من أبناء الزمان كما في الصحيحين عن همام بن منيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خلق اله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك الملائكة فاسمه ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالو السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم قال فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن قال في رواية يحيى بن جعفر ومحمد بن رافع على صورته فهذا الحديث الذي هو أشهر الأحاديث التي فيها أن الله خلق آدم على صورته ذكر فيه أن طوله ستين ذراعاً وأن الخلق لم يزل ينقص حتى الآن وأن أهل الجنة يدخلون على صورة آدم ولم يقل إن آدم على صورتهم بل قال هم على صورة آدم وقد روي أن عرض أحدهم سبعة أذرع فهل في تبديل كلام الله ورسوله أبلغ من هذا

أن يجعل ما أثبته النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر به وأوجب التصديق به قد نفاه وأبطله وأوجب تكذيبه وإبطاله

الوجه الثالث عشر: أنه قد روي من غير وجه على صورة الرحمن"[(١)]

ثانيًا: حجج القائلين إن الضمير يعود إلى آدم والرد عليها.

أ: الأقوال في توجيه هذا القول:

لهذا القول وجوه:

الوجه الأول: خلق الله آدم على صورة لآدم عنده، وكل الخلق له مثال سابق في خلق الله، أما الإنسان فهو خلق جديد لم يجد على مثال سابق. [(٢)]

الوجه الثاني: أن الله خلق آدم في الجنة على صورته في الأرض، لتوضيح ما يتبادر إلى الذهن من مخالفة ما يكون في الجنة لما يكون في الدنيا، فأراد أنه في الجنة على صورته في الدنيا.

الوجه الثالث: على صورته أي لم يخلق أطوارا: علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم يبلغ أشده، ثم شيخا، وإنما خلق على الصورة التي كان بها في الجنة وقبض عليها. [(٣)]

الوجه الرابع: أي على صورة حاله الذي يعلمه ويختص به، فلا يشاركه فيه أحد من المخلوقات "متفاوت الحال، متغاير الوصف، فيوصف مرة بالغواية، ومرة بالهداية، وبالعلم مرة، وبالجهل مرة"[(٤)]

الوجه الخامس: يكون معنى الصورة فيه الأمر والشأن، أي خلق آدم على حاله وشأنه في

---

(١) نقض التأسيس ج٣ (مخطوط).

(٢) الطيبي، شرح المشكاة، (٨/ ٢٤٩١)، وهذا الرأي ردّه ابن قتيبة بأن هذا مستبعد لأن كل خلق الله ليس على مثال سابق.

(٣) النووي، المنهاج شرح مسلم، (١٧/ ١٧٨)، والكلاباذي،بحر الفوائد، (١/ ٩٧).

(٤) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (٩/ ٧)، والكلاباذي، بحر الفوائد، (١/ ٧٧)، الشوكاني، فيض القدير، (٣/ ٥٩٣).

كونه مسجودًا للملائكة مسخرًا له الكون، حقيقًا لقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية: ٣٠]، تعظيمًا واحترامًا كقوله: الحجر الأسود يمين الله في الأرض، لأنه خصوص بالتقبيل والاستسلام تعظيما كيمين الملك، فالكلام وارد على التمثيل والاستعارة"[١] [٢]

قال الرازي: "الطريق الثاني أن يكون الضمير عائدًا إلى آدم عليه السلام وهذا أولى الوجوه الثلاثة لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورات واجب وفي هذا الحديث أقرب الأشياء المذكورة هو آدم عليه السلام فكان عود الضمير إليه أولى ثم على هذا الطريق ففي تأويل الخبر وجوه

الأول: أنه تعالى لما عظم أمر آدم بجعله مسجود للملائكة ثم إنه أتى بتلك الزلة فالله تعالى لم يعاقبه بمثل ما عاقب به غيره فإنه نقل أن الله تعالى أخرجه من الجنة وأخرج معه الحية والطاووس وغير تعالى خلقهما مع أنه لم يغير خلقة آدم عليه السلام بل تركه على الخلقة الأولى إكراما له وصونا له من عذاب المسخ فقوله عليه السلام (إن الله تعالى خلق آدم على صورته) معناه خلق آدم على هذه الصورة التي هي الآن باقية من غير وقوع التبدل فيها والفرق بين هذا الجواب والذي قبله أن المقصود من هذا بيان أنه عليه السلام كان مصونا عن المسخ والجواب الأول ليس فيه إلا بيان أن هذه الصورة الموجودة ليست إلا هي التي كانت موجودة قبل من غير تعرض لبيان أنه جعل مصونا عن المسخ بسبب زلته مع أن غيره صار ممسوخا

الثاني: المراد منه إبطال قول الدهرية الذين يقولون إن الإنسان لا يتولد إلا بواسطة النطفة ودم الطمث فقال عليه السلام (إن الله تعالى خلق آدم على صورته). إبتداء من غير تقدم نطفة وعلقة ومضغة.

الثالث: إن الإنسان لا يتكون إلا في مدة طويلة وزمان مديد بواسطة الأفلاك والعناصر فقال عليه السلام (إن الله خلق آدم على صورته) أي من غير هذه الوسائط والمقصود منه الرد على الفلاسفة

---

(١) الطيبي، شرح المشكاة، (٨/ ٢٤٩٢)، وابن خزيمة، التوحيد، (١/ ٨٦)، وملا علي القاري، مرقاة المفاتيح، (١١/ ٩٦).

(٢) المصدر: حديث الصورة (خلق الله آدم على صورته)، دراسة نقدية، جهاد الكندري، أشرف القضاة.

الرابع: المقصود منه بيان أن هذه الصورة الإنسانية إنما حصلت بتخليق الله تعالى وإيجاده لا بتأثير القوة المصورة والمولدة على ما تذكره الأطباء والفلاسفة ولهذا قال الله تعالى: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور﴾ فهو الخالق أي فهو العالم بأحوال الممكنات والمحدثات والباريء أي هو المحدث للأجسام والذوات بعد عدمها والمصور أي هو الذي يركب تلك الذوات على صورها المخصوصة وتركيباتها المخصوصة.

الخامس: قد تذكر الصورة ويراد بها الصفة يقال شرحت له صورة هذه الواقعة وذكرت له صورة هذه المسألة والمراد من الصورة في كل هذه المواضع الصفة فقوله عليه السلام (إن الله خلق آدم على صورته) أي على جملة صفاته وأحواله وذلك لأن الإنسان حين يحدث يكون في غاية الجهل والعجز ثم لا يزال علمه وقدرته إلى أن يصل حد الكمال فبين النبي–صلى الله عليه وسلم–أن آدم خلق من أول الأمر كاملًا تامًا في علمه وقدرته قوله: (خلق الله آدم على صورته) معناه: أنه خلقه في أول الأمر على صفته التي كانت حاصلة في آخر الأمر وأيضا لا يبعد أن يدخل في لفظه الصورة كونه سعيدا أو شقيا كما قال عليه السلام (السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه) فقوله عليه السلام (إن الله خلق آدم على صورته) أي على جميع صفاته من كونه سعيدا أو شقيا أو تائبا أو مقبولا من عند الله تعالى"[(١)]

ب: القائلين به وحجتهم:

وقد نسب هذا القول إلى الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–، وقد رد نسبة هذا القول إلى الإمام أحمد الذهبي عند ترجمته لحمدان بن الهيثم حيث قال: "حمدان بن الهيثم، عن أبي مسعود أحمد بن الفرات، وعنه أبو الشيخ، ووثقه، لكنه أتى بشيء منكر عن أحمد بن حنبل في معنى قوله–عليه السلام–: (إن الله خلق آدم على صورته)، زعم أنه قال صور الله صورة آدم قبل خلقه، ثم خلقه على تلك الصورة، فأما أن يكون خلق الله آدم على صورته فلا، فقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية: ١١]

---

(١) أساس التقديس للرازي (١/ ٧١-٧٢).

قال يحيى بن مندة في مناقب أحمد: قال المظفر بن أحمد الخياط في كتاب السنة: وحمدان بن الهيثم يزعم أن أحمد قال: صور الله صورة آدم قبل خلقه، وأبو الشيخ فوثقه في كتاب الطبقات. [(١)]

ويدل على بطلان روايته ما رواه حمدان بن علي الوراق الذي هو أشهر من حمدان بن الهيثم، وأقدم.

أنه سمع أحمد بن حنبل، وسأله رجل عن حديث خلق آدم على صورته على صورة آدم، فقال أحمد: فأين الذي يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم على صورة الرحمن.

ثم قال أحمد: وأى صورة لآدم قبل أن يخلق.

الطبراني، سمعت عبد الله بن أحمد يقول: قال رجل لأبي: إن فلانًا يقول في حديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق آدم على صورته).

فقال: على صورة الرجل.

فقال أبي: كذب، هذا قول الجهمية.

وأي فائدة في هذا.

وقيل: إن أبا عمر بن عبد الوهاب هجر أبا الشيخ لمكان حكاية حمدان، وقال: إن أردت أن أسلم عليك فأخرج من كتابك حكاية حمدان بن الهيثم"[(٢)]

فذكر ثلاثة وعشرون وجهًا تدل على فساد هذا القول وبطلانه، بما لا مزيد عليه فانظرها. [(٣)]

أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي (ت: ٢٤٦ هـ).

أهل الكلام

---

(١) انظر: طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها، لأبي الشيخ الأصبهاني (٣/ ٥٠٥).

(٢) ميزان الإعتدال (١/ ٦٠٢-٦٠٣).

(٣) ميزان الاعتدال (١/ ٦٠٢-.

نسبه ابن قتيبة إلى أهل الكلام، فقال "فقال قوم من أصحاب الكلام: أراد خلق آدم على صورة آدم لم يزد على ذلك"[(١)]، وإليه ذهب العراقي في طرح التثريب"[(٢)]

أبو الليث السمرقندي (ت: ٣٧٣ هـ).

وقال السمرقندي الحنفي (٣٧٣ هـ): "وروي عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أنه قال : (لا تقولوا فلان قبيح فإن الله-عز وجل-خلق آدم على صورته). ومن قال: إن لله تعالى صورة كصورة آدم فهو كافر، ولكن المعنى في الخبر، ما روي عن بعض المتقدمين أنه قال : إن الله تبارك وتعالى اختار من الصور صورة، وخلق آدم عليه السلام بتلك الصورة، فمن ذلك قال: (إن الله تعالى خلق آدم على صورته) أي: على تلك الصورة التي اختارها الله"[(٣)]

أبو سليمان الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ)

قال الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ): "وعلى نحو من هذا يتأول قوله خلق الله آدم على صورته يريد والله أعلم أنه خلقه بشرًا سويًا على صورته تلك لم تشتمل عليه الأرحام ولم تتناقله الأحوال من صغر إلى كبر ومن نقص إلى تمام"[(٤)]

وذكره البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ) في (الأسماء والصفات) عن أبي سليمان الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ) وأقرَّه. [(٥)]

وقال البغوي: "قال أبو سليمان الخطابي في قوله-صلى الله عليه وسلم-خلق الله آدم على صورته الهاء مرجعها إلى آدم-صلى الله عليه وسلم-، فالمعنى: أن ذرية آدم خلقوا أطوارًا كانوا في مبدأ الخلق نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم صاروا صورا أجنة إلى أن تتم مدة الحمل، فيولدون

---

(١) تأويل مختلف الحديث (ص: ٣١٨).

(٢) طرح التثريب (٨/ ١٠٤).

(٣) بحر العلوم للسمرقندي الحنفي (٤/ ٢٥).

(٤) غريب الحديث للخطابي (٢/ ١٥٨).

(٥) الأسماء والصفات (٢/ ٦١-٦٢).

أطفالًا، وينشأون صغارا إلى أن يكبروا، فيتم طول أجسادهم، يقول: إن آدم لم يكن خلقه على هذه الصفة، ولكنه أول ما تناولته الخلقة، وجد خلقا تاما طوله ستون ذراعًا".اهـ [(١)]

أبو بكر بن فورك الأصبهاني (ت: ٤٠٦ هـ).

قال ابن فورك: "وَالْوَجْه الآخر مِمَّا تَأَوَّلَه عَلَيْهِ النَّاس أَن الْكِنَايَة فِي قَوْله صورته ترجع إِلَى آدم وَذَلِكَ يَنْقَسِم إِلَى وُجُوه

أَحدهَا: أَن يكون مَعْنَاهُ وَفَائِدَة تعريفنا نعْمَة الله تَعَالَى على أَبينَا آدم عليه السلام أَن فَضله بِأَن خلقه بِيَدِهِ وَأَسْكَنَهُ جنته وأسجد لَهُ مَلَائكته وَعلمه مَا لم يُعلمهُ أحدا قبله من الْأَسْمَاء والأوصاف ثمَّ عَصَاهُ وَخَالفهُ فَلم يُعَاقِبهُ على ذَلِك

بِسَائِر مَا عاقب بِهِ الْمُخَالفين لَهُ فِي نَحوه وَذَلِكَ أَنه رُوِيَ فِي الْخَبَر أَنه أخرج آدم من الْجنَّة وَأخرج مَعَه الْحَيَّة والطاووس فعاقب الْحَيَّة بِأَن شوه خلقهَا وسلبها قَوَائِمهَا وَجعل أكلهَا من التُّرَاب وشوه رجْلي الطاووس وَلم يشوه خلقَة آدم بل أبقى لَهُ حسن الصُّورَة وَلم يَجْعَل عُقُوبَته فِي ذَلِك

فعرفنَا ﷺ بذلك أَن أَبَاكُم آدم عليه السلام كَانَ فِي الْجنَّة على الصُّورَة الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا لم يُغير الله خلقته وَتَكون فَائِدَة ذَلِك تعريفنا الْفرق بَينه وَبَين سَائِر من أخرجه من الْجنَّة مَعَه وإبانته مِنْهُم فِي الرُّتْبَة والدرجة وَهَذِه فَائِدَة لَا يُمكن الْوُقُوف عَلَيْهَا إِلَّا بِخَبَر الصَّادِق

وَالْوَجْه الثَّانِي: من ذَلِك إِذا قُلْنَا إِن الْهَاء يرجع إِلَى آدم فسبيله أَن النَّبِي عليه السلام أفادنا إبِطَال قَول أهل الذِّمَّة أَنه لم يكن إِنْسَان إِلَّا من نُطْفَة وَلَا نُطْفَة إِلَّا من إِنْسَان فِيمَا مضى وَيَأْتِي لَيْسَ لذَلِك أول وَلَا آخر وَأَن النَّاس إِنَّمَا ينتقلون من نشوء على تَرْتِيب مُعْتَاد وَإِن كَانَ ذَلِك أبدا كَانَ كَذَلِك فعرفنَا ﷺ بتكذيبهم وَأَن أول الْبشر آدم عليه السلام خلق على صورته الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا وعَلى الْهَيْئَة الَّتِي شوهد عَلَيْهَا من غير أَن كَانَ من نُطْفَة قبله أَو عَن تناسل أَو تنقل من صغر إِلَى كبر كالمعهود من أَحْوَال أَوْلَاده فَأَما مَا دلّت عَلَيْهِ دَلَائِل الْعُقُول من كَون

---

(١) شرح السنة للبغوي (١٢/ ٢٥٥).

هَذَا الْعَالم ذَا ابْتِدَاء وإنتهاء، وَأَفَاد بِهِ مَا لَا يُوصل إِلَيْهِ إِلَّا بِالسَّمْعِ إِلَّا أَن الأَصْل الَّذِي هُوَ مِنْهُ توالدنا لم يكن عَن توالد قبله بل خلق كَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَهُوَ آدم عليه السلام خلقه الله عز وجل من صلصال كالفخار ثمَّ خلق فِيهِ الرّوح وَلم يكن قطّ فِي صلب وَلَا رحم وَلَا كَانَ علقَة وَلَا مُضْغَة وَلَا مراهقا وَلَا طفْلا بل خلق ابْتِدَاء بشرا سويا كَمَا شوهد // أخرجه البُخَارِيّ وَمُسلم

وَالْوَجْه الثَّالِث: من وُجُوه هَذَا التَّأْوِيل فِي الرُّجُوع بِالْهَاءِ إِلَى آدم عليه السلام على مَا ذهب إِلَيْهِ بَعضهم فِي تَأْوِيله وَهُوَ أَنه أفادنا ﷺ أَن الله–عز وجل–خلق آدم على الصُّورَة الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا من غير أَن كَانَ ذَلِك حَادِثا أَو شَيْئا مِنْهُ عَن توليد عنصر أَو تَأْثِير طبع أَو فلك أَو ليل أَو نَهَار إبطالا لقَوْل الطبائعيين إِن بعض مَا عَلَيْهِ آدم عليه السلام من هَيْئَة وَصُورَة لم يخلقه الله عز وجل وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِك من فعل الطَّبْع أَو تَأْثِير الْفلك.

فنبه بذلك على أَن الله تَعَالَى هُوَ الْخَالِق لآدَم عليه السلام على مَا كَانَ فِيهِ من الصُّورَة والتراكيب والهيئات لم يُشَارِكهُ فِي خلق صُورَة من صوره أَو هَيْئَة من هيئاته أحد سواهُ فاستفدنا بذلك بطلَان قَول من قَالَ بتوليد الطَّبْع وإيجابه و تأثير الْفلك وتغييره

وَخص آدم عليه السلام بِالذكر تَنْبِيها على أَن من شَاركهُ من الْمَخْلُوقَات فِي مَعْنَاهُ وَهَذِه طَرِيقَة للْعَرَب فِي التفهيم تذكرا على مَا فِي هَذَا الْبَاب للدلالة على الْأَدْنَى

فَإِذا عرف أَن صُورَة آدم وتركيبه وهيئته لم يخلقها أحد إِلَّا الله عز وجل علم سَائِر المصورات من أودلاه وَغَيرهم فَحكمهَا كَذَلِك

وَقَالَ بَعضهم الْهَاء يرجع إِلَى بعض الْمَشَاهِير من النَّاس والفائدة فِي الْخَبَر يعرفنا أَن صُورَة آدم عليه السلام كَانَت كهذه الصُّورَة إبطالا لقَوْل من زعم أَنَّهَا كَانَت على هَيْئَة أُخْرَى كَمَا رُوِيَ فِي بعض الرِّوَايَات من ذكر طوله وقامته وَذَلِكَ مِمَّا لَا يوثق بِهِ إِذْ لَيْسَ فِي ذَلِك خبر صَحِيح وَإِنَّمَا الْمعول فِي مثله على كَعْب أَو وهب من أَحَادِيث التَّوْرَاة وَلَا ثِقَة بِشَيْء من ذَلِك وَلم يثبت من وجهة أُخْرَى أَنه قد كَانَت خلقَة آدم عليه السلام على خلاف هَذِه الْخلقَة على الْحَد الزَّائِد

الَّذِي يخرج عَن الْمَعْهُود من متفاوت الْبشر"[١]

ونسبه ابن بطال كذلك إلى ابن فورك، فقال: "قال ابن فورك: فذهب طائفة إلى أن الهاء من (صورته) راجعة إلى آدم–عليه السلام–"[٢]

أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ).

قال الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) "قوله عليه السلام خلق آدم على صورته فالهاء فيه قيل راجعة إلى آدم ومعناه أنشأه كذلك بخلاف من دونه فإنهم كانوا أولًا على صورة الآباء، وقد قيل سببه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يلطم وجه غلام فقال لا تفعل فإن الله تعالى خلق آدم على صورته"[٣]

القاضي عياض (ت: ٥٤٤ هـ)

قال القاضي عياض (ت: ٥٤٤ هـ): "وقوله هنا: (طوله ستون ذراعًا) يبين الإشكال، ويزيح التشابه، ويوضح أنّ الضمير راجع إلى آدم نفسه، وأن المراد على هيئته التي خلقه عليها، لم ينتقل في النشأة أحوالًا ولا ترتد في الأرحام أطوارًا .

وقد مرّ من هذا، ويكون معناه: على الصورة التي كان بها في الأَرض وأنه لم يكن فى الجنة على صورة أخرى، ولا اختلفت صفاته وتصوراته اختلاف تصورات الملائكة في أُصول صورهم. وفى الصور التى يتراءون فيها غالبًا للخلق"[٤]

فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦ هـ)

وقال الرازي (ت: ٦٠٦ هـ): "الطريق الثاني: أن يكون الضمير عائدًا إلى آدم ـ عليه السلام. وهذا أولى الوجوه الثلاثة، لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورات واجب، وفي هذا الحديث:

---

(١) مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص: ٥٠–٥٥.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٦).

(٣) المنخول للغزالي (١/ ٣٨١).

(٤) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم – للقاضي عياض – (٨ / ١٨٦).

أقرب الأشياء المذكورة هو آدم عليه السلام، فكان عود الضمير إليه أولى"[١]

وقال: "اعلم أن هذه اللفظة ما وردت في القرآن لكنها واردة في الأخبار:

الخبر الأول: ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى خلق آدم على صورته) وروى ابن خزيمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يقولن أحدكم لعبده: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته)

والجواب: اعلم أن الهاء في قوله (على صورته) يحتمل أن يكون عائدًا إلى شيء غير صورة آدم عليه السلام، وغير الله تعالى ويحتمل أن يكون عائدًا إلى آدم، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى الله تعالى فهذه طرق ثلاثة:

الطريق الأول: أن يكون هذا الضمير عائدًا إلى غير آدم، وإلى غير الله تعالى وعلى هذا التقدير ففي تأويل الخبر وجهان:

الأول: هو أن من قال لإنسان: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فهذا يكون شتما لآدم عليه السلام فإنه لما كانت صورة هذا الإنسان مشابهة لصورة آدم كان قوله: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك شتماً لآدم عليه السلام ولجميع الأنبياء عليهم السلام، وذلك غير جائز، فلا جرم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وإنما خص آدم بالذكر لأنه عليه السلام هو الذي ابتدئت خلقه وجهه على هذه الصورة.

الثاني: أن المراد منه إبطال قول من يقول إن آدم كان على صورة أخرى، مثل ما يقال: إنه كان عظيم الجثة، طويل القامة، بحيث يكون رأسه قريبا من السماء فالنبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى إنسان معين، وقال: (إن الله خلق آدم على صورته) أي كان شكل آدم مثل شكل هذا الإنسان، من غير تفاوت البتة، فأبطل هذا البيان وهم من توهم أن آدم عليه السلام كان على صورة أخرى غير هذه الصورة.

الطريق الثاني: أن يكون الضمير عائدًا إلى آدم عليه السلام وهذا أولى الوجوه الثلاثة؛ لأن

---

(١) تأسيس التقديس للرازي (١/ ١١٣).

عود الضمير إلى أقرب المذكورات واجب. وفي هذا الحديث: أقرب الأشياء المذكورة هو آدم عليه السلام، فكان عود الضمير إليه أولى، ثم على هذا الطريق ففي تأويل الخبر وجهان:

الأول: أنه تعالى لما عظم أمر آدم بجعله مسجود الملائكة، ثم إنه أتى بتلك الزلة، فالله تعالى لم يعاقبه بمثل ما عاقب به غيره، فإنه نقل أن الله تعالى أخرجه من الجنة وأخرجه معه الحية والطاووس، وغير تعالى خلقهما مع أنه لم يغير خلقة آدم عليه السلام، بل تركه على الخلقة الأولى إكرامًا له وصونًا له عن عذاب المسخ، فقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى خلق آدم على صورته) معناه خلق آدم على هذه الصورة التي هي الآن باقية من غير وقوع التبديل فيها. والفرق بين هذا الجواب والذي قبله أن المقصود من هذا بيان أنه عليه السلام كان مصونا عن المسخ والجواب الأول ليس فيه إلا بيان أن هذه الصورة الموجودة ليست إلا هي التي كانت موجودة من قبل من غير تعرض لبيان أنه جعل مصونا عن المسخ بسبب زلته مع أن غيره صار ممسوخا.

الثاني: المراد منه إبطال قول الدهرية الذين يقولون: إن الإنسان لا يتولد إلا بواسطة النطفة، ودم الطمث، فقال عليه السلام: (إن الله خلق آدم على صورته) ابتداء من غير تقدم نطفة وعلقة ومضغة.

الثالث: أن الإنسان لا يتكون إلا في مدة طويلة، وزمان مديد، بواسطة الأفلاك والعناصر، فقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله خلق آدم على صورته) أي من غير هذه الوسائط، والمقصود منه: الرد على الفلاسفة.

الرابع: المقصود منه بيان أن هذه الصورة الإنسانية إنما حصلت بتخليق الله تعالى وإيجاده، لا بتأثير القوة المصورة والمولدة، على ما تذكره الأطباء والفلاسفة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور﴾ فهو الخالق أي فهو العالم بأحوال الممكنات والمحدثات، والبارئ أي هو المحدث للأجسام والذوات بعد عدمها، والمصور أي هو الذي يركب تلك الذوات على صورها المخصوصة وتركيباتها المخصوصة.

الخامس: قد تذكر الصورة ويراد بها الصفة. يقال: شرحت له صورة هذه الواقعة وذكرت له صورة هذه المسألة، والمراد من الصورة في كل هذه المواضع الصفة فقوله عليه السلام: إن الله خلق آدم على صورته أي على جملة صفاته وأحواله، وذلك لأن الإنسان حين يحدث يكون في غاية الجهل والعجز، ثم لا يزال يزداد علمه وقدرته، إلى أن يصل إلى حد الكمال فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن آدم خلق من أول الأمر كاملًا تامًا في علمه وقدرته. وقوله: (خلق الله آدم على صورته)، معناه أنه خلقه في أول الأمر على صفته، التي كانت حاصلة له في آخر الأمر.

وأيضا: لا يبعد أن يدخل في لفظة الصورة كونه سعيدًا أو شقيًا، كما قال عليه السلام: (السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه) فقوله عليه السلام: (إن الله خلق آدم على صورته)، أي على جميع صفاته من كونه سعيدًا أو عارفًا أو تائبًا أو مقبولًا من عند الله تعالى"[(١)]

يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦ هـ).

قال النوويُّ-رحمه الله-(سنة ٦٧٦ هـ) في شرْح حديث: (خلَق الله آدَمَ على صورتِه، طوله سِتُّون ذراعًا) ما مختصره: "قَوْله-صلَّى الله عليه وسلَّم-: (خَلَقَ اللَّه آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ) هذه الرِّواية ظاهرة في أنَّ الضمير في (صورته) عائدٌ إلى آدم، وأنَّ المراد أنَّه خُلِق في أول نشأته على صورتِه التي كان عليها في الأرض، وتُوفِّيَ عليها، وهي طوله ستُّون ذراعًا، ولم ينتقلْ أطوارًا كذريَّته، وكانتْ صورته في الجنَّة هي صورته في الأرْض لم تتغيَّر". اهـ [(٢)]

ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ)

قال: "قيل: الضمير لآدم, ومعناه على هذا أمران:

أحدهما: أنه خلق على صورته التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى منقرض عمره لم تتفاوت

---

(١) تأسيس التقديس للرازي (١/ ١١٠-١١٤).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج (ح/ ٥٠٧٥).

قامته، ولم تتغير هيئتة، بخلاف سائر الناس، فإن كل واحد منهم يكون أولًا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا وأعصابًا عارية، ثم عظامًا وأعصابًا مكسوة لحمًا، ثم حيوانًا مجتنًا في الرحم، لا يأكل ولا يشرب، بل يتغذى من عرق كالنبات، ثم يكون مولودًا رضيعًا، ثم طفلًا مترعرعًا، ثم مراهقًا، ثم شابًا، ثم كهلًا، ثم شيخًا.

وثانيهما: أنه خلق على صورة حال يختص به، لا يشاركه نوع آخر من المخلوقات، فإنه يوصف مرة بالعلم، وأخرى بالجهل, وتارة بالغواية والعصيان، وأخرى بالهداية والاستغفار، فلحظة يقرن بالشيطان في استحقاق اسم العصيان والإخراج من الجنان، ولحظة يتسم بسمة الاجتباء، ويتوج بتاج الخلافة والاصطفاء، وبرهة يستعمل بتدبير الأرضيين، وساعة يصعد بروحه إلى أعلى عليين، وطورًا يشارك البهائم في مأكله ومشربه ومنكحه، وطورًا يسابق الكروبيين في فكره وذكره وتسبيحه وتهليله.

وكل من المعنيين سديد مستقيم"[١]

الحسين بن محمود بن الحسن، مظهر الدين الزَّيْدَانيُّ الكوفي الضَّريرُ الشِّيرازيُّ الحَنَفيُّ المشهورُ بالمُظْهِري (ت ٧٢٧ هـ)

قال: "قال الخطابي: الضمير يعود إلى آدم، يعني: ذُرِّيَّةُ آدمَ، نطفةٌ ثم كان علقةً، وهكذا صارت حالًا بعد حالٍ إلى أن يكمل، ولم يكن خلقُ آدمَ كذلك، بل خُلِقَ أولَ ما خُلِقَ تامَّ الصورةِ طولُه ستون ذراعًا.

ويحتمل أن يكون المراد من هذا الكلام: أن الله خلقَ آدمَ على صورةِ آدمَ؛ بحيث لا يشبه أحدًا؛ لأنه لم يكن في السماء والأرض في ذلك الوقت إلا الملائكةُ والجنُّ، ولم يشبه آدمُ واحدًا من هؤلاء"[٢]

زين الدين العراقي (ت: ٨٠٦ هـ).

---

(١) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (٢/ ٤٨٨-٤٨٩).

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح (٥/ ١١٩-١٢٠).

وإليه ذهب زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت: ٨٠٦ هـ) في "طرح التثريب"[(١)]

محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد، المخزومي القرشي، بدر الدين المعروف بالدماميني، وبابن الدماميني (ت ٨٢٧ هـ)

قال: "(خلق الله آدمَ على صورته، طولُه ستون ذراعاً): الضمير من قوله: (صورته) عائد على آدمَ؛ أي: خلقَه تامّاً مستوِياً، طولُه ستون ذراعاً، لم يتغير عن حاله، ولا كانَ صغيراً فكبر، فلم يتنقل من الأطوار كذُرِّيَّتِهِ"[(٢)]

جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي (ت ٩٨٦هـ).

قال الفَتَّنِي (ت: ٩٨٦ هـ): (خلق آدم على صورته)، أي صورة آدم أي خلقه أول أمره بشرًا سويًا بطول ستين لا كغيره نطفة في الأطوار فصبيًا فرجلًا؛ وفيه إبطال قول الدهرية: إنه لم يكن إنسان إلا من نطفة إنسان،

أو هو عائد إلى الله والصورة بمعنى الصفة من كونه سميعًا بصيرًا متكلمًا عالمًا،

أو هو إضافة تشريف كبيت الله وروح الله لأنه ابتدأها لأعلى مثال سابق، وينقص أي طوله.

ن: هو من حديث الصفات فنمسك عن تأويلها أو نأولها بأن ضميره للأخ في قوله: (إذا ضرب أخاه فليجتنب الوجه)، أو لآدم ويؤيده قوله: (طوله ستون ذراعًا).

ط: أو على صورته التي لا يشاركه نوع آخر من الحيوانات، فإنه يوصف مرة بالعلم ومرة بالجهل ومرة بالاجتباء ومرة بالعصيان، أو على صورته المخترعة اختراعًا لم سبقه مثل كما لغيره ذو جمال وكمال وفوائد جليلة كأنه قيل: هذا المضروب من أولاد آدم فاجتنبوه ضرب أشرف جزئه إذ أكثر الحواس فيه، أو على صورة ربه لرواية: على صورة الرحمن، وإن لم يثبت عند المحدثين أي على صورة لا كالصور، وهذا فاسد لأن الصورة يفيد التركيب"[(٣)]

---

(١) طرح التثريب (٨/ ١٠٤).

(٢) مصابيح الجامع (٩/ ٣٧٣).

(٣) مجمع بحار الأنوار (٣/ ٣٦٣).

الشوكاني (ت: ١٢٥٠ هـ)

قال الشوكاني: "أما حديث: (إن الله خلق آدم على صورته) فله تأويلات عدة مبسوطة في شروح الحديث وغيرها. منها أن الضمير في قوله: (صورته) راجع إلى آدم، وهذا هو الظاهر، لأن أقرب اللفظين هو المرجع في الغالب، ويتعين المصير إليه عن الاشتباه، ولا سيما إذا استلزم الإرجاع [الضمير] إلى البعيد لازما فاسدًا. وهذا لا ينبغي أن يعد تأويلًا بل هو الظاهر. والمراد أن الله -جل جلاله- أخبر عباده على لسان نبيه أنه خلق آدم على الصورة التي رأوه عليها بلا زيادة ولا نقصان، كما هو الغالب في الخلق، فإنهم يزيدون في أوائل العمر، وينقصون في أواخره.

وأما ما روي من أنه خلق آدم على صورة الرحمن، فالمراد أنه خلق آدم على صورة صورها الرحمن فيكون معناه صحيحا"[١]

ج: الرد عليهم:

وقد ردّ الأئمة هذا القول وأبطلوه وبدَّعوا قائله:

فقد قال الإمام أحمد -لما ذكر له قول أبي ثور (ت: ٢٤٦ هـ) المتقدم-: "من قال: إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأيُّ صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه؟"[٢]

وصرح الإمام أحمد رحمه الله بأن القول: بإعادة الضمير على آدم أو على الرجل المضروب: قول الجهمية، فقال رحمه الله: "من قال: إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأي صورة لآدم قبل أن يخلقه"[٣]

وقال أبو يعلى الفراء: "وقد ذكر عبد الرحمن بن مندة في كتاب الإسلام فقال: قال أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن فراس في كتابه، عن حمدان بن علي قال: سمعت أحمد بن حنبل

---

(١) كتاب الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني (١/ ٤٤٤-٤٤٦).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٩).

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة (المختار ٢٦٦) ح (١٩٨)، وانظر: إبطال التأويلات (١/ ٧٥، ٨٨)، وطبقات الحنابلة (٢/ ٣٣٦)، وبيان تلبيس الجهمية، القسم السادس (٢/ ٤٣٥).

يقول، وسأله رجل فقال: يا أبا عبد الله ، الحديث الذي روي عن النبي-صلى الله عليه وسلم- : (إنّ الله خلق آدم على صورته، على صورة آدم)؟ قال: فقال أحمد بن حنبل : فأين الذي يروى عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: (أنّ الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن-عز وجل-). ثم قال أحمد: وأي صورة كانت لآدم قبل أنْ يُخلق"[(١)]

وقال زكريا وقلت: لعبد الوهاب-الوراق (ت: ٢٥١ هـ) تلميذ الإمام أحمد-مرة أخرى وقد تكلم قوم فِي هذه المسألة خلق اللَّه آدم عَلَى صورته فقال: "من لم يقل إن اللَّه خلق آدم عَلَى صورة الرحمن فهو جهمي".اهـ [(٢)]

قال ابن قتيبة (ت: ٢٧٦ هـ) في تأويل مختلف الحديث-في سرده لأقوال الأئمة في تأويل هذا الحديث، ومنها: "أن المراد أن الله خلق آدم على صورة الوجه، قال: وهذا لا فائدة فيه، والناس يعلمون أن الله تبارك وتعالى خلق آدم على خلق ولده، ووجهه على وجوههم، وزاد قوم في الحديث أنه-عليه السلام-مرَّ برجل يضرب وجه رجل آخر، فقال: (لا تضربه، فإن الله تعالى خلق آدم-عليه السلام-على صورته) أي صورة المضروب، وفي هذا القول من الخلل ما في الأول"[(٣)]

وقال ابن قتيبة (ت: ٢٧٦ هـ)-بعد ذكره لهذا القول-: "ولو كان المراد هذا، ما كان في الكلام فائدة، ومن يشك في أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته، والسباع على صورها، والأنعام على صورها"[(٤)]

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن شاقلا (ت: ٣٦٩ هـ) يحكي حوارًا دار بينه وبين أبي سليمان الدمشقي الأشعري (كان حيًا سنة ٣٥١ هـ): "ثُمَّ قَالَ لِي: تروي حديث أَبِي هريرة: (خلق

---

(١) إبطال التأويلات (١/ ٨٨) رقم: (٧٣).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٢١٢).

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص: ٣١٩).

(٤) تأويل مختلف الحديث (ص: ٣١٨).

آدم على صورته) ويومىء إلى أنه مخلوق عَلَى صورة آدم.

فقلت لَهُ: قَالَ أَحْمَد بْن حنبل: من قَالَ إن آدم خلقه-عز وجل-عَلَى صورة آدم: فهو جهمي وأي صورة كانت لآدم قبل خلقه؟.

فَقَالَ لِي: قد جاء الحديث عن أَبِي هريرة-رضي الله عنه-، عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إن اللَّه خلق آدم عَلَى صورة آدم).

فقلت لَهُ: هَذَا كذب عَلَى النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فَقَالَ لِي: بلى قد جاء فِي الحديث: (طوله ستون ذراعاً) عَلَى أنه آدم.

فقلت لَهُ: قد رد هَذَا وليس هُوَ الَّذِي ادعيت عَلَى رسول اللَّه-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لأنك قُلْتُ عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إن اللَّه خلق آدم عَلَى صورة آدم" ثُمَّ استدللت بقوله: (ستون ذراعاً) عَلَى أنه آدم وهذا خبر جاء عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-من وجهين. فأبو الزناد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إن اللَّه خلق آدم عَلَى صورته)، وَرَوَى جَرِيرٌ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْن عمر-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما-، عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ: (لا تُقَبِّحُوا الْوُجُوهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ) قَالَ أَبُو إسحاق: وهذا الحديث يذكر عن إسحاق بْن راهويه: أنه صحيح مرفوع وأما أَحْمَد بْن حنبل فذكر أن الثوري أوقفه عَلَى ابْن عمر فكلاهما الحجة فِيهِ عَلَى من خالفه فإن كَانَ رفعه صحيحاً إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقد سقط العذر وإن كَانَ ابْن عمر القائل لَهُ: فقد اندحض بقول ابْن عمر تأويل من حمل قوله: " عَلَى صورته ".

قَالَ أَبُو إسحاق: وهذا لم يجر بيني وبينه وإنما بينته لأصحابي ليفهموه.

ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: قوله: (خلق آدم عَلَى صورته) لا يتأول لآدم عَلَى صورة آدم لما قاله أَحْمَد: " وأي صورة كانت لآدم قبل خلقه؟ "فقد فسد تأويلك من هَذَا الوجه وفسد أيضًا بقول ابْن عمر عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (إن اللَّه خلق آدم عَلَى صورة الرحمن تبارك وتعالى).

وأما الاستدلال بقوله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (طوله ستون ذراعًا) فإن كانت هَذِهِ اللفظة محفوظة فكان قوله: (خلق آدم عَلَى صورته) فتم الكلام ثُمَّ قَالَ: (طوله ستون ذراعًا) إخبارًا

عن آدم بذلك عَلَى حديث الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عثمان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أنه قَالَ: (إن اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ) ذكرت بدلالة حديث ابْن عمر-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما-وما ذكرته عن أَحْمَد".اهـ [١]

وقال مرعي الكرمي-رحمه الله-(ت: ٩٨٨ هـ) في حديث النهي عن ضرب وجه لأن الله خلق آدم على صورته: "التعليل بإتقاء الوجه يرد جميع التأويل ولم يبق إلا التعويل على مذهب من سلف من أئمة السلف"[٢]

وقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية لفساد هذا القول تسعة أوجه في كتابه "نقض التأسيس" قال ابن تيمية-رحمه الله-: فصل وأما قول من قال الضمير عائد إلى آدم كما ذكر ذلك للإمام أحمد عن بعض محدثي البصرة ويذكر ذلك عن أبي ثور فهو كما قال الإمام أحمد هذا تأويل الجهمية وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه وقد زعم المؤسس أنه أولى الوجوه الثلاثة وليس كما ذكره بل هو أفسد الوجوه الثلاثة ولهذا لم يعدل إليه ابن خزيمة إلا عند الضرورة لرواية من روى على صورة الرحمن ولقوله ابتداء إن الله خلق آدم على صورته فأما حيث ظن أن التأويل الأول ممكن فلم يقل هذا وبيان فساده من وجوه

أحدها: أنه إذا قيل إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورة آدم أو لا تقبحوا الوجه ولا يقل أحدكم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورة آدم كان هذا من أفسد الكلام فإنه لا يكون بين العلة والحكم مناسبة أصلًا فإن كون آدم مخلوقًا على صورة آدم فأي تفسير فسر ليس في ذلك مناسبة للنهي عن ضرب وجوه بنيه ولا عن تقبيحها وتقبيح ما يشبهها وإنما دخل التلبيس بهذا التأويل حيث فرق الحديث فروي قوله إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه مفردًا وروي قوله الله خلق آدم على صورته مفردًا أما مع أداء الحديث على وجهه فإن عود الضمير إلى آدم يمتنع فيه وذلك أن خلق آدم على صورة

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ١٢٨)، وإبطال التأويلات (ص: ١٠٩).

(٢) أقاويل الثقات (ص : ١٧٢) .

آدم سواء كان فيه تشريف لآدم أو كان فيه إخبار مجرد بالواقع فلا يناسب هذا الحكم

الوجه الثاني: أن الله خلق سائر أعضاء آدم على صورة آدم بأي وجه فسر ذلك فلا فرق بين الوجه وسائر الأعضاء في هذا الحكم فلو كان خلق آدم على صورة آدم مانعًا من ضرب الوجه أو تقبيحه لوجب أن يكون مانعًا من ضرب سائر الأعضاء وتقبيح سائر الصور وهذا معلوم الفساد في العقل والدين وتعليل الحكم الخاص بالعلة المشتركة من أقبح الكلام وإضافة ذلك إلى النبي–صلى الله عليه وسلم–لا صدر إلا عن جهل عظيم أو نفاق شديد إذ لا خلاف في علمه وحكمته وحسن كلامه وبيانه كما يذكر أن بعض الزنادقة سمع قارئاً يقرأ ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: الآية: ١١٢] فقال وهل يذاق اللباس فقالت له امرأة هبك تشك في بداية العقول أو يعلل حكم المحل بعلة لا تعلق لها به فإن هذا مثل أن يقال لا تضربوه وجوه بني آدم فإن أباهم له صفات يختص هو بها دونهم مثل كونه خلق من عير أبوين أو يقال لا تضربوا وجوه بني آدم فإن أباهم خلق من غير أبوين

الوجه الثالث: أن هذا تعليل للحكم بنا يوجب نفيه وهذا من أعظم التناقض وذلك أنهم تأولوا الحديث على أن آدم لم يخلق من نطفة وعلقة ومضغة وعلى أنه لم يتكون في مدة طويلة بواسطة العناصر وبنوه قد خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وخلقوا في مدة من عناصر الأرض فإن كانت العلة المانعة من ضرب الوجه وتقبيحه كونه خلق على ذلك الوجه وهذه العلة منتفية في بنيه فينبغي أن يجوز ضرب وجوه بنيه وتقبيحها لانتفاء العلة فيها فإن آدم هو الذي خلق على صورته دونهم إذ هم لم يخلقوا كما خلق آدم على صورهم التي هم عليها بل نقلوا من نطفة إلى علقة إلى مضغة

الوجه الرابع: ما أبطل به الإمام أحمد هذا التأويل حيث قال من قال إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه وهذا الوجه الذي ذكره الإمام أحمد يعم الأحاديث يعم قوله ابتداء إن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعًا ويعم قوله لا تقبحوا الوجه وإذا ضرب أحدكم فليتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته وذلك أن قوله خلق الله آدم على صورته يقتضي أنه كان له صورة قبل الخلق خلقه عليه فإن هذه العبارة لا

تستعمل إلا في مثل ذلك وبمثل هذا أبطلنا من يقول إن الضمير عائد إلى المضروب فإن المضروب متأخر عن آدم ولا يجوز في مثل هذا الكلام أن تكون الصورة التي خلق عليها آدم متأخرة عن حين خلقه سواء كانت هي صورته أو صورة غيره فإذا قيل عملت هذا على صورة هذا أو على مثال هذا أو لم يعمل هذا على صورة غيره أو لم يعمل على مثال أو لم ينسج على منوال غيره كما يقال في تمجيد الله تعالى خلق الله العالم على غير مثال والإبداع خلق الشيء على غير مثال ونحو ذلك من العبارات كان معناها المعلوم بالاضطرار من اللغة عند العامة والخاصة أن ذلك على صورة ومثال متقدم عليه أو لم يعمل على صورة ومثال متقدم عليه وذلك أن هذا اللفظ تضمن معنى القياس فقوله خلق أو عمل أو صنع على صورة كذا أو مثاله أو منواله تضمن معنى قيس عليه وقدر عليه وإذا كان كذلك فجميع ما يذكر من التأويلات مضمونه أو صورته تأخرت عنه فتكون باطلة وأيضاً فمن المعلوم بالضرورة أنه لم تكن لآدم صورة خلق عليها قبل صورته التي خلقها الله تعالى

الوجه الخامس: أن جميع ما يذكر من التأويل كقول القائل خلق آدم على صورة آدم موجود نظيره في جميع المخلوقات فإنه إن أريد بذلك على صورتها الثابتة في القدر في علم الله وكتابه أي على صفتها التي هي عليها أو غير ذلك فهذا موجود نظيره في سائر المخلوقات من السموات والأرض وما بينهما ومن الملائكة والجن والبهائم بل وذرية آدم كذلك فإنهم خلقوا على صورهم كما يذكرونه في معنى قولهم خلق الله آدم على صورة آدم فإن كون آدم على صورته يعني شبحًا موجود في صور هذه الأمور وأما كونه خلق على هذه الصورة ابتداء أو فيغير مدة فإنه لم يخلق إلا من حال إلى حال من التراب ثم من الطين ثم من الصلصال كما خلق بنوه من النطفة ثم العلقة ثم المضغة فلا منافاة في الحقيقة بين الأمرين فإذا جاز أن يقال في أحدهما إنه خلق على صورته رغم تنقله في هذه الأطوار جاز أن يقال في الآخر خلق على صورته مع تنقله في هذه الأطوار وإذا كان كذلك فمن المعلوم بالاتفاق أن قوله خلق آدم على صورته هي من خصائص آدم وإن كان بنوه تبعاً له في ذلك كما خلقه الله تعالى بيديه وأسجد له ملائكته علم بطلان ما يوجب الاشتراك ويزيل الاختصاص

الوجه السادس: أن المعنى الذي تدل عليه هذه العبارة التي ذكروها هو من الأمور المعلوم ببديهة العقل التي لا يحسن بيانها والخطاب بها لتعريفها بل لأمر آخر فإن قول القائل إن الشيء الفلاني خلق على صورة نفسه لا يدل لفظه على غير ما هو معلوم بالعقل أن كل مخلوق فإنه خلق على الصورة التي خلق عليها وهذا المعنى مثل أن يقال أوجد الله الشيء كما أوجده وخلق الله الأشياء على ما هي عليه وعلى الصورة التي هي عليها ونحو ذلك مما هو معلوم ببديهة العقل ومعلوم أن بيان هذا وإيضاحه قبيح جدًّا

الوجه السابع: أن دلالة قول القائل خلق آدم على صورة آدم على ما يدعونه من معان أخر مثل كونه غير مخلوق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة أو كونه لم يخلق في مدة ومن مادة أو لم يخلق بواسطة القوى والعناصر مما لا جليل عليه بحال فإن هذا اللفظ لا يفهم منه هذه المعاني بوجه من الوجوه فلابد أن يبين وجه دلالة اللفظ على المعنى من جهة اللغة ويذكر له نظير في الاستعمال.

الوجه الثامن: أن رواية الحديث من وجوه فسائر الألفاظ تبطل عود الضمير إلى آدم مثل قوله لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن وقوله في الطريق الآخر من حديث أبي هريرة إذا ضرب أحدكم فليتجنب الوجه فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن وقول ابن عباس فيما يذكره عن الله تعالى تعمد إلى خلق من خلقي خلقتهم على صورتي فتقول لهم اشربوا يا حمير فأما قوله إن حديث ابن عمر قد ضعفه ابن خزيمة فإن الثوري أرسله فخالف فيه الأعمش وأن الأعمش وحبيبًا

مدلسان فيقال قد صححه إسحاق بن راهوية وأحمد ابن حنبل وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس وأيضًا فمن المعلوم أن عطاء ابن أبي رباح إذا أرسل هذا الحديث عن النبي ﷺ فلابد أن يكون قد سمعه من أحد وإذا كان في إحدى الطريقين قد بين أنه أخذه عن ابن عمر كان هذا بيانًا وتفسيرًا لما تركه وحذفه من الطريق الأخرى ولم يكن هذا اختلافًا أصلًا وأيضًا فلو قدر لأن عطاء لم يذكره إلا مرسلًا عن النبي ﷺ فمن المعلوم أن عطاء من أجلِّ التابعين قدرًا فإنه هو وسعيد بن المسيب

وإبراهيم النخعي والحسن البصري أئمة التابعين في زمانهم وقد ذكر المصنف لهذا الحديث كابن خزيمة أن الأخبار في مثل هذا الجنس الذي توجب العلم هي أعظم من الأخبار التي توجب العمل ومعلوم أن مثل عطاء لو أفتى في مسألة فقه بموجب خبر أرسله لكان ذلك يقتضي ثبوته عنده ولهذا يجعل الفقهاء احتجاج المرسل بالخبر الذي أرسله دليلًا على ثبوته عنده فإذا كان عطاء قد جزم بهذا الخبر العلي عن النبي ﷺ في مثل هذا الباب العظيم أيستجيز ذلك من غير أن يكون ثابتًا عنده أن يكون قد سمعه من مجهول لا يعرف أو كذاب أو سيئ الحفظ وأيضًا فاتفاق السلف على رواية هذا الخبر ونحوه مثل عطاء بن أبي رباح وحبيب بن أبي ثابت والأعمش والثوري وأصحابهم من غير نكير سمع من أحد لمثل ذلك في ذلك العصر مع أن هذه الروايات المتنوعة في مظنة الاشتهار دليل على أن علماء الأمة لم تنكر إطلاق القول بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن بل كانوا متفقين على إطلاق مثل هذا وكراهة بعضهم لرواية ذلك في بعض الأوقات له نظائر فإن الشيء قد يمنع سماعه لبعض الجهال وإن كان متفقًا عليه بين علماء المسلمين وأيضًا فإن الله قد وصف هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس وأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فمن الممتنع أن يكون في عصر التابعين يتكلم أئمة ذلك العصر بما هو كفر وضلال ولا ينكر عليهم أحد فلو كان قوله خلق آدم على صورة الرحمن باطلًا لكانوا كذلك وأيضًا فقد روي بهذا اللفظ من طريق أبي هريرة والحديث المروي من طريقين مختلفين لم يتواطأ رواتهما يؤيد أحدهما الآخر ويستشهد له ويعتبر به بل قد يفيد ذلك العلم إذ الخوف في الرواية من تعمد الكذب أو من سوء الحفظ فإذا كان الرواة ممن يعلم أنهم لا يتعمدون الكذب أو كان الحديث ممن لا يتواطأ في العادة على اتفاق الكذب على لفظه لم يبق إلا سوء الحفظ فإذا كان قد حفظ كل منهما مثل ما حفظ الآخر كان ذلك دليلًا على أنه محفوظ لاسيما إذا كان ممن جرب بأنه لا ينسى لما فيه من تحرِّيه اللفظ والمعنى ولهذا يحتج من منع المرسل به إذا روي من وجه آخر ولهذا يجعل الترمذي وغيره الحديث الحسن ما روي من وجهين ولم يكن في طريقه متهم بالكذب ولا كان مخالفًا للأخبار المشهورة

وأدنى أحوال هذا اللفظ أن يكون بهذه المنزلة وأيضًا فقد ثبت عن الصحابة أنهم تكلموا

بمعناه كما في قول ابن عباس: "تعمد إلى خلق من خلقي على صورتي" والمرسل إذا اعتضد به قول الصاحب احتج به من لا يحتج بالمرسل كالشافعي وغيره وأيضًا ثبت بقول الصحابة ذلك ورواية التابعين كذلك عنهم أن هذا كان مطلقًا بين الأئمة ولم يكن منكورًا بينهم وأيضًا فعلم ذلك لا يؤخذ بالرأي وإنما يقال توقيفًا ولا يجوز أن يكون مستند ابن عباس أخبار أهل الكتاب الذي هو أحد الناهين لنا عن سؤالهم ومع نهي النبي ﷺ عن تصديقهم أو تكذيبهم فعلم أن ابن عباس إنما قاله توقيفًا من النبي ﷺ ففي صحيح البخاري عن ابن شهاب عن عبيد الله عن عبد الله أن ابن عباس قال كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسولكم أحدث الكتب عهدًا بالرحمن تقرؤونه محضًا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا فكتبوا بأيديهم الكتب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم الآية فمعلوم مع هذا أن ابن عباس لا يكون مستندًا فيمايذكره من صفات الرب أنه يأخذ ذلك عن أهل الكتاب فلم يبق إلا أن يكون أخذ من الصحابة الذين أخذوه من النبي ﷺ وهذه الوجوه كلها مع أنها مبطلة لقول من يعيد الضمير في قوله على آدم فهي أدلة مستقلة في الإخبار بأن الله تعالى خلق آدم على صورة نفسه وبهذا حصل الجواب عما يذكر من كون الأعمش مدلسًا حيث يقدم على رواية مثل هذا الحديث ويتلقاه عنه العلماء ويوافقه الثوري والعلماء على روايته عن ذلك الشيخ بعينه

وكذلك قوله حبيب مدلس فقد أخذه عنه هؤلاء الأئمة وأيضًا فهذا المعنى عند أهل الكتاب من الكتب المأثورة عن الأنبياء كالتوراة فإن في السفر الأول منها سنخلق بشرًا على صورتنا

يشبهها [(١)] وقد قدمنا أنه يجوز الاستشهاد بما عند أهل الكتاب إذا وافق ما يؤثر عن نبينا بخلاف ما لم نعلمه إلا من جهتهم فإن هذا لا نصدقهم فيه ولا نكذبهم ثم إن هذا مما لا غرض لأهل الكتاب في افترائه على الأنبياء بل المعروف من حالهم كراهة وجود ذلك في كتبهم وكتمانه

---

(١) هذا النص يوجد في التوراة السامرية هكذا: (وقال الله: نصنع إنسانًا يشبهنا وصورتنا، ليستولي على سمك البحر) (ص٣٦) طبعة السقا.

ويقول موسى بن ميمون في دلالة الحائرين. ما نصه: "قد ظن الناس: أن الصورة في اللسان العبراني تدل على شكل الشيء وتخطيطه. فأدى ذلك إلى التجسيم المحض. لقوله: (لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا) (تك ١ : ٢٦) وظنوا: أن الله على صورة انسان-أعني شكله وتخطيطه-فلزمهم التجسيم المحض، فاعتقدوه، ورأوا أنهم أن فارقوا هذا الاعتقاد، كذبوا النص، بل يعدمون الإله إن لم يكن جسمًا ذا وجه ويد مثلهم في الشكل والتخطيط. لكنه أكبر وأبهى ومادته أيضًا ليست بدم ولحم غاية ما رأوا أنه يكون تنزيها في حق الله.

أما ما ينبغي أن يقال في نفى الجسمانية، واثبات الوحدانية الحقيقية التي لا حقيقة لها إلا بدفع الجسمانية، فستعرف برهان ذلك كله من هذه المقالة، وإنما التنبيه هنا في هذا الفصل على تبيين معنى الصورة والمثال. فأقول: إن الصورة المشهورة عند الجمهور التي هي شكل الشيء وتخطيطه، اسمها الخصيص بها في اللسان العبراني (صفة) قال: (حسن الهيئة، جميل المنظر) (تك ٣٩ : ٦) (ما هي هيئته) ؟ (١ مل ٢٨ : ١٤) (هيئة أبناء الملوك) (قض ٨ : ١٨) وقيل في الصورة الصناعية: (ويسويه بالمنحت ويرسمه بالبركار) (أش ٤٤ : ١٣) وهذه إسمية لم تقع على الإله قط-وحاشا وكلا-أما الصورة. فهي تقع على الصورة الطبيعية-أعنى على المعنى الذي به تجوهر الشيء وصار ما هو؟ وهو حقيقته من حيث هو ذلك الموجود الذي ذلك المعنى في الانسان هو الذي عنه يكون الادراك الإنساني. ومن أجل هذا الادراك العقلي قبل فيه : (على صورة الله خلقه) (تك ١ : ٢٧) ولذلك قيل . (تحتقر خيالهم) (مز ٧٢ : ٦٠) لأن الاحتقار لاحق للنفس التي هي الصورة النوعية ، لا لأشكال الأعضاء وتخطيطها . وكذلك أقول : إن العلة في تسمية الأصنام صورًا: كون المطلوب منها: معناها المظنون به، لا شكلها وتخطيطها. وكذلك أقول في مثال : (تماثيل بواسيركم) (١صم ١ : ٥) لأنه كان المراد منها: معنى دفع أذية البواسير، لا شكل البواسير. فإن لم يكن بد من أن تكون (صور بواسيركم) من أجل الشكل والتخطيط، فتكون الصورة اسما مشتركًا، أو مشككًا. يقال على الصورة النوعية، وعلى الصورة الصناعية، وما ماثلها من أشكال الأجسام الطبيعية وتخاطيطها ويكون المراد به في قوله: (نخلق آدم على صورتنا): الصورة النوعية، التي هي الادراك العقلى ، لا الشكل والتخطيط قد بينا لك الفرق بين الصورة والهيئة، وبينا معنى الصورة.

أما المثال: فهو اسم من مثل: وهو أيضا: شبه في المعنى. لأن قوله : (شابهت قوق البرية) (مزمور ١٠١ : ٧) ليس أنه شابه أجنحتها وريشها، به شابه حزنه حزنها. وكذلك كل شجرة في جنة الله، لم يماثلها في بهجته، شبه في معنى الحسن (مثاله) : (لهم حمة مثل حمة الحية) (مز ٥٧ : ٥) (مثله كالأسد الذي يقوم إلى الفريسة) (مز ١٦ : ١٢) كلها شبه فى المعنى، لا فى الشكل والتخطيط. وكذلك قيل: (شبه العرش: شبه عرش) (مز ١ : ٢٧) شبه في معنى الرفعة والجلالة ، لا في تربيعه وغلظه وطول رجليه-كما يظن المساكين-وكذلك شبه الحيوانات. فلما خص الانسان بمعنى فيه غريب جدًا ليس في شيء من الموجودات من لدن فلك القمر هو الإدراك العقلى، الذي لا تتصرف فيه حاسة ولا جارحة ولا جانحة، شبه بادراك الإله الذي ليس هو بآلة. وإن كان لا شبه في الحقيقة-لكن على بادى الرأي-وقيل في الإنسان: من أجل هذا المعنى- أعنى: من أجل العقل الالهي المتصل به أنه على صورة الله وشاكلته. لا أن الله – تعالى-جسم . فيكون ذا شكل". (دلالة الحائرين ج ١ ص ٢٦-٢٨).

وتأويله كما قد رأيت ذلك مما شاء الله من علمائهم ومع هذا الحال يمتنع أن يكذبوا كلامًا يثبتونه في ضمن التوراة

وغيرها وهم يكرهون وجوده عندهم وإن قيل الكاره لذلك غير الكاتب له فيقال هو موجود في جميع النسخ الموجودة في الزمان القديم في جميع الأعصار والأمصار من عهد النبي ﷺ وأيضًا فمن المعلوم أن هذه النسخ الموجودة اليوم بالتوراة ونحوها قد كانت موجودة على عهد النبي ﷺ فلو كان ما فيها من الصفات كذبًا وافتراءً ووصفًا لله بما يجب تنزيهه عنه كالشركاء والأولاد لكان إنكار ذلك عليهم موجودًا في كلام النبي ﷺ أو الصحابة أو التابعين كما أنكروا عليهم مادون ذلك وقد عابهم الله في القرآن بما دون ذلك مما هو دون ذلك فلو كان هذا عيبًا لكان عيب الله لهم أعظم وذمهم عليه أشد

الوجه التاسع: إبطال أعيان التأويلات التي ذكرها فأما قوله في الوجه الأول أنه لم يغير خلقة آدم ولم يمسخها كما مسخ غيره كالحية والطاووس قيل خلق آدم على صورة آدم فيقال له العبارة المعروفة عن هذا المعنى أن يقال أبقى آدم على صورته أو تركه على صورته أو لم يغير صورة آدم لا يقال خلقه على صورة نفسه فإن هذا اللفظ لا يستعمل في مثل ذلك المعنى ألا ترى أن الله لما مسخ بعض بني إسرائيل كالذين قال لهم كونوا قردة خاسئين كما قال وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ [المائدة ٦٠] وأنجى الذين كانوا ينهون عن المنكر فإنه

لا يقال خلق هؤلاء على صورهم بل يقال أبقاهم على صورهم أو أبقى صورهم أو لم يمسخهم وهذا لما تقدم من أن هذا اللفظ لا يقال إلا فيما تقدمت الصورة على خلقه لا فيما تأخرت وأيضًا فهذا من الأمر المعروف الظاهر لكل أحد أن مضمونه أن صورة آدم كانت كهذه الصور لم تمسخ وما من الناس إلا من يعرف هذا كما يعرف آدم فقول القائل لهذا كقوله إن آدم كان له وجه وعينان وأذنان ويدان وساقان وهذا من الكلام السمج وأيضًا فالإخبار بما ذكره من مسخ غير آدم غير معلوم ولا مذكور

وأيضًا فإن الله تعالى قد أخبر أنه تاب على آدم واجتباه وهو في الجنة قبل إهباطه إلى الأرض فزال عنه العقاب قبل هبوطه وأما التأويل الثاني وقوله إن فيه إبطال قول الدهرية الذين يقولون

إن الإنسان لا يتولد إلا من نطفة ودم الطمث فيقال له قد أخبر الله في كتابه أنه خلقآدم من الماء والتراب ومن الطين ومن الحمأ المسنون وهذه نصوص ظاهرات متواترات بسمعها العام والخاص تبين أنه لم يخلق من نطفة ودم طمث وتبطل هذا القول إبطالًا بينًا معلومًا بالاضطرار فأما قول القائل إن آدم خلق على صورة آدم فليس في هذا القول دلالة على نفي كونه مخلوقًا من غيره أصلًا

وقوله خلق آدم على صورته ابتداء من غير تقدم نطفة ثم علقة ومضغة يقال له خلق بعد تقدم تراب وطين وصلصال ودلالة اللفظ على نفي هذا المتقدم كدلالته على نفي ذلك المتقدم فإن كان قوله خلق آدم على صورة آدم يقتضي خلقه ابتداء من غير تنقل أحوال فهو ينفي الأمرين وإلا فهو ينفي لا هذا ولا هذا وهذا التخليط إنما وقع لكون الصورة التي خلق عليها جعلوها متأخرة عن الخلق وهو خلاف مدلول اللفظ وأما التأويل الثالث وقوله إن الإنسان لا يتكون في مدة أطول من مدد بنيه وبواسطة الأفلاك والعناصر فقوله خلق آدم على صورة آدم أي من غير هذه الوسائط والمقصود منه الرد على الفلاسفة فيقال هذا أظهر بطلانًا من الأول فإن آدم عليه السلام لم يتكون إلا في مدة أطول من مدد بنيه ومن مادة أعظم من مواد بنيه فإن الله خلقه من التراب والماء وجعله صلصالًا وهذه

هي العناصر وأيضًا فإنه أبقي أربعين عامًا قبل نفخ الروح فيه وولده إنما يبقون أربعة أشهر قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: الآية: ١] وأيضًا فاللفظ لا يدل على نفي ذلك بوجه من الوجوه لا حقيقة ولا مجازًا بل هذه الدلالة من جنس ما تدعيه غالية الرافضة ونحوهم من جهال الزنادقة أن قول إِمَامٍ مُبِينٍ هو علي بن أبي طالب بل ربما هذا أقوى فإن لفظ الإمام فيه

اشتراك وإلا فكون الشيء خلق على صورة نفسه المتقدمة أو المتأخرة أي شيء فيه مما ينفي كونه في مدة وخلق من مادة ثم إن هذا المؤسس مع كونه يحمل كلام النبي ﷺ على رفع تأثير الأفلاك والعناصر ردًّا على الفلاسفة يقرر في كتب له أخرى دلالة القرآن على تأثير الأفلاك والكواكب تارة عملًا بما يأمر به المنجمون من الأخبار وتارة أمرًا بما يأمر به السحرة المشركون

من عبادتهم فقد جعل كلام الله ورسوله متناقضًا حيث أثبت ذلك ونفاه ثم إنه في جانب الإثبات يغلو حتى يأمر بما هو محرم بل كفر بإجماع المسلمين وفي جانب النفي يغلو حتى يمنع كونها أسبابًا كسائر الأسباب وهذا من أعظم التناقض في ما جاء به الرسول ومن جهة المعقول وأما التأويل الرابع فقوله المقصود منه بيان أن هذه الصورة الإنسانية إنما حصلت بتخليق الله لا بتأثير القوة المصورة يقال له إن كان اللفظ دالًّا على ذلك

فإنما يدل عليه قوله خلق الله آدم كما ذكر ذلك في القرآن في غير موضع إذ قوله على صورته لا يتعرض لذلك وإن لم يكن دالًّا عليه فهو باطل وعلى التقديرين فدعوى أن قوله على صورته بغير القوى الطبيعية دعوى باطلة ويقال له ثانيًا إخبار الله تعالى بأنه خلق آدم وهو الخالقأظهر وأشهر في القرآن وعند العامة والخاصة من أن يكون المستفاد منه يحتاج إلى قوله على صورته ويقال له ثالثًا أي شيء في قوله على صورته ما يمنع هذه القوى ويقال له رابعًا ومن الذي يمنع وجود هذه القوى والطبائع وأن الله هو خلقها وخلق بها كما أخبر في غير موضع من كتابه أنه يحدث الأشياء بعضها ببعض كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: الآية: ٥٧] ومن أعظم الضلال جحود ما يوجد في المخلوقات

وما أخبر الله به في كتابه وجعل ذلك تأويل الأحاديث مع دعوى المدعي أنه يرد بذلك على الدهرية والفلاسفة والأطباء والمشبهة وهو قد أضحك العقلاء على عقله بما جحده من الحسيات والمعقولات وألحد في آيات الله بما افتراه من التأويلات وأخبر عن الرسول أنه أخبر بجحد الموجودات مع أن لفظه ﷺ من أبعد شيء عن هذه الترهات وأما التأويل الخامس فقوله إن الصورة تذكر ويراد بها الصفة يقال شرحت له صورة هذه الواقعة وذكرت له صورة هذه المسألة والمراد أن الله تعالى خلق آدم من أول الأمر كاملًا تامًّا في علمه وقدرته أو كونه سعيدًا عارفًا تائبًا فيقال له الصورة هي الصورة الموجودة في الخارج

ولفظ ص ور يدل على ذلك وما من موجود م الموجودات إلا له صورة في الخارج وما يكون من الوقائع يشتمل على أمور كثيرة لها صورة موجودة وكذلك المسؤول عنه من الحوادث وغيرها له صورة موجودة في الخارج ثم تكون الصورة الموجودة ترتسم في النفس وقد تسمى صورة ذهنية

فقوله شرحت له صورة الواقعة وأخبرني بصورة المسألة إما أن يكون المراد به الصورة الخارجية أو الصورة الذهنية وأما الصفة فهي في الأصل مصدر وصفت الشيء أصفه وصفًا وصفة ثم يسمون المفعول باسم المصدر سنة جارية لهم فيقولون لما يوصف به من المعاني صفة ثم قد يغلب أحد اللفظين في بعض الاصطلاحات كما اصطلح طائفة من الناس على أن جعلوا الوصف اسمًا للقول والصفة اسمًا للمعنى كما أن طائفة أخرى جعلوا الجميع اسمًا للقول والتحقيق أن كلا منهما يدل على هذا والواصف للشيء لا يصفه حتى يعلمه فيرتسم مثاله في نفسه ومن هنا يقام

الدليل مقام الصفة كما قد قيل في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: الآية ٣٥] قال بعضهم أي صفة الجنة التي وعد المتقون وإذا كان ما في النفس من العلم بالشيء يسمى مثلًا له وصفة فالصورة الذهنية هي المثل الذي يسمى أيضًا صفة ومثلًا ولهذا يقال تصورت الشيء وتمثلت الشيء وتخيلته إذا صار في نفسك صورته ومثاله وخياله كما يسمى مثاله الخارج صورة كما قال النبي ﷺ لعن الله المصورين وقال من صور صورة كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ وقال لا تدخل الملائكة بيتًا فيه

صورة كما يسمى ذلك تمثالًا في مثل قول علي بعثني رسول الله ﷺفأمرني ألا أدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا

مشرفًا إلا سويته وقال العلماء كابن عباس وعكرمة واحمد وغيرهم الصورة هي الرأس فإذا قطع الرأس لم تبق صورة ولهذا قال ابن عباس لمن استفتاه إن كنت مصورًا فصور الشجر وما لا روح فيه

وسيأتي في الصحيحين من حديث القيامة قال فيه ويحرم الله صورهم على النار هذا في حديث أبي سعيد وفي حديث أبي هريرة حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: الآية: ١١] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: الآية: ٦٤] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ *

فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: الآيات: ٦-٨] وقوله إن لفظ الصورة يذكر ويراد به الصفة إن أراد له أن الصورة توصف بالقول وأن لفظ الصورة يراد به ما يوصف بالقول من الصورة الخارجية أو ما يطابقه من الصور الذهنية فهذا قريب ولكن هذا يوجب أن لفظ الصورة لابد له من صورة خارجية وإن طابقها الصورة الذهنية وإن أراد به أن لفظ الصفة قد لا يراد به إلا ما يقوم بالأعيان من المعاني كالعلم والقدرة فهذا باطل لا يوجد في الكلام أن قول القائل صورة فلان يراد بها مجرد الصفات القائمة به من العلم والقدرة ونحو ذلك بل هذا من البهتان على اللغة وأهلها وأيضًا فقول القائل خلق آدم على صورة آدم بمعنى على صفة آدم لا يدل على أنه خلق على صفات الكمال ابتداء ولو أريد بالصورة ما يتأخر عن وجوده فإن المخلوق على صفة من الصفات يخلق عليها في مدة وفي غير مدة يبين ذلك أنه جعل أحد المحملين كونه خلق عارفًا تائبًا مقبولًا عند الله ومعلوم أن هذه الصفة تأخر وجودها عن ابتداء خلقه فإن التوبة كانت بعد الذنب فإذا كان لا ينافي كونه مخلوقًا عليها فكذلك لا ينافي كونه مخلوقًا على صفة العلم والقدرة وإن تأخر ذلك عن وجوده وإذا كان كذلك فلا فرق بينه وبين غيره أيضًا فهذا الذي ذكره من معنى الخبر باطل فإن آدم لم يُجعل ابتداء على صفة الكمال بل بعد أن خلقه الله تعالى علَّمه الأسماء التي لم يكن بها عالمًا كما علم بنيه البيان بعد أن خلقهم

فهذه التأويلات التي هي ذكر دلالة اللفظ على معنى من المعاني تارة يكون المعنى باطلًا وتارة يكون اللفظ غير دال عليه وتارة يكون اللفظ دالًّا على نقيضه وضده وتارة يجتمع من ذلك ما يجتمع وهذا شأن أهل التحريف والإلحاد نعوذ بالله من الغي والزيغ ونسأله الهدى والسداد وهذه التأويلات وإن كان المؤسس مسبوقًا بها وهو إن كان قد نقل منها ما نقله من كتاب أبي بكر بن فورك ونحوه وهم أيضًا مسبوقون بأمثالها فقد كان من هو أقدم منهم يذكر من التأويلات ما هو أمثل من ذلك إذ كل ما تقدم الزمان كان الناس أقرب إلى السداد في الثبوتاتوالقياسات الشرعيات والعقليات وكان قدماء الجهمية أعلم بما جاء به الرسول وأحسن تأويلًا من هؤلاء كما تقدم فيما ذكره عن المروذي عن أحمد أنه ذكر له عن بعض المحدثين بالبصرة أنه قال قول النبي ﷺ (خلق الله آدم على صورته) قال صورة الطين قال هذا جهمي

وقال نسلم الخبر كما جاء (١)

فأخبر أحمد أن هذا جهمي كما أن من قال على صورة الأرحام فهو جهمي لأن الجهمية هم الذين ينكرون الصفات ويتأولون ما ورد في ذلك من الأخبار والآيات وهذا التأويل أجود مما تقدم فإن قوله على صورة آدم يقتضي أن يكون لآدم صورة خلق عليها وتلك هي صورة الطين فإن الله صور آدم طينًا حتى يبس فصار صلصالًا ثم نفخ فيه الروح ومراد هؤلاء أنه خلقه على تلك الصورة المصنوعة من الطين لكن هذا أيضًا فاسد فإن قول القائل خلق على تلك الصورة يقتضي أن تكون له صورة أخرى خلقت على تلك الصورة وآدم هو بعينه تلك الصورة التي خلق فيها الروح بل تصويره هو خلقه من تراب ثم من طين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: الآية: ١١] فقدم الخلق على التصوير فكيف تكون الصورة التي لآدم سابقة على الخلق حتى يقال خلق آدم على تلك الصورة وأيضًا لو أريد أنه خلق من صورة الطين بعينها لا من أبوين ولا يجوز ذلك لقيل كما قال الله تعالى: ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ وقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: الآية: ٧١] وقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: الآية: ٢٨] وكذلك إذا تأوله متأول على الصورة المقدرة له وهي ما سبق له في علم الله وكلامه وكتابه أي خلق آدم على الصورة التي قدرها له فإن الله وإن كان خلق كل شيء على ما سبق من تقديره فلا يصح تأويل الحديث على هذا لأن جميع الأشياء خلقها الله تعالى على ما قدره فلا اختصاص لآدم بذلك وأيضًا فإنه لا يصلح أن يقول لا تقبحوا الوجه ولا يقل أحدكم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على ما قدره فإن الوجه وسائر الأعضاء بل وسائر المخلوقات خلقها على ذلك فينبغي أن لا يصلح تقبيح شيء من الأشياء ألبتة لعموم العلة وأيضًا فإن قوله ووجه من أشبه وجهك يمنع أن يكون المراد التقدير وأيضًا فإن هذه العلة لا تصلح أن تكون مانعة من التقبيح وأيضًا فإن قوله إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته يمنع أن يكون المراد به التقدير

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة ().

فإن ذلك لا يختص بالوجه ولا بآدم ولا يصلح أن يعلل به منع ضرب الوجه ولو علل به وجبأن لا يضرب شيء من الأشياء وأيضًا فقوله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعًا إلى قوله فكل من يدخل الجنة يدخلها على صورة آدم صريح في أنه أراد صورة آدم المخلوقة لا المقدرة وأيضًا فتسمية ما قدر صورة ليس له أصل في كلام الله وكلام رسوله فليس في هذا الخطاب أن صور الأشياء ثابتة في علم الله أو تقديره وإن كان من المتأخرين من يقول لفلان عند فلان صورة عظيمة وهذا الأمر مصور في نفسي لكن مثل هذا الخطاب لا يجوز أن يحمل عليه كلام الرسول ﷺ إلا أن يكون ذلك من لغته التي خاطب بها أمته"[١]

والعجب أن ابن حجر في (الفتح) قال: "وزعم بعضهم أن الضمير يعود على آدم، أي على صفته، أي خلقه موصوفًا بالعلم الذي فضل به الحيوان، وهذا محتمل"[٢]

قال الشيخ التويجري-رحمه الله-(ت: ١٤١٣ هـ): "وما أبعده من الاحتمال، وإنما هو قول باطل مردود بالنص على أن الله خلق آدم على صورة الرحمن"[٣]

وقال محمد بن صالح ابن عثيمين-رَحِمَهُ اللَّهُ-(ت: ١٤٢١ هـ): "فحرّفه قومٌ تحريفًا مشينًا مستكرهًا، وقالوا: معنى الحديث: خَلَقَ اللهُ-عَزَّ وَجَلَّ-آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على صورته أي على صورة آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-الله المستعان-هل يمكن لأفصح البشر وأنصح البشر أن يريد بالضمير ضمير المخلوق، بمعنى خلق آدم على صورته أي على صورة آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ لا يمكن هذا، لأن كل مخلوق فقد خلق على صورته، وحينئذ لا فضل لآدم على غيره. فهذا هراء لا معنى له"[٤]

ولمن أراد التوسع في المسألة فليرجع لكتاب بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية في

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ج٣ (مخطوط).

(٢) فتح الباري (٥/ ١٨٣).

(٣) عقيدة أهل الإيمان (ص: ١٥).

(٤) "شرح الأربعين النووية" (٣٦).

الجزئين الســادس والســابع، وقد ألف مؤلفًا مســتقلًا بعنوان "المســائل العقدية المتعلقة بصــفة الصورة لله–عز وجل–، فليرجع إليه.

إثبات الكف لله تعالى

[٦١]- قال المصنف رحمه الله: والسماوات والأرضون يوم القيامة في كفه وقبضته.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٥٩) في الكلام على الأدلة النقلية على إثبات الكف والأصابع والأنامل لله عز وجل.

إثبات القدم لله

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تقرير عقيدة أهل السنة في إثبات صفة القدم.

المسألة الثانية: التمييز بين الرجل والقدم.

[٦٢]- قال المصنف رحمه الله: ويضع قدمه في جهنم فتُزوى.

الشرح

المسألة الأولى: تقرير عقيدة أهل السنة في إثبات صفة "القدم" لله تعالى

أولاً: إثبات الصفة من السنة النبوية:

أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات صفة "القدم" لله سبحانه وتعالى، استناداً إلى ما ثبت في الأحاديث الصحيحة. ومن ذلك ما رواه البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ، فَيُسْكِنَهُمْ فِي فُضُولِ الْجَنَّةِ).

وفي رواية أخرى في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ).

ثانيـاً: منهج أهل السنة في الفهم والتلقي:

يرى أهل السنة والجماعة أن الواجب تجاه هذا الحديث وأمثاله من أحاديث الصفات هو:

الإمرار والإثبات: إمرار الخبر كما جاء، والإيمان بما دل عليه من إثبات "القدم" لله تعالى حقيقةً.

نفي التشبيه والتكييف: إثبات هذه الصفة على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته، دون تشبيه بصفات المخلوقين، ودون تكييف (أي دون السؤال بـ "كيف")، ودون تحريف أو تعطيل؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فلا يجوز صرف لفظ "القدم" عن حقيقته إلى معانٍ أخرى (كالقول بأن المراد بالقدم هم "المتقدمون من أهل النار")؛ لأن هذا تحريف للكلم عن مواضعه، ويخالف صريح السياق واللغة.

المسألة الثانية: التمييز بين "الرِّجل" و"القدم"

ورد في بعض الروايات الصحيحة لفظ "الرِّجل" بدل "القدم"، كما في رواية: (حتى يضع جبار السماوات فيها رِجله). وكلا اللفظين ثابتان لله تعالى على الوجه الذي يليق به، وهما من الصفات الذاتية الخبرية التي نؤمن بها ولا نشبهها بصفات المخلوقين.

الخلاصة: إن صفة "القدم" صفة ثابتة لله تعالى بالسنة الصحيحة وإجماع السلف، نؤمن بها ونقر بظاهرها مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، ونفوض كيفية هذه الصفة إلى الله تعالى، فالله عز وجل له قدم لا تشبه أقدام المخلوقين، كما أن له ذاتاً لا تشبه الذوات.

يخرج الله قوماً من النار بيده

[٦٣]- قال المصنف رحمه الله: ويُخرج قوماً من النار بيده.

الشرح

تقدم الكلام على إثبات صفة اليد في الفقرة (٥٩).



إثبات رؤية الله

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: رؤية الله في الدنيا يقظة.

المسألة الثانية: رؤية الله في المنام.

المسألة الثالثة: رؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج

المسألة الرابعة: رؤية الله في الآخرة.

المسألة الخامسة: الفرق المخالفة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة

[٦٤]- قال المصنف رحمه الله: وينظر أهل الجنة إلى وجهه، يزورونه، فيكرمهم، ويتجلَّى لهم، فيعطيهم.

الشرح

تمهيد.

مســـألة رؤية الله يُلحقها العلماء بباب الصِّــفات، مع أن البحث في رؤية العبد لربه وليس العكس، ولكنهم يُلحقونها بباب الصفات.

ويجدر التنبيه على أمور مهمة تتعلق بمسـألة الرؤية، فمسـألة رؤية الله عز وجل مُتشـعبة؛ إذ تشتمل على المسائل الآتية:

- المسألة الأولى: ما يتعلق برؤيته سبحانه وتعالى في الدنيا عيانًا.
- المسألة الثانية: ورؤيته جل وعلا منامًا.
- المسألة الثالثة: ورؤية النبي ﷺ لربِّه ليلة المعراج.
- المسألة الرابعة: ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وفي الجنة.
- المسألة الخامسة: الفرق المخالفة في إثبات رؤية الله في الآخرة.

المسألة الأولى: رؤية الله في الدنيا يقظة.

رؤية الله في الدنيا يقظة غير واقعة شــرعًا، وغير مُمكنة، وقد اتفقت الأمةُ على أن الله تعالى لا يراه أحدٌ في الدنيا بعينه، ولم ينازعوا في ذلك إلا ما شَـــذَّ من بعض غُلاة الصُّـــوفية؛ فقد زعموا أنه يجوز رؤية الله في الدنيا، وأنه يَزورهم ويَزورونه في الحضـــرة الإلهية ويَرَوْنه [١]، وهؤلاء لا عبرة بخلافهم؛ إذ كله كذب ودجل.

ومَن ادَّعى رؤية الله في الدنيا بعيني رأسـه فدعواه باطلة باتفاق أهل السـنة والجماعة، وهو ضالٌّ.

---

(١) المِلل والنِّحَل للشَّهرستاني (١/ ١٠٥).

قال ابن تيمية-رحمه الله-(**ت: ٧٢٨ هـ**)، في ردِّه على مَن زعم رؤية الله في الدنيا يقظة: "مَن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضـــالٌّ، مُخالف للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، لا سيما إذا ادَّعوا أنهم أفضل مِن موسى، فإن هؤلاء يُستتابون، فإن تابوا وإلا قُتلوا".(١)

وقد بَيَّن-رحمه الله-علة عدم إمكان رؤية الله في الدنيا بالعين، حيث قال: "وإنَّما لم نَره في الدنيا لعجز أبصـارنا، لا لامتناع الرؤيا، فهذه الشـمس إذا حدق الرائي البصـر في شـعاعها ضـــعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرَّائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قُوى الآدميين حتى أطاقهم رؤيته، ولهذا لما تجلى الله للجبل خَرَّ موسى صعقًا، قال: ســـبحانك! تُبت إليك، وأنا أول المؤمنين بأنَّه لا يراك حيٌّ إلا مات، ولا يابس إلا تَدَهْدَه، ولهذا كان البشـر يَعجزون عن رؤية المَلَك في صـورته إلَّا مَن أيده الله، كما أيَّد نبينا صـلى الله عليه وسلم".(٢)

والأدلة التي اسـتند عليها أهل السـنة في إجماعهم على عدم وقوع رؤية الله في الدنيا يقظة-كثيرة؛ منها:

قول النبي-صلى الله عليه وسلم-كما في (صحيح مسلم): (**تَعَلَّمُوا أنَّه لن يرى أحدٌ مِنكم ربه-عز وجل-حتى يموت**)(٣)، فهو صـريح في عدم وقوع الرؤية البصـرية لأحد من الناس لله جل وعلا في هذه الدار الدنيا حتى ولو كان نبيًّا؛ لأن الله-جل وعلا-قد مَنع موســـى-عليه السـلام-مِن أن يَرَاه، وهو أحد أُولي العزم من الرسـل، فكيف بمن دونه مِن سـائر المؤمنين؟! فإن الله-جل وعلا-لما قال له موســـى: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] قال: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] فمنعه من أن يراه، وفي قوله: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ**

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٠٤).

(٢) (منهاج السنة النبوية) (٢/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٣١) من حديث عبد الله بن عمر-رضي الله عنه-.

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]، أي: لما تجلى الله للجبل تدكدك ولم يَثبت، فكيف يَثبت البشر الضعيف؟!

المسألة الثانية: رؤية الله-عز وجل-في المنام.

ذهب جمهور العلماء إلى جواز رؤية الله في المنام، وأنها قد تقع صحيحة، بل ذكر القاضي عياض-رحمه الله-اتفاق العلماء على هذه المسألة؛ فقال: "ولم يختلف العلماء في جواز صحة رؤية الله في المنام".(١)

وقال الإمام البَغوي-رحمه الله-(ت: ٥١٠ هـ): "رؤية الله في المنام جائزة؛ قال معاذ-رضي الله عنه-(**ت: ١٨ هـ**)، عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(إني نَعست فرأيت ربّي)** (٢)، وتكون رؤيته-جَلَّت قُدرته-ظهور العدل والفرج والخصب والخير لأهل ذلك الموضع، فإن رآه فوعد له جنة، أو مغفرة، أو نجاة من النار، فقوله حق، ووعده صدق، وإن رآه ينظر إليه فهو رحمته، وإن رآه معرضًا عنه فهو تحذير من الذنوب؛ لقوله سبحانه وتعالى: **﴿أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾** [آل عمران: الآية: ٧٧]، وإن أعطاه شيئًا من متاع الدنيا فأخذه، فهو بلاء ومحن وأسقام تصيب بدنه، يَعظم بها أجرُه، لا يَزال يضطرب فيها حتى يُؤديه إلى الرحمة، وحسن العاقبة".(٣)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ومن رأى الله-عز وجل-في المنام فإنَّه يراه في صورة من الصور بحسب حال الرَّائي؛ إن كان صالحًا رآه في صورة حسنة، ولهذا رآه النبي صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة...".(٤)

وقال في موضع آخر: "وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صورة متنوعة على قدر إيمانه

---

(١) إكمال المعْلِم بفوائد مُسلم (٧/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢١٦٢٨)، والترمذي في العلل الكبير (٤٣٥)، والحاكم في المستدرك (١٨٦٩)، والطبراني في الكبير (١٦١٠٣).

(٣) شرح السنة (١٢/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥١).

ويقينه، فإذا كان إيمانه صحيحاً لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يُشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق...".(١)

وقال الإمام ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾ [ص: الآية: ٦٩]: فأمَّا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: (... **فإذا أنا بربي-عز وجل-في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب). أعادها ثلاثًا، (فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء وعرفتُ**...)، فهو حديث المنام المشهور، ومَن جعله يقظة فقد غَلط، وهو في السُّنن من طرق".(٢)

المسألة الثالثة: رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج.

بعد اتفاق أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى لا يراه أحد في الدنيا يقظة فقد اختلفوا في رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج.

قال الإمام ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "**حكى عثمان بن سعيد الدارمي-رحمه الله-(ت: ٢٨٠ هـ)** في كتاب **(الرؤية)** له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك، وشيخنا-أي: ابن تيمية-يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه-ﷺ صلى الله عليه وسلم -رآه عز وجل، ولم يقل: بعيني رأسه، ولفظ أحمد لفظ ابن عباس-رضي الله عنهما-، ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر-رضي الله عنه- عن النبي-صلى الله عليه وسلم-في الحديث الآخر:

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٨١).

(حجابُه النُّورُ)[١]، فهذا النور هو-والله أعلم-النور المذكور في حديث أبي ذر-رضـــي الله عنه-: **(رأيتُ نُورًا)**".[٢] [٣]

وهو ما رجَّحه-أيضًـــا-شـــيخ الإســـلام في (مجموع الفتاوى)، حيث قال-رحمه الله-: "ولم يتنازعوا إلا في النبي-صـلى الله عليه وسـلم-خاصـة مع أن جماهير الأئمة على أنَّه لم يَرَه بعينه في الدنيا، وعلى هذا دَلَّت الآثار الصـحيحة الثابتة النبي-صـلى الله عليه وسـلم-والصـحابة وأئمة المســـلمين، ولم يثبت عن ابن عباس ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم قالوا: إن محمدًا رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهم إمَّا إطلاق الرؤية، وإمَّا تقييدها بالفؤاد، وليس في شـــيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه، وقوله: **(أتاني البارحةَ رَبِّي في أحسن صورة)**[٤] الحديث الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة في المنام هكذا جاء مفسرًا".[٥]

فحملوا الآثار المطلقة الواردة في الرؤية؛ كأثر ابن عباس: **(رأى محمدٌ ربَّه)** على الرؤية القلبية، وحملوا الآثار النافية للرؤية؛ كأثر عائشة-رضي الله عنها-على الرؤية البصرية؛ لأنه-من خلال التَّتبع-لم يَرِد عن أحد منهم أنه قال: رآه بعينه، وعليه فلا تعارض بين هذه النصوص.

المسألة الرابعة: رؤية الله-عز وجل-في الآخرة.

ورؤية الله تعالى هي أعظم النعيم وأعلاه، وغايته ومنتهاه، وهو لكل مؤمن اصـــطفاه، فهي أجل مسائل الدين وأشرفه.

قال ابن أبي العز الحنفي-رحمه الله-(ت:٧٩٢ هـ): "هذه المسألة من أشرف مسائل

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى-رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر-رضي الله عنه-.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (١/ ٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٥٧)، وأحمد (٣٣٠٤) وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩).

(٥) مجموع الفتاوى (١/ ١٦٩).

أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون".(١)

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بأن أهلَ الإيمان يرون ربهم يومَ القيامة كما وردت الأدلة بذلك

أولًا: الأدلة من القرآن:

- قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية: ٢٦]، فقد فسرت الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم.

قال أبو بكر الصديق–رضي الله عنه–(ت: ١٣ هـ): "النظر إلى وجه الله".(٢).

وقال قتادة–رحمه الله–(١١٨ هـ): "الحسني الجنة، والزيادة فيما بلغنا النظر إلى وجه الله".(٣)

وقال عامر بن سعد–رحمه الله–٩٦ هـ): "الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن".(٤)

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى–رحمه الله–(ت: ٨٣ هـ): "إذا دخل أهل الجنة الجنة قال لهم: إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه! قال: فيتجلى لهم. قال: فيصغر عندهم كل شيء أعطوه. قال: ثم قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية: ٢٦]، قال: ﴿الْحُسْنَى﴾ الجنة، والزيادة النظر إلى وجه ربهم، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة بعد ذلك".(٥)

قال البغوي–رحمه الله–(ت: ٥١٦ هـ): "للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسني، وهي

(١) شرح الطحاوية للقاضي ابن أبي العز (١/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٥٦ و١٦١) ونسبه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٠٦) إلى ابن أبي شيبة، وابن خزيمة، وابن المنذر، وأبي الشيخ، والدارقطني، وابن منده في الرد على الجهمية، واللالكائي والآجري، والبيهقي.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١٧٤ رقم ١١٥٥).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٥٧).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٥٩).

الجنة، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هذا قول جماعة من الصـــحابة، منهم أبو بكر الصـــديق-رضـــي الله عنه-(**ت: ١٣ هـ**)، وحذيفة-رضـــي الله عنه-(**ت: ٣٦ هـ**)، وأبو موسـى--رضـي الله عنه-(**ت: ٤٢ هـ**)، وعبادة بن الصـامت-رضـي الله عنه-(**ت: ٣٤ هـ**)، وهو قول الحســـن-رحمه الله-(**ت: ١١٠ هـ**)، وعكرمة-رحمه الله-(**ت: ١٠٥ هـ**) وعطاء-رحمه الله-(**ت: ١١٤ هـ**)، ومقاتل-رحمه الله-(**ت: ١٥٠ هـ**)، والضـــحاك-رحمه الله-(**ت: ٦٤ هـ**)، والسدي-رحمه الله-(**ت: ١٢٨ هـ**)".(١)

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "للذين أحسـنوا العمل في الدنيا لهم الحسـني وهي الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، وهو قول جماعة من التابعين، وهو الصـحيح في الباب".(٢)

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "وقد ورد هذا عن أبي بكر الصـديق وعلي بن أبي طالب في راوية، وحذيفة وعبادة بن الصامت وكعب بن عجرة وأبي موسى وصهيب وابن عباس في رواية، وهو قول جماعة من التابعين، وهو الصحيح في الباب.

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى تريدون شـيئا أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟! قال فيكشـف الحجاب فما أعطوا شـيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل. وفي رواية ثم تلا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَـنُواْ الْحُسْـنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية: ٢٦]**)(٣)"(٤)

- قوله تعالى: ولدينا مزيد **﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾** [ق: الآية: ٣٥] فقد

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٤/ ١٣٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٨٣٠) باختصار.

(٣) رواه مسلم (١٨١).

(٤) تفسير القرطبي (٨/ ٣٣٠).

فسر المزيد في هذه الآية بأنه النظر إلى الله تعالى كالآية السابقة،

قال أنس-رضي الله عنه-(ت: ٩٣ هـ)، في قول الله تعالى: ﴿**وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ قال: "يتجلى لهم كل جمعة".[(١)]

وقال الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): "يقول: وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكرامة التي وصف جل ثناؤه صفتها مزيد يزيدهم إياه وقيل: إن ذلك المزيد: النظر إلى الله جل ثناؤه".[(٢)]

قال ابن كثير-رحمه الله-(**ت: ٧٧٤ هـ**): "إن المزيد الذي يتفضل الله به على عباده فوق ما يشاءون هو ظهوره تعالى لهم".[(٣)] وبهذا فسر الآية ابن جرير الطبري والقرطبي وغيرهما ودلالتها عن الرؤية كالآية السابقة.

- قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣]، ووجه الاستدلال بالآية على الجواز ما نقل أن ﴿**نَاظِرَةٌ**﴾ أي رائية رؤية بصرية يوم القيامة كما قال أهل السنة والجماعة.

عن عكرمة-رحمه الله-(ت: ١٠٥ هـ) قال: "تنظر إلى ربها نظرًا".[(٤)]

وقال عكرمة وإسماعيل بن أبي خالد وأشياخ من أهل الكوفة: "تنظر إلى ربها نظرًا".[(٥)]

وعن الحسن-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ) قال: "تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم: ٩٤)، والدارمي في الرد على الجهمية (رقم: ١٩٨)، والبزار في مسنده (رقم: ٧٥٢٨)، وقال: "وعثمان صالح وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أنس بهذا اللفظ إلا عثمان بن عمير أبو اليقظان". وبنحوه رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٥١٩ رقم: ٨١٣). قال ابن تيمية: "إسناده صحيح" مجموع الفتاوى (٦/ ٤١٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٥٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٠٧).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٠٧).

تنظر إلى الخالق".[(١)]

قال الواحدي-(**ت: ٤٦٨ هـ**): "قال ابن عباس-رضـــي الله عنهما-(**ت: ٦٨ هـ**)، في رواية عطاء-رحمه الله-(**ت: ١١٤ هـ**): "يريد إلى الله ناظرة ،"وقال في رواية الكلبي: "تنظر إلى الله يومئذ، لا تحجب عنه ،"وقال مقاتل: "تنظر إلى ربها معاينة[(٢)]

قال الطبري-رحمه الله-(**ت: ٣١٠ هـ**): "الصـــواب القول الذي ذكرناه عن الحســـن وعكرمة، من أن معنى ذلك تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ[(٣)]

وقال الزجاج-رحمه الله-(**ت: ٣٤٠ هـ**): "نضرت بنعيم الجنة والنظر إلى ربها[(٤)]

وقال السمعاني-رحمه الله-(**ت: ٤٢٦ هـ**): "قوله: ﴿**نَاظِرَةٌ**﴾ بالضاد أي: مسرورة طلقة هشــة بشــة، والنضــرة: هي النعمة والبهجة في اللغة. وقوله: ﴿**إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ هو النظر إلى الله تعالى بالأعين، وهو ثابت للمؤمنين في الجنة بوعد الله تعالى وبخبر الرسول[(٥)]

- **قال أبو الحسن الأشعري**-رحمه الله-(**ت: ٣٢٤ هـ**): "قال الله عز وجل: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ**﴾ [القيامة: الآية: ٢٢]، يعني: (**مشرقة**) إِلَى ﴿**رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: الآية: ٢٣] يعنى: رائية، ولا يجوز أن يكون بمعنى نظر التفكر والاعتبار لأن الآخرة ليست بدار الاعتبار، ولا يجوز أن يكون عني نظر الانتظار لأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه".[(٦)]

- قوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: الآية: ١٥].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٠٧).

(٢) انظر: التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٠٩) بتصرف.

(٤) انظر: معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج (٥/ ٢٥٣).

(٥) انظر: تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٦/ ١٠٦).

(٦) الإبانة عن أصول الديانة (ص: ١٢).

قال الحسن-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ): "في قوله: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: الآية: ١٥]، قال: يكشف الحجاب، فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون. كل يوم غدوة وعشية".[١]

وعن أشهب بن عبد العزيز-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)، صاحب مالك قال: قال رجل لمالك: يا أبا عبد الله هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة؟ قال: "لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب، فقال: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: الآية: ١٥]".[٢]

وقال الإمام الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ) في قول الله تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: الآية: ١٥]، قال: "فلا حجبهم في السخط: كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا".[٣]

وقال الربيع بن سليمان-رحمه الله-(ت: ٢٧٠ هـ): "كنت ذات يوم عند الشافعي-رحمه الله-(**ت: ٢٠٤ هـ**)، وجاءه كتاب من الصعيد -وهو اسم موضع بمصر-يسألونه عن قول الله جل ذكره: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: الآية: ١٥] الآية. فكتب فيه: لما حجب الله قوما بالسخط، دل على أن قوما يرونه بالرضا. قال الربيع: قلت له: أو تدين بهذا يا سيدي؟ فقال: والله لو لم يوقن محمد ابن إدريس أنه يرى ربه في الميعاد لما عبده في الدنيا".[٤]

وقال الزجاج-رحمه الله-(ت: ٣٤٠ هـ): "وفي هذه الآية دليل على أن الله يرى في الآخرة، لولا ذلك لما كان في هذه الآية فائدة، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٣٥١).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٦٨ رقم: ٨٠٨).

(٣) انظر: أحكام القرآن للشافعي، جمع الإمام البيهقي (١/ ٤٠).

(٤) انظر مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤١٩).

الله-تعالى-وقال تعالى في المؤمنين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢ - ٢٣] فأعلم الله-تعالى-أن المؤمنين ينظرون إلى الله، وأن الكفار يحجبون عنه".(١)

أما الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر لقيا الله تعالى في الآخرة مثل:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ [البقرة: الآية: ٢٢٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية: ٢٤٩].

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: الآية: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية: ١١٠].

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "أجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: الآية: ٧٧] فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة، بل والكفار أيضا كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة".(٢)

قال أبو العباس أحمد بن يحي المشهور بثعلب-رحمه الله-(ت: ٢٩١ هـ): في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾. [الأحزاب: الآية: ٤٤]. "أجمع أهل اللغة أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظرا بالأبصار".(٣)

ثانيًا: الأدلة من السنة:

---

(١) انظر: معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج (٥/ ٢٩٩).

(٢) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (١/ ٦٠٨).

(٣) انظر: الإبانة الكبرى لابن بطة (٧/ ٦٢).

١-**حديث عمار بن ياسر-رضي الله عنهما-(ت: ٣٧ هـ)**، حين سمع النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء: (**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**)(١)

٢ - **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٩ هـ)**، أن أناسا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: (**هل تضارون في القمر ليلة البدر؟**). قالوا: لا. قال: (**فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**). قالوا: لا. قال: (**فإنكم ترون ربكم يوم القيامة كذلك. . .**)(٢)

٣ - **عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري-رضي الله عنه-(ت: ٤٤ هـ)**: أن رسول الله ﷺ قال: (**جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر، على وجهه في جنة عدن**)(٣)

٤ - **عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)**، قال: قلنا يا رسول الله: هل نرى ربنا-عز وجل-؟ قال: (**هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة في غير سحاب؟**). قال: قلنا: لا، قال: (**هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر في غير**

---

(١) أخرجه النسائي (رقم: ١٣٠٥)، وابن حبان (رقم: ١٩٧١)، والطبراني في كتاب الدعاء (رقم: ٦٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم: ٤٢٥)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٩)، والدارمي في الرد على الجهمية (رقم: ١٨٨)، وتمام الرازي في فوائده (٢/ ١٤٧ رقم: ١٣٨٧)، والدارقطني في كتاب رؤية الله (رقم: ١٥٨)، والحاكم في المستدرك (رقم: ١٩٢٣) وصححه، ووافقه الذهبي، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٤٠ رقم: ٨٤٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (رقم: ٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم: ٦٥٧٣)، ومسلم (رقم: ٢٩٩) وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري (رقم: ٤٨٧٨) ومسلم (رقم: ١٨٠) وغيرهما.

ســحاب؟). قال: قلنا: لا، قال: (**فإنكم لا تضــارون في رؤيته لك يوم القيامة إلا كما لا تضارون في رؤيتهما**)[(١)]

٥-**وعن جرير بن عبد الله-رضــي الله عنه-(ت: ٥٤ هـ)**، قال: قال النبي-صــلى الله عليه وسلم-: (**إنكم سترون ربكم عيانا**) [(٢)].

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وأما الأحاديث عن النبي-صــلى الله عليه وســلم-وأصــحابه الدالة على الرؤية فمتواترة رواها عنه أبو بكر الصــديق، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجرير بن عبد الله البجلي، وصهيب بن سنان الرومي، وعبد الله بن مسعود الهذلي، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وعدي بن حاتم الطائي، وأنس بن مالك الأنصاري، وبريدة بن الخصيب الأسلمي، وأبو رزين العقيلي، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو أمامة الباهلي، وزيد بن ثابت، وعمار بن ياسر، وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وعمارة بن رويبة، وســلمان الفارســي، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص وحديثه موقوف، وأبي بن كعب، وكعب بن عجرة، وفضالة بن عبيد وحديثه موقوف، ورجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم غير مسمى. فهناك سياق أحاديثهم من الصــحاح والمســانيد والســنن وتلقها بالقبول والتســليم، وانشــراح الصــدر لا بالتحريف والتبديل وضــيق الطعن ولا تكذب بها فمن كذب بها لم يكن إلى وجه ربه من الناظرين وكان عنه يوم القيامة من المحجوبين".[(٣)] ثم ذكر بعد ذلك سياق الأحاديث بكاملها.

قال الشــيخ محمد الأمين الشــنقيطي-رحمه الله-(ت: ١٣٩٣ هـ): "تواترت الأحاديث الصحاح في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد والأجزاء عن نحو من عشرين صحابيا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم: ٧٤٣٩) والإمام أحمد في مســنده (رقم: ١١١٢٠) وابن ماجه (رقم: ١٧٩) وابن حبان (رقم: ٧٣٧٧) وابن أبي عاصم في كتاب السنة (رقم: ٤٥٢) وابن منده في كتاب الإيمان (رقم: ٨١٧) والدارقطني في كتاب رؤية الله (رقم: ١٠) وابن النحاس في كتاب رؤية الله (رقم: ٥).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٥).

(٣) حادي الأرواح (ص: ٢٣١).

كرامـاء فضـــلاء عن النبي ﷺ، أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامـة، ولا يكـاد ينـازع من لـه إنصاف في تواتر أحاديث رؤية الله يوم القيامة".(١)

وقد نظم ذلك بعض العلماء (٢) فقال:

مما تواتر حديث من كذب ... ومن بنى لله بيتا واحتسب

ورؤية شفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذى بعض

ثالثًا: دليل الإجماع.

أجمع سلف الأمة وأئمتها من الصحابة-رضي الله عنهم-، ومن بعدهم على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة، رؤية حقيقة بالأبصار عيانا، كما ورد في الكتاب والسنة.

وحكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة رحمه الله تعالى.

قال الإمام ابن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): "رؤية المؤمنين ربهم لـك يوم القيامة، وهو ديننا الذي ندين الله به، وأدركنا عليه أهل الســنة والجماعة، فهو: أن أهل الجنة يرونه على ما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ".(٣)

وقال أبو الحســن الأشـعري-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ): "وأجمعوا على أن المؤمنين يرون الله-عزوجل-يوم القيامة بأعين وجوههم على ما أخبر به تعالى في قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِـرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣] وقد بين معنى ذلك النبي ﷺ ودفع كل إشكال فيه بقوله للمؤمنين: "ترون ربكم عيانا".(٤)

وقال ابن أبي زمنين المالكي-رحمه الله-(ت: ٣٩٩ هـ): "قول أهل الســـنة: إن المؤمنين

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٤/ ١٥٠).

(٢) نظم المتناثر من الحديث المتواتر لمحمد بن جعفر الكتاني (ص: ١٨).

(٣) انظر: صريح السنة للطبري (ص: ٢٠).

(٤) انظر: رسالة إلى أهل الثغر للأشعري (ص: ١٣٤).

يرون ربهم في الآخرة وأنه يحتجب عن الكفار والمشركين فلا يرونه".(١)

وقال ابنُ القيِّم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "دلَّ الكتابُ والسنَّةُ المتواتِرَةُ وَإجماعُ الصَّحابةِ وأئمةُ أهلِ الإسلامِ والحديثِ عَلَى أَنَّ اللهَ يُرى يومَ القيامَةِ بِالأبصارِ عِيَانًا، كَمَا يُرى القَمَرُ ليلةَ البدرِ صَحْوًا، وَكَمَا تُرى الشَّمسُ في الظَّهيرة، فَإن كَانَ مَا أَخبَرَ به اللهُ وَرَسُوله عنه من ذلك حَقِيقَةً-وإنَّ له والله حقَّ الحقيقة-فَلَا يُمكِنُ أن يَروهُ إِلَّا مِن فَوقِهِم؛ لاستِحَالَةِ أَن يَروهُ أسفل منهم، أو مِن خلفهم، أَو أمامهم، وَنَحو ذَلِكَ...، فلَا يَجتَمِعُ فِي قَلبِ العبد بعد الاطلاع عَلَى هَذِهِ الأَحَادِيث وَفَهِمَ مَعنَاهَا إنكارُها والشهادةُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ أَبَدًا".(٢)

رابعًا: دليل العقل.

العقل لا يمنع رؤية الله تعالى، لأن كل موجود صح وجوده وثبت كانت رؤيته ممكنة، وما كانت رؤيته ممتنعة أو متعذرة فهو المعدوم، وكذلك إذا كانت الرؤية إنها تثبت للشيء لكماله، فالله تعالى أولى بالكمال فتكون الرؤية في حقه تعالى أولى، ورؤيته تعالى في الدنيا عيانا ممتنعة لضعف الإنسان وعجزه، أما في الآخرة فهي ثابتة متحققة.

قال النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلا وأجمعوا أيضا على وقوعها في الآخرة وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحو من عشرين صحابية عن رسول الله ﷺ وآيات القرآن فيها مشهورة"(٣)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "معلوم أن الرؤية تعلق بالموجود دون المعدوم، ومعلوم أنها أمر وجودي محض لا يسيطر فيها أمر علمي وإذا كانت أمرا وجوديا محضا، ولا

(١) انظر: أصول السنة لابن أبي زمنين (ص: ١٢٠).
(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٣٤٢).
(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (٣/ ١٥).

تتعلق إلا بالموجود فالمصحح لها الفارق بين ما يمكن رؤيته وما لا يمكن رؤيته: إما أن يكون وجودا محضا، أو متضمنا أمرا عدميا. والثاني باطل لأن العدم لا يكون له تأثير في الوجود المحض فلا يكون سببا له، ولا يكون أيضا شرطا أو جزءا من السبب إلا أن يتضمن وجودا فيكون ذلك الوجود هو المؤثر في الوجود ويكون ذلك العدم دليلا عليه ومستلزما له ونحو ذلك، وهذا من الأمور البينة عند التأمل. وإذا كان المقتضي جواز الرؤية، والمصحح للرؤية، والفارق بينما تجوز رؤيته وبينما لا تجوز: إما أن يكون وجودا محضا فلا حاجة بنا إلى تعيينه، سواء قيل هو مطلق الوجود أو القيام بالنفس، أو بالعين بشرط المقابلة والمحاذاة، أو غير ذلك مما يقال إنه مع وجوده تصح الرؤية ومع عدمه تمتنع، لكن المقصود أنه أمور وجودية، وإذا كان كذلك فقد علم أن الله تعالى هو أحق بالوجود، وكماله من كل موجود، إذ وجوده هو الوجود الواجب، ووجود كل ما سواه هو من وجوده، وله الكمال التام في جميع الأمور الوجودية المحضة فإنها هي الصفات التي بها يكون كمال الوجود، وحينئذ فيكون الله – وله المثل الأعلى– أحق بأن تجوز رؤيته لكان وجوده، ولكن لم نره في الدنيا لعجزنا عن ذلك وضعفنا كما لا نستطيع التحديق في شعاع الشمس".(١)

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "إن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجودا كان أحق بأن يرى، فالباري سبحانه أحق بأن يرى من كل ما سواه؛ لأن وجوده أكمل من وجود كل ما سواه، يوضحه: أن تعذر الرؤية: إما خفاء المرئي، وإما لآفة وضعف في الرائي، والرب سبحانه أظهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه، فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة الباصرة في غاية القوة لأنها دائمة فقويت على رؤيته تعالى، وإذا جاز أن يرى سبحانه فالرؤية المعقولة عند جميع بني آدم عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم أن يكون المرئي مقابلا للرائي مواجهة له مباينا عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وإذا كانت الرؤية مستلزمة لمواجهة الرائي ومباينته

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٣٠ – ٤٣٢) باختصار.

للمرئي لزم ضـــرورة أن يكون مرئيا له من فوقه أو من تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو خلفه أو أمامه، وقد دل النقل الصريح على أنهم إنما يرونه سبحانه من فوقهم لا من تحتهم".(١)

ومسألة رؤية الله عز وجل في الآخرة على أقسام:

القسم الأول: رؤية المؤمنين لربِّهم -جل وعلا-:-

فالمؤمنون يرونَهُ ســبحانه وتعالى يومَ القيامةِ؛ فَمَنِ لَم يُؤمن بِأَنَّهُ -ســبحانه- يُرَى يومَ القيامةِ فَقَد رَدَّ أَدِلَّةَ الكتابِ والسُّنَّةِ، وَخَالَفَ مَا عَلَيهِ سَلفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتها، وَلَم يُؤمن بِاللهِ، وَمَلائكتِهِ، وكتبِهِ، وَرسلِهِ.

فالله ســبحانه وتعالى ســيخص المؤمنين بمزيد من الإنعام يوم القيامة، وهو رؤيته جل وعلا، فقد روى **أبو هريرة رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)** أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله: **(هَل تُضَـارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟)**. قالوا: لا يا رسول الله. قال: **(هل تُضـارون في الشَّـمس ليس دونها سـحاب؟)**. قالوا: لا. قال: **(فإنَّكم ترونه كذلك...)**، الحديث(٢)

وسـيخصـهم في الجنة بأعظم نعمة أنعم عليهم بها؛ ألا وهي تشـريفهم وإكرامهم بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن، كما قال تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِـــرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: الآيات:٢٢، ٢٣].

وقـال تعـالى عن الكـافرين: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: الآيـة: ١٥].

قال الإمامُ الشـافعيُّ-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "فَدَلَّ هذا على أنَّ المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالى".

وقال جل شأنه: ﴿**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ [ق: الآية: ٣٥].

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٤/ ١٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٨٨) ومسلم (٢٦٧).

فالمزيد هنا هو: النَّظر إلى وجه الله عز وجل، كما فسَّره بذلك علي (**ت: ٤٠ هـ**)، وأنس بن مالك (**ت: ما بين ٩٠ و٩٣ هـ**)، -رضي الله عنهما-.

وقال سبحانه: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ [يونس: الآية: ٢٦].

فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، كما فسَّرها بذلك رسول الله ﷺ بقوله: (**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ! فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا اعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِم مِن النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وهي الزيادة، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾**)(١)

قال الإمام ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "وأمَّا السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه. آمين".(٢)

القسم الثاني: رؤية الكفار والمنافقين لربِّهم جل وعلا.

أَمَّا الكفارُ والمنَافِقِينَ، فَقَد **ذكر ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)** أنَّ الناسَ قد تَنَازَعوا في ذلك على ثَلَاثَةِ أَقوالٍ؛ فقال: "فَأَمَّا مَسْأَلَةُ رُؤْيَةِ الكُفَّارِ فَأَوَّلُ مَا انْتَشَرَ الكَلَامُ فِيهَا، وَتَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا-فِيمَا بَلَغَنَا-بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ مِن الهِجْرَةِ، وَأَمْسَكَ عَن الكَلَامِ فِي هَذَا قَوْمٌ مِن العُلَمَاءِ، وَتَكَلَّمَ فِيهَا آخَرُونَ؛ فَاخْتَلَفُوا فِيهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، مَعَ أَنِّي مَا عَلِمْت أَنَّ أُولَئِكَ المخْتَلِفِينَ فِيهَا تَلَاعَنُوا وَلَا تَهَاجَرُوا فِيهَا؛ إذْ فِي الفِرَقِ الثَّلَاثَةِ قَوْمٌ فِيهِمْ فَضْلٌ، وَهُمْ أَصْحَابُ سُنَّةٍ".

ثم قال رحمه الله: "وَالأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ فِي **(رُؤْيَةِ الكُفَّارِ)**:

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦) من حديث صُهَيْبٍ-رضي الله عنه-.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٩).

أَحَدُهَا: أَنَّ الكُفَّارَ لَا يَرَوْنَ رَبَّهُمْ بِحَالٍ؛ لَا المظْهِرُ لِلكُفْرِ، وَلَا المسِــرُّ لَه، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ المتَأَخِّرِينَ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ عُمُومُ كَلَامِ المتَقَدِّمِينَ، وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ أَصْــحَابِ الإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ.

الثَّانِي: أَنَّهُ يَرَاهُ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ مِنْ مُؤْمِنِي هَـذِهِ الأُمَّةِ، وَمُنَافِقِيهَا، وَغَبَرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَذَلِكَ فِي عَرْصَــةِ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ المنَافِقِينَ، فَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي بَكْرِ بْنِ خُزَيْمَةَ مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّـنَّةِ، وَقَدْ ذَكَرَ القَاضِـي أَبُو يَعْلَى نَحْوَهُ فِي حَدِيثِ إِتْيَانِهِ-عز وجل-لَهُمْ فِي المَوْقِفِ؛ الحَدِيث المشْهُور.

الثَّالِثُ: أَنَّ الكُفَّارَ يَرَوْنَهُ رُؤْيَةَ تَعْرِيفٍ وَتَعْذِيبٍ؛ كَاللِّصِّ إِذَا رَأَى السُّــلطَانَ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ؛ لِيَعْظُمَ عَذَابُهُمْ، وَيَشْتَدَّ عِقَابُهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الحَسَنِ بْنِ سَالِمٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَوْلِ غَيْرِهِمْ؛ وَهُمْ فِي الأُصُولِ مُنْتَسِبُونَ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِلَى سَهْل بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتري".(١)

ومِمَّن رَجَّحَ رؤيَةَ الكُفَّارِ وَالمنَافِقِينَ للهِ فِي عَرَصاتِ القيامةِ **ابنُ القيِّم**-**رحمه الله**-(**ت**: **٧٥١ هـ**) فِي (حادي الأرواح".(٢)

أما أهل الكفر فكما قالَ الله ســبحانه وتعالى عنهم: ﴿**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُون**﴾ [المطفِّفين: الآية: ١٥]، فيُحجبون عن رؤية الله عز وجل، ولا شك أن أعظم عطاءٍ يُعطاه المؤمن؛ النظرُ إلى وجهه الكريم.

ولذلك أحد الصــحابة لما سمعَ ذلك قال: "لن نعدِم من ربٍ يضــحكُ خيرا".(٣) فالله سبحانه وتعالى سيتجلَّى لعباده المؤمنين وسيرونه، وهذه الرؤية منها ما يكون في عرصاتِ يوم القيامة، ومنها ما يكون بعد دخولهم الجنة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٨٦).

(٢) حادي الأرواح (ص: ٢٦٢).

(٣) انظر سنن ابن ماجه برقم (١٨١)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمَدَنِيِّينَ (١٦١٨٧)، ذكره الشيخ الالباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٧٣٢)، وضعفه الأرنؤوط كما في المسند.

فمن عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعة أن رؤية الله عز وجل ثابتة بنصوصِ القرآن والسنَّة، فنؤمنُ بها ونصدِّقُ بها كما أخبرت بذلك النصوص.

المسألة الخامسة: الفرق المخالفة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة[(١)]

أولًا: أقوال المخالفين.

خالف في ذلك فرقتان من فرق الضلال، وقد تفرقوا إلى ثلاث فرق، وهي كما يلي:

الفرقة الأولى: المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والزيدية والمرجئة، ذهبوا إلى نفي رؤية الله تعالى في الآخرة، وحرفوها إلى معنى العلم به ومعرفته تعالى.

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "ومما يجب نفيه عن الله تعالى الرؤية".[(٢)]

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "الرؤية بالأبصار على الله تستحيل، والرؤية بالمعرفة والعلم تجوز عليه".[(٣)]

وعندهم أن من زعم أن الله يرى بالأبصار فهو مشبه لله بخلقه، والمشبه عندهم كافر بالله تعالى[(٤)]

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "أعلم أن من خالفنا في هذه المسألة لا يخلو حاله من أحد أمرين: إما أن يحقق الرؤية فيقول: إن الله يرى بلا مقابل لنا أو حالا في المقابل أو في حكم المقابل، أو لا يحقق فيقول: إنه تعالى يري بلا كيف، فمن ذهب إلى المذهب الأول فإنه يكون كافرا؛ لأنه جاهل بالله تعالى، والجهل كفر، والدليل على ذلك إجماع الأمة، وإجماع الأمة حجة. ومن قال: إنه تعالى يري بلا كيف فلا يكفر؛ لأن التكفير

---

(١) المصدر: مقدمة تحقيق كتاب صفات رب العالمين لابن المحب الصامت (١/ ١٩٩-٢٥٣).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٣٢).

(٣) انظر: المختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٣٣٧).

(٤) انظر: الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد (ص: ٦٨).

إنما يعرف شرعًا، ولا دلالة من جهة الشرع يدل على ذلك".(١)

الفرقة الثانية: وهم جمهور الأشاعرة المتأخرون، فقد ذهبوا إلى القول بأن الله يرى بلا جهة، فأثبتوا رؤية الله في الآخرة لورود النصـــوص والإجماع على ذلك، لكنهم جعلوا ذلك إلى غير جهة(٢)

الفرقة الثالثة: وذهب بعض الأشـاعرة إلى القول بأن المقصـود بالرؤية هو: "نوع إدراك هو كمال ومزيد كشف بالإضافة إلى التخيل".(٣)

فجعلوا حقيقة الرؤية كشف وزيادة علم بالله تعالى.

ثانيًا: شبه المخالفين والرد عليها.

أولًا: الأدلة الشرعية التي استدل بها المعتزلة ومن وافقهم على نفي رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

استدل المعطلة على مذهبهم بعدة أدلة من القرآن الكريم وهي:

١ - قوله تعـالى: ﴿**لَّا تُـدْرِكُـهُ الْأَبْصَـــارُ وَهُوَ يُـدْرِكُ الْأَبْصَـــارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣].

وجه الدلالة: أن الإدراك إذا قرن بالبصـــر لا يحتمل إلا الرؤية، وثبت أنه تعالى نفي عن نفسـه إدراك البصـر، ونجد في ذلك تمدحا راجعا إلى ذاته، وما كان من نفيه تمدحا راجعا إلى ذاته كان إثباته نقصا، والنقائص غير جائزة على الله تعالى في حال من الأحوال(٤)

وقالوا أيضـــا: أنه نفى أن يدرك بالأبصـــار، وقد علمنا أن الإدراك إذا قرن بالبصـــر أفاد ما تفيده رؤية البصـــر، وإذا كان إذا أطلق فقد يســتعمل بمعنى اللحوق، فيقال: أدرك الغلام إذا

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٧٦ - ٢٧٧).

(٢) انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني (ص: ١٧٧ و١٧٨).

(٣) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي (ص: ٤٥).

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٣٣).

بلغ، وأدركت الثمرة إذا نضجت، وأدرك فلان فلانة إذا لحقه، وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ [يونس: الآية: ٩٠] يعني: لحقه الغرق، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: الآية: ٦١] يعني: لملحوقون، وقد يقال عند الإطلاق: أدركت الحرارة والبرودة وأدركت الصوت، وكل ذلك إنما يصح إذا لم يقرن بالبصر، ومتي قرن به زال الاحتمال عنه، فاختص بفائدة واحدة وهي الرؤية بالبصر، فإذا صح ذلك فيجب أن يكون: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣]، في باب الدلالة على أنه لا يرى، بمنزلة قوله لو قال: "لا تراه الأبصار"، فثبت أنه نفى عن نفسه إدراك البصر فيتناول جميع الأبصار في جميع الأوقات، يبين ما ذكرناه: أنه لا فرق بين قولهم: أدركت ببصري هذا الشخص، وبين قولهم: رأيت ببصري هذا الشخص، أو أبصرت ببصري هذا الشخص، حتى لو قال: أدركت ببصري وما رأيت، أو رأيت وما أدركت لعد متناقضة، ومن علامات اتفاق اللفظين في الفائدة أن يثبتا في الاستعمال معا ويزولا معا، حتى لو أثبت بأحدهما ونفى بالآخر لتناقض الكلام(١)

قالوا: ومما يؤيد العموم **أن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)**، لما أنكرت قول ابن عباس في أن محمدا–صلى الله عليه وسلم–رأى ربه ليلة المعراج تمسكت في نصرة ما ذهبت إليه بهذه الآية، ولو لم تكن هذه الآية مفيدة للعموم بالنسبة إلى كل الأشخاص وكل الأحوال لما تم ذلك الاستدلال، ولا شك أنها من أكثر الناس علما بلغة العرب، فثبت أن هذه الآية دالة على النفي بالنسبة إلى كل الأشخاص وذلك يفيد المطلوب.

وأيضا: إن الباري تعالى تمدح بكونه لا يرى، حيث إن قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣]، وقعت في أثناء المدائح فإن ما قبلها مشتمل على المدح والثناء، وقوله بعدها: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣]، أيضا مدح وثناء، فيجب أن يكون قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣]، مدحا وثناء، وذلك يوجب الركاكة،

---

(١) انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار المعتزلي (٤/ ١٤٤) وشرح الأصول الخمسة له أيضا (ص: ٢٣٤).

وهي غير لائقة بكلام الله تعالى وتقدس، وحينئذ نقول: إن كل ما كان عدمه مدحا ولم يكن ذلك من باب الفعل كان ثبوته نقصـــا في حق الله تعالى، والنقص على الله تعالى محال،لقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥] وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١] وقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: الآية: ٣] إلى غير ذلك، فوجب أن يقال: كونه تعالى مرئيا محال[(١)]

٢ – قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣].

قالوا: دلت هذه الآية على عدم رؤية الله تعالى على التأبيد في الدنيا والآخرة، وأنه مما يمتنع على الله–عز وجل–، وذلك لما يلي:

الوجه الأول: قال تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]، وكلمة "لن" تفيد النفي على التأبيد، قال الزمخشري: "إنها لتأكيد النفي الذي تعطيه لا، وذلك أن "لا" تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غدا، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غدا، والمعنى أن فعله ينافي حالي، كقوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: الآية: ٧٣] فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] نفي للرؤية فيها يستقبل، و ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]، تأكيد وبيان؛ لأن النفي مناف لصفاته.

فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]، بما قبله؟

قلت: اتصل به على معنى: "أن النظر إلى محال فلا تطلبه، ولكن عليك بنظر آخر وهو أن

---

(١) انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار المعتزلي (٤/ ١٥٠)، وشرح الأصول الخمسة له أيضا (ص: ٢٣٥ – ٢٣٧)، وتفسير الرازي (١٣/ ٩٩).

تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله، دكا بسبب طلبك الرؤية؛ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره "كأنه عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: الآيات ٩٠-٩١]".(١)

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "ولن موضوعة للتأبيد، فقد نفى أن يكون مرئيا البتة، وهذا يدل على استحالة الرؤية عليه، فإن قالوا: أليس أنه تعالى قال حاكيا عن اليهود: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: الآية: ٩٥] أي: لا يتمنون الموت، ثم قال حاكيا عنهم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: الآية: ٧٧]: فكيف يقال إن لن موضوعة للتأبيد؟

قلنا: إن "لن" موضوعة للتأبيد، ثم ليس يجب أن لا يصح استعماله إلا حقيقة، بل لا يمتنع أن يستعمل مجازا، وصار الحال فيها كالحال في قولهم: أسد وخنزير وحمار، فكما أن موضعها وحقيقتها لحيوانات مخصوصة ثم تستعمل في غيرها على سبيل المجاز والتوسع، واستعمالهم في غيرها لا يقدح في حقيقتها كذلك ههنا".(٢)

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] ووجه الدلالة: أنه علق الرؤية حال تحركه وتدكدكه لا قبل ذلك.

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ): "علق الرؤية باستقرار الجبل فلا يخلو: إما أن يكون علقها باستقراره بعد تحركه وتدكدكه، أو علقها به حال تحركه، لا يجوز أن تكون الرؤية علقها باستقرار الجبل؛ لأن الجبل قد استقر ولم ير موسى ربه، فيجب أن يكون قد علق ذلك باستقرار الجبل بحال تحركه، دالا بذلك على أن الرؤية مستحيلة عليه،

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٤).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٦٤ - ٢٦٥).

كاســتحالة اســتقرار الجبل حال تحركه، ويكون هذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: الآية: ٤٠]".[١]

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] فلو كانت الرؤية جائزة ممكنة لم يخر موسى صعقا عند طلبه لها.

قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "وخر موسى صعقا من هول ما رأى، ومعناه: خر مغشيا عليه غشية كالموت، وروي أن الملائكة مرت عليه وهو مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة".[٢]

الوجه الرابع: قوله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] قالوا: فهذا تنزيه لله تعالى عما لا يجوز عليه وهو الرؤية، فقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ الكلمة للتنزيه، فوجب أن يكون المراد منه تنزيه الله تعالى عما تقدم ذكره، والذي تقدم ذكره هو رؤية الله تعالى. فكان قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها له عن الرؤية، فثبت بهذا أن نفي الرؤية تنزيه لله تعالى، وتنزيه الله إنما يكون عن النقائص والآفات وذلك على الله محال فثبت أن الرؤية على الله ممتنعة[٣]

قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ): "فلما أفاق من صعقته قال: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها".[٤]

الوجه الخامس: قوله تعالى: عن موسى -عليه السلام-: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] قالوا: ولولا أن طلب الرؤية ذنب لما تاب منه، ولولا أنه

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٦٥).

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٤).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٣٥٧).

(٤) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٥).

ذنب ينافي صحة الإسلام لما قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣](١)

قال الزمخشـــري (ت: ٥٣٨ هـ): "تبت إليك من طلب الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]، بأنك لست بمرئي ولا تدرك بشيء من الحواس، فإن قيل: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمم تاب؟ قلت: من إجرائه تلك المقالة العظيمة -وإن كان لغرض صحيح- على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى".(٢)

٣ - أن الله تعالى ما ذكر سؤال الرؤية إلا استعظمه، وذلك في آيات، وهي:

١ - قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: الآية: ١٥٣] فسمي ذلك ظلما وعاقبهم في الحال، فلو كانت الرؤية جائزة لجرى سؤالهم لها مجرى من يسأل معجزة زائدة، فإن قلت: أليس إنه-عز وجل-قد أجرى إنزال الكتاب من السماء مجرى الرؤية في كون كل واحد منهما عتوا، فكما أن إنزال الكتاب غير ممتنع في نفسه فكذا سؤال الرؤية؟ قلت: الظاهر يقتضي كون كل واحد منها ممتنعة ترك العمل به في إنزال الكتاب فيبقى معمولا به في الرؤية.

٢ - وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: الآية: ٥٥] فإن الرؤية لو كانت جائزة لكان قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، كقول الأمم لأنبيائهم: "لن نؤمن إلا بإحياء ميت" في أنه لا يستعظم ولا تأخذهم الصاعقة.

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: الآية: ٢١] فالرؤية لو كانت جائزة وهي عند مجزيها من أعظم المنافع لم يكن التماسها عتوا لأن من سأل الله تعالى نعمة في

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٣٥٧).

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ١٥٥ - ١٥٦) بتصرف يسير.

الدين أو الدنيا لم يكن عاتيا وجرى ذلك مجرى ما يقال: لن نؤمن لك حتى يحيي الله بدعائك هذا الميت، فلو أن الرؤية كانت جائزة لما كان سؤالها عتوا ومنكرا، وذلك ممنوع(١)

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: الآية: ٥١]. ووجه الدلالة: أن الله-عز وجل-حصر تكليمه للبشرة في الوحي إلى الرسل، وتكليمه لهم من وراء حجاب، وإرساله إياهم إلى الأمم ليكلمهم على ألسنتهم، وإذا لم يره من يكلمه في وقت الوحي لم يره في غيره إجماعا، وإذا لم يره هو أصلا لم يره غيره أيضا، إذ لا قائل بالفرق".(٢)

ثانيًا: الرد على شبه المعطلة في استدلالهم بالأدلة الشرعية لنفي رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

[الرد على حجتهم الأولى]

أن الآية الكريمة حجة عليهم، ولا حجة لهم فيها بأي حال من الأحوال، وذلك للأوجه التالية.

الوجه الأول: أن استدلالهم ذلك كذب على اللغة، ودعوى مجردة عن الدليل؛ لأن الله تعالى إنما نفي الإدراك، والإدراك في اللغة معن زائد على النظر والرؤية، وهو معنى الإحاطة ليس هذا المعنى في النظر والرؤية، فالإدراك منفي عن الله تعالى على كل حال في الدنيا والآخرة، برهان ذلك قول الله-عز وجل-: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: الآية: ٦١] وأخبر تعالى أنه رأى بعضهم بعضا فصحت منهم الرؤية لبني إسرائيل، ونفى الله الإدراك بقول موسى-عليه السلام-لهم: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: الآية: ٦٢] فأخبر تعالى أنه رأى أصحاب فرعون بني إسرائيل ولم

(١) انظر: تفسير الرازي (٣/ ٥٢٠) باختصار وتصرف، وشرح مواقف الإيجي لعلي الجرجاني (٨/ ١٥٨) ضبطه وصححه: محمود الدمياطي.

(٢) انظر: شرح مواقف الإيجي لعلي الجرجاني (٨/ ١٥٩).

يدركوهم، ولا شـــك في أن ما نفاه الله تعالى غير الذي أثبته، فالإدراك غير الرؤية، والحجة لقولنا هو قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢ – ٢٣](١)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الآية حجة عليهم لا لهم؛ لأن الإدراك إما أن يراد به مطلق الرؤية أو الرؤية المقيدة بالإحاطة، والأول باطل لأنه ليس كل من رأى شـيئا يقال إنه أدركه، كما لا يقال أحاط به، كما سـئل ابن عباس–رضـي الله عنهما–عن ذلك فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى، قال: أكلها ترى؟ قال لا".

ومن رأى جوانب الجيش، أو الجبل، أو البســتان، أو المدينة لا يقال إنه أدركها وإنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية، ونحن في هذا المقام ليس علينا بيان ذلك وإنما ذكرنا هذا بيانا لسند المنع، بل المســتدل بالآية عليه أن يبين أن الإدراك في لغة العرب مرادف للرؤية، وأن كل من رأى شـيئا يقال في لغتهم أنه أدركه، وهذا لا سـبيل إليه، كيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الإدراك عموم وخصـوص أو اشـتراك لفظي؟! فقد تقع رؤية بلا إدراك، وقد يقع إدراك بلا رؤية، فإن الإدراك يســتعمـل في: إدراك العلم وإدراك القـدرة، فقـد يـدرك الشـــيء بالقـدرة وإن لم يشاهد: كالأعمى الذي طلب رجلا هاربا منه فأدركه ولم يره، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: الآيات: ٦١ – ٦٢] فنفى موســى الإدراك مع إثبات الترائي، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك، والإدراك هنا هو: إدراك القدرة، أي ملحوقون محاط بنا، وإذا انتفى هذا الإدراك فقد تنتفي إحاطة البصر أيضا.

ومما يبين ذلك: أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفســـه–عز وجل–، ومعلوم أن كون الشــيء لا يرى ليس صـفة مدح؛ لأن النفي المحض لا يكون مدح إن لم يتضـمن أمرا ثبوتيا، ولأن المعدوم أيضا لا يرى، والمعدوم لا يمدح فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه، وهذا أصل

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٣/ ٢–٣)، بتصرف.

مستمر وهو أن العدم المحض الذي لا يتضمن ثبوتا لا مدح فيه ولا كمال".(١)

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "فلم ينف موسى–عليه السلام–الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ إنا لمرئيون؛ فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم بقوله: ﴿**كَلَّا**﴾ وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ**﴾ [طه: الآية: ٧٧]. فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما لا يعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمته الصحابة والأئمة من بعدهم من الآية. قال ابن عباس–رضي الله عنهما–: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] لا تحيط به الأبصار. وقال قتادة: "هو أعظم من أن تدركه الأبصار". وقال ابن عطية: "ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم".(٢)

الوجه الثاني: أن الآية رد عليكم، فهي حجة لأثبات الرؤية لا نفيها، وذلك لأمرين:

الأول: أن معنى: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣] كما جاء عن ابن عباس وجماعة من السلف: أن الإدراك المنفي هنا هو الإحاطة. والمعنى: لا تحيط به الأبصار(٣).

والإدراك قد يطلق على الإحاطة كثيرا، كقوله: ﴿**أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ**﴾ [يونس: الآية: ٩٠]، أي: أحاط به من جميع جهاته. ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ [الشعراء: الآية: ٦١] أي: محاط بنا. وعلى هذا فمعنى: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ**﴾ أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه في الجملة، فالإدراك المنفي هو الإحاطة. والإحاطة لا يستلزم نفيها نفي مطلق الرؤية الثابت في الأحاديث المتواترة والآيات القرآنية.

الثاني: أن معنى: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ أي: لا تدركه في دار الدنيا، بدليل قوله: في

---

(١) انظر: منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٣١٧ – ٣٢٠) باختصار.

(٢) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (ص: ٦٢٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٤٥٩).

الآخرة: ﴿وجوه يومئذ ناضـــرة * إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣]. فلما قيد نظرهـا إلى ربهـا بقولـه: ﴿يومئـذ﴾ أي: يوم القيـامـة، عرفنـا أن ذلـك النظر مقيـد بالقيـامـة، وأن: ﴿لَّا تُـدْرِكُـهُ الْأَبْصَـــارُ﴾ أي: في دار الـدنيـا. ولو ســـلمنـا من أن الإدراك: الرؤية، وأن الآية عامة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـارُ﴾ فعمومها تخصـصـه آيات أخر بيوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِـــرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢ - ٢٣]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: الآيـة: ١٥] أي: بخلاف المؤمنين فليسوا بمحجوبين عن ربهم، وقد تقرر في الأصول أن المفهوم يخصص العام، سواء كان مفهوم موافقة، أو مفهوم مخالفة(١)

الوجه الثالث: قد يقال أيضـــا: إن المراد نفي الرؤية وقد عدم إذن الله تعالى للأبصـــار بالإدراك، والدليل على صحة إرادة هذا القيد أن إرادة الإبصار فعل من أفعال العبيد وكسب من كسبهم، وقد ثبت بغير ما دليل أن العباد لا يقدرون على شـيء من المقدورات إلا بإذن الله تعالى ومشـــيئته وتمكينه، فلا تدركه الأبصـــار إلا بإذنه وهو المطلوب. ويؤيد هذا البيان ويشـيد أركانه أن: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] وقع بعد قوله سـبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَـيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٢] ووجه التأييد: أن الله تعالى أخبر بأنه على كل شـــيء وكيل أي متول لأموره، ومعلوم أن الأبصـــار من الأشـــياء وأن إدراكها من أمورها، فهو-عز وجل-متوليها ومتصـرف فيها على حسـب مشـيئته، فيفيض عليها الإدراك ويأذن لها إذا شـاء كيف شـاء وعلى الحد الذي شـاء، ويقبض عنها الإدراك قبضـا كليا أو جزئيا في أي وقت شاء كيف شاء، ولا يخفى على هذا أنه غاية التمدح بالعزة والقهر والغلبة؛ فإن من هو على كل شيء وكيل إذا لم تدركه الأبصار إلا بإذنه مع كونه يدرك الأبصار -ولا تخفى عليه خافية- كان ذلك غاية في عزته وقهره وكونه غالبا على أمره(٢)

---

(١) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٣/ ٥٣ - ٥٤) بتصرف.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي (٤/ ٢٣٢).

الوجه الرابع: أن: "تدركه الأبصـــار" موجبة كلية؛ لأن موضـــعها جمع محلي كلية باللام الاستغراقية، وقد دخل عليها النفي فرفعها ورفع الموجبة الكلية سالبة جزئية، وبالجملة فيحتمل قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] إسـناد النفي إلى الكل، بأن يلاحظ أو لا دخول النفي، ثم ورود العموم عليه فيكون سـالبة جزئية، ومع احتمال المعنى الثاني فلم يبق فيه حجة لكم علينا؛ لأن أبصـــار الكفار لا تدركه إجماعا، هذا ما نقوله لو ثبت أن اللام في الجمع للعموم والاستغراق، وإلا عكسنا القضية وقلنا: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] سالبة مهملة في قوة الجزئية فالمعنى: لا تدركه بعض الأبصار، وتخصيص البعض بالنفي يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض، فالآية حجة لنا لا علينا".(١)

الوجه الخامس: أن قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـــارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] الآية، وإن عمت في الأشـخاص باسـتغراق اللام، فإنها لا تعم في الأزمان؛ لأنها سـالبة مطلقة لا دائمة، ونحن نقول بموجبه حيث لا يرى في الدنيا (٢)، وبهذا علمنا أن الوقت الذي قال إنه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] فيه غير الوقت الذي أخبرنا أنها تنظر إليه فيه(٣)

الوجه السادس: ويقال لهم: إذا كان قول الله سبحانه: في: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَـارَ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣]؛ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر فخبرونا أليس الأبصار والعيون لا تدركه رؤية ولا لمسا ولا ذوقا ولا على وجه من الوجوه؟ فإن قالوا: نعم، فيقال لهم: أخبرونا عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَـارَ﴾ أتزعمون أنه يدركها لمســا وذوقا بأن يلمســها؟ فمن قولهم: لا. فيقال لهم: فقد

---

(١) انظر: شـرح مواقف الإيجي للجرجاني (٨/ ١٥٦ – ١٥٧)، "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع" لأبي الحسـن الأشـعري (ص: ٦٥).

(٢) انظر: "شرح المواقف"(٨/ ١٤٠).

(٣) انظر: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع لأبي الحسن الأشعري (ص: ٦٥).

انتقض قولكم: إن قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ في العموم كقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾(١)

الوجه السابع: أما قولهم: "إن الله تمدح بأن لا يرى"، فقول باطل؛ لأن العدم المحض الذي لا يتضمن إثباتا لا مدح فيه ولا كمال.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣]، إنما نفي الإدراك الذي هو الإحاطة، كما قاله أكثر العلماء. ولم ينف مجرد الرؤية، لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحا، وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رئي، كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما، فكذلك إذا رئي لا يحاط به رؤية.

فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحة وصفة كان، وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها(٢)

فتبين بهذا أن قول المعطلة النفاة دعو مجردة عن الدليل، فثبوت المدح في سياق الكلام ليس لهم فيه حجة على امتناع الرؤية، بل الحجة عليهم في إثبات صحة الرؤية؛ لأنه يمتنع حصول التمدح بنفي الرؤية، لمشاركة المعدوم في ذلك، وإنما يحصل التمدح بحيث تصح رؤيته، ثم إنه تعالى يحجب الأبصار عن رؤيته.

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "هذه الآية وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها؛ فان الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به، وإنما يمدح الرب–عز وجل– بالعدم إذا تضمن أمرا وجوديا: كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك

(١) انظر: الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ص: ٥٩ – ٦٠).

(٢) انظر: التدمرية لابن تيمية (ص: ٥٩).

والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيئة وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصـمدية وغناه، ونفي الشـفاعة عنده بدون إذنه المتضـمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتظمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، وفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته، ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمرا ثبوتيا فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشـترك هو والمعدوم فيه، فلو كان المراد بقوله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال؛ لمشـاركة المعدوم له في ذلك فان العدم الصـرف لا يرى ولا تدركه الأبصـار، والرب ﷻ يتعالى إن يمدح بما يشـاركه فيه العدم المحض، فإذا المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به كما كان المعنى في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: الآية: ٦١] أنه يعلم كل شـيء، وفي قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: الآية: ٣٨] أنه كامل القدرة، وفي قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية: ٤٩] أنه كامل العدل، وفي قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٥] أنه كامل القيومية، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شـيء وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية".(١)

[الرد على حجتهم الثانية]

الرد على الوجه الأول: أن الآية الكريمة حجة عليهم وأنها تدل على إمكان رؤية الله تعالى، وليس فيها ما يزعمونه من اسـتحالة رؤية الله تعالى وامتناعها، وقولهم ذلك باطل لغة وشرعا، بدليل ما يلي:

أن قولهم: "إن لن موضـوعة للتأبيد" باطل، ومخالف للغة العرب وما دلت عليه من المعاني. قال أبو القاسم السهيلي:"إن العرب إنما تنفي بـــ "لن" ما كان ممكنا عند الخطاب

(١) انظر: حادي الأرواح لابن القيم (٢٩٣ - ٢٩٤).

مظنونا أنه سيكون، فتقول له: "لن يكون" لما يمكن أن يكون؛ لأن "لن" فيها معنى "أن"، وإذا كان الأمر عندهم على الشك لا على الظن كأنه يقول: أيكون أم لا يكون؟ -قلت: في النفي لا يكون- وهذا كله مقو لتركيبها من "لا" و"أن".(١)

وبهذا يتبين أن من زعم أن "لن" تفيد النفي على التأبيد المطلق فقوله باطل مردود.

قال جمال الدين بن مالك–رحمه الله–(ت: ٦٢٧ هـ):

"ومن رأى النفي بلن مؤبدا ... فقوله أردد وخلافه اعضدا".(٢)

وقال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وقد أكذبهم الله في قولهم بتأبيد النفي بـ "لن" صريحا بقوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: الآية: ٧٧] فهذا تمن للموت، فلو اقتضت "لن" دوام النفي تناقض الكلام؛ كيف وهي مقرونة بالتأبيد بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: الآية: ٩٥] ولكن ذلك لا ينافي تمنيه في النار؛ لأن التأبيد قد يراد به:التأبيد المقيد والتأبيد المطلق، فالمقيد كالتأبيد بمدة الحياة، كقولك: "والله لا أكلمه أبدا"، والمطلق كقولك: "والله لا أكفر بربي أبدا"، وإذا كان كذلك فالآية إنما اقتضت نفي تمني الموت أبد الحياة الدنيا، ولم يتعرض للآخرة أصلا؛ وذلك لأنهم لحبهم الحياة وكراهتهم للجزاء لا يتمنون الموت وهذا منتف في الآخرة".(٣)

الرد على الوجه الثاني: أنه علقه على استقرار الجبل من حيث هو من غير قيد بحال السكون أو الحركة، وإلا لزم الإضمار في الكلام، وأنه -أي استقرار الجبل- من حيث هو ممكن قطعا؛ إذ لو فرض وقوعه لم يلزم منه محال لذاته، وأيضا فاستقرار الجبل عند حركته أي في زمانها ليس بمحال؛ إذ في ذلك الوقت قد يحصل الاستقرار بدل الحركة ولا محذور فيه، إنما

(١) انظر: نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السهيلي (ص ١٠٣) وأبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي لمحمد إبراهيم البنا (ص: ٣٦١).

(٢) انظر: شرح الكافية الشافية لابن مالك (٣/ ١٥١٥).

(٣) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ١٦٨).

المحال هو الاســتقرار مع الحركة في كونهما مجتمعين لا وقوع شــيء منهما في وقت آخر بدل صاحبه(١)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فأخبر ســـبحانه أنه تجلى للجبل وأنه لما تجلى له جعله دكا فتجليه له: إما أن يكون مجرد خلق الرؤية فيه كما يقولون إن ذلك هو تجليه لسائر من يراه، أو يكون تجليه هو رفع الحجاب حتى ظهر للجبل؟ فإن كان التجلي هو خلق الرؤية كان قد أخبر أن الجبل أطاق رؤيته وأن الجبل رأى الله، وإذا كان كذلك لم يجب أن يصـير دكا إذا ورد عليه ما يعجز عن مقاومته فإذا كان التجلي ليس هو إلا أن جعل رائيا فمعلوم أنه يكون قادرا على ما جعل فاعلا له فلا يكون دكا ولو كان كذلك لكان العبارة المناســـبة أن يقال: فلما رأى الجبل ربه جعله دكا فلما دل القرآن مع ما ورد به الحديث في تفسير هذه الآية أن التجلي هو ظهوره وأنه مع ذلك قد لا يطيق المتجلي له رؤيته لعجزه وأن التجلي ليس هو خلق الرؤية فيه علم أنه قد يتجلى لمن يراه ولمن لا يراه وأن التجلي ليس هو خلق الرؤية فيه عند الاحتجاب فعلم أن هناك حجابا خارجا عن الإنسان وأن التجلي يكون برفع كل الحجاب".(٢)

الرد على الوجه الثالث: أنه ليس فيها دلالة على المنع، بل إن دلالتها على الجواز أقرب؛ فإن الصعق لم يحدث لموسى-عليه السلام-إلا عندما رأى الجبل يتدكدك لما تجلى له الرب-عز وجل-ظهورا، أو على القول أن موسى رأى الله -على ضعفه- فصعق، وهذا يدل على الجواز وإنما كان الصعق نتيجة عدم تحمل موسى رؤية الله تعالى في هذه الدار الفانية.

أما ما ذكره الزمخشـري من الأثر المروي عن ابن عباس في "مرور الملائكة على موســى وهو صعق" فباطل؛ لإنه من رواية الواقدي"(٣)، والواقدي متروك لا يحتج به.

---

(١) انظر: شرح مواقف الإيجي للجرجاني (٨/ ١٢١).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٨/ ١٣١-١٣٢).

(٣) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي (٤/ ٢٧٩).

وقد احتج برواية باطلة، وترك الأحاديث الكثيرة الصحيحة المتواترة، والتي تثبت رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عونا وظهرا على المعتقد الفاسد. والوجه التورك بالغلط على ناقلها، وتنزيه الملائكة-عليهم السلام-من إهانة موسى كليم الله بالوكز بالرجل والغمص في الخطاب".(١)

على أن هناك رواية أخرى لذلك الأثر، وهي أقل ضعفًا منها من طريق: أبي سعد سعيد بن المرزبان، عن عكرمة-رحمه الله-(**ت: ١٠٥ هـ**)، **عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)** قال: ﴿**وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] فمرت به الملائكة وقد صعق، فقالت: يا ابن النساء الحيض لقد سألت ربك أمرا عظيما. فلما أفاق قال: سبحانك لا إله إلا أنت، تبت إليك، وأنا أول المؤمنين، قال: أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد من خلقك، يعني في الدنيا".(٢)

وهي كما ترى لا تنفي الرؤية مطلقا، إنما تمنع منها في الدنيا فقط، وتبين أن المراد بالإيمان به تعالى أي: أنه لا يراه أحد من خلقه في الدنيا.

الرد على الوجه الرابع: أن التسبيح كما أنه تنزيه لله تعالى عن النقائص، فهو كذلك تعظيم وإجلال لله تعالى. والمراد هو تنزيه الله تعالى وتعظيمه وإجلاله عن أن يرى في الدنيا أو أن يتحمل رؤيته مخلوق في هذه الدنيا، بل ثبتت الرؤية لله تعالى في الدار الآخرة عن الله وعن رسوله ﷺ.

والرؤية ليست كما تزعمون من النقائص، فإنها في المخلوق كمال وكل كمال اتصف به المخلوق لا نقص فيه بحال فالله أحق وأولى أن يتصف به، لا سيما وقد أثبتها الله لنفسه،

---

(١) انظر: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد الإسكندري المالكي (٢/ ١١٥) من هامش الكشاف.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٣٣)، وفيه أبو سعد سعيد بن المرزبان البقال التابعي المقرئ تلميذ ابن عباس، وقد ضعف، وبعضهم يوثقه، على خلاف بينهم فيه، انظر: الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (٤/ ٤٣٢ - ٤٣٦).

وخص بها أهل جنته، وأثبتها له رسوله ﷺ، بل وسألها موسى –عليه السلام– في الدنيا، ولم يعاتبه الله على ذلك، فكيف يقال بعد ذلك: أنها من النقائص وجميع الأدلة من الكتاب والسنة خلاف ذلك؟

وقد سبق أن بينا أن الذي تمتنع رؤيته بإطلاق هو المعدوم، وأن ذلك لا مدح فيه البتة بأي وجه من الوجوه، وهذا هو الذي يتنزه الله تعالى عنه.

الرد على الوجه الخامس: أن قولكم ذلك لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها لا من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان. وليست توبة موسى –عليه السلام– بعدما أفاق لذنب قاله أو فعله، وإنما لأنه علم أن رؤية الله في الدنيا غير ممكنة لأحد من البشر، بدليل اندكاك الجبل حينما تجلى الله تعالى له.

قال مجاهد –رحمه الله– (ت: ١٠٤ هـ): "سبحانك تبت إليك"، أن أسألك الرؤية".(١)

وأيضا لم يعاتبه الله تعالى على سؤاله الرؤية، ولم ينهه عن ذلك كما نهى نوحا –عليه السلام– في سؤاله منه تعالى أن ينجي ولده الذي أغرق لأنه من أهله، حينما قال الله تعالى له: ﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [هود: الآية: ٤٦]. ولذلك سارع نوح –عليه السلام– للاستعاذة بالله من سؤاله ذلك، وبادر بالتوبة وطلب المغفرة والرحمة منه تعالى، كما قال الله تعالى عنه: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [هود: الآية: ٤٧].

قال الباقلاني –رحمه الله– (٤٠٣ هـ): "لم يقل جل اسمه أنه تاب من مسألته إياه الرؤية، فيمكن أن يكون ذكر ذنوبا له قد قدم التوبة منها، فجدد التوبة عند ذكرها لهول ما رأى، كما يسارع الناس إلى التوبة ويجددونها عند مشاهدة الأهوال والآيات، ويحتمل أن يكون المعنى في قوله: ﴿**تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: ١٤٣] من ترك استئذاني لك في هذه المسألة

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٣٤).

العظيمة، ومثلها ما لا يكون معه تكليف لمعرفتك والعلم بك.

ويحتمل أن يكون أراد بقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: تبت إليك أن أسألك الرؤية لهول ما أصابني، لا لأنها مستحيلة عليك، ولا لأني عاص في سؤالي، كما يقول القائل: تبت من كلام فلان ومعاملته، ومن ركوب البحر، ومن الحج ماشيا، إذا ناله في ذلك تعب ونصب وشدة، وإن كان ذلك مباحا حسنا جائزا، والتوبة هي الرجوع عن الشيء، ومن ذلك سمي الإقلاع عن الذنوب والعود إلى طاعة الله تعالى توبة منها، ومعنى المراد بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: الآية: ١١٨] أي: رجع بهم إلى التفضل والامتنان ليرجعوا عما كانوا عليه، فقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: رجعت عن سؤالي إياك الرؤية، وهذا هو أصل التوبة، وليس الرجوع عن الشيء يقتضي كونه عصيانا فبطل تعلقهم بالآية".(١)

وقال الواحدي-رحمه الله-(ت: ٤٦٨ هـ): "تبت إليك من مسألتي الرؤية، وذلك أنه سألها من غير استئذان من الله، فلذلك تاب".(٢).

وقال الزجاج-رحمه الله-(ت: ٤٠ هـ): "وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]. أي: أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا".(٣)

وقال ابن أبي زمنين-رحمه الله-(ت: ٣٩٩ هـ): "يعني: المصدقين بأنك لا ترى في الدنيا".(٤)

وقال السمعاني-رحمه الله-(ت: ٤٢٦ هـ): " ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]، يعني: من سؤال الرؤية قبل الإذن ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: أنا أول المؤمنين بأن من يراك

---

(١) انظر: التمهيد للباقلاني (ص ٢٧٠ - ٢٧١) عني بتصحيحه: ريتشرد مكارثي اليسوعي. المكتبة الشرقية بيروت. ١٩٥٧ م.

(٢) انظر: تفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٤٨٠).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٧٤).

(٤) انظر: تفسير ابن أبي زمنين (٢/ ١٤١).

متجليا في الدنيا لا يستقر مكانه، وقيل معناه: أنا أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا".(١)

وقال القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ): "وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية".(٢)

فإذا كان الجبل العظيم الراسي القوي لم يصمد لرؤية الله تعالى، بل تفتت وتدكدك حتى استوى بالأرض، فلا يمكن لبشر بعد ذلك أن يرى الله تعالى في الدنيا عيانا.

بل الملك المخلوق لا أحد يستطع رؤيته في الدنيا على خلقته التي خلقه الله عليها إلا من ثبته الله تعالى من الأنبياء والمرسلين، أما سائر البشر فلا يستطيعون ذلك.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): " قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]، قيل: أول المؤمنين بأنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، فهذا للعجز الموجود في المخلوق، لا لامتناع في ذات المرئي، بل كان المانع من ذاته، لم يكن إلا لنقص وجوده حتى ينتهي الأمر إلى المعدوم الذي لا يتصور أن يرى خارج الرائي، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته إلا من أيده الله، كما أيد نبينا ﷺ قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ**﴾ [الأنعام: الآيات: ٨ – ٩] قال غير واحد من السلف: هم لا يطيقون أن يروا الملك في صورته، فلو أنزلنا إليهم ملكا لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ كان يشتبه عليهم هل هو ملك أو بشر، فما كانوا ينتفعون بإرسال الملك إليهم، فأرسلنا إليهم بشرا من جنسهم يمكنهم رؤيته والتلقي عنه، وكان هذا من تمام الإحسان إلى الخلق والرحمة".(٣)

وقد رد **ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ)** عليهم في استدلالهم بهذه الآية ردا

---

(١) انظر: تفسير السمعاني (٢/ ٢١٣).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ٢٧٩).

(٣) انظر: منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٣٣٣).

مفصــلا، فقال-رحمه الله-: "وقد أخبر الله-عز وجل-عن أعلم الخلق به في زمانه وهو كليمه ونجيه وصــفيه من أهل الأرض أنه ســأل ربه تعالى النظر إليه فقال له ربه-عز وجل-: ﴿**لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]. وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أن لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال.

الوجه الثاني: أن الله-عز وجل-لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالا لأنكره عليه.

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ ولم يقل: إني لا أرى، ولا: إني لســـت بمرئي، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه-عز وجل-مرئ، ولكن موســى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضــعف قوى البشــر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿**وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] فأعلمه ان الجبل مع قوته وصــلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟

الوجه الخامس: أن الله-عز وجل-قادر على أن يجعل الجبل مســتقرا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته.

الوجه الســادس: قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣]. وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته-عز وجل-؛ فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟ وأعلم سبحانه موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

الوجه الســـابع: أن ربه ســـبحانه قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يســـمع مخاطبه كلامه معه بغير واســـطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، وأما قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ فإنما يدل على النفي في المســـتقبل، ولا يدل على دوام النفي ولو قيدت بالتأبيد، فكيف إذا أطلقت؟! قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: الآية: ٩٥] مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: الآية: ٧٧]".(١)

[الرد على الحجة الثالثة]

أما الآية الأولى والثانية: فإن الاســـتعظام إنما كان لطلبهم الرؤية اســـتخفافا وعنادا وتعنتا وإنكارا لنبوة موســـى -عليه الســـلام-، وليس طلبا للعلم ولا الازدياد منه. قال أبو الحســـن الأشـعري: "إن بني إسـرائيل سـألوا رؤية الله -عز وجل- على طريق الإنكار لنبوة موسى ﷺ، وترك الإيمـان بـه حتى يروا الله، لأنهم قـالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: الآية: ٥٥]، فلما ســـألوه الرؤية على طريق ترك الإيمان بموســـى ﷺ حتى يريهم الله نفســـه، استعظم سؤالهم من غير أن تكون الرؤية مستحيلة عليه، كما استعظم الله سؤال أهل الكتاب أن ينزل عليهم كتابا من السماء من غير أن يكون ذلك مستحيلا، ولكن لأنهم أبوا أن يؤمنوا بنبي الله حتى ينزل عليهم من السماء كتابا".(٢)

وقال الباقلاني -رحمه الله- (ت: ٤٠٣ هـ): "لم ينكر الله تعالى مسألة خلاف بني إسرائيل أن ينزل عليهم كتابا من السـماء، ومسـألة أسـلافهم أن يروا الله جهرة لاسـتحالة ذلك؛ وإنما أنكره لأنهم سألوا ذلك على طريق العناد لموسى ومحمد صلى الله عليهما، والشك في نبوتهما، والتقدم بين أيديهما، والامتناع من فعل ما أوجب عليهم من الإيمان بالله -عز وجل-، حتى

---

(١) انظر: حادي الأرواح لابن القيم (ص: ٢٨٥ - ٢٨٧) باختصار.

(٢) انظر: الإبانة عن أصول الديانة للأشعري (ص: ٤٨).

يفعل ما يؤثرونه ويقتاتونه".(١)

ومما يبين ذلك ويوضحه أن الله أكرم بني إسرائيل بكثير من الإكرام ونجاهم من كثير من الهلاك، وأنزل عليهم كثيرا من الآيات، ومع ذلك لم يؤمنوا بذلك كله وطلبوا من موسى أن يروا الله جهرة في الدنيا -مع علمهم بامتناع ذلك- عنادا واستخفافا.

قال الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ): "فأعلم ربنا-عز وجل-الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ أنهم لن يعدوا أن يكونوا -في تكذيبهم محمدا ﷺ وجحودهم نبوته، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره- كأسلافهم وآبائهم الذين قص الله علينا قصصهم".(٢)

أما الآية الثالثة: فيقال: أنهم سبق وأن طلبوا إنزال الملائكة ورؤية الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿**أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا**﴾ [الإسراء: الآية: ٩٢] وهم طلبوا قبل ذلك وبعده كثيرا من الآيات تعنتا، وعنادا، واستكبارا، واستخفافا.

قال الزجاج-رحمه الله-(ت: ٣٤٠ هـ): "فأعلم الله-عز وجل-أن الذين لا يوقنون بالبعث، ولا يرجون الثواب على الأعمال عند لقاء الله طلبوا من الآيات ما لم يأت أمة من الأمم، فأعلم الله-عز وجل-أنهم قد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا".(٣)

فتبين بهذا أنهم لم يطلبوا ذلك طلب علم لينتفعوا به ويزدادوا منه، وإنما كان ذلك سؤال تحد واستكبار وعتو؛ لأنهم طلبوا ذلك في الدنيا.

قال الواحدي-رحمه الله-(ت: ٤٦٨ هـ): "وإنما وصفوا بالعتو عند طلب الرؤية؛ لأنهم طلبوها في الدنيا عنادا للحق وإباء على الله ورسوله في طاعتهما".(٤).

---

(١) انظر: التمهيد للباقلاني (ص: ٢٧٣).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (٢/ ٣٠٥).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٦٣).

(٤) انظر: الوسيط للواحدي (٣/ ٣٣٨).

ومما يوضحه: "أن أصحاب موسي سألوا موسى رؤية الله في الدنيا إلحافا فقالوا: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ [البقرة: الآية: ٥٥]، لم يقولوا: حتى نرى الله في الآخرة، ولكن في الدنيا، وقد سبق من الله القول بأنه: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣] أبصار أهل الدنيا فأخذتهم الصاعقة بظلمهم وسؤالهم ما حظره على أهل الدنيا، ولو قد سألوه رؤيته في الآخرة كما سأل أصحاب محمد ﷺ محمدا ﷺ لم تصبهم تلك الصاعقة ولم يقل لهم إلا ما قال محمد ﷺ لأصحابه إذ سألوه: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: (**نعم لا تضارون في رؤيته**) فلم يعبهم الله تعالى ولا رسوله بسؤالهم عن ذلك، بل حسنه لهم وبشرهم بشرى جميلة".(١)

[الرد على حجتهم الرابعة]

أن دلالة الآية على إثبات الرؤية أدل منها على امتناعها، وذلك لما يلي:

١ – أنه أثبت التكليم من وراء حجاب، ولا يكون حجاب إلا لرؤية(٢).

٢ – أن التكليم من وراء حجاب نوع غير الوحي، ويقتضي وأن المكلم بذلك محجوب أن يرى الله؛ لأن التكليم المسموع قد يكون مع رؤية المستمع للمتكلم، وقد يكون مع كونه محجوبا عنه، بخلاف الوحي، فإنه يقع في قلبه(٣)

٣ – أن الحجاب عن الرؤية المذكور في الآية الكريمة إنما هو في الدنيا، فلا يمكن لمخلوق أن يرى الله تعالى، أما الآخرة، فالله تعالى يرفع الحجاب عمن شاء من خلقه فيرونه عيانا كما روى عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه".(٤)

---

(١) انظر: نقض الدارمي على بشر المريسي (١/ ٣٦٧).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٤/ ٤٥٤).

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٠/ ٢١٣).

(٤) انظر: أخرجه البخاري (رقم ٦٥٣٩ و٧٥١٢ و٧٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (رقم ١٠١٦) وغيرهما.

ثالثًا: الأدلة العقلية التي استدل بها المعطلة لنفي رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

استدل المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم على مذهبهم بأدلة عقلية، وهي شبهات إبليسية، جعلوها حجة في معارضتهم للآيات الكريمة والأحاديث الثابتة الصحيحة، وهي كما يلي:

أولا: دليل الموانع: وهو زعمهم أن الله-عز وجل-لا يرى لاستحالة رؤيته، وليس لامتناعها، ففرق بين النوعين. **قال القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ)**: "ما لا يرى ينقسم إلى: ما لا يرى لمنع، وإلى ما لا يرى لاستحالة الرؤية عليه، والقديم تعالى إنما يرى لاستحالة الرؤية عليه لا لمنع".(١)

وقال أيضا: "والموانع المعقولة من الرؤية ستة: الحجاب، والرقة، واللطافة، والبعد المفرط، وكون المرئي في غير جهة محاذاة الرائي، وكون محله ينقض هذه الأوصاف، وشيء منها لا يجوز على الله تعالى بحال من الأحوال(٢)

وهذه الشروط الستة الأخيرة لا يمكن اعتبارها إلا في رؤية الأجسام، والله تعالى ليس بجسم، فلا يمكن اعتبار هذه الشرائط في رؤيته، فعلى هذا ولو صحت رؤيته لوجب أن لا يصير في حصول رؤيته إلا أمران: سلامة الحاسة، وكونه بحيث يصح أن يرى، وهذان الأمران حاصلان الآن، فثبت أنه لو صحت رؤيته لوجب أن نراه الآن، ولما لم يكن الأمر كذلك وجب أن يقال: إنما لا نراه الآن لأنه لا تصح رؤيته(٣)

والموانع على ضربين: أحدهما ما يمنع بنفسه، والثاني: يمنع بشرط.

أما المانع بنفسه فهو: كالحجاب، وكون المرئي في غير جهة محاذاة الرائي.

وأما المانع بشرط فهو على قسمين:

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٥٣).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٥٧-٢٥٨) والأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٧ - ٢٩٨).

(٣) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٧).

الأول: ما يمنع لأمر يرجع إلى الرائي.

والثاني: ما يمنع لأمر يرجع إلى المرئي.

وما يرجع إلى الرائي: فهو كالرقة واللطافة، فإنه إنما يمنع لأمر يرجع إلى الرائي وهو ضـــعف الشـــعاع. وأما ما يرجع إلى المرئي: فنحو البعد المفرط، فإنه إنما لا يرى لبعده، حتى لو قرب لرئي [(١)]

ثانيا: دليل المقابلة: وهو أن الرؤية تقتضـــي مقابلة المرئي للرائي، وإذا كان كذلك فتكون الرؤية ممتنعة في حق الله -عز وجل-، قال عبد الجبار المعتزلي: "إن الواحد منا راء بحاســـة، والرائي بالحاسة لا يرى الشيء إلا إذا كان مقابلا أو حالا في المقابل أو في حكم المقابل، وقد ثبت أن الله تعالى لا يجوز أن يكون مقابلا ولا حالا في المقال ولا في حكم المقابل، وهذه الدلالة مبنية على أصول:

أحدها: أن الواحد منا راء بالحاسة.

والثاني: أن الرائي بالحاسة لا يرى الشيء إلا إذا كان مقابلا أو حالا في المقابل أو في حكم المقابل.

والثالث: أن القديم تعالى لا يجوز أن يكون مقابلا ولا حالا في المقابل ولا في حكم المقابل.

أما الأول: فالذي يدل عليه أن أحدنا متى كان له حاسة صحيحة والموانع مرتفعة والمدرك موجود: يجب أن يرى، ومتى لم يكن كذلك اســـتحالة أن يرى، فيجب أن يكون لصـــحة الحاسة في ذلك تأثير؛ لأن بهذه الطريقة يعلم تأثير المؤثرات من الأسباب والعلل والشروط.

وأما الثاني: فالشيء المرئي إذا كان كذلك وجب أن يرى، وإذا لم يكن كذلك لم ير، فيجب أن تكون المقابلة أو ما في حكمها شرطا في الرؤية؛ لأنه بهذه الطريقة يعلم تأثير الشروط.

وأما الثالث: فلأن المقابلة والحلول إنما تصـــح على الأجســـام والأعراض والله تعالى ليس

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص: ٢٥٩-٢٦٠).

بجسم ولا عرض فلا يجوز أن يكون مقابلا ولا حالا في المقابل ولا في حكم المقابل".[(١)]

ثالثا: دليل الانطباع: وهو: أن كل ما يكون مرئيا فلا بد وأن تنطبع صورته ومثاله في العين، والله تعالى يتنزه عن الصورة والمثال، فوجب أن تمتنع رؤيته[(٢)]

رابعا: أن كل ما كان مرئيا فلا بد له من لون وشكل، ودليله الاستقراء والله تعالى منزه عن ذلك فوجب ألا يرى[(٣)]

رابعًا: الرد على شبه المعطلة في استدلالهم بالأدلة العقلية لنفي رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

[الرد على الدليل الأول وهو دليل الموانع]

١ - **قال الرازي-رحمه الله-(ت: ٦٠٦ هـ)**: لا نسلم أن عند حصول الشرائط الثمانية يجب حصول الإبصار، ويدل على أنه غير واجب عقلا وجهان:

أولا: أنا نرى الجسم الكبير من البعد صغيرا وإن رأينا جميع أجزائه، وجب أن لا نراه صغيرا، بل كبيرا، وإن لم نر شيئا من أجزائه وجب ألا نراه البتة. وإن رأينا بعض أجزائه دون البعض مع أن جميع الأجزاء بالنسبة إلى "القرب والبعد واللطافة والكثافة وعدم الحجاب وسلامة الحاسة وصحة الرؤية" متساوية لزم أن لا يكون الإدراك مع حصول هذه الشروط متساويا.

ولا يقال: إنا إذا أبصرنا شيئا اتصل بطرفيه من العين خطان شعاعيان كساقي المثلث، وصار عرض المرئي كالخط الثالث، فحصل هناك مثلث، ثم يخرج من نقطة الناظر خط آخر إلى وسط المرئي قائم عليه، يقسم ذلك المثلث الأول إلى مثلثين، وكل واحد منهما مثلث قائم الزاوية، وهذا يصلح أن يكون وترا لكل واحد من الزاويتين الحادتين الواقعتين على طرفي المثلث الأول الكبير، والخطان الطرفيان كل واحد منهما وتر للزاويتين القائمتين، ولا شك أن

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ص ٢٤٨ - ٢٤٩) والأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٧ - ٢٩٨).

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٨).

(٣) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٩٨) والتمهيد للباقلاني (ص ٢٧٨).

وتر القـائمـة أعظم من وتر الحـادة، فـالخطـان الطرفيـان كـل واحـد منهمـا أطول من الخط الوسـطي، وإذا كان ذلك كذلك لم تكن أجزاء المرئي بالنسـبة إلى الرائي متسـاوية في القرب والبعد، لأنا نقول: لنفرض أن هذا التفاوت واقع بمقدار شـبر، فلو كان المانع من الرؤية هذا القدر من التفاوت في البعد لكنا إذا جعلنا المرئي أبعد مما كان قبل ذلك بمقدار شـبر وجب أن لا نراه البتة، لكنا نراه، فعلمنا أنه ليس السـبب في عدم رؤية بعض الأجزاء ذلك القدر من التفاوت في البعد".(١)

فإن قيل: لا يلزم من رؤيتنا جميع أجزائه أن نراه كبيرا، وإنما يلزم ذلك أن لو كانت رؤيته صغيرا وكبيرا بحسب رؤية الأجزاء وعدمها وهو ممنوع.

قلنا: وضـعفه ظاهر بناء على تركب الأجزاء التي لا تتجزأ، إذ على هذا التقدير إن رأى الأجزاء كلها وجب أن يرى الجسـم كما هو في الواقع سـواء كان قريبا أو بعيدا، وذلك لأن الرؤية لكل منها أو بعضـها أصـغر مما هو عليه توجب الانقسـام فيما لا يتجزأ لثبوت ما هو أصـغر منه، ورؤية كل من الأجزاء أكبر مما هو عليه بمثل أو بأزيد منه توجب ألا يرى إلا ضعفا أو أكبر من ذلك، وهو باطل قطعا، ورؤيته أكبر بأقل من مثل توجب الانقسام، ورؤية بعضـها على ما هو عليه بعضـها أكبر بمثل توجب ترجيحا بلا مرجح، فوجب أن يرى الكل على حاله، فلا تفاوت حينئذ بالصـغر والكبر، فتعين أن يكون التفاوت بحسـب رؤية بعض دون بعض".(٢)

ثانيـا: إذا نظرنا إلى مجموع كف من التراب، رأينـاه وذلـك الكيف من التراب عبـارة عن مجموع تلك الذوات وتلك الأجزاء الصغيرة، فإما أن يكون إدراك كل واحد من تلك الذوات مشروطا بإدراك الآخر فيلزم الدور؟ وإما أن لا يكون إدراك شيء منها مشروطا بإدراك الآخر وحينئذ يكون إدراك كل واحد من تلك الذوات حالتي الاجتماع والانفراد على السـوية؟ مع

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠١ - ٣٠٢).
(٢) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٢-١٥٣) باختصار.

أنا نراها حال الاجتماع ولا نراها حال الانفراد، وحينئذ لا يكون الإدراك واجب الحصول عند حصول تلك الشرائط، وإما أن يكون إدراك البعض مشروطا بإدراك الباقي ولا ينعكس، وهذا محال، ومع أنه محال فالمقصود حاصل.

أما أنه محال: فلأن الأجزاء متساوية فيكون هذا مفتقرا إلى ذلك، مع أن ذلك غني عن هذا، وهذا ترجيح من غير مرجح وهو محال، وأما أن المقصود حاصل، فلأن إدراك أحد تلك الأجزاء إذا كان غنيا عن إدراك الآخر كان حاله عند الاجتماع وعند الانفراد في صحة الإدراك على السوية، وحينئذ يعود المحذور، فهذان برهانان قويان في بيان أنه عند حصول هذه الشرائط فالإدراك غير واجب الحصول.

وقولهم: لو لم يجب الإدراك لجاز أن يكون بحضرتنا جبال وبوقات ونحن لا نراها ولا نسمعها[(١)]

قلنا: هذا معارض بجملة العاديات، فإن الأمور العادية تجوز نقائضها مع جزمنا بعدم وقوعها، ولا سفسطة هاهنا، فكذا الحال في الجبال الشاهقة التي لا نراها، فإنا نجوز وجودها ونجزم بعدمها؛ وذلك لأن الجواز لا يستلزم الوقوع ولا ينافي الجزم بعدمه، فمجرد تجويزها لا يكون سفسطة.

ثم نقول: إن كان مأخذ الجزم بعدم الجبل المذكور ما ذكرتم من وجوب الرؤية عند اجتماع شرائطها لوجب أن لا نجزم به إلا بعد العلم بهذا، واللازم باطل؛ لأنه لا يجزم به من لا يخطر بباله هذه المسألة؛ ولأنه ينجر إلى أن يكون ذلك الجزم نظريا مع اتفاق الكل على كونه ضروريا[(٢)]

سلمنا أنه عند حضور هذه الشرائط في الشاهد يكون الإدراك واجب الحصول، فلم قلتم: أن في حق الله تعالى يجب أن يكون كذلك؟ وتحقيقه هو: أن ذات الله تعالى مخالفة

---

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

(٢) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٢-١٥٣).

بالحقيقة والماهية لهذه الحوادث، والمختلفان في الماهية لا يجب اســـتواؤهما في اللوازم، فلم يلزم من كون الإدراك واجبا في الشـــاهد عند حضـــور هذه الشـــرائط كونه واجبا في الغائب عند حضـورها، ومما يدل عليه: أن الإدراك في الشـاهد مشـروط بشـرائط ثمانية، وفي الغائب نقطع بأنه لا يمكن اعتباره، فكذلك لا يمتنع أن يكون الإدراك في الشـــاهد واجب الحصـــول، وفي الغائب لا يكون واجبا".(١)

٢ - أن قولكم: إثبات الرؤية يســـتلزم إثبات الجســـمية، وهذا منتف عن الله تعالى، غير صحيح، فلا يلزم من إثبات الرؤية إثبات الجسمية، ثم إن لفظ الجسم لم يرد في الشرع لا نفيا ولا إثباتا.

قـال ابن تيميـة-رحمـه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "نفـاة الرؤيـة -من الجهميـة والمعتزلـة وغيرهم- إذا قالوا: إثباتها يســتلزم أن يكون الله جســما، وذلك منتف، وادعوا أن العقل دل على المقدمتين، احتيج حينئذ إلى بيان بطلان المقدمتين، أو إحداهما، فإما أن يبطل نفس التلازم، أو نفي اللازم، أو المقدمتان جميعا.

وهنا افترقت طرق مثبتة الرؤية: فطائفة نازعت في الأولى، كالأشـــعري وأمثاله -وهو الذي حكاه الأشـعري عن أهل الحديث وأصـحاب السـنة- وقالوا: لا نسـلم أن كل مرئي يجب أن يكون جسما.

فقالت النفاة: لأن كل مرئي في جهة، وما كان في جهة فهو جســم. فافترقت نفاة الجســم على قولين: طائفة قالت: لا نسـلم أن كل مرئي يكون في جهة، وطائفة قالت: لا نسـلم أن كل ما كان في جهة فهو جسـم. فادعت نفاة الرؤية أن العلم الضـروري حاصـل بالمقدمتين، وأن المنازع فيهما مكابر.

وهذا هو البحث المشـهور بين المعتزلة والأشـعرية، فلهذا صـار الحذاق من متأخري الأشـعرية على نفي الرؤية وموافقة المعتزلة، فإذا أطلقوها موافقة لأهل الســـنة فســـروها بما تفســـرها به

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

المعتزلة، وقالوا: النزاع بيننا وبين المعتزلة لفظي.

وطائفة نازعت في المقدمة الثانية -وهي انتفاء اللازم- وهي كالهشامية والكرامية وغيرهم، فأخذت المعتزلة وموافقوهم يشنعون على هؤلاء، وهؤلاء وإن كان في قولهم بدعة وخطأ، ففي قول المعتزلة من البدعة والخطأ أكثر مما في قولهم.

ومن أراد أن يناظر مناظرة شرعية بالعقل الصريح فلا يلتزم لفظا بدعيا، ولا يخالف دليلا عقليا ولا شرعيا، فإنه يسلك طريق أهل السنة والحديث والأئمة الذين لا يوافقون على إطلاق الإثبات ولا النفي، بل يقولون: ما تعنون بقولكم: إن كل مرئي جسم؟

فإن فسروا ذلك: بأن كل مرئي يجب أن يكون قد ركبه مركب، أو أن يكون كان متفرقا فاجتمع، أو أنه يمكن تفريقه، ونحو ذلك، منعوا هم المقدمة الأولى، وقالوا: هذه السموات مرئية مشهودة، ونحن لا نعلم أنها كانت متفرقة مجتمعة، وإذا جاز أن يرى ما يقبل التفريق فيما لا يقبله أولى بإمكان رؤيته، فالله تعالى أحق بأن تمكن رؤيته من السموات ومن كل قائم بنفسه، فإن المقتضي للرؤية لا يجوز أن يكون أمرا عدميا، بل لا يكون إلا وجوديا، وكلما كان الوجود أكمل كانت الرؤية أجوز.

وإن قالوا: "مرادنا بالجسم المركب أنه مركب من الجواهر المنفردة، أو من المادة والصورة"، نازعوهم في هذا، وقالوا: دعوى كون السموات مركبة من جواهر منفردة، أو من مادة وصورة دعوى ممنوعة أو باطلة، وبينوا فساد قول من يدعي هذا، وقول من يثبت الجوهر الفرد أو يثبت المادة والصورة، وقالوا: إن الله خلق هذا الجسم المشهود هكذا، وإن ركبه ركبه من أجسام أخرى، وهو سبحانه يخلق الجسم من الجسم، كما يخلق الإنسان من الماء المهين، وقد رب العظام في مواضعها من بدن ابن آدم، وركب الكواكب في السماء، فهذا معروف.

وأما أن يقال: "إنه خلق أجزاء لطيفة لا تقبل الانقسام ثم ركب منها العالم"، فهذا لا يعلم بعقل ولا سمع، بل هو باطل؛ لأن كل جزء لا بد أن يتميز منه جانب عن جانب، والأجزاء المتصاغرة كأجزاء الماء تستحيل عند تصغرها، كما يستحيل الماء إلى الهواء، مع أن المستحيل يتميز بعضه عن بعض.

والأدلة العقلية بينت جواز الرؤية وإمكانها، وليست العمدة على دليل الأشعري ومن وافقه في الاستدلال؛ لأن المصحح للرؤية مطلق الوجود.

وإن قالوا: "مرادنا أن المرئي لا بد أن يكون معاينا تجاه الرائي، وما كان كذلك فهو جسم"، ونحو هذا الكلام، قالوا لهم: الصادق المصدوق ﷺ قال: "إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر"، وقال: "هل تضامون في رؤية الشمس صحوة ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فهل تضامون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر".

وهذا تشبيه للرؤية، لا للمرئي بالمرئي، وفي لفظ في الصحيح: "إنكم ترون ربكم عيانا" فإذن قد أخبرنا أنا نراه عيانا.

وقد أخبرنا أيضا أنه قد: "استوى على العرش" فهذه النصوص يصدق بعضها بعضا، والعقل أيضا يوافقها، ويدل على أنه سبحانه مباين لمخلوقاته فوق سماواته، وأن وجود موجود لا مباين للعالم ولا محايث له محال في بديهة العقل، فإذا كانت الرؤية مستلزمة لهذه المعاني فهذا حق، وإذا سميتم أنتم هذا قولا بالجهة وقولا بالتجسيم لم يكن هذا القول نافية لما علم بالشرع والعقل، إذ كان معنى هذا القول -والحال هذه- ليس منتفيا لا بشرع ولا عقل".[(١)]

[الرد على الدليل الثاني وهو دليل المقابلة]

قال الرازي: الجواب عنها من وجهين:

الأول: أن ذكر الدلائل لا بد أن يكون مسبوقا بتعيين محل النزاع، فنقول: محل النزاع: أن الموجود المنزه عن المكان والجهة هل تجوز رؤيته أم لا؟ فإن ادعيتم أن العلم بامتناع رؤيته ضروري [(٢)] فذلك باطل من وجوه:

الأول: أن البديهي متفق عليه بين العقلاء، وهذا غير متفق عليه فلا يكون بديهيا.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٥٠ - ٢٣٥) بتصرف يسير.

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

الثاني: أنا إذا عرضنا على عقولنا رؤية هذا الموجود، بالتفسير الذي لخصناه، وعرضنا على عقولنا: أن الواحد نصف الإثنين لم نجد القضية الأولى في قوة هذه الثانية.

الثالث: أن حكم الوهم والخيال في معرفة الله تعالى: إما أن يكون مقبولا أو لا يكون مقبولا، فإن كان مقبولا لا يمتنع إثبات ذات منزهة عن الكمية والكيفية والجهة، والمعتزلي يسلم أن ذلك باطل، وإن لم يكن مقبولا لم يكن حكم الوهم بأن ما كان منزها عن الجهة، كان غير مرئي واجب القبول؛ لأن الوهم والخيال لما صار كل واحد منها مردود الحكم في بعض الأحكام لم يبق الاعتماد عليها في شيء من المواضع.

وبالجملة: فإن كان حكم الوهم حقا كان الحق مع المجسم، وإن كان مردودا كان الحق معنا، أما المعتزلي: فإنه يرد حكمه في إثبات الجسم والجهة، ويقبل حكمه في مسألة الرؤية، فكان كلامه متناقضا.

فثبت بما ذكرنا: أن من نفى الرؤية بالوجه الذي ذكرناه لا بد وأن يعول في نفيها على الدليل لا على ادعاء الضرورة[(١)]

وإن ادعيتم أن هذا العلم استدلالي فلا بد فيه من الدليل، وقولكم: "إن كل مرئي لا بد وأن يكون مقابلا" يقرب من أنه إعادة للدعوى؛ لأن المقابل هو الذي يكون مختصا بجهة قدام الرائي، فكأنكم قلتم: "الدليل على أن ما لا يكون في الجهة لا يكون مرئية هو أن كل ما كان مرئية يكون في الجهة". والمنطقيون يسمون هذه القضية الثانية عكس نقيض القضية الأولى، وفي الحقيقة لا فرق بين القضيتين في الظهور والخفاء، فلم يجز جعل أحدهما حجة في صحة الأخرى، بل يقرب هذا من أن يكون إعادة المطلوب بعبارة أخرى.

والوجه الثاني في الجواب: ثبت أن المقابلة شرط للرؤية في الشاهد، فلم قلتم: إنه في الغائب كذلك؟ وتقريره: ما ذكرناه في الجواب عن الشبهة الأولى [(٢)]، هو أن ذات الله تعالى مخالفة

---

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٦٧ - ٢٦٨).

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣ - ٣٠٤).

بالحقيقة والماهية لهذه الحوادث، والمختلفان في الماهية لا يجب استواؤهما في اللوازم، فلم يلزم من كون الإدراك واجبا في الشاهد عند حضور هذه الشرائط كونه واجبا في الغالب عند حضورها، ومما يدل عليه: أن الإدراك في الشاهد مشروط بشرائط ثمانية هي: سلامة الحاسة، وكون الشيء بحيث أن يكون جائز الرؤية، وأن لا يكون في غاية البعد، وأن لا يكون في غاية القرب، وأن يكون مقابلا للرائي أو في حكم المقابل، وأن لا يكون في غاية اللطافة، وأن لا يكون بين الرائي والمرئي حجاب، وأن لا يكون في غاية الصغر، فلا يمكن اعتبار هذه الشرائط في رؤيته(١)

وفي الغالب نقطع بأنه لا يمكن اعتباره، فكذلك لا يمتنع أن يكون الإدراك في الشاهد واجب الحصول، وفي الغائب لا يكون واجبا(٢)

وتمام الكشف والتحقيق: أنا ذكرنا في المقدمات: أن المراد من الرؤية أن يحصل لنا انكشاف بالنسبة إلى ذاته المخصوصة، وهو يجري مجرى الانكشاف الحاصل عند إبصار الألوان والأضواء، وإذا كان الأمر كذلك فإذا الانكشاف يجب أن يكون على وفق المكشوف، فإن كان المكشوف مخصوصا بالجهة والحيز: وجب أن يكون الانكشاف كذلك، وإن كان المكشوف منزها عن الجهة: وجب أن يكون انكشافه منزها عن الحيز والجهة".(٣).

وهذا الجواب السابق مع ما فيه من حق إلا أنه اشتمل على باطل وهو: أن الجواب عن دليل المعتزلة بتسليم نفي الجهة والمقابلة عن الله تعالى باطل؛ لأن إثبات رؤية حقيقية بالأبصار عيانا من غير مقابلة أو جهة مكابرة عقلية، لأن الجهة من لوازم الرؤية وإثبات الملزوم ونفي اللازم مغالطة ظاهرة.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "يقال: هذا المنكر للرؤية المستدل على نفيها

---

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣).

(٣) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٣٠٣ - ٣٠٤)، وشرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٥).

بانتفاء لازمها وهو الجهة: قولك ليس في جهة، وكل ما ليس في جهة لا يرى، فهو لا يرى، وهكذا جميع نفاة الحق ينفونه لانتفاء لازمه في ظنهم، فيقولون لو رئي للزم كذا، واللازم منتف فينتفي الملزوم.

والجواب العام لمثل هذه الحجج الفاسدة: بمنع إحدى المقدمتين: إما معينة وإما غير معينة، فإنه لا بد أن تكون إحداهما باطلة أو كلتاهما باطلة، وكثيرا ما يكون اللفظ فيها مجملا يصح باعتبار ويفسد باعتبار، وقد جعلوا الدليل هو ذلك اللفظ المجمل، ويسميه المنطقيون الحد الأوسط، فيصح في مقدمة بمعنى، ويصح في الأخرى بمعنى آخر، ولكن اللفظ مجمل، فيظن الظان لما في اللفظ من الإجمال وفي المعنى من الاشتباه أن المعنى المذكور في هذه المقدمة هو المعنى المذكور في المقدمة الأخرى، ولا يكون الأمر كذلك.

مثال ذلك في مسألة الرؤية أن يقال له: أتريد بالجهة أمرا وجوديا أو أمرا عدميا؟

فإذا أردت به أمرا وجوديا كان التقدير: كل ما ليس في شيء موجود لا يرى. وهذه المقدمة ممنوعة ولا دليل على إثباتها، بل هي باطلة فإن سطح العالم يمكن أن يرى وليس العالم في عالم آخر.

وإن أردت بالجهة أمرا عدميا كمانت المقدمة الثانية ممنوعة، فلا نسلم أنه ليس بجهة بهذا التفسير.

وهذا مما خاطبت به غير واحد من الشيعة والمعتزلة فنفعه الله به، وانكشف بسبب هذا التفصيل ما وقع في هذا المقام من الاشتباه والتعطيل وكانوا يعتقدون أن ما معهم من العقليات النافية للرؤية قطعية لا يقبل في نقيضها نص الرسل، فلما تبين لهم أنها شبهات مبنية على ألفاظ مجملة ومعان مشتبهة، تبين أن الذي ثبت عن الرسول هو الحق المقبول".(١)

وقال أيضا: "يقال لهم: ما تعنون بأن هذا إثبات للجهة والجهة ممتنعة؟ أتعنون بالجهة أمرا وجوديا أو أمرا عدميا؟

---

(١) انظر: منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

فإن أردتم أمرا وجوديا. وقد علم أنه ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق، والله فوق سماواته بائن من مخلوقاته، لم يكن. والحالة هذه في جهة موجودة، فقولكم: إن المرئي لا بد أن يكون في جهة موجودة قول باطل، فإن سطح العالم مرئي، وليس هو في عالم آخر.

وإن فســـرتم الجهة بأمر عدمي كما تقولون: إن الجســـم في حيز، ولا حيز تقدير مكان، وتجعلون ما وراء العالم حيزا.

فيقال لكم: الجهة. والحيز. إذا كان أمرا عدميا فهو لا شـــيء، وما كان في جهة عدمية أو حيز عدمي، فليس هو في شيء، ولا فرق بين قول القائل: هذا ليس في شيء وبين قوله: هو في العدم أو أمر عدمي فإذا كان الخالق تعالى مباينا للمخلوقات عاليا عليها، وما ثم موجود إلا الخالق أو المخلوق، لم يكن معه غيره من الموجودات، فضلا عن أن يكون هو سبحانه في شيء موجود يحصره أو يحيط به.

فطريقة السلف والأئمة أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل، ويراعون أيضا الألفاظ الشرعية، فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، ومن تكلم بما فيه معني باطل يخالف الكتاب والســـنة ردوا عليه، ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حق وباطلا نســـبوه إلى البدعة أيضا، وقالوا: إنما قابل بدعة ببدعة، وردة باطلا بباطل".(١)

[الرد على الدليل الثاني والثالث]

أن نمنع كون الرؤية بالانطباع إما مطلقا أو في الغائب لاختلاف الرؤيتين(٢).

ونقول أيضا: أن الرؤية عبارة عن الانكشاف التام، فإن كان الشيء له صورة كان انكشافه بانكشـاف صورته ولونه، وإن كان منزها عن الصورة واللون كان انكشـافه كذلك أيضـا؛ لأن شرط الانكشاف أن يحصل على وفق ماهية المكشوف(٣)

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٥٣ - ٢٥٤) ومنهاج السنة النبوية له أيضا (٢/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

(٢) انظر: شرح للمواقف للجرجاني (٨/ ١٥٥).

(٣) انظر: الأربعين في أصول الدين الرازي (١/ ٣٠٤).

والحكم بأن المرئي لابد وأن تنطبع صـــورته ومثاله في العين، وأنه لا بد وأن يكون ذا لون وشكل مبني على أن هذه الأشياء المشاهدة المحسوسة لا ترى إلا كذلك، ثم قالوا: "لو صح أن يرى الله فلا يرى إلا كذلك" وهو ممنوع في حقه تعالى، والحق أنه تحكم محض وقياس للخالق على المخلوق، وهو باطل قطعا؛ لأنه قياس مع الفارق، فالله تعالى ليس كمثله شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه، فلا يصح قياسه عليه. قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: الآيات: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: الآية: ١١][١]

خامسًا: الأدلة العقلية للأشاعرة القائلين بأن الله تعالى يرى في غير جهة.

استدل الأشاعرة على جواز رؤية الله تعالى بأدلة عقلية، وهي:

١ - دليل الوجود: وهو أن كل موجود مرئي سواء أمكن مشاهدته أم لم يمكن.

قال الجويني: "الدليل على جواز الرؤية عقلا أن الرب-عز وجل-موجود، وكل موجود مرئي"[٢] ويدخل في ذلك جميع الموجودات كالأصوات، والروائح، والملموسات، والطعوم[٣]

٢ - معنى الرؤية ومفهوما والمراد بها. وجميع ذلك هو حقيقة الرؤية.

قال الغزالي-رحمه الله-(ت: ٥٠٥ هـ): "لا حقيقة لها إلا أنها نوع إدراك هو كمال ومزيد كشف بالاضافة إلى التخيل، إلا أن هذا الكمال في الكشف غير مبذول في هذا العالم، والنفس في شغل البدن وكدورة صفائه، فهو محجوب عنه. وكما لا يبعد أن يكون الجفن أو الستر أو سواد ما في العين سببا بحكم اطراد العادة الامتناع الإبصار للمتخيلات فلا يبعد أن تكون كدورة النفس وتراكم حجب الأشغال بحكم اطراد العادة مانعا من إبصار المعلومات. فإذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، وزكيت القلوب بالشراب الطهور، وصفيت

---

(١) انظر: رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها لأحمد بن ناصر آل حمد (ص: ٧٢).

(٢) انظر: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة للجويني (ص: ١١٥).

(٣) انظر: شرح المواقف للجرجاني (ص: ١٣٩).

بأنوع التصـفية والتنقية، لم يمتنع أن تشـتغل بسـببها لمزيد اسـتكمال واسـتيضـاح في ذات الله سبحانه أو في سائر المعلومات، يكون ارتفاع درجته عن العلم المعهود كارتفاع درجة الإبصار عن التخيل، يعبر عن ذلك بلقاء الله تعالى ومشاهدته، أو رؤيته، أو إبصاره، أو ما شئت من العبارات. فلا مشـاحة فيها وبعد إيضـاح المعاني. وإذا كان ذلك ممكنا بأن خلقت هذه الحالة في العين، كان اسم الرؤية بحكم وضع اللغة عليه أصدق وخلقه في العين غير مستحيل. كما أن خلقها في القلب غير مســـتحيل فإذا فهم المراد بها أطلقه أهل الحق من الرؤية، علم أن العقل لا يحيله، بل يوجبه، وأن الشـــرع قد شـــهد له فلا يبقى للمنازعة وجه إلا على ســـبيل العناد أو المشـــاحنة في إطلاق عبارة الرؤية أو القصـــور عن درك هذه المعاني الدقيقة التي ذكرناها".[(١)].

٣ - أن كل مرئي فهو في جهة، وهذا إنما هو حكم الشاهد لا حكم الغائب، وهذا الموضع ليس من المواضع التي يجب فيها نقل حكم الشـاهد إلى الغائب، وإنه جائز أن يرى الإنسـان ما ليس في جهة، إذا كان جائزا أن يرى الإنسان بالقوة المبصرة نفسها دون عين[(٢)]

٤ - أنه يمكن رؤية ما ليس في جهة، ومن أنكر ذلك فلا يقدر على انكار رؤية الإنســـان نفسه في المرآة، ومعلوم أنه ليس في مقابلة نفسه[(٣)]

٥ - أن رؤية غير الأجسام ممكنة وذلك لما يلي:

الأول: أن الشـــيء لا يخلو أن يرى من جهة ما هو ملون، أو من جهة أنه جســـم، أو من جهة أنه لون، أو من جهة أنه موجود، وربما من جهات أخر غير هذه الموجودة، وباطل أن يرى من قبل أنه جسم؛ إذ لو كان ذلك كذلك لما رئي ما هو غير جسم، وباطل أن يرى من قبل أنه ملون؛ إذ لو كان كذلك لمارئي اللون، وباطل أن يرى لمكان أنه لون؛ إذ لو كان ذلك

---

(١) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٤٥-٤٦) باختصار.

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٣٩).

(٣) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٤٣).

كذلك لمارئي الجسم، وإذا بطلت جميع هذه الأقسام التي تتوهم في هذا الباب فلم يبق أن يرى الشيء إلا من قبل أنه موجود.

الثاني: أن الحواس إنما تدرك ذوات الأشياء وما تنفصل به الموجودات بعضها من بعض، وهي أحوال ليست بذوات، فالحواس لا تدركها وإنما تدرك الذات، والذات هي نفس الوجود المشترك لجميع الموجودات، فإذا: الحواس إنما تدرك الشيء من حيث هو موجود(١)

سادسًا: الرد على أدلة الأشاعرة العقلية القائلين: بأن الله تعالى يرى في غير جهة.

[الرد على الدليل العقلي الأول]

أن قولهم: "أن كل موجود يري" غير صحيح، حيث جعلوا ذلك عاما لكل موجود كالأصوات والروائح والطعوم وغيرها، وهذه مكابرة للعقل، ومناقضة للواقع.

فإن المعاني ونحوها لا يمكن رؤيتها، ومن زعم ذلك فقد قال بالمحال، والتخبط في المقال، وقد اعترف كبار الأشاعرة المخالفين للأشعري نفسه بعدم صحة هذا الدليل، وعدم سلامته من الاعتراضات والإشكالات.

قال الرازي-رحمه الله-(ت: ٦٠٦ هـ): "اعلم أن جمهور الأصحاب عولوا في إثبات أنه تعالى يصح أن يرى على دليل الوجود، وأما نحن فعاجزون عن تمشيه، ونحن نذكر ذلك الدليل، ثم نوجه عليه ما عندنا من الاعتراضات".(٢)

وقد اعترف الرازي بعد إيراده للاستشكالات والاعتراضات على دليل الوجود بعجزه عن الجواب عنها فقال: "فهذا ما عندي من الأسئلة في هذا الدليل، وأنا غير قادر على الأجوبة عنها. . . اعلم أن الدليل العقلي المعول عليه في هذه المسألة هذا الذي أوردناه وأوردنا عليه هذه الاسئلة واعترفنا بالعجز عن الجواب عنها".(٣)

---

(١) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص: ١٨٧-١٨٩) وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٤٢ و٤٤٥) ودرء تعارض العقل والنقل له (٦/ ٢٣٠ - ٢٣٣).

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٦٨).

(٣) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ٢٧٧).

وقال أيضا: "ثبت أن صحة الرؤية حكم مشترك فيه بين الجواهر والأعراض والحكم المشترك فيه لا بد له من علة مشـــتركة فيها والمشـــترك بين الجوهر والعرض إما الحدوث أو الوجود والحدوث لا يصـلح للعلية لأن الحدوث عبارة عن وجود بعد عدم والقيد العلمي لا يصـلح للعلية فوجب أن تكون العلة هي الوجود والله تعالى موجود فوجب القول بصحة رؤيته، وهذا عندي ضعيف".(١)

ولذلك توقف الرازي في القول بالدليل العقلي لعدم صـــحته عنده وعدم ســـلامته من الاعتراضات والإشكالات.

قال في كتابه المطالب العالية: "الدلائل التي تمســـك بها نفاة الرؤية في غاية الضـــعف والســـقوط، وأما مثبتوا الرؤية فقد عولوا على أن قالوا: "الله تعالى موجود، وكل موجود فإنه تصـــح رؤيته" ودليلهم في الإثبات: أن كل موجود تصـــح رؤيته، قد ذكرناه في أحكام الموجودات، وأوردنا عليه اعتراضـــات قوية لا يمكن دفعها البتة، وإذا عرفت ضـــعف دلائل الفريقين فنقول: بقي هذا البحث في محل التوقف".(٢)

وقال الشـــهرســـتاني–رحمه الله–(ت: ٥٤٨ هـ): "وأما جواز الرؤية فالمســلك العقلي ما ذكرناه وقد وردت عليه تلك الإشـــكالات ولم تســـكن النفس في جوابها كل الســـكون ولا تحركت الأفكار العقلية الى التفصي عنها كل الحركة".(٣)

وقال الآمدي–رحمه الله–(ت: ٦٣١ هـ): "والواجب البداية بتقديم النظر في طرف الجواز العقلي أولا ثم في وقوعه شرعا ثانيا، وقد سلك المتكلمون في ذلك ومن أهل الحق مسالك لا تقوى: المســلك الأول: وهو ما اشــتهر من قولهم: الرؤية تتعلق بالموجودات المختلفة كالجواهر والأعراض. . . " ثم قال عن هذا الدليل: "ومن نظر بعين التحقيق علم أن المتعلق به منحرف

---

(١) انظر: معالم أصول الدين للرازي (ص: ٢٦٨).

(٢) انظر: المطالب العالية للرازي (٢/ ٨٧).

(٣) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص: ٣٢٩) وغاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ١٦٢).

عن سواء الطريق".[(١)]

وقال أيضا: "ولما تخيل بعض الأصحاب زيغ هذه الطريقة عن الصواب انتهج منهجا آخر فقال: إن الجواهر والأعراض متعلق الرؤية، ولا محالة أن بينهما اتفاقا وافتراقا. . . وهذا الإسهاب أيضا مما لا يشفي غليلا".[(٢)]

وقال أيضا: "لو سلم أن ما وقع به الافتراق لا يصلح أن يكون مصححا فإن المصحح لا بد وأن يكون أمرا مشتركا فلا بد من بيان أنه لا مشترك إلا "الوجود" والا فمع جواز القول باشتراكها في معنى آخر غير الوجود فيجوز أن يكون هو المصحح أو داخلا في المصحح، وعند ذلك فلا يلزم جواز تعلق الرؤية بواجب الوجود؛ لجواز أن يكون المصحح غير شامل له كما في الوجود، وذلك لا دليل عليه غير البحث والسبر وهو ما لا يرقى إلى ذروة اليقين بل لعله مما يقصر عن إفادة الظن والتخمين. . . ثم إنه لو قدر أنه لا مشترك إلا الوجود فلا بد من بيان أن وجود واجب الوجود مجانس للوجود الذي هو متعلق الرؤية شاهدا حتى يلزم تعلق الرؤية به وذلك مما يعز ويشق جدا".[(٣)]

وقال في ختام إيراده للاستشكالات والاعتراضات: "وعلى الجملة فلسنا نعتمد في هذه المسألة على غير المسلك العقلي الذي أوضحناه؛ إذ ما سواه لا يخرج عن الظواهر السمعية والاستبصارات العقلية، وهي مما يتقاصر عن إفادة القطع واليقين، فلا يذكر إلا على سبيل التقريب واستدراج قانع بها إلى الإعتقاد الحقيقي، إذ رب شخص يكون انقياده إلى ظواهر الكتاب والسنة واتفاق الأمة اتم من انقياده إلى المسالك العقلية والطرق اليقينية خشونة معركها وقصوره عن مدركها".[(٤)]

---

(١) انظر: غاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ١٤٢-١٤٣).

(٢) انظر: غاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ١٤٤-١٤٥).

(٣) انظر: غاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ١٤٧).

(٤) انظر: نفس المصدر (ص: ١٥٤).

[الرد على الدليل العقلي الثاني]

١ - أن قولهم: "بأن الرؤية هي زيادة علم وكشـف". هو نفس قول المعتزلة المنكرين للرؤية، فلا فرق بينهم في ذلك.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "أئمة أصحاب الأشعري المتأخرين لما تأملوا ذلك عادوا في الرؤية إلى قول المعتزلة أو قريب منه وفسروها بزيادة العلم كما يفسرها بذلك الجهمية والمعتزلة وغيرهم وهذا في الحقيقة تعطيل للرؤية الثابتة بالنصوص والإجماع والمعلوم جوازها بدلائل المعقول، بل المعلوم بدلائل العقول امتناع وجود موجود قائم بنفسه لا يمكن تعلقها به".(١)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "نفاة الرؤية من الجهمية والمعتزلة والفلاسفة يتأولون النصوص فيها تارة برؤية أفعال الله، وتارة برؤية القلب الذي هو زيادة العلم".(٢)

وقد اعترف بهذا كبار حذاق المتكلمين الأشعرية، وأن قولهم هو نفس قول المعتزلة.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وهذا صار حذاقهم إلى إنكار الرؤية وقالوا: قولنا هو قول المعتزلة في الباطن؛ فإنهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا ننازع فيه المعتزلة".(٣)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فلهذا صار الحذاق من متأخري الأشعرية على نفي الرؤية وموافقة المعتزلة، فإذا أطلقوها موافقة لأهل السنة فسروها بما تفسرها به المعتزلة، وقالوا: النزاع بيننا وبين المعتزلة لفظي".(٤)

٢ - أن تحريفكم لمعنى الرؤية بالكشف وزيادة العلم قول مبتدع لم يقله أحد من سلف

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥) باختصار..

(٢) انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٥/ ٧٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٨٥).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٥٠).

الأمة وأئمتها، وهو خلاف ما نقل عن الصادق المصدوق-صلى الله عليه وسلم-حينما أخبرنا عن رؤية الله تعالى فقال: "إنكم سترون ربكم عيانا".[(١)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما دعواه ودعوى غيره من الجهمية من المعتزلة ونحوهم أن الرؤية التي أخبر بها الرسول مزيد علم فمن سمع النصوص علم بالاضطرار أن الرسول إنما أخبر برؤية المعاينة، وأيضا فإن أدلة المعقول الصريحة تجوز هذه الرؤية".[(٢)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "أما إثبات رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة فهو قول سلف الأمة وأئمتها، وجماهير المسلمين من أهل المذاهب الأربعة وغيرها، وقد تواترت فيه الأحاديث عن النبي ﷺ عند علماء الحديث، وجمهور القائلين بالرؤية يقولون: يرى عيانا مواجهة، كما هو المعروف بالعقل".[(٣)]

[الرد على الدليل العقلي الثالث]

١ - نقول لهم: تفريقكم في نقل حكم الشاهد إلى الغائب بين الرؤية وبين غيرها من الصفات تفريق بين متماثلين، فكما نقلتم حكم الشاهد إلى الغائب في صفة الحياة والعلم، فكذلك يلزمكم في الرؤية.

وهؤلاء اختلط عليهم إدراك العقل مع إدراك البصر، فإن العقل هو الذي يدرك ما ليس في جهة -أعني في مكان- وأما إدراك البصر فظاهر من أمره أن من شرطه أن يكون المرئي منه في جهة -أعني في مكان- ولا في كل جهة فقط بل في جهة ما مخصوصة، ولذلك ليس تتأتى الرؤية بأي وضع اتفق أن يكون البصر من المرئي، بل بأوضاع محدودة وشروط محدودة أيضا، وهي ثلاثة أشياء: "حضور الضوء، والجسم الشفاف المتوسط بين البصر والمبصر، وكون المبصر ذا ألوان ضرورة"، والرد هذه الأمور المعروفة بنفسها في الأبصار هو رد للأوائل

---

(١) أخرجه البخاري (رقم: ٧٤٣٥).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٥٢).

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/ ٣٤١).

المعلومة بالطبع للجميع، وإبطال لجميع علوم المناظر والهندســــة، وقد قال القوم -أعني الأشــــعرية-: "إن أحد المواضــــع التي يجب أن ينقل فيها حكم الشــــاهد إلى الغائب هو الشــــرط، مثل: حكمنا أن كل عالم حي؛ لكون الحياة تظهر من الشــــاهد شــــرطا في وجود العالم"،وإن كان كذلك قلنا لهم: وكذلك يظهر في الشــاهد أن هذه الأشــياء هي شــروط في الرؤية فألحقوا الغائب منها بالشاهد على أصلكم(١)

٢ - أن قولكم: "جائز أن يرى الإنســــان ما ليس في جهة" هذا إنما يكون متصــــورا في العقول، أما في الخارج فلا يوجد مرئي إلا وهو في جهة.

٣ - يقال لهم: قولكم: "ما ليس في جهة" هذا اللفظ قول مبتدع لم يرد به الشرع إثباتا ولا نفيا، ثم ماذا تقصدون به؟ إن قصدتم أنه لا داخل العالم ولا خارجه فقد قلتم الباطل والمحال، وإن قصــدتم أنه ليس فوق العرش إله فقد جحدتم رب العالمين، وإن قصــدتم أنه بذاته في كل مكان فقد قلتم قولا أعظم من قول النصاري في عيسى-عليه السلام-، وإن قصدتم أنه تعالى لا تحيط به المخلوقات، بل هو بائن عن المخلوقات، فقد أصابتم المعنى وأخطأتم في استعمال اللفظ.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "من قال: إن الله ليس في جهة، قيل له: ما تريد بذلك؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق الســـماوات رب يعبد، ولا على العرش إله، ومحمد لم يعرج به إلى الله تعالى، والأيدي لا ترفع إلى الله تعالى في الدعاء، ولا تتوجه القلوب إليه، فهذا فرعوني معطل جاحد لرب العالمين.

وإن كان معتقدا أنه مقر به، فهو جاهل متناقض في كلامه. ومن هنا دخل أهل الحلول والاتحاد كابن عربي، وقالوا: إن الله بذاته في كل مكان، وأن وجود المخلوقات هو وجود الخالق.

وإن قال: مرادي بقولي: "ليس في جهة" أنه لا تحيط به المخلوقات، بل هو بائن عن

(١) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص: ١٨٦) وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٣٩ - ٤٤٠) والدرء له أيضا (٦/ ٢٢٩).

المخلوقات، فقد أصاب في هذا المعنى.

وكذلك من قال: إن الله متحيز، أو قال: ليس بمتحيز، إن أراد بقوله: "متحيز" أن المخلوقات تحوزه وتحيط به فقد أخطأ. وإن أراد أنه منحاز عن المخلوقات لا تحويه فقد أصاب. وإن أراد: ليس ببائن عنها، بل هو لا داخل فيها ولا خارج عنها فقد أخطأ.

والناس في ذلك ثلاثة أصناف: أهل الحلول والاتحاد، وأهل النفي والجحود، وأهل الإيمان، والتوحيد، والسنة.

فأهل الحلول يقولون: إنه بذاته في كل مكان، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة، فيقولون: وجود المخلوقات وجود الخالق، كما هو مذهب **ابن عربي (ت: ٦٣٨ هـ)** صاحب "الفصوص" **وابن سبعين (ت: ٦٦٩ هـ)** ونحوهما.

وأما أهل النفي والجحود فيقولون: لا هو داخل العالم ولا خارج عنه، ولا مباين له ولا حال فيه، ولا فوق العالم ولا فيه، ولا ينزل منه شيء ولا يصعد إليه شيء، ولا يتقرب إليه شيء، ولا يدنو منه شيء، ولا يتجلى الشيء ولا يراه أحد، ونحو ذلك.

وهذا قول متكلمة الجهمية، كما أن الأول قول عباد الجهمية. فمتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئا، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شيء، وكلاهما مرجعهم إلى التعطيل والجحود الذي هو قول فرعون".(١)

٤ - أن استلزام الرؤية لأن يكون الله بجهة من الرائي ثابت لا محذور فيه، فقد دل العقل الصريح والنقل الصحيح والقياس الصحيح وهو قياس التنبية وقياس الأولى على إثبات ذلك.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الوجه الثالث: أن كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله بجهة من الرائي أمر ثبت بالنصوص المتواترة وفيه مع إخباره أنهم يرونه إخبارهم أنه يرونه في جهة منهم من وجوه:

أحدها: أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون بجهة منهم، فأما رؤية ما ليس في

(١) انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٢٠٣-٢٠٤).

الجهة فهذا لم يكونوا يتصورونه ولا يعرفونه فضلا عن أن يكون اللفظ يدل عليه.

ولست تجد أحدا من الناس يتصور وجود موجود في غير جهة، فضلا عن أن يتصور أنه يرى، فضلا عن أن يكون اسم الرؤية المشهورة في اللغات كلها يدل على هذه الرؤية الخاصة.

الثاني: أنه شبه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر، وليس ذلك تشبيها للمرئي بالمرئي، ومن المعلوم أنه إذا كانت رؤيته مثل رؤية الشمس والقمر وجب أن يرى في جهة من الرائي، كما أن رؤية الشمس والقمر كذلك، فإنه لو لم يكن كذلك لأخبرهم برؤية مطلقة نتأولها على ما يتأول من يقول بالرؤية في غير جهة، أما بعد أن يستفسرهم عن رؤية الشمس صحوة ورؤية البدر صحوة ويقول: "إنكم ترون ربكم كذلك" فهذا لا يمكن أن يتأول على الرؤية التي يزعمونها، فإن هذا اللفظ لا يحتملها لا حقيقة ولا مجازا.

الثالث: أنه شبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات إذا لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين المرئي، ومن يقول: "إنه يرى في غير جهة" يمتنع عنده أن يكون بينه وبين العباد حجاب منفصل عنهم، إذ الحجاب لا يكون إلا لجسم، ولما يكون في جهة، وهم يقولون: "الحجاب عدم خلق الإدراك في العين"، والنبي ﷺ مثل رؤيته برؤية هذين النورين العظيمين إذا لم يكن دونها حجاب.

الرابع: أنه أخبر أنهم: **"لا يضارون في رؤيته"** وفي حديث آخر: **"لا يضامون"** ونفي الضير والضيم إنما يكون لإمكان لحوقه للرائي، ومعلوم أنا يسمونه رؤية وهو "رؤية ما ليس بجهة" من الرائي لا فوقه ولا في شيء من جهاته لا يتصور فيها ضير ولا ضيم حتى ينفي ذلك، بخلاف رؤية ما يواجه الرائي ويكون فوقه، فإنه قد يلحقه فيه ضيم وضير إما بالازدحام عليه أو كلال البصر لخفائه: كالهلال، وإما لجلائه: كالشمس والقمر.

الوجه الرابع: أن كون الله يرى بجهة من الرائي ثبت بإجماع السلف والأئمة".[١].

[الرد على الدليل العقلي الرابع]

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٤/ ٤٣٢ - ٤٤٩) باختصار وتصرف.

أن قولهم ذلك مغالطة للواقع، فالمرآة في جهة الناظر إليها، وهو إنما ينظر إلى صـــورته فيها. فإن الذي يبصر هو خيال ذاته فقط، والخيال منه هو في جهة إذا كان الخيال في المرآة، والمرآة في جهة(١)

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "قال العقلاء هذا تلبيس فإنه إنما يرى خيال صورته وهو عرض منطبع في الجسم الصقيل وهو في جهة منه ولا يرى حقيقة صورته القائمة به".(٢).

[الرد على الدليل العقلي الخامس]

قولكم: أن رؤية غير الأجســـام ممكنة، قول باطل مخالف للعقل الصـــريح والواقع، ومكابرة للمعقول والمحسوس.

فأما الوجه الأول في اســـتدلالكم: فالمغالطة في هذا القول بينة؛ فإن المرئي منه ما هو مرئي بذاته ومنه ما هو مرئي من قبل المرئي بذاته، وهذه هي حال اللون والجســـم، فإن اللون مرئي بذاته، والجسـم مرئي من قبل اللون، ولذلك ما لم يكن له لون لم يبصـر، ولو كان الشـيء إنما يرى من حيث هو موجود فقط لوجب أن تبصر الأصوات وسائر المحسوسات الخمس، فكان يكون البصر والسـمع وسـائر الحواس الخمس حاسـة واحدة، وهذا كله خلاف ما يعقل، وقد اضـطر المتكلمون لمكان هذه المسـألة وما أشـبهها أن يسـلموا أن الألوان ممكنة أن تسـمع، والأصوات ممكنة أن ترى، وهذا كله خروج عن الطبع وعما يمكن أن يعقله الإنسان، فإنه من الظاهر أن حاسـة البصـر غير حاسـة السـمع، وأن محسـوس هذه غير محسـوس تلك، وأن آلة هذه غير آلة تلك، وأنه ليس يمكن أن ينقلب البصـــر سمعا، كما ليس يمكن أن يعود اللون صوتا، وعلى هذا فتكون الأشياء كلها شيئا واحدا حتى المتضادات، وهذا شيء فيها أحسب يســـلمه المتكلمون من أهل ملتنا، أو يلزمهم تســـليمه –يعني هؤلاء الأشـــعرية– وهو رأي

(١) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص: ١٨٧) وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢/ ٤٤١) والدرء له أيضا (٦/ ٢٣٠).

(٢) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٤/ ١٣٣٣).

سوفسطائي لأقوام قدماء مشهورين بالسفسطة.

وأما الوجه الثاني في استدلالكم: ففي غاية الفساد، ومن أبين ما يظهر به فساد هذا القول أنه لو كان البصـر إنما يدرك الأشـياء لوجودها لما أمكنه أن يفرق بين الأبيض والأسـود؛ لأن الأشياء لا تفترق بالشيء الذي تشترك فيه، ولكان بالجملة لا يمكن في الحواس: لا في البصر أن يدرك فصـول الألوان، ولا في السـمع أن يدرك فصـول الأصـوات، ولا في الطعم أن يدرك فصـــول المطعومات، وللزم أن تكون مدارك المحســوســـات بالحس واحدا، فلا يكون فرق بين مدرك السـمع وبين مدرك البصـر، وهذا كله في غاية الخروج عما يعقله الإنسـان، والسبب في مثل هذه الحيرة الواقعة في الشـــريعة حتى ألجأت القائمين بنصـــرتها في زعمهم إلى مثل هذه الأقاويل الهجينة التي هي ضـــحكة عند من عني بتمييز أصـــناف الأقاويل أدنى عناية، هو التصريح في الشرع بها لم يأذن الله ورسوله به، فإذا متى أخذ الشرع في أوصاف الله تعالى على ظاهره لم تعرض فيه هذه الشـــبهة ولا غيرها لأنه إذا قيل إنه نور وإن له حجابا من نور كما جاء في القرآن والســـنن الثابتة ثم قيل إن المؤمنين يرونه في الدار الآخرة كما ترى الشـــمس لم يعرض في هذا شـك ولا شـبهة في حق الجمهور ولا في حق العلماء وذلك أنه قد تبرهن عند العلماء أن تلك الحال مزيد علم لكن متى صـرح به للجمهور بطلت عندهم الشـريعة كلها أو كفروا المصـرح لهم بها، فمن خرج عن منهاج الشـريعة في هذه الأشـياء فقد ضـل عن سـواء السبيل".(١)

سابعًا: الأدلة الشرعية للأشاعرة القائلين: بأن الله تعالى يرى في غير جهة.

اســتدل الأشــاعرة بالأدلة الواردة في القرآن والســنة على صــحة رؤية الله تعالى في الآخرة، وإمكان وقوعها. ومع قولهم بصـــحة ذلك إلا أنهم قد حكموا بأن دلالتها على الرؤية ظنية وليست قطعية.

قال الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ): "المســألة العاشــرة: قيل: الدلائل النقلية لا تفيد

(١) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (ص: ١٨٧–١٩٠) وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٦/ ٢٣٠–٢٣٦).

اليقين؛ لأنها مبنية على نقل اللغات ونقل النحو والتصريف، وعدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم الإضرار، وعدم النقل، وعدم التقديم والتأخير، وعدم التخصيص، وعدم النسخ، وعدم المعارض العقلي، وعدم هذه الأشياء مظنون لا معلوم، والموقوف على المظنون مظنون، وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية، وأن العقلية قطعية، والظن لا يعارض القطع".(١)

وقد ذهب جمهورهم ومتأخروهم لذلك إلى عدم إثبات رؤية حقيقة بالأبصار، وإنما يحرفونها ويؤولونها إما مجازا، أو زيادة علم وكشف، ويجعلونها في غير جهة.

ومن الأدلة التي استدلوا بها القرآن الكريم:

١ - قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣].

قال الرازي-رحمه الله-(ت: ٦٠٦ هـ): "والنظر إلى الشيء يوجب رؤيته، فجاز أن يكون المراد من النظر هو الرؤية على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب، وأيضا حكى الله تعالى عن الخليل-عليه السلام-أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: الآيات: ٩٩] وليس المراد منه القرب بالجهة، فكذا ههنا".(٢).

وقال الغزالي-رحمه الله-(ت: ٥٠٥ هـ): "وإن حصل له العلوم اليقينية إما على سبيل الحدس وإما على سبيل الفكر، ونزه أخلاقه وحسنها وعمل بموجب الشرع فله الدرجة العليا في السعادة، وله الوصول بلا انفصال وهو النظر الى الجمال الحق والجلال المحض، والكمال الصرف، كما قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيات: ٢٢-٢٣]، فحق العاقل أن يسعى لطلب تلك السعادة ويحترز عن مضادها وعوائقها".(٣).

وقال الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ): "أمثال هذه الظواهر لا تفيد إلا ظنونا ضعيفة جدا،

---

(١) انظر: معالم أصول الدين للرازي (ص: ٢٥).

(٢) انظر: تأسيس التقديس للرازي (ص: ٢٠٩).

(٣) انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس للغزالي (ص: ١٤٥).

وحينئذ لا تصلح هذه الظواهر للتعديل عليها في المسائل العلمية التي يطلب فيها اليقين".(١).

٢ - قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: الآية: ١٥].

قال الرازي-رحمه الله-(ت: ٦٠٦ هـ): "يجوز أن يكون المراد من الحجاب عدم الرؤية؛ وذلك لأن الحجاب يقتضـــي المنع من الرؤية، فكان إطلاق لفظ الحجاب على المنع من الرؤية: مجازة، من باب إطلاق السبب على المسبب".(٢)

وقال الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ): "ذكر ذلك تحقيرًا لشـــأنهم فلزم منه كون المؤمنين مبرئين عنه، فوجب أن لا يكونوا محجوبين عنه، بل رائين له، وهذا المسلك أيضا من الظواهر المفيدة للظن".(٣)

٣ - قوله تعالى: **﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** [الأنعام: الآية: ١٠٣].

قال الغزالي-رحمه الله-(ت: ٥٠٥ هـ): "أي في الدنيا فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة في ذلك التلوث فمنها ما تراكم عليها الخبث والصدأ فصارت كالمرآة التي قد فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ولا تقبل الاصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد، ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يســـتعد بصـــفائه ونقائه من الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لأن يتجلى فيه الحق-جل جلاله-، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما عليه كانكشاف تجلي المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله، وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية، فإذا الرؤية حق بشـــرط أن لا تفهم من الرؤية اســـتكمال الخيال في متخيل متصـــور مخصـــوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب العالمين علوا كبيرا، بل كما عرفته في

(١) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٠).

(٢) انظر: نفس المصدر (ص: ٢١٠).

(٣) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ١٥٠).

الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تصور وتخيل وتقدير شكل وصورة، فتراه في الآخرة كذلك، بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الانكشاف والوضوح وتنقلب مشاهدة، فلا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، فإذا لم يكن في المعرفة إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة؛ لأنها هي بعينها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا؛ لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والبذور زرعا ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل فكذلك من لا يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة".(١)

ومن الأدلة التي استدلوا بها من السنة النبوية:

حديث **عمار بن ياسر**–**رضي الله عنهما**–(**ت: ٣٧ هـ**)، حين سمع النبي–صلى الله عليه وسلم–يدعو بهذا الدعاء: (**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**)(٢)

قال الغزالي–**رحمه الله**–(**ت: ٥٠٥ هـ**): "لذة النظر إلى وجه الله الكريم، هذه المعرفة وإن

---

(١) انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس للغزالي (ص ١٥٧ – ١٥٩) باختصار.

(٢) أخرجه النسائي (رقم: ١٣٠٥) وابن حبان (رقم: ١٩٧١) والطبراني في كتاب الدعاء (رقم: ٦٢٤) وابن أبي عاصم في السنة (رقم: ٤٢٥) وابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٩) والدارمي في الرد على الجهمية (رقم: ١٨٨) وتمام الرازي في فوائده (٢/ ١٤٧ رقم ١٣٨٧) والدارقطني في كتاب رؤية الله (رقم: ١٥٨) والحاكم في المستدرك (رقم: ١٩٢٣) وصححه، ووافقه الذهبي، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٥٤٠ رقم: ٨٤٥) والبيهقي في الأسماء والصفات (رقم: ٢٢٧).

عظمت لذتها، فلا نســـبة لها إلى لذة النظر إلى وجه الله الكريم في الدار الآخرة، وذلك لا يتصـــور في الدنيا لسـر. لا يمكن الآن كشـفه، ولا ينبغي أن تفهم من النظر ما يفهمه العوام والمتكلمون، فيحتاج في تقديره إلى جهة ومقابلة، فلذلك من نظر من أقعده القصـــور في بحبوحة عالم الشهادة حتى لم يجاوز المحسوسات التي هي مدركات البهائم، لكن ينبغي أن تفهم أن الحضـــرة الربوبية تنطبع صـــورتها وترتيبها العجيب على ما هو عليه من البهاء والعظمة والجلال والمجد في قلب العارف، كما تنطبع مثلا صـورة العالم المحسـوس في حواسـك، فكأنك تنظر إليه وإن غمت عينيك، فإن فتحت العين، وجدت الصـورة المبصـرة مثل الصـورة المتخيلة قبل فتح العين لا تخالفها في شـيء، إلا أن الإبصـار في غاية الوضـوح بالنسـبة إلى التخيل، وكذلك ينبغي أن تعلم أن في إدراك ما لا يدخل في الخيال والحس أيضـا في درجتين متفاوتين في الوضوح غاية التفاوت، ونسبة الثانية إلى الأولى كنسبة الإبصار إلى التخيل، فتكون الثانية غاية الكشف، فيسمى لذلك مشاهدة ورؤية.

والرؤية لم تســـم رؤية لأنها في العين؛ إذ لو خلقت في الجبهة لكانت رؤية، بل لأنها غاية الكشـــف، فكما أن تغميض الأجفان حجاب عن غاية الكشـــف في المبصـــر، فكدورة الشـــهوات وشـــواغل هذا القالب المظلم حجاب عن غاية المشـــاهدة؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] وقال تعالى: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـارُ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٠٣]، فإذا ارتفع هذا الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشـــاهدة، ويكون مشـاهدة كل واحد على قدر معرفته، ولذلك تزيد لذة أولياء الله سـبحانه في النظر على لذة غيرهم، ويتجلى الله تعالى لأبي بكر-رضـي الله عنه-(**ت: ١٣ هـ**) خاصـة، ويتجلى للناس عامة، وكذلك لا يراه إلا العارفون؛ لأن المعرفة بذر النظر، بل هي التي تنقلب مشـاهدة كما ينقلب التخيل إبصارا، فلذلك لا يقتضي مقابلة ولا جهة".[1]

ثامنًا: الرد على الأشاعرة في تحريفهم للأدلة النقلية.

---

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين للغزالي (ص: ٢٥٤-٢٥٥).

لقد خالف جمهور الأشاعرة مخالفة صريحة ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها من إثبات رؤية الله في الدار الآخرة رؤية حقيقة بالأبصار عيانا، وتناقضوا حينما أثبتوا رؤية في غير جهة، وحقيقة قولهم هو موافقة المعطلة في إنكار الرؤية، والرد عليهم كما يلي:

١ - تفسيرهم لتلك الآيات الكريم، والأحاديث الصحيحة، إنما هو تحريف للكلم عن مواضعه، فلم يقل تلك التحريفات لا رسول الله ﷺ ولا أصحابه–رضي الله عنهم–ولا التابعون لهم بإحسان، ولا أئمة الإسلام من الأئمة الأربعة ونحوهم.

٢ - أنهم في تحريفهم لأدلة الرؤية عن معانيها الحقيقة الثابتة قد خالفوا إمامهم **الإمام أبا الحسن الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ)** المنتسبين إليه، وخالفوا كبار أتباعه المتقدمين، وهذا حال جمهور الأشاعرة الذين ينتسبون للإمام الأشعري، فقد خالفوه في كثير مما تبرأ منه من أقوال الجهمية والمعتزلة، ومنها مسألة الرؤية.

قال أبو الحسن الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ): "الباب الأول: الكلام في إثبات رؤية الله سبحانه بالأبصار في الآخرة، قال الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: الآية: ٢٢]، يعني: **(مشرقة)** ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآية: ٢٣]، يعني: رائية؛ لأن النظر إذا ذكر مع ذكر "الوجه" فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه، كما إذا ذكر أهل اللسان نظر القلب فقالوا: "أنظر في هذا الأمر بقلبك"، لم يكن معناه نظر العينين، وكذلك إذا ذكر النظر مع "الوجه" لم يكن معناه نظر الانتظار الذي يكون للقلب، وأيضا فإن نظر الانتظار لا يكون في الجنة؛ لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير، وأهل الجنة في "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت" من العيش السليم والنعيم المقيم.

وإذا كان هذا هكذا لم يجز أن يكونوا منتظرين؛ لأنهم كلما خطر ببالهم شيء أتوا به مع خطوره ببالهم، وإذا كان ذلك كذلك فلا يجوز أن يكون الله–عز وجل–أراد نظر التعطف؛ لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم، وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع من أقسام النظر، وهو: أن معنى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآية: ٢٣]، أنها رائية

ترى ربها-عز وجل-، والرؤية إذا أطلقت إطلاقا ومثلت برؤية العيان لم يكن معناها إلا رؤية العيان، إن المســـلمين اتفقوا على أن الجنة فيها "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشــر" من العيش الســليم، والنعيم المقيم، وليس نعيم في الجنة أفضـل من رؤية الله تعالى بالأبصار.

وأكثر من عبد الله تعالى عبده للنظر إلى وجهه الكريم -أرانا الله إياه بفضــله- فإذا لم يكن بعد رؤية الله-عز وجل-أفضــل من رؤية نبيه ﷺ، وكانت رؤية نبي الله أفضـــل لذات الجنة كانت رؤية الله-عز وجل-أفضـل من رؤية نبيه ﷺ، وإذا كان ذلك كذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسـلين، وملائكته المقربين، وجماعة المؤمنين، والصـديقين النظر إلى وجهه الكريم؛ وذلك أن الرؤية لا تؤثر في المرئي؛ لأن رؤية الرائي تقوم به، فإذا كـان هـذا هكـذا، وكـانت الرؤية غير مؤثرة في المرئي لم توجب تشـبيها ولا انقلابا عن حقيقة، ولم يسـتحل على الله-عز وجل-أن يري عباده المؤمنين نفسه في جنانه".(١)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فهذا كله من كلام الأشـعري مثل احتجاجه بما ذكره عن المسـلمين جميعا من قولهم: إن الله احتجب بسـمع سموات على أنه فوق العرش، وهو إنما احتجب عن أن يراه خلقه، لم يحتجب عن أن يراهم هو، فعلم أن هذا يحجب العباد عن رؤيته، وهذا يقتضــي أنهم يرونه برفع هذه الحجب، وذلك يقتضــي أنهم يرونه في الجهة، فإن من يثبت رؤيته في غير جهة من الرائي لا يقول بجواز الحجب المنفصـــلة أيضـــا كما تقدم، وكذلك احتجابه بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الشورى: الآية: ٥١]، وأن الآية دلت على أن الله يحجب بعض المخلوقات دون بعض فعلم أنه لا يحتجب عن بعضـــهم واحتجاجه بذلك على أن الله فوق العرش يقتضي أن يحتجب عمن يراه ببعض مخلوقاته وهذا يسـتلزم أنه لا يرى إلا في جهة من الرائي وكذلك احتجاجه في مسـألة العلم بأن الله نور وأن

(١) انظر: الإبانة عن أصول الديانة للأشعري (ص: ٣٥-٥٥) باختصار وتصرف.

ذلك يقتضي أنه يرى ويقتضي أن رؤيته توجب علوه وكلام الأشعري في مسألة الرؤية والعلو يقتضي تلازمهما".(١)

٣ – أنهم يقصدون بقولهم: "في غير جهة" نفي علو الله تعالى عن خلقه، وفوقيته على عرشه واستوائه عليه.

قال الرازي–رحمه الله–(ت: ٦٠٦ هـ): "نقول: قوله: ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤] آية محكمة دالة على أن قوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤] من المتشابهات التي يجب تأويلها، وهذه نكتة لطيفة، ونظير هذا أنه تعالى قال في أول سورة الأنعام: ﴿**وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ**﴾ [الأنعام: الآية: ٣] ثم قال بعده بقليل: ﴿**قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ**﴾ [الأنعام: الآية: ١٢] فدلت هذه الآية المتأخرة على أن كل ما في السموات فهو ملك الله، فلو كان الله في السموات لزم كونه ملكا لنفسه وذلك محال، فهكذا هاهنا، فثبت بمجموع هذه الدلائل العقلية والنقلية أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز، وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان: الأول: أن نقطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة، ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل، بل نفوض علمها إلى الله، وهو الذي قررناه في تفسير قوله: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ**﴾ [آل عمران: الآية: ٧] وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه".(٢)

وجعل الرازي القول بنفي الجهة المتسلزمة للعلو والفوقية أمرا بدهيا اتفق عليه العقلاء سوى من شذ عنهم، ولم يشذ عن جميع العقلاء إلا فريقان وهم الحنابلة والكرامية.

قال الرازي–رحمه الله–(**ت: ٦٠٦ هـ**): "إن العلوم البديهية لا يجوز وقوع الاختلاف فيها

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٤/ ٤٦٢).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٦٩).

للجميع العظيم، فلو كان وقوع هذه المقدمة بديهيا لامتنع إطباق الجمع العظيم على إنكاره، ونرى جمهور الأذكيا من العقلاء متفقين على بطلان هذه المقدمة؛ فإن إثبات الجهة لله تعالى لم يقل به إلا الحنبلية والكرامية، وأما كل من سواهم فهم متفقون على أن ذاته–عز وجل–منزه عن الاختصاص بالحيز والجهة، فظهر أن هذه المقدمة ليس بديهية".(١)

وقد أخطأ الرازي في ذلك القول خطأ عظيما، وجهل ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها من إثبات الرؤية في الآخرة إثباتا حقيقيا بالأبصـار عيانا، وقد بين ابن تيمية خطأ الرازي في ذلك وانحرافه عن منهج الأنبياء والمرسلين، وتحريفه لكلام رب العالمين.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "بل خصـــومه في هذا الباب جميع الأنبياء والمرسـلين وجميع الصـحابة والتابعين، وجميع أئمة الدين من الأولين والآخرين، وجميع المؤمنين الباقين على الفطرة الصحيحة –دع ما قد تنازع فيه من ذلك– فإنهم لا يطلقون على الله هذا الإطلاق الذي ذكره، وإن كان فيهم وفي سـائر الطوائف من نص بالصـفات التي يطلق عليها هو وأمثاله أنها أجزاء وأبعاض، لكنهم لا يطلقون الألفاظ الموهمة المجملة إلا إذا نص الشـــرع، فأما ما لم يرد به الشـرع فلا يطلقونه إلا إذا تبين معناه الصـحيح الموافق للشـرع، ونفي المعنى الباطل وفي لفظ الأجزاء، والأبعاض إجمال وإيهام كما سنذكره إن شاء الله، وما علمت أحدا من الحنابلة من يطلقه من غير بيان، بل كتبهم مصـــرحة بنفي ذلك المعنى الباطل، ومنهم من لا يتكلم في ذلك بنفي ولا إثبات.

فلا ريب أن الكتب الموجودة بأيدي الناس، تشـــهد بأن جميع السـلف من القرون الثلاثة كانوا على خلاف ما ذكره، وأن الأئمة المتبوعين عند الناس والمشايخ المقتدى بهم، كانوا على خلاف ما ذكره، وهذه أئمة المالكية، والشـافعية، والحنفية، وأهل الحديث، والصـوفية على ذلك، بل أئمة الصـفاتية من الكلابية والكرامية والأشـعرية على خلاف ما قاله، فهذه كتب ابن كلاب (**كان باقيا قبل الأربعين ومائتين**) إمام طائفته، ثم الحارث المحاسـبي (**ت: ٢٤٣**

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين للرازي (١/ ١٥٢).

هـ) ونحوه، ثم أبي الحسن الأشعري (**ت: ٣٢٤ هـ**)، وأئمة أصحابه مثل أبي عبد الله بن مجاهد (**ت: ٣٧٠ هـ**)، وأبي الحسن الطبري (**ت: ٣٦٠ هـ**)، وأبي العباس القلانسي (**ت: ٣٢٨ هـ**)، وغيره -كما سيأتي إن شاء الله حكاية قوله وقول غيره- والقاضي أبي بكر بن الباقلاني (**ت: ٣٣٨ هـ**)، وأبي علي بن شاذان (**٤٢٦ هـ**)، وغيرهم، كلهم يقولون: بإثبات العلو لله على العرش واستوائه عليه دون ما سواه، ويضللون من يفسر ذلك بالاستيلاء والقهر ونحوه - كما قد حكينا بعض أقوالهم في جواب الاستفتاء، وفي جواب هذه المسائل الموردة عليه وذكرنا أن أبا الحسن الأشعري ذكر أن هذا قول جميع أهل السنة والحديث، وبه يقول الرازي وهو قد حكي أيضا في كتبه ذلك عن بعض أئمة أصحابه، وذكر للأشعري نفسه قولين -وقد تكلمنا على ذلك- فكيف يزعم أن خصومه إنما هم الكرامية والحنابلة! بل لم يوافقه إلا فريق قليل من أهل القبلة".[١]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "أكثر طوائف العقلاء يقولون بالعلو، وبامتناع وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه، وأما كلام من نقل مذهب السلف والأئمة فأكثر من أن يمكن سطره. . . **وعن جرير بن عبد الحميد الرازي-رحمه الله-(ت: ١٨٧ هـ)** أنه قال: "كلام الجهمية أوله عسل وآخره سم، وإنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء إله".

وجميع الطوائف تنكر هذا، إلا من تلقى ذلك عن الجهمية، كالمعتزلة ونحوهم من الفلاسفة، فأما العامة من جميع الأمم فلا يستريب اثنان في أن فطرهم مقرة بأن الله فوق العالم، وأنهم إذا قيل لهم: "لا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا يصعد إليه شيء، ولا ينزل منه شيء، ولا يقرب إليه شيء، ولا يقرب هو من شيء، ولا يحجب العباد عنه شيء، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا تتوجه القلوب إليه طالبة له في العلو" فإن فطرهم تنكر ذلك، وإذا أنكروا هذا في هذه القضية المعينة التي هي المطلوب، فإنكارهم لذلك في القضايا المطلقة العامة التي تتناول هذا وغيره

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/ ٢٣١ - ٢٣٥).

أبلغ وأبلغ، وأما خواص الأمم فمن المعلوم أن قول النفاة لم ينقل عن نبي من الأنبياء، بل جميع المنقول عن الأنبياء موافق لقول أهل الإثبات، وكذلك خيار هذه الأمة من الصـــحابة والتابعين لهم بإحســـان لم ينقل عنهم إلا ما يوافق قول أهل الإثبات، وأول من ظهر عنه قول النفاة هو الجعد بن درهم (**ت: ١٢٤ هـ**)، والجهم بن صـــفوان (**ت: ١٢٨ هـ**)، وكانا في أوائل المائة الثانية فقتلهما المسلمون، وأما سائر أئمة المسلمين، مثل: مالك-رحمه الله-(**ت: ١٧٩ هـ**)، والثوري-رحمه الله-(**ت: ١٦١ هـ**)، والأوزاعي-رحمه الله-(**ت: ١٥٧ هـ**)، وأبي حنيفة-رحمه الله-(**ت: ١٥٠ هـ**)، والشافعي-رحمه الله-(**ت: ٢٠٤ هـ**)، وأحمد بن حنبل-رحمه الله-(**ت: ٢٤١ هـ**)، وغيرهم، فالكتب مملوءة بالنقل عنهم لما يوافق قول أهل الإثبات، وكذلك شـــيوخ أهل الدين، مثل: الفضـــيل بن عياض-رحمه الله-(**ت: ١٨٧ هـ**)، وبشـــر الحافي (**ت: ٢٢٧ هـ**)، وأحمد بن أبي الحواري (**ت: ٢٣٠ هـ**)، وســـهل بن عبد الله التســـتري (**ت: ٢٨٣ هـ**)، وعمرو بن عثمان المكي (**ت: ٢٩٧ هـ**)، والحارث المحاســـبي (**ت: ٢٤٣ هـ**)، ومحمد بن خفيف الشيرازي (**ت: ٣٧١ هـ**)، وغير هؤلاء.

وكتب أهل الآثار مملوءة بالنقل عن الســـلف والأئمة لما يوافق قول أهل الإثبات، ولم ينقل عن أحد منهم حرف واحد صحيح يوافق قول النفاة، فإذا كان سلف الأئمة وأئمتها وأفضل قرونها متفقين على قول أهل الإثبات، فكيف يقال: "ليس هذا إلا قول الكرامية والحنبلية"؟، ومن المعلوم أن ظهور قول أهل الإثبات قبل زمن أحمد بن حنبل كان أعظم من ظهوره في هذا الزمان، فكيف يضاف ذلك إلى أتباعه؟

وأيضا فعبد الله بن سعيد بن كلاب-رحمه الله-(**ت: ٢٤١ هـ**)، والحارث المحاسبي-رحمه الله-(**ت: ٢٤٣ هـ**)، وأبو العباس القلانســـي-رحمه الله-(**ت: في العشـــر الثاني من القرن الرابع هـ**)، وأبو الحســـن بن مهدي الطبري-رحمه الله-(**ت: نحو ٣٨٠ هـ**)، وعامة قدماء الأشـــعرية يقولون: إن الله بذاته فوق العرش، ويردون على النفاة غاية الرد، وكلامهم في ذلك كثير مذكور في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا التنبيه على بطلان ما يعارض به النفاة من الحجج العقلية، وأما النفي فلم يكن يعرف إلا عن الجهمية كالمعتزلة ونحوهم، ومن وافقهم من الفلاسفة، وإلا فالمنقول عن أكثر الفلاسفة هو قول أهل الإثبات، كما نقله ابن رشد الحفيد عنهم، وهو من أعظم الناس انتصارا لهم، وسلوكا لطريقتهم، لا سيما لأرسطو وأتباعه، كما أنه يميل إلى القول بقدم العالم أيضا.

الثاني: من أجوبة قوله: "لو كان بديهيا لامتنع اتفاق الجمع العظيم على إنكاره، وهم ما سوى الحنابلة والكرامية".

هو أن يقال: لم يطبق على ذلك إلا من أخذه بعضهم عن بعض، كما اخذ النصارى دينهم بعضهم عن بعض، وكذلك اليهود والرافضة وغيرهم.

فأما أهل الفطر التي لم تغير فلا ينكرون هذا العلم، وإذا كان كذلك فأهل المذاهب الموروثة لا يمتنع إطباقهم على جحد العلوم البديهية، فإنه ما من طائفة من طوائف الضلال -وإن كثرت- إلا وهي مجتمعة على جحد بعض العلوم الضرورية.

الثالث: أن يقال: ما من طائفة من طوائف الكلام والفلسفة إلا وجمهور الناس يقولون: "إنهم جحدوا العلوم الضرورية". فالقائلون بأن الممكن قد يترجح أحد طرفيه بلا مرجح من القادر أو غيره، يقول جمهور العقلاء: إنهم جحدوا العلوم الضرورية.

والقائلون بأن الأجسام لا تبقى والأعراض لا تبقى، يقول جمهور الناس: إنهم جحدوا العلوم الضرورية.

والقائلون بأن الأصوات المتعاقبة تكون قديمة أزلية الأعيان باقية، وأن الأصوات المسموعة من الآدميين هي قديمة، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلم الضروري.

والقائلون بأن الكلام هو معنى واحد: هو الأمر بكل ما أمر به، والخبر عن كل ما أخبر به، وأنه وإن عبر عنه بالعربية كان هو القرآن، وإن عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة، يقول جمهور العقلاء: إنهم جحدوا العلم الضروري.

والقائلون بأن العالم هو العلم والمعلوم، والعاقل هو العقل والمعقول، والعاشق هو العشق

والمعشـــوق، واللـذة هي الملتـذ، والعلم هو القـدرة، والقـدرة هي الإرادة، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلوم الضرورية.

والقائلون بأن الوجود الواجب وجود مطلق بشـــرط الإطلاق أو لا بشـــرط، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلوم الضرورية.

والقـائلون بأن النفس لا تـدرك إلا الكليـات دون الجزئيـات، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلم الضروري.

والقائلون بأن كل موجود يجوز أن تتعلق به الإدراكات الخمسـة، وأن الصـوت يرى، والطعم يسمع، واللون يشم، يقول جمهور العقلاء: إنهم خالفوا العلم الضروري.

والقائلون بأنه يحدث إرادة لا في محل، أو يحدث فناء لا في محل، يقول جمهور العقلاء: أن فساد قولهم معلوم بالضرورة.

والقائلون بأن الإرادة تحدث في الإنســان من غير ســبب يوجب حدوثها، مما يقول جمهور العقلاء: إن فساد قولهم معلوم بالضرورة.

والقائلون بأنه حي عليم قدير، من غير حياة ولا علم ولا قدرة، مما يقول جمهور العقلاء: إن فساد قولهم معلوم بالضرورة.

والقائلون بأن النبي-صـلى الله عليه وسـلم-نص على علي بالخلافة نصـا جليا أشـاعه بين المسلمين، فكتموه ولم يظهروه، يقول جمهور العقلاء: إن قولهم معلوم الفساد بالضرورة.

والقائلون بأن للأمة إماما معصـوما عمره سـنتان -أو ثلاث أو أربع- دخل السـرداب من أكثر من أربعمائة سنة، أو أن عليا لم يمت، وأمثال ذلك، يقول جمهور الناس: إن قولهم معلوم الفساد بالضرورة.

وكذلك قول القائلين بأن الأعراض لا تبقي زمانين، مما يقول جمهور العقلاء: إن فســـاده معلوم بالضرورة.

وكذلك من يقول: إن النبي-صـــلى الله عليه وســلم-كان يســمي المنافقين مؤمنين، ويجعل إيمانهم كإيمان المؤمنين غير المنافقين، وهم مع ذلك مخلدون في النار، مما يعلم جمهور العقلاء

المسلمين فساده بالاضطرار من دين الإسلام.

وكذلك القائلون بأن القرآن العزيز زيد فيه زيادات، ونقص منه أشـياء، مما يعلم بالضـرورة امتناعه في العادة.

وقول النصارى: إن الكلمة اتحدت بالمسيح، وإنها ليس هي الآب الجامع للأقانيم، وهي مع ذلك الرب الذي يخلق ويرزق، وهي جوهر، والجوهر عندهم واحد ليس إلا الآب، مما يقول الناس: إنه معلوم الفساد بالضرورة. ومثل هذا إذا تتبعناه كثير.

فوجود الأقوال التي يقول جمهور الناس: إنها معلومة الفساد بالضـرورة في قول طوائف كثيرة من الناس أكثر من أن تستوعب، فكيف يقال: "لا يجوز إطباق الجمع الكثير على إنكار ما علم بالبديهة"؟

الوجه الرابع: أن يقال: هذا معارض بما هو أبلغ منه، فإن الجموع الكثيرة يقولون: إنهم يجدون في أنفسهم عند الضـرورة معني يطلب العلو في توجه قلوبهم إلى الله ودعائه، وأنه يمتنع في عقولهم وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه، وأن هذا معلوم لهم بالضـرورة، فإن امتنع اتفاق الجمع العظيم على مخالفة البديهة، فتجب الحجة المثبتة، فيبطل نقيضـها، وإن لم تمتنع بطلت حجة النفاة، فيثبت بطلانها على التقديرين".[(١)]

٤ - أن الذي ورد عن سـلف الأمة وأئمتها هو إثبات الجهة، وهي جهة العلو والفوقية لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وهو عكس ما ادعوه من نفي الجهة، وعكس ما زعموه من النهي عن إطلاقها أو القول بها.

قال أبو عبد الله القرطبي-رحمه الله-(**ت: ٦٧١ هـ**): "كان السـلف الأول-رضـي الله عنهم-لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته. قال

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٦/ ٢٥٠ و٢٦٥-٢٧٢) باختصار وتصرف.

مالك-رحمه الله-: الاستواء معلوم -يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة. وكذا قالت أم سـلمة-رضـي الله عنها-. وهذا القدر كاف، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء".(١)

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢١٩-٢٢٠) باختصار.

البعث والحساب

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات البعث

المسألة الثانية: ثمرات الإيمان بالبعث واليوم الآخر.

المسألة الثالثة: الذين خالفوا في مسألة البعث.

المسألة الرابعة: حكم من أنكر البعث.

[٦٥]- قال المصنف رحمه الله: ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدِّين، فيتولَّى حسابهم بنفسه، لا يُولِّي ذلك غيره.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأدلة على إثبات البعث.

أول مراحل الحياة الآخرة حياة البرزخ وعذاب القبر ونعيمه، ثم بعد ذلك يأتي البعث، ويسبق البعث النفخ.

البعث بعد الموت: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سيبعث الناس بعد موتهم، ويُعيد إليهم أرواحهم، وذلك للحساب والجزاء.

دلَّ على ذلك الأدلة المتوافرة من الكتاب والسُّنَّة وإجماع المسلمين، بل واليهود والنصارى وكل الشرائع السماوية السابقة.

عظم الله أمر الإيمان باليوم الآخر وقرنه بالإيمان به، فقال تعالى: (يؤمنون بالله وباليوم الآخر)، فجمع بين الإيمان به عز وجل والإيمان باليوم الآخر لعظيم حقه وهو ركن من أركان الإيمان فنؤمن باليوم الآخر بجميع ما يتعلق به

ومن الأدلة على إثبات البعث

أولًا: من القرآن.

قال تعالى: ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾ [البقرة: الآية: ١٧٧].

قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: الآية: ٢٩]

قال تعالى: ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)**﴾ [الرعد: ٢].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]،

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ [النور: ٦٤].

ثانيًا: من السنة:

ما جاء في حديث جبريل-عليه السلام-؛ أنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: (أن تُؤمن باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه). [(١)]، وفي رواية: (والبَعْث بعدَ الموْتِ). [(٢)]

عن ابنِ عبَّاس-رضي الله عنهما-، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (أيُّها النَّاس، إنَّكم مَحْشُورُونَ إلى الله حُفَاة عُرَاة غُرْلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية: ١٠٤]، ثُمَّ إنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكسى يوم القيامة إبراهيمُ). [(٣)]

ويوم البعث يخرج الإنسان من قبره فيجد ملكًا من قِبَل الله يأخذه ويوقفه في المكان الذي يريده الله له، أو يسوقه إلى موقفه المناسب قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: الآية: ٢١].

عن ابن عباس-رضي الله عنهما-، قوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال: "السائق من الملائكة، والشهيد: شاهد عليه من نفسه" . [(٤)]

وروي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٨) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجها ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٨٩) (١٦٨) وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢) (٣٠٤٤٥)، وصححها الألباني في التعليقات الحسان (١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٤٠) ومسلم (٢٨٦٠).

(٤) انظر تفسير الطبري (٢٢/ ٣٤٨).

تقطعوا بالشهادة على مسلم.[١]

ثالثًا: الإجماع.

روي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم.[٢]

قال ابن حزم: "اتفقوا أن البعث حق، وأن الناس كلهم يبعثون في وقت تنقطع فيه سكناهم في الدنيا"[٣]

وقال: "البعث حق، والحساب حق،... يجمع الله تعالى يوم القيامة بين الأرواح والأجساد، كل هذا إجماع من جميع أهل الإسلام، من خرج عنه خرج عن الإسلام"[٤]

وقال ابن حزم: "اتفق جميع أهل القبلة –على تنابذ فرقهم– على القول بالبعث في القيامة، وعلى تكفير من أنكر ذلك"[٥]

المسألة الثانية: ثمرات الإيمان بالبعث واليوم الآخر:

أولًا: الحرص على طاعة الله تعالى؛ رغبة في ثواب ذلك اليوم، والبعد عن معصيته، خوفًا من عقاب ذلك اليوم. وذلك بالتزام بما يحبّه الله–تعالى–من الأعمال والأقوال والأحوال وتجنّب ما يُبغضه.

---

(١) رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)

(٢) رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)

(٣) ينظر: (مراتب الإجماع) (ص: ١٧٥).

(٤) ينظر: (الدرة) (ص: ٣١١).

(٥) ينظر: (الفصل) (٤/٦٦).

ثانيًا: تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا، ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها. [(١)]

ثالثًا: عِظَم الأجر والثواب، فإنّ الإيمان بالبعث والحساب من الإيمان بالأمور الغيبيّة، والتي وعد الله أهلها بالاهتداء والرزق الكريم وحسن العاقبة يوم القيامة. الاجتهاد في فعل الطاعات، والرغبة في ملازمة ما يحبّه الله ويرضاه، وامتثال أمره طمعًا بالأجر والثواب وحُسن العاقبة.

رابعًا: الحَذر من المعاصي والنواهي وما أبغضه الله، والحرص على تجنّب ما حذّر منه خوفًا من العقاب والعذاب.

خامسًا: الصبر على الابتلاءات، والرضا بقضاء الله وقدره.

سادسًا: الأخذ بأسباب حُسن الخاتمة، ومن أهمّها: ملازمة الأعمال الصالحة وتجنّب الأعمال السيئة المخالفة للشريعة، وسؤال الله -تعالى- حُسن الخاتمة والموت على ما يحبّه من الأعمال. [(٢)]

المسألة الثالثة: الذين خالفوا في مسألة البعث:

قال ابن تيمية: "طوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد الأرواح ولا الأجساد، وقد بين الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك بيانا في غاية التمام والكمال.

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة؛ فإنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ... وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان؛ فإن محمدا صلى الله عليه وسلم قد بين ذلك بيانا شافيا قاطعا للعذر"[(٣)]

فالقرامطة الباطنية والفلاسفة أتباع المشائين، ونحوهم من الملاحدة ينكرون حقائق ما أخبر

---

(١) (مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين) (٣/ ٢٦٠).

(٢) ثمرات الإيمان باليوم الآخر، للشيخ عبدالله بن صالح القصيِّر، المصدر: موقع الألوكة. بتصرّف.

(٣)ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٣)..

الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر"[(١)]

فهذه الطوائف نفت ما دلت عليه نصوص المعاد، من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، كما نفت ما دلت عليه نصوص الصفات من نعوت الجلال وأوصاف الكمال، وهذا ضلال صراح وكفر بواح، وهؤلاء هم الغلاة، من القرامطة والباطنية الإسماعيلية، والفلاسفة المشائين.

فالقرامطة معتقدهم في اليوم الآخر: أنهم كلهم أنكروا القيامة، وقالوا: هذا النظام، وتعاقب الليل والنهار، وتولد الحيوانات لا ينقضي أبدا. وأولوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام، ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار.[(٢)]

أما الجهمية والمعتزلة فهم يؤمنون بالبعث مع خلل في بعض مسائل المعاد كمسائل عذاب القبر، وكذلك الشفاعة، وفناء الجنة والنار، وغيرها من المسائل التي تتعلق باليوم الآخر.

وقال الإيجي: "أجمع أهل الملل عن آخرهم على جواز حشر الأجساد ووقوعه، وأنكرهما الفلاسفة"[(٣)]

المسألة الرابعة: حكم من أنكر البعث.

قال ابن حزم: "فمن قال: إن الأرواح أعراض فانية، أو قال: إنها تنتقل إلى أجسام أخر؛ فهو منسلخ من إجماع أهل الإسلام؛ لخلافه القرآن والسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم والإجماع، ... وهو قول أهل التناسخ، وهو كفر بلا خلاف، وكذلك من أنكر إحياء العظام والأجساد يوم القيامة، أو أنكر البعث؛ فخارج عن دين الإسلام بلا خلاف من أحد من الأئمة"[(٤)]

وقال ابن عبد البر: "قد أجمع المسلمون على أن من أنكر البعث، فلا إيمان له ولا شهادة،

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٣).

(٢) القرامطة لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٣) المواقف في علم الكلام (٣/ ٤٧٤).

(٤) ينظر: (الدرة) (ص: ٣١٥).

وفي ذلك ما يغني ويكفي، مع ما في القرآن من تأكيد الإقرار بالبعث بعد الموت؛ فلا وجه للإنكار في ذلك"[١]

وقال الغزالي: "فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع؛ كالذي ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام، واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعيا؛ إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد، وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين؛ فيجب تكفير كل من تعلق"[٢]

وقال عياض: "وكذلك نقطع على كفر من قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعمها فيها بحسب زكائها وخبثها"[٣]

وقال أيضـا: "كذلك من أنكر الجنة أو النار، أو البعث أو الحسـاب أو القيامة؛ فهو كافر بإجماع؛ للنص عليه، وإجماع الأمة على صـحة نقله متواترا، وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار والحشـــر والنشـــر والثواب والعقاب معنى غير ظاهره، وأنها لذات روحانية، ومعان باطنة، كقول النصـارى والفلاسـفة والباطنية وبعض المتصـوفة، وزعم أن معنى القيامة الموت أو فناء محض وانتقاض هيئة الأفلاك وتحليل العالم كقول بعض الفلاسفة"[٤]

---

(١) ينظر: (التمهيد) (٩/١١٦).

(٢) ينظر: ((مجموعة رسائل الإمام الغزالي) (ص: ٢٤٦).

(٣)ينظر: (الشفا) (٢/ ٢٨٣).

(٤)ينظر: (الشفا) (٢/ ٢٩٠).



القرآن كلام الله

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أهمية صفة الكلام.

المسألة الثانية: الأقوال في كلام الله.

المسألة الثالثة: قول أهل السنة في القرآن وأنه كلام الله.



[٦٦] - قال المصنف رحمه الله: والقرآن كلام الله، تكلَّم به، ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق؛ فهو جهمي كافر.

[٦٧] - ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ولم يقل: ليس بمخلوق، فهو أكفرُ من الأوَّلِ وأخبث قولًا.

[٦٨] - ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله، فهو جهمي خبيث مبتدع.

[٦٩] - ومن لم يُكفِّر هؤلاء القوم، والجهمية كلهم فهو مثلهم.

[٧٠] - وكلَّم الله موسى تكليمًا، وناوله التوراة من يده إلى يده، ولم يزل الله متكلِّماً عالماً فتبارك الله أحسن الخالقين.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أهمية صفة الكلام.

هذه مسألة من كبريات مسائلِ باب الصفات؛ فأكبرُ مسألتين في باب الأسماء والصفات ركَّز عليها أعداءُ الإسلام تركيزاً شديداً

- مسألةُ العلو.
- ومسألةُ الكلام.

لأنهم إذا أبطلوا كونَ القرآن كلام الله أبطلوا حقيقةَ الوحي،

وإذا أبطلوا علوَّ الله تعالى أبطلوا وجوده،

فهذه غايتهم وهدفهم الذي يريدون أن يصلوا إليه.

ذلك لأن أعظم ركيزتين تقوم عليهما المبادئ الفلسفية لدى الفلاسفة هما:

١. أن العلمَ مصدره الإنسان. وفي هذا تكذيب للوحي.
٢. وأن المعلومات والعلوم محصورةٌ في المحسوس المشاهَد. وفي هذا إنكار للغيب وأعظم

الغيب هو الله.

فتسلَّط أعداءُ الله على باب الصفات من أجلِ أن يشكِّكُوا في كلامِ الله وذلك بإنكارهم بأن يكون القرآن كلامُ الله حقيقة.

وأن يشكِّكُوا في وجودِ الله بإنكارهم لعلو الله عز وجل.

فلذلك وقفوا وقفةً خبيثة، وهجموا هجمةً شرسة ضد هاتين الصفتين، فإذا كنا نقول إنهم يزعمون أن العلوم مصدرها الإنسان، ونحن نقول إن العلم الشرعي مصدره الوحي فلمَّا هؤلاء يلغونَ أن الله تكلم حقيقة، ويشكِّكُّون في أن هناك وحي وقالوا: هذه عبارة محمد؛ أو عبارة جبريل، وأن الله ما تكلم حقيقة. لأنهم إذا أسقطوا الوحي وقطعوا عليك طريق الوحي فسيتساوى قولُ محمد مع قولِ أي بشرٍ من الناس.

صفة الكلام تأتي-من حيث الأهمية-مع صفة العُلو لله سبحانه وتعالى؛ لذلك اهتم بهما أئمة السلف، وأكدوا على ثُبوتهما لله تعالى حقيقة، وأوردوا في ذلك أدلة كثيرة.

وبالنسبة لصفة الكلام التي هي موضوع حديثنا هنا فإن علماء أهل السنة بينوا الحق في هذه المسألة ووقفوا موقفاً عظيماً صلباً حتى إنه كما هو معلوم في زمن فتنةَ القولِ بخلقِ القرآن، فقام المأمون وهو كان من المعتزلة ويتبنَّى قول المعتزلة، فعذَّب مَن عذَّب من العلماء وفصَلَهم عن وظائفهم وسجنهم وقام بتعذيبهم لأجلِ أن يرفعَ هذا الشعار؛ أن القرآنَ مخلوق وأنه ليس كلامُ الله حقيقة.

فدفع أهل السنة شبهات المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومَن دَار في فَلَكهم القائلين بأنَّ الله خلق القرآن في غيره، وردوا كذلك على الكلَّابية الذين قالوا: القرآن حكاية عن كلام الله، وردوا-أيضًا-على الأشاعرة الذين قالوا: القرآن عبارة عن كلام الله.

فالمعطلة أرادوا بقولهم هذا: إسقاط قيمة الوحي؛ ليصبح لدى الناس خلل في اتباع الوحي، فأهل السنة يؤمنون بأن أول مصدر للتشريع هو وحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ، أي: كلامه بحروفه ومعانيه، وأن الله تعالى قاله بحرف وصوت.

وأوَّل مَن عُرف أنه قال: مخلوق الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان.

وأول مَن عُرِف أنه قال: هو قديم عبد الله بن سـعيد بن كلاب، (ت: ٢٤١ هـ)، ثم افترق الذين شـاركوه في هذا القول؛ فمنهم مَن قال: الكلام معنى واحد قائم بذات الرَّبِّ، ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يَتعدد ولا يتبعض، والقرآن العربي لم يتكلم الله به، بل هو مخلوق خلقه في غيره.

وقال جمهور العقلاء: هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار؛ فإنَّه مِن المعلوم بصريح العقل أن معنى (آية الكرسي) ليس معنى (آية الدَّيْن)، ولا معنى ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: الآية: ١]، معنى ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ [المسد: الآية: ١]؛ فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه؟!

ومنهم مَن قال: هو حروف، أو حروف وأصـوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يَزل ولا يزال موصوفًا بها.

وكلا الحزبين يقول: إن الله تعالى لا يتكلم بمشـيئته وقدرته، وإنه لم يزل ولا يزال يقول: يا نوح، يا إبراهيم، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، ولم يقل أحد من السـلف بواحد من القولين، ولم يقل أحدٌ من السـلف: إنَّ هذا القرآن عبارة عن كلام الله، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق، فضلًا عن أن يقول: إن صوتي به قديم أو غير مخلوق؛ بل كانوا يقولون بما دلَّ عليه الكتاب والسـنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يَقرءونه بأصواتهم، ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مَخلوق". [(١)]

وأما المعتزلة والجهمية فقالوا: القرآن كلام الله مخلوق؛ فهم أضـافوا الكلام إلى الله من باب إضافة الوصف على حد قولهم: (ناقة الله).

ومن المتفلسفة مَن يزعم أن المعاني والحروف تأليفه؛ لكنها فاضت عليه كما يفيض العلم على غيره من العلماء.

---

(١) (مجموع الفتاوى) (١٢/ ٣٠١، ٣٠٢).

المسألة الثانية: الأقوال في كلام الله [(١)].

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "مسألة كلام الله تعالى، والناس فيها مضطربون، وقد بلغوا فيها إلى تسعة أقوال: وعامة الكتب المصنفة في الكلام وأصول الدين لم يذكر أصحابها إلا بعض هذه الأقوال إذ لم يعرفوا غير ما ذكروه، فمنهم من يذكر قولين، ومنهم من يذكر ثلاثة، ومنهم من يذكر أربعة، ومنهم من يذكر خمسة، وأكثرهم لا يعرفون قول السلف.

– **أحدها**: قول من يقول: إن كلام الله ما يفيض على النفوس من المعاني التي تفيض: إما من العقل الفعال عند بعضهم، وإما من غيره.

وهذا قول الصابئة والمتفلسفة الموافقين لهم كابن سينا وأمثاله، ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ومتكلميهم كأصحاب وحدة الوجود. وفي كلام صاحب الكتب "المضنون بها على غير أهلها" (بل "المضنون الكبير والمضنون الصغير") ورسالة "مشكاة الأنوار" وأمثاله ما قد يشار به إلى هذا، وهو في غير ذلك من كتبه يقول ضد هذا، لكن كلامه يوافق هؤلاء تارة وتارة يخالفه، وآخر أمره استقر على مخالفتهم ومطالعة الأحاديث النبوية.

وثانيها: قول من يقول: إنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه.

وهذا قول هذا الإمامي وأمثاله من الرافضة المتأخرين، والزيدية، والمعتزلة، والجهمية.

---

(١) لخص شارح العقيدة الطحاوية أقوال المخالفين في صفة الكلام فقال: "وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال: **أحدها**: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة. **وثانيها**: أنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه، وهذا قول المعتزلة. **وثالثها**: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبريه كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعري وغيره. **ورابعها**: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث. **وخامسها**: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما، وهذا قول الكرامية وغيرهم. **وسادسها**: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في المطالب العالية. **وسابعها**: أن كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي. **وثامنها**: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه. **وتاسعها**: أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة". شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٧٢–١٧٤.

وثالثها: قول من يقول: إنه معنى واحد قديم قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة.

وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره.

ورابعها: قول من يقول: إنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل.

وهذا قول طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث. ذكره الأشعري في " المقالات " عن طائفة. وهو الذي يذكر عن السالمية ونحوهم. وهؤلاء

قال طائفة منهم: إن تلك الأصوات القديمة هي الصوت المسموع من القارئ، أو هي بعض الصوت المسموع من القارئ.

وأما جمهورهم مع جمهور العقلاء فأنكروا ذلك، قالوا: هذا مخالف لضرورة العقل.

وخامسها: قول من يقول: إنه حروف وأصوات لكن تكلم به بعد أن لم يكن متكلما، وكلامه حادث في ذاته كما أن فعله حادث في ذاته بعد أن لم يكن متكلما ولا فاعلا. وهذا قول الكرامية وغيرهم.

وهو قول هشام بن الحكم وأمثاله من الشيعة. وهؤلاء منهم من يقول: هو حادث وليس بمحدث، ومنهم من يقول: بل هو محدث أيضا. وقد ذكر القولين الأشعري عنهم في "المقالات" وذكر الخلاف بين أبي معاذ التومني وبين زهير الأثري. والكرامية يقولون: حادث لا محدث.

وسادسها: قول من يقول: إنه لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء بكلام يقوم به وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام أزلي قديم، م وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديما.

وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

وسابعها: قول من يقول: كلامه يرجع إلى ما يحدث من علمه وإرادته القائم بذاته. ثم من هؤلاء من يقول: لم يزل ذاك حادثا في ذاته، كما يقوله أبو البركات صاحب "المعتبر" وغيره،

ومنهم من لا يقول بذلك، وأبو عبد الله الرازي يقول بهذا القول في مثل " المطالب العالية ".

وثامنها: قول من يقول: كلامه يتضمن معنى قائما بذاته وهو ما خلقه في غيره. ثم من هؤلاء من يقول في ذلك المعنى بقول ابن كلاب، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

ومنهم من يقول بقول المتفلسفة وهذا قول طائفة من الملاحدة الباطنية متشيعهم ومتصوفيهم.

وتاسعها: قول من يقول: كلام الله مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات. وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه من متأخري الأشعرية".(١)

وفصل ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ) هذه الأقوال فقال: "فصل: اختلف أهل الأرض في كلام الله تعالى،

[مذهب الاتحادية]

فذهب الاتحادية القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود كلام الله: نظمه ونثره وحقه وباطله سحره وكفره والسب والشتم والهجر والفحش، وأضداده كله غير كلام الله تعالى القائم به كما قال عارفهم:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وهذا المذهب مبني على أصلهم الذي أصلوه، وهو أن الله سبحانه هو عين هذا الوجود، فصفاته هي صفات الله، وكلامه هو كلام الله، وأصل هذا المذهب إنكار مسألة المباينة والعلو، فإنهم لما أصلوا أن الله تعالى غير مباين لهذا العالم المحسوس صاروا بين أمرين لا ثالث لهما إلا المكابرة.

أحدهما: إنه معدوم لا وجود له، إذ لو كان موجودا لكان إما داخل العالم وإما خارجا عنه، وهذا معلوم بالضرورة، فإنه إذا كان قائما بنفسه، فإما أن يكون مباينا للعالم أو محايثا له، إما داخلا فيه وإما خارجا عنه.

الأمر الثاني: أن يكون هو عين هذا العالم، فإنه يصح أن يقال فيه حينئذ أنه لا داخل العالم

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٥٨-٣٦٣).

ولا خارجه، ولا مباينا له ولا حالا فيه، إذ هو عينه، والشيء لا ينافي نفسه ولا يحايثها، فرأوا أن هذا خير من إنكار وجوده وبالحكم عليه بأنه معدوم، ورأوا أن الفرار من هذا إلى إثبات موجود قائم بنفسه، لا داخل العالم ولا خارجا، ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا مباين له ولا محايث ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه، فرارا إلى ما لا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة ولا تأتي به شريعة. ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه إلا على أحد وجهين لا ثالث لهما.

أحدهما: أن يكون ساريا فيه حالا فيه، فهو في كل مكان بذاته، وهو قول جميع الجهمية الأقدمين.

الوجه الثاني: أن يكون وجوده في الذهن لا في الخارج، فيكون وجوده سبحانه وجودا عقليا، إذ لو كان موجودا في الأعيان لكان إما عين هذا العالم أو غيره، ولو كان غيره لكان إما بائنا عنه أو حالا فيه، كلاهما باطل، فثبت أنه عين هذا العالم، فله حينئذ كل اسم حسن قبيح، وكل صفة كمال ونقص، وكل كلام حق وباطل، نعوذ بالله من ذلك.

[مذهب الفلاسفة المتأخرين]

المذهب الثاني: مذهب الفلاسفة المتأخرين أتباع أرسطو، وهم الذين يحكي ابن سينا والفارابي والطوسي قولهم: إن كلام الله فيض فاض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته منه، لهذه النفوس عندهم ثلاث قوى: قوة التصور وقوة التخييل وقوة التعبير، فتدرك بقوة تصورها من المعاني ما يعجز عنه غيرها، وتدرك بقوة تخيلها شكل المعقول في صورة المحسوس، فتتصور المعقول صورا نورانية تخاطبها وتكلمها بكلام تسمعه الآذان، وهو عندهم كلام الله ولا حقيقة له في الخارج، وإنما ذلك كله من القوة الخيالية الوهمية، قالوا وربما قويت هذه القوة على إسماع ذلك الخطاب لغيرها، وتشكيل تلك الصور العقلية لعين الرائي فيرى الملائكة ويسمع خطابهم، وكل ذلك من الوهم والخيال لا في الخارج.

فهذا أصل هؤلاء في إثبات كلام الرب وملائكته وأنبيائه ورسله، والأصل الذي قادهم إلى

هذا عدم الإقرار بالرب الذي عرفت به الرسل ودعت إليه، وهو القائم بنفسه المباين العالي فوق سماواته فوق عرشه الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته، العالم بجميع المعلومات، القادر على كل شيء، فهم أنكروا ذلك كله.

[مذهب المعتزلة]

المذهب الثالث: مذهب الجهمية لصفات الرب تعالى أن كلامه مخلوق ومن بعض مخلوقاته، فلم يقم بذاته سبحانه، فاتفقوا على هذا الأصل واختلفوا في فروعه، قال الأشعري في كتاب المقالات: اختلفت المعتزلة في كلام الله، هل هو جسم أو ليس بجسم، وفي خلقه على ستة أقاويل:

فالفرقة الأولى: منهم يزعمون أن كلام الله جسم، وأنه مخلوق، وأنه لا شيء إلا جسم.

والفرقة الثانية: زعموا أن كلام الخلق عرض وهو حركة؛ لأنه لا عرض عندهم إلا الحركة وأن كلام الخالق جسم، وأن ذلك الجسم صوت متقطع مؤلف مسموع، وهو فعل الله وخلقه، وهذا قول أبي الهذيل وأصحابه، وأحال النظام أن يكون كلام الله في أماكن كثيرة أو مكانين في وقت واحد، وزعم أنه في المكان الذي خلق فيه.

والفرقة الثالثة: من المعتزلة تزعم أن القرآن مخلوق لله وأنه عرض وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد إذا تلاه قال فهو يوجد مع تلاوته، وإذا كتبه وجد مع كتابته، وإذا حفظه وجد مع حفظه، وهو يوجد في الأماكن بالتلاوة والحفظ والكتابة ولا يجوز عليه الانتقال والزوال.

والفرقة الرابعة: يزعمون أن كلام الله عز وجل عرض وأنه مخلوق وأحالوا أن يوجد في مكانين في وقت واحد، وزعموا أن المكان الذي خلقه الله تعالى فيه محال انتقاله وزواله منه ووجوده في غيره، وهذا قول جعفر بن حرب وأكثر البغداديين.

والفرقة الخامسة: أصحاب معمر يزعمون أن القرآن عرض، والأعراض عندهم قسمان: قسم منهما يفعله الأحياء وقسم منهما يفعله الأموات، ومحال أن يكون ما يفعله الأموات فعلا للأحياء، والقرآن مفعول وهو عرض، ومحال أن يكون الله فعله في الحقيقة، لأنهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلا لله، وزعموا أن القرآن فعل للمحل الذي يسمع منه، إذ سمع من الشجرة،

فهو فعل لها حيث سمع، فهو فعل المحل الذي حل فيه.

والفرقة السادسة: يزعمون أن كلام الله عرض مخلوق، وأنه يوجد في أماكن كثيرة في وقت واحد، وهذا قول الإسكافي.

واختلفت المعتزلة في كلام الله هل يبقى؟ فقالت فرقة منهم: يبقى بعد خلقه، وقالت فرقة أخرى: لا يبقى إنما يوجد في الوقت الذي خلقه الله ثم يعدم بعد ذلك، وهذا المذهب هو من فروع الأصل الباطل المخالف لجميع كتب الله ورسله، ولصريح المعقول والفطر، من جحد صفات الرب وتعطيل حقائق أسمائه ونفي قيام الأفعال به، فلما أصلوا أنه لا يقوم به وصف ولا فعل كان من فروع هذا الأصل أنه لم يتكلم بالقرآن ولا بغيره، وأن القرآن مخلوق، وطرد ذلك إنكار ربوبيته وإلهيته، فإن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعالا مدبرا متصرفا في خلقه، يعلم ويقدر ويريد ويسمع ويبصر، فإذا انتفت أفعاله وصفاته انتفت ربوبيته، إذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمها وذلك ينفي حقيقة الإلهية، فطرد ما أصلوه أن الله سبحانه ليس برب العالم ولا إله، فضلا عن أن يكون لا رب غيره ولا إله سواه.

[مذهب الكلابية]

المذهب الرابع: مذهب الكلابية، أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة، وأنه لازم لذات الرب كلزوم الحياة والعلم، وأنه لا يسمع على الحقيقة، والحروف والأصوات حكاية له دالة عليه وهي مخلوقة، وهو أربع معان في نفسه: الأمر والنهي والخبر والاستفهام، فهي أنواع لذلك المعنى القديم الذي لا يسمع، وذلك المعنى هو المتلو المقروء، وهو غير مخلوق، والأصوات والحروف هي تلاوة العباد وهي مخلوقة، وهذا المذهب أول من يعرف أنه قال به ابن كلاب، وبناه على أن الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم، والحروف والأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرب تعالى لأنه ليس محلا للحوادث، فهي مخلوقة منفصلة عن الرب، والقرآن اسم ذلك المعنى وهو غير مخلوق.

[مذهب الأشعري]

المذهب الخامس: مذهب الأشعري ومن وافقه أنه معنى واحد قائم بذات الرب، وهو صفة

قديمة أزلية ليس بحرف ولا صوت، ولا ينقسم ولا له أبعاض ولا له أجزاء ولا عين الأمر وعين النهي وعين الخبر وعين الاستخبار، الكل من واحد وهو عين التوراة والإنجيل والقرآن والزبور، وكونه أمرا ونهيا، وخبرا واستخبارا صفات لذلك المعنى الواحد، وأنواع له، فإنه لا ينقسم بنوع ولا جزء، وكونه قرآنا وتوراة وإنجيلا تقسيم للعبارات عنه لا لذاته، بل إذا عبر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان اسمه إنجيلا، والمعنى واحد، وهذه الألفاظ عبارة عنه ولا يسميها حكاية، وهي خلق من المخلوقات، وعنه لم يتكلم الله بهذا الكلام العربي، ولا سمع من الله وعنده ذلك المعنى سمع من الله حقيقة، ويجوز أن يرى ويشم، ويذاق ويلمس، ويدرك بالحواس الخمس، إذ المصحح عنده لإدراك الحواس هو الوجود، فكل وجود يصح تعلق الإدراكات كلها به كما قرره في مسألة رؤية من ليس في جهة من الرائي، وأنه يرى حقيقة وليس مقابلا للرائي.

هذا قولهم في الرؤية وذلك قولهم في الكلام.

والبلية العظمى نسبة ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه جاء بهذا ودعا إليه الأمة، وأنهم أهل الحق، ومن عداهم أهل الباطل، وجمهور العقلاء يقولون: إن تصور هذا المذهب كاف في الجزم في بطلانه، وهو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات، وهذا المذهب مبني على مسألة إنكار قيام الأفعال والأمور الاختيارية بالرب تعالى ويسمونها مسألة حلول الحوادث، وحقيقتها إنكار أفعاله وربوبيته إرادته ومشيئته.

[مذهب الكرامية]

المذهب السادس: مذهب الكرامية، وهو أنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب تعالى، وهو حروف وأصوات مسموعة، وهو حادث بعد أن لم يكن، فهو عندهم متكلم بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن متكلما، كما يقوله سائر فرق المتكلمين أنه فعل بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن فاعلا، كما ألزموا به الكرامية في مسألة الكلام، فهو لازم لهم في مسألة الفعل، والكرامية أقرب إلى الصواب منهم، فإنهم أثبتوا كلاما وفعلا حقيقة قائمين بذات المتكلم الفاعل، وجعلوا لهما أولا، فرارا من القول بحوادث لا أول لها، ومنازعون أبطلوا حقيقة الكلام والفعل،

وقالوا لم يقم به فعل ولا كلام البتة، وأما من أثبت منهم معنى قائما بنفسه سبحانه، فلو كان ما أثبته مفعولا لكان من جنس الإرادة والعلم لم يكن شيئا خارجا عنهما، فهم لم يثبتوا له كلاما ولا فعلا وأما الكرامية فإنهم جعلوه متكلما بعد أن لم يكن متكلما، كما جعله خصومهم فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا.

[مذهب السالمية] (١)

المذهب السابع: مذهب السالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث أنه صفة قائمة بذات الرب تعالى لم يزل ولا يزال، لا يتعلق بقدرته ومشيئته، ومع ذلك هو حروف وأصوات، وسور وآيات سمعه جبرائيل منه، وسمعه موسى بلا واسطة، ويسمعه سبحانه من يشاء، وإسماعه نوعان: بواسطة وبغير واسطة ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضها بعضا، بل هي مقترنة الباء مع السين مع الميم في آن واحد، لم تكن معدومة في وقت من الأوقات ولا تعدم، بل لم تزل قائمة بذاته سبحانه قيام صفة الحياة والسمع والبصر، وجمهور العقلاء قالوا: تصور هذا المذهب كاف في الجزم ببطلانه.

والبراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلان هذه المذاهب كلها، وأنها مخالفة لصريح العقل والنقل، والعجب أنها هي الدائرة بين فضلاء العالم لا يكادون يعرفون غيرها.

المسألة الثالثة: قول أهل السنة في القرآن وأنه كلام الله:

صفة الكلام من الصفات التي لها تشعبات كثيرة متعددة يحسن عند عرضها أن يكون العرض لها مفصلًا بحسب تلك التفريعات التي سأضع لها عناوين جانبية مما يساعد من جهة على التعرف على قول أهل السنة بشكل أدق، والتعرف على أقوال المخالفين حين عرضها في تلك الجزئيات من جهة أخرى.

---

(١) "جماعة ينسبون إِلَى مَذْهَب أبي الحسن مُحَمَّد بن أَحْمد بن سالم السالمي فِي الْأُصُول يُقَال لَهُم السالمية وَهُوَ مَذْهَب مَشْهُور بِالْبَصْرَة وسوادها". اللباب في تهذيب الأنساب (٢/ ٩٣).

وقال الذهبي عن أبي الحسن البصري هذا: "وَلَهُ أَصْحَابُ يُسَمَّوْنَ السَّالِمِيَّة، هجرهُمُ النَّاسُ لأَلْفَاظِ هُجنَةٍ أطلقُوهَا وَذَكَرُوهَا ... وَمَاتَ ابْنُ سَالِمٍ وَقَدْ قَاربَ التِّسْعِيْنَ سَنَةَ بضع وَخَمْسِيْنَ وَثَلاَثِ مِائَةٍ" - سير أعلام النبلاء - ط الرسالة (١٦/ ٢٧٣).

أولًا: إثبات صفة الكلام لله عز وجل.

يثبت أتباع الرسل صفة الكلام لله عز وجل كما أثبتوا له سائر الصفات، ومحال قيام هذه الصفة بنفسها كما يقوله بعض المكابرين أنه خلق الكلام لا في محل، ومحال قيامها بغير الموصوف بها كما يقوله المكابر الآخر أنه خلق في محل فكان هو المتكلم به دون المحل، قالوا والكلام الحقيقي هو الذي يوجد بقدرة المتكلم وإرادته قائما به، لا يعقل غير هذا، وأما ما كان موجودا بدون قدرته ومشيئته وإن سمع منه فإنه ليس بكلام له، وإنما هو مخلوق خلقه الله فيه، فلو كان ما قام بالرب تعالى من الكلام غير متعلق بمشيئته بل يتكلم بغير اختياره لم يكن هذا هو الكلام المعهود، بل هذا شيء آخر غير ما يعرفه العقل ويشهد به الشرع، قالوا: ولو لم يكن هناك ألفاظ مسموعة حقيقة السمع لم يكن ثم صفة كلام البتة، ولو كان عاجزا عن الكلام في الأزل لم يصر قادرا عليه فيما لم يزل، فإنه إذا كانت حاله قبل وبعد سواء وهو لم يستفد صفة الكلام من غيره، فمن المستحيل أن تجدد له هذه الصفة بعد أن كان فاقدا لها بالكلية.

وكذلك إثبات قدم عين كل فرد من أنواع الكلام وبقائه أزلا وأبدا واقتران حروفه بعضها ببعض بحيث لا يسبق شيء منها لغيره، لا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة وقد دلت النصوص النبوية أنه متكلم إذا شاء بما شاء، وأن كلامه يسمع، وأن القرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلامه حقا، لا تأليف ملك ولا بشر، وأنه سبحانه الذي قاله بنفسه: ﴿**المص**﴾ [الأعراف: الآية: ١]، ﴿**حم عسق**﴾ [الشورى: الآية: ١]، ﴿**كهيعص**﴾ [مريم: الآية: ١].

وأن القرآن جميعه، حروفه ومعانيه نفس كلامه الذي تكلم به، وليس بمخلوق ولا بعضه قديما، وهو المعنى وبعضه مخلوق، وهو الكلمات والحروف، ولا بعضه كلامه وبعضه كلام غيره، ولا ألفاظ القرآن وحروفه ترجمة ترجم بها جبرائيل أو محمد عليهما السلام عما قام بالرب من المعنى من غير أن يتكلم الله بها، بل القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه، تكلم الله به حقيقة، والقرآن اسم لهذا النظم العربي الذي بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن جبرائيل عن رب

العالمين.

فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء، لا الوضع والإنشاء، كما يقول أهل الزيغ والاعتداء، فكتاب الله عندهم غير كلامه، كتابه مخلوق وكلامه غير مخلوق، والقرآن إن أريد به الكتاب كان مخلوقا، وإن أريد به الكلام كان غير مخلوق، وعندهم أن الذي قال السلف هو غير مخلوق هو عين القائم بالنفس وأما ما جاء به الرسول وتلاه على الأمة فمخلوق، وهو عبارة عن ذلك المعنى، وعندهم أن الله تعالى لم يكلم موسى، وإنما اضطره إلى معرفة المعنى القائم بالنفس من غير أن يسمع منه كلمة واحدة، وما يقرؤه القارئون ويتلوه التالون فهو عبارة عن ذلك المعنى، وفرعوا على هذا الأصل فروعا: منها: أن كلام الله لا يتكلم به غيره، فإنه عين القائم بنفسه، ومحال قيامه بغيره فلم يتل أحد قط كلام الله ولا قرأه.

ومنها: أن هذا الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كلام الله إلا على سبيل المجاز.

ومنها: أنه لا يقال إن الله تكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول ولا خاطب ولا يخاطب، فإن هذه كلها أفعال إرادية تكون بالمشيئة، وذلك المعنى صفة أزلية لا يتعلق بالمشيئة.

ومنها: أنهم قالوا لا يجوز أن ينزل القرآن إلى الأرض، فألفاظ النزول والتنزيل لا حقيقة لشيء منها عندهم.

ومنها: أن القرآن القديم لا نصف له ولا ربع ولا خمس ولا عشر ولا جزء له البتة.

ومنها: أن معنى الأمر هو معنى النهي، ومعنى الخبر والاستخبار، وكل ذلك معنى واحد بالعين.

ومنها: أن نفس التوراة هي نفس القرآن ونفس الإنجيل والزبور، والاختلاف في التأويلات فقط.

ومنها: أن هذا القرآن العربي تأليف جبرائيل أو محمد أو مخلوق خلقه الله تعالى في اللوح المحفوظ، فنزل به جبرائيل من اللوح لا من الله على الحقيقة كما هو معروف من أقوالهم.

ومنها: أن ذلك العين القديم يجور أن تتعلق به الإدراكات الخمس فيسمع ويرى ويشم ويذاق

ويلمس إلى غير ذلك من الفروع الباطلة سمعا وعقلا وفطرة.

وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل: الآية: ٤٠]، وقوله: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس: الآية: ٨٢] فإذا: تخلص الفعل للاستقبال (وأن) كذلك (ونقول) فعل دال على الحال والاستقبال (وكن) حرفان يسبق أحدهما الآخر، فالذي اقتضته هذه الآية هو الذي في صريح العقول والفطر.

وكذلك قوله: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً**﴾ [الإسراء: الآية: ١٦] الآية، سواء كان الأمر هاهنا أمر تكوين أو أمر تشريع فهو موجود بعد أن لم يكن، وكذلك قوله: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾ [الأعراف: الآية: ١١] وإنما قال لهم اسجدوا بعد خلق آدم وتصويره.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣] الآيات كلها، فكم من برهان يدل على أن التكلم هو الخطاب وقع في ذلك الوقت.

وكذلك قوله: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ**﴾ [القصص: الآية: ٣٠]، والذي ناداه هو الذي قال له: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي**﴾ [طه: الآية: ١٤]، وكذلك قوله: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ**﴾ [القصص: الآية: ٦٢]، وقوله: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾ [سبأ: الآية: ٤٠] وقوله: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ**﴾ [ق: الآية: ٣٠] الآية، ومحال أن يقول سبحانه لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد قبل خلقها ووجودها.

وتأمل نصوص القرآن من أوله إلى آخره ونصوص السنة، ولا سيما أحاديث الشفاعة وحديث

المعراج وغيرها، كقوله:" **(أتدرون ماذا قال ربكم الليلة)**. [(١)]، وقوله: " **(إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة)**. [(٢)]، وقوله: " **(ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب)**. [(٣)].

وقد أخبر الصادق المصدوق أنه يكلم ملائكته في الدنيا فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي، ويكلمهم يوم القيامة، ويكلم أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين يومئذ ويكلم أهل الجنة في الجنة ويسلم عليهم في منازلهم، وأنه كل ليلة يقول: **(من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، من يقرض غير عديم ولا ظلوم)**. [(٤)]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحا)**. [(٥)]، ومعلوم أنه في ذلك الوقت كلمه وقال له: تمن علي.

إلى أضعاف أضعاف ذلك من نصوص الكتاب والسنة التي إن دفعت دفعت الرسالة بأجمعها، وإن كانت مجازا كان الوحي كله مجازا، وإن كانت من المتشابه كان الوحي كله من المتشابه، وإن وجب أو ساغ تأويلها على خلاف ظاهرها ساغ تأويل جميع القرآن والسنة على خلاف ظاهره، فإن مجيء هذه النصوص في الكتاب وظهور معانيها وتعدد أنواعها واختلاف مراتبها أظهر من كل ظاهر، وأوضح من كل واضح، فكم جهد ما يبلغ التأويل والتحريف والحمل على المجاز.

هب أن ذلك يمكن في موضع واثنين وثلاثة وعشرة، أفيسوغ حمل أكثر من ثلاثة آلاف وأربعة آلاف موضع كلها على المجاز وتأويل الجميع بما يخالف الظاهر؟ ولا تستبعد قولنا أكثر من ثلاث آلاف، فكل آية وكل حديث إلهي وكل حديث فيه الإخبار عما قال الله تعالى أو

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) باختلاف يسير.

(٢) أخرجه أبو داود (٩٢٤) واللفظ له، والنسائي (١٢٢١) باختلاف يسير. وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث (٧٥٢٢) مختصراً.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦) باختلاف يسير.

(٤) أخرجه البخاري (١١٤٥) بنحوه، ومسلم (٧٥٨) باختلاف يسير.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٠١٠) واللفظ له، وابن ماجه (١٩٠) باختلاف يسير، وأحمد (١٤٨٨١) مختصراً.

يقول، وكل أثر فيه ذلك، إذا استقرئت زادت على هذا العدد، ويكفي أحاديث الشفاعة وأحاديث الرؤية وأحاديث الحساب، وأحاديث تكليم الله لملائكته وأنبيائه ورسله وأهل الجنة، وأحاديث تكليم الله لموسى، وأحاديث تكلمه عند النزول الإلهي، وأحاديث تكلمه بالوحي، وأحاديث تكليمه للشهداء، وأحاديث تكليم كافة عباده يوم القيامة بلا ترجمان ولا واسطة، وأحاديث تكليمه للشفعاء يوم القيامة حين يأذن لهم في الشفاعة، إلى غير ذلك، إذ كل هذا وأمثاله وأضعافه مجاز لا حقيقة له، سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك أحق بهذه الصفة وأولى من كل أحد، وأن البحر لو أمده من بعده سبعة أبحر، وكانت أشجار الأرض أقلاما يكتب بها ما تتكلم به، لنفدت البحار والأقلام ولم تنفد كلماتك، وأنك لك الخلق والأمر، فأنت الخالق حقيقة".[١]

قال ابنُ تَيميَّةَ–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الرب تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال، منعوتا بنعوت الجلال والإكرام، وكماله من لوازم ذاته، فيمتنع أن يزول عنه شيء من صفات كماله، ويمتنع أن يصير ناقصا بعد كماله. وهذا الأصل عليه قول السلف وأهل السنة: أنه لم يزل متكلما إذا شاء، ولم يزل قادرا، ولم يزل موصوفا بصفات الكمال، ولا يزال كذلك".[٢]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "ولا نزاع بين العلماء أن كلام الله تعالى لا يفارق ذات الله، ولا يباينه كلامه، ولا شيء من صفاته، بل ليس صفة شيء من موصوف تباين موصوفها وتنتقل عنه إلى غيره. فكيف يتوهم عاقل أن كلام الله يباينه، وينتقل إلى غيره".[٣]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٤٩٤-٥٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢)، مجموعة الرسائل والمسائل (٣/ ٣٥).

السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل".[١]

فصفة الكلام صفة ذاتية فعلية[٢]. فكلام الله عز وجل باعتبار أصله ونوعه: صفة ذات، وباعتبار آحاد الكلام وأفراده: صفة فعل".[٣]

وقال السعدي-رحمه الله-(ت: ١٣٧٦ هـ): "يصفونه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من الصفات الذاتية؛ كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته؛ كالرحمة، والرضا، والسخط، والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد".[٤]

أ-الأدلة من القرآن.

وقد أثبت الله الكلام لنفسه، خلافًا لما يعتقده الضالون،

١ - قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٣].

٢ - وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ١٦٤].

٣ - وقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٣].

٤ - وقال تعالى: ﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: الآيات: ١٣ - ١٤].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ١٣١٨).

(٢) "الصفات الفعلية من حيث قيامها بالذات تسمى: صفات ذات، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تسمى: صفات أفعال، ومن أمثلة ذلك: صفة الكلام". يُنظر: القواعد المثلى، لابن عثيمين (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: القواعد المثلى، لابن عثيمين (ص: ٢٥)

(٤) القول السديد (ص: ٨). يُنظر: القواعد المثلى، لابن عثيمين (ص: ٢٥).

٥ - وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: الآية: ٣٠].

٦ - وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: الآية: ٤٠].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآية: ١٠٩].

٨ - وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: الآية: ١١٥].

٩ - وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ﴾ [الفتح: الآية: ١٥].

١٠ - وقال تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية: ٧٥].

١١ - وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: الآية: ٦].

وأمَّا الأدلَّةُ على حِرْمانِ أقوامٍ من تكليمِ الله لهم، فمنها:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: الآيات: ١٧٤ - ١٧٥].

٢ - وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: الآية: ٧٧].

والأيات في ذلك كثيرةٌ جدًا.

ب–الأدلة من السنة.

١– **حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (**احتجّ آدمُ وموســـى، فقالَ له موســـى: يا آدم، أنتَ أبونا، خَيَّبْتَنا وأخرَجْتَنا من الجنَّة، قال له آدم: يا موســى، اصـــطفاكَ الله بكلامِهِ، وخَطَّ لكَ [التوراةَ] بيدِهِ، أتلومُني على أمْرٍ قدَّرهُ الله عليَّ قبلَ أن يخلقَني بأربعينَ سنةً؟ فحَجَّ آدمُ موسى، فحَجَّ آدمُ موسى –ثلاثًا–**). [(١)]

٢– **حديث جابر بن عبد الله–رضـــي الله عنه–(ت: ما بين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)**، قال: "كانَ النبيُّ–صـلى الله عليه وسـلم–يَعْرِضُ نفسَـه على الناس بالموقفِ فيقول: (**هلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُني إلى قومِهِ؟ فإنَّ قريشًا قدْ مَنعوني أن أبلِّغَ كلامَ رَبِّي عَزَّ وجلَّ**). الحديث. [(٢)].

٣ – **حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "فضلُ كلامِ الله على سائرِ الكلامِ كفَضْلِ الله على سائرِ خلقِه". [(٣)]

٤–**حديث أبي أمامةَ–رضي الله عنه–(ت: ٨١ أو ٨٦ هـ)** أنَّ رجلًا أتى النبيَّ–صلى الله عليه وســـلم–قال: يا نبيَّ الله، أنبيًّاً كانَ آدمُ؟ قالَ: (**نَعَمْ، مُكَلَّمًا**). قَالَ: كم بينَه وبينَ نُوحٍ؟ قالَ: (**عَشرةُ قُرون**). [(٤)]

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٦٠)، (٩/ ٣٨٨)، (١١/ ٥٤٨–٥٤٩)، ومسلم رقم: (١٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٠)، وأبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجة (٢٠١)، والدارمي (٣٣٥٧)، والنسائي في "الكبرى" –كما في "تحفة الأشراف" (٢/ ١٧٥)–، والبخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (٨٦، ٢٠٥)، وعثمان الدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (٢٨٤)، والحاكم (٢/ ٦١٢ – ٦١٣)، وأبو نعيم في "دلائل النبوة" رقم (٢١٧)، واللالكائي في "السنة" رقم (٥٥٤، ٥٥٥)، والبيهقي في "الاعتقاد" (ص: ١٠٠)، و"الأسماء والصفات" (ص: ١٨٧)، و"دلائل النبوة" (٢/ ٤١٣)، وإسماعيل بن الفضل الأصبهاني في "الحجة" (ق ٤٨/ أ–ب) من طرق عن إسرائيل: حدثنا عثمان ابن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد عن جابر به.

(٣) أخرجه عثمان الدارميُّ في "الرَّدِّ على الجَهْميَّة" رقم (٢٨٧، ٣٤٠)، واللالكائي رقم (٥٥٧)، والترمذي رقم (٢٩٢٦)، والدارمي رقم (٣٣٥٩)..

(٤) أخرجه الدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (٢٩٩)، وابن حبان رقم (٢٠٨٥–موارد)، والطبراني في "الكبير" (٨/ ١٣٩–١٤٠)، =

٥-**حديث النعمان بن بشـير-رضـي الله عنه-(ت: ٦٥ هـ)**، عن النبي -صـلى الله عليه وسلم- قال: (إنَّ الله كَتَبَ كتابًا قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ بألفَي عام، فأنزلَ منه آيتين ختمَ بِهما سورةَ البقرةِ، فلا تقْرآنِ في "دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيقرَبُها شَيْطانٌ). (١)

٦-**حديث أبي هريرة-رضـي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، قال: سمعتُ رسول الله -صـلى الله عليه وسـلم- يقول: (**يَقبِضُ الله الأرضَ، ويَطْوي السَّـماواتِ بيمينه، ثمَّ يقول: أنا المَلِكُ؛ أَينَ مُلوكُ الأرضِ؟ " وفي لفظ: "يَقبِضُّ الله الأرضَ يوم القيامة ...**). (٢)

٧- **وحديث عَدِىّ بنِ حاتِمٍ-رضي الله عنهما-(ت: ٦٦ أو ٦٩ هـ)**، قالَ: قالَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-:

(**ما مِنْكمْ من أحَدٍ إلا ســـيكلّمُهُ الله، ليسَ بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ، فينظُرُ أيْمَنَ منه فلا يَرى إلاَّ ما قدَّم، وينظُرُ بينَ يدَيْهِ فَلَا يَرى إلاَّ النَّارَ تِلقاءَ وَجْهِهِ، فاتَّقوا النَّارَ ولو بشِقّ تَمْرةٍ**).

وفي لَفْظٍ: (**ما مِنْكُمْ من أحْدٍ إلاَّ سَـــيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، ليسَ بينه وبينَه تُرْجُمانٌ ولا حِجَابٌ يَحْجُبُه**). (٣)

وبوَّب البخاري في (صـــحيحه) على ذلك فقال: (باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة) (٤)، وقال لأهل النار: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون: الآية: ١٠٨].

ثانيًا: أن الله تعالى لم يَزل متكلِّمًا، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء.

و"الأوسط" رقم (٤٠٥)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (ص: ٢٠٦)، وابن عساكر (٢/ ٣٢٥/ ب)، وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم". وأقرّه الذهبي، وابن كثير في "البداية والنهاية" (١/ ١٠١). وقال الهيثمي في "المجمع" (١/ ١٩٦) و (٨/ ٢١٠): "رجاله رجال الصحيح" زاد في الموضع الثاني: "غير أحمد بن خُليد الحلبي وهو ثقة".

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٤)، والترمذي رقم (٢٨٨٢)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٩٦٧)، والدارمي رقم (٢٢٩٠)، وابن حبان رقم (١٧٢٦ – موارد)، والحاكم ١/ ٥٦٢ أو البيهقي في "الأسماء والصفات" (ص: ٢٣١ – ٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٥٥١) و (١١/ ٣٧٢) و (١٣/ ٣٦٧)، ومسلم رقم (٢٧٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٦)، والبخاري (١١/ ٤٠٠) و (١٣/ ٤٢٣، ٤٧٤)، ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤).

(٤) (صحيح البخاري) (٩/ ١٥١).

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: **٧٥١ هـ**): "منشأ النزاع بين الطوائف أن الرب تعالى هل يتكلم بمشيئته أم كلامه بغير مشيئته على قولين،

فقالت طائفة: كلامه بغير مشيئته واختياره، ثم انقسم هؤلاء أربع فرق،

١-قالت فرقة: هو فيض فاض منه بواسطة العقل الفعال على نفس شريفة فتكلمت به كما يقول ابن سينا وأتباعه وينسبونه إلى أرسطو.

٢-وفرقة قالت: بل هو معنى قائم بذات الرب تعالى هو به متكلم، وهو قول الكلابية ومن تبعهم، وانقسم هؤلاء فريقين،

فرقة قالت: هو معان متعددة في أنفسها أمر ونهي وخبر واستخبار، ومعنى جامع لهذا الأربعة، وفرقة قالت: بل هو معنى واحد بالعين لا ينقسم ولا يتبعض.

وفرقة قالت: كلامه هو هذه الحروف والأصوات، خلقها خارجة عن ذاته، فصار بها متكلما، وهذا قول المعتزلة وهو في الأصل قول الجهمية تلقاه عنهم أهل الاعتزال فنسب إليهم.

٣-وفرقة قالت: يتكلم بقدرته ومشيئته كلاما قائما بذاته سبحانه كما يقول به سائر أفعاله لكنه حادث النوع، وعندهم أنه صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما كما قاله من لم يصفهم من المتكلمين أنه صار فاعلا بعد أن لم يكن، فقول هؤلاء في الفعل المتصل كقول أولئك في الفعل المنفصل، وهذا قول الكرامية.

٤-وفرقة قالت: يتكلم بمشيئته، وكلامه سبحانه هو الذي يتكلم به الناس كله حقه وباطله وصدقه وكذبه، كما يقوله طوائف الاتحادية.

وقال أهل الحديث والسنة: إنه لم يزل سبحانه متكلما إذا شاء ويتكلم بمشيئته ولم تتجدد له هذه الصفة، بل كونه متكلما بمشيئته هو من لوازم ذاته المقدسة، وهو بائن عن خلقه بذاته وصفاته وكلامه، وليس متحدا بهم ولا حالا فيهم". (١)

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٢٧-٥٢٨).

قال الإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله– (ت: ٢٤١ هـ): "بل نقول: إن الله لم يزل متكلما إذا شاء ولا نقول: إنه كان ولا يتكلم حتى خلق الكلام. ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علما فعلم، ولا نقول: إنه قد كان ولا قدرة له حتى خلق لنفسه القدرة، ولا نقول: إنه كان قد كان ولا نور له حتى خلق لنفسه نورا، ولا نقول: إنه قد كان ولا عظمة له حتى خلقه لنفسه عظمة".[(١)]

وقال عبد المغني المقدسي –رحمه الله– (ت: ٦٠٠ هـ): "مذهب أهل الحق أن الله عز وجل لم يزل متكلما بكلام مسموع مفهوم مكتوب".[(٢)]

وقال ابن أبي العز الحنفي –رحمه الله– (ت: ٧٩٢ هـ): "والحق أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى؛ فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك ... كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف".[(٣)]

قال عبد الباقي المواهبي الحنبلي –رحمه الله– (ت ١٠٧١ هـ): "قال الأئمة: إن الله سبحانه وتعالى يتكلم بمشيئته وقدرته، بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء، فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لم يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته، أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له".[(٤)]

ثالثًا: القرآن كلام الله.

من أركان الإيمان السِّتة: الإيمانُ بالكُتُبِ التي أنزلها اللهُ، كما دلَّ على ذلك قولُه سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ**

---

(١) كتاب الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص: ١٣٩).

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد (١/ ١٣٠).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٩٢).

(٤) كتاب العين والأثر في عقائد أهل الأثر (ص: ٦٨).

الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: الآية: ١٣٦]، وكذلك جاء في حديث جبريل عليه السلام، وفيه: (الإيمان)، قال: (**أن تُؤمن باللهِ، ومَلائكته، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه**). [١]

ومن الإيمانِ بالكتب: الإيمانُ بِأَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ.

والقرآنُ في الأصل: مصدر قرأ قراءة وقرآنًا؛ قال الله تعالى: **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾** [القيامة: ١٧]، أي: قراءته، فهو مَصدر على وزن فُعلان-بالضم- كالغُفران والشُّكران. [٢]

وفي الاصطلاح هو: (كلام الله المنَزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، المعجز بلفظه ومعناه، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس". [٣]

والقرآنُ كلامُ الله، وهو صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ عز وجل؛ قال تَعَالى: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾** [التوبة: الآية:٦]، وروي عن **جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-(ت: ما بين ٧٣ إلى ٧٧ هـ)** أنه قَالَ: "كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفسَهُ فِي المَوْسِمِ؛ فَيَقُولُ: (**أَلَا رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**). [٤]

وقال ابن تيمية -رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "إنَّ سلفَ الأمَّةِ وأئمَّتَها كانوا على الإيمان الذي بعثَ الله به نبيَّه-صلى الله عليه وسلم-، يصِفون الله بما وصَف به نفسَه، وبما وصَفَه به

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما-.

(٢) انظر: لسان العرب (١/ ١٢٩)، ومناهل العرفان للزرقاني (١/ ٧).

(٣) انظر: مناهل العرفان (١/ ١٠-١٣)، و(مباحث في علوم القرآن) لمناع القطان (ص: ٢٠-٢١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، والحاكم (٢/ ٦٦٩) وصححه، من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-، وقال في (المجمع) (٦/ ٣٥): (رجاله ثقات).

رسولُهُ من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ويقولون: إنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى، ويصفونَ الله بما وصفَ به نفسَهُ، من التكليمِ، والمناجاة، والمناداةِ، وما جاءت به السُّنَنُ والآثارُ موافقةً لكتاب الله تعالى".[(١)]

رابعًا: القرآن غير مخلوق[(٢)].

الذِي عَلَيهِ إِجماعُ السَّلفِ الصَّالحِ مِنَ الصَّحابةِ-رضي الله عنهم-وَالتَّابعِينَ لَهم بِإحسَانٍ: أَنَّ القرانَ كلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ؛ حُرُوفه وَمَعَانِيه، مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ نَزَلَ بِهِ جِبريلُ عليه السلام إِلَى نَبِيِّنَا ﷺ. فكلامُ الله تعالى صفةٌ من صفاتهِ غيرُ مَخلوقٍ كسائر صِفاتِه، سَواء كان القرآن العربيَّ، أوِ التَّوراةَ العِبريَّةَ، أو غيرَ ذلك من كلامِهِ تعالى، ممَّا وقَعَ من كلامِهِ، وممَّا لَم يقع بَعْدُ.

ولَقَدْ كانَ السَّلفُ في صَدْرِ الإِسلام في غِنًى عن إطلاقِ لفظِ (غير مخلوق) لأَنَّه كانَ من المسَلَّمِ عندهم أنَّ كلامَ الله صفةٌ مِن صفاتِهِ، وصفاتُهُ غيرُ مَخلوقةٍ، حتى ظَهَرت الجَهميةُ، فنفَتْ صفةَ الكلامِ عن الله تعالى، لكنْ لما كانَ هذا القولُ منكرًا شَنيعاً، تَنفرُ منه قلوبُ الناسِ، وتقشَعِرُّ منه جلودُهم، ويرفُضُهُ إيمانُهُمْ، أبدَلوهُ بقَوْلِهم: كلامُ الله مَخْلوقٌ، فتظاهَروا بإثباتِ الكلامِ، وأبطلُوهُ بقولهم: مخلوقٌ.

فلمَّا كانَ حقيقةُ قَوْلِهم إبطالَ صفةِ الكلامِ وتَعطيلَها قابَلهم السَّلَفُ برفْضِ هذهِ البدعةِ وإنكارِها، والتَّشديدِ عليهم في ذلكَ، بل وتكفيرهم، لأنَّ حقيقةَ قولهم الكفرُ، لِما تضمَّنَ من تكذيبِ القرآنِ، وإثبات النَّقْصِ للرَّحمنِ، فقالَ السَّلَفُ حينئذٍ: (كلامُ الله -كالقرآن وغيره- غيرُ مخلوقٍ).

ولقَدْ كانَتْ لهذه العقيدةُ مبنيَّةً على أسُسٍ متينةٍ وقَواعدَ عظيمةٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ، والمعقولِ الصَّريحِ، ونُصوصِ السَّلَفِ وكَلامِهم، خِلافًا لما يحسَبُه الجاهلونَ.

الأدلة من القرآن الكريم:

---

(١) (مجموع الفتاوى) (٦/ ٥١٨).

(٢) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

١ – قالَ الله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤].

والاحتجاجُ بهذه الآيةِ من وَجْهَيْنِ:

الأول: أنَّه تعالى فرَّقَ بين الخَلْقِ والأمْرِ، وهما صِفَتان من صِفاتِهِ، أضافَهما إلى نفسهِ، أمَّا الخَلْقُ فَفِعْلُهُ، وأمَّا الأَمرُ فقولُهُ، والأصْلُ في المتعاطفين التَّغايُرُ إلاَّ إذا قامَتِ القرينةُ على عَدم إرادَة ذَلكَ، وهنا قد قامتِ القرائنُ على توكيدِ الفَرْقِ بَيْنَهُما، ومنها الوجهُ الآتي.

والثاني: أنَّ الخَلْقَ إنَّما يكونُ بالأمرِ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس: الآية: ٨٢].

فقوله تعالى: ﴿**كُنْ**﴾ هو أمْرُهُ، فلو كانَ مَخْلوقاً لاحتاجَ خلقُهُ إلى أمْرٍ، والأمْرُ إلى أمرٍ، إلى ما لا نِهاية، وهذا باطلٌ.

وقد احَتجَّ الإمامُ أحمدُ –رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) على الجَهْمِيَّة المعْتزلةِ بهذه الآية.

قال–رحمه الله–: "قلتُ: قال الله: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ والأمْرُ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، ففرَّقَ بين الخَلْقِ والأمْرِ".[١]

وقال لهم: "قال الله: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ** ...﴾ [النحل: الآية: ١] فأمْرُهُ كلامُه واستطاعَتُهُ ليسَ بمخلوقٍ، فلا تَضْرِبوا كِتابَ الله بعضَهُ بِبعضٍ".[٢]

وقالَ فيما كَتَبَهُ للمتوكِّل حينَ سألَهُ عن مَسألةِ القرآنِ: "وقَدْ قالَ الله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ...﴾ [التوبة: الآية: ٦]، وقَالَ: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، فَأخبَرَ بالخَلْقِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿**وَالأمْرُ**﴾، فأخبرَ أنَّ الأمرَ

---

(١) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٥٣) عن أحمد.

(٢) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٥٤) عنه.

غَيْرُ مَخلوقٍ". [(١)]

وقد سبَقَ الإمامَ أحمد إلى هذا الاحتجاج شيخُه الإمامُ **سفيانُ بن عُيَيْنَةَ الهِلاليُّ–الحافظُ الثِّقةُ الحُجَّةُ–(ت: ١٩٨ هـ)**، فقالَ رَحمه الله: "ما يَقولُ هذا الدُّوَيْبَّةُ؟ " –يعني بشرًا المريسِيّ– قالوا: يا أبا محمَّدٍ، يزعُمُ أنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ،

فقالَ: "كَذَبَ، قال الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف: الآية: ٥٤]، فالخَلْقُ خَلْقُ الله تبارك وتعالى، والأمْرُ القرآنُ". [(٢)]

قال الحافظُ هبةُ الله ابنُ الطَّبَرِيّ–رحمه الله–(ت: ٤١٨ هـ)، عقبَ هذا: "وكذلكَ قالَ أحمدُ بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)، ونُعَيْمُ بن حمَّادٍ (ت: ٢٢٨ هـ)، ومحمَّدُ بن يحيى الذُّهْليُّ (ت: ٢٥٨ هـ)، وعَبْدُ السَّلام بن عاصمٍ الرازيُّ، وأحمدُ بن سِنانٍ الواسطيُّ (ت: ٢٥٦ هـ)، وأبو حاتِمٍ الرازيُّ (ت: ٢٧٧ هـ)". [(٣)]

٢ – وقالَ تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ**﴾ [الرحمن: الآيات: ١ – ٣].

ففرَّقَ تعالى بينَ عِلمهِ وخَلْقِهِ، فالقرآنُ عِلْمُهُ، والإنسانُ خلقُهُ، وعِلْمُهُ تعالى غيرُ مَخلوقٍ.

قالَ تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: الآية: ١٤٠].

وقالَ تعالى: ﴿**... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: الآية: ١٤٥].

وقالَ تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ**﴾ [الرعد: الآية: ٣٧].

---

(١) رواه صالح ابنه في "المحنة" روايته (ص: ١٢٠–١٢١).

(٢) رواه الآجري في "الشريعة" (ص: ٨٠)، وابن الطبري في "السنة" رقم (٣٥٨) والخطيب في "تاريخ بغداد" (٩/ ٨٨–٨٩) بسند جيد عنه.

(٣) ابن الطبري في "السنة" رقم (٣٥٨).

فسمَّى الله تعالى القرآنَ عِلْماً، إذْ هو الذي جاءَه مِنْ رَبِّهِ؟ وهو الذي عَلَّمهُ الله تعالى إيَّاه -صلى الله عليه وسلم-، وعِلْمُهُ تعالى غيرُ مَخلوقٍ، إذ لو كانَ مخلوقًا لاتَّصَفَ تعالى بِضدِّهِ قبلَ الخَلْقِ، تعالى الله عن ذلك وتنزَّه وتقدَّس.

وبهذا احتجَّ **الإمامُ أحمدُ**-رحمه الله-(**ت: ٢٤١ هـ**)، على الجَهْميةِ فيما كتبَهُ للمتوكِّل في مسألة القرآنِ.

قالَ-رحمه الله-: "قالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾، فَأخبرَ تَعالى أنَّ القرآنَ مِنْ عِلْمِهِ" ثمَّ احتجَّ بالآياتِ الثلاثِ المذكوراتِ، ثمَّ قال: "فالقرآنُ من علم الله تعالى، وفي هذه الآيات دليلٌ على أنَّ الذي جاءَه -صلى الله عليه وسلم- هو القرآنُ، لقولِهِ: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ [البقرة: الآية: ١٢٠]".[(١)]

وقالَ-رحِمَه الله-في حكايةِ مُناظرتِهِ للجَهْميةِ في مَجْلس المعتصِم: "قالَ لي عبدُ الرَّحمن القزّازُ[(٢)]: كانَ اللهُ ولا قرآنَ، قلتُ له: فكانَ الله ولا عِلْم! فأمْسَكَ، ولَوْ زعَمَ أنَّ اللهَ كانَ ولا عِلْم لكفَرَ باللهِ".[(٣)]

وقيلَ له-رحِمَه الله-: قومٌ يقولونَ: إذا قال الرَّجُلُ: كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ، يقولون: مَنْ إمامُكَ في هذا؟ ومِنْ أيْنَ قلتَ: ليس بمخلوقٍ؟ قال:

"الحجَّة قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ [البقرة: الآية: ١٢٠]، فما جاءَه غيرُ القرآن".

قال: "القرآنُ من عِلْمِ الله، وعلمُ الله ليسَ بمخلوقٍ، والقُرْآنُ كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ، ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ".[(٤)]

---

(١) رواه صالح في "المحنة" (ص: ١٢١)، وعبد الله في "السنة" رقم (١٠٧) عن أبيهما به.

(٢) أحدُ مناظِري الإمام بحضرة المعتصم.

(٣) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٤٥)، عنه.

(٤) رواه صالح في "المحنة" (ص: ٦٩)، عنه.

وقالَ رحِمَه الله: "القُرآنُ علمٌ مِنْ عِلمِ الله، فمَنْ زعَمَ أنَّ عِلمَ الله مخلوقٌ فهو كافرٌ".(١)

٣ - وقالَ تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: الآية: ١٠٩].

وقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: الآية: ٢٧].

فأخبرَ تعالى -وقولُهُ الحَقُّ- أنَّ كَلِماتِهِ غيرُ مُتَناهِيَةٍ، فَلو أنَّ البحارَ التي خَلَقَ الله كانتْ مِدادًا تُكْتَبُ به، والشَّجَرَ الذي خلقَ الله أقلاماً تُخَطُّ بِهِ، لَنَفِدَ مِدادُ البُحورِ، وَلَفَنِيَت الأقْلامُ، ولم تَفْنَ كَلِماتُ الله.

وإنَّما في هذه الإبانةُ عن عَظَمَةِ كَلَامِهِ تعالى، وأنَّه وَصْفُهُ وَعِلْمُهُ، وهذا لا يُقاسُ بالكلامِ المخلوقِ الفاني، إذ لَوْ كان مخلوقًا لَفَنِيَ من قبلِ أنْ يَفنى بَحْرٌ من البُحورِ، ولكنَّ الله تعالى إنَّما كتَبَ الفناءَ على المخلوقِ لا عَلَى نفسِهِ وصفَتِهِ.

٤ - أسماءُ الله تعالى في القُرآنِ، كـ (الله، الرحمن، الرحيم، السميع، العليم، الغفور، الكريم ...) وغيرها من أسمائِهِ الحُسْنى، وهي من كلامِهِ، إذ هو الذي سَمَّى بها نفسَه، بألفاظِها وَمَعانِيها.

وقد ساوى الله تعالى بين تَسبيحِ نَفْسِهِ وتَسبيحِ أسمائِهِ، فقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية: ٤٢]، وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: الآية: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: الآيات: ٧٤، ٩٦ والحاقة: الآية: ٥٢].

وساوى تعالى بين دُعائِهِ بنفسه ودُعائِهِ بأسمائِهِ، فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: الآية: ٥٥] وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: الآية: ١١٠] وقال: ﴿وَلِلهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية: ١٨٠].

---

(١) رواه ابن هانئ في "المسائل" (٢/ ١٥٣، ١٥٤)، عنه.

وكذلك ساوى تعالى بين ذِكْرِهِ بنفسهِ وذِكْرِهِ بأسمائِهِ، فقالَ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: الآية: ٢٠٥] وقالَ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: الآية: ٢٥].

وهذا التَّسبيحُ والدُّعاءُ والذِّكْرُ إنْ كانَ يَقَعُ لِمخلوقٍ كان كُفْراً بالله.

فإنْ قيلَ: إنَّ كلامَه تعالى مَخلوقٌ، كانتْ أسماؤُهُ داخِلةً في ذلكَ، ومَنْ زعَمَ ذلك فقَدْ كَفَرَ لِما ذكرنا، ولأنَّ معنى ذلكَ أنَّ الله تعالى لم تكن لَه الأسماءُ الحُسنى قبل خَلْقِ كلامِهِ، ولَكانَ الحالفُ باسْمٍ من أسمائِهِ مُشْرِكاً لأنه حلَفَ بمَخلوقٍ، والمخلوقُ غيرُ الخالقِ، وقد قالَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: **(مَن حَلَفَ بغير الله فقد أشركَ)**. [١]

وبهذه الحُجَّةِ احتجَّ جماعةٌ من السَّلفِ والأئمَّةِ على كَوْنِ القرآنِ غيرَ مخلوقٍ، منهم:

١) **الإمام الحُجَّة سُفيان بن سَعيد الثوريّ -رحمه الله- (ت: ١٦١ هـ).**

قال: "مَنْ قالَ: إنَّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: الآيات: ١-٢] مخلوقٌ، فهو كافِر". [٢]

٢) **ناصرُ السُّنَّة أبو عبد الله محمَّد بن إدريسَ الشَّافعي -رحمه الله- (ت: ٢٠٤ هـ).**

قال: "مَنْ حَلَفَ باسمٍ مِن أسماءِ الله فحنَثَ فعليه الكفَّارة، لأنَّ اسمَ الله غيرُ مَخلوقٍ، ومن حلَفَ بالكعبةِ، أو بالصَّفا والمرْوةِ، فليسَ عليه الكفَّارةُ، لأنَّهُ مَخلوقٌ، وذاكَ غيرُ مَخْلوقٍ". [٣]

٣) **إمامُ أهل السُّنَّة أحمدُ بن حَنبل -رحمه الله- (ت: ٢٤١ هـ).**

قال: "مَنْ قالَ: القرآن مخلوق فهو عندنا كافرٌ، لأنَّ القُرآن من عِلْمِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وفيه أسماءُ

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٤٩٠٤، ٦٠٧٢)، وأبو داود رقم (٣٢٥١)، والترمذي رقم (١٥٣٥)، وابن حِبّان رقم (١١٧٧-موارد)، والحاكم (١/ ١٨) و (٤/ ٢٩٧)، وآخرون من حديث عبد الله بن عمر به. وحسّنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقرَّه الذهبي.

(٢) أخرجه عبد الله في "السنة" رقم (١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في "آداب الشافعي" (ص: ١٩٣)، وأبو نعيم (٩/ ١١٣)، والبيهقي في "السنن" (١٠/ ٢٨) و"الأسماء والصفات" (ص: ٢٥٥ - ٢٥٦)، و"المناقب" (١/ ٤٠٥) بإسناد صحيح.

الله عَزَّ وَجَلَّ". (١)

وقالَ: "وأسماءُ الله في القُرْآنِ، والقُرْآنُ من عِلْمِ الله، فمَنْ زَعَمَ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ فهو كافرٌ، ومن زعَمَ أنَّ أسْماءَ الله مخلوقةٌ فقدْ كَفَرَ". (٢)

وذَكَرَ له رَجُلٌ أنَّ رَجُلاً قالَ: إنَّ أسماءَ الله مخلوقةٌ، والقرآنُ مخلوقٌ، فقال أحمدُ: "كُفْرٌ بَيِّنٌ". (٣)

وقالَ: "أسْماءُ الله في القرآنِ، والقرآنُ من عِلْم الله، وعِلْمُ الله ليس بمخلوقٍ، والقرآنُ كلامُ الله ليسَ بمخلوقٍ على كلِّ وجهٍ، وعلى كلِّ جهةٍ، وعلى أيِّ حالٍ". (٤)

وكما أنَّه تعالى لا يوصَف بصفةٍ مخلوقةٍ، فلا يسمَّى باسم مَخلوقٍ.

٥ - أخبرَ تعالى عن تَنزيلِهِ منه وإضافتِهِ إليهِ، كما قالَ: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [السجدة: الآية: ٢]، وقالَ: ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [الأنعام: الآية: ١١٤]، وقال: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [النحل: الآية: ١٠٢]، ولَمْ يُضِف شيئًا ممَّا أنزلَه إلى نفسِه غير كلامِهِ (٥)، ممَّا دَلَّ على الاختصاصِ بمَعنى، فليسَ هو كإنزالِ المِطَر والحديد وغير ذلك، فإنَّ هذه الأشياءَ أخبرَ عن إنزالِها، لكنَّه لم يُضِفْها إلى نفسِهِ، بخِلافِ كلامِهِ تعالى، والكلامُ صِفَةٌ، والصِّفَةُ إنَّمَا تُضافُ إلى مَن اتَّصَفَ بها لا إلى غيرِهِ، فلو كانت مخلوقةً لفارقت الخالقَ، ولم تصلحْ وَصْفاً له، لأنَّه تعالى غَنِيٌّ عن خَلقِهِ، لا يَتَّصفُ بشيءٍ منه.

الأدلة السنة:

١ - **حديث خَوْلَةَ بنت حَكيم السُّلميَّة -رضي الله عنها-**، قالَتْ: سَمِعْتُ رسولَ الله -

(١) رواه ابنه عبد الله في "السنة" (١/ ١٠٢).

(٢) رواه ابنه صالح في "المحنة" (ص: ٥٢، ٦٦ – ٦٧).

(٣) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٢)، عنه.

(٤) رواه ابنه صالح في "المحنة" (ص: ٦٩).

(٥) انظر: "مجموع الفتاوى": (١٢/ ٢٤٧، ٢٩٧).

صلى الله عليه وسلم-يقول:

(مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أعوذُ بِكَلِماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ، لم يَضُرَّهُ شَيْءٌ حتَّى يرتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِه ذلكَ).[١]

وحديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، قالَ: جاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم-، فقال: يا رَسُولَ الله، ما لَقِيتُ مِنْ عَقْربٍ لَدَغَتْني البارحةَ، قال:

(أما لَو قُلْتَ حين أمْسَيْتَ: أعوذ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ لم تَضُرَّكَ).[٢]

وفي سياق آخرَ عنه قال: قال النَّبِيُّ-صلى الله عليه وسلم-:

(مَنْ قالَ إذَا أمْسى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أعوذُ بكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ من شَرِّ ما خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّهُ حُمَةٌ تلكَ اللَّيْلة).

قال: فكان أهلُنا قد تعلَّمُوها، فكانوا يقولونَها، فلُدِغَتْ جاريةٌ منهم، فلم تَجِدْ لها وَجَعاً".[٣]

وحَديثُ عبد الله بن عباسٍ-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، أنَّ رَسولَ الله-صلى الله عليه وسلم-كانَ يُعَوِّذُ حَسَنًا وحُسَيْنًا، يقولُ:

"أعيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيطانٍ وهامَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ".

وكانَ يقولُ: **"كانَ إبْراهيمُ أبي يُعَوِّذُ بهما إسْماعيلَ وإسحاقَ".**[٤].

فأثبتَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- بما ذَكَرْناهُ عنه شرعيَّةَ الاستعاذةِ بكلماتِ الله، فلو

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٧، ٤٠٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠)، والترمذي رقم (٣٤٣٧)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٥٦٠، ٥٦١) وابن ماجة رقم (٣٥٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص عن خولة به. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح غريب".

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٥١)، وأحمد (٢/ ٣٧٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٥٨٥ - ٥٨٩، ٥٩١ - ٥٩٢) وابن ماجة رقم (٣٥١٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٠)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٥٩٠).

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢١١٢، ٢٤٣٤)، والبخاري (٦/ ٤٠٨)، وأبو داود رقم (٤٧٣٧)، والترمذي رقم (٢٠٦٠)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (١٠٠٦، ١٠٠٧)، وابن ماجة رقم (٣٥٢٥)، من طريق منصور بن المعتمر عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"..

كانَتْ كلماتُهُ مخلوقةً لكانت الاستعاذةُ بها شِرْكًا، لأنَّها استعاذةٌ بمَخلوقٍ، ومن المعلوم أنَّ الاستعاذةَ بغير الله تعالى وأسمائِهِ وصفاتِهِ شِرْكٌ، فكيفَ يَصِحُّ أن يُعلِّمَ النَّبيّ–صلى الله عليه وسلم–أمَّتَه ما هو شركٌ ظاهرٌ، وهو الذي جاءهم بالتَّوحيدِ الخالصِ؟

فدلَّ هذا على أنَّ كلماتِ الله تعالى غيرُ مخلوقةٍ.

وقالَ نُعَيْمُ بن حمَّاد (شيخُ البخاري، ومن أئمَّة السُّنَّة): "لا يُستعاذُ بالمخلوقِ، ولا بكلامِ العباد والجنّ والإنسِ والملائكةِ".

وقال البخاري عَقِبهُ: "وفي هذا دَليلٌ أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ، وأنَّ سواه خَلْقٌ" [١]. ثمَّ احتجَّ البخاريُّ لذلك بما ذكرنا.

واعترضَ بعضُ أهل البدَعِ على هذه الحُجَّة بقوله –صلى الله عليه وسلم–: **"اللَّهمَّ أعوذُ برِضاكَ من سَخَطِكَ، وبمُعافاتِك من عُقوبَتِك** ... " الحديث [٢]، فقالوا: فاستعاذَ النبي –

(١) "خلق أفعال العباد" ص: ١٤٣.

(٢) حديث صحيح. مرويٌّ من حديث عائشة وعلي، رضي الله عنهما. أما حديث عائشة، فأخرجه أحمد (٦/ ٥٨، ٢٠١)، ومسلم رقم (٤٨٦)، وأبو داود رقم (٨٧٩)، والنسائي (١/ ١٠٢ و ٢/ ٢١٠)، وابن ماجة رقم (٣٨٤١) من طريق عُبَيْد الله ابن عمر عن محمد بن يحيى بن حَبَّان عن الأعرج عن أبي هريرة عن عائشة قالت: فَقَدْتُ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– ليلة من الفراش، فالتمسْتُهُ، فوقعَتْ يَدِي على بطنِ قَدَمَيْه وهو في المسجد، وهما منصوبتان (زاد في بعض الطرق: وهو ساجد) وهو يقولُ: (**اللَّهمَّ أعوذُ برضاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبمعافاتك من عقوبتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك**). وأخرجه مالك (١/ ٢١٤)، والترمذي رقم (٣٤٩٣)، والنسائي (٢/ ٢٢٢)، عن يحيى ابن سعيد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن عائشة بنحوه. قلت: وهذا سند منقطع، محمد بن إبراهيم لم يسمَع من عائشةَ، وقد حسَّن الترمذي هذه الطريق لمجيء الحديث من غير هذا الوجه عن عائشة. وللحديث طريق ثالثة. أخرجها النسائي ٨/ ٢٨٣ – ٢٨٤ من حديث مسروق بن الأجدع عن عائشة به نحوه. قلت: لكن إسناده ضعيف، لحال العلاء بن هلال أحد رجال الإسناد فإنَّه منكر الحديث جداً. أما حديث علي رضي الله عنه. فأخرجه أحمد رقم (٧٥١، ٩٥٧)، وأبو داود رقم (١٤٢٧)، والترمذي رقم == (٣٥٦٦)، والنسائي (٣/ ٢٤٨ – ٢٤٩)، وابن ماجة رقم (١١٧٩) من طرق عن حماد بن سلمة عن هشام بن عمرو عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن عليّ أنَّ النَّبيَّ –صلى الله عليه وسلم– كان يقولُ في آخر وترِهِ: (اللَّهم إنِّي أعُوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ، وأعُوذُ بمعافاتِكَ من عقوبتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أحصي ثناءٌ عليك، أنتَ كما أثنيْتَ على نفسِكَ). قال الترمذي: "حديث حسنٌ غريبٌ من حديث عليّ، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، من حديث حماد بن سلمة". قلت: إسناده صحيح، وهشام هذا هو الفَزاري معروف برواية هذا الحديث، وهو ثقة. وقد رواه عن عليّ أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن عَبْدٍ القاري. أخرجه النسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم (٨٩١، ٨٩٢). وإسناده منقطع، إبراهيم عن علي مرسل.

صلى الله عليه وسلم-بالرِّضا والمعافاة وهما مَخلوقان.

والجوابُ: أن هذا الاعتراضَ من فاسدِ الفهْم الذي أدخلَه عليهم الشيطانُ-لعنه الله- وذلك أنَّهم حَسِبوا أنَّ الرِّضا والمعافاةَ من خَلْقه تعالى، جَرْياً على سُنَّتِهم في أنَّ الله تعالى لا يقوم به اختيارٌ ولا مَشيئة، والرِّضا والمعافاةُ إنَّما يتعلَّقان بالمشيئةِ، وكلُّ ما تعلَّقَ بالمشيئة فهو مخلوقٌ.

وهذا الأصل الفاسِدُ جرَّهم إلى الوقوع في تعطيل جميعِ الصفاتِ الاختيارية، كالرِّضا، والغَضبِ، والرَّحْمةِ، والرَّأفةِ، والحُبِّ، والبُغْضِ، والإِنْعام، والانتقامِ، وغيرِها مَما يتعلَّقُ بمشيئتهِ تعالى واختياره.

والحَقُّ الأبلجُ الذي يبهَرُ أبصارَ أهلِ البِدَع أنَّه تعالى تقومُ به الصِّفاتُ الاختياريةُ، والاستعاذة بالرِّضا والمعافاةِ، استعاذةٌ بصفته تعالى، إذ رضاهُ تعالى صفتهُ التي يرضى بها عمَّنْ شاءَ من عبادهِ، ومعافاتُهُ صفَتُهُ التي يُعافي بها من شاءَ من عبادِهِ، والمخلوق إنَّما هو العافيةُ الموجودةُ في الناس، والتي كانت بمعافاتِهِ تبارك وتعالى، فتأمَّل هذا رحِمَكَ الله ترشَد إن شاءَ الله.

٢ - **حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (**فَضْلُ كلامِ الله على سائرِ الكلامِ كفَضْلِ الله على سائرِ خلقِهِ**). [(١)]

تضمَّن هذا الحديث إثباتَ عقيدةِ السَّلَفِ (القرآن كلام الله غيرُ مخلوق) وذلك من وجهين:

الأوَّل: التفريق بين كلام الله وما سِواه من الكلام، والكلامُ إما كلامُ الله الذي هو صفته، أو الكلامُ المخلوق الذي يقَعُ من خلقِهِ، فأضافَ ما كانَ صفةً لله إلى الله، وعمَّمَ ما سِواهُ، ليشمَلَ كلَّ كلام سوى ما أضافه إلى الله، ولو كان الجميعُ مَخْلوقاً لما كانت هناك حاجة إلى التفريق.

والثاني: جعلَ الفَرْقَ بينَ كلام الله وكلام غيره كالفَرْقِ بينَ ذاتِ الله وذاتِ غيره، فجعلَ كلامَه مساوياً لذاتِهِ، وكَلاَمَ المخلوقِ مساوياً لذات المخلوقِ، ولو كان كلامُهُ مخلوقاً لم يساوِه بذاتِهِ، فإنَّ الله تعالى ليسَ يُساويه شيءٌ غيرُ صفاتِهِ وأسمائِهِ.

وقد احتجَّ بهذا الإمام عثمان بن سعيد الدَّارِميُّ في "الردِّ على الجهمية" فقال بعدَما ذكَر

---

(١) أخرجه عثمان الدارمي في " الرد على الجهمية " رقم: (٢٨٧، ٣٤٠)، واللالكائي رقم: (٥٥٧).

الأحاديثَ في هذا المعنى:

"ففي هذه الأحاديث بيانُ أنَّ القرآنَ غير مخلوقٍ, لأنَّه ليس شيءٌ من المخلوقينَ من التفاوت في فَضْلِ ما بينهما كما بين الله وبينَ خلقِهِ في الفَضْلِ, لأنَّ فَضْلَ ما بين المخلوقين يُسْتَدْرَك، ولا يُسْتدركُ فَضْلُ الله على خلقِهِ، ولا يُحْصِيهِ أحَدٌ، وكذلك فَضْلُ كلامهِ على كلام المخلوقين، ولو كانَ مخلوقاً لم يكن فضْلُ ما بينَه وبين سائر الكلام كفضْلِ الله على خلقهِ، ولا كَعُشْرِ عُشْرِ جُزْءٍ من ألفِ ألفِ جُزْءٍ، ولا قريباً فافْهَموه، فإنَّه ليسَ كمثله شيءٌ, فليسَ كَكَلامِهِ كلامٌ، ولن يُؤْتى بمثلِهِ أبداً". (١)

الأدلة من المعقول الصريح:

وذلك من وجهين:

الأول: أنَّ كلامَ الله إنْ كانَ مخلوقاً، فلا يخلو من أحَدِ حالَيْن:

الأولى: أنْ يكونَ مخلوقاً قائماً بذاتِ الله.

والثانية: أنْ يكونَ منفصلاً عن الله بائناً عنه.

وكلا الحالين باطلٌ، بل كفرٌ شنيعٌ.

أمّا الأولى فيَلزَمُ منها أن يقوم المخلوقُ بالخالقِ، وهو باطلٌ في قولِ أهلِ السُّنَّةِ، وعامَّةِ أهلِ البِدَعِ، فإنَّ الله تعالى مُستغنٍ عن خلقهِ من جميع الوجوهِ.

وأمّا الثانية فيلزَمُ تعطيلُ صفَةِ الكلام للباري تعالى، إذْ أنَّ الصفةَ إنَّما تقومُ بالموصوف –كما سبق تقريرةُ– لا تقومُ بسِواه، فإنْ قامَتْ بغيرِ الموصوف كانت وصفاً لمن قامتْ به، وهذا معناه أنَّ الرَّبَّ تعالى غيرُ متكلّمٍ، وهو كفرٌ بَيّنٌ، كما بَيَّنا الدلالةَ عليه.

والثاني: علمتَ أنَّ الصفةَ لا تقومُ بنفسِها، فإن كانتْ صفةً للخالق قامت به، وإن كانتْ صفةً للمخلوقِ قامتْ به ولا بدَّ، فالحركةُ، والسُّكونُ، والقيامُ، والقعودُ، والقدرةُ، والإرادةُ، والعلمُ، والحياةُ، وغيرُها من الصِّفاتِ، إن أضيفت لشيءٍ كانت وصفاً لهُ، وهي تابعةٌ لمن قامَتْ

(١) "الرد على الجهمية" (ص: ١٦٢–١٦٣).

به، فهذه صفاتٌ تُضاف للمخلوقِ، فهي صفات له حيث أضيفتْ له، ومنها ما يُضافُ إلى الخالق، كالقُدْرةِ والإرادةِ والعلمِ والحياةِ وغيرِ ذلك، فهي صفاتٌ له حيثُ أضيفت له، وحيثُ أضيفت للمخلوقِ فهي مخلوقةٌ، وحيثُ أضيفت للخالقِ فهي غير مخلوقةٍ.

فصفةُ الكلامِ كغيرها من الصِّفاتِ، لا بدَّ أن تقومَ بمَحَلٍّ، فإذا قامت بمَحَلٍّ كانت صفةً لذلك المحَلِّ، لا صفةً لغيرِه، فإنْ هي أضيفت إلى الخالق تعالى فهيَ صفتُهُ، وإنْ أضيفتْ إلى غيرِهِ فهي صفةٌ لذلك الغيرِ، وصفةُ الخالقِ غير مخلوقةٍ كنفسهِ، وصفةُ المخلوقِ مخلوقةٌ كنفسهِ.

فلمَّا أضافَ الله لنفسه كلاماً، ووصَفَ نفسَهُ به، كان كلامُهُ غيرَ مخلوقٍ، لأنَّه تابعٌ لنفسِهِ، ونفسُهُ تعالى غيرُ مخلوقةٍ، والكلامُ في الصِّفات فَرْعٌ عن الكلامِ في الذاتِ.

فإنْ قيلَ: هو مخلوقٌ، قُلْنَا: إذاً يتنزَّهُ الله عن الاتّصافِ بمخلوقٍ، وأنتم تنزهونه تعالى بزَعْمِكُمْ عن قيام الحوادث به، فحيثُ نزّهتم ربَّكم تعالى عن ذلك فإنَّه يلزمُكُم أن لا تضيفوا إليه كلاماً، وبهذا تكذّبون السَّمْعَ والعقل الشاهِدَيْنِ على أنَّ لله تعالى صفةَ الكلام، كما قدْ بيَّناه فيما مضى.

لكنَّهم أبَوُا الإقرار بأنَّ كلامَ الله تعالى غيرُ مخلوقٍ بأدهى ممَّا سبَقَ من الباطل، فقالوا: نُثْبِتُ أنَّ الله متكلمٌ بكلامٍ قائمٍ في غيرِهِ، فكلَّم الله تعالى موسى بكلامٍ مَخلوقٍ قائمٍ بالشَّجَرة، لا بهِ تعالى، فنحن نزَّهناه عن قيام الحوادث بهِ.

قُلْنا: جعلتُمُ الكلامَ إذاً صفةً للمَحَلِّ الذي قامَ به، وهو على قولِكم الشَّجَرةُ، فكانت الشجرةُ بهذا هي القائلةُ لموسى: ﴿**يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [القصص: الآية: ٣٠]، فانتفى حينئذ الفرقُ بين قولِ الشَّجرةِ وقول فرعونَ اللَّعين: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ [النازعات: الآية: ٢٤]؛ لأنَّ كلامَ الشجرةِ صفَتُها لا صفةُ الله، وكلامَ فرعونَ صفتُهُ، وكلٌّ ادَّعى الربوبيَّة، فلم يكن موسى إذاً محِقّاً في إنكارِهِ قولَ فرعونَ وقبولِهِ قولَ الشجرةِ.

سُبحان الله! كم تجُرُّ البدعُ على أهلِها من المحاذير؟

تأمَّل رحِمَكَ الله لهذا الكُفْرَ الصُّراح، الَّذي أوقعَ أهلَه فيه الابتداعُ المشِينُ، وعدَمُ الرِّضا والتَّسليم لحَقائق التَّنزيلِ، واستبدالُ الوحي الشريفِ بزُبالاتِ الأذْهانِ التي تُصَرِّفها الأهواءُ كيف شاءَت.

ولقد كانتْ هذه الحجَّةُ العَقْليَّة ممَّا احتَجَّ به الإِمامُ أحمدُ-رحمه الله-على الجَهْميةِ المعتزلةِ حين ناظرَهم بحضْرَة المعتصِم، قال-رحمه الله-:

"وهذه قصَّةُ موسى، قال الله في كتابِهِ حكاهُ عن نفسهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ [النساء: الآية: ١٦٤]، فأثبتَ الله الكلامَ لموسى كرامةً منه لموسى، ثمَّ قالَ بعدَ كلامهِ له ﴿تَكْلِيمًا﴾ تأكيداً للكلامِ، قالَ الله تعالى: يَا مُوسَى ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: الآية: ١٤]، وَتُنْكرونَ هذا، فتكونُ هذه الياءُ تَرِدُ على غير الله، ويكونُ مخلوقٌ يدَّعِي الرُّبوبية؟! ألَا هو الله عَزَّ وجَلَّ". [(١)]

وكذا احتجَّ بهذه الحُجَّة من أئمَّة السَّلَفِ

الثِّقةُ المأمونُ أبو أيوب سليمانُ بن داودَ الهاشميُّ-رحمه الله-(ت: ٢١٩ هـ)، فقال:

"مَنْ قالَ: القرآن مخلوقٌ فهو كافرٌ، وإن كانَ القرآنُ مخلوقاً كما زعمها فَلِمَ صارَ فرعونُ أولى بأنْ يُخَلَّدَ في النَّارِ، إذْ قالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: الآية: ٢٤]، وزعَموا أنَّ هذا مخلوقٌ، والذي قال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: الآية: ١٤]، هذا أيضاً قد ادّعى ما ادّعى فرعونُ، فَلِمَ صارَ فرعونُ أولي بأن يُخَلَّدَ في النَّارِ من هذا، وكلاهُما مخلوقٌ؟ ".

قال البُخاريُّ-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): فأخْبِرَ بذلك أبو عُبَيْد [(٢)] فاستحسَنَه وأعجَبه[(٣)]

كلام أئمه السلف في إثبات هذه العقيدة:

١-عمرو بن في دينار-رحمه الله-(ت: مابين: ١٢٥إلى ١٢٩ هـ) (من خيار أئمَّةِ التَّابعينَ):

قال: "أدركتُ أصحابَ النَّبي-صلى الله عليه وسلم-فَمَن دونَهم منذ سبعينَ سنة، يقولون:

---

(١) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٥٢)، عنه.

(٢) أبو عُبَيد هو القاسم بن سلاَّم-رحمه الله-(ت: ٢٢٤ هـ) لغويُّ أهلِ الحديث.

(٣) "خلق أفعال العباد" رقم (٥٩) عن سليمان به.



الله الخالقُ، وما سِواه مخلوق، والقرآن كلام الله، منه خَرجَ وإليه يعودُ". [(١)]

٢-قال إسحاقُ بن راهوَيْهِ-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ):

"وقد أدْرَكَ عَمْرُو بن دينارٍ أجلّةَ أصحابِ رسولِ الله-صلى الله عليه وسلم-، من البَدْريينَ، والمهاجِرينَ، والأنصار، مثل: جابر بن عبد الله، وأبي سعيدٍ الخُدْري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبَّاس، وعبد الله بن الزبير، وأجلّة التابعين، وعلى هذا مضى صدرُ هذه الأمَّةِ". [(٢)]

٣-جَعفر بن محمَّد بن عليّ بن الحُسَين المَعروف بـ "الصادق"-رحمه الله-(ت: ١٤٨ هـ) (إمامٌ ثقةٌ سُنِّيٌّ):

قال معاويةُ بن عمَّارٍ الدُّهْنِيُّ-رحمه الله-(ت: ١٧٥ هـ): قلْتُ لجَعْفر -يعني ابنَ محمد- إنَّهم يسألون عن القرآنِ: مخلوقٌ هو؟ قال:

"ليس بخالِقٍ ولا مَخلوقٍ، ولكنَّه كلامُ الله". [(٣)].

٤-مالك بن أنس-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ) (إمام دار الهجرة):

قال عبد الله بن نافع-رحمه الله-(ت: ١٨٦ هـ): كان مالكٌ يقول: "كلَّم الله موسى -صلى الله عليه وسلم- " ويقول: "القرآنُ كلامُ الله" ويستفظِع قولَ من يقول: القرآن مخلوق. [(٤)].

٥-سفيان بن عُيَيْنَة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ) (إمامٌ حُجَّةٌ):

---

(١) أخرجه الدارمي في " الردّ على الجهمية" رقم (٣٤٤) و"النقض على المريسي" (ص: ١١٦)، والبيهقي في "السنن" (١٠/ ٢٠٥).

(٢) قول إسحاق هذا زاده البيهقي في "السنن" ١٠/ ٢٠٥ و"الأسماء والصفات" (ص: ٢٤٥)، عقب قول عمرو بن دينار، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (١٠٩) والدارمي في "الرد على الجهمية" رقم (٣٤٥) و"النقض على المريسي" (ص: ١١٦)، وعبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٣٢-١٣٤) وأبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٥)، والآجري في "الشريعة" (ص: ٧٧)، البيهقي في "الأسماء" (ص: ٢٤٦-٢٤٧)، و"الاعتقاد" (ص: ١٠٧)، من طريق معاوية به.

(٤) رواه صالح بن أحمد في "المحنة" (ص: ٦٦)، بسند صحيح عنه.

سئل عن القرآن؟ فقال: "كلامُ الله، وليس بمخلوقٍ".[(١)].

٦-عبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ) (ذاكَ العَلَم):

قال: "القرآنُ كلامُ الله عَزَّ وَجَلَّ، ليسَ بخالقٍ ولا مَخلوقٍ".[(٢)].

٧-أبو عبد الله الشَّافعيُّ الإمامُ-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ):

قالَ الرَّبيعُ بن سُلَيْمان-رحمه الله-(ت: ٢٧٠ هـ) صاحبهُ وتلميذُهُ حاكياً المناظرةَ التي جرَتْ بينَهُ وبينَ حفْصٍ الفَرْدِ في القرآن:

فسألَ الشَّافعيَّ، فاحتجَّ عليه الشافعيُّ وطالَت فيه المناظرةُ، فأقامَ الشَّافعيُّ الحُجَّةَ عليهِ بأنَّ القرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وكفَّر حَفْصاً الفَرْدَ.

قال الرَّبيعُ:

فلقيتُ حفْصاً الفَرْدَ في المجْلسِ بَعْدُ، فقال: أرادَ الشَّافعيُّ قَتْلي.[(٣)]

٨-وكيعُ بن الجرَّاح-رحمه الله-(ت: ١٩٧ هـ) (أحدُ كبارِ الحُفَّاظ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله عزَّ وجَلَّ ليسَ بالمخلوقِ".[(٤)]

٩- يحيى بن سعيد القطَّان-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ) (رأسٌ في الحَديثِ وعِلَلِه):

قال الحافظُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ): قالَ لي يحيى بن سعيدٍ:

"كيف يصْنَعونَ بـ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١]؟ كيف يَصْنَعونَ بهذه الآية: ﴿**إِنِّي أَنَا اللَّهُ**﴾؟ يكونُ مخلوقاً؟ ".[(٥)]

---

(١) أخرجه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٥)، بسند جيد عنه.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٤٤) وسنده صحيح، وكذا رواه اللالكائي رقم (٤٢٦).

(٣) رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في "آداب الشافعي" (ص: ١٩٤-١٩٥)، وسنده صحيح..

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٥١) بسند صحيح.

(٥) رواه عبد الله بن أحمد في "السـنة" رقم (١٥٧) بسـند صـحيح. وكذا أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (٣٠) عن الطيالسي نحوه.

١٠-**يزيد بن هارون-رحمه الله-(ت: ٢٠٦ هـ)** (من كبار أئمَّةِ الحَديثِ):

قال: "مَنْ قالَ: القرآنُ مخلوقٌ فهو كافرٌ".[(١)]

١١-**عبد الله بن إدريس-رحمه الله-(ت: ١٩٢ هـ)** (ثقةٌ ثَبْتٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله، ومنَ الله، وما كانَ مِنَ الله عَزَّ وجَلَّ فليسَ بمخلوقٍ".[(٢)]

١٢-**أبو الوليد الطَّيالِسي: هشامُ بن عبد الملك-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ)** (ثِقَةٌ حافِظٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله، وكلامُ الله ليسَ بمَخلوقٍ".[(٣)]

١٣-**سليمان بن حَرْبٍ-رحمه الله-(ت: ٢٢٤ هـ)** (ثقَةٌ جَبَلٌ صاحبُ سُنَّة):

قال عباسُ بن عبد العظيم-رحمه الله-(ت: ٢٤٦ هـ)، -وكان ثِقَةً- سمعتُ سُليمانَ بن حَرْبٍ قال:

"القرآنُ ليسَ بمَخلوقٍ".

فقلت له: إنَّكَ كنتَ لا تقولُ هذا، فما بَدا لكَ؟

قالَ: "استَخْرَجْتُهُ من كتاب الله عَز وجَل: ﴿**لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ**﴾ [آل عمران: الآية: ٧٧] فالكلام والنظرُ واحدٌ".[(٤)]

١٤-**الإمام أحمدُ بن حَنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)** إمام أهل السُّنَّة:

النَّقْلُ عنه في ذلك متواترٌ، والناقلونَ عنه لا يُحصيهم العدُّ، وكَفى ما كان منه في المِحْنَةِ مع الجهميةِ المعتزلةِ القائلين بخلقِ القرآن، وقد تقدَّم ذكرُ بعضِ النقلِ عنه، وسيأتي بعض ذلك متناثِراً.

---

(١) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٨)، بسند صحيح.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٦١) بسند صحيح.

(٣) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٦)، بسند صحيح.

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٦٩) عن عباس عنه به.

ومِمَّا يَحْسُنُ ذكرُهُ هنا ما قالَه الإمام أحمدُ جواباً لسؤالِ المتوكِّلِ عن مسألة القرآنِ:

"وقد رُوِيَ عن غير واحدٍ مِمَّن مَضى من سَلَفِنا رحمهم الله أنَّهم كانوا يقولون: القرآنُ كلام الله عَزَّ وجَلَّ، وليس بمخلوقٍ، وهو الذي أذْهَبُ إلَيهِ، ولسْتُ بصاحبِ كلامٍ، ولا أرى الكلامَ في شَيْءٍ من هذا، إلاَّ ما كانَ في كتابِ الله عَزَّ وجَلَّ، أو في حديثٍ عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو عن أصحابِهِ، أو عنِ التابعينَ، فأمَّا غير ذلك فإنَّ الكلامَ فيه غيرُ مَحْمودٍ".[(١)]

وقال حنبلٌ: سمعتُ أبا عبد الله يقولُ:

"لم يَزَل الله-عَزَّ وَجَلَّ-متكلِّماً، والقرآنُ كلامُ الله-عَزَّ وَجَلَّ-غيرُ مخلوقٍ، وعلى كلِّ جِهَةٍ، ولا يوصَفُ الله بشَيْءٍ أكثرَ مِمَّا وصَفَ به نَفْسَهُ-عَزَّ وَجَلَّ-".[(٢)]

١٥ -يحيى بن مَعين-رحمه الله-(ت: ٢٣٣ هـ) (إمامُ الجَرْحِ والتَّعديلِ) وأبو خيثمة زُهَيْر بن حَرْب-رحمه الله-(ت: ٢٧٩ هـ) (حافظٌ إمامٌ ناقِدٌ):

قالا: "القرآنُ كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهو غيرُ مَخْلوقٍ".[(٣)]

١٦-أبو بكر بن أبي شَيْبَة-رحمه الله-(ت: ٢٣٥ هـ) (حافظٌ إمامٌ مُصَنِّفٌ):

قال له رجُلٌ من أصحابِهِ: القرآنُ كَلامُ الله وليسَ بمَخلوقٍ، فقال أبو بكر:

"مَنْ لَمْ يَقُلْ هذا فهو ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدِعٌ".[(٤)]

١٧-عثمان بن أبي شَيْبَةَ-رحمه الله-(ت: ٢٣٩ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ):

قال: "القرآنُ كلامُ الله وليسَ بمَخلوقٍ".[(٥)]

١٨-جماعةٌ من شُيوخِ أبي داودَ السِّجِستاني صاحب "السُّنن":

---

(١) رواه صالح في "المحنة" (ص: ١٢٢)، وعبد الله في "السنة" رقم (١٠٨) عن أبيهما.

(٢) رواه حنبل في "المحنة" (ص: ٦٨)، وانظر (ص: ٧٤).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٧٣) بسند صحيح، وانظر "تاريخ يحيى" رواية الدوري (٣/ ٣٣٥).

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٦٢) عنه به.

(٥) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (١٦٣) عنه به.

قال أبو داود-رحمه الله-(ت: ٢٧٥ هـ):

سمعتُ إسحاقَ بن إبراهيمَ بن راهُوَيهِ-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ)، وهَنَّادَ بن السَّريّ-رحمه الله-(ت: ٢٤٣ هـ)، وعبدَ الأعلي بنَ حمَّادٍ-رحمه الله-(ت: ٢٣٧ هـ)، وعُبيدَ الله بن عُمَر بنِ مَيسرةَ القواريريَّ-رحمه الله-(ت: ٢٣٥ هـ)، وحكِيم بن سيفٍ الرَّقيَّ-رحمه الله-(ت: ٢٣٥ هـ)، وأيوبَ بن محمَّدٍ-رحمه الله-(ت: ٢٤٦ هـ)، وسَوّارَ بنَ عبد الله-رحمه الله-(ت: ٢٤٥ هـ)، والرَّبيعَ بن سليمان-رحمه الله-(ت: ٢٧٠ هـ)-صاحبَ الشَّافعيّ-، وعبدَ الوهّابِ بن الحَكَم-رحمه الله-(ت: ٢٥١ هـ)، ومحمَّدَ بن الصَبّاح بنِ سُفيانَ-رحمه الله-(ت: ٢٤٠ هـ)، وعُثمانَ بن أبي شَيْبَة-رحمه الله-(ت: ٢٣٩ هـ)، ومحمَّدَ بنَ بَكّارِ بنِ الرَّيَّانِ-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ)، وأحمدَ بن جَوَّاس الحنَفيَّ-رحمه الله-(ت: ٢٣٨ هـ)، ووَهْبَ بن بَقِيَّةَ-رحمه الله-(ت: ٢٣٩ هـ)، ومَن لا أحْصيهم من عُلمائِنا، كلُّ هؤلاءِ سَمِعْتُهم يقولونَ:

"القُرْآنُ كلامُ الله ليسَ بمَخلوقٍ".

وبعضهُم [قال: "القرآنُ] غيرُ مخلوقٍ".(١)

قلتُ: وجميعُ هؤلاءِ الشيوخِ من أئمَّة الحديثِ، وكلُّهم ثِقاتٌ، سِوى حَكيم بن سَيْف فإنَّه صالحٌ لا بأس به.

١٩-**عليُّ بن المديني-رحمه الله-(ت: ٢٣٤ هـ)** (صَيْرَفيّ الحَديثِ وأهلِهِ).

قال محمَّدُ بن عثمانَ بن أبي شَيْبة-رحمه الله-(ت: ٢٩٧ هـ): سمعتُ عليَّ بن المَديني يقولُ قبلَ أن يموتَ بشَهرين:

"القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قالَ: مخلوقٌ، فهو كافرٌ".(٢)

---

(١) "المسائل" لأبي داود (ص: ٢٦٦).

(٢) أخرجه ابن الطبري في "السنة" رقم (٤٥٣) والخطيب في "تاريخ بغداد" (١١/ ٤٧٢)، بسند صحيح، وانظر "مسائل ابن أبي شيبة لابن المديني" (ص: ١١٣).

٢٠-**أبو يعقوب البُويْطيّ-رحمه الله-(ت: ٢٣١ هـ)** (تلميذُ الشافعي وخرّيجُهُ):

قال:"مَنْ قالَ: القرآنُ مخلوقٌ، فهو كافرٌ".(١)

٢١-**المُزَنِيُّ: إسماعيل بن يحيى-رحمه الله-(ت: ٢٦٤ هـ)** (إمامٌ فَقيهٌ، من أخَصّ أصحابِ الشافعي به):

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قالَ: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فهو كافرٌ".(٢)

٢٢-**البخاريّ: محمَّد بن إسماعيل-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ)** (إمامُ المحدّثين):

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ".(٣).

٢٣-**أبو حاتِمٍ-رحمه الله-(ت: ٢٧٧ هـ) وأبو زُرْعَة-رحمه الله-(ت: ٢٨٩ هـ)** الرّازيانِ (عالمانِ حافظانِ، من كبارِ أئمَّةِ الحديثِ):

قال عبدُ الرَّحمن بن أبي حاتِمٍ-رحمه الله-(ت: ٣٢٧ هـ):

سألتُ أبي وأبا زُرْعةَ عن مَذاهبِ أهل السُّنَّة في أصولِ الدّينِ، وما أدركا عليه العلماءَ في جميع الأمصارِ، وما يَعْتَقِدان من ذلك؟

فقالا: "أدْرَكْنَا العُلَماءَ في جَميع الأمصار: حِجازاً، وعِراقاً، وشاماً، ويَمَناً، فكان من مذهبهم: الإيمان قولٌ وعَمَلٌ يَزيدُ وينقصُ، والقرآنُ كلامُ الله غير مخلوقٍ بجميع جهاتِهِ".(٤)

فهؤلاءِ بِضْعةٌ وثلاثونَ من الأئمَّةِ، قد سمّيناهم، عامَّتهم ممَّن يُقْتَدى بهم، وجميعهم من أهلِ القُرونِ المفَضَّلَة التي هي خيرُ القرون.

٢٤-**قال الإمام أبو عثمانَ الصابونيُّ-رحمه الله-(ت: ٤٤٩ هـ)**:

"ويشهَد أصحابُ الحديث، ويعتقدونَ: أنَّ القرآنَ كلام الله وكتابُه، وخِطابُه، ووحيُهُ، وتنزيلُهُ،

---

(١) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٨)، بسند صحيح عنه.

(٢) رواه البيهقي في "الأسماء والصفات" (ص: ٢٥٢)، بسند صحيح، ورواه هو وابن الطبري بإسنادين آخرين عنه.

(٣) "خلق أفعال العباد" (ص: ٣٧).

(٤) أخرجه ابن الطبري في "السنة" (١/ ١٧٦)، بسند صحيح.

غيرُ مخلوقٍ، ومَنْ قالَ بِخَلْقِهِ واعتقدَه فهو كافرٌ عندهم".[(١)]

ولو أرَدْنا استيعاب ما بلَغنا من أقوالهم في إثباتِ هذه العقيدةِ (القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوقٍ) لاحتاجَ ذلك إلى تصنيفٍ مُستقلٍّ.

وقد ساقَ الإمامُ أبو القاسِم هبةُ الله بن الحَسَن الطَّبَريُّ اللَّالكائي-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ) في كتابه العَظيم (شرحِ أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) أو (كتاب السنة) القولَ بذلك عن خَمْسِ مِئَةٍ وخَمسينَ نَفْساً من علماءِ الأمَّةِ وسَلَفِها، كلُّهُم يقولونَ: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، ومَن قال: مخلوقٌ، فهو كافرٌ".

قال-رحمه الله-: "فهؤلاء خَمْسُ مِئَةٍ وخمسونَ نَفْساً أو أكثر، من التَّابعينَ، وأتباع التَّابعينَ، والأئمةِ المرْضيّينَ، سوى الصحابة الخيّرين، على اختلاف الأعصارِ، ومُضِيّ السّنين والأعوامِ، وفيهم نحوٌ من مِئة إمامٍ، ممَّن أخذَ الناسُ بقَوْلهم، وتَديَّنوا بمَذاهبهم، ولو اشتغلتُ بنقلِ قولِ المحَدِّثينَ لبلَغتْ أسماؤهم ألوفاً كثيرةً".[(٢)].

وفيما ذُكر كفايةٌ لإثباتِ الحَقّ البيّن الصَّريحِ الذي أطبقَ على اعتقادهِ سادةُ علماءِ الأمَّة، فهو إجماعُ أهلِ السُّنَّة الَّذي لا يقعُ فيهِ امتراءٌ، والله أعلم.

مسألة القائلين بالتوقف.

أما مَسْألة السُّكوتُ عن القولِ: القرآنُ مَخلوقٌ، أو غيرُ مَخلوقٍ، والاكتفاء بالقول: إنَّه كلامُ الله.

فقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): هَلْ لهم رُخْصَةً أنْ يقولَ الرجلُ: القرآن كلام الله تعالى ثمَّ يَسْكت؟ فقالَ: "ولِمَ يسكُت؟ لولا ما وقَعَ فيه الناس كان يسَعُهُ السُّكوتُ، ولكن حيثُ تكلَّموا فيما تكلَّموا لأيِّ شيءٍ لا يتكلَّمون؟ ".[(٣)]

---

(١) "رسالته في السُّنَّة" (ص: ٦).

(٢) كتاب "السنة" رقم (٤٩٣).

(٣) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٣-٢٦٤)، ومن طريقه: الآجري (ص: ٨٧)، وإسماعيل بن الفضل (ق ١١٤/أ).

قال الحافظ أبو بكر الآجُريُّ–رحمه الله–(ت: ٣٦٠ هـ):"معنى قول أحمدَ بن حنبل في هذا المعنى، يقول: لم يختلفْ أهلُ الإيمان أنَّ القرآنَ كلامُ الله عَزَّ وجَلَّ، فلمَّا جاءَ جَهْمٌ فأحْدَثَ الكُفْرَ بقولِهِ: إنَّ القرآن مخلوقٌ، لم يسَع العلماءَ إلاَّ الرَّدُّ عليه بأنَّ القرآنَ كلامُ الله عَزَّ وجَلَّ غيرُ مخلوقٍ بلا شكٍّ ولا تَوقُّفٍ فيهِ، فمَنْ لم يَقُلْ: غيرُ مخلوقٍ، سُمِّيَ واقفيّاً شاكاً في دينه".[١]

وقال أحمدُ أيضـاً: "كنا نرى السُّـكوتَ عن هذا قبلَ أن يخوضَ فيه هؤلاء، فلمَّا أظهروهُ لم نَجِدْ بُدّاً من مُخالفتهم والرَّدِّ عليهم".[٢]

والأئمةُ جميعاً على إنكارِ مَسْـلَكِ هؤلاءِ، والتَّشـديد عليهم، وتَبْدِيعهم، وأبو عبد الله أحمد بن حنبل أشدُّهم إنكاراً.

قال أبو داود السِّـجِسـتانيُّ–رحمه الله–(ت: ٢٧٥ هـ): سمعتُ أحمدَ ذَكَرَ رَجُلينِ كانا وَقَفا في القرآنِ، ودَعَوَا إليه، فجعَلَ يَدعو علَيْهما، وقالَ لي: هذا لأحدِهما فِتْنةٌ، وجعَلَ يذكرهما بالمكْروهِ.[٣]

وقالَ: رأيتُ أحمدَ سـلَّمَ عليه رجلُ من أهْلِ بغداد ممَّن وقَفَ–فيما بلَغني–فقال: "اغْرُبْ، لا أرَينَّكَ تَجِيءُ إلى بابي–في كلام غَليظ–" ولَمْ يرُدَّ عليه السَّلامَ، وقالَ لَهُ:

"ما أحوَجَكَ إلى أنْ يُصْنَعَ بك ما صنَعَ عُمَرُ بصَبِيغٍ".

قال أبو داودَ: فهَّمَني بصَبيغ بعضُ ولَد أحمدَ – [فدخَلَ بيتَه وردَّ البابَ].[٤]

وقالَ أبو طالب: سـألتُ أبا عبد الله عمَّن أمسـكَ، فقال: لا أقولُ ليسَ هو مخلوقاً، إذا لَقِيَني بالطريقِ وسلَّمَ عليَّ، أسَلِّمُ عليه؟

---

(١) "الشريعة" للآجري (ص: ٨٧).

(٢) ذكره عنه عثمان الدارمي في "النقض على المريسي" (ص: ١١٠).

(٣) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٤) ومن طريقه الآجري (ص: ٨٧).

(٤) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٤)، ومن طريقه: الآجري (ص: ٨٧). وصَبيغ هذا بصريٌّ قَدِمَ على عُمَر فكان يجادل في متشابه القرآن، فجلَده عمر–رضي الله عنه–لذلك، وقصته صحيحة مشهورة، رويت موصولةً بسند صحيح عند ابن عساكر (٨/ ١١٧) وغيره، ورويت مرسلةً من وجوه متعددة..

قال: "لا تُسَــلِّمْ عليه، ولا تكلِّمْهُ، كيفَ يعرفُه الناسُ إذا ســلَّمتَ عليْهِ؟ وكيفَ يعرفُ هو أنَّك مُنكرٌ عليه، فإذا لَمْ تُسَلِّم عليه عَرَفَ الذّلَّ، وعرفَ أنك أنكرتَ عليه، وعرفهُ النَّاسُ".(١)

وقال أبو داودَ: سمعتُ أحمدَ وقيلَ له: ما تَرى في الصَّلاةِ خَلْفَ من يقولُ في القرآنِ: كلامُ اللهِ، ويَقِفُ؟ قال: "يُعْجِبُنِي أنْ يُجْفَوا".(٢)

وقال الإمامُ أحمدُ–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "افترقَت الجَهميَّةُ على ثَلَاثِ فِرَق: فِرْقَةٍ قالوا: القرآنُ مخلوقٌ، وفرقةٍ قالوا: كلامُ الله وتسْكُتُ، وفرقةٍ قالوا: لفظُنا بالقرآنِ مخلوقٌ".(٣)

ومقالاتُ الإمام أحمدَ فيهم كثيرةٌ مُستفيضةٌ، وكذا عن غيرِه من أئمَّةِ السُّنَّة، فمِنْ ذلك:

١ – قال مُهَنّا أبو عبد الله السُّـلَميّ–رحمه الله–(ت: ٢٦٠ هـ تقريبًا) (وكان من خيار أصحاب أحمد):

سألتُ أحمدَ بن حنبل بعدَ ما أخْرجَ من السِّجنِ بسنتين: ما تقول في القرآنِ؟ فقَالَ: "كلامُ الله غيرُ مخلوق" وقال: "مَن رَوى عنّي غيرَ هذا القولَ فهو مُبْطِل" قلتُ له: إنَّ بعضَ مَن ذكَرَ عنك أنَّك قلتَ له: هو كلام الله، لا مَخلوق ولا غيرُ مخلوق، ولكن هو كلام الله، فقال أحمد: "أبْطَلَ، ما قلتُ هذا، ولكنَّه هو كلامُ الله غير مخلوقٍ".(٤)

٢ – وقالَ سـلَمةُ بن شَـبيب–رحمه الله–(ت: ٢٤٦ هـ): دخلتُ على أحمد بن حنبل فقلتُ: ما تقول فيمن يقول: القرآن كلامُ الله؟ فقال أحمد: "مَنْ لم يَقُلْ: القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق فهو كافرٌ".

ثمَّ قالَ: "لا تَشُكَّنَّ في كُفْرِهم، فإنَّ مَن لم يَقُلِ: القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوق فهو يقول: مخلوقٌ، ومَن قال: هو مخلوقٌ، فهو كافر بالله عزَّ وجَلَّ".

---

(١) رواه الآجري (ص: ٨٨)، بسند صحيح.

(٢) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٤).

(٣) رواه صالح في "المحنة" (ص ٧٢) عن أبيه به.

(٤) رواه عبد الله في "السنة" رقم (٥٢٩) عن مهنّا عن أحمد.

قال سلمَةُ: وقلتُ لأحمدَ: الواقفة كفّارٌ؟ فقال:"كفّارٌ".[١]

٣ - **وقال عبد الله بن أحمدَ–رحمه الله–(ت: ٢٩٠ هـ)**: سمعتُ أبي -وسُـــئلَ عن الواقفة- فقال أبي:

"مَن كانَ يُخاصِـــمُ ويُعرَفُ بالكلام فهو جَهْميٌّ، ومن لم يُعرَف بالكلام يُجانَب حتى يَرْجِعَ، ومَن لم يكن له عِلمٌ يَسأل".[٢]

وقالَ مرَّةً في الواقِفَةِ:"هُمْ شَرٌّ مِن الجهميَّةِ".[٣]

قلتُ: لخَفاءِ أمرِهم.

٤ - **وقال إسحاقُ بن راهُوَيْهِ–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ)** (الإمامُ الفقيهُ الحافِظُ):

"مَنْ قالَ: لا أقولُ: القرآنُ مخلوقٌ، ولا غيرُ مخلوقٍ، فهو جَهميٌّ".[٤]

٥ - **وقال قُتَيبةُ بن سعيد–رحمه الله–(ت: ٢٤٠ هـ)** (وهو ثِقَةٌ ثَبْتُ حافِظٌ):

"هؤلاءِ -يعني الواقفة- شَرٌّ مِنْهم، ممَّن قالَ: القرآنُ مخلوقٌ".[٥]

٦ - **وقال الحافظُ الإمامُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ–رحمه الله–(ت: ٢٢٧ هـ)**:

"مَن لم يَعْقِدْ قلبَه على أنَّ القرآنَ ليسَ بمخلوقٍ فهو خارجٌ من الإسلام".[٦]

٧ - **وقال عثمانُ بن أبي شيبة–رحمه الله–(ت: ٢٣٩ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ)**:

"هؤلاء الذين يقولونَ: كلامُ الله ويسكُتونَ، شَرٌّ من هؤلاء -يعني ممن قالَ: القرآنُ مخلوقٌ".[٧]

---

(١) رواه ابن الجوزي في "مناقب الإمام أحمد" (ص: ١٥٧)، بسند جيد.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (٢٢٣).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في "السنة" رقم (٢٢٥).

(٤) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٧٠)، ومن طريقه الآجري في "الشريعة" (ص: ٨٨).

(٥) رواه أبو داود في "المسائل" (ص:٢٧٠) ومن طريقه الآجري (ص: ٨٨).

(٦) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٦)، بسند صحيح.

(٧) رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٧١)، ومن طريقه الآجري (ص: ٨٨).

٨ - **وقال أبو داودَ: سألتُ أحمدَ بن صالح المِصْريَّ-رحمه الله-(ت: ٢٤٨ هـ)** (الحافظ الإمام) عمَّن يقول: القرآن كلامُ الله، ولا يقول: مخلوقٌ، ولا غيرُ مخلوقٍ؟ قال: "لهذا شاكٌّ".[(١)]

٩ - **وقال أبو خَيْثَمة-رحمه الله-(ت: ٢٧٩ هـ) (ثِقَةٌ حافِظٌ) -وسأل يَحيى بن مَعِين- رحمه الله-(ت: ٢٣٣ هـ)**، فقال: إنَّهم يقولون: إنّكَ تقولُ: القرآنُ كلامُ الله، وتَسْكُت، ولا تقولُ: مخلوقٌ، ولا غيرُ مَخلوقٍ، قال: "لا" فعاوَدتهُ، فقال: "مَعاذَ الله، القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوقٍ، ومَن قالَ غير لهذا فعليه لعنةُ الله".[(٢)]

١٠ - وقالَ أبو حاتِمٍ-رحمه الله-(ت: ٢٧٧ هـ)، وأبو زُرْعةَ-رحمه الله-(ت: ٢٨٩ هـ) الرّازيان الحافظان:

"ومَن شَكَّ في كلامِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فوقَفَ شاكّاً فيه، يقولُ: لا أدْري، مَخْلوقٌ أو غير مَخلوقٍ، فهو جَهميّ، ومَن وقَفَ جاهلاً عُلِّمَ، ويُدّعَ ولَم يُكَفَّر".[(٣)]

وكذا ذكَر الإمامُ هِبَةُ الله ابنُ الطَّبريّ-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ) نَحوَ ما ذُكِرَ من الإنكار عن نَحْوِ مِئَةٍ من المحدِّثينَ والفُقَهاء.[(٤)] [(٥)].

خامسًا: مسألة أنه منه بدأ وإليه يعود.[(٦)].

الجانب الأول: (منه بدأ).

يَعْتَقدُ السَّلَفُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى، منه خرجَ وبدأ، تكلَّمَ به بحُروفِهِ ومَعانيهِ، فأسمَعَهُ جبريلَ عليه السَّلام، ونَزل به جبريلُ على قلبِ نبيّنا صلى الله عليه وسلم، وهو هذا اللِّسانُ

---

(١) رواه أبو داود (ص: ٢٧١)، وعنه الآجري (ص: ٨٨).

(٢) رواه ابن الطبري في "السنة" رقم (٤٥٦) بسند صحيح.

(٣) رواه ابن الطبري (١/ ١٧٨) بسند صحيح.

(٤) كتاب "السنة" (٢/ ٣٢٣-٣٢٩).

(٥) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

(٦) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

العربيُّ المبينُ، النّازلُ بلغةِ قُرَيْشٍ.

الأدلة على ذلك:

وهذا مُبَيَّن في غيرِ مَوْضع من كتاب الله تعالى، فمِنْ ذلك:

١ - قولُه تعالى: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [هود: الآية: ١].

٢ - وقولُه -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿**تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى**﴾ [طه: الآية: ٤].

٣ - وقولُه تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ [النمل: الآية: ٦].

٤ - وقولُه تعالى: ﴿**الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**﴾ [السجدة: الآيات: ١ - ٣].

٥ - وقولُه جلَّ وَعَلا: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...**﴾ [الزمر: الآيات: ١ - ٢].

٦ - وقولُه تعالى: ﴿**حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ [فصّلت: الآيات: ١ - ٤].

٧ - وقولُه تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: الآيات: ٤١ - ٤٢].

فأخبرَ تعالى في هذه الآيات وما يشبَهُها أنَّ القرآنَ العربيَّ الذي هو كلامهُ، إنَّما هو تنزيلُه، نَزَلَ منهُ، فمنه بدَأَ وَخَرَجَ لا مِنْ سِواه.

٨ - وقولُه تعالى: ﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾ [النحل: الآيات: ١٠١ - ١٠٣].

فأنبأ تعالى في هذه الآياتِ أنَّ القرآنَ العربيَّ نزَلَ به رُوحُ القُدُس منه، ورُوحُ القُدُس هو جبريلُ

عليه السَّلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: الآية: ٩٧].

فليسَ هو كلامَ محمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- كما زعَمَ الكفَّارُ- ولا كلامَ جبريلَ عليه السَّلام -كما زعمَه بعضُ أهلِ البِدَع- وإنَّما هو كلامُ الله تعالى، منه بدأ وخَرَجَ، وهو الذي أنزلَه بواسطةِ رسولِهِ الملَك جبريلَ، فمن قال غير هذا فقَدْ كفَرَ، لأنَّه كذَّبَ الله في قولِهِ، وجَحَدَ ما أنبأتْ به رسلُه، وإنِ ادّعى الإسلامَ وانتسبَ إليه، فالإسلامُ يَبْرأ منه.

والله تعالى لم يُضِف شيئاً ممَّا أنزله إلى نفسِهِ غيرَ كلامهِ، وذلك لأنَّه صفتُهُ.

تنبيه:

ويجب أن يُعلَمَ أنَّه ليسَ معنى قولهم (منه خَرَجَ) أنَّ صفةَ الكلام فارَقَتْهُ تعالى، وحلَّتْ في غيرِهِ، وأنَّ ما تكلَّم به نُسِبَ إلى غيرِه، وصارَ وصفاً لذلك الغَيْر -كما قد وَسْوَسَ به بعضُ أهل البدَع-فإنَّ هذا المعنى لا يُعقَل في حَقّ الإنسانِ المخلوقِ الضَّعيفِ، إذا تكلَّمَ بكلام تزولُ عنهُ صفةُ الكَلام بذلك وتفارقُه إلى غيرِهِ، فإنَّ من كانَ كذلكَ لم يمكِنْه الكلامُ إلاَّ مرّةً واحدةً، فإذا تكلَّمَ هذه المرَّة فارقَتْهُ صفتُهُ، لأنَّ الكلامَ خرَجَ منه وفارقَهُ، وبمفارقته زالتْ عنه الصّفة ولَحِقَتْ غيرَهُ، هذا كلامٌ لا يقوله مَن يَدري ما يقولُ، فإنَّ مَنْ وُصِفَ بالكلام على هذا المعنى موصوفٌ بالعَجْز عنه، وهو غيرُ متصوَّرٍ في حقّ الناطق المخلوق على ضَعْفه، فكيف تصوَّرَهُ هؤلاء الضُّلاَّلُ في حقّ الله الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ، فإنَّه تعالى وصفَ نفسَه بأنَّه متكلمٌ بكلامٍ متعلقٍ بمَشيئتهِ وقُدْرتهِ، يُسْمِعُه من شاءَ من خلقهِ، متى شاءَ، وأنَّ كلماتِهِ تعالى لا تَنْفَدُ، ومن كان هذا وصْفُهُ لم تفارقْهُ صفَتُهُ بتكلّمهِ مرَّةً أو مرَّاتٍ، وكانَ كلُّ ما تكلَّمَ به منسوباً إليه لا إلى غيرِهِ.

قالَ الإمام الحافظُ أبو الوليد الطَّيالِسيُّ-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ): "القُرْآنُ كلامُ الله ليسَ ببائنٍ من الله". [١]

---

[١] رواه أبو داود في "المسائل" (ص: ٢٦٦)، بسند صحيح عنه.

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وإنَّ قولَ السَّلَف: (منه بدأ) لم يُريدوا به أنه فارقَ ذاتَهُ، وحَلَّ في غيره، فإنَّ كلامَ المخلوقِ، بل وسائرَ صفاتهِ لا تفارقُه وتَنْتَقِلُ إلى غيرِهِ، فكيفَ يجوزُ أنْ يفارقَ ذاتَ الله كلامُه أو غيرُهُ من صفاتِهِ".[(١)]

قالَ الله تعالى: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية: ٦]** فالَّذي يسمَعُهُ المشْرك المستجيرُ من القارئ إنَّما هو كلامُ الله المضافُ إليه لا إلى غيرِهِ، فلو أن كلامَه بانَ منه وفارقَه لَما صَحَّتْ إضافَتُهُ إليه إضافةَ الصِّفَةِ إلى الموصوفِ.

وهذا الكلامُ بعَيْنِهِ هو الذي في مَصاحفِ المسلمينَ بلا شَكٍّ ولا ريبٍ، خِلافاً لِلَّفظيةِ من الأشعريةِ وغيرهم القائلينَ بأنَّ ما في المصاحفِ دلالةٌ على كلام الله، وليسَ هو كلامَ الله، وقد قالَ الله تعالى: **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الواقعة: الآيات: ٧٧-٨٠]، فأبان أنَّ كلامَه الذي هو وحيُهُ وتنزيلُهُ يكونُ في الكتاب المكنونِ، فكذلك كونُه في المصاحفِ، ونحنُ لا نعلَمُ القرآنَ إلاَّ هذا العربيَّ المنزَلَ، وهو الذي سمَّاه الله تعالى كلامَه.

وقَدْ قالَ النَّبِيُّ –صلى الله عليه وسلم–: (لا تُسافِروا بالقرآن إلى أرْضِ العَدُوّ، فإنِّي أخافُ أن ينالَهُ العدوُّ).[(٢)]

ولا خِلافَ في أنَّ النَّهيَ عن السَّفر بالقرآن، إنَّما هو النَّهْيُ عن السَّفَرِ بالمصاحفِ، لأنَّ القرآنَ إنَّما يكونُ فيها، وهي التي تُحْمَلُ وتُنْقَلُ، ولا نعلَمُ القرآنَ إلاَّ كلامَ الله المنزَلَ على الحقيقةِ.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "ومِمَّا كانَ أحمدُ أنكرَه من قولِ الجهميَّةِ قولُ

---

(١) "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٢٧٤)، وانظر: (١٢/ ٥١٧- ٥١٨، ٥٥٠، ٥٦١).

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٤٤٦)، والشافعي رقم (١١٤٩، ١١٥٠)، وأحمد رقم (٤٥٠٧، ٤٥٢٥، ٤٥٧٦، ٥١٧٠، ٥٢٩٣)، والبخاري (٦/ ١٣٣)، ومسلم رقم (١٨٦٩)، وأبو داود رقم (٢٦١٠)، والنسائي في "فضائل القرآن" –من "الكبرى"– رقم (٨٥)، وابن ماجة رقم (٢٨٧٩، ٢٨٨٠)، من طرق عن نافع عن ابن عمر به مرفوعًا.

وتابع نافعاً عليه عبد الله بن دينار، أخرجه أحمد رقم (٦١٢٤) وابن أبي داود في "المصاحف" (ص: ١٨٣) بسند صحيح عنه.

وكذا تابعه سالم عن أبيه، أخرجه ابن أبي داود (ص: ١٧٩ – ١٨٠)، بسند صالح في المتابعات.

من زعَمَ أنَّ القرآنَ ليسَ في الصُّدورِ، ولا في المصاحفِ". [(١)]

الجانب الثاني: (إليه يعود)

وقد اختلف العلماء في تفسير معنى قوله: وإليه يعود.

القول الأول: وقد تأوَّلَهُ بعضُ أهلِ السُّنَّة بعَودِ تلاوته وقراءته التي هي كَسْبُ العبدِ.

وهذا المعنى حَق، فإنَّه تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: الآية: ١٠]

القول الثاني: يعود إليه نسبة.

أي أنه يعود إلى الله تعالى وصفا، فهو الموصوف به سبحانه وتعالى لا يوصف به أحد سوى الرب سبحانه وتعالى.

قال ابن النجار الفتوحي–رحمه الله–(ت ٩٧٢ هـ): "قال أحمد: كلام الله من الله ليس ببائن منه. وقد جاء في الأحاديث والآثار "أنه منه بدأ، ومنه خرج، وإليه يعود" نصا منه، ومن غيره عليه.

ومعنى ذلك: أنه هو المتكلم به، أو الذي يخرج منه، ولا يقتضي ذلك أنه يباينه وانتقل عنه. [(٢)]

وقال: ومعلوم أن كلام المخلوق لا يباين محله. [(٣)]

قال أحمد: منه بدأ وإليه يعود. [(٤)]

وقال: منه بدأ علمه، وإليه يعود حكمه. [(٥)]

(١) المصدر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع.

(٢) ينظر: فتاوى ابن تيمية (١٢/ ٥٢)، مجموعة الرسائل والمسائل (٣/ ٣٥).

(٣) ينظر: مسائل الإمام أحمد (ص: ٢٦٦).

(٤) ينظر: فتاوى ابن تيمية (٢/ ٥١٧).

(٥) ينظر: ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة (٢/ ٥١٨).

وقال تارة: منه خرج، وهو المتكلم به، وإليه يعود، وهو القرآن".[١]

القول الثالث: يُسرى به من الأرض في آخر الزمان، كما روي في بعض الآثار أنه إذا لم يعمل الناس بالقرآن، أي: أطبقت الأرض على عدم العمل به، ينزه الله كتابه فيرفعه من صدور الناس ومن مدادهم.

وبهذا جاء الخبرُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وغيرِه من أصحابه.

فأمَّا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

١-عن حذيفة بن اليمان (ت: ٣٦ هـ)، وأبي هريرة-(ت: ٥٧ هـ)-رضي الله عنهما-، قالا: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (يسرى على كتاب الله ليلا، فيصبح الناس ليس في الأرض ولا في جوف مسلم منه آية).[٢]

٢ - عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: (يسرى على كتاب الله عز وجل فيرفع إلى السماء؛ فلا يصبح في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل ولا الزبور، وينتزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو).[٣]

ومما ورد من الآثار[٤]:

١-وعن شَدَّاد بن مَعْقِل-رحمه الله-أنَّ عبد الله بن مسعودٍ-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال:

"لَيُنْتَزَعَنَّ هذا القرآنُ من بين أظْهُرِكُمْ".

---

[١] ينظر: الفتوحي، شرح الكوكب المنير شرح مختصر التحرير (٢/ ٨٨).

[٢] أورده الديلمي في الفردوس (٥/ ٤٨٨) (٨٨٤٨) عن أبي هريرة. وعزاه السيوطي إلى أبي الشيخ، وابن مردويه.

[٣] رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٨٥٤٤)، وقال الإمام الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط الإمام مسلم.

[٤] كما ورد عن ابن مسعود-رضي الله عنه-، موقوفًا، أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥٣٤)، والبخاري في خلق أفعال العباد، رقم (٣٨١، ٣٨٢)، وسعيد بن منصور في السنن (٢/ ٣٣٥)، وابن جرير الطبري في التفسير (١٥/ ١٥٨)، والبيهقي في السنن (٦/ ٢٨٩).

قال: قلتُ: يا أبا عبد الرَّحمن! كيفَ يُنْتَزَعُ وقد أَثْبَتْنَاهُ في صُدورِنا، وأثبتناهُ في مَصاحِفنا؟
قالَ: "يُسْرَى عليهِ في ليلةٍ، فلا يَبقى في قَلْبِ عَبْدٍ منه، ولا مُصحَفٍ منه شَيْءٌ، ويُصْبِحُ الناسُ فُقَراءَ كالبَهائم".

ثمَّ قرأ عبد الله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: الآية: ٨٦]". (١)

٢-**عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، من طريق زر بن حبيش- قال: "ليسرين على القرآن في ليلة، فلا تترك آية في قلب رجل ولا مصحف إلا رفعت". (٢)

٣-**عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، من طريق عبد الله بن عتبة بن مسعود- قال: "اقرءوا القرآن قبل أن يرفع، فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع. قالوا: هذه المصاحف ترفع، فكيف بما في صدور الناس؟ قال: يعدى عليه ليلا فيرفع من صدورهم، فيصبحون فيقولون: لكأنا كنا نعلم شيئا. ثم يقعون في الشعر". (٣)

٤-**عن حذيفة بن اليمان-رضي الله عنه-(ت: ٣٦ هـ)**، من طريق ربعي بن حراش- قال: "يوشك أن يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، ويقرأ الناس القرآن لا يجدون له حلاوة، فيبيتون ليلة ويصبحون وقد أسري بالقرآن وما قبله من كتاب، حتى ينتزع من قلب شيخ كبير وعجوز كبيرة، فلا يعرفون وقت صلاة ولا صيام ولا نسك، حتى يقول القائل منهم: إنا سمعنا الناس يقولون: لا إله إلا الله. فنحن نقول: لا إله إلا الله". (٤)

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٨٥٣٨) وصحَّحه، وأخرجه الطبراني (٨٧٠٠)، وله طُرُقٌ مرفوعةٌ وموقوفةٌ، ذَكَرَ تخريجَها الشوكانيُّ في فتح القدير (٣/ ٣٥٨ . ٣٥٩).

(٢) أخرجه يحيى بن سلام (١/ ١٦١). وعزاه السيوطي إلى ابن أبي داود في المصاحف.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٦).

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه (١/ ٤٠٠).

٥-**عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، من طريق أبي حازم- قال: "يسرى على كتاب الله، فيرفع إلى السماء، فلا يبقى في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل والزبور، فينزع من قلوب الرجال، فيصبحون في الضلالة، لا يدرون ما هم فيه".[(١)]

٦-**عن عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-(ت: ٦٥ هـ)**، قال: "لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي حول العرش كدوي النحل، يقول: أتلى ولا يعمل بي".[(٢)]

٧-**عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-(ت: ٤٠ هـ)**: "يذهب الناس حتى لا يبقى أحد يقول لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك ضرب يعسوب الدين ذنبه فيجتمعون إليه من أطراف الأرض كما يجمع قرع الخريف. ثم قال علي: إني لأعرف اسم أميرهم ومناخ ركابهم، يقولون: القرآن مخلوق. وليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله، منه بدأ وإليه يعود".[(٣)]

٨-**عن عكرمة-رحمه الله-(ت: ١٠٥ هـ) قال: كان ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، في جنازة، فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال: "اللهم رب القرآن اغفر له. فوثب إليه ابن عباس فقال: "مه، القرآن منه" زاد الصهبي في حديثه فقال ابن عباس: "القرآن كلام الله ليس بمربوب، منه خرج وإليه يعود".[(٤)]

٩-**عن شمر بن عطية-رحمه الله-(ت: في ولاية خالد القسري)**، قال: "يسرى على القران في ليلة، فيقوم المتهجدون في ساعاتهم فلا يقدرون على شيء، فيفزعون إلى مصاحفهم فلا يقدرون عليها، فيخرج بعضهم إلى بعض فيلتقون، فيخبر بعضهم بعضا بما قد لقوا".[(٥)]

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٠٦). وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٢) عزاه السيوطي إلى محمد بن نصر في كتاب الصلاة.

(٣) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (٢/ ٢٥٤)، عن علي رضي الله عنه موقوفًا.

(٤) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (٢/ ٢٥٦).

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي داود، وابن أبي حاتم.

١٠-**عن عمرو بن دينار-رحمه الله-(ت: ١٢٦ هـ)**، يقول: "أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود".(١)

١١- **سفيان الثَّوْري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)**.

قال: "القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، منه بَدَأ وإليه يعودُ، مَنْ قال غيرَ هذا فهو كُفْرٌ".

١٢- **أبو بكر بن عيَّاش (ت: ١٩٣ هـ)**.

قال: "القرآنُ كلامُ الله، ألقاه إلى جبرائيلَ، وألقاهُ جِبرائيلُ إلى محمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-، منه بدَأ، وإليه يعودُ".(٢)

١٣-**سفيان بن عُيَيْنَة-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)**.

سأله رجُلٌ: يا أبا محمَّدٍ، ما تقولُ في القرآنِ؟ فقال: "كَلامُ الله، مِنْهُ خَرجَ وإليه يَعودُ".

١٤- **الإمام أحمدُ بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)**.

قال: "لقيتُ الرِّجالَ، والعُلَماءَ، والفُقَهاءَ، بمكَّةَ، والمدينةِ، والكُوفةِ، والبَصْرةِ، والشامِ، والثُّغورِ، وخُراسانَ، فرأيتُهم على السُّنَّة والجَماعَة، وسألتُ عنها -يعني هذه اللفظة- الفُقَهاءَ؟ فكلٌّ يقولُ: القرآنُ كلامُ الله غيرُ مَخْلوق، منه بدَأ، وإليه يعودُ".(٣)

وقالَ: "لم يَزَلِ الله عالماً متكلّماً، نعبُدُ الله لصِفاتهِ، غير محدودَةٍ ولا مَعلومةٍ إلَّا بما وصَفَ به نفسه، ونردُّ القرآن إلى عالمِهِ تبارك وتعالى، إلى الله، فهو أعلَمُ به، منه بَدَأ وإليه يَعودُ".(٤)

١٥- **أبو جعفر أحمد بن سِنان الواسطي (ت: ٢٥٦ هـ)**.

قال: "مَن زَعَمَ أنَّ القرآنَ شَيْئَين أو أنَّ القرآنَ حِكايةٌ، فهو والله الذي لا إله إلاَّ هو، زِنديقٌ

---

(١) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (٢/ ٢٦٠). وذكر الحافظ ضياء الدين المقدسي في "اختصاص القرآن" فقرة [٦] عشرة أنفس من الصحابة أدركهم عمرو بن دينار فيهم: عبد الله بن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، وغيرهم.

(٢) جميع هذه الآثار الأربعة صحيحة، انظر تخريجها في التعليق على "اختصاص القرآن" وأثر عمرو قد سبق ذكره.

(٣) ذكر هذا النص الحافظ الضياء في "اختصاص القرآن" عن المرّوذى عن أحمد، فقرة (٩).

(٤) رواه حنبل فى "المحنة" (ص: ٤٥)، عنه به.

كافرٌ بالله، هذا القُرْآنُ هو القُرآنُ الذي أنزله الله على لسانِ جبريلَ على محمَّد -صلى الله عليه وسلم-، لا يغيَّر ولا يُبَدَّل: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: الآية: ٤٢]، كما قالَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ** ...﴾ [الإسراء: الآية: ٨٨]، ولو أنَّ رجلاً حلفَ لا يتكلَّمُ اليومَ، ثمَّ قرأ القرآنَ، أو صلَّى وقرأ القرآنَ، أو سلَّمَ في الصَّلاةِ، لم يحنَثْ، لا يُقاسُ بكَلام الله شَيْءٌ، القرآنُ كلامُ الله، منه بَدَأ وإليه يَعودُ، ليس من الله تعالى شَيْءٌ مخلوقٌ، ولا صِفاتُهُ، ولا أسماؤُهُ، ولا عِلْمُهُ". (١)

وقال ابن قدامة-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ): "من كلام الله سبحانه القرآن العظيم، وهو كتاب الله المبين، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود". (٢)

ونقلَ ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ)، اتّفاقَ السَّلَفِ والأئمَّةِ على ذلك في غيرِ موضع من كلامه. (٣)

فبهذا يظهرُ لكَ معنى قولِ من قال من السَّلَفِ: "القرآنُ كلامُ الله، مُنْزَلٌ غيرُ مَخْلوقٍ، منه بدّأ وإليه يَعودُ".

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فقالوا: (منه بدأ) ردّاً على الجَهْميةِ الذين يقولون: بدأ من غيرِهِ، ومقصودُهُم أنَّه هو المتكلِّمُ به، كما قالَ تعالى: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [الزمر: الآية: ١]، وقالَ تعالى: ﴿**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي** ...﴾ [السجدة: الآية: ١٣]، وأمثال ذلك". (٤)

---

(١) أخرجه الضياء في "اختصاص القرآن" رقم (١٦).

(٢) لمعة الاعتقاد (ص: ١٨).

(٣) انظر: "مجموع الفتاوى": (٦/ ٥٢٨)، (١٢/ ١٦٤).

(٤) "درء التعارض" (٢/ ١١٣).

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأمَّا (إليه يَعودُ) فإنه يُسْرى به في آخِرِ الزَّمانِ، من المِصاحفِ والصُّدور، فلا يبقى في الصُّدور منه كلمةٌ، ولا في المصاحف منه حرفٌ".[(١)]

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وَالَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالأَئِمَّةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَإِنَّمَا قَالَ السَّلَفُ: (مِنْهُ بَدَأَ) لِأَنَّ الجَهْمِيَّة-مِن المعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ-كَانُوا يَقُولُونَ: إنَّهُ خَلَقَ الكَلَامَ فِي المحَلِّ. فَقَالَ السَّلَفُ: (مِنْهُ بَدَأَ). أَيْ: هُوَ المتَكَلِّمُ بِهِ؛ فَمِنْهُ بَدَأَ، لَا مِنْ بَعْضِ المخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [الزمر: الآية:١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [السجدة: الآية: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [سبأ: الآية: ٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾ [النحل: الآية: ١٠٢].

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: (إلَيْهِ يَعُودُ): أَنَّهُ يُرْفَعُ مِن الصُّدُورِ وَالمصَاحِفِ؛ فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا مِنْهُ حَرْفٌ، كَمَا جَاءَ فِي عِدَّةِ آثارٍ".[(٢)]

سادسًا: أن الله تكلم بالقرآن بحرف وصوت مسموعين.[(٣)]

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٣/ ١٧٤-١٧٥)، عن المناظرة في الواسطية.

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٣) ممن ألف في مسألة الحرف والصوت:

١-: رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد لعبد الله بن يوسف بن محمد الجويني-رحمه الله-(ت: ٤٣٨ هـ).

٢-رسالة عبيد الله السجزي (ت: ٤٤٤ هـ)، إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، وهي رسالة مطبوعة.

٣-كتب أبو يعلى-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)، جزءا سماه ايضاح البيان في مسألة القرآن، وهو مفقود، وهذا الكتاب نقل منه شيخ الإسلام في عدة مواطن من كتبه انظر: شرح العقيدة الأصفهانية ص ٣٢، مجموع الفتاوى ٦/ ١٥٨، درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٧٤.

=

أولًا: إثبات الحرف.

ومن اعتقادِ السَّلَف في كلامِ الله تعالى أنَّ كلامَه جَلَّ وعَزَّ مؤلَّفٌ من الحُروفِ، إنْ شاءَ جَعَلَها عَربيَّةً، وإن شاءَ جعلَها عِبْرانيَّةً، وإن شاء جَعَلها غيرَ ذلك، فهو المتكلِّمُ بحُروفِ القرآنِ، والتَّوراةِ، والإنجيلِ، وغيرِها من كلامِهِ.

قالَ تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ [إبراهيم: الآية: ٤].

وقال تعالى: ﴿**الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾ [آل عمران: الآيات:١ - ٤].

فأخْبَرَ تعالى أنه أنْزَلَ الكُتُبَ: القرآنَ، والتَّوراةَ والإنجيلَ، وإنَّما ذلك بلُغاتِ الرُّسل الذين أنْزَلَ عَلَيهم، وبلُغات أقوامِهم، لأجْلِ أن تقومَ الحُجَّةُ عليهم به، إذ لوكانَ بغيرِ لُغتهم ما فَقِهُوهُ.

قال تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [يوسف: الآيات: ١ - ٢]

وقالَ تعالى: ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي**

٤-كما ألف ابن عقيل (ت: ٥١٣ هـ)، كتابا في مسألة الحرف والصوت وقد طبع بعنوان جزء في الأصول أصول الدين مسألة القرآن أو الرد على الأشاعرة العزال وإثبات الحرف والصوت في كلام الكبير المتعال

أما ابن قدامه-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ)، فله ثلاثة كتب لهذا الغرض وهي مطبوعة:

٥-الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم.

٦-والبرهان في بيان القرآن.

٧-وكتاب حكاية المناظرة في القرآن.

٨-كما جمع محمد بن عبد الواحد المقدسي-رحمه الله-(ت: ٦٤٣ هـ) جزء في الأحاديث الواردة في هذه المسألة سماه جزء أحاديث الحرف والصوت وهو مفقود.

٩-كتاب "غاية المرام في مسألة الكلام" للشيخ أبي العباس أحمد بن الحسن الأرموي الشافعي. وقد طبعت رسالة بعنوان "جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات" ونسبت للنووي، ولكن جاء في (ص: ٦٩) عبارة: "وهذا الذي ذكرناه جميعه من كلام الشيخ أبي العباس الأرموي-رحمه الله-".

١٠-كتاب طرف الطرف في مسألة الصوت والحرف تأليف الشيخ أبي العباس أحمد ابن يحيى الحنبلي-رحمه الله-(ت: ٩٤٨ هــ) وهو مطبوع..

أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: الآيات: ١ - ٤]

وقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: الآية: ١٠٣].

وقالَ جَلَّ وَعَزَّ ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: الآيات: ١٩٢ - ١٩٩]

وقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ - ٢٨].

وقالَ سُبحانه: ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: الآيات: ١ - ٤].

وقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ...﴾ [فصلت: الآية: ٤٤].

فأخبرَ تعالى أنَّ القرآنَ الذي نزلَ به جِبريلُ عليه السَّلامُ منهُ تبارك وتعالى وحيُهُ وتنزيلُهُ، وهو هذا القرآنُ العربيُّ الذي أنزلَ على محمَّد -صلى الله عليه وسلم- بلغةِ قومِهِ، ليفقَهوهُ ويَعْقِلُوهُ ويعْلَمُوهُ.

وقولُه: ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي: بلغةِ العربِ.

فاللهُ تعالى تكلَّمَ به كذلك، بحروفِهِ العربيَّةِ، كالألفِ والباءِ والتَّاءِ، ليسَ شَيْءٌ من ذلك قولَ أحَدٍ سِواهُ، وإنَّما بلَّغَهُ جبريلُ عليه السَّلامُ عنه، وبلَّغَهُ محمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- عن جِبريل، وهو الذي أعجزَ الكفَّارَ أنْ يأتوا بمثلِه، بَلْ تحدَّى الله تعالى الإنسَ والجنَّ أنْ يأتوا بمثلِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ

وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية: ٨٨].

فكونُهُ مؤلّفًا من الحُروفِ ظاهرٌ لا يَحْتاجُ إلى استدلالٍ، إذْ أنَّ كُلَّ أحَدٍ يعلَم أنَّ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ آيةٌ، وهي أربَعُ كَلِمَاتٍ، كلُّ كلمةٍ مؤلَّفةٌ من حَرْفيْنِ أو أكثر، وهي كَلِماتٌ عَرَبيَّةٌ، وحروفٌ عربيَّةٌ.

ولكنَّ بعضَ أهْلِ البدَعِ نازعَ في إطلاقِ لفظِ (الحَرْف) وأنَّه يَحتاجُ إطلاقُهُ إلى دليلٍ.

وهذا المنازِع لا يَخْلو من أحَدِ حالَيْنِ:

إمّا أنْ يكونَ مُكابِرًا -كما هي سِمَة أهلِ البِدَعِ-.

وإمَّا أنْ يكونَ غَبيّاً جاهلًا.

وذلك أنَّ كُلَّ أحَدٍ يُبصرُ (آلمَ. آلمر. كهيعص. حم. طه. يس) لا يخطرُ ببالِهِ غيرُ أنَّها حُروفٌ، وليسَ لها تسميةٌ إلاَّ هذهِ.

ونحن معَ ذلك نزيدُهُ حُجَجاً على صِحَّةِ إطلاقِ لهذه التَّسْميةِ من السُّنَّة وآثارِ السَّلَفِ، لنكْسِرَ أنفَ كِبْرِهِ، أو نَمْحُو جَهْلَ فِكْرِهِ، فمِنْ ذلك:

١ - **حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)**، قال: بينَما جِبريلُ قاعِدٌ عندَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- سَمِعَ نقيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فرفَعَ رأسَه فقال:

(هذا بابٌ منَ السَّماءِ فُتِحَ اليومَ لم يُفْتَح قطّ إلاَّ اليوم، فَنَزَلَ منه مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرضِ لَمْ يَنزِلْ قَطُّ إلاَّ اليَوْم، فسَلَّمَ وقالَ: أبْشِرْ بنورَين أوتيتَهما لم يؤتَهُمَا نبيٌّ قبلَكَ: فاتحةِ الكتابِ، وخَواتيمِ سُورَةِ البقرَةِ، لَنْ تَقْرَأ بحَرْفٍ منهما إلاَّ أعْطِيتَه). [1]

٢ - **حديث عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**، قال:

(تعلَّموا القرآنَ، فإنَّه يُكْتَبُ بكلِّ حرفٍ منه عشرُ حسناتٍ، ويُكَفَّرُ به عَشْرُ سيّئاتٍ، أمَا إني لا أقول: ﴿الم﴾ ولكن أقولُ: ألفٌ عَشْرٌ، ولامٌ عَشْرٌ، وميمٌ عَشْرٌ). [2]

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٨٠٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦١).

٣ - **وقول ابن عبَّاس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ):**

"ما يمنَعُ أحدكُم إذا رَجَعَ من سُوقِهِ، أو منْ حاجَتِهِ، إلى أهْلِهِ، أنْ يَقْرأ القرآنَ فيكونَ لَه بكلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَناتٍ".[1]

٤ - **وقالَ شُعَيْبُ بن الحَبْحاب–رحمه الله–(ت: ١٣٠ أو ١٣١ هـ)** (ثِقَةٌ منْ صِغار التَّابعينَ):

كانَ أبو العاليةِ–رحمه الله–(ت: ٩٠ هـ)، إذا قَرَأَ عنده رَجُلٌ لم يَقُلْ: ليس كما يَقرأ، وإنَّما يَقولُ: أمَّا أنا فأقرأ كَذا وكَذا، قال: فذكَرْتُ ذلك لإبراهيمَ النَّخَعيّ، فقالَ: أرى صاحِبَك قَدْ سَمِعَ: "أنَّ مَنْ كَفَرَ بحَرْفٍ منهُ، فقد كَفَرَ به كُلِّه".[2]

مسألة الفرق بين الحروف التي يتكلم بها الله، والحروف التي يتكلم بها المخلوق.

الأول: الفَرْقُ بين الحُروفِ التي يتكلَّمُ الله بها، والحُروفِ التي يتكلَّمُ بها المخلوق.

تنازع الناسُ في حُروف المعجم: هَلْ هي مخلوقةٌ؟ أو غيرُ مخلوقة؟

وليس في تحقيق ذلك كبيرُ فائدةٍ، وليس فيه نصٌّ عن معصومٍ يُصار إليه، وإنَّما يَجِبُ الكَفُّ عن إطلاقِ القَوْلِ بالخَلْقِ لئلاَّ يتوهّم متوهّمٌ أنَّ الحروفَ التي تكلَّم الله بها مخلوقةٌ.

وذكَرَ ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) في غير مَوْضِعٍ أنَّ الإمامَ أحمدَ–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ)، أنكَرَ الإطلاقَ، لأنَّهُ مَسْلَكٌ إلى البِدْعَةِ، وإلى القَوْلِ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ.[3]

وكما يُمْنَع مِن إطلاق القَوْلِ بأنَّ الحروفَ مخلوقةٌ، يُمْنَع أيضاً إطلاقُ القَوْل بأنَّ الحُروفَ غيرُ مخلوقةٍ، لئلا يتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ الحُروفَ التي هي مَباني كَلام الناس غيرُ مخلوقةٍ، والذي يجرُّ إلى القول بأنَّ ما يتكلَّمُ به العبادُ مِن كلام أنفُسهم هو نفسُه كلامُ الله، فيتحقَّقُ حينئذ للمَلاحِدَة كابن عربي الطائي وأمثاله صِحَّةُ قولِهم:

---

(١) رواه ابن المبارك في "الزهد" رقم (٨٠٧) وسنده جيد.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٥١٣–٥١٤)، وابن جرير في "التفسير" رقم (٥٦) وسنده صحيح.

(٣) انظر: "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٤١، ٨٤–٨٥، ٤٤٢).

وكلُّ كَلامٍ في الوجودِ كلامُهُ ... سَواء علينا نَثْرُه ونِظامُهُ

وهذا القولُ من أفحَش الباطِل، وأكفَر الكُفْرِ، إذ مَعْناه أنَّ كلَّ ما تلفِظُ به الخَلائق من الصِّدْق والكَذِبِ، والزُّورِ، والبُهْتان، وألفاظِ الخَنا والفُجور والكُفْر، كلامُ الله.

وحينئذ لا يتميَّزُ حَقٌّ من باطلٍ، ولا صِدْقٌ من كَذبٍ ولا كفرٌ من إيمانٍ.

وإنَّما الحَقُّ والصَّوابُ أن يُقالَ:

إنَّ الحَرْفَ المجرَّد الَّذي هو جزءٌ من اللفظ، مثل: (ز) من كلمة: (زيد) لا يُقالُ فيه مخلوقٌ ولا غيرُ مخلوق، لأنَّ الحرْفَ المجرَّدَ ليس كَلاماً، وإنَّما يقَع الكلام فيما ألّفَ من الحروفِ فأفادَ مَعنًى، ككلمةِ (زيد) اسمُ عَلَمٍ مَعْروفٌ. [1]

---

[1] فإن اعترض معترض بقوله تعالى: (الم)، (الر)، (ص)، (ن)، وما يشبهها مما جاء في أوائل بعض السور، وقال: إنَّها حروف، ونطلق أنَّها غيرُ مخلوقة لأنَّها كلام الله، فالجواب: أنَّ هذه ليست حروفاً مجردة، كحروف كلمة (زيد) وغيرها من الكلام المؤلف، وإنَّما هي أسماء للحروف، ألا ترى أنَّك تقرؤها: (ألف، لام، ميم ...)؟ فلو كان حرفاً مجرداً لقلت: (أ. لْ. مْ) فهي على ما تُلْفَظ وتُسْمَع لا على ما تُكْتب وترسم، وقد نقل شيخ الإسلام أنَّ الخليل بن أحمد -إمام العربية- سأل == أصحابَه: كيف تنطقون بالزاء مِن (زيد)؟ قالوا: نقول: (زا) قال: جئتم بالاسم، وإنَّما يقال: (زه) - "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٤٤٨).

والكلامُ المؤلَّفُ من الحُروف الذي يُفيد معنىً يُفَصَّل فيه: فإنْ كانَ كلاماً لله تعالى كانَ غيرَ مخلوقٍ، وإنْ كان كلاماً للعبد يُنْشِئُهُ من تِلقاء نفسهِ، ولا يُريدُ به قِراءةَ كلام الله فهو مَخلوقٌ، فقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا** ....﴾ [الأحزاب: الآية: ٣٧] غيرُ مخلوق، وقولك: (جاءَنِي زيدٌ فأكرمتُهُ) مخلوقٌ، لأنَّ الأوَّل كلامُ الله تعالى نظمه وحروفه، والثانيَ كلامُكَ نظمه وحروفه.

ولو قالَ قائلٌ: (محمَّدٌ رسولُ الله) أو: (ألف، لام، ميم) لم يصحّ فيه إطلاق أنَّه مخلوقٌ، أو غيرُ مخلوق، حتى يُسْتَفْصَل منه، فإنْ أرادَ بهِ قِراءةَ كلامِ اللهِ كانَ غيرَ مخلوقٍ، وإنْ كان أنشأهُ مبتدِئاً مِن نفسهِ، أو يُبَلِّغُهُ عن غيرهِ، وهو من إنشاءِ ذلكَ الغيرِ سِوى الله تعالى، كانَ مخلوقاً.

وقد سألَ **الحافظُ الثِّقَةُ أحمدُ بن الحَسن الترمذيُّ**–رحمه الله–**(ت: غير معروف)** الإمامَ أحمَدَ فقال:

قلتُ لأحمدَ بن حنبل: إنَّ الناسَ قد وقَعوا في أمرِ القرآنِ، فكيف أقولُ؟

قال: "أليسَ أنت مخلوق؟ ".

قلتُ: نعَمْ.

قال: "فكلامُكَ منك مخلوقٌ؟ ".

قلت: نعم.

قال: "أوَلَيس القرآنُ من كلامِ الله؟ ".

قلت: نعم.

قال: "وكلامُ الله؟ ".

قلت: نعم.

قال: "فيكون من الله شيءٌ مَخلوق؟ ".(١).

فتأمَّل هذا القولَ الموجَز فإنَّه من أسَدِّ الكلام وأحسَنِهِ، فرَّق الإمامُ أحمدُ فيه بَيْنَ كلامِ الله

(١) رواه اللالكائي في "السُّنَّة" رقم (٤٥١) بسند صحيح.

وكلامِ المخلوق، بأنَّ كلامَ الله هو الذي قالَه مبتدئاً، وكلامَ المخلوق هو الذي قالَه مبتدئاً، فلمَّا كان كلامُ الله ابتدأ منه كانَ غيرَ مخلوقٍ، لأنَّه ليسَ من الله شيءٌ مخلوق، ولما كانَ كلامُ المخلوقِ ابتدأ منه -بمعنى أنه هو الذي أنشَأه- كانَ مخلوقاً، لأنَّ العبدَ بأفعاله جميعاً مخلوقٌ.

ثانيًا: إثبات الصوت.

أ- حد الصوت.

قال المرداوي: "وحد الصوت: ما يتحقق سماعه، فكل متحقق سماعه صوت، وكل ما لا يتأتى سماعه البتة ليس بصوت، وحجة الحد كونه مطردًا منعكسًا.

وقول من قال: إن الصوت هو الخارج من هواء بين جرمين، فغير صحيح، لأنه يوجد سماع الصوت من غير ذلك، كتسليم الأحجار، وتسبيح الطعام والجبال، وشهادة الأيدي والأرجل، وحنين الجذع،

وقد قال الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: الآية: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق: الآية: ٣٠]، وما لشيء من ذلك منخرق بين جرمين".[(١)]

ب-الأدلة على إثبات الصوت

وأمَّا كلامُهُ تعالى بصَوْتٍ، فقد قامت الدَّلائلُ القَواطِعُ على إثباتِهِ، وهو كسائِرِ صفاتِهِ تعالي، كلما أنَّها لا تَشْبَهُ صفاتِ المخلوقينَ، فصوتُهُ تعالى لا يشبَهُ أصواتَهم، وقياسُ الخالِقِ على المخلوقِ تَشْبيهٌ، والله تعالى ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: الآية: ١١]، في ذاتِهِ، وجَميعِ صفاتِهِ.

والأدلَّةُ على إثباتِ كلامِ الله تعالى بصَوْتٍ كثيرةٌ، منها:

أولًا: الأدلة من القرآن:

١ - تكليمُهُ تعالى لموسى عليه السَّلام، فإنَّه قالَ له: ﴿**فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ**﴾ [طه: الآية:

---

(١) التحرير شرح التحبير (٣/ ١٣٤٦-١٣٤٥).

١٣].

فَدَلَّ هذا على أنَّهُ سَمِعٍ كلامَ الله تعالى، ولا يُسْمَعُ إلاَّ الصَّوْتُ، وربُّنا تعالى قَدْ خاطَبَنا باللِّسانِ العَرِبِيّ الذي نفْهَمُهُ، وليسَ فيه سَماعٌ بحصَل من غير صَوْتٍ. [(١)]

وسبق أنْ بيّنّا أنَّ كلامَ الله لموسى كانَ أعلى درجاتِ التَّكليمِ، وليس هو من جنسْ الإلهاماتِ، وإنَّما هو كلامٌ مسموعٌ بالآذانِ.

وقد **قالَ عبد الله بن أحمدَ بن حَنْبل**–(ت: **٢٩٠ هـ**): سألْتُ أبي رحمه الله عن قومٍ يقولونَ: لما كلَّمَ الله موسى لم يتكلَّمْ بصَوْتٍ؟ فقال أبي:

"بَلَى، إنَّ ربَّكَ–عَزَّ وَجَلَّ–تَكَلَّمَ بصَوْتٍ، هذه الأحاديثُ نَرْويها كما جاءت". [(٢)]

واحتجَّ لذلكَ بحديث ابن مَسعودٍ الآتي.

وقالَ الإمام أبو بكر المَرُّوذِيُّ–رحمه الله–(ت: **٢٧٥ هـ**) صاحبُ الإمام أحمَدَ: سمعتُ أبا عبد الله –يعني أحمدَ– وقيل له: إنَّ عبْدَ الوهّاب قَدْ تكلَّم وقالَ: مَنْ زعَمَ أنَّ الله كلَّمَ موسى بلا صَوْتٍ فهو جَهميٌّ عدُوُّ الله وعدوُّ الإسلام، فتبسَّمَ أبو عبد الله وقال: "ما أحسَنَ ما قال، عافاه الله". [(٣)]

وقال عبدُ الله بن أحمدَ–رحمه الله–(ت: **٢٩٠ هـ**) أيضًا: قلتُ لأبي: إنَّ ههُنا مَنْ يقولُ: إنَّ الله لا يتكلَّمُ بصوْتٍ، فقال: "يا بُنيَّ، هؤلاء جَهْميَّةٌ زنادِقَةٌ، إنَّما يَدوُرونَ على التَّعطيل" وذكرَ الآثارَ في خِلاف قَوْلهم. [(٤)]

٢ – إخبارُه تعالى عن ندائِهِ لموسى عليه السَّلام، ولعبادِهِ يومَ القيامةِ.

---

(١) انظر: "درء تعارض العقل والنقل" (٢/ ٩٣).

(٢) رواه عبد الله في "السنة" رقم (٥٣٣) عنه.

(٣) رواه الخلاّل عن المرّوزي به –كما في "درء التعارض (٢/ ٣٨ – ٣٩).

(٤) ذكر هذا النَّص شيخ الإسلام –كما في "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٣٦٨)–ونسبه إلى "كتاب السنة" لعبد الله، ولم أقف عليه فيه، فلعله وقع له في نسخة.

وذلك في عدَّةِ مَواضِعَ مِن كتابِهِ، منها:

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: الآيات: ١٥، ١٦]

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: الآية: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ [طه: الآية: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: الآية: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: الآيات: ٦٢، ٧٤].

والنِّداءُ: **قال الجوهَريّ-رحمه الله-(ت: ٣٩٣ هـ)**: "الصَّوْتُ، وقد يُضَمّ، مثل: الدُّعاء، والرُّغاء، وناداه مُناداةً، ونِداءً، أي: صاحَ به". (١)

وفي "اللسان": النِّداءُ -ممدودٌ- الدُّعاءُ بأرفَع الصَّوْت، وقد نادَيْتُه. (٢)

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "والنِّداء في لغة العَرَب: هو صوتٌ رَفيعٌ، لا يُطلَق النِّداء على ما ليسَ بصوتٍ، لا حَقيقةً ولا مَجازًا". (٣)

وما قالَه ابن تيمية مُوافق لِما ذكر عن أهلِ اللغةِ من أنَّ النداءَ الصَّوتُ الرَّفيعُ.

فإذا عُلِمَ هذا ثَبَتَ أنَّ الله تعالى نادى موسى بصَوْتٍ، ويُنادِي بصَوتٍ عبادَه يومَ القيامةِ.

ثانيًا: الأدلة من السنة.

١- **حديثُ عبد الله بن أنَيسٍ-رضي الله عنه-(ت: ٥٤ هـ)**، قال: سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول:

(يَحْشُرُ اللهُ العبادَ -أو الناسَ- عُراةً غُرْلًا بُهْمًا".

---

(١) "الصحاح" مادة (ندا). نِداءً" (٣٠).

(٢) "اللسان" مادة (ندي).

(٣) "مجموع الفتاوى" (٦/ ٥٣١).

قلنا: ما بُهْماً؟ قال:

"ليسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيُناديهم بصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ –أحسَبُه قالَ: كما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ–: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ ...). الحديث. [(١)]

وهذا الحديثُ صَريحٌ في إثْباتِ كلام الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ، وقَد احْتجَّ به على ذلك **إمامُ أهل الحديث محمَّدُ بن إسماعيل البُخاريُّ–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ)**، فقال:

"وإنَّ الله –عَزَّ وَجَلَّ– ينادي بِصَوْتٍ، يَسْمَعُه مَنْ بَعُدَ كما يَسْمَعه من قَرُبَ، فليسَ هذا لغير الله جَلَّ ذكرُه، وفي هذا دليلٌ أنَّ صوتَ الله لا يشبهُ أصواتَ الخَلْقِ، لأنَّ صوتَ الله جلَّ ذكرُهُ يُسْمَع من بُعْدٍ كما يُسْمَع من قُرْبٍ ... " ثُمَّ أسنَدَ الحديثَ. [(٢)]

٢– **حديث أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)**، أنَّ نبيَّ الله –صلى الله عليه وسلم– قال: **(إذا قَضى الله الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بأجْنِحَتِها خُضْعانًا لقولِهِ، كأنَّه سلْسِلةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّعَ عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قالَ)**. [(٣)]

ولقد أبى بعضُ أهل البدع الاحتجاجَ بهذا الحديث على إثبات الصوت لله تعالى، وأوَّلَه بأنَّه من مَجاز الحذف، والتقدير: يأمر من ينادي.

– وهذا باطلٌ من أوجهٍ:

الأول: أنَّ الأصلَ في الإطلاق الحقيقة، وهذا ربَّما وافقنا فيه المبتدع في مواضع أُخرى.

والثاني: أنَّ التقدير إنَّما يُصار إله في أحد حالين:

– دلالة القرينة.

– عدم استقامة السياق.

وكلاهما منتفٍ هُنا، فلا قرينةَ تدعو إلى هذا التقدير سِوى التنزيه في دعوى المبتدع، وهو عندنا

---

(١) أخرجه البخاري معلقا بصيغة التمريض مختصراً قبل حديث (٧٤٨١)، وأخرجه موصولًا أحمد (١٦٠٤٢) مطولا باختلاف يسير.

(٢) "خلق أفعال العباد" (ص: ١٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٠٠).

غير مُنتفٍ، وشأنها كسائر صفات الباري تعالى، نُثْبِتُها مع التنزيه.

وأمَّا السياق فهو مستقيمٌ لا اضطرابَ فيه، ويؤكّده الوجهُ الآتي.

والثالث: أنَّه خُروجٌ عن الظاهر بغير برهان، بلْ إنَّ البرهانَ ضِدُّه، ألا تَراه قال: "أنا المِلِكُ، أنا الديّان ... "؟ فهل يُناسبُ أن يكون هذا كلاماً لغير الله مِن مَلَكٍ أو غيرِه؟

ربُّكُم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ".[١]

وفي لفظ: (**إنَّ الله إذا قضى أمْراً في السَّماءِ، ضَرَبتِ الملائكةُ بأجْنِحتِها جَميعاً، ولقولهِ صَوْتٌ كصَوْتِ السِّلْسِلةِ على الصَّفا الصَّفوانِ، فذلكَ قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [سبأ: الآية: ٢٣]).[٢]

ووجه الاستدلال بهذا اللَّفظ ظاهرٌ، وذلكَ أنَّ قولَه: "ولقوله صوتٌ كصوتِ السِّلْسِلَة" صَريحٌ في أنَّ قولَه تعالى وكلامَه يكون بصوتٍ.

وأمَّا اللفظُ الأوَّل فإنَّ الضَّميرَ في قوله: "كأنَّه سِلْسِلة" عائدٌ إلى أقرب مذكورٍ، وهو قوله: "لقولِه" فقوله: "سِلْسِلَة على صَفْوان" تضمَّنَ إثباتَ الصَّوتِ للمُخْبَرِ عنه الذي هو القولُ، فيظهرُ بهذا إثباتُ قولِهِ تعالى وكلامِهِ بصَوْتٍ.

ولكنَّ بعضَ أهل البِدَع أبَوْا ذلك من أجْلِ أنْ يُبْطلوا تَكَلُّمَ الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ، فقالوا: الضَّميرُ في قوله: "كأنَّه" عائدٌ على أجنحةِ الملائكةِ، فالصَّوتُ صَوْتُ أجْنِحةِ الملائكةِ.

ولهذا ظاهرُ البُطلانِ لوَجهينِ:

الأول: أنَّ الضَّميرَ في الأصْل يعودُ إلى أقرَب مذكورٍ.

والثاني: أنَّه ضميرُ مذكّرٍ، ولو كان عائداً على أجنحةِ الملائكة لكانَ مؤنَّثاً.

فإن قيلَ: هذان الوجهان تصرفهُما القَرائن!

قلنا: نعَمْ، إن وُجِدتْ، لكنَّها هنا مُنْتفية، يؤَكِّدُ نفْيَها اللَّفظُ الثاني

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٨٠، ٥٣٧) و (١٣/ ٤٥٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في "التفسير" (٢٢/ ٩١).

لحَديث أبي هُرَيْرَة كما تَراه.

والحديثُ مِمَّا احتجَّ به البخاريُّ-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ)، لإثباتِ تَكَلُّم الرَّبِّ تعالى بصَوْتٍ. (١)

٣- **حديث عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)** قال:

"إنَّ الله إذا تكلَّمَ بالوَحْي، سَمِعَ أهلُ السماواتِ للسَّماءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسلةِ على الصَّفا، فيُصْعَقونَ، فلا يزالونَ كذلك حتى يأتيَهم جِبريلُ، فإذا جاءَهم جِبْريلُ فُزِّعَ عن قُلوبهم، قال: فيقولونَ: يا جبريلُ، ماذَا قالَ رَبُّكَ؟ قال: الحَقَّ". (٢)

وفي لفظٍ عن عبد الله قال:

"إذا تكلَّمَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالوحْيِ سَمِعَ صوتَهُ أهلُ السَّماءِ، فَيَخِرّونَ سُجْداً ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾ [سبأ: الآية: ٢٣]، قال: سُكِّنَ عنْ قُلُوبِهم -نادى أهلُ السَّماءِ: ﴿**مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقَّ** ...﴾ [سبأ: الآية: ٢٣]، قال: كَذا وكَذا". (٣)

وهذا الحديث مما احتجّ به الإمامُ أحمد لإثبات كلام الربّ تعالى بصوتٍ.

قال ابنُه عبد الله، قال أبي رحمه الله:

"**حديث ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)**: إذا تكلَّم الله عَزَّ وَجَلَّ سُمِعَ له صَوْتٌ كَجَرّ السِّلْسِلة على الصَّفْوان".

قال أبي: "وهذا الجهمية تُنْكِرُهُ".

وقال أبي: هؤلاء كُفَّارٌ، يُريدونَ أن يُمَوِّهوا على النَّاسِ، مَنْ زَعَمَ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لم يتكلَّمْ فهو

---

(١) "خلق أفعال العباد" (ص: ١٥١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" (ص: ١٤٦، ١٤٧)، وابن جرير (٢٢/ ٩٠)، وعبد الله بن أحمد في "السُّنَّة" رقم (٥٣٧) والبيهقي في "الأسماء والصفات".

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في "السُّنَّة" رقم (٥٣٦) والخَلاَّل -كما في "درء التعارض" (٢/ ٣٨)، عن الإمام أحمد.

كافرٌ، إلاَّ أنَّا نروي هذه الأحاديث كما جاءَت".[١]

ثالثًا: أقوال العلماء في إثبات الصوت.

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ)، في إثبات الصوت: "وأن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير الله جل ذكره.

قال أبو عبد الله: وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوته جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا تنادى الملائكة لم يَصعقوا".[٢]

وقال الحافظُ أبو نَصْرٍ السِّجْزيُّ–رحمه الله–(ت: ٤٤٤ هـ): "وليسَ في وجود الصَّوْتِ من الله تعالى تَشبيهٌ بمَنْ يوجَد الصَّوْتُ منه من الخَلْق، كما لَم يكنْ في إثباتِ الكلامِ له تشبيهٌ بمنْ له كلامٌ من خلقِهِ".[٣]

وقال الإمام ابن قدامة–رحمه الله–(ت: ٦٢٠ هـ): "ومن صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة، وسمعه جبريل عليه السلام، ومن أذن له من ملائكته ورسله، وأنه سبحانه يكلم المؤمنين في الآخرة ويكلمونه، ويأذن لهم فيزورونه، قال الله تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: الآية: ١٦٤] وقال سبحانه: ﴿**يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي**﴾ [الأعراف: الآية: ١٤٤] وقال سبحانه: ﴿**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٥٣] وقال سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى: الآية: ٥١] وقال سبحانه: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى - إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ**

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في "السُّنَّة" رقم (٥٣٤)، ونحوه روى الخلاَّلُ عن يعقوب بن بختان –أحد الثقات من أصحاب أحمد–عن أحمد–كما في "درء التعارض" (٢/ ٣٨).

(٢) "خلق أفعال العباد"، للبخاري، (ص: ١٤٩).

(٣) "درء تعارض العقل والنقل" (٢/ ٩٣).

﴿الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: الآية: ١١ - ١٢] وقال سبحانه: **﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾** [طه: الآية: ١٤] وغير جائز أن يقول هذا أحد غير الله.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ): " إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء "، روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عبد الله بن أنيس عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: (**يحشر الله الخلائق يوم القيامة عراة حفاة غرلا بهما فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان**)، رواه الأئمة واستشهد به البخاري".[(١)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "واستفاضت الأثار عن النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، والصَّحابةِ، والتابعين، ومَن بعدَهم من أئمَّةِ السُّنَّة، أنَّه سبحانه يُنادي بصَوْتٍ، نادى موسى، ويُنادي عِبادَه يومَ القيامةِ بصَوْتٍ، ويتكلَّمُ بالوحي بصَوتٍ، ولم يُنْقَل عن أحدٍ من السَّلَفِ أنه قال: إنَّ الله يتكلَّمُ بلا صَوْتٍ، أو بِلا حَرْفٍ، ولا أنَّهُ أنْكَرَ أنْ يَتَكَلَّمَ الله بصَوْتٍ، أو بحَرْفٍ".[(٢)]

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وليسَ في الأئمَّة والسَّلَف من قالَ: إنَّ الله لا يتكلَّمُ بصَوْتٍ، بل قَدْ ثبَتَ عن غير واحدٍ من السَّلَفِ والأئمَّة أنَّ الله يتكلَّمُ بصَوْتٍ، وجاءَ ذلك في آثارٍ مشهورةٍ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ، وكانَ السَّلَفُ والأئمةُ يذكرونَ الآثارَ التي فيها ذكرُ تَكلُّمِ الله بالصَّوْتِ ولا يُنْكِرُها منهم أحدٌ".[(٣)]

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): " قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم: إن الله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء وأنه يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار، والقرآن وغيره من الكتب الإلهية كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته ليس ببائن عنه مخلوقا. ولا يقولون إنه صار

---

(١) "لمعة الاعتقاد" (ص: ١٥). "خلق أفعال العباد"، للبخاري، (ص: ١٤٩).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١٢/ ٣٠٤ – ٣٠٥).

(٣) "مجموع الفتاوى" (٦/ ٥٢٧، وانظر: ٢٤٤).

متكلما بعد أن لم يكن متكلما ".[١]

وقال ابن أبي العز الحنفي–رحمه الله–(ت: ٧٩٢ هـ): " أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديما، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة".[٢]

الأقوال في مسألة الصوت.

والذين قالوا: إن الله يتكلم بصوت أربع فرق:

فرقة قالت: يتكلم بصوت مخلوق منفصل عنه، وهم المعتزلة.

وفرقة قالت: يتكلم بصوت قديم لم يزل ولا يزال، وهم السالمية والاقترانية.

وفرقة قالت: يتكلم بصوت قديم حادث في ذاته بعد أن لم يكن، وهم الكرامية.

وقال أهل السنة والحديث: لم يزل الله متكلما بصوته إذا شاء.

والذين قالوا: لا يتكلم بصوت فرقتان:

١–أصحاب الفيض،

٢–والقائلون إن الكلام معنى قائم بالنفس".[٣]

أصل الخلاف في مسألة الصوت:

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "أول ما ظهر إنكار أن الله سبحانه يتكلم بصوت في أثناء المائة الثالثة، فإنه لما ظهرت الجهمية المعطلة في إمارة أبي العباس المأمون (ت: ٢١٨ هـ)، وأدخلته في آرائها بعد أن كانوا أذلاء مقموعين، وهؤلاء كان عندهم أن الله لا يتكلم أصلا بحرف، ولا صوت ولا معنى ولا يرى، ولا هو مستو على عرشه، ولا علم ولا حياة

(١) "مجموع الفتاوى" (١٢/ ١٧٣).

(٢) "شرح الطحاوية" (١/ ١٧٤).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٢٨-٥٢٩).

ولا إرادة ولا حكمة تقوم به فلما وقعت المحنة وثبت الله خلفاء الرسل وورثة الأنبياء على ما ورثوه عن الأنبياء والمرسلين، وعلموا أن باطل أولئك هو نفاق مشتق من أقوال المشركين والصابئين الذين هم أعداء الرسول وسوس الملك، وظهر للأمة سوء مذاهب الجهمية وما فيها من التعطيل ظهر حينئذ عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري (ت: ٢٤١ هـ) وأثبت الصفات موافقة لأهل السنة، ونفى عنها الخلق ردا على الجهمية والمعتزلة، ولم يفهم لنفي الخلق عنها معنى إلا كونها قديمة قائمة بذاته سبحانه، فأثبت قدم العلم والسمع والبصر والكلام وغيرها، ورأى أن القديم لا يتصور أن يكون حروفا وأصواتا لما فيها من التعاقب وسبق بعضها بعضا، فجعل كلام الله القديم الذي ليس بمخلوق هو مجرد معنى أو معان محصورة، وسلك طريقة خالف فيها المعتزلة، ولم يوافق فيها أهل الحديث في كل ما هم عليه، فلزم من ذلك أن يقول إن الله لم يتكلم بصوت وحرف وتبعه طائفة من الناس.

وأنكر ذلك الإمام أحمد وأصحابه كلهم، والبخاري صاحب الصحيح، فقال عبد الله بن أحمد في كتاب السنة: قلت لأبي: يا أبت إن قوما يقولون إن الله لم يتكلم بصوت، فقال: يا بني هؤلاء الجهمية إنما يدورون على التعطيل يريدون أن يلبسوا على الناس، بلى تكلم بصوت". (١)

مسألة الصوت المسموع من القارئ.

الصَّوْتُ المسموعُ من القارئ وهو يتلو كلامَ الله، هو صَوْتُ القارئ، لا صَوْت الله تعالى، كما نصَّ عليه الأئمَّةُ كأحمدَ وغيرِهِ. (٢)

وذلكَ أنَّ صوتَ العبْدِ إنَّما هو فعلُه القائمُ به، وأفعاله جميعاً مضافة إليه مخلوقةٌ كخَلقهِ، لكنَّ المسموعَ بصَوْتهِ، الذي نطَقَ به لسانُهُ، وتحرَّكَتْ به شفَتاهُ، كلامُ الله تعالى.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٢٥-٥٢٦).

(٢) ذكر ذلك شيخ الإسلام في "درء التعارض" (٢/ ٤٠).

والدَّليلُ على ذلكَ قولُ النَّبيِّ–صلى الله عليه وسلم–: "زيّنوا القرآنَ بأصواتِكم".[(١)]

فأضافَ النَّبيُّ –صلى الله عليه وسلم– الأصواتَ إلى القُرّاء، لأنَّها اكْتِسابُهُمْ وفعلهُمْ، وفرَّقَ بينها وبينَ القرآن الذي هو كلامُ الله ووحيُهُ وتنزيلُهُ، الذي لا يكونُ من التالي سِوى قراءتِهِ وأدائِهِ وتبليغهِ.

فالقرآنُ كلامُ الله مُضافٌ إليه تعالى لأنَّه منهُ، لا يُضافُ للتالي لأنَّه أدّاه بصَوتِهِ وحَرَكَتهِ، شأن كلّ كلامٍ سواه يُبلِّغهُ الواحدُ مِنَّا، فإنَّهُ إنَّما يُضافُ إلى مَن قالَه مُبتدئاً.

فقولُكَ: "إنَّمَا الأعمالُ بالنّياتِ، وإنَّما لكلّ امرئٍ ما نَوى"[(٢)] تُبلّغُه أنتَ بصَوْتِكَ وحَرَكَتِكَ، وليسَ لك من نظْمهِ شيْءٌ، إنَّما هو كلامُ النَّبي –صلى الله عليه وسلم– بلفظهِ ومعناه، ولو قلتَ: هو كَلامي، لكذّبكَ مَن يسمَعُك، إذ ليسَ لك من ذلك إلاَّ التبليغُ والأداءُ.

فكذلكَ كلامُ الله تعالى إذا تلاه التالي، وقرأه القارئ.

قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ...﴾ [التوبة: الآية: ٦] فأضافَ الكلام إلى نفسِهِ، لأنَّه هو الذي ابتدأ نَظْمَهُ بحُروفِهِ ومعانيهِ، يسمَعُه المشرك بأذُنَيْهِ بصَوْتِ القارئ، فإنَّه إنَّما يسمَع كلامَ الله مِنَ القارئ.

سابعًا: أن الله سبحانه وتعالى أسمعه جبريل، وجبريل أبلغه محمد–صلى الله عليه وسلم–

.

وقالَ ابن تيمية رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وَمَذْهَبُ سَــلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَخَلَفِهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ الْقُرْآنَ مِنْ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ سَمِعَهُ مِن اللَّهِ عز وجل".[(٣)]

يؤمنُ أهل الســـنة بأن القرآن كلامُ الله عز وجل، منه بدأ وإليه يعود، وأن هذا كلام الله

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤)، وأبو داود رقم (١٤٦٨)، والنَّسائي (٢/ ١٧٩)، وفي "فضائل القرآن" –من "الكبرى"– رقم (٧٥)، وابن ماجة رقم (١٣٤٢)، والبخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (٢٥٠ – ٢٥٤، ٢٥٦) والدارمي رقم (٣٥٠٣)، وابن حبان رقم (٧٣٧)، والحاكم (١/ ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤. ٥٧٥).

(٢) خرجه الشيخان في "صحيحيهما" من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٣).

بحرفٍ وصوتٍ مسموعين وأن الله سبحانه وتعالى أسمعه جبريل، وجبريل أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الكلام هو كلام الله عز وجل.

ومذهب أئمَّة الحديث والسنَّة: أن الله تعالى لم يَزل متكلِّمًا، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلَّمُ بصوت يُسمَع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا.

ثم قال: "الآثار مُتواترة عنهم-أي: عن الصحابة والتابعين-بأنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله، ولما ظهر مَن قال: إنه مخلوق، قالوا ردًّا لكلامه: إنه غير مخلوق، ولم يريدوا بذلك أنه مُفترى، كما ظنه بعض الناس؛ فإن أحدًا من المسلمين لم يَقل: إنه مفترى، بل هذا كفر ظاهر يَعلمه كل مسلم، وإنَّما قالوا: إنه مخلوق خلقه الله في غيره، فرَدَّ السلف هذا القول، كما تواترت الآثار عنهم بذلك، وصنفوا في ذلك مصنفات متعددة، وقالوا: (منه بدأ وإليه يعود)".

ونصوصُ القرآن واضحة بأنه كلامه سبحانه وتعالى ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ**﴾ [التوبة: الآية:٦] فهذا الكلام كلامه سبحانه وتعالى، منه بدأ، تكلم به حقيقةً، ونثبتُ صفة الكلام لله عز وجل كما أثبتها لنفسه وكما أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الله سبحانه وتعالى لكلامه صوت كما جاءَ في النصوص، وأنه بحرف وصوت مسموعين، وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء سبحانه وتعالى، وأن القرآن كلامُ الله تعالى غيرُ مخلوق.

فالقرآن كلام الله، ليس ككلام البشر، وقد توعَّد الله من وصَف القرآن بأنه ككلام البشر، توعَّده بالنار فقال تعالى: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**﴾ [المدثر: الآيات: ٢٥، ٢٦]، فإن كان كلام البشر مخلوقًا لهم، فكلام الله ليس مخلوقًا له، إنما هو صفةٌ من صفاته سبحانه.

الأقوال في سماع كلام الله

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "واختلفت الفرق هل يسمع كلام الله على الحقيقة؟

فقالت فرقة: لا يســـمع كلامه على الحقيقة إنما يســـمع حكايته والعبارة عنه، وهذا قول الكلابية ومن تبعهم،

وقالت بقية الطوائف، بل يسمع كلامه حقيقة، ثم اختلفوا

فقالت فرقة: يسمعه كل أحد من الله، وهذا قول الاتحادية،

وقالت فرقة: بل لا يســمع إلا من غيره، وعندهم يســمع كلام الله منه، فهذا قول الجهمية والمعتزلة.

وقال أهل الســنة والحديث يســمع كلامه سـبحانه منه تارة بلا واسـطة كما سمعه موسـى وجبرائيل وغيره، وكما يكلم عباده يوم القيامة، ويكلم أهل الجنة، ويكلم الأنبياء في الموقف، ويســـمع من المبلغ عنه كما سمع الأنبياء الوحي من جبرائيل تبليغا عنه، وكما سمع الصـــحابة القرآن من الرسـول صـلى الله عليه وسـلم عن الله، فسـمعوا كلام الله بواسـطة المبلغ، وكذلك نسمع نحن بواسطة التالي.

فإذا قيل: المســـموع مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل إن أردت المســـموع عن الله فهو كلامه غير مخلوق،

وإن أردت المسموع من المبلغ ففيه تفصيل، فإن سألت عن الصوت الذي روي به كلام الله فهو مخلوق،

وإن سألت عن الكلام المؤدى بالصوت فهو غير مخلوق". [١]

مسألة: هل اللفظ بالقرآن مخلوق أو لا؟

وهل يجوز أن يقول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق؟

واللفظ يأتي بمعنى: التلفظ، ويأتي بمعنى الملفوظ؛ هل هو الملفوظ الخارج، أو حركة اللســـان التلفظ؟

فمعلوم أنه إن أريد الأول وهو التلفظ: فالتلفظ من أفعال العبد، وأفعال العباد مخلوقة.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٢٨).

وإن عُني باللفظ الملفوظ فالملفوظ هو القرآن.

لهذا صـــارت الكلمة محتملة، واســـتعمال المحتملات في العقيدة بدعة؛ فإنه لا يجوز أن تستعمل مثل هذه العبارة التي قد تحتمل شيئًا آخر؛ فيفهم الناس منها فهمًا غير سليم.

ولهذا كان **الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)** يقول: "مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع أيضًــا"؛ لأنها تحتمل هذه وهذه، وقد سـكت السـلف عن الإطلاق؛ لأنَّ الألفاظ المحتملة فيما يتصـل بذات الله جل وعلا أو صفاته أو أفعاله أو أمور العقيدة والغيبيات لا يجوز استعمالها، وينهى عنها.

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "أئمة أهل الســـنة وأهل الحديث من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن أو صوته به أو غير ذلك من صــفات العباد المتعلقة بالقرآن- غير مخلوقة، ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره، وقد جمع بعض كلامهم في ذلك أبو بكر الخلال في (كتاب السنة)، ومن المشهور في (كتاب صـريح السـنة) لمحمد بن جرير الطبري وهو متواتر عنه، لما ذكر الكلام في أبواب السـنة قال: وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن، فلا أثر فيه نعلمه عن صـحابي مضـى، ولا عن تابعي قفا إلا عمن في قوله الشـــفاء والغناء، وفي اتباعه الرشـــد والهدى، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى: أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدثني قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول: اللفظية جهمية، يقول الله: ﴿**حَتَّىٰ يَسْـــمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ [التوبة: الآية: ٦]، ممن يسمع؟! **قال ابن جرير-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ)**: وسمعت جماعة من أصحابنا -لا أحفظ أسماءهم- يحكون عنه أنه كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، ومن قـال: غير مخلوق، فهو مبتـدع. قـال ابن جرير: ولا قول في ذلـك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله؛ إذ لم يكن لنا إمام نأتم به ســـواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع" (١)

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

ولهذا **قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ)**:

وَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّبْيِينِ فَالْ *** إِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ

قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا الـ *** أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ".(١)

وقد رأي الإمام أحمد وبعض الأئمة أنه لا يُقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق؛ لأن الكلام هنا محتمل، فعندما يقول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق، فهل يقصد به القرآن الذي هو كلام الله تعالى، أو يقصد فعل المخلوق؟

فإن قال: اللفظ بالقرآن غير مخلوق، فقد لا يقصد هنا كلام الله تعالى، وإنما يقصد كلامه هو، وهذا خطأ؛ لأن نطق الإنسان مخلوق، فالمسألة تكون محتملة، فمن هذا الباب باب منع الإمام أحمد والأئمة من أهل السنة أن يُقال: لفظي القرآن مخلوق أو غير مخلوق؛ لأن هذا اللفظ محتمل.

قال أبو القاسم التيمي الأصبهاني-رحمه الله-(ت: ٥٣٥ هـ): "وأول من قال باللفظ، وقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة: حسين الكرابيسي (ت: ٢٥٦ هـ). فبدعه أحمد بن حنبل، ووافقه على تبديعه علماء الأمصار...." ثم سمّى طائفة كثيرة من علماء الأمصار، ثم قال: "فمذهبهم ومذهب أهل السنة جميعاً أن القرآن كلام الله آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً في جميع أحواله، حيث قرئ وكتب وسمع".(٢)

بينما ينص الإمام البخاري وبعض أهل السنة على أن اللفظ بالقرآن الذي هو نطق الإنسان مخلوق، فإذًا فَصَّلوا وبيَّنوا أنه إذا قصد النطق فهذا مخلوق، وإذا قصد الأصل الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى الملفوظ، فهذا غير مخلوق.

وحدثت في هذه المسألة فتنة للبخاري، أثارها عليه شيخه محمد بن يحيى الذهلي-رحمه الله-(ت: ٢٥٨ هـ)، ودافع عنه ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ) في كتابه (الصواعق)،

---

(١) انظر: (الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية) لابن القيم.

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٧٠).

وقال: (إن البخاري في هذه المسألة أقعد وبيَّن ووضَّح وفصَّل في هذه المسألة، وتشنيع الذهلي عليه هذا من باب الغيرة والحسد الذي بين الشيخ وتلميذه؛ لأن البخاريَّ تفوق عليه.

فالمسألة محل خلاف، مثل مسألة الاسم والمسمَّى؛ لأن المخرج فيهما واحد؛ لأن كِلا المسألتين تعودان إلى صفة الكلام، والكلام: صفة من صفات الله سبحانه وتعالى غير مخلوق، وبناء على ذلك ترتَّب خلاف في مسألة اللفظ وفي مسألة الاسم والمسمى؛ لأن أسماء الله تعالى من كلامه، والقرآن من كلامه عز وجل، فحصل خلاف في هذه المسألة بناءً على ذلك.

أصل النزاع في المسألة:

مسألة خلق القرآن حدثت في زمن محنة الجهمية والفتنة المشهورة فهي وليدة هذه الفتنة ومنها نشأ النزاع فيها هل الإيمان مخلوق أم لا؟

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) لما سئل: هل الإيمان مخلوق أم غير مخلوق؟

"فالجواب أن هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين، وقد جرت بها أمور يطول وصفها هنا، لكن لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأطفأ الله نار الجهمية المعطلة.

صارت طائفة يقولون: إن كلام الله الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم، بل يدخلون فيه نفس كلام الله الذي نقرؤه بأصواتنا وحركاتنا.

وعارضهم طائفة أخرى فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة.

فرد الإمام أحمد على الطائفتين وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. وتكلم الناس حينئذ بالإيمان فقالت طائفة: الإيمان مخلوق وأدرجوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثل (قول لا إله إلا الله)، فصار مقتضى قولهم إن هذه الكلمة مخلوقة، ولم يتكلم الله بها، فبدع الإمام أحمد هؤلاء، وقال: قال النبي-صلى الله عليه

وسلم-: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها: قول لا إله إلا الله**). [(١)] أفيكون قول لا إله إلا الله مخلوقا؟

ومراده أن من قال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضـــى كلامه أن الله لم يتكلم بالقرآن الذي أنزله. وأن القرآن المنزل ليس هو كلام الله". [(٢)]

وقال رحمه الله: "وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد (بالإيمان)؟ أتريد شيئا من صفات الله وكلامه، كقول (لا إله إلا الله) و(إيمانه) الذي دل عليه اسمه المؤمن، فهو غير مخلوق. أو تريد شـــيئا من أفعال العباد وصـــفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم وصـفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صـفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصـور ما يقول، فإذا حصـل الاستفسـار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل، وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشـــتراك الأسماء، وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب، ظهر الخطأ من الصواب.

والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسـنة أثبتوه، وما نفاه الكتاب والسـنة نفوه، وما لم ينطق به الكتاب والسـنة لا بنفي ولا إثبات استفصـلوا فيه قول القائل: فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله، فقد أصاب، ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب، ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل، فيجب أن يفصـــل ما في كلامه من حق أو باطل، فيتبع الحق ويترك الباطل، وكل من خالف الكتاب والسـنة فإنه مخالف أيضـا لصـريح المعقول، فإن العقل الصـــريح لا يخالف النقل الصـــحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السـلام لا يخالف بعضـه بعضـا، ولكن كثيرا من الناس يظن تناقض ذلك، وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ [البقرة الآية: ١٧٦]، ونسـأل الله أن يهدينا الصـراط المستقيم، صـراط الذين

(١) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥٥).

أنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا".[١]

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "من قال: الإيمان مخلوق كفر، ومن قال: غير مخلوق ابتدع. فقيل: بالوقف مطلقا، وقيل: أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة.

قال ابن حمدان–رحمه الله–(ت: ٦٩٥ هـ) في نهاية المبتدئين: وهو أصح، ونقله عن ابن أبي موسى وغيره. ونقل الإمام الحافظ ابن رجب–رحمه الله–(ت: ٧٩٥ هـ) في طبقات الأصحاب في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي–رحمه الله–(ت: ٦٠٠ هـ)، ما لفظه قال: روي عن إمامنا أحمد–رضي الله عنه–(ت: ٢٤١ هـ)، أنه قال: من قال: الإيمان مخلوق فهو كافر، ومن قال: قديم فهو مبتدع.

قال الحافظ عبد الغني–رحمه الله–(ت: ٦٠٠ هـ): "وإنما كفر من قال بخلقه؛ لأن الصلاة من الإيمان، وهي تشتمل على قراءة وتسبيح وذكر الله–عز وجل–ومن قال بخلق ذلك كفر، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع. انتهى بحروفه، والله–تعالى–الموفق".[٢]

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "لسنا نشك أن أسماء الله عز وجل غير مخلوقة، لسنا نشك أن علم الله عز وجل غير مخلوق، فالقرآن من علم الله وفيه أسماء الله فلا نشك أنه غير مخلوق، وهو كلام الله عز وجل ولم يزل به متكلما".[٣]

وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "من زعم أن أسماء الله مخلوقة فهو كافر".[٤]

قال ابن القيم–رحمه الله–(ت: ٧٥١ هـ): "وأما مسألة تكلم العباد بالقرآن فقد اشتبهت

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١/ ٤٤٦).

(٣) نقله عنه الأشعري في كتاب الإبانة عن أصول الديانة (ص: ٨٨)

(٤) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٢١٤).

على كثير من الناس،

فقالت طائفة: إن الله يخلق كلامه عند تلاوة كل تال، فيجري كلامه المخلوق على لســـان التالي، وفعل التالي هو حركة اللســان فقط وهي القراءة: فالقراءة صـنع العبد عندهم، والمقروء صـنع الله وخلقه، فالمسـموع عندهم مخلوق بين صـنعين: صـنع الرب وصـنع العبد، وهذا قول أبي هذيل والإسكافي وأصحابه.

وقالت فرقة أخرى: إن العبد هو المحدث لأفعاله وتلاوته، والله تعالى خلقه في مكان واحد لا ينتقل عنه ولا يفارقه إلى غيره، فهذا المســـموع هو صــنع التالي ألفاظه وتلاوته، وهذا قول أكثر البغداديين من المعتزلة، وقول جعفر بن حرب.

وقالت فرقة: إن القرآن لم يخلقه الله تعالى في الحقيقة ولا هو فعله، فإنه عرض وهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلا لله، قالوا فهو فعل المحل الذي قام به، وهذا قول معمر وأصـحابه من المعتزلة.

وقالت فرقة: إن الله ســبحانه خلق كلامه في اللوح المحفوظ ثم مكن جبرائيل أن يأخذه منه نقلا ويعلمه رسوله صلى الله عليه وسلم، فجبرائيل إذا نطق به كان نطقه بمنزلة من يقرأ كتاب غيره، لكن الحروف والأصـــوات في الحقيقة لجبرائيل لم تقم بذات الرب حروف القرآن ولا ألفاظه، ولا سمعه جبرائيل من الله تعالى، وإنما نزل به من المحل الذي خلق فيه، وهذا قول كثير من الكلابية، فعندهم أن المسموع قول الرسول الملكي حقيقة سمعه منه الرسول البشري فأداه كما سمعه، فالرسول الملكي ناقل لما في اللوح المحفوظ غير سامع له من الله، والرسول البشري ناقل له عن جبرائيل قوله وألفاظه.

ومن هؤلاء من يقول: بل الله تعالى ألهم جبرائيل معانيه، فعبر عنها جبرائيل بعبارته، فهذه الألفاظ كلام جبرائيل في الحقيقة لا كلام الله.

ومنهم من يقول: جبرائيل علم رســول الله نص معانيه وألقاها في روعه، ومحمد رســول الله صـلى الله عليه وسـلم أنشـأ ألفاظها وعبر بها من عنده دلالة على ذلك المعنى الذي ألقاه إليه الملك، فالقرآن العربي على قولهم قول محمد –صـــلى الله عليه وســـلم– أو قول جبرائيل –عليه

السلام-، وهذا قول من لا نسميهم لشهرتهم، وإن حرفوا العبارة وزينوا له الألفاظ، فهو قولهم الذي يناظرون عليه ويكفرون من خالفهم فيه يقولون فيه: قال أهل الحق كذا، وقالت سائر فرق أهل الزيغ بخلافه.

وقالت فرقة أخرى: بل لسان التالي مظهر للكلام القديم، فيسمع منه عند التلاوة كما سمع موسى كلام الله من الشجرة، فلسان التالي كالشجرة محل ومظهر للكلام، فإذا قال التالي ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: الآية: ٢] كان المسموع كله حروفه وأصواته غير كلام الله القائم به من غير حلول في القارئ ولا اتحاد به، كما أن الله سبحانه لم يحل في الشجرة ولا اتحد بها، وسمع موسى كلامه منها.

واختلفت هذه الفرقة في الصوت الذي يسمع من القارئ على قولين:

أحدهما: إنه عين صوت الله بالقرآن ظهر عند تلاوة التالي، فكانت التلاوة مظهرة له.

وقالت فرقة أخرى منهم: ما لا بد منه من الصوت في الأداء ولا يتأدى الكلام بدونه، فهو الصوت القديم، وما زاد عليه من قوة الاعتماد والرفع فمحدث.

قالوا: وقد اقترن القديم بالمحدث على وجه معسر التمييز بينهما جدا، فلما ورد عليهم أن الحس شاهد بأن هذا الصوت موجود بعد أن كان معدوما ومعدوما بعد وجوده وهذا مستحيل على القديم، أجابوا بأن الذي وجد بعد عدمه ثم عدم بعد وجوده هو ظهور الصوت القديم لا نفسه، فالمحدث وقع على الإدراك لا على المدرك، كما إذا سمع كلامه سبحانه منه بعد أن لم يسمع، ثم عدم السمع فالحدوث واقع على السمع لا على المسموع، وهذا قول جماعة ممن ينسب إلى الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ).

وأصحابه المتقدمون بريئون من هذا المذهب المخالف للحس والعقل والفطرة، ونصوص أحمد إنما تدل على خلافه، فقد نص في رواية جماعة من أصحابه على أن الصوت صوت العبد، فقال في قول النبي-صلى الله عليه وسلم- (**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**). [(١)]، قال

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧).

يجهر به ويحسنه بصوته ما استطاع، وقد نص على ذلك الأئمة كالبخاري وغيره.

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ) في صــــحيحه: باب قول النبي صــلى الله عليه وســلم: **(الماهر بالقرآن مع الكرام البررة)**. [(١)]، **(وزينوا القرآن بأصــواتكم)**. [(٢)] ثم احتج بحديث **أبي هريرة–رضي الله عنه–(ت: ٥٧ هـ)**، عن النبي–صلى الله عليه وسلم– **(ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به)**. [(٣)]، فأضاف الصوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ ثم ساق حديث **البراء–رضي الله عنه–(ت: ٧٢ هـ)**، **(أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قرأ في العشـاء بالتين والزيتون، ما سمعت صـوتا أحسـن منه)**. [(٤)]، فأضــاف الصــوت إليه ثم ذكر حديث **ابن عباس–رضــي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ)**، **(أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متواريا بمكة وكان يرفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن جاء به، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾** [الإسراء: الآية: ١١٠]). [(٥)] ثم قال: باب قراءة الفاجر والمنافق وأصـــواتهم وتلاوتهم لا تجاوز تراقيهم، وذكر في الباب حديث **أبي سـعيد الخدري–رضـي الله عنه–(ت: ٧٤ هـ)** **(يخرج أناس من قبل المشـرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم)**. [(٦)]، ومعلوم أن المراد التلاوة والأداء وما قام بهم من الأصوات، وأنها لم تجاوز حناجرهم، وكان البخاري قد امتحن بهذه الفرقة، فتجرد للرد عليهم وبالغ في ذلك في كتاب (خلق أفعال العباد) فإنه بناه على ذلك وأن أصـــوات العباد

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧) بلفظ مقارب، ومسلم (٧٩٨) باختلاف يسير.

(٢) رواه الإمام أحمد (٤/ ٨٣)، وأبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجه (١٣٤٢)، والنسـائي (٢/ ١٧٩)، وصـحـحه ابن حبان (٣/ ٢٥ (٧٤٩)، والحاكم (١/ ٥٧١). وعلقه البخاري قبل حديث (٧٥٤٤) كلهم من حديث البراء بن عازب وصححه الألباني في "صحيح أبي داود" (١٣٢٥) وقال: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير عبد الرحمن بن عوسجة وهو ثقة.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٥٤)، ومسلم (٧٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٤٦)، ومسلم (٤٦٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦) باختلاف يسير.

(٦) أخرجه البخاري (٧٥٦٢).

من أفعالهم أو متولدة عن أفعالهم فهي من أفعالهم، فالصوت صوت العبد حقيقة، والكلام كلام الله حقيقة، أداه العبد بصوته كما يؤدي كلام الرسول وغيره بصوته، فالعبد مخلوق وصفاته مخلوقة وأفعاله مخلوقة وصوته وتلاوته مخلوقة، والمتلو المؤدى بالصوت غير مخلوق.

واحتج البخاري في الصحيح في (خلق أفعال العباد) على ذلك بنصوص التبليغ، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ [المائدة: الآية: ٦٧] وقوله: ﴿**إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ [الشورى: الآية: ٤٨] وقوله: ﴿**لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي**﴾ [الأعراف: الآية: ٧٩] وهذا من رسوخه في العلم، فإن ذلك يتضمن أصلين ضل فيهما أهل الزيغ:

أحدهما: أن الرسول ليس له من الكلام إلا مجرد تبليغه، فلو كان هو قد أنشأ ألفاظه لم يكن مبلغا، بل منشئا مبتدئا، ولا تعقل الأمم كلها من التبليغ سوى تأدية كلام الغير بألفاظه ومعانيه ولهذا يضاف الكلام إلى المبلغ عنه لا إلى المبلغ.

وأيضا فالتبليغ والبلاغ هو الإيصال، وهو معدى من بلغ إذا وصل، والإيصال حقيقة أن يورد إلى الموصل إليه ما حمله إياه غيره، فله مجرد إيصاله.

الأصل الثاني: أن التبليغ فعل المبلغ وهو مأمور به مقدور له، وتبليغه هو تلاوته بصوت نفسه، فلو كان الصوت والتلاوة وصوت المتكلم به أزليا وتلاوته لم يكن فعلا مأمورا به مضافا إلى المأمور، وبالجملة فالتبليغ هو صوت المبلغ القائم به.

قال البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة: الآية: ٦٧]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " (بلغوا عني ولو آية وليبلغ الشاهد الغائب وأن الوحي قد انقطع).[(١)]، فتأمل مقصوده بقوله: وإن الوحي قد انقطع فلو كانت أصواتنا بالقرآن هي نفس الصوت القديم الذي تكلم الله تعالى به لم يكن الوحي قد انقطع، بل هو متصل ما دامت أصوات العباد مسموعة بالتلاوة، فالقائلون إن هذا الصوت القديم ظهر عند تلاوة

---

(١) خلق أفعال العباد (ص: ٨٨).

التالي، وهو الصوت الذي أوحى الله به الوحي إلى رسوله، وهو غير منقطع لزمه لزوما بينا أن الوحي متصل غير منقطع.

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): في كتاب (خلق أفعال العباد) ويذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب أن يكون الرجل خفت الصوت، ويكره أن يكون رفيع الصوت، وأن الله سبحانه ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير الله تعالى.

قال أبو عبد الله: وفي الدليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا نادى جبرائيل الملائكة لم يصعقوا، ثم ساق في الباب أحاديث تكلم الله بالصوت محتجا بها.[١]

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): وقد كتب النبي–صلى الله عليه وسلم–كتابا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم)[٢]. فقرأه ترجمان قيصر على قيصر وأصحابه، ولا يشك في قراءة الكفار أهل الكتاب أنها أعمالهم، وأما المقروء فهو كلام العليم المنان ليس بخلق، فمن حلف بأصوات قيصر أو بنداء المشركين الذين يقرون بالله لم تكن عليه يمين دون الحلف بالله لقول النبي–صلى الله عليه وسلم– (لا تحلفوا بغير الله).[٣]. وليس للعبد أن يحلف بالخواتيم والدراهم البيض وألواح الصبيان التي يكتبونها ثم يمحونها المرة بعد المرة، وإن حلف فلا يمين عليه لقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: الآية: ٢٢].[٤]

قال البخاري–رحمه الله–(ت: ٢٥٦ هـ): وقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: (بينا أنا في

---

(١) خلق أفعال العباد (ص: ٩٨).

(٢) خلق أفعال العباد (ص: ٩٨).

(٣) خلق أفعال العباد (ص: ٩٨).

(٤) خلق أفعال العباد (ص: ١٠٢).

الجنة سمعت صوت رجل بالقرآن) [(١)]. فبين أن الصوت غير القرآن.

قلت: ونظيره إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن.

قال أبو عبد الله: ويقال له صفة الله وكلامه، وعلمه وأسمائه وعزه وقدرته بائنة من الله أم لا، وقولك وكلامك بائن من الله أم لا.

قال أبو عبد الله: قال الله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ**﴾ [النجم: الآيات: ٣٩-٤٠]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ**﴾ [نوح: الآية: ١] والإنذار من نوح وهو نذير مبين يأمرهم بطاعة الله، وأما الغفران فإنه من الله يقول ﴿**يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**﴾ [نوح: الآية: ٤]، ثم قال: ﴿**رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا**﴾ [نوح: الأية: ٥] فذكر الدعاء سرا وعلانية من نوح، وقال ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم كانوا يقرءون القرآن فيجهرون به (**خلطتم علي القرآن يقول علت أصواتكم صوتي**) [(٢)]، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفع بعضهم على بعض صوته، ولم ينه عن القرآن ولا عن كلام الله.

قال البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ): واعتل بعضهم فقال حتى يسمع كلام الله، قيل له إنما قال حتى يسمع كلام الله لا كلامك ونغمتك وصوتك، إن الله فضل موسى بكلامه، ولو كان يسمع الخلق كلهم كلام الله كما سمع موسى لم يكن لموسى عليك فضل، ومعنى هذا أن هذا الصوت المسموع من القارئ لو كان هو الصوت الذي سمعه موسى لكان كل من سمع القرآن بمنزلة موسى في ذلك". [(٣)]

[٧١]- قال المصنف رحمه الله: والرؤيا من الله عز وجل، وهي حقٌّ؛ إذا رأى صاحبها شيئاً في منامه ممَّا ليس هو ضغث، فقصَّها على عالم، وصدق فيها، وأوَّلها على أصل تأويلها

---

(١) خلق أفعال العباد (ص: ١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في "القراءة خلف الإمام " (٢٥٤)، وفي خلق أفعال العباد (ص: ١١١).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة ٥٠٣-٥٠٨.

الصحيح ولم يُحرِّف؛ فالرؤيا وتأويلها حينئذ حقٌّ. وقد كانت الرؤيا من النبيين وحياً. فأي جهل أجهل ممن يطعن في الرؤيا، ويزعم أنها ليست بشيء. وبلغني أن من قال هذا القول لا يرى الاغتسال من الاحتلام.

[٧٢]- وقد روي عن النبي ﷺ: (أن رؤيا المؤمن كلام يُكلِّم به الرَّبُّ عبده)

[٧٣]- قال: (الرؤيا من الله) وبالله التوفيق.

الشرح

الرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَوَاطَأَتْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمْرٍ كَانَ حَقًّا، كَمَا إِذَا تَوَاطَأَتْ رِوَايَاتُهُمْ أَوْ رَأْيُهُمْ فَإِنَّ الْوَاحِدَ قَدْ يَغْلَطُ أَوْ يَكْذِبُ، وَقَدْ يُخْطِئُ فِي الرَّأْيِ، أَوْ يَتَعَمَّدُ الْبَاطِلَ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ، وَإِذَا تَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ أَوْرَثَتِ الْعِلْمَ، وَكَذَلِكَ الرُّؤْيَ قَالَ: النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " (أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ عَلَى أَنَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَحَرِّيَهَا، فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ)[١]"[٢]

وسُئِلَ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ: ٦٤] قَالَ: " هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ)[٣]".

قال البغوي في شرح السُّنة: قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، وَقَرَأَ: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وَقِيلَ:

---

(١) الْحَدِيثُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ-رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فِي الْبُخَارِيِّ ٣/ ٤٦ (كِتَابُ فَضْـلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، بَابُ الْتِمَاسِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي السَّـبْعِ الْأَوَاخِرِ)، مُسْـلِمٍ ٢/ ٨٢٢ (كِتَابُ الصِّـيَامِ، بَابُ فَضْـلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، الْمُوَطَّأُ ١/ ٣٢١ (كِتَابُ الِاعْتِكَافِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ٦/ ٢٣١.

(٢) منهاج السنة: ٣ /٤٩٧.

(٣) الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ ٣/٣٦٤ -٣٦٥ (كِتَابُ الرُّؤْيَا، بَابُ ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّـرَاتُ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَـنٌ. وَتَكَرَّرَ هَذَا الْحَدِيثُ: ٤/٣٥٠ (كِتَابُ التَّفْسِيرِ، وَمِنْ سُورَةِ يُونُسَ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ٢/١٢٨٣ (كِتَابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَابُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ).

مَعْنَاهُ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ عِلْمِ النُّبُوَّةِ، وَعِلْمُ النُّبُوَّةِ بَاقٍ، وَالنُّبُوَّةُ غَيْرُ بَاقِيَةٍ، أَوِ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ كَالنُّبُوَّةِ فِي الْحُكْمِ بِالصِّحَّةِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: (الْهَدْيُ الصَّالِحُ، وَالسَّمْتُ الصَّالِحُ، وَالاقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ) أَيْ: هَذِهِ الْخِصَالُ فِي الْحَسَنِ وَالاسْتِحْبَابِ كَجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ فَضَائِلِهِمْ، فَاقْتَدُوا فِيهَا بِهِمْ، لَا أَنَّهَا حَقِيقَةُ نُبُوَّةٍ، لأَنَّ النُّبُوَّةَ لَا تَتَجَزَّأُ، وَلا نُبُوَّةَ بَعْدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ، وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ، الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ)[١].

---

(١) كتاب شرح السنة للبغوي (١٢/ ٢٠٣- ٢٠٤)



عدالة أصحاب رسول الله ﷺ والكف عما شجر بينهم

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عدالة الصحابة.

المسألة الثانية: الأدلة على عدالة الصحابة.

المسألة الثالثة: وجوب اتباع سبيلهم.

المسألة الرابعة: وجوب محبتهم.

المسألة الخامسة: القول بعدالة الصحابة لا يعني عصمتهم.

المسألة السادسة: الإمساك عما شجر بينهم.



قال المصنف رحمه الله: ومن السُّنة الواضحة البينة الثابتة المعروفة:

[٧٤]-: ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن ذكر مساوئهم والذي شجر بينهم.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عدالة الصحابة.

أولًا: معنى العدالة في اللغة:

قال الجوهري-رحمه الله-(ت: ٣٩٣ هـ): "العدل خلاف الجور، يقال: عدل عليه في القضية فهو عادل، وبسط الوالي عدله ومعدلته، وفلان من أهل المعدلة، أي: من أهل العدل، ورجل عدل، أي: رضا ومقنع في الشهادة، وهو في الأصل مصدر، وقوم عدل وعدول أيضًا: وهو جمع عدل وقد عدل الرجل بالضم عدالة.. إلى أن قال: وتعديل الشيء: تقويمه، يقال: عدلته فاعتدل، أي: قومته فاستقام".(١)

وجاء في القاموس: "العدل ضد الجور، وما قام في النفوس أنه مستقيم كالعدالة والعدولة والمعدلة والمعدلة".(٢)

"فمن هذه التعاريف اللغوية تبين أن معنى العدالة في اللغة الاستقامة، وأن العدل هو الذي لم تظهر منه ريبة وهو الذي يرضى الناس عنه، ويقبلون شهادته ويقنعون بها".(٣)

ثانيًا: العدالة شرعًا:

عرفها ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ)، بقوله: "المراد بالعدل من له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة، والمراد بالتقوى: اجتناب الأعمال السيئة من شرك أو فسق أو بدعة"

---

(١) الصحاح للجوهري (ص: ١٧٦٠-١٧٦١)، مختار الصحاح (ص: ٤١٥-٤١٦).

(٢) القاموس (٤/ ١٣).

(٣) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام-رضي الله عنهم-، لناصر بن علي (٢/ ٧٩٦).

.[١]

المسألة الثانية: الأدلة على عدالة الصحابة وفضلهم ومكانتهم.

لقد تضافرت الأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعديل الصحابة الكرام-رضي الله عنهم-، مما لا يبقى معها شك لمرتاب في تحقيق عدالتهم، فكل حديث له سند متصل بين من رواه وبين المصطفى-صلى الله عليه وسلم-لم يلزم العمل به إلا بعد أن تثبت عدالة رجاله ويجب النظر في أحوالهم سوى الصحابي الذي رفعه إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم بنص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن ذلك:

أ-الأدلة من القرآن

١- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: الآية: ١٤٣].

ووجه الاستدلال بهذه الآية على عدالة الصحابة-رضي الله عنهم-أن وسطا بمعنى "عدولا خيارا".[٢]، ولأنهم المخاطبون بهذه الآية مباشرة.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن اللفظ وإن كان عامًا إلا أن المراد به الخصوص، وقيل: "إنه وارد في الصحابة دون غيرهم".[٣]

٢-قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية: ١١٠].

قال الشاطبي-رحمه الله-(ت: ٧٩٠ هـ): "سنة الصحابة-رضي الله عنهم-سنة يعمل عليها ويرجع إليها، ومن الدليل على ذلك أمور:

---

(١) نزهة النظر شرح نخبة الفكر (ص: ٢٩).

(٢) انظر جامع البيان (٢/ ٧)، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٥٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣٣٥).

(٣) انظر الكفاية للخطيب البغدادي (ص: ٦٤).

أحدها: ثناء الله عليهم من غير مثنوية ومدحهم بالعدالة وما يرجع إليها كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية: ١١٠]، وقوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: الآية: ١٤٣]، ففي الآية الأولى: إثبات الأفضلية على سائر الأمم، وذلك يقضي باستقامتهم في كل حال، وجريان أحوالهم على الموافقة دون المخالفة.

وفي الثانية: إثبات العدالة مطلقًا، وذلك يدل على ما دلت عليه الأولى. ولا يقال إن هذا عام في الأمة، فلا يختص بالصحابة دون من بعدهم لأنا نقول:

أولا: ليس كذلك بناء على أنهم المخاطبون على الخصوص ولا يدخل معهم من بعدهم إلا بقياس وبدليل آخر.

ثانيا: على تسليم التعميم أنهم أول داخل في شمول الخطاب، فإنهم أول من تلقى ذلك من الرسول عليه الصلاة والسلام وهم المباشرون للوحي.

ثالثا: أنهم أولى بالدخول من غيرهم، إذ الأوصاف التي وصفوا بها لم يتصف بها على الكمال إلا هم فمطابقة الوصف للاتصاف شاهد على أنهم أحق من غيرهم بالمدح، وأيضا: فإن من بعد الصحابة من أهل السنة عدلوا الصحابة على الإطلاق والعموم فأخذوا عنهم رواية ودراية من غير استثناء ولا محاشاة، بخلاف غيرهم فلم يعتبروا منهم إلا من صحت إمامته وثبتت عدالته وذلك مصدق لكونهم أحق بذلك المدح من غيرهم، فيصح أن يطلق على الصحابة أنهم خير أمة بإطلاق، وأنهم وسط، أي: عدول بإطلاق، وإذا كان كذلك فقولهم معتبر وعملهم مقتدى به". (١)

٣-قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية: ٧٤].

ففي هذه الآية وصف الله تعالى عموم المهاجرين والأنصار بالإيمان الحق ومن شهد الله له

(١) الموافقات (٤/ ٤٠-٤١).

بهذه الشهادة فقد بلغ أعلى مرتبة العدالة.

٤_قال تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية: ١٠٠].

ولا خلاف بين أهل العلم في أن الآية تتحدث عن الصـــحابة، إلا أن الخلاف في من هم هؤلاء الصحابة،

فقد قال ابن عباس–رضـي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ): "إنهم هم الذين صـلوا إلى القبلتين وشهدوا بدرا،

وعن الشعبي–رحمه الله–(ت: ١٠٤ هـ): "هم الذين بايعوا بيعة الرضوان".[١]

وقال أبو موسى الأشعري–رضي الله عنه–(ت: ٤٢ هـ)، وسعيد بن المسيب–رحمه الله–(ت: ٩٤ هـ)، ومحمد بن سيرين–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ) والحسـن–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ)، وقتادة–رحمه الله–(ت: ١١٨ هـ)، "هم الذين صلوا إلى القبلتين مع الرسول–صلى الله عليه وسلم–".[٢]

وذكر الله تعالى رضاه عنهم في قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ "ولما وصفهم بهذا الوصف أثبت لهم ما يوجب التعظيم"[٣]، "ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم".[٤].

وقال ابن خويز منداد–رحمه الله–(ت: ٣٩٠ هـ): "تضـمنت هذه الآية تفضـيل السـابقين

---

(١) التفسير الكبير، الرازي، (١٦/ ١٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير، (٧/ ٢٧٠).

(٣) التفسير الكبير، الرازي، (١٦/ ١٣٥).

(٤) تفسير ابن كثير، ٧/ ٢٧٠.

إلى كل منقبة من مناقب الشريعة في علم، أو دين، أو شجاعة، أو غير ذلك".[١]، فرضي الله -سبحانه وتعالى- عن هؤلاء فيه بيان لفضلهم وتميزهم عن غيرهم.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فرَضِيَ عن السابقين عن غير اشتراط إحسان، ولم يرضَ عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان".[٢]

قال ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "ووجه دلالة هذه الآية على عدالتهم رضي الله عنهم أن الله تعالى أخبر فيها برضاه عنهم ولا يثبت الله رضاه إلا لمن كان أهلا للرضا، ولا توجد الأهلية لذلك إلا لمن كان من أهل الاستقامة في أموره كلها عدلا في دينه.

ومن أثنى الله تعالى عليه بهذا الثناء كيف لا يكون عدلا وإذا كان التعديل يثبت بقول اثنين من الناس فكيف لا تثبت عدالة صفوة الخلق وخيارهم بهذا الثناء الصادر من رب العالمين.

فقد أخبر الله-تعالى-في هذه الآية أنه رضي عن هؤلاء رضًا مطلقًا، ورَضي عمن بعدهم رضًا مقيدًا، وهو شرط اتباعهم بإحسان؛ قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "فقد أخبر اللهُ العظيم أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل مَن أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض-أو سَبَّ-بَعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخَيرهم وأفضلهم-أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم-أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يُعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم؛ عياذًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون مَن قدم الله ذكرهم ورفع شأنهم.

وأمَّا أهل السنة فإنهم يَترضون عنهم، ويَسبون مَن سَبَّه اللهُ ورسولُه، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويُعادون مَن يعادي الله، وهم مُتَّبعون لا مُبتدعون، ويَقتدون ولا يَبتدئون، ولهذا هم حزبُ الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، الجزء الثاني، المجلد الرابع، (ص: ٤١٣).

(٢) "الصارم المسلول" (ص: ٥٧٢).

المفلحون وعباده المؤمنون".[١].

قال محمد الأمين الشـــنقيطي-رحمه الله-(ت: ١٣٩٣ هـ): "ولا يخفى أنه تعالى صـــرح في هذه الآية الكريمة أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو دليل قرآني صريح في أن من يسبهم ويبغضهم، أنه ضال مخالف لله جل وعلا، حيث أبغض من رضي الله عنه؛ ولا شك أن بغض من رضي الله عنه مضادة له جل وعلا، وتمرد وطغيان".[٢].

٥- قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِـــىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّـــجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: الآية: ١٨].

وهذه الآية فيها دلالة واضـحة على تعديل الصـحابة الذين كانوا مع النبي-صـلى الله عليه وســـلم-يوم الحديبية، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفًا وأربعمائة ووجه دلالة الآية على تعديليهم-رضـــي الله عنهم- أن-الباري جل وعلا-أخبر برضـــاه عنهم، وشـــهد لهم بالإيمان وزكاهم بما اســـتقر في قلوبهم من الصـــدق والوفاء والســـمع والطاعة ولا تصـــدر تلك التزكية العظيمة من ـ الرب-جل وعلا-ـ إلا لمن بلغ الذروة في تحقيق الاستقامة على وفق ما أمر الله به والصحابة-رضي الله عنهم-كانوا في مقدمة من استقاموا في جميع الأحوال.

فالآية فيها بيان أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِـــىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأما طاعة الرســـول-صـــلى الله عليه وســـلم- فبقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّـــجَرَةِ﴾ بقي الموعود به وهو إدخال الجنة أشـــار إليه بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة، كما قال عز وجل ــ ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المجادلة: الآية: ٢٢].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٣).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٥٥٨).

٦- قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: الآية: ٢٩].

قال ابن الجوزي-رحمه الله-(ت: ٥٩٧ هـ): "وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور". [١]

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ)، عند تفسيره لهذه الآية: "فالصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة، وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم، ومنهم من فرق بين حالهم في بداءة الأمر، فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال، فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث وهذا مردود فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد" [٢].

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): " ذكر سبحانه رسوله وحزبه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه

---

(١) زاد المسير: (١/ ٢٠٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٩٩).

الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون طالبو ملك ودنيا.

ولهذا لما رآهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم وعدلهم وعلمهم ورحمتهم وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة قالوا: ما الذين صـــحبوا المســـيح بأفضـــل من هؤلاء، وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضة تصفهم بضد ما وصفهم الله به في هـذه الآية وغيرها و ﴿من يهـد الله فهو المهتد ومن يضــــلل فلن تجد لـه وليا مرشدا﴾ [الكهف: ١٧]".[١]

٧-قال تعالى: ﴿وَالسَّـــابِقُونَ السَّـــابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّات النَّعِيم﴾ [الواقعة: الآيات: ١٠-١٢].

فالصــحابة-رضــي الله عنهم-هم الســابقون من أمة محمد-صــلى الله عليه وســلم-إلى كل خير، وإلى تحصــيل كل قربة فيها رضـــى الرب-جل وعلا-، ولا يصـــدر ذلك إلا ممن تحقق بوصف العدالة.

قال أبو محمد بن حزم-رحمه الله-(ت: ٤٥٦ هـ) بعد أن ذكر أفضـلية جماعات الصــحابة حســب ســبقهم إلى الإســلام وحســب المشــاهد، قال: "فكل من تقدم ذكره من المهاجرين والأنصـــار-رضـــي الله عنهم-إلى تمام بيعة الرضـــوان فإنا نقطع على غيب قلوبهم وأنهم كلهم مؤمنون صــالحون، ماتوا على الإيمان والهدى والبر كلهم من أهل الجنة لا يلج أحد منهم النار البتة لقول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّات النَّعِيم﴾ [الواقعة: الآيات: ١٠-١٢] وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِـيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّـجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: الآية: ١٨]، إلى أن قال: ـ فمن أخبر الله عنهم بذلك فلا يحل لأحد أن يتوقف في أمرهم ولا الشك فيهم البتة".[٢]

٨- قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْـــلًا مِنَ

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٧٤-٣٧٥).

(٢) ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة (ص: ٢٦٥-٢٦٦).

اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: الآيات: ٨- ١٠].

فالصادقون هم المهاجرون، والمفلحون هم الأنصار، بهذا فسر أبو بكر الصديق (ت: ١٣ هـ) هاتين الكلمتين من الآيتين حيث قال في خطبته يوم السقيفة مخاطبا الأنصار: "إن الله سمانا "الصادقين" وسماكم "المفلحين"، وقد أمركم أن تكونوا حيثما كنا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: الآية: ١١٩]".[١]

ولذلك أهل السنة-والحمد لله-قلوبهم سليمة دائمًا من الغل أو الحقد والحسد تِجاه الصَّحب والآل؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد زكَّى المهاجرين والأنصار ومَن جاءوا بعدهم مُستغفرين لهم.

٩-وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والمراد بـ﴿المؤمنين﴾ في الآية: أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-؛ فتوعد الله مَن اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد مُتبعهم بإحسان بالرِّضوان في قوله-جل وعلا-: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

١٠-وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: الآية: ١٠].

وقال أبو محمد بن حزم-رحمه الله-(ت: ٤٥٦ هـ): "وكلهم عدول فاضل من أهل الجنة

(١) العواصم من القواصم (ص: ٤٤-٤٥).

قال الله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: الآية: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: الآيات: ١٠١-١٠٣]، قال أبو محمد: هذه مواعيد الله تعالى ووعد الله مضمون تمامه وكلهم ممن مات مؤمنا قد آمن وعمل الصالحات".(١).

١١- قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: الآية: ٥٩].

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، وسفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ): "هم أصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-اصطفاهم الله لنبيه-رضي الله عنهم-" (٢).

قال ابن جرير الطبري-رحمه الله-(ت: ٣١٠ هـ) في الذين اصطفاهم: "هم الذين اجتباهم لنبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-فجعلهم أصحابه ووزراءه" (٣)

قال ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "يقول سفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، والسدي-رحمه الله-(ت: ١٢٧ هـ) في هذه الآية: "هم أصحاب محمد-صلى الله عليه

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٥/ ٩٠-٩١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، الجزء الثالث، المجلد السابع، (ص: ١٤٧).

(٣) جامع البيان، الطبري، (٨/ ٧٠٢).

وسلم-". [(١)]

قال ابن عاشــور-رحمه الله-(ت: ١٣٩٣ هـ): "فلما أمر الله تعالى في هذه الآية رسـوله أن يقول: ﴿وَسَـلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْـطَفَىٰ﴾ فقد عين له هذه الجملة ليقولها يسـأل من الله أن يكرم عباده الذين اصــطفى بالثناء عليهم في الملأ الأعلى وحســن الذكر؛ إذ قصــارى ما يستطيعه الحاضر من جزاء الغائب على حسن صنيعه أن يبتهل إلى الله أن ينفعه بالكرامة". [(٢)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "وحقيقة الاصـــطفاء: "افتعال من التصـــفية، فيكون قد صـــفاهم من الأكدار، ولا ينقض هذا بما إذا اختلفوا؛ لأن الحق لم يعدهم بألا يختلفوا، وهذا لا يخرجهم من حقيقة الاصطفاء". [(٣)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "إنه لا ريب أنهم أفضـــل المصـــطفين من هذه الأمة". [(٤)]

وهذا أمر لا غرابة فيه بأن يصـــطفي الله-عز وجل-أفضـــل الأصـــحاب لأفضـــل الأنبياء وخاتمهم.

١٢-قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَـدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَـىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية: ٢٣].

تعددت الروايات في سـبب نزول هذه الآية وفيمن نزلت، إلا أنها اتفقت على أن المقصـود بها هو أحد الصـحابة أو جميعهم، فلم تخرج من دائرة الصـحابة وفضـلهم، ففي البخاري-رحمه الله-(ت: ٢٥٦ هـ)، عن أنس بن مالك-رضي الله عنه-(ت: ٩٣ هـ) قال: "نرى هذه الآية

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٠٣).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، المجلد الثامن، الجزء العشرون، (ص: ٨).

(٣) إعلام الموقعين، ابن القيم، (٥/ ٥٦٨).

(٤) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، (١/ ٣٦٦)..

نزلت في أنس بن النضر (ت: ٣ هـ)".[١] وفي رواية: "وفي أشباهه".[٢]

وعند مسلم: "وفي أصحابه".[٣]

وفي حديث عائشـــة–رضـــي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)، قالت في قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية: منهم طلحة بن عبيد الله–رضي الله عنه–(ت: ٣٦ هـ)، ثبت مع رسول الله–صلى الله عليه وسلم–حتى أصيبت يده، فقال النبي–صلى الله عليه وسلم–: (أوجب طلحة الجنة).[٤]

قال الشـــوكاني–رحمه الله–(ت: ١٢٥٠ هـ): "إن معنى الآية: أن من المؤمنين رجالا أدركوا أمنيتهم وقضـــوا حاجتهم ووفوا بنذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، وذلك يوم، أحد كحمزة (ت: ٣ هـ)، ومصـــعـب بن عمير (ت: ٣ هـ)، وأنس بن النضـــر (ت: ٣ هـ)، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضـــاء نحبه حتى يحضـــر أجله، كعثمان بن عفان(ت: ٣٥ هـ)، وطلحة (ت: ٣٦ هـ)، والزبير (ت: ٣٦ هـ)، وأمثالهم، فإنهم مســتمرون على ما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله–صلى الله عليه وسلم–والقتال لعدوه، ومنتظرون لقضاء حاجتهم وحصول أمنيتهم بالقتل وإدراك فضل الشهادة، وجملة ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ معطوفة على صدقوا، أي: ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه".[٥]

ب–الأدلة من السنة.

ولقد تواترت الأحاديث عن النبي–صـلى الله عليه وسـلم–فيما يدل على فضـل الصـحابة–

---

(١) صحيح البخاري، (٤٧٨٣).

(٢) صحيح البخاري، (٢٨٠٥).

(٣) صحيح مسلم، (٤٩١٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٧/ ٣٤٤).

(٥) فتح القدير، الشوكاني، (٣/ ٤٢١–٤٢٢).

رضوان الله عليهم-ووجوب تعظيمهم وإكرامهم وكونهم خير قرون هذه الأمة بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-. ولقد عقد البخاري (ت: ٢٥٦ هـ)، ومسلم (ت: ٢٦١ هـ). في صحيحيهما وكذا أهل السنن وغيرهم، كل منهم كتابا لفضائل الصحابة أوردوا فيه الكثير من الأحاديث الواردة في فضل الصحابة-رضوان الله عليهم-.

وأما دلالة السنة على تعديلهم وفضلهم-رضي الله عنهم-:

فقد وصفهم النبي-صلى الله عليه وسلم-في أحاديث يطول تعدادها وأطنب في تعظيمهم وأحسن الثناء عليهم بتعديلهم، ومن تلك الأحاديث:

١ـ عن عمران بن حصين-رضي الله عنهما-(ت: ٥٢ هـ)، قال: قال رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم-: (خير أُمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـــ قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثًا ـــ ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن).[(١)]

٢- وعن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته).[(٢)]

٣- عن أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه-(ت: ٤٢ هـ)، قال: صلينا المغرب مع رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال: (ما زلتم ههنا)، قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: (أحسنتم أو أصبتم)، قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيرا ما يرفع رأسه، فقال: (النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي

(١) أخرجه البخاري (٢٥٣٥).

(٢) صحيح البخاري ٢/٢٨٨، وانظر صحيح مسلم ١٩٦٣/٤.

أتى أمتي ما يوعدون).[(١)]

٤-وعن البراء-رضي الله عنه-(ت: ٧٢ هـ)، قال: سمعت النبي-صلّى الله عليه وسلّم-أو قال: قال صلّى الله عليه وسلّم: (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله).[(٢)]

٥-وفي الصحيحين "أنه كان بين عبد الرحمن بن عوف (ت: ٣٢ هـ)، وبين خالد بن الوليد (ت: ٢١ هـ)، كلام، فقال رسول الله: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ).[(٣)]

قال ذلك لخالد بالنسبة إلى السابقين الأولين، فالصحابة هم خير هذه الأمة بعد نبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

٦-عن عبد الله بن مسعود-رَضَيِ اللَّهُ عَنْهُ-(ت: ٣٢ هـ)، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (إذا ذُكِرَ أَصْحابي فأَمْسِكُوا).[(٤)]

٧-وقد ثبت في "صحيح مسلم" عن النبي-صلى الله عليه وسلم-أنه قال: (لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ).[(٥)]

٨- عن أبي بكرة-رضي الله عنه-(ت: ٥١ هـ)، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (..ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب). الحديث.[(٦)]

وجه دلالة الحديث على عدالتهم رضي الله عنهم أن هذا القول صدر من النبي صلى الله

---

(١) صحيح مسلم ٤/١٩٦١، ومسند أحمد (١٩٥٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٤) المعجم الكبير للطبراني (١٤٢٧)، أخرجه قوام السنة في الترغيب والترهيب (٦٢٩) باختلاف يسير، وقال عنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (صحيح) انظر حديث رقم: (٥٤٥). في صحيح الجامع.

(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٦).

(٦) صحيح البخاري (٣١/١)، صحيح مسلم (١٣٠٦/٣).

عليه وسلم في أعظم جمع من الصحابة في حجة الوداع وهذا من أعظم الأدلة على ثبوت عدالتهم حيث طلب منهم أن يبلغوا ما سمعوه منه من لم يحضر ذلك الجمع دون أن يستثني منهم أحدا.

قال ابن حبان-رحمه الله-(ت: ٣٥٤ هـ): "وفي قوله-صلى الله عليه وسلم-: (ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب)، أعظم دليل على أن الصحابة كلهم عدول ليس فيهم مجروح ولا ضعيف إذ لو كان فيهم أحد غير عدل لاستثنى في قوله صلى الله عليه وسلم وقال: ألا ليبلغ فلان منكم الغائب فلما أجملهم في الذكر بالأمر بالتبليغ من بعدهم دل ذلك على أنهم كلهم عدول وكفى بمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفا".[١]

٩-عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: (يَأْتِي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيَقولونَ: فِيكُمْ مَن صاحَبَ رَسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ، ثُمَّ يَأْتي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيُقالُ: هلْ فِيكُمْ مَن صاحَبَ أصْحابَ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ، ثُمَّ يَأْتي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيُقالُ: هلْ فِيكُمْ مَن صاحَبَ مَن صاحَبَ أصْحابَ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ).[٢]

هذه الأحاديث فيها دلالة واضحة على أن الصحابة عدول على الإطلاق حيث شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخيرية المطلقة كما أخبر بأنهم أمان للأمة من ظهور البدع والحوادث في الدين ولا يخبر صلى الله عليه وسلم بهذا إلا لمن كانوا عدولا مستقيمين على الصراط المستقيم.[٣]

---

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (١/ ٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤٩).

(٣) المصدر: عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام-رضي الله عنهم-، لناصر بن علي (٨٠٠-٨٠٨).

ج-أقوال السلف ومن تبعهم في عدالة الصحابة وفضلهم.

فمن أصول أهل السُّنَّة والجماعة: سلامةَ قلوبهم تجاه أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-

،

قال حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس-رضـــي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ): "إن الله-جل ثناؤه وتقدست أسماؤه-خص نبيه محمدا-صلى الله عليه وسلم-بصحابة آثروه على الأنفس والأموال، وبذلوا النفوس دونه في كل حال، ووصـــفهم الله في كتابه فقال: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُـــجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْـــلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْـــوَانًا ۖ سِـــيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّـــجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَـــطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْـــتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: الآية: ٢٩]. قاموا بمعالم الدين وناصـــحوا الاجتهاد للمسلمين حتى تهذبت طرقه وقويت أسبابه وظهرت آلاء الله، واستقر دينه ووضحت أعلامه، وأذل بهم الشـــرك، وأزال رؤوســـه ومحا دعائمه، وصـــارت كلمة الله العليا، وكلمة الذين كفروا الســـفلى فصـــلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزكية، والأرواح الطاهرة العالية فقد كانوا في الحياة لله أولياء، وكانوا بعد الموت أحياء، وكانوا لعباد الله نصحاء، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها".(١)

قال عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ): "إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد-صـلى الله عليه وسـلم-خير قلوب العباد، فاصـطفاه لنفسـه، فابتعثه برسـالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصـحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسـلمون حسـنا فهو عند الله حسـن، وما رأوا سـيئا فهو عند الله سيئ".(٢)

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر (٣/ ٧٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٨٥٨٢)، وقال المحققون: إسناده حسن.

وذلك لأنهم حَمَلة ميراث النبوة، فهم علماء هذه الأمة وخيرها وأبرُّها، كما قال عنهم ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ): "مَن كان منكم مستنًّا، فليستنَّ بمَن قد مات؛ فإنَّ الحيَّ لا يُؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد، أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلُّها تكلفًا؛ قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه، وإقامة دينه؛ فاعرفوا لهم حقَّهم، وتمسَّكوا بهديهم؛ فإنَّهم كانوا على الهُدى المستقيم".(١)

وقد عَلَّق ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) على هذا الأثر؛ فقال: "وقول عبد الله بن مسعود: " "كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا": كلامٌ جامع، بيَّن فيه حُسن قَصدهم، ونيَّاتهم ببر القلوب، وبيَّن فيه كمال المعرفة، ودقتها بعمق العلم، وبيَّن فيه تيسير ذلك عليهم، وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف... وهم أفضل الأمة الوسط الشهداء على الناس، الذين هداهم الله لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ فليسوا مِن المغضوب عليهم الذين يتبعون أهواءهم، ولا من الضالين الجاهلين... بل لهم كمال العلم، وكمال القصد؛ إذ لو لم يكن كذلك للزم أن لا تكون هذه الأمةُ خيرَ الأمم، وأن لا يكونوا خيرَ الأمة، وكلاهما خلاف الكتاب والسُّنَّة.

وأيضًا فالاعتبار العقليُّ يدلُّ على ذلك؛ فإنَّ مَن تأمَّل أمة محمد-صلى الله عليه وسلم-، وتأمل أحوال اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين-تبيَّن له مِن فضيلة هذه الأمة على سائر الأمم في العلم النافع والعمل الصالح ما يضيق هذا الموضع عن بسطه.

عن الحسن البصري-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ)، قال: "إن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا أكياسًا، عملوا صالحًا، وأكلوا طيبًا، وقدموا فضلًا، ولم ينافسوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم ينافسوهم في عزها، ولم يجزعوا لذلها، أخذوا صفوها، وتركوا كدرها، والله ما تعاظم في أنفسهم حسنة عملوا، ولا تصغر في أنفسهم سيئة".(٢)

(١) أخرجه ابن عبد البرَّ في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٧)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٤)، مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٧١) رقم (١٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٧٤) رقم (١٠٦٣٣).

قال قتادة بن دعامة الســـدوســـي-رحمه الله-(ت: ١١٨ هـ): "ولكن أحق من صـــدقتم أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-الذين اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه".[١].

عن أبي صـــخر حميد بن زياد-رحمه الله-(ت: ١٨٩ هـ)، قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي-رحمه الله-(ت: ١٠٨ هـ): أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أريد الفتن؟ فقال إن الله قد غفر لجميع أصـحاب النبي-صـلى الله عليه وسـلم-وأوجب لهم الجنة في كتابه محسـنهم ومسيئهم قلت: له وفي أي موضـع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال ألا تقرأ ﴿وَالسَّـابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَـانٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: الآية:١٠٠] أوجب لجميع أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-الجنة والرضـــوان وشـــرط على التابعين شـــرطا لم يشـــترطه فيهم قلت: وما اشـــترط عليهم؟ قال: اشـترط عليهم أن يتبعوهم بإحسـان يقول: يقتدون بهم في أعمالهم الحسـنة، ولا يقتدون بهم في غير ذلك قال أبو صـخر: لكأني لم أقرأها قبل ذلك وما عرفت تفسـيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب".[٢]

نقل الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن ســـلامة الأزدي الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ): مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي-رحمه الله-(ت: ١٥٠ هـ)، وصاحبيه أبي يوســـف يعقوب بن إبراهيم الحميري الأنصـــاري-رحمه الله-(ت: ١٨٢ هـ)، ومحمد بن الحسـن الشـيباني-رحمه الله-(ت: ١٨٩ هـ) ما كانوا يعتقدونه من أصـول الدين، ويدينون به لرب العالمين ومن ضـــمن ذلك ما كانوا يعتقدونه في الصـــحابة عموما فقال: في عقيدته المشـهورة: "ونحب أصـحاب رسـول الله-صـلى الله عليه وسـلم-ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضـــهم، وبغير الحق يذكرهم، ولا نـذكرهم إلا بخير،

---

[١] أحمد المسند (١٠/ ٤٣٦)، رقم: (١٢٣١٦) وإسناده صحيح.

[٢] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٤/ ٢٧٢)، وعزاه لأبي الشيخ وابن عساكر.

وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان".(١)

وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "وقد أثنى الله ـــ تبارك وتعالى ـــ على أصحاب-رسول الله صلى الله عليه وسلم-في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-من الفضل ما ليس لأحد بعدهم فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين أدوا إلينا سنن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-عاما وخاصا وعزما وإرشادا، وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول ولم نخرج من أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله" (٢).

قال ابن عبد البر-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ): "ومن أوكد آلات السنن المعينة عليها، والمؤدية إلى حفظها، معرفة الذين نقلوها عن نبيهم-صلى الله عليه وآله وسلم-إلى الناس كافة، وحفظوها عليه، وبلغوها عنه، وهم صحابته الحواريون الذين وعوها وأدوها ناصحين محسنين، حتى كمل بما نقلوه الدين، وثبتت بهم حجة الله تعالى على المسلمين، فهم خير القرون، وخير أمة أخرجت للناس، ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله عز وجل عليهم وثناء رسوله عليه السلام، ولا أعدل ممن ارتضاه الله لصحبة نبيه ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك، ولا تعديل أكمل منه. قال الله تعالى ذكره : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: الآية: ٢٩]. فهذه صفة من بادر إلى تصديقه والإيمان به، وآزره

(١) العقيدة الطحاوية مع شرحها (ص: ٥٢٨).

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤٢- ٤٤٣)، أعلام الموقعين (١/ ٨٠).

ونصره، ولصق به وصحبه".[١]

يقول الخطيب البغدادي-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ): "على أنه لو لم يرد من الله-عز وجل- ورسـوله فيهم شـيء، لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة، والجهاد، والنصـرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصـحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطعَ على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيؤون من بعدهم أبد الآبدين، هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتد بقوله من الفقهاء".[٢]

وقال الإمام ابن قدامة-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ): "أمته خير الأمم، وأصـحابه خير أصحاب الأنبياء".[٣]

قال ابنُ الصَّلاحِ-رحمه الله-(ت: ٦٤٣ هـ): "للصَّحابةِ بأسْرِهِم خَصيصةٌ، وهي أنَّه لا يُسـألُ عن عدالةِ أحَدٍ منهم، بل ذلك أمـــرٌ مَفروغٌ منه؛ لكونِهم على الإطلاقِ مُعَدَّلين بنُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وإجماعِ من يُعتَدُّ به في الإجماعِ من الأُمَّةِ... ثم إنَّ الأُمَّةَ مجمِعةٌ على تعديلِ جميعِ الصَّـحابةِ، ومن لابَسَ الفِتَنَ منهم فكذلك بإجماعِ العُلَماءِ الذين يُعتَدُّ بهم في الإجماعِ؛ إحسـانًا للظَّنِّ بهم، نظرًا إلى ما تمهَّد لهم من المآثِرِ، وكأنَّ اللهَ سُـبحانَه وتعالى أتاح الإجماعَ على ذلك؛ لكونِهم نَقَلةَ الشَّريعةِ، واللهُ أعلَمُ".[٤]

وقال الإمام النَّووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "وَكُلُّهـم عُدولٌ رَضِيَ اللهُ عنهم، ومتأوِّلون في حُروبِهم وغَيرِها، ولم يُخرِجْ شَيءٌ من ذلك أحدًا منهم عن العدالةِ ... ولهذا اتَّفَق أهلُ الحَقِّ ومن يُعتَدُّ به في الإجماعِ على قَبولِ شَـهاداتِهم ورواياتِهم، وكَمالِ عَدالتِهم رَضِـيَ اللهُ عنهم

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ١-٢).

(٢) "الكفاية" (٤٩).

(٣) لمعة الاعتقاد: مع شرحها الإرشاد (ص: ٣٠٦).

(٤) يُنظر: (مقدمة ابن الصلاح) (ص: ٣٩٧).

أجمعين".(١)

وقال الإمام النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "قال القاضي، ويؤيد هذا ما قدمناه في أول باب فضائل الصحابة عن الجمهور من تفضيل الصحابة كلهم على جميع من بعدهم. وسبب تفضيل نفقتهم: أنها كانت وقت الضرورة وضيق الحال، بخلاف غيرهم، ولأن إنفاقهم كان في نصرته عليه الصلاة والسلام وحمايته وذلك معدوم بعده، وكذا جهادهم، وسائر طاعتهم، هذا كله مع ما كان في أنفسهم من الشفقة والتودد والخشوع والتواضع والإيثار والجهاد في الله حق جهاده، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".(٢).

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "والصحابة أكمل الأمة في ذلك بدلالة الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار، ولهذا لا تجد أحدًا من أعيان الأمة إلا وهو معترف بفضل الصحابة عليه وعلى أمثاله، وتجد مَن ينازع في ذلك كالرافضة من أجهل الناس. ولهذا لا يُوجد في أئمة الفقه الذين يُرجع إليهم رافضي، ولا في أئمة الحديث، ولا في أئمة الزهد والعبادة، ولا في الجيوش المؤيدة المنصورة جيش رافضي، ولا في الملوك الذين نصروا الإسلام وأقاموه وجاهدوا عدوَّه مَن هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سِيرة محمودة مَن هو رافضي...".(٣)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله به عليهم من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى".(٤)

---

(١) يُنظر: شرح مسلم (١٥/ ١٤٩).

(٢) شرح مسلم للنووي: (١٦/ ٣٢٧)، فتح الباري لابن حجر: (٧/ ٤٢).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٧٩-٨١).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٦).

وقال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "قال غير واحد من الأئمة: إن كل من صحب النبي-صلى الله عليه وسلم-أفضل ممن لم يصحبه مطلقا، وعينوا ذلك في مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز مع أنهم معترفون بأن سيرة عمر بن عبد العزيز أعدل من سيرة معاوية، قالوا: لكن ما حصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر لا يساويه ما يحصل لغيرهم بعلمه، واحتجوا بما في الصحيحين من أنه قال: (لا تسبوا أصحابي..).[(١)] قالوا: فإذا كان جبل أحد ذهبا لا يبلغ نصف مد أحدهم، كان في هذا من التفاضل ما يبين أنه لم يبلغ أحد مثل منازلهم التي أدركوها بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم".[(٢)]

قال الإمام ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "إن من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، كما وصفهم الله بذلك في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: الآية: ١٠]، وأمر النبي-صلى الله عليه وسلم-بحسن القول فيهم، فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خالف أمر النبي-صلى الله عليه وسلم-".[(٣)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته أصلا وميراثا؛ فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة، وتعظيم المرسل والقيام بحقه، والصبر على أوامره والشكر لنعمه، والتقرب إليه، ومن لا يصلح لذلك، وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله والقيام بخلافتهم، وحمل ما بلغوه عن ربهم".[(٤)]

وقال ابنُ كثيرٍ-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "الصَّحابةُ كُلُّهم عدولٌ عند أهلِ السُّنَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (٤/ ٥٢٧).

(٣) "إعلام الموقعين"، (٢/ ١٦١).

(٤) طريق الهجرتين، (ص: ١٧١).

والجماعةِ؛ لِما أثنى اللهُ عليهم في كِتابه العزيزِ، وبما نطَقَت به السُّـــنَّةُ النبويَّةُ في المدحِ لهم في جميعِ أخلاقِهم وأفعالِهم، وما بَذَلوه من الأموالِ والأرواحِ بين يَدَيْ رَسـولِ اللهِ–صـلى الله عليه وسلم–؛ رغبةً فيما عند الله من الثَّوابِ الجزيلِ، والجزاءِ الجميلِ".(١)

فمن واجب الأمة نحو أصـحاب رسـول الله–صـلى الله عليه وسـلم–محبتهم والترضـي عنهم والـدعـاء لهم كما أمرنا الله تعالى بقوله: ﴿والـذين جاءوا من بعـدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الـذين ســـبقونا بالأيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للـذين آمنوا ربنا إنـك رؤوف رحيم﴾ [الحشر: الآية: ١٠].

فهم قوم اختارهم الله وشرفهم بصـحبة نبيه–صلى الله عليه وسلم–وخصـهم في الحياة الدنيا بالنظر إليه وسماع حديثه من فمه الشريف ونصرته والذب عنه والجهاد معه في سبيل الله ونشر دين الإسلام.

وبعد وفاته كانوا هم الواسطة بين الرسول–صلى الله عليه وسلم–وبين الأمة، فقد بلغوا عن رسول الله ما بعثه الله به من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها ونشروا هذا الدين في شتى بقاع الأرض: وجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وذبوا عن هذا الدين بسنانهم ولسانهم فكان لهم بذلك الأجر العظيم والمنزلة العالية عند ربهم وعند نبيهم وعند المســـلمين الموحدين جميعا.

وكيف لا يكونون كذلك وهم خير قرون هذه الأمة بشهادة النبي–صلى الله عليه وسلم–.

المسألة الثالثة: وجوب اتباع سبيلهم.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال الإمام ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "فقد أخبر اللهُ العظيم أنَّه قد رضـــي عن

(١) يُنظر: اختصار علوم الحديث (ص: ١٨١).

السَّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.....

وأمَّا أهل السنة فإنهم يَترضون عنهم، ويَسبون مَن سَبَّه اللهُ ورسولُه، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويُعادون مَن يعادي الله، وهم مُتَّبعون لا مُبتدعون، ويَقتدون ولا يَبتدئون، ولهذا هم حزبُ الله المفلحون وعباده المؤمنون".[١].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والمراد بـــ﴿المؤمنين﴾ في الآية: أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-؛ فتوعد الله مَن اتبع غير سـبيلهم بعذاب جهنم، ووعد مُتبعهم بإحسـان بالرِّضـوان في قوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد شـهد الله لأصـحاب نبيه الله ومن تبعهم بإحسان بالإيمان فعلم قطعا أنهم المراد بالآية الكريمة" [٢]

وعن العرباض بن سارية-رضي الله عنه-(ت: ٧٥ هـ)، قال: "وعظنا رسول الله-صلى الله عليه وسلم-موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا: يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصـنا. قال: (أوصـيكم بتقوى الله والسـمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة). [٣]

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٣).

(٢) الانتصار لأهل الأثر (ص: ٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦، ١٢٧). وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة: باب في لزوم السنة (٥/ ١٣، ١٥ ح: (٤٦٠٧)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم: باب في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٥/ ٤٤) ح: (٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجة في سننه، في المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١/ ١٦). وابن حبان في صحيحه (١/ ١٣٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي، والآجري في الشريعة (ص: ٤٦، ٤٧)، والدارمي في سننه، باب اتباع السنة (١/ ٤٤، ٤٥) وقال الألباني: سنده صحيح، وصححه جماعة منهم الضياء المقدسي في اتباع السنن واجتناب البدع، انظر: مشكاة المصابيح (١/ ٥٨) ح: (١٦٥).

قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: الآية: ٦].

عن قتادة-رحمه الله-(ت: ١١٨ هـ) ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ قال: "أصحاب محمد".[١]

قال عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ): "لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من قبل أصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-، وأكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم، فذلك حين هلكوا".[٢]

كتب عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-(ت: ١٠١ هـ) إلى عامل له فقال: "أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، وترك ما أحدث المحدثون بعده مما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السُنَّة فإنها لك بإذن الله عصمة، واعلم أن الناس لم يحدثوا بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها وعبرة فيها، فإن السُنَّة إنما سنَّها من علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم فإنهم السابقون، عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل فيه لو كان أحرى، فلئن كان الهدى ما أنتم عليه فقد سبقتموهم إليه، ولئن قلت إنما أحدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، لقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محصر، لقد قصر دونهم أقوام فجفوا، وطمع عنهم آخرون فغلوا، إنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم".[٣]

---

(١) تفسير الطبري (تفسير سورة سبأ الآية: ٦).

(٢) أخرجه ابن عبد المبارك في الزهد (١/ ٢٨١) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦١٧) والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١١٤).

(٣) البدع لابن وضاح، (ص: ٣٠، ٣١)، الحلية لأبي نعيم (٥/ ٣٩)، الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

قال شـــقيق البلخي-رحمه الله-(ت: ١٩٤ هـ): قيل لابن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ): إذا أنت صـليت لم لا تجلس معنا؟ قال: "أجلس مع الصـحابة والتابعين أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس".[١]

قال الإمام أحمد: ثنا عبيد الله بن محمد (هو العيشي حافظ) قال: سمعت شيخًا يذكر عن محمد بن سـيرين وسـئل مرة عن فتيا فأحسـن الإجابة فيها، فقال له رجل: والله يا أبا بكر، لأحســـنت الفتيا فيها أو قال: القول فيها قال: وعرّض، كأنه يقول: ما كانت الصـــحابة لتحســـن أكثر من هذا؛ فقال محمد بن ســـيرين-يعني منكرا-لو أردنا فقههم لما أدركته عقولنا".[٢]

وقال الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "أصـول السُـنَّة عندنا التمسـك بما كان عليه أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، والاقتداء وترك البدع، وكل بدعة ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدل والخصومات في الدين".[٣]

قال ابن قتيبة-رحمه الله-(ت: ٢٧٦ هـ): "وكان أصـــحاب رســـول الله-صـــلى الله عليه وسلم-هم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم".[٤]

وقال الإمام ابن أبي زيد القيرواني-رحمه الله-(ت: ٣٨٦ هـ)، في رسالته: "واللجأ إلى كتاب الله عزوجل وسـنة نبيه، واتباع سـبيل المؤمنين، وخير القرون من خير أمة أخرجت للناس نجاة، ففي المفزع إلى ذلك العصمة، وفي اتباع السلف الصالح النجاة".[٥]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٠)، وتاريخ الإسلام (١٢/ ٢٣٥).

(٢) الحلية (٢/ ١٥٧) من طريق كتاب الزهد لأحمد.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السُنَّة والجماعة للالكائي (١/ ١٥٦)، طبقات الحنابلة (١/ ٣١١).

(٤) تأويل مشكل القرآن (ص: ١٤٨).

(٥) رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ص: ١٦٩).

قال الإمام أبو القاسم اللالكائي (ت: ٤١٨ هـ): "أما بعد: فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول، وأوضح حجة ومعقول، كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وصحابته الأخيار المتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون".(١)

قال ابن قدامة-رحمه الله-(ت: ٦٢٠ هـ): "ومتى اختلف الصحابة على قولين، لم يجز إحداث قول ثالث لأنه يفضي إلى تخطئتهم، وخروج الحق عن قول جميعهم ولا يجوز ذلك".(٢)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الصحابة رضي الله عنهم منشأ كل علم وصلاح وهدى ورحمة في الإسلام".(٣)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخصٍ انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا لرسول الله-صلى الله وعليه وسلم-، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا؛ فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ، بل كل قولٍ قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ؛ فإن الدين

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٧).

(٢) المغني (٨/ ١٠٧).

(٣) منهاج السنة (٦/ ٣٦٨).

الذي بعث الله به رسوله ليس مُسَلَّمًا إلى عالمٍ واحدٍ وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله-صلى الله وعليه وسلم-وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول، قبل وجود المتبوعين الذين تُنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله إن كان حقًّا مأخوذًا عمَّا جاء به الرسول، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قِيلَ في دين الإسلام، مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه، فإنه قول باطل".(١)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليل جدا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة؛ فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم. وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر".(٢)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بيّنا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق".(٣)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: الآية:

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٦١-٢٦٣).
(٢) مجموع الفتاوى، (١٣/ ٣٣٢).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٢٧).

٥٩].

وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين". (١)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "العالمون بالله وكتابه ودينه، عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاء الرسول صلى الله عليه وسلم فأخرجهم من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الظلم إلى العدل، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه ... ". (٢)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "كل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع قال بعض الصحابة اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة". (٣)

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٩٥).

(٢) الفوائد (ص: ١٠٨. ١٠٩).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٠٧).

بعدهم كالتفاوت الذي بينهم وبينهم في الفضل". [(١)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "فلا أحسن مما قضى به الصحابة-رضي الله عنهم-". [(٢)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): عن الصحابة: "فإنهم أفقه الأمة وأعلمهم بمقاصد الشرع وحكمه". [(٣)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "أفهام الصحابة رضي الله عنهم فوق أفهام الجميع، وعلمهم بمقاصد نبيهم وقواعد دينه وشرعه أتم من علم كل من جاء بعدهم" إلى أن قال: "ولم يرتضوا لأنفسهم عبارات المتأخرين واصطلاحاتهم وتكلفاتهم فهم كانوا أعمق الأمة علما وأقلهم تكلفا والمتأخرون عكسهم في الأمرين". [(٤)]

وسنة الصحابة وهي ما جاء عنهم من قول أو فعل أو تقرير إذا كان مما لا يقال من قبل الرأى، ومما لا مجال للاجتهاد فيه، فله حكم المرفوع المسند تحسينا للظن بهم، وجزم بذلك الرازى في المحصول، وغير واحد من أئمة الأصول والحديث. [(٥)]

وإذا كانت سنتهم في غير ذلك، فقد اختلف العلماء في ذلك. والراجح من هذا الخلاف [(٦)] أن سنتهم كسنة الرسول يعمل بها، ويرجع إليها، وانتصر لهذا الرأى غير واحد من أئمة الأصول، منهم الشاطبي-رحمه الله-(ت: ٧٩٠ هـ) فبعد أن ذكر الآيات والأحاديث

---

(١) التفسير القيم (ص: ٣٤٣).

(٢) الطرق الحكمية (١/ ٣٢٦).

(٣) الطرق الحكمية (٢/ ٥٣١).

(٤) الطرق الحكمية (١/ ٣٢٤).

(٥) انظر: المحصول (٢/ ٢٢١)، والإحكام للآمدى (٢/ ٨٧)، وأعلام الموقعين (٤/ ١٢٣)، وفتح المغيث للسخاوى (١/ ١٤٤)، وتدريب الراوى (١/ ١٩٠، ١٩١)، وتوضيح الأفكار (١/ ٢٨٠).

(٦) انظر: الأدلة المختلف فيها وأثرها فى الفقه الإسلامى للدكتور عبد الحميد أبو المكارم (ص: ٣٠٣)، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادى، (١/ ٤٣٧).

الدالة على عدالتهم قال: "فيصح أن يطلق على الصحابة أنهم خير أمة بإطلاق، وأنهم وسط أى عدول بإطلاق، وإذا كان كذلك فقولهم معتبر، وعملهم مقتدى به.

... ثم استدل الشاطبي لما رجح بأدلة منها:

١- ما جاء فى الحديث من الأمر باتباعهم، وأن سنتهم فى طلب الاتباع كسنة النبى صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم: (فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ).(٢)

٢- أن جمهور العلماء قدموا الصحابة عند ترجيح الأقاويل، فقد جعل طائفة قول أبى بكر وعمر حجة ودليلا، وبعضهم عد قول الخلفاء الأربعة دليلا، وبعضهم يعد قول الصحابى على الإطلاق حجة ودليلا، ولكل قول من هذه الأقوال متعلق من السنة وهذه الآراء-وإن ترجح عند العلماء خلافها-ففيها تقوية تضاف إلى أمر كلى هو المعتمد فى المسألة، وذلك أن السلف والخلف من التابعين ومن بعدهم، يهابون مخالفة الصحابة، ويتكثرون بموافقتهم، وأكثر ما تجد هذا المعنى فى علوم الخلاف الدائرة بين الأئمة المعتبرين، فتجدهم إذا عينوا مذاهبهم قووها بذكر من ذهب إليها من الصحابة، وما ذاك إلا لما اعتقدوا فى أنفسهم وفى مخالفيهم من تعظيمهم، وقوة مآخذهم دون غيرهم، وكبر شأنهم فى الشريعة، وأنهم مما يجب متابعتهم وتقليدهم فضلا عن النظر معهم فيما نظروا فيه.

... ويؤيد هذا ما جاء عن السلف الصالح، من تزكيتهم والحث على متابعتهم.

فعن ابن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، قال: "من كان مستنا فليستن بأصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم". (١)

---

(١) أخرجه البغوى في شرح السنة كتاب الإيمان، باب رد البدع والأهواء (١/ ٢١٤)، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٩٧)، وذكره ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين (٤/ ١٣٩).

قال الشـاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ): "ولقد زلّ بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين واتبعوا أهواءهم بغير علم، فضلّوا عن سواء السبيل".[١]

وقال عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ): "سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولاة الأمر بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا.

... وفى رواية بعد قوله –وقوة على دين الله – ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر فى رأى خالفها، من اهتدى بها مهتد ... الحديث".[٢]

فقال مالك فأعجبني عزم عمر على ذلك".[٣]

والآثار في هذا المعنى يكثر إيرادها، وقد استوعب كثيرا منها الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه "أعلام الموقعين عن رب العالمين".[٤]

ويقول الإمام الشـاطبي–رحمه الله–(ت: ٧٩٠ هـ)، في موضـع آخر من كتابه مبينا أن بيان الصحابى حجة، قال: "وأما بيان الصحابة، فإن أجمعوا على ما بينوه، فلا إشكال فى صحته أيضـــا، كما أجمعوا على الغســـل من التقاء الختانين المبين لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا

---

(١) الاعتصام (٢/ ٩٦).

(٢) ابن عبد الحكم سيرة عمر (ص: ٤٠)، وابن بطة في الإبانة (١/٣٥٢)، ورقم: (٢٣٠-٢٣١)، والآجري في الشريعة (١/ ١٧٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧٦). كلهم عن مالك بن أنس وأعل بالانقطاع ورواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (ص: ١٧٣)، واللالكائي (١/ ١٠٦)، من طريق يعقوب بن سفيان الفسوي عن سعيد بن أبي مريم عن رشدين بن سعد قال: حدثني عقيل، عن ابن شهاب، عن عمر بن عبد العزيز به، ورشدين ضعيف. انظر التقريب (٢٠٩)، وقد صحح هذا الأثر محقق كتاب الشريعة للآجري فقال: والأثر يصح بهذين الطريقين ويقوى بهما. انظر الشريعة (١/ ١٧٤). وقد أخرجه أيضا قوام السنة في الحجة في بيان المحجة (١/ ١٠٩-١١٠) وابن كثير في البداية والنهاية (٥ /٢٤٢) وعزاه محقق كتاب المعرفة والتاريخ إلى الجزء المفقود منه.

(٣) الموافقات (٤/٤٥٢-٤٥٥)، وانظر: الاعتصام (٢/ ٥١٩).

(٤) أعلام الموقعين (٤/١١٨-١٥٦)، وانظر: الرسالة للشافعي (ص: ٥٩٦)، فقرات رقم: (١٦٨٢، ١٨٠٥ – ١٨١١).

فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: الآية: ٦]، وهذا الإجماع حجة موجبة للعلم، ولا يعتد بخلاف من خالفهم، كما حكاه السرخسي-رحمه الله-(ت: ٤٨٣ هـ) [(١)]، عن أبي حازم القاضي-رحمه الله-(ت: ١٤٠ هـ).

وإن لم يجمعوا عليه فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ هذا فيه نظر وتفصيل. ولكنهم يترجح الاعتماد عليهم في البيان، من وجهين:

أحدهما: معرفتهم باللسان العربى، فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف فى فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان صح اعتماده من هذه الجهة.

ثانيهما: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم أقعد فى فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات، فالعمل عليه صواب، وهذا إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف فى المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسالة اجتهادية". [(٢)]

المسألة الرابعة: وجوب محبتهم.

الصحابة هم خير القرون، وصفوة هذه الأمة وأفضل هذه الأمة بعد نبيها-صلى الله عليه وسلم-، ويجب علينا أن نتولاهم ونحبهم ونترضى عنهم وننزلهم منازلهم، فإن محبتهم واجبة على كل مسلم، وحبهم دين وإيمان وقربى إلى الرحمن.

قال أنس بن مالك-رضي الله عنه-(ت: ٩٣ هـ): "ما فرحنا بشيء فرحنا بقوله-صلى الله عليه وسلم-: (المرء مع من أحب). قال: فأنا أحب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، وأبا

(١) أصول السرخسى (١/ ٣١٧)، وانظر: علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامى للشيخ أحمد إبراهيم (ص: ٢٤، ٢٥).

(٢) الموافقات (٣/ ٣٠٠، ٣٠١).

بكر، وعمر، فأرجو أن أكون معهم".[١]

عن أيوب الســـختياني-رحمه الله-(ت: ١٣١ هـ)، أنه قال: "من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضـح السـبيل، ومن أحب عثمان فقد اسـتنار بنور الله، ومن أحب عليا فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن قال الحسنى في أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فقد برئ من النفاق".[٢]

عن شقيق البلخي-رحمه الله-(ت: ١٩٤ هـ)، قال: "حب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنة".[٣]

وعن عبد العزيز بن جعفر اللؤلؤي قال: قلت للحســـن-رحمه الله-(ت: ١١٠ هـ): "حب أبي بكر وعمر سنة". قال: "لا فريضة".[٤]

وعن طاووس-رحمه الله-(ت: ١٠٦ هـ)، قـال: "حب أبي بكر ومعرفة فضـــلهما من السنة".[٥]

عن أبي زرعة الرازي-رحمه الله-(ت: ٢٨٩ هـ)، قال: سمعت قبيصـــة بن عقبة (ت: ٢١٥ هـ) يقول: "حب أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-كلهم سنة".[٦]

وعن مالك بن أنس-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ): قال: "كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر-رضي الله عنهما- كما يعلمون السورة من القرآن".[٧]

قال الإمام الطحاوي-رحمه الله-(ت: ٣٢١ هـ): "وَنُحِبُّ أَصْـحَابَ رَسُـولِ اللَّهِ-صَـلَّى اللَّهُ

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ١٣).

(٣) المناقب لابن الجوزي (ص: ٤٩)، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ١٢٣٨).

(٤): شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ١٢٣٩)، وابن الجوزي: مناقب (ص: ٣٩).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ١٢٣٩)، والمناقب لابن الجوزي: (ص: ٣٩).

(٦) أصول الاعتقاد (٧/ ١٣١٣، ٢٣٢٧)

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: (٤/ ١٢٤٠)، والمناقب لابن الجوزي: (ص: ٣٩).

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ وَبِغَيْرِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلا نَذْكُرُهُمْ إلا بِخَيْرٍ. وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ".(١)

وقال أبو عبد الله ابن بطة-رحمه الله-(ت: ٣٨٧ هـ): "ونحب جميع أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-على مراتبهم ومنازلهم أولًا فأولًا: من أهل بدر والحديبية وبيعة الرضوان وأحد فهؤلاء أهل الفضائل الشريفة والمنازل المنيفة الذين سبقت لهم السوابق رحمهم الله أجمعين".(٢)

قال ابن حزم-رحمه الله-(ت: ٤٥٦ هـ): "وكلهم عدل إمام فاضل رضي فرض علينا توقيرهم وتعظيمهم وأن نستغفر لهم ونحبهم وتمرة يتصدق بها أحدهم أفضل من صدقة أحدنا بما يملك وجلسة من الواحد منهم مع النبي-صلى الله عليه وسلم-أفضل من عبادة أحدنا دهره كله وسواء كان من ذكرنا على عهده عليه السلام صغيرا أو بالغًا".(٣)

قال البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ): "ويدخل في جملة حب النبي-صلى الله عليه وسلم-حب أصحابه؟ لأن الله-عز وجل-أثنى عليهم ومدحهم فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: الآية: ٢٩]·

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: الآية: ١٨].

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٤٦٧).

(٢) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة (ص: ٢٧١).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (٥/ ٨٩).

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية: ٧٤].

فإذا أنزلوا هذه المنزلة استحقوا من جماعة المسلمين أن يحبوهم ويتقربوا إلى الله عز وجل بمحبتهم لأن الله تعالى إذا رضي عن أحد أحبه وواجب على العبد أن يحب من يحب مولاه".[١]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "واجب على كل مسلم جاء بعد الصحابة-رضي الله عنهم-من عباد الله المؤمنين أن يدعو لهم، ويستغفر لهم، ويترحم عليهم لما لهم من القدر العظيم، ولما حازوه من المناقب الحميدة، والسوابق القديمة، والمحاسن المشهورة، ولما لهم من الفضل الكبير على كل من أتى بعدهم".[٢]

قال السفاريني-رحمه الله-(ت: ١١٨٨ هـ): "فمن أراد السلامة لدينه وأن يسلم له إيمانه فليحبهم جميعًا، وأن يحتم ذلك على نفسه، وعلى كل أبناء جنسه لأن ذلك واجب على جميع الأمة واتفق على ذلك الأئمة، فلا يزوغ عن حبهم إلا هالك، ولا يزوغ عن وجوب ذلك إلا آفك".[٣]

المسألة الخامسة: القول بعدالة الصحابة لا يعني عصمتهم.

إليك بعض النقولات من العلماء التي تؤكد أن عدالة الصحابة لا تعني عصمتهم:

قال ابن حزم-رحمه الله-(ت: ٤٥٦ هـ): "الصحابة كلهم عدول، ولكنهم غير معصومين

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٢٨٧).

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٥٣٧).

(٣) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني (٢/ ٣٥٤).

من الخطأ، فقد يقع منهم ما يُخالف الصواب، ويجب التفريق بين العدالة والعصمة". (١)

قال البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ): "الصحابة كلهم عدول، ولكنهم غير معصومين من الخطأ، فقد يقع منهم الخطأ والزلل، ولكن يُغفر لهم باجتهادهم". (٢)

قال ابن عبد البر-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، ولكنهم عدول في روايتهم، وما شجر بينهم مغفور لهم، لأنهم مجتهدون". (٣)

وقال الخطيب البغدادي-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ): "عدالة الصحابة ثابتة ومعلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن، فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية: ١١٠]،

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: الآية: ١٤٣].

وهذا اللفظ وإن كان عاما فالمراد به الخاص وقيل: هو وارد في الصحابة دون غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: الآية: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: الآيات: ١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، (١/ ٨٩).

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى، (١/ ١٨٧).

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (١/ ١١).

وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآيات: ٨- ٩].

في آيات يكثر إيرادها، ويطول تعدادها.

ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة مثل ذلك، وأطنب في تعظيمهم وأحسن الثناء عليهم....

وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له ...

على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة، والجهاد، والنصرة، وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين.

وهذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء".(١)

قال القاضي عياض-رحمه الله-(ت: ٥٤٤ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، ولكنهم عدول، وما وقع منهم يُغفر لهم باجتهادهم وإخلاصهم".(٢)

قال ابن عساكر-رحمه الله-(ت: ٥٧١ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، ولكن عدالتهم ثابتة، وما وقع منهم يُغفر لهم باجتهادهم".(٣)

قال الإمام النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): "اتفق أهل السنة على أن الصحابة كلهم عدول، ولكن ليس معنى ذلك أنهم معصومون من الخطأ والذنوب، بل يُحتمل منهم الذنوب

(١) الكفاية في علم الرواية (ص: ٩٣-٩٦).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، (٢/ ٨٣).

(٣) تاريخ دمشق، (٢/ ٣٢٤).

والخطايا، ولكنهم لا يتعمدون الكذب في الرواية".[(١)]

قال الإمام النووي-رحمه الله-(ت: ٦٧٦ هـ): شـرحًا للحديث: "وما شـجر بينهم مغفور لهم، لأنهم عدول في نقل الدين، والاجتهاد مغفور خطؤه".[(٢)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الصـحابة ليسـوا معصـومين من الذنوب، بل يُغفر لهم مـا اجتهـدوا فيـه وأخطـأوا، فـإن الله يغفر لهم باجتهـادهم، وعـدالتهم لا تعني العصمة".[(٣)]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، بل يُحتمل منهم ما يُحتمل من غيرهم من البشر، ولكن عدالتهم ثابتة بالإجماع".[(٤)]

قال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين، بل يُحتمل منهم الخطأ، ولكنهم عدول في روايتهم، وعدالتهم لا تعني العصمة من الزلل".[(٥)]

قال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ): "كل من يُثبت للصـحابة العصـمة فقد غلط، فإنهم بشر يُصيبون ويُخطئون، وعدالتهم لا تعني العصمة من الذنوب".[(٦)]

قال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ): "الصحابة ليسوا بمعصومين، بل يُحتمل منهم الخطأ والزلل، ولكنهم عدول في نقل الدين ورواية الحديث".[(٧)]

قال ابن القيم-رحمه الله-(ت: ٧٥١ هـ): "الصـحابة ليسـوا معصـومين من الخطأ، بل لهم

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، (١٥/ ١٤٩).

(٢) الأربعين النووية، شرح الحديث رقم: (٨).

(٣) منهاج السنة النبوية، (٤/ ٥٤٨).

(٤) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٣١١).

(٥) ميزان الاعتدال، (١/ ٤).

(٦) تذكرة الحفاظ، (١/ ٣).

(٧) سير أعلام النبلاء، (١/ ١٢).

من الحسنات ما يُكفر سيئاتهم، وهم عدول فيما نقلوه، ولكن هذا لا يعني العصمة". [١]

قال ابن كثير-رحمه الله-(ت: ٧٧٤ هـ): "الصحابة كلهم عدول، وليسوا بمعصومين من الخطأ والزلل، ولكن اجتهادهم مغفور لهم، وذنوبهم مغمورة في بحار حسناتهم". [٢]

قال الشاطبي-رحمه الله-(ت: ٧٩٠ هـ): "ليس معنى عدالة الصحابة أنهم معصومون من الخطأ والذنوب، بل هم بشر، يُحتمل منهم ما يُحتمل من غيرهم، ولكن يُغفر لهم باجتهادهم، وما شجر بينهم مغفور لهم". [٣]

قال ابن حجر العسقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "الصحابة كلهم عدول، وما شجر بينهم مغفور لهم، لأنهم مجتهدون، ولكن لا يعني ذلك أنهم معصومون من الخطأ، بل قد يقع منهم الخطأ والزلل". [٤]

قال ابن حجر العسقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "الصحابة ليسوا معصومين، بل يُحتمل منهم الخطأ والزلل، ولكنهم عدول في نقل الحديث وما وقع منهم يُغفر باجتهادهم". [٥]

قال السيوطي-رحمه الله-(ت: ٩١١ هـ): "اتفق أهل السنة والجماعة على عدالة الصحابة، ولكن ذلك لا يعني العصمة من الخطأ والمعاصي، فإن العصمة خاصة بالأنبياء". [٦]

قال الشوكاني-رحمه الله-(ت: ١٢٥٠ هـ): "عدالة الصحابة ثابتة بالإجماع، ولكنها لا تعني العصمة من الخطأ، فقد يقع منهم الخطأ والزلل، ولكن يُغفر لهم باجتهادهم". [٧]

---

(١) إعلام الموقعين، (١/ ٧٨).

(٢) البداية والنهاية، (٨/ ٢٢١).

(٣) الاعتصام، (٢/ ١٨٩).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، (١/ ١٠).

(٥) فتح الباري (٧/ ٨٢).

(٦) تدريب الراوي، (٢/ ٢١٤).

(٧) نيل الأوطار، (١/ ٣٨).

هذه النقولات تؤكد أن عدالة الصحابة لا تعني العصمة، وأنهم قد يخطئون ويزلّون كغيرهم من البشر، ولكن يُغفر لهم ذلك بسبب اجتهادهم وعدالتهم في نقل الحديث والدين.

المسألة السادسة: الإمساك عما شجر بينهم.

عن عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-(ت: ١٠١ هـ)، أنه سئل عما جرى بين الصحابة، فقال لهم: "هذه دماء طهر الله سيوفنا منها؛ فنحن نطهر ألسنتنا منها".(١)

قال القرطبي-رحمه الله-(ت: ٦٧١ هـ): "لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم".(٢)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الآثار المروية فيما وقع بين الصحابة-رضي الله عنهم-تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- منها ما هو كذب.

٢- ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهته.

٣- والصحيح منها هم فيه معذورون أما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون".(٣)

ولهم-رضي الله عنهم-من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما صدر منهم.

قال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ): "كما تقرر الكف عن كثير مما تشجر بينهم وقتالهم-رضي الله عنهم-أجمعين وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف وبعضه كذب... فينبغي طيه وإخفاءه، بل إعدامه لتصفوا القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد

---

(١) فتح المغيث للسخاوى (٣/ ٩٦).

(٢) "تفسير القرطبي" (١٦/ ٣٢١).

(٣) انظر الواسطية لابن تيمية (ص: ١٢٠).

العلماء". إلى أن قال: "فأما ما نقله أهل البدع في كتبهم من ذلك فلا نعرج عليه ولا كرامة فأكثره باطل وكذب وافتراء".[(١)]

قال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ): "فبالله كيف يكون حال من نشأ في إقليم لا يكاد يشـــاهد فيه إلا غاليًا في الحب مفرطًا في البغض ومن أين يقع له الإنصـــاف والاعتدال؟! فنحمد الله على العافية الذين أوجدنا في زمان قد انمحص فيه الحق وأتضح من الطرفين وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين وتبصـرنا فعذرنا واسـتغفرنا وأحببنا باقتصـاد وترحمنا على البغاة بتأويل سائغ في الجملة أو بخطأ إن شاء الله مغفور وقلنا كما علمنا الله ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا وترضينا أيضا عمن اعتزل الفريقين كسـعد بن أبي وقاص وابن عمر ومحمد بن مسـلمة وسـعيد بن زيد وخلق وتبرأنا من الخوارج الذين حاربوا علياً وكفروا الفريقين".[(٢)]

عن ابن عباس-رضـي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، قال: "لا تسـبوا أصـحاب محمد فإن الله أمر بالاستغفار لهم وهو يعلم أنهم سيقتتلون".[(٣)]

روى الخطابي من طريق حمزة بن الحارث الدهان قال: حدثنا عبد الله بن روح المدائني قال: حدثنا يحي بن الصـامت قال: حدثنا أبو إسـحاق الفزاري عن الأعمش عن أبي راشـد قال: جاء رجل من أهل البصـرة إلى عبيد الله بن عمر، فقال: إن رسـول إخوانك من أهل البصـرة إليك فإنهم يقرءونك الســـلام ويســـألونك عن أمر هذين الرجلين علي وعثمان وما قولك فيهما. فقال: هل غير. قال: لا. قال: جهزوا الرجل فلما فرغ من جهازه قال: أقرأ - عليهم السـلام - وأخبرهم أن قولي فيهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا

---

(١) السير (١٠/ ٩٢-٩٣).

(٢) السير (٣/ ١٢٨).

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٦٩)، (٢/ ١١٥٢). والإبانة لابن بطة (٢٩٤). وانظر: الصارم المسلول (٣/ ١٠٧١).

تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: الآية: ١٤١].(١)

عن شـــهاب بن خراش بن حوشـــب-رحمه الله-(ت: قبل: ١٨٠ هـ) ابن أخي العوام بن حوشب قال: "أدركت من أدركت من صدر هذه الأمة وهم يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسـول الله-صـلى الله عليه وسـلم-ما تأتلف عليه القلوب، ولا تذكروا الذي شـجر بينهم فتحرشوا الناس عليهم".(٢)

وقيل للإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية - رحمهما الله -؟ قال: ما أقول فيها إلا الحسنى-رحمهم الله-أجمعين".(٣)

وفي ترجمة الحســن بن إسماعيل الربعي: قال. قال لي أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، إمام أهل السنة والصابر تحت المحنة: - "أجمع تسعون رجلًا من التابعين وأئمة المسلمين، وأئمة السلف، وفقهاء الأمصار على: .... والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، وأفضل الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم-أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عم رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، والترحم على جميع أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وأزواجه، وأصهاره-رضوان الله عليهم أجمعين-فهذه السنة الزموها، تلموا أخذها هدى، وتركها ضلالة".(٤)

عن أبي القاسم إسحاق بن إبراهيم بن آزر الفقيه (ت: ٢٧٥ هـ) حدثني أبي قال: حضرت أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وسـأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية فأعرض عنه. فقيل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشـــم فأقبل عليه. فقال: أقرأ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ

---

(١) كتاب العزلة (٤٤).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٤) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٢/ ٢١٥)، وله طريق آخر. فرواه الخلال في السنة (ص: ٥١٣) عن العوام بن حوشب قال: اذكروا محاسن أصحاب محمد-صلى الله عليه وسلم-تأتلف عليه قلوبكم، ولا تذكروا غيره فتحرشوا الناس عليهم.

(٣) رواه الخلال في السنة (٢/ ٤٦٠)، وابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (١٦٤). وسنده صحيح.

(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٣٤٩).

خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: الآية: ١٤١]".[١]

قال اللالكائي-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ): "أخبرنا محمد بن المظفر المقري قال: حدثنا الحسين بن محمد بن حبش المقري قال: حدثنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سألت أبي (ت: ٢٧٧ هـ)، وأبا زرعة-رحمه الله-(ت: ٢٦٤ هـ) عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك. فقالا: "أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً فكان من مذهبهم الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته والقدر خيره وشره من الله-عز وجل-وخير هذه الأمة بعد نبيها-عليه الصلاة والسلام-أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب-عليهم السلام-، وهم الخلفاء الراشدون المهديون وأن العشرة الذين سماهم رسول الله وشهد لهم بالجنة على ما شهد به رسول الله وقوله الحق والترحم على جميع أصحاب محمد والكف عما شجر بينهم...".[٢]

وقال البربهاري-رحمه الله-(ت: ٣٢٩ هـ): "والكف عن حرب علي ومعاوية وعائشة وطلحة والزبير-رحمهم الله-أجمعين ومن كان معهم ولا تخاصم فيهم وكل أمرهم إلى الله-تبارك وتعالى-".[٣]

قال ابن بطة-رحمه الله-(ت: ٣٨٧ هـ): "ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٤٤)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٩/ ١٤١)، وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ٢٥١).

(٢) أصول اعتقاد أهل السنة (ص: ٣٢١).

(٣) شرح السنة (ص: ١٠٢).

سيكون منهم وأنهم سيقتتلون وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم ولا تنظر في كتاب صفين والجمل ووقعة الدار وسائر المنازعات التي جرت بينهم ولا تكتبه لنفسك ولا لغيرك ولا تروه عن أحد ولا تقرأه على غيرك ولا تسمعه ممن يرويه فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة من النهي عما وصفناه منهم: حماد بن زيد ويونس بن عبيد وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبدالله بن إدريس ومالك بن أنس وابن أبي ذئب وابن المنكدر وابن المبارك وشعيب بن حرب وأبو إسحاق الفزاري ويوسف بن أسباط وأحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وعبدالوهاب الوراق. كل هؤلاء قد رأوا: النهي عنها والنظر فيها والاستماع إليها وحذروا من طلبها والاهتمام بجمعها. وقد روى عنهم فيمن فعل ذلك أشياء كثيرة بألفاظ مختلفة المعاني على كراهية ذلك والإنكار على من رواها واستمع إليها". [(١)]

قال الإمام الصابوني -رحمه الله- (ت: ٤٤٩ هـ): "ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبًا لهم ونقصًا فيهم". [(٢)]

يقول الإمام الآمدي -رحمه الله- (ت: ٦٣١ هـ): "فالواجب أن يحمل كل ما جرى بينهم من الفتن على أحسن حال، وإن كان ذلك إنما لما أدى إليه اجتهاد كل فريق من اعتقاده أن الواجب ما صار إليه، وأنه أوفق للدين وأصلح للمسلمين.

وإلا فجمهور الصحابة وسادتهم تأخروا عن تلك الفتن والخوض فيها كما قال محمد بن سيرين -رحمه الله- (ت: ١١٠ هـ): "هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عشرة آلاف فما حضر منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين". وإسناد هذه الرواية كما قال

---

(١) كتاب الإبانة (ص: ٢٩٤).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ٢٩٤).

ابن تيمية أصح إسناد على وجه الأرض".[١]

وعلى هذا فالذى خاض فى تلك الفتن من الصحابة إما أن يكون كل مجتهد مصيبًا، أو أن المصيب واحد، والآخر مخطئ في اجتهاده مأجور عليه.

وعلى كلا التقديرين، فالشـــهادة والرواية من الفريقين لا تكون مردودة، إما بتقدير الإصـــابة فظاهر، وإما بتقدير الخطأ مع الاجتهاد فبالإجماع".[٢]

يقول الإمام الجويني-رحمه الله-(ت: ٤١٩ هـ): "أما التوقف في تعديل كل نفر من الذين لابســوا الفتن، وخاضــوا المحن، ومتضــمن هذا، الانكفاف عن الرواية عنهم، فهذا باطل من دين الأمة، وإجماع العلماء على تحسـين الظن بهم، وردهم إلى ما تمهد لهم من المآثر بالســبيل السابقة، وهذا من نفائس الكلام".[٣]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ولهذا كان من مذاهب أهل الســـنة الإمســـاك عما شجر بين الصحابة، فإنه قد ثبتت فضائلهم، ووجبت موالاتهم ومحبتهم، وما وقع: منه ما يكون لهم فيه عذر يخفى على الإنســـان، ومنه ما تاب صـــاحبه منه، ومنه ما يكون مغفورا، فالخوض فيما شـــجر يوقع في نفوس كثير من الناس بغضـــا وذما، ويكون هو في ذلك مخطئا، بل عاصـــيا، فيضـــر نفســـه، ومن خاض معه في ذلك.. ولهذا كان الإمســـاك طريقة أفاضـــل السلف".[٤]

قال ابن حجر العسـقلاني-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "واتفق أهل السـنة على وجوب منع

---

(١) منهاج السنة (٣/ ١٨٦).

(٢) الإحكام للآمدى (٢/ ٨٢) بتصــرف وانظر: فواتح الرحموت (٢/ ١٥٥-١٥٦)، والبحر المحيط (٤/ ٢٩٩)، وإرشــاد الفحول (١/ ٢٧٥)، والباعث الحثيث (ص: ١٥٤)، وعقيدة أهل السنة فى الصـحابة الكرام للدكتور ناصـر الشـيخ مبحث "الحرب التى دارت بين على بن أبي طالب، وبعض الصـــحابة-رضـــى الله عنهم-وموقف أهل الســـنة منها" (٢/ ٧٠٠ – ٧٤٨)، وانظر: الرد القويم على المجرم الأثيم للشيخ التويجرى (ص: ١٨٢-١٨٤).

(٣) البرهان فى أصول الفقه (١/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٤) منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٤٨-٤٤٩).

الطعن على أحد من الصـــحابة بســـبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد عفا الله – تعالى –عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً وأن المصيب يؤجر أجرين". [(١)]

(١) الفتح (١٣/ ٣٧).



من طعن في الصحابة فهو رافضي مبتدع

[٧٥]- قال المصنف رحمه الله: فمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ أو أحداً منهم أو تنقصه أو طعن عليهم، أو عرَّض بعيبهم أو عاب أحداً منهم بقليل أو كثير؛ أو دقٍّ أو جِلٍّ مما يتطرق به إلى الوقيعة في أحد منهم فهو مبتدع رافضي خبيث، مخالف لا قَبِلَ الله صرفه ولا عدله؛ بل حبهم سُنَّة والدعاء لهم قُربة والاقتداء بهم وسيلة والأخذ بآثارهم فضيلة.

الشرح

من علاماتِ أهل البدع الطعنُ في أصحابِ النبي ﷺ والخوض فيما وقعَ بينهم، فإذا رأيت الإنسان يطعنُ في أصحاب النبي أو يخوض فيما حدث بينهم فاعلم أنه صاحب بدعة.

وقد عرف الطعن في الصحابة عن الروافض والخوارج والمعتزلة

أما الرافضة فشعارهم الطعن في سائر الصحابة – عدا آل البيت – وغلاتهم من السبئية والبيانية وغيرهم قد حكم علماء الإسلام عليهم بالردة والخروج من الدين بالكلية.

والإمامية منهم ادعت ردة أكثر الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما الخوارج: فتكفيرهم لعلي وأكثر الصحابة رضي الله عنهم واستباحتهم لدمائهم وأموالهم مشهور معلوم، بل ساقوا الكفر إلى كل من أذنب من هذه الأمة.

أما المعتزلة: فقد طعن زعيمهم النظام في أكثر الصحابة وأسقط عدالة ابن مسعود، وطعن في فتاوى علي بن أبي طالب، وثلب عثمان بن عفان، وطعن في كل من أفتى من الصحابة بالاجتهاد، وقال: إن ذلك منهم إنما كان لأجل أمرين:

الأمر الأول: إما لجهلهم بأن ذلك لا يحل لهم.

الأمر الثاني: وإما لأنهم أرادوا أن يكونوا زعماء وأرباب مذاهب تنسب إليهم.

فنسب خيار الصحابة إلى الجهل أو النفاق، ثم إنه أبطل إجماع الصحابة ولم يره حجة، وأجاز

أن تجتمع الأمة على الضلالة[١].

وأيضا – كان زعيمهم واصل بن عطاء الغزال يشكك في عدالة علي وابنيه، وابن عباس، وطلحة، والزبير، وعائشة وكل من شهد حرب الجمل من الفريقين، فقال مقالته المشهورة: لو شهد عندي علي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق ولا أعرفه بعينه.

ووافقه على ذلك صاحبه عمرو بن عبيد وزاد عليه بأن قطع بفسق كل من الفريقين، وأطلق عمرو بن عبيد على ابنِ عمر أنه من الحشوية[٢] [٣].

ومن بعض فرق المتكلمين من حمل هذا النفس ممن يدعي في طريقة الخلف العلم والإحكام، وفي طريقة السلف السلامة دون العلم والإحكام، يلزمهم تجهيل السلف من الصحابة والتابعين وهو طعن فيهم من هذا الوجه. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله –بعد أن حكى عنهم هذا الكلام–: "ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض"[٤].

---

(١) فضل الإجماع ص ١٤٠

(٢) قال ابن تيمية: "وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: "حَشْـوِيَّةٌ" فَهَذَا اللَّفْظُ لَيْسَ لَهُ مُسَـمًّى مَعْرُوفٌ لَا فِي الشَّـرْعِ وَلَا فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي الْعُرْفِ الْعَامِّ؛ وَلَكِنْ يُذْكَرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَذَا اللَّفْظِ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ. وَقَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ حَشْـوِيًّا. وَأَصْلُ ذَلِكَ: أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ قَالَتْ قَوْلًا تُخَالِفُ بِهِ الْجُمْهُورَ وَالْعَامَّةَ يُنْسَبُ إلَى أَنَّهُ قَوْلُ الْحَشْوِيَّةِ أَيْ الَّذِينَ هُمْ حَشْوٌ فِي النَّاسِ لَيْسُوا مِنْ الْمُتَأَهِّلِينَ عِنْدَهُمْ؛ فَالْمُعْتَزِلَةُ تُسَمِّي مَنْ أَثْبَتَ الْقَدَرَ حَشْوِيًّا وَالْجَهْمِيَّة يُسَمُّونَ مُثْبِتَةَ الصِّفَاتِ حَشْوِيَّةً وَالْقَرَامِطَةُ -كَأَتْبَاعِ الْحَاكِمِ -يُسَمُّونَ مَنْ أَوْجَبَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ حَشْـوِيًّا. وَهَذَا كَمَا أَنَّ الرَّافِضَـةَ يُسَـمُّونَ قَوْلَ أَهْلِ السُّـنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ قَوْلَ الْجُمْهُورِ وَكَذَلِكَ الْفَلَاسِـفَةُ تُسَـمِّي ذَلِكَ قَوْلَ الْجُمْهُورِ "فَقَوْلُ الْجُمْهُورِ وَقَوْلُ الْعَامَّةِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. فَإِنْ كَانَ قَائِلُ ذَلِكَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْخَاصَّةَ لَا تَقُولُهُ؛ وَإِنَّمَا تَقُولُهُ الْعَامَّةُ وَالْجُمْهُورُ فَأَضَافَهُ إلَيْهِمْ وَسَمَّاهُمْ حَشْـوِيَّةً. وَالطَّائِفَةُ تُضَـافُ تَارَةً إلَى الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ مَقَالَتِهَا كَمَا يُقَالُ: الْجَهْمِيَّة والإباضـية والأزارقة والْكُلَّابِيَة وَالْأَشْـعَرِيَّةُ والكَرَّامِيَة وَيُقَالُ فِي أَئِمَّةِ الْمَذَاهِبِ: مَالِكِيَّةٌ وَحَنَفِيَّةٌ وَشَـافِعِيَّةٌ وَحَنْبَلِيَّةٌ. وَتَارَةً تُضَـافُ إلَى قَوْلِهَا وَعَمَلِهَا كَمَا يُقَالُ: الرَّوَافِضُ وَالْخَوَارِجُ وَالْقَدَرِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَلَفْظَةُ الْحَشْوِيَّةِ لَا يَنْبَنِي لَا عَنْ هَذَا وَلَا عَنْ هَذَا." مجموع الفتاوى١٢/ ١٧٦

(٣) انظر الفرق بين الفرق ص/١٢١، التبصـير في الدين ص٦٩، الملل والنحل للشـهرسـتاني ١/٤٩.ميزان الاعتدال ٣/٢٧٥ عقيدة أهل السنة في الصحابة الجزء: ٢ / ٨٢٠..

(٤) مجموع الفتاوى ٤ / ١٥٧



المفاضلة بين الصحابة

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله -عز وجل-.

المسألة الثانية: المفاضلة بين الصحابة.



[٧٦]- قال المصنف رحمه الله: وخير الأمة بعد النبي ﷺ: أبو بكر، وخيرهم بعد أبي بكر: عمر، وخيرهم بعد عمر: عثمان.

[٧٧]- وقال قوم من أهل العلم وأهل السُّنة: وخيرهم بعد عثمان علي.

[٧٨]- ووقف قوم على عثمان.

الشرح

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله-عز وجل-.

المفاضـــلة بين العباد أمرٌ بيد الله-عز وجل-وما كان بيد الله-عز وجل-فهو ملكه، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: الآية: ٦٨]، فالله اختار أن يفضل فلان على فلان من الناس وهذه المفاضلة قد تكون في المال، وقد تكون في العلم، وقد تكون في النسب، وقد تكون في أمورٍ متعددة فهذا فضل الله سبحانه وتعالى، وفضل الله يؤتيه من يشاء سبحانه وتعالى.

والله سـبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: الآية: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: الآية: ٧١].

وكتب عمر-رضي الله عنه-رسالة إلى أبي موسى الأشعري، يقول له فيها: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلًا، فيبتلي من بسط له، كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله، رواه ابن أبي حاتم.(١)

(١) الدر المنثور: (٥/ ١٠٦) وعزاه لابن أبي حاتم.

فقد يُفاضل الله-سبحانه وتعالى-بين الذكر والأنثى، قد يفاضل الله-سبحانه وتعالى-بين الإخوة، وقد يفاضل الله-سبحانه وتعالى-بين بني الجنس الواحد، كل ذلك تحت قدرته، وتحت إرادته-سبحانه وتعالى-حتى في الأولاد، ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: الآيتان: ٤٩-٥٠]، فقد يكون الإنسان عقيمًا، وقد يكون ذا أولاد من الذكور أو الإناث أو من الذكور والإناث.

فالإنسان في هذا الكون يسير على قدر الله-سبحانه وتعالى-، والله-سبحانه وتعالى-هو المتصرف والمدبر لأمر هذا الكون كله، وكله ابتلاء، فالنعمة ابتلاء وضدها ابتلاء، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية: ٢]، كل أمرٍ نحن فيه هو ابتلاء.

ليرى الله عز وجل منك ما أنت صانع وما أنت فاعل، فإذاً هذه المفاضلة موجودة، ولا شك أن أهل الإيمان أفضل من الكفار، وأكبر نعمة منها الله عز وجل على الإنسان أن هداه لهذا الدين، والله سبحانه وتعالى سماه نعمة، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية: ٣]، فسماها نعمة ولا شك أنها أعظم النعم على العبد أن هداه الله-عز وجل-لنعمة الإسلام.

المسألة الثانية: المفاضلة بين الصحابة.

والصحابة هم في الفضل متفاوتون؛ فمن أنفق قبل الفتح (صُلح الحديبية) لا يستوي مع مَن أنفق بعده، وكذلك المهاجرون مُقدَّمون على الأنصار، ويأتون في الفضل على مراتب؛ فأهل بدر، ثم أهل بيعة الرِّضوان، ثم من جاء بعدُ.

وقد جاء في فضل أهل بدر؛ قوله-صلى الله عليه وسلم-: **(لعلَّ اللهَ اطَّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شِئتم، فقد وَجَبت لكم الجنة-أو-فقد غفرتُ لكم)**.[(١)]، وقال الله-جل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣) ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-.

وعلا-عن أهل بيعة الرضـوان: ﴿لَقَدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّـجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: الآية: ١٨]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

أولاً: هذه المسائل المتعلقة بالمفاضلة بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يذكرها العلماء دائماً توطئة لمسائل الخلافة والإمامة.

فمسألة تفضيل أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم على باقي الصحابة، ويدخل فيها مسألة تفضيل عثمان على علي.

وأهل السنة يعتقدون بأن خير هذه الأمة بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-أبو بكر وعمر وعثمان، ثم علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، ثم بعد ذلك يأتي بقية العشرة، ثم يأتي بعد هذا أهل بدر، ثم يأتي بعد ذلك أهل بيعة شجرة الرضوان، ثم بعد ذلك يأتي أهل الفتح فتح مكة ثم بعد ذلك يتوالى الفضل بحسب أقدمية ذلك الذي أسلم من الصحابة.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "ويقرُّون بما تَوَاتَرَ به النَّقْلُ عن أميرِ المؤمنينَ عليّ بْنِ أبي طالبٍ-رضي الله عنه-وغيرِه، مِن أَنَّ خَيْرَ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّهَا: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثَلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ-رضي الله عنهم أجمعين-، كما دلَّت عليه الآثارُ".(١)

وقد أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، وإن كان بعض السلف قد اختلفوا في التفضيل بين عثمان وعلي-فإنهم لم يختلفوا في الترتيب في البيعة للخلافة، وكل مَن خالف الترتيب في الخلافة فإنه من أهل البدع.

وترتيب أهل السنة: "أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثَلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ-رضي الله عنهم أجمعين-".

وإن كان ثَمَّ خلاف في التفضيل بين عثمان وعليٍّ، ولكنه لا يترتب عليه أي أثر في

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٩١).

الانتساب لأهل السنة؛ "فقدَّم قومٌ عثمانَ، وسكتوا، وربَّعوا بعليٍّ، وقدَّم قومٌ عليًّا، وقومٌ توقَّفوا، لكن استقرَّ أمرُ أهلُ السُّنَّة على تقديم عُثْمَان ثم عليٍّ".

كانتْ هذه المسْألَةُ (مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وعليٍّ) ليستْ من الأصولِ التي يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عند جمهورِ أَهْلِ السُّنَّة، لكن التي يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ؛ وذلك لأنهم يؤمنون أنَّ الخليفةَ بَعْدَ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ومَن طَعَنَ في خلافة أحدٍ مِن هؤلاء فهو أضلُّ مِن حِمَارِ أَهْلِهِ).

فلهم مِن الفضل ومِن المكانة ما هو مُجمع عليه بين أهل السُّنَّة.

ثانيًا: ذكر تفاضل الأربعة رضوان الله عليهم.(١)

أجمع الصحابة -رضوان الله عليهم- على تفضيل أبي بكر وتقديمه على سائر الصحابة ثم تفضيل عمر بعده على عثمان ثم عثمان بعد عمر على من بعده -رضوان الله عليهم-، وكانوا يتحدثون بذلك في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يسمعهم فلا ينكره، ثم أجمعوا على تقديم علي بعد عثمان فقدموه وبايعوه بالخلافة.

فالصحابة مجمعون على تفضيل أبي بكر على عمر ثم عمر على عثمان ثم عثمان على علي -رضي الله عنهم أجمعين-، وتفضيل أبي بكر على عمر بلا خلاف.

ولقد اتفق -الناس- الصحابة وغيرهم -بعد مقتل عمر -رضي الله عنه- على تفضيل عثمان، حكى هذا الاتفاق صاحب رسول الله -صلى عليه وسلم-، عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهما-، أما عبد الرحمن فقد قال في قصة بيعة عثمان -رضي الله عنه- لما اختاره للخلافة بعد عمر: "أما بعد، يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان".(٢) وكان قد قال -رضي الله عنه- قبل ذلك للشيخين عثمان وعلي -رضي الله

---

(١) المصدر: مباحث المفاضلة في العقيدة: (ص: ٢٥٢-٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري انظره مع الفتح (١٣/ ١٩٤)، وقد كان عبد الرحمن -رضي الله عنه- قد اجتهد غاية الاجتهاد قال ابن كثير في الباعث الحثيث (ص: ١٥٥): "حتى سأل النساء في خدورهن والصبيان في المكاتب فلم يرهم يعدلون بعثمان أحدًا".

عنهما-حين التشـــاور: "أفتجعلونه-(يعني أمر الاختيـار)-إلي والله على أن لا آلو عن أفضلكم". [١] وقال عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-لما استخلف عثمان: " أمرنا خير من بقي ولم نأل". [٢] وقال-رضي الله عنه-: "إنا اجتمعنا أصحاب محمد فلم نأل عن خيرنا ذي فوق فبايعنا أمير المؤمنين عثمان". [٣]

وقال الإمام أحمد: "لم يكن بين أصـــحاب رســـول الله اختلاف إن عثمان أفضـــل من علي". [٤]

ومضى اعتقاد أهل السنة والجماعة على ذلك إلا ما كان من خلاف يسير في المفاضلة بين عثمان وعلي أيهما أفضـل؟ بعد أن أجمعوا على تقديم أبي بكر وعمر عليهما في الفضـل بلا خلاف.

وتفضيل أبي بكر على عمر بلا خلاف.

قال الشــافعي-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ): "ما اختلف أحد من الصـــحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة وإنما اختلف من اختلف منهم في علي وعثمان". قال البيهقي-رحمه الله-(ت: ٤٥٨ هـ)، -بعد ذكره قول الشـافعي هذا بسـنده-: "وروينا عن جماعة من التابعين وأتباعهم نحو هذا". [٥]

وقال يحيى بن سعيد القطان-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ): "من أدركت من أصحاب النبي

---

(١) أخرجه البخاري انظره مع الفتح (٧/ ٦١).

(٢) أخرجه أحمد في فضـائل الصـحابة (١/ ٤٦١)، قال المحقق: "إسـناده صـحيح"، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٦٣)، والفسـوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٧٦٠)، والخلال في السـنة (ص: ٣٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٨): "رواه الطبراني بأسـانيد ورجال أحدها رجال الصحيح"، وأخرجه اللالكائي في الشرح (٧/ ١٣٤٢).

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٩٦، ٤٦٣)، قال المحقق في (ص: ٢٩٦): "رجال الإسناد ثقات، وقال في (ص: ٤٦٧): "إســـناده حســـن"، وأخرجه ابن ســـعد في الطبقات (٣/ ٦٣)، والفســـوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٧٦١)، وأخرجه اللالكائي في الشرح.(٧/ ١٣٤٢).

(٤) السنة للخلال (ص: ٣٩٢).

(٥) الاعتقاد (ص: ٣٦٩).

والتابعين لم يختلفوا في أبي بكر وعمر وفضلهما إنما كان الاختلاف في علي وعثمان[(١)] والخلاف الذي وقع في ذلك خلاف يسير، وما وقع إلا في المفاضلة بينهما، وتقديم أحدهما على الآخر في الفضل دون الخلافة، فإنهم مجمعون بلا خلاف على تقديم عثمان على علي في الخلافة، وعلى صحة الخلافتين، ثم إن ذاك الخلاف قد انقضى واستقر أمر أهل السنة على تفضيل عثمان على علي ورجع بعض من قال بتقديم علي إلى تقديم عثمان.

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي-رضي الله عنهما-بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر، أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليا، وقوم توقفوا، قال: "لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان على علي، وإن كانت هذه المسألة-مسألة عثمان وعلي-ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله".[(٢)]

قال ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "الإجماع انعقد بأخره بين أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة".[(٣)]

وروى ابن عبد البر-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ) بسنده أن مالكًا سُئل: من تقدم بعد رسول الله؟ قال أقدم أبا بكر وعمر ولم يزد على هذا. وروى أيضا قول مالك: "ليس من أمر الناس الذين مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس".[(٤)]

ولقد روى الخلال-رحمه الله-(ت: ٣١١ هـ) بسنده عن أيوب السختياني-رحمه الله-

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧/ ١٣٦٧).

(٢) العقيدة الواسطية-ضمن المجموعة العلمية السعودية-(ص: ٨٦).

(٣) فتح الباري (٧/ ٣٤).

(٤) الانتقاء (ص: ٣٠، ٣٩).

(ت: ١٣١ هـ) أنه قال: "دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد وسليمان وغيرهما فما رأيت أحدًا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان".[١]

هذا، وقد ذكر **ابن حزم**–**رحمه الله**–**(ت: ٤٥٦ هـ)** [٢] عن بعض السلف من الصحابة وغيرهم سمى بعضهم، أن منهم من قال: أفضل الناس بعد النبي–صلى الله عليه وسلم–جعفر بن أبي طالب ومنهم من قال وبعد جعفر حمزة، وأن منهم من قال إن أفضل الناس بعد النبي–صلى الله عليه وسلم–عبد الله بن مسعود، وغير ذلك مما ذكره ابن حزم عن بعض السلف من غير أن يذكر إسنادًا؛ لما رواه عنهم.

قال ابن تيمية–**رحمه الله**–**(ت: ٧٢٨ هـ)**: "وأما ما يحكي عن بعض المتقدمين من تقديم جعفر وتقديم طلحة أو نحو ذلك فذلك في أمور مخصوصة لا تقديمًا عامًا وكذلك ما ينقل عن بعضهم في علي".[٣]

ويشهد لما قاله ابن تيمية من كلام **ابن حزم**–**رحمه الله**–**(ت: ٤٥٦ هـ)** نفسه فقد حمل ما ورد عن أم سلمة–رضي الله عنها–في ذكرها زوجها قبل النبي–صلى الله عليه وسلم–على أنه مذهبها في التفضيل، قال: "وروينا عن أم سلمة أم المؤمنين–رضي الله عنها–(ت: مابين ٥٧ إلى ٦٤ هـ)، أنها تذكرت الفضل ومن هو خير فقالت: ومن هو خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله–صلى الله عليه وسلم–[٤]، والمروي عن أم سلمة في ذلك ما جاء في سياق قصة زواجها بالنبي–صلى الله عليه وسلم–من قولها: "فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منه"، قال: "ثم رجعت إلى نفسي قلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله–صلى الله

(١) السنة (ص: ٤٠٣).
(٢) انظر الفصل (٤/ ١١١).
(٣) منهاج السنة (٢٢/ ٧٤).
(٤) الفصل (٤/ ١١١).

عليه وسلم-، فذكرت قصة خطبة النبي لها ثم زواجها منه-صلى الله عليه وسلم-حتى قولها: "فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه رسول الله-صلى الله عليه وسلم-"(١) وحمل ما ورد في هذه الرواية عن أم سلمة أنه مذهبها وقولها في أفضل الناس بعد رسول الله-كما حمله ابن حزم-عجيب غاية العجب، ولقد وردت أحاديث في تفضيل أعيان من الصحابة كل واحد في أمر مخصوص كما في حديث: (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبي ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح).(٢) ونحو ذلك من الأحاديث ومن قال من السلف مثلا أفرض الصحابة زيد فليس هذا قول منه بأنه أفضل الصحابة بعد النبي وإن توهم الواهم ذلك.

وقد روى الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ) بسنده **عن أبي هريرة-رضي الله عنه-(ت: ٥٧ هـ)**، أنه قال: "وما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا ركب الكور رجل أفضل من جعفر". ثم **قال الذهبي-رحمه الله-(ت: ٧٤٨ هـ)**: "هذا ثابت عن أبي هريرة، ولا ينبغي أن يزعم زاعم أن مذهبه: أن جعفرًا أفضل من أبي بكر وعمر، فإن هذا الإطلاق ليس هو على عمومه، بل يخرج منه الأنبياء والمرسلون، فالظاهر أن أبا هريرة لم يقصد أن يدخل أبي بكر ولا عمر-رضي الله عنهم-".(٣)

ومن قبيل ما ذكره **ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) ما حكاه الخطابي-رحمه الله-(ت: ٣٨٨ هـ)** عن بعض المتأخرين إذ قال: "وللمتأخرين في هذا مذاهب، منهم من قال بتقديم أبي بكر من جهة الصحابة وبتقديم علي من جهة القرابة".

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٧، ٢٨)، (٦/ ٣١٣، ٣١٧، ٣٢١)، والحاكم (٤/ ١٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر الفتح الرباني (٢١/ ٦٧، ٦٨)، وأصله في صحيح مسلم (٢/ ٦٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٦٢٣)، وابن ماجه (١/ ٢٥٥)، وأحمد في المسند (٣/ ١٨٤، ٢٨١).

(٣) السير (١٤/ ٥٠٦).

قال: وكان بعض مشـــايخنا يقول: أبو بكر خير وعلي أفضـــل قال: وباب الخيرية غير باب الفضيلة، قال: وهذا كما تقول: إن الحر الهاشمي أفضل من العبد الرومي والحبشي، وقد يكون العبد الحبشـــي خيرًا من هاشمي في معنى الطاعة لله والمنفعة للناس، فباب الخيرية متعد وباب الفضيلة لازم[١] وهذا الذي حكاه الخطابي هو في معنى ما تقرر من أنه قد تكون في المفضول فضيلة لا توجد في الفاضـل من غير أن ينال ذلك من تفضـيل الفاضـل على المفضـول، والله أعلم.

وكان **ابن عبد البر–رحمه الله–(ت: ٤٦٣ هـ)** قال: "اختلف السـلف أيضـا في تفضـيل علي وأبي بكر".[٢]

قال الزركشـي–رحمه الله–(ت: ٧٩٤ هـ): "قد غلط في ذلك ووهم"[٣] كيف وهو نفسه ممن نقل اجتماع السلف والخلف على أن عليا أفضل الناس بعد عثمان".[٤]

وحاصـل ما كان عليه أهل السـنة في المفاضـلة بين عثمان وعلي وقبل انعقاد إجماعهم على تفضيل عثمان ثلاثة مذاهب:

الأول: تفضيل عثمان ثم علي–وكان مذهب الجمهور.

الثاني: تفضيل علي ثم عثمان–وكان قد ظهر في أهل الكوفة.

الثالث: التوقف عن المفاضلة بينهما، وكان قد ظهر في أهل المدينة.

فالمذهب الأول: هو الذي كان عليه عامة أهل الســـنة كما قال ابن عبد البر–رحمه الله–

---

(١) معالم السنن–بهامش المختصر– (٧/ ١٨، ١٩).

(٢) الاستيعاب –بهامش الإصابة– (٣/ ٥٢).

(٣) الإجابة (ص: ٥٤).

(٤) انظر الاستيعاب (٣/ ٥٢).

(ت: ٤٦٣ هـ) [١] والخطابي-رحمه الله-(ت: ٣٨٨ هـ) [٢]، وابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ)[٣] وغيرهم، وفي هؤلاء من توقف في التفضيل عند عثمان فقال بتفضيل عثمان بعد عمر وسكت على ذلك، مع اعتقاده بالتربيع بعلي، وإنما قصد بالتوقف عند عثمان الاقتداء بحديث ابن عمر المتقدم، وهم لا يقدمون على علي أحدًا بعد الثلاثة، ومن هؤلاء أحمد بن حنبل-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ)، وصـــرح رحمه الله بأن التوقف عند عثمان إنما هو عمل بحديث ابن عمر فقال: نقول أبو بكر وعمر وعثمان ونسكت، على حديث ابن عمر". [٤]

وقال رحمه الله: "فإن قال قائل من بعد عثمان؟ قلت: علي". [٥]

وقال-رحمه الله-لمن ســـأله عمن قال: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، قال: "أذهب إليه، ويعجبني أن أقول أبو بكر وعمر وعثمان وأســـكت، وإن قال رجل: وعلي، لم أعنفه، ولا يعجبني هذا القول".

قال ابن عمر-رضي الله عنه-(ت: ٧٣ هـ): "أبو بكر وعمر وعثمان، ونترك أصحاب رسول الله له لا نفضل بينهم". [٦]

وقال-رحمه الله-: "من وقف على عثمان ولم يربع بعلي فهو على غير السنة". [٧]

وهذا المسلك مروي عن جماعة من أئمة أهل السنة كيحيى بن معين-رحمه الله-(ت: ٢٣٣ هـ)، وبشر بن الحارث-رحمه الله-(ت: ٢٢٧ هـ)، ويزيد بن زريع-رحمه الله-(ت: ١٨٢ هـ)، ومحمد بن عبيد-رحمه الله-(ت: ٢٠٤ هـ)، وعبد الله بن المبارك-رحمه الله-(ت: ١٨١ هـ)،

---

(١) الاستيعاب (٣/ ٥٤).

(٢) معالم السنن -بهامش المختصر- (٧/ ١٨).

(٣) فتح الباري (٧/ ١١).

(٤) السنة للخلال (ص: ٣٩٧).

(٥) السنة للخلال (ص: ٤٠٥).

(٦) السنة للخلال (ص: ٤-٥).

(٧) طبقات الحنابلة (١/ ٣١٣).

وغيرهم[١]، وسبق بيان أن ما ورد في حديث ابن عمر من السكوت عن علي متأول بأمور منها أن الإجماع المنعقد على تقديم علي بعد عثمان إنما حدث بعد الزمن الذي قيده ابن عمر.

وأما المذهب الثاني: وهو تفضيل علي ثم عثمان بعد أبي بكر وعمر فهو كان مذهب عامة أهل الكوفة.

قال الخطابي-رحمه الله-(ت: ٣٨٨ هـ): "ذهب أكثر أهل الكوفة إلى تقديمه-يعني عليا-على عثمان رضي الله عنهما قال: "وحدثني محمد بن هاشم حدثنا أبو يحي بن أبي ميسرة عن عبد الصمد قال: قلت **لسفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)**: "ما قولك في التفضيل؟ فقال: أهل السنة من أهل الكوفة يقولون: أبو بكر وعمر وعلي وعثمان، وأهل السنة من أهل البصرة يقولون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، قلت: فما تقول أنت؟ قال: أنا رجل كوفي.

قال الخطابي-رحمه الله-(ت: ٣٨٨ هـ): "قلت: وقد ثبت عن سفيان أنه قال في آخر قوليه: "أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم".[٢]، وكما رجع سفيان الثوري رجع غيره من أهل الكوفة. كما قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "إن سفيان الثوري وطائفة من الكوفة رجحوا علياً ثم عثمان، ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره".[٣]

وقال ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "ذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان، وممن قال به سفيان الثوري-رحمه الله-(ت: ١٦١ هـ)، ويقال إنه رجع عنه، وقال به ابن خزيمة-رحمه الله-(ت: ٣١١ هـ)، وطائفة قبله وبعده[٤]

---

(١) انظر السنة للخلال (٣٩٧، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤١٠)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧/ ١٣٨٩، ١٣٩٢، ١٣٦٩).

(٢) معالم السنن-بهامش المختصر-(٧/ ١٨).

(٣) الفتاوى ٤/ ٤٢٦؛ وانظر منهاج السنة (٢/ ٧٣، ٧٤).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٦) وانظر الباعث الحثيث (ص: ١٥٦).

هذا وقد **روى الخلال-رحمه الله-(ت: ٣١١ هـ)** بسنده عن **يحيى بن سعيد القطان-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)** أنه قال: "كان رأي سفيان الثوري: أبو بكر وعمر ثم يقف". [١]

وكان التوقف مذهب يحيى بن سعيد-رحمه الله-(ت: ١٩٨ هـ)، وقال الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "بلغني أن يحيى كان يقف عند ذكر عمر" قال: "وكان يأخذه من سفيان" [٢] يعني الثوري، فلا أدري متى كان التوقف من سفيان؟ والله أعلم.

وأما المذهب الثالث: وهو التوقف عن المفاضلة بينهم، فهو رواية عن مالك، ففي المدونة **قال ابن القاسم-رحمه الله-(ت: ١٩١ هـ)**: "وسألت مالكًا عن خير الناس بعد نبيهم-صلوات الله وسلامه عليه-، فقال: أبو بكر ثم قال: أو في ذلك شك؟ قال ابن القاسم: فقلت لمالك: فعلي وعثمان أيهما أفضل فقال: ما أدركت أحدا ممن أقتدي به يفضل أحدهما على صاحبه-يعني عليا وعثمان-ويرى الكف عنهما". [٣]

وروى ابن عبد البر-رحمه الله-(ت: ٤٦٣ هـ) بسنده أن مالكًا سئل: من تقدم بعد رسول الله؟ قال أقدم أبا بكر وعمر ولم يزد على هذا. وروى أيضا قول مالك: "ليس من أمر الناس الذين مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس". [٤]

وروى اللالكائي-رحمه الله-(ت: ٤١٨ هـ) بسنده أن مالكًا سئل عن علي وعثمان فقال: "ما أدركت أحدًا ممن يقتدى به إلا وهو يرى الكف عنهما، يريد التفضيل بينهما، فقيل له: فأبو بكر وعمر فقال: ليس في أبي بكر وعمر شك، يريد أنهما أفضل من غيرهما". [٥]

---

(١) السنة (٣/ ٣٧)، وقال المحقق: "إسناده صحيح".

(٢) رواه الخلال بسنده في السنة (ص: ٣٧٢)، وقال المحقق وإسناده صحيح).

(٣) المدونة (٦/ ٤٥١).

(٤) الانتقاء (٣٠، ٣٩).

(٥) شرح أصول الاعتقاد (٧/ ٣٦٨).

وقد ذكر ابن تيمية أن مالكًا رجع عن التوقف إلى تفضـــيل عثمان ثم علي فقال: "أما عثمان وعلي فكان طائفة من أهل المدينة يتوقفون فيهما وهي إحدى الروايتين عن مالك".[(١)]

وقال في موضـــع آخر: "وبعض أهل المدينة توقف في عثمان وعلي، وهي إحدى الروايتين عن مالك، لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علي كما هو مذهب ســـائر الأئمة".[(٢)]

وقد اعتمد **ابن رشـــد–رحمه الله–(ت: ٥٩٥ هـ)** في كلام له تقديم عثمان ثم علي في مذهب مالك وقال: "وقيل: إنه الذي رجع إليه مالك بعد أن وقف في عثمان وعلي، فلم يفضل أحدهما على صاحبه على ظاهر ما وقع في كتاب الديات من المدونة" قال ابن رشد–رحمه الله–(ت: ٥٩٥ هـ): "على أنه كلام محتمل للتأويل".[(٣)]

وذكر الســيوطي–رحمه الله–(ت: ٩١١ هـ) أنه قد حكى القاضــي عياض–رحمه الله–(ت: ٥٤٤ هـ)، عن الإمام مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)، أنه رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان، قال القرطبي–رحمه الله–(ت: ٦٧١ هـ): "وهو الأصح إن شاء الله".[(٤)]

ولعل من وافق مالكا على التوقف قبل الرجوع يكون قد رجع إلى تفضيل عثمان على علي كما رجع مالك موافقة له في الرجوع بعد موافقته في التوقف، ولقد روى الخلال بســنده **عن أيوب الســـختياني–رحمه الله–(ت: ١٣١ هـ)** أنه قال: "دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد–رحمه الله–(ت: ١٠٧ هـ) وسليمان–رحمه الله–(ت: ١٠٧ هـ) وغيرهما فما رأيت أحدًا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان".[(٥)]

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٧٣).

(٢) الفتاوى (٤/ ٤٢٦).

(٣) الجامع من المقدمات (١٧٤) وانظر حاشية المحقق رقم: (٣).

(٤) تدريب الراوي (٢/ ٢٢٣)، وانظر لوامع الأنوار (٢/ ٣٥٦).

(٥) السنة (ص: ٤٠٣).

وتوقف في المفاضلة بين عثمان وعلي من غير أهل المدينة يحي بن سعيد القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، من أهل البصرة وقد استغرب عبد الرحمن بن مهدي–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، ذلك فقال ليحيى: "بمن تقتدي في هذا وأهل البصرة ليس هذا قولهم؟!".[(١)]

وذكر ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ) أن يحي القطان–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ)، تبع مالكا في التوقف[(٢)]، ولكن قد سبق قبل قليل قول الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) أن يحيي أخذ التوقف عن سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ)، ويحيي قد حكى هذا القول عن سفيان فقد أخرج الخلال أن يحيي بن معين قال: "قال يحيي بن سعيد: كان رأي سفيان الثوري–رحمه الله–(ت: ١٦١ هـ): أبو بكر وعمر ثم يقف، قال يحيي بن معين–رحمه الله–(ت: ٢٣٣ هـ): "وهو رأي يحيي بن سعيد" [(٣)] كأنه يشير إلى أن ذلك منه موافقة سفيان فيما رواه عنه. والله أعلم.

والحاصل أن ما روي عن أئمة السلف من تقديم علي على عثمان أو التوقف فيهما قد رجعوا عنه واستقر مذهب أهل السنة على تفضيل عثمان ثم علي.

وهذا هو المذهب الحق الذي لا يجوز العدول عنه لثبوته بالأدلة الشرعية من السنة والإجماع وسبق بيانهما من حديث ابن عمر وإجماع الصحابة على تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر وجميع ذلك ثابت صحيح كما تقدم، ولذلك قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "كل من قدم عليًا ثم عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار".[(٤)] وكذلك قال حماد بن زيد–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ) [(٥)] وروي نحو ذلك عن جماعة من الأئمة كسفيان الثوري–رحمه

(١) السنة للخلال (ص: ٣٧٢، ٣٧٣).

(٢) فتح الباري (٧/ ١٦).

(٣) السنة (ص: ٣٧٣).

(٤) السنة للخلال ص ٣٩٢.

(٥) شرح أصول الاعتقاد ٧/ ١٣٧٠.

الله-(ت: ١٦١ هـ)، والدارقطني-رحمه الله-(ت: ٣٨٥ هـ) وغيرهم.[١]

حتى إن الأئمة قد تكلموا في تبديع من يقدم علياً على عثمان على قولين.[٢]

وروي عن بعضـــهم أنه قال: من قدم عليًا على عثمان فعليه لعنة الله، وبعضـــهم قال: فهو أحمق.[٣]

---

(١) انظر السنة للخلال ٣٧٠، و٣٩٢ والفتاوى ٤/ ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٨.

(٢) انظر السنة للخلال هي ٣٨٠-٨٣٢، والفتاوى ٤/ ٤٢٦.

(٣) انظر شرح أصول الاعتقاد ٧/ ١٣٧٠.

[٧٩]- قال المصنف رحمه الله: وهم خلفاء راشدون مهديُّون.

الشرح

في فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل ١/ ٤٣٤: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قثنا لُؤْلُؤُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو بَكْرٍ الْعَوْفِيُّ قَالَ: نا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، قَالَ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] أَبُو بَكْرٍ، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عُمَرُ، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَسَعْدٌ، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ الْمُحِبُّونَ لَهُمْ، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ الْمُبْغِضُونَ لَهُمْ، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩] ".

وقال السيوطي في الدر المنثور: (٧/ ٥٤٤). "وَأخرج ابْن مرْدَوَيْه والقلطي وَأحمد بن مُحَمَّد الزُّهْرِيّ فِي فَضَائِل الْخُلَفَاء الْأَرْبَعَة والشيرازي فِي الألقاب عَن ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا﴿مُحَمَّد رَسُول الله وَالَّذين مَعَه﴾ أَبُو بكر ﴿أشداء على الْكفَّار﴾ عمر ﴿رحماء بَينهم﴾ عُثْمَان ﴿تراهم ركعا سجدا﴾ عَليّ ﴿يَبْتَغُونَ فضلا من الله ورضواناً﴾ طَلْحَة وَالزُّبَيْر ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوههم من أثر السُّجُود﴾ عبد الرَّحْمَن بن عَوْف وَسعد بن أبي وقاص وَأَبُو عُبَيْدَة بن الْجراح ﴿وَمثلهمْ فِي الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزره﴾ بِأبي بكر ﴿فاستغلظ﴾ بعمر ﴿فَاسْتَوَى على سوقه﴾ بعثمان ﴿يعجب الزراع ليغيظ بهم الْكفَّار﴾ بعلي﴿وعد الله الَّذين آمنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَات﴾ جَمِيع أَصْحَاب مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم

وقال السمعاني في التفسير ٥/ ٢١٠ "وَقَوله: ﴿يعجب الزراع﴾ أَي: الحراث. وَهَذَا كُله ضرب مثل النَّبِي وَأَصْحَابه، وَذكر صفتهمْ وَمَا قوى الله بهم النَّبِي وَنَصره بهم.

وَعَن جَعْفَر بن مُحَمَّد الصَّادِق قَالَ: ﴿وَالَّذين مَعَه﴾ أَبُو بكر ﴿أشداء على الْكفَّار﴾ عمر ﴿رحماء بَينهم﴾ عُثْمَان) ﴿تراهم ركعا سجدا﴾ عَليّ رَضِي الله عَنْهُم ﴿يَبْتَغُونَ فضلا من الله

ورضوانا﴾ الْعشْرَة.

وَقَوله: ﴿كزرع﴾ مُحَمَّد ﴿أخرج شـــطأه﴾ أَبُو بكر ﴿فآزره﴾ بعمر ﴿فاســـتغلظ﴾ بعثمان ﴿فَاسْـــتَوَى على ســـوقه﴾ بعلي رَضِـــي الله عَنْهُم أَجْمَعِينَ، وَهَذَا قَول غَرِيب ذكره النقاش، وَالْمُخْتَار وَالْمَشْـهُور هُوَ القَوْل الأول، أَن الْآيَة فِي جَمِيع أَصْـحَاب النَّبِي من غير تعْيين، وَعَلِيهِ الْمُفَسِّرُونَ.

قال الإمام الزبير بن أحمد ان سليمان الزبيري الشافعي المتوفى سنة ٣١٧ للهجرة.

أخير هذه الأمة بعد نبيها صـلوات الله عليه وسـلامه أبو بكر الصـديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ثم علي المرتضـى رضـوان الله عليهم، وهم الخلفاء الراشـدون المهديون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى ﴿محمد رســول الله والذين معه أشــداء على الكفار رحماء وبينهم تراهم ركعًا سـجدًا يبتغون فضـلًا من الله ورضـوانًا سـيماهم في وجوههم من أثر السـجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه﴾

هو النبي صلى الله عليه وسلم ﴿فآزره﴾ أبو بكر الصديق، ﴿فاستغلظ فاستوى﴾ عمر بن الخطاب، ﴿يعجب الزراع﴾ عثمان بن عفان، ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ هو علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: كذلك قال المفسرون". انظر جمهرة عقائد أئمة السلف صفحة ٢٩١

[٨٠]- قال المصنف رحمه الله ثم أصحاب محمد ﷺ بعد هؤلاء الأربعة خيرُ الناس.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٧٤)



حكم من سب الصحابة

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تسمية من خالف أهل السنة في مسألة الصحابة.

المسألة الثانية: الآثار الواردة في ذم من سب الصحابة.

المسألة الثالثة: حكم من سب الصحابة أو انتقصهم وما يترتب على الطعن في الصحابة.



[٨١]- وقال المصنف رحمه الله: لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساوئهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب، ولا بنقص، ولا وقيعة، فمن فعل ذلك؛ فالواجب على السلطان: تأديبه، وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه؛ بل يعاقبه ثم يستتيبه، فإن تاب قبل منه، وإن لم يتب؛ أعاد عليه العقوبة، ثم خلَّده الحبس حتى يتوب ويُراجع. فهذا السنة في أصحاب محمد ﷺ.

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تسمية من خالف أهل السنة في مسألة الصحابة.

وأمَّا أهل الباطل فديدنهم بُغض أصحاب النبي ﷺ وبُغض حملة شريعته؛ لأنهم مخالفون لهم، وهم مُبغضون ناقمون على مخالفيهم حتى ولو كانوا في ذات فِرقتهم؛ فقد يحكمون بكفرهم وتبديعهم وتفسيقهم؛ إذا خالفوا نهجهم ولو يسيراً.

ومن عرف عنه الطعن في الصحابة:

أولًا: الرافضة.(١)

"يجمع الرافضة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، بين سيئتي الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء؛ فلهم في بعض الصحابة غلو وإفراط، أشنعه القول بالألوهية والنبوة، وأدناه تفضيل وتقديم من غلو فيه على من هو أفضل وأولى بالتقديم منه، كما لهم في البعض الآخر من الصحابة تقصير وتفريط وجفاء، أعظمه القول بتكفيرهم ولعنهم، وأدناه القول بتأخيرهم عن مرتبتهم والقعود بهم عن مكانتهم، ولهم بين هذا وذاك فيهم أقوال وآراء، تتردد بين الغلو والإزراء، ليس لهم على شيء منها دليل، إلا اتباع الظنون والأهواء".(٢)

---

(١) (ر ف ض): رفضته رفضا من باب ضرب وفي لغة من باب قتل تركته والرافضة فرقة من شيعة الكوفة سموا بذلك لأنهم رفضوا أي تركوا زيد بن علي حين نهاهم عن الطعن في الصحابة فلما عرفوا مقالته وأنه لا يبرأ من الشيخين رفضوه ثم استعمل هذا اللقب في كل من غلا في هذا المذهب وأجاز الطعن في الصحابة". [المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ١/ ٢٣٢].

(٢) وسطية أهل السنة والجماعة بين الفرق ص: ٤٠٦.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وكذلك الرافضة موصوفون بالغلو عند الأمة، فإن فيهم من ادعى الإلهية في علي. وهؤلاء شر من النصارى، وفيهم من ادعى النبوة فيه. ومن أثبت نبيا بعد محمد فهو شبيه بأتباع مسيلمة الكذاب وأمثاله من المتنبئين، إلا أن عليا–رضي الله عنه– بريء من هذه الدعوة، بخلاف من ادعى النبوة لنفسه كمسيلمة وأمثاله".(١)

قال أبو الحسن الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ): وهم ثلاثة أصناف:

١–الغالية: وهم الذين غلو في علي، وقالوا فيه قولا عظيما وهم طوائف.

٢– الرافضة الإمامة: وسموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر: هذا قول الأشعري، وقال بعضهم: سموا رافضة لرفضهم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب–رحمه الله–(ت: ١٢٢ هـ)، لما خرج عن هشام بن عبد الملك–رحمه الله–(ت: ١٨٠ هـ) فطعن عسكره في أبي بكر وعمر منعهم من ذلك وتولاهما، فرفضوه ولم يبق معه إلا مئتا فارس؛ فقال لهم زيد: رفضتموني. قالوا: نعم؛ فبقي عليهم هذا الاسم.

٣– الزيدية: وهم الذين تمسكوا بقول زيد بن علي بن الحسين–رحمه الله–(ت: ١٢٢ هـ).

قال الشهرستاني–رحمه الله–(ت: ٥٤٨ هـ): ويجمعهم –أي: الشيعة القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبري قولا وفعلا وعقدا إلا في حال التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك".(٢)

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "الشيعي الغالي في زمان السلف وعرفهم: هو من تكلم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية، وطائفة ممن حارب عليا رضي الله عنه، وتعرض لسبهم. والغالي في زماننا وعرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين أيضاً، فهذا ضال معثَّر ".(٣)

---

(١) منهاج السنة النبوية ٦/ ١٨٧.

(٢) راجع: المقالات للأشعري ١/ ٦٥، ٨٨، ١٣٦، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي ص ٥٢ والملل ١/ ١٤٦.

(٣) "ميزان الاعتدال" (١/ ٦).

قال الحافظ ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "التشيع في عرف المتقدمين: هو اعتقاد تفضيل عليّ على عثمان، وأن عليا كان مصيبًا في حروبه وأن مخالفه مخطئ، مع تقديم الشيخين، وتفضيلهما ...

وأما التشيع في عرف المتأخرين: فهو الرفض المحض، فلا تقبل رواية الرافضي الغالي ولا كرامة".(١)

فالروافض يزعمون أن الصحابة كفروا جميعا إلا نفر قليل منهم فروى الكشى (ت: ٣٥٠ هـ) عن أبي جعفر أنه قال: "كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ قال: المقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي.."(٢)

جاء في رجال الكشي (ت: ٣٥٠ هـ) ".. عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر (ت: ١١٤ هـ) عليه السلام قال: كان الناس أهل الردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ فقال: المقداد بن الأسود–رضي الله عنه–(ت: ٣٣ هـ)، وأبو ذر الغفاري–رضي الله عنه–(ت: ٣١ هـ)، وسلمان الفارسي–رضي الله عنه–(ت: ٣٣ هـ)، ثم عرف الناس بعد يسير، وقال: هؤلاء الذين دارت عليهم الرحا وأبوا أن يبايعوا لأبي بكر حتى جاءوا بأمير المؤمنين مكرها فبايع" (٣)

وروى الكليني (ت: ٣٢٩ هـ) في الكافي: "عن حمران بن أعين (ت: ١٣٠ هـ)، قال: قلت لأبي جعفر (ت: ١١٤ هـ) عليه السلام: جعلت فداك، ما أقلنا لو اجتمعنا على شاة ما أفنيناها؟ فقال: ألا أحدثك بأعجب من ذلك، المهاجرون والأنصار ذهبوا إلا –وأشار بيده–

---

(١) "تهذيب التهذيب" (١/ ٩٤).

(٢) رجال الكشي ص: ١٢ نقلا عن الشيعة الإمامية في ميزان الإسلام ص: ٨٩.

(٣) رجال الكشي: ص٦، الكافي، كتاب الروضة: ١٢/٣٢١-٣٢٢ (مع شرح جامع للمازندراني).

ثلاثة" [١] [٢]

وجاء في كتاب السنة للإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) قوله عن الرافضة: "هم الذين يتبرؤون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويسبونهم، ويتنقصون ويكفرون الأئمة إلا أربعة: علي، وعمار، والمقداد، وسلمان، وليست الرافضة من الإسلام في شيء".[٣]

قال القاضي عبد الجبار (ت: ٤١٥ هـ): "وأما الإمامية فقد ذهبت إلى أن الطريق إلى إمامة الاثني عشر النص الجلي، الذي يكفر من أنكره، ويجب تكفيره، فكفروا لذلك صحابة النبي عليه السلام".[٤]

وقريب من هذا المعنى قال عبد القاهر البغدادي [٥]، وابن تيمية[٦]. وغيرهما [٧]

وبعض الرافضة يقولون: أن الصحابة كلهم كفروا إلا سبعة عشر صحابيًا وسموهم". [٨]

حكمهم:

اختلف أهل العلم في الحكم والعقوبة التي يستحقها من سب أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–أو جرحهم هل يكفر بذلك وتكون عقوبته القتل، أو أنه يفسق بذلك ويعاقب بالتعزير.

١– ذهب جمع من أهل العلم إلى القول بتكفير من سب الصحابة رضي الله عنهم أو

(١) بحار الأنوار: ٣٤٥/٢٢، ٣٥١، ٣٥٢، ٤٤٠.

(٢) علق هنا شيخهم المعاصر "علي أكبر الغفاري" فقال: "يعني أشار عليه السلام بثلاث من أصابع يده. والمراد بالثلاثة سلمان وأبو ذر والمقداد".(الكافي: ٢٤٤/٢ – الهامش).

(٣) السنة للإمام أحمد: ص٨٢.

(٤) شرح الأصول الخمسة: ص٧٦١.

(٥) الفرق بين الفرق: ص ٣٢١.

(٦) منهاج السنة: ١٢٨/٤.

(٧) انظر: أصول الدين للبزدوي: ص٢٤٧–٢٤٨.

(٨) انظر: روضة الكافي للكليني (١١٥) [دار الأضواء، بيروت]، وبحار الأنوار للمجلسي (٧٤٩/٦) [طبعة دار الطباعة المخصوصة، الهند، ١٢٩٧هـ].

انتقصهم وطعن في عدالتهم وصرح ببغضهم وأن من كانت هذه صفته أباح دم نفسه وحل قتله، إلا أن يتوب من ذلك ويترحم عليهم.

ومن ذهب إلى هذا القول من السلف الصحابي الجليل عبد الرحمن بن أبزى–رحمه الله–(ت: ٧٢ هـ) (١)، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي–رحمه الله–(ت: ١٥٧ هـ) (٢)، وأبو بكر بن عياش–رحمه الله–(ت: ١٩٣ هـ) (٣)، وسفيان بن عيينة–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ) (٤)، ومحمد بن يوسف الفريابي–رحمه الله–(ت: ٢١٢ هـ) (٥)، وبشر بن الحارث المروزي–رحمه الله–(ت: ٢٢٧ هـ) (٦)، ومحمد بن بشار العبدي–رحمه الله–(ت: ٢٠٣ هـ) (٧)، وغيرهم كثير، فهؤلاء الأئمة صرحوا بكفر من سب الصحابة وبعضهم صرح مع ذلك أنه يعاقب بالقتل، وإلى هذا القول ذهب بعض العلماء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية (٨).

ذهب فريق آخر من أهل العلم إلى أن ساب الصحابة لا يكفر بسبهم، بل يفسق ويضلل ولا يعاقب بالقتل، بل يكتفي بتأديبه وتعزيره تعزيرا شديدا يردعه ويزجره حتى يرجع عن ارتكاب هذا الجرم الذي يعتبر من كبائر الذنوب وفواحش المحرمات، وإن لم يرجع تكرر عليه العقوبة حتى يظهر التوبة.

فقد روى اللالكائي–رحمه الله–(ت: ٤١٨ هـ): عن الحارث بن عتبة، قال: إن عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ)، أتي برجل سب عثمان، فقال: ما حملك على أن

---

(١) انظر كتاب النهي عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب ص/٢٣، فتاوى السبكي ٢/٥٨٠..

(٢) انظر الشرح والإبانة لابن بطة ص/١٦٢.

(٣) المصدر السابق ص/١٦٠.

(٤) كتاب النهي عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب ص/٢٤-٢٥.

(٥) الشرح والإبانة ص/١٦٠، الصارم المسلول على شاتم الرسول ص/٥٧٠.

(٦) الشرح والإبانة ص/١٦٢.

(٧) المصدر السابق ص/١٦٠.

(٨) المصدر عقيدة أهل السنة في الصحابة لناصر علي ٢/ ٨٥٦.

سببته؟، قال: أبغضه، قال: وإن أبغضت رجلا سببته؟، قال: فأمر به فجلد ثلاثين سوطا".[١]

وروى الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) حدثنا أبو معاوية حدثنا عاصم الأحول–رحمه الله–(ت: ١٤٠ هـ)، قال: أتيت برجل قد سب عثمان، قال: فضربته عشرة أسواط، قال: ثم عاد لما قال، فضربته عشرة أخرى، قال فلم يزل يسبه حتى ضربته سبعين سوطا".[٢]

ومن ذهب من الأئمة إلى ما ذهب إليه عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت:١٠١ هـ)، وعاصم الأحول–رحمه الله–(ت: ١٤٠ هـ)، الإمام مالك والإمام أحمد وكثير من العلماء ممن جاء بعدهما.

قال القاضي عياض–رحمه الله–(ت: ٥٤٤ هـ)، مبينا ما ذهب إليه الإمام مالك وبعض علماء المالكية في هذه المسألة: "وقد اختلف العلماء في هذا، فمشهور مذهب مالك في ذلك الاجتهاد والأدب الموجع، **قال مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)**: "من شتم النبي صلى الله عليه وسلم قتل، ومن شتم أصحابه أدب" وقال أيضا: من شتم أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فإن قال: كانوا على ضلال وكفر، قتل، وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس نكل نكالًا شديدًا.

وقال ابن حبيب–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ): "من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدب أدبا شديدا ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت ولا يبلغ به القتل إلا في سب النبي صلى الله عليه وسلم".[٣]

قال إسحاق بن راهوية–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ): "من شتم أصحاب النبي صلى الله

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص ٥٦٩.

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الصارم المسلول ص/٥٦٩.

(٣) الشفاء ٢/٢٦٧.

عليه وسلم يعاقب ويحبس".[١]

وقال سحنون-رحمه الله-(ت: ٢٤٠ هـ): "من كفر أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عليا أو عثمان أو غيرهما يوجع ضربا.

وحكى أبو محمد بن أبي زيد عن سحنون فيمن قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي إنهم كانوا على ضلال وكفر قتل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل هذا نكل النكال الشديد".[٢]

وقال الإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ): "ومن السنة ذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أجمعين، والكف عن الذي جرى بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أو واحدا منهم فهو مبتدع رافضي حبهم سنة، والدعاء لهم قربة والاقتداء بهم وسيلة والأخذ بآثارهم فضيلة لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساويهم ولا يطعن على أحد منهم، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثم يستتيبه، فإن تاب قبل منه، وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة وخلده في الحبس حتى يتوب ويراجع".[٣]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ) بعد أن ساق قول أحمد هذا: "وحكى الإمام أحمد هذا عمن أدركه من أهل العلم وحكاه الكرماني عنه وعن إسحاق والحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم.

وقال الميموني-رحمه الله-(ت: ٢٧٤ هـ): سمعت أحمد يقول ما لهم ولمعاوية؟، نسأل الله العافية، وقال لي: يا أبا الحسن: إذا رأيت أحدًا يذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء، فاتهمه على الإسلام" فقد نص رضي الله عنه على وجوب تعزيره واستتابته حتى يرجع بالجلد، وإن لم ينته حبس حتى يموت أو يراجع، وقال: ما أراه على الإسلام وقال: وأتهمه على

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص/٥٦٨.

(٢) الشفاء للقاضي عياض ٢/١٦٧.

(٣) السنة للإمام أحمد ص/١٧، الصارم المسلول ص/٥٦٨، طبقات الحنابلة ١/٣٠.

الإسلام، وقال: أجبن عن قتله".

وقال رحمه الله بعد قول إسحاق بن راهوية–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ) المتقدم: "وهذا قول كثير من أصحابنا منهم ابن أبي موسى–رحمه الله–(ت:٤٢٨ هـ)، قال: ومن سب السلف من الروافض فليس بكفؤ ولا يزوج، وهذا في الجملة قول عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ) وعاصم الأحول–رحمه الله–(ت: ١٤٠ هـ)، وغيرهما من التابعين".[١]

وفي مسائل الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) رواية ابنه عبد الله–رحمه الله–(ت: ٢٩٠ هـ) أنه قال: سألته عمن شتم رجلًا من أصحاب النبي–صلى الله عليه وسلم–، رضي الله عنهم؟ فقال أبي: أرى أن يضرب، فقلت له حد؟ فقال: فلم يقف على الحد إلا أنه قال: يضرب وقال: ما أراه إلا متهما على الإسلام".[٢]

وقال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): قال أحمد في رواية أبي طالب–رحمه الله–(ت: ٢٤٤ هـ)، في الرجل يشتم عثمان: هذا زندقة، وقال في رواية المروزي–رحمه الله–(ت: ٢٧٥ هـ): "من شتم أبا بكر وعمر وعائشة ما أراه على الإسلام".

قال القاضي أبو يعلى–رحمه الله–(ت: ٤٥٨ هـ): فقد أطلق القول فيه أنه يكفر بسببه لأحد من الصحابة وتوقف في رواية عبد الله–رحمه الله–(ت: ٢٩٠ هـ)، وأبي طالب–رحمه الله–(ت: ٢٤٤ هـ)، عن قتله، وكمال الحد وإيجاب التعزير يقتضي أنه لم يحكم بكفره، قال: فيحتمل أن يحمل قوله: "ما أراه على الإسلام" إذا استحل سبهم بأنه يكفر بلا خلاف ويحمل إسقاط القتل على من لم يستحل ذلك بل فعله مع اعتقاده لتحريمه كمن يأتي المعاصي قال: ويحتمل قوله: "ما أراه على الإسلام على سب يطعن في عدالتهم نحو قوله: ظلموا، وفسقوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا الأمر بغير حق ويحمل قوله في إسقاط القتل على سب لا يطعن في دينهم نحو قوله: كان فيهم قلة علم، وقلة معرفة بالسياسة

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص/٥٦٨.

(٢) مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله ص/٤٣١، تحقيق: زهير الشاويش.

والشجاعة، وكان فيهم شح ومحبة للدنيا، ونحو ذلك، قال: ويحتمل أن يحمل كلامه على ظاهره فتكون في سابهم روايتان: إحداهما يكفر، والثانية يفسق، وعلى هذا استقر قول القاضي وغيره، حكوا في تكفيرهم روايتين".(١)

وقال ملا علي القاري-رحمه الله-(ت: ١٠١٤ هـ) حاكيا الإجماع في حكم سب الصحابة: "من سب أحدا من الصحابة فهو فاسق ومبتدع بالإجماع، إلا إذا اعتقد أنه مباح أو يترتب عليه ثواب كما عليه بعض الشيعة أو اعتقد كفر الصحابة فإنه كافر بالإجماع".(٢) (٣)

ثانيًا: الخوارج.

الخوارج: هم الذين خرجوا على علي-رضي الله عنه-حين جرى أمر الحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وهم عشرون فرقة، وكبار فرقهم: المحكمة، والأزارقة، والنجدات، والبيهسية، والعجاردة، والثعالبة، والإباضية، والصفرية، والباقون فروعهم". (٤)

أما عقيدتهم في الصحابة فهم: مجمعون على تكفير علي، وعثمان، وأبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، ومعاوية، وكل من شارك في التحكيم، أو رضي به، وأصحاب الجمل.

يقول البغدادي-رحمه الله-(ت: ٤٢٩ هـ): "وقال شيخنا أبو الحسن-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ): الذي يجمعها -أي: فرق الخوارج- إكفار علي، وعثمان، وأصحاب الجمل، والحكمين، ومن رضي بالتحكيم وصوب الحكمين أو أحدهما ... ". (٥)

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص/٥٧١.

(٢) ذكره ابن عابدين في كتاب تنبيه الولاة والحكام ضمن مجموعة رسائله ١/ ٣٦٧.

(٣) المصدر: عقيدة أهل السنة في الصحابة ٢/ ٨٦٤-٨٦٨.

(٤) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١١٥).

(٥) الفرق بين الفرق (ص ٧٣).

ويقول الشهرستاني–رحمه الله–(ت: ٥٤٨ هـ): "ويجمعهم القول بالتبرؤ من عثمان وعلي–رضي الله عنهما–، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك".[١]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وكذلك الخوارج، قد كفروا عثمان وعليا، وجمهور المسلمين من الصحابة والتابعين، فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف؟"[٢]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "الخوارج الذين يكفرون عليًا، أو النواصب الذين يفسقونه؛ إنه كان ظالمًا طالبًا للدنيا، وإنه طلب الخلافة لنفسه، وقاتل عليها بالسيف، وقتل على ذلك ألوفًا من المسلمين، حتى عجز عن انفراده بالأمر، وتفرق عليه أصحابه، وظهروا عليه فقاتلوه".[٣]

فالخوارج: كفروا عليا رضي الله عنه، ومعاوية، ومن قبل التحكيم من الصحابة. وقد اختلف الفقهاء في كفرهم:

والجمهور على أنهم فساق، لا يكفرون.

ومرد ذلك لأمور منها:

الأول: القول بأن تكفير الواحد من الصحابة: ليس كفرا.

الثاني: أنه على القول بأنه كفر، لكن المتأول لا يكفر، والخوارج كانوا متأولين في تكفير بعض الصحابة رضي الله عنهم.

قال الرحيباني الحنبلي–رحمه الله– (ت: ١٢٤٣هـ): " (أو قال: قولا يتوصل به إلى تضليل الأمة)؛ أي: أمة الإجابة؛ لأنه مكذب للإجماع على أنها لا تجتمع على ضلالة (أو كفر الصحابة) بغير تأويل (فهو كافر)؛ لأنه مكذب للرسول في قوله: أصحابي كالنجوم) وغيره.

---

(١) الملل والنحل (١/ ١١٥).

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ١٥٣.

(٣) منهاج السُّنَّة النبوية (٢/٥٩).

وتقدم الخلاف في الخوارج ونحوهم". انتهى.[١]

وقال قبلها مبينا الخلاف في كفر الخوارج: "(ومن كفر أهل الحق والصحابة واستحل دماء المسلمين) وأموالهم (بتأويل ف) هم (خوارج بغاة فسقة) باعتقادهم الفاسد. قال: في " المبدع " تتعين استتابتهم، فإن تابوا، وإلا قُتلوا على إفسادهم، لا على كفرهم. ويجوز قتلهم، وإن لم يَبدؤوا بالقتال، قدمه في "الفروع".[٢]

قال الشيخ تقي الدين-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): نصوصه [أي الإمام أحمد] على عدم كفر الخوارج والقدرية والمرجئة وغيرهم، وإنما كفر الجهمية، لا أعيانهم. قال: وطائفة تحكي عنه روايتين في تكفير أهل البدع مطلقا، حتى المرجئة والشيعة المفضلة لعلي.

(وعنه)؛ أي: الإمام أحمد أن الذين كفروا أهل الحق والصحابة، واستحلوا دماء المسلمين بتأويل أو غيره: (كفار)".[٣]

قال: (المنقِّح: وهو أظهر).[٤]

قال: في "الإنصاف" وهو الصواب، والذي ندين الله به".[٥]

وقال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-(ت: ٨٥٢ هـ): "وذهب أكثر أهل الأصول من أهل السنة: إلى أن الخوارج فساق، وأن حكم الإسلام يجري عليهم، لتلفظهم بالشهادتين، ومواظبتهم على أركان الإسلام.

وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين، مستندين إلى تأويل فاسد، وجرهم ذلك إلى استباحة دماء

---

(١) مطالب أولي النهى (٦/ ٣٨١).

(٢) مطالب أولي النهى (٦/ ٢٧٣).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٦٨ - ٥٠١، والمغني ١٢/ ٢٣٩، والكافي ٤/ ١٤٦ - ١٤٧، وكتاب الفروع ٦/ ١٦١، وشرح الزركشي ٦/ ٢١٨، والمبدع ٩/ ١٦٠، وغاية المنتهى ٣/ ٣٣٤

(٤) التنقيح ص ٢٨٣.

(٥) الإنصاف ٢٧/ ١٠٢.

مخالفيهم وأموالهم، والشهادة عليهم بالكفر والشرك".[(١)]

ودعوى الإجماع على عدم كفرهم: لا تصح.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم–رحمه الله–(ت: ١٣٨٩ هـ): "وقد قال بكفر الخوارج كثرة؛ لكن الصحيح أنهم بغاة، ولكنهم أشد بغياً من غيرهم، لكون لهم بدعة ابتدعوها".[(٢)]

ثالثًا: النواصب.[(٣)]

١–[تعريف النواصب]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما من نصب العداوة لعلي ولأهل البيت، فهذا يُسمى ناصبياً، وهو الذي يُقال فيه: إنه ناصب".[(٤)]

يقول الفيروزأبادي–رحمه الله–(ت: ٨١٧ هـ): "والنواصب والناصبة وأهل النصب المتدينون ببغض علي–رضي الله عنه–؛ لأنهم نصبوا له، أي: عادوه".[(٥)]

ويقول المقريزي–رحمه الله–(ت: ٨٤٥ هـ): "والنواصب جمع ناصبي، وهو الغالي في بغض علي–رضي الله عنه–".[(٦)]

"فالنواصب: هم كل من عادى أهل بيت النبي ﷺ، وانتقصهم وآذاهم بأدنى قول أو فعل، سواء كان هذا الإيذاء لكل أهل البيت أو لبعضهم، وسواء كان الإيذاء ظاهرا كسبهم وشتمهم،

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٠٠).

(٢) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (١٢/ ١٧٢).

(٣) يطلق لفظ النواصب على من يؤذي أهل البيت، وهو المراد هنا، ويطلقه الشيعة على كل من لا يتبرأ من الصحابة.

(٤) (منهاج السنة النبوية، ج ٤، ص ٥٥٤).

(٥) القاموس المحيط (١/ ١٣٣).

(٦) خطط المقريزي (٢/ ٣٥٤).

أو غير ظاهر كالكذب عليهم والغلو فيهم كما هو فعل الروافض الذين يدعون محبتهم".[١]

ويطلق العلماء مصطلح: "النواصب" على معنيين:

الأول: على الخوارج؛ فإن من ألقابهم التي أطلقها العلماء عليهم: النواصب.

يقول المقريزي–رحمه الله–(ت: ٨٤٥ هـ): "الفرقة العاشرة: الخوارج، ويقال لهم: النواصب والحرورية".[٢]

الثاني: على الطائفة التي خرجت في بداية الأمر في الكوفة في مقابل الرافضة، فقابلوا غلو الرافضة في أهل البيت بسبهم والقدح فيهم، وعامة هؤلاء النواصب من الجهال الذين قابلوا الباطل بالباطل.

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأهل الكوفة كان فيهم طائفتان: طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت ...، وطائفة ناصبة تبغض عليا وأصحابه".[٣]

ويمكن أن يعرف المقصود من هذا المصطلح عند الإطلاق من سياق الكلام؛ فإذا قيل مثلا: النواصب الذين يكفرون عليا وعثمان والحكمين. علم أن المقصود هنا هم الخوارج؛ لأن هذه هي عقيدة الخوارج، وهكذا ...

والذي يظهر من كلام العلماء المتأخرين: أن هذا المصطلح –أعني: النواصب– أصبح غالبا في كلامهم على النواصب الذين خرجوا في الكوفة، وكل من وافقهم على عداوة أهل البيت، ولم يبلغوا في ذلك مبلغ التكفير، الذين أصبح مصطلح الخوارج غالبا عليهم.[٤]

وعقيدة النواصب الذين خرجوا في الكوفة ومن شاركهم في عقيدتهم الفاسدة في أهل البيت: هي بغضهم لأهل البيت وانتقاصهم وسبهم وشتمهم، وإن كانوا لا يصلون في كل ذلك

---

(١) محض الإصابة في تحرير عقيدة أهل السنة ومخالفيهم في الصحابة ص: (٥١).

(٢) الخطط للمقريزي (٢/ ٣٥٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٠١).

(٤) المصدر: محض الإصابة في تحرير عقيدة أهل السنة ومخالفيهم في الصحابة ص: (٥٢).

إلى عقيدة الخوارج الذين يكفرون عليا –رضي الله عنه–، وبعض أهل بيته.

قال ابن تيمية –رحمه الله– (ت: ٧٢٨ هـ): "ومن ظن أن النواصب يكفرون الصحابة أو أحداً منهم فهو مخطئ، فإن النواصب إنما نصبوا العداوة لعلي وأهل بيته".(١)

ولهؤلاء النواصب في إظهار بغض أهل البيت شعائر في بعض الأيام، كإظهارهم الفرح والسرور في يوم مقتل الحسين (يوم عاشوراء) في مقابل حزن الرافضة في ذلك اليوم، ووضعهم الأحاديث على لسان النبي ﷺ في فضل الفرح والزينة في ذلك اليوم.

قال ابن تيمية –رحمه الله– (ت: ٧٢٨ هـ): "وصار الشيطان بسبب قتل الحسين –رضي الله عنه– يحدث للناس بدعتين: بدعة الحزن والنوح يوم عاشوراء من اللطم والصراخ والبكاء والعطش وإنشاد المراثي وما يفضي إليه ذلك، من سب السلف ولعنهم ...، وكذلك بدعة السرور والفرح، وكانت الكوفة بها قوم من الشيعة المنتصرين للحسين، وكان رأسهم المختار بن أبي عبيد الكذاب، وقوم من الناصبة المبغضين لعلي –رضي الله عنه– وأولاده، ومنهم: الحجاج بن يوسف الثقفي.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (سيكون في ثقيف كذاب ومبير) (٢)؛ فكان ذلك الشخص هو الكذاب، وهذا الناصبي هو المبير؛ فأحدث أولئك الحزن، وأحدث هؤلاء السرور ورووا أنه من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته" (٣)

وقال في موضع آخر: " ... وأهل الكوفة كان فيهم طائفتان: طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت، وهم في الباطن إما ملاحدة زنادقة، وإما جهال وأصحاب هوى.

وطائفة ناصبة تبغض عليا وأصحابه، لما جرى من القتال في الفتنة

ما جرى ...

---

(١) (مجموع الفتاوى، ج ٢٨، ص ٤٨٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٧١، ١٩٧٢) (ح ٢٥٤٥).

(٣) منهاج السنة (٤/ ٥٥٤ - ٥٥٥).

إلى أن قال بعد الحديث عن الرافضة: فعارض هؤلاء قوم إما من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته، وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد، والكذب بالكذب، والشر بالشر، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء كالاكتحال والاختضاب، وتوسيع النفقات على العيال، وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة، ونحو ذلك مما يفعل في الأعياد والأفراح؛ فصار هؤلاء يتخذون يوم عاشوراء موسما كمواسم الأعياد والأفراح، وأولئك يتخذونه مأتما يقيمون فيه الأحزان والأتراح، وكلا الطائفتين خارجة عن السنة".(١)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): " وإنما حصلت هذه البدع في يوم عاشوراء؛ لأن الكوفة كان فيها طائفتان طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت وهم في الباطن إما ملاحدة زنادقة، وإما جهال وأصحاب هوى.

وطائفة ناصبة تبغض عليا وأصحابه لما جرى من القتال في الفتنة ما جرى".(٢)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "فوضعت الآثار في الاحتفال بعاشوراء لما ظهرت العصبية بين الناصبة والرافضة فإن هؤلاء اتخذوا يوم عاشوراء مأتما، فوضع أولئك آثارا تقتضي التوسع فيه واتخاذه عيدا وكلاهما باطل. فهؤلاء فيهم بدع وضلال وأولئك فيهم بدع وضلال، وإن كانت الشيعة أكثر كذبا وأسوأ حالا".(٣)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "أما ما يفعله بعض الناس في عاشوراء من اتخاذ طعام خارج عن العادة، أو تجديد لباس، أو توسيع نفقة، أو اشتراء حوائج العام ذلك اليوم، أو فعل عبادة مختصة كصلاة مختصة به، أو قصده بالذبح، أو الاكتحال أو الاختضاب أو الاغتسال أو زيارة المساجد والقبور ونحو ذلك. فهذا من البدع المنكرة المستحدثة في الدين التي لم يسنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا خلفاؤه الراشدون، ولا استحبها أحد من أئمة

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٠١، ٣٠٩ – ٣١٠).

(٢) الفتاوى الكبرى (٢/٢٩٥) ومجموع الفتاوى (٢٥/٢٩٩–٣٠١) ، وانظر: لطائف المعارف لابن رجب (٥٢)، والمنار المنيف لابن القيم (١١١–١١٣) والأمر بالاتباع للسيوطي (٨٨–٨٩).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٦٢٢–٦٢٣).

المسلمين".[١]

٢-حكمهم

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما من يطعن في علي بن أبي طالب أو يسبه، فإنه ضال مبتدع، ويجب أن يُعاقب، بل يُجب أن يُقتل إذا علم أنه مُصِرٌ على ذلك. فإن علي بن أبي طالب من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، الذين أمرنا الله بمودتهم وموالاتهم".[٢]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما من نصب العداوة لأهل البيت، فإنه يُعد من النواصب، وهذا ضال مبتدع، ويجب أن يُستتاب، فإن تاب وإلا عُوقب بما يستحقه".[٣]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما من نصب العداوة لأهل البيت وسبهم، فهذا ضال مبتدع، يجب عقوبته، بل يُقتل إذا لم يتب".[٤]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "فإن الله قد فرض على المسلمين حب علي بن أبي طالب وموالاته، وجعل ذلك من الإيمان، فعلامة النفاق بغض علي".[٥]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما من نصب العداوة لعلي ولأهل بيته فهذا يُسمى ناصبياً، وهو الذي يُقال فيه: إنه ناصبي، وهذا يجب أن يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل".[٦]

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "إن النصب الذي هو بغض علي هو كفر ونفاق، وهو من أعمال الكفار والمنافقين، فمن اعتقد أن علي بن أبي طالب ليس خليفة، أو

---

(١) انظر: مجموع الفتاوي لابن تيمية (٣١٢/٢٥)، والفتاوى الكبرى (٣٠١/٣-٣٠٢).

(٢) (مجموع الفتاوى، ج ٣٥، ص ٥٨).

(٣) (الصارم المسلول على شاتم الرسول، ج ٢، ص ٥٩٣).

(٤) (مجموع الفتاوى، ج ٤، ص ٤٨٧).

(٥) (منهاج السنة النبوية، ج ٧، ص ١٣٧).

(٦) (الصارم المسلول على شاتم الرسول، ج ٢، ص ٥٩٢).

أنه ليس من الخلفاء الراشدين، فهو ضال مبتدع".(١)

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وهؤلاء الذين نصبوا العداوة لعلي ومن والاه، وهم الذين استحلوا قتله وجعلوه كافرا، وقتله أحد رؤوسهم (عبد الرحمن بن ملجم المرادي) (ت: ٤٠ هـ)، فهؤلاء النواصب الخوارج المارقون إذا قالوا؛ إن عثمان وعلي أبن ابي طالب ومن معهما كانوا كفار مرتدين، فإن من حجة المسلمين عليهم ما تواتر من إيمان الصحابة، وما ثبت بالكتاب والسنة الصحيحة من مدح الله تعالى لهم، وثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، وإخباره بأنهم من اهل الجنة، ونحو ذلك من النصوص، ومن لم يقبل هذه الحجج لم يمكنه أن يثبت إيمان علي بن أبي طالب وأمثاله.

فأنه لو قال هذا الناصبي للرافضي؛ إن عليا كان كافرا، أو فاسقا ظالما، وأنه قاتل على الملك؛ لطلب الرياسة؛ لا للدين، وأنه قتل من اهل الملة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ بالجمل وصفين وحروراء ألوفا مؤلفة، ولم يقاتل بعد النبي صلى الله عليه وسلم كافرا، ولا فتح مدينة، بل قاتل أهل القبلة، ونحو هذا الكلام – الذي تقوله النواصب المبغضون لعلي—رضي الله عنه— لم يمكن أن يجيب هؤلاء النواصب إلا أهل السنة والجماعة؛ الذين يحبون السابقين الأولين كلهم.

فيقولون لهم؛ أبو بكر، عمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، ونحوهم، ثبت بالتواتر إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، وثبت في القرآن ثناء الله عليهم، والرضى عنهم، وثبت بالأحاديث الصحيحة ثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم خصوصًا وعمومًا، كقوله في الحديث المستفيض عنه: **(لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لأتخذت أبا بكر خليلا)** (٢)، وقوله: **(إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي فعمر)** (٣)، وقوله عن عثمان: **(ألا يستحي ممن تستحي**

---

(١) (الرد على البكري، ج ٢، ص ٦٠١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

(٣) متفق عليه، لكنه عند البخاري من حديث أبي هريرة (٣٦٨٩)، وعند مسلم من حديث عائشة (٢٣٩٨).

منه الملائكة) [١].؟ وقوله في لعلي: (**لأعطين الرآية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه)** [٢].، وقوله: (**لكل نبي حواريون، وحواريي الزبير)** [٣]. وأمثال ذلك.

وأما الرافضي فلا يمكنه إقامة الحجة على من يبغض عليا من النواصب، كما يمكن ذلك أهل السنة، الذين يحبون الجميع".[٤]

رابعًا: المعتزلة.

وموقف المعتزلة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عموما يتراوح بين شاك في عدالتهم منذ عهد الفتنة، كما فعل واصل، فهذا واصِلُ بنُ عطاءٍ (ت: ١٣١ هـ) يجعَلُ أحدَ الفريقَين المتخاصِمَين في الجَملِ وفي صِفِّينَ مُخطِئًا وفاسِقًا لا محالةَ، ولا تُقبَلُ شَهادتُهما كما لا تُقبَلُ شَهادةُ المتلاعِنينَ [٥]. وبناءً على هذا فإنَّه لم يحكُمْ بشهادةِ رجُلَين أحدُهما مِن أصحابِ عليٍّ والآخَرُ مِن أصحابِ الجَملِ، فهو يقولُ: "لو شهِدَت عندي عائِشةُ وعليٌّ وطَلحةُ على باقةِ بَقلٍ لم أحكُمْ بشهادتِهم".[٦]

وقبِل شهادةَ رجُلَين مِن أصحابِ عليٍّ، وشهادةَ رجُلَين مِن أصحابِ طَلحةَ والزُّبَيرِ [٧]؛ إذ قد يكونُ أحدُ الفريقَين عَدلًا وعلى صوابٍ، وهو رأيٌ تبنَّاه بَعدَ ذلك ضِرارُ بنُ عمرٍو، وأبو الهُذَيلِ، ومَعمَرُ بنُ عبَّادٍ السُّلَميُّ؛ حيثُ قالوا جميعًا: "نحن نتولَّى كُلَّ واحِدٍ مِن الفريقَين على

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦) باختلاف يسير.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٤٧)، ومسلم (٢٤١٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/٤٦٨ – ٤٦٩).

(٥) يُنظر: (المِلَل والنِّحَل) (١/٤٩).

(٦) يُنظر: (ميزان الاعتدال) للذهبي (٤/٣٢٩). ويُنظر: (الفَرق بين الفِرَق) للبغدادي (ص: ١٢٠)، (المِلَل والنِّحَل) للشَّهْرَسْتانيِّ (١/٤٩).

(٧) يُنظر: (الفَرق بين الفِرَق) للبغدادي (ص: ١٢٠).

انفِرادٍ". (١)

وهكذا يكونونَ قد شكُّوا في عدالةِ عليٍّ وطَلحةَ والزُّبَيرِ معَ شهادةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهؤلاء الثَّلاثةِ بالجنَّةِ، ومعَ دُخولِهم في بَيعةِ الرِّضوانِ وفي جُملةِ الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: الآية: ١٨].

وبين مفسق لهم جميعا كعمرو بن عبيد (ت: ١٤٣ هـ) ، حيث قال بتفسيقِ أصحابِ الجَملِ؛ فقطَع بفِسقِ الطَّرفَينِ المتحارِبَينِ جميعًا، وقال: "لا أقبَلُ شهادةَ الجماعةِ منهم سواءٌ كانوا مِن أحدِ الفريقَينِ أو كان بعضُهم مِن حزبِ عليٍّ وبعضُهم مِن حزبِ الجَملِ". (٢)

وبلغَ به الأمرُ في امتِهانِهم إلى القولِ: "لو شهِد عندي عليٌّ وطَلحةُ والزُّبَيرُ وعُثمانُ على شِراكِ نَعلٍ ما أجزْتُ شهادتَهم" (٣)، وهذا منه مُتساوِقٌ معَ ما جُبِل عليه مِن كراهتِهم وشَتمِهم (٤)

وبين طاعن في أعلامهم متهم لهم بالكذب والجهل والنفاق كإبراهيمُ النَّظَّامُ (ت: مابين ٢٢١هـ-٢٢٩ هـ)، وبِشرُ بنُ المعتمِرِ (ت: ٢١٠ هـ) وبعضُ المعتَزِلةِ فإنَّهم صوَّبوا عليًّا في حروبِه، وخطَّؤوا مَن قاتَله، فنسَبوا طَلحةَ والزُّبَيرَ وعائِشةَ ومُعاوِيةَ إلى الخطأِ (٥) وانتِفاءِ العدالةِ عنهم. وذلك يوجب ردهم للأحاديث التي جاءت عن طريق هؤلاء الصحابة بناء على رأي واصل وعمرو ومن تبعهما. (٦)

فقد ذكر ابن قتيبة-رحمه الله-(ت: ٢٧٦ هـ) عن النظام (ت: مابين ٢٢١هـ-٢٢٩ هـ)

---

(١) يُنظر: (مقالات الإسلاميين) للأشعري (٢/١٤٥).

(٢) (الفَرق بين الفِرَق) للبغدادي (ص: ١٢١).

(٣) (ميزان الاعتدال) للذهبي (٣/٢٧٥).

(٤) يُنظر: (ميزان الاعتدال) للذهبي (٣/٢٧٤).

(٥) يُنظر: (مقالات الإسلاميين) للأشعري (٢/١٤٥).

(٦) يُنظر: (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) للسباعي (٢٠٨).

أنه: انتقد أبا بكر (ت: ١٣ هـ) وعمر (ت: ٢٣ هـ) وعليا (ت: ٤٠ هـ)، -رضي الله عنهم- ، ورمى عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، بالحكم بالظن، والقضاء بالشبهة، والفحش في القول على الله كما رماه بالكذب لروايته حديث انشقاق القمر.[١]. وقال: "وهذا من الكذب الذي لا خفاء به"، وحديث: "الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه"[٢]؛ لأنه يخالف مذهبه في القدر وانتقد عثمان-رضي الله عنه-(ت: ٣٥ هـ)، وكان يقول فيه القول القبيح، وشتم زيد بن ثابت-رضي الله عنه-(ت: ٤٥ هـ)".[٣]

خامسًا: متأخرو من الأشاعرة.

والأشاعرة ونحوهم من المتكلمين ممن يدعي في طريقة الخلف العلم والإحكام، وفي طريقة السلف السلامة دون العلم والإحكام، يلزمهم تجهيل السلف من الصحابة والتابعين وهو طعن فيهم من هذا الوجه. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله — بعد أن حكى عنهم هذا الكلام -: "ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض، فإنه وإن لم يكن تكفيرا للسلف كما يقوله من يقوله من الرافضة والخوارج، ولا تفسيقا لهم كما يقوله من يقوله من المعتزلة والزيدية وغيرهم كان تجهيلا لهم وتخطئة وتضليلا، أو نسبة لهم إلى الذنوب والمعاصي وإن لم يكن فسقا، وزعما أن أهل القرون المفضولة في الشريعة أعلم وأفضل من أهل القرون الفاضلة.

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من غير وجه [٤]، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وعمل وإيمان

---

(١) حديث صحيح أخرج "البخاريّ": التفسير، باب وانشق القمر، ٨/ ٦١٧" وغيره.

(٢) وهو حديث صحيح أيضا، أخرجه مسلم: كتاب القدر ٤/ ٢٠٣٧، ح ٢٦٤٥..

(٣) للاطلاع على هذه الأقوال الشنيعة وجواب ابن قتيبة عنها. انظر: تأويل مختلف الحديث ص١٩ وما بعدها. "ط ١٣٩٣، بتصحيح محمد زهدي النجار".

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٥١, ٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣, ٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين وابن مسعود-رضي الله عنهما-.

وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل.

هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم، كما **قال عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه**-(ت: ٣٢ هـ): "من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم".

وقال غيره: (عليكم بآثار من سلف، فإنهم جاؤوا بما يكفي وما يشفي، ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه).

هذا، وقد قال – صلى الله عليه وسلم -: (**لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**).[١]".[٢]

المسألة الثانية: الآثار الواردة في ذم من سب الصحابة.

عن أبي سعيد-رضي الله عنه-(ت: ٧٤ هـ)، قال كان بين خالد بن الوليد-رضي الله عنه-(ت: ٢١ هـ)، وبين عبد الرحمن بن عوف-رضي الله عنه-(ت: ٣٢ هـ)، شيء، فسبه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**لا تسبوا أحدا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**).[٣]

عن ابن عباس-رضي الله عنهما-(ت: ٦٨ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (**مَن سب أصحابي، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين**).[٤]

عن ابن عمر-رضي الله عنهما-(ت: ٧٣ هـ)، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: أنه

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨)

(٢) مجموع الفتاوى ٤ / ١٥٧، كتاب الانتصار لأهل الأثر المطبوع باسم نقض المنطق ص: ٢٢٢-٢٢٣.

(٣) صحيح مسلم ٤/١٩٦٧.

(٤) أخرجه الطبراني في "الكبير" انظر: (صحيح الجامع: ٦٢٨٥).(الصحيحة: ٢٣٤٠).

قال: **(لعن اللهُ من سب أصحابي)**.[١]

عن عبدا لله بن مسعود–رضي الله عنه–(ت: ٣٢ هـ)، عن النبي–صلى الله عليه وسلم– قال: **(إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا)**.[٢]

عن عائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)، قالت: "أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي–صلى الله عليه وسلم–، فسبوهم!، ثم قرأت: **﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾** [الحشر: الآية: ١٠]".[٣]

وقال ابن عباس–رضي الله عنهما–(ت: ٦٨ هـ): "لا تسبوا أصحاب محمد–صلى الله عليه وسلم–، فإن الله قد أمرنا بالاستغفار لهم، وهو يعلم أنهم سيقتتلون".[٤]

عن ميمون بن مهران–رحمه الله–(ت: ١١٦ هـ)، قال: "ثلاث ارفضوهن:

١–سب أصحاب محمد–صلى الله عليه وسلم–،

٢–والنظر في النجوم،

٣–والنظر في القدر".[٥]

قال مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "من شتم النبي–صلى الله عليه وسلم–قتل، ومن شتم أصحابه أُدِّب".[٦]

قال مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "إنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النبي–صلى الله عليه وسلم–فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه حتى يقال: رجل سوء كان له أصحاب سوء

---

(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" انظر: (صحيح الجامع: ٥١١١).

(٢) أخرجه الطبراني في "الكبير" انظر: (صحيح الجامع: ٥٤٥).

(٣) (الدر المنثور) للسيوطي (٨/ ١١٣).

(٤) (الشرح والإبانة) لابن بطة (١١٩)، وأورده القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن) (١٨/ ٣٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في (فضائل الصحابة) (١٩، ١٧٣٩)، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/ ١٤٩).

(٦) الشفا للقاضي عياض ج ٢ ص ٣٠٨، ومناقب مالك للزواوي ص ٨٣.

ولو كان رجلا صالحا كان أصحابه صالحين".(١)

قال مالك–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "من شَتَم أَحَدًا من أَصْحَاب النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم أَبَا بَكْر، أَو عُمَر، أَو عُثْمَان، أَو مُعَاوِيَة، أَو عَمْرو بن الْعَاص، فَإِن قَال كَانُوا عَلَى ضَلال وَكُفْر قُتِل وَإِن شَتَمَهُم بِغَيْر هَذَا من مُشَاتَمَة النَّاس نُكِّل نَكَالًا شَدِيدًا".(٢)

قال الإمام مالك بن أنس–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "مَنْ غَاظَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَهُوَ كَافِرٌ قَال اللَّه تَعَالَى ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: الآية: ٢٩]".(٣)

وقال عبد الرحمن بن القاسم–رحمه الله–(ت: ١٩١ هـ)، عَنْ مالك بن أنس–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ)، قَالَ "مَنِ انْتَقَصَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْفَيْءِ شَيْءٌ".(٤)

قال الإمام مالك بن أنس–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا".(٥)

وقال ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "وصدقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة والأخبار المتداولة".(٦)

وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "إذا رأيت رجلا يذكر أحدًا من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام".(٧)

---

(١) الصارم المسلول لابن تيمية ص٥٨٠.

(٢) الشفا للقاضي عياض ج ٢ ص ٣٠٨.

(٣) مسند الموطأ للجوهري ص ١١١.

(٤) مسند الموطأ للجوهري ص ١١١.

(٥) "تفسير ابن كثير" (٧/ ٣٦٢).

(٦) "تفسير ابن كثير" (٧/ ٣٤٣).

(٧) (البداية والنهاية) (٨/ ١٤٢)، وانظر: (المسائل والرسائل المروية عن أحمد في العقيدة) للأحمدي (٢/ ٣٦٣، ٣٦٤)، الكفاية في علم الرواية (ص: ٩٧).

وقال أبو زرعة الرازي-رحمه الله-(ت: ٢٨٩ هـ): "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة".[١]

وقال الإمام أبو نعيم-رحمه الله-(ت: ٤٣٠ هـ): "فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وزللهم ويحفظ عليهم ما يكون منهم في حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه".[٢]

وقال الإمام أبو نعيم-رحمه الله-(ت: ٤٣٠ هـ): "لا يبسط لسانه فيهم إلا من سوء طويته في النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والإسلام والمسلمين".[٣]

وكما قال بعض السلف: "من طعن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فمراده ليس أعيانهم".[٤] أعيانهم عند الله عز وجل قدرهم ومكانتهم ومنزلتهم.

لكن أراد هذا الطاعن أن يطعن في النقلة ليطعن في هذا الدين، هؤلاء هم النقلة هؤلاء هم الحفظة الذين نقلوا لك كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا أنت طعنت في الناقل فإنما تقصد الطعن في المنقول، والمنقول ما هو؟ كتاب الله عز وجل وسنة نبيه-صلى الله عليه وسلم-، فإذا شُككت في الناقل فهذا التشكيك القصد منه التشكيك في المنقول، والمنقول هو كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

من جمع هذا القرآن؟ من حفظه وقدمه لهذه الأمة؟ أليسوا هم أصحاب النبي-صلى الله عليه

---

(١) (الكفاية) للخطيب البغدادي (ص: ٩٧).

(٢) (تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة) لأبي نعيم (ص: ٣٤٤).

(٣) (تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة) لأبي نعيم (ص: ٣٧٦).

(٤) انظر الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي صفحة (٤٩).

وسلم-، فإذا شككت في عدالتهم وشككت في أمانتهم فعند ذلك ما بقي قيمة لكتاب الله ولا سنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، وبالتالي فإن صاحب السنة ليس لديه مشكلة مع القرآن، ولا مع السنة، فهو يؤمن بأن القرآن محفوظ، وأن القرآن كامل وليس فيه نقص وليس فيه تحريف، ويعرف أن الذين نقلوا وحفظوه عدول.

لكن عند أولئك الذين طعنوا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كل المشكلة، فعندهم مشكلة مع القرآن فهم يرون أن فيه حذفاً، ويرون أن فيه تحريفاً، ويرون أن وفيه زيادة إلى غير ذلك، فالمشكلة مشكلتهم هم.

فكما قال قائل لما سئل، لماذا أنت تحولت من عقيدة الرافضة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة؟ قال: لماذا لا أتحول وقد أصبحت والحمد لله مرتاحاً للقرآن أؤمن وأعتقد به، ومطمئن بأنه كامل؛ وأن نقلته عدول، وأصبحت والحمد لله آمن على ديني، لأنه إذا كان أولئك لا يستحقون الجنة فعقلاً كيف أستحقها، فإذا كان أبو بكر وعمر لا يستحقون الجنة فكيف أنا أستحق الجنة.

فلماذا لا أكون على عقيدة أهل السنة، والحمد لله أهل السنة ما عندهم أي إشكال مع أحد من الصحابة كلهم عدول، وكلهم على فضل، وكلهم على خير، وكلهم على منزلة وعلى مكانة، يترضون عليهم جميعاً، وتجد أن أسماءهم، وأسماء آبائهم، وأسماء أبنائهم، وأسماء إخوانهم، وأبناء عمومتهم تشمل جميع أسماء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم دون تفريق.

فيتسمون بجميع أسماء الصحابة، لا نستثني منهم أحداً، فكل أسمائهم مقبولة لديهم ويفتخرون بذلك، فصاحب السنة بحمد الله تعالى ليس عنده أي غلٍ أو حقدٍ أو تحاملٍ على أي أحد منهم بل الإقرار بالفضل والترضي والاعتراف بالقيمة والمنزلة والمكانة التي أعطاهم الله إياها، وكيف لا يكون ذلك والله تعالى قد زكاهم، ونبيه صلى الله عليه وسلم قد زكاهم، ألم يقل عز وجل: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [التوبة: الآية:١٠٠]، فالله رضي عنهم، ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ [الفتح: الآية:١٨].

فهذا والله من الخذلان، ولكن حقيقة طعن هؤلاء إنما هو الطعن في الدين، فأرادوا الطعن في الدين من خلال الطعن في النقلة الذين نقلوا لك هذا الدين.

فاعرف لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حقهم، وقدرهم، وهذا الذي عمل به أهل السنة، ودونوه جملة وتفصيلا، ولذلك ذكروا من فضائل أصحاب النبي–صلى الله عليه وسلم– جملة، وذكروا من فضائل أعيانهم واحداً واحدا، فكيف ينقم من ينقم على أبي بكر، هل لأنه من صدق النبي صلى الله عليه وسلم، أو لأنه هاجر معه، أو لأنه وقف تلك المواقف في خدمة الإسلام، وكيف من ينقم من ينقم على عمر–رضي الله عنه–وهو الذي–بعد فضل الله عز وجل–انتشر الإسلام على يديه شرقاً وغرباً وبلغت الفتوحات في عهده ما لم تبلغه في زمنٍ من الأزمان.

فقلوب أهل السنة سليمة سالمة لأصحاب النبي–صلى الله عليه وسلم–نحفظ لهم الحق ونحفظ لهم الفضل، ونحفظ لهم القدر، ونترضى عليهم ونترحم عليهم، ونعرف أن فضلهم على هذه الأمة لا يمكن أن يوازيه شيء.

هذه العقيدة السليمة الصافية ليست العقيدة التي تصب حقداً وغلاً على أفضل هذه الأمة بعد نبيها–صلى الله عليه وسلم–.

أهل السنة والجماعة كلها تبين: أنهم هم الفائزون بسلامة الصدور من الغل والحقد لأصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وأنهم يعتقدون أن من حق الصحابة الكرام على من بعدهم الترحم عليهم، والاستغفار لهم، فأهل السنة والجماعة يترحمون على أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، صغيرهم وكبيرهم، وأولهم وآخرهم، ويذكرون محاسنهم وينشرون فضائلهم، ويقتدون بهديهم، ويقتفون آثارهم، ويعتقدون أن الحق في كل ما قالوه، والصواب فيما فعلوه".[١]

فالطعن في الصحابة هو مسألة خطيرة جدًا في الإسلام، وأهل السنة والجماعة يرون في الطعن في الصحابة مفسدة عظيمة وسببًا للانحراف عن منهج الحق.

(١) انظر (الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة) لابن بطة (٢٦٤ – ٢٦٥).

قال ابن حجّر العسقلاني–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا وأن المصيب يؤجر أجرين".(١)

المسألة الثالثة: حكم من سب الصحابة أو انتقصهم وما يترتب على الطعن في الصحابة.

عن جابر بن عبد الله–رضي الله عنهما–(ت: ٧٨ هـ)، قال: **قيل لعائشة–رضي الله عنها–(ت: ٥٧ هـ)**: "إن ناسا يتناولون أصحاب النبي–صلى الله عليه وسلم–، حتى أبا بكر وعمر، فقالت: وما تعجبون من هذا؟ انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا ينقطع عنهم الأجر".(٢)

قَالَ محمد بن سيرين–رحمه الله–(ت: ١١٠ هـ): "مَا أَظُنُّ أَحَدًا يَنْتَقِصُ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَهُوَ يُحِبُّ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–".(٣)

قَالَ مالك بن أنس–رحمه الله–(ت: ١٧٩ هـ): "مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ–صلى الله عليه وسلم– قُتِلَ، وَمَنْ شَتَمَ أَصْحَابَهُ أُدِّبَ".

وَقَالَ أَيْضًا: "مَنْ شَتَمَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيّ – صلى الله عليه وسلم – أبا بكر، أَوْ عُمَرَ، أَوْ عُثْمَانَ، أَوْ مُعَاوِيَةَ، أَوْ عَمْرِو بْنَ الْعَاصِ فَإِنْ قَالَ: كَانُوا عَلَى ضَلَالٍ وَكُفْرٍ قُتِلَ، وَإِنْ شَتَمَهُمْ بِغَيْرِ هَذَا مِنْ مُشَاتَمَةِ النَّاسِ نُكِّلَ نَكَالًا شَدِيدًا".(٤)

وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "ومن السنة الواضحة الثابتة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين والكف عن ذكر ما شجر بيهم،

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى – محذوف الأسانيد (٢/ ٦٥٢).

(٢) ذكره ابن الأثير في "جامع الأصول" (٨/ ٥٥٤).

(٣) تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٢٨٤).

(٤) فتح الباري ١٣/ ٣٤.

فمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحدا منهم أو تنقصه أو طعن عليهم، أو عرض بعيبهم أو عاب أحدا منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، بل حبهم سنة والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة والأخذ بآثارهم فضيلة وخير هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر، وعمر بعد أبي بكر وعثمان بعد عمر وعلي بعد عثمان ووقف قوم على عثمان وهم خلفاء راشدون مهديون، ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الأربعة خير الناس لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساويهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا ينقص فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته ليس له أن يعفوا عنه بل يعاقبه ويستتيبه، فإن تاب قبل منه وإن ثبت أعاد عليه العقوبة وخلده في الحبس حتى يموت أو يراجع".(١)

وقال النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "واعلم أن سبّ الصَّحابة–رضي الله عنهم– حرام ... من فواحش المحرَّمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره".(٢)

يقول ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) في تقرير وسطية أهل السنة: "هم وسط في أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–بين الغالي في بعضهم الذي يقول بإلهية، أو نبوة، أو عصمة، والجافي فيهم: الذي يكفر بعضهم، أو يفسقه، وهم خيار الأمة".(٣)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما من سبهم سباً لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل، أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد ونحو ذلك، فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من أهل العلم.

وأما من لعن وقبح مطلقاً فهذا محل الخلاف فيهم، لتردد الأمر بين لعن الغيظ ولعن الاعتقاد.

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٣٠، كتاب السنة للإمام أحمد ص/١٧.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم١٦/ ٩٢، ط/دار إحياء التراث العربي.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/ ٧٥.

وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله–عليه الصلاة والسلام–إلا نفراً قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفساً، أو أنهم فسقوا عامتهم ، فهذا لا ريب أيضاً في كفره، لأنه كذب لما نصه القرآن في غير موضع: من الرضى عنهم والثناء عليهم، بل من يشك في كفره مثل هذا فإن كفره متعين، فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق، وأن هذه الآية التي هي ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: الآية: ١١٠]، وخيرها هو القرن الأول، كان عامتهم كفاراً أو فساقاً، ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم، وأن سابقي هذه الأمة هم شرارها ، وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام.

ولهذا تجد عامة من ظهر عليه شيء من هذه الأقوال، فإنه يتبين أنه زنديق، وعامة الزنادقة إنما يستترون بمذهبهم، وقد ظهرت لله فيهم مثلات، وتواتر النقل بأن وجوههم تمسخ خنازير في المحيا والممات، وجمع العلماء ما بلغهم في ذلك، وممن صنف فيه الحافظ الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي كتابه في النهي عن سب الأصحاب، وما جاء فيه من الإثم والعقاب.

وبالجملة فمن أصناف السابة من لا ريب في كفره ومنهم من لا يحكم بكفره، ومنهم من تردد فيه".(١)

وقال الإمام الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "إنما يعرف فضائل الصحابة–رضي الله عنهم–من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم في حياة رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وبعد موته؛ من المسابقة إلى الإيمان، والمجاهدة للكفار، ونشر الدين، وإظهار شعائر الإسلام، وإعلاء كلمة الله ورسوله، وتعليم فرائضه وسننه، ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع، ولا علمنا من الفرائض والسنن سنةً ولا فرضًا، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئًا.

فمن طعن فيهم أو سبهم، فقد خرج من الدين، ومرق من ملة المسلمين؛ لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساوئهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من

---

(١) "الصارم المسلول على شاتم الرسول" (ص ٥٩٠–٥٩١).

ثنائه عليهم، وفضائلهم ومناقبهم وحبهم.

ولأنهم أرضى الوسائل المأثورة، والوسائط من المنقول، والطعن في الوسائط طعن في الأصل، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول، وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق والزندقة والإلحاد في عقيدته".(١)

قال ابن فرحون-رحمه الله-(ت: ٧٩٩ هـ): "وأما من شتم أحدًا من أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم- أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو عليًّا، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فإن قال: كانوا على ضلال، فقد كفر، وقُتل، وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس، نكل نكالًا شديدًا، ومن سب أحدًا من آل النبي صلى الله عليه وسلم يضرب ضربًا وجيعًا، ويشهر، ويحبس طويلًا حتى تظهر توبته؛ لأنه استخفاف بحق الرسول صلى الله عليه وسلم؛ اهـ بتصرف".(٢)

وقال تقي الدين السبكي-رحمه الله-(ت: ٧٥٦ هـ): "وينبني على هذا البحث سب بعض الصحابة فإن سب الجميع لا شك أنه كفر، وهكذا إذا سب واحدا من الصحابة حيث هو صحابي، لأن ذلك استخفاف بحق الصحبة ففيه تعرض إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- فلا شك في كفر الساب، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول الطحاوي "وبغضهم كفر" فإن بغض الصحابة بجملتهم لا شك أنه كفر، وأما إذا سب صحابيا لا من حيث كونه صحابيا بل لأمر خاص به وكان ذلك الصحابي مثلا ممن أسلم من قبل الفتح ونحن نتحقق فضيلته كالروافض الذين يسبون الشيخين، فقد ذكر القاضي حسين في كفر من سب الشيخين وجهين .

ووجه التردد ما قدمناه فإن سب الشخص المعين قد يكون لأمر خاص به، وقد يبغض الشخص الشخص لأمر دنيوي وما أشبه ذلك فهذا لا يقتضي تكفيرا، ولا شك أنه لو أبغض واحدا منهما لأجل صحبته فهو كفر، بل من دونهما في الصحبة إذا أبغضه لصحبته كان كافرا

(١) "الكبائر" (ص٢٧٦).

(٢) "تبصرة الحكام"(٢/ ٢١٣).

قطعا".[١]

ومما يترتب على الطعن في الصحابة:

أولًا: يترتب على القول بكفر وارتداد معظم الصحابة أو فسقهم إلا نفرا يسيرا

فالروافض يزعمون أن الصحابة كفروا جميعا إلا نفر قليل منهم فروى الكشى عن أبي جعفر أنه قال: "كان الناس أهل ردة بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ قال: المقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي..".[٢]

جاء في رجال الكشي ".. عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان الناس أهل الردة بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ فقال: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، ثم عرف الناس بعد يسير، وقال: هؤلاء الذين دارت عليهم الرحا وأبوا أن يبايعوا لأبي بكر حتى جاءوا بأمير المؤمنين مكرها فبايع".[٣]

ثانيًا: الشك في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وذلك لأن الطعن في النقلة طعن في المنقول، إذ كيف نثق بكتاب نقله إلينا الفسقة والمرتدون-والعياذ بالله-ولذلك صرح بعض أهل الضلال والبدع ممن يسب الصحابة بتحريف الصحابة للقرآن، والبعض أخفى ذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة للأحاديث النبوية. فإذا اتهم الصحابة رضوان الله عليهم في عدالتهم، صارت الأسانيد مرسلة مقطوعة لا حجة فيها، ومع ذلك يزعم بعض هؤلاء الإيمان بالقرآن. فنقول لهم: يلزم من الإيمان به الإيمان بما فيه، وقد علمت أن الذي فيه أنهم خير الأمم، وأن الله لا يخزيهم، وأنه رضي عنهم. إلخ، فمن لم يصدق ذلك فيهم، فهو مكذب لما في القرآن ناقض لدعواه.

وقال مالك بن أنس-رحمه الله-(ت: ١٧٩ هـ): "إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي

---

(١) "الصارم المسلول على شاتم الرسول" (ص ٥٩٠-٥٩١).

(٢) رجال الكشي ص: ١٢ نقلا عن الشيعة الإمامية في ميزان الإسلام ص: ٨٩.

(٣) رجال الكشي: ص٦، الكافي، كتاب الروضة: ١٢/٣٢١-٣٢٢ (مع شرح جامع للمازندراني).

صلى الله عليه وسلم، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه؛ حتى يقال: رجل سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين".(١)

وقال أبو زرعة الرازي–رحمه الله–(ت: ٢٨٩ هـ): "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فاعلم أنه زنديق؛ وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة ".(٢)

قال الإمام الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "الطعن في الصحابة رضي الله عنهم زندقة؛ لأن القرآن حق، والسنة حق، وما نقل إلينا إلا من جهتهم، ومن طعن فيهم أراد إبطال الكتاب والسنة". (٣)

ثالثًا: هذا القول يقتضي أن هذه الأمة–والعياذ بالله–شر أمة أخرجت للناس، وسابقي هذه الأمة شرارها، وخيرها القرن الأول كان عامتهم كفارا أو فساقا وإنهم شر القرون. كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

قال الإمام الشعبي–رحمه الله–(ت: ١٠٣ هـ): "ولليهود والنصارى فضيلةٌ على الرَّافضة في خصلتين: سئل اليهود: مَن خير أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى، فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة: مَن شَرُّ أهل مِلتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد. أَمَرَهم بالاستغفار لهم فشَتَموهم".(٤).

رابعًا: أن في ذلك محاولة تقويض أصول الدين والإساءة إلى نقلة الوحي:

---

(١) "الكفاية" للخطيب البغدادي (ص: ٩٧)..

(٢) "الكفاية في علم الرواية" (ص ٤٩).

(٣) "فتاوى السبكي" (٢/ ٥٧٥).

(٤) (العقد الفريد) لابن عبد ربه (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

قال الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "إذا رأيت الرجل يذكر أحدًا من أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–بسوء، فاتهمه على الإسلام".(١)

وعن الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) أنه سئل عن رجل تنقص معاوية، وعمرو بن العاص أيقال له رافضي؟ فقال: إنه لم يجترئ عليهما إلا وله خبيئة سوء، ما انتقص أحد أحدا من الصحابة إلا وله داخلة سوء". وفي رواية أخرى قال: "إذا رأيت رجلا يذكر أحدا من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام".(٢)

وعن مصعب بن عبد الله قال: حدثني أبي عبد الله بن مصعب الزبيري–رحمه الله–(ت: ٢٣٦ هـ)، قال: قال لي أمير المؤمنين المهدي–رحمه الله–(ت: ١٦٩ هـ): يا أبا بكر، ما تقول فيمن تنقص أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–؟

قال: قلت: زنادقة، قال: ما سمعت أحدًا قال هذا قبلك! قال: قلت: هم قوم أرادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنقص، فلم يجدوا أحدًا من الأمة يتابعهم على ذلك، فتنقصوا هؤلاء عند أبناء هؤلاء، وهؤلاء عند أبناء هؤلاء، فكأنهم قالوا: رسول الله–صلى الله عليه وسلم–يصحبه صحابة السوء، وما أقبح بالرجل أن يصحبه صحابة السوء! فقال: ما أراه إلا كما قلت".(٣)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وأما القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول –صلى الله عليه وسلم–فإنما هو طريقة الزنادقة والملحدين ومن انضم إليهم من الرافضة وأشباههم".(٤)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "ولا يطعن على أبي بكر وعمر – رضي الله

---

(١) "السنة" للخلال، ج ١، ص ٢٩٣.

(٢) البداية والنهاية ٨/١٤٢.

(٣) (تاريخ بغداد: ١٠/ ١٧٤).

(٤) "منهاج السنة النبوية"، ج ١، ص ١٨.

عنهما – إلا أحد رجلين: إما رجل منافق زنديق ملحد عدو للإسلام، يتوصل بالطعن فيهما إلى الطعن في الرسول ودين الإسلام وهذا حال المعلم الأول للرافضة، أول من ابتدع الرفض، وحال أئمة الباطنية، وإما جاهل مفرط في الجهل والهوى، وهو الغالب على عامة الشيعة، إذا كانوا مسلمين في الباطن".[١]

قال الإمام الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "فمن طعن فيهم أو سبهم، فقد خرج من الدين، ومرق من ملة المسلمين؛ لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساوئهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم، وفضائلهم ومناقبهم وحبهم.

ولأنهم أرضى الوسائل المأثورة، والوسائط من المنقول، والطعن في الوسائط طعن في الأصل، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول، وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق والزندقة والإلحاد في عقيدته".[٢]

خامسًا: تفريق الأمة وإثارة الفتن:

قيل للإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ): "ما تقول فيمن زعم أنه مباح له أن يتكلم في مساوي أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟ فقال أبو عبد الله: هذا كلام رديء يجانبون هؤلاء القوم ولا يجالسون ويبين أمرهم للناس".[٣]

ونقل الحافظ ابن حجر رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): عن أبي المظفر السمعاني–رحمه الله–(ت: ٤٨٩ هـ)، أنه قال في كتابه "الاصطلام": "التعرض إلى جانب الصحابة علامة على خذلان فاعله، بل هو بدعة وضلالة".[٤]

وسئل الإمام النسائي–رحمه الله–(ت: ٣٠٣ هـ) عن معاوية بن أبي سفيان–رضى الله

---

[١] منهاج السنة النبوية (٦/ ١١٥).

[٢] "الكبائر" (ص٢٧٦).

[٣] (السنة) للخلال بسند صحيح (٥١٢).

[٤] فتح الباري ٤/٣٦٥.

عنهما – فقال: "إنما الإسلام كدار لها باب، فباب الإسلام الصحابة، فمن آذى الصحابة إنما أراد الإسلام، كمن نقر الباب – أى نقبه – إنما يريد دخول الدار، قال: فمن أراد معاوية فإنما أراد الصحابة".[(١)]

وقال أبو نعيم–رحمه الله–(ت: ٤٣٠ هـ): "فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وزللهم، ويحفَظ عليهم ما يكون منهم في حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه".[(٢)]

قال الإمام النووي–رحمه الله–(ت: ٦٧٦ هـ): "الطعن في الصحابة رضي الله عنهم بدعة منكرة، وهي مذهب بعض أهل البدع، ومروج الفتن، وأهل السنة لا يرون ذلك".[(٣)].

قال الإمام ابن كثير–رحمه الله–(ت: ٧٧٤ هـ): "الصحابة كلهم عدول، أثنى الله عليهم ورسوله، ولا يطعن فيهم إلا مبتدع مبتغٍ للفتنة".[(٤)].

سادسًا: الطعن في الصحابة يدل على سوء طوية وقصور عقل وقلة مروءة.

وقال أبو نعيم–رحمه الله–(ت: ٤٣٠ هـ): "لا يبسط لسانه فيهم إلا مِن سوء طَويته في النبي–صلى الله عليه وسلم–، وصحابته، والإسلام، والمسلمين".[(٥)] وقال الزيلعي–رحمه الله–(ت: ٧٦٢ هـ): "أو يظهر سب السلف يعني الصالحين منهم وهم الصحابة والتابعون لأن هذه الأشياء تدل على قصور عقله وقلة مروءته، ومن لم يمتنع عن مثلها لا يمتنع عن الكذب عادة بخلاف ما لو كان يخفي السب".[(٦)]

---

(١) تهذيب الكمال للحافظ للمزى ٣٣٩/١ ترجمة الإمام النسائى.

(٢) "تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة" لأبي نعيم (ص: ٣٤٤).

(٣) "شرح صحيح مسلم"، ج ١٦، ص ٩٣.

(٤) "البداية والنهاية"، ج ٨، ص ٢٣٤.

(٥) "تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة" لأبي نعيم (ص: ٣٧٦).

(٦) حاشية ابن عابدين ٢٣٦/٤.

فضل العرب

[٨٢]- قال المصنف رحمه الله: ويعرف للعرب حقَّها، وفضلها، وسابقتها، ويحبهم.

الشرح

قال ابن تيمية رحمه الله في "اقتضاء الصراط" ١/ ٣٧٩: فإنَّ الذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم عبرانيهم وسريانيهم ورومیهم وفارسيهم وغيرهم وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً، وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم لمجرد كون النبي صلى الله عليه وسلم منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أفضل نسباً ونفساً.

وقال في مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٩: وجمهور العلماء على أن جنس العرب خير من غيرهم، كما أن جنس قريش خير من غيرهم، وجنس بني هاشم خير من غيرهم، وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)، ولكن تفضيل الجملة على الجملة لا يستلزم أن يكون كل فرد أفضل من كل فرد، فإن في غير العرب خلق كثير خير من أكثر الغرب، وفي غير قريش من المهاجرين والأنصار من هو خير من أكثر قريش.

حال حديث حب العرب إيمان

[٨٣]- وقول المصنف رحمه الله: لحديث رسول الله ﷺ: (حب العرب إيمان، وبغضهم نفاق)

الشرح

هذا الحديث رواه الحاكم ٤/ ٨٧ وقال إنه صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي فقال: الهيثم متروك، ومعقل ضعيف، وقال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٨٧: وقد احتج حرب الكرماني وغيره بهذا الحديث وذكروا لفظه: حب العرب إيمان، وبغضهم نفاق وكفر، وهذا الإسناد وحده فيه نظر؛ لكن لعله روي من وجه آخر، وإنما كتبته لموافقته معنى حديث سلمان، فإنه صرح في حديث سلمان بأن بغضهم نوع كفر، ومقتضى ذلك أن حبهم نوع إيمان فكان هذا موافقًا له.

رد ابن تيمية على الذين يبغضون العرب

[٨٤]- قال المصنف رحمه الله: ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ولا يُقرِّون لها بفضل، فإن قولهم بدعة وخلاف.

الشرح

قال ابن تيمية رحمه الله في اقتضاء الصراط ١/ ٣٧٢: وذهبت فرقة من الناس إلى أن لا فضل لجنس العرب على جنس العجم، وهؤلاء يسمون الشعوبية، لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقائل، كما قيل: القبائل للعرب، والشعوب للعجم، ومن الناس من قد يفضل بعض أنواع العجم على العرب. والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلَّا عن نوع نفاق، إما في الاعتقاد وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس مع شبهات اقتضت ذلك.

حكم البيع والتجارة

[٨٥]- قال المصنف رحمه الله: ومن حرَّم المكاسب والتجارات وطلب المال من وجوهها؛ قد جهل وأخطأ وخالف، بل المكاسب من وجوهها حلال فقد أحلَّها الله عز وجل ورسوله ﷺ، والعلماء من الأمة. فالرجل ينبغي له أن يسعى على نفسه وعياله، ويبتغي من فضل ربه، فإن ترك ذلك على أنه لا يرى الكسب فهو مخالف.

الشرح

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: الآية: ٢٧٥]

ومن ضمن ذلك ما يكون من الشراء والبيع فهذا الشراء وهذا البيع هو بضوابطه الشرعية، فمتى كان بضوابطه الشرعية من غير أن يدخله نوع تغيير أو ظلم أو جور أو خلاف ما جاءت به النصوص فهو أمر حلال.

أما إذا دخله أمرٌ من الأمور من غشٍ أو من سوء معاملة ونحو ذلك فعند ذلك ينتقل من الحِل إلى الحرمة.

وقد قرر أهل السنة في عقائدهم إباحة المكاسب والطيبات خلافًا لليهود ومن سلك مسلكهم من الرافضة، والمعتزلة، والمتصوفة، وطائفة من مصنفي الفقهاء كما سيأتي.

قال ابن بطة: "ولا تحرم شيئًا مما أحله الله فإن فاعل ذلك مفتر على الله، راد لقوله معتد ظالم،... ثم إن الروافض تشبهت باليهود في تحريم ما أحل الله... وحرموا الجري[(١)] ولحم الجزور"[(٢)]

وقال أبو عمرو الداني: "وأكل الحلال فريضة، لقوله-تعالى-: (كلوا من الطيبات) وتجنب الشبهات واتقاؤها من كمال الورع، وفي ذلك السلامة من الحرام لقوله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ١٥٣) الجريُ ضرب من السمك لا يأكله اليهود.

(٢) الإبانة الصغرى: ص: ٢٩٢.

(من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام)[١]، والحلال موجود وغير معدوم، قال الله-تعالى-: (وأحل الله البيع وحرم الربا) وقال: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)، والتجارة رزق من رزق الله، وحلال من حلال الله تعالى، ولو كان الحلال معدومًا على ما يزعمه بعض المعتزلة لصار الحرام مباحًا للضرورة"[٢].

وقال قوام السنة الأصفهاني: "والشراء والبيع حلال إلى يوم القيامة على حكم الكتاب والسنة"[٣]

وهذا كذلك فيه ردٌّ على زعم بعض المتصوفة بوجوب ترك التجارة والمكاسب والزهد في الدنيا والانقطاع عنها، ومعلوم أن هناك فارق بين قول أهل السنة في الزهد وبين قول هؤلاء المتصوفة الذين انحرفوا في هذا الباب؛ إذ زعموا أن الزهد في الدنيا هو الانقطاع عنها، وزعموا كذلك أن الاشتغال بالتكسُّب والتجارة كله حرام، وزعموا أن هذه الأموال أموالٌ محرمة.

قال تعالى: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) [البقرة ٢٧٥].

قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: "كسبٌ فيه بعضُ الدنيّة خيرٌ من الحاجةِ بين الناس"[٤]

وبَيَّنَ ابنُ خفيف رحمه الله معتقد أهل السنة في ذلك، فقال: (ومما نعتقده أن الله أباح المكاسب والتجارات والصناعات، وإنما حرم الله الغش والظلم، وأن من قال بتحريم تلك المكاسب فهو ضالٌ مضلٌّ مبتدع)، وهذا الأمر يوجد في أفهام الصوفية، ويروِّجون له؛ بزعم أن الاشتغال بالتكسب وبالتجارة مما حرمه الله.

وقال ابن خفيف: (إذ ليس الفساد والظلم والغش من التجارات والصناعات بشيء، وإنما حرم الله ورسوله الفساد لا الكسب والتجارات، فإنها على أصل الكتاب والسنة جائزة إلى يوم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، وأخرجه مسلم (١٥٩٩).

(٢) الرسالة الوافية ص: (١٤٥-١٤٦).

(٣) الحجة ٢/ ٣٦٦.

(٤) انظر كتاب الآداب الشرعية والمنح المرعية الجزء الثالث، صفحة (٢٧٧).

القيامة، وإن مما نعتقد أن الله لا يأمر بأكل الحلال ثم يعدمهم الوصول إليه من جميع الجهات)[١]، يعني: يجعل الخلقَ ممنوعين من الوصول إلى ذلك.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل نقل عن بعض السلف من الفقهاء أنه قال: أكل الحلال متعذر لا يمكن وجوده في هذا الزمان.

فكان من جوابه: "هذا القائل الذي قال: أكل الحلال متعذر، لا يمكن وجوده في هذا الزمان غالط مخطئ في قوله باتفاق أئمة الإسلام، فإن مثل هذه المقالة كان يقولها بعض أهل البدع، وبعض أهل الفقه الفاسد، وبعض أهل النسك الفاسد، فأنكر الأئمة ذلك، حتى الإمام أحمد في ورعه المشهور كان ينكر مثل هذه المقالة[٢]).

إلى أن قال: "ومثل هذا كان يقوله بعض المنتسبين إلى العلم من أهل العصر، وبناء على هذه الشبهة الفاسدة، وهو أن الحرام قد غلب على الأموال لكثرة الغصوب والعقود الفاسدة ولم يتميز الحلال من الحرام.

ووقعت مثل هذه الشبهة عند طائفة من مصنفي الفقهاء، فأفتوا بأن الإنسان لا يتناول إلا مقدار الضرورة، وطائفة لما رأت مثل هذا الحرج سدت باب الورع..."[٣]).

ويقول شارح (العقيدة الطحاوية): "قد ظَنَّ بعضُ الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مُقَدَّرة فلا حاجة إلى الأسباب! وهذا فاسد؛ فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مُستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، كما قد عُرف في موضعه. وقد كان النبي ﷺ-أفضل المتوكلين-يَلبس لَأْمَةَ الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان: ٧]. ولهذا تجد كثيرًا ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يُرزقون على يد مَن يُعطيهم؛ إمَّا صدقة، وإمَّا

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى: ص: ٤٥٨.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب الحث على التجارة للخلال.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٩/ ٣١١، ٣١٢؛ باختصار، وانظر ٢٩/ ٥٩٣.

هدية..."([١]).

وقال ابنُ القيم: "وفي الأحاديث الصَّحيحة الأمر بالتَّداوي، وأنَّه لا يُنافي التوكل، كما لا يُنافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتمُّ حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نَصَبَها الله مقتضيات لمسبباتها قَدَرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يَقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة ويُضعفه من حيث يظنُّ مُعطلها أنَّ تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجزًا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يَضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلَّا كان معطلًا للحكمة والشرع؛ فلا يجعل العبد عجزه توكلًا ولا توكله عجزًا) ([٢]).

وقال ابنُ حَجَر: (المراد بالتوكل: اعتقاد ما دَلَّت عليه هذه الآية: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وليس المراد به: ترك التسبب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين؛ لأنَّ ذلك قد يَجُرُّ إلى ضِد ما يَرَاه من التوكل، وقد سئل أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد، وقال: لا أعمل شيئًا حتى يَأتيني رزقي! فقال: هذا رجل جَهِل العلمَ؛ فقد قال النبي ﷺ: (إنَّ الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي"([٣])، وقال: (لو تَوكلتم على الله حقَّ تَوكله لرزقكم كما يَرزق الطير تَغدو خماصًا، وتَروح بِطانًا) ([٤])، فذكر أنَّها تَغدو وتروح في طلب الرزق، قال: وكان الصحابة يَتَّجِرون ويَعملون في نَخيلهم، والقدوةُ بهم"([٥]).

([١]) (شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز (ص٢٧٠)، دار السلام، الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

([٢]) (زاد المعاد في هدي خير العباد) (٤/ ١٥)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

([٣]) جزء من حديث؛ أورده البخاري تعليقًا في باب (مَا قِيلَ فِي الرِّمَاحِ) (٤/ ٤٠)، وأخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) (١٩٤٠١)، وأحمد في (المسند) (٥١١٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في (الإرواء) (١٢٦٩). ولابن رجب الحنبلي رسالة ماتعة في شرح هذا الحديث، بعنوان: (الحِكَم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: (بُعِثتُ بالسَّيف بين يدي السَّاعة).

([٤]) أخرجه أحمد في (المسند) (٢٠٥)، والترمذي (٢٣٤٤) من حديث عمر ‌ؓ، وصححه الألباني في (الصحيحة) (٣١٠).

([٥]) (فتح الباري) (١١/ ٣٠٥، ٣٠٦)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.



كل أحد أحق بماله

[٨٦]- وكل أحد أحق بماله الذي ورثه، أو استفاده، أو أصابه، أو اكتسبه، لا كما يقول المتكلمون المخالفون.

الشرح

إن علم الفرائض (المواريث) هو أحد جليلِ علوم الفقه في الدين، وهو العلم الذي يعنى بقسمة التركة على مستحقيها وفق ما حدده الشارع الحكيم. وقد تولى اللهُ جل وعلا تقدير هذه الأنصبة بنفسه في كتابه الكريم، ولم يكلها إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، فجاءت أحكاماً محكمةً، وقواعدَ مبرمة، تقطع دابر النزاع وتُقيم العدل بين العباد.

وقد جاء الإسلام ليُبطل ما كان عليه أهل الجاهلية من ضلال؛ حيث كانوا يورثون الرجال المقاتلين دون النساء والضعفاء والصغار، فرفع الإسلام الظلم، وأعطى كل ذي حق حقه بنصوص قطعية الثبوت والدلالة. فالميراث في الإسلام ليس مجرد توزيع مالي، بل هو تعبّدٌ لله والتزامٌ بحدوده التي لا يجوز تجاوزها.

ويستند تقسيم التركات في ديار المسلمين إلى نصوص الوحيين (الكتاب والسنة)، وهي نصوص محكمة لا يدخلها النسخ ولا يقبلها التأويل، ولا مجال فيها للاجتهاد أو الرأي أو الأهواء البشرية. فالله عز وجل بعد أن فصّل الأنصبة في سورة النساء، ختمها بالوعيد الشديد والوعد السديد، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

الميراث بين ضلال الجاهلية وهدي الإسلام

كان الميراث عند أهل الجاهلية مبنياً على القوة والنصرة، لا على صلة الرحم وإيتاء الحقوق؛ فكانوا يمنعون الضعفاء من النساء والولدان، ويخصون بالمال الرجال المقاتلين الذين يذودون عن القبيلة ويحوزون الغنائم.

أولاً: أسباب الميراث في الجاهلية وشروطه الجائرة

اعتمدت الجاهلية في توريثها على أسباب باطلة ومناهج قائمة على "الحمية"، وهي:

القرابة المشـــروطة بالمنعة: لم تكن مجرد القرابة ســـبباً للإرث عندهم، بل اشـــترطوا في القريب ثلاثة شروط:

الذكورة: فلا نصيب للأنثى، بل كانت المرأة تُورث كالمتاع والبهيمة.

البلوغ: فلا حق للصبي الصغير لعدم قدرته على الحرب.

القدرة على القتال: فالمعيار عندهم هو الطعان بالرمح والضـــرب بالســـيف، فمن لا يركب الخيل لا يحوز الأموال.

المحالفة وهي عهود الجاهلية القائمة على قولهم: "دمي دمك، وهدمي هدمك، ترثني وأرثك"، فيرث الحليف حليفه دون ذوي الأرحام.

التبني: حيث كانوا يُلحقون الأجنبي بنســـبهم فيرث كالأبناء، وهو ما أبطلته الشـــريعة فيما بعد لقطع دابر اختلاط الأنساب.

ثانياً: مجيء الوحي بالعدل والقسط

جاء الإســـلام والنور النبوي ليخرج الناس من ظلمات الجور إلى نور العدل، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، ليفصل بها في قضية "بنتي سعد بن الربيع" (رضي الله عنه)، حين استولى عمهما على مالهما بذريعة الجاهلية.

ففي الحديث الصـــحيح الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما، أن امرأة جاءت بابنتين لها فقالت: "يا رسول الله، هاتان بنتا سعد بن الربيع، قُتل معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، ولا تُنكحان إلا ولهما مال". فانتظر النبي ﷺ حكم الوحي، فنزل القرآن بفرض الميراث للنســاء والصـغار، فأمر النبي ﷺ العمَّ قائلاً: (أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ).

مراحل تشريع المواريث في الإسلام وتقرير الأحكام المستقرة

إنَّ المتأمل في نصـوص الوحيين يجد أنَّ تشـريع المواريث مرَّ بمراحل لحكمة أرادها الله تعالى،

حيث تدرج التشريع من عادات الجاهلية وأحوال بداية الدعوة إلى أن استقرَّت الفريضةُ على أحكامٍ محكمةٍ ناسخةٍ لما سواها، وهي التي دوّنها أئمة السلف في متونهم ك "الرحبية" وغيرها.

أولاً: الأحكام التي كانت في صدر الإسلام ثم نُسخت

لحكمة تربوية وتشريعية، أقرَّ الإسلام في بدايته أسباباً للإرث كانت تناسب حال المسلمين آنذاك، ثم رُفعت أحكامها بآيات المواريث، ومن ذلك:

الوصية للوالدين والأقربين: في بداية الأمر، كان الموتى يقسمون أموالهم بالوصية لمن شاؤوا، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...﴾ [البقرة:١٨٠]، ثم نُسخ هذا الحكم بآيات المواريث (آيات المواريث هي الناسخة)، وصارت الأنصبة مقدرة من الله لا خيار فيها للمورث، وجاءت السنة ببيان ذلك في قوله ﷺ: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث).

الميراث بالهجرة والمؤاخاة: لما هاجر المسلمون إلى المدينة، جعل النبي ﷺ "المؤاخاة" سبباً للإرث تقويةً لشوكة الإسلام، فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصاري دون قريبه الذي لم يهاجر، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٢]. ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٥]، فعاد الإرث للقرابة والرحم.

التبني: كان التبني معمولاً به في الجاهلية وصدر الإسلام، وكان المتبنى يرث كالابن الصلبي، حتى نزل الوحي بتحريم التبني وإبطال آثاره في قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥]، فانقطع بذلك التوارث بالتبني، كما حدث في قصة زيد بن حارثة وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهم.

ثانياً: استقرار الشريعة على الآيات المحكمات

بعد أن تمَّ الإيمان في القلوب، أنزل الله آيات المواريث في سورة النساء (الآيات ١١، ١٢، ١٧٦)، وهي آيات محكمة قاطعة، لا يدخلها اجتهادٌ ولا يغيرها زمانٌ ولا مكان. وبموجب هذه الآيات: أُشركت المرأة (أماً، وزوجة، وبنتاً، وأختاً) في الميراث فرضاً بتقدير الله وأُثبت حق

الصغار والولدان في التركة إبطالاً لظلم الجاهلية وانحصرت أسباب الميراث الشرعية في ثلاثة: (القرابة، الزوجية، والولاء).

ثالثاً: وجوب الوقوف عند حدود الله

يعتقد أهل السنة والجماعة أنَّ ما استقرَّ عليه العمل في آيات الفرائض هو "حدود الله" التي يجب الوقوف عندها؛ فالتسوية بين الذكر والأنثى فيما خالف النص، أو إدخال غير الورثة في القسمة، أو إحياء أسباب ممسوخة كالتبني والمحالفة، كل ذلك يُعد من المحدثات في الدين والتعدي على شرع رب العالمين. فحكمة الله اقتضت أن يكون الميراث قائماً على الغُرم والغُنم والمسؤوليات الشرعية، لا على الأهواء البشرية.

الأحكام الشرعية في توزيع الفرائض والمواريث

إن علم المواريث في الإسلام هو تشريعٌ إلهي محكم، تولى الله عز وجل تفصيله بنفسه، فلم يتركه لهوى بشر ولا لاجتهاد مفسر، بل جعل أنصبته فريضةً منه، وختمها بالوعد بالجنة لمن اتقى، والوعيد بالنار لمن تعدى حدود الله.

الحقوق المتعلقة بالتركة (الترتيب الشرعي)

الحقوق تخرج من التركة مرتبة كما يلي:

مؤن التجهيز: من غسل وكفن ودفن.

الديون: وتقدم على الوصية بإجماع الصحابة، لأن ذمة العبد مرتهنة بدينه. وفي الحديث: (صلوا على صاحبكم) حين كان عليه دين، حتى ضمنه أبو قتادة رضي الله عنه.

الوصية: في حدود الثلث لغير وارث.

الميراث: وهو ما تبقى بعد أداء ما سبق.

أركان الإرث وأسبابه الشرعية

الأركان: (مورِّث: ميت، ووارث: حي، وموروث: تركة).

الأسباب المتفق عليها:

النكاح: بمجرد العقد الصحيح، كما في قضاء النبي ﷺ لبروع بنت واشق رضي الله عنها.

النسب: وهو القرابة الحقيقية (أصول، فروع، حواشي).

الولاء: لمن أعتق، لقوله ﷺ: (الولاء لمَن أعتق).

شروط الميراث

١) تحقق موت المورث أو إلحاقه بالأموات: حكما كالمفقود أو تقديرا كالجنين، إذا سقط ميتا بسبب الجناية على أمه، ودليل هذا الشرط: قوله تعالى:﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء:١٧٦]، ووجه الاستدلال بالآية: أنه علق الإرث على الهلاك وهو الموت.

٢) تحقق حياة الوارث حين موت المورث: أو إلحاقه بالأحياء حكما كالمفقود، والحمل، ودليل هذا الشرط: قوله تعالى:﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء:١١]، ووجه الاستدلال بالآية: أن الله ذكر استحقاق الإرث باللام الدالة على التملك، والتملك لا يكون إلا للحي.

٣) العلم بمقتضى التوارث: من قرابة، أو نكاح، أو ولاء.

أصحاب الفروض المقدرة في القرآن

أصحاب الفروض عشرة: الزوج، والزوجة، والام، والأب، والجدة، والجد، والبنات، وبنات الابن، والأخوات من غير أم وأولاد الام.

وأما الفروض المقدرة في كتاب الله تعالى، فهي كما يلي:

الأول: فرض النصف.

الثاني: فرض الربع.

الثالث: فرض الثمن.

الرابع: فرض الثلثين.

الخامس: فرض الثلث.

السادس: فرض السدس.

بيان أحكام الإرث بالتعصيب (الوارثون بلا تقدير)

التعصيب في فقه الفرائض هو الإرث بلا سهمٍ مقدر، فالعاصب هو الذي يحوز جميع المال إذا انفرد، ويأخذ ما أبقت الســـهام (الفروض) إذا اجتمع مع غيره، لقوله ﷺ: (ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر) (متفق عليه).

وينقسم العصبة في شرع الله إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

أولاً: العصبة بالنفس

وهم الذين استحقوا العصوبة لذواتهم دون حاجة لغيرهم، وينقسمون إلى:

الذكور من الأقارب: وهم جميع الذكور الوارثين من (الأصول كالأب والجد، والفروع كالابن وابن الابن، والحواشي كالأخ الشقيق وابنه والعم وابنه)، ويخرج من هذا القسم "الإخوة لأم" فإنهم أصحاب فروض بنص القرآن ولا يدخلون في العصبة.

جهة الولاء: وهو المعتق والمعتقة وعصبتهما المتعصبون بأنفسهم، وهذا نوع من "العصوبة السببية" التي أقرها الشارع لمن مَنَّ بالعتق.

ثانياً: العصبة بالغير

وهنَّ إناثٌ احتجنَ في عصوبتهنَّ إلى ذكرٍ يعصبهنَّ، وينحصر هذا القسم في أربع من النسوة:

(البنات، وبنات الابن، والأخوات الشقيقات، والأخوات لأب).

الشرط: أن يكون معهنَّ ذكرٌ مماثلٌ لهن في الدرجة والوصف (كالأخ مع الأخت، أو ابن الابن مع بنت الابن)، فيرثن معه القاعدة الربانية: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

تنبيه: في "بنات الابن" خاصة، قد يعصبهنَّ من هو أنزل منهنَّ درجة (ابن ابن ابن) إذا احتجنَ إليه لتجاوز استغراق البنات للثلثين.

ثالثاً: العصبة مع الغير

وهذا القسم مفرده من محاسن تشريع الفرائض في الإسلام، وهو خاص بالأخوات (الشقيقات أو لأب) مع (إناث الفروع)؛ ويُنظمها القاعدة الفقهية المشهورة: (اجعلوا الأخوات مع البنات عصبة).

ميراث المرأة في الشريعة الإسلامية

لقد جاء الإسلام بالحق والعدل، فرفع عن المرأة ظلام الجاهلية وأثبت لها حقاً ثابتاً في التركة بنص القرآن الكريم، جاعلاً نصيبها فريضةً لا يجوز المساس بها، قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

الحكمة التشريعية في تفاوت الأنصبة

إن المنهج السلفي في فهم تفاوت الميراث بين الرجل والمرأة يقوم على مبدأ "الغُنْم بالغُرْم"؛ أي أن النصيب مرتبط بالتبعات المالية والواجبات الشرعية، وليس قائماً على تفضيل جنس على جنس لذاته.

وجوب النفقة على الرجل: أوجب الشرع على الرجل كفاية أسرته وزوجته وأبنائه ومؤنة أقاربه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

استقلال الذمة المالية للمرأة: جعل الإسلام للمرأة ذمة مالية كاملة ومستقلة؛ فلها حق الملك والتصرف والبيع والهبة، وما لها محرم على زوجها وغيره إلا بطيب نفس منها، لقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

وبناءً عليه، فإن المال في يد الرجل "مستحق للغير" بالنفقة الواجبة، بينما مال المرأة "خالصٌ لها" تدخره لنفسها، فكان من تمام العدل الإلهي أن يزاد في نصيب من أُثقل بالتكاليف.

الحالات التي ترث فيها المرأة "نصف" نصيب الرجل

لقد حدد الشارع الحكيم أربع حالات فقط يكون فيها نصيب الأنثى نصف نصيب الذكر، وهي حالات محكومة بعلة "التساوي في درجة القرابة مع اختلاف التكليف المالي":

الأولاد (الابن مع البنت): لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

الوالدان عند انفراد الأب والأم بالميراث: (في حال عدم وجود فرع وارث أو زوجين)، حيث تأخذ الأم الثلث ويأخذ الأب الباقي (الثلثين) تعصيباً.

الإخوة لغير أم (الأشـــقاء أو لأب): لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَـــاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾.

الزوجان: فالزوج يرث النصف أو الربع، بينما ترث الزوجة الربع أو الثمن عند تماثل الحالات (وجود الفرع أو عدمه).

وقول المصنف: **لا كما يقول المتكلمون المخالفون.**

الشرح

هذا رد على المزدكية الذين زعموا أَن الدُّنْيَا خلقهَا الله خلقا وَاحِدًا وَخلق لَهَا خلقا وَاحِدًا وَهُوَ آدم جعلهَا لَهُ يَأْكُل من طعامها وَيشْرب من شرابها ويتلذذ بلذائذها وينكح نساءها فَلَمَّا مَاتَ آدم جعلهَا مِيرَاثا بَين وَلَده بِالسَّوِيَّةِ لَيْسَ لأحد فضل فِي مَال وَلَا أهل فَمن قدر على مَا فِي أَيدي النَّاس وَتَنَاول نِسَاءَهُمْ بِسَرِقَة أَو خِيَانَة أَو مكر أَو خلابة أَو بِمَعْنى من الْمعَانِي فَهُوَ لَهُ مُبَاح سَائِغ وفضول مَا فِي أَيدي ذَوي الْفضل محرم عَلَيْهِم حَتَّى يصير بِالسَّوِيَّةِ بَين الْعباد سَوَاء وَإِنَّمَا سموا مزدكية لِأَنَّهُ ظهر فِي زمن الأكاسرة رجل يُقَال لَهُ مزدك فَقَالَ هَذِه الْمقَالة

كذب أَعدَاء الله وَالله يَقُول ﴿نَحن قسمنا بَينهم معيشتهم فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا ورفعنا بَعضهم فَوق بعض دَرَجَات ليتَّخذ بَعضهم بَعْضًا سخريا وَرَحْمَة رَبك خير مِمَّا يجمعُونَ﴾ وَقَالَ ﴿يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالكُم بَيْنكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تكون تِجَارَة عَن تراض مِنْكُم وَلَا تقتلُوا أَنفسكُم إِن الله كَانَ بكم رحِيما وَمن يفعل ذَلِك عُدْوانًا وظلما فَسَوف نصليه نَارا وَكَانَ ذَلِك على الله يَسِيرا﴾

وَمِنْهُم العبدكية زَعَمُوا أَن الدُّنْيَا كلهَا حرَام محرم لَا يحل الْأَخْذ مِنْهَا إِلَّا الْقُوت من حِين ذهب أَئِمَّة الْعدْل وَلَا تحل الدُّنْيَا إِلَّا بِإِمَام عَادل وَإِلَّا فَهِيَ حرَام ومعاملة أَهلهَا حرَام فَحل لَك أَن تَأْخُذ الْقُوت من الْحَرَام من حَيْثُ كَانَ وَإِنَّمَا سمو العبدكية لِأَن عَبدك وضع لَهُم هَذَا ودعاهم إِلَيْهِ وَأمرهمْ بتصديقه

كذب أَعدَاء الله قَالَ الله عز وَجل ﴿وَأحل الله البيع وَحرم الرِّبَا﴾ وَمَا أحل الله الْقُوت إِلَّا للمضطرين وَلم تحل الصَّدَقَة لَغنِيّ وَلَا لذِي مرّة سوى كَذَا رَوَاهُ عبد الله بن عمر وَقَالَ رَسُول الله

لَغَنِيّ وَلَا لذِي مرّة سوى[1]

(١) -كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص٩٢- ٩٣

اتباع الكتاب والسُّنة

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المسألة الأولى: الأخذ بكتاب الله عز وجل وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

المسألة الثانية: أقسام الناس في مرجعيتهم وأصول التلقي لديهم.



[٨٧]- قال المصنف رحمه الله: والدِّين إنما هو: كتاب الله عز وجل، وآثار، وسنن، وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة القوية المعروفة المشهورة. يرويها الثقة الأول بالمعروف عن الثاني الثقة المعروف. يصدق بعضهم بعضاً، حتى ينتهي ذلك إلى النبي ﷺ أو أصحاب النبي، أو التابعين أو تابع التابعين، أو من بعدهم من الأئمة المعروفين المقتدى بهم، المتمسكين بالسُّنة، والمتعلقين بالأثر، الذين لا يعرفون ببدعة، ولا يُطعن عليهم بكذب، ولا يرمون بخلاف. وليسوا بأصحاب قياس، ولا رأي؛ لأن القياس في الدِّين باطل، والرأي كذلك، وأبطل منه.

الشرح

المسألة الأولى: الأخذ بكتاب الله عز وجل وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

بعث الله تبارك وتعالى رسوله-صلى الله عليه وسلم-بالرسالة الجامعة الخاتمة ألا وهي رسالة الإسلام التي ارتضاها-عز وجل-لتكون دينًا ومنهاجًا، يسير عليه الجن والإنس في حياتهم الدنيا حتى يتم لهم صلاح معاشهم الذي هم فيه، ومعادهم الذي سيصيرون إليه.

ولقد شاء تبارك وتعالى أن يجعل لهذه الرسالة مصدرين للتلقي هما:

١- القرآن الكريم، ٢- السنة النبوية.

فالقرآن الكريم هو المصدر التشريعي الأول في الإسلام وهو كلام الله المنزل على رسوله-صلى الله عليه وسلم-بواسطة جبريل-عليه السلام-.

والسنة هي المصدر الثاني لأنها مبينة لأحكامه موضحة لإبهامه ومخصصة لعمومه ومقيدة لإطلاقه وشارحة لأحكامه وأهدافه.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: الآية: ٦٤].

فالرسول-صلى الله عليه وسلم-كما خص بالوحي المتلو وهو القرآن الكريم كذلك خص بالوحي غير المتلو وهو السنة التي لا مندوحة عن اتباعها.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الآيتان: ٣-٤]، وقال-صلى الله عليه وسلم-: (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه).(١) وبناء على ذلك فإن القرآن والسنة هما الأصلان العظيمان اللذان تستقي منهما الأمة المسلمة عقيدتها وشريعتها وكل ما فيه صلاح شؤونها في دنياها وآخرتها وهما المنهاج والنبراس الذي سار عليه السلف من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، في طاعتهم واتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لاعتقادهم أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قد جاء بهذين الأصلين وحيا من عند الله عز وجل، كما أنه أمر باتباعهما والأخذ بما فيهما اعتقادا وقولا وعملا. قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: الآية: ٧]، فهم من هذا المنطلق التزموا وتمسكوا بالقرآن والسنة وتلقوهما بالقبول والتسليم والإيمان والتعظيم فأحلوا حلالهما وحرموا حرامهما واتخذوا منهما منهجا لجميع شؤونهم وأحوالهم يرجعون إليه امتثالا لنداء الله حيث قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ [النساء: الآية: ٥٩].

قال ابن القيم: "إن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول-صلى الله عليه وسلم-هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته"(٢)

ومن هذين الأصلين – الكتاب والسنة – استقى السلف المسلك القويم والمنهج السليم الذي ساروا عليه في طاعتهم واتباعهم لرسولهم ونبيهم محمد-صلى الله عليه وسلم-وهذا المنهج يمكن

(١) أخرجه أبو داود في سـننه، كتاب السـنة: باب في لزوم السـنة (٥/ ١٠) ح: (٤٦٠٤)، وأخرجه الإمام أحمد في المسـند (٢/ ٢٤٣).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٤٩، ٥٥).

تلخيصه في النقاط الرئيسية التالية:

أولًا: اتباع القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على نبيه محمد–صلى الله عليه وسلم–وحيا بواسطة جبريل عليه السلام، والذي تولى الله–سبحانه وتعالى–حفظه بقوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: الآية: ٩].

كما جعله نظاما ومنهجا يهتدي به عباده المؤمنون كما قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: الآية: ٢].

ولقد اعتنى السلف بكتاب الله عز وجل فحفظوه في صدورهم ومصاحفهم وصاروا يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، وينفذون أحكامه وشرائعه جيلا بعد جيل في جميع جوانب حياتهم الفردية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها من الأمور الدنيوية والأخروية.

كما تفرغ عبر القرون ثلة من خيارهم لدراسته وتفسيره واستنباط أحكامه ومعرفة ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، والاعتبار بدعوته وقصصه، ووعظه وإرشاداته وأمثاله.

وهذا الموقف من السلف الصالح يمثل مظهرا من مظاهر التأسي والاقتداء بما كان عليه النبي–صلى الله عليه وسلم–، كما يعد تطبيقا عمليا لما أوصى به عليه الصلاة والسلام أمته حيث قال: (إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تَضِلُّوا أبدًا ، كتابَ اللهِ ، و سُنَّةَ نبيِّه)..[(١)]

ثانيا: اتباع سنته–صلى الله عليه وسلم–والعمل بها:

فلقد أوجب الله على العباد طاعة رسوله–صلى الله عليه وسلم–واتباعه وقد تقدم إيراد الأدلة على ذلك.[(٢)]

ولقد عمل السلف بما أوجبه الله تعالى فأخذوا بسنة نبيهم–صلى الله عليه وسلم–وعملوا بها أمرًا ونهيًا وخبرًا، فكانت أقواله وأفعاله وتقريراته هي المصدر الثاني بعد كتاب الله عز وجل الذي

---

(١) أخرجه الحاكم (٣١٨)، والبيهقي في الاعتقاد (ص: ٢٢٨) واللفظ لهما، والخطيب في (المتفق والمفترق) (٨٠٨) بنحوه مطولًا.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٣٠٧، ٣٠٨).

تستقي منه الأمة أحكامها وتشريعاتها في شتى شؤون حياتها. قال الإمام الثوري: "إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل"[(١)]

قال ابن تيمية: "فعلى العاقل أن يجتهد في اتباع السنة في كل شيء من ذلك، ويعتاض عن كل ما يظن من البدع أنه خير بنوعه من السنن، فإنه من يَتَحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومن يتوقَّ الشرَّ يُوقَهُ."[(٢)]

ويعتقد السلف أن للسنة استقلاليتها في تشريع الأحكام وهي كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، فالأحكام التي سكت القرآن عن بيان حكمها وورد في السنة بيانها، فإن السلف يعملون بهذه الأحكام ويأخذون بها، ولا يرون أن هناك تعارضا البتة بين الأصلين.

كما يعتقد السلف أن علاقة السنة بالمصدر الأول الذي هو القرآن تسير وفق الأوجه الثلاثة التالية:

١- أن تكون السنة موافقة للقرآن من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها وذلك مثل الأحاديث التي تفيد وجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم من غير تعرض لشرائطها وأركانها.

٢- أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيرا له، وذلك مثل الأحاديث التي فصلت أحكام وهيئات الصلاة والصيام والحج والبيوع والمعاملات التي وردت مجملة في القرآن، وهذا القسم هو أغلب ما في السنة وأكثرها ورودا.

٣- أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن على إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه، كالأحاديث التي أثبتت حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وأحكام الشفعة وغير ذلك.

المسألة الثانية: أقسام الناس من حيث مرجعيتهم وأصول التلقي لديهم.

فالناسُ يمكنُ تقسيمهم من حيث مرجعيتهم وأصول التلقي لديهم إلى ثلاثةِ أقسام:

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي، (١/ ١٤٢) ، وذم الكلام وأهله، (١/ ١٨١)..

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٢٧٠).

· فهناك أهل الحق الذين تمسكوا بالكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة.

· هناك طوائف مالوا إلى ما يســـمونه-زوراً وبهتاناً-مناهج عقلية، وهي في الحقيقةِ أوهامٌ وخيالات.

· وهناك طوائف مالوا إلى مناهجَ باطنية اعتمدت على ما يسمَّى بتقديس الأشخاص.

فالصراعُ والاختلافُ قائمٌ كما مرَّ معنا في ذكرِ النصوص الواردة في هذا والافتراقُ لابد منه، فلابد أن يتبَّصَّر الإنسان في هذا الأمر وأن يعرفَ أين يضع قدمه في هذا الباب؛ أي في باب التأصيل لأنه من هذا المنطلق تتحدد معالمُ الاختلاف والافتراق الواقع في هذه الأمة.

وكان فهم أهل الســـنة في مقابل هؤلاء ففهمهم ينطلق من الجماعة، الذين هم أصـــحاب النبي صـلى الله عليه وسـلم، ولذلك لما أخبر النبي-صـلى الله عليه وسـلم-بافتراق هذه الأمة وقال: (افترقت اليهود، وافترقت النصارى، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فعندما سئل من؟ قال: الجماعة، وفي رواية أخرى قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي).[(١)]

فإذًا هذا المحك والفارق بين صاحب السنة وبين أهل هذا النوع من أهل البدع، فالمتمسك عند السني في الفهم هو الفهم الذي كان عليه أولئك، فإذا كان الخلفاء الراشدون، والمبشرون بالجنة، والذين رضـــي الله تعالى عنهم لم يكن فهمه الفهم الصـــحيح فمن ســـيكون فهمه صحيحًا؟!

وهذه التزكية إنما هي من قبل الله، وقبل رسوله-صلى الله عليه وسلم-.

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد باقي مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، حديث رقم (١٢٢٤٢)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح، كتاب السلسلة الصحيحة (١٤٩٢).

ترك الرأي والقياس

[٨٨]- وأصحاب الرأي والقياس في الدِّين: مبتدعة جهلة ضُلَّال، إلا أن يكون في ذلك أثر عمن سلف من الأئمة الثقات، فالأخذ بالأثر أولى.

الشرح

قال تعالى: ﴿**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**﴾؛ فغاية الضلال أن يكون الإنسان متبعًا لهواه، فهذا الاتباع للهوى سيضله وسيبعده عن طريق الهدى؛ قال تعالى: ﴿**إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس**﴾؛ فالظن هنا إشارة إلى القياس الفاسد، ﴿**وما تهوى الأنفس**﴾: إشارة إلى اتباع الهوى؛ فالعبد أمامه عدوان: ظن وقياس فاسد، وهوى متبع، فإذا سَلَّمه الله من هذين، وجعل قياسه مبنيًا على كلام الله وكلام رسوله ﷺ-فقد نجا، وإذا كان هواه وأمره تابعًا لأوامر الله عز وجل فقد نجا.

أما إذا ترك شرع الله عز وجل، ثم سار وَفْق هوى نفسه؛ فليعلم أنه على مهلكة، وكذلك إذا كان على غير علم بكلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ فسيستبدل هذا بظنٍّ فاسد، وإذا لم يكن على معرفة بالحق سيستبدل الحق بالباطل.

فحذرنا الله من هذه الحال؛ فلا يُظن أن هذا فقط حكاية وخبر عن الأوائل، وإنما هي أسباب الهلاك في كل زمان.

قال ابن القيم: "فَسَادَ الدِّينِ إِمَّا أَنْ يَقَعَ:

بِالِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ وَالتَّكَلُّمِ بِهِ وَهُوَ الْخَوْضُ.

أَوْ يَقَعُ فِي الْعَمَلِ بِخِلَافِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَهُوَ الِاسْتِمْتَاعُ بِالْخَلَاقِ.

فَالْأَوَّلُ الْبِدَعُ.

وَالثَّانِي اتِّبَاعُ الْهَوَى"(١).

فلا نجاة إلا باتباع الهدى؛ فمن لم يكن متبعًا للهدى علمًا وعملًا؛ فإنه يكون مائلًا إلى

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٥٩-٦٠

طريق الباطل، وأهل الباطل من أوصافهم: اتباع الظن وهوى الأنفس.

فالقياس الفاسد هو أصل الضلال، فأصل ضلال مَن ضَلَّ إنما هو بقياسه الفاسد؛ فإبليس أَوَّلُ مَن ضَلَّ، وكان ضلاله من جهة قياسه الفاسد؛ إذ ظنَّ نفسَه خيرًا من آدم عليه السلام؛ لأنه خُلِق من نار، وآدم خُلق من طين؛ فظنَّ أنَّ النار أفضل من الطين، ولذلك أبى الاستجابة لأمر الله بالسجود لآدم، قال الله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ [ص: ٧١- ٧٦]؛ فعندما قاس مثل هذا القياس الفاسد ضَلَّ عن اتِّباع أمر الله عز وجل؛ فكان هذا هو أصلُ الضلال.

وإذا تتبعنا أهلَ الباطل-قديمًا وحديثًا-وجدنا أنَّ أصلَ ضلالهم هو بتقديمهم للقياس الفاسد على النصوص الشرعية المنزلة.

والقياس منه ما يكون صحيحًا، وهو أحد الأدلة المعتبرة في الاستدلال عند أهل العلم، ومن القياس كذلك ما يكون فاسدًا، وهو أصلٌ من أصول الضلال؛ فيَضل الإنسان من جهة قياسه، فمثلًا هنا أهل التصوف ظَنُّوا أنَّ وَجْدَهم وذَوْقَهم يُوازي ما يجده أهل الإيمان مِن ذَوْقٍ، (وهو ذوق وحلاوة الإيمان)؛ فظنوا أنهم إذا وصلوا إلى أي حلاوة بطريق آخر؛ فإن هذا يُغنيهم عن حلاوة الإيمان الحقِّ؛ فكان في هذا ضلالهم.

وكذلك اتِّبَاعُ الهوى وتقديمُه على اتِّبَاع أمر الله- أصلٌ من أصول الضَّلال، وهذا حاصلٌ عند سائر أهل الضلال، ولذلك حَذَّر الله عز وجل في كثير من آيات القرآن من اتباع الهوى، وذم الذين اتَّبعوا أهواءهم؛ فبالتالي ضلوا وأضلوا؛ لأنَّهم سلكوا طريق الهوى؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص: ٥٠]، وقوله عز وجل:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله لا ينزع العلم بعد إذ أعطاكموه انتزاعا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون"[(١)]، والمقصود به هو الرأي الباطل الذي ليس من الدين، لأن الرأي ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١-رأي باطل بلا ريب.

٢-رأي صحيح.

٣-رأي هو موضع الاشتباه.

والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف، فاستعملوا الرأي الصحيح وعملوا به وأفتوا به، وسوغوا القول به.

وذموا الباطل ومنعوا من العمل والفتيا والقضاء به وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله.

والقسم الثالث: سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه حيث لا يوجد منه بد، ولم يلزموا أحدا العمل به، ولم يحرموا مخالفته ولا جعلوا مخالفته مخالفا للدين، بل غايته أنهم خيروا بين قبوله ورده، فهو بمنزلة ما أبيح للمضطر من الطعام والشراب الذي يحرم عند عدم الضرورة إليه[(٢)].

والحديث ههنا يتناول الرأي الباطل فقط وهو على أنواع:

النوع الأول: الرأي المخالف للنص، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام فساده وبطلانه، ولا تحل الفتيا به ولا القضاء، وإن وقع فيه من وقع بنوع تأويل وتقليد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام: باب ما يذكر من ذم الرأي. فتح الباري (١٣/ ٢٨٢) ح ٧٣٠٧.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٦٧). وقد تناول ابن القيم في هذا الكتاب القول بالتفصيل عن أنواع الرأي فمن أراد التوسع والاستفادة فليرجع إليه.

النوع الثاني: هو الكلام في الدين بالخرص والظن، مع التفريط والتقصير في معرفة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها، فإن من جهلها وقاس برأيه فيما سئل عنه بغير علم، بل لمجرد قدر جامع بين الشيئين ألحق أحدهما بالآخر أو لمجرد قدر فارق يراه بينهما يفرق بينهما في الحكم، من غير نظر إلى النصوص والآثار، فقد وقع في الرأي المذموم الباطل.

النوع الثالث: الرأي المتضمن تعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية[(١)] ومن ضاهاهم، حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة وآراءهم الباطلة وشبههم الداحضة في رد النصوص الصحيحة الصريحة، فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التي وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها وتخطئتهم، ومعاني النصوص التي لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلا، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب، والنوع الثاني بالتحريف والتأويل، فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده، وأنكروا مباينته للعالم، واستواءه على عرشه وعلوه على المخلوقات، وعموم قدرته على كل شيء، بل أخرجوا أفعال عباده من الملائكة والأنبياء والجن والإنس عن تعلق قدرته ومشيئته وتكوينه لها، ونفوا لأجلها حقائق ما أخبر به عن نفسه وأخبر به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وحرفوا لأجلها النصوص عن مواضعها وأخرجوها عن معانيها وحقائقها بالرأي المجرد الذي حقيقته أنه زبالة الأذهان ونخالة الأفكار وعفارة[(٢)] الآراء ووساوس الصدور فملؤوا به الأوراق سوادا والقلوب شكوكا، والعالم فسادا.

وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله كم نفي بهذه الآراء من حق، وأثبت

(١) سموا بذلك لقولهم في القدر، وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله استقلالا، فأثبتوا خالقا مع الله. الملل والنحل (١/ ٥٤)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٦).

(٢) العفارة: الخبث والشيطنة. النهاية (٣/ ٢٦٢).

بها من باطل، وأميت بها من هدى وأحيي بها من ضـــلالة؟ وكم هدم بها من معقل للإيمان، وعمر بها من دين الشـيطان؟ وأكثر أصـحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل بل هم شـر من الحمر، وهم الذين يقولون يوم القيامة ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[(١)].

النوع الرابع: الرأي الذي أحدثت به البدع، وغيرت به السـنن وعم به البلاء، وتولى عليه الصغير وهرم فيه الكبير.

فهذه الأنواع الأربعة من الرأي الذي اتفق سـلف الأمة وأئمتها على ذمه لإخراجه من الدين[(٢)].

ومما ورد عن السلف في ذم الرأي الذي من هذا القبيل ما يلي:

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: "أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم"[(٣)].

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "اتقوا الرأي في دينكم"[(٤)].

وروي عنه كذلك قوله: "أصـحاب الرأي أعداء السـنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سُئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم، فإياكم وإياهم"[(٥)].

وعن علي بن أبي طالب رضـي الله عنه أنه قال: "لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف

---

(١) الآية (١٠) من سورة الملك.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٦٧-٦٩).

(٣) المصدر السابق (١/ ٥٤).

(٤) إعلام الموقعين (١/ ٥٥).

(٥) المصدر السابق (١/ ٥٥).

أولى بالمسح من أعلاه"[(١)].

وعن ابن عباس رضـي الله عنهما قال: "إنما هو كتاب الله وسـنة رسـول الله صـلى الله عليه وسلم فمن قال بعد ذلك برأيه فلا أدري أفي حسناته يجد ذلك أم في سيئاته"[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضـي الله عنه أنه قال: "لا يأتي عليكم عام إلا هو شـر من الذي قبله، أما إني لا أقول أمير خير من أمير، ولا عام أخصب من عام، ولكن فقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفا، ويجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم"[(٣)].

ومما ورد كذلك من الآثار عن التابعين ما يلي:

قول الشـعبي: "ما جاءكم به هؤلاء من أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فخذوه، وما كان رأيهم فاطرحوه في الحش"[(٤)].

وعن ابن شهاب الزهري قال: "دعوا السنة تمضي، لا تعرضوا لها بالرأي"[(٥)].

وعن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى الناس: "أنه لا رأي لأحد مع سـنة سـنها رسـول الله صلى الله عليه وسلم"[(٦)].

فهذه الأقوال عن أولئك الأئمة من الصـحابة والتابعين أجمعت على إخراج الرأي عن العلم وذمه والتحذير منه والنهي عن الفتيا به، فرضـي الله عن أئمة الإسـلام وجزاهم عن نصـيحتهم خيرا، ولقد سلك سبيلهم أهل العلم والدين من أتباعهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب كيف المسح (١/ ١١٤، ١١٥) ح ١٦٢ وأورده ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٥٨).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٥٨، ٥٩).

(٣) أخرجه الدارمي في السنن، المقدمة، باب تغير الزمان وما يحدث فيه (١/ ٦٥). وأورده ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٥٧).

(٤) إعلام الموقعين (١/ ٧٣).

(٥) المصدر السابق (١/ ٧٤).

(٦) المصدر السابق (١/ ٧٤).



المراد بالتقليد الاتباع

[٨٩] – ومن زعم أنه لا يرى التقليد ولا يُقلِّد دينه أحداً، فهذا قول فاسق مبتدع، عدو لله ولرسوله ﷺ ولدينه ولكتابه، ولسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. إنما يريد بذلك إبطال الأثر، وتعطيل العلم، وإطفاء السُّنة والتفرد بالرأي، والكلام والبدعة والخلاف. فعلى قائل هذا القول لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فهذا من أخبث قول المبتدعة، وأقربها إلى الضلال والرَّدى؛ بل هو ضلالة، زعم أنه لا يرى التقليد، وقد قلَّد دينه أبا حنيفة، وبشرًا المريسي، وأصحابه!! فأي عدو لدين الله أعدى ممن يريد أن يطفئ السُّنن ويبطل الآثار والروايات، ويزعم أنه لا يرى التقليد، وقد قلَّد دينه من قد سميتُ لك، وهم أهل الضلال، ورؤوس البدع، وقادة المخالفين، فعلى قائل هذا القول غضب الله.

الشرح

قوله: " **ومن زعم أنه لا يرى التقليد ولا يُقلِّد دينه أحداً، فهذا قول فاسق مبتدع، عدو لله ولرسوله ﷺ ولدينه ولكتابه، ولسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. إنما يريد بذلك إبطال الأثر...**" والمراد بالتقليد الاتباع، وإلا فالتقليد مذموم إذا كان بغير بصيرة.

فنؤمنُ بأن أصحابَ النبي ﷺ كما وصفهم ابن مسعود حينما قال: "**من كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفِتْنَةُ**"[(١)]، أولئك أصحابُ محمد أبَرُّ هذه الأمةِ قلوباً وأعمُقها علماً، وأقلها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه وإقامةِ دينه فاعرفوا لهم حقهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، وكما أُثِر عنه ﷺ حيث قال: "**إنا نقتدي ولا نبتدئ، ونتبعُ ولا نبتدع**".

فأصحابُ النبي ﷺ خيرُ هذه الأمة، والله تعالى قد زكَّاهم في كتابه وأمرَ بلزومِ سبيلهم حيث قال عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ

(١) رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢/٩٤٧ــــ رقم ١٨١٠)، وفي إسناده ضعف، إلا أنه أثر مشهور متداول في مصنفات أهل السنة، ومعناه صحيح مستقر عندهم.

اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة : ١٠٠] فرضيَ الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار رضاءً مطلقا بدونِ قيد، ورضيَ عنهم بعدهم رضاءً مقيَّداً.. مقيَّداً بأي أمر؟ باتباعهم بإحسان ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾.

ونهى الله سبحانه وتعالى عن الافتراقِ عنهم ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

نهى عن الافتراقِ عن هذا الطريقِ وهذا السبيل، والمعالم بحمد لله تعالى واضحة، مرجعيةٌ استقامَ عليها الأوائل وحفظوها لنا بأسانيدها الصحيحةِ الثابتة ونقلوها لنا، وأصبحت-بحمد الله تعالى-ميراثاً سليماً من كل بدعةٍ ومن كل شائبة يتوارثه أهل السنَّةِ جيلاً بعدَ جيل، وينقله الخيارُ من هذه الأمة، ينقله ورثةُ الأنبياء لكلِّ جيلٍ من هذه الأجيال.

فلذلك لا عجبَ أن يتسمَ هذا المنهج بثباته وعدمِ اضطرابه، ولا عجبَ أن يتسمَ هذا المنهج بلزومِ كلام الله وبلزومِ كلام رسولهﷺ، ولا عجبَ أن يستمرَ هذا الإسناد محفوظاً جيلاً بعدَ جيل.

فهذه هي مرجعيةُ أهل السنَّة التي بحمد الله تعالى نُقلِت لنا في كتبِ الاعتقاد، ولزِمَها أهلُ السنَّةِ على مدى هذه الأزمانِ وعلى هذه الأعصار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخصٍ انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا؛ فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ، بل كل قولٍ قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ؛ فإن الدين

الذي بعث الله به رسـوله ليس مُسَـلَّمًا إلى عالِمٍ واحدٍ وأصـحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله ﷺ وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولا بد أن يكون الصـــحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرســـول، قبل وجود المتبوعين الذين تُنســـب إليهم المذاهب في الأصـــول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرســـول ما يخالف الصـــحابة والتابعين لهم بإحســـان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله إن كان حقًّا مأخوذًا عمَّا جاء به الرسول، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قِيلَ في دين الإسلام، مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه، فإنه قول باطل([1]).

([1]) منهاج السنة ج٥/٢٦١-٢٦٣.

علامات أهل السُّنة

[٩٠]- قال المصنف رحمه الله: فهذه الأقاويل التي وصفت: مذاهب أهل السنة والجماعة، والأثر وأصحاب الروايات، وحملة العلم الذين أدركناهم، وأخذنا عنهم الحديث، وتعلمنا منهم السنن، وكانوا أئمة معروفين، ثقاة، أهل صدق وأمانة، يقتدى بهم، ويؤخذ عنهم. ولم يكونوا أصحاب بدع ولا خلاف ولا تخليط، وهو قول أئمتهم، وعلمائهم الذين كانوا قبلهم. فتمسكوا بذلك رحمكم الله، وتعلموه وعلِّموه، وبالله التوفيق.

الشرح

لأهل السنة سمات وعلامات يتميزون بها ومنها:

السمة الأولى: اعتقاد أهل السنة أن الدين كامل.

يؤمن أهل السنة بإن الدين كامل، ليس بحاجة إلى من يزيد أو ينقص منه.

- قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة: الآية: ٣]، فكل مؤمن يعتقد، ويوقن، ويعلم علمًا يقينيًا أن هذا الدين كامل.
- وقد قال صلى الله عليه وسلم (تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك).[١]

فكل واحد منا يؤمن ويوقن أن النبي-صلى الله عليه وسلم-بلغ البلاغ المبين، وأنه نصح للأمة، وأنه جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه.

ثم ألم يعلم النبي-صلى الله عليه وسلم-أصحابه حتى آداب الخلاء؟! كما قال سلمان الفارسي-رضي الله عنه- "علمنا حتى آداب الخراءة".[٢]،

---

[١] انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية عن النبي-صلى الله عليه وسلم-برقم: (١٦٨١١)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح في السلسلة (٩٣٧) (٦١٠).

[٢] انظر: صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة، حديث رقم (٢٦٢)

- وكما قال أبو ذر-رضي الله عنه-: "تركنا وما من طائر يقلب جناحه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا".

فإذاً الإسلام هو هذا الدين، وهذا الدين هو ما جاء في كلام الله-عز وجل-، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وفق ما كان عليه فهم الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، هذا اتباع وليس ابتداع، وهذا اقتداء وليس ابتداء،

- فكما قال ابن مسعود-رضي الله عنه-: "إنا نتبع ولا نبتدع، ونقتدي ولا نبتدئ"[(١)].
- وقال عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-:"كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة"[(٢)].
- وقال ابن عباس لعباس بن حاضر: "عليك بالاستقامة، واتباع الأثر، وإياك والتبدع".[(٣)]
- وقال معاذ بن جبل-رضي الله عنه-: "إياكم وما ابتُدع فإن ما ابتدع ضلال".[(٤)]
- وقال عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-:"اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وكل بدعةٍ ضلالة".[(٥)]
- والعلم كما يقول الأوزاعي-رحمه الله تعالى-: "العلم ما جاء عن أصحاب محمد".[(٦)]

فهذه أول أسس التلقي.

---

(١) انظر: اللالكائي في شرح الاعتقاد (١/ ٦٨).
(٢) الإبانة لابن بطة (١/ ٣٣٩).
(٣) سنن الدارمي (١٤١)، الإبانة لابن بطه (١٦٤)
(٤) أخرجه أبو داود برقم: (٤٦١١).
(٥) أخرجه الدارمي في سننه (٢١١).
(٦) انظر: كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، باب معرفة أصول العلم وحقيقته حديث رقم: (٨٧٦). حديث مقطوع.

- وذلك يعني أن من ســـن أو عمل بدعة ظن أنها حســـنة فيقال له كما قال الإمام مالك–رحمه الله تعالى–: " من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا–صلى الله عليه وسلم–قد خان الرسالة "(١)، فأي إنسان يزعم أنه بهذه البدعة التي جاء بها جعلها بدعة حسنة، فهو يزعم أن النبي–صلى الله عليه وسلم–قد خان الرسالة، لأن الله تعالى قد أخبر بكمال هذا الدين، فلا يمكن أن يكون النبي–صلى الله عليه وسلم–قد كتم هذا الدين أو أخفى هذا الأمر من أمور الدين، لا في صغيرة ولا في كبير،.

ومع ذلك لا يسلم صاحب السنة من أذى أهل الباطل الذين يصفون صاحب السنة بما يصفونه به من ألفاظ مستبشعة مستقذرة، فيقولون: هذا جمود على النص، ويقولون: هذه حرفية إلى غير ذلك من الألفاظ بغية التنفير.

السمة الثانية: حفظ أهل السنة للأصلين رواية ودراية.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وجماع ذلك بحفظ أصلين:

أحدهما: تحقيق ما جاء به الرســـول، فلا يخلط بما ليس منه من المنقولات الضـــعيفة، والتفسيرات الباطلة، بل يعطى حقه من معرفة نقله ودلالته.

والثاني: أن لا يعارض ذلك بالشـــبهات لا رأيًا ولا روايةً، قال الله تعالى فيما يأمر به بني إسرائيل وهو لنا :﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآيتان: ٤١–٤٢] فلا يكتم الحق الذي جاء به الرسول، ولا يلبس بغيره من البطل ولا يعارض بغيره".(٢))

فأهل السنة أعلم الناس بأحوال النبي–صلى الله عليه وسلم–وأقواله وأفعاله، لذلك فهم أشد

(١) "الاعتصام" للشاطبي (١ / ٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥٥–١٥٦)، وانظر أيضا: مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٤)، ومنهاج السنة (٤/ ٥٤٨)، والاستقامة (١/ ٣)، و(٢/ ٣٠٠).

الناس حبًّا للسنة، وأحرصهم على اتباعها، وأكثرهم موالاة لأهلها؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "فإنه متى كان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق، وأقومهم قولًا وحالًا، لزم أن يكون أعلم الناس به أعلم الخلق بذلك، وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداءً به أفضل الخلق"[(١)]

فلو سئل عن مصادر التلقي فمصادر التلقي بينها المصنف بهذه العبارات القليلة: بأنها السنة التي تركها لنا النبي-صلى الله عليه وسلم-، وأخذها عنه أصحابه-رضوان الله عليهم-، فنحن ملتزمون بها، مستقيمون عليها.

السمة الثالثة: ثبات أهل السنة.

ولذلك من مزايا أهل الحق الثبات، فقول أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-هو قولنا في هذا اليوم، لم يختلف ولم يتبدل، ليس لنا مصدر إلا من هذا الطريق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وبالجملة فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة، أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة".[(٢)]

ولذلك أهلُ السنَّةِ قديمًا وحديثًا، شرقًا وغربًا، وعلى اختلاف أزمانهم وأماكنهم هم على قولٍ واحد في سائرِ أمورِ هذا الدين وبالتحديدِ في أصولِ هذا الدين، لا تجدُ اختلافًا ولا تجدُ اضطرابًا فقولهم في أسماء الله وصفاته واحد، وقولهم في بابِ الإيمان واحد، وقولهم في بابِ القدَرِ واحد.. إلى غيرِ ذلك من مسائل الدين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وربنا واحد، ورسولنا واحد، وكتابنا واحد، وديننا واحد، وأصل الدين ليس بين السلف وأئمة الإسلام فيها خلاف، ولا يحلّ الافتراق، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية: ١٠٣]

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٤٠-١٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٥١).

(١))

وقال شـيخ الإسـلام ابن تيمية–رحمه الله تعالى–: "أما أهل السـنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم، ولا صـالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صـبرًا على ذلـك، وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهـذه حـال الأنبيـاء وأتبـاعهم من المتقدمين، كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة.. ومن صـــبر من أهل الأهواء على قوله، فذاك لما فيه من الحق، إذ لابد في كل بدعة – عليها طائفة كبيرة – من الحق الذي جاء به الرسول–صلى الله عليه وسلم–ويوافق عليه أهل السنة والحديث: ما يوجب قبولها، إذ الباطل المحض لا يقبل بحال.

وبالجملة: فالثبات والاسـتقرار في أهل الحديث والسـنة أضـعاف أضـعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة". [٢](

ولذلك قام علماء الإسـلام بحفظ آثارهم وأقوالهم، وحفظوها، ونقلوها بأسـانيدها كما نقل كلام الله–عز وجل–، وكلام نبيه–صلى الله عليه وسلم–، فاستقاموا على هذا الأمر. فإذا لو سئل صاحب السنة: ما مصدر التلقي عندكم فالجواب: كتاب الله، وسنة نبيه–صلى الله عليه وسلم–على وفق فهم السلف الصالح. فإذاً الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر.

السمة الرابعة: تميز أهل السنة باتصال السند.

تميَّز قول أهل السنة باتصـال السَنَد، فما كان عليه أصـحابُ النبي–صـلى الله عليه وسـلم– فأهل الســـنة–بحمد الله تعالى–يقولُون به إلى يومنا هذا ويعتقدونه ويدينُون الله–عز وجل–به، فسـندهم متصـل، بخلافِ أهلِ البدعِ والأهواء فنجد أن سـندهم منقطع؛ ينقطعُ إلى فلانٍ من الناس ولا يمكنُ بأي حالٍ من الأحوال أن يتصـلَ ذلك إلى أصـــحابِ النبي–صـــلى الله عليه

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٠).

وسلم-فضلًا عن أن يتصلَ إلى كلام الله وكلام رسوله-صلى الله عليه وسلم-.

ويصف الأصفهاني هذا الأمر فيقول: "ومما يدل علي أن أهل الحديث هم أهل الحق، أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار-وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد، يجرون على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد ونقلهم واحد، لا ترى فيهم اختلافًا ولا تفرقًا في شيء ما وإن قل، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأن جاء على قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دين أبين من هذا؟". [(١)]

السمة الخامسة: أن الدين عندهم واضح.

يتميز أهل السنة باعتقادهم بأن هذا الدين-بحمدِ الله تعالى-واضحٌ، ومن وضوحه أن كلام الله-عز وجل-معلومُ المعنى، فيحفظُون لهذا الكتاب حرمته لفظاً، ويحفظونُ له حرمته معنى، ويعتقدون أنه ليس في كتابِ الله-عز وجل-ما لا يُعلَمُ معناه فهو معلوم من جهة المعنى، وإن كان بعضُ حقائقِ تلك الأمور المغيَّبة أو كيفياتُها أمرٌ قد استأثر به الله تعالى في علمِ الغيب عنده، فيوقنُون أن الهدى في كلامِ الله-عز وجل-، وأن النورَ في كلامِ الله عز وجل وسنَّةِ نبيه-صلى الله عليه وسلم-.

فأهل السنة هم أهل الفهم الرشيد عن الله وعن رسوله، ولذلك تأتي أقوالهم على الاستقامة والسداد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-يرحمه الله-بعد كلام عن اختلاف المبتدعة: "وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور، تبيَّن له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد، والصحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح والمنقول الصحيح، وأن من خالفه كان

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٢٤).

خارجًا عن موجب العقل والسمع، مخالفًا للفطرة".[(١)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فَلِهَذَا لَمْ يَجْتَمِعْ قَطُّ أَهْلُ الْحَدِيثِ عَلَى خِلَافِ قَوْلِهِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالْحَقُّ لَا يَخْرُجُ عَنْهُمْ قَطُّ، وَكُلُّ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ فَهُوَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُـــولُ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُمْ مِنْ خَارِجِيٍّ وَرَافِضِـــيٍّ وَمُعْتَزِلِيٍّ وَجَهْمِيٍّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ، فَإِنَّمَا يُخَالِفُ رَسُـــولَ اللَّهِ-صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ-بَلْ مَنْ خَالَفَ مَذَاهِبَهُمْ فِي الشَّـــرَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ كَانَ مُخَالِفًا لِلسُّـــنَّةِ الثَّابِتَةِ، وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ يُوَافِقُهُمْ فِيمَا خَالَفَ فِيهِ الْآخَرَ، فَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ مَعَهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الْمِلَلِ مَعَ الْمُسْـلِمِينَ ; فَإِنَّ أَهْلَ السُّـــنَّةِ فِي الْإِسْـلَامِ كَأَهْلِ الْإِسْـلَامِ فِي الْمِلَلِ، كَمَا قَدْ بُسِـطَ فِي مَوْضِعِهِ".[(٢)]

السمة السادسة: إن الحق لا يعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحق.

قال الإمام الشـــوكاني-رحمه الله تعالى-: "ليس لأحد من العلماء المختلفين، أو من التابعين لهم والمقتدين بهم أن يقول: الحق ما قاله فلان دون فلان، أو فلان أولى بالحق من فلان. بل الواجب عليه-إن كان ممن له فهم وعلم وتمييز-أن يرد ما اختلفوا فيه إلى كتاب الله وســـنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن كان دليل الكتاب والسنة معه فهو على الحق وهو الأولى بالحق. ومن كان دليل الكتاب والســـنة عليه لا له كان هو المخطئ، بل هو معذور، بل مأجور، كما ثبت في الحديث الصحيح أنه: عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :(إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ[(٣)] (فناهيك بخطأ يؤجر عليه فاعله، ولكن هذا إنما هو للمجتهد نفســـه، إذا أخطأ، ولكن لا يجوز لغيره أن يتبعه في خطئه، ولا يعذر كعذره، ولا يؤجر كأجره، بل واجب على من عداه من المكلفين أن يترك الاقتداء به في الخطأ ويرجع إلى الحق الذي دل عليه

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢١٢).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٦٥).

(٣) رواه البخاري واللفظ له (٩/ ١٠٨) ومسلم (٣/ ١٣٤٢).

الكتاب والسنة. وإذا وقع الرد لما اختلف فيه أهل العلم إلى الكتاب والسنة كان من معه دليل الكتاب والسنة هو الذي أصاب الحق ووافقه، وإن كان واحدا، والذي لم يكن معه دليل الكتاب والسنة هو الذي لم يصب الحق، بل أخطأه، وإن كان عددا كثيرا، فليس لعالم ولا لمتعلم ولا لمن يفهم-وإن كان مقصرا-أن يقول: إن الحق بيد من يقتدى به من العلماء، إن كان دليل الكتاب والسنة بيد غيره. فإن ذلك جهل عظيم، وتعصب ذميم، وخروج من دائرة الإنصاف بالمرة، لأن الحق لا يعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحق. وليس أحد من العلماء المجتهدين والأئمة المحققين بمعصوم، ومن لم يكن معصوما فإنه يجوز عليه الخطأ كما يجوز عليه الصواب، فيصيب تارة ويخطئ أخرى. ولا يتبين صوابه من خطئه إلا بالرجوع إلى دليل الكتاب والسنة، فإن وافقهما فهو مصيب، وإن خالفهما فهو مخطئ ولا خلاف في هذه الجملة بين جميع المسلمين أولهم وآخرهم، سابقهم ولاحقهم، كبيرهم وصغيرهم، وهذا يعرفه كل من له أدنى حظ من العلم، وأحقر نصيب من العرفان، ومن لم يفهم هذا ويعترف به فليتهم نفسه".[١]

السمة السابعة: أهل السنة أبعد الطوائف عن الاختلاف في أصولهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "ولهذا كلّ طائفة كانت إلى النبوات أقرب، كانت أقلّ اختلافاً، وكلّما كثر بُعدها كثر اختلافها.

المتفلسفة لما كانوا أبعد من أهل الكلام عن النبوات، كانوا أكثر اختلافًا؛ فإنّ لهم من الاختلاف في الطبيعيّات والرياضيّات ما لا يكاد يحصيه إلا الله.

وأما اختلافهم في الإلهيات فأعظم.

والشيعة لما كانوا من أجهل الطوائف المنسوبين إلى الملة، كانوا أكثر اختلافًا من جميع الطوائف.

ثم المعتزلة أكثر اختلافًا من المثبتة للصفات والقدر.

---

(١) شرح الصدور بتحريم رفع القبور (ص: ٥).

ثم المثبتة المتكلمون فيهم من الاختلاف ما لا يوجد في أهل العلم بالسنة المحضة والحديث وأقوال السلف؛ فإنّ هؤلاء أبعد الطوائف عن الاختلاف في أصولهم؛ لأنهم أكثر اعتصامًا بالكتاب والسنّة من غيرهم. وبطريقتهم تنحلّ الإشكالات الواردة على طريقة غيرهم".[١]

وقال أيضاً: "وإذا تدبّر العاقل، وجد الطوائف كلّها كلّما كانت الطائفة إلى الله ورسوله أقرب، كانت بالقرآن والحديث أعرف وأعظم عناية".[٢]

السمة الثامنة: أن من سمات أهل السنة أنهم يقولون: إن المسائل التي يقع الخلاف فيها ليست على درجة واحدة.

قرر أهل العلم أن المسائل التي يقع الخلاف فيها ليست على درجة واحدة،

القسم الأول: فثمة مسائل لا يسوغ الخلاف فيها لصراحة أدلتها واتفاق السلف عليها وتسمى المسائل الخلافية، وهذا النوع من المخالفة ينكر فيه القول، ويضلل فيه المخالف، وقد يبدع حسب ضوابط شرعية، وقواعد مرعية.

والقسم الآخر: هي المسائل التي يسوغ الخلاف فيها لتعارض أدلتها فيما يظهر للمجتهد أو لوقوع الخلاف فيها بين السلف الصالح وتسمى المسائل الاجتهادية.

والأصل في مسائل المعتقد أنها من قبيل المسائل الخلافية بخلاف المسائل الفقهية العملية، فالأصل أنها من المسائل الاجتهادية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله تعالى–: "قولهم: ومسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل،

أما الأول فإن كان القول يخالف سنة أو إجماعًا قديمًا وجب إنكاره وفاقًا، وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول: المصيب واحد وهم عامة السلف والفقهاء، وأما العمل إذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضا بحسب درجات

---

(١) شرح الأصفهانية (٢/ ٣٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٩٦).

الإنكار كما ذكرنا من حديث شـــارب النبيذ المختلف فيه وكما ينقض حكم الحاكم إذا خالف سنة وإن كان قد اتبع بعض العلماء،

وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيه مساغ فلا ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مســـائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس، والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد مالم يكن فيها دليل يوجب العمل به وجوباً ظاهراً مثل حديث صـحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ إذا عدم ذلك الاجتهاد لتعارض الأدلة المقاربة أو لخفاء الأدلة فيها".[(١)]

وقال ابن قيم الجوزية-رحمه الله تعالى-: "وهذا يرد قول من قال: لا إنكار في المســـائل المختلف فيها، وهذا خلاف إجماع الأئمة...-إلى أن قال-: وقولهم: (إن مسـائل الخلاف لا إنكار فيها). ليس بصحيح؛ فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل،

أما الأول: فإذا كان القول يخالف ســـنة أو إجماعًا وجب إنكاره اتفاقاً وإن لم يكن كذلك فإن بيان ضعفه ومخالفته للدليل إنكار مثله، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار، وكيف يقول فقيه: لا إنكار في المسائل المختلف فيها، والفقهاء من سائر الطوائف قد صرحوا بنقض حكم الحاكم إذا خالف كتاباً أو سنة وإن كان قد وافق فيه بعض العلماء.

وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم ينكر على من عمل بها مجتهدًا أو مقلدًا، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مســـائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس ممن ليس لهم تحقيق في العلم".[(٢)]

السمة التاسعة: من سمات أهل السنة أنهم قليل في زمن الفتن.

- قال الفضـــيل بن عياض: "عليك بطريق الهدى، ولا يضـــرك قلة الســـالكين، وإياك

(١) بيان الدليل على بطلان التحليل (ص: ٢١٠-٢١١)، ونقله ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٩١).

(٢) إعلام الموقعين (٥/ ٢٤٢-٢٤٣). وبنحو قولهما قال السمعاني في قواطع الأدلة (٥/ ٦٢)، والنووي في شرح مسلم (٢/ ٢٣).

وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين".[١]

- وقال سفيان بن عيينة: "اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله".[٢]
- وقال الحسن البصري: "يا أهل السنة ترفقوا رحمكم الله، فإنكم من أقل الناس".[٣]
- وعن عُمارة بن زاذان قال: قال لي أيوب: "يا عُمارة: إذا رأيت صاحب سنة وجماعة فاقبله على ما كان فيه".[٤]

السمة العاشرة: أن أهل السنة يعطون كل ذي حق حقه وهم أبعد الناس عن التكفير.

من سمات أهل السنة أنهم يعطون كل ذي حق حقه وهم أبعد الناس عن التكفير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم".[٥]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه حال أهل العلم والحق والسنّة؛ يعرفون الحق الذي جاء به الرسول؛ وهو الذي اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول؛ ويدعون إليه؛ ويأمرون به نصحاً للعباد، وبياناً للهدى والسداد. ومن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى، ولم يحكموا عليه بالجهل، بل حكمه إلى الله والرسول؛ فمنهم من يُكفره الرسول، ومنهم من يجعله من أهل الفسق أو العصيان، ومنهم من يعذره ويجعله من أهل الخطأ المغفور. والمجتهد من هؤلاء المأمور بالاجتهاد، يجعل له أجراً على فعل ما أمر به من الاجتهاد، وخطؤه مغفور له؛ كما

---

(١) المجموع للنووي (٨/ ٢٠٣)، الأذكار له (ص: ١٦٠)، الاعتصام (١/ ١٣٥)، وأخرجه مسندًا بنحوه ابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص: ٣٣١)، وعزاه النووي في التبيان (ص: ١١٥) للحاكم.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٧/ ٤٢٩).

(٣) أخرجه اللالكائي رقم: (١٩).

(٤) المعجم لابن الأعرابي (ص: ٤٣١)

(٥) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٤٣).

دلّ الكتاب".[١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَا يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ، بَلْ هُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ وَأَرْحَمُ بِالْخَلْقِ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الآية: ١١٠]. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ"[٢] [٣]".

وقال ابن قيم الجوزية-رحمه الله تعالى-: وهو يتكلم عن أهل السنة: "فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه وهم براء من باطلهم فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه إلى بعض والقول به ونصره وموالاة أهله من ذلك الوجه ونفي باطل كل طائفة من الطوائف وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه فهم حكام بين الطوائف لا يتحيزون إلى فئة منهم على الإطلاق ولا يردون حق طائفة من الطوائف ولا يقابلون بدعة ببدعة ولا يردون باطلا بباطل ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم ويكفرونهم على أن لا يعدلوا فيهم بل يقولون فيهم الحق ويحكمون في مقالاتهم بالعدل والله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف فقال: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: الآية: ١٥]".[٤]

وقال ابن قيم الجوزية-رحمه الله-: "والله تعالى يحب الانصاف بل هو أفضل حلية تحلى بها الرجل خصوصًا من نصب نفسه حكمًا بين الأقوال والمذاهب وقد قال الله تعالى لرسوله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: الآية: ١٥] فورثة الرسول منصبهم العدل بين الطوائف

---

(١) النبوات لابن تيمية (١/ ٤٢٢).

(٢) وَرَدَ هَذَا الْأَثَرُ فِي: الْبُخَارِيّ (٦/ ٣٧-٣٨)، كِتَابُ التَّفْسِيرِ، سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، بَابُ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وَنَصُّهُ فِيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ قَالَ: "خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ"، وَانْظُرْ تَفْسِيرَ ابْنِ كَثِيرٍ لِلْآيَةِ (٢/ ٧٧).

(٣) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٧).

(٤) شفاء العليل (ص: ١١٣).

وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه بل يكون الحق مطلوبه يسير بسيره وينزل ينزوله يدين بدين العدل والإنصاف ويحكم الحجة وما كان عليه رسول الله"(١).

وقال ابن تيمية: "فَأَهْلُ السُّنَّةِ يَسْتَعْمِلُونَ مَعَهُمُ الْعَدْلَ وَالْإِنْصَافَ وَلَا يَظْلِمُونَهُمْ ; فَإِنَّ الظُّلْمَ حَرَامٌ مُطْلَقًا كَمَا تَقَدَّمَ، بَلْ أَهْلُ السُّنَّةِ لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، بَلْ هُمْ لِلرَّافِضَةِ خَيْرٌ وَأَعْدَلُ مِنْ بَعْضِ الرَّافِضَةِ لِبَعْضٍ. وَهَذَا مِمَّا يَعْتَرِفُونَ هُمْ بِهِ، وَيَقُولُونَ: أَنْتُمْ تُنْصِفُونَنَا مَا لَا يُنْصِفُ بَعْضُنَا بَعْضًا."(٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "فإن الصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أنه قد يجتمع في الشخص الواحد والطائفة الواحدة ما يحمد به من الحسنات وما يذم به من السيئات، وما لا يحمد به ولا يذم من المباحات، والعفو عنه من الخطأ والنسيان بحيث يستحق الثواب على حسناته ويستحق العقاب على سيئاته، بحيث لا يكون محمودًا ولا مذمومًا على المباحات والمعفوات، وهذا مذهب أهل السنة في فساق أهل القبلة ونحوهم، وإنما يخالف في هذا الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ونحوهم، الذين يقولون: من استحق المدح لم يستحق الذم، ومن استحق الثواب لم يستحق العقاب، ومن يستحق العقاب لم يستحق الثواب". (٣)

السمة الحادية عشرة: أن أهل السنة جمعوا بين الرحمة واللين والشدة والغلظة.

فمن سماتهم الجمع بين الرحمة واللين والشدة والغلظة، بخلاف غيرهم ممن يأخذ جانبًا من هدي السلف ويدع الجانب الآخر، فيأخذون بالشدة في جميع أحوالهم أو باللين في جميع أحوالهم.

أما أهل السنة فيجمعون بين هذا وهذا، وكل في موضعه، حسب ما تقتضيه المصلحة،

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٤٨).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٧).

(٣) التسعينية (٣/ ١٠٣١).

ومقتضيات الأحوال.

وهم حقاً كما قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "نقاوة المسلمين، فهم خير الناس للناس".[(١)]

وقال أيضاً: "وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَا يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ، بَلْ هُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ وَأَرْحَمُ بِالْخَلْقِ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: الآية: ١١٠].. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ".[(٢)]. "[(٣)].

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن يكون الله-تعالى-فوق العرش لما وقعت محنتهم، أنا لو وافقتكم كنت كافرًا؛ لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور من معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له، فكان هذا خطابنا، فلهذا لم يقابل جهله وافتراؤه بالتكفير بمثله".[(٤)]

وهذه قصة يذكرها ابن تيمية تدل على عدل أهل السنة وإنصافهم مع أهل البدع بالرغم من أنهم قد يلقون من المبتدعة ما يلقون من اعتداء وسوء معاملة حين تكون الغلبة لأولئك المبتدعة.

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وَأَهْلُ السُّنَّةِ نَقَاوَةُ الْمُسْلِمِينَ، فَهُمْ

---

(١) منهاج السنة (٥/ ١٥٨).

(٢) وَرَدَ هَذَا الْأَثَرُ فِي: الْبُخَارِيّ (٦/ ٣٧-٣٨)، كِتَابُ التَّفْسِيرِ، سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، بَابُ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وَنَصُّهُ فِيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَانْظُرْ تَفْسِيرَ ابْنِ كَثِيرٍ لِلْآيَةِ (٢/ ٧٧).

(٣) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٧)

(٤) الاستغاثة في الرد على البكري (١/ ٢٥٣).

خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ كَانَ بِسَاحِلِ الشَّامِ جَبَلٌ كَبِيرٌ، فِيهِ أُلُوفٌ مِنَ الرَّافِضَةِ يَسْفِكُونَ دِمَاءَ النَّاسِ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ، وَقَتَلُوا خَلْقًا عَظِيمًا وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، وَلَمَّا انْكَسَرَ الْمُسْلِمُونَ سَنَةَ غَازَانَ، أَخَذُوا الْخَيْلَ وَالسِّلَاحَ وَالْأَسْرَى وَبَاعُوهُمْ لِلْكُفَّارِ النَّصَارَى بِقُبْرُصَ، وَأَخَذُوا مَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْجُنْدِ، وَكَانُوا أَضَرَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَاءِ، وَحَمَلَ بَعْضُ أُمَرَائِهِمْ رَايَةَ النَّصَارَى، وَقَالُوا لَهُ: أَيُّمَا خَيْرٌ: الْمُسْلِمُونَ أَوِ النَّصَارَى؟ فَقَالَ: بَلِ النَّصَارَى. فَقَالُوا لَهُ: مَعَ مَنْ تُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: مَعَ النَّصَارَى. وَسَلَّمُوا إِلَيْهِمْ بَعْضَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَعَ هَذَا فَلَمَّا اسْتَشَارَ بَعْضُ وُلَاةِ الْأَمْرِ فِي غَزْوِهِمْ، وَكَتَبْتُ جَوَابًا مَبْسُوطًا فِي غَزْوِهِمْ، وَذَهَبْنَا إِلَى نَاحِيَتِهِمْ وَحَضَرَ عِنْدِي جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، وَجَرَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مُنَاظَرَاتٌ وَمُفَاوَضَاتٌ يَطُولُ وَصْفُهَا، فَلَمَّا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ بَلَدَهُمْ، وَتَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ، نَهَيْتُهُمْ عَنْ قَتْلِهِمْ وَعَنْ سَبْيِهِمْ، وَأَنْزَلْنَاهُمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مُتَفَرِّقِينَ لِئَلَّا يَجْتَمِعُوا".[(١)]

السمة الثانية عشرة: من سمات أهل السنة حرصهم على الجماعة والألفة ونبذهم للاختلاف والفرقة.

حرصهم على الجماعة والألفة، ودعوتهم لها وحث الناس عليها، ونبذهم للاختلاف والفرقة بين أهل العقيدة والتوحيد، وتحذير الناس من ذلك، كيف لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: "إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا"، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: الآيتان: ١٠٥، ١٠٦].

قال ابن عباس: "تبيضُّ وجوه أهل السنة، وتسودُّ وجوه أهل البدعة".[(٢)]

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٩-١٦٠).

(٢) انظر:

=

فمن منهجهم الحرص على جمع كلمة المسلمين على الحق، فهم حريصون كل الحرص على وَحدة المسلمين، ولَمِّ شعثهم، وجمع كلمتهم على الحق، وإزالة أسباب النزاع والفرقة بينهم؛ لعلمهم أن الاجتماع رحمة، وأن الفرقة عذاب، ولأن الله-عز وجل-أمر بالائتلاف، ونهى عن الاختلاف؛ كما في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: الآيات: ١٠٢-١٠٣].

السمة الثالثة عشر: أن أهل السنة يقولون: أن العقل الصريح دائمًا موافقٌ للرسول-صلى الله عليه وسلم-لا يخالفه قط.

- شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٧٢-٧٤). ولفظه: عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فأهل السنة والجماعة وأولو العلم، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فأهل البدع والضلالة)
- وابن أبي حاتم كما في التفسير (٣٩٥٠، ٣٩٥١): ولفظه: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: في قوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قوله تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وبه عن ابن عباس... قال: تسود وجوه أهل البدع والضلالة".
- والخطيب كما في التاريخ (٧/ ٣٩٧): بلفظ: " ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فأهل البدع والأهواء، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فأهل السنة".
- والجرجاني، كما في تاريخه (ص: ١٣٢) بلفظ: "عن بن عباس: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فهم أهل السنة والجماعة، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فأهل الأهواء والزيغ".
- والشريعة للآجري (٥/ ٢٥٦١)

وهذا الأثر مشهور، وتداوله كثير من العلماء في كتبهم دون إنكار له، كابن تيمية في -مواضع كثيرة جدا-، وابن القيم، وابن كثير، والشاطبي، وغيره.

ولا يلتفت لقول من قال بتضعيف الأثر فالضابط في مثل هذه الآثار ما ذكره شيخ الإسلام بن تيمية حيث قال: "قال الإمام أحمد "ثلاثة علوم ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير" وفي لفظ "ليس لها أسانيد" ومعنى ذلك أن الغالب عليها أنها مرسلة ومنقطعة، فإذا كان الشيء مشهوراً عند أهل الفن وقد تعددت طرقه فهذا مما يرجع إليه أهل العلم بخلاف غيره". انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. من كتاب تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري (ص: ١٦-١٧).

ولعل في هذا تنبيهًا على ما ذكره مشهور حسن في تحقيقه لكتاب إعلام الموقعين حيث قال: "قلت: وإسناده ضعيف جدًا، إن لم يكن موضوعًا؛ ففيه علي بن قدامة ضعيف، وشيخه مجاشع بن عمرو اتهم بالكذب، وشيخه ميسرة مثله، ثم إن المتأمل في هذا التفسير يجد فيه نكارة، وهي أنه مخالف لنص القرآن الكريم، فقد بيّن الله تعالى لنا من هم الذين تبيض وجوههم، ومن الذين تسود وجوههم فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: الآية: ١٠٦]"، انظر تحقيق إعلام الموقعين عن رب العالمين لمشهور حسن (٢/ ٤٧٥).

فإن الميزان مع الكتاب، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان؛ لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصـــيل ما جاء به، فيأتيهم الرســـول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه؛ فالرسـل صـلوات الله وسـلامه عليهم تخبر بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول، فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم.

السمة الرابعة عشر: أن أهل السنة يتميزون باعتقادهم أن الصحابةَ –رضوان الله عليهم– لم يكن أحدٌ منهم على بدعة.

وما عُرفوا بذلك برغمِ ظهورِ بعض الفرقِ في زمانهم كالخوارجِ والقَدَرِيَةِ والشـــيعةِ ونحو ذلك، ومع ذلك ما عُرِفَ عن أحدٍ من أصحاب النبي أنه قد حادَ عن هذا الطريق.

ونؤمنُ بأن أصحابَ النبي كما وصفهم ابن مسعود حينما قال: "من كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ، فإنَّ الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة"، وكما أُثِر عنه حيث قال: "إنا نقتدي ولا نبتدئ، ونتبعُ ولا نبتدع.[1]"

فأصـــحابُ النبي خيرُ هذه الأمة، والله تعالى قد زكَّاهم في كتابه وأمرَ بلزومِ ســـبيلهم حيث قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـــوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية: ١٠٠]، فرضـيَ الله عن السـابقين من المهاجرين والأنصـار رضـاءً مطلقًا بدونِ قيد، ورضيَ عنهم بعدهم رضاءً مقيَّدًا.. مقيَّداً بأي أمر؟ باتباعهم بإحسان ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾.

ونهى الله ســـبحانه وتعالى عن الافتراقِ عنهم ﴿وَمَن يُشَـــاقِقِ الرَّسُـــولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَـبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْـلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَـاءَتْ مَصِـيرًا﴾ [النسـاء: الآية: ١١٥].

نهى عن الافتراقِ عن هذا الطريقِ وهذا الســـبيل، والمعالم بحمد لله تعالى واضـــحة، مرجعيةٌ

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٩٦).

استقامَ عليها الأوائل وحفظوها لنا بأسانيدها الصحيحةِ الثابتة ونقلوها لنا، وأصبحت -بحمد الله تعالى- ميراثًا سليمًا من كل بدعةٍ ومن كل شائبة يتوارثه أهل السنَّةِ جيلًا بعدَ جيل، وينقله الخيارُ من هذه الأمة، ينقله ورثةُ الأنبياء لكلِّ جيلٍ من هذه الأجيال.

فلذلك لا عجبَ أن يتسمَ هذا المنهج بثباته وعدمِ اضطرابه، ولا عجبَ أن يتسمَ هذا المنهج بلزومِ كلام الله وبلزومِ كلام رسوله، ولا عجبَ أن يستمرَ هذا الإسناد محفوظاً جيلًا بعدَ جيل.

فهذه هي مرجعيةُ أهل السنَّة التي بحمد الله تعالى نُقلِت لنا في كتبِ الاعتقاد، ولزِمَها أهلُ السنَّةِ على مدى هذه الأزمانِ وعلى هذه الأعصار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخصٍ انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا للصحابة -رضي الله عنهم أجمعين-.

فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا؛ فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ، بل كل قولٍ قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ؛ فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مُسَلَّمًا إلى عالمٍ واحدٍ وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول، قبل وجود المتبوعين الذين تُنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله إن كان حقًّا مأخوذًا عمَّا جاء به الرسول، موجودًا

فيمن قبله، وكل قول قِيلَ في دين الإسلام، مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه، فإنه قول باطل(١).

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية: ١٠٠]

وقال أيضاً :﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: الآية: ١٠].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله-صلى الله عليه وسلم-من الكتاب والحكمة، ومعرفة ما أراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ومن سلك سبيلهم، فكل ما يحتاج الناس إليه في دينهم، فقد بينه الله ورسوله بيانًا شافيًا، فكيف بأصول التوحيد والإيمان، ثم إذا عرف ما بينه الرسول نظر في أقوال الناس، وما أرادوه بها، فعرضت على الكتاب والسنة".(٢)

السمة الخامسة عشرة: وسطية أهل السنة بين الطوائف والفرق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل الأخرى".(٣)

فأهل السنة هم أعرف الناس بالحق، ولذلك فإن كل طائفة سوى أهل السنة والحديث المتبعين آثار رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، لا ينفردون عن طائفة أهل السنة إلا بقول فاسد، ولا ينفردون بقول صحيح، وكل من كان عن السنة أبعد، كان انفراده بالأقوال

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٦١-٢٦٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٤٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤١).

والأفعال الباطلة أكثر".[١]

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٦٧).

فرقة المرجئة

قال المصنف رحمه الله:

[٩١]- ولأصحاب البدع نبز وألقاب وأسماء لا تشبه أسماء الصالحين، ولا الأئمة، ولا العلماء من أمة محمد ﷺ. فمن أسمائهم:

[٩٢]- (المرجئة): وهم الذين يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل. وأن الإيمان هو القول، والأعمال شرائع. وأن الإيمان مجرد، وأن الناس لا يتفاضلون في الإيمان. وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء واحد. وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص. وأن الإيمان ليس فيه استثناء. وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقاً. وأنهم مؤمنون عند الله بلا استثناء. هذا كله قول المرجئة. وهو أخبث الأقاويل وأضلّهُ وأبعده من الهدى.

الشرح

انظر الكلام على الإرجاء في الفقرة (٦)

فرقة القدرية

قال المصنف رحمه الله:

[٩٣]- و(القدرية): وهم الذين يزعمون أن إليهم الاستطاعة، والمشيئة والقدرة، وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشرَّ، والضر والنفع، والطاعة والمعصية، والهدى والضلالة، وأن العباد يعملون بدءًا من أنفسهم، من غير أن يكون سبق لهم ذلك في علم الله. وقولهم يضارع قول المجوسية والنصرانية، وهو أصل الزندقة.

[٩٤] و(المعتزلة): وهم يقولون بقول القدرية، ويدينون بدينتهم، ويكذِّبون بعذاب القبر، والشفاعة، والحوض، ولا يرون الصلاة خلف أحد من أهل القبلة، ولا الجمعة، إلا من كان على مثل رأيهم وهواهم، ويزعمون أن أعمال العباد ليست في اللوح المحفوظ.

[٩٥]- و(البكريَّة): وهم قدرية، وهم أصحاب الحبَّة، والقيراط، والدانق، الذين يزعمون أن من أخذ حبَّة، أو قيراطًا أو دانقًا حرامًا فهو كافر، وقولهم يضاهئ قول الخوارج.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (١٥) في المسألة السادسة: مواقف المخالفين من مراتب القدر.

الجهمية

[٩٦]- و(الجهمية): أعداء الله وهم الذين يزعمون أن القرآن مخلوق، وأن الله عز وجل لم يكلم موسى، وأن الله لا يتكلم، ولا يُرى، ولا يُعرف لله مكان، وليس لله عرش، ولا كرسي، وكلام كثير أكره حكايته. وهم كفار زنادقة أعداء الله فاحذروهم.

الشرح

تقدم الرد عليهم في الفقرة (٦٦) في المسألة الثالثة: قول أهل السنة في القرآن وأنه كلام الله غير مخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ، ومنها ظهر رأي جهم. ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق أكثر كلاماً في رد مذهب جهم من أهل الحجاز، مثل إبراهيم بن طهمان، وخارجة بن مصعب، ومثل عبد الله بن المبارك، وأمثالهم وقد تكلم في ذمهم ابن الماجشون، وغيرهما وكذلك الأوزاعي، وحماد بن زيد وغيرهم".([١])

وقد ظهر الجهم في آخر دولة بني أمية. وقد قتل في بعض الحروب ([٢]) سنة (١٢٨هـ).

اسمه وكنيته ونسبه([٣])

اتفق جميع من ذكره على اسمه واسم أبيه، وأنه (جهم بن صفوان) ([٤])، إلا أن بعضهم أضافوا (ال) قبل اسمه، فجعلوه (الجهم بن صفوان)([٥]). والأمر في هذا واسع، حيث إن بعض الأسماء العربية تجوز فيها إضافة (ال) قبلها، مثل (حسن) و(الحسن)، و(حسين) و(الحسين).

([١]) مجموع الفتاوى ١٤/٣٥١.

([٢]) مجموع الفتاوى ١٣/١٨٢.

([٣]) المصدر كتاب مقالات الجهم بن صفوان وأثرها على الفرق الإسلامية

([٤]) انظر على سبيل المثال: تاريخ الطبري (٧ / ٣٣٠)، والوافي بالوفيات للصفدي (١١/ ١٦٠-١٦١)، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/٤٣٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (١ / ٤٢٦).

([٥]) مثل الذهبي في تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات سنة ١٢١ -١٤٠، ص ٦٥).

ولم يذكر نسبه بعد أبيه، ولعل السبب في ذلك أن الجهم كان من العجم، ومن المعروف عنهم -إلى يومنا هذا- أنهم لا يهتمون بحفظ أنسابهم كما هو موجود عند العرب.

إلا أن يوسف بن موسى[١]، ذكر أن الجعد بن درهم هو أبو الجهم أو جده، حيث قال: (أتعرف الجعد؟ هو أبو الجهم أو جده (شك الراوي) الذي شك في الله أربعين صباحاً))[٢]، ولا شك أن هذا ليس بصحيح، فهو قول شاذ يخالف أقوال جميع العلماء الآخرين، حيث اتفقوا على أن الجعد شيخ الجهم، وليس أبا له. ويمكن أن تحمل كلمة (الأبوة) على غير معناها الحقيقي، فلعله قصد أن الجهم أخذ عن الجعد ولازمه ملازمة الابن لأبيه، والله أعلم.

كما اتفق جميع من ذكر كنيته على أنها (أبو محرز[٣]. ويظهر أنه كان مشهوراً بهذه الكنية، لأنه لما قتل صاح الناس: (قتل أبو محرز)[٤].

بلده ونسبته[٥]

كان الجهم بن صفوان من الموالي، حيث ذكرت بعض المصادر أنه مولى لبني راسب، ولا يوجد خلاف في هذا[٦]. والأغلب في الولاء أنه ولاء عتق، وقد يكون ولاء إسلام

والراسبي: (بفتح الراء وسكون الألف وكسر السين المهملة وفي آخرها باء موحدة)[٧]، إما نسبة إلى بني راسب، (وهي قبيلة نزلت البصرة... وراسب هو ابن ميدغان بن مالك بن نصر

---

(١) هو: يوسف بن موسى بن راشد القطان، أبو يعقوب الكوفي، من شيوخ البخاري والترمذي. وثقه غير واحد من أهل العلم. توفي سنة ٢٠٣ هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٤ /٤٦٢).

(٢) السنة للخلال (٥ / ٨٨)، والرد على الجهمية لابن بطة (٢/ ١٢١).

(٣) انظر على سبيل المثال: تاريخ الطبري (٧ / ٣٣٠)، والفصل لابن حزم (٤/ ٢٩٩)، ولسان الميزان لابن حجر (٢/ ٣٩٩).

(٤) تاريخ الطبري (٧/٣٣٠).

(٥) المصدر كتاب مقالات الجهم بن صفوان وأثرها على الفرق الإسلامية ١/ ٧٠ ـ ٧٤

(٦) انظر: تاريخ الطبري، (٧ /٣٣٠)، والفصل لابن حزم، (٤ /٢٩٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (حوادث ووفيات سنة ١٢١-١٤٠، ص. ٦٥)، والبداية والنهاية لابن كثير، (٩ / ٤٣٩)، ولسان الميزان، لابن حجر (٢/ ٣٥٠)

(٧) اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (٢/ ٧).

بن الأزد، بطن من الأزد)[١]، أو إلى راسب بن الخزرج بن جدة بن جرم بن ربان، رجل جاهلي، بنوه بطن من جرم من القحطانية. وهذا الثاني هو الذي رجحه ابن الأثير حيث قال: (ينسب إليه جهم بن صفوان رأس الجهمية)[٢].

واختلف العلماء في بلده، فنسبه ابن حزم، والذهبي، وابن حجر وجماعة[٣] إلى (سمرقند)[٤].

وقال مقاتل بن سليمان، وأبو إسماعيل الهروي، وعبد القادر الجيلاني وفخر الدين الرازي، والمقريزي وغيرهم[٥] أنه من (أهل ترمذ)[٦]. كما نقل اللالكائي من كتاب ابن أبي حاتم عن أبي معاذ خلف بن سليمان البلخي أنه قال: (كان جهم على معبر ترمذ[٧]، وذكر الصفدي أن بدعته ظهرت في ترمذ[٨]

وهذا الذي جزم به شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا حيث قال: (ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق، من ترمذ)[٩].

---

(١) اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (٢/ ٧).

(٢) اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (٢/ ٧).

(٣) انظر: الفصل، لابن حزم (٤ / ٢٩٦)، وميزان الاعتدال، للذهبي (١/ ٤٢٦)، ولسان الميزان، لابن حجر (٢/ ٣٤٩).

(٤) سمرقند: بلد معروف في بلاد ما رواء النهر، وتقع شمال مدينة (ترمذ).

انظر: معجم البلدان، للحموي (٣/ ٦٦). ومدينة سمرقند تقع حالية في أوزبكستان.

(٥) الإبانة لابن بطة، كتاب الرد على الجهمية (٢/ ٨٧-٨٩)، وذم الكلام وأهله للهروي (٥/ ١٢٠)، والغنية للجيلاني (ص ١١٨)، واعتقاد فرق المسلمين والمشركين للرازي (ص ١٠٣)، والخطط للمقريزي (٢/ ٣٤٦).

(٦) ترمذ: بكسر التاء على المشهور، وقيل بفتحها، وقيل بضمها، مدينة مشهورة راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي. انظر: معجم البلدان، اللحموي (١/٤٤٠). وتقع حالية بين حدود أوزبكستان وأفغانستان.

(٧) شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٤٢٤).

(٨) الوافي بالوفيات (١١/ ١٩٠-١٩١).

(٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/ ٣٠١).

وتردد ابن كثير في نسبته، فقال إنه (الخزري)[١]، وقيل: الترمذي[٢]. ولم أقف على من نسبه إلى (الخزر) غير ابن كثير[٣].

ونسبه السمعاني[٤] إلى مدينة بلخ[٥]، كما نسب إلى الكوفة[٦]، وإلى مرو[٧].

ونقل الخلال بسند فيه مجاهيل عن الإمام أحمد أنه قال: سمعت بعض ولد ساسان يقول: سمعت جهما يقول: (أنا من حران من قدار)[٨].

ويلاحظ أن أكثر هذه المدن متقاربة بعضها من بعض، مثل: ترمذ، وسمرقند، وبلخ، فكلها في شمال شرقي خراسان.

"والذي يظهر أنه ولد في سمرقند، ثم انتقل إلى ترمذ، وذلك أن بعض المصادر ذكرت أنه نفي إلى ترمذ[٩]، والعادة أن الرجل لا ينفى إلى بلده، ثم إن أكثر المصادر نسبته إلى سمرقند.

فالجمع بين النسبين أن يقال: إنه من سمرقند، ولكن نشأ في ترمذ، لذلك ظهرت بدعته فيها كما صرح بذلك غير واحد من أهل العلم."[١٠]

---

(١) الخزر: هو بلاد الترك خلف باب الأبواب، المعروف بالدربند، وهو اسم إقليم أيضا، كما هو اسم مملكة. انظر: معجم البلدان للحموي (٢/٢٣١). وهو يقع حاليا في وسط روسيا.

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٤٠٥).

(٣) قال الدكتور ياسر قاضي: ربما وقع هنا خطأ مطبعي، وأراد أن يقول إنه (جزري) الأصل، فإذا كان هذا، فلعله التبس عليه أمر الجعد، فهو الذي كان جزري الأصل. انظر: ذم الكلام وأهله للهروي (٥/ ١٢٠).

(٤) انظر: الأنساب للسمعاني (١ / ٤٧٨).

(٥) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخا. انظر: معجم البلدان (١ / ٣٧٨). وتقع حالية في أفغانستان.

(٦) انظر: شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٣/ ٤٣٤).

(٧) انظر: الغنية للجيلاني (ص. ١١٨).

(٨) السنة للخلال (٥/ ٨٣).

(٩) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٤٠٥).

(١٠) مقالات الجهم بن صفوان ١ / ٧٢ .٧٣.

نشأته[١]:

لم تذكر كتب التاريخ معلومات عن نشأته، ولا عن أبويه أو طفولته ولكن بالاستقراء بعض المدن التي زارها.

فمما سبق علمنا أن له علاقة بمدينتي سمرقند وترمذ، بل ظهر أول أمره في ترمذ[٢]، ونفي إليها[٣].

وذكر عنه أنه أقام ببلخ مدة من الزمن، يصلي في مسجد مقاتل بن سليمان ويتناظر معه[٤]، وأنه زار الكوفة ولقي شيخه الجعد أول ما لقيه هناك[٥]. كما نعلم من سيرته مع الحارث بن سريج أنه ذهب إلى مرو[٦]، حيث قتل هناك.

ولم أجد من نص على تاريخ بدء دعوته، ولكن ذكر شيخ الإسلام أن (ظهور جهم (كان بخراسان في خلافة هشام بن عبد الملك)[٧]، يعني بين سنة ١٠٥-١٢٠

علمه[٨]

عاش الجهم بن صفوان في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام، حيث كان التابعون والعلماء متوافرين، ولكنه أعرض عن العلم تماما، وآثر علم الكلام والفلسفة على علم الكتاب والسنة. وقد شهد غير واحد من أهل العلم على جهله، وعلى أنه لم يجالس العلماء قط، فقال عبد

---

(١) المصدر كتاب مقالات الجهم بن صفوان وأثرها على الفرق الإسلامية ١ / ٧٦، ٨٢

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٧٣)، والوافي بالوفيات للصفدي (١١/١٩١-١٩٠).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٩/٤٠٥).

(٤) نفس المصدر (٩/٤٠٥).

(٥) نفس المصدر (٩/٤٠٥).

(٦) مرو: وتعرف بمرو الشاهجان، أشهر مدن خراسان وقصبتها، يتخللها أنهار كثيرة. انظر: معجم البلدان للحموي (٤/٢٠٣). وتقع حاليا في تركمنستان.

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠ / ٣٠٢).

(٨) المصدر: كتاب مقالات الجهم بن صفوان ١/ ٩٥

العزيز بن أبي سلمة: (إن كلام جهم صفة بلا معنى، وبناء بلا أساس، ولم يعد قط من أهل العلم. ولقد سئل جهم عن رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها، فقال: عليها العدة. فخالف كتاب الله بجهله، وقال سبحانه: ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ [الأحزاب: ٤٩].(١)

وقال أيوب بن أبي تميمة: (كان جهم فيما بلغنا لا يعرف بفقه ولا ورع ولا صلاح، أعطي لسانا منكراً فكان يجادل ويقول برأيه)(٢).

وقال مقاتل بن سليمان: (إن جهما والله ما حج هذا البيت قط ولا جالس العلماء، وإنما كان رجلا أعطى لساناُ)(٣).

وقال الذهبي، ونقله عنه الحافظ ابن حجر: (وما علمته روى شيئاً)(٤).

ولم يكن الجهم معرضا عن علم الوحي فحسب، بل كان مقبلا على علم الكلام، ناظراً فيه، داعية إليه. ذكر ابن أبي حاتم عن أبي معاذ خلف بن سليمان البلخي أنه قال: (كان جهم على معبر ترمذ، وكان رجلا كوفي الأصل، فصيح اللسان، لم يكن له علم ولا مجالسة الأهل العلم. كان تكلم كلام المتكلمين...)(٥).

ويكفي للدلالة على موقفه من العلم موقفه من كتاب الله عز وجل، فقد قال أبو نعيم البلخي: (كان رجل من أهل مرو صديقاً لجهم (وفي رواية: وكان خاصاً به)، ثم قطعه وجفاه (وفي رواية: ثم تركه وجعل يهتف بكفره)، فقيل له: لم جفوته؟ فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأت عليه يوماً آية كذا وكذا نسيها الراوي –فقال: ما كان أظرف محمداً (وفي رواية زيادة:

---

(١) خلق أفعال العباد للبخاري (ص ١١).

(٢) ذكره شيخ الإسلام في التسعينية (١ / ٢٤٠).

(٣) السنة للخلال (٥/ ٨٥)، ومسائل الإمام أحمد لأبي داود (ص٢٦٩)، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٣/ ١٦١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر.(١٢٠/٦٠).

(٤) ميزان الاعتدال (١ / ٤٢٦)، و: لسان الميزان (٢/ ٣٤٩).

(٥) شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٣/ ٤٢٤).

حين قالها)، فاحتملتها. ثم قرأ سورة طه فلما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، قال: أما والله لو وجدت سبيلا إلى حكها، لحككتها من المصحف، فاحتملتها. ثم قرأ القصص، فلما انتهى إلى ذكر موسى قال: ما هذا؟ ذكر قصة في موضع فلم يتمها، ثم ذكر ههنا فلم يتمها، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه، فوثب عليه).

وفي رواية: (جمع يديه ورجليه ثم دفع المصحف، ثم قال: أي شيء هذا؟ ذكره هاهنا فلم يتم ذكره، وذكره ثم فلم يتم ذكره).

وفي رواية ثالثة: (دفع المصحف بيديه جميعا من حجره، فرمى به أبعد ما يقدر عليه، ودفعه برجله)[(١)].

ولأجل هذه الأفعال القبيحة وغيرها، نسبه أهل العلم إلى الكفر والزندقة.

ومع هذا الجهل المركب، كتب جهم كتابا في بيان عقيدته والرد على مقاتل بن سليمان، فذكر ابن عساكر أن مقاتل بن سليمان كان يقص في جامع مرو، فقدم عليه جهم وجلس إليه، ثم وقعت العصبية بينهما، فوضع كل واحد منهما على الآخر كتابا ينقض على صاحبه[(٢)].

كما ذكرت بعض المصادر أنه ألف كتابا في نفي الصفات -ولعله هو الكتاب نفسه في الرد على مقاتل، أو كتاب آخر[(٣)].

كما ذكر عبد الله بن أحمد أثرا فيه إشارة إلى أن الجهم كان يؤلف في خراسان ويرسل كتاباته إلى الآخرين يدعو إلى مقالاته[(٤)].

وقد كتب بعض أتباعه كلامه كذلك، فقال الإمام أحمد: (كتب إلي ذاك المغازلي بكتاب فيه

---

(١) خلق أفعال العباد للبخاري (ص ٢٠)، والرواية الثانية في الرد على الجهمية لابن بطة (٢/ ٩٢). قال الألباني في مختصر العلو (ص ١٩٢) وسنده صحيح.

(٢) تاريخ دمشق (٦٠/ ١٢٠)، ويغلب على الظن أن كتابه هذا كان في الصفات، حيث خالفه مقاتل في هذه المسألة.

(٣) الغنية للجيلاني (ص ١١٨).

(٤) انظر: كتاب السنة (١/ ١٨٣).

كلام جهم[(١)].

وذكر في ترجمة إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى أنه كان قدرية جهمية، وأنه أعطى نعيم بن حماد كتابا فيه رأي جهم، فدفع إليه كتاب جهم، فمزقه نعيم وطرحه[(٢)].

وكان الجهم يقف في المساجد ويدعو الناس إلى قوله في التعطيل، فروي عن مكي بن إبراهيم أنه قال: (رأيته في مسجد بلخ، يقول بتعطيل الله عن عرشه وأن العرش منه خال)[(٣)].

وقيل: إن واصل بن عطاء أرسل حفص بن سالم إلى ترمذ لمناظرة جهم بن صفوان، فناظره (فقطعه، فرجع إلى قول أهل الحق ـ يقصد المعتزلة ـ، فلما عاد حفص إلى البصرة، رجع جهم إلى قول الباطل)[(٤)].

وقد ثبت أن الجهم خالف أهل السنة في مسائل كثيرة، أوصلها الإمام أحمد إلى سبعين مسألة. نقل الخلال عن إسحاق بن عيسى البار أنه قال: (قدم علينا رجل من صور، معرف بالصوري، متكلم، حسن الهيئة كأنه راهب، فأعجبنا أمره، ثم إنما لقي سائل فجعل يقول لنا: الإيمان مخلوق، والزكاة مخلوق، والحج مخلوق، والجهاد مخلوق. فجعلنا لا ندري ما نرد عليه، فأتينا عبد الواهب الوراق، فقصصنا عليه أمره، فقال: ما أدري ما هذا؟ ائتوا أبا عبد الله أحمد بن حنبل، فإنه جهبذ هذا الأمر.

قال: فأتينا أبا عبد الله، فأخبرناه بما أخبرنا عبد الوهاب من المسائل التي ألقاها علينا. فقال لنا أبو عبد الله: (هذه مسائل الجهم بن صفوان، وهي سبعون مسألة، اذهبوا فاطردوا هذا من عندكم[(٥)].

---

(١) السنة للخلال (٥/١٤٥).

(٢) انظر: الكامل لابن عدي (١/ ٢٢١)، وفي التهذيب لابن حجر أن إبراهيم هذا توفي سنة ١٨٤هـ (تهذيب التهذيب، ١/ ٨٤).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث سنة ١٢١ -١٤٠هـ، ص ٦٧).

(٤) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار (ص ١٩٣)، والمنية والأمل لابن المرتضى (ص ١٩).

(٥) انظر: السنة (٥/ ٩٣)

إذا ثبت أن الجهم ابتدع أقوالا كثيرة، ولكن الذي وصلنا منه أقل من هذا بكثير، ولله تعالى حكم بالغة في ذلك، والله أعلى وأعلم.

ومما نعرف عنه أنه كان رجلا فصيحاً، فعن مقاتل أنه قال في الجهم: إنما كان رجلا أعطي لسانا[(١)].

ونقل اللالكائي عن كتاب ابن أبي حاتم عن أبي معاذ خلف بن سليمان البلخي أنه قال: (كان جهم على معبر ترمذ، وكان رجلا كوفي الأصل، فصيح اللسان)[(٢)].

وقال أيوب بن أبي تميمة: (كان جهم فيما بلغنا لا يعرف بفقه ولا ورع ولا صلاح، أعطي لسانا منكراً فكان يجادل ويقول برأيه)[(٣)].

ووصفه غير واحد من أهل العلم بأنه كان ذا أدب ونظر وذكاء وفكر وجدال ومراء[(٤)].

وهذا النوع من دعاة الضلال وصفهم شيخ الإسلام في هذه الفتوى بقوله: " أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاءً، وأعطوا فهومًا وما أعطوا علومًا، وأعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[الأحقاف:٢٦].

هذا، وقد ذكرت بعض المصادر أن جهما كانت له زوجة تدعو إلى القول بخلق القرآن، اسمها زهرة، كما ترك ولداً نهج نهجه وكان من الدعاة إلى خلق القرآن، وهو محمد بن الجهم بن صفوان.

قال أبو إسماعيل الهروي: إن جهما كان يدعو إليه (يعني القول بخلق القرآن) الرجال، وامرأته

---

(١) الرد على الجهمية لابن بطة (٢/ ٩٠)، ومسائل أحمد لأبي دواد (ص٢٦٩).

(٢) شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٤٢٤).

(٣) ذكره شيخ الإسلام في التسعينية (١/٢٤٠).

(٤) الوافي بالوفيات للصفدي (١١/١٦٠-١٦١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (حوادث سنة ١٢١ -١٤٠ هـ، ص ٦٦).

زهرة تدعو إليه النساء، حتى استهويا خلقا من خلق الله كثيراً)[١].

وعن مكي بن إبراهيم أنه قال: (دخلت امرأة جهم على امرأتي أم إبراهيم -وكانت امرأة ديدانية تبدو أسنانها- فقالت: يا أم إبراهيم! إن زوجك هذا الذي يحدث عن العرش، العرش، من نجره؟ فقالت لها: نجره الذي نجر أسنانك هذه !!)[٢].

وعن الأصمعي أنه قال: (قدمت امرأة جهم، فقال رجل عندها: الله على عرشه، فقالت: محدود على محدود). فقال الأصمعي: (هي كافرة بهذه المقالة)[٣].

وكان لابنه محمد منصب عند الخليفة العباسي المأمون، فذكر الكناني: (وكان الناس في ذلك الزمان في أمر عظيم، ومنع الفقهاء والمحدثون والمذكرون والدعاؤون من القعود في الجامعين ببغداد، وفي غيرهما من سائر المواضع، إلا بشراً المريسي، ومحمد بن الجهم بن صفوان (وفي نسخة زيادة: الذي به تعرف الجهمية)، ومن كان موافقة لهما على مذهبهما، فإنهم كانوا يقعدون ويجتمع الناس إليهم، فيعلمونهم الكفر والضلال)[٤] وكان محمد هذا يحضر مجالس المأمون ويدعو إلى بدعته، ويناظر من حضر مجالس المأمون من علماء أهل السنة؟[٥]

وقد ذكر هذا الرجل في بعض المصادر الأخرى[٦].

وكان أتباعه في حياته محدودين، فقد ذكر ابن كلاب في كتابه الصفات أنه لم يكن للجهم

---

(١) ذم الكلام وأهله (٥ / ١٢٠).

(٢) الرد على الجهمية لابن بطة (٣/ ١٨٩).

(٣) مختصر العلو للذهبي، اختصار الألباني (ص ١٧٠، أثر ١٨٩).

(٤) كتاب الحيدة (ص ٤).

(٥) انظر: نفس المصدر (ص ٥، و٣٦، و١٢٣).

(٦) انظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص ٤٥، و ص ٥٠)، حيث قال عنه: (ثم نصـــير إلى محمد بن الجهم البرمكي، فنجد مصحفه كتب أرسطاطاليس، في الكون والفساد والكيان، وحدود المنطق بها، يقطع دهره ولا يصوم شهر رمضان لأنه -فيما ذكر- لا يقدر على الصوم ...).

سوى خمسين أتباعه، وقيل: بل رجلان فقط)[١].

شيخه وسلسلة إسناد مقالاته[٢]

اشتهر بين العلماء أن الجهم كان تلميذا للجعد بن درهم، ومن خاصته بحيث لم يشتهر بين تلاميذ الجعد سواه.

قال البخاري: (قال قتيبة بن سعيد: بلغني أن جهماً كان يأخذ الكلام من الجعد بن درهم)[٣]، فالجعد إذا هو الشيخ الأساسي للجهم بن صفوان.

وذكر بعض المؤرخين أن الجهم لقي الجعد في الكوفة، بعد ما هرب الجعد من بني أمية، حيث نص ابن كثير أن الجعد (أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، فطلبته بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول منه)[٤].

يقول شيخ الإسلام: (فإن جهما أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات، وبالغ في نفي ذلك، فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه، وإن كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك)[٥].

وبين شيخ الإسلام أن (... أصل قولهم هذا مأخوذ من المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلاً)[٦].

وذكر في موضع آخر أن إسناد جهم في مقالاته متلقي من الصابئة الفلاسفة، والمشركين

---

(١) نقله من كتاب ابن فورك شيخ الإسلام في درء التعارض (٦/ ١٩٤)، بينما في مجموع الفتاوى (٥/ ٣٢٠) قيل إنهما رجلان فقط.

(٢) المصدر: كتاب مقالات الجهم بن صفوان وأثرها على الفرق الإسلامية ١/ ٧٦ ـ ٨٢.

(٣) خلق أفعال العباد للبخاري (ص ٨)، وذكره كذلك السمعاني في الأنساب (١/٤٦٨).

(٤) البداية والنهاية (٩ / ٤٠٥).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٢/ ١١٩).

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٩٧).

البراهمة، واليهود السحرة[١].

مقتله[٢]

تاريخ قتله: قتل الجهم بن صفوان، يوم الثلاثاء، التاسع عشر من شهر جمادى الآخرة، سنة ثمان وعشرين ومائة من الهجرة. ويؤخذ يوم وتاريخ قتله من الأحداث التي صاحبت القتال الذي حصل بين الحارث بن سريج ونصر ابن سيار، فنعلم أن القتال بدأ يوم الاثنين، ٢٨ جمادى الآخرة، ١٢٨ هـ[٣]، واستمر القتال إلى اليوم الثاني، حيث انهزم فريق الحارث، ودخل سلم معسكره، وأسر الجهم وقتله في ذلك اليوم.

مكان قتله: قتل بخراسان، خارج سور مدينة مرو، على شط نهر بلخ. لأن معسكر الحارث كان خارج سور مدينة مرو، ولما انهزم الحارث، دخل سلم معسكره وأسر فيه الجهم بن صفوان، ثم قتله سلم على شط النهر[٤].

بدع الجهم

إن جهم بن صفوان -كغيره من أهل البدع -لم يعط الكتاب والسنة حقهما، بل استدل بآيات متشابهات، وأول القرآن على غير تأويله[٥]، وحرفه عن مواضعه.

ولا غرو في ذلك، فإنه كان يزعم أن القرآن مخلوق، وهو قول يتوصل به إلى إنكار الوحي، والحط من علو مرتبة القرآن وهيبته في النفس".

لذا بنى مقالته في الصفات على آيات ثلاث فقط، وأهمل الآلاف من الآيات المحكمات،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/ ٥١).

(٢) المصدر: كتاب مقالات الجهم بن صفوان (١ / ١٠٩ - ١١٥)

(٣) ذكر هذا التاريخ الطبري في تاريخه (٧/ ٣٣٣)، وابن الأثير في الكامل.(٤/ ٣٤٨).

(٤) تاريخ الطبري (٧/ ٣٣٥)، وكذلك نقل الزركلي من كتاب (الحور العين) أن الجهم قتل في مرو على شط نهر بلخ (انظر: الأعلام، ٢ / ١٤١). وذكر المكان أيضا اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/ ٣٤٤)، والأشعري في مقالات الإسلاميين (ص ٢٨٠)، والشهرستاني في الملل والنحل (١/ ٧٣).

(٥) انظر كلام الإمام أحمد هذا في رده على الجهمية (ص ١٠٨).

وأول هذه الآيات المتشابهات على غير تأويلها. يقول الإمام أحمد عنه أنه (وجد ثلاث آيات في كتاب الله عز وجل من المتشابه، قوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ) [الشورى: ١١]، وقوله: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ)) [الأنعام: ٣]، وقوله تعالى: (لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ) [الأنعام: ١٠٣). فبنى أصل كلامه على هذه الثلاث الآيات، ووضع دين الجهمية،... وتأول كتاب الله على غير تأويله)[١].

ويكفي للدلالة على موقفه من الكتاب العزيز ما رواه غير واحد من علماء السلف بأسانيدهم عن أبي نعيم البلخي أنه قال: (كان رجل من أهل مرو صديقاً لجهم (وفي رواية: وكأن خاض به)، ثم قطعه وجفاه (وفي رواية: ثم تركه وجعل يهتف بكفره)، فقيل له: لم جفوته؟

فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأت عليه يوما آية كذا وكذا –نسيها الراوي –فقال: ما كان أظرف محمدا (وفي رواية زيادة: حين قالها)، فاحتملتها.

ثم قرأ سورة طه فلما قال: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) [طه: ٥]، قال: أما والله لو وجدت سبيلا إلى حكها، لحككتها من المصحف، فاحتملتها.

ثم قرأ القصص، فلما انتهى إلى ذكر موسى قال: ما هذا؟ ذكر قصة في موضع فلم يتمها، ثم ذكرها ههنا فلم يتمها، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه، فوثب عليه.

وفي رواية: (جمع يديه ورجليه ثم دفع المصحف، ثم قال: أي شيء هذا؟ ذكره ها هنا فلم يتم ذكره، وذكره ثم فلم يتم ذكره).

وفي رواية ثالثة: (دفع المصحف بيديه جميعا من حجره، فرمى به أبعد ما يقدر عليه، ودفعه برجله)[٢].

بل تجاسر على القول بأن القرآن غير محفوظ.

---

(١) الرد على الجهمية (ص ١٠٢-١٠٨)، ورواه ابن بطة في الإبانة، كتاب الرد على الجهمية (٢/ ٨٧-٨٩)، مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه.

(٢) خلق أفعال العباد للبخاري (ص ٢٠)، والرد على الجهمية لابن بطة (٢/ ٩٢)، والسنة لعبد الله بن أحمد (١/ ١٩٧). قال الألباني في مختصر العلو (ص ١٩٢): وسنده صحيح، وقد سبق ذكره.

فعن زر بن صالح السدوسي أنه قال: (لقيت جهما فقلت: هل نطق الرب؟

قال: لا.

قلت: فينطق؟

قال: لا.

فقلت: فمن يقول (لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ)، ومن يرد عليه و (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [غافر: ١٦]؟

فقال: لا أدري، زادوا في هذا القرآن ونقصوا)[(١)].

فالقرآن عنده كلام مخلوق مبدل محرف، فما عسى يكون قيمته عنده حينئذ؟

وإذا كان هذا موقفه من كلام رب البرية، هل يحتاج بعد ذلك لبيان موقفه من كلام أصدق البشرية ورسول رب الأرض والسموات؟

ولقد نص الإمام أحمد على أن الجهم ... كذب بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)].

ولما بلغ الإمام أحمد قول أحدهم: (لو ترك أصحاب الحديث عشرة أحاديث -يعني التي في الرؤية)، قال أحمد: (كأنه نزع إلى رأي جهم[(٣)]، وفيه إشارة إلى أن الجهم كان ينكر الأحاديث.

ولم يعرف عنه استشهاد واحد منه بحديث رسول الله -صحيح أو ضعيف أو موضوع- للمقالات التي ذهب إليها.

ويدل على جهله المركب شهادة علماء الحديث فيه، فقد سئل جهم عن رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها، فقال: عليها العدة[(٤)]، وهذا جهل واضح بكتاب الله تعالى إذ يقول سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ

(١) ذم الكلام وأهله، للهروي (١٢٧/٥، أثر ١٤٥٣)، وذكره شيخ الإسلام في التسعينية (٢٤١/١).

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة (ص ١٠٤).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٤٥٥).

(٤) خلق أفعال العباد للبخاري (ص ١١).

مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) [الأحزاب: ٤٩].

وشهد عليه علماء الحديث أنه لا يعرف بفقه ولا ورع ولا صلاح(١)، وعرف عنه أنه لم يجالس العلماء، ولا روى شيئا من الأحاديث(٢).

(١) ذكره شيخ الإسلام في التسعينية (١/ ٢٩٠).

(٢) السنة للخلال (٥/ ٨٥)، ومسائل الإمام أحمد لأبي داود (ص ٢٩٩)، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٣/ ١٩١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٠/ ١٢٠).

الواقفة

[٩٧]- و(الواقفة): وهم الذين يزعمون أنا نقول: إن القرآن كلام الله، ولا نقول غير مخلوق. وهم شر الأصناف وأخبثها.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٦٧) في مسألة القائلين بالتوقف.

اللفظية

[٩٨]- و(اللفظية) وهم الذين يزعمون أنا نقول: إن القرآن كلام الله، ولكن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا وقراءتنا له مخلوقة. وهم جهمية فُسَّاق.

الشرح

تقدم الكلام عليه في الفقرة (٦٧) في مسألة القائلين بالتوقف.

الرافضة وفرقها

قال المصنف رحمه الله:

[٩٩]- و(الرافضة): وهم الذين يتبرَّؤون من أصحاب النبي ﷺ، ويسبُّونهم وينتقصونهم، ويُكفِّرون الأمة إلا نفرًا يسيرًا. وليست الرافضة من الإسلام في شيء.

[١٠٠]- و(المنصورية): وهم رافضة أخبث الروافض. وهم الذين يقولون: من قتل أربعين رجلاً ممن خالف هواهم دخل الجنة. وهم الذين يخنقون الناس ويستحلون أموالهم. وهم الذين يقولون: أخطأ جبريل عليه السلام بالرسالة. وهذا هو الكفر الواضح الذي لا يشوبه إيمان. فنعوذ بالله. ونعوذ بالله.

[١٠١]-و (السبائية): وهم رافضة كذابون، وهم قريب ممن ذكرت مخالفون للأمة. والرافضة أسوأ أثرًا في الإسلام من أهل الكفر من أهل الحرب.

[١٠٢]- وصنف من الرافضة يقولون: علي في السحاب ويقولون: علي يبعث قبل يوم القيامة. وهذا كُلُّه كذب وزور وبهتان.

[١٠٣]- و(الزيدية): وهم رافضة، وهم الذين يتبرؤون من عثمان وطلحة والزبير وعائشة، ويرون القتال مع كل من خرج من ولد علي، برّاً كان أو فاجرًا، حتى يَغلِب أو يُغلَب.

[١٠٤] - و(الخشبية): وهم يقولون بقول الزيدية.

[١٠٥] - و(الشيعة): وهم فيما زعموا ينتحلون حُبَّ آل محمد ﷺ دون الناس، وكذبوا، بل هم خاصة المبغضون لآل محمد ﷺ دون الناس. إنما شيعة آل محمد المتقون، أهل السُّنة والأثر من كانوا، وحيث كانوا، الذين يحبون آل محمد، وجميع أصحاب محمد، ولا يذكرون أحداً منهم بسوء، ولا عيب، ولا منقصة. فمن ذكر أحداً من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، بسوء، أو طعن عليه بعيب، أو تبرَّأ من أحد منهم، أو سبهم، أو عرَّض بسبِّهم وشتمهم؛ فهو رافضي مخالف خبيث ضالٌّ.

الشرح

يجمع الرافضة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، بين سيئتي الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء؛ فلهم في بعض الصحابة غلو وإفراط، أشنعه القول بالألوهية والنبوة، وأدناه تفضيل وتقديم من غلو فيه على من هو أفضل وأولى بالتقديم منه، كما لهم في البعض الآخر من الصحابة تقصير وتفريط وجفاء، أعظمه القول بتكفيرهم ولعنهم، وأدناه القول بتأخيرهم عن مرتبتهم والقعود بهم عن مكانتهم، ولهم بين هذا وذاك فيهم أقوال وآراء، تتردد بين الغلو والإزراء، ليس لهم على شيء منها دليل، إلا اتباع الظنون والأهواء".[١]

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): "وكذلك الرافضة موصوفون بالغلو عند الأمة، فإن فيهم من ادعى الإلهية في علي. وهؤلاء شر من النصارى، وفيهم من ادعى النبوة فيه. ومن أثبت نبيا بعد محمد فهو شبيه بأتباع مسيلمة الكذاب وأمثاله من المتنبئين، إلا أن عليا–رضي الله عنه– بريء من هذه الدعوة، بخلاف من ادعى النبوة لنفسه كمسيلمة وأمثاله".[٢]

قال أبو الحسن الأشعري–رحمه الله–(ت: ٣٢٤ هـ): وهم ثلاثة أصناف:

١–الغالية: وهم الذين غلو في علي، وقالوا فيه قولا عظيما وهم طوائف.

٢– الرافضة الإمامة: وسموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر: هذا قول الأشعري، وقال بعضهم: سموا رافضة لرفضهم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب–رحمه الله–(ت: ١٢٢ هـ)، لما خرج عن هشام بن عبد الملك–رحمه الله–(ت: ١٨٠ هـ) فطعن عسكره في أبي بكر وعمر منعهم من ذلك وتولاهما، فرفضوه ولم يبق معه إلا مئتا فارس؛ فقال لهم زيد: رفضتموني. قالوا: نعم؛ فبقي عليهم هذا الاسم.

٣– الزيدية: وهم الذين تمسكوا بقول زيد بن علي بن الحسين–رحمه الله–(ت: ١٢٢ هـ).

---

(١) وسطية أهل السنة والجماعة بين الفرق ص: ٤٠٦.

(٢) منهاج السنة النبوية ٦/ ١٨٧.

قال الشهرستاني–رحمه الله–(ت: ٥٤٨ هـ): ويجمعهم –أي: الشيعة القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبري قولا وفعلا وعقدا إلا في حال التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك"[(١)]

قال الذهبي–رحمه الله–(ت: ٧٤٨ هـ): "الشيعي الغالي في زمان السلف وعرفهم: هو من تكلم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية، وطائفة ممن حارب عليا رضي الله عنه، وتعرض لسبهم. والغالي في زماننا وعرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين أيضاً، فهذا ضال معثَّر ".[(٢)]

قال الحافظ ابن حجر–رحمه الله–(ت: ٨٥٢ هـ): "التشيع في عرف المتقدمين: هو اعتقاد تفضيل عليّ على عثمان، وأن عليا كان مصيبًا في حروبه وأن مخالفه مخطئ، مع تقديم الشيخين، وتفضيلهما ...

وأما التشيع في عرف المتأخرين: فهو الرفض المحض، فلا تقبل رواية الرافضي الغالي ولا كرامة"[(٣)]

فالروافض يزعمون أن الصحابة كفروا جميعا إلا نفر قليل منهم فروى الكشى (ت: ٣٥٠ هـ) عن أبي جعفر أنه قال: "كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ قال: المقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي..".[(٤)]

جاء في رجال الكشي (ت: ٣٥٠ هـ) ".. عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر (ت: ١١٤ هـ) عليه السلام قال: كان الناس أهل الردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا

---

(١) راجع: المقالات للأشعري ١/ ٦٥، ٨٨، ١٣٦، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي ص ٥٢ والملل ١/ ١٤٦.

(٢) "ميزان الاعتدال" ١/ ٦.

(٣) "تهذيب التهذيب" ١/ ٩٤.

(٤) رجال الكشي ص: ١٢ نقلا عن الشيعة الإمامية في ميزان الإسلام ص: ٨٩.

ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ فقال: المقداد بن الأسود-رضي الله عنه-(ت: ٣٣ هـ)، وأبو ذر الغفاري-رضي الله عنه-(ت: ٣١ هـ)، وسلمان الفارسي-رضي الله عنه-(ت: ٣٣ هـ)، ثم عرف الناس بعد يسير، وقال: هؤلاء الذين دارت عليهم الرحا وأبوا أن يبايعوا لأبي بكر حتى جاءوا بأمير المؤمنين مكرها فبايع" (١)

وروى الكليني (ت: ٣٢٩ هـ) في الكافي: "عن حمران بن أعين (ت: ١٣٠ هـ)، قال: قلت لأبي جعفر (ت: ١١٤ هـ) عليه السلام: جعلت فداك، ما أقلنا لو اجتمعنا على شاة ما أفنيناها؟ فقال: ألا أحدثك بأعجب من ذلك، المهاجرون والأنصار ذهبوا إلا -وأشار بيده- ثلاثة" (٢) (٣)

وجاء في كتاب السنة للإمام أحمد-رحمه الله-(ت: ٢٤١ هـ) قوله عن الرافضة: "هم الذين يتبرؤون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويسبونهم، ويتنقصون ويكفرون الأئمة إلا أربعة: علي، وعمار، والمقداد، وسلمان، وليست الرافضة من الإسلام في شيء"(٤)

قال القاضي عبد الجبار (ت: ٤١٥ هـ): "وأما الإمامية فقد ذهبت إلى أن الطريق إلى إمامة الاثني عشر النص الجلي، الذي يكفر من أنكره، ويجب تكفيره، فكفروا لذلك صحابة النبي عليه السلام".(٥)

---

(١) رجال الكشي: ص٦، الكافي، كتاب الروضة: ١٢/٣٢١-٣٢٢ مع شرح جامع للمازندراني.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢/٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٢، ٤٤٠.

(٣) علق هنا شيخهم المعاصر "علي أكبر الغفاري" فقال: "يعني أشار عليه السلام بثلاث من أصابع يده. والمراد بالثلاثة سلمان وأبو ذر والمقداد". الكافي: ٢/٢٤٤ - الهامش.

(٤) السنة للإمام أحمد: ص٨٢.

(٥) شرح الأصول الخمسة: ص٧٦١.

وقريب من هذا المعنى قال عبد القاهر البغدادي [١]، وابن تيمية[٢]. وغيرهما [٣]

وبعض الرافضة يقولون: أن الصحابة كلهم كفروا إلا سبعة عشر صحابيًّا وسموهم".[٤])

حكمهم:

اختلف أهل العلم في الحكم والعقوبة التي يستحقها من سب أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–أو جرحهم هل يكفر بذلك وتكون عقوبته القتل، أو أنه يفسق بذلك ويعاقب بالتعزير.

١– ذهب جمع من أهل العلم إلى القول بتكفير من سب الصحابة رضي الله عنهم أو انتقصهم وطعن في عدالتهم وصرح ببغضهم وأن من كانت هذه صفته أباح دم نفسه وحل قتله، إلا أن يتوب من ذلك ويترحم عليهم.

وممن ذهب إلى هذا القول من السلف الصحابي الجليل عبد الرحمن بن أبزى–رحمه الله–(ت: ٧٢ هـ) [٥]، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي–رحمه الله–(ت: ١٥٧ هـ) [٦]، وأبو بكر بن عياش–رحمه الله–(ت: ١٩٣ هـ) [٧]، وسفيان بن عيينة–رحمه الله–(ت: ١٩٨ هـ) [٨]، ومحمد بن يوسف الفريابي–رحمه الله–(ت: ٢١٢ هـ) [٩]، وبشر بن الحارث المروزي–رحمه الله–(ت:

---

(١) الفرق بين الفرق: ص ٣٢١.

(٢) منهاج السنة: ٤/١٢٨.

(٣) انظر: أصول الدين للبزدوي: ص٢٤٧–٢٤٨.

(٤) انظر: روضة الكافي للكليني ١١٥ [دار الأضواء، بيروت]، وبحار الأنوار للمجلسي ٧٤٩/٦ [طبعة دار الطباعة المخصوصة، الهند، ١٢٩٧هـ].

(٥) انظر كتاب النهي عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب ص/٢٣، فتاوى السبكي ٥٨٠/٢..

(٦) انظر الشرح والإبانة لابن بطة ص/١٦٢.

(٧) المصدر السابق ص/١٦٠.

(٨) كتاب النهي عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب ص/٢٤–٢٥.

(٩) الشرح والإبانة ص/١٦٠، الصارم المسلول على شاتم الرسول ص/٥٧٠.

٢٢٧ هـ) [١]، ومحمد بن بشار العبدي–رحمه الله–(ت: ٢٠٣ هـ) [٢]، وغيرهم كثير، فهؤلاء الأئمة صرحوا بكفر من سب الصحابة وبعضهم صرح مع ذلك أنه يعاقب بالقتل، وإلى هذا القول ذهب بعض العلماء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية [٣].

ذهب فريق آخر من أهل العلم إلى أن ساب الصحابة لا يكفر بسبهم، بل يفسق ويضلل ولا يعاقب بالقتل، بل يكتفي بتأديبه وتعزيره تعزيرا شديدا يردعه ويزجره حتى يرجع عن ارتكاب هذا الجرم الذي يعتبر من كبائر الذنوب وفواحش المحرمات، وإن لم يرجع تكرر عليه العقوبة حتى يظهر التوبة.

فقد روى اللالكائي–رحمه الله–(ت: ٤١٨ هـ): عن الحارث بن عتبة، قال: إن عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ)، أتي برجل سب عثمان، فقال: ما حملك على أن سببته؟، قال: أبغضه، قال: وإن أبغضت رجلا سببته؟، قال: فأمر به فجلد ثلاثين سوطا"[٤]

وروى الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) حدثنا أبو معاوية حدثنا عاصم الأحول–رحمه الله–(ت: ١٤٠ هـ)، قال: أتيت برجل قد سب عثمان، قال: فضربته عشرة أسواط، قال: ثم عاد لما قال، فضربته عشرة أخرى، قال فلم يزل يسبه حتى ضربته سبعين سوطا"[٥]

ومن ذهب من الأئمة إلى ما ذهب إليه عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت:١٠١ هـ)، وعاصم الأحول–رحمه الله–(ت: ١٤٠ هـ)، الإمام مالك والإمام أحمد وكثير من العلماء ممن جاء بعدهما.

---

(١) الشرح والإبانة ص/١٦٢.

(٢) المصدر السابق ص/١٦٠.

(٣) المصدر عقيدة أهل السنة في الصحابة لناصر علي ٢/ ٨٥٦.

(٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص ٥٦٩.

(٥) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الصارم المسلول ص/٥٦٩.

قال القاضي عياض–رحمه الله–(**ت: ٥٤٤ هـ**)، مبينا ما ذهب إليه الإمام مالك وبعض علماء المالكية في هذه المسألة: "وقد اختلف العلماء في هذا، فمشهور مذهب مالك في ذلك الاجتهاد والأدب الموجع، **قال مالك**–رحمه الله–(**ت: ١٧٩ هـ**): "من شتم النبي صلى الله عليه وسلم قتل، ومن شتم أصحابه أدب" وقال أيضا: من شتم أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فإن قال: كانوا على ضلال وكفر، قتل، وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس نكل نكالًا شديدًا.

وقال ابن حبيب–رحمه الله–(**ت: ٢٣٨ هـ**): "من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدب أدبا شديدا ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت ولا يبلغ به القتل إلا في سب النبي صلى الله عليه وسلم"(١)

قال إسحاق بن راهوية–رحمه الله–(**ت: ٢٣٨ هـ**): "من شتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعاقب ويحبس"(٢)

وقال سحنون–رحمه الله–(**ت: ٢٤٠ هـ**): "من كفر أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عليا أو عثمان أو غيرهما يوجع ضربا.

وحكى أبو محمد بن أبي زيد عن سحنون فيمن قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي إنهم كانوا على ضلال وكفر قتل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل هذا نكل النكال الشديد"(٣)

وقال الإمام أحمد–رحمه الله–(**ت: ٢٤١ هـ**): "ومن السنة ذكر محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أجمعين، والكف عن الذي جرى بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله–صلى الله عليه وسلم–أو واحدا منهم فهو مبتدع رافضي حبهم سنة، والدعاء لهم قربة والاقتداء بهم وسيلة والأخذ بآثارهم فضيلة لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساويهم ولا

---

(١) الشفاء ٢/٢٦٧.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص/٥٦٨.

(٣) الشفاء للقاضي عياض ٢/١٦٧.

يطعن على أحد منهم، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثم يستتيبه، فإن تاب قبل منه، وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة وخلده في الحبس حتى يتوب ويراجع"(١)

قال ابن تيمية–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ) بعد أن ساق قول أحمد هذا: "وحكى الإمام أحمد هذا عمن أدركه من أهل العلم وحكاه الكرماني عنه وعن إسحاق والحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم.

وقال الميموني–رحمه الله–(ت: ٢٧٤ هـ): سمعت أحمد يقول ما لهم ولمعاوية؟، نسأل الله العافية، وقال لي: يا أبا الحسن: إذا رأيت أحدًا يذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء، فاتهمه على الإسلام" فقد نص رضي الله عنه على وجوب تعزيره واستتابته حتى يرجع بالجلد، وإن لم ينته حبس حتى يموت أو يراجع، وقال: ما أراه على الإسلام وقال: وأتهمه على الإسلام، وقال: أجبن عن قتله".

وقال رحمه الله بعد قول إسحاق بن راهوية–رحمه الله–(ت: ٢٣٨ هـ) المتقدم: "وهذا قول كثير من أصحابنا منهم ابن أبي موسى–رحمه الله–(ت:٤٢٨ هـ)، قال: ومن سب السلف من الروافض فليس بكفؤ ولا يزوج، وهذا في الجملة قول عمر بن عبد العزيز–رحمه الله–(ت: ١٠١ هـ) وعاصم الأحول–رحمه الله–(ت: ١٤٠ هـ)، وغيرهما من التابعين"(٢)

وفي مسائل الإمام أحمد–رحمه الله–(ت: ٢٤١ هـ) رواية ابنه **عبد الله–رحمه الله–(ت: ٢٩٠ هـ)** أنه قال: سألته عمن شتم رجلًا من أصحاب النبي–صلى الله عليه وسلم–، رضي الله عنهم؟ فقال أبي: أرى أن يضرب، فقلت له حد؟ فقال: فلم يقف على الحد إلا أنه قال: يضرب وقال: ما أراه إلا متهما على الإسلام"(٣)

(١) السنة للإمام أحمد ص/١٧، الصارم المسلول ص/٥٦٨، طبقات الحنابلة ١/٣٠.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص/٥٦٨.

(٣) مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله ص/٤٣١، تحقيق: زهير الشاويش.

وقال ابن تيمية –رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): قال أحمد في رواية أبي طالب –رحمه الله–(ت: ٢٤٤ هـ)، في الرجل يشتم عثمان: هذا زندقة، وقال في رواية المروزي –رحمه الله–(ت: ٢٧٥ هـ): "من شتم أبا بكر وعمر وعائشة ما أراه على الإسلام".

قال القاضي أبو يعلى –رحمه الله–(ت: ٤٥٨ هـ): فقد أطلق القول فيه أنه يكفر بسببه لأحد من الصحابة وتوقف في رواية عبد الله –رحمه الله–(ت: ٢٩٠ هـ)، وأبي طالب –رحمه الله– (ت: ٢٤٤ هـ)، عن قتله، وكمال الحد وإيجاب التعزير يقتضي أنه لم يحكم بكفره، قال: فيحتمل أن يحمل قوله: "ما أراه على الإسلام" إذا استحل سبهم بأنه يكفر بلا خلاف ويحمل إسقاط القتل على من لم يستحل ذلك بل فعله مع اعتقاده لتحريمه كمن يأتي المعاصي قال: ويحتمل قوله: "ما أراه على الإسلام على سب يطعن في عدالتهم نحو قوله: ظلموا، وفسقوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا الأمر بغير حق ويحمل قوله في إسقاط القتل على سب لا يطعن في دينهم نحو قوله: كان فيهم قلة علم، وقلة معرفة بالسياسة والشجاعة، وكان فيهم شح ومحبة للدنيا، ونحو ذلك، قال: ويحتمل أن يحمل كلامه على ظاهره فتكون في سابهم روايتان: إحداهما يكفر، والثانية يفسق، وعلى هذا استقر قول القاضي وغيره، حكوا في تكفيرهم روايتين"[(١)]

وقال ملا علي القاري –رحمه الله–(ت: ١٠١٤ هـ) حاكيا الإجماع في حكم سب الصحابة: "من سب أحدا من الصحابة فهو فاسق ومبتدع بالإجماع، إلا إذا اعتقد أنه مباح أو يترتب عليه ثواب كما عليه بعض الشيعة أو اعتقد كفر الصحابة فإنه كافر بالإجماع"[(٢)(٣)]

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص/٥٧١.

(٢) ذكره ابن عابدين في كتاب تنبيه الولاة والحكام ضمن مجموعة رسائله ١/ ٣٦٧.

(٣) المصدر: عقيدة أهل السنة في الصحابة ٢/ ٨٦٤-٨٦٨.



الخوارج وفرقها

[١٠٦] - وأما (الخوارج): فمرقوا من الدِّين، وفارقوا الملة، وشردوا على الإسلام، وشذوا عن الجماعة، وضلُّوا عن سبيل الهدى، وخرجوا على السلطان والأئمة، وسلّوا السيف على الأُمَّة، واستحلوا دماءهم، وأكفروا من خالفهم، إلا من قال بقولهم، وكان على مثل رأيهم وثبت معهم في دار ضلالتهم. وهم يشتمون أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام وأصهاره وأختانه، ويتبرؤون منهم، ويرمونهم بالكفر، والعظائم، ويرون خلافهم في شرائع الدِّين وسنن الإسلام. ولا يؤمنون بعذاب القبر، ولا الحوض، ولا الشفاعة، ولا يخرجون أحداً من أهل النار. وهم يقولون: من كذب كذبة، أو أتى صغيرة، أو كبيرة من الذنوب، فمات من غير توبة فهو كافر، فهو في النار خالداً مخلَّداً فيها أبداً. وهم يقولون بقول البكرية في الحبة والقيراط. وهم قدرية جهمية مرجئة رافضة. ولا يرون جماعة إلا خلف إمامهم. وهم يرون تأخير الصلاة عن وقتها، ويرون الصوم قبل رؤيته، والفطر قبل رؤيته. وهم يرون النكاح بغير وليٍّ ولا سلطان، ويرون المتعة في دينهم، ويرون الدرهم بالدرهمين يداً بيد حلالًا. وهم لا يرون الصلاة في الخفاف، ولا المسح عليها. وهم لا يرون للسلطان عليهم طاعة، ولا لقريش خلافة. وأشياء كثيرة يخالفون فيها الإسلام وأهله. فكفى بقوم ضلالة يكون هذا رأيهم ومذهبهم ودينهم. وليسوا من الإسلام في شيء. وهم المارقة.

[١٠٧] - ومن أسماء الخوارج: (الحرورية) وهم أهل حروراء. و(الأزارقة): وهم أصحاب نافع بن الأزرق. وقولهم أخبث الأقاويل وأبعدها من الإسلام والسُّنة. و(النجدية) وهم أصحاب نجدة بن عامر الحروري. و(الإباضية): وهم أصحاب عبدالله بن إباض. و(الصفرية): وهم أصحاب داود بن النعمان، حين قيل له: إنك صِفرٌ من العلم.(والبيهسية) و(الميمونية)، و(الخازمية). كل هؤلاء خوارج فُسَّاق، مخالفون للسُّنة، خارجون من الملَّة، أهل بدعة وضلالة، وهم لصوص، قطاع، قد عرفناهم بذلك.

الشرح

الخوارج: هم الذين خرجوا على علي-رضي الله عنه-حين جرى أمر الحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وهم عشرون فرقة، وكبار فرقهم: المحكمة، والأزارقة، والنجدات، والبيهسية، والعجاردة، والثعالبة، والإباضية، والصفرية، والباقون فروعهم".([١])

أما عقيدتهم في الصحابة فهم: مجمعون على تكفير علي، وعثمان، وأبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، ومعاوية، وكل من شارك في التحكيم، أو رضي به، وأصحاب الجمل.

يقول البغدادي-رحمه الله-(ت: ٤٢٩ هـ): "وقال شيخنا أبو الحسن-رحمه الله-(ت: ٣٢٤ هـ): الذي يجمعها -أي: فرق الخوارج- إكفار علي، وعثمان، وأصحاب الجمل، والحكمين، ومن رضي بالتحكيم وصوب الحكمين أو أحدهما ... ".([٢])

ويقول الشهرستاني-رحمه الله-(ت: ٥٤٨ هـ): "ويجمعهم القول بالتبرؤ من عثمان وعلي-رضي الله عنهما-، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك"([٣])

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "وكذلك الخوارج، قد كفروا عثمان وعليا، وجمهور المسلمين من الصحابة والتابعين، فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف؟" ([٤])

قال ابن تيمية-رحمه الله-(ت: ٧٢٨ هـ): "الخوارج الذين يكفرون عليًا، أو النواصب الذين يفسقونه؛ إنه كان ظالمًا طالبًا للدنيا، وإنه طلب الخلافة لنفسه، وقاتل عليها بالسيف، وقتل على ذلك ألوفًا من المسلمين، حتى عجز عن انفراده بالأمر، وتفرق عليه أصحابه، وظهروا

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١١٥.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٧٣.

(٣) الملل والنحل ١/ ١١٥.

(٤) مجموع الفتاوى: ٤/ ١٥٣.

عليه فقاتلوه". ((١))

فالخوارج: كفروا عليا رضي الله عنه، ومعاوية، ومن قبل التحكيم من الصحابة. وقد اختلف الفقهاء في كفرهم:

والجمهور على أنهم فساق، لا يكفرون.

ومرد ذلك لأمور منها:

الأول: القول بأن تكفير الواحد من الصحابة: ليس كفرا.

الثاني: أنه على القول بأنه كفر، لكن المتأول لا يكفر، والخوارج كانوا متأولين في تكفير بعض الصحابة رضي الله عنهم.

قال الرحيباني الحنبلي–رحمه الله– (ت: ١٢٤٣هـ): " (أو قال: قولا يتوصل به إلى تضليل الأمة)؛ أي: أمة الإجابة؛ لأنه مكذب للإجماع على أنها لا تجتمع على ضلالة (أو كفر الصحابة) بغير تأويل (فهو كافر)؛ لأنه مكذب للرسول في قوله: أصحابي كالنجوم) وغيره. وتقدم الخلاف في الخوارج ونحوهم". انتهى. ((٢))

وقال قبلها مبينا الخلاف في كفر الخوارج: "(ومن كفر أهل الحق والصحابة واستحل دماء المسلمين) وأموالهم (بتأويل فـ) هم (خوارج بغاة فسقة) باعتقادهم الفاسد. قال: في " المبدع " تتعين استتابتهم، فإن تابوا، وإلا قُتلوا على إفسادهم، لا على كفرهم. ويجوز قتلهم، وإن لم يَبدؤوا بالقتال، قدمه في "الفروع". ((٣))

قال الشيخ تقي الدين–رحمه الله–(ت: ٧٢٨ هـ): نصوصه [أي الإمام أحمد] على عدم كفر الخوارج والقدرية والمرجئة وغيرهم، وإنما كفر الجهمية، لا أعيانهم. قال: وطائفة تحكي عنه

(١) منهاج السُّنَّة النبوية ٢/٥٩.

(٢) مطالب أولي النهى ٦/ ٣٨١.

(٣) مطالب أولي النهى ٦/ ٢٧٣.

روايتين في تكفير أهل البدع مطلقا، حتى المرجئة والشيعة المفضلة لعلي.

(وعنه)؛ أي: الإمام أحمد أن الذين كفروا أهل الحق والصحابة، واستحلوا دماء المسلمين بتأويل أو غيره: (كفار)". [(١)]

قال: (المنقِّح: وهو أظهر). [(٢)]

قال: في "الإنصاف" وهو الصواب، والذي ندين الله به". [(٣)]

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- (ت: ٨٥٢ هـ): "وذهب أكثر أهل الأصول من أهل السنة: إلى أن الخوارج فساق، وأن حكم الإسلام يجري عليهم، لتلفظهم بالشهادتين، ومواظبتهم على أركان الإسلام.

وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين، مستندين إلى تأويل فاسد، وجرهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم، والشهادة عليهم بالكفر والشرك". [(٤)]

ودعوى الإجماع على عدم كفرهم: لا تصح.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- (ت: ١٣٨٩ هـ): "وقد قال بكفر الخوارج كثرة؛ لكن الصحيح أنهم بغاة، ولكنهم أشد بغياً من غيرهم، لكون لهم بدعة ابتدعوها". [(٥)]

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٦٨ - ٥٠١، والمغني ١٢/ ٢٣٩، والكافي ٤/ ١٤٦ - ١٤٧، وكتاب الفروع ٦/ ١٦١، وشرح الزركشي ٦/ ٢١٨، والمبدع ٩/ ١٦٠، وغاية المنتهى ٣/ ٣٣٤

(٢) التنقيح ص ٢٨٣.

(٣) الإنصاف ٢٧/ ١٠٢.

(٤) فتح الباري ١٢/ ٣٠٠.

(٥) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ١٢/ ١٧٢.

الشعوبية

[١٠٨] - و(الشعوبية): وهم أصحاب بدعة وضلالة وهم يقولون: العرب والموالي عندنا واحد، لا يرون للعرب حقاً، ولا يعرفون لهم فضلاً، ولا يحبونهم، بل يبغضون العرب، ويضمرون لهم الغِلَّ والحسدَ والبُغضة في قلوبهم. وهذا قول قبيح، ابتدعه رجل من أهل العراق، وتابعه عليه نفر يسير فقُتِل عليه.

الشرح

تقدم رد ابن تيمية على الشعوبية في الفقرة (٨٤)

أصحاب الرأي

(١٠٩)- قال المصنف رحمه الله: و(أصحاب الرأي): وهم مبتدعة ضُلَّال، أعداء السُّنة والأثر، يرون الدِّين رأياً وقياسًا واستحسانًا. وهم يخالفون الآثار ويبطلون الحديث، ويردون على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتخذون أبا حنيفة ومن قال بقوله إمامًا، يدينون بدينهم، ويقولون بقولهم. فأي ضلالة بأبين ممن قال بهذا، أو كان على مثل هذا؛ يترك قول الرسول وأصحابه ويتبع رأي أبي حنيفة وأصحابه؟ فكفى بهذا غيّاً مُردياً، وطغيانًا وردّاً.

الشرح

تقدم رد ابن تيمية على الشعوبية في الفقرة (٨٨)

الولاء والبراء عند الرافضة

[١١٠] - قال المصنف رحمه الله: والولاية بدعة، والبراءة بدعة. وهم الذين يقولون: نتولَّى فلانًا، ونتبرأ من فلان. وهذا القول بدعة فاحذروه.

الشرح

فيه رَدٌّ على الرافضة الذين يقولون: لا ولاء إلا ببراء، ولا شهادة -يعني لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله- إلا ببراءة.

ويعنون بالولاء: مولاة علي وآله. ويعنون بالبراء: البراءة من جميع الصحابة عدا نفر يسير صاروا مع عليٍّ رضي الله عنه، فلا يصح عندهم موالاة لعلي إلا بالتبرؤ من الصحابة الآخرين.

ولا شك أن الشهادة والبراءة بهذا المعنى بدعة؛ بل الولاء والبراء الوارد في نصوص الشرع ليس المقصود منه البراءة من الصحابة؛ بل البراءة من الشرك وأهله.

الحث على التمسك بالسنة والتحذير من البدع

[١١١]- قال المصنف رحمه الله: فمن قال بشيء من هذه الأقاويل، أو رآها، أو هويها، أو رضيها، أو أحبها: فقد خالف السُّنة، وخرج من الجماعة، وترك الأثر، وقال بالخلاف، ودخل في البدعة، وزال عن الطريق. وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا وبه استعنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الشرح

الحث على التمسك بالسنة والتحذير من البدع هو وصية النبي صلى الله عليه وسلم ووصية السلف الصالح من بعده من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن جاء بعدهم، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) .

فوصية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ولأمته من بعدهم هي أن يتمسكوا بما سنه من أحكام وتشريعات أشد التمسك وأن يحذروا الابتداع في الدين وحكم على تلك المحدثات بالضلال والانحراف عن الطريق الذي رسمه.

وقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ركيزتين أساسيتين في هذا الدين هما:

١-الاتباع.

٢-ترك الابتداع.

ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على هذه الوصية النبوية وعملوا بها، فلم يحيدوا عن سنته صلى الله عليه وسلم، بل عملوا بها ونقلوها للأمة المحمدية من بعدهم كما سمعوها منه صلى الله عليه وسلم وكذلك فقد كانوا أشد الناس تمسكا بسنته، وأشدهم محاربة للابتداع، في

الدين، وقد كان في هذا صلاحهم وفلاحهم ونجاتهم ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها.

ومن المؤسف أن بعضًا من المسلمين في وقتنا الحاضر قد اختلت عندهم كلا الركيزتين فتركوا الاتباع والاقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى أصبحت السنة عندهم أمرا مستغربا مستنكرا لجهلهم بها وبعدهم عنها واستبدلوا بذلك البدع التي لا أصل لها ولا دليل عليها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فاتخذوها دينا يدينون به فانعكست بذلك الموازين لديهم فأصبحوا يرون الحق باطلا والباطل حقا، والمعروف منكرا والمنكر معروفا، وما ذلك إلا لكونهم لم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا رسمه بسبب ما هم عليه من قلة العلم وعدم معرفتهم بالسنة.

فأين هؤلاء من وصية المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن يتبعوا ولا يبتدعوا.

والبدعة تكون:

إما باعتقاد خلاف الحق، الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه. وهذه هي البدعة الاعتقادية، أو القولية، ومنشؤها من القول على الله بلا علم. وهذا من أعظم المحرمات، بل هو -كما يقول ابن القيم- أعظمها. كما قال الله تعالى: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٣٣].

وإما أن تكون بالتعبد الله تعالى بما لم يشرعه من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، كما قال تعالى: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١]. وفي الحديث: "إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة".

ورد عن الإمام أحمد عدة نصوص في الحث على اتباع السنة ومنها قوله: "أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين.

والسنة عندنا آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسنة تفسر القرآن وهي دلائل القرآن، وليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال ولا تدرك بالعقول ولا الأهواء إنما هي الاتباع وترك الهوى" .

وقال أيضا: "الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم هو بعد مع التابعين مخير" .



علامات أهل البدع

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ألقاب أهل السنة عند مخالفيهم.

المسألة الثانية: طعن أهل الأهواء والبدع في الصحابة.

المسألة الثالثة: طعن أهل الأهواء والبدع في الآثار النبوية.

المسألة الرابعة: سمات أهل البدع.

قال المصنف رحمه الله:

[١١٢]- وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء شنيعة قبيحة، فسموا بها أهل السُّنة؛ يريدون بذلك عيبهم، والطعن عليهم، والوقيعة فيهم، والإزراء بهم عند السفهاء والجُهَّال.

[١١٣]- فأما (المرجئة) فإنهم يسمون أهل السُّنة شُكَّاكًا. وكذبت المرجئة بل هم أولى بالشك وبالتكذيب.

[١١٤]- وأما (القدرية) فإنهم يسمون أهل السُّنة والإثبات: مجبرة. وكذبت القدرية بل هم أولى بالكذب والخلاف؛ أنفوا قدرة الله عن خلقه، وقالوا له ما ليس بأهل له تبارك وتعالى.

[١١٥]- وأما (الجهمية) فإنهم يسمون أهل السنة (مُشبِّهة). وكذبت الجهمية أعداء الله، بل هم أولى بالتشبيه والتكذيب. افتروا على الله عز وجل الكذب، وقالوا على الله الزور والإفك، وكفروا في قولهم.

[١١٦]- وأما (الرافضة): فإنهم يسمون أهل السنة: ناصبة. وكذبت الرافضة؛ بل هم أولى بهذا الاسم؛ إذ ناصبوا أصحاب محمد ﷺ السَّبَّ والشتم، وقالوا فيهم غير الحق، ونسبوهم إلى غير العدل كذباً، وظلماً، وجرأة على الله عز وجل، واستخفافاً لحق الرسول ﷺ وهم والله أولى بالتعيير والانتقام منهم.

[١١٧]- وأما الخوارج: فإنهم يسمون أهل السنة والجماعة: مرجئة. وكذبت الخوارج في قولهم؛ بل هم المرجئة؛ يزعمون أنهم على إيمان وحق دون الناس، ومن خالفهم كفار.

[١١٨]- وأما أصحاب الرأي والقياس، فإنهم يسمون أصحاب السُّنة: نابتة وحشوية. وكذب أصحاب الرأي أعداء الله؛ بل هم النابتة والحشوية؛ تركوا أثر الرسول ﷺ وحديثه، وقالوا بالرأي وقاسوا الدِّين بالاستحسان، وحكموا بخلاف الكتاب والسُّنة. وهم أصحاب بدعة، جهلة، ضُلَّال، طُلاب دنيا بالكذب والبهتان.

الشرح

كانت قريش تُسمي النبي-صلى الله عليه وسلم-تارةً مجنونًا، وتارة شاعرًا، وتارة كاهنًا، وتارة مُفتريًا. فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامَّة؛ فإنَّ السنة هي ما كان عليه رسولُ الله-صلى الله عليه وسلم-وأصحابه، اعتقادًا واقتصادًا، وقولًا وعملًا.

فلا بد من نصيب من هذا الميراث، فكما آذوا النبي-صلى الله عليه وسلم-وشتموه وذموه بهذه الألقاب، فلا شك أن مَن يرث هذا الميراث الذي هو الحق، لا بد أن يتحمل شيئًا من هذه الشتائم والسباب الذي يقوله هؤلاء، لكن الأمر كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: الآية: ٣٢].

المسألة الأولى: ألقاب أهل السنة عند مخالفيهم.

قال الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله تعالى-: "وقد رأيت لأهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء شنيعة قبيحة يسمون بها أهل السنة يريدون بذلك عيبهم والطعن عليهم والوقيعة فيهم والإزراء بهم عند السفهاء والجهال.

فأما المرجئة: فإنهم يسمون أهل السنة شكاكًا؛ وكذبت المرجئة، بل هم بالشك أولى بالتكذيب أشبه.

وأما القدرية: فإنهم يسمون أهل السنة والإثبات مجبرة؛ وكذبت القدرية، بل هم أولى بالكذب والخلاف ألغوا قدر الله-عز وجل-عَنْ خلقه، وقالوا ليس له بأهل تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وأما الجهمية: فإنهم يسمون أهل السنة المشبهة؛ وكذبت الجهمية أعداء اللَّه، بل هم أولى بالتشبيه والتكذيب افتروا عَلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ الكذب، وقالوا الإفك والزور وكفروا بقولهم.

وأما الرافضة: فإنهم يسمون أهل السنة الناصبة؛ وكذبت الرافضة، بل هم أولى بهذا لانتصابهم لأصحاب رسول اللَّه-صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم-بالسب الشتم، وقالوا فيهم بغير الحق، ونسبوهم إلى غير العدل كفرًا وظلمًا وجرأة عَلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ واستخفافًا بحق الرسول-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وهم أولى بالتعبير والانتقام منهم.

وأما الخوارج: فإنهم يسـمون أهل السـنة والجماعة مرجئة؛ وكذبت الخوارج فِي قولهم بل هم المرجئة، يزعمون أنهم عَلَى إيمان وحق دون الناس ومن خالفهم كافر.

وأما أصحاب الرأي: فإنهم يسمون أصحاب السنة نابتة وحشوية؛ وكذب أصحاب الرأي أعداء اللَّه بل هم النابتة والحشـوية، تركوا آثار الرسـول-صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ-وحديثه وقالوا بالرأي وقاسـوا الدين بالاسـتحسـان وحكموا بخلاف الكتاب والسـنة، وهم أصـحاب بدعة جهلة ضلال وطلاب دنيا بالكذب والبهتان.

رحم اللَّه عبدًا قَالَ بالحق واتبع الأثر وتمسك بالسنة واقتدى بالصالحين وبالله التوفيق.

اللهم ادحض باطل المرجئة وأوهن كيد القدرية وأذل دولة الرافضـة وامحق شـبه أصـحاب الرأي، واكفنا مؤنة الخارجية، وعجل الانتقام من الجهمية".[(١)]

وقال الإمام الحافظ أبو حاتم الرازي: "علامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر. وعلامة الجهمية: أن يسـموا أهل السـنة مشـبهة ونابتة. وعلامة القدرية: أن يسـموا أهل السـنة مجبرة، وعلامة الزنادقة أن يسموا أهل الأثر حشوية".[(٢)]

وقال البربهاري: "وإن سمعت الرجل يقول: [فلان] مشبه، وفلان يتكلم في التشبيه، فاتهمه، واعلم أنه جهمي.

وإذا سمعت الرجل يقول: فلان ناصبي، فاعلم أنه رافضي.

وإذا سمعت الرجل يقول: تكلم بالتوحيد، واشرح لي التوحيد، فاعلم أنه خارجي معتزلي.

أو يقول: فلان [مجبر]، أو يتكلم بالإجبار، أو يتكلم بالعدل، فاعلم أنه قدري؛ لأن هذه الأسماء محدثة أحدثها أهل الأهواء".[(٣)]

وقال الشـــيخ عبد القادر الجيلاني في كتاب: "الغنية" نحو ما ذكر وزاد: "علامة الرافضـــة:

---

(١) عقيدة الإمام أحمد بن حنبل برواية: أحمد بن جعفر الإصطخرى، المصدر: طبقات الحنابلة: (١/ ٣٦).

(٢) نقله عنه الذهبي في (العلو) (ص: ١٩٠).

(٣) شرح السنة للبربهاري (ص: ١٠٩).

تسميتهم أهل السنة ناصبة، وكل ذلك عصبية، وغياض لأهل السنة ولا اسم لهم إلا اسم واحد وهو: (أصحاب الحديث)، ولا يلتصق بهم ما لقيهم به أهل البدع كما لم يلتصق بالنبي تسمية كفار مكة: ساحرًا وشاعرًا ومجنونًا ومفتونًا وكاهنًا، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولًا نبيًّا بريًّا من العاهات كلها: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية: ٤٨]". [(١)]).

وقد أعطى المصنف أمثلة من معتقدات كل من الجهمية، والرافضة، والمعتزلة، والقدرية، وكيف أنهم جاؤا بلوازم فاسدة نابعة من معتقداتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فلا بد للمنحرفين عن سنته أن يعتقدوا فيها نقصًا يذمونهم به، ويسمونهم بأسماء مكذوبة-وإن اعتقدوا صدقها-"[(٢)]

ومقصود المؤلف أن بعض من ألف في مجال كتب الفرق والمقالات وبناء على معتقده المخالف تراه يكيل لأهل السنة الألقاب الشنيعة المنفرة، فتجده قد جمع بين الجهل بمعتقد أهل السنة والظلم لهم، فإن من سمات أهل الباطل أنهم جمعوا بين الجهل والظلم قال ابن تيمية: "وَهَذَا لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي اشْتَرَكُوا فِيهِ أَصْلٌ فَاسِدٌ مَبْنِيٌّ عَلَى جَهْلٍ وَظُلْمٍ، وَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي ظُلْمِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، فَصَارُوا بِمَنْزِلَةِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ الْمُشْتَرِكِينَ فِي ظُلْمِ النَّاسِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُسْلِمَ الْعَالِمَ الْعَادِلَ أَعْدَلُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ. وَالْخَوَارِجُ تُكَفِّرُ أَهْلَ الْجَمَاعَةِ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الرَّافِضَةِ وَمَنْ لَمْ يُكَفِّرْ فُسِّقَ. وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ يَبْتَدِعُونَ رَأْيًا، وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ،"[(٣)]

وقد عرف أن من سمات أهل الباطل تكفيرهم لخصومهم قال ابن تيمية: "وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ مَقَالَةٌ يُكَفِّرُ قَائِلُهَا عُمُومَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى

---

(١) الغنية (ص: ٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٥٩).

(٣) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٧).

أَصْحَابَهُ وَفِي التَّعْمِيمِ مَا يُغْنِي عَنْ التَّعْيِينِ فَأَيُّ فَرِيقٍ أَحَقُّ بِالْحَشْوِ وَالضَّلَالِ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَذَلِكَ يَقْتَضِي وُجُودَ الرِّدَّةِ فِيهِمْ كَمَا يُوجَدُ النِّفَاقُ فِيهِمْ كَثِيرًا. وَهَذَا إذَا كَانَ فِي الْمَقَالَاتِ الْخَفِيَّةِ فَقَدْ يُقَالُ: إنَّهُ فِيهَا مُخْطِئٌ ضَالٌّ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ صَاحِبُهَا؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ فِي طَوَائِفَ مِنْهُمْ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَعْلَمُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهَا مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ؛"[1]

قول المصنف: "وبعضهم مشبهة، وبعضهم نابتة".

وقال الإمام الحافظ أبو حاتم الرازي: "علامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر. وعلامة الجهمية: أن يسموا أهل السنة مشبهة ونابتة".[2])

فمن أعظم الافتراءات التي أشاعها المعطلة النفاة لأسماء الله وصفاته، وصفهم أهل السنة والجماعة-كذباً وزوراً-بأنهم مشبِّهة مجسِّمة، وما ذلك إلا لتمسكهم بما جاءهم عن الله-عز وجل-في كتابه أو على لسان رسوله-صلى الله عليه وسلم-.

وهي فرية قديمة تلقفها المعطلة النفاة خلفاً عن سلفٍ، يدل على ذلك تقدم كلام السلف في دحض هذه الشبهة ودفع هذه الفرية، من ذلك قول الإمام ابن خزيمة-رحمه الله-: "فاسمعوا يا ذوي الحجا ما نقول في هذا الباب، ونذكر بهت الجهمية، وزورهم وكذبهم، على علماء أهل الآثار، ورميهم خيار الخلق-بعد الأنبياء-بما الله قد نزههم عنه، وبرأهم منه، بتزور الجهمية على علمائنا أنهم مشبّهة".[3])

وسبب هذه الفرية على أهل السنة ما قاله شيخ الإسلام: "فالمعتزلة والجهمية ونحوهم من

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٣).

(٢) نقله عنه الذهبي في العلو (ص: ١٩٠).

(٣) التوحيد لابن خزيمة (١/ ١١٤)، وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ١٧٩، ٥٣٣)، المختار في أصول السنة (ص: ٨٢).

نفاة الصفات، يجعلون كل من أثبتها مجسِّماً مشبِّهًا".[(١)]

وقد تواترت النصوص من القرآن والسنة والآثار عن السلف الصالح في إثبات الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، فأصل النصوص التي وردت في ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية: ١١].

فالجهمية ينكرون الأسماء والصفات، ويقولون: ليس لله علم ولا سمع ولا بصر، ويقولون: إن من أثبت العلم والسمع والبصر لله فهو مشبه.

ويقولون: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساويًا، وكل ذلك من المحال، ونحو ذلك من الكلام. فهذا المعطل لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان، وهذا اللازم الذي جاء به المعطل تابع لهذا المفهوم.

فإذا رأيت الرجل يقول لمن أثبت الصفات مشبه، فاعلم أنه جهمي أو معتزلي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكقول الجهمي: مَن قال: إن الله فوق العرش، فقد زعم أنه محصور، وأنه جسم مركب محدود، وأنه مشابه لخلقه، وكقول الجهمية المعتزلة: مَن قال: إن لله علمًا وقدرة، فقد زعم أنه جسم مركب، وهو مشبه؛ لأن هذه الصفات أعراض، والعَرَض لا يقوم إلا بجوهر مُتحيز، وكل متحيز جسم مركب، أو جوهر فرد، ومن قال ذلك فهو مُشبه؛ لأن الأجسام متماثلة، ومن حكى عن الناس المقالات، وسماهم بهذه الأسماء المكذوبة بناء على عقيدته التي هم مخالفون له فيها، فهو وربه، والله من ورائه بالمرصاد، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ".[(٢)]

وكان الواجب عليهم أن يثبتوا لله استواء يليق بجلاله ويختص به، فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي هي من لوازم المخلوقات، ويجب نفيها في حق الله.

---

(١) منهاج السنة (٢/ ١٠٥).

(٢) الأسماء والصفات لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٨٧).

فأهل التعطيل وقعوا في أربعة محاذير:

الأول: كونهم مثلوا ما فهموه من النصوص بصفات المخلوقين، وظنوا أن مدلول النصوص هو التمثيل.

الثاني: أنهم عطلوا النصوص عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله.

الثالث: أنهم بنفي تلك الصفات صاروا معطلين لما يستحقه الرب من صفات الكمال.

الرابع: أنهم وصـــفوا الرب بنقيض تلك الصـــفات، من صـــفات الأموات والجمادات والمعدومات[(١)].

والجهمية من المعتزلة ومن وافقهم بنوا دليلهم في نفي الصفات على أن القديم لا يكون محلاً للصفات والحركات، فلا يكون جسماً ولا متحيزاً؛ لأن الصفات أعراض وهم يستدلون على حدوث الجســـم بحدوث الأعراض والحركات، وأن الجســـم لا يخلو منها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

فهم بهذا القول نفوا صـــفات البارئ، وجعلوا نفيها يتوقف عليه ثبوت الصـــانع، وحدوث العالم، فإذا جاء في القرآن والسنة ما يدل على إثبات الصفات لم يكن القول بموجبه.

والمتدبر لحججهم يرى فيها الأمور التالية:

أولاً: أنهم يســـتدلون لأقوالهم بعبارات مبتدعة، وفيها الكثير من الاشـــتباه والإجمال، وذلك كلفظ العرض، والجســـم، والحيز، والمركب، وغير ذلك، فهم يتكلمون بالمتشـــابه من الكلام ليخدعوا به جهال الناس بما يشـــبهون عليه، وهذه الألفاظ المجملة تتضـــمن معاني باطلة، ومعاني أخرى صحيحة، فهم بهذا ينفون كلا المعنيين الحق والباطل.

وقد بين شـــيخ الإســـلام ابن تيمية –رحمه الله– ما في هذه الألفاظ من معانٍ، وما تدل عليه من عبارات.[(٢)]، وكيف استعملها هؤلاء المعطلة في نفي صـفات البارئ –عز وجل–، حيث

---

(١) الرسالة التدمرية (ص: ٧٩–٨٠).

(٢) انظر: شرح ابن تيمية لهذه العبارات في نقض تأسيس الجهمية (١/ ٥٠٤، ٥١١)، وفي مجموع الفتاوى (٥/ ٤١٨–٤٣٠).

ادعوا أن هذه الأمور من مستلزمات الجسمية، والله منزه عن ذلك، وقد بين شيخ الإسلام أن استعمال هذه الألفاظ نفيًا وإثباتًا لم يرد عن السلف، ولا جاء به أثر صحيح، ولم يستعملها الأقدمون بالمعنى الاصطلاحي الذي اتفق عليه هؤلاء، بل جميعهم معترفون بأن العلو صفة كمال، كما أن السفل صفة نقص، وما ثبت لله من العلو فهو العلو المناسب لكمال ذاته، المنزهة عن اعتبارات المحدثين ومماثلتهم.

ومعلوم أن القول بأن العلو يستلزم هذه المعاني المبهمة إنما هو مأخوذ من قياس الغائب على الشاهد، ومحاولة تطبيق الاعتبارات الإنسانية على الصفات الإلهية وهذا قياس خاطئ إذ ليس معنى كونه في السماء أن السماء تحويه، وتحيط به، وتحصره، أو هي محل وظرف له، بل هو سبحانه محيط بكل شيء، وسع كرسيه السموات والأرض، وهو فوق كل شيء، وعلا كل شيء.[١]

ثانياً: إن من استدل به المعتزلة لا أصل له من الكتاب أو السنة بل هو مأخوذ من كلام الفلاسفة الذين يزعمون أن للعالم صانعاً ليس بعالم ولا قادر ولا حي.[٢]

كما أن مذهب المعتزلة في الذات قريب من مذهب اليونان القائلين بأن ذات الله واحدة، لا كثرة فيها بوجه من الوجوه.[٣]

ثالثاً: أن أصل هذه القاعدة التي اعتمد عليها المعتزلة في نفي الصفات إنما هي مأخوذة من قولهم في دليل حدوث العالم [٤]، الذي أثبتوا فيه حدوث العالم بحدوث الأجسام وهذا دليل قد بين الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر: أنه دليل محرم في شرائع الأنبياء، ولم يستدل به

---

(١) انظر: كتاب: موقف ابن تيمية من قضية التأويل (ص: ٣٨١-٣٨٥).

(٢) مقالات الإسلاميين (٢/ ١٧٧)، وموقف المعتزلة من السنة النبوية (ص: ٥٣).

(٣) موقف المعتزلة من السنة النبوية (ص: ٥٣).

(٤) انظر الكلام على دليل حدوث العالم في: مجموع الفتاوى (١٣/ ١٥٣).

أحد من الرسل ولا أتباعهم[(١)]، فهي بهذا طريق يحرم سلوكها لما فيها من لخطر والتأويل، وما يلزم عليها من لوازم باطلة؛ لأنها مستلزمة لنفي الصانع بالكلية، وهي مستلزمة لنفي صفاته، ونفي أفعاله، ونفي المبدأ والمعاد، فهذه الطريق لا تتم إلا بنفي سمع الرب، وبصـــره، وقدرته، وحياته، وإرادته، وكلامه، فضـلاً عن نفي علوه على خلقه، ونفي الصـفات الخبرية من أولها إلى آخرها، فلو صحت هذه الطريقة لنفت الصانع، وأفعاله، وصفاته، وكلامه، وخلقه للعالم، وتدبيره له، وما يثبته أصـحاب هذه الطريقة من ذلك لا حقيقة له، بل هو لفظ لا معنى له، وبهذه الطريقة قالت الجهمية بفناء الجنة والنار، وأن الله بذاته في كل مكان، وقال إخوانهم: إنـه ليس داخـل العـالم، ولا خـارج العـالم، وقـالوا بخلق القرآن، إلى غير ذلـك من اللوازم الباطلة.[(٢)]

فكل هذا تجده لوازم في عقولهم، فيفهمون من إثبات السـلف للاسـتواء على العرش: أن العرش يحوي الله سبحانه وتعالى، أو يحيط به جل وعلا.

وإنما نُفَسِّـر الاسـتواء بمعنى العلو والارتفاع، والكيف لا نَعلمه، وإنما يعلمه الله سـبحانه وتعالى.

فيأتي هؤلاء بلوازم فاسدة ليركبوا عليها هذا الاستنتاج الفاسد.

قول المصنف: " وبعضهم ناصبة".

وهذا هو وصف الرافضة لأهل السنة، فالرافضة عندهم أن حب أبي بكر عندهم لا يستقيم مع ولاية عليٍّ-رضـي الله عنهما-، فلابد لكي يوالي أحدهم عليًّا أن يبغض أبا بكر، مع أن السلف لم يبغضوا عليًّا-رضي الله عنه-، ولم يُناصبوه العداء، لكن هذه مقاييسهم الفاسدة.

---

(١) انظر كتاب: رسالة أهل الثغر (ص: ١٦٤-١٧٢) تحقيق عبدالله شاكر الجنيدي، رسالة ماجستير من قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية.

(٢) مختصر الصواعق ١/ ٢٥٦، ٢٥٧، ودرء تعارض العقل والنقل ١/ ٤٠-٣٨.

فهذه الملازمة الباطلة الفاسدة لا توجد إلا في معتقد الرافضة وأذهانهم، فمحاولة حصر قضية الولاء والبراء بين الصحابة بأحد هذين خيارين إنما هي لازم قولهم في الصحابة، وأما أهل السنة فإنهم يوالون جميع الصحابة ويحبونهم ولا يفرقون بينهم ويعرفون لهم فضلهم، ويؤمنُون بأن أصحابَ النبي-صلى الله عليه وسلم-كما وصفهم ابن مسعود حينما قال: "من كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفِتْنَةُ " [(١)]، أولئك أصحابُ محمد أبَرُّ هذه الأمةِ قلوباً وأعمُقها علماً، وأقلها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه وإقامةِ دينه فاعرفوا لهم حقهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، وكما أُثِر عنه-رضي الله عنه-حيث قال: "إنا نقتدي ولا نبتدئ، ونتبعُ ولا نبتدع".

فأصحابُ النبي-صلى الله عليه وسلم-خيرُ هذه الأمة، والله تعالى قد زكَّاهم في كتابه وأمرَ بلزومِ سبيلهم حيث قال-عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: الآية: ١٠٠]، فرضيَ الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار رضاءً مطلقا بدونِ قيد، ورضيَ عنهم بعدهم رضاءً مقيَّداً.. مقيَّداً بأي أمر؟ باتباعهم بإحسان ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

ونهى الله سبحانه وتعالى عن الافتراقِ عنهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: الآية: ١١٥].

فأهل السنة وسط في بابِ أصحابِ رسولِ اللهِ-صلى الله عليه وسلم-بينَ الرَّافضةِ والخَوَارجِ.

فالرَّافضة: هم الذين غلوا في عليٍّ-رضي الله عنه-وأهل البيت، ونصبوا العداوة لجمهور الصحابة كالثَّلاثة، وعائشة وحفصة وطلحة والزبير وفضلاء المهاجرين والأنصار، وكفَّروهم ومَن تولاهم، وكفَّروا مَن قاتل عليًّا، حتى وصل بهم الأمر إلى أن كفروا جُلَّ الصحابة إلا نفر يسير جدًّا.

وأما الخوارج فقابلوا الرَّوافض؛ فكفروا عليًّا ومعاوية ومن معهما من الصحابة بعد التحكيم،

---

(١) رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢/ ٩٤٧) رقم: (١٨١٠).

وقاتلوهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم.

والنواصـــب: هم الذين نصـــبوا العداوة لعليٍّ ومَن والاه، وهم الذين اســـتحلوا قتله بعد أن كفروه، وقتله أحد رءوسهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

أما أهل السنة والجماعة فهداهم الله تعالى للحق والصواب، فلم يغلوا في علي وأهل البيت، ولم ينصبوا العداوة للصحابة-رضي الله عنهم-ولم يكفّروهم، ولم يفعلوا كما فعل النواصب من عداوة أهل البيت. بل يعترفون بحق الجميع وفضـــلهم، ويوالونهم، ويكفون عن الخوض فيما جرى بينهم، ويترحَّمون على جميع الصـــحابة، فكانوا وســـطًا بين غلو الرافضـــة وجفاء الخوارج.[(١)]

ومحبتهم لأهلِ بيتِ رسولِ اللهِ-صلى الله عليه وسلم-محبةٌ شرعيَّة دونَ إفراطٍ أو تَفْرِيطٍ؛ فهم يَعْرِفُونَ لهم حَقَّهم، ويَحفظونَ وَصِـيَّةَ رسـولِ اللهِ فيهم، ولا يُغالونَ في مَحَبَّتِهِم؛ ولا يَرفعونهم فوق منزلتهم البشرية غلوًّا فيهم، وكذلك لا ينتقصونهم قدرهم جفاء لهم.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية عن معتقد أهل السـنة: "ويتبرؤون مِن طريقة الرَّوَافِضِ الذين يُبْغِضُـونَ الصَّـحابة، ويَسُـبُّونَهُم، ومن طريقة النَّواصـب الذين يؤذون أهلَ البيت بقولٍ أو عملٍ".[(٢)]

فأهل السنة والجماعة يتميزون بالوسطية والاعتدال بين الفرق الأخرى التي تقف على طرفي نقيض؛ والحق بين هذا وذاك، وتلكم هي الوسطية والطريقة السوية.

قول المصنف: "وبعضهم جبرية".

وهذا هو وصـــف القدرية من المعتزلة وغيرهم لأهل الســـنة، قال الإمام الحافظ أبو حاتم الرازي: "علامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر. ... وعلامة القدرية: أن يسـموا أهل السنة

---

(١) انظر الكواشف الجلية عن معاني الواسطية) لعبد العزيز السلمان (ص: ٥٠٥-٥٠٨).

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (١/ ٤٠٨).

مجبرة".[(١)]

وقال البربهاري: "أو يقول: فلان [مجبر]، أو يتكلم بالإجبار، أو يتكلم بالعدل، فاعلم أنه قدري".[(٢)]

فالقدريَّةُ نَفَوْا مُتعلق قدرة الله بأفعال العباد تنزيهًا لله بزَعْمهم، فأفعالُ العباد عندهم لا تَدخُل تحت مشيئة الله وإرادته.

ولذلك قالوا بهذا اللازم الفاسد الذي لا وجود له في معتقدهم المنحرف عن الحق.

وقد ضَلَّ في هذا الباب (باب أفعال الله) الجبريةُ والقدريةُ، وما زال إلى يوم الناس هذا مَن يَخبط فيه بين قائل بأن العبد مجبر على أفعاله، وبين قائل بأن العبد لا فِعل له ولا اختيار، وإنما هو كالريشة في مَهَبِّ الرِّيح، وأهل السنة والجماعة وسطٌ بين هذا وذاك.

وقد أوضَح شيخُ الإسلامِ رحمه الله هذا في (مجموع الفَتاوى) قول أهل السنة فقال: (وهم في باب خَلقِ الله وأمرِهِ وسطٌ بين المكذِّبين بقُدرة الله الذين لا يُؤمنون بقُدرتِه الكاملة ومَشيئته الشاملة وخَلقِه لكل شيء، وبين المفسدين لدِين الله الذين يَجعلون العبدَ ليس له مَشِيئةٌ ولا قُدرة ولا عمل، فيُعطِّلون الأمر والنهي والثوابَ والعقاب، فيَصِيرون بمَنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية: ١٤٨].

فيُؤمن أهل السُّنَّة بأنَّ الله على كل شيء قدير، فيَقدر أن يهدي العبادَ ويُقلِّب قلوبهم، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في مُلكِه ما لا يُريد، ولا يَعجَز عن إنفاذ مُرادِه، وأنه خالِق كلِّ شيء من الأعيان والصِّفات والحَرَكات. ويُؤمنون أن العبدَ له قُدرة ومشيئة وعملٌ، وأنه مُختار ولا يُسمُّونه مَجْبورًا؛ إذ المِجْبور مَن أُكْرِه على خلاف اختِياره، والله -عز وجل- جعَل العبدَ مُختارًا لِمَا يفعله، فهو مختارٌ مُريد، والله خالِقُه وخالِقُ اختياره،

(١) نقله عنه الذهبي في العلو (ص: ١٩٠).

(٢) شرح السنة للبربهاري (ص: ١١٨).

وهذا ليس له نَظِيرٌ؛ فإن الله ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاتِه ولا في صفاته ولا في أفعاله) [(١)].

وقال العلَّامة السِّعْدي "وهدَى الله أهلَ السُّنَّة والجَمَاعَة للتوسُّط بين طائفتين منحرفتينِ هم القدرية والجبرية، فآمَنوا بقضـــاء الله وقدَره وشُمولهما للأعيان والأوصـــاف والأفعال التي مِن جُملتِها أفعالُ المكلَّفين وغيرهم، وآمَنوا بأنه ما شـــاء اللهُ كان وما لم يشـــأ لم يكُن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالى جعَل للعِباد قُدرة وإرادة تقَعُ بها أقوالُهم وأفعالهم على حســـب اختيِارهم وإرادتهم، فآمَنوا بكلِّ نصٍّ فيه تعميمُ قدرة ومشـــيئة، وبكلِّ نصٍّ فيه إثباتُ أنَّ العباد يعملون ويفعلون كلَّ الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقُدْرَتِهم، وعَلِموا أن الأمرينِ لا يَتنافيانِ". [(٢)]

وبهذا يتبين أن الملازمة الفاسدة إنما هي في أذهان وعقيدة القدرية إذ لا تنافي بين مشيئة الله ومشيئة العبد في معتقد أهل السنة والجماعة.

المسألة الثانية: طعن أهل الأهواء والبدع في الصحابة.

وقد عرف أن من سمات أهل الباطل طعنهم في الصـحابة الذين هم أئمة السـلف، فها هي الفرق الكبار: المعتزلة والخوارج والشـــيعة كلهم يطعن في الصـــحابة رضـــوان الله عليهم طعنا صريحا. [(٣)]:

أما المعتزلة فقد طعن زعيمهم النظام في أكثر الصـحابة وأسـقط عدالة ابن مسـعود، وطعن في فتاوى علي بن أبي طالب، وثلب عثمان بن عفان، وطعن في كل من أفتى من الصـــحابة بالاجتهـاد، وقـال: إن ذلـك منهم إنمـا كـان لأجـل أمرين: إمـا لجهلهم بأن ذلـك لا يحـل لهم، وإما لأنهم أرادوا أن يكونوا زعماء وأرباب مذاهب تنسـب إليهم. فنسـب خيار الصـحابة إلى الجهل أو النفاق.

---

(١) مجموع الفَتاوى (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤).

(٢) (التنبيهات اللطيفة) (ص: ٦١، ٦٢).

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص: ٣١٨) وما بعدها.

ثم إنه أبطل إجماع الصحابة ولم يره حجة، وأجاز أن تجتمع الأمة على الضلالة[(١)].

وأيضا – كان زعيمهم واصل بن عطاء الغزال يشكك في عدالة علي وابنيه، وابن عباس، وطلحة، والزبير، وعائشة وكل من شهد حرب الجمل من الفريقين، فقال مقالته المشهورة: لو شهد عندي علي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق ولا أعرفه بعينه. ووافقه على ذلك صاحبه عمرو بن عبيد وزاد عليه بأن قطع بفسق كل من الفريقين.

وأما الخوارج فتكفيرهم لعلي وأكثر الصحابة رضي الله عنهم واستباحتهم لدمائهم وأموالهم مشهور معلوم، بل ساقوا الكفر إلى كل من أذنب من هذه الأمة.

أما الشيعة فشعارهم الطعن في سائر الصحابة – عدا آل البيت – وغلاتهم من السبئية والبيانية وغيرهم قد حكم علماء الإسلام عليهم بالردة والخروج من الدين بالكلية.

والإمامية منهم ادعت ردة أكثر الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

والأشاعرة ونحوهم من المتكلمين ممن يدعي في طريقة الخلف العلم والإحكام، وفي طريقة السلف السلامة دون العلم والإحكام، يلزمهم تجهيل السلف من الصحابة والتابعين وهو طعن فيهم من هذا الوجه. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله –بعد أن حكى عنهم هذا الكلام–: "ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض".[(٢)] [(٣)].

فالخوارج طعنوا في أصحابِ النبي–صلى الله عليه وسلم–، طعنوا ما طعنوا وكفَّروا ما كفَّروا. وكذلك جاء من بعدهم المعتزلة حتى يقول عمرو بن عبيد: "لو جاءَ كلا الفريقين عليّ ومَن معه، ومعاوية ومَن معه، يشهدون عندي على حزمة بَقْل ما قبلت شهادةَ أحدٍ منهم"[(٤)]

(١) فضل الإجماع (ص: ١٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧).

(٣) المصدر: موقع الدرر السنية الموسوعة العقدية.

(٤) العرش للذهبي (١/ ٥١).

فطعنوا بها في هذه المرجعية، وأطلق عمرو بن عبيد على ابنِ عمر أنه من الحشوية.

المسألة الثالثة: طعن أهل الأهواء والبدع في الآثار النبوية.

فإذا سمعت الرجل يطعن في الآثار ولا يقبلها أو يُنكر شيئاً من أخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- فاتهمه على الإسلام وهذا ما كان عليه حال أهل الكلام من الطعن في الآثار ومن الطعن في الأحاديث فهؤلاء كما ذكرنا سابقاً انتقصوا النصوص وقالوا: إذا كانت أخبار آحاد فهذه لا يحتج بها في باب العقائد فيرمون بها عرض الحائط حتى لو كانت في البخاري ومسلم فهي مرفوضة عندهم فيطعنون فيها من جهة ثبوتها، وما لم يطعنوا في ثبوته طعنوا في دلالته.

ولذلك استهزئوا في الأحاديث واستهزئوا في آثار السلف الصالح، فإذا رأيت رجل من هذه الشاكلة ومن هذا الصنف فاعلم أنه من أهل الأهواء والبدع، فهؤلاء إنما في الحقيقة يطعنون في الرسول ويطعنون في الصحابة، لأنه إنما عرفنا الله عز وجل وعرفنا رسوله وعرفنا القرآن وعرفنا الخير والشر والدنيا والآخرة عرفناها من أي طريق؟ من طريق الآثار.

فهؤلاء إذا طعنوا إنما يطعنون في الدين، فنحن إذا لم يكن هذا السبيل إلى معرفة الدين فما هو السبيل إلى معرفة الدين، ولا شك أن القرآن إلى السنة أحوج من السنة إلى القرآن، يعني القرآن أحوج إلى السنة لماذا؟ لأنها شارحة، ومفصلة وموضحة فأنت جاءك حكم الصلاة لكن كيف تُصلى هذه الصلاة، وما تفاصيلها ووضوئها وغير ذلك إنما تأخذه من خلال السنة.

فهي شارحة ومفصلة ومبينة لما جاء في القرآن، ثم إن الكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة منهيٌ عنه، فالكلام والجدل في أساسه يعني ممنوع وباطل، ويقصد به كلام أهل المنطق وسبل أهل المنطق من الخوض في الأمور بالعقل استقلالاً دون عودة إلى النصوص وباب القدر في الأخص.

فمن سمات أهل الباطل انتقاصهم لعلوم السلف وقولهم: بأن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

قال ابن تيمية: "ولا يجوز أن يكون الخالفون أَعْلَمَ مِنْ السَّالِفِينَ كَمَا قَدْ يَقُولُهُ بَعْضُ

الْأَغْبِيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُقَدِّرْ قَدْرَ السَّلَفِ؛ بَلْ وَلَا عَرَفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا: مِنْ أَنَّ "طَرِيقَةَ السَّلَفِ أَسْلَمُ "وَطَرِيقَةَ الْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ "فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعِينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ: إنَّمَا أَتَوْا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا: أَنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ لِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: الآية: ٧٨]، وَأَنَّ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ هِيَ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِي النُّصُوصِ الْمَصْرُوفَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا بِأَنْوَاعِ الْمَجَازَاتِ وَغَرَائِبِ اللُّغَاتِ. فَهَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ أَوْجَبَ "تِلْكَ الْمَقَالَةَ "الَّتِي مَضْمُونُهَا نَبْذُ الْإِسْلَامِ وَرَاءَ الظَّهْرِ وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ؛ فَجَمَعُوا بَيْنَ الْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ. وَبَيْنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ". [(١)]

المسألة الرابعة: سمات مناهج أهل الباطل.

أحياناً لا يعرفَ الإنسان مدى قيمةِ هذه القواعد وهذه الثوابت التي تمت الإشارة إليها إلا إذا عرَّجَ على ذكر بعضِ سمات أهلِ البدع وقارن بينها وبين ما عليه أهل السنَّةِ والجماعة.

وكما قيل: "بضدِّها تتميزُ الأشياء"، "والضدُّ يُظهرُ حسنه الضدُّ"، ومن تلك السمات ما يلي:

أولاً: أنهم يجعلون أقوالهم هي الأصل ويجعلون ما جاء في الكتاب والسنة تبع لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك أن يبتدع بدعةً برأي رجالٍ وتأويلاتهم، ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعًا لها، ويحرف ألفاظه، ويتأول على وفق ما أصلوه

وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول، ولا يتلقون الهدى منه، ولكن ما وافقهم منه قبلوه، وجعلوه حجةً لا عمدة، وما خالفهم تأولوه، كالذين يحرفون الكلم

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٨-٩).

عن مواضعه أو فوضوه، كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني".[(١)]

وقال أيضـــاً: "وأمّا أهل البدع: فهم أهل أهواء وشـــبهات، يتّبعون أهواءهم فيما يُحبّونه ويُبغضـونه، ويحكمون بالظنّ والشبه؛ فهم يتّبعون الظنّ وما تهوى "الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى. فكلّ فريقٍ منهم قد أصّل لنفسه أصلَ دينٍ صنعه؛ إمّا برأيه وقياسه الذي يُسمّيه عقليّات؛ وإمّا بذوقه وهواه الذي يُســـمّيه ذوقيّات، وإمّا بما يتأوّله من القرآن، ويُحرّف فيه الكلم عن مواضـــعه، ويقول إنّه إنّما يتّبع القرآن كالخوارج؛ وإمّا بما يدّعيه في الحديث والســـنّة ويكون كذباً وضعيفاً كما يدّعيه الروافض؛ من النصّ والآيات. وكثيرٌ ممّن يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتجّ من القرآن بما يتأوّله على غير تأويله، ويجعل ذلك حجّة لا عمدة، وعمدته في الباطن على رأيه، كالجهميّة والمعتزلة في الصفات والأفعال، بخلاف مسائل الوعد والوعيد؛ فإنّهم قد يقصدون متابعة النصّ".[(٢)]

وقال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وجماع الأمر أن الأدلة نوعان: شـــرعية، وعقليه.

فالمدعون لمعرفة الإلهيات بعقولهم، من المنتســـبين إلى الحكمة والكلام والعقليات، يقول من يخالف نصـــوص الأنبياء منهم: إن الأنبياء لم يعرفوا الحق الذي عرفناه، أو يقولون: عرفوه ولم يبينوه للخلق كما بيناه، بل تكلموا بما يخالفه من غير بيان منهم.

والمدعون للســنة والشــريعة واتباع الســلف من الجهال بمعاني نصــوص الأنبياء يقولون: إن الأنبياء ـ والسلف الذين اتبعوا الأنبياء ـ لم يعرفوا معنى هذه النصوص التي قالوها والتي بلغوها عن الله، أو إن الأنبياء عرفوا معـانيهـا ولم يبينوا مرادهم للنـاس، فهؤلاء الطوائف قـد يقولون: نحن عرفنا الحق بعقولنا، ثم اجتهدنا في حمل كلام الأنبياء على ما يوافق مدلول العقل، وفائدة

(١) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩)، و (١٦/ ٤٣٣)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/ ٧) و (٣/ ٧٧)، والصـــواعق المرســـلة (٢/ ٤٥٦، و ٦٣٣).

(٢) النبوات لابن تيمية (١/ ٤٢٢).

إنزال هذه المتشـــابهات المشــكلات اجتهاد الناس في أن يعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في تأويل كلام الأنبياء الذي لم يبينوا به مرادهم، أو أنا عرفنا الحق بعقولنا، وهذه النصـــوص لم تعرف الأنبياء معناها، كما لم يعرفوا وقت الســـاعة، ولكن أمرنا بتلاوتها من غير تدبر لها ولا فهم لمعانيها.

أو يقولون: بل هذه الأمور لا تعرف بعقل ولا نقل، بل نحن منهيون عن معرفة العقليات، وعن فهم الســـمعيــات، وإن الأنبيــاء وأتبــاعهم لا يعرفون العقليــات، ولا يفهمون السمعيات". (١)

ثانياً: من سمات مناهج أهل الباطل أن عامتهم لا يعرفون ما جاء في الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وهؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول: إما عجزًا وإما تفريطًا، فإنه يحتاج إلى مقدمتين:

أن الرسول قال كذا، وأنه أراد به كذا.

أما المقدمة الأولى: فعامتهم لا يرتابون في أنه جاء بالقرآن وإن كان من غلاة أهل البدع مَن يرتاب في بعضـــه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها، وهم يظنون أن هذه رواها آحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ، ولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها، والأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث؛ فإن هؤلاء يقطعون قطعًا يقينًا بعامة المتون الصحيحة التي في الصحيحين كما قد بسطناه في غير هذا الموضع.

وأما المقدمة الثانية: فإنهم لا يعرفون معاني القرآن والحديث، ومنهم من يقول: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم، وقد بسطنا الكلام على فساد ذلك في غير هذا الموضع". (٢)

وقال شـيخ الإسـلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وإذا كانت الطائفة عن الله وعن رسوله

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٨-١٩).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩)، و (١٦/ ٤٣٣)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/ ٧)، و (٣/ ٧٧)، والصـــواعق المرســـلة (٢/ ٤٥٦)، و ٦٣٣).

أبعد، كانت عنهما أنأى، حتى تجد في أئمة علماء هؤلاء من لا يميز بين القرآن وغيره، بل ربما ذكرت عنده آية فقال: لا نسلّم صحة الحديث. وربما قال لقوله-عليه السلام-: كذا.. وتكون آية من كتاب الله. وقد بلغنا من ذلك عجائب، وما لم يبلغنا أكثر".[1]

ثالثاً: من سمات مناهج أهل الباطل أنهم يتعاملون مع النصوص بما يوافق أهواءهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وكثير منهم إنما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم، فالنصوص التي توافقهم يحتجون بها، والتي تخالفهم يتأولونها، وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر إتباع نص أصلاً، وهذا في البدع الكبار مثل الرافضة والجهمية".[2]

رابعاً: من سمات مناهج أهل الباطل:

١ ـ أنهم يلبسون الحق بالباطل.

٢ ـ أنهم يقيمون الباطل بدلاً عن الحق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: الآية: ٧١] هما متلازمان فإن من لبّس الحق بالباطل فجعله ملبوسًا به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل، فصار ملبوسًا ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلًا فيلبس الحق بالباطل، ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلابد أن يظهر باطلًا.

وهكذا أهل البدع لا تجد أحدًا ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئًا من السنة، كما جاء في الحديث)ما ابتدع قوم

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٩٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٣٤، ٤٤٤، ٤٤٥)، و (١٨/ ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٢)، و (٧/ ١١٨). ومنهاج السنة (٢/ ١٠٩)، ودرء تعارض العقل والنقل (٣/ ٧٦)، وكتاب النبوات (ص: ١٦٤)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٥٣، ٥٢٣).

بدعة إلا تركوا من السنة مثلها (رواه الإمام أحمد [(١)]) وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: الآية: ١٤]

فلما تركوا حظا مما ذكروا به اعتاضوا بغيره، فوقعت بينهم العداوة والبغضاء، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: الآية: ٣٦]". [(٢)]

فعلى المسلم أن يحذر من هاتين الصفتين الذميمتين فهي من سمات أهل الكتاب". [(٣)]

خامساً: من سمات مناهج أهل الباطل اتباع المتشابهات والألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في وصف أهل الأهواء والبدع: "إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه أولئك الذين سماهم الله فاحذروهم". [(٤)]

وقد تحدث علماء السلف عن سمات الفرق الهالكة وأسباب تفرقهم وما أحدثوه في الدين تحدثوا من باب النصيحة والتحذير.

فقد سأل عمرو بن قيس الحكم بن عتبة: "ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء أن يدخلوا فيها؟ قال الخصومات". [(٥)]

---

(١) واللفظ عند أحمد: (ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة) (٤/ ١٠٥)، ضعفه الألباني بهذا اللفظ في ضعيف الجامع برقم: (٤٩٨٣) ورواه وفي المشكاة برقم: (٤٨) (١٨٧). الدارمي في سننه (١/ ١٥٨)، وعند عبد الرزاق في مصنفه: (ما ابتدع قوم بدعة قط إلا استحلوا بها السيف) (١٠/ ١٥١). وصحح الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام في المشكاة برقم: (٤٩) (١٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥٥-١٥٦)، وانظر أيضا: مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٤)، ومنهاج السنة (٤/ ٥٤٨)، والاستقامة (١/ ٣) و (٢/ ٣٠٠).

(٤) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥)

(٥) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٨٢).

وقال الفضيل بن عياض: "لا تجادلوا أهل الخصومات فإنهم يخوضون في آيات الله".[١]

وفي مصنف عبد الرزاق أن رجلًا قال لابن عباس: الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم. فقال: كل هوى ضلالة".[٢]

وعن أبي قلابة قال: "ما ابتدع قوم بدعة إلا استحلوا السيف".[٣]

فالله تعالى قد ذم في كتابه من يتتبع المتشابهات ورسوله-صلى الله عليه وسلم- كما عاقب عمر-رضي الله عنه-صبيغًا.

وقد صارت هذه العادة سمة وشعارًا لأهل البدع والأهـــواء ومنهجًا ينتهجونه في التلبيس، وسلَّمًا للوصول إلى بغيتهم وطريقًا في تحقيق نواياهم السيئة، ومِعْولًا يهدمون بها أصول الدين، ويعارضــون بها الحق بعد ما تبين للناس، ويلبســون به على عقول العوام ويفســدون به دينهم بإلقاء الشبهات تارة وباستخدام الألفاظ المجملة والمعاني مشتبهة تارة أخرى.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "ولهذا قال الإمام أحمد في أول ما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شـــكت فيه من متشـــابه القرآن وتأولته على غير تأويله، مما كتبه في حبسه قال في أوله: "الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضـــلَّ إلي الهدى ويبصــــرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمي، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من تائه ضالٍّ قد هدوه، فما أحســـن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشــابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشــبهون

---

(١) رواه الدارمي (٤٠٦).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (١١/ ١٢٦).

(٣) الشريعة للآجري (١/ ٤٦).

عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين". [١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-في تعليقه على كلام الإمام أحمد -رحمه الله-: "المبتدعة يستعملون ألفاظ الكتاب والسنة واللغة ولكن يقصدون بها معاني أخر.

والمقصود هنا قوله: "يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم" [٢] وهذا الكلام المتشابه الذي يخدعون به جهال الناس هو الذي يتضمن الألفاظ المتشابهة المجملة، التي يعارضون بها نصوص الكتاب والسنة، وتلك الألفاظ تكون موجودة مستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس، لكن بمعانٍ أُخر غير المعاني التي قصدوها هم بها، فيقصدون هم بها معاني أخر، فيحصل الاشتباه والإجمال". [٣]

سادساً: من سمات أهل الباطل طعنهم في الصحابة.

فها هي الفرق الكبار: المعتزلة والخوارج والشيعة كلهم يطعن في الصحابة رضوان الله عليهم طعنا صريحا[٤]:

أما المعتزلة: فقد طعن زعيمهم النظام في أكثر الصحابة وأسقط عدالة ابن مسعود، وطعن في فتاوى علي بن أبي طالب، وثلب عثمان بن عفان، وطعن في كل من أفتى من الصحابة بالاجتهاد، وقال: إن ذلك منهم إنما كان لأجل أمرين: إما لجهلهم بأن ذلك لا يحل لهم، وإما لأنهم أرادوا أن يكونوا زعماء وأرباب مذاهب تنسب إليهم. فنسب خيار الصحابة إلى الجهل أو النفاق.

ثم إنه أبطل إجماع الصحابة ولم يره حجة، وأجاز أن تجتمع الأمة على الضلالة". [٥]

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص: ١-٦). ومجموع الفتاوى (١/ ٣) و (٤ / ٢١٧)، و (١١/ ٤٣٥)، و (١٥/ ٢٨٤) و (١٧/ ٣٠٠)، ومنهاج السنة (٥/ ٢٧٣).

(٢) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-(ص: ١٧٣ . ١٧٤).

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١ / ٢٢٢) (٦ / ١٩٢).

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص: ٣١٨) وما بعدها.

(٥) فضل الإجماع ص ١٤٠

وأيضًــا: كان زعيمهم واصــل بن عطاء الغزال يشــكك في عدالة علي وابنيه، وابن عباس، وطلحة، والزبير، وعائشة وكل من شـهد حرب الجمل من الفريقين، فقال مقالته المشـهورة: لو شـهد عندي علي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشـهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسـق ولا أعرفه بعينه[(١)]. ووافقه على ذلك صــاحبه عمرو بن عبيد وزاد عليه بأن قطع بفســق كل من الفريقين.

حتى يقول العمرو بن عبيـد: "لو جـاءَ كلا الفريقين عليّ ومَن معه، ومعاويـة ومَن معه، يشـهدون عندي على حزمة بَقْل ما قبلت شـهادةَ أحدٍ منهم"[(٢)] فطعنوا بها في هذه المرجعية، وأطلق عمرو بن عبيد على ابنِ عمر أنه من الحشوية

وأما الخوارج: فتكفيرهم لعلي وأكثر الصــحابة-رضــي الله عنهم-، واســتباحتهم لدمائهم وأموالهم مشهور معلوم، بل ساقوا الكفر إلى كل من أذنب من هذه الأمة.

فالخوارج طعنوا في أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم، طعنوا ما طعنوا وكفَّروا ما كفَّروا.

أما الشـيعة: فشـعارهم الطعن في سـائر الصـحابة —عدا آل البيت—وغلاتهم من السـبئية والبيانية وغيرهم قد حكم علماء الإسلام عليهم بالردة والخروج من الدين بالكلية.

والإمامية منهم ادعت ردة أكثر الصحابة بعد النبي-صلى الله عليه وسلم-.

وأما الأشــــاعرة ونحوهم من المتكلمين: ممن يدعي في طريقة الخلف العلم والإحكام، وفي طريقة السـلف السـلامة دون العلم والإحكام، يلزمهم تجهيل السـلف من الصـحابة والتابعين وهو طعن فيهم من هـذا الوجه. ولهـذا قـال ابن تيمية-رحمه الله-بعد أن حكى عنهم هـذا الكلام-: "ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض".[(٣)] [(٤)]

---

(١) انظر أصول الدين لابن طاهر البغدادي (ص: ٢٩٠ -٢٩١)

(٢) انظر العرش للذهبي (١/ ٥١).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧).

(٤) المصدر موقع الدرر السنية الموسوعة العقدية.

سابعاً: من سمات أهل الباطل انتقاصهم لعلوم السلف وقولهم: بأن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "ولا يجوز أن يكون الخالفون أَعْلَمَ مِنْ السَّالِفِينَ كَمَا قَدْ يَقُولُهُ بَعْضُ الْأَغْبِيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُقَدِّرْ قَدْرَ السَّلَفِ؛ بَلْ وَلَا عَرَفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا: مِنْ أَنَّ "طَرِيقَةَ السَّلَفِ أَسْلَمُ "وَطَرِيقَةَ الْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعِينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ: إنَّمَا أَتَوْا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا: أَنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ لِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ وَأَنَّ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ هِيَ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِي النُّصُوصِ الْمَصْرُوفَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا بِأَنْوَاعِ الْمَجَازَاتِ وَغَرَائِبِ اللُّغَاتِ. فَهَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ أَوْجَبَ " تِلْكَ الْمَقَالَةَ " الَّتِي مَضْمُونُهَا نَبْذُ الْإِسْلَامِ وَرَاءَ الظَّهْرِ وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ؛ فَجَمَعُوا بَيْنَ الْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ. وَبَيْنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ".(١)

ثامنًا: من سمات أهل الباطل أنهم جمعوا بين الجهل والظلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وَهَذَا لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي اشْتَرَكُوا فِيهِ أَصْلٌ فَاسِدٌ مَبْنِيٌّ عَلَى جَهْلٍ وَظُلْمٍ، وَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي ظُلْمِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، فَصَارُوا بِمَنْزِلَةِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ الْمُشْتَرِكِينَ فِي ظُلْمِ النَّاسِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُسْلِمَ الْعَالِمَ الْعَادِلَ أَعْدَلُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ. وَالْخَوَارِجُ تُكَفِّرُ أَهْلَ الْجَمَاعَةِ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الرَّافِضَةِ وَمَنْ لَمْ يُكَفِّرْ فُسِّقَ. وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ يَبْتَدِعُونَ رَأْيًا، وَيُكَفِّرُونَ

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٨-٩).

مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ". [(١)]

تاسعاً: ومن سمات مناهج أهل الباطل أن استدلالاتهم واهية.

ما يحتج به أهل البدع فشبههم لا تخرج عن أحد الأمور التالية:

١. إما آيات وأحاديث صحيحة يتأولونها ويتعسفون في تفسيرها حتى توافق ما جاءوا به من الباطل مع أنه ليس فيها دلالة على ما يزعمون ويدعون.

٢. وإما أحاديث واهية أو موضوعة لا يحتج بها ولا يعتمد عليها بل هي مخالفة لأهم قواعد هذا الدين المبنية على الآيات والأحاديث الثابتة الصحيحة.

وهذا الصنف هو أغلب بضاعتهم، بل وأكثر ما يستدلون به عند عرض بدعهم، إما جهلا منهم بحكم هذه الأحاديث، أو لعلمهم بأن هذا النوع من الأدلة هو مما يسهل ترويج باطلهم عند العوام الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين الصحيح والضعيف من الأحاديث.

٣. وإما بحكايات مكذوبة منسوبة لبعض أئمة هذا الدين الذين لهم في نفوس الناس منزلة ومكانة. وتلك الحكايات مروية بأسانيد مظلمة عن رجال مجهولين وهي مردودة بما اشتهر عن أولئك الأئمة من أقوال ذكرت في كتبهم أو رويت عن طريق تلاميذهم بأسانيد صحيحة تؤكد زيف تلك، الحكايات المنسوبة إليهم وتبرهن على بطلانها.

٤. أو بمنامات لا تخلو من أحد أمرين إما كذب صاحبها أو تلبيس الشياطين عليه، ويشهد لهذا ويؤكده مخالفتها لقواعد هذا الدين وأصوله.

٥. ويا سبحان الله كيف يتصور أن يترك شرع الله من أجل أحلام ومنامات أو أقوال من تكلم في الدين بلا علم، وليس معه فيما يقول ويدعى دليل شرعي، ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

٦. أو بحجج هي من جهة الرأي والذوق هي أوهن من بيوت العنكبوت ولا يخفى

---

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٥٧).

ضعفها وفسادها ومخالفتها لقواعد هذا الدين وأصوله إلا على الجهلة وأصحاب الهوى أتباع كل ناعق الذين لم يستضيئوا بنور العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله تعالى–: "وأما أولئك الضلال أشباه المشركين والنصارى فعمدتهم: إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو منقولات عمن لا يحتج بقوله إما أن يكون كذبا عليه وإما أن يكون غلطا منه إذ هي نقل غير مصدق عن قائل غير معصوم، وإن اعتصموا بشيء مما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم حرفوا الكلم عن مواضعه وتمسكوا بمتشابهه وتركوا محكمه كما يفعل النصارى".[١]

والمقام هنا لا يتسع لعرض تلك الشبه والرد عليها، فمن أراد الاستزادة في هذا الشأن فعليه بمظان ذلك في كتب علماء السلف".[٢]

وعن عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه–، أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل).[٣]

عاشراً: من سمات أهل الباطل زعمهم أن أهل السنة أَهْلُ تَقْلِيدٍ لَيْسُوا أَهْلَ نَظَرٍ

---

(١) الرد على البكري (ص: ٣٥٢)

(٢) انظر:

- أ–قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ب–الرد على الأخنائي لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ج–الرد على البكري لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- د–صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان للشيخ محمد بشير السهسواني.
- هـ–الصواعق المرسلة الشهابية للشبح سليمان بن سحمان.
- وغاية الأماني في الرد على النبهاني للشيخ محمود شكري الألوسي.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/ ٥٠–٥١).

وَاسْتِدْلَالٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وَمِنْ الْعَجَبِ: أَنَّ أَهْلَ الْكَلَامِ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ أَهْلُ تَقْلِيدٍ لَيْسُوا أَهْلَ نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ وَأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ حُجَّةَ الْعَقْلِ. وَرُبَّمَا حُكِيَ إنْكَارُ النَّظَرِ عَنْ بَعْضِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَهَذَا مِمَّا يُنْكِرُونَهُ عَلَيْهِمْ فَيُقَالُ لَهُمْ: لَيْسَ هَذَا بِحَقٍّ. فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ لَا يُنْكِرُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ هَذَا أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ. وَاَللَّهُ قَدْ أَمَرَ بِالنَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِي غَيْرِ آيَةٍ وَلَا يُعْرَفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَعُلَمَائِهَا أَنَّهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ بَلْ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى الْأَمْرِ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِنْ النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ وَالتَّدَبُّرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَلَكِنْ وَقَعَ اشْتِرَاكٌ فِي لَفْظِ " النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ " وَلَفْظِ " الْكَلَامِ " فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا مَا ابْتَدَعَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ بَاطِلِ نَظَرِهِمْ وَكَلَامِهِمْ وَاسْتِدْلَالِهِمْ فَاعْتَقَدُوا أَنَّ إنْكَارَ هَذَا مُسْتَلْزِمٌ لِإِنْكَارِ جِنْسِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ. وَهَذَا كَمَا أَنَّ طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي مَا وَضَعَهُ " أُصُولَ الدِّينِ " وَهَذَا اسْمٌ عَظِيمٌ وَالْمُسَمَّى بِهِ فِيهِ مِنْ فَسَادِ الدِّينِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ. فَإِذَا أَنْكَرَ أَهْلُ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ ذَلِكَ قَالَ الْمُبْطِلُ: قَدْ أَنْكَرُوا أُصُولَ الدِّينِ. وَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى أُصُولَ الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنْكَرُوا مَا سَمَّاهُ هَذَا أُصُولَ الدِّينِ وَهِيَ أَسْمَاءٌ سَمَّوْهَا هُمْ وَآبَاؤُهُمْ بِأَسْمَاءِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَدْ بَيَّنَ أُصُولَهُ وَفُرُوعَهُ وَمِنْ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ قَدْ بَيَّنَ فُرُوعَ الدِّينِ دُونَ أُصُولِهِ كَمَا قَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَهَكَذَا لَفْظُ النَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ ". وَعَامَّةُ هَذِهِ الضَّلَالَاتِ إنَّمَا تَطَرَّقُ مَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمَا كَانَ". (١)

الحادي عشر: ومن سمات أهل الباطل تكفيرهم لخصومهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَحَدٌ إلَّا وَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ مَقَالَةٌ يُكَفِّرُ قَائِلُهَا عُمُومَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَصْحَابَهُ وَفِي التَّعْمِيمِ مَا يُغْنِي عَنْ التَّعْيِينِ فَأَيُّ فَرِيقٍ أَحَقُّ بِالْحَشْوِ وَالضَّلَالِ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَذَلِكَ يَقْتَضِي وُجُودَ الرِّدَّةِ فِيهِمْ كَمَا

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٥-٥٦).

يُوجَدُ النِّفَاقُ فِيهِمْ كَثِيرًا. وَهَذَا إذَا كَانَ فِي الْمَقَالَاتِ الْخَفِيَّةِ فَقَدْ يُقَالُ: إنَّهُ فِيهَا مُخْطِئٌ ضَالٌّ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ صَاحِبُهَا؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ فِي طَوَائِفَ مِنْهُمْ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَعْلَمُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهَا مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ". [(١)]

الثاني عشر: من سمات أهل الباطل اضطراب أقوالهم وتنقلهم من قول إلى قول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله تعالى-: "إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالًا من قول إلى قول، وجزمًا بالقول في موضع، وجزمًا بنقيضه، وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين، فإن الإيمان كما قال فيه قيصر لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبي-صلى الله عليه وسلم-: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له، بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب، لا يسخطه أحد. ولهذا قال بعض السلف-عمر بن عبد العزيز أو غيره-: "من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل". [(٢)] [(٣)]

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٠).



هجر أهل البدع

فرحم الله عبداً قال بالحقِّ، واتبع الأثر، وتمسَّك بالسُّنة، واقتدى بالصالحين، وجانب أهل البدع، وترك مجالستهم، ومحادثتهم؛ احتسابًا وطلباً للقُربة من الله وإعزاز دينه. وما توفيقنا إلَّا بالله.

الشرح

الآثار الواردة في التحذير من مجالسة أهل البدع والأهواء كثيرة جدًا في كتب أهل السنة، من حيث الأصل، قال الإمام البغوي: "وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم، وعلماء السنة على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدعة، ومهاجرتهم"(١).

قال الشاطبي: "فإن الإيواء يجامع التوقير، ووجه ذلك ظاهر؛ لأن المشي إليه والتوقير له تعظيمٌ له لأجل بدعته؛ وقد علمنا أن الشرع يأمر بزجره وإهانته وإذلاله بما هو أشد من هذا كالضرب والقتل، فصار توقيره صدوداً عن العمل بشرع الإسلام، وإقبالاً على ما يضاده وينافيه، والإسلام لا ينهدم إلا بترك العمل به، والعمل بما ينافيه"(٢).

والتحذير يشمل أمورًا منها:

١-مجالستهم.

٢-مجادلتهم.

٣-الاستماع إليهم.

٤-مصاهرتهم(٣).

٥-مؤاخاتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع

---

(١) "شرح السنة" (١/ ٢٢٧).

(٢) الاعتصام (١/ ٨٥).

(٣) عن ابن سيرين قال: "تزوج عمران بن حطان خارجية وقال سأردها قال فصرفته إلى مذهبها". سير أعلام النبلاء: (٤/ ٢١٣).

أهل طاعة الله تعالى على مراد الله"[(١)]

وعَنْ هِشَامٍ، قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ وَمُحَمَّدٌ يَقُولَانِ: "لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، وَلَا تُجَادِلُوهُمْ، وَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ"[(٢)].

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: يَكُونُ مَجْلِسُكَ مَعَ الْمَسَاكِينِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْلِسَ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ"[(٣)].

وعن سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَدَّتِي أَسْمَاءَ تُحَدِّثُ قَالَتْ: دَخَلَ رَجُلَانِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ مِن أَهْلِ الْأَهْوَاءِ فَقَالَا: يَا أَبَا بَكْرٍ نُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ قَالَ: لا، قَالَا: فَنَقْرَأُ عَلَيْكَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ قَالَ: لَا، لِتَقُومَانِ عَنِّي، أَوْ لَأَقُومَنَّ"[(٤)].

وعن سَلَّامُ بْنُ أَبِي مُطِيعٍ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ قَالَ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَسْأَلُكَ عَنْ كَلِمَةٍ، قَالَ أَيُّوبُ وَجَعَلَ يُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ: وَلَا نِصْفَ كَلِمَة، وَلَا نِصْفَ كَلِمَةٍ"[(٥)].

قَالَ مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ: لَا تُمَكِّنْ صَاحِبَ بِدْعَةٍ مِنْ سَمْعِكَ فَيَصُبُّ، فِيهَا مَا لَا تَقْدِرُ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ قَلْبِكَ"[(٦)].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: "من سمع مبتدعاً لم ينفعه الله بما سمع، ومن صافحه فقد

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٢٧).

(٢) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٠٠).

(٣) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٥٧).

(٤) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٠٣).

(٥) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٠٧).

(٦) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٤١).

نقض الإسلام عروةً عروةً" [(١)].

قال الإمام مالك: "وكان يقال لا تُمكن زائغ القلب من أذنيك فإنك ما تدري ما يعلمك من ذلك"[(٢)].

"والهجر الشرعي نوعان:

أحدهما: بمعنى الترك للمنكرات.

والثاني: بمعنى العقوبة عليها.

فالنوع الأول: هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]،.. فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة مثل قوم يشربون الخمر يجلس عندهم، وقوم دعوا إلى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم، وأمثال ذلك...

النوع الثاني: الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات، يهجر حتى يتوب منها، كما هجر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر"[(٣)].

والتحذير من المجالسة والاستماع لأهل البدع والأهواء فجاء لأسباب منها:

أولًا: أن المجالسة قد تكون سببًا للدخول في بدع أهل الأهواء وضلالاتهم.

لأنه في مقابل كل بدعة تهدم سنة، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام أيضاً: "من أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشِّرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا، فإن البدع هي مبادئ الكفر ومظان الكفر، كما أن السنن المشروعة هي

---

(١) الأمر بالاتباع، للسيوطي، (ص: ١٩).

(٢) الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد القيرواني (١/ ١١٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٠).

مظاهر الإيمان، ومقوية للإيمان، فإنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"[١].

ثانيًا: وأنها سبب لدخول الشبه والشكوك.

فعَنْ أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ: "لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ، أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا تَعْرِفُونَ"[٢].

وعَنْ عَمْرِو ابْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كَانَ يُقَالُ: "لَا تُجَالِسْ صَاحِبَ زَيْغٍ، فَيُزِيغَ قَلْبَكَ"[٣].

ثالثًا: أنها ممرضة للقلوب.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "لَا تُجَالِسْ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مُمْرِضَةٌ لِلْقُلُوبِ"[٤].

وعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: "لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مُمْرِضَةٌ لِلْقُلُوبِ"[٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الشرائع أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث"[٦].

رابعًا: أن في ذلك مساواة بين الحق والباطل.

قِيلَ لِلْأَوْزَاعِيِّ: إِنَّ رَجُلًا يَقُولُ: أَنَا أُجَالِسُ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَأُجَالِسُ أَهْلَ الْبِدَعِ، فَقَالَ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٦٥).

(٢) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٣٦٩).

(٣) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٣٧١).

(٤) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٣٧٦).

(٥) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٣٧٨).

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٨١).

الْأَوْزَاعِيُّ: "هَذَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُسَاوِيَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ"(١).

خامسًا: أن المجالسة تدل على المجانسة.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (المرء مع من أحب).(٢)

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (المرء على دين خليله).(٣)

وعن يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ الْقَطَّانَ، يَقُولُ لَمَّا قَدِمَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْبَصْرَةَ: جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى أَمْرِ الرَّبِيعِ يَعْنِي ابْنَ صُبَيْحٍ، وَقَدْرُهُ عِنْدَ النَّاسِ، سَأَلَ: أَيُّ شَيْءٍ مَذْهَبُهُ؟ قَالُوا: مَا مَذْهَبُهُ إِلَّا السُّنَّةُ قَالَ: مَنْ بِطَانَتُهُ؟ قَالُوا: أَهْلُ الْقَدَرِ قَالَ: هُوَ قَدَرِيٌّ"(٤).

وقال الْفُضَيْلَ ابْنَ عِيَاضٍ: "الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ سُنَّةٍ يُمَالِي صَاحِبَ بِدْعَةٍ إِلَّا مِنَ النِّفَاقِ"(٥).

قال الخطابي -رحمه الله- في شرح سنن أبي داود عند شرحه لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي).(٦) وإنما حذر من صحبة من ليس بتقي

---

(١) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري حديث (٦١٦٨)، ومسلم حديث (٢٦٤٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد حديث (٨٠٢٨)، وأبو داود حديث: (٤٨٣٣)، والترمذي حديث: (٢٣٧٨).

(٤) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٢٦).

(٥) "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٣٤).

(٦) رواه الترمذي في كتاب الزهد من سننه، باب ما جاء في صحبة المؤمنين (٤/ ٦٠٠) (٢٣٩٥)، وقال: "هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه"، ورواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣١٤)، والإمام أحمد (٣/ ٣٨)، وأبو داود في سننه (٤/ ٢٥٩)، والدارمي =

وزجر عن مخالطته ومؤاكلته فإن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب يقول: لا تؤالف من ليس من أهل التقوى والورع ولا تتخذه جليساً تطاعمه وتنادمه". اهـ[١]

وقال في شـــرح حديث (الأرواح جنود مجندة)[٢]: يقول-صـــلى الله عليه وســـلم-: "إن الأجسـاد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا فتأتلف وتختلف على حسـب ما جعلت عليه من التشـاكل أو التنافر في بدء الخلقة ولذلك ترى البَر الخير يحب شـكله ويحن إلى قربه وينفر عن ضده، وكذلك الرَّهِق الفاجر يألف شِكله ويستحسن فعله وينحرف عن ضده". اهـ[٣]

وهذا هو الأصـــل في التعامل مع أهل البدع ولكن الهجر له ضـــوابطه الشـــرعية المبنية على رعاية المصـالح ودرء المفاسـد، وهذا مما يختلف باختلاف البدعة نفسـها، واختلاف مبتدعها، واختلاف أحوال الهاجرين، واختلاف المكان والقوة والضـــعف، والقلة والكثرة، فلا بد من مراعاة كل هذا.

فمن الأمور التي يجب مراعاتها في أمر الهجر:

الأمر الأول: مراعاة حال الهاجرين

ومن ذلك ما ذكره شـــيخ الإســـلام ابن تيمية حيث قال: "وهذا الهجر يختلف باختلاف الهـاجرين في قوتهم وضـــعفهم وقلتهم وكثرتهم فإن المقصـــود بـه-يعني الهجر-زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصـــلحة في ذلك راجحة بحيث يفضـــي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر؛ بل يكون التأليف لبعض النـاس أنفع من الهجر، والهجر لبعض النـاس أنفع من التأليف...

(٢/ ١٤٠)، والحاكم وصـــححه في المســـتدرك (٤/ ١٤٣)، والطبراني في الأوســـط (٣/ ٢٧٧)، وأبو يعلى في مســـنده (٢/ ٤٨٤)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٢)، والمزي في تهذيب الكمال (١٠/ ١٧١)، وغيرهم.

(١) معالم السنن (٤/ ١١٥).

(٢) صحيح البخاري: (٣٣٣٦)، صحيح مسلم: (٢٦٣٨).

(٣) معالم السنن (٤/ ١١٥).

وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل، ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع -كما كثر القدَر في البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة- وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه"(١)

الأمر الثاني: التفريق بين من يدعو لبدعته وبين من لا يدعو لبدعته.

فيستثنى في أمر المجالسة والاستماع عند بعض العلماء ما لو كان ذلك الشخص لديه بعض العلم الصحيح ولم يكن في ذات الوقت داعيًا لبدعته.

قال الذهبي: "وعن الحسن بن الربيع قال: كنا نسمع من عبد الوارث، فإذا أقيمت الصلاة ذهبنا، فلم نصل خلفه.

قال: وقيل لعبد الله بن المبارك: كيف رويت عن عبد الوارث، وتركت عمرو بن عبيد؟ قال: إن عمرًا كان داعيا. ومع هذا، فحديثه في الكتب الستة"(٢)

وأما إذا كان داعيا لبدعته فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "إنّ الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم"(٣)

الأمر الثالث: أن بعض أهل البدع قد يحمد من وجه ويذم من وجه.

فلكل أحد حسناته وسيئاته كما قرره شيخ الإسلام ابن تيميّة-رحمه الله-في قوله: "إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة ومعصية، سنة وبدعة، استحق من الموالاة بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بقدر ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا ومن هذا، كاللص الفقير نقطع يده لسرقته، ويُعطى من بيت المال ما يكفي حاجته، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنّة

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٠١ -٣٠٤).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٨/ ٢٠٥).

والجماعة"[١].

وقال ابن تيمية–رحمه الله–: "ومن سـلك طريق الاعتدال عظم من يسـتحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقـه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجـل الواحـد تكون لـه حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم"[٢].

وقال شارح الطحاوية: "والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، والحب والبغض، فيكون محبوبا من وجه مبغوضا من وجه، والحكم للغالب"[٣].

الأمر الرابع: أن أنواع الهجر ثلاثة:

الأول: الهجر ديانـة، أي: الهجر لحق الله تعـالى، وهو من عمـل أهـل التقوى، في هجر السيئة، وهجر فاعلها، مبتدعًا أو عاصيًا.

وهذا النوع من الهجر على قسمين:

القسم الأول: هجر ترك: بمعنى هجر السيئات، وهجر قرناء السوء الذين تضره صحبتهم إلا لحاجة أو مصـــلحة راجحة، قال الله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: الآية: ٥]، وقال ســبحانه: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: الآية: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: الآية: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٨/ ٢٠٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٤٣).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: (٢/ ٥٤٧).

يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: الآية: ١٤٠]، وفي الحديث أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (المهاجر من هجر ما نهى الله عنه).(١)

القسم الثاني: هجر تعزير: وهذا من العقوبات الشرعية التبصيرية التي يوقعها المسلم على المبتدعة على وجه التأديب، في دائرة الضوابط الشرعية للهجر حتى يتوب المبتدع ويفيء.

وهذا النوع بقسميه من أصول الاعتقاد، والأمر فيه أمر إيجاب في أصل الشرع، ومباحثه في كتب السنن والتوحيد والاعتقاد وغيرها.

النوع الثاني: الهجر لاستصلاح أمر دنيوي، أي الهجر لحق العبد، وفيه جاءت أحاديث الهجر بما دون ثلاث ليال، رواها جماعة من الصحابة-رضي الله عنهم-بأسانيد في الصحيحين وغيرها، وجميعها تفيد أن الشرع لم يرخص بهذا النوع من الهجر بين المسلمين إلا بما دون ثلاث ليال. وليس هو مجال حديثنا.

النوع الثالث: الهجر قضاء، وهو من العقوبات التعزيرية للمعتدين، وهذا يبحثه الفقهاء في باب التعزير.(٢)

وأما المجادلة والمناظرة لأهل البدع:

فإن الأصل كما تقدم عدم مجادلتهم ومناظرتهم لكن هذا الأصل له استثناء حيث ورد عن السلف أنهم ناظروا أهل البدع والأهواء، وفي شأن هذا الأمر يفصل الأمر لنا شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: "ولعل الراجح في المسألة أن الأمر يختلف باختلاف المِصْلَحَةِ.

١-فإن كان الخصم في مقام دعوة الناس إلى قوله وإلزام الناس بها أمكن أن يقال له: لا يجب على أحد أن يجيب داعياً إلا إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا له دعوة الناس

---

(١) أخرجه البخاري (١٠) واللفظ له، ومسلم (٤٠) مختصرًا.

(٢) من رسالة (هجر المبتدع)، بتصرف.

إلى ذلك، ولو قدر أن ذلك المعنى حق.

وهذه الطريق تكون أصـــلح إذا لَبَّسَ مُلَبِّسٌ منهم على ولاة الأمور، وأدخلوه في بدعتهم، كما فعلت الجهمية بمن لبسوا عليه من الخلفاء حتى أدخلوه في بدعتهم من القول بخلق القرآن وغير ذلك، فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال: إئتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة.

وهذا لأن الناس لا يفصـــل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من الســـماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل، وهؤلاء المختلفون يدعي أحدهم أن العقل أدَّاه إلى علم ضـــروري ينازعه فيه الآخر، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلا الكتاب والسنة.

وبهذا ناظر الإمام أحمد الجهمية لما دعوه إلى المحنة، وصـــار يطالبهم بدلالة الكتاب والســـنة على قولهم.

فلما ذكروا حججهم كقوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَـــيْءٍ﴾ [الأنعام ١٠٢]، وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء ٢]، وقول النبي صـــلى الله عليه وســـلم: "تجيء البقرة وآل عمران"، وأمثال ذلك من الأحاديث.

أجابهم عن هذه الحجج بما بين به أنها لا تدل على مطلوبهم.

ولما قالوا: ما تقول في القرآن أهو الله أو غير الله؟ عارضـهم بالعلم فقال: ما تقولون في العلم أهو الله أو غير الله؟ ولما ناظره أبو عيســـى محمد بن عيســـى برغوث-وكان من أحذقهم بالكلام-ألزمه التجسيم، وأنه إذا أثبت لله كلاماً غير مخلوق لزم أن يكون جسماً.

فأجابه الإمام أحمد: بأن هذا اللفظ لا يُدرى مقصود المتكلم به، وليس له أصل في الكتاب والسنة والإجماع، فليس لأحد أن يلزم الناس أن ينطقوا به ولا بمدلوله.

وأخبره أني أقول: هو أحد، صـــمد، لم يلد ولم يلد، ولم يكن له كفواً أحد، فبين أني لا أقول هو جسم ولا ليس بجسم، لأن كلا الأمرين بدعة محدثة في الإسلام، فليست هذه من الحجج الشرعية التي يجب على الناس إجابة من دعا إلى موجبها، فإن الناس إنما عليهم إجابة الرسول فيما دعاهم إليه وإجابة من دعاهم إليه رســـول الله-صـــلى الله عليه وســـلم-، لا إجابة من

دعاهم إلى قول مبتدع، ومقصود المتكلم بها مجمل لا يُعرف إلا بعد الاستفصال والاستفسار، فلا هي معروفة في الشرع، ولا معروفة بالعقل إن لم يستفسر المتكلم بها.

فهذه المناظرة ونحوها هي التي تصلح إذا كان المناظر داعياً.

٢-وأما إذا كان المناظر معارضاً للشرع بما يذكره، أو ممن لا يمكن أن يرد إلى الشريعة.

مثل من لا يلتزم الإسلام ويدعو الناس إلى ما يزعمه من العقليات أو ممن يدَّعي أن الشرع خاطب الجمهور، وأن المعقول الصريح يدل على باطن يخالف الشرع، ونحو ذلك.

أو كان الرجل ممن عرضت له شبهة من كلام هؤلاء.

فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من الكلام على المعاني التي يدعونها إما:

١-بألفاظهم.

٢-وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم.

وحينئذ يقال لهم الكلام إما:

أ-أن يكون في الألفاظ.

ب-وإما أن يكون في المعاني.

جـ-وإما أن يكون فيهما.

فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع بل يسميه علة وعاشقًا ومعشوقًا ونحو ذلك.

فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسناً.

وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم، فبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ. كما لو جاء جيش كفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم، فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفاً من التشبه بهم في الثياب.

وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشريعة.

فإنه يقال له: إطلاق هذه الألفاظ نفياً وإثباتاً بدعة، وفي كل منها تلبيس وإيهام، فلابد

من الاستفسار والاستفصال؛ أو الامتناع عن إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات.

وقد ظن طائفة من الناس أن ذم السلف والأئمة للكلام إنما لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المحدثة كلفظ (الجوهر) و(الجسـم) و(العرض)، وقالوا: إن مثل هذا لا يقتضـي الذم، كما لو أحدث الناس آنية يحتاجون إليها، أو ســلاحاً يحتاجون إليه لمقاتلة العدو، وقد ذكر هذا صاحب الإحياء وغيره.

وليس الأمر كذلك: بل ذمهم للكلام لفساد معناه أعظم من ذمهم لحدوث الألفاظ، فذموه لاشـتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسـنة، ومخالفته للعقل الصـريح، ولكن علامة بطلانها مخالفتها للكتاب والســنة، وكل ما خالف الكتاب والســنة فهو باطل قطعاً. ثم من الناس من يعلم بطلانه بعقله، ومنهم من لا يعلم ذلك.

وأيضـــاً: فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئاً، وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشـتراك الأسماء، وفي ذلك من فساد العقل والدين ما لا يعلمه إلا الله.

فإذا رد الناس ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة فالمعاني الصحيحة ثابتة فيهما، والمحق يمكنه بيان ما يقوله من الحق بالكتاب والسنة.[١]

وقال ابن عثيمين: "المجادلة والمناظرة نوعان:

النوع الأول: مجادلة مماراة: يماري بذلك السـفهاء، ويجاري العلماء، ويريد أن ينتصـر قوله؛ فهذه مذمومة.

النوع الثاني: مجادلة لإثبات الحق وإن كان عليه؛ فهذه محمودة مأمور بها.[٢]

وقال الكرماني: "الجدال: هو الخصـام، ومنه قبيح وحسـن وأحسـن؛ فما كان للفرائض فهو

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٨-٢٣٣).

(٢) العلم (ص: ١٦٤).

أحسن، وما كان للمستحبات فهو حسن، وما كان لغير ذلك فهو قبيح"[١].

فهذه الخصومات وهذا الجدل وهذا المِـراء أمرٌ محدَث لا يُوجِد إلا الشك في القلوب ويبعِد عن الحق، ومهما حصل من نفع منه في بعض الأحيان، فهو يسير لكن شره وفير، وقد يقول هؤلاء: نحن نخاصم به أهل الباطل، الذي لا يؤمن بالقرآن والسنَّة، وهذه حجة باطلة فهؤلاء لا الإسلام نصروا ولا الباطل كسروا، فالقرآن، خاطب الكفار وخاطب المشركين وخاطب أهل الكتاب، خاطبهم بقال الله وقال الرسول، وفيه من الحجج والبراهين ما يكفي لبيان الحق ودفع الباطل، ففي القرآن والسنَّة من الأدلة العقلية واليقينية ما يغني ويشفي ولسنا بحاجة إلى فلسفةٍ ولا إلى علم كلام.

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣١٤).



الفهرس